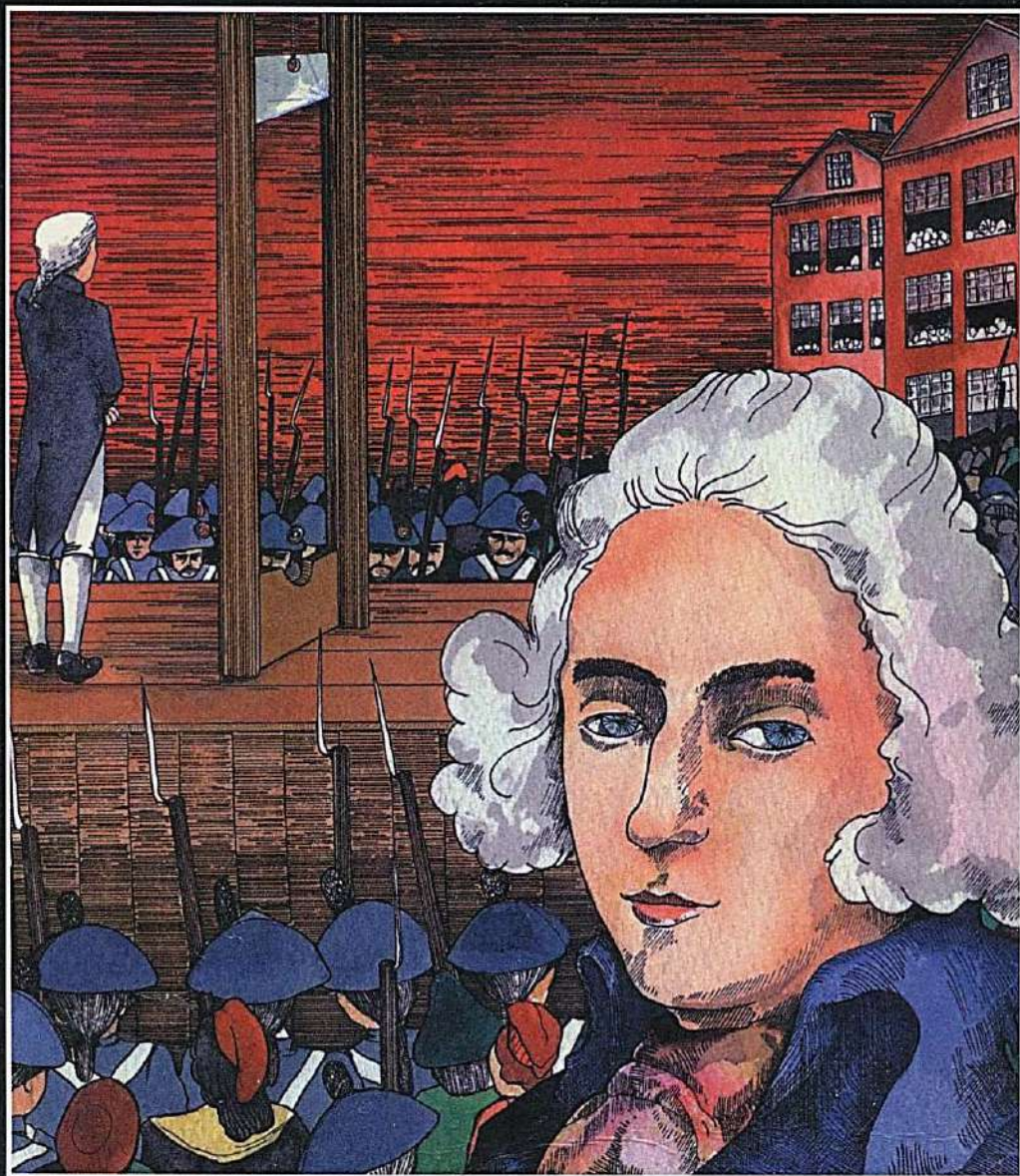


إعترافات جان جاك روسو

تأليف الكاتب الفرنسي

جان جاك روسو



إعترافات جان جاك روسو

تأليف
جان جاك روسو

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

فاكس : 00 961 1 790 223

تلفون : 00 961 1 803 674

E-mail : darbachir@terra.net.lb

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الترجمة والتأليف وغيرها محفوظة لشركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. وذلك بموجب الإقرار والتنازل الموثق لدى وزارة العدل - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق - مكتب شمال القاهرة - توثيق مصر الجديدة - جمهورية مصر العربية - تحت رقم ١٦١٩ لسنة ١٩٩٨ .
ولا يحق لأي كان نشر أي قسم أو جزء من هذا الكتاب أو من مطبوعات كتابي أو كتابي أو أي كتاب يحمل إسم الكاتب / حلمي مراد وبإية وسيلة كانت ... إلا بعد أخذ موافقة خطية من (شركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.)
طبع هذا الكتاب بإذن خاص من شركة دار ميوزيك

الإسم الأصلي للكتاب

LES CONFESSIONS DE J.J. ROUSSEAU

إسم المؤلف

Jean Jacques ROUSSEAU

حلم .. طالما تمنيت تحقيقه !

مزيزي القارئ ..

- بصُدور هذه الترجمة الكاملة (لإعترافات) "جان چاك روسو" يتحقق حلم من أضخم الأحلام الأدبية التي راودتني منذ عَشِيتُ الأدب، وأدركتني حُرْفَتُهُ ... وبتَجَسُّم هدف من أعز الأهداف التي أغرَّتني بإصدار سِلْسَلَة (مطبوعات كتابي) منذ زمن قريب .

ولَينْ كانت هَذِهِ المطبوعاتُ قد تَمَكَّنْتُ من أن تَبْلُغَ هذا الهدفَ في مُثُلِ هذا الزمن القصير، بعد أن ظَلْتُ (إعترافات) "روسو" منبِعة "مُسْتَعَصِيَة" على النُشْر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين، تُرْجِمَتْ خِلَالَهُمَا إِلَى جَمِيع اللغات الحَيَّة، ما عدا لُغَتَنَا العربية ... ! فإن هَذِهِ السِّلْسَلَة ما كانت لَتُحَقِّقَ هذا الهدف من أهدافها لو لم تَتَلَقَّهَا أَنْت وتَتَمَعَّدُهَا مِنْذُ وَلَدْتُ دَت برعايتك وإِعْزَازِكَ اللَّذِينَ مَكَّنَّاها من تذليل جميع الصَّعَاب التي تعترض طريقها ، والسَّير قُدَّما نحو غايتها .

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبي الخالد الذي تُوافيك به (مطبوعات كتابي) اليوم فإليك ما كتبه عنه المفكر المُطَّلِع الأستاذ "سلامه موسى" في عدد ١٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٥٥ من جريدة "أخبار اليوم" .. إذ قال : "وإعترافات "جان چاك روسو" من الكتب التي كان يجب أن تُترجمَ إلى لُغَتِنَا قَبْل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. فلقد تَغَيَّرَتْ "أوروبَّا" بتأثير أفكار هذا الأديب، ونستطيع أن نَعزُو أهمَّ التَطَوُّرات التي حدثت في هذه القارة إلى آرائه التي يتلخَّص مَفْزَاهَا في كلمات معدودة، هي :

" أن الطبيعة حسنة، والإنسان طيب ولكنهما يَفْسُدَان بالمجتمع السيئ .. فما أَخْرَجْنَا في البلاد العربية إلى هذه الحِمَاثِر !

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ "عبد الرحمن صدقي" في مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ شباط (فبراير) عام ١٩٣٩ يقول : "انقضى نَيْفُ ومائة وستون سنة على وفاة "روسو"، وانصرف الأدباء وَجْهَةً القراء عن مطالعة (العقد الاجتماعي) و (إميل) و (هيلويس الجديدة) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة (إعترافات) ؛ ذلك أن الآراء في السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل، أما نَجْوَى النفس البشرية فهي لا تتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرَّف فيما نحسه في أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكُم بالحرى إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب (الاعترافات) ، أقرب إلى عصرنا بثقافته، وإن كان أشبه بأهل الفطرة في صراحته ، وجرأته ١٩" .

والواقع أن هذه (الاعترافات) التي تقدم "مطبوعات كتابي" إليك اليوم أول ترجمة أمينة كاملة لها باللغة العربية، والتي تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة في الأدب "الكلاسيكي" ، هي أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقري "جان چاك روسو" ، في الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من أهم المِيزَات التي كَتَبَتْ الخلود لهذه (الاعترافات) أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فَيُظْهِرُها على حقيقتها الكاملة دون أي زَيْفٍ أو تَسْتٍ .. فقد سجل "روسو" في هذا الكتاب أدقَّ أحداث حياته - خيرها وشرها، طيبها وخبيثها- دون أن يَجْفُلَ من مواجهة الحقيقة، وكأنه مؤمن صادق التوبة يُصَارِحُ إلهه بأخطائه بُرْهَانًا على صدق توبته ، والتماسا

لصفحه .

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذي ابتغاه "جان جاك روسو" ، من وراء تسجيل اعترافاته ؟
قد نجد الجواب عن هذا السؤال في مؤلفاته التي سبقت (الاعترافات) وفي كتاب (إميل)
بالذات .. فلقد أورد "روسو" في هذا الكتاب ، وفي بعض مؤلفاته السابقة ، صُوراً من حياته ، ومن
الشخصيات التي صادفته وأثّرت فيه .. ولكنه كان يَسُدُّ عليها سِتْرًا من الزَّيفِ و"الرتوش" ، شأن كل
كاتب وأديب ، حين تُوحى إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تُنسَب على طرف قلمه أثناء
الكتابة فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التي تُبَاعِد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية
في نظر القارئ !

ولكن "روسو" كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى أكثر من مجرد رسم شخصيات ، أو
افتعال أحداث . كان يسعى إلى أن يُقدِّم تجاربه للناس ، سيما في ميدان التربية ورعاية النشء . فلما
وأثَّرت الجرأة ، نزع سِتْر الزيف والتضليل ، وساق الحديث صريحاً واضحاً ، واعترف بالسرقة والانحراف
- مثلاً - لِنَبِّه الأبناء إلى العوامل التي قد تدفع بالأبناء بعيداً عن جادة الصواب .. ولِنُبِّه المجتمع إلى
الأشياء التي تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء .

وهذا ما نلمسه واضحاً في بعض مواضع من (الاعترافات) : فهو يقول تعليقاً على معاملة أبيه
لاخيه الأكبر : "كان من جرّاء الحنان الضَّائِفِي الذي أسبغهُ أبي عليّ أن أهمل هذا الأخ .. وتأثرت تربية
أخي بهذا الإهمال ؛ فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور" إلخ
.. ويبيّن - في سياق حديثه عن المدة التي قضاها في تعلم حرّقة الحفر على المعادن - كيف أن
مُخَالَطَةَ الصغار لزملاء يَكْبُرُونهم سناً ، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة يدفعهم إلى الخضوع لما يوحى به
إليهم هؤلاء الكبار . إذ تُعوِّد "جان" الصغير السرقة بإيمّاز من زميل له !
كل هذه الصور توحى بأن (الاعترافات) لم تكن - في غايتها - سوى دروس اجتماعية وتربوية .

الاضطهادات تلاحقه في

كل مكان !

- ولقد تناولت (الاعترافات) حياة "روسو" حتى سنة ١٧٦٥ . ومن الطريف أنه بدأ في وضعها
عندما هاجر إلى "إنجلترا" . فإن بعض كتبه السابقة (إميل) و (العقد الاجتماعي) و (هيلويز
الجديدة) - تضمنت من الآراء والمهاجَمَات ما أثار غضب حكومة "فرنسا" ، ورجال الكنيسة ، وأنصار
المدارس الفلسفية في "فرنسا" و "هولندا" و "جنيف" ، حتى لقد أحرقت كتبه علناً في بعض البلدان ،
واضطُرَّ إلى أن يهرب من "فرنسا" إلى جمهورية "بيسن" ، ولكن مجلس شيوخها أمره
بمبارحتها ، ورحل إلى "مورتيير" بمقاطعة "نيوشاتل" - وكانت تحت حكم "فردريك الثاني
البروسي" ..

على أن "روسو" ما لبث أن أصدر كتاب (خطابات الجليل) ؛ فإذا الضجة التي أحدثها هذا
الكتاب تضطّره إلى الرحيل إلى جزيرة "سان بيير" في بحيرة "بيين" .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية
"بيرن" عاد فأمره بمبارحة هذه الجزيرة التي كانت تابعة للجمهورية !

وكان "روسو" قد تلقى دعوة من صديق إنجليزي، فسافر إلى "إنجلترا" .. ووصل إلى هناك في كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٦٦، فمكث شهرين في "لندن"، ثم انتقل إلى الريف في "وتون" بـ "سترواد فورد شاير" حيث وضع الكراسيات الست الأولى من (الاعترافات)، وتصادف أن نشرت الصحف في تلك الاثناء خطابا بتوقيع ملك "بروسيا"، يَطْعُنُ في اخلاق "روسو"، فظن هذا بمضيفيه وأصدقائه في "إنجلترا" الظنون، وتَزَحَّ في أيار (مايو) سنة ١٧٦٧ إلى "أميين"، حيث نزل بقلعة "تواي" التي كانت ملكا للامير "دي كونتي"، فاقام بها رَدَحًا تحت اسم "رينو" ..!

وهناك استأنف كتابة (الاعترافات). ثم رحل إلى "جريتوبل"، فما لبث أن ملها وسثم أهلها، من ثم رحل إلى "بورجوان"، بيد أن جوها لم يلائم صحته، فانتقل في سنة ١٧٦٩ إلى "مونكان"، حيث أتم الكراسية العاشرة من اعترافاته .. وما لبث "روسو" أن عاد إلى "باريس"، حيث سُمِحَ له بالإقامة، على شريطة ألا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين.

فانصرف إلى نقل "النوتات" الموسيقية، وإلى الاختلاط بعِلَّةِ القوم. حتى إذا كان شهر أيار (مايو) سنة ١٧٧٨، نقل الكاتب الفيلسوف - الذي كان قد بلغ السادسة والستين من عمره - إلى كوخ في "ارمونفيل" يمتلكه الكونت "جيراردان" .. وهناك، تُوَفِّيَ فجأة في ٣ تموز (يوليو) من ذلك العام. وقد ذهب فريق من الناس - ومنهم مدام "دي ستايل" - إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات في تَوْبَةٍ صَرَخَ.

الطبعة التي ترجمنا منها

الاعترافات

- ولقد كان من عادة "روسو" أن يُشْرِفَ بنفسه على إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه. على أنه كان يتدخل في الطبوعات التي تصدر بعد ذلك فيُضَيِّفُ إليها بعض الملاحظات، دون أن يحذف أو يغير شيئا من موادها.

ولقد تولى ثلاثة من أقرب خُلَصَائِهِ - هم "دوبيرو" و"مولتون" الجنييفي ومركز "جيراردان" - فحص مخطوطاته بعد موته، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم صَصَدَد (الاعترافات) إلى إصدار طبعة منها في "جنييف" في سنة ١٧٨٢ على أن "دوبيرو" لم يَرْضَ عن التعديلات التي أَدْخَلَتْ على الكراسيات الست؛ فأصدر بنفسه طبعة أخرى، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق، لاسيما رسائل "روسو".

وفي سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من (الاعترافات) أخذت عن أصول قدمتها مدام "روسو"، ولا تزال محفوظة في البرلمان الفرنسي .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبوعات الثلاث وبين الأخرى، لا يحدو مجرد تعديلات بسيطة في بعض العبارات، وليس في الوقائع.

والترجمة التي تُقَدِّمُها لك "مطبوعات كتابي" اليوم أخذت عن طبعة أصدرتها دار "لوليفر" في سنة ١٨٥٩، بعد دراسة الطبوعات الثلاث وتحقيقها، ومن ثم فهي تُعْتَبَرُ أدقَّ طبعة صدرت من "اعترافات جان جاك روسو" .. وقد يُذَلُّ في نقلها إلى العربية كل جهد ممكن للمحافظة على النص

والروح بأمانة تامة ، لم يشُبها أي اختصار ، أو حذف ، أو تحوير . . بل لقد بُذلتُ عناية فائقة لجعل التعبير والأسلوب أقرب ما يكونان إلى النص الذي كتبه الأديب العبقري ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية . .

وأخيرا ، فأملني أن تكون "مطبوعات كتابي" بنقلها هذا التراث الإنساني الخالد إلى لغتنا قد ساهمت في تزويد المكتبة العربية بآثر شامخ من شوامخ الأعمال الأدبية الباقية على الزمن . .
وبهذه المناسبة ؛ أَحْسِبُكَ تُقَرِّئُني على أنه لم يكن من الممكن نشر كتاب بلغ الألف صفحة تقريبا ، في جزء واحد من "مطبوعات كتابي" ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هذه (الاعترافات) في خمسة أجزاء متتابعة ، أولها هذا الجزء الذي بين يديك . .

والى اللقاء على صفحات الجزء الثاني من هذه الاعترافات .
والله ولي التوفيق
حلمي مراد

الكرامة الأولى

١ - من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إنني مُقَدِّم على مشروع لم يسبقه مثيل، ولن يكون له نظير؛ إذ إنني أتبعني أن أعرض على أقراني إنساناً في أصدق صور طبيعته.. وهذا الإنسان هو: أنا... أنا وحدي... فإني أعرف مشاعر قلبي، كذلك أعرف البشر! ولست أراني قد خلقت على شاكلة غيري من رأيت، بل إنني لأجرؤ على أن أعتقد بأنني لم أخلق على غرار أحد من في الوجود!.. وإذا لم أكن أفضل منهم فإني - على الأقل - أختلف عنهم!.. ولن يتسنى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلفت القالب الذي صاغته فيه إلا بعد قراءة هذه الاعترافات!

فإذا ما انطلقت آخر صحبات بوق البعث، عندما يُقدَّر له أن يُدَوِّي، فلسوف أمثلُ أمام الحاكم العادل وهذا الكتاب بين يدي، وسوف أقول في رباطة جأش: "هذا ما فعلت، وما فكرت، وما كنت.. لقد رَوَيْتُ في كتابي الطبِّ والحبيث على السواء، بصراحة، فلم أمح أي رديء، ولا أتخَلَّت زورا أي طيب، وإذا كنت قد استخدمت بعض التزييق الفارغ - بين وقت وآخر - فما ذلك إلا لأملا فراغا نشأ عن نقص في الذاكرة.. ولربما قطعت بصدق أمرا أعرف أنه "قد" يكون صحيحا ولكنني قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا.. لقد صورت نفسي على حقيقتها: في ضيعتها وزرأيتها.. وفي صلاحها، وخصاصة عقلها، وسُمُوها.. تبعا للحال التي كنت فيها!.. لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسي، كما كنت أنت تراها، أيها الخالد السرمدي.. فأجمع حولي الحشد الذي لأحضره من أبناء جنسي، ودعهم يُصنِّفون إلى اعترافاتي، فيرثون لحسنتي، ويخجلون لمثالي. ثم ادعُ كلا منهم إلى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة - أسرار فؤاده، عند قوائم عرشك، وليقل إن جرؤ: "لقد كنت خيرا من ذلك الرجل!"



ولدت في "جنيف"، في عام ١٧١٢ للمواطنين "إيزاك روسو" و"سوزان برنار"، وكان تقسيم ميراث أسرة أبي - على قلته - بين خمسة عشر ابنا وابنة، قد هبط بنصيب أبي إلى نذر لا يكاد يذكر، فلم تكن له وسيلة عيش سوى مهنته كـ "ساعاتي" - وكان في الحق جد بارع فيها - أما أمي فكانت أحسن منه حالا. كانت ابنة القس البروتستانتي "برنار"، وكانت ماهرة، جميلة، وقد وجد والدي عناء في الظفر بيدها، إذ بدأ حبهما منذ طفولتهما الباكورة، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء في طريق "تربي"، أبداع طرق "جنيف" فلما صارا في العاشرة، لم يعودا يفترقان. وعزز التعاطف والائتلاف الروحي ذلك الإحساس الذي خلقته الألفة بينهما.. ولم يكن كل منهما - وقد خلق مَرَهَفَ الحس رقيق الشعور - ليرجو سوى تلك اللحظة التي يتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يُخَالِجُه من إحساس.. أو - على الأصح - كانت تلك اللحظة ترتقيهما، فأسلم كل منهما قلبه للآخر في أول فرصة.. وكأني بالقدر - حين لاح أنه يُعَارِضُهُمَا - قد زادهما وجدا.. وإذا بالعاشق الشاب الذي عجز عن الظفر بحبيبتته - إذ أبى أهلها أن يزوجه

إياها- يذوب أسي وحزنا، فنصحته فئاته بالترحال ، وبأن يسعى لنسيانها ، فسافر ، ولكن .. دون جدوى ، إذ عاد مدللها أكثر من ذي قبل ! ووجد تلك التي أحبها لاتزال وفيه ، صادقة الحب ، فلم يبق لهما - بعد تلك التجربة التي اختبرا بها عاطفتها - إلا أن يظلا متحابين طيلة عمريهما .. فاقسما أن يفعلا ذلك، وباركت السماء تعاهدهما!

وحدث أن وقع "جاسبريل برنار" - شقيق أمي - في حب إحدى شقيقات أبي . فلم توافق على خطبته إلا على شريطة أن يتزوج أخوها من اخته ، وهكذا دبر الحب كل شيء ، وعقدت الزيجتان في يوم واحد ، فأصبح خالي زوج عمتي ، وقدر لأولادهما أن يكونوا أولاد عمومة وخوولة لي .. وفي نهاية العام الأول للزواج رزق كل من الفريقين بطفل، ثم نشئت شملهما . فقد كان خالي مهندسا ، فعُين في خدمة الإمبراطورية- في "البحر" - تحت إمرة الأمير - "يوجين" ، واستطاع أن يُبلي بلاء حسنا في معركة "بلجسراد" . أما أبي فقد رحل- بعد مولد أخي الأوحـد - إلى "القسطنطينية" ، حيث استدعي ليتولى منصب "ساعاتي السلطان" واستطاعت أمي - في غيابه - أن تكسب ولاء عدد كبير من المعجبين بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء المعجبين تهافتا مسيو "ديلاكلويزير" ، المندوب الفرنسي المقيم ، ولابد أن شغفه بها كان عارما ؛ فقد رأيته شديد التأثر وهو يحدثني عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما! على أن أمي كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حبا مبرحا . وقد راحت تلحف عليه في العودة؛ فترك كل شيء ورجع . وكنت الثمرة الثمينة لهذه العودة؛ إذ ولدت بعد عشرة أشهر، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمي حياتها ، وكان مولدي أول ما حاق بي من نحس وتعاسة ! ولم يقص على أحد قط كيف احتمل أبي هذا المصاب ، ولكنني أعرف أنه لم يتعز أبدا ، وكان يخال أنه يرى زوجته في شخصي ، دون أن يقوى على أن ينسى أنني الذي حرسته إياها !.. أبدا لم يحتضني دون أن ألاحظ - من تنهداته والاختلاجات التي كانت تعثره وهو يضمني إلى صدره- أن حسرة مريرة كانت تُخالط قبلاته ، فلا تزيدها إلا حنانا . وكان إذا قال لي : "لنتحدث عن أمك يا "جان چاك" أجبت : "حسنا ، لسوف نبكي إذن يا أبت!"

وكانت هذه العبارة وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف منهاها : "آه ..! ألا رُدّها إلي ..! كُنْ عزائي عن فقدّها ، وأملأ الفراغ الذي خلفته في نفسي ..! افتراني كنت أحبك هذا الحب كله لو أنك كنت مجرد ابن لي؟" .. وبعد أربعين عاما من مُصابه فيها مات بين ذراعي زوجة ثانية .. ولكن اسم الأولى كان على شفثيه ، وصورتها في قرارة فؤاده!

وهكذا كان الاثنان اللذان أو جدائي ، ولم يورثاني - من كل النعم التي أسبغتها عليهما السماء- سوى قلب رقيق مرهف الحس .. ولقد كان قلباهما متبعي سعادتهما ، أما قلبي فقد كان منيع كل شقوة في حياتي!



ولقد هبطت إلى الدنيا في حال تغرب من الموت، فلم يكن ثمة أمل يذكر في إنقاذ حياتي . وكنت أحمل في كياني بذور علة أخذت تقوى على مر الزمن ، ولا تبارحني في بعض الأوقات ، إلا

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فإن إياها الفس كان يحبها إلى درجة العشق ، وقد بذل في تعليمها وتربيتها عناية فائقة؛ ومن لم فإنها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود .. كما كانت كثيرة الأطلاع ، وكانت تنظم أشعارا لا بأس بها وقد حدث- أثناء غياب زوجها وأخيها - أن خرجت للزوجة مع زوجة أخيها، فصادفتا شخصا ذكرهما بالعالمين، وإذا هي تقول على الفور شعرا هذا معناه:

لنفسو في تعذبي بشكل آخر . وقد أولتني إحدى عماتي - وكانت شابة لطيفة فاضلة - من الرعاية ما أنقذ حياتي . وهي لاتزال حتى كتابة هذه السطور على قيد الحياة ، ولقد بلغت الثمانين من عمرها ، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سنا ولكن الإفراط في الشراب أثَّركَ قَواه .. إنني لاغفر لك ، يا عمتي العزيزة أن أبقيت على حياتي ، وما أعمق أسفي إذ أراني عاجزا عن أن أرد إليك - في أواخر أيامك - تلك الرعاية السَّابِغة التي أوليتها في أوائل أيامي (١) .. كذلك لاتزال مرضعتي العزيزة العجوز "جياكلين" على قيد الحياة ، موفرة الصحة والقوة ، وكأنني باليدين اللتين فَتَحَتَا عَيْنِي عند مولدي سَتَغْمِضَانِيَّما عند وفاتي !

ولقد تَنَبَّهَ إحساسي قبل أن يتنبه فكري .. وهو شيء يحدث لجميع البشر ، ولكنني كنت أكثر من سواي خبرة به وتجربة له .. ولست أدري ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة ، ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما أذكره ، أول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. وكانت أُمِّي قد خَلَفَتْ بعض قَصَص غرامية ، شَرَعْتُ في قراءتها مع أبي ، عقب العشاء ، في كل ليلة ، وكان القصد من ذلك - في البداية - مجرد تدريبي على القراءة ، بالاستعانة بالكتب المشوقة . وكان الشغف لم يلبث أن دب فينا ، فكنا نَتَنَاقَبُ القراءة دون توقف ، ونَتَفَقَّ لِيَالِي بأكملها في هذا العمل ، وكنا نَعِجُز عن التحول عن الكتاب حتى نَقْرُعَ منه ، وكان أبي يقول أحيانا في استحياء ، وهو يسمع العصفافير تشرع في الشقشقة مع مطلع النهار : " هيا بنا إلى الفراش .. كاني أنا الطفل ولست أنت ! " .

وبفضل هذا الأسلوب الخطر استطعت في أمد قصير أن اكتسب حَذَقًا بالغًا للقراءة والفهم .. ليس هذا فحسب بل إنني أحرزت أيضا دراية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل في سني ، فباتت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدي ، وإن لم أكن أدرك كُنْهَهَا .. كنت أحس بكل شيء ، دون أن أفقه كنهه أحاسيسي . فمن المؤكد أن هذه المشاعر المَهْوُوشَةُ المهمة - التي كنت أشعر بها واحدة بعد أخرى - لم تُؤَلَّفْ نسيجا قوي الإدراك لدي ؛ لأنني لم أكن أحظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنها ساعدت على تشكيلها في أعماقي على نسق خاص ، وأوحت إلي بأفكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تُبَرِّثَنِي تماما منها طيلة حياتي !

٢- من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٢

وفرغنا من الروايات في صيف سنة ١٧١٩ ، فإذا الشتاء التالي يوافينا بمادة تختلف عنها ؛ إذ إننا لم نكد نَسْتَفِدُ مكتبة أُمِّي حتى تحولنا إلى نصيبها - الذي آل إلينا - من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمة ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان - في الوقت ذاته - عالما ، على غرار ما كان مألوفاً في أيامه . كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التي آلت إلينا : "تاريخ الإمبراطورية والكنيسة" لـ"لوسبور" ، و"رسالة في تاريخ العالم" لـ"بوسويه" و"حياة مشاهير الرجال" لـ"بلوتارك" و"تاريخ البندقية" لـ"نافي" و"التطورات" و"الأصول" لـ"أوفيد" و"العوالم" و"حوار الموتى" لـ"فونتيل" ، وبعض مؤلفات "موليير" ..

(١) كانت هذه العمدة تدعى مدام "جونسيرو" . وقد رتب لها "روسو" - منذ مارس سنة ١٧٦٧ - معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه إليها دائما ، وفي سواطة دقيقة حتى في أشد أوقات ضيقه أو هذان السيدان الغاليان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحيينا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما ولدا طفلينا !

فنقلت كل هذه إلى غرفة أبي، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمله ، وكنت أستوعبها في استساعة نادرة، بل لعلها كانت قذة بالنسبة لعمرى ، وأصبح "بلوتارك" - بوجه خاص - هو أحب المؤلفين إلى نفسي، فابتراني الاستمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذي كان قد تملكني نحو الروايات ، وسرعان ما شغلت بباطاله، وبدأت أفضّل "إجيسلاوس" و"سروتس" و"ارستيدس" على "أورونداتيس" و"إرتامينس" و"جوبا" ، وقد أدى هذا الاطلاع المشوق والمحدثات التي كان يثيرها بيني وبين أبي إلى تولّد روح الحرية في نفسي .. تلك الروح الأبية، المنبئة ، التي لا تطيق العبودية أو الاسترقاق ، والتي عذبتني طوال حياتي ، في مواقف كانت بعيدة عن أن تُتيح لها مجالا .. وهكذا أصبحت افكاري في شغل لا ينقطع -"روما" و"أثينا" ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد اذكى حماسي أنني ولدت مواطنا في جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هي أشد عواطفه اتقادا ، فكنت إخال نفسي إغريقيا أو رومانيا- حسب شخصية العظيم الذي أقرأ سيرته - وكنت أذهب شخصيتي في شخصيته ، كما كان الإسهاب في ذكر صفات الجلد والبسالة - التي كانت تستهويني - يجعل عيني ثومضان ، وصوتي يقوى وقد حدث ذات يوم أن انطلقت أروي سيرة "سيكفولا" للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا فإذا بالجرع يتولاهم إذ راوني في غمرة التحمّس أنقدم فاضم قبضتي على "المشواة" .. "الشواية" - الساخنة ، لأصور عملا من أعمال البطل! وكان لي شقيق يكبرني بسبع سنوات ، يتلقى عن أبي حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضافي الذي أسبغه أبي علي، أن أهمل هذا الآخر ، وهي معاملة لا أقرها ولا أحبّها! .. وتأثرت تربية أخي بهذا الإهمال؛ فسلكت مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور. وقد عهد به أبي إلى معلم آخر ، فكان لا ينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى إنني نادرا ما رأيته وأكاد أقول إنني لم أكن أعرفه! على أنني لم أكف عن أن أحبه في شغف . أما هو فقد أحبني كما يحب الشريد أي شيء! .. وأذكر أن أبي عاقبه - في إحدى المناسبات بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسي بينهما، واحتضنته .

وبذلك حجبت جسمه بجسمي ، فتلقيت عنه الضربات التي كانت موجهة إليه! .. وظللت متشبها بهذا الوضع في عناد، حتى اضطرّ أبي في النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ، إما لأن صرخاتي ودموعي ألانت قلبه ، أو لأنه خشي أن يؤذيني أكثر مما كان يؤذي أخي . على أن حال هذا الأخ ما لبث أن ازدادت سوءا، ففر واختفى كل أثر له ، وسمعتا بعد ذلك بزمن أنه كان في "ألمانيا" ، بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الإطلاق ؛ ومن ثم صرت الأين الأوحدا لأبي!

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالإهمال إلا أن هذه لم تكن حال أخيه .. أنا! فما كان أبناء الملوك ليحظوا بأكثر من الرعاية التي حظيت بها في سني حياتي الأولى .. كنت أحظى بحب كل المحيطين بي .. على أن هذا الحب لم يجعل مني طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف في الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم، ولم ينح لي قط- إلى أن غادرت دار أبي- أن أجري في الطرقات مع سواي من الأطفال ، ولا أحتاج أحدا إلى أن يشجع أو يكبح في نفسي تلك النزوات الخيالية التي تعترض حياة الأطفال ، والتي تُعزى - خطأ- إلى الطبيعة، وهي في الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت أرتكب المآخذ المألوفة لدى أقراني في السن: فكنت ثرثارا ، نهما ، كذوبا في بعض الأحيان .. وربما كنت أسرق بعض الفاكهة ، أو الحلوى ، أو المأكولات .. ولكنني لم أتشد قط متعة في إيذاء الغير ، أو الإضرار بهم ، أو اتهامهم، أو في تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة ، وإن كنت أذكر أنني تسولت مرة في قدر أو وعاء لجارة لنا- تدعى مبدام "كلو" - بينما كانت في الكنيسة . وإنني لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن، بأن ذكرى هذا

الحادث تشير ضحكى .. فقد كانت مدام "كلو" أكثر الذين عرفتهم إمعانا في الشكوى ولجاجة في التذمر ، وبرغم أنها كانت طيبة عدا ذلك .. وهذه - بإيجاز وصدق - كبرى إساءاتي في الطفولة!



وكيف كان من الممكن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيناى لاتقمان إلا على أمثلة للطف والدمائة، ولم يكن يحيط بي سوى خير ناس في الدنيا؟ .. والحق أن أبى وعمتى ومربيتى وأقاربى وأصدقائى وجيرانى ، لم يكونوا يخضعون لرغباتى ولكنهم كانوا يحبونى ، وكنت أنا الآخر أحبهم ، وقليل ما كانت رغباتى تُشِير - أو تستحق - معارضة ، حتى لَيَحْطُرْ لى أننى لم تكن لى أية رغبات على الإطلاق! .. وبوسعى أن أقسم على أننى ما عرفت كنه النِّزوات أو الشُّطَط فى الهوى ، إلى أن قُدِّرْ لى أن أعمل فى خدمة معلم . وما عدا الاوقات التى كنت أقضيتها فى القراءة أو الكتابة - بصحبة أبى - أو التى كانت مربيتى تصحبنى فيها للنزهة .. ما عدا هذه الاوقات كنت دائما مع عمتى ، اجلس أو أقف إلى جوارها ، أرقبها وهي تطرز ، أو أصغى إليها وهي تغنى .. وكنت أَعْتَبُ بهذا ، ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمع اثرا عميقا ، بهيجا فى ذهني ، حتى إننى لأزال أمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا أزال أذكر لهجتها الحنون .. وبوسعى أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب ، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون أن أنسى الحصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغَيْها ، من شعرها الاسود ، على غرار ما كان شائعا فى ذلك العهد .

وإنى لاعتقد بأننى مدين لها بميلي - بل ولعى - بالموسيقى ، وهو الولع الذى لم يستكمل نموه فى نفسى إلا بعد ذلك بزمان طويل ، وكانت تعرف عددا من الألحان والأغاني الممتازة ، التى اعتادت أن تُرَدِّدَهَا بصوت جد رفيع رخيم! .. وقد كان الطرب الذى قُطِرَتْ عليه نفس هذه المرأة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوسواس والاكتئاب ، وكان السحر الذى يفرضه غناؤها على نفسى عظيما ، حتى إن بعض أغانيها بقيت على الدوام فى ذاكرتى .. بل إن كثيرا من أغانيها التى كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتى تَرْتَدُّ اليوم إلى ذهني - بعد أن فقدت هذه العممة ، وبعد أن تقدم بي العمر - مصحوبة بسحر لا قبل لى بوصفه ! أَقْبَصُ دِقْ أحد أننى وقد غَدَوْتُ شيخا مُخْرِفاً تَنْهَبُ الهوم والمشاغب أجد نفسى - فى بعض الاوقات - منخرطا فى البكاء كالطفل عندما أترنم بإحدى هذه الاغاني بصوت مُنَحْشَرٍ مهديم؟ .. بل إن إحدى هذه الاغاني عاودتني بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت على بعض كلماتها ، برغم كل جهد أبذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما أستطيع أن أذكره من بقيتها:

"لست أجزؤ يا "تيرسيس" على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار .

"فقد بدأ القوم يتحدثون عنا فى قريتنا!

".. راع ،... من خطر ، فالشوك دائما تحت الورد" (١)

وإنى لاتساءل : أين السحر المؤثر الذى يجده فؤادى فى هذه الاغنية؟ .. إنها نزوة واهمة لا أستطيع أن أفهمها ومع ذلك فمن المستحيل تماما أن أردد هذه الاغنية دون أن تقطع على دموعى الاسترسال فيها! ولقد اعزمت مرارا لأحصر لها أن أكتب إلى "باريس" متحررا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها ، على أننى أكاد أكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذى أشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى إذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الاغنية غير عمتى "موسن" المسكينة!



(١) لا تزال هذه الاغنية معروفة فى "باريس" وشائعة بين طبقات العمال فيها وهذه هي نعمة الكلام الناقص :
"القلب إذا ما إشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر" . "فالشوك دائما تحت الورد" .

وهكذا كانت مشاعري الأولى في بداية عهدي بالحياة .. وهكذا بدا يتكون ويتكشف في صدري ذلك القلب الأبوي الشفوق، وتلك الشخصية التي لاتلين ولاتتشنى برغم رقتها القريبة من الانوثة، والتي استطاعت خلال حياتي - بتذبذبها بين الحجل والجرأة، وبين الضعف والسيطرة على النفس - أن تجعلني متقبلاً، والتي تسببت في أن أصبحت التقوى والمتعة، واللهم والتعقل، تغلت من قبضتي على السواء ! ثم قطع على المضي في الحظوة بهذه التربية حادث كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك في حياتي : فقد اشتجر أبي مع "بوزباشي" في الجيش الفرنسي يدعى "جوتييه"، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبي، ولقد نرف أنف ذلك "الجوتييه" - الذي كان جباناً، وقحاً - أثناء الشجار، فأراد أن يثار لنفسه، واتهم أبي بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تشبث أبي - الذي أرادوا أن يلقوا به في السجن - بأن لابد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن، وفقاً للقانون، فلما عجز عن أن يحقق هذا أثر أن يهجر "جنيف"، وأن يتغيب نفسه من وطنه بقية حياته على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية، كما تراءى له !

وبقيت أنا في كنف خالي "برنار"، الذي كان في تلك الحفظة يعمل في إنشاء استحكامات "جنيف"، وكانت ابنته الكبرى قد ماتت، وبقي له ابن في مثل سني، فأوفدنا معا إلي "بوسي" لنقيم في رعاية القس البرونستانتني "لامبرسييه"، كي نتلقى - إلى جانب اللغة اللاتينية - كل تلك السُفاسف الداعية للأسف، والتي يمزج بها تحت اسم التربية والتعليم. وقد الأنت الستتان اللتان قضيتهما في القرية من خشونتي الرومانية بعض الشيء، وردتاني طفلاً من جديد، ففي "جنيف" كنت أهوى المطالعة والإطلاع، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة علي .. أما في "بوسي" فإن واجباتي جعلتني أحب الألعاب التي كانت تُتيح لي الفرار من تلك الواجبات، وكان الإقليم جديداً بالنسبة إلي، فلم يهنُ استمتاعي به، وقد تملكنتني عاطفة قوية نحوه، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التي قضيتها هناك تملأ نفسي حينما محسوراً إلى بهجتها، في كل فترات حياتي، حتى اليوم الذي قدر لي فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم ! ولقد كان مسيو "لامبرسييه" ليبيبا، ذكيا، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات، ولم يهمل في تعليمنا . ويكفي دليلاً على أن أسلوبه في التعليم كان جيداً، إنني برغم كراهيتي للقيود، لم أذكر مرة مؤيعات دراستي بامتعاض .. وإنني، حتى إذا كنت لم أتعلم كثيراً على يديه، استوعبت في غير عناء ما تلقينته عنه، فلم أنسه أبداً . وكانت بساطة الحياة الريفية لا تُقدّر بقيمة في اعتياري، فقد فتحت قلبي للصدقة. إذ إنني لم أكن قد عرفت حتى ذلك الحين سوى بعض المشاعر، التي كانت - على سموها - خيالية متعلقة بأوهام !. على أن تعود العيش في وئام مع ابن خالي - وابن عمتي في الوقت ذاته - شدُّ منا إلى الآخر بروابط من التعاطف، وسرعان ما أصبحت عواطفني نحوه أكثر مودة من تلك التي كنت أوثرُ بها أخي، ولم يقدر لها قط أن تهُن أو تضعف، وكان ابن خالي طويلاً، نحيفاً، ضعيفاً .. رقيقاً في مسلكه بقدر ما كان رقيقاً في بنيانه، لم يحاول مطلقاً أن يسيء استغلال الإيثار الذي كان يلقاه في البيت بوصفه ابن الرجل الذي كان يكفُلني .. وكانت واجباتنا، وميولنا، وأذواقنا واحدة، وكنا وحيدين، وفي سن واحدة، وكل منا بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق - في نظرنا - نوعاً من الهلاك ! .. ومع أنه لم تُتَّع لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلق المتبادل إلا أنه كان تعلقاً قوياً شديداً، فلم يكن من العسير علينا - فحسب - أن نعيش لحظة متباعدين، بل إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق !

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يَجَنِّح إلى اللطف والدعة مع الآخر - في الأحوال التي لم

يكن فيها أي قَسْر - فإننا كنا دواما على اتفاق في كل شيء . وإذا كان ابن خالي قد اعتاد أن يحظى بشيء من الامتياز دوني ، عندما كنا نجتمع باللذين كانا يرعياننا - نظرا لمكانته في اعتبارهما - فإنني كنت احظي ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت - ونحن نستذكر دروسنا - أؤنبه إذا ما أبطأ ، كما كنت أساعده إذا ما فرغت من واجباتي الدراسية .. أما في تسليتنا والعبا ، فقد كان عقلي أكثر نشاطا من عقله دائما ؛ مما كان يكفل لي الزعامة . وقصارى القول إن شخصيتنا انسجمتا تمام الانسجام ، كما أن الصداقة التي توثقت بيننا كانت من الإخلاص الصادق بحيث إننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التي قضيناها معا ، سواء في "بوسى" أو في "جنيف" .. ومع أننا كنا نشجر أحيانا ، إلا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لأكثر من ربع ساعة ولا كان أي منا يشكو الآخر أو يتجنى عليه ! .. وقد تكون هذه الملاحظات صيبانية - إن شئت أن تراها كذلك - ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا في نوعه ، مذ وجد أطفال على الأرض !



ولقد راقت لي الحياة التي مارستها في "بوسى" حتى إنها لو دامت أطول مما قُدِّرَ لها لكانت خليقة بأن تُشكَّلَ شخصيتي .. فقد كان أساسها الحنان ، والعطف ، والرفقة .. وكنت أومن بأن أحدا من أبناء نوعنا لم يكن يميزني فيما فُطِرْتُ عليه من تحرر من الغرور ، وكنت أسمو بنفسي فأحلق عاليا ، ثم لا ألبث سراجا أن أهوي إلى ضعفي الطبيعي وأستخذائي ..

كانت أكثر رغباتي إلحاحا ، هي أن أكون محبوبا لدى كل من يتصل بي عن كُتَب ، وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالي ، والشخصان اللذان وُكِّلَ إليهما رعايتنا ؛ ومن ثم فإنني لم أشهد ، ولا خبرت - خلال عامين كاملين - أي شعور أهوج عفيفا بل كان كل شيء يغذي في قلبي تلك الميول التي أودعته الطبيعة إياها ، ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن أرى كل الدنيا راضية عني ، وعن كل شيء ! ولن أنسى ما حَبَّبتُ أن شيئا لم يكن يُقْضُ راحة بالي قدر مشاهدتي إمارات القلق والاستياء على محيا الأنسة "لامبرسييه" - أخت القس - عندما كان يُقَدَّرُ لي أن أتردد أو أتَلَعَّثُ ، وأنا أتلو الدرس الديني من الذاكرة في الكنيسة . كان هذا - في حد ذاته - أكثر إزعاجا لي من أن أكتشف عن عجز في أمام الملا ، على ما كان في هذا من إيلاام لنفسي ؛ ذلك لأنه وإن لم يَسْتَحْفِني الإطراء إلا أنني كنت شديد التأثر بما يخجل ، وإني لأذهب هنا إلى القول بأن التفكير في تائبات الأنسة "لامبرسييه" كان أقل إزعاجا لي من الخوف من أن أجرح شعورها !

على أن الشدة لم تكن تُعَوِّزُ الأنسة وشقيقتها - إذا دعا إليها الأمر - ولكن هذه الشدة كانت عادلة في الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو مَرَجِدَة ؛ ومن ثم فإنها كانت تؤلني دون أن تشير تمردى .. كان الإخفاق في الإرضاء أَقْسَى وقعا على نفسي من العقاب ، وكانت إمارات الاستياء أكثر إيذاء لي من العقاب البدني .. وقد يكون من المخرج أن أمضي في الحديث عن نفسي بأكثر من هذا ، ولكنني لأجد بدا .. فما أشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قُدِّرَ له أن يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف الذي يُنتَهَجُ دائما دون ما تبصُر ولا حكمة ! .. وأن الدرس الهام الذي قد يستمد من مثال واحد - شائع بقدر ما هو خطير العواقب - ليحملني على أن أروي هذا المثال :

كانت الآنسة "لامبرسيميه" تُكِنُّ لنا حنان الامومة ، ولكنها كانت كذلك تَقْرِضُ علينا سُلْطَان الام ، وكانت أحيانا تذهب في ذلك إلى حد معاقبتنا - كما يعاقب الأطفال - عندما نستحق ذلك . ولقد اكتنفت - بعض الوقت - بالتهديدات ؛ فكان الإنذار بالعقاب يبدو لي رهيبا ؛ إذ كان جديدا علي .. على أنني تبينت - بعد تنفيده - أن الواقع كان أقل رهبة من الترقب .. والاغرب من ذلك ، أن العقاب جعلني أكثر تعلقا بتلك التي أَنْفَذَتْهُ في ! ووجدتني بحاجة إلى أن أَتَذَرَّعُ بقوة هذا التعلق ، وبكل ما أُوتِيتُ من وداعة فطرية ؛ لَأَكْبَحَ نفسي عن إثيان ما قد يجعلني أهلا لتكرار العقاب ؛ إذ إنني كنت أشعر بالآلم - على ما فيه من خزي - بلذة تجعلني أقل خوفا ، وأكثر رغبة في أن أحظى به مرة أخرى ، من نفس اليد !

ولارب في أن غريزة جنسية ما - ذات نضوج مبكر سبق أوانها - كانت تخالط هذا الشعور ؛ لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقفه بي شقيق الآنسة ! .. على أنه لم يكن ثمة خوف من أن يَحِلَّ القس محل أخيه في معاقبتي ، نظرا لرقه مشاعره . وإذا كنت قد نايت بنفسي عن أن أستحق العقاب ، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن أتسبب في استياء الآنسة "لامبرسيميه" . ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرا على نفسي من كل لذة حسية ؛ ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة في أعماقي !

ولقد نَجَمَ تَكَرَّرُ العقاب - الذي تفاديته دون أن أخشاه - عن غير ذنب مني .. ولي أن أقول إنني أَقْدَت منه ، دون أي تَبَكُّيت من ضميري .. ولكن هذه المرة الثانية كانت هي الأخيرة كذلك ؛ لأن الآنسة "لامبرسيميه" - التي لاحظت ولاشك شيئا اقنعها بأن العقاب لم يؤثر الاثر المنشود - أعلنت أن هذا العقاب يُضْنِيهَا ، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام في غرفتها ، بل وفي سريرها أحيانا ، أثناء الشتاء . ولكننا - بعد يومين - نقلنا للنوم في غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن اتخلي عنه مغتبطا !



وهل يصدق أحد أن هذا العقاب الصبياني الذي كانت تُنَزِّلُهُ بي - وأنا لم أتجاوز الثامنة من عمري - شابة في الثلاثين ، قد أثر على ميولي ، ورغباتي ، ونزواني ، وعلى نفسي ذاتها ، طوال بقية حياتي ، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التي كان ينبغي أن يؤدي إليها ؟ .. فما إن أَقْدَت مشاعري مرة حتى انطلقت شهواتي ، وإن لم تَحْفَلْ بأن تنطلق إلى أكثر من الإرضاء المحدود الذي شعرت به بالفعل في ذلك العقاب .. على أنني برغم دمي الحار - الذي كان يتقد بالشهوة منذ مولدي تقريبا - صنت نفسي عن كل شائبة ، حتى السن التي تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكشرها فتورا وبطشا .. ! فقضيت زمنا طويلا ألتهم كل الحسان اللائي كنت أقابلهن بنظرات مُتَقَدَّة ، وأنا أتعذب دون أن أدري لذلك سببا ! .. ، وكان خيالي لا يفتأ يَذْكُرُنِي بهن لانشيء ! إلا لاستغل أطياهن على طريقتي الخاصة ، فأجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة "لامبرسيميه" ! .. بل إن هذا الذوق الغريب - الذي ظل كامنا في نفسي على الدوام والذي ذهب سلطانه علي إلى حد أن فرض علي الحرمان واستبد بي إلى درجة تشير الغيظ - لم يؤثر على أخلاقي ، حتى بعد أن بلغت سني النضوج ، برغم أنه كان خليقا - بطبيعته - بأن يَقْوُضَ من هذه الأخلاق !

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة، فهذه هي تربيته يقينا. فإن عماتي الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل.

وكان أبي محبا للهو ولكنه كان في لهوه من أتباع المدرسة القديمة في الكياسة، فما نطق يوما بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذارى، ولو في حضرة نساء يؤثرهن بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب.. ولم يكن الوقار - الخلق بآن يلتزم في حضور الصغار - موضوع مراعاة في أسرة ما قدر ما كان مرعيا في أسرتي، وفي حضوري..

وقد وجدت من السيد "لامبرسييه" نفس الحرص في هذه الناحية، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة، لمجرد أنها استعملت في حضورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنًا غير لائق! وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال، دون ما فكرة واضحة عن ممارسة الحب بين الجنسين.. ليس هذا فحسب، بل إن الصورة المبهمة، غير الواضحة المعالم عن ممارسة الحب، لم تكن لتخطر ببالي إلا في أقبح الأشكال وأزرها. وكنت أشعر نحو البغايا بازدياد عارم لم تخف حدته يوما، وظل أي مشهد للفجور يملا نفسي بالسخط، بل وبلاشمتزاز دائما.. وهكذا وكذا استبشاعي للفسق منذ اليوم الذي سرت فيه إلى تلال "بيتي ساكونيكس" - على غير قصد واضح مني - فشهدت على الجانبين حفرا في الأرض، قبل لي إن تلك المخلوقات - البغايا - كن يمارسن فيها بغاهن. وقد ظل مجرد التفكير في أي بغي، يبعث في ذهني صورة جماع الكلاب، فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازي! هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه تربيته، والذي أدى - في حد ذاته - إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاج.. أقول إن هذا الاتجاه وجد - كما ذكرت - ما يعززه في الاتجاه الذي اتخذته أولى بوادر الحس الشهواني في حالتي.

فإن اقتصاري في شغل خيالي على ما أحسست به بالفعل - برغم ما كان فوران دمي يسببه لي من متاعب - علمني كيف أحول شهواتي نحو هذا النوع من اللهو الذي كنت آلفه، دون أن أتمادى إلى ذلك النوع الذي وجدت نفسي تبغضه، والذي كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر.. فكنت في تصورات الطائشة، وفي فوراتي الجنسية المكبوتة. وفي التصرفات الهوجاء التي كانت تدفعني هذه وتلك إليها أحيانا.. كنت في كل هذه، ألجا في "خيالي" إلى الاستعانة بالجنس الآخر، دون أن يخطر قط ببالي أن هذا الجنس يصلح لخدمة أي غرض سوى ذلك الغرض الذي كنت أتحرق شوقا إلى أن أستخدمه فيه، وعلى هذا النحو استطعت - برغم ما جيلت عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق أوانها في النضوج - أن أجتاز فترة البلوغ دون شهوات بل دون ما إدراك لاية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التي نهبت الأنسة "لامبرسييه" حسي إليها في براءة تامة، ودون أن تظن!

فلما بلغت - مع الزمن - مبلغ الرجال إذا بالأحاسيس التي كانت خليقة بأن تقضي علي، هي ذاتها التي صانتني من الدمار.. وبدلا من أن يخفف شعوري الصبياني القديم إذا به يفتقر بالشعور الآخر - المتسامي - بدرجة تعذر علي معها أن أقصيه عن الرغبات التي أخذت شهواتي تذكيبها في نفسي.. وكان هذا الجنون، إلى جانب ما جيلت عليه من خجل فطري يجعلني دائما أبعد ما أكون عن أن أروق في نظر النساء، إذ كانت تعوزني الجرأة على أن أقول كل ما ينبغي أن يقال، كما كانت تعوزني القدرة على أن أفعل كل ما ينبغي أن يفعل.. ذلك لأن النوع الذي كان يروق لي من المتعة - والذي كانت اللذة الأخرى هي الحلقة النهائية المكملة له - لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة، ولا مما يخطر ببال المرأة التي تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة!

وهكذا قضيت عمري في شوق مُتَقَاعِسٍ دون أن أنبس بِنِتْ شِفَة في حضرة أولئك النساء اللواتي أحببتهن كل الحب .. على أنني أرضيت ذوقي أخيراً - وأنا أشد ما أكون استحياء من المجاهرة به- في مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت في نفسي بالفكرة! .. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمي سيدة جلييلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفاري إياها أحلى بمتعة في رأيي! .. وكلما أذكر خيالي النشيط وقْدَةُ دُمَائِي ازداد ظهوري بمظهر العاشق الخجول . ومن السهل أن يتصور أي امرئ أن هذا التَهَجُّج في الهوى لا يقود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن أجل هذا ، ندر أن ضاجعت امرأة ، لكنني - مع ذلك - تمتعت نفسي بطريقتي الخاصة .. أعني ، في خيالي فقط! .. وهكذا تسنى لأحاسيسي المنسجمة مع "طبعي" الخجول وروحي الخيالية الشاعرية ، أن تصون مشاعري نقية ، وأخلاقي خالصة مما يعاب ، وذلك بفضل نفس النزوات التي كانت خليقة- إذا ما اقترنت بقليل من النزق- بأن تُزجَّ بي إلى أبشع مسلك شهوي حيواني!

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات في أظلم وأقذر الدروب في اعترافاتي . وإنه لا يسر على المرء أن يعترف بالذنب منه بأن يقر بالنزق الذي يدعو إلى الخزي .. ومن ثم فإنني واثق من أنني - بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت - لن أجفُلَ من شيء . وفي وسع أي إنسان أن يقدر مدى ما كبدتني هذه الاعترافات ، إذا علم أنني خلال حياتي كلها لم أجسر قط على أن أفضي بشيء من ضلالاتي لأولئك الذين أحببتهم بعاطفة هوجاء حرمتني البصر والسمع ، وسلبتني مداركي ، وجعلتني أرتجف في اختلاجات عنيفة .. فما استطعت يوماً أن أحمل نفسي على أن أسأل امرأة أن تمنحني النعمة المُشْتَهَاة دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها! .. أجل لم يحدث لي هذا سوى مرة واحدة ، وكان ذلك في حدائتي ، ومع فتاة من سني .. وحتى في تلك المرة ، كانت الانثى هي السبابة إلى العرض!

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى في حياتي الداخلية أعثر على عوامل قد تبدو- في بعض الأحيان - غير ذات بال ولكنها مع ذلك اتحدت لنتج في قوة أثرا بسيطاً مهذباً .. كما أعثر على عوامل أخرى قد تبدو- في ظاهرها - كسابقتها ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقاً أنها كانت مترابطة! .. فمثلاً ، من ذا الذي يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسي قد هذبتُ وذلك في أعماقي النبع الذي فاض منه في دمي سيل من الشهوة ومن التَّخَنُّتِ؟ .. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع - دون أن أخرج عن نطاقه- صورة أخرى مختلفة:

فقد حدث ذات يوم أن كنت أستاذ دروسي في عزلة في الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الأنسة "لامبرسييه" أمام المدفأة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها وجدت مشطاً قد تحطمت جميع أسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم؟

لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواي ! فلما سئلت أنكرت أنني مسست الأمشاط ، فشرع السيد والأنسة "لامبرسييه" في أخذي بالرفق ، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ولكنني أصبررت على إنكاري في عناد ، على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتي- برغم أنها كانت المرة الأولى التي ظنُّ فيها أنني أكذبُ يمثل هذه الجراءة! - فأعْتَبِرْتُ المسألة خطيرة ، وكانت في الواقع جديرة بذلك . وبدا الذنب ، والكذب ، والعناد ، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب ، ولكن العقوبة لم تنفذ

بيد الأنسة "لامبرسييه" في هذه المرة، وإنما أُرسلَ خطاب إلى خالي "برنار"، فحضر واتهم ابن خالي المسكين بـذنب آخر خطير، لا يقل عن ذنبي، فحق عليه نفس العقاب وما كان أظفعله!.. فلو أنهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء، وأن يقتلوا إلى الأبد أحاسيسي المكبوتة لما فعلوا أكثر مما فعلوا في هذه المناسبة، فقد كفت مشاعري الشهوية عن إزعاجي أمدا طويلا بعدها!

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا مني الاعتراف المنشود. ومع أنني مثلت بين أيديهم عدة مرات، تعرضت لمحاولات أرهقني إلى درجة خليقة بالراء، إلا أنني لم أترزع عن موقعي. وكنت على استعداد لأن أصمدَ حتى الموت، وقد عقدت عزمي بالفعل على ذلك! واضطرتُ القوة إلى أن تتراجع أمام "العناد الشيطاني" الذي كان صادرا عن غلام صغير - كما وصفوا ثباتي - وأخيرا نجوت بجلدي من هذه المحاكمة القاسية وأنا محطم.. ولكنني كنت منتصرا! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث - فلست أخشى أن أعاقب ثانية من أجله - ومن ثم فإنني أعلن على مشهد من السماء أنني كنت بريئا من الذنب، وأني لم أكسر المشط أو أمسه، ولا اقتربت من المدفأة، بل ولا فكرت في ذلك.. ولا جدوى من وراء سؤالي عن كيفية حدوث ما حدث، فإنني لا أدري ولا أستطيع أن أدري.. كل الذي أعلمه عن يقين، هو أنني لا شأن لي به!



ولكم أن تتصوروا شعور غلام خجول، ومُطيع في حياته العادية، ولكنه شديد الاعتزاز، مُفْرِطُ الكبرياء، جامع العواطف.. غلام لم يَنْقُذَ قط إلا إلى صوت العقل، ولم يعامل إلا بالرفق، والإنصاف، والتقدير، فليست لديه أية فكرة عن الظلم.. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم، وعلى أيدي أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم!.. فيالها من صدمة خيبت آراءه! وياله من حادث أخلَّ باتزان مشاعره! وياله من انقلاب أَلَمَ بقلبه وعقله وكل كيانه الذهني والمعنوي على صغره! تصوروا هذا إن استطعتم!.. أما أنا فإنني أعجز عن تبين أو تتبع أي أثر من الآثار التي خالجتني من جرَّاءه!..

ذلك أنه لم يكن لي من الإدراك يومئذ ما يمكنني من أن أرى إلى أي مدى كانت الظواهر تقف ضدي، ومن أن اضع نفسي في موقف الآخرين. لقد صمدت في موقعي، فكان كل ما شعرت به يتمثل في قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه.. ولم أحس بالآلم الجسدي - برغم شدته - إلا قليلا، وإنما كان كل شعوري ينحصر في السخط، الغضب، والقنوط.. وكذلك كان ابن خالي - الذي كانت حاله مشابهة لحالي، والذي عوقب لحظاً صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملاً مُدَبَّراً مُتَعَمِّداً - فقد لاذَ بِسُخْطٍ مثل سُخْطِي، وانساق إلى عين الانفعال الذي انسقت إليه. وإذ كنا ننام في سرير واحد فقد احتضن كل منا الآخر في ضِمَاتٍ تَشْنُجِيَّة، حتى شعرنا باننا نوشك أن نخنق. وعندما سري عن قلبينا الصغيرين بعض الشيء - في النهاية - بدأ القلبان يَنْفُثَانِ غَلْهُمَا، فاستويانا جالسَيْن في سريرنا، رحنا نصرخ بأعلى صوتنا، مرات لا عداد لها "أيها الجِلَاد!".. الجِلَاد!..

إنني لا أشعر - إذ أكتب هذه الكلمات - بأن خفقات قلبي تتسارع، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامي أبداً، ولو عشت مائة ألف سنة!.. لقد ظل أول شعور لي بالعنف والظلم محفوراً في نفسي إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تُرَدُّني دائماً إلى الانفعالات الأولى التي

خالجتني .. وقد اشتد هذا الشعور ، الذي لأقيمة له في جوهره إلا لدي أنا وحدي ، اشتد في حد ذاته ، واستقل عن كل ناثر أو ميل شخصي ، حتى إن قلبي ليكتوي حَقًّا كلما سمعت أو رأيت أي عمل من أعمال الظلم - مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب - وكأنما ينصب تأثيره علي أنا .. وعندما أقرأ عن فظائع أي جبار طاغية ، أو منكرات أي قس لئيم ، فإنني لا أتردد في أن أغمد خنجرا في قلب شقيين كهذين ، وأنا مسرور .. ولو قُضي علي بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك .. وكثيرا ما أنهكت نفسي - حتى يَتَفَصَّدُ العرق مني - وأنا أطارد ، أو أرمي بالأحجار ديكاً أو بقرة أو كلباً ، أو أي حيوان أكون قد رأيته يعذب حيواناً آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى .. وقد تكون هذه الرغبة طبيعية بالنسبة لي - وإنني لا اعتقد أنها كذلك - ولكن الأثر الذي خلفه الظلم الأول في نفسي ظل طويلا مرتبطاً بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها ألا يقوى ويشند!

وبوقوع الحادث الذي رويته ولت طمانينة طفولتي ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولأزال أشعر - إلى اليوم - بأن ذكرى مفاتن طفولتي وقفت عند ذلك الحد! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور في "بوسي" ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا في جنة أرضية ، ولكننا لم نعد نستمتع بها ! صحيح أن حالنا ظلت في ظاهرها على ما كانت عليه ولكنها كانت قد تغيرت في جوهرها تغيراً تاماً . فإن التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم نعد نَرْتَبِطُ التلميذين برأئديهما ؛ ومن ثم فإننا لم نعد نعتبرهما من "الملائكة" لم نعد نعتبرهما ملكين قادرين على استطلاع قلوبنا ؛ ولهذا أصبحنا أقل من ذي قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، وأكثر خوفاً من أن نتعرض للاتهام .. وبداناً نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب .. وقَوَّضَتْ كُلُّ رِذَائِلِ السِّنِّ التي كنا نحْتَازُهَا بَرَاءَةً ، وأَلْقَتْ على موارد تسليتنا قناعاً قبيحاً ! بل إن الريف ذاته فقد في نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فانتين تغلغلان في القلب ، وأصبح يلوح لنا موحشاً كثيباً . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قَنَاق حَجَبٍ جماله عن أعيننا ، فكففنا عن فلاحه حوضينا في الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض في رفق ونصيح فرحاً حين نرى البذرة التي غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض . أصبحنا نكره الحياة ، وأصبح الغير يكرهوننا ؛ ومن ثم اصطحبنا خالي معه فافترقنا عن السيد والأنسة "لامبرسييه" وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلاً .. بل لقد مكثت حوالي ثلاثين عاماً بعد مغادرة "بوسي" دون أن أستعيد فترة إقامتي بها مصحوبة بأي سرور أو ذكريات!

أما الآن - وقد تجاوزت شرح العمر ، وأخذت أدنو من الشيخوخة - فإنني أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالي بينما يشاوري سواها .. إنها لتنتطبع على صفحة ذاكرتي بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوماً بعد يوم ، وكأنني - إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل مني - أحاول أن أمسك بناصيتها ، فأغشيط بأنفه أحداث ذلك العهد لأشيء إلا لأنها تنتمي إلى تلك الفترة من حياتي .. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا في تنسيق الغرفة ، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدي وأنا أتلمو ما استذكرت من دروسي .. بل إنني لأتمثل الغرفة التي اعتدنا أن نقيم فيها ، بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد "لامبرسييه" . ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات و"بارووتر" وتقويم (نتيجة حائط) كبير معلق على الجدار ، وأشجار الخدش (١) الكثيفة - التي كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة - تواجه مؤخرة الدار ؛ ومن ثم فإنها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تفتحهما أحيانا! .. وإنني لأدرك أن القارئ غير راغب في الإلمام

بكل هذا ولكنني مسوق إلى أن أقصه عليه ، فلماذا لاتواتيني الجراءة على أن أروي له كذلك كل الحكايات النافهة التي وقعت في ذلك العهد السعيد، والتي تهزني نشوة حين أذكرها ؟
إنني لاتوق إلى أن أروي خمسا أو ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا سائرل عن خمس منها، بيد أنني راغب في أن أروي لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لي بأن أرويها بكل تفصيل ممكن؛ لكي أطيل في اغتباطي ...

ولو أنني اقتصر على ما فيه فكاهة لك لاخترت لك قصة سقوط الأنسة "لامبرسييه" في المرج، وانكشاف ظهرها- أو عجزها على الأصح - لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله لملك "سردينيا" الذي تصادف مروره في تلك الفترة... ولكن قصة شجرة الجوز المظلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لي؛ إذ قمت فيها بدور - في حين كنت مجرد متفرج في قصة السقوط في المرج! - كما أعترف بأنني لأجد ما يدعو قط إلى الضحك في حادث أثار- برغم طرافته - خوفا على سلامة شخص كنت أحبه، فقد كنت أحب الأنسة "لامبرسييه" كام ، بل أكثر من أم!

والآن ، أنصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المظلة على الشرفة .. أنصتوا إلى الماساة الرهيبة ، حاولو أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم! .. ففي خارج باب فناء البيت كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل . ولما كانت في غير وقاء من الشمس مطلقا فقد أمر السيد "لامبرسييه" بإقامة شجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها في أكثر مظاهر الاحتفال جلالا ، إذ اختير نزلا الدار- أنا وابن خالي- إثنين للشجرة! وبينما كان التراب ينهال في الشفرة التي أقيمت فيها الشجرة، أمسك كل منا الشجرة بإحدى يديه، ورحنا نردد أناشيد الانتصار والفوز! .. ولري الشجرة أنشئ حول أسفل جذعها ما يشبه الحوض ، وإذ رحت وابن خالي نرقب ريبا كل يوم يشغف اشتد بنا الاقتناع- بطبيعة الحال- بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى في الشرفة ذاتها ، فإن هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما في هذا العمل من فضل، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرتنا فقطعنا غصنا من صفصافة ، وغرسناه في الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شجرة الجوز الضخمة ، ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التي حفرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت في ابتكار طريقة ملء القناة بالماء، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا ، وقضينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة في الشجرة ، فنبئت عليها أوراق صغيرة . وأقنعنا نموها- الذي كنا نحسبه ونقيسه في كل ساعة - بأنها لن تلبث أن تضيء علينا ظللا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحدة! .. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا- حتى إننا لم نعد قادرين على تلقي أو استذكار أي درس- وأصبحنا في غشية حجبت عن عقولنا كل شيء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يدران ما ألم بنا ، رأينا أن اللحظة الحاسمة التي لن نجد فيها ماء لشجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير في رؤية الشجرة تذوي من العطش .. وأخيرا ، أوحث لنا الحاجة- وهي أم الاختراع - وبطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بأن نحفر قناة تحت سطح الأرض، تسرب إلى صفصافتنا - خفية- قسطا من الماء الموجه إلى شجرة الجوز! .. على أن المشروع فشل في البداية ، برغم الحماس الذي اكتنف تنفيذه ، فقد حفر النفق بطريقة بدائية فلم يجر

الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلا المدخل بالطين ، وتلف كل شيء ! لكن شيئا من هذا لم يشبط من عزمنا ، فإن الداب يقهر الصعاب جميعا ؛ ومن ثم زدنا المجرى عمقا لنتمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع - شريحة إثر شريحة - وأقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسنا بضع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز أو مصفأة تصد الوحل والاحجار دون أن تمنع انسياب الماء .. ثم غطينا مجرتنا بتراب دسسته في حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . وإذا انتهت كل شيء ، شرعنا ننتظر - ونحن في أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف - موعد الري .. وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد "لامبرسييه" ليعاون في العملية كالعتاد بينما حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكي نحجب شجرتنا ، التي كان - لحسن الحظ - يوليها ظهرا ! وما إن سكب أول دلو من الماء حتى رأينا بعضه يجري إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد "لامبرسييه" على أن يلتفت ، وكانت هذه هي الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التي قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتلعت الماء بشراهة ، وإذا دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! إذ ذاك أمر بإحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين أو ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهوري : "قناة ! قناة ! وراح يكيل الضربات في كل اتجاه ، دون ما رحمة ، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبنا مباشرة ! وإن هي إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والصفصافة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميري بكلمة ، اللهم إلا ذلك التعجب الذي راح يكرره دون توقف "قناة" .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء "قناة ! قناة ! .. ومن الطبيعي أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطئ ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم ، لم ينبس السيد "لامبرسييه" قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا في استياء ، كما أنه لمن يشر إليها بشيء مطلقا ، بل إننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع اخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو أننا - بعد أن زایلنا الخوف الأول - لم نشعر بأي انزعاج أو ضيق ، بل إننا غرسنا شجرة ثانية في بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر أنفسنا بالنكبة التي انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد في لهجة ذات معنى : "قناة ! قناة" .. وكانت تواتبني - حتى ذلك الوقت - نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، إذ إخال نفسي مثل "أريستيديس" أو "بروتس" أو غيرها من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث أن زایلتنني إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لي أن إنشاء قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعاً من شجرة لتتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملاً يرقى إلى ذروة المجد .. وهكذا كنت - أنا في العاشرة من عمري - أقدر على تمييز المجد من "قيصر" حين كان في الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها حيتين في ذاكرتي ، أو أنهما عادتا إليهما بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التي وفرت لي سرورا عظيما - خلال رحلتي إلى "جنيف" في سنة ١٧٥٤ - أن قررت الذهاب إلى "بوسي" وزيارة مراتع صباي ، وفي مقدمتها جميعا "شجرة الجوز" التي كان عمرها في ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن !

ولكنني شغلت طيلة فترة وجودي هناك ، ولم يكن لي كثير سلطان على نفسي ، فلم أجد لحظة

أرضي فيها هذه الرغبة .

وليس ثمة احتمال يذكر في أن تسنح لي هذه الفرصة مرة أخرى ، ومع ذلك فإن الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل في تحقيقها ، بل أكاد أوقن من أنني إذا قدر لي أن أعود إلى تلك البقاع الحبيبة ، وأن أجد شجرة الجوز العزيزة قائمة على قيد الحياة ، فلن أحجم عن أن أرويهما بدموعي !



وبعد عودتي إلى جنيف^(١) أقمت مع خالي عامين أو ثلاثة ، ريثما يقرر أصدقائي ما ينبغي أن يتم بشأنني . ولما كان خالي قد أراد ابنه أن يكون مهندسا ، فقد حمّله على أن يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادئ "يوكليد" (١) فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولاني ميل إليها وإلى الرسم بوجه خاص .

وفي تلك الاثناء ، كان الجدول يدور حول ما إذا كان يخلق بي أن أصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، أو قسا واعظا .. وكان ميلي يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها ؛ إذ كان الوعظ يبدو لي أمرا بديعا ، بيد أن الدخل الضئيل الذي كان يدره عقار أمي - والذي كان يجب أن يقسم بيني وبين أخي - لم يكن كافيا لأن يمكنني من متابعة دراساتي . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لسني في تلك الفترة ؛ ولذلك مكثت مؤقتا مع خالي ، دون أن أفيد كثيرا من وقتي ودون أن أدفع مبلغا يذكر لقاء نفقات إقامتي ، كما كان الإنصاف يقتضي .. أما خالي ، فمع أنه كان محبا للهو مثل أبي ، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله في تقيده بالواجب ، كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكانت عمتي تعتبر من المنصرفات للثقوى - بحيث كانت تؤثر أن تنشأ المزامير على أن تعنى بتعليمنا - ومن ثم فقد أتاحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة ، ولكننا لم نسيء استغلالها قط ، فكنا دائما قانعين بصحبتنا أحدا للآخر ، إذ لم نكن نفترق قط كما أننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من أبناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التي كان التبطل خليقا بأن يفودنا إليها .. بل إنني لأخطئ إذ أقول : إننا كنا متبطلين ، فإننا لم ننحط قط إلى هذا الدرك في حياتنا ، وكان من أعظم ما حبا بنا به الحظ أن كل الطرق التي كنا نتتهجها لتسلية أنفسنا ، والتي شغفنا بها على التوالي ، كانت تشغلنا معا في البيت ، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق .. فكنا نصنع أقفاصا ، وصافرات "الناي" ، وخذاريف (التحلات التي يلعب بها الأطفال) ، وطبول ، وبيوتا ، وقاذفات للحصى ، أو مقاليع ، وأقواسا للرماية ، ولقد أتلفنا أدوات جدنا في محاولتنا أن نصنع ساعات ، كما كان يصنع هو .. وكان لنا مزاج خاص في الإسراف في نماذج الورق ، وفي الرسم ، واستخدام الألوان المائية ، وتوزيع الأضواء ، وإفساد الألوان . لقد قد على "جنيف" صاحب مسرح إيطالي يدعى "جامبا - كرتا" فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة ، لم نرغب بعدها في الذهاب مرة أخرى .. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى (على غرار خيال الظل) ، فشرعنا نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل فكاهات ، فقد عكفنا على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت نعوزنا الأداة التي تصدر ذلك الصوت المصووصو المصصرع ، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ، لكي نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة ، التي تدرع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كي يجلسوا وينصتوا إليها ! ولكن خالي "برنار" قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من

(١) كان "يوكليد" عالما عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع أصولا - أو مبادئ - للعلوم الرياضية في ١٣ مجلدا ، خسر الهندسة منها بتسعة مجلدات

تأليفه ، فإذا بنا نهجر المسرحيات الفكاهة لنؤلف المواظ!

إنني لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا، ولكنها تبين كيف أن تربيته الأولى كانت موجهة خير توجيه، كما يبدو من أننا ندر أن انسقنا إلى إساءة استقلال الفرص التي كانت متاحة لنا ، برغم أننا كنا سيدي نفسينا وصاحبي السيطرة على وقتنا ، في تلك السن المبكرة!.. ذلك لأننا لم نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقا وزملاء ، حتى إننا كنا نهمل الفرص التي تقود إلى ذلك ، فكنا إذا خرجنا للتريض، نظرنا ، ونحن نمر باندادنا في السن ، إلى وسائل لهوهم، دون ما أدنى رغبة، بل دون مجرد التفكير في أن نشاركهم إياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبنا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفيننا أن نجتمع معا ، كي نجعل من أبسط أسباب التسلية ملهاة سارة!.. وما لبثنا أن استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا، وعدم افتراقنا ، سيما وأن ابن خالي كان فارغ الطول ، بينما كنت أنا جدد قصير، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين!.. كان قوام ابن خالي الطويل النحيل، ووجهه الصغير الشبيه بالشفاحة المسلوقة، وأخلاقه الرقيقة، ومشيته الهينة المتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى في ساحة الحي "بارنا بريدانا" وكنا حين نغادر البيت لانسمع سوى صيحة "بارنا بريدانا" ! تخف بنا، وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئي ، إذ كنت أفقد جلدي، وأبدي الرغبة في العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار، وقدر لي أن أتشاجر مرة ، فمنتيت بالهزيمة . وحاول ابن خالي المسكين أن يساعديني ما استطاع، ولكنه كان ضعيفا، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجي . على أنني وإن تلقيت لكلمات وافرة - لم أكن الهدف الحقيقي للعدوان، وإنما كان "بارنا بريدانا" هو الهدف .. وما لبث غيظي المستعر أن زاد من استفحال الموقف، حتى إننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار - فيما بعد- إلا في أوقاف المدرسة خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا!

ألا ترون إذن أنني أقمت من نفسي ماحيا للمظالم!.. ولكي أصبح "بالادين" (١) حقا ، كنت في حاجة إلى سيدة، ولكنني أوتيت اثنتين! فلقد اعتدت أن أذهب - بين وقت وآخر - لزيارة أبي في "نيون" ، هي بلدة صغيرة في إقليم "فود" ، استقر به المقام فيها ، وقد حظي بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففي الفترة القصيرة التي كنت أمكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون في الاحتفاء بي ، وقد أثرتني سيدة منهم - كانت تدعى السيدة "دي فيلسون" - بالف قبلة، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتني ابنتها حبيبا لها!.. ومن الميسور أن تفهموا معنى الحب هنا إذا تذكرتم أنني كنت في الحادية عشرة من عمري ، في حين أن الفتاة كانت في الثانية والعشرين!.. ولكن هؤلاء الشابات الحبيبات - جميعا! - لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمي صغيرة - مثلي - لكي يسترن وراءها أحبابا كبارا، أو لكي يغوين بها هؤلاء الكبار!.. أما أنا، فلم أر شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد، وانغمست بكل قلبي - أو بالأحرى بكل رأسي - إذ إنني لم أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسي ، فتماديت إلى درجة الجنون، وكان طربي وانفعالي وخيالي يؤدي إلى مناظر كافية لأن تجعل أي فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه!

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أي تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما أنهما يختلفان - كلاهما - عن الصداقة العاطفية .. بل إن عمري كله موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهرى ، فاعتدت أن أشعر بهما معا ، وفي آن واحد .. مثال ذلك أنني في الفترة التي أتحدث عنها ، وفي

أن يقترب منها أي رجل! - في تلك الأثناء بالذات حظيت عدة مرات قصيرة لكنها حافلة ، مع فتاة معينة - تدعى الآنسة "جوتون" - فكانت تعتمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة! وكان هذا غاية الأمر ، ولكن "غاية الأمر" هذه - وكانت هي الغاية فعلا ، بالنسبة لي - بدت في نظري تنتهي السعادة .. وإذ شعرت بقيمة الغموض ، وإن لم أكن أدري كيف أستغله اللهم إلا في نطاق حيل الطفولة ، رحت أكيل بنفس الكيل للآنسة "دي فيلسون" - التي لم ترتب في الأمر - جزاء دأبها على استغلالها كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد أن سري لم يلبث أن تكشف - وبالعظم أسفي! - أو أنه لم يحط من معلمتي الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان ، من ثم فسرعان ما افترقنا .. وحدث بينما كنت أجتاز "كوتافس" في طريقي إلى "جنيث" - بعد ذلك بوقت قصير - أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن بهتافات : "جوتون تيك - ناك روسو" !

ولقد كانت هذه الآنسة "جوتون" الصغيرة فتاة فذة .. فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها أوتيت وجهها لايسهل نسيانه .. ولاأزال أتمشله في مخيلتي في كثير من الأحيان ، في حنان لا يليق بشيخ أرعن! .. وما كان شكلها ، ولا أخلاقها ، ولا عيناها - قبل كل شيء - بالتي تناسب مع سنها . وكان لها مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذي أوحى إلي - في الواقع - بأول تفكير في هذا الدور .. ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهين إدراك مآثاه .. كانت تصرف معي بكل حررتها ، ولكنها أبدا لم تسمح لي بأن أعاملها بأي تحرر . كانت تعاملني كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحي إلي بأن أعتقد أحد أمرين : إما أنها لم تعد - إذ ذاك - طفلة ، وإما أنها كانت - على العكس - من الطفولة بحيث إنها لم تر في الخطر الذي كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو!

وكننت أهب نفسي تماما - كما ينبغي أن يقال - لكل من هاتين الفتاتين ، فإذا ما كنت مع إحداها ، لم أفكر مطلقا في الأخرى ، وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أي شبه - مهما يكن ضئيلا - بين المشاعر التي كانت كل منهما تبعثها في نفسي !

كان بوسعي أن أنفق كل حياتي مع الآنسة "دي فيلسون" دون أن يخطر لي أن أفارقها ، ولكن اغتباطي بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال ، وكننت أحبها أكثر مما أحببت أية فتاة من مجتمع الراقي ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لمارح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، نستهويني وتستأثر بشغفي . وكننت أشعر بهزوه وغروره لما كانت تضفيه علي من مظاهر الإيثار أمام المزارحين الكبار الذين كانت تعاملهم في ازدراء! .. وكننت أتعذب ، ولكنني أحببت العذاب! .. وكان التصفيق ، والتشجيع ، والضحك ، يبعث الثقة ، والإلهام في نفسي .. وكننت تتتابني نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفث في فكاهات جريفة .. كان الحب يحيلني شخصا آخر ، في المجتمعات .. أما في الخلوات ، فكننت محرجا ، فاترا ، بل لعلني كننت ضيق الصدر . ومع ذلك فإنني كننت أشعر بعاطفة صادقة نحوها ، وكننت أتألم إذا هي مرضت ، بل إنني كننت أتمنى لو أحبها صحتي كي تستعيد عافيتها - برغم أنني كننت أعرف ، بالتجربة معنى المرض ومعنى العافية! - وكننت أفكر فيها وأفقددها حين أغيب عنها .. أما حين أكون بالقرب منها فإن عناقها كان يهز قلبي ، دون أن يهز حواسي ! كننت متعلقا بها دون ما طمع يشوب حبي ، فكان خيالي لا يطلب أكثر مما كانت هي تنعم علي به ، ومع ذلك فإنني لم أكن أطيق أن أراها تفعل مثل ذلك للغير . كننت أحبها حب الأخ لاخته ، ولكنني كننت أغار عليها غيرة العاشق على معشوقته! .. وكننت خليقا بأن أغار على الآنسة "جوتون" غيرة التركي ، أو

المجنون أو النمر، لو أنني توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدي لغيري ما كانت تبديه لي من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت أن أسألك إياه وأنا جاث أمامها !
كنت أسمى إلى الآنسة "دي فيلسون" بفرح طاع ، ولكن دون ما انفعال ، في حين أنني كنت لا أكاد أرى الآنسة "جوتون" حتى تنبهر حواسي ، فلا أعود أرى سواها .. كنت آلف الأولى دون ما كلفة ، بينما كنت في حضرة الثانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى في أقصى درجات الفتنة ، واعتقد أنني كنت خليقا بأن أموت لو أنني مكثت معها طويلا ، فإن خفقات قلبي كانت كفيلا بأن تخنق أنفاسي ..

وكننت أخشى أن تستاء مني الاثنتان على السواء ، ولكنني كنت أغمر الأولى بمزيد من حفاوتي ، وأبدي للثانية مزيدا من خضوعي ، فما كان لأي شيء في الدنيا أن يحملني على أن أغضب الآنسة "دي فيلسون" ، أما إذا أمرتني الآنسة "جوتون" بأن ألقى بنفسي في اللهب ، فاعتقد أنني كنت قمينا بأن أطيعها في الحال .. ولم يستمر حبي - أو بالأحرى لقاءاتي - للأخيرة سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لسعادة كل منا ! ومع أن علاقاتي بالآنسة "دي فيلسون" لم تكن في خطورة علاقاتي بالأخرى ، إلا أنها لم تخل من الخطر ، بعد أن استمرت أمدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التي على هذه الشاكلة أن تنتهي دائما بطريقة شاعرية ، وأن تصبح مادة لزفرات الأسي . ومع أن صلتني بالآنسة "دي فيلسون" كانت أقل شدة واضطرابا من علاقتي بالآنسة "جوتون" إلا أنها كانت أكثر توثقا ومتانة ، فلم نفرق قط دون دموع ، وكان من الخلق بالعجب حقا ، ذلك الفراغ الأخير الذي كنت أشعر بأنني أتردى فيه بمجرد أن كنت أفارقها .. فما كنت أتحدث أو أفكر في سواها ، وكان أسي صادقا ومحتمدا ولكنني اعتقد أن هذا الأسي المنطوي على البطولة لم يكن - في قراره - من أجل الفتاة نفسها ، وإنما كان للمتعة التي اعتدت أن أنعم بها في قرب الفتاة ، دور في خلقه ، وإن لم أظن إذ ذاك .. ولقد اعتدنا - لتخفيف لوعات البعاد - أن نراسل بخطابات كنا نضمها من الشجون ما يذيب قلب الصخر !

وظفرت في النهاية ، إذ إن الفتاة لم تستطع أن تمضي في التجلد فجاءت إلى "جنييف" لتراني . وفي هذه المرة فقدت حجابي تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، أثناء اليومين اللذين مكثتهما . فلما رحلت رغبت في أن ألقى بنفسي في الماء وراءها ، وتردد صراخي في الهواء .. وبعد ثمانية أيام أرسلت لي بعض الحلوى وقفازين ، وكنت خليقا بأن اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أنني علمت - في الوقت ذاته - أنها تزوجت ، وأن الزبارة التي راق لها أن تشرفني بها إنما دبرت في الواقع من أجل شراء ثوب الزفاف .. ولن أحاول أن أصف حنقي ، ففي الوسع تصوره .. واقسمت - في غضبي السامي - ألا أرى "الغادرة" مرة أخرى ، إذ لم أكن لاتصور عقابا أكثر قسوة عليها من هذا .. ولكنها لم تمت من قسوتي ، إذ حدث - بعد عشرين عاما - بينما كنت أنتزه مع أبي في النهر ، أثناء إحدى زياراتي له ، أن سأله عن سيدتين كانتا في قارب على غير ميعدة منا ، فهتف أبي مبتسما :

"عجبا ! ألا ينبئك قلبك ؟ .. إنها حبيبتك القديمة ، التي كانت الآنسة "دي فيلسون" وأصبحت السيدة "كريستان" ..

واجفلت إذ سمعت الاسم الذي كاد يصبح منسيا ، سألت النوتيين أن يحولا اتجاه قاربنا ، فمع أن الفرصة كانت سانحة - في تلك اللحظة - لكي أثار لنفسي ، إلا أنني لم أر أية قيمة لأن أعاتب امرأة في الأربعين ، وأن أجدد خصاما مضى عليه عشرون عاما !

٢- من سنة ١٧٢٢ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت أغلى فترات صباي في الحماقات ، قبل أن يستقر الرأي على مهنتي المقبلة ، وبعد جدل طويل بشأن ميولي الطبيعية انعقد العزم على مهنة لم أكن لها سوى أقل ميل ، فقد عهد بي إلى السيد "ماسيرون" - كاتب البلدة - لتعلم على يديه مهنة الحمامة النافعة! .. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة - "مغتصب الأجر" - يغيضا لدي غاية البغض ، ولم يستهوني الأمل في كسب عدد من "الكراونات" (١) من مهنة "وضيعة" كهذه .. بل إن العمل ذاته بدا لي مملا لا يطاق ، فإن المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية إنما كراهنيتي ، فما ولجت المكتب مرة دون أن أشعر بنفور أخذ يزداد حدة يوما بعد يوم! كذلك كان السيد "ماسيرون" من ناحيته ضيقا بي ، فكان يعاملني بازدراء ، ولا يفتأ يرميني بالغباء والبلادة ، ويردد على أذني كل يوم أن خالي أنباه بآني على قسط من المعرفة ، في حين أنني كنت - في الواقع - لا أعرف شيئا .. وأنه بشره بآني فتى ذكي ، في حين أنه ابتلاه بجشش! .. وفصلت أخيرا من المكتب موصوما بآني غير كفء مطلقا ، وصرح معاونو السيد "ماسيرون" بآني لم أكن أصلح لشيء سوى نقل الملفات!

وإذ انتهت الأمر في تقرير مهنتي على هذه الصورة ، أرسلت لتعلم حرفة .. لا لدى "ساعاتي" ، وإنما لدى أحد الناقشين على المعادن (٢) وكان الصغار الذي عاملني به السيد "ماسيرون" قد أذل نفسي كثيرا ، فأطعت بدون تذمر ، وكان معلمي الجديد - السيد "ديكومين" - شابا فظا ، قاسيا أفلح في أمد وجيز في إطفاء كل ما كان لي في طفولتي من ذكاء ، وفي تخدير طبيعتي الودود النشيطة ، وفي الهبوط بي إلى مرتبة "صبي الصانع" فعلا ، سواء في العقل أو في المركز! .. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الأقدمين وآثارهم ، أن ينسى أمدًا طويلا .. بل إنني لم أعد أذكر أن قد كان في الدنيا أي من الرومان! ولم يعد أبني يرى في - حين ذهبت لزيارته - محبوبه القديم .. كما أنني لم أعد في نظر السيدات ، "جان چاك" الكيس المقرب إلى قلوبهن ، وأيقنت أنا نفسي ، من أن الأخوين "لامبرسييه" ما كانا ليعرفا في شخصي تلميذهما القديم ، حتى إنني خجلت من أن أزورهما ، فلم أرهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول وأحط مفاسد السوقة محل أسباب التسلية الساذجة ، بل إنها محت كل ذكرى لها! ولابد أنني كنت قد أوتيت استعدادا عظيما للانحدار - برغم أنني حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة - ذلك لأن الانقلاب أصابني بسرعة عظيمة ، دون أنفه عسر ، فما قدر قط "القيصر" مبكر النضوج أن أصبح "لاريدون" بمثل هذه السرعة (٣)

ولم تكن الحرفة - في حد ذاتها - هي التي لم تصادف هوى من نفسي ، إذ كان لدي ميل أكيد للرسم ، وقد لذ لي العمل بألة الحفر ، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به في صناعة الساعات فقد ساورني الأمل في أن أبلغ الكمال في هذه الحرفة ، ولعلني كنت بالغًا هذه الدرجة لولا أن فظاظه معلمي الوحشية ، وإفراطه في فرض القيود علي ، حملاني على أن أكره عملي! وكنت أسترق بعض ساعات العمل لأوفر على بعض أعمال مشابهة - ولكنها كانت تفتنني بما كنت أحسه في ممارستها من حرية - فكنت أحفر الأوسمة التي ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسي ولزملائي . وفجأني معلمي مرة وأنا في هذا العمل المخطور ، فضرمني ضربا مبرحا ، معلنا أنني كنت

(١) "الكراون" عملة تعادل ثلاثة فرنكات . (٢) حفار يصنع الاختام والميداليات بالحفر على المعادن . (٣) استعير هذا الاسم من "لاتونتين" الذي أطلقه على الكلاب المنحطة في أسطورة بعنوان: "الترية" ، إذ قال : "أواه أكم من قياصرة أصبحوا لاريدونات؟"

أندرب لاغدو مزيفا للنقود، إذ إن الأوسمة التي صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية.. وأقسم إنني لم أوت - إذ ذاك - أية فكرة عن النقود الزائفة، بل إنني لم أوت إلا أنفسه فكرة عن النقود الطيبة... وكان إلمامي بعملات الرومان - التي قرأت عنها في الكتب - يفوق معرفتي بنقودنا المستعملة!

وأخيرا أدت ربة معلمي إلى أن صار العمل - الذي كنت مهيا لأن أشغف به - شيئا لا يطاق، وأفعمتني برذائل كنت خليفا بأن أكرهها لولا جبروته، مثل الكذب، والتكاسل، والسرقة... ولقد علمتني ذكرى التبديل الذي أصابني في هذه الفترة من حياتي - أكثر من أي شيء آخر - الفرق بين تبعية الابن للاب، وبين الخضوع الذليل. ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء، لم يكن ثمة عيب بجاني خصاله الطبيعية قدر بذاءة اللسان. على أنني كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث أن تعرضت للقمع تدريجيا - بعد ابتعادي عن أبي - حتى تلاشت تماما. وكنت جريشا مع أبي، غير مكبوت مع السيد "لامبرسييه" معتدلا مع خالي، فصرت جبانا مع معلمي! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلا حائرا ضالا. ولما كنت قد ألفت أن أكون على قدم المساواة التامة في اتصالاتي بمن يكبروني، ولم أعرف ملهية بعيدة عن متناولي، ولا رأيت صحيفة طعام لا يحق لي أن أنال منها نصيبا، ولا رغبة لا أملك أن أعبر عنها جهارا... لما كنت قد ألفت كل هذا، واعتدت أن يكون كل ما في قلبي على طرف لساني، فإن من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى أن أتحوّل في بيت لم أكن أجسرفه على أن أفتح فمي، وكنت مضطرا فيه إلى أن أغادر المائدة قبل أن أفرغ من نصف الوجبة، وأن أبرح الغرفة بمجرد أن أفرغ من شائي بها.. في بيت كنت فيه مغلولا إلى عملي باستمرار، ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المتعة لسواري والحرمان لنفسي.. حيث كانت رؤيتي الحرية التي يستمتع بها معلمي وزملائي تضاعف من وطأة الخضوع على نفسي، وحيث لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمي إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها.. وقصارى القول، حيث كان كل ما يقع عليه بصري يغدو هدفا لشوفي، لجرد أنني كنت محروما من كل شيء!

منذ ذلك الحين فارتقتني وداعتي ولطفي وخفة روحي، وتلك البشاشة التي كانت - فيما مضى - تقيني العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا، كل هذه تبددت. ولا أتمالك أن أضحك كلما تذكرت كيف أنني - ذات مساء - أرسلت إلى الفراش، في بيت أبي، دون عشاء، لذنبي أتيت.. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفي يدي كسرة خبز تدعو إلى الأسى رأيت قطعة لحم تقلب على السفود - "الشواية" - فاخذت أنتسم عبيرها! وكان كل أهل البيت وقوفا حول النار، فاضطرت إلى أن ألقى على كل منهم تحية المساء، أثناء مروري، حتى إذا فرغت من تحيتهم غمزت بعيني لقطعة اللحم التي بدت بديعة المنظر، والتي كانت زكية الرائحة، ولم أتمالك أن انحنيت لها - كما انحنيت للآخرين - وقلت بلهجة حزينة: "عمي مساء يا قطعة الشواء!"

وأطربتهم هذه الملحة الساذجة إلى درجة جعلتهم يستبقونني للعشاء. ولعلها كانت كفيلا بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمي، ولكنني واثق بانها لم تخطر ببالي قط، ومن أنني ما كنت لأجد الشجاعة على أن أقولها في حضوره!

وبهذا النهج تعلمت كيف أكنم ما اشتهي، وكيف أنافق، وكاذب، و- أخيرا - أسرق!.. وهو أمر لم يخطر - حتى ذلك الوقت - ببالي مطلقا، ولم أستطع منذ ذلك الحين أن أبرئ نفسي منه تماما. ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه، الأمر الذي يفسر السر في أن

جميع الخدم نصايون ، وفي ان جميع الصبيان لدى اصحاب الحرف مسوقون إلى ان يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون - بتقدمهم في مدارج العمر- هذه الرذيلة المشينة، إذا أتاحت لهم المساواة في جو وادع مأمون ، بالفن فيه أن يكون كل ما يرونه في متناولهم . ولما لم تتح لي هذه الميزات فإنني لم أملك أن أجني نفس الفوائد ...! وأكد أقول إن الذي يدفع الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحو الشر هو دائما المبادئ ، الطيبة التي يساء توجيهها ، فلقد مكثت مع معلمي عاما دون أن أفكر في الإقدام على أخذ أي شيء - حتى من المأكولات - برغم ما لاقيت من حرمان وإغراء مستمرين ، وكانت أولى سرقاتي من أجل شخص سواي ، ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى ، لم يكن الباعث إليها أمرا محمودا ...!

فلقد كان لدى معلمي عامل باليومية - يدعى السيد "فيرا" - يقيم في دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعا راقيا من "الاسفاناخ" ، وخطر للسيد "فيرا" الذي لم يكن يحصل على حاجته من المال - أن يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التي كانت أمه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفي لإمداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة ، ولما لم يكن راغبا في أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما أنه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارني لهذه المهمة ، وبعد محاولات أولية وتملقات - زاد من سهولة نجاحها في التأثير علي ، أنني لم أكن أدرك هدفها - عرض علي الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة ، فعارضتها بشدة ، ولكنه ألح ، وليس بوسعي قط أن أقاوم التملق ، ومن ثم فقلد أنصمت له ، وأخذت أذهب في كل صباح فأجمع أبداع نباتات الاسفاناخ وأحملها إلى سوق (مولار) حيث أدركت امرأة طيبة أنني كنت أسرقها لتوي ، فكانت ترميني بهذا الاتهام لتبخسني الشمن ، وكنت في ذعري أقبل أي ثمن تقدمه ، ثم أحمله إلى "فيرا" فسرعان ما يتحول المبلغ إلى فطور كنت أتكفل بإحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقتع أنا ببضع لقيمات .. ولم أتذوق قط التبيذ الذي كانا يتناولانه مع هذا الفطور!

واستمرت هذه الخطة عدة أيام، دون أن يخطر لي قط أن أسرق - بدوري، من الباطن... السارق الأصلي ، وأن أفرض "عوائد" على ما كانت تدره اسفاناخ السيد "فيرا" بل كنت أؤدي دوري في المهمة بمنتهى الإخلاص ، وليس لي من حافز سوى رغبتني في إرضاء ذاك الذي كان يحرضني . مع ذلك، فكم من صفعات وشائم وقسوة كنت خليقا بأن أتلقها - لو أن امرئ انفضح - بينما كان من المؤكد أن يبادر الوغد إلى انتحال اكذوبة تقابل بالتصديق - ومن ثم يتضاعف عقابي إذ يعتبر اتهامي إياه - وهو العامل وأنا الصبي - وقاحة ..

وهكذا نرى أنه - في كافة ظروف الحياة - كثيرا ما يحدث أن المذنب القوي ينجي نفسه على حساب البريء الضعيف ...!

وبهذه الطريقة تعلمت أن السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذي كنت أتصورها عليه ، وأنه ليس من شيء أشتهيه يميز علي ، مادام في متناول يدي . ولم أكن سيئ التغذية على طول الخط ، ولكن العفة أصبحت أمرا متعذرا علي وأنا أرى معلمي ينظر إليها كشيء منكر ... يبدو لي أن اعتياد إقصاء الصغار عن المائدة ، في الوقت الذي تحمل إليها فيه أشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا ...! وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن أمضي موفقا - بوجه عام - فلم يفتضح امرئ إلا في مرات نادرة كنت أفاجأ فيها!

إنني لارتجف - وأضحك في الوقت ذاته - إذ أتذكر أن سرقة بعض التفاح كادت تكبدني غاليا! فقد كانت تلك التفاحات في قرار حجرة لاختزان المون ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية ، وفي ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا مني ، صعدت على المعجن - حوض المعجن - لالقي نظرة على الثمار الغالية في حديقة "هيسبريد" (١) . ولما كانت بعيدة عن متناولتي فقد أحضرت سيخا لأحاول أن أثبتن ما إذا كان بوسعي أن أمس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير ولكي أزيده طولا ربطت إليه سيخا صغيرا كان يستخدم في شي الحيوانات الصغيرة، إذ كان معلمي مغرما بالصيد .

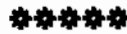
ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق ، وأخيرا شعرت لعظم اغتباطي أنني أصبت تفاحة ، فتأهيت لأن استحوذ عليها ، ولكن .. من ذا الذي يستطيع أن يصف أساي حين وجدتها أكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة! وكم من حيل بذلتها لأنفذها خلال القضبان! .. وكان لابد لي من العثور على ما يبقي السيخ في مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشرط التفاحة ، وقطعة من الخشب أستعين بها على إبقاء التفاحة عاليا، وتمكنت أخيرا من أن أشرطها ، يحدوني الأمل في أن أستطيع أن أجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر، ولكنهما ما إن انفصلا حتى هوبا إلى أرض المخزن! - ألا فلتشاركني أساي ، أيها القارئ الشفوق! - ومع ذلك فإنني لم أفقد جلدي مطلقا ، لكنني كنت قد ضيعت وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجأ ، وأرجأت القيام بمحاولة أخرى - تكون موفقة - إلى اليوم التالي، وعدت إلى عملي في سكينه ، وكانني لم آت أمرا ، دون أن أفكر في الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان في المخزن!

وفي اليوم التالي ، انتهزت فرصة سائحة ، وقمت بمحاولة جديدة ، فصعدت على مقعدي ، وربطت السيخين وهياتهما، وهممت بأن أدفعهما ، ولكن "العقول" لم يكن نائما ، لسوء الحظ ، فقد فتح باب المخزن بغتة، وخرج منه معلمي ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلي ، وقال : "تشجع!". إن القلم يسقط من يدي! .. على أن حساسيتي إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت، من جراء سوء المعاملة المستمر فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لي الاستمرار فيها! وبدلا من أن أمتعرض ما فات وأقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت أطلع إلى الامام وأفكر في الانتقام! .. ورحت أرى أنني إذا كنت أضرب بزعم أنني لص، فإن هذا الضرب بخولني أن أتصرف كص ، وتبينت أن السرقة والضرب أمران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبيين في صفقة عادلة .. فإذا قمت بدوري كان علي أن ادع معلمي يؤدي دوره! وبهذا التفكير شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذي قبل ، وكنت أقول لنفسي: "ما هي النتيجة؟ .. سأضرب؟ لا بأس، لقد تعودت الضرب!"

إنني مشغوف بالاكل ، ولكنني لست شرها .. وأنا مغرم بإرضاء نزواتي البدنية ، ولكنني لست نهما ، فإن لي ميولا كثيرة أخرى تحول دون ذلك ، وما جشمت نفسي يوما أية مشاعب بشأن الطعام، اللهم إلا حين يكون قلبي خاليا مما يشغله، وهذه حال كانت من القلة في حياتي بحيث إنني

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذاري ورد ذكرهن في أساطير الإغريق على أنهن كن يحرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية .

نادرا ما وجدت وقتا للتفكير في الاطياب اللذيذة ؛ ولهذا السبب لم أقصر انجاهاتي في اللصوصية على المواد الغذائية- لأمد طويل- بل سرعان ما بسطتها إلى كل شيء كان يغريني ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا فإنما ذلك لأنني لم أجد قط في النقود إغراء شديدا ، وكانت في الطريق إلى خارج "الورشة" العامة حجرة خاصة لمعلمي ، وجدت وسيلة لأن أفتح بابها وأغلقه دون أن يفتن أحد إلى ذلك ، وهناك ، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاريه .. بل كل شيء كان يجتذب ميولي ، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدا عني لهذا السبب .. وكانت هذه السرقات - في قرارها - بريئة تماما ، إذ ما كنت استغلها إلا في خدمة معلمي . على أنني انتشيت إذ جددت هذه التوافه في متناولي ، وخيل إلي أنني كنت أسلبه مواهبه و ما كان ينتج عنها ! وإلى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوي مبارد وأساور صغيرة وبعض النفاثات والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد في جيبي أربع أو خمس قطع من فئة "السو" (١) اعتبر نفسي غنيا ، ومع ذلك ففضلا عن أنني لم أمس شيئا مما وجدته هناك فإنني لا أذكر قط أنني رمتها يوما بعينين مشوقتين ، وإنما كنت أنظر إليها في جزع أكثر مني في ابتهاج ! واعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المال والنفاثات كان راجعا - إلى حد كبير - إلى تربيتي ، وإلى ما كان يقرن بها من أفكار دفينه عن العار ، والسجن ، والعقاب ، والمشاق ، مما كان كفيلا بأن يجعلني أرجمف فرقا لو أنني تأثرت بالإغراء .. هذا في حين أن أحاييلي كانت تبدو في نظري كمجرد أعمال خبيثة- أو "شقاوة"- لا أكثر ، وأنها لا يمكن أن تفضي إلى أكثر من "علقة" طيبة من معلمي .. وكنت أعد نفسي مقدما لذلك .. وأكرر أنني لم أشعر قط برغبة كافية في أن أكبح نفسي ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميري . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لي من نقود تكفي لأن أبتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الغدة ترتبط بإحدى ميزات خلقي وشخصيتي ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكي ما يجعلها أهلا للشرح !



إنني إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بي سورتها ، فلن يعدل اندفاعي شيء : إذ أنسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فإذا أنا أغدو شرما ، متهورا ، عنيفا ، غير هباب ، لا يصدني أي إحساس بالعار ، ولا يرهيني أي خطر .. بل إنني لا أحفل من الكون كله إلا بالغاية التي تشغل بالي فحسب ! على أن هذا كله لا يستمر إلا لحظة ، ثم إذا بي في اللحظة التالية أنغمس في سكون تام . أما لحظات هدوئي ، فأنا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفني ويثبط همتي كل شيء : فالذبابة التي تمر بي وهي تطعن تفرعني .. واضطراي إلى أن أقول كلمة أو أبدي حركة يقض خمولي .. وهكذا يتسلط علي الخوف والتجمل إلى درجة يسرني معها أن أستخفي عن بصر زملائي من الآدميين .. وإذا كان علي أن آتي تصرفا فإنني لأدري ماذا ينبغي أن أفعل ، وإذا قدر علي أن أتكلم فإنني لا أدري ما ينبغي أن أقول . وإذا نظر أحد إلي تولاني الارتباك .. ولقد أوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكنني - في الحديث العادي - لا أعثر البتة

(١) "السو" عملة فرنسية صغيرة تعادل ٥ سنتيمات ، أو جزء من عشرين من الفرنك .

على شيء يقال ، وأغدو في حال لاتطاق ، لمجرد أن أجدني مضطرا إلى الكلام .. أضيف إلى ذلك أن ليس بين رغباتي المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تشتري ، فلست أشتهي سوى المتع البريقة غير الزائفة ، وكلها مما يسممه المال ويفسده ، من ذلك أنني مشغوف بمتع الطعام ، ولكنني - إذ لا احتمل عبء الجلوس في جماعة ، أو الشرب في حانة - لأملك أن أحظى بها إلا برفقة صديق أما إذا كنت وحيدا ، فإن خيالي يشغل إذ ذاك بأمور أخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدي ، وبرغم أن دمي الحار يهفو إلى النساء فإن قلبي المشبوب أشد حنيناً إلى العاطفة الصادقة ومن ثم تفقد النساء - اللاتي يشترين بالمال - كل مفاتهن في نظري .. بل إنني أرتاب في أن أجد من نفسي قابلية للإفادة منهن ، كذلك شاني مع كل المتع التي في متناول يدي ، فانا أجدّها غشة طالما كانت لاتكبدني شيئا .. وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكاً لأول إنسان يعرف كيف يستمرئها!

و المال .. أبدا ما تراءى لي نفيسا كما يقدر عادة بل إنه لم يبد لي قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة في حد ذاته إذ لا بد من استبداله لكي يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى أن يشتري ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين أنشد شيئا جيدا لصف أوقن من أنني لن أحصل بالمال إلا على صنف رديء .. فإذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة الفيتها فجأة .. وقد أدفع من أجل فتاة ، فإذا بها مفسودة ! .. وأنا مولع بالشراب الجيد ، ولكن أين أظفر به ؟ الذي تاجر المشروبات ؟ مهما أفعل فإنه لن يتخرج عن أن يسمني ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فياللعناء وباللحيرة ! لا بد لي من أصدقاء ، ورسل ، ومن أمتنع عمولات ، وأكتب ، وأروح وأجيء ، وانتظر .. وغالبا ما أكون في النهاية ضحية للغش ! .. أي عناء ألقاه من مالي . إن خوفا منه لأشد من شغفي بالشراب الجيد !

كم من مرات يخطئها الحصر خرجت فيها - أثناء تعلمي الحرفة وبعد ذلك - وأنا أعزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع ، وإخال أنني أبصرهن بالفعل وهن يتصاحكن من هذا النهم الصغير .. فأذهب إلى الفاكهي ، وأرمق الكمثرى فيغويني شذاها ، ويرمقني شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفني ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، أفترأها خادم الدار ؟ إن قصر نظري يهين لي كافة الرؤى الوهمية ، فإخال المارة جميعا من المعارف ، وهكذا أجد في كل مكان من العراقيل ما يفزعني ويصدني .. وتتضاعف رغبتني بازدياد خجلي واستحيائي ، ثم أعود - في النهاية - إلى البيت كالمغفل ، والشوق يضيئني ، وفي جبني الوسيلة لإشباعه ولكنني لم أوت الجرأة على أن أبتاع شيئا !

ولقد أنساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للمال إذا سمحت لنفسي - وأنا أصف كيف كانت نفودي تنفق ، عن طريقي أو عن طريق سواي - بأن أشرح الارتباك ، والاستحياء ، والإحجام ، والتأمل ، والإزعاج ، التي كنت أمر بها دائما .. على أن القارئ المتتبع لمجرى حياتي ، لن يلبث - إذا ما عرف حقيقة طباعي وسجيتي - أن يفهم كل هذا دون أن أنجم عناء روايته عليه !

ولو تسنى له فهم هذا فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من أبرز ظواهر التناقض لدي : وهي اجتماع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود .. فما النقود سوى قطعة من أثاث لا جدد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى إنه لا يخطر ببالي قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لي .. وحتى إذا ظفرت بها ، فإنني أبقئها طويلا دون أن أنفقها . عجزا مني عن أن أدري كيف أستخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسي . أما إذا منحت لي فرصة ملائمة ومواتية ، فإنني أقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كبسي منها قبل أن أفطن ! .. وإلى جانب ذلك ، فلا داعي لأن يتوقع أحد أن يجد عندي تلك الخلة العجيبة التي تتوفر في البخلاء : الإنفاق ، لمجرد التظاهر بالإنفاق ! بل إنني - على النقيض - أنفق في السر من أجل الاستمتاع ، وبدلا من أن أفخر بالإنفاق أخفيه ! ويبلغ من شدة شعوري بأن لا نفع للمال لدي ، أنني أكاد أخجل إذ أقتني أي قدر منه وأكون أشد خجلا حين أستخدمه ! .. ولو قدر لي يوما من الدخل ما يكفي لأن أعيش حياة مريحة ، فإنني أجزم بأنني ما كنت لأكون بخيلا بل كنت أنفقه عن آخره دون أن أحاول زيادته ، ولكن ظروف غير المستقرة تلزمني الحرص ، فأنا أعشق الحرية ، وأمقت الكبت والعناء ، وأن أكون عالة على الغير ! وطالما بقي المال في كبسي فإنه يطمئنني إلى استقلالي ، ويعطيني مؤونة البحث عن أعمال لتسلا الكيس من جديد ، وهي ضرورة تبعث الجزع في نفسي دائما .. ومن ثم فإن الخوف من أن أرى ما لدي من المال قد استنزف يجعلني أكتنزه في حرص .. فالمال الذي يمتلكه الشخص هو أداة حريته ، أما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون أداة العبودية .. ولهذا أتشبث بما لدي ، ولا أربح في مزيد ! ومن ثم فإن عدم شغفي بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبذل ، فإن متعة الاقتناء لا تستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافي ، فهو ليس أكثر من تقاعس وبلاهة ، وعندما تحين فرصة الإنفاق النافع ، فإنني لا أحسن استغلالها ..

فالمال أقل إغراء لي من الأشياء ، إذ إن ثمة وسيطا - على الدوام - بين المال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، في حين أنه لا يوجد أي وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فإذا ما رأيت الشيء فإنه يستهويني ، وما إن أتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه .. ولهذا السبب اعتدت أن ارتكب السرقات ، ولا أزال - حتى الآن - أختلس التوافه التي تستهويني ، والتي أوثر أن آخذها بهذه الطريقة على أن أطلبها .. ولكنني لا أذكر أنني - سواء في طفولتي أو في كبري - قد سلبت أي امرئ درهما واحدا ، اللهم إلا في مناسبة واحدة - منذ خمس عشرة سنة - إذ سرت سبعة "ليبرات" وعشر قطع من فئة "السو" ، هذا الحادث جدير بالذكر ؛ لأنه يشتمل على خليط عجيب من التزق والقحة ما كنت لأصدق به سهولة لو أنه كان يتعلق بشخص سواي !

ولقد وقع هذا الحادث في "باريس" ، إذ كنت أتمشى مع السيد "دي فرانسوي" في حدائق "الباليه رويال" حوالي الساعة الخامسة .. فإذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : "لنذهب إلى الأوبرا" . ووافقت ، فذهبنا . واستأجر السيد مقعدين في "الصاله" وأعطاني إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمني ، فتبعته . ودخل إلى "الصاله" ، فلما هممت بالدخول خلفه ،

إذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت فإذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد "دي فرانسوي" بأنني ظلمت على أية حال ، ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالي أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغي الباب الخارجي . إن السيد "دي فرانسوي" قد تبين أنني لم أكن موجودا (١) .. وإذا لم يكن ثمة تصرف ينافي مسلكي العادي مثل هذا التصرف فإنني أذكره لابن أن هناك لحظات ينبغي ألا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون في شبه ذهول أو شرود! .. ذلك لأنني لم أكن راغبا في اختلاس النقود ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ولكن هذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة!



ولن يقدر لي أن أفزع من كل هذه التفصيلات لو أنني المحت بكافة الدروب التي اتبعتها - أثناء تعلمي الحرفة - في هبوطي من ذرا البطولة النبيلة، إلى درك التفاهة! ومع ذلك، فإنني لم أستمري رذائل المركز الذي كنت فيه ، وإن مارسنها . سئمت أسباب التسلية التي كان زملائي يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتي فجعل العمل في نظري أمرا لا يطاق ، سئمت كل شيء! .. وجدد هذا من شغفي بالقراءة بعد أن كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة - التي كنت أختلس لها فترة من وقت العمل - أصبحت عيبا جديدا استوجب عقابي .. وإذا الميل إليها ينحول - بالقمع - إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنونا! .. وكانت "لاترييو" - وهي امرأة اشتهرت بإعادة الكتب - تمدني بكتب كافة ألوان الأدب ، وكانت كلها - الغث منها والنفيس - سواء عندي ، إذ لم يكن لي في الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شيء بنفس النهم : رحت أقرأ وأنا أمام طاولة العمل ، وأقرأ وأنا منطلق في بعض المهام ، وأقرأ بجوار صوان الملابس ، وأنسى نفسي ساعات طويلة حتى يدور رأسي لفرط القراءة .. فما كنت أملك سوى أن أقرأ! كان معلمي يراقبني ، ويباغطني ، ويضربني ، وينتزع الكتب مني .. وكم من مجلدات مزقت وأحرق وطوح بها من النافذة! .. وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجزاء - لهذا السبب - في مكتبة "لاترييو" ! .. وكنت إذا عزت علي النقود أقدم للمرأة أقمصتي ، وأربطة عنقي ، وملابسي .. كما كانت تستولي مني في يوم الأحد من كل أسبوع على قطع "السو" الثلاث التي كنت اتقاضاها لمصروفي الخاص!

سيقال لي هنا : إن النقود من الضرورات لي . وهذا حق لكنه لم ينطبق علي إلا عندما حرمني شغفي بالقراءة ، من كل نشاط . فإن انصرافي بكل نفسي إلى هوايتي ، وعدم اكترائي بغير القراءة ألهاني عن السرقة! وهذه ميزة أخرى من الميزات البارزة في شخصيتي ، ففي غمرة انغماسي في أي مسلك في الحياة ، يستطيع أي أمر تافه أن يجتذبي ، وأن يحولني ، وأن يستأثر بانتباهي ، ثم يقدو شغفا ، وإذا ذلك يصبح كل شيء منسيا ، فلا أعود أفكر في غير الشيء الجديد الذي يستحوذ على اهتمامي .. هكذا كان قلبي يخفق في صبر نافذ إذا ما أحضرت كتابا جديدا ودسمته في جيبي ، فلا

(١) ذكرت "جورج صائد" في كتابها "تاريخ حياتي" ، أن السيد "دي فرانسوي" - وكان جدنا - اعتاد أن ينكر دائما صدق هذه القصة .

اكاد اخلو إلى نفسي حتى اخرج الكتاب ، ولا اعود أفكر في التنقيب في حجرة معلمي بالورشة .. لا اكاد اصدق انني كنت أقدم على السرقة ، ولو كانت لي أهواء تكلفني نفقة أبهظ .. كنت في اقتناري على الحاضر ، لا أجد اتجاهها إلى أن أدبر أمر المستقبل بهذه الطريقة ، فقد كانت "لاتريبو" تعطيني الكتب بالنسيئة "تأجيل السداد مع زيادته" ، وكانت الدفعات صغيرة ، لكنني كنت أنسى كل شيء بمجرد أن أطمئن إلى وجود الكتاب في جيبتي . وكانت النقود التي تأتيني بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدي هذه المرة ! ولم يكن أهون علي - عندما تشدد في الضغط علي - من أن أنزل عما أمتلك . وكانت السرقة - قبل الحاجة إلى المسروق - تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لإغراء بحملتي على السرقة لكي أدفع ما كانت المرأة تطلبه .. وكان من جراء المشاجرات ، والضرب ، والاطلاع خفية على كتب أسى اختيارها ، أن صرت شرما ، صموتا ، وشرذ عقلي ، وأصبحت أعيش منظويا ! .. على أنه إذا كان إدراكي لم يعصمني من الكتب السخيفة والفاصلة ، فإن حظي الحسن صانني من الكتب الفاحشة والنايبة .. لا لأن "لاتريبو" - التي كانت امرأة لينة الجانب ، من كل اعتبار - كانت تثير أي اعتراض دون إعارتي هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لي في لهجة مشوبة بالغموض ، لكي تضاعف من قيمتها لدي ، فإذا بهذا الغموض ، بحملتي على رفضها ، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدني حظي على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فأنقضى أكثر من ثلاثين عاما قبل أن تقع عيناى على أحد هذه الكتب الخطرة ، التي ما كانت أية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة ؛ لأنها لا تقرا إلا بيد واحدة فقط (١) .

وفي أقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب ، التي كانت لدى "لاتريبو" ، وأصبح افتقاري إلى ما يشغلني - خلال فراغي - أمرا مضنيا ، وكنت قد أبرأت نفسي من نزواتي الصبانية النابية ، بفضل ولعي بالمطالعة . بل إنني بفضل الكتب التي كنت أقرأها - برغم أنها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة - ملأت قلبي بمشاعر أنبل من تلك التي كان محيط حياتي يوحى إلي بها ، وإذا امتلأت استمرازا من كل شيء كان في متناول يدي ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا بإغرائني قد أقصى عني تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادي . وكانت حواسي المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن في وسعي أن أدرك كنتها ، ولو في الخيال ! .. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكانني خال من الجنس .. وكنت - لاكتمال نموي وإرهاق مشاعري - أفكر أحيانا في نزواتي ، ولكنني لم أكن أبصرما وراءها أي شيء .. وفي هذه الحال العجيبة ، أقبل خيالي المضطرب على شاغل أنقذني من نفسي وهذا من حساسيتي الشهوية النامية ! وكان هذا الشاغل هو تحليل نفسي بالحالات والمواقف التي استرعت انتباهي أثناء مطالعاتي ، وبفضل تذكرها ، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور أنها تمت لي حقيقة ، أصبحت واحدا من الشخصيات التي كانت تملا خيالي ، وأصبحت أرى نفسي - دائما - في أكثر هذه المواقف ملائمة لذوقي .. وأخيرا ، جعلتني الحال الخيالية - التي وفقت إلى وضع نفسي فيها - أنسى حالتي الحقيقية التي لم أكن راضيا عنها ! وقد أفضى بي هذا الولع بالموضوعات الخيالية ، والاستعداد الذي كنت أتوسل به إلى شغل نفسي بها ، إلى

(١) يقصد "روسو" الكتب المثيرة ، التي كان يبلغ من عنف إثارتها للقارئ أن تغريه على ممارسة العادات السيئة .

الاشمئزاز من كل شيء حولي، وإلى إقرار ذلك الميل إلى الوحدة الذي لم يفارقتني بعد ذلك . وسنرى - أكثر من مرة في سياق الحديث ، الآثار العجيبة التي ترتبت على هذا السلوك الذي كان يبدو كعبث ، ومنطويا ، ولكنه - في الواقع - راجع إلى قلب مفرط المعطف ، ومفرط الحب ، ومفرط الحنان، اضطر إلى أن يغذي نفسه بالآوهام إذ عجز عن أن يجد في الوجود أي قلب آخر يشبهه ! على أنني اكتفي - في الوقت الحاضر - بأنني حددت أصل ومبعث هوية خففت كل نزواتي ، وفرضت عليها من نفسها قيودا ، فجعلتني على الدوام بطيء التصرف، نظرا لفرط تأجيج شهوتي !



وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمري ، وأنا قلق، غير راض عن نفسي ولا عن أي شيء ، خلو من شيء من الميول التي تتوفر في مثل الحال التي كنت أعيش فيها .. خلو من ملاهي السن التي كنت أجتازها ، يضنيني اشتها الغاية التي كنت أجهل كنهها .. فكنت أبكي دون ما داع للدموع، وأنتهد دون أن أدري لذلك سببا ! وقصارى القول : كنت أداعب أطياخ خيالي بحنان ؛ لأنني لم أكن أرى حولي شيئا يرجحها .

وكان زملائي - الذين كانوا يتعلمون الحرفة معي - يفدون في أيام الآحاد يبحثون عني بعد الصلاة ، لأذهب فأنشد بعض اللهو معهم . كنت أشعر بأنني خليق بأن أغتبط لو استطعت أن أهرب منهم، ولكنني لم أكد أشارك في ملاهيهم مرة ، حتى ازدادت تمحسا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه !..

هكذا كان مسلكي دائما ، يصعب حملي على الشيء، كما يصعب إيقافني عن المضي فيه إذا ما بدأت .. فكنت - خلال زهراتنا خارج المدينة - أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أي واحد منهم ، دون ما تفكير في العودة، ما لم يتذكروها لي الآخرون .. ولقد تورطت في هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت - في اليوم التالي - أقابل من معلمي بما يمكن تصوره ! بل إنني أنذرت في المرة الثانية بأن أقابل - إذا ما تكرر التأخر - استقبالا جعلني أعقد العزم على ألا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية !.. مع ذلك، فقد قدر للمرة الثالثة أن تأتي ، برغم بشاعتها : فقد أفسد علي حرصي ضابط لعين من الحرس - كان يدعى الكابتن "مينوتولي" - اعتاد دائما أن يغلق "البوابة" التي كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة ! وكنت في تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ سمعت البوق الذي يستحث العائدين ، فضاغت من خطأي .. وعدت أسمع البوق، فهرعت بكل قواي .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا في العرق ، وقد راح قلبي يخفق بعنف .. ورأيت الجنود - من بعد - يتخذون مراكزهم، فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهديد .. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما إن أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الأمامي ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان في الهواء ، كنذر شؤم بغض بالمصير الذي كان في تلك

اللحظة بفغرفاه ليبتلعني !

وفي الفورة الأولى لأساي ، القيت بنفسي على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها ، وبادر زميلاي لترهما - وهما يضحكان من نحسهما - إلى تقرير ما ينبغي عليهما عمله .

وقد حدثت حذوهما ، ولكن قراري كان يختلف عن قرارهما . فقد أفسست - في تلك البقعة - ألا أعود إلى معلمي قط! فلما ولجا المدينة في الصباح التالي ، بعد أن فتحت الأبواب ، ودعتهما إلى الأبد ، ولم أسألها سوى أن يبنيا ابن خالي "برنارد" بقراري ، سرا ، وبالمكان الذي يستطيع أن يراني فيه مرة أخرى . . . ولم أكن - منذ تتلمذت في الحرفة - قد رأيته إلا لماما ، فقد ظللنا وقتا نلتقي في يوم الأحد من كل أسبوع ، ولكن كلا منا أخذ يتجه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . واعتقد أن لاهمه يدا في هذا التحول ، فقد كان من أبناء الحي الراقي بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبناء "سان جورفيه" - حي الفقراء بالمدينة - فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ؛ ومن ثم فقد كان من الحطه له أن يكون ذا شأن معي! . . . ومع ذلك ، فإن الصلات بيننا لم تنقطع تماما ، فإن ابن خالي - بما أوتي من فطرة طيبة - كان يتبع في بعض الأحيان ما كان يعليه عليه قلبه ، وليس ما كانت تمليه عليه أمه . . . فلما أنبئ بما عقدت عليه العزم ، أسرع إلي ، لا ليحاول أن يشيني عنه أو يشاطرنه ، وإنما ليخفف متاعب قراري ببعض المنح البسيطة ، إذ كانت مواردني لاتساعدني على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التي وهبها سيف صغير استهواني كثيرا ، وظللت أحمله حتى بلغت "تورين" ، حيث اضطررتني الضرورة إلى أن أنزل عنه ، إنني كلما فكرت - منذ ذلك الحين - في التصرف الذي انتهجه ابن خالي نحوي في تلك اللحظة المخرجة ، ازدادت اقتناعا بأنه إنما اتبع تعليمات أمه وربما أباه أيضا ، إذ إنه من الأمور التي لا سبيل إلى تصديقها أنه كان يقعد عن بذل أي مجهود لاستبقائي ، أو يحجم عن أن يتبعني ، لو أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه . . . ولكنه - على العكس - كان في مسلكه أقرب إلى تشجيعي على أن أمضي في خطتي ، منه إلى إثنائي عنها! . . . وعندما تبين أنني كنت مصمما تركني دون أن يذرف كثير دمع ، ولم يقدر لنا أن تبادل الرسائل أو أن يرى أحدهما الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لامر يدعو للأسف ، إذ كانت شخصيته بطبيعته طيبة ، وكنا قد خلقنا لكي يحب كل منا الآخر !

قبل أن أستغرق في الحديث عن حظي وقدرتي ، اسمحوا لي أن أحول عيني لحظة إلى الحظ الذي كان خليقا بأن ينتظرني - بحكم طبيعة الأمور - لو أنني وقعت بين يدي معلم أفضل من معلمي هذا . . . فما كان ثمة ما هو أنسب ليولي ، ولا ما هو أصلح لإسعادي ، من الحياة الهادئة ، المغمورة ، التي يحظى بها أي صاحب حرفة محترم ، لاسيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن في "جنيش" . . . إذ إن مثل هذا المركز - الذي يدر من الكسب ما يكفي لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفي لتكوين ثروة - كان كفيلا بأن يحد من طموحي ما تبقى لي من العمر ، وبأن يفسح لي فراغا شريفا لكي أرفع ميولي المتواضعة ، وبأن يستبقيني في المحيط المناسب لي ، دون أن يتيح لي أسباب تجاوزه . . . فقد كانت موارد خيالي من الخصب بحيث تغلغ جمالا على كل المهن والأعمال وما

يحيط بها من القوة بحيث تنقلني - إن صح هذا التعبير - من حال إلى حال، وفق إرادتي ، لذلك لم يكن للمركز الذي أجد نفسي فيه أي اعتبار مادي في الواقع ، وما كان أي مكان أوجد فيه ليبعد عن أولى قلاعي التي كنت أشيدها في الهواء بمسافة تقعدني عن أن ألوذ بقلعتي دون ما عناء .. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التي تنطوي على أقل عناء، والتي تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية ، هي التي كانت تروق لي أكثر من سواها .. وهكذا كانت مهنتي تماما! .. وكان من الممكن أن أقضي حياة هادئة وادعة ، كذلك التي تتطلبها ميولي ، في أحضان عقيدتي ، ووطني ، وأسرتي ، وأصدقائي وفي رتبة المهنة التي تلائم ذوقي ، وفي الرفقة المحببة إلى فؤادي .. كان من الممكن أن أكون مسيحيا طيبا، ومواطنا طيبا، وأبا طيبا لأسرة ، وصديقا طيبا، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبا في كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن أحب مركزي في الحياة، بل ولعلني كنت أمجده .. وكان من الممكن بعد أن أقضي حياة بسيطة وخاملة مغمورة في الواقع- أو فلاقلاً هادئة وقورا- أن أموت بسلام ، في أحضان أسرتي .. ومع أنني كنت خليقا بأن أغدو نسيا منسيا بعد قليل - دون ما ريب - إلا أنني كنت خليقا إذ ذاك بأن أجد من يحزن علي - على الأقل- ما بقي على قيد الحياة واحد ممن يذكرونني!

أية صورة أوشك أن أرسمها ، بدلا من هذه ؟ .. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف اشغل قرائتي بما هو فوق الكفاية من الأسى !

الكرامة الثانية

١- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة - التي أوحى إلي فيها الخوف بفكرة الفرار - حزينة فإن اللحظة التي أقدمت فيها على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة .. فقد كنت أهرج بلدي ، وأهلي ، وأسباب عيشي ، ومواردي ، وأنا بعد صغيرا .. كنت أنصرف عن حرفة - وأنا في منتصف دراستها - دون ما معرفة كافية بها ، تمكنني من أن أكسب عيشي .. كنت أسلم نفسي لاهوال العوز دون أية وسيلة لإنقاذ نفسي منها .. كنت أعرض نفسي - وأنا بعد في سن البراءة والضعف - لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت أنشد - في البعد - العذاب ، والخطأ ، والزلات ، والعبودية ، والموت تحت ربة أشد طغيانا من تلك التي لم أطق احتمالها .. هذا ما كنت أوشك أن أفعل ، وهذا هو المستقبل المحتمل الذي كان يجب أن أقدره .. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق ! .. كان الاستقلال الذي اعتقدت أنني اكتسبته هو الشعور الوحيد الذي أخذ يحركني .. فقد اعتقدت أن بوسعي - وأنا حر ، سيد نفسي - أن أفعل كل شيء ، وأن أحقق كل شيء ، وليس علي سوى أن أدفع نفسي فإذا بي أرقى وأحلق في الهواء ! .. لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمان ، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تفعم بصيت أعمالي ، وأني سأجد في كل خطوة احتفالات ، وكنوزا ، ومغامرات ، وأصدقاء على استعداد لأن يخدموني ، وعشيقات توافقات إلى إرضائي ! ..

فليس علي سوى أن أظهر ، فاشغل بال الدنيا بأسرها .. ومع ذلك فلم أكن راغبا في الدنيا كلها ، إذ كان بوسعي أن استغني عنها ، إلى حد ما .. كانت الرفقة اللطيفة تكفيني ، دون أن أضني نفسي ببقية الدنيا .. كنت في تواضعي قد قصرت نفسي على مجال ضيق ، مختار ، بهيج ، يكون سلطاني عليه أمرا محققا .. كان أقصى طموحي يتمثل في نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لي أن أكون أثيرا لدى السيد والسيدة وحبيبا للابنة ، وصديقا للابن ، وحاميا للمجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا في مزيد !

وفي ارتقاب هذا المستقبل المتواضع رحلت أهيم حول المدينة لبضعة أيام ، متخذة مقامي لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم ، وقد استقبلوني في كرم يفوق ما كان أي امرئ من سكان المدينة خليقا بأن يبذل لي ، فقد رحبوا بي ، وآووني ، وغذوني بكرم يفوق كل ما كنت أستحق .. ولا سبيل إلى وصف عملهم بأنه "إحسان" ، إذ إنهم لم يكونوا يخلعونه علي بترفع أو من .. وهكذا رحلت أنتقل وأهيم على وجهي ، حتى بلغت "كونفينيون" ، بمنطقة "سافوي" ، على بعد فرسخين من "جنيف" . وكان مطرانها يدعى السيد "دي بونفير" وقد استرعى انتباهي هذا الاسم الذائع في تاريخ الجمهورية ، وكنت تواقا لأن أشهد سلالة "فرسان الملعة" (١)

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا "دوق سافوي" وكانوا يؤلفون عصبة في "جنيف" في عهد الإصلاح وقد أطلق عليهم لقب "فرسان الملعة" ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم "أكلوا أعداءهم بالملعة" .. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعة مدلاة من أشرطة حول أعناقهم ، وكانوا يرأسهم فارس من آل "دي بونفير" .

وسمعت إلى السيد "دي بونفير" فتلقاني في رفق وتحدث عن زندقة "چنيث" ، وعن سلطان كنيسة الام المقدسة ، ثم دعاني إلى العشاء ، ولم أجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة ، بل إنني خرجت برأي أوحى إلي بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لا يفلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت -يقينا- أكثر معرفة من السيد "دي بونفير" ولكني كنت لا أقل صلاحية كضيف عني كمبتحر في علوم اللاهوت ، كما أن نبيذ "فرانجي" الذي قدم على المائدة ، والذي لاح لي بديعا كان موفقا في كسب كل حجة إلى صف المطران ، فقد كان خليقا بي أن أستحيي من أن أوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام .. ومن ثم فقد رحت أسلم بحججه أو - على الأقل- أحجم عن أن أبدي مقاومة صريحة . ولو أن أحدا رأى ما كنت أبدي من حذر لخالني مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق أنني إنما كنت أصدر في تصرفي عن ملاطفة عامة ، إذ إن الجماملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل إنهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ، لا سيما لدى الشبان . ذلك لأن الكرم الذي يعاملنا به أي شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فإذا ما جاريته في آرائه فلن يكون ذلك عن تلق ، بغية استغلال كرمه ، وإنما هو تجنب لإغضابه ، أو لمقابله حسنته بسيئة .. إذ ما الصالح الذي كان السيد "دي بونفير" يتبعه من وراء استقبالي ، أو إكرامي ، أو محاولة إقناعي ؟ .. لشيء سوى مصلحتي أنا . هكذا أنباني قلبي الشاب ، فهزني عرفان الجميل وتوقير مثل هذا الكاهن الطيب . وكنت أشعر بتفوقي عليه في المعرفة ، فلم أشأ أن أجازيه عن ضيافته بأن أذهله بهذا التفوق ، ومن ثم لم يكن في مسلكتي شيء من النفاق ، فما فكرت قط في أن أغير ديني ، بل إنني كنت أبعد ما أكون عن أن أروض نفسي سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا في استنكار ساعد على أن يقصصها عني أمدا طويلا . إنما كانت كل رغبتني هي أن اتفادى إغضاب أولئك الذين كانوا يحسنون معاملتي سعيا منهم إلى تحويلي عن عقيدتي ، كنت أبني أن أثمي حسن نواياهم ، وأن أدع لهم الأمل في النجاح ، وذلك بأن أبدي لهم أنني أقل مناعة مما كنت في الواقع ، وكان مسلكتي في ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللاتي يعرضن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعترضن أن يحققنه أحيانا في سبيل بلوغ مآربهن ، دون أن يجدن بشيء ، أو بتقيد بوعدها !

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام تتطلب من الناس أن ينقذوني من الدمار الذي كنت أهرع لملاقاته ، وإعادتي إلى أسرتي ، بدلا من معاونتي على طيشي ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله ولكن السيد "دي بونفير" وإن كان رجلا طيبا ، إلا أنه لم يكن -قطعا- بالرجل التقى .. بل إنه كان - على النقيض- متعصبا ، لا يعرف عن التقوى سوى أنها عبادة الصور ، ترديد التسابيح .. كان من ذلك النوع من المبشرين الذين لا يملك الواحد منهم أن يفكر في شيء لمصلحة عقيدته ، أفضل من كتابة الاتهامات ضد فساوسة "چنيث" .. وبدلا من أن يردني إلى موطني ، استغل الرغبة التي كنت أحس بها في الفرار من هذا الموطن ، وعمل على أن يجعل العودة متعذرة علي ولو شئتها .. ومن المحتمل أن الطريق التي وجهني إليها كانت كفيلة بأن توردي موارد التعاسة ، أو أن تجعلني إمعة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يحسب حسابه ،

فما كان يرى أمامه سوى نفس انقذت من الكفر وردت إلى الكنيسة . سواء اكنت شريفا أم وغدا ، فما قيمة ذلك مادمت اذهب إلى القديس ؟ .. علي أن المرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك بل إنه مألوف لدى كافة الأديان المتعصبة التي يعتبر الإيمان هو الشيء الرئيسي فيها ، وليس الأعمال !

وقال لي السيد "دي بونفير" : "إن الله يدعوك ، فاذهب إلى "أنيسي" ، وهناك ستجد سيدة طيبة ، محسنة ، جعلها كرم الملك في مركز يمينها من إنقاذ الأرواح من الخطأ الذي نجت هي نفسها منه ! " . وكانت السيدة المقصودة هي "مدام دي فاران" ، التي اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتي اضطرها القساوسة - في الواقع - إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء معاشا قدره ألف فرنك كانت تتلقاه من ملك "سردينيا" . وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة طيبة محسنة؛ فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفي بحاجاتي وليس إلى أن أحظى بصدقات ! .. كما أن التفرغ للدين لم يكن يستهويني ، ومع ذلك فقد حملت نفسي - في شيء من العناء - على أن أسعى إلى "أنيسي" مدفوعا بإلحاح السيد "دي بونفير" ، وبضغط الجرع ، وبمتعة الرحيل في سبيل غاية محددة ، وكان بوسعي أن أبلغ وجهتي في يوم واحد ولكنني استغرقت في سفري ثلاثة أيام؛ إذ لم أكن في عجلة من أمري . ولم أجزؤ - في تلك الأثناء - على أن ألج قصرا ، أو أقرع بابا؛ فقد كنت بطبعي شديد الخجل ولكنني كنت أغني تحت النوافذ التي يراودني الأمل في أن يكون خلفها من يسمعي ، وكنت أصدم عندما أنهك رثتي بالجهد المتواصل ثم لا أرى سيدات ولا عذارى يتجذبن إلى صوتي أو معاني أغاني ، لاسيما وأنني كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها زملائي ، وكنت أغنيها في إلقاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت أخيرا ، فرأيت مدام "دي فاران" . ولقد حددت هذه الفترة من عمري شخصيتي ، فلست أقوى على أن أحمل نفسي على المرور بها مرارا سريعا .. كنت في منتصف العام السادس عشر من عمري ، وكنت بديع التكوين ، دون أن أكون ما يسمونه "فتى مليحا" .. كنت صغير القدم ، مستوي الساق ، رضي الخلق ، ذا قسما متعبرة ، وفم صغير بديع ، وشعر فاحم ، وحاجبين أسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ولكنهما - مع ذلك - كانتا ترسلان بقوة تلك النار التي كانت تتأجج في دمي ! .. على أنني - لسوء الحظ - لم أكن أعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لي قط - خلال حياتي - أن أفكر في مظهري الشخصي اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه ! .. وكان الجبن المألوف في مثل سني هذه يرتبط بوجع ناشئ عن شخصية جبلت على الحب ، فهي دائما في هم من خشية الإساءة إلى أحد . هذا إلى جانب أنني وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشأ على التسامح ، إلا أنني لم أكن قد رأيت الدنيا ، وكانت تعوزني "آداب" السلوك .. وبدلا من أن تسد معرفتي هذا النقص فإنها لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلي وجبني ؛ إذ أظهرتني على مدى حاجتي الماسة إلى هذه الآداب ! ومن ثم فإن خوفي من أن يخفق مظهري - في أول لقاء مع مدام "دي فاران" في أن يكسب عطفها دفعني إلى تجشم متاعب أخرى - فنظمت رسالة بديعة ، في أسلوب خطابي ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال ، وكشفت عن كل بلاغي ؛ لكي أكسب رضاء السيدة ، وأرفقت برسائلي خطاب السيد "دي بونفير" ، ثم سعبت إلى المقابلة التي كنت أربها ! .. ولم تكن مدام "دي فاران" في البيت بل قيل لي إنها بارحته لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم أحد السعف من عام ١٧٢٨ ، فهرعت في أثرها ، ورأيتها ، فلحققت بها وخاطبتها ، وخليق بي

أن أذكر البقعة التي التقينا فيها ، فكم رويتها بدمعي وغطيتها بقبلائي منذ ذلك الحين ! وكم أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن اجتلب إليها تمجيد العالم وخشوعه .. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات خلاص النفوس البشرية ألا يقترب منها إلا وهو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصل بين جدول - إلى اليمين - يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفناء - إلى اليسار - ويؤدي إلى باب خلفي لكنيسة الفرنسيسكان (١) وفي اللحظة التي همت فيها مدام "دي فاران" باجتياز هذا الباب سمعت صوتي ، فالتفتت خلفها ، وكم أذهلني منظرها !.. كنت قد تمثلتها عجوزا ، عابسة ، متعصبة في تدينها- فما كانت السيدة التقية التي تعرف السيد "دي بونفير" لتعدو هذه الصورة ، في رأيي !- بيد أنني رأيت بدلا من هذه الصورة وجها يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين جميلتين - مغممتين رقة- وبشرة تبهر البصر ، ومعالم عبق فائن .. لم يفلت شيء من النظرة السريعة التي القاهها المريد الفتى- فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا تلميذا متعلقا بها- وقد داخلني اقتناع بأن ديننا يبشر به حواريون من قبيل هذه السيدة ، لا بد أن يقود إلى الفردوس ! وتناولت مني المرأة مبتسمة ، الرسالة التي قدمتها إليها بيد مرتجفة ، وألقت نظرة على ما كتب السيد "دي بونفير" ، ثم ارتدت إلى ما كتبه أنا فقراته كله ، وهمت بأن تعيد قراءته لولا أن نبهها خادمها إلى أن الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لي بلهجة هزت كبائي :

"حسنا يا صغيري .. إذن فانت تهيم في البلاد ، في مثل هذه السن؟ .. إنه لأمر يستحق الرثاء حقاً! .. ولم تنتظر حتى أجيب ، بل أردفت: " اذهب فانتظري ، وسلمهم أن يقدموا لك فطوراً .. ولسوف آتي بعد الصلاة لأحدث إليك "

كانت "لويز اليونور دي فاران" شابة تنتمي إلى آل "لاتوردي بيل" ، وهي أسرة عريقة ونبيلة من أسرات "فيفاي" إحدى مدن مقاطعة "فودن" ، وكانت قد تزوجت وهي جد صغيرة من السيد "دي فاران" - من آل "لويس" - وكان الابن الأكبر للسيد "دي فيلاردان" ، من "لوزان" ، ولم يكن هذا الزواج - الذي لم يعقب ولدا- زواجا هنيئا ، فلم تلبث السيدة "دي فاران" - تحت تأثير حزن عائلي - أن انتهزت فرصة وجود الملك "فيكتور أماديو" في "إيفيان" فعبرت البحيرة ، وألقت بنفسها عند قدمي هذا الأمير .. ومن ثم هجرت زوجها وأسرته وبلادها ، في فورة حمقاء تشبه فورتي !- وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا - وإذا كان الملك مشغوقا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكي الغيور ، فإنه أخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا سنويا قدره ١٥٠٠ جنيهه ببيمونتي (٢) .. وهو مبلغ كبير بعد إسرافا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء .. على أنه علم بعد ذلك بما قيل - بسبب استقباله إياها - من أنه أحبها ، فما كان منه إلا أن أرسلها إلى "أنيسي" في حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية في دير "الزيارة" ، تحت إرشاد روحي من "ميشيل جابرييل دي برنيكس" ، الأسقف الاسمي لـ "جنيف" .

وكانت قد قضت ست سنوات في "أنيسي" عندما قدر لي أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ في الثامنة العشرين من عمرها؛ إذ ولدت في بداية القرن ، ولقد كان جمالها من النوع الذي يبقى مع الزمن؛ إذ إنه يقترن بالحياة أكثر منه بالملامح والقسمات .. كما أنه كان - لديها في باكورة تألقه . فكان لها طابع لطيف

(١) أصحاب المجال : وهم أفراد طائفة دينية أنشأها القديس "فرانسيس الأسيسي" في سنة ١٢٢٣ وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعات أنشأها "دانون" و"مارا" و"دمولان" - زعماء الثورة الفرنسية - في سنة ١٧٩٠ كانت تعقد اجتماعاتها في دير الفرنسيسكان العتيق بباريس .
(٢) نسبة إلى ولاية "بيمونتي" - تكتب بالحروف اللاتينية "بيد مونت" ولكن التاء تغفل في النطق- وتقع على حدود "فرنسا" و"سويسرا" ، في الشمال الغربي لـ "إيطاليا" .

، حنون ، وشكل رقيق وابتسامة ملائكية، وفم يشبه فمي، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله في إهمال كان يكسبها مظهرا اخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل إنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على أنها أوتيت رأسا وصدرًا ويدين وذراعين لاتملك العين أن تقع على أجمل منها .. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمها عند مولدها - مثلي - وتلقت العلم في غير انتظام ، كلما عن لها أو صادفتها الفرصة .. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيته، وقليلًا من أبيها، وقليلًا من مدرسيها ، وحظًا وافرًا من عاشقيها لاسيما من شخص منهم يدعى السيد "دي تافيل" كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التي تنجبه إليها عواطفه بروائع معرفته، ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة - بهذه الكثرة - جعل كلا منها يعرقل الآخرًا ولما كانت السيدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فإن إدراكها السليم - بطبعه - لم يصب أي تحسن . ومن ثم فإنها - برغم إلمامها بشيء من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة - ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبي (١) والكيمياء ، وكانت تحضر أنواع : "الإكسير" والأصباغ ، والبلاسم (المراهم) والمساحيق السامة (٢) . وكانت تزعم أنها تمتلك عقاقير سرية! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها، فتسلطوا عليها، واعتوها ، وأفلسوها .. وبين البواق والعقاقير بددوا ذكائها، ومواهبها، ومفاتيحها التي كانت خليفة بأن تبهر بها أرقى مجتمع! .. ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبيثاء أساءوا استغلال تربيتها التي لم تلق التوجيه الصالح - لكي يطفئوا ضياء عقلها - إلا أن قلبها السامي صمد للمحنة ، وظل دائمًا على سموه .. ما تغيرت شخصيتها الودود اللطيفة، ولا عطفها على التمساء ، ولا طيبته التي لم يكن لها حد ، ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم .. بل إنها حين عدا عليها الكبير، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الأنواع ، ظلت سجيته الوادعة الجميلة، محتفظة - حتى نهاية عمرها - بكل ما كان بها من بهجة في أهنأ الأيام!

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذي كان في حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغي شيئًا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغي مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم في الشؤون المهمة ، ولو أن مدام "دي لوجيفيل" كانت في مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات .. أما هي، فلو أنها كانت في مكان مدام "دي لوجيفيل" لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها أن تتوفر في غير المجال الصالح لها، فإذا هذه المواهب التي كانت خليفة بأن تجلب عليها الشهرة - لو أنها كانت في مركز أسمى -، تؤدي إلى دمارها وهي في المركز الذي عاشت فيه! .. ذلك أنها كانت - في كل ما يقع في مجال طاقتها العقلية - ترسم خططها مبكرة في رأسها فتري غايتها مضخمة، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبًا مع آرائها منها مع قوتها .. ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، أفلست ولما يكدها سواها يخسر شيئًا .. على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية - الذي أضر بها أبلغ الضرر - كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى في عزلتها الرهبانية، إذ حال بينها وبين البقاء في هذه العزلة ما بقي من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان من المحتمل أن تليق حياة الرهبانيات المنتظمة المنتقشة، ولا الثروة المنبعثة عن الحصول والكسل بعقل كان في حركة مستمرة ، وكان يبتكر في كل يوم نظامًا جديدة، ويحتاج إلى الحركة ليكرس ذاته لهذه النظم!

وكان أسقف "برنيكس" الطبيب يشبه "فرانسوا دي سال" (٣) في كثير من النواحي ، وإن لم يعد له مهارة .. كما أن مدام "دي فاران" - التي كان يدعوها بابته - كانت تشبه مدام "دي شانثال" (٤) في

(١) الطب التجريبي هنا يقصد به ذلك الطب الذي تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب "البركة" . (٢) المساحيق السامة مساحيق كانت تعزى إليها ميزات عالية . (٣) أسقف "جنيف" (١٥٦٧-١٦٢٢) (٤) سيدة امتازت بتقواها ، وهي التي أسست نظام راهبات "الزراعة" وقد أقر رهبنتها البابا "كليمينت الثالث عشر" .

كثير من النواحي ، وكانت خليقة بأن تشبهها أيضا في اعتزالها الناس لولا أن حياة الدير الحاملة كانت بغضبة إليها . ولم يكن عن نقص في حمية هذه السيدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التي تتطلبها الرهينة ، والتي كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف . فمهما يكن الباعث الذي أغراها على أن تبذل عقيدتها ، فإنها كانت صادقة الإخلاص - عن يقين - للعقيدة الجديدة التي اعتنقتها . ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على إقدامها على ذلك إلا أن من الأكيد أنها لم ترغب قط في النكوص ، فهي لم تمت على مذهب الكشلكة فحسب ، بل إنها برهنت خلال حياتها على أنها كانت كاثوليكية صالحة ، وإني لأجرؤ - وأنا الذي يعتقد أنه قد اطلع على سريرتها - على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع .

كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملا . . على أن هذا ليس بمجال الحديث عن مبادئها ، فلنستريح لي فرص أخرى للخوض فيها .

على الذين ينكرون تعاطف الأرواح أن يفسروا - إن استطاعوا - كيف أن مدام "دي فسانران" أوحى إلي منذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الأولى ، والنظرة الأولى بشقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما أوحى إلي به من مشاعر الولاء والتعلق ، ولو سلمنا بأن أحاسيسي نحوها كانت حبا حقيقيا - وهو ما سيبدو موضع شك ، على الأقل ، لأولئك الذين يتتبعون تاريخ علاقتنا - فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشاعر قل أن أوحى بها الهوى - وأعني بذلك طمانينة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والاعتماد ؟ - كيف تسنى أنني عندما سمعت لأول مرة إلى امرأة لطيفة ، مهذبة ، ذات جمال باهر . . إلى سيدة أرفع مني مقاما - وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها - وكان مصيري ، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميل للأخذ بيدي . . أقول : "كيف تسنى - رغم كل هذا - أن أشعر لغوري بانطلاق ، وبارتياح تام ، وكأنني كنت واثقا كل الثقة بأنني سأروق لها ؟ . . كيف تسنى أنني لم أحس - ولو للحظة واحدة - بأية حيرة ، أو ارتباك ، أو تخرج ؟ . . لقد كنت بطبيعتي خجولا ، سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا ، فكيف تسنى لي منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن اتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليغة التي سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عندما جعل النود الوثيق هذه الأمور طبيعية ؟ . . فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة - ولست أقول بدون رغبات ، فإن هذه كانت متوفرة لدي - أفلا يرغب المرء في أن يعرف على الأقل - من هدف عواطفه - ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا ؟ . . الواقع أنه ما خطر لي في حياتي أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسي ما إذا كنت قد أحببتها ! . . كما أنها لم تبد فضولا نحو من هذا القبيل . كان ثمة شيء فذ في مشاعري نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارئ - في سياق حكايتي - عجائب غير مرتقبة !

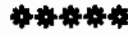
كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه أمري ، وقد استبقتني السيدة للغداء كي نتحدث بشأن مستقبلتي . وكانت تلك أول مرة في حياتي تخلت عني فيها شهيتي ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة - التي قامت بخدمتها على المائدة - إنني كنت أول قادم من سفر ، في مثل سني وطبقتي ، راته في مثل هذه الحال ، ومع أن هذه الملاحظة لم تنل مني في نظر سيدتها إلا أنها أصابت مرعى في نفس طفيلي كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفي ستة أفراد ! أما أنا ، فقد كنت في حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لي سبيلا إلى الأكل . كان قلبي يتغذى من شعور

جديد علي كل الجدة، وقد ملا كل كياني ، ولم يدع بنفسه ميلا إلى أي شيء آخر !
ورغبت مدام "دي فاران" في أن تعرف دقائق تاريخ حياتي القصيرة ، فاستعدت وأنا أرويهما كل ما فقدت خلال تتلمذي في الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استشرت اهتمام تلك الروح السامية، ازدادت هي إشفاقا علي مما اعتزمت أن اعرض حياتي له . ولم تجرؤ علي أن تنصحي بالعودة إلى "چنييف" ، فقد كان ذلك - بالنسبة لموقفي - عملا ينطوي على خيانة للعقيدة الكاثوليكية، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . علي أنها حدثتني بلهجة مؤثرة عن أسي أبي ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحب عودتي كي أواسيه، ولم تكن تدري كيف أنها كانت تتراجع بقوة ضد نفسها ، دون أن تدري ، إذ أظنني قد قلت من قبل إن عقلي كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة وإقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا في فؤادي ازدادت عجزا عن أن أفكر في الانفصال عنها ! كنت أشعر بان العودة إلى "چنييف" بمثابة إقامة عوائق لاسبيل إلى تذليلها بيني وبين هذه السيدة ، ما لم أتشبث بهذه الخطوة التي اتخذتها ؛ ومن ثم ظللت صامدا في موقفتي ، وإذ رأت مدام "دي فاران" أن جهودها غير مجدية لم تمنع في الإلحاح ، حتى تتفادي إحراج نفسها ، بيد أنها قالت لي وهي ترمقني في إشفاق : "أيها الصغير البائس ، يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستذكر حديثي عندما تكبر!"

واعتقد أنها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التي قدر لهذه النبوءة أن تتحقق بها !
وكانت المشكلة عسيرة ، وكيف كان بوسعي - وأنا في مثل تلك السن الصغيرة - أن أجد موارد للعيش بعيدا عن وطني ؟ .. كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتي وأنا لم اكد أتم نصف فترة التعلم والمران .. حتى لو أنني كنت أتقنها ، فقد كنت خليقا بأن أعجز عن كسب قوتي منها في إقليم "سافوي" ؛ لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون .. على أن الطفيلي الذي كان يلتهم الأكل - نيابة عن السيدة وعني - وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كي يريح فككه ، فانتهاز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا - إذ حكمنا عليه بنتائجهم - بأن يكون مستلهما من مكان آخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوحى بأن أذهب إلى "قورين" حيث أجد عوناً روحياً وبدنياً في دار للضيافة أقيمت للوعظ والتعليم الديني، إلى أن يتاح لي أن أنضوي تحت لواء الكنيسة ، فاستطيع أن أحصل على عمل بفضل أريحية المحسنين . واستطرد صاحبي قائلا : "أما نفقات رحلته، فإن سيادة الأسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيري عليه . ولا مراء كذلك في أن السيدة "البارونة" وتابع قوله وهو ينحني على طبقه : "وهي جد محسنة ، ستثوق هي الأخرى إلى المساهمة ."

ووجدت فكرة الإحسان بهذا الشكل جد بغیضة فأنقل الألم قلبي ولم أنيس ببنت شفة . أما مدام "دي فسانان" ، فقد اكتفت بأن قالت - دون أن تتحمس في قبول الاقتراح - إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما في وسعه ، وأنها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد ولكن صاحبنا اللعين الذي لم يكن له في الأمر شأن يذكر ، والذي كان يخشى ألا تتحدث السيدة إلى الأسقف بالطريقة التي كان يرجوها ، سارع إلى دعوة المحسنين ، وبذل جهده في إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام "دي فاران" - التي كانت تخشى علي من الرحلة - في الحديث إلى الأسقف عنها وجدت أن كل شيء قد دبر . وأسلمها الرجل لفوره النقود التي خصصت لنفقات رحلتي

المتواضعة ، فلم تجسر على الإلحاح في بقائي ، إذ كنت أقترب من السن التي لا يليق عندها بامرأة في عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها في استبقاء شاب معها ! واضطرت - بعد إذ دبرت رحلتي بهذا الشكل - إلى الانصياع ، بل إنني أقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع أن "تورين" كانت أبعد من "جنيف" - كما قدرت - إلا أنها ، كعاصمة للإقليم ، كانت أوثق اتصالاً بـ "أنيسي" من أية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفي أرض أجنبية ، وإلى جانب أنني كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام "دي فاران" فإنني اعتبرت نفسي باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا أهم عندي من أن أقسم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق في رحلة طويلة أثارت شغفي بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه، وبذالي أن من التجارب البديعة أن أعبر الجبال - وأنا في تلك السن - وأن أرفع نفسي عن كل رفاقي بقدر ارتفاع جبال "الألب" .. إن في مشاهدة مختلف الاقطار لسحرا لا يكاد أي امرئ من أبناء "جنيف" يقوي على مقاومته . ومن ثم فقد قبلت الرحيل . وكان ذاك الطفيلي مزما أن يسافر مع زوجته خلال يومين، فعهدوا بي إلى رعايته ، كما عهدوا بنقودي - التي ضاعفتها مدام "دي فاران" - إليه . على أنها منحتني كذلك مبلغا بسيطا لمصروفي الخاص، وزودتني بنصحها .. وفي يوم الاربعاء من "أسبوع الآلام" ، بدأنا سفرنا .



وفي اليوم التالي لرحيلتي ، وصل أبي إلى "أنيسي" - متعقبا أثري - مع صديقه السيد "ريغال" ، وهو ساعتني مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم أشعارا تفوق أشعار "لاموت" ولم يكن يقل إبداعا للكلام عنه بالشعر ، فضلا عن أنه كان طيبا في كل ناحية ، بيد أن ميله للادب - في غير مجاله - لم يجد عليه من الثمار سوى دفع أحد أبنائه إلى اعتلاء المسرح ! .. ولقد قابل السيدان - أبي وصاحبه - مدام "دي فاران" واكتفيا بأن رثيا لخطي ، بدلا من أن يتبعاني ويسترداني، وهو أمر كان من اليسير عليهما أدائه ، إذ إنهما كانا يمتطيان جوداين ، في حين أنني كنت أسير على قدمي ولقد حذا خالي "برنار" حذوهما ، فوصل إلى "كونفينيون" ثم ارتد إلى "جنيف" بعد أن سمع أنني كنت في "أنيسي" .. وكأنما كان أهلي متحالفين مع نجمي المنحوس على أن يسلموني إلى المصير الذي كان يرتقبني ، ولقد ضاع أخي بفضل إهمال شبيه بهذا ، وكان ضياعه شبه نهائي ، حتى إن أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبي رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتيت نفسا من تلك النفوس القوية القادرة على جليل الفضائل، وكان فضلا عن ذلك أبا صالحا لاسيما بالنسبة لي ، فقد كان يحبني ويخصني بحنان فياض ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب - مذ أصبحت أعيش بعيدا عنه - ميولا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشيء . وكان قد تزوج مرة أخرى في "نيون" ، ومع أن زوجته لم تكن في سن تمكنها من أن تمنحني إخوة ، إلا أنها كانت ذات اقارب وأهل ، مما خلق لأبي أسرة جديدة، وأهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكشر من استعادة ذكراي .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكنني وأخي كنا قد ورثنا عن أمنا ثروة بسيطة ، كان من حق أبي أن يحصل على ريعها في غيابنا، ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هي حالت بينه وبين أداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية في نفسه، دون أن يفتن إليها! قد خففت - في بعض الأحيان - من تحمسه الذي كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق في تعقب أثري ،

كما حدث عقب رحيلي عن "أنيسي". وهذا - فيما اعتقد - هو السر في أنه ، وإن كان قد سعى إلى "أنيسي" للبحث عني في الواقع ، فإنه لم يتبعني إلى "شامبييري" ، حيث كان حريابان يعثر علي ولايد .

وكان هذا هو السر كذلك في أنه كان يستقبلني عندما أزوره - كما صرت أفعل كثيرا بعد فراري - بعناقات الالب وقبلاته ، ولكن .. دون أن يبذل أي جهد صادق لاستبقائي معه !

على أن هذا التصرف من جانب أبي - الذي كنت أعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة - قادني إلى تأملات في حالي ، ساهمت بدرجة غير طفيفة في استبقاء قلبي سليما ، فمنها استنتجت الدرس الاخلاقي العظيم الذي قد يكون الدرس الاوحد ذا القيمة العملية : تفادي تلك المواقف التي تعترض الحياة ، والتي تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا ، والتي تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع في مصائب الغير .. فمن المؤكد - في مثل هذه المواقف - أنه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقا فلا بد من أنه سيأخذ في الضعف ، دون أن تنتبه إلى ذلك - إن عاجلا أو آجلا - حتى يصبح ظالما شديدا في تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفاً طيباً في أعماق قلوبنا !

هذا المبدأ الذي انطبع في قرارة فؤادي ، والذي هداني - وإن جاءت هدايته متاخرة - في كل مسلكي في الواقع ، هو أحد المبادئ التي جعلتني أبعد مخلوقا شديد الغربة والخماقة في نظر العالم ، وفي نظر معارفي قبل سواهم ! ولقد عيب علي أنني أحاول أن أظهر فذا ، مغايرا لكل من عداي ، والحقيقة هي أنني لم أجشم نفسي قط عناء التصرف على شاكلة غيري من الناس ، أو على نقبضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى أن أفعل ما كنت أراه صوابا . فكنت أبتعد - بقدر ما في وسعي - عن المواقف التي تجعل مصالحني متعارضة مع مصالح الغير ، والتي قد توحني إلي - من جراء ذلك - برغبة خفية في إيذاء الغير ، ولو دون إرادة مني .. ولقد أراد سيدي اللورد "مارشال" أن يثبت اسمي في وصيته - منذ عامين - فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له : إنني لا أبغض شيئا في الدنيا ، قدر أن أعلم أن اسمي مثبت في وصية أحد ، وفي وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته ولكنه أصر على أن يمنحني معاشا مدى الحياة ، فلم أعارض . ولسوف يقال إنني كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. أواه أيها الأب وأيها المحسن ! .. إنني لا وقر بأنه إذا قدر لي - لتعاستي - أن أعيش بعدك ، فإنني سأفقد بفقدانك كل شيء ، ولن أكسب شيئا !

هذه - في رأيي - هي الفلسفة الحققة ، بل الفلسفة الوحيدة التي تناسب القلب البشري في الواقع ، وإنني لأزداد في كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى إنني عرضتها - تحت أضواء متعددة - في كتاباتي الحديثة ، ولكن الجمهور سطحي الإدراك ، لا يعني إلا بالقشور ، فلم يدر كيف يستوعبها . ولو قدر لي أن أعيش ، بعد أن أفرغ من مهمتي الحاضرة ، حتى أضطلع بمهمة جديدة ، فإنني أعزم أن أقدم - على غرار ما فعلت في "إمسيل" (١) - مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة ، يضطر القارئ إلى أن يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة !



وجدت الرحلة أبدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقي الطفيلي من السماجة بالمقدر الذي كان يلوح عليه : كان رجلا في أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب في حوافه ، وقد بدأ كجندى من قاذفي القنابل ، وأوتي صوتا جهوريا .. وكان عارم البشاشة ، يغذ (يسرع) في سيره ، ويسرف في

(١) بقصد بهذه الإشارة ما أورده في الخطاب العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة "هيلوز الجديدة".

أكله، ويمارس كافة أنواع الحرف، دون أن يجيد شيئا منها.

واعتقد أنه كان يزمع إنشاء مصنع ما في "أنيسي"، ولم تتخل مدام "دي فاران" عن تحبيز فكرته، وكان لابد له - كي يقدم على المحاولة - من الحصول على موافقة الوزير؛ ولهذا كان في طريقه إلى "تورين"، مزودا بالمال. وكان صديقنا هذا ذا براعة في الدس والتآمر، حريصا دائما على أن يتقرب إلى رجال الدين، وبينما كان يبدي تلهفا عظيما على أداء الخدمات لهم استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلها مباهايا بأنه واعظ كبير... بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية، كان لا يكف عن ترديدها ألف مرة في اليوم، فيبدو وكأنه يعرف ألفا منها... ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا... كان بارعا أكثر منه أفاقا، وكان عندما يردد "كابوشينياته" (١) بلهجة ضابط تدريب المهندسين، يشبه الراهب "بطرس" (٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية، ملقيا خطبه الدينية وهو ممسك بسيف!... أما زوجته - السيدة "سابران" - فكانت امرأة طيبة، أهدأ بالنهار منها بالليل. ولما كنت أنام في حجرتهما فإن نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظني، وكان خليفيا بأن يستيقظني ساهرا لو أنني علمت سببه، ولكني لم أشعر باتفه ريب، وقد أدى غيائي في هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمي على الطبيعة وحدها!

ومضيت في رحلتي مع مرافقي التقي وزميلته الصاخبة، دون أن تعكر صفو سفري أية بادرة. كنت أسعد، بدنيا وذهنيا، بما كنت طيلة عمري. كنت فتى قويا، موفور الصحة، خلوا من الهم، مفعما بالثقة في نفسي وفي الغير. كنت أستمع بتلك الفترة الغالية - برغم قصرها - من الحياة... اللحظة التي تنبسط فيها الحياة على سمعتها فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيسنا، وتجعل الطبيعة في أبصارنا، إذ تبديها تحت سحر وجودنا... وكان قلقي البهيج يخضع لهدف يقيد من حدته، ويسكن من خيالي. كنت أنظر إلى نفسي كصنيعة وتلميذ وصديق، بل وحبيب - تقريبا - لمدام "دي فاران" كانت الأمور المؤدبة التي حدثتني بها، واللفظ البسيط الذي خصتني به، والاهتمام الحنون الذي لاح أنها أولتني، ونظراتها الودية التي بدت لي وكأنها مليئة بالحب - إذ إنها كانت تلهمني هذا الشعور - كل هذه الأمور شغلت أفكاري خلال الرحلة، وأغرقتني في أحلام لذية لم يكن يعكرها أي خوف أو شك بشأن مستقبلتي. فقد رأيت أنهم - إذ أوفدوني إلى "تورين" قد تكفلوا بأن يعولوني هناك، وأن يحصلوا لي على مركز مناسب؛ لذلك شعرت بأنني في غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسي بعد ذلك، فقد حملته عني سواي، ومن ثم مضيت في سفري بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء. كان كل شيء يلوح لي وكأنه يعزز سعادتني المبكرة، وكنت بين الجدران أصور لنفسني المآدب والحفاوات الريفية... وفي المرج أصور لنفسني الألعاب الخشنة... وعلى ضفاف الأنهار: السباحة والنزهات وصيد السمك... وفوق الشجر: الفواكه الشهية... وتحت ظلالها: الخلوات العاشقة... وعلى الجبال: دلاء مترعة باللبن والقشدة، وخمول حبيب وسكينة وبساطة، ومتعة الانطلاق دون ما غاية!... وقصاري القول إنه لم يكن ثمة ما يصادف بصري دون أن يبعث في فؤادي شيئا من الافتتان المتع... كانت فخامة المناظر المحيطة بي، وتنوعها. وجمالها الخفيقي تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل، بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب في ذلك، فقد لاح لي شرفا يفوق ما يؤهلني له عمري أن أزور "إيطاليا" - وأنا لا أزال صغيرا - وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا، وأن أقفوا أثر "هانيبال" عبر الجبال!... وكنا - إلى جانب

(١) خطب وعظات دينية غثة، كانت التي كان يلقيها الرهبان "الكابوشان" (٢) يعتبر بطرس الراهب أهم مخرج على شن الحملة الصليبية الأولى وكان يطوف بغرى أوروبا على ظهر بخله، ويخطب في الناس ممسكا سيفا ويتخذ من الفيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد.

ذلك - كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتي متفتحة للاكل ، كما كان إرضاءها متوفرا بكثرة ، والواقع أنني لم أجد داعيا لأن أحرم نفسي شيئا ، لاسيما وأن وجباتي لم تكن بالشيء الذي يذكر إذا قورنت بوجبات السيد "سابران" !

ولست أذكر خلال حياتي كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت في الأيام السبعة أو الثمانية التي استغرقتها رحلتنا ! فإن مقدرة السيدة "سابران" على السير - وهي المعدل الذي كنا مضطرين إلى أن ننظم خطانا وفقا له - جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام !

ولقد خلفت لي ذكرى هذه المناسبة ميلا شديدا إلى كل شيء كان مرتبطا بها لاسيما الجبال والسير على الأقدام ، فما سبق لي في الأيام السالفة من عمري ، أن سافرت على قدمي .. فضلا عن أن سفري هذا كان مقترنا بأعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة ، اضطرتني فيما بعد إلى أن أتخذ دور السيد الراقى ، وأن أستقل عربة في أسفاري . كما أن الهموم ، والارتباكات والشواغل الممضة لم تلبث أن تسربت إلي ، فغدا كل هسي في رحلاتي متجها إلى بلوغ غايتي ، بعد أن كنت لا أكثر بشيء سوى الاستمتاع بالسفر .. ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول أن أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولي بحيث يقبلان أن ينفقا خمسين "لوي" (١) من مالهما ، وعاما من وقتهما في الترحال معي على الأقدام ، لنجوس خلال "إيطاليا" ، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ولكنهم لم يكونوا يرونها - في الواقع - أكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون أي تفكير في تنفيذه ! وإني لأذكر أن "ديديرو" و "جرم" - اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة - قد تمسسا لها في النهاية ، فخيل إلي أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق ، لم يجد فيها "جرم" من السرور أكثر من أن يجعل "ديديرو" يرتكب عددا من الأخطاء الإلحادية ، ثم يسلمني إلى التحقيق بدلا منه ! (٢)



لم يخفف من أسفي لسرعة الوصول إلى "تورين" سوى سروري برؤية مدينة كبيرة ، والامل في أن يقدر لي أن أقوم بدور يليق بشخصي ، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد في مخي ، وأصبحت أرى أنني قد سموت - إلى ما لا نهاية - فوق حالتي السابقة أيام كنت أتنلمذ للحرفة .. وكنت أبعد من أن أظن - مجرد ظن - أنه قد كتب لي أن أهوي ، في أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحال .. على أن من واجبي أن أسأل القارئ الصفيح ، أو أن أبرره له - قبل أن أمضي في قصتي - تلك التفاصيل التافهة التي خضتها ، أو التي سأخوضها في سياق القصة ، والتي قد تبدو في نظره عديمة القيمة .. فإن المهمة التي آليتها على نفسي - إذ وعدت بأن أكشف نفسي للملا على حقيقتها ، دون ما تحفظ - تتطلب عدم إبقاء شيء يتعلق بي في طي الإبهام أو الخفاء ، وأن أدع نفسي تحت أبصار الملا باستمرار ، حتى يصحوبني في كل هفوات قلبي ، وفي كل الأركان الخفية في حياتي ، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عشروا في روايتي على أضال ثغرة ، أو أنه فراغ : " ما الذي كان يفعله خلال ذلك ؟ .. فلا يلبثوا أن يتهموني بأنني غير راغب في أن أفضي بكل شيء . وإن ما أكتبه ليحرضني لغضب الجنس البشري بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن أعرض نفسي - بصمتي - لمزيد !

(١) "اللوي" عملة فرنسية قديمة كانت تساوي عشرين فرنكا . (٢) بقصد "روسو" أن الرحلة لم تخرج من نطاق الورق والقلم والانطلاق في الجبال ، بحيث غدت قصة وهمية .

وكان مصروفي الخاص الضئيل قد نفذ، إذ كنت في ثرثرتي قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداي عن استغلال عدم حرصي ، واستطاعت مدام "سابران" أن تحصل مني على كل ما كان معي .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام "دي فسان" قد منحتها لأزين بها سيفي الصغير . وكانت حسرتي عليها أشد منها على أي شيء آخر بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى في حوزتهما لو أنني تهاوت في مقاومتي ، لقد تكفلا بنفقاتي - في أثناء الرحلة - ، بأمانة ، ولكنهما لم يدعالي في الوقت ذاته شيئا .. فبلغت "تورين" بلا ثياب ولا مال ولا متاع ، وغدوت مضطرا إلى أن أدع لمواهبى وحدها شرف الحظ الذي كنت أرجو أن أحظى به !

أن أحظى به وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاط ، حيث بدأت اتعلم الدين الذي كان علي أن أكسب به عيشي .. ورأيت عند وصولي بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفي - وأحكم رتاجه - بمجرد أن اجتزته . وبدت لي هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة .

وكانت قد بدأت تغذيني بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب ، كان كل اثاثها عبارة عن هيكل خشبي يعلوه صليب كبير - في نهاية الحجرة - وقد قامت امامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت هي الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا ، في حين أنها إنما كانت تلمع من كثرة الاستعمال والمسح والاحتكاك . وفي هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات ، كان ثمة أربعة أو خمسة من الاشرار الرهيبيين .. أولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوالي وكانهم من الزبانية وليسوا من الطامعين في شرف أن يصبحوا أبناء للرب ، كان اثنان من هؤلاء الأوغاد من "السلافيين" الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لي بأنهما قضيا عمرهما في التجوال في ربوع "إسبانيا" و"إيطاليا" ، وأنهما كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كي يعمدا اينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت !

وما لبث أن فتح باب حديدي آخر فشططر شرفة رحبة تمتد بطول الفناء ، وأقبلت خلال هذا الباب اخواتنا . كن من التلميذات اللائي قدر لهن - كما قدر لي - أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنما عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا أعظم أفاقات وأبشع متشردات لطخن زمرة رعايا الرب ، على أن واحدة منهن فقط لاحت لي جميلة وجذابة ، وكانت في حوالي عمري ، أو ربما كانت تكبرني بعامين أو ثلاثة . وقد أوتيت عيني جريئتين أخذتا تلتقيان بعيني أحيانا ، فألهمني هذا برغبة في التعرف بها ، ولكنني وجدت خلال الشهرين اللذين قضيتهما في النزول بعد وصولي - وكانت قد مكثت ثلاثة أشهر قبلهما - أن من المستحيل إطلاقا أن أتحدث إليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجوز مأمورة بأن تشدد في رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الديني الذي كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها ، ولابد أنها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ؛ إذ إن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دوما غير متأهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على أنها ما لبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها في ترك النزول ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر ، واضطروا إلى أن يكتفوا بإعلان انضوائها للكنيسة - دون أن تعي تعاليمها - خشية أن يتولاها العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة في حظيرة الدين ، وألقي علينا خطاب قصير ، وجه إلي فيه الحض على أن استجيب لفضل الله الذي أتيت لي ، بينما دعي الآخرون إلى أن

بصلوا من اجلي ، وأن يشجعوني بأن يكونوا قدوة لي . وعادت عذارانا - بعد ذلك - إلى معزلهن ، وانفسح أمامي الوقت كي أفكر جديدا في الخطوة التي كنت مزمعا اتخاذها ، مذهولا في موقفني على ضوء هوى قلبي . ثم اجتمعنا في الصباح التالي مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذا ذاك بدأت - للمرة الأولى - أفكر في الظروف التي قادتني إلى ذلك !

ولقد قلت - ولا أزال أقول ، ولعلمي ساطل أردد وأنا ازداد كل يوم اقتناعا - بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا ! فقد كنت أنتهي إلى أسرة امتازت بأخلاقها عن عامة الناس ، فما تعلمت من أقاربي سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عيني أمثلة مشرفة ، فلقد كان أبي - برغم ولعه باللهو - رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا فحسب ، بل إنه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الديني .

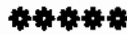
كان رجلا ذا شهامة في شؤون الدنيا ، ومسيحيا في قرارة فؤاده ، ولقد بث في قلبي منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس ، وكذلك أفدت من عماتي الثلاث ، اللاتي كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكيريان منهن تقيتين ، أما الصغرى - وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق - فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدي تقواها إلا لماما . ومن حضانة هذه الأسرة انتقلت إلى السيد "لامبرسييه" الذي كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فإنه كان مؤمنا في قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ١ ولقد عمل وأخته - بالرفق والتعليم الحكيم المتتد - على تنمية ما وجدا في فؤادي من مبادئ التقوى ، ولقد استخدم هذان الشخصان الكرمان في سبيل غايتهم هذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم ، وكنت دائما أثار بهذا الجهد منهما ، أتخذ قرارات طيبة ، نادرا ما كنت أغفل تنفيذها عندما أذكرها ، أما في حالة عمتي "برنار" فإن تقواها كانت منفرة لي بعض الشيء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصناعة . على أنني نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبي الحرفي دون أن أغير الرأي . كذلك لم اتصل قط بأي شخص في باكورة العمر يمكن أن يفسدني ، ومع أنني غدوت شريدا إلا أنني لم أكن قط منحلا !

وكنت - من جراء هذا - أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل في سني أن يعرفه بل إنني كنت أعرف أكثر من ذلك - إذ لاجدوى من أن اكتم خاطري ! - فإن طفولتي لم تكن شبيهة بطفولة أندادي ، بل إنني كنت دائما أشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكنني لم أكن في طفولتي عاديا ! ولسوف يضحك القارئ إذ يجدني أصف نفسي - متواضعا - كشخص ممتاز ، فليكن ! ولكن ليتصور - إذا ما فرغ من الضحك - طفلا في السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستمساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها ! . . إذا استطاع القارئ أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غروري كان سخفا ، وساعترف بأنني مخطئ ١ وإذا كنت أقول إننا جديرون بالأنحاء الأطفال عن الدين - إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أي دين - بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقا لآرائنا فيه فإنما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتي ، وليس من خبرتي الخاصة ؛ إذ إنني أدرك أن ليس بين النتائج التي تستمد من خبرتي ما يصلح لغيري من الأطفال ، وإلا فاصنعوا منهم "جان چاك روسو" كذلك الذي كنته في السادسة من عمري ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذا ذاك اطمئنكم إلى أنكم لن تتعرضوا لاية مجازفة !

واعتقد أن من المسلم به أن التدين لدى الطفل - بل ولدى الرجل - يعني اتباع الدين الذي ولد

عليه . ولكن هذا الإيمان قد يتضاءل أحيانا ، ونادرا ما يقوى .. فالإيمان الأعشى من ثمار التربية ، وإلى جانب هذا المبدأ العام الذي ربطني بعقيدة آباي الدينية فإنني أوتيت ذلك النور الذي امتازت به قريتنا إزاء الكاثوليكية ، والذي كان يصورها على أنها وثنية رهيبة ، ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور في نفسي ، أنني - في البداية - لم أشهد قط جوف أية كنيسة ، ولا قابلت قسا في زي الكهنوت ، ولا أنصت إطلاقا إلى جرس جنازتي إلا وسرت في جسدي قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث أن زابلتنني في المدين ولكنها كانت كثيرا ما تعاودني في " أبرشيات " (١) الريف لأنها أكثر شبها بتلك التي واتاني فيها هذا الشعور في البداية . ومن الصحيح أن هذا الأثر يتناقض - بشكل بارز - مع ذكريات العطف الذي كان قساوسة ضواحي " جنيف " مولعين بإسباغهم على أطفال المدينة .

وبينما كان الجرس الذي يعلن الراحة الكبرى - الموت - يفزعني كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرني بالفطور ، واللقاء حول المائدة ، والزبد الطازجة ، والفاكهة ، والغذاء المخلوط بالدين .. ولا يزال عشاء السيد " يونفير " الشهى يحدث في نفسي أثرا عظيما !



على أنني أقصيت كل تلك الخواطر من ذهني ، وأقبلت - وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلياة وطيب الحياة فقط - على ترويض نفسي على فكرة العيش في غمرة الكتلعة ، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة " روما " كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالي إلا لحظة ، وكاحتمال للمستقبل البعيد ، أما الفترة التي أنا بصدددها ، فلم يعد بوسعي أن أغرر بنفسي ، بل تبينت في جزع نوع القبول الذي قطعه على نفسي ، وما يترتب عليه من نتائج لامحيد عنها .

ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين - الذين كانوا حولي - حساب في تعزيز شجاعتي ، ولا كان في طريقي أن أخفي عن نفسي أن العمل المقدس الذي اعتزمت الاضطلاع به كان في الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لأنني شعرت برغم صغر سني إذ ذاك ، بأنه أما كان الدين الحق بين العقائد فإنني كنت مقدما على بيع عقيدتي .. وأنتي وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة إلا أنني كنت - في قرارة فؤادي - أكذب على الروح القدس وأستحق ازدراء البشر .. ولقد كنت أزداد سخطا على نفسي كلما ازدادت تفكيرا في ذلك ، وكنت أفر حيرة على المصير الذي ساقني إلى هذه الطريق ، وكأنما لم يكن المصير من صناعي أنا ! وكانت تمر بي لحظات تشد فيها هذه الخواطر ، إلى الدرجة التي كانت خليقة بأن تجعلني أفر بكل تأكيد ، لو أنني كنت قد ألقيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا ، كما أن عزمي لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعته لثلاث تغلب علي .. ثم إن تصميمي الثابت على عدم العودة إلى " جنيف " ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التي انتابتني إذ وجدت نفسي نائيا عن بلدي ، بلا أصدقاء ولا موارد .. كل هذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلني أرى في وخزات ضميري ندما جد متأخر ، لقد كنت أتعهد أن ألوم نفسي على ما فعلت ؛ لكي أجد العذر في إثبات ما أوشك أن أفعله ! وبينما كنت اضخم أخطاء الماضي ، رحت اعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من أن أقول لنفسي " إنك لم تأت الفعل بعد ، وفي وسعك أن تظل بريئا ، إذا شئت " ، رحت أقول : " اندم على الحرم الذي أدانك نفسك به ، وفرضت على نفسك ضرورة تنفيذه ! "

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، في مثل سني تلك ، لا ذكر كل شيء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من أجل تحطيم الأغلال التي فرضتها على نفسي ، ولكي أعلن في جرأة أنني كنت راغبا ، مهما يبلغ ما أتكبد ، في أن أظل معتنقا دين آباي ! .. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لأمرئ في سني ، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ إن الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعد معه إخفاق هذه القوة أمرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازدادت مقاومة ، حتى عز علي أن أقرأ ! وكانت السفسطة التي قضت علي هي ذلك المنطق الفلسفي المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات ، فالفضائل لا تغدو عسيرة المثال إلا بفضل أخطائنا ، ولو أننا استطعنا أن نتمسك دائما بالحكمة والروية لندرت حاجتنا إلى الجري وراء الفضائل . ولكن الميول المنحرفة التي يسهل قهرها تتمتع بالحدارنا لأننا لانقاومها . نحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدرأ منا لخطورها ، كما أننا نقع - دون أن نلفظ - في مآزق خطيرة كان من اليسر علينا أن نتوقاها ، ولكننا - متى وقعنا فيها - لانستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستبسل بضئنا .. في النهاية نهوي إلى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا في عتاب : " لماذا خلقتني ضعيفا بهذا الشكل ؟ " .. ولكننا - على الرغم من أنفسنا - نسمع ضمايرنا تجيب بلسانه . " إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة ؛ لأنني خلقتك أقوى من أن تسقط فيها ! "

والواقع أنني لم أكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكيًا ، ولكنني استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أمامي متسعا ، لكي أروض نفسي على هذه الفكرة تدريجيا ، وكنت أتمنى في الوقت ذاته أن تحدث ظروف غير منتظرة تنزعني من هذا المأزق ، ولكي أكسب الوقت ، قررت أن أتخذ خير ما كان في طريقي من أساليب الدفاع ، ولكن غروري سرعان ما أعفاني من التفكير في قراري هذا ، فما إن تبينت أنني كنت أحيانا أحيّر أولئك الذين كانوا راغبين في أن يعلموني حتى وجدت في هذا ما يكفي لأن أسعى إلى أن أضعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل إنني أخذت أبدي شوقا أهرج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير علي ، رحت بدوري أحاول التأثير عليهم أو كنت أوقن حقا بأن الأمر لن يكبدني أكثر من أن أوفق إلى إقناعهم ، فإذا هم ينقلبون إلى بروتستانتين ! .. وكان من جراء ذلك ، أنهم لم يجدوا في من الانسياق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتي أو من حيث استعدادي ورغبتي ، والبروتستانت - عادة - أفضل تعليما من الكاثوليك . وهو أمر طبيعي ، لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش ، في حين أن عقيدة الآخرين تتطلب الانصياع ، فالكاثوليكي مضطر إلى أن يعتنق الرأي الذي يقدم إليه ، أما البروتستانتي فلا بد من أن يتعلم كيف يقرر بنفسه الرأي الذي يعتنقه ! .. وقد كان هذا أمرا معروفا ، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يثير فتى في مثل سني وموقف مصاعب لأفراد ذوي خبرة وتجارب . فضلا عن أنني لم أكن قد تلقيت أول "مناولة" (١) ولا لقيت التعاليم الخاصة بها .

وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشيء الذي لم يعرفوه هو أنني تعلمت على يدي السيد "لامبرسييه" وأخته ، وأنني - فضلا عن ذلك - كنت أختزن ثروة لاتروق لأولئك السادة ، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والامبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثناء مقامي مع أبي ، ثم نسيتة تقريبا بعد ذلك ، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتي كلما اشتد وطيس الجدال !

ورأس الاجتماع الأول - الذي ضمنا جميعا - قس كبير السن ، صغير الجسم ، على شيء من الوقار

(١) فرهضة "المناولة" أو فرهضة "الاشتراك في العشاء الرباني" هي من أهم الفرائض والأسرار المقدسة التي تركها المسيح لتلاميذه وأتباعه ، لكي يذكروه بها كلما مارسوها ، وهي تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا إلى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس "المناولة" إلى وقتنا الحاضر .

والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائي درسا في الدين ، وليس مجالا للمناقشة ؛ ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لايححو اعتراضاتهم . على أن الوضع تغير في حالة واحدة : فعندما حان دوري رحلت أستوقف القس عند كل نقطة ، ولم أعفه من أية عقبة كان يوسعي أن ألقاها في طريقه ، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين . وأسهب قسي الشيخ في الكلام ، وبدأ انفعاله يزداد ، وأخذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المازق بادعاء أنه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالي ، رأي أن اعتراضاتي الرعناء قد تؤذي رفاقي ، فوضعت في حجرة أخرى ، مع قس آخر كان أصغر سنا من قس الأمس ، وأكثر ذلاقة لسان - أعني أنه كان يجيد التلاعب بالعبارات - وأعظم رضا عن نفسه مما يجوز لأي مدرس . . .

على أنني لم أدع نفسي تنصاع لمسلكه المتسلط ، وما إن اطمأنت إلى أن يوسعي - برغم كل شيء - أن أحتفظ بموقفي حتى شرعت أجيبه في ثقة وطيدة ، وأضغط عليه من كل جانب بغاية جهدي . . . وخيل إلي أنه يوسع أن يحيرني بذكر القديس أوغسطين ، والقديس "جرميحوري" ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التي فاقت كل تصور ، وجد أنني أجيد الجدل بشأن الآباء جميعا بإسهاب لا يقل عن إسهابه ، لا لأنني كنت قد قرأت عنهم من قبل - كما قرأ هو - وإنما لأنني كنت أتذكر فقرات عديدة من كتاب ديني عن مجاهدة النفس ، فما إن كان القس يذكر فقرة منه دون أن يتوقف لمناقشتها حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من أقوال الأب نفسه الذي نقل عنه ، مما سبب له ارتباكاً غير قليل ، في كثير من الأحيان ! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه ، وذلك لسببين : أولهما : أنه كان الأقوى جانباً ، ولما كنت أشعر بأنني تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب - برغم صغر سني - بأنه ليس من الصواب أن أحرجه ، إذ إن هذا قد يدفعه إلى التطرف ، لاسيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف علي أو على تعليمي . . . والسبب الثاني : هو أن القس الشاب كان متعلما ، في حين أنني لم أكن متعلما ، الأمر الذي جعله يستخدم في نقاشه أسلوباً عز علي أن أجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه مخرجاً تحت ضغط اعتراض غير ظاهر يرجئ الاجتماع إلى اليوم التالي ، متعللاً بأنني كنت أشرد عن الموضوع . وكان في بعض الأحيان يأتي أن يصدق ما كنت أذكره من أقوال مقتبسة ، زاعماً أنها مصطنعة زائفة ، ثم يتحداني أن أرشده إلى مواقع هذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى أنه لن يتعرض لكثير من الحرج ؛ لأنني برغم علمي المستعار لم أكن ذا خبرة كافية للبحث في الكتب ، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التي تمكنني من البحث عن فقرة في مجلد كبير . مهما أكن متأكداً من وجودها فيه . . . وكنت من ناحيتي أذهب إلى الشك في أن القس الشاب كان يعتمد إلى عين ما أتهم به قساوستنا من خداع وعدم أمانة ، وإلى افتراء الفقرات لبوسع لنفسه مخرجاً من مازق أكون قد أوقعته فيه !



وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوافه مستمرة ، والوقت يمضي في نقاش ، وتتمتع وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة ، أوشكت تماماً أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لي ! ذلك أنه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجي ، إلا ولصاحبه ميل ما ، وقد ساورت أحد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحوي ، فكان مشغولاً بمتابعتي ، لا يفتأ بكلمتي بلكنته الغريبة ، ويؤدي لي بعض الخدمات البسيطة ، ويمنحني في بعض الأحيان شطراً من

غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلني في حرارة كانت تغيظني ا وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذي كان يمتلكني من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التي كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف فإنني كنت احتمل قبلاته قائلا لنفسى : "لقد تملكك المسكين صداقة طاغية نحوى فمن الخطأ أن أصده!" . ولكنه أخذ - بالتدريج يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى ، وكان أحيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتني أظنه مجنوناً .. وأراد فى إحدى الليالى أن يبيت معى ، فرفضت قائلا إن سريرى صغير جدا ، وإذا به يلح على أن أصبح به إلى سريرى ، ولكنى رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطبايق الذى كان يعضغه ، بحيث كانت نفسى تغشى منه!

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدى فى قاعة الاجتماع ، فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث أن أثارت خوفى . وأخيرا شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرر معى ، وأمسك بيدي محاولا أن يحملنى على أن أستبيح نفس التحرر معه! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مغلثا منه ، وبدون أن أبدي غضبا أو حنقا - إذ لم تكن لدى اتفه فكرة عما كان يسعى إليه- أعريت له عن دهشتى وأزدرايى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ، ولكنى رأيت - بينما كان ماضيا فى إتمام الحركات التى كان قد بدأها - شيئا أبيض لزجا ينبثق منه مندفعاً فى اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الأرض ، فاثار مظهره معدتى ، واندفعت إلى الشرفة وأنا أشد نائرا ، وأشد انزعاجا ، وأشد خوفا مما كنت فى أى يوم فى حياتى ، حتى لقد شعرت أننى أوشك أن أقع مريضا!

ولم يكن بوسعى أن أفقه ما أصاب التعس ، بل اعتقدت أنه أصيب بنوبة من الصرع ، أو بتويع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق أننى لأعرف ما هو أبشع لدى أى شخص هادئ الأعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملامح التى ألهبها الشهوة البهيمية ! .. وما رأيت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال ، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلا بد أن نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشماززن منا!

وهرعت لأنبئ كل أمرئ بما جرى لى ، ولكن المشرفة العجوز أمرتنى بأن أعقل لسانى ا على أننى رأيت أن قصتى قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتم : "ياله من كلب لعين! .. وحش كاسرا" .. ولما كنت لم أدرك الحكمة فى أن أمسك لسانى ، فقد مضيت فى إخبار كل شخص بما حدث ، برغم أمرها ، فإذا بأحد المشرفين يفد فى ساعة مبكرة من اليوم التالى فيوجه إلى تقرىعا مقذعا ، ويتهمنى بالإساءة إلى شرف دار دينية وبإثارة ضجة حول حادث تافه! .. ونسج محاضرتة بحيث شرح لى أشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق أنه كان يعرفنى بها لأول مرة ، إذ إنه كان مقتنعا بأننى مادافعت عن نفسى إلا لأننى كنت غير راغب ، وليس لأننى لم أكن أفقه ما ابتغاه المراكشى منى ا .. ثم أنبأنى - برصانة- بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ، ولكن اشتهاه ليس إهانة للشخص الذى يكون هدفا له ، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن أغضب من شخص اعتبرنى جديرا بالحببة! وأنبأنى بوضوح أنه - هو نفسه- قد تقبل فى صغره هذا الشرف حين عرض له! وأنه عندما فوجئ به وهو فى حال لا تمكنه من المقاومة . لم يجد الأمر مؤلما فى حد ذاته! .. وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة ، وأخذ - وهو يتصور أن مقاومتي كانت ناشئة عن خوف من الألم- يطمئننى إلى أنه ليس ثمة داع للخوف ، وأنه ما كان لى أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج!

ورحت أصغى إلى ذلك التعس فى ذهول ضاعف منه أنه لم يكن يروى أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه

كان ينصحني بما فيه الخير لي ، كان الموضوع يتراءى له بسيطا إلى الدرجة أنه لم يحاول أن ينستر أو يتكتم، بل إن حديثا انساب إلى أذني طرف ثالث تمثل في رجل من رجال الكنيسة ، لاح أنه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ، وأثرت علي هذه الروح المتساهلة التي أبدت الأمر عاديا ، إلى درجة أنني اقتنعت بأنه - ولابد - عادة معترف بها في العالم ، وإن لم تتح لي فرصة الإنعام بها قبل ذلك الحين . . . وكان من جراء ذلك أنني رحت أصغي بدون غضب، ولكن إصغائي لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لي - وما رأيته - بوجه خاص - منطبعة في ذاكرتي إلى درجة أنني لا أزال أشعر بالتمزز كلما تاملتها . . . وبدون أن أفطن ، امتد نفوري من الشيء إلى الشخص الذي كان يبرره ، إذ لم يكن يوسعي ، أن أتمالك نفسي إلى الدرجة التي تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيئ لدرسه في نفسي ؛ ومن ثم رماني بنظرة كانت بعيدة عن أي ودا ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا في أن يجعل إقامتي في النزل مكروهة ، ولقد وفق في ذلك إلى درجة أنني لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذي كنت أتذرع به حتى ذلك الحين لتفاديها

ولقد أمدتني هذه المغامرة بمناعة في المستقبل ضد محاولات "فرسان الكم" ، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرني بمنظر وحركات المراكشي الرهيب ، فتوحي إلي دائما بجزع يعز علي إخفاؤه ! ومن ناحية أخرى، يبدو لي أن النساء ظفرن بكسب نسبي من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى أنني مدين لهن بالمواظف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن أبناء جنسي من إهانات . . . وكانت أبشع مومس تصبح في نظري أهلا للعبادة، إذا ما تذكرت ذلك الإفريقي الزائف ! . . . أما هو ، فلم أدر ما قيل له ، ولم يظهر لي أن أحدا - ما عدا السيدة "لورينزا" - بدل من شعوره السابق نحوه ! على أنه لم يعد يلاحقني أو يتحدث إلي ، وبعد ثمانية أيام ، تم تعميده في جلال عظيم، وسريل بالبيض من رأسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه الثابتة ! وفي اليوم التالي غادر النزل ، فلم أره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دوري بعد شهر ، فقد كان لأبد من هذه المدة لاتيح لمرشدي شرف الفوز بهداية "كافر" صعب المراس ، واضطرت إلى أن اجتاز امتحانا سئلت فيه عن جميع التعاليم ، حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمي الجديد !

أما وقد تعلمت أخيرا - ما فيه الكفاية - وتم إعدادي بالدرجة التي ترضي أساتذتي ، فقد اقتدت في موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجي على عقيدتي أمام الملا ، ولأتلقي شهادات التعميد - وإن كنت لم أعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدي - ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع في إيهام الناس بأن البروتستانتين ليسوا من المسيحيين في شيء . . . وارتديت يومذاك معطفا رمادي اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم في مثل هذه المناسبات . وحف بي رجلان - من أمام ومن خلف - يحملان وعاءين من النحاس ، أخذا يضريان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرئ يلقي في هذين الوعاءين بما يتصدق به، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد ، وقصارى القول إن شيئا من مظاهر عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة في نظر الناس، وإمعانا في إذلال نفسي . ولم يكن ينقصني سوى الرداء الأبيض، الذي كان يليق بي، والذي لم يسمح به لي كما سمح به للممراكشي ؛ لأنني لم أحظ بأن أكون يهوديا قبل انضمامي للكنيسة !

على أن هذا لم يكن كل ما في الاحتفال ، إذ اضطرت بعد ذلك إلى أن أذهب إلى ديوان التحقيق ، لأتلقي قرار توبتي من جريمة الزندقة ، ودخولي إلى حظيرة الكنيسة في احتفال كان الملك

"هنري" الرابع ممثلاً فيه في شخص سفيره ! ولم يكن في مسلك قداية الاب المحقق، ولا في مظهره ، ما يحو الرعب الخفي الذي تملكني وأنا ألج الدار . وبعد عدة أسئلة عن عقيدتي ، ومركزي ، وأسرتي ، سألني فجأة عما إذا كانت أمي ملعونة ؟ .. وحملني الذعر على أن أكتب أول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأنني أجزؤ على أن أرجو ألا تكون ملعونة . وأن يكون الله قد أنار بصيرتها في ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب، ولكنه كثر عن ابتسامته لم يبد لي أنها من إمارات الرضا في شيء ! وعندما انتهت كل شيء ، وفي اللحظة التي توقعت فيها أن يمدوني بالمال الذي يلائم آمالي ، إذا بهم يشيعونني إلى خارج الأبواب وفي يدي ما يزيد قليلاً على عشرين فرنكاً بالعملة الصغيرة .. وهي نتيجة الصدقات التي جمعت لي . وزودت بالنصح بأن أعيش مسيحياً صالحاً، وأن أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لي حظاً حسناً، وأغلقوا الباب دوني ، فلم أرحم بعد ذلك !



وهكذا تلاشت كل آمالي العظام في لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التي خرجت بها من الخطوة التي اتخذتها ، وهي الشعور بأنني كنت مرتداً عن ديني ، وغراً مغفلاً ، في آن واحد ! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائي عندما رأيت نفسي مقدوفاً من حالك أحلام الشراء البراقة إلى البؤس المدقع ! وبعد أن كنت - في الصباح - أطيل التفكير في انتقاء القصر الذي أقيم فيه ألفتني في المساء مضطراً إلى أن أنام على قارعة الطريق ! .. وقد يخطر بالبال أنني بدأت أستسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابني من حسرة رحت معها اليوم نفسي لأن نحسي إنما كان من صنع يدي ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجيناً - لأول مرة في حياتي - أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابني هو شعور بالفرح لاسترداد حريتي . ووجدتني سيد نفسي وتصرفاتي من جديد - بعد فترة طويلة من الاستعباد - في مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوي المكانة الذين لا يمكن أن أخفق في أن أحظى بضيفتهم - حين أصبح معروفاً - لما كان لي من خلال طيبة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعاً أمامي ، وكانت الفرصات العشرية القابعة في جيبي تلوح لي كما لو كانت كنزاً لا ينضب معينه ! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنها حساباً لأحد . وكانت هذه هي المرة الأولى التي أملك فيها مثل هذا المبلغ ؛ ومن ثم فبدلاً من أن تشيط عزمي ، أو ينساب دمعي ، اكتفيت بأن عدلت آمالي ، دون أن يفقد قلبي الطاهر شيئاً من جراء هذا التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلني إذ ذاك من طمأنينة وثقة ، إذ اعتقدت أن حظي بات أمراً مقروراً ، ورأيت أن من البديع حقاً ألا يكون لأحد - سواي - فضل في ذلك !

وكان أول ما فعلته هو أن سعت لإرضاء فضولي إلى الطواف بالمدينة ، ولو لاستمتع بملاذ الحرية ! .. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس ، وهناك راقت لي الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعته المواكب . فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التي كان يعزفها القساوسة . وسعت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه في رهبة وخشوع ، حتى إذا رأيت غييري يلجونه حذوت حذوهم ، فلم يستوقفني أحد ! ولعلي كنت مديناً بهذه الخطوة للفاقة التي كنت أحملها تحت إبطي - وكيفما يكن الأمر ، فإنني بدأت أقيم وزناً كبيراً لنفسي عندما ألفتني في القصر ، بل إنني بدأت أتمثل نفسي مقيماً فيه بالفعل ، وما لبثت في النهاية أن سمعت الرواح والغدو ، وكنت جائعاً ، والجو حاراً ، فولجت حانوت لبنان ، وابتنعت قسطاً من جبن "الجيوونكا" (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز

(١) جبن "الجيوونكا" نوع من الجبن الطازج الذي ينقل إلى السوق في حصر .. كالجين المعروف في مصر باسم "الغريش" .

الببيمونتي البديع الذي أفضله على ما عداه ، وبخمس أو ست قطع من فئة "السو" حظيت بهوجة من أشهى الوجبات التي تناولتها في حياتي !

و كنت مضطرا إلى البحث عن مأوى ، وكان من السهل أن أعثر على واحد ، إذ كنت قد ألمت من اللغة الببيموننتية بقدر يمكنني من أن أجعل حديثي مفهوما ، وكنت من الحكمة بحيث راعيت في اختياري ما يناسب مواردتي وليس ما يلائم ذوقي ، فقد أنبت بان زوجة جندي في شارع "دوبو" تؤوي الخدم المتعطلين مقابل "سر" واحد في الليلة ، وكان لديها سرير خال ، فاستأجرتها ، وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج ، وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل ! .. ونمنا جميعا في غرفة واحدة : الأم والأطفال ، والنزلاء .. "وقد ظللنا على هذه الحال طيلة إقامتي عندها" .. وما عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة السباب كالحوزية ، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا . على أنها كانت شغوفة القلب ، يشوشا ، مالت إلي ، بل كانت ذات نفع لي !

وقضيت عدة أيام مسلما نفسي لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وحارجها ، متفحصا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لي جديدا أو غريبا .. وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شيء ، لدى شاب غادر لفوره معتقله ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت - قبل كل شيء - أتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكي في كل صباح ، فقد رأيت من البديع أن أكون في كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته ، ولكن شغفي بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لي على الحضور المنتظم من الرواء الملكي الذي ما أن يرى بانتظام ، وبنفس الشكل ، حتى يفقد فتنته وطرافته .. وكانت لدى ملك "سردينيا" في ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين في أوروبا . وكان "سومي" و "ديجارادنه" و "بيسوتزي" هم بالتتابع نجومها اللامعين .

وكان هذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صوت أسوأ آلة موسيقية إذا كان العزف عليها سليما . وبجانب ذلك ، كان الإعجاب الذي أحسست به نحو العظمة والنفخفة - اللتين بهرتا بصري - إعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق أن يغبطني أحد عليه . وكان الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي في كل رواء البلاط الملكي هو أن أرى ما إذا كانت ثمة أميرة شابة ، جذيرة بتكريمي ، وبأن أتصل بها في مغامرة غرامية !؟ ..

و كنت قد أوشكت أن أبدا مغامرة من هذا النوع ، في وسط أقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن أجد فيها - لو أنني مضيت قدما - متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة !



ومع أنني كنت أعيش بأقصى درجات التقصير ، إلا أن كيسي بدأ ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادي في النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بساطة في ذوق لم يبدلها - إلى يومنا هذا - تعودتي على أن أجلس إلى موائد عليية القوم . فما عرفت - بل لا أزال بعيدا عن أن أعرف - ما هو أبهج من الطعام الريفي . وفي وسع أي امرئ أن يطعمني إلى إكرامه لي إذا هو قدم لي بعض منتجات اللبن ، والبيض والخضر ، والحب ، والخبز الأسمر ، وبعض التبيل المقبول .. إذ إن شهيتي تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا في الوقت الذي لا أرتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولي ، يحيطونني بتكلفتهم المزعج ! وقد كنت في ذلك العهد أحظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة "سو" ، وتفضل ما

اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات... كنت معتدلاً؛ لأنني لم أتعرض لإغراء يبعدني عن الاعتدال، ومع ذلك فإنني أخطئ حين أقول إنني كنت معتدلاً، إذ إنني كنت أحظى في الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة، كانت الكمثرى، والجوونكا، وشرائع الخبز، وبضعة أقداح من نبيذ "مونفير" الكثيف الذي يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح، تجعلني أسعد أكلها ومع ذلك، فقد دنت نهاية فرنكاتي العشرين، كنت أزداد شعوراً بهذا يوماً بعد يوم، ومع ما كانت تتسم به سني من خلو البال فإن قلقي من المستقبل سرعان ما أصبح جزءاً حقيقياً ولم يبق لي من كل القصور التي كنت أشيدها في الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلاً ميسوراً، وفكرت في حرفتي القديمة، ولكنني لم أكن أعرف منها ما يكفي لي لأن يغري أي معلم على أن يستخدمني، فضلاً عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين في "تورين"، وأخذت أنتقل من حانوت إلى آخر، عارضا خدماتي لحفر الشعارات والرموز على الفضة، راجياً أن أغري بعض العملاء برخص أجري - ريشما يتاح لي عمل أفضل - بل إنني تركت لهم تقدير الأجر. ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر، بل كنت أطرده عادة، فكان العمل الذي اظفره من القلة بحيث إنني نادراً ما كسبت ما يكفي لثمن وجبتين أو ثلاث! على أنني لحت ذات يوم، وأنا أسير في "كونتراذا نوفا" في ساعة مبكرة، امرأة شابة بدت لي - خلال نافذة أحد الحوانيت - موفورة اللطف، جذابة المنظر إلى درجة أنني - برغم حيائي من النساء - دخلت الحانوت دون تردد، ووضعت مواهبتي المتواضعة رهن إشارتها! ولم تصدني في جفاء، بل أجلسني وسألني أن أروي لها سيرتي القصيرة، فلما فعلت أشفقت علي، وسألني ألا أبتسح؛ لأن المسيحيين الصالحين ما كانوا ليتخلوا عني بالتأكيد، وبعد أن أرسلت إلى صائغ يجاورها في طلب الأدوات التي أنباتها بأنني تعوزني ذهبت إلى المطبخ فاعدت لي بيديها فطوراً.

ولاح لي أن البداية تبشر بالخير، فلم تكذب النتيجة حدسي، إذ بدا على المرأة أنها رضيت عن العمل الذي أنجزته، وكانت أكثر رضاء عن ثمرتي المتواضعة، عندما اطمأننت قليلاً إليها، فقد كانت ذكية، أنيقة الملبس، وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف، فإن مظهرها أوحى لي بالهبة والوقار. على أن كرم حفاوتها، وصوتها الشفوق، وأخلاقها اللطيفة الدمنة، لم تلبث أن سرت عني كل تحفظ، فتبينت مدى توفقي، مما ضاعف من هذا التوفيق... وكانت المرأة إيطالية، ذات إغراء ودلال إلى حد ما، لكنها كانت في الوقت نفسه ذات حياة. وكنت من ناحيتي خجولاً، حتى إنه كان من العسير أن يؤدي الموقف إلى أي شيء أبعد مما جرى بيننا! كما أن الوقت لم يتح لنا كي نغضي في المغامرة. وإني لأذكرني أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التي قضيتها إلى جوارها، وبوسمي أن أقول:

- إنني - في بدايتها - تذوقت أحلى وأنقى مباحج الحب!

وكانت تلك الإيطالية الحسنة سمراء البشرة، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسننها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس. وكان اسمها مدام "بازيل"، تركها زوجها - الذي كان أكبر منها سناً، وكان غيوراً بعض الشيء - في رعاية كاتب (١) بدا أبغض من أن يكون ذا غاية أو إغراء، ومع ذلك فإنه لم يكن خلوا من خلال ميزة كان يبدوها مقترنة بطبعه السيئ الذي أثرت به، برغم أنني كنت مولعاً بأن "إله الدمامة" الجديد يزمجر كلما رأيته ألتج المكان، ويعاملني في ازدراء أخذت مخدومته ترده إليه كاملاً! بل لقد بدا لي أنها كانت تستعذب التلطف في وجوده؛ لكي تثير غبطه، وكان هذا النوع من الانتقام - برغم مجافاته لذوقي - خليقاً بأن يكون أكثر استساغة، لو أنه كان في خلوة، ولكنها لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد، أو - بالأحرى - دفعتها، ولكن بشكل آخر وسواء

(١) "كاتب" هنا بمعنى موظف كتابي أي CLERK

كانت قد ألفتني جد صغير ، أو أنها لم تكن تعرف كيف تقدم على المرافقة ، أو كانت تعتزم حقا أن تظل عاقلة ، فإنها أخذت تبدي في ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدني عنها ، ولكنه كان يجعلني أهابها دون أن أدري السرف في ذلك ! ومع أنني لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقي ، العاطفي ، الذي أحسست به نحو السيدة "دي فاران" إلا أنني كنت أشد خجلا وأقل الفة مع مدام "بازيل" مني مع السيدة المذكورة ، كنت أجدني محرجا ، مرتبكا ، لأجرؤ على أن أتطلع إليها ، أو أتلفس بالقرب منها ، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها مني للموت ، كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلحقني أحد : من الزهور التي تزين ثوبها ، وأطراف قدميها الرشيقتين ، وحة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت أراها بين قفاها وكمها .. وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمندبل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى ! . وكانت عيناى تضطربان من النظر إلى ما كنت أراه - بل وما وراء ما كنت أراه - ويضيق صدري ، فتزداد أنفاسي تهدجا في كل لحظة ، حتى لا أكاد أقوى على التنفس ، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة ، كانت شديدة الإحراج لي في غمرة السكون الشامل الذي كثيرا ما كنا نلقى نفسينا فيه ! .. على أن مدام "بازيل" لم تكن - لحسن الحظ - تلاحظ ذلك ، على ما كان يبدو لي ، لانهماكها في عملها . ومع ذلك فإنني كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق علي . وكان هذا المنظر الخطر يفقدني رشدي تماما ، حتى إذا أوشت أن أطلق العنان لانفعالاتي قالت لي - بصوت هادئ - عبارة ما ، ترد إلي إدراكي في الحال !



ولقد رأيتها عدة مرات في هذه الحال - ونحن وحيدان دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعاني أكثر مما ينبغي ، أو ما يوحي بتفاهم بيننا . وكان هذا الجو - على ما فيه من تعذيب لي - جد مستعذب ، حتى إنني كنت لا أكاد لسذاجة قلبي أجد سببا لما كنت أحس به من لوعة ! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هي الأخرى ، فإنها - على أية حال - كانت تتيح الفرص لها بكثرة ! . وإذا تساءلنا عن النفع الذي كان هذا المسلك يحققه لها ، أو لي ، فمن المؤكد أنه كان على الأقل مسلكا خاليا من أي ضرر !

.. إلى أن كان ذات يوم ، سئمت فيه المرأة الحديث السخيف الذي انطلق فيه الكاتب الدميم ، فصعدت إلى غرفتها ، وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التي كنت أؤديها في الحجرة الخلفية بالخانوت ، ثم تبعتها . وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون أن يراني أحد . وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن تراني ، ولا أن تسمعني - نظرا لجلبة العربات في الطريق - وكانت تفرص دائما على أناقاة ملبسها ، لكنها في ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت في زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها - في انحناءته البسيطة - يكشف بياض عنقها .. وكان شعرها معقوصا إلى أعلى في رشاقة ، وقد ازداد بالزهور ، وبالاختصار ، كان يرين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجني عن تجلدي ، فإذا بي أجشو على ركبتني لدى الباب ، وأبسط ذراعي نحوها في حركات ملتاعة ، وأنا واثق بأنها لم تكن تسمعني ، ودون أن يخطر ببالي أن من المحتمل أن تراني ..

بيد أنه كانت ثمة امرأة على رف المدفأة وشت بي إليها !

ولست أدري أي أثر أحدثته نوبة جنوني في نفسها، فإنها لم تنظر نحوي، ولم تنبس بكلمة إنما لففت رأسها لفطة صغيرة، وبحركة بسيطة أشارت بأصابعها إلى الحصى التي كانت عند قدميها، وكانت اللحظة تتطلب أن أرتجف، أو أصرخ أو أرمي بنفسي حيث أشارت، ولكن من العسير أن يصدق أحد أنني في ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثر من الاستلقاء عند قدميها، فلم أنبس بكلمة واحدة، ولا رفعت عيني إليها، بل ولا مستنها في محاولتي المضنية كي أستند إلى ركبتيها لحظة.. ومع أنني عجزت عن الكلام أو الحركة إلا أنني كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة، بل كان كل شيء يشي بانفعالي، وفرحي، وعرفاني، ورغباتي الجامحة التي لم يكن لها هدف معين، والتي كان يكبحها الخوف من استياء السيدة، وهو أمر ما كان قلبي الشاب ليرتاح إليه!

وبدا أنها لم تكن أقل تأثرا ولا أقل خجلا مني.. وأزعجها أن تراني هناك، وحيرها أن تكون قد اجتذبتني إلى ذلك المكان، وبدأت تشعر بمواقب الإشارة التي صدرت عنها دون أن تفكر فيها التفكير الواجب!.. ولكنها لم تقريني إليها، ولا هي صدتني عنها، فإنها لم ترفع رأسها عن الرقعة التي تطرزها، بل حاولت أن تنصرف كما لو لم تكن تراني عند قدميها! على أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعني من أن أستنبح أنها كانت تشاطرنني ارتباكيا، وربما رغباتي، وأنها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذي كان يدفعني إلى أن اكبح عواطفني، وإن لم يساعدني ذلك على أن أتغلب على هذا الحياء!.. وإذا كانت تكبرني بخمس سنوات أو ست، فقد رأيت أنها كانت خليقة بأن تكون أكثر جراءة، وقلت لنفسني إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جراتي، فلا بد أنها غير راغبة في أن أبدى أية جراءة من ناحيتي! ولا أزال حتى اليوم أرى أنني كنت مصيبا، وأنها كانت- بالتأكيد- من الذكاء بحيث فطنت إلى أن ناشئا مثلي كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب، وإنما إلى "تدريب" أيضا!

لست أدري كيف كان لينتهي هذا المشهد الحافل الصامت ولا إلى أي وقت كنت سأمل دون حراك في وضعي المستهجن المستعذب، لولا أننا فرجتنا بما قطع علينا الموقف! ففي اللحظة التي بلغ فيها انفعالي عنفوانه سمعت باب المطبخ- الذي كان ملاصقا للحجرة التي كنا فيها- يفتح، فاستولى على مدام "بازيل" زعر جاثج تجلى في كلماتها وإشاراتنا وهي تقول: "انهض!.. ها هي ذي "روزيلا" قادمة!.. وأسرعت بالهوض، ممسكا باليد التي بسطتها لي، طابعا عليها قبليتين ملتئمتين، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط شفتي ضغطا خفيفا!.. ولست أغالي إذا قلت أنني لم أستمع في حياتي بلحظة في مثل حلاوة تلك اللحظة، غير أن الفرصة التي فقدتها لم تسنح قط مرة أخرى، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد! ولعل هذا هو عين السبب في أن صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة في أعماق قلبي بهذا الشكل الفاتن، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتي بالدنيا والنساء. ولو أنها كانت قد أوتيت مجرد قدر بسيط من الخبرة، لأقدمت على تصرف مخالف كي تشجع فتى مثل الذي كنته!.. ولكن، لأن كان قلبها قد أوشك أن يضعف في تلك اللحظة، فإنه كان في الواقع مستقيما، وما انسأقت للميل الذي جرفها إلا على غير إرادة منها، فكانت هذه - على ضوء كل المظاهر- أول خيانة تفكر فيها، ولعلمني كنت خليقا بأن أجد في مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه في مغالبة حيائي! على أنني، دون أن أذهب إلى ذلك المدى، كنت أجد في وجودها سعادة لا توصف، وما عاد شيء من المشاعر التي يخلقها نبل النساء، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمي هذه المرأة دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبها!.. لا، ليست هناك متعة تعادل تلك التي تستطيع أن تتبجحها امرأة فاضلة بحبها المرء!.. إن كل شيء يغدو جميلا

في صحبتها .. ولقد كانت إشارة من أصبع، ويد التصقت خفيفا بفمي، وهما كل النعم التي حظيت بها من مدام "بازيل"، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتتني كلما فكرت فيها!

وعيشا حاولت - في اليومين التاليين - أن أنتهر فرصة لحلوة أخرى، فقد استحال علي أن أجد هذه الفرصة، ولم ألاحظ أي حرص من جانب مدام "بازيل" على أن تتيحها. ومع أن مسلكتها لم يصبح أقل فتورا عن ذي قبل إلا أنها صارت أكثر تحفظا من المعتاد، وأعتقد أنها كانت تتفادى نظراتي خشية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من أي وقت مضى، لاسيما وقد مضى يمزح ويداعبني قائلا: إنني خليك بأن أجد حظا لدى السيدات! وكنت أرتجف كلما فكرت في أنني ربما كنت قد ارتكبت حماقة. ولما كنت قبل ذلك أعتبر أن ثمة تفاهما بيني وبين مدام "بازيل"، فقد رغبت الآن في أن أتكتم الميل الذي لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل، فجعلني ذلك ازداد حذرا في تخميني الفرص لإرضاء هذا الميل، ومن فرط حرصي على أن تكون هذه الفرص مأمونة، تعذر على أن أعثر عليها إطلاقا!

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى، لم يقدر لي قط أن أبرأ منها، وقد استطاعت باقترانها بحيائي الطبيعي أن تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب!.. فقد كنت من الصدق في حبي بدرجة أجرو معها على القول بأنها لم تكن لتمكنني من أن أسعد بسهولة. فما كانت العواطف يوما أشد ثوبا وأظهر طبيعة مما كانت لدي، ولا كان الحب يوما أرق، وأصدق، وأبعد عن المصلحة مما كان عندي!.. كنت على استعداد لأن أضحي بسعادتي ألف مرة من أجل سعادة المرأة التي أحبها. كانت سمعتها أعز لدي من حياتي، وما كنت لأرجو البتة أن أعرض طمانيتها لحظة واحدة لأي خطر، في مقابل كل الباهج والمتع! وقد حملني هذا الشعور على أن أسرف في الحذر والتكتم والحيلة في مغامراتي، إلى الحد الذي لم يقدر عنده لأي منها أن تنجح!.. وما كانت حاجتي إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبي العامر لهن!



ولنعد الآن إلى ذلك الدميم، عازف القيثارة: كان الغريب في أمر هذا الغادر أنه كلما ازداد ثقل ظل بدا أكثر لطفا وإيناسا!.. وكانت مخدمته - منذ اليوم الأول الذي مالت فيه إلي - قد فكرت في أن تجعلني نافعا في الحانوت. وكنت أجيد الحساب، فاقترحت عليه أن يعلمني كيف أمسك الدفاتر التجارية، ولكن الجلف تلقى الاقتراح في استعاض لعل مبعثه أنه خشي أن يزعج عن عمله أو من ثم فقد كان كل عملي - إلى جانب حفر المعادن - يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات، وتصحيح بعض الدفاتر، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية، وفجأة، عن لصاحبي أن يعود إلى الاقتراح الذي سبق له أن رفضه، فتطوع لتعليمي القيد المزدوج (١)، وقال إنه بات راغبا في أن يجعلني كفتا لأن أتقدم بخدماتي إلى السيد "بازيل" عند عودته. وكان في صوته ومسلكه شيء من الزيف والحقد والسخرية، لم يوح إلي بالطمانينة! ولم تنتظر مدام "بازيل" حتى أجيبه، بل قالت له في برود إنها شاكرة له تطوعه، وإنها تأمل أن يجازيني القدر في النهاية عن طيب صفائي، وإنه لا مريدير بأعظم الرثاء لو أنني لم أغد - برغم كل مواهبي - أكثر من "كاتب" مثله!

وكانت السيدة قد أخبرتني، في عدة مناسبات، بأنها راغبة في أن تقدمني إلى شخص قد يستطيع أن يساعدني. وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كي نفترق، إذ إن

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية، بتسجيل كل عملية في الجانب الدائن والجانب الدين من "و" له.

اعترافاتنا الصامتة بالحُب وقعت في يوم الخميس ، فلما كان يوم الأحد التالي أقامت مادبة عشاء كنت ممن حضرها ، وكان بين الضيوف راهب من المذهب "اليقويبي" ، حسن الطلعة ، قدمتنى إليه السيدة ، فعاملني بحفاوة بالغة ، وهنأني بانضوائي تحت لواء الكثلكة ، وحدثني عن حياتي بطريقة نمت لي عن أن السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها . ثم نصحتني - وهو يرت خدي يظهر يده في ود- بأن أتصرف بما يليق بكرامتي ، وبأن أكون قوي الجلد شجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط في الحديث معا . وأدركت من الاحترام الذي كان كل امرئ يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبوية التي كان يوجه بها حديثه إلى مدام "بازيل" ، أنه الراهب الذي تفضي إليه باعتراقاتها كذلك أذكر أن اللفة البالغة التي كان يبديها نحو تائبته (١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذي لم يدهشني إذ ذاك قدر ما يدهشني الآن ، ولو أنني كنت أذكرى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن أتبه فخرا لمجرد التفكير في أنني استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذي كان يتلقى اعترافاتنا !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤي إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظي أن جلست إليها ، مواجهها للكاتب ..

ولم أخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية أو التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبي هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغي حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروب ، والرجال مرهفي الانتباه . وكانت مدام "بازيل" تدعو إلى الانخاف في مهابة فاتنة . وفي منتصف العشاء وقفت عربة بالباب ، وأقبل شخص يصعد السلم .. وكان القادم هو السيد "بازيل" . وإني لا تمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا أزرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه ! وكان طويلا ، مليحا ، حسن المظهر ، وأقبل في جلبة ، شأن الرجل الذي يفاجئ ضيوفه ، برغم أن الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . وألقت زوجته ذراعيها حول عنقه ، وراحت تضغط يديه ، وتضفي عليه ألوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت ، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشرعون في الحديث عن رحلته حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل في صوت جاف عمن يكون الفتى الياق الذي رآه جالسا إليها ، فروت له مدام "بازيل" كل شيء في بساطة ساذجة ، فتساءل عما إذا كنت أقيم في الدار ، فأجبت بالنفي ، وإذ ذاك قال بصوت أجش : " ولم لا ؟ .. مادام يقضي سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن أن يمكث خلال الليل " . وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد أن تحدث عن مدام "بازيل" بعبارات الإطراء المخلص الصادق ، ذكر بضع كلمات في امتداحي ، وأضاف قائلا للزوج : إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة في العمل الخيري الذي أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس في هذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد "بازيل" في لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشيء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلني أشعر بأنه تلقى أنباء عني ، وأن الكاتب قد دس لي لديه !

وما إن انتهت المائدة حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقد أوفده مخدمه ليدعوني -بأمره- إلى أن أبارح البيت فوراً ، فلا أضع فيه قدمي بعد ذلك ! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين ، لم تكن تعذبه فكرة مفارقة تلك المرأة

(١) نقضي الثقايلد الدينية لدى الكاثوليك بأن يحترف الشخص إلى قس الكنيسة التي ينسبها ، فيعظه القس ويصلي من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب .

اللطيفة ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجها المتوحش! .. ولا مرأه في أنه كان على حق في رغبته الاتخونه زوجته ولكنها كانت - برغم ذكائها وحسن تربيتها - إيطالية الاصل ، أعني انها كانت مغطورة على الحس المرهف وحس الشار . ويلوح لي أنه كان مخطئا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لان تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس!

هكذا كانت نتيجة مغامرتي الغرامية الأولى . ولم اغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل ان أرى - على الأقل المرأة التي لم يكن قلبي يكف عن التحسر عليها . ولكنني رأيت - بدلا منها - الزوج والكايب المتريص الذي لم يكده يلمحني حتى أشار نحوى بالشريط الخشبي الذي يستخدم لقياس الباردة ، إشارة كانت تطوي على أكثر من مجرد التهديد ! وإذ تبين أن الرقابة شديدة ، فترت عزيمتي ، ولم أمر بالخانوت مرة أخرى . ولقد رغبت في أن أسمى إلى الراهب الذي كانت مدام "بازيل" قد هدتني إليه ، ولكنني لم أكن أعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير أملا في أن أصادفه ، ولكن دون ما توفيق ، وأخيرا ، عدت أحداث أخرى على ذكريات مدام "بازيل" البهجة ، فلم البث أن نسيتهما تماما بعد وقت قصير .. بل إنني - لسذاجتي وحداثتي - لم أعد أحس بميل إلى الجميلات . على أن كرم مدام "بازيل" زود صوان ثيابي إلى حد ما ، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذي تتصف به المرأة العاقلة التي تفكر في نظافة الملابس أكثر مما تفكر في زينته ، مما تم عن انها كانت تبغي أن تصونني من الهوان ، لا أن تزيني .

وكانت الثياب التي حملتها معي من "جنيف" لاتزال صالحة للارتداء ؛ ومن ثم فإنها لم تضاف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندي قفازات ولكنها أبت أن تمنحني شيئا منها ، برغم أنني كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بأن تجعلني في وضع يمكنني من أن احتفظ بنفسى نظيف الملابس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصيني بالاهتمام به ، عندما كنت معها! وبعد أيام قلائل من طردي من الخانوت أنبأتني صاحبة البيت الذي كنت أقسم فيه - وقد ذكرت انها مالت إلي - بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لي عملا ، فإن سيدة ذات مكانة قد رغبت في أن تراني ، وعند هذه الكلمات ، ظننت أنني أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية ، إذ كان ذهني يدور دائما حول ذلك . على أن المغامرة في هذه المرة لم تكن من البهاء كما صورتها لنفسى ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخادم الذي حدثها عني ، فسألتنى وامتحنتنى ، ولم أخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمها لفوري ، لا في مركز مقرب لديها ، وإنما كخادم يرتدي الزي الخاص بخدمتها! وكان الفارق الوحيد بيني وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على اكتافهم (١) أما أنا فلم أكن أفعل .. ولما كانت ثياب خدمها لاتزدان بشيء من الوشي فإنها كانت تبدو كالآزياء العادية .. وهكذا كانت النهاية غير المرتقة لآمالى العظام!

وكانت "الكونتيسة دي فيرميللي" - التي التحقت إذ ذاك بخدمتها - أرملة بلا ولد ، وقد كان زوجها من أبناء "بييمونت" . وكانت دائما أخالها من إقليم "سافوا" ، فماكنت لاصدق ان بين أهل "بييمونت" من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة ، وكانت في أواسط العمر ، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا مثقفا . كانت مولعة بالادب الفرنسي الذي كانت على دراية واسعة به ، كما كانت تكثر من الكتابة ، وبالفرنسية دائما ، وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل مدام "دي سيفينييه" ، حتى إن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة ، وكان عملي الرئيسي من نوع لم أكن أكرهه ، إذ كنت أكتب لها ما تمليه علي من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان في المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها!

(١) حبال مجدولة (اسيلايت) أو شارات مما يوجد على اكتاف بعض السعاة .

لم تكن مدام "دي فيرسيللي" ذات ذكاء عظيم ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدي بادرة من بوادر الضعف ، ولو لحظة واحدة، دون أن تبذل أقل جهد في السيطرة على نفسها أو تفعل شيئا لايلىق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالها أن مسلكتها كان مثالا للفلسفة ، وهي كلمة لم تكن قد أصبحت شائعة، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم .

وكانت قوة شخصيتها هذه تطفئ في بعض الأحيان حتى تصبح برودا .. كانت تبدو لي دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها ، وعندما كانت تبدي كرها لاي تعس ، فإنما تصدر في ذلك عن رغبة في إتيان الخير والعمل الصالح ، أكثر منها عن شعور حقيقي بالصدقة ، لقد خبرت هذا القصور في شعورها - إلى حد ما - خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها معها ، ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فإذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت في أنه قد يصبح بعدها في حاجة إلي المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك، إما لأنها لم تعتبرني أهلا لرعاية خاصة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر في سواهم !

على أنني أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتي ، فكانت أحيانا توجه إلي أسئلة ، وتحب أن أرويها الخطابات التي كنت أكتبها إلى مدام "دي فاران" ، وأصف لها مشاعري ، على أنها لم تسلك - بالتأكيد - الطريق الصحيحة للتعرف على هذه المشاعر ، إذ إنها لم تبح لي قط بشيء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبي يحب أن يكشف عن دخليته على شريطة أن يطمئن إلي أنه إنما يفضي بسريره إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التي لا تنطوي على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتي فلم تكن توحى إلي بشيء من الثقة . وعندما كنت لأرى ما ينم عما إذا كان حديثي يرضيها أو يضايقها ، كنت أشعر دائما بجزع ! .. على أنني لاحظت ، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة في توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعتمد إليها النساء اللواتي يرغبن في أن يبدون ذكيات بارعات ، فهن يخلن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا في الكشف عن مشاعرك أنت ! ولكنهن يخفقن في أن يرين أنهن بهذا العمل يجردنك من الجرة على هذا الكشف ! .. والرجل إذا ما سئل بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد أن سائله إنما يريد أن يحملته على الكلام فحسب ، دون أي اهتمام حقيقي بأمره ، فإنه إما أن يعتمد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيلته ، مفضلا أن يظن أنه أحق عن أن يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب في قراءة قلوب الآخرين فإن من سوء السياسة أن يظهر أنه يخفي ما في قلبه !

ولم يحدث لمدام "دي فيرسيللي" أن باحت لي قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . إنما كانت توجه إلي أسئلة بلهجة باردة ، فأجيب عليها بتحفظ ، ولابد أن إجاباتي كانت تبدو لها نافهة مضجرة . وما لبثت في النهاية أن كفت عن الأسئلة ، ولم تعد تكلمني إلا لتصدر لي أوامرها أكانت تحكم علي في ضوء ما دفعني إليه بمسلكتها ، وليس في ضوء ما كنته .. وما رأت في قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعني من أن أبدو في غير شخصية الخادم ! .. واعتقد أنني منذ ذلك الوقت أعاني من خيب هواية التآمر في الخفاء التي تدفعني إلى الانحراف ، والتي أوحى إلي بنفور طبيعي جدا من الأوضاع التي خلقت هذه الهواية ، وكان وريث مدام "دي فيرسيللي" - التي كانت

بلا ولد - هو ابن أخيها الكونت "ديلازوك" الذي كان مثابرا على التقرب إليها . فضلا عن ذلك ، فإن رؤساء خدمها - الذين رأوا نهايتها تدنو - لم يغفلوا مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بها كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها أن تفكر في شخصي . وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى السيد "لورنزي" استطاعت زوجته - التي كانت تفوقه ذكاء - أن تتسلق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجنبية . وقد استطاعت بذلك أن تظهر لابنة أخيها بمنصب وصيفة السيدة ! وكانت ابنة الأخ مخلوقة ماهرة ، تدعى الآنسة "بونثال" تجيد الظهور بمظهر وصيفة الشرف ، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتها في التقرب إلى السيدة ، فلم تعد هذه ترى إلا بعينين اثنتين ، أو تعمل إلا بأيديهما ! ولم يكن لي حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة- السيد "لورنزي" وزوجته وابنة أخيها- فقد كنت أطيعهم ولكنني لم أخدمهم ، إذ لم أفلن إلى أنني- بجانب خدمة مخدمتنا المشتركة- كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمها ..

فضلا عن أنني كنت من ذلك النوع من الخدم الذي يثير قلقهم ، إذ رأوا بوضوح أنني كنت في غير المكان الذي استحقه ، فكانوا يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها ، وأن تعمد - كي تضعني في المركز اللائق بي- إلى إجراء قد يقتل من حظهم من مالها .. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم في العادة أشد جشعا من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فإنهم تأمروا على إقصائي عن بصر السيدة . ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها في ضعفها الصحي ، فإنهم أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضي فيها مستعينين بنصح طبيها ، وبالتشبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها ! .. ثم صوروا لها أنني لم أكن أفهم واجبي ، وبذلك أقنعوها بأن تعين في مكاني خادمين لسيمن ، كي يحملا مقعدها ! وبإيجاز ، فإنهم تعمدوا - ببراعة- ألا أخرج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هي الفترة التي كانت أثناءها تعد وصيتها ! ومن الصحيح أنني بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدي من قبل ، وأخذت أبدي لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أي شخص سواي ، إذ إن الآلام التي كانت تعانيها المسكينة أخذت تمزق قلبي ، والجلد الذي كانت تتحملها به أوحى إلي بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة ..

حتى إنني كثيرا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقا في غرفتي دون أن يراني أحد ! وأخيرا فقدناها .. ورايتها تجود بآخر أنفاسها ، وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية ، فإنها ماتت ميتة الفلاسفة .

وبوسعي أن أقول إنها ألهمتني تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية ، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها ، دون إهمال أو تصنع . كانت في الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدي- في نهاية مرضها- نوعا من الانشراح الذي كان انتظامه يوحى بأنه غير حقيقي ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل ، مع أنها لم تلزم فراشها إلا في اليومين الأخيرين ، إلا أنها ظلت تتحدث في هدوء مع كل امرئ حتى النهاية ، وأخيرا ، لم تعد تتكلم ، ولكنها في نزعات الموت صاححت بصوت مرتفع : " حسنا ! .. إن المرأة التي تستطيع أن تطلق الغازات من أمعائها ، لاتموت " .. وتقلبت في فراشها ، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل ، أما أنا فلم ألتق شيئا ، لأنني لم أكن في قائمتهم !

على أن "الكونت ديلا روك" أمر بإعطائي ثلاثين ليرة (١) ، كما ترك لي السترة الجديدة التي كنت أرديها ، والتي أراد السيد "لورنزي" أن يأخذها مني ! بل إن الكونت تكرم فوجد بأن يحاول إيجاد عمل لي ، وأذن لي بأن أذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون أن أتمكن من التحدث إليه . ولما كنت سريع القنوط ، فإنني لم أذهب بعد ذلك . وسوف يتبدى - بعد قليل - أنني كنت مخطئا .

وليتني كنت أستطيع أن أنهي ، عند هذا القدر ، كل ما لدي من قول عن فترة إقامتي لدى مدام "دي فيرميللي" ! .. لكن الواقع أنني لم أبرح الدار كما دخلتها ، وإن ظلت حالي كما كانت . لقد حملت معي من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعشا لا يطاق من الندم ، لا يزال يشغل ضميري برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من أن تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بي السنون : فمن ذا يصدق أن غلظة صيبانية تؤدي إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التي كانت أقدح مما يخطر بالبال ، والتي لا يجد قلبي عزاء من أجلها ؟ .. ذلك أنني تسببت في دمار فتاة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير - بل كان من المؤكد أنها تفوقني جدارة - إذ دفعت بها إلى الخزي والتعاسة !

وليك القصة : إن من الأمور التي لامناص منها ، أن تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى في البيت ، فتضيق أشياء عديدة . ومع ذلك فإن الخدم في دار تلك السيدة كانوا من الأمانة - كما كان "لورنزي" من اليقظة - بحيث إن شيئا لم يفتقد من دار مدام "دي فيرميللي" عندما أحصي ما كان فيها . ولكن حدث أن الأنسة "بونفال" فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضي ، ولقد كانت تحت يدي أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة في القيمة ، غير أن هذه وحدها هي التي أغرتني ، فسرقتها ! ولما كنت لم أجشم نفسي عناء إخفائها فإنها سرعان ما وجدت .. وشاءوا أن يعرفوا كيف آلت إلى حوزتي ، فإذا بي أرتبك ، وأتلعثم ، وإذا بوحهي يتضرع .. ثم قلت - في النهاية : إن "ماريون" أعطيتها ! وكانت "ماريون" شابة من "مورين" اتخذتها مدام "دي فيرميللي" طاهية لها عندما كفت عن إقامة الولايم فسرحت طاهيتها وأصبحت تكنفي بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية .

لم تكن "ماريون" هذه رشيقة فحسب بل كانت ذات لون حاضر ، لا يوجد إلا لدى أهل الجبال ، كما كانت تتصف - فق كل شيء - بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها الايحبها ! .. ثم إنها كانت فتاة طيبة ، ورعة ، لأجدال في أمانتها ؛ لذلك دهش الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم أن يتبينوا من منا اللص الحقيقي ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من القوم ، بينهم الكونت "ديسلا روك" وعندما قدمت ، عرض عليها الشريط .. واتهمتها في جراءة ، فبهتت ، ولم تقو على أن تنبس بنت شفة ، وإنما اكتفت بأن رمقني بنظرة كانت كفييلة بأن تجرد "إيسليس" ذاته من أسلحته ، ولكن قلبي البهيمي كان منيعا دونها ! وأخيرا ، أنكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة ، ولكن دون غضب وخاطبتي فناشدتني أن أفكر ، وألا أشوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بي أي أذى لكنني أصررت على قصتي ، في فحة شيطانية ، وأعلنت في وجهها أنها هي التي أعطتني الشريط .. فشرعت المسكينة تبكي ، ولم تقل سوى : "آه ! كنت أظنك رجلا طيبا يا "روسو" . إنك تشقيني كل الشقاء ، ولكني لا أتمنى أن أكون في موقفك ! " .. وكان هذا كل ما عندها لي ، فقد راحت تدافع عن نفسها في بساطة وحزم ، دون أن تسمح لنفسها بأن توجه إلي أقل تانيب أو لوم ! وأدى هذا الاعتدال - بالقياس إلى لهجتي الجازمة - إلى ضررها ، فما كان من الطبيعي أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبي ، بوداعة ملائكية من جانبها !

(١) الليرة : عملة قديمة كانت قيمتها تسابن بتباين الأزمان والأماكن ، وقد أطلق الاسم على "الفرنك" في بعض الأوقات .

ومع أن المسألة لم تسو نهائيا، إلا أنه بدا أنهم جميعا مالوا إلى جانبي ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم في التعمق في المسألة، في غمرة الفوضى التي كانت تسود الدار، واكتفى الكونت "ديلاروك" وهو يفصلنا معا من الخدمة - بأن قال : إن ضمير المذنب خليك بأن يثار للبريء! .. ولقد تحققت نبوءته، بل إنها لتتحقق في كل يوم!

ولست أدري ما جرى لضحية اتهامي الزائف ، ولكن من غير المحتمل أنها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطلخت شرفها بقسوة من كل النواحي .
لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ولكنها كانت - برغم ذلك - سرقة ! وما زاد الطين بلة أنها ارتكبت لإغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلقا شيئا يرغبى من شخص اجتمعت في نفسه كل هذه الرذائل ! بل إنني لأظن أن التعاسة والنبد هما أعظم الأخطار التي تسببت بفعلتي في تعريض الفتاة لها، فإن المرء لا يستطيع أن يدري مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة، فتاة في مثل سنّها! .. أواه! إذا كان شعوري بالندم لا يطاق ، لمجرد احتمال أنني جعلتها تعسة، ففي وسع المرء أن يقدر ما يخالجنى من شعور إذ أتصور أنني قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير!

إن هذه الذكرى تقض راحتي وتمضني في بعض الاوقات، إلى درجة تجعلني إخال - في ساعات السهاد- أن الفتاة المسكينه مقبلة لتلومني على جرمي ، وكأنني ارتكبت هذا الجرم بالامس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش في هدوء ودعة ، لكنها في غمرة الحياة الصاخبة تسلبني لذة العزاء ، وتجعلني أحس بما أذكر أنني قلته في أحد كتبي من أن : "الندم يهجع عندما تكون حظوظنا في ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا في أوقات النوائب" ..!

ومع ذلك فإنني لم أقو البتة على أن أحمل نفسي على أن أقضض عن صدري بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائي .. فإن أوثق الود لم يصل بي يوما إلى هذا الحد مع أي امرئ، حتى مع مدام "دي فاران" . كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن علي أن ألوم نفسي على عمل فظيع ، ولكنني لم أفصح إطلاقا عن كنهه! ولقد ظل هذا العبء يشغل ضميري إلى اليوم دون أن تخف وطأته ، وإنني لأذهب إلى حد التاكيد بأن الرغبة في الخلاص منه - إلى حد ما - ساهمت بدور كبير في إقدامي على كتابة هذه "الاعترافات" !

لقد كنت صريحا أميناً في الاعتراف الذي ذكرته ، ولسوف يتضح بالتاكيد أنني لم أحاول أن أخفف قتامة جرمي . ولكنني لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض - في الوقت ذاته - أعظم مشاعري الدفينة ، وإذا أنا ترددت في أن أبرز نفسي ، بحقائق محضة صادقة : فما كانت النية الخبيثة بمنأى عني في أية لحظة ، بقدر ما كانت في تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب - ولكن من الصحيح أيضا في الوقت نفسه- أن صداقتي للفتاة التعسة كانت هي السبب في أنني اتهمتها .. ذلك أنها كانت ماثلة في خاطري ، فلم أربدا من أن ألقى اللوم على أول شخص قفز إلى فكري، فاتهمتها بفعل ما كنت أعترزم فعله .. اتهمتها بأنها أعطتني الشرط، لأنني كنت أعترزم أن أعطيها إياه ! فلما رأيتهما أمامي - بعد ذلك- تمزق قلبي لكن وجود كل ذلك العدد من الناس كان أقوى تأثيرا على نفسي من التوبة! .. وما كنت خائفا من العقاب وإنما كنت خائفا من العار، فقد كنت أرهبه أكثر من الموت ، وأكثر من الجريمة، وأكثر من أي شيء آخر في الدنيا! .. وكما كنت اغتبط لو، أن الأرض انشقت فجأة فابتلعني وخنقتني! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار

على كل شيء ، فلم يزدني إلا قحة .. إذ إن ازدياد إجرامي ، وازدياد نفوري من الاعتراف أدبا إلى انعدام خوفا من الافتراء فما عدت أرى أمامي - إذ ذاك - سوى بشاعة الغضبة ، وهتك ستري للملأ ، في حضوري ، باعتبار أنني لص .. وكاذب .. ومفترا .. ذلك ما كان الارتباك الشامل بجردي من كل شعور سواه ، ولو أنهم اتاحوا لي فرصة استرد فيها رباطة جأشي لما كان ثمة ريب في أنني كنت أعترف إذ ذاك بكل شيء! .. لو أن السيد "ديلا روك" انتحى بي جانبا ، وقال لي : "لأنفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها .. إذا كنت مذنباً فاعترف لي" لالقيت بنفسي في الحال على قدميه .

إني لموقن تماما من ذلك ! ولكنني حين افتقدت التشجيع لم ألق منهم سوى الإرهاب ! ثم إن الإنصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سني ، فقد كنت يومئذ أقرب إلى الطفولة مني إلى الرجولة ، والجرائم الحقيقية تكون في الصغر أكثر اتصافا بالإجرام منها في الكبر ، أما الجرائم التي لاتعدو أن تكون نزوات مبعثها الضعف فلا تكون في الواقع ناجمة - لدى الصغار - عن روح إجرامية . ومن ثم فإن العمل الذي ارتكبته لم يكن - في جوهره - أكثر من "مخالفة" .. وهكذا فإن ذكرها لا تكريني لما فيها من شر ، بقدر ما تكريني بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . على أنها أحسنت في الواقع ، إذ صانتي ببقية عمري من كل عمل يميل إلى الإجرام .. وأحسنت إلي بالآثر الرهيب الذي انطبع في نفسي من جراء الذنب الوحيد الذي ارتكبته ، وإني لأومن بأن استبشاعي الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمي على أنني استطعت أن أقدم على مثل تلك الأكذوبة المخزية! .. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إنني لأجرؤ على القول بأنني قد كفرت عنه بكل الشقاء الذي طغى علي السنوات الأخيرة من حياتي .. بأربعين عاما من الاستقامة في أوعر الظروف .. وإن "صاريون" المسكينة لتجد في الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث إنني - مهما يكن عظم ذنبي ضدها - لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران ! وهذا كل ما أود أن أقوله بهذا الصدد ، فاسمحوا لي بالآ أعود إلى الحديث قط في هذا الموضوع !

الكرازة الثالثة

٥- من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام "دي فيرميللي" في حال قريبة من تلك التي كنت فيها حين دخلتها عدت إلى صاحبة المنزل التي كنت أقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب في طبعي ، فاصبحت قلقا ، شارد الفكر، حالما .. صرت أبكي ، وأتهد ، وأتوق إلى سعادة لم تكن لدي عنها أية فكرة، ولكنني - مع ذلك- كنت أشعر بأنني راغب فيها! ولا سبيل إلى وصف هذه الحال ، بل إن الذين يستطيعون تصور ما قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة في عنفوان الشوق .. وكان دمي الفائز يملا مخي دائما بالنساء والفتيات ، ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية، فقد رحلت أستغل تلك الرؤى وفقا لأفكاري المتخبطة، دون أن أدري طريقة أخرى للإفادة منها! .. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعري في حالة نشاط ممض، دون أن ترشدني- لحسن الحظ- إلى طريق الخلاص من هذه الحال .. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتي مقابل العثور على "آنسة" "دي جوتون" أخرى ، ولو لربع ساعة! ولكن الوقت الذي كان لهر الطفولة يتخذ فيه هذا الاتجاه - باعتباره الاتجاه الطبيعي- كان قد ولى! .. كان الشعور بالعار- وهو رفيق الضمير السيئ - قد شرع يزداد ظهورا كلما تقدمت بي السنون، مما ضاعف من خجلي الفطري إلى الدرجة التي لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل .. فما عدت أقوى إذ ذاك- ولا فيما بعد- على أن أحمل نفسي على محاولة غير بريئة ، اللهم إلا إذا كانت تلك التي أحاولها معها ، هي التي تضطرنني - بطريقة ما - إلى الإقدام . مهما أعرف أنها مهتكة ، ومهما أشعر عن شبه يقين بأنها ستلتقي محاولتي بالقبول!

ولقد اشتد اضطرابي حتى إنني - لعجزتي عن إشباع رغباتي - أخذت أستثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذا .. فكنت أهيئ في الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل أن يتاح لي أن أعرض نفسي على النسوة بالشكل الذي كنت أرجو أن أكون عليه معهن! .. على أن ما كن يرينه مني لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالي قط مثل هذا ، وإنما كان ما يرينه سخفا ونزقا .. ولا سبيل إلي وصف السرور الأرعن الذي كنت استشعره من جراء عرضه عليهن! .. ولم يكن باقيا أمامي سوى خطوة ضرورية أخرى ، ثم اكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التي كنت أشتبهها . ولو أنني أوتيت جلدا على الانتظار لما كان ثمة شك في أن يمر بي شخص لديه من الجراءة ما يكفي لأن ينيلني المتعة المنشودة! .. ولقد أفضت بي حماقتي إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا أنها لم تكن مما يلائمني!

ففي ذات يوم، اتخذت مكاني في مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار أن ينقلن منها الماء، وكان في تلك البقعة منحدر بسيط يقود إلي مخزن "كرار" خلال مداخل عدة ، ففحصت - في الظلام- هذه الدروب الممتدة تحت مستوى الأرض ، حتى إذا وجدت طويلا ومعتمة، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج، وأن بوسعي أن أجد فيها مخبأ أميناً إذا أنا شوهدت

وطوردت . وإذا اطمأننت ، أخذت أعرض على الفتيات - اللاتي كن يقدن إلى بئر - منظرًا ادعى إلى الضحك منه إلى الإغواء فكان أكثرهن احتشامًا يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئًا ، بينما شرعت بعض الفتيات في الضحك ، واستاءت أخريات فأحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئي ، وإذا بي أشعر بمن يتبعني ، سمعت صوت رجل - وهو أمر لم أكن أتوقعه وقد أفرعني - فاندفعت في المسارب الممتدة تحت الأرض ، معرضًا نفسي لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ، والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ظلت تتبعني .. وكنت أعول باستمرار على الظلمة ، وإذا بي أرى ضوءًا ، فارتجفت ، وأمعنت في الإيغال في الظلام ، وإذا بجدار مستوقفني ، حتى إذا عجزت عن التقدم اضطرت إلى أن أقبع في انتظار مصيري . وإن هي إلا لحظة حتى أمسك بي رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طويل ، نحف به أربع أو خمس نسوة عجوزات تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعًا لحت الشقية الصغيرة التي كشفت أمري ، والتي كانت تبغي - دون ريب - أن تتشفي في وجهها لوجه!

وسألني الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعي ، عما كنت أفعل في ذلك المكان . ومن اليسير تصور أنني لم أجد جوابًا حاضرًا على أنني ما لبثت أن تمالكيت جاشي ، وفي غمرة اليأس الذي ألم بي في تلك اللحظة الحرجة ، انتحلت عذرا خياليا لقي نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل في لهجة ضارعة أن يرحم سني وحالي ، وقلت إنني كنت شابا غريبا ، من أصل طيب ، وقد أصبت ببلوثة ، واضطرت إلى الفرار من أهلي لأنهم أرادوا أن يحبسوني ، وأنني ضائع لا محالة إذا هو وشي بي .. أما إذا تركني أنصرف فقد أستطيع يوما أن أجزيه لقاء كرمه . وعلى التقويض من كل ما توقعت أحدثت كلماتي ولهجتي أثرها ، فإذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد أن وجه إلي توبخا قصيرا تركني أنصرف في سلام ، دون أن يمضي في سؤالي ! وادركت من مسلك الفتاة والعجوزات - حين رأيته أنصرف - أن الرجل الذي خفت منه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لي ، وأنني ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمنعن بحديث لم أكد ألقي إليه بالا ، فقد كنت أشعر - ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا في الأمر - باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكنني من الإفلات منهن ومن هراواتهن!

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير في إحدى الطرقات ، مع رئيس أحد الأديرة المجاورة كدت اصطدم بالرجل ذي السيف ! وعرفني الرجل ، فقال يقلدني بلهجة ساخرة: "إنني أمير ، إنني أمير ، وإنني لجبان .. ولكن ، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخرى ! " ولم يزد على ذلك ، بينما نكست أنا رأسي في طريقي دون أن أجسر على التطلع إليه ، وأنا أحمد له - في قرارة قلبي - حكمته وتسامحه ، وحدثت أن العجوزات اللعينات قد غيرنه بسذاجته إذ صدق روايتي ! وكيفما كان الأمر فإنه كان رجلا طيبا ، برغم أنه من "بييمونت" ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه ؛ لأن قصتي كانت ساذجة ، وكان أي امرئ في مكانه خليقا بأن يعيرني بها ، ولو رغبة في إثارة الضحك . ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التي كنت أخشاها ، إلا أنها جعلتني أُلزم الحذر وقتا طويلا ! وكانت إقامتي لدى مدام "دي فير سيللي" قد أكسبته بعض المعارف الذين وثقت صلاتي بهم أملا في أن يستطيعوا لي نفعا .

وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم راهب من أبناء "سافوا" يدعى السيد "جايم" كان معلما لابناء الكونت "دي ميللاريد" وكان لا يزال شابا ، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالمتجمع لكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والامانة ، والذكاء ، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم . لم يكن ذا نفع لي

في الغرض الذي حملني على زيارته ، إذ لم يكن لديه أي اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لي عن منصب ، بيد أنني اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك ، إذ ظل نفعها يلازمي طيلة حياتي .. اكتسبت منه دروسا في الأخلاق القويمة ومبادئ الإدراك السليم ، فلقد كنت - في ميولي وأفكاري المتقلبة - أسرف في الارتفاع أو أسف في الانحدار .. فانا إما "أخيل" أو "ثيرسايتز" (١) .. كنت بطلا في بعض الأحيان ، وتافها - إمعة - في أحيان أخرى ، وقد ألي السيد "جاسم" على نفسه أن يردني إلى مكاني اللائق بي ، وأن يطلعني على نفسي في ألوانها الحقيقية ، دون ما إسراف أو تثبيط . كان يحدثني عن مواهب فيولها ما كانت جديرة به من تقدير ولكنه كان يضيف إلى ذلك أنه كان يرى عقبات تنبعث منها تحول بيني وبين الإفادة منها على خير وجوه الإفادة ؛ ومن ثم فإنها خليفة بأن تكون أقل نفعاً لي ، كسلم أرقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنيني عن هذا الحظ وهذه الثروة ! .. وسط الراهب أمامي صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التي لم تكن لدي عنها سوى أفكار زائفة ، فأراني كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة - وسط تيارات القدر المعاكسة - وأن يدفع زورق حياته برغم الرياح المضادة ، لكي يصل إليها ، وبين لي كيف أنه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هذه الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحياة . وبدد محدثي إعجابي بالعظمة والأبهة الظاهرتين ، إذ أثبت لي أن أولئك الذين يتبعون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك أنباني ، بشيء كثيراً ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو أتيت لكل امرئ أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا لاتضح أن عدد الراغبين في الهبوط يفوق عدد الراغبين في الصعود في هذه الحياة ! وهذا الحاضر - الذي يذهل صدقه العقل ، والذي لا ينطوي على مغالاة - ظل ذا نفع كبير لي خلال مجرد حياتي ، إذ ساعدني على أن أعيش راضيا بمكاني في الحياة ! .. لقد أطلعني هذا الراهب على أولى الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، مما لم يتح لذكائي المتضخم أن يلم به إلا في أكثر صوره مغالاة ومبالغة . فجعلني أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى في المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف في العلو ، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الأجيال الضعيلة باستمرار ، وعلى خير جه ، لا يتطلب مجهودا أقل من ذاك الذي تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهناء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة .. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته في جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم في مناسبات عابرة !

وفي سبيل تحديد واجبات الإنسان ، كان لا بد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التي اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتي كانت حالي الراهنة من نتائجها أفضت بنا إلى الحديث في الدين : ومن الممكن أن يتصور القارئ عند هذا الحد أن السيد "جاسم" الفاضل ، هو - إلى حد كبير على الأقل - الأصل الذي قبست عنه شخصية "أسقف سافوا" (٢) ولم يكن يقتصد في صراحته وانطلاقه في الحديث إلا في نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا في كلامه وما عدا ذلك كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هي التي لا تتبدل ، وكان كل شيء - حتى نصحه لي بالعودة إلى أهلي - يتسم بما صورته به للرأي العام منذ ذلك الحين .

(١) "أخيل" بطل إغريقي ، هو الشخصية الرئيسية في إلياذة "هومروس" . كان من أشجع وأجمل أبطال الإغريق ، وقد اشترك في إلياذة "طروادة" ، أما "ثيرسايتز" فكان أفتح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله "أخيل" .

والذي يقصده "روسو" من عبارته هنا أنه كان لا يعرف اعتدالا في تلك الفترة من حياته ، فهو إما مسرف في الشجاعة ونيل النفس ، وإما مسرف في بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة في الجدال عن حق أو عن باطل ! (٢) أسقف "سافوا" هو إحدى شخصيات كتاب "روسو" المعروف : "إميل" .

لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع في سرد محادثتنا ، إذ إن مادتها في متناول كل امرئ وإنما اكتفي بأن أقول : إن دروسه - التي لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره في البدايات - أصبحت من بذور الفضيلة والدين التي لم تذوق قط في فؤادي ، والتي لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كي تثمر وتزدهر !

ومع أن تحولي إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن - في ذلك الحين - تحولاً كاملاً ، إلا أن هذا لم يخرجني في شيء . وبدلاً من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد "جساجم" وجددتني أشغف بها لوضوحها وبساطتها ؛ ولذلك القدر من حرارة القلب التي كنت أحس أنها تزخر بها . ولقد أوتيت طبعاً ودوداً ، وكان تعلقي بالناس دائماً بسبب الخير الذي أدوه لي ، أقل من تعلقي بهم من جراء الخير الذي كانوا يرجونه لي ، ونادراً ما أخطأ شعوري تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل للسيد "جساجم" . فكنت في الواقع تلميذه الثاني ، وكان لهذا الأمر - في تلك الفترة - فائدة لا تقدر إذ حال بيني وبين الميل إلى الرذيلة التي كان تعطلني عن العمل يجتذبني إليها !

وفي ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت "ديلا روك" ، وكان هذا آخر ما أتوقعه ، فإن الزيارات العديدة التي قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه أباستني منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسيني ، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عني ولكني كنت مخطئاً ، فإنه كان قد شهد - أكثر من مرة - السرور الذي كنت أؤدي به واجباتي لعلمته . بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما أنه تكلم معي بشأنه في وقت كنت قد نسيت فيه ! ... ولقد تلقاني في رفق وأنبأني بأنه رأى أن يدبر لي بالفعل منصبا - بدلاً من أن يمنيني بوعود لا تقترن بتنفيذ - وأنه قد وفق في مسعاه ، وسيعينني في منصب يمكنني من أن أعود إنساناً ذا قيمة ، وإن ما بقي بعد ذلك رهن باجتهادي . فإن الأسرة التي سعى لي عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها ثم أضاف أنني - وإن كنت سأعمل في البدايات كخادم ، كما كان شائي من قبل - إلا أنني خليق بأن أطمش إلى أنهم على أتم استعداد لأن يستبقوني في هذا المركز إذا ما استطاع خلقي وسلوكي أن يحملهم على أن يروا أنني أصلح لعمل أفضل ، وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحى إلي به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسي : "ماذا ؟ .. أظل خادماً دائماً ؟" وخارمني إحساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقة أن محته ، فقد شعرت بأنني أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه (١)

واصطحبني محدثي إلى الكونت "دي جوفون" رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت "سولار" الباذخ ، فإذا الروح الشماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته ، وسألني في اهتمام ، فاجبته في إخلاص صادق ، وقال للكونت "ديلا روك" : إن لي ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وإنه - في الواقع لا يرى أنني تنقصني هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شيء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى . ثم التفت نحوي وقال : "إن البدايات شاقة في كل الأمور تقريباً يا صغيري ، على أن مشقتها لن تذهب - في حالتك - إلى مدى بعيد . كن أريباً ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر . وما عدا هذا ، كن مقداماً تجد رعاية ! .. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة "دي بريسي" - زوجة ابنه - فقدمني إليها ، ثم قدمني إلى الأب "دي جوفون" ، ابنه . ولاحق لي هذه البدايات مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلقون كل هذه الحفاوة . والواقع أنني لم أعامل كواحد

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كافية بالابتعاد عن مهامه إنفاقاً برضي مخلصه ، وهذا يؤدي إلى إحدى نتيجتين : إما أن يسرحوه ، وإما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى .

من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتي على مائدة وكيل أعمال الكونت ، ولم أكن أرتدي الزي المخصص للخدم . وعندما أرادني الكونت "دي فافريا" - وهو شاب أحمر خاوي الرأس - على أن أركب في مؤخرة عربته حرم جده ركوبي خلف عربة أي فرد ، أو قيامي بخدمة أحد خارج الدار! على أنني كنت - في الدار - أتكفل بالخدمة على المائدة ، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبا ، بيد أنني كنت أقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين ، وما عدا كتابة بعض الخطابات التي كانت تملئ علي ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت "دي فافريا" فإنني كنت حر التصرف في وقتي طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا "الامتحان" الذي لم أظن إليه ، عظيم الخطوة في الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودني إلى رذائل ما كان لي أن أقارفها ، على أن هذا لم يحدث ، لحسن حظي ، إذ إن دروس السيد "جاسيم" كانت قد خلفت أثرا مطبوعا على قلبي ، وقد تولاني ميل إليها كان يدفعني - في بعض الاوقات - إلي أن أتسلل فأذهب للإصغاء إليها ثانية . واعتقد أن أولئك الذين كانوا يروني أبارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم أقل فكرة عن المكان الذي كنت أذهب إليه ، وما كان ثمة ما هو أحكم من النصيحة التي أزجهاها الراهب إلي بصدد مسلكي : فلقد بدأت عملي بداية تدعو إلى الإعجاب ، أبدت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرئ فنصحني الراهب - عن فطنة - بأن أخفف من اندفاع الشباب ، خشية أن يخف من تلقاء نفسه تدريجا ، مما قد يسترعي الانتباه ، وقال : "إن القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقدر الذي بدأت به ، فحاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد جهلك بمضي الزمن ، ولكن حذار من أن يقل مجهودك يوما عنه في اليوم الذي سبقه!"

وإذ لم يتجشم أحد عناء اكتشاف مواهب المسكينة ، ولما لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب سوى تلك التي أضفتها علي الطبيعة؛ لذلك لم يبد لي أن أحدا قد فكر في أن يفيد مني .

برغم ما كان السيد "جوفون" قد أنبأني به وما لبثت أن جدت أمور جعلتني منسيا تقريبا . في ذلك الحين كان "المركيز" دي بريي ، ابن الكونت "دي جوفون" سفيرا في "فيينا" وقد وقعت أحداث في البلاط تركت آثارا محسوسة في الأسرة ، فإذا بكل فرد يظل في حالة انفعال لبضعة أسابيع ، مما لم يدع لأحد وقتا في شأني . على أنني لم أكن قد خففت من حميتي في العمل - حتى ذلك الحين - إلا قليلا . وكان ثمة أمر أفادني وأضر بي في آن واحد : أفادني في أنه حفظني من المفريات الخارجية . وأضر بي في أنه جعلني أقل انتباها إلى واجباتي بعض الشيء!

كانت الأنسة "دي بريي" شابة في مثل سني ، بديعة التكوين ، مليحة المنظر إلى حد كبير ، نظرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد . ومع أنها كانت سمراء إلا أنها أوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة ، ولم يكن قلبي يقوى على مقاومته إطلاقا! وكان الزي الذي ترتديه كعضو في البلاط الملكي يلائم الشباب تماما ، ويبيد قوامها الجميل في أبهى مظاهره ، ويترك صدرها وكنتفها عارية ، ويجعل بشرتها أكثر فنتة ، نظرا للحداد الذي كانت تنسم به ثياب الحاشية في ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكني لاحظتها جميعا مع ذلك ، ولم أكن الوحيد الذي لاحظها ، فقد كان كبير الخدم ، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة أحيانا ، في لهجة خسنة كانت تؤذي شعوري بدرجة قاسية . ومع ذلك فإن عقلي لم يفقد اتزانه فبوقعتني في الحب بكل سهولة ، بل إنني لم أنس نفسي ، ولم أنس مكاني ومركزي ، كما أن رغباتي لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغي . . . وإنما كنت أحب أن أرى الأنسة

"دي بريي"، وإن اسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحي على متعة القيام بخدمتها ، فلم أنجاوز حدودي . وكنت أنتهز الفرص دائما - عندما تجتمع الأسرة حول المائدة- لتعزيز هذه الحدود ، فإذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة ، بادرت لفوري إلى شغل مكانه ، وما عدا ذلك كنت أتخذ موقفني في مواجهتها ، وأحرق في عينيها لأرى ما توشك أن تطلبه ، وأرقب اللحظة المناسبة لإبدال طبقها .. وأي شيء كنت أحجم عن إثباته لو أنها تنازلت فألقت علي أمرا ، أو نظرت إلي ، أو وجهت إلي كلمة واحدة ؟! .. لكن ، لا ! كان مقضيا علي بالأا أكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودي ! ومع ذلك فقد حدث في إحدى المناسبات أن وجه آخرها - الذي اعتاد أن يكلمني أحيانا وهو جالس إلى المائدة - عبارة غير مهذبة إلي ، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير ، إلى درجة جعلت الأنسة تنتبه فتحول بصرها نحوي . ومع أن هذه النظرة كانت خاطفة إلا أنها سحرتني ! .. وفي اليوم التالي ، منحت فرصة للفوز بنظرة ثانية ، فسارعت إلى استغلالها : فلقد أقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرأيت أثناءها - لأول مرة - أن رئيس الخدم كان يرتدي قبعته على رأسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما أدهشني ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التي كان بيت "سولار" يتخذها شعارا ، والتي كانت منقوشة على الرسم الذي تالف منه رمز الأسرة هي عبارة :

Tel fier qui ne tue pas

ولما كان "أهل" "بييمونت" غير متفهمين في اللغة الفرنسية ، فقد أشار واحد من الحضور إلى جود غلطة هجائية في الشعار ، وأعلن أنه يجب ألا يكون ثمة (T) في كلمة *fier* . وهم كونت "دي جوفون" الشيخ بأن يجيب لولا أن لاحظت منه نظرة نحوي ، فرأيتي أتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئا ، فأمرني بأن أتكلم ، ومن ثم قلت : إنني لا أعتقد أن حرف (T) لم يكن ضروريا ، إذ إن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من *ferus* ، ومعناها متكبر أو متوعد ، وإنما كانت مشتقة من "*ferit*" ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار - كما بد لي - لم يكن : كم من رجال تواعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا !

والنفت أفراد الجماعة بأسرهم نحوي ، ثم التفتوا إلى أنفسهم ، دون أن ينبسوا ببنت شفة ، أبدا ما رأيت في حياتي مثل هذه الدهشة ! ولكن أكثر ما أستخف زهوي ، هو أنني رأيت من أساطير الأنسة "دي بريي" أنها كانت جد مسرورة . وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفة فرمتني بنظرة ثانية كانت مساوية - على الأقل - للأولى ، ثم أدارت عينيها نحو جدّها ، وبدا أنها كانت تنتظر ، في شيء من عدم الصبر - الهائلة التي كنت أستحقها ، والتي قدمها الجد إلي - في الحق - كاملة وأفية ، وفي مظهر من الرضا جعل الحضور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التي لا تسنح إلا نادرا جدا ، والتي تضع الأمور في نصابها الطبيعي وتعوض إهانات القدر ، وتثأر للكفاءة التي لم تكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سألتني الأنسة "دي بريي" في صوت واهن مستع - وهي ترفع عينيها نحوي مرة أخرى - أن أناولها بعض الشراب .

ولست بحاجة إلى أن أقول إنني لم أدعها تنتظر ، ولكنني ارتجفت بعنف وأنا أقرب منها ، حتى إنني أرتقت بعض الماء على طبقها ، بل وعلىها ، وسألني شقيقها - في غباء - عن السرفي ارتجافي . ولم يفلح هذا السؤال في أن يرد إلي جلدي ، بينما تضرع وجه الأنسة "دي بريي" حتى طفئ الاحمرار

على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التي يلاحظ منها - كما كان الامر في حالة مدام "بازيل" خلال بقية حياتي - أنني لم أكن سعيداً في ختام غرامياتي... وعبثاً صرت أبدي اهتماماً بالحجرة الملحقة بمخدع مدام "دي بريي" - الأم فإنني لم أحظ بأية بادرة أخرى تنم عن انتباه ابنتها إلي ! فقد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون أن تنظر إلي... كما أنني - من ناحيتي - كنت لا أكاد أجسر على أن أنجبه بعيني نحوها.

بل لقد بلغ من غيائي وارتياكي أنني عندما وقع منها قفاها وهي تمر بي ذات يوم لم أجسر على مبارحة مكاني، بدلاً من أن أندفع لالتقاط هذا القفاز الذي كنت أتمنى أن أكسوه بقبلاتي، وتركت وصيفاً فضولياً - كنت على استعداد لأن أختنقه بكل سرور - يلتقطه... وما ضاعف انفعالي أن تبينت أنني لم أحظ برضاء مدام "دي بريي"، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلي، بل إنها لم تعد تتقبل خدماتي البتة، وسالتني بلهجة فاترة إذ وجدتني في الحجرة الملحقة بمخدعها - في مناسبتين - عما إذا كنت لا أجد عملاً آخر يشغلني؟ ومن ثم اضطرت إلى تجنب هذه الحجرة، وقد تحسرت على ذلك في البداية، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كفت عن التفكير فيها!

وسرى عني برود مدام "دي بريي" كرم حميها، الذي انتبه أخيراً إلى وجودي : ففي ليلة المأذبة التي ذكرتها تبادل معي حديثاً عقب العشاء لنصف ساعة. بدا أن الحديث أرضاه، فطربت لذلك. كان هذا الشيخ الطيب أرق قلباً من مدام "دي فيرميللي" - إن لم يكن موهوباً مثلها - وقد كنت معه أحسن حالاً مما كنت معها، وقد طلب إلي أن أكون خادماً خاصاً للاب "دي جوفون" - الذي كان يولياني بعض الاعتبار - عسى أن يفيدني ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدني على اكتساب ما كان ينقصني حتى يهيئني لما كانوا يعتزمون لي. ومن ثم أسرعت - في الصباح التالي - إلى الراهب، فلم يستقبلني كخادم، وإنما حملني على الجلوس إلى جانب المدفأة، وأخذ يسألني بأعظم لطف، فسرعان ما تبين أن تعليمي - الذي كنت قد بدأت في كثير من الأمور - لم يكن مكتملاً في أي شيء. وحين وجد أنني كنت - بوجه خاص - على إلمام قليل باللغة اللاتينية، تكفل بتلقيني مزيداً منها. ، واتفقنا على أن أذهب إليه في كل صباح، فبدأت من الصباح التالي مباشرة وهكذا كنت - بإحدى تلك المصادفات الغريبة التي ستظهر كثيراً في مجرى حياتي فوق مكاني ونحتها في آن واحد ! كنت تلميذاً ووصيفاً في بيت واحد وبينما ظللت خادماً حظيت بمدرس كان نبيل معنده خليقاً بأن يجعله أستاذاً لأبناء الملوك، ولا أقل منهم ! كان الاب "دي جوفون" ابناً أصغر في أسرته، أعده أهله ليكون أسقفاً، ولهذا السبب فإن دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء عليه القوم. فقد أوفد إلى جامعة "سسينا"، حيث مكث عدة سنوات، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ومن ثم فإنه كان يؤدي في "تورين" نفس الدور الذي كان يؤديه الاب "دي دانجو" (١) في "باريس". وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب وهو امر جد مألوف في "إيطاليا" لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية. وقد قرأ إنتاج الشعراء في اهتمام ووعي، وكتب أشعاراً "لاتينية" و"إيطالية" مقبولة. وبإيجاز كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقي، ويدخل شيئاً من التنظيم على الركام المهوش الذي كان رأسي محشواً به. على أنه - إما لأن ثرثرتي أعطته فكرة زائفة عن درابتي، أو لأنه لم يكن يطبق مبادئ اللاتينية المضجرة - قد جعلني أبدأ بداية تفوق المستوى الذي كنت فيه بكثير وما إن جعلني أترجم نضج أساطير عن "فيديروس" حتى زج بي

(١) الأب "دي دانجو" كان من أعضاء الجمع اللغوي الفرنسي - الأكاديمي الفرنسي - في منتصف القرن السابع على تلك الفترة، وقد ألف رسائل في قواعد اللغة الفرنسية.

في أشعار "فيرجيل" التي لم أكد أفقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا علي دائما - كما سيتجلى فيما بعد - أن أشرع في تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير في الشوط إلى غايته . على أنني ، في هذه المرة ، اجتهدت في حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه علي في عطف لا أستطيع - حتى اليوم - أن أذكره دون أن يخفق قلبي تأثرا ! .. صرت أقضي شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولاؤدي للسيد الخدمات ، ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لي البتة بأن أؤدي هذا النوع ، وإنما كنت أكتب ما يمليه علي وأنسخ ما يعهد به إلي ، فكانت واجباتي كسكرتير أكثر نفعا لي من دراساتي كتلميذا ! .. فإنني - بهذه الطريقة - لم أتعلم الإيطالية في أرقى أساليب بلاغتها فحسب وإنما اقتبست ذوقا أدبيا ، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التي كان من المستحيل الحصول عليها من مكتبة "لاتريبو" والتي كانت عظمة النفع لي فيما بعد عندما شرعت في الاعتماد على نفسي في التأليف !

تلك كانت الفترة الوحيدة في حياتي التي كان من المعقول أن أطمع فيها في النجاح ، دون ما مشروعات خيالية ! .. أخذ الراهب - الذي كان جد راض عني - يحدث كل شخص عن ذكائي . وأولاني أبوه تقديرا خاصا ، حتى لقد ذكر لي الكونت "دي فافريا" أنه تحدث عني إلى الملك ! .. حتى مدام "دي بريسي" تخلت عن مسلكها المهين نحوي ، وبإيجاز ، أصبحت ذا حظوة في الدار ، مما أثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين أدركو - إذ رأوني أتشرف بتلقي الدروس على يدي ابن مولاهم - أنه لم يعد مقدرا لي أن أبقي واحدا منهم !

وبقدر ما أمكنني أن أحس عن وجهات النظر التي كانت تعالج أمري - من بضع كلمات كانت تلقى إلي في عجلة ، ولم أفكر فيها مليا إلا فيما بعد - يبدو لي أن آل "سولار" كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزارية في المستقبل ! ومن ثم فقد كانوا على استعداد أن يتولوا - بكل سرور - تعليم شخص موهوب ، جذير بالثقة ، يصبح فيما بعد - لاعتماده المطلق على أسرته في معاشه - مستودع ثقتها ، ويستطيع أن يخدمها بإخلاص . . وكان هذا المشروع من الكونت "دي جوفون" مشروعا نبيلًا حكيما كريما ، جذيرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغني عن الذكر أنني - إذ ذاك - لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد كان فوق مستوى إدراكي ، كما أنه كان يتطلب فترة طويلة من التبعية والانصياع . وكان طموحي الأرعن لا يرى الخط الحسن إلا في وسط المغامرات ! ولما لم يكن لاية امرأة شأن بهذا المشروع ، فقد بدت لي هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنية ، وكثيرة . . في حين أنه كان خليقا بي أن أعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخرى ، لنفس السبب الذي ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها ، فإن ذلك النوع من الجدارة الذي تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذي يتسم به النوع الذي كان مفترضا أنني أمتلكه !

ومضى كل شيء ، على أبعد حال ، فاكتمست احترام الجميع أو بالأحرى انتزعتة تقريبا ! وانقضت فترة الاختبار ، وأصبحت مرموقا في الدار - بوجه عام - كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولكن كان قد قدر له ألا يشغل المركز الجدير به فإن كل امرئ كان يتوقع أن يرقى إلى هذا المركز . بيد أن مكاني لم يكن ذاك الذي قدره لي الجميع وقد كتب علي ألا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة . . وهذا يفضي بي إلى خلة من تلك الخلل الشخصية التي امتزت بها ، والتي لا أحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارئ دون مزيد من الإسهاب .

ذلك أنه بالرغم من أن "تورين" كانت تضم كثيرين سواي ممن اعتنقوا الكشلكة حديثا إلا أنني لم أكن أميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم ، على أنني كنت قد عرفت - فيمن تعرفت إليهم - شخصا من أهل "جنيف" يدعى السيد "موسار" ، ويلقب بـ "ذي الفم الأعوج" وكان من رسامي التحف الدقيقة ، وذات صلة بي . وقد تبين أنني كنت أقيم لدى الكونت "دي جوفون" ، فجاء ليراني مع شخص آخر من "جنيف" يدعى "باكل" ، كنت زميلا له حين كنت أتدرب على الحرفة . وكان "باكل" هذا مسليا ، شديد المرح ، راوية للفكاهات النواذر التي كانت تبدو مستملحة لمن في مثل سنه ، ومن ثم فإن لكم أن تتصوروا كيف افتتنت فجأة بالسيد "باكل" إلى درجة لم أعد معها أقوى على أن أفارقه . . . وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى "جنيف" بعد وقت قصير ، فإلى للخسارة التي خيل إلي أنني سأمنى بها! . . . وإذا تبينت مداها رأيت أن أفيد إلى أقصى حد - على الأقل - من الوقت الباقي قبل رحيله ، فلم أكن أفارق جواره إطلاقا ، أو بالأحرى أنه هو الذي لم يكن يفارقني ، لأنني - في البداية - لم أبلغ من الطيش الحد الذي كان يجعلني أقضي اليوم كله معه خارج القصر دون إذن . على أنهم سرعان ما تبينوا أنه كان يشغل كل وقتي ، فحرموا عليه ولوج الدار ، مما أثار حنقي فسييت كل شيء عدا صديقي "باكل" ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت ولم أعد أشاهد في الدار ١ بل إنني لم أكثرث للوم والتأنيب ، فأنذرت بالطرده . . . وكان في ذلك دماري . . . إذ أغراني بأن من الممكن ألا يرحل "باكل" دون رفيق ١ ومنذ تلك اللحظة لم أعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة! وما ضاعف هناءتي المرتقة ، أن مدام "دي فاران" لاحت لي في نهايتها ، ولكن . . . على بعد سحيق ، إذ لم يكن ليخطر ببالي قط أن أعود إلى "جنيف" بالذات . . . وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر أمام ناظري في تتابع لا نهاية له ، قد تجددت مسافرتها . . . وبدا أن هذه الرحلة وقد ابتلعت كل حياتي ، فرحت أتذكر في ابتهاج كيف سحرتني هذه الرحلة وأنا قادم إلى "تورين" ، فما بالك إذا ما استمتعت - إلى جانب كل سحر الاستقلال - بهجة جديدة تتمثل في صحبة صديق في مثل سني وميولي ، أوتي روحا طروبيا . . . لاسيما وأنه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات ، ولا رقابة ، ولا اضطراب إلى الذهاب أو البقاء في أي مكان ، ما لم يرق لنا ذلك . . . وخيل إلي أن المرء يكون أحسن ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خطط طموح ، بطيئة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق! . . . خطط لم تكن - حتى إذا سلمنا بأنها قد تتحقق يوما ما ، وبزعم كل اشراقها ووميضها - لتعادل ربع ساعة من السرور الحقيقي ومن حرية الشباب ١

وإذا تملكنتي هذه الفكرة الحكيمة أقبلت على التصرف بطريقة أفلحت في حمل القوم على فصلني من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم في الواقع دون كثير من العناء ، وهكذا ، ذات مساء ، أسلمني رئيس الخدم عند عودتي إلى الدار أمرا من الكونت بفصلي ، وكان هذا هو عين ما رجوت! . . . غير أنني كنت - بالرغم من نفسي - أدرك جموح مسلكي ، وقد أضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلي أنني بحمل القوم على طردي أستطيع أن ألقى اللوم على سواي ، وأن أنصف نفسي وأبرز مصيري ، وكأنني كنت مضطرا - بالرغم مني - إلى انتهاج المسلك الذي كنت في الواقع المسؤول الوحيد عنه! وقبل أن أرحل في الصباح التالي أرسل الكونت "دي فافريا" يدعوني لمقابلته ، ولما كانوا يرون أنني فقدت كل تعقل ، وأنني قد لا ألبى الدعوة فقد ذكر لي رئيس الخدم أنه سيعطيني بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لي ، برغم أنني كنت لاستحققه بالتأكيد ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد

قرروا لي أجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعترفون باستيقائي في منصب الخادم !
ومع ما كان عليه الكونت "دي فافيريا" من صغر السن وضآلة التفكير ، فإنه تحدث إلي في هذه المناسبة بما ينم عن وعي وعطف ، بل إنني لا أكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفي تلمظ يهفو بالقلب ، فاطلعتني على عطف عمه الراهب علي ، وعلى نوايا جده بشأني ، وأخيرا .. وبعد أن عرض علي بأوضح ما كان في وسعه ، كل الميزات التي كنت أضحي بها لاندفع نحو هلاكي ، عرض أن يتوسط لي في البقاء علي شريطة أن أتخلي عن ذلك الشاب الشقي الذي أفسدني . وكان من الجلي أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت -برغم حماقتي العمياء - شديد الشعور بكل ما كان مخدومي الشيخ يمكنه لي من إشفاق ، وقد تأثرت به ، ولكن رحلتي الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالي ، فلم يكن في وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدي تماما ، فاشتد عنادي وصلابة رأيي ، وتذرت بكرامتي ، وأجبت - في صلف - بأنني قد تلقيت أمرفصلي من الخدمة ، وأنني تقبلته ، وأن أوان سحبه قد فات ، وأنني قد عقدت العزم على ألا أسمع لنفسي بأن أطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب ! . وإذ ذاك رماني الشاب بما أستحق من القاب ، وقد ثار عن حق ، وأمسك بكثفي فالتقى بي خارج غرفته وأوصد الباب خلفي ! .. فانطلقت مزهوا كأنني أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من أن أضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة أن تحمطني على الرحيل بدون أن أشكر للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنوني يسوقني إليه في تلك اللحظة يجدر بالمرء أن يعرف إلى أية درجة يشور فؤادي بسبب التفاهات البسيطة ، وبأي عنف يندفع وراء الشيء الذي يستهويه ، مهما يكن هذا الشيء خلوا من أية قيمة .. !

ذلك أن أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدّها حماقة ، تتمشى مع الفكرة التي تحلو وتعزّزها ، حتى أقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها .. ! أفهناك من يصدق أن إنسانا ما - لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره - يستطيع أن يشيد آماله في العيش ، ما بقي من عمره - على زجاجة فارغة ؟ .. إذن فاسمعوا : كان الأب "دي جوفون" قد أهداني - قبل ذلك بأسابيع قلائل - نافورة صغيرة من نافورات "هيرو" (١) اغتبطت بها ، وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه النافورة ، أثناء حديثنا عن رحلتنا خطر لـ "هاكل" العاقل ، ولي ، أن في وسع النافورة أن تنفعا في إطالة الرحلة ، فاي شيء في الدنيا أغرب وأدعى لإثارة الفضول من نافورة "هيرو" ؟ .. وكانت هذه الفكرة هي الأساس الذي بنينا عليه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجتمع فلاحا كل قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتبهات في وفرة عارمة - فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيهما شيئا - ومن ثم رحلنا نتوقع أن نجد أعراسا ومهرجانات في كل مكان مما يمكننا - دون أن ننق شيئا اللهم إلا أنفاسنا ومياه نافورتنا - من أن نكسب نفقات رحلتنا خلال "بييمونت" و"سافوا" و"فرنسا" .. بل العالم كله في الواقع ! .. وعلى أثر ذلك أخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا أن نتجه أولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب !

٦ - من سنة ١٧٢١ إلى ١٧٢٢

وهكذا كانت الخطة التي شرعت فيها ، هاجرا - دون ما ندم - راعي وأستاذي ، ودراساتي ،

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من أبناء الإسكندرية يدعى "هيرو" .

وآمالى ومستقبلا كان شبه مؤكد ، لأبدأ حياة التشرد المنتظم! .. وودعت العاصمة (١) والقصر الملكي ، والطموح ، والزهو ، والحب ، والنساء الحسنان ، وكل المغامرات المشيرة ، التي حملني الأمل في العثور عليها إلى "تورين" قبل ذلك بعام .. وانطلقت مع نافورتي وصديقي "باكل" ، بكيس خفيف ، ولكن بقلب مليء بالغبطة ، وبأل لا يفكر في شيء سوى استمرار سعادة التجوال التي قصرت عليها بغنة مشروعاتي البراقة . ولقد جعلت هذه الرحلة الشاذة ملائمة بالقدر الذي كنت أتوقعه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقة التي أردتها تماما ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات ، إلا أنا كنا نضطر - مع ذلك - إلى أن ندفع نفقات إقامتنا إذا ما همسنا باستئناف الرحيل ، بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم تفكر في استغلال النافورة كمورد جدي للدخل إلا عندما بدأت نفقدنا تنفد . على أن ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من "برامان" ، والواقع أن الوقت كان قد حان وإذ كنا قد شعرنا - من أن نجرؤ على المصارحة - بأن التعب قد بدأ يدب فينا ، وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذي قبل ، فضحكنا كثيرا من غيائنا ، إذ نسينا أن ثيابنا وأحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الأنظار! .. وهكذا تابعتنا رحلتنا ونحن في مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وإن يمينا - في اتجاه مباشر أكثر من ذي قبل - شطر الغابة التي كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها .

وفي "شامبيري" بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذي أقدمت عليه - فليس من إنسان أقدر مني على تعزية نفسه سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضي - وإنما بسبب الاستقبال الذي كان يرتقبني لدى مدام "دي فاران" ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلي الخاص ، وكنت قد كتبت إليها أنبشها بالتحاقى بالخدمة في دار الكونت "دي جوفون" وقد عرفت مركزي هناك ، وعندما هاتني أزجت إلي بعض النصائح الجلييلة فيما يتعلق بالسلوك الذي يجب أن انتهجه جزء الكرم الذي أبدي نحوي . ولقد اعتبرت السيدة أن مستقبلي بات مضمونا ، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ مني .. ترى ما الذي ستقوله حين تراني عند وصولي! .. أبدا لم يخطر ببالي احتمال أنها قد توصلت الباب دوني ، ولكنني كنت أُرهب الحزن الذي كنت موشكا على أن أسببه لها ، وكنت في خوف من ثانياتها ، التي كانت أقسى على نفسي من أعظم شقاء فاعتزمت أن أتحمّل كل هذا في صمت ، وأن أبذل كل ما في وسعي لاهدي من أساها ، فما كنت أرى لي في الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش في خزي منها أمرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من قلقي كان بسبب زميلي في السفر ، فما كنت راغبا في أن أثقل كاهلها به إلى جانبي ، كما كنت أخشى ألا يسهل علي التخلص منه ! وقد هياته للفراق بأن أخذت أعامله - في اليوم الأخير - بشيء من الفتور ، ففهم الوغد أمرى - فقد كان طائشا أكثر منه غيبا ! وقد ظننت أن قلبي سيخز قلبه ، فإذا بي مخطئ ، إذ كان اللعين لا يسمح لشيء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما أرسينا أقدامنا على أرض "أنيسي" ، حتى قال لي : "هائندا في بلدك" ، وعانقني مودعا ، ثم نكص على قدميه ، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر في مجموعهما لكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !



ولشد ما يخفق قلبي وأنا أقترب من دارها!.. لقد أخذت ساقاي ترتجفان تحتي، ورائت غشاوة على عيني، فلم أر شيئا، ولا سمعت شيئا، وما كان بوسعي أن أعرف شخصا!.. واضطرت إلى أن أتوقف عدة مرات لأتمالك أنفاسي وأسيطر على نفسي. أفكان الخوف من الاضطراب بالمعونة التي كنت بحاجة إليها هو الذي أزعجني بهذا القدر؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع في شخص في مثل سني؟.. لا هذا ما أعلنه في صدق وكبرياء، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط - في أية لحظة من حياتي - أن يفتح قلبي أو يغلقه!.. ففي مجرى حياتي - غير المستقيم، والذي تفتن ذكره بكثرة تعرجاته وانحناءاته، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز - ظللت دائما أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء! ولقد كان بوسعي في أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق - كما يفعل أي امرئ - ولكنني لم أكره نفسي قط من جراء اتحداري إلى هذا الدرك. واعتقد أن قليلين هم الذين صعدوا من الزفراء قدر ما صعدت، وذرفوا من الدموع في حياتهم مقدار ما ذرفت، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليه لم يقربا قط على أن انفت زفرة، أو أذرف دمعاً!.. إن نفسي - التي خلقت في حصانة ضد الحظ، فهي لا تتأثر به - لم تعرف قط استكانة إلى نعمة.. وعندما لافتقر إلى شيء يمكن أن تمس إليه الحاجة، فذاك هو الوقت الذي أشعر فيه بأنني أشقى المخلوقات!



ما إن مثلت أمام مدام "دي فاران" حتى طمأنني مسلكتها! وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها، وارتجبت على قدميها.

وفي اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة الصفت شفتي بيدها! ولست أدري هل كانت قد سمعت أي نيا عني، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء، بل قالت في صوت حنون: "يا صغيري المسكين! أهذا أنت مرة أخرى؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة. إنني مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشاه!.. ثم حملتني على أن أروي لها قصتي، التي لم تكن طويلة، والتي رويتها بأمانة، وإن كنت بعض تفصيلات قليلة، دون أن أتسر على نفسي أو أستطيع لها الأعذار أو كان تدبير المكان الذي أنام فيه مشكلة، فاستشارت وصيفتها. ولم أجسر على أن أنس بيت شقة خلال الحديث، ولكنني لم أكّد اسمع أن بوسعي أن أنام في الدار، حتى كدت أعجز عن تمالك نفسي!.. رأيت متاعي القليل يحمل إلى الغرفة التي عينت لي، بمثل المشاعر التي رأى بها "سان برو" محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام "دي ولسار" (١). وبما ضاعف اغتياطي أنني علمت أن هذه الخطوة لم تكن أمرا عابرا، ففي اللحظة التي كان يبدو علي فيها أنني أفكر في شيء آخر سمعت السيدة تقول: "دعهم يقولون ما يشاءون"، فقد عقدت العزم - مذ ردت العناية الإلهية إلي - على ألا أفارقه!"

وهكذا استقر بي المقام أخيرا في دارها. على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذي اتخذته بداية لتاريخ الأيام السعيدة في حياتي ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم، فبالرغم من أن هذا الشعور المرفف في القلب - الذي يجعلنا نغضب بأنفسنا غبطة صادقة - هو من صنع الطبيعة، وربما كان من نتاج نظامها، فإنه يتطلب مواقف معينة تنمي. وبدون الأسباب التي تحدث هذه التنمية، فإن الرجل الذي ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشيء، وربما مات دون أن يعرف

(١) "سان برو" و"مدام دي ولسار" من شخصيات قصة "روسو الطويلة: هيولوج الجديدة".

قط حقيقة نفسه!.. ولقد كان هذا هو الشأن معي - أو ما يقرب منه - حتى ذلك الحين، وربما كنت مسوقا إلى أن أبقي كذلك دائما لو لم يقدر لي أن أعرف مدام "دي فاران" أو لو أنني - بعد أن عرفت - لم أقم معها وقتا كافيا لأن استمرى حلالة المشاعر الرقيقة الحانية التي ألهمتنيها بل إنني لأجرؤ على القول بأن ذلك الذي لا يشعر بغير الحب وحده ، لا يحس بأحلى ما في الحياة ، فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة ألف مرة!.. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه ، وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة، إنما هو أشد منها عنفا في غوايته، وأكثر حنانا في رفته. ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك.. وعلى كل حال ، فإنني عرفت الصداقة كما لم يعرفها أي رجل آخر ، ومع ذلك فإنني لم أحس بهذا الشعور في حضور أي شخص من أصدقائي . وهو شعور غامض خفي إلى حد ما ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد ، وفيما ينجم عنه - فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام "دي فاران" تقيم في بيت عتيق بالغ الاتساع بحيث يحتوي على غرفة بديدة تزيد على حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس ، وفي هذه الحجرة أنزلتني ، وكانت تفضي إلى الدرب الذي سبق أن تكلمت عنه والذي تم فيه أول لقاء بيننا وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين ، ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشباب الذي شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى - منذ كنت أقيم في "بومسي" - التي رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتي! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس أمام عيني سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة.. فبأي طرب شعرت بسحر التجديد الذي عزز ميلتي إلى المشاعر الرقيقة الحانية!.. لقد اعتبرت هذا المنظر الفاتن كلون آخر من ألوان كرم ربة نعمتي العزيزة، ولاح لي أنها هي التي وضعت كل شيء هناك، خصيصا من أجلي ، فغرست نفسي هناك إلى جوارها، وقد امتلأت بهناء وادعة.. وصرت أرى راعيتي في كل مكان ، وسط الزهور والخضرة. كانت مفاتها تمتزج بمفاتيح الربيع أمام عيني بطريقة لا يلم بها إدراكي!.. وانتفخ قلبي - الذي كان مكبوتا حتى ذلك الحين - وامتد في هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتي تجد متنفسا طليقا وسط البساتين!

ولم أجد لدى مدام "دي فاران" الأبهة التي رأيتها في "تورين" ، ولكنني وجدت نظافة ، وأناقة ، وخيرا فياضا ، لاتقترن بها العطرسة والكبرياء قط!.. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صيني ولا خزف، ولا لحوم في مخزن المؤونة ، ولا خمور أجنبية في أقبية القصر!.. ولكن المطبخ وقبو الدار كانا مزودين بما يكفي أي امرئ! كانت السيدة تقدم في الاقداح الدلفية (١) قهوة رائعة. وكان كل من يزورها يدعى إلى العشاء على مائدتها ، وما من عامل ، أو رسول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب ، وكان خدماها يتألفون من وصيفة - على قسط من الجمال - من بلدة "فريبور" تدعى "ميرسيريه" ، ووصيف من وطنها يدعى "كلود آنيه" - سأذكر عنه مزيدا فيما بعد - وطاهية ، واثنين من الحمالين كانا يستأجران لحمل الحفة السيدان (٢) في المناسبات النادرة التي كانت السيدة تؤدي فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عيشا على معاش سنوي قدره ألفا "ليبرة" ، لولا أن دخل السيدة الضميل كان - إذا أحسن تدبير إنفاقه - كافيا في بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحبيبة لدى السيدة ، فكانت

(١) الاقداح الدلفية: اقداح من خزف مصنوع في "هولندا". (٢) السيدان هي محفة مزلفة من مقعد ذي مظلة ، يحمله رجلان، وكانت من مركبات ذلك العصر.

تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع .

كانت النقود تذهب في كل ناحية ، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير!

وكانت الطريقة التي نظمت بها دارها هي ما كنت أؤثره لو عهد إلي اختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سروري بالحياة معها ، والإفادة منها ، أما الأمر الذي كان أقل مدعاة للسرور ، فهو أنني كنت مضطرا إلى أن أبقي جالسا إلى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لا تكاد تحتل أن تشم العبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المائدة ، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، لكنها لم تلبث أن تماكنت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام ، دون أن تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضي أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم ! وكان بوسعي - في هذه الفترة - أن أتناول ثلاث وجبات ؛ ومن ثم فإنني كنت دائما أفرغ من طعامي قبل أن تشرع هي في الأكل بوقت طويل . وقد اعتدت - لكي أؤنسها - أن أشرع في الأكل مرة أخرى !

وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك ، وبعبارة موجزة : أسلمت نفسي للذة الشعور بالراحة ، التي كانت تخامرني عندما أكون معها ، لاسيما وأن هذه اللذة التي كنت أستمثرها كانت خلوا من أي قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها! .. ولما لم أكن قد اشركت بعد - بثقة تامة - في شؤون السيدة ، فقد رحلت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسي هذه الرفاهية في دارها في أوقات أخرى بعد ذلك ، ولكنني كنت قد ألمت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلمه ؛ ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التي شعرت بها في ذلك الوقت! .. إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هناءتي . فليس من المفيد لي في شيء أن أتنبأ بالمستقبل ، إذ إنني لم أعرف البتة كيف أتفاده!

ولقد توطد بيني وبين مدام "دي فاران" - منذ اليوم الأول - أكمل ود والفة ، وقد داما خلال ما بقي من عمرها . كان اسمي لديها "الصغير" ، وكان اسمها عندي "ماما" ، وقد ظللنا دائما "الصغير" و"ماما" ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . إنني لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا ، وعن بساطة الأسلوب الذي كان مرعيا في سلوكنا ، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبين قبل كل شيء آخر! .. كانت - بالنسبة لي - أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائما إلى ما فيه الخير لي . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بي ، فإنها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. أسكرتني ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة في أن الأطفها (١) "الأطفها" بأدق ما في الكلمة من معنى ، فما خطر لها قط أن تقتصد في قبيلات الأم ، أو في عنقاتها الرقيقة وملاطفتها ، ومن المؤكد أنه لم يخطر ببالي إطلاقا أن أسيء استغلال ذلك ، وقد يقال إننا - في النهاية - ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإنني لأقر بهذا ، ولكنني أرى أن أثره قليل ، فليس في وسعي أن أروي كل شيء في التوا!

كانت لحظة لقائنا الأول ، هي اللحظة الوحيدة التي جعلتني أشعر بها مليئة بالانفعال العاطفي الحقيقي . على أن هذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة .. ولم تجسر نظراتي قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذي كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم أكن أشعر في حضورها بأية نزوات أو شهوات ، بل كنت في حالة استجمام فائن واستمتاع ، وإن لم أدر فيم كان هذا الاستمتاع! .. وكان بوسعي أن أقضي في

هذه الحال كل حياتي الدنيوية، بل وحياتي الأخرى، دون ما لحظة من الملل والسأم ، فإن مدام "دي فازان" هي الشخص الوحيد الذي لم أشعر معه بذلك الفتور والتضروب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطراب إلى المضي فيه ضربا من التضحية والاستشهاد... ولم يكن كلامنا الهامس في خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثروة لا ينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعوني للكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت علي أكثر لزوما وكانت كثيرا ما تستغرق في شروود حالم لفرط تفكيرها المستمر في مشروعاتها ، فكنت أتركها لأفكارها ، وأمسك لساني ، وأنظر إليها .. وإذا ذلك كنت أسعد الرجال... وكنت لأزال احتفظ بخيال فذ ، فكنت أسمى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت أستمري هذه الحلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما إن يفد أحد سواء كان رجلا أمراه - حتى أغادر الحجرة وأنا أزمرجر - عاجزا عن أن أبقى في حضور طرف ثالث ! وكنت أقيع في حجرتها الداخلية، أعد الدقائق ، وألحن هؤلاء الضيوف - الذين يابون الانصراف - ألف مرة ، وأنا لأقوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدي ما يفوقه!

ولم أكن أشعر بقوة تعلقي بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها .. ولا كنت هانئ البال إلا حين أراها ، فإذا غابت كان قلقي يصبح أليما . كانت حاجتي إلى العيش معها تسبب لي نوبات عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن أنسى مطلقا أنني في يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة بينما كانت هي في قداس المساء .. وشعرت أن قلبي قد امتلا بصورتها ، وبرغبة متاجحة في أن أقضي حياتي معها ، وكنت من الإدراك والعقل بحيث أرى أن هذا كان مستحيلا في وقتي الراهن ، وأن السعادة التي كنت أستمع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا في خواطري مسحة من الأسى ، لم يكن فيها - مع ذلك - أي اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مرادة .. كان صوت الاجراس - الذي كان يهزني دائما بوجه خاص - وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمناظر الطبيعية الساحرة ، والمساكن القروية المتناثرة التي كان خيالي يتخذ منها مقاما لنا .. كل هذه كانت تخلق في نفسي تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا ، يهز أوتار قلبي إلى درجة أرى معها أنني أنتقل في غيبوبة حاملة إلى ذلك الوقت والمكان السعيدين ، اللذين كان قلبي فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها في انتشاء لا سبيل إلى وصفه ، دون أدنى تفكير في لذة شهوية . وما أذكر البتة أنني أوغلت يوما في التفكير في المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرني في تلك المناسبة . وكان أعظم ما أدهشني من ذكرى هذا الحلم بعد أن نسيت له أن يتحقق ، هو أنني ألفت الأمور تطابق تماما ما تصورته في الخيال . وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التي تراود ذهن إنسان ما أن يكون شبيها برؤى النبوة فهو حلمي هذا بالتأكيد . فما خدعني خيالي إلا في الأمد الذي تصورته ، فقد تمثلت في الحلم أن حياتنا معا امتدت أياما وأعواما في سكون صافية سامية لا يعكرها شيء .. في حين أن هذه الحال لم تدم - في واقع الحياة سوى لحظة .. وبالحسرتي !.. فإن أبقى سعادة ظفرت بها إنما كانت حلما لم تلبث البيقظة أن أعقبت تحققه في الحال!

ولن أفرغ من مهمتي إذا أنا خضت في تفصيلات كل المحامقات التي كان تذكري لهذه الأم العزيزة يحملني على ارتكابها عندما لا أكون في حضرتها : فكيف كنت أقبل سريري لأنها نامت فيه يوما ، وسنائري وكل اثاث حجرتي لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها .. حتى الأرض

كنت أتقلب عليها مادامت هي قد خطرت فوقها... وكنت أحياناً أرتكب- في وجودها- نزوات ما كان ليوحى بها سوى أغتف ألوان الحب وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة ، وما إن وضعت قطعة من اللحم في فمها حتى هتفت قائلاً: إنني تحت شجرة فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها في لهفة وابتلعتهما ! وبإيجاز : لم يكن بيني وبين أشد العشاق تدلها سوى فارق واحد- ولكنه جوهري- يجعل حالتي فوق كل تصور وإدراك!

و كنت قد عدت من "إيطاليا" على غير ما ذهبت إليها ، بل لعلني عدت منها كما لم يعد قط أي امرئ في سني ، فقد حملت معي - في عودتي - طهري الجسدي ، وإن لم احتفظ بطهري العقلي والخلقي ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيراً لطباعي القلقة غير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة ، وقد سبب لي تجليها لأول مرة- على غير إرادة مني- انزعاجاً بشأن صحتي ، بدرجة تبين أكثر من أي شيء آخر مدى البراءة التي كنت أعيش فيها حتى ذلك الحين. وما إن اطمانت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التي تعاون تلك الطباع ، والتي تغر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجي ، كثيراً من الاضطرابات واللوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم .. حياتهم أحياناً! ولهذه الرذيلة - التي يرتاح إليها الخجل والجبن- إغراء عظيم يجتذب التخييلات .

ذلك هو- كما ينبغي أن يقال - حشد الجنس بأسره لإرضائها ، واستغلال الجمال للمذاثات ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه! .. وتحت إغراء هذه الخلقة المهلكة ، جهدت في تدمير البنية البديعة التي منحنيها الطبيعة ، والتي اتحت لها الوقت لتتنسق في تشكيلها . أضف إلى هذه العادة ظروف مركزي الحالي ، إذ كنت أقيم في دار امرأة جميلة ، أداعب طيفها في قرارة قلبي ، وأراها باستمرار طوال النهار ، وأحاط في الليل بأشياء تذكرنني بها ، وأنام في سرير عرفت أنها كانت تنام فيه! .. فأية مشيرات هذه ! إن القارئ الذي يتمثلها لنفسه يرى لأرب أنني كنت في منتصف الطريق إلى الموت بالفعل! ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تماماً ، فإن الشيء الذي كان خليقاً بأن يقضي علي ، كان عين ما أنقذني ، ولو إلى حين : ففي انتشائي بسحر الإقامة معها ، وبالرغبة الجامحة في أن أقضي أيامي بقربها ، كنت أرى فيها دائماً - سواء كانت غائبة أو حاضرة- أماحنونا ، وأختنا حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا أكثر من هذا ! .. هكذا كنت أراها دائماً ، وهكذا كانت دائماً ، فلم أكن أرى سواها قط!

وكانت صورتها الماثلة في قلبي دائماً لاتدع مكاناً لأحد البتة! ..

كانت لي المرأة الوحيدة في العالم ، وكانت العذوبة البالغة التي اتسم بها ما كانت تلهمني من مشاعر ، لاتدع لحواسي وقتاً تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمني منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول إنني كنت عفيفاً ، لأنني كنت أحبها! ..

فليقل من يستطيع - على ضوء هذه النتائج التي لم أحسن وصفها - أي نوع كان تعلقي بها؟ .. أما أنا ، فكل ما أملك أن أقول عنه : هو أنه إذا كان يبدو جد غريب ، فإنه سيبدو في عواقبه أغرب ! وكنت أقضي وقتي على خير وجه ، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لي من أشياء . كانت ثمة مشروعات تدبر ، ومذكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى ، وعقاقير تصحن وتسحق ، وأنابيب "أجهزة للتقطير" تراقب .. وفي غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون - من كافة الطبقات - لا يكفون عن الوفود زرافات ، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جندياً وصيدلياً وكاهناً وسيدة راقية وطالب ماوى .. في آن واحداً وكنت أسب ، وأزمجر ، وألعن ، وأقنئ

أن يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة. أما مدام "دي فاران" - التي كانت تتقبل ذلك بحسن نية- فكانت غضباني تضحكها حتى تدمع عيناها ، وكان يضاعف من ضحكها أن تراني أزداد سخطا لأنني لم أكن أملك أن أصد نفسي عن الضحك... كانت الفترات القصار التي كنت أحظى فيها بالزمرجة لحظات ساحرة... ولو أن قادمنا جديدا من هؤلاء الضيوف الشقاء أقبل خلال الجدل فإن السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تطيل الزيارة في تخايب ، وهي ترميني بنظرات أود معها لو أضر بها!

وكانت تشمالك نفسها بعناء حتى لا تنفجر مقهقهة ، إذ تراني أتجلد وأكظم مشاعري تأدبا ، وأرمقها كشخص مسلوب النهى ، في حين أنني كنت في فرارة فؤادي - بل ورغم عن نفسي أرى الأمر كله داعيا للضحك!

ولكن لم يكن كل هذا يسرني ؛ إلا أنه كان يروق لي ، لأنه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجني . ولم يكن في كل ما كان يجري حولي - ولا في كل ما كنت مضطرا إلى عمله - شيء يلائم ذوقي ، ومع ذلك فقد كان كل شيء يروق لفؤادي . اعتقد أنني كنت قمينا بأن أميل إلى الطرب لولا أن نفوري منه سبب تلك المناظر المضحكة التي أطربتنا كثيرا . ولعل هذه هي المرة الأولى التي يخلق فيها هذا الفن أثر كهذا . كنت أزعج أن بوسمي أن أعرف أي مركب طبي من راحته ، وكان الطريف في الأمر أنني نادرا ما كنت أخطئ! ولقد حملتني مدام "دي فاران" على أن أتذوق أفطع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار أو محاولة الدفاع عن نفسي ، فبالرغم من مقاومتي ومن عبوسي ، وبالرغم من اصطكاك أسناني ، كنت أضطر أخيرا إلى أن أفتح فمي عندما أرى أصابعها الجميلة - ملطخة بالعقار - بالقرب منه ، فامتصتها... وعندما كان كل أهل دارها يجتمعون في حجرة واحدة ، يسمعون جريتنا وصراخنا وضحكنا ، كان أي امرئ خليقا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والأكاسير!

على أن وقتي لم يكن وفقا على هذه الحماقات ، . فقد وجدت في الغرفة التي كنت أشغلها بضعة كتب : "المتفرج" ، و"بيفندروف" ، "سانت إيفرموند" ، والقصيدة "الهنرية" . ومع أنني لم أكن احتفظ بجنوني القديم بالقراءة إلا أنني كنت أقرأ قليلا عندما لا أجد شيئا آخر أفعله . كان كتاب "المتفرج" يلذ لي بوجه خاص ، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لي وكان الأب "دي جوفون" قد علمني أن أقرأ في غير إسرار ، وبمزيد من التامل ، ولهذا أصبحت المطالعة أكثر فائدة لي وعودت نفسي أن أفكر في اللغة والأسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كما دريت نفسي على أن أمير الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإقليمية ، وتعلمت كيف اصصح الكثير من الأخطاء الهجائية التي كان يشاركني في ارتكابها جميع أهل "جنيف"!

وكنيت أتحدث إلى "ماما" أحيانا عن مطالعاني ، كما كنت أقرأ لها أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحاول أن اتقن القراءة ، وكان هذا - بدوره - مفيدا لي . ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل مصقول ، كان ذلك الوقت بالذات في عتفوانه .

وقد أبدى عدد من رجال الأدب شوقا إلى الظفر بالحظوة لديها ، فعلموها كيف تحكم على المؤلفات التي تنم عن عبقرية . وكان لها ذوق "بروتستانتية" بعض الشيء - إذا جاز لي أن أقول هذا - فلم تكن تتكلم إلا عن "بايل" وكانت تقدر القديس "إيفرموند" الذي مات في "فرنسا" قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أي أدب طيب ، وأن تناقشه في فطنة .

كانت قد نشأت في مجتمع رفيع ، ووفدت على "مسافوا" وهي بعد صغيرة . وفي الوسط البهيج الذي يعيش فيه عليية القوم في هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم "فود" في الحديث ، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية ! ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكي إلا أنها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبثقة عن الغيرة ، وبالرغم من الاستياء الذي كان مسلكها وديونها تشيره ، إلا أنها لم تفقد قط معاشها ، ولقد أوتيت خبرة بالذات ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع في أحاديثها ، وكان هذا بالذات هو الموضوع الذي أجذني في حاجة ماسة إلى الإلمام به ، بالنسبة إلى آرائي الخيالية . . ولقد قرأنا كتاب "لابروبير" ، فاعجبنا أكثر من كتب "لاروشفوكو" الذي كان أديبا كتيبيا ممضا ، لاسيما للشباب الذين لا يكتفون لرؤية الناس على حقيقتهم ، وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانا في خطب طويلة ، ولكنني كنت أتزود لاحتمالها بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرني !



وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم ، وكنت أشعر بذلك ، فكان اغتصابي بالإشفاق من أن أراها تنتهي هو الشيء الوحيد الذي عكر استمتاعي بها ! وكانت "ماما" في وسط مداعباتها تدرسني ، وتراقبني ، وتسالني ، وترسم - من أجل تقدمي - مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ أنه لم يكن كافيا أن تعلم ميولي وأذواقتي وإمكاناتي ، بل كان من الضروري البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع ، أو "خلق" هذه الفرص ، ولم يكن هذا بالعمل الذي يتم في يوم واحد ، بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتي كانت المسكينة تتخذها إزاء مواهبي ، كانت - في الوقت ذاته - سببا في تأجيل لحظات تطبيقها بالذات ، إذ كانت تجعلها تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل ، وبالإيجاز : سار كل شيء وفق رغباتي بفضل حسن رأيها في . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية ، إن عاجلا أو آجلا . . وإذ ذاك ، وداعا لكل أمل في الطمأنينة ! . . فقد جاء لزيارة مدام "دي فاران" قريب لها - يدعى السيد "دوبون" - كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس ، وذا عبقرية - مثل قريبته - في رسم المشروعات ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضي عليه كان من المغامر ! وكان قد اقترح على الكاردينال "دي فلييري" مشروعا لتنظيم "يانصيب" ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا . فجاء بعرضه على بلاط "تورمين" ، حيث قبل ونفذ ، وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت في "أنيسي" ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلي ذوقي ، حتى إنها كانت الوحيدة التي كنت أسبرؤيتها في دار "ماما" .

ولقد رأي السيد "دوبون" ، وحدثته قريبته عني ، فتكفل بامتحاني ليرى ما أصلح له ، فإذا وجدني أهلا لشيء ، بحث لي عن منصب !

وأرسلتني مدام "فاران" إلي في صباحين أو ثلاثة متعاقبة ، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرني بشيء . . وأفلح الرجل في حملني على الكلام ، وأبدى لي الود ، وتبسط معي إلى أقصى ما أمكنه ، وتحدث معي في مسائل غير ذات بال ، وفي كافة الموضوعات . . كل ذلك دون أن يشعرني بأنه كان يراقبني ، ودون أدنى كلفة ، وكأنه وجد في صحبتي مسرة فرغب في التسامر معي دون ما قيود .

واعجبت به .. وكانت نتيجة ملاحظاته أنني - برغم مظهري الجذاب وملامحي الدالة على الفطنة - كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ، عديم المعرفة تقريبا ، إن لم أكن غبيا ! .. وبعبارة موجزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات ، وكان أرفع منصب يحق لي أن أصبر إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى !

هكذا كانت النتيجة التي قدمها عني لمدام "دي فاران" وكانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة التي يحكم علي فيها بمثل ذلك .

بل إنها لم تكن المرة الأخيرة . فكم من مرة عزز فيها رأي السيد "ماسيرون" .

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقي ارتباطا وثيقا لاداعي معه إلى أي رضاح هنا ، ذلك لأنه من المفهوم - صراحة - أنني لا أستطيع أن أقر هذه الآراء دون تحفظ ، وإنني - بكل حيطة وتجرد عن الهوى - لا أستطيع أن أتقبل كل ما قاله السيدان "ماسيرون" و"دويون" وغيرهما على علاته ! .. فلقد اتحد في نفسي شيان متنافران تقريبا ، بطريقة لا أملك إدراكها : طباع حادة ، وعواطف محتدمة صاخبة .. وفي الوقت ذاته ، أفكار بطيئة النمو ، مهوشة ، لا تكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان ، ومن الممكن أن يقال إن قلبي وعقلي لا يمتنان إلى فرد واحد ، فإن الشعور يستعوز على نفسي بأسرع من البرق الخاطف ، ولكنه يكويني ويعشي بصري ، بدلا من أن ينيرني ، فإذا بي أحس بكل شيء دون أن أرى شيئا ! إن العواطف تجرفني ، ولكنني بطيء التفكير ، لأبد لي من أن أسري عن نفسي حدة الانفعالات لكي أستطيع أن أفكر .

والمعجب في الأمر هو أنني - برغم ذلك - أوتيت رأيا مؤكدا الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة في الحكم ، إذا ما أتيت لي الوقت الكافي .. وإنني لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشائي ، ولكنني لم أفه يوما بشيء ذي قيمة في اللحظة التي طلب إلي فيها ذلك ! وبوسعي أن أجيد النقاش عن طريق التراسل ، بنفس النهج الذي يقال عن الأسبان إنهم ينتهجونه في لعب الشطرنج ، وعندما قرأت عن أحد دوقات "سافوا" أنه قطع رحلته وعاد ليصبح : "سانقص على عنقك أيها التاجر الباريبي" ، لم أتمالك أن أقول : "هكذا أنا" !

هذا البطء في التفكير مع فورة الشعور ، لا يلازماني في الحديث فحسب ، وإنما هما معي حتى في وحدتي ، وعندما أعمل .. فإن أفكاري تنسق نفسها في رأسي بعناء لا يكاد يصدق ، إذ إنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتنفور حتى تحركني وتبعث الحرارة في كياني ، فيتسارع خفقان قلبي . وفي غمرة هذا الانفعال ، لا أعود أرى أي شيء بوضوح ، ولا أقوى على أن أكتب كلمة واحدة ، واضطر إلى الانتظار والثريث .. ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شيء في مكانه ، ولكن في ببطء ، وبعد انفعال طويل مريب . أفما قدر لك يوما أن تشهد "الأوبرا" في "إيطاليا" ؟ .. ففي خلال تبديل المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف "الديكورات" بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب في كل ناحية بشكل مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شيء قد انقلب رأسا على عقب ! ثم لا يلبث كل شيء أن ينظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى أي نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعا عقب هذه الفوضى الطويلة ! هذه العملية تقرب من تلك التي تجري في مخي عندما أرغب في الكتابة ، . ولو أنني تعلمت أن أثريث أولا ، ثم أجنني الأشياء التي ارتسمت في ذهني ، صاقلها جمالها ، لما تفوق علي سوى قليل من الكتاب !

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التي أجدها في الكتابة . وإن مخطوطاتي بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة ، وكتابة لاتكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذي تكبدنيه ، فليس بينها ما لم أضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن أدفع به إلى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس إلى منضدتي وأوراقي والقلم في يدي ، وإنما اعتدت أن أكتب على صفحة ذهني بينما أتمشى وسط الصخور والغابات ، أو في الليل وأنا متسلق في فراشي مستيقظا . وفي وسع المرء أن يقدر ذلك البطء لاسيما إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له في حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب ! .. بل إن من عباراتي وجملتي ما ظلت أقلبه وأديره في رأسي خمس أو ست ليال ، قبل أن يغدو صالحا لأن يسجل علي الورق ! وهنا أيضا السرف في أنني أكثر توفيقا في أعمالي التي تتطلب جهدا مني في تلك التي تتطلب خفة أسلوب معين كالرسائل .. وهي خفة لم يقدر لي قط أن أتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فإن هذه المهمة ترهقني ، فلمست أكتب رسالة في أتفه موضوع ، إلا وتكبدني ساعات من الضنى .. كما أنني إذا حاولت أن أكتب فوراً ما يعن لي ، لا أدري كيف أبداً ولا كيف أنتهي ، ومن ثم تكون رسالتي لغوا طويلا مهرشا ، يلقي المرء عناه في فهمه إذا ما قرأها ولا تكبدني الأفكار عناء في تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدني العناء ذاته في تلقيها . لقد درست الناس ، واعتقد أنني قوي للملاحظة ، ومع ذلك فأنني لأملك أن أرى بوضوح شيئا مما أشهده ، وإنما أتمثل بوضوح ما أذكره ، ولا أبدي الفطنة إلا في ذكرياتي .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجري في حضوري ، لا أشعر بشيء ولا أتغلغل ببصيرتي في شيء . وإنما الذي يؤثر في هو الظاهر وحده ! .. بيد أن كل شيء لا يلبث أن يرتد إلى ذهني فيما بعد ، فأذكر المكان ، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظروف .. لا يفوتني منها شيء . وعندئذ ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطئ ! .. ولو أنني سيطرت على طاقتي الذهنية قليلا ، فيما بيني وبين نفسي ، ففي وسع المرء أن يحدث ما كنت أصبح عليه من براعة في الحديث ، حيث يجب - من أجل الكلام في الموضوع - أن أفكر في ألف شيء في نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير في التوفيق بين هذه الأشياء - التي أوقن من أنني لأبد أن أنسى شيئا واحدا منها على الأقل - يكفي لكي يبت الخوف في نفسي ! بل إنني لأفهم كيف يجد أي امرئ الجراءة على الكلام في جماعة ، حيث لاغنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين ، مع كل كلمة .. وحيث لا بد له من أن يلم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أي شيء قد يجرح شعور أحد منهم . ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون في الدنيا (١) بميزة كبرى ، هي أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لا ينبغي أن يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات ، وهنات ، فما بالك بمن يسقط في وسطهم من بين السحب ؟ (٢) .. إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة أخرى في المسارة - أي عندما أتحدث مع شخص ما في خلوة - أجدها أنكى مما سبق : تلك هي ضرورة الكلام باستمرار . فإذا وجه إليك الحديث ، كان عليك أن تجيب .. وإذا لم توجد كلمه تقال كان عليك أن تحيي الحديث من جديد . هذا الاضطراب الذي لا يطاق ، هو حده الذي ينفرني من المجتمع ، ولست أجد ضيقا أفزع من الاضطراب إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا أدري ما إذا كان لهذا أي شأن من كراهيتي المميتة لكل قهر ، من أي نوع ، بيد أنه يكفيني أن أكون مضطرا إلى الكلام ، لكي انطلق في لغو لا محيص منه .

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات . (٢) يقصد الذي يعيش بعيدا عن المجتمع ، في أحلامه الخاصة ، ثم يقدر له أن يتكلم وسط الناس .

أما ما يفرق هذا شناعة فهو أنني بدلا من أن أستطيع أن أمسك لساني عندما لا أجد شيئا يقال ، إذا بي أجد نفسي - في هذا الوقت بالذات - أكاد أجن شوقا إلى الكلام ، لارد الدين بأسرع ما أستطيع! .. فأبادر إلى إطلاق عبارات متلثممة خالية من أية فكرة ، وتشتد سعادتي إذا كانت لا تعني شيئا على الإطلاق . وإذا حاول أن أغالب أو أن أخفي غيائي ، فإنني نادرا ما أخفق في إظهاره! ومن ألف مثال أستطيع ذكرها ، اختار واحدا لا يمت إلى أيام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقا بي أن أكون قد اكتسبت عنده يسرا في القول - إن كان هذا ممكنا - بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس ، ففي ذات مساء كنت أجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لي أن أذكر اسمه ، وهو السيد الدوق "دي جونتو" . ولم يكن ثمة سوانا في الحجرة ، وقد رحت أجاهد في سبيل ذكر بضع كلمات - يعلم الله ماذا كانت - خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة في غير حاجة - بالتأكيد - إلى تعقيبي ، وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعلاج معدتها . وإذا رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن - اشمزازا من الدواء - قالت ضاحكة : " أهذا الدواء من لدن السيد "ترونيشان" ؟

فاجابته الأولى بنفس اللهجة : " لا اظنه! " .. وهنا عقب "روسو" الذكي في نادب : " أظن أنه لا يفوقه في شيء! " (١) .
وبقي الجميع واثمين ، فلم يفه أحد بأنفه كلمة أو باضال ابتسامة وبعد لحظة اتخذ الحديث اتجاها آخر .

وما كانت هذه الفتلة لتبدو - في أي مجلس آخر - سوى فكاهة ، أما وقد وجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لأحب أن تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدي - بكل تأكيد - أية رغبة في مس شعورها ، فقد بدت شنيعة ، واعتقد أن الشاهدين - الرجل والمرأة - عانيا كثيرا لكي يكبحا الضحك . هذا مثال لفتلات الذكاء التي تمنعني من الرغبة في الكلام عندما لا أجد شيئا يقال .. ولن أنسى بسهولة هذا الحادث ، لا لأنه - في ذاته - مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لأنه يجول بخاطري أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتي كثيرا .

واعتقد أن هذا يكفي لبيان كيف أنني وإن لم أكن غيبا إلا أنني كثيرا ما ظن بي ذلك ، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . ومما يضاعف سوء حظي أن ملامحي وعيني توحى بفكرة أفضل ، وأن خيبة هذا الحسد تبدي هذا الغباء للغير بشكل أبشع .. وهذا الإسهاب في شرح الفكرة ، الذي تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتي فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلي غوامض كثير من الأمور الشاذة التي شوهدت مني ، والتي تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدي في الواقع شيء منها! فلقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأي فرد آخر ، لو لم أكن متأكدا من أن ظهوري فيه ليس في صالحه ، فضلا عن أنني أبدي نفسي شخصا آخر غير ما أنا حقيقة! ومن ثم فإن الوضع الذي اتخذته وأنا أكشب أعيش في عزلة ، هو الوضع الذي يناسبني تماما ، وإنما أكون حاضرا لأسبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتي ، ولو تخميننا . وهذا ما جرى لدام "دويان" ، برغم أنها كانت امرأة ذكية ، وبرغم أنني كنت أعيش في دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتني - هي نفسها - بذلك كثيرا منذ ذلك الحين . ومع ذلك فإن لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود إليها فيما بعد (٢) .

(١) كان الدواء حيويا لتلين المعدة . ومن هنا ندرك أنه لم يكن من اللطافة أن يتدخل رجل في حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى : مدام "دي لوكميسورج" - وهي ربة البيت - ومام "دي مهبوا" ، اللتين سبدا ذكرهما في الكراسة العاشرة . (٢) مستشهد إحدى هذه الاستثناءات فيما سيذكره "روسو" في الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ في ابرن مع كبير الأساقفة .

أما وقد استقر مجال مواهبي عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لي واتضح للمرة الثانية ، ولم يبق من سؤال سوى : كيف أملا مكاني ؟ .. وكانت الصعوبة تتمثل في أنني لم أتمكن من دراستي ، ولم أكن أعرف - كذلك - من اللاتينية ما يكفي لكي أصبح قسا . وكانت مدام "دي فاران" قد فكرت - في بعض الأوقات - في أن أتعلّم في المعهد الديني ، وتحدثت إلى رئيسه ، وكان راهبا لازاريا (١) يدعى السيد "جمرو" - طيبا ، ضئيل الجسم ، أوشك أن يفقد إبصار إحدى عينيه ، كما كان هزليا ، أشيب الشعر . وكان أعظم لازاري عرفته ذكاء ، وأقلهم غطرسة .. وما هذا القول بكثير عليه في الحقيقة !

وكان يتردد أحيانا على دار "ماما" ، فكانت تحتفي به ، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشداتها "الكورسية" ، وهي مهمة كان يقبل عليها راضيا ! وبينما يكون منهما فيها تآخذ في الجري - في الغرفة - من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هناك ، والسيد الرئيس يتبعها - مشدودا إلى الخيط - وهو يزمرجر ولا ينفك يقول : " ولكن ، اثبت ياسيديتي ! " .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

و تقبل السيد "جمرو" مشروع "ماما" بتحمس قلبي ، ففتح بأجر متواضع لإقامتي ، وتكفل بتعليمي ، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف الذي لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما رغب في دفع نفقات إقامتي ، كما سمح بأن أظل في زيمي المدني إلى أن يقضى لي بالنجاح المنشود ، بعد امتحان !



أي تحول هذا ! .. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الديني وكانني ذاهب إلى عقوبة أليمة ! فباللعمري من ماوى حزين كثيب ! لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم أحمل معي سوى كتاب واحد ، رجوت "ماما" أن تعينه ، وكان مصدر عزاء كبير لي . ولن يتصور أحد أي كتاب كان ذلك ! .. لقد كان كتابا في الموسيقى ! .. فبين المواهب التي تعهدتها "ماما" في نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء . وتعزف - إلى حد ما - على "البيانو" ، وقد تفضلت بتلقيني بعض دروس في الغناء ، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى ؛ إذ إنني كنت لا أكاد أدري شيئا من موسيقى مزاميرنا .

وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدي امرأة - وهي دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعمر جوها ويقطع استرسالها - أقل بكثير من أن تمكنني من السلم الموسيقي ، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أنني كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت في أن أحاول المراسم بنفسني . ولم يكن الكتاب الذي اصطحبته من الكتب السهلة - في ذاته - فقد تضمن أغاني "كليرامبو" . ومن الممكن تصور مدى إقبالي وعنادي ، وعندما أقول إنني وفقت - دون دراية ولاتبدل - إلى أن أترجم وأغني ، دون خطأ اللحن الأول من أغنية "ألفية وأريشيز" وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن في الواقع - موزونا بحيث لا يستلزم أكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكي يكتسب وقع اللحن !

وكان في المعهد "لازاري" لعين تعهدني ، فجعلني أكره اللغة اللاتينية التي أراد أن يلقني بها . وكان له شعر ناعم ، أسود ينضج بالدهن ، ووجه كرهيف من خبز "الزنجبيل" (٢) ، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس ! .. وكانت ابتسامته ساخرة ، وأطرافه مخلخلة

(١) من أتباع مذهب القديس "لازار" في الرهبنة . (٢) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل .

كأطراف الدمية!.. ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه المخيف ، ذا اللطف المتكلف ، ظل باقيا في ذاكرتي ، لا أكاد أذكره دون أن ارتجف ، . ولازال أتصور أنني القاه في الردهات ، رافعا في جلال قلنسوته المربعة المتسخة ، مشيرا لي بدخول حجرته ، التي كانت أبغض لدي من غرفة السجن!.. فتصور - على سبيل المقارنة- أستاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمي إلى البلاط الملكي!

لو قدر لي أن أمكث شهرين تحت رحمة هذا الوحش فإني موقن من أن رأسي ما كان ليحتمل ذلك. ولكن السيد "جسرو" الطيب لاحظ أنني كنت حزينا ، وأنني لم أكن أقبل على الأكل ، بل كنت ممعنا في الهزال ، فأدرك سر أساي - إذ لم يكن هذا بالامر العسير- وأنقذني من براثن هذا الحيوان! ويتناقص آخر ، شديد الغرابة هو الآخر، أسلمني إلى أطفال الرجال: وكان راهبا شابا من "فوسييني" (١) ، يدعى السيد "جاتيهيه" ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة في المعهد، وقد شاء- بدافع من الرغبة في إرضاء السيد "جسرو" وبدافع من الإنسانية على ما اعتقد - أن يسلب دراساته الوقت الذي وهبه لتلقيني دروسي. والحق أنني أبدا ما رأيت أسارى أكثر تأثيرا في النفس من أسارى السيد "جاتيهيه" .. فقد كان أشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافر. على أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، مفعمة بالود.

وكان في عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى، تجعل من المستحيل على أي شخص أن يراه دون أن يميل إليه وكان من الممكن أن يقال- من نظرات هذا الشاب المسكين ومسلكه- إنه كان على علم بمصيره ، وإنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا!

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء ، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معي منه إلى التدريس لي!.. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفي لأن يحملني على حبه.. ومع ذلك، فعلى الرغم من كل الوقت الذي منحني ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبي الذي وجهه كل منا إلى دراساته ، ومع أنه سار على خير نهج فإنني لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط! ومن الغريب أنني ، بما أوتيت من إدراك واسع، لم أنعلم شيئا من الأساتذة- ما عدا أبي والسيد "لامبرسييه" ، أما القليل الذي عرفته فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسي ، كما سيتجلى فيما بعد . فإن روحي التي لا تصبر بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن أنتبه ، كما أنني ، خوفا من أن أجعل الشخص الذي يتحدث إلي يفقد صبره . أتظاهر بالفهم؛ ومن ثم يمضي قدما في حديثه ، دون أن أعني شيئا! فلا بد لعقلي من أن يحدد الوقت الذي يروق له للعمل ، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذي يحدده له الغير!

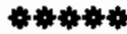
وكان وقت تنصيب معلمي "شماسا" حسب الطقوس الدينية المألوفة، فعاد إلى إقليمه، وحمل معه حسرائتي، ومحيتي ، وعرفاني. وقد قدمت من أجله نذورا لم تقبل بأكثر مما تقبلت به النذور التي قدمتها من أجل نفسي. ولقد علمت -بعد ذلك ببضع سنوات- أنه بينما كان نائبا لأبرشية، أنجب طفلا من فتاة كانت هي الوحيدة التي أحبها ، برغم قلبه المسرف في الرقة. وكانت هذه فضيحة شنيعة في أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة. فإن القساوسة- نظرا لخضوعهم لنظم طيبة - ينبغي لهم ألا ينجبوا أطفالا إلا من نساء متزوجات!!

.. ومن ثم فإن القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفة هذا وفضح ، وجرد من رتبته. ولست أدري ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بسوء حظه نقش بخطوط عميقة على

قلبي، وقد عاودتني قصته عندما كتبت "إميل" فمزجت شخصيتي السيد "جاثيه" والسيد "جام"، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصية الأصلية لاسقف "سافوا"، وإني لا غبط نفسي لأن الشخصية التي خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين!

وفي أثناء وجودي في المعهد الديني كان السيد "دوبون" قد اضطر إلى مبارحة "أنيسي" .. فقد خطر للسيد "كورفيزي" وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجه! وكان هذا أشبه بما جرى لكلب البستاني (١) .. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام "كورفيزي" كانت ذات جمال يهفو بالقلوب إلا أن زوجها - الوكيل - كان يعيش معها على شقاق، إذ إن الأهواء التي ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما، وكان السيد "كورفيزي" رجلاً شريفاً، أسود كالغار الجبلي، خطافاً كالخداة، وقد انتهى به استغلاله سلطانه إلى طرده من منصبه، ويقال إن أهل الريف يتشفون في أعدائهم بالأغاني، أما السيد "دوبون" فقد تشفى بمسرحية هزيلة، وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام "دي فاران"، التي أطلعتني عليها فاعجبت بها، وتولدت لدي نزوة تأليف مسرحية أخرى، لارى ما إذا كنت قد ظلمت "بهيماً" كما وصفني يوماً! على أنني لم أحقق هذا المشروع إلا في "شامبيري"، حيث كتبت "عاشق نفسه"!

"ومن ثم فإنني عندما قلت في مقدمة هذه المسرحية إنني كتبتها في الثامنة عشرة من عمري، إنما كنت أكذب، إذ إنني تجاوزت عن بضع سنوات!"



وفي حوالي ذلك الوقت، وقع حادث كان قليل الأهمية في حد ذاته ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لي، كما أنه أحدث ضجة في العالم عندما نسيته، فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة في كل أسبوع، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك، وفي يوم من أيام الآحاد كنت لدى "ماما" عندما شب حريق في إحدى بنايات "الرهبان السمر"، وكان ملاصقا لدار مدام "دي فاران". وكان هذا المبنى - الذي أقيم فيه فرن الرهبان - مليئا بالوقود الجاف، فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار، وأصبحت دار السيدة في خطر عظيم، وقد لفها اللهب الذي حملته إليها الريح.

وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار، وحمله إلى الحديقة التي كانت مواجهة لنوافذ حجرتي القديمة، حيث كان يجري خلفها الجدول الذي تحدثت عنه. وكنت من الاضطراب بحيث رحلت القوي من النافذة بدون وعي كل ما كان يقع تحت يدي، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت - في الأوقات الأخرى - لا أكاد أقوى على رفعه .. بل إنني أوشكت أن ألقي كذلك بمراة كبيرة، لو لم يردني شخص ما عن ذلك! ولم يقبع الأسقف الطيب - الذي كان في زيارة "ماما" في ذلك اليوم - خاملا، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة، حيث شرع يصلي معها، ومع كل من كانوا هناك .. حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل، وجدت الجميع جاثين على ركبهم، فحدوت حدوهم. وفي أثناء صلاة الرجل التقى، تغير اتجاه الريح فجأة، وفي اللحظة المناسبة، فإذا السنة اللهب التي كانت تحوط الدار والتي أخذت تسعى إلى النوافذ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء، فلم يصب البيت بأي سوء!

(١) للظاهر أن "روسو" يشير بهذا إلى قصة كانت شائعة بين أبناء عصره.

وبعد ذلك بعامين- وكان السيد "دي برنيكس"، الأسقف، قد توفي- شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤه السابقون في جمع الأنباء التي يمكن استغلالها في "تطويبه" (١) . واستجابة لرجاء الأب "بيوديه" أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التي ذكرتها ، والتي كنت فيها على صواب ، ولكنني أخطأت إذ قدمتها على معجزة! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلي ، ورأيت الريح تتبدل أثناء صلاته ، وفي اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغي أن أذكر هذا وأشهد به ، أما أي الأمرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغي لي أن أشهد به ؛ لأنني لم أكن أملك أن أعرفه ، ومع ذلك فإنني- بقدر ما أستطيع أن أذكر آرائي يومئذ- كنت كاثوليكية مخلصا؛ ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة- وهو طبيعي في فؤاد البشر- وتوقيري لهذا الراهب الوقور ، والزهو المستتر بأنني ربما كنت قد ساهمت بنفسي في المعجزة، ساعدت على تضليلي ، أما الشيء المؤكد فهو أنه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصلاة الحارة ، فقد كان من حقي أن أطالب لنفسني بنصيب فيها! وعندما نشرت "رسائل الجبل" - بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما- نقب السيد "فريرون" بطريقة ما عن هذه الشهادة ، واستغلها في تعليقاته ، وجدير بي أن أعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لي إذ ذاك أن إعلانه في تلك المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لي أن أكون طريد كل المهنة . فمع أن السيد "دي جاتييه" رفع عن تقديمي في الدراسة تقريراً اعتبرته أقل ما كان بوسعه أن يقدمه ، من حيث إساءته إلي إلا أنه رؤي أن تقديمي لم يكن متناسبا مع مجهوداتي ، وأن هذا لم يكن مشجعا على المضي في دراستي ؛ ومن ثم فإن الأسقف ورئيس المعهد فصلاني ورداني إلى مدام "دي فاران" كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرد قس ، وإن كان - فيما عدا ذلك- فتى طيبا ، وخلوا من أية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب في أنها لم تنبذني ، برغم تعدد الأحكام المشبطة ضدي!

وأعدت إليها - مزهوا - كتابها الموسيقي الذي أفدت منه ، . وكان لحن "الفية وأريشيز" هو كل ما تعلمت -تقريبا- في المعهد الديني . ولقد أوحى إليها ميلي الملحوظ إلى هذا الفن ، بأن تجعل مني موسيقيا! وكانت الفرصة مواتية، فقد كانت الموسيقي تعزف في دارها مرة في الأسبوع على الأقل . وكان رئيس فريق الكاندرائية الموسيقي يدير هذه الحفلات الصغيرة، وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار .

وكان باريسيا يدعى السيد "لوميتر" ، بارعا في التلحين، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لا يزال شابا ، على قسط كبير من الملاحاة ، ونصيب قليل من الذكاء .. لكنه كان - في مجموعه- طيبا . وقد عرفتنني به "ماما" فملت إليه ، كما أنه لم ينفر مني . وبحث أمر الأجر، وتم الاتفاق ، وبإيجاز ، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لذي ، إذ إن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل "ماما" فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها في أية لحظة وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها .

ولابد أنكم أدر كنتم أن الحياة في دار "لوميتر" - بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والاطفال المنشدين "الكورس" - قد رافت لي أكثر من حياة المعهد الديني مع رهبان القديس "لازار" . على أن هذه الحياة ، وإن كانت أكثر حرية إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة ، ففي ستة أشهر كاملة ، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت "ماما" أو إلى الكنيسة ، ومع ذلك فإنني لم أشعر بشوق إلى الخروج ، كانت تلك إحدى فترات

(١) التطويبه في المسيحية هو أن يعلن البابا- أو البطريرك لدى الأرثوذكس - بأن شخصا قد حظي بالتمجيد في السماء ، فأصبح في عداد القديسين- إذا كان ميتا - أو اقترب من القداسة ، إذا كان على قيد الحياة .

حياتي التي عشت خلالها في أعظم دعة ، والتي أذكرها بأعظم اغتباط ، فمن بين الأوضاع المتباينة التي وجدت نفسي فيها - أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلني - حين أذكرها ، أتاثر بها وكأنني ما أزال فيها . فلست أذكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب ، وإنما أذكر كل الأشياء التي كانت تحيط بي ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، وأي طابع محلي لا يوجد إلا هناك ، بحيث تردني ذكره الحية إلى هناك من جديد ! .. مثال ذلك أن كل ما كان يتردد في دار رئيس الفريق الموسيقي ، وكل ما كان الفريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزى الشامسة الجميل ، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين ، ووجوه الموسيقيين ، ونجار أعرج طاعن في السن كان يعزف على الكمان الكبير "الكونفرياس" ، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمان العادي ، والرداء الكنسي المهلهل الذي كان السيد "لوميتر" يرتديه فوق لباسه المدني بعد أن ينزع عنه سيفه والقميص الأكليروسي البديع ، الرقيق النسيج ، الذي كان يستربه الرداء البالي عندما يسعى إلى فرقة المرتلين ، والزهر الذي كنت أسير به - وأنا ممسك بصافرتي الصغيرة - لأتخذ مكاني مع العازفين على المنصة ، لاشتراك في ختام مقطوعة صغيرة لحنها السيد "لوميتر" خصيصا من أجلي .. ثم الغداء الطيب الذي كان ينتظرنا بعد ذلك ، والشهية الملحوظة التي كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل ، الذي أتمتله ، قد فتنتني - في ذكره - أكثر مما فتنتني في الحقيقة مائة مرة !

ولقد احتفظت دائما بميل عاطفي للحن معين من "كونديتور آلبي سيديرم" يرافق شعرا من بحر الغمب (١) ، لأنني سمعته مرة - في يوم أحد الصوم الكبير - وأنا مستلق في فراشي ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة . ولقد كانت الأنسة "ميرسيريه" - وصيفة "ماما" - على دراية بقسط من الموسيقى . ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد "لوميتر" يحملني على أن أغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغي إليها في طرب عظيم . وقصارى القول إن الجميع ، حتى الخادم الطبية "بيرين" - وهي فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها - هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التي كثيرا ما تتراءى لي لتطريني وتخزني !

وعشت في "أنيسي" زهاء عام دون ما لوم ولا تريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عني ، فإنني - مذ غادرت "تورين" لم أرتكب حماقة ، وما كان لي أن أرتكب ما دمت تحت بصير "ماما" ، فقد كانت ترشدني ، وكانت دائما تحسن إرشادي ، وأصبح تعلقي بها هو عاطفتي المشبوبة الوحيدة ، وما يدل على أنها لم تكن عاطفة رعناء ، أن قلبي كان يكون عقلي وإدراكي ، ومن الصحيح أن ثمة إحساسا واحدا كان يتلجج - كما ينبغي أن يقال - كل مقدراتي وكفاءاتي ، فجعل في غير استطاعتي أن أتعلم شيئا ، حتى الموسيقى ، بالرغم من أنني بذلت كل جهدي . على أنه لم يكن ذنبى ! .. فقد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كما كانت المثابرة موجودة . ولكنني كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتتهد : ما الذي أملك أن أفعله ؟ لم يكن ينقص تقدمي شيء من الأشياء المتوقفة علي أنا ، ولم أكن أحتاج - لكي أرتكب حماقات جديدة - إلى غير موضوع أو شخص "ملهم" يوحى إلي بهذه الحماقات ! .. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسي الغبي كيف يستغل ذلك ، كما ستري مما يلي :

ففي إحدى أمسيات شهر شباط (فبراير) البارد ، سمعنا طرقا على الباب الخارجي ، بينما كنا نحيط بالمدفأة ، وحملت "بيرين" مصباحها ، وهبطت ففتحت الباب ، وإذا بشاب يدخل ، ويصعد

معها ، ويقدم نفسه في غير كلفة ، ويوجه إلى السيد "لوميتر" تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقي فرنسي دفعه سوء حالته المالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الأبرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطلاق في طريقة . ، وإزاء هذه الكلمات من "الموسيقي الفرنسي" ، خفق قلب "لوميتر" الطيب ، فقد كان يتدله في حب بلده وفنه .

واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى ليلته ، وهو ما كان يبدو في أمس الحاجة إليه ، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة ، وأخذت أتفحصه وهو يتدفأ ويسمر في انتظار العشاء .

كان قصير القامة ، عريض المنكبين ، وكان ثمة عيب - لم أدر كنهه - في قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان - إذا صح التعبير - ذا ظهر محدود ، مع استواء لوحى الكتفين ، كما أظن أنه كان يعرج قليلا في مشيته . ، وكان في ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر مما أبلاه القدم ، فتهلهل . . وقصيص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشي تزين صدره ، وطماقين (١) كان يوسعه أن يدس ساقيه معا في أي منهما . . كما كان يتقي الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه . . ومع هذا الزى المضحك فإنه كان على شيء من النبل لم تكن هيئته تكذبه ، كانت طلعه رقيقة بشوشة ، وكان يتكلم بطلاقة ولباقة ، ولكن في تواضع جم . . كان كل شيء فيه ينم عن شاب ماجن - وإن كان طيب الترسية - لم يكن يستجدي كالتسولين ، وإنما كالجنانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى "فينتور دي فينييف" ، وقد وفد من باريس ، وضل الطريق . . وأنه نسي إلى حد ما ، دوره كموسيقي . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى "جرينوبل" ليقابل قريبا له عضوا في البرلمان .

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعا ، وكافة المؤلفين الذائعي الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا ، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملما بكل شيء يقال ، ولكن ما إن يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التي تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال . . وكنا في يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف في الكاتدرائية في اليوم التالي ، فاقترح عليه السيد "لوميتر" أن يشترك في الغناء هناك . . "عن طيب خاطر" . . فسأله عن طبقة الصوت . . "الطبقة العليا" ، ثم مضى يتحدث عن شيء آخر . . وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة ، وأذهل تصرفه هذا "لوميتر" فهمس في أذني : "لسوف ترى أنه لا يعرف علامة احدة من العلامات الموسيقية" ! فاجبت : شد ما أخشى أن يكون كذلك . رحلت أرقبه في قلق ، حتى إذا بدى الغناء ، خفق قلبي في قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به ، وسرعان ما تبينت ما طمأنني ، إذ إنه غنى قطعته بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة ! وبعد القداس ، تلقى السيد "فينتور" التهاني ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها ، ولكن في كثير من الكياسة دائما ، وغانقه السيد "لوميتر" بحرارة ، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أنني كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره !

وإني لوائت من أن القارئ سيقرني على أنني وقد أولعت بالسيد "باكل" - الذي لم يكن برغم كل شيء سوى قروي جلف - كنت حريا بأن أشغف بالسيد "فينتور" الذي أوتي ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالنديا ، والذي كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب ! . . وكان هذا عين ما حدث لي ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأي شاب آخر في مكاني ، بل إن سهولة حدوثه كانت

(١) الطماق وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق ، وقد اشتهر باسمه الأعجمي "جيتز" أو "طرلك" .

خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا في إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها . فليس من شك في أن "فينتور" قد أوتى كفاءة نادرة في مثل سنه ، تلك هي عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح أنه كان يتشدد بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التي كان على إلمام طيب بها ، التي كانت كثيرة العدد .. وإنما كانت ينتظر حتى تحين مناسبة لعرضها ، فإذا ما حانت انتهزها دون تلهف واندفاع ، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه ؛ لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهّن بالوقت الذي يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه .. كان في حديثه مداعبا ، مرحا ، لا ينضب له معين ، ذا جاذبية خلابة .. يتسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بآرق لهجة عن أشد الموضوعات جفافة ، فيجعلها مستساغة ! .. حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه ، وكم شعرن بأن من الخلق بهن أن يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القدرة على ذلك ! .. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست أعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إنسانا ومرحا لا حد لهما في مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا في وسط الموسيقيين طويلا وهو الذي يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، في بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلي إلى السيد "فينتور" أكثر رشدا في أسبابه وأقل انحرافا على الصواب في نتائجه ، بل وأكثر حرارة وأطول بقاء من حبي للسيد "باكل" .. فلقد أحببت أن أراه ، وأن أسمع ، وكان كل ما يفعله يبدو لي رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لي آيات منزلة ، ولكن افتتاني به لم يذهب إلى الدرجة التي لا أطيق معها فراقه ، فلقد كان لي في الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لي ، فلقد كنت أهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه ، بل إنه كان حريا بأن يسخر مني من أجله ! ومع ذلك فلقد وددت أن أربط هذا الود ، بذاك الذي كان يسيطر علي ، فتحدثت عنه إلى "ماما" في وجد وحرارة ، كما أن "لوميتير" حدثها عنه في إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الإطلاق . إذ إنه وجد "ماما" متحذقة ، بينما وجدته هي ماجنا ، وخشيت علي من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكتف بأن حرمت علي إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل أنها راحت تبين لي - بوضوح قوي - الأخطار التي أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى إنني ازدددت تحفظا في اندفاعي نحوه ، ولحسن حظ أخلاقي وإدراكي ، لم نلبث أن افترقنا بعد قليل !



كان للسيد "لوميتير" ما لا بناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ على أنه كان يزدهد إذا ما جلس إلى المائدة ، أما أثناء عكوفه على العمل في مكتبه فقد كان لأبد له من أن يشرب . وكانت خادمه تعرف ذلك تماما ، فكان إذا ما أهد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة ! .. وكانت تستبدل بها قنينة أخرى مليئة بين آن وآخر ، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يشمل . وكان هذا في الحق شيئا يدعو للراء ، إذ إن "لوميتير" كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا ، حتى إن "ماما" لم تكن تدعوه إلا بـ "قطي الصغير" ! .. وكان - لسوء الحظ - مشغوقا بموهبته الموسيقية ، فكان

(١) بقصد مدام "دي فاران" ، إذ كان بينهما مجاورا لدار السيد "لوميتير" .

يسرف في العمل ، وبالتالي في الشراب . وقد أثر هذا على صحته ، ثم علي طباعه في النهاية ، فكان في بعض الاوقات كثير الهواجس سهل الاستشارة . وكان عاجزا عن أية خشونة أو غلظة ، عاجزا عن أن يقصر في منح كل إنسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبي من المرتلين . وكذلك لم يكن أحد ليقصر في احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا . . ولكن سوء حظه تمثل في أنه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ؛ ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سببا

ولقد فقد مجمع أساقفة "جنيف" القديم- الذي كان كثير من الأمراء والأساقفة يشرفون بدخوله- بهاء القديم ، في مهجره ، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلا بد دائما - للانضمام إليه - من أن يكون المرء من السادة ، أو من حاملي درجة الدكتوراة من "السربون" ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد ، هذا إلى جانب أن كل القساوسة الذين أوتوا رجالا مدنيين في خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالي . وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون "لوميتر" المسكين في كثير من الأحيان ، لاسيما المرتل الذي كان يدعى السيد الأب "دي فيدون" ، والذي كان في كافة النواحي الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لا يولي "لوميتر" دائما حقه من التقدير الذي تؤهله له مواهبه ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شأنه . . ولقد وقع بينهما في "أسبوع الآلام" - من ذلك العام- نزاع أشد احتداما من ذي قبل ، بسبب ترتيب الحضور في مأدبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان "لوميتر" يدعى إليها دوما .

فقد أبدى له المرتل بعض الأذراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها ؛ ومن ثم فقد عقد العزم لغوره على أن يفر في الليلة التالية ، ولم يستطع شيء أن يثنيه ، برغم أن مدام "دي فاران" - التي ذهب إليها ليودعها - بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته بأن يوقعهم في مأزق في عيد الفصح ، وهو الوقت الذي كانت تمس فيه الحاجة إليه . على أن ألقائه كانت أشد بواعث حيرته ، فقد أراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ؛ لأن اللحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت "ماما" ما كان ينبغي أن تفعله - وما كنت أنا الآخر أفعله لو أنني كنت في مكانها- فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله علي البقاء ، رأت أنه قد صمم على الرحيل مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته في كل ما يمكن أن يعتمد عليها فيه ، وإني لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان "لوميتر" قد وقف نفسه- كما ينبغي أن يقال - لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما ، سواء فيما يتعلق بفنه ، أو فيما يحتاج إلى عنايته ، وكان التحمس القلبي الذي اعتاد أن يبديه في أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها ؛ ومن ثم فإنها - بما أبدته من رغبة في مساعدته - إنما كانت تؤدي لصديق ، في مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من أجلها في مناسبات كثيرة متفرقة- خلال ثلاث أو أربع سنوات - وإن كانت قد أوتيت نفسا لاحتياج ، لكي تؤدي مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها . لذلك استدعيتني ، وأمرتني بأن أرافق السيد "لوميتر" حتى "ليون" على الأقل ، وأن أظل ملازما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلي . ولقد اعترفت لي فيما بعد بأن الرغبة في إقصائي عن "فينتور" كانت ذات شأن كبير في هذا الإجراء .

وتشاورت مع "كلود آنيه" - خادماها الأمين- بصدد نقل الصندوق ، فكان من رايه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من "أنيسي" - بما عرضنا للاقتضاح- يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى "سيسل" ، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأي خطر ، وقد أخذنا بهذه النصيحة، فرحلنا في الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخذت "ماما" كيس نقود "القط الصغير" المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتي .

وحمل "كلود آنيه" والبستاني وإياي الصندوق - بقدر ما استطعنا- حتى أول قرية ، حيث أعفانا منه حمار .. وبلغنا "سيسل" في الليلة ذاتها .

واعتقد أنني أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لأشبه فيها نفسي في شيء، حتي لأبدو شخصا آخر ذا شخصية مخالفة لشخصيتي . وها كم مثالا لذلك : فإن السيد "ريديليه" - راعي كنيسة "سيسل" - كان من قساوسة كنيسة القديس "بطرس" ؛ ومن ثم كان يعرف "لوميتر" ، كما كان من الذين ينبغي على هذا أن يتوارى عنهم ولكنني رأيت نقيض ذلك ، فنصحت بأن نذهب فنقدم نفسينا إليه بحجة ما ، نسأله مأوى لليلتنا ، وكأنا في "سيسل" بموافقة من "المجمع" !

واستسأغ "لوميتر" هذه الفكرة التي تجعل ثاره ساخرا، لاذعا؛ ومن ثم سمعنا متجلدين إلى دار السيد "ريديليه" الذي أحسن استقبالننا، وذكر له "لوميتر" أنه كان في طريقه إلى "بيلاي" بناء علي طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها في عيد الفصح وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل . أما أنا فقد كان علي - لكي أدمع هذه الأكاذيب - أن أسكب مائة أكذوبة أخرى ، بشكل طبيعى ، حتى إن السيد "ريديليه" - إذ رأي فتى جميلا - أبدى لي الود وعانقني ألف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة، وبمضجعين مريحين . ولم يدر السيد "ريديليه" إلى أي حد رفع قدرنا ، وافترقنا كاحسن أصدقاء في العالم، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتا أطول في عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا .

وأصارحكم أنني ما أزال أفعل الشيء ذاته كلما فكرت في تلك الحيلة ، فلست أتصور البتة حيلة مأكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها . وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا أن "لوميتر" - الذي لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف- أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضي عليه ، وكانت شديدة الشبه بالصرع ، وقد زج بي هذا في مأزق أفرغتني ، وحملتني على التفكير في الخروج من الأمر كله بقدر استطاعتي !

وذهبنا إلى "بيلاي" لنقضي عيد الفصح ، كما قلنا للسيد "ريديليه" ، ومع أن أحدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ . فقد كان للسيد "لوميتر" صيت ذائع في فنه، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاه رئيس موسيقيي "بيلاي" فخرا بعرض أبداع الحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثله ، فقد كان "لوميتر" خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفنا دائما ، متحررا من الغيرة، بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فريق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى إنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم أكثر منه كزميل !

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام- على خير حال- في "بيلاي" استأنفنا الرحيل ، ومضينا في طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التي ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا "ليون" ، نزلنا في فندق "نوترادام

دي بيتيه". وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق - الذي استطعنا بفضل كذوبة أخرى أن نرسله على مركب في نهر "السرون" بمعمونة راعينا الطبيب: السيد "ريدلييه" - ذهب السيد "لوميتر" لزيارة معارفه، ومنهم الأب "كاتون"، (أحد الرهبان السمر، وسوف يرد ذكره فيما بعد)، والراهب "دورتان"، كونت "دي ليون". وقد تلقاه الاثنان في إكرام ولكنهما غدرا به فيما بعد، كما سيتبين القارئ في الحال. فلقد نفذ حسن حظه في دار السيد "ريدلييه"!

بعد يومين من وصولنا إلى "ليون"، كنا نجتاز شارعاً صغيراً، بالقرب من فندقنا، وإذا "لوميتر" يصاب بإحدى نوباته، وكانت من العنف بدرجة أفرغتني، فرحت أصيح وأصرخ مستنجداً، وذكر اسم الفندق، راجياً نقله إلى هناك. وبينما التف الناس حوله، متحمسين لمعمونة رجل سقط في الطريق فاقد الوعي وقد أخذ الزبد يقور على فمه، وإذا به يعنى بهجر الصديق الوحيد الذي كان من حقه أن يعتمد عليه. إذ إنني انتهزت اللحظة التي لم يكن فيها أحد يفكر في أمري، وتسلفت حول ركن الشارع، ثم اختفيت، وإني لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث، ولو كان لدي كثير من هذا النوع لهجرت هذا المؤلف الذي بدايته.

لقد بقيت آثار من كل الذي ذكرته حتى الآن، في الأماكن التي عشت فيها، ولكن الذي ساورده في الكراسة التالية يكون مجهولاً تماماً.. إنها أعظم حماقات حياتي، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تنفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه.

ولكن رأسي كان قد فقد اتزانته، ثم استرده من تلقاء ذاته، وإذا ذاك كففت عن الحماقات، أو أنني لم أعد أرتكب منها سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتي. وهذه الفترة من شبابي هي إحدى الفترات التي تضطرب ذكراها في رأسي، إذ إنه لم يمر بي خلالها من الأحداث شيء مشوق لقلبي بدرجة تكفي لأن أحتفظ له بذكرى واضحة؛ ومن ثم فمن العسير ألا أرتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات، وفي خلال التطورات العديدة المتتابعة.. إنني أكتب معتمداً على ذاكرتي تماماً، دون ما مذكرات، ودون ما مواد تعينني على التذكر.. وفي حياتي أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملاها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها؛ ومن ثم فإنني معرض للخطأ أحياناً، كما أنني قد أرتكب الخطأ ثانية - في مسائل غير مهمة - إلى أن يحين الوقت الذي أملك فيه عن نفسي معلومات أوثق. أما في كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات، فإنني مطمئن إلى دقتي وأمانتي، اللتين سأحرص عليهما دائماً في كل شيء وللقارئ أن يثق بذلك.



ما إن غادرت السيد "لوميتر" حتى استقر عزمي، فكررت عائداً إلى "أفيسي". وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة من أجل سلامة إقامتنا. وقد صرفني هذا الانشغال - الذي استغرق كل اهتمامي - أياماً عن التفكير في العودة. على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفيني من القلق، حتى عاد وجددي إلى سيطرته وسلطانه، فلم يهف بقلبي أو يغريني شيء سوى أن أعود إلى "ماما". كان صدق تعلقي بها ورقته قد اجنثا من فؤادي كل حماقات الطموح، ولم أعد أرى سعادة إلا في العيش معها، ولامرت خطوة دون أن أشعر بأنني كنت أباعد عن هنائي؛ ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكناً. وكان سفري متعجلاً، وذهني شارد، إلى درجة أنني وإن كنت أذكر بكثير من

السرور رحلاتي الأخرى، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة، اللهم إلا مغادرتي "ليون" ووصولي إلى "أنيسي" .. ومن ذا الذي يتصور أن تخيو هذه الأخيرة من ذهني! .. فعند وصولي لم أجد مدام "دي فاران" .. كانت قد رحلت إلى "باريس"!

ولم يقدر لي قط أن أعرف سر هذه الرحلة .. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لي ، لو أنني ألححت ، فهذا ما أثق به كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل مني فضولا إزاء أسرار الأصدقاء إذ إن قلبي لا يفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلئ به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأي شيء من الماضي، ما عدا المتع السالفة، التي تؤلف بعد ذلك لذتي الوحيدة! .. على أن الذي أتخيله - من القليل الذي أنبأتني به "ماما" - هو أن الثورة التي قامت في "تورين" بسبب نزول ملك "سردينيا" عن عرشه جعلتها في خوف من أن تغدو منسية ، فشاءت - بفضل حيل السيد "دوبون" - أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط "فرنسا" الذي كانت كثيرا ما تقول لي إنها تفضله على بلاط ملك "سردينيا" ، لأن المرء - في غمرة الشؤون الهامة الكثيرة التي يشغل بها ذلك البلاط الفرنسي - لا يظل تحت رقابة صارمة .. وإذا كان الأمر كذلك فمن الغريب حقا أنها لم تقابل - عند عودتها - بوجوه عابسة، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية: إما من قبل الاسقف - الذي كانت له بعض شؤون في البلاط الفرنسي - وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة! . والمؤكد - إذا كان الأمر كذلك - أن اختيار مدام "دي فاران" كرَسُول ، لم يكن بعيدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات لاسيما وأنها كانت لاتزال شابة .. وجميلة!

الكراسة الرابعة

٦- من سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٧٢٢

وصلت فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتي وأساي .. إذ ذاك ، بدا ندمي على التخلص من السيد "لوميتور" يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فإن الصندوق الموسيقي الذي كان يحتوي على كل ثروته .. هذا الصندوق الثمين الذي أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى "ليون" ، بناء على أمر الكونت "دورتان" الذي كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبنا طالب "لوميتور" بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائي على الأقل ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر في الحال - بحكم قانون الأقوى !- وبهذا فقد "لوميتور" المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته!

ولم يكن ينقص الضربة التي تلقيتها شيء كي تصبح مضنية ولكني كنت في سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسى أسباب العزاء .. فرحت أتوقع أن أتلقى عما قريب أنباء من مدام "دي فاران" برغم أنني لم أكن أعرف عنوانها ، كما كانت هي تجهل أنني رجعت .. أما بصدد التخلي عن السيد "لوميتور" فإنني بعد التأمل في هذا الأمر لم أجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له في فراره ، وهذه هي الخدمة الوحيدة التي كانت تتوقف علي .. ولو أنني بقيت معه في "فرنسا" لما شفيتها من علته ، ولما أنقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى أن أضاعف نفقاته دون أن أملك له نفعا .. هكذا رأيت الأمر ، إذ ذاك ، وإن كنت أراه اليوم على النقيض . فإن التصرف الحسيس لا يكرهنا عند ارتكابه وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل ؛ لأن ذكره لا نخدم قطا وكان الدور الوحيد الذي استطعت أن أقوم به للحصول على أنباء "ماما" هو أن أنتظر ، وإلا فأين كنت أبحث عنها في "باريس" ، وبأي نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانا من "أنيسي" لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا .

ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكنني أسأت التصرف إلى حد كبير ؛ إذ إنني لم أذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذي كفلني من قبل - والذي كان بوسعه أن يكفلني من جديد - فإن راعيتي لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب .

وكذلك لم أعد أذهب إلى المعهد الديني ، إذ إن السيد "جرو" لم يعد هناك .. ولم أر أحدا من معارفي ، وإن كنت قد تمنيت أن أذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة ، لولا أنني لم أجرؤ قطا .. بل إنني ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سمعت إلى السيد "فينتور" ، الذي لم أفكر فيه البتة منذ رحيلي ، برغم شغفي به ، فوجدته متألقا مكرما في "أنيسي" بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد أفقدني هذا التوفيق حجابي تماما ، فلم أعد أبصر سوى السيد "فينتور" ، بحيث أوشك أن ينسيني مدام "دي فاران" . ولكي أفيد من دروسه بمزيد من اليسر عرضت عليه أن يشركني معه في مسكنه ، فوافق وكان يسكن لدى إسكافي لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته - بلهجته الريفية - سوى "العاهرة" ، وهو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد "فينتور" أن يسعى لإطالتها

وهو يتظاهر بالرغبة في أن يفعل العكس. إذ كان يوجه إليهما - بلهجة هادئة ، ولكنته الإقليمية- كلمات تحدث اعظم أثر.. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشياً عليه لفرط الضحك!.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضي دون أن يفتن إليهما المرء . فإذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب "فيتتور" إلى الأوساط التي كان يغشاها ، حيث يتناول عشاءه.. أما أنا فكانت أتمشى وحيدا ، مفكرا في براعته البالغة ، وأنا أعجب بمواهبه الفذة وأغبطه عليها ، لأننا طالعي المنحوس الذي لم يكن يفضي بي إلى مثل هذه الحياة الهائجة ! إن حياتي بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة، لو أنني كنت أقل غباء، لو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو أفضل !

ولم تكن مدام "دي فاران" قد صحبت معها سوى "أنيه" ، بينما تركت "ميرسيريه" وصيفتها التي تحدثت عنها من قبل ، والتي وجدتتها تشغل مخدع سيدتها . وكانت الآنسة "ميرسيريه" فتاة تكبرني قليلا ، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات "فريبورجوا" بريئة من الخبث ، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت-في بعض الأحيان- تعصى سيدتها ، فأخذت أكثر من زيارتها ، إذ إنها كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يذكّرني بمن كانت أعز منها لدي ، ومن أحببتها من أجلها . وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى "جيرو" ، من بنات "جنيف" ، شئت أن تهواني ، برغم نقائصي ، فكانت تلح دائما علي "ميرسيريه" أن تصطحبني إلى دارها . وقد تركتها تفعل لأنني كنت أحبها - أعني "ميرسيريه" - ولأنني كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن ، أما عن الآنسة "جيرو" - التي كانت تبدي لي كل ألوان المضايقات- فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذي كنت أحسه نحوها .. كنت أجد عناء - إذا ما قربت من وجهي أنفها الأعرج الأسود الملوّث بالسحوط - في أن اكبح نفسي عن البصق عليه ! بيد أنني تشبث بالصبر، إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللاتي كن يتبارين في الاحتفاء بي، إما بدافع التملق للآنسة "جيرو" أو التقرب إلي شخصيا ، ولم أكن أرى في كل هذا صداقة .. ولقد تراءى لي فيما بعد أنه كان في وسمي أن أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هذا لم يخطر ببالي، ولا أنا أوليته أي تفكير !

وإلى جانب ذلك فإن الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهوينني البتة، إنما كنت أصبو إلى الآنسات الرقيات!.. إن لكل امرئ أحلامه الخيالية ، وقد كانت تلك أحلامي دوما ، ولست أرى في ذلك ما رآه "هوراس" . على أنه من المؤكد أن أبهة المكان والمنصب لم تكن هي التي تجتذبني ، وإنما كانت تفتنني بشرة مصونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمله ، وذوق ضاف في الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع، وحذاءان صغيران، وأشرطة و"ذاتعيل"، وشعر انيق التصفيف .. وقد اعتدت دائما أن أفضل من أوتيت كل هذا ، ولو كانت أقل الفتيات جمالا .. والواقع أنني أنا نفسي أرى في هذا التفضيل أمرا يدعو إلى الضحك، ولكن قلبي يهفو إليه على الرغم مني!



حسنا !.. لقد سنحت لي هذه الميزات مرة أخرى، ولم يكن علي سوى أن أستغلها . لكم أحب أن أقع- من آن إلى آخر - على اللحظات البهيجة في شبابي!.. وما كان أحلاها لي ، وما كان

أقصرها وأندرها!.. ولقد استمتعت بها بأبخس الأثمان!.. آه إن مجرد تذكرها يثير من جديد في قلبي نشوة طاهرة أنا في مسيس الحاجة إليها لتجديد جراحي ولدرء الهجوم عن بقية سني حياتي! ففي ذات صباح بدا لي الفجر من الجمال بحيث إنني ارتديت ثيابي في عجلة، وأسهرت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس، واستمرت هذه المتعة بكل فتنها، وكان ذلك في الأسبوع التالي لعيد القديس "يوحنا"، والأرض في أبهى زينتها، وقد كساها العشب والزهور.. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها، فبدا أنها كانت تستعذب الإمعان في إطلاق أصواتها.. بل إن الطيور جميعها راحت تشدو مودعة الربيع، مشغية بمولد يوم بديع من أيام الصيف.. يوم من تلك الأيام الجميلة التي لم يعد المرء يراها في سني هذه، والتي لا يراها المرء إطلاقاً في هذه البلاد الكثيبة التي أقيم فيها اليوم (١).

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر. واشتدت حرارة الشمس، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير، ثم سمعت خلفي وقع حوافر جواد، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا في محنة، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما. التفت، فإذا نداء باسمي ينبعث، فاقتربت.. ووجدت فتاتين من معارفي، هما الآنسة "دي جرافينرييه" والأنسة "دي جالي"، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير، لأنهما لم تكونا فارسين ماهرتين. وكانت الآنسة "دي جرافينرييه" شابة من "بيرون" ذات ملاحظة طاغية، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذي تتسم به سنهها، فحذت حذو مدام "دي فاران" - التي كانت تتردد على دارها لماماً - على أنها لم تكن ذات مورد للعيش، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة "دي جالي" التي شعرت بمودة نحوها، فأغرقت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريشماً تجدد عملاً. وكانت الآنسة "دي جالي" تصغر زميلتها بعام، كما كانت تفوقها حسناً. كانت على قدر من الرقة والترفة لا قبل لي بوصفه، وكانت في الوقت ذاته دقيقة القسما، بديعة القوام، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة!.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملاً على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلاً، دون أن يقوى أي عاشق على تمكيره!

وقالتا لي إنهما كانتا تقصدان "تون"، القصر العتيق الذي كانت تمتلكه السيدة "جالي" - والدة الفتاة - ثم طلبتا مساعدتي في حمل الجوادين على عبور الجدول، الأمر الذي لم تقويا عليه. وهممت بأن أسوط الجوادين، ولكن الفتاتين أشفقنا عليّ من الركلات، وعلى نفسيهما من الوقوع.. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى، فأخذت بمقود جواد الآنسة "دي جالي"، ثم جررته خلفي، وخضت الجدول الذي وصل مأواه إلى ركبتي.. وإذا ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء. وإذا تم ذلك هممت بأن أحبي الآنستين ثم أمضي في طريقي كأي أحق لكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض، ثم خاطبني الآنسة "دي جرافينرييه" قائلة: "لا، لا.. ما هكذا يفلت المرء منا! لقد أصابك البلبل وأنت تؤدي لنا خدمة، فأصبح من واجبننا - نحو ضميرنا - أن نعني بك حتى تجف.. فخليق بك - إذا تكرمت - أن تأتي معنا، إذ إنك أسيروا!"

وخفت قلبي، وتطلعت إلى الآنسة "جالي"، فأضافت وهي تضحك لما بدا علي من ارتباك: "أجل، أجل.. أسير حرب! أركب خلفها، فنحن مسؤولتان عنك!".. فقلت محتجاً: "ولكن، يا آنسة.. إنني لم أحظ بشرف التعرف إلى أمك، فماذا تريها قائلة إذا ما راتني؟".. وأجابت الآنسة "دي جرافينرييه": "إن أمها ليست في "تون"، فقد جثنا وحدنا، وسنعود في المساء، وبوسعك أن نعود

(١) كان "روسو" وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش في "وتون" بمقاطعة "سترافورد" بـ[إنجلترا].

معنا!"

وما كان للكهرباء أن تحدث في كياني تأثيراً أسرع مما أحدثته هذه الكلمات.. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة "دي جرافينرييه" وأنا أرتجف غبطة.. وكنت كلما اضطرتت إلى أن أحيط خصرها بذراعي لأحفظ توازني، خفق قلبي بعنف لم تلبث أن لاحظته، فقالت: إن قلبها - هو الآخر - كان يخفق، لأنها كانت في خوف من الوقوع!.. وكان قولها - في مثل هذا الموقف - بمثابة دعوة لي كي أتحرى بنفسى صدقه، ولكنني لم أجرو قط!.. ولقد ظلت ذراعاي - طيلة الرحلة - تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود، ولكنه حزام لم يتزحزح عن موضعه لحظة!.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا، تحس من نفسها رغبة في أن تمرك أذني.. ولن تكون مخطئة في ذلك! وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لساني، فلم نسكت حتى المساء. بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا! ولقد استطاعت أن تسربا عني الحرج، فإذا لساني لا يقل نشاطاً عن عيني، وإن اتخذ أسلوباً غير أسلوبهما، ولم يكن الحديث يتوتر قليلاً إلا في بضع لحظات كنت أجد نفسي فيها على انفراد مع إحدى الشابتين، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود، دون أن تسمح لنا بوقت نتحرى فيه سبب ارتباكنا!

وما إن بلغنا "تون"، وجفت ثيابي حتى تناولنا الفطور. وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة المهمة: مسألة إعداد الغداء. فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر - وهما عاكفتان على الطهو - لتقبلاً أبناء حارسة المزرعة..

بينما كان غاسل الأطباق المسكين - أنا - يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه! وأرسلتا إلى المدينة في طلب المؤن وكل ما يكفي لغداء شهى، ولا سيما الحلوى، ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لاتشریان الخمر قط، بيد أنني استأثت إذ كنت أعول على معونته في استمداد الجراة. ولقد استأثتا هما الأخريان كذلك، ولعل استياءهما كان لنفس السبب، وإن كنت لاظن ذلك. وكان مرحهما العارم القاتن هو البراءة ذاتها! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بي فيما بينهما؟!.. ولقد أرسلتا في البحث عن نبيذ في كافة البقاع المجاورة، فلم يعثر على شيء منه البتة، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لا يقربون الخمر، وإذ راحتا تعربان لي عن أسفهما قلت لهما إنه لا داعي لأن تنجسهما هذا العناء وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكي تسكراني!.. وكانت هذه هي المجاملة الوحيدة التي جرؤت على قولها طيلة النهار، على أنني اعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة!



وتناولنا غداءنا في مطبخ المزرعة، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين "دكتين" إلى جانبي المائدة، وضيغهما بينهما، على مقعد مخفض ذي ثلاث قوائم، وباله من غداء!.. أية ذكرى طافحة بالمفاتيح! ولماذا يسمى المرء وراء ملاء أخرى إذا كان يوسعها أن يحظى بمسرات في طهر هذه وصدقها، بأبخس الأثمان؟!.. أبداً ما قدر للوجبات في منازل "باريس" الصغيرة أن تداني هذه الوجبة. ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب، ولا عن طريها فحسب، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك!

وعمدنا بعد الغداء إلى شيء من الاقتصاد، فبدلاً من أن نحسني القهوة التي تبقت من الإفطار، احتفظنا بها لتناولها مع القشدة والفطائر التي أحضرتها الفتاتان معهما. ولكي نرضي شهيتنا،

ذهبنا إلى البستان لنتخذ من "الكريز" حلوى نختم بها وجبتنا ، فتسلقت الشجرة ورحت ألقي للفتاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلي البذور "النويات" خلال الأغصان ، وحدث في إحدى المرات أن بسطت الأنسة "جمالي" مريلتها ، وطوحت براسها إلى الخلف ، وثبتت في مكانها فما كان مني إلا أن أحكمت الرماية وأنا ألقي بعنقود من الكريز، فهوى في صدرها!.. وانطلقت الضحكات!..

وقلت لنفسي: "ليت شفتي كانتا من الكريز!.. لكم أنا على استعداد لأن أرمي بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر!.."

وهكذا انقضى النهار في مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام!.. فما من كلمة مبهمة تحتل تأويلا، ولا ملحمة "نكتة" شاردة.. ولم يكن هذا الاحتشام يشغل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه، وكنا نصدر في أفعالنا وأقوالنا عن إحياء قلوبنا!.. وقصارى القول إنه بلغ من حيائي- الذي قد يسميه الغير غباء!- أن أقصى مغازلة أفلتت مني هي أن قبلت يد الأنسة "جمالي" مرة واحدة! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، إذ كنا وحيدين، وكانت أنفاسي تنبعث في تهدج، كما كانت عيناها منكستين.. وبدلا من أن يجد فمي قولاً إذا به يلتصق بيدها التي لم تلبث الفتاة أن سحبتها في رفق - بعد أن انطبعت عليها القبلة - وهي ترمقني بنظرة لم تنم عن أي انفعال.. ولست أدري ما كنت خليقا بأن أقوله للفتاة ، لولا أن أقبلت صديقتها على الغرفة، فلاح لي - في تلك اللحظة - بالغة الدمامة!

وأخيرا ، فطنت الفتاتان إلى أنه لا ينبغي التريث في العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل. ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذي يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل بنفس النظام الذي كنا عليه في المجيء ، ولو أنني وجدت جراً ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ إن نظرة الأنسة "جمالي" كانت قد أثارت فؤادي.. بيد أنني لم أجسر على أن أقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هي هذا التغيير! ورحنا نقول - خلال انطلاقنا- إن اليوم قد انقضى سراعاً ، ولكننا بدلا من أن نشكر من قصره، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة إطالته بفضل أسباب اللهو التي عرفنا بها كيف نملؤه!

وفارقتهما عند البقعة التي التقطتاني عندها ، تقريبا.. ولكن ، بآية حسرة افترقنا! وبأي سرور رسمنا الحطة للقاء آخر!.. إن الأثنتي عشرة ساعة التي قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة! وإن الذكري العذبة التي اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ولكن الوحدة الحنون التي ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل في قيمتها متعا أكثر بهجة واحتداما.. متعا لم يكن لها بقاء في ظلال تلك الرابطة. فلقد تحاببنا في غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين في أن نتحاب دائما بهذا الشكل ، وإن لساذجة الخلق لنشوتها التي تعادل تماما أية نشوة أخرى لأنها لاتعرف راحة، ولانفتا نتحدث باستمرار!

أما بالنسبة لي فإنني أدرك أن ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرا في نفسي ، وفتنة لي، وترددا على فؤادي من ذكرى أية متعة تذوقتها في حياتي! وما كنت أدري تماما ما الذي كنت أبتغيه من الفتاتين الساحرتين، ولكنهما أطربتاني معا كل الطرب.. ، ولست أقول إن قلبي كان خليقا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لي أن أسيطر على أموري ، فقد أحسست بشيء من الإيثار والتفضيل: كان يسعدني أن أحظى بالأنسة "جوفينويه" عشيقه ، ولكنني لو خيرت لآثرت - فيما أعتقد - أن اتخذها صديقة حميمة! وسواء كان هذا أو ذاك فقد بدا لي إذ فارقتهما أنني لم أعد أقوى على الحياة

بدونهما معا ، فمن كان منبهي بأنه لم يكن مكتوبا لي أن أراها في حياتي مرة أخرى ، وأن هذه كانت نهاية حينما الذي لم يعمر سوى يوم واحد !
إن الذين يقرءون هذه السطور لن يتألموا أنفسهم من الضحك من مغامراتي الغرامية ، وملاحظة أن أكثرها تطورا كانت تنتهي - بعد كثير من التمهيدات - بقبلة على اليد .. !
ولكن لا تغفروا يا قرائي ! فلعلني نعمت من تلك الغراميات - التي كانت تنتهي بهذه القبلة على اليد - بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم في غرامياتكم التي قد تبدأ بمثل هذه القبلة !



وعاد "فينتور" إلى البيت بعد عودتي بقليل ، إذ كان قد تأخر كثيرا في الذهاب إلى مضجعه في الليلة السابقة. وفي هذه المرة ، لم أشعر بسرور لرؤيته كمالوف عادتي ، كما أنني كتمت عنه النهج الذي قضيت عليه يومي ، فإن الآنستين كانتا قد تحدثتا إلي عنه في شيء من الأزدراء ، وبدا لي أنهما استاءتا إذ علمتا أنني كنت في مثل هذه الرعاية السيئة ، فبال هذا من مكانته لدي ، لاسيما وأن كل ما كان يشغلني عن التفكير فيهما بدا لي غير مستحب ، على أن "فينتور" ما لبث أن ردني إلى نفسي وإليه ، بأن أخذ يتكلم عن موقعي إذ غدا أخرج من أن يستمر. فمع أنني لم أكن أنفق غير القليل جدا إلا أن كيسي بدأ يفرغ ، ولم يكن لي مورد .. ولم يكن ثمة نأ عن "ماما" ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الأنسة "جالي" يهبط إلى مستوى المتسولين !
وأنبأني "فينتور" بأنه قد تحدث عني إلى الضابط القضائي (١) . وأنه اعترى أن يصطحبني لتناول العشاء عنده في اليوم التالي ، وأن هذا الرجل كان في مركز يمكنه من أن يخدمني عن طريق أصدقائه .. فضلا عن أنه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا وأديبا ، ذا طابع جد ملائمة . وكان موهوبا ، يقدر المواهب لدى الغير ، ثم أطلعني - وهو يمزج التواضع بالخطير من الأمور ، جريا على عادته - على مقطع بديع من الشعر ، وصل من "باريس" ، وكان يردد في لحن بإحدى أوبرات "وريه" ، ذاع في ذلك العهد . ولقد أعجب السيد "سيمون" - وهو اسم الضابط القضائي - به فأراد أن ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه .. طلب إلى "فينتور" أن ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحى إليه بأن يحملني على أن أنظم بدوري واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا - حسب قوله - في اليوم التالي ، كما كانت المحفلات تتتابع في "القصة المضحكة" (٢) .
وإذ عز علي النوم - في تلك الليلة - نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكانت لا بأس به ، إذ قدرنا أنه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل إنه كان أفضل - أو على الأقل ، أرق - مما كنت خليقا بأن أنظم في اليوم السابق ، إذ إن موضوعه دار حول موقف عاطفي كان قلبي قد تفتح له . أطلعت "فينتور" - في الصباح - على مقطعي الشعري ، فرآه بديما ، ودسه في جيبه دون أن ينبشني بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبنا لتناول العشاء في دار السيد "سيمون" الذي أحسن استقبالننا . وكان الحديث طليبا ، وما كان من الممكن غير ذلك ، وقد دار بين رجلين ذكيين واسمي الاطلاع .. أما أنا ، فقد قمت بدوري المعتاد إذ رحلت أصغي وأنا ممسك لساني . ولم يقل أحد منهما شيئا عن أي مقطع شعري ، وكذلك لم أقل أنا شيئا .. ولم يرد ذكر - على قدر ما عرفت - للمقطع الذي نظمته !
وبدا على السيد "سيمون" أنه ارتاح إلى مسلكي ، وكان هذا قصارى ما عرفه - تقريبا - عني في

(١) (OUGEMAGE) كان موظفاً ذا مركز مهم ، يطبق العدالة بإسم الملك . (٢) منظر في الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) أروع مؤلفات "سكارون".

هذا اللقاء . وكان قد رأيته من قبل عدة مرات بدار السيدة "دي فاران" ، دون أن يولياني اهتماما يذكر؛ ومن ثم فإنني أحسب معرفتي به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التي لم تكن ذات نفع للموضوع الذي كان يشغل بالي ، ولكنني أقدت منها - فيما بعد- منافع أخرى ، تجعلني أذكر السيد "سيمون" بسرور . وما ينبغي أن أرجئ الحديث طويلا عن شكله الذي يستحيل على أي امرئ أن يكون فكرة عن الرجل ما لم يتحدث عنه لاسيما إذا راعينا ما كان للسيد "سيمون" من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها ..

لم يؤت السيد الضابط القضائي - بالتأكيد- من الطول قدمين (١) وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطوليتين في نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تديها طويلا ، لو أنهما كانتا رأسيين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقتي فرجار (برجل) مفتوح على سعته ، ! أما جسمه فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحिला وضعيلا بدرجة لاسبيل إلى وصفها . ولابد أنه كان يبدو - إذا ما تجرد من ثيابه- كالجراة! أما رأسه - الذي كان عادي الحجم ، وله وجه مليح التكوين ، وقسمات نبيلة ، وعينان يديعتان- فقد كان يبدو كراس زائف أقيم على أرومة تبقت من جذع شجرة .. ولابد أنه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكساء؛ إذ كانت قلنسوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه!

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو - في أول الأمر- طريفا ، ولكنه لا يلبث أن يغدو كريها! وكان أحدهما جهوريا عميقا ، وهو صوت رأسه إن جاز لي أن أقول هذا . أما الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان - إذا ما التزم الحذر - تكلم بتحفظ بالغ ، ونظم نفسه ، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق .. ولكنه لا يكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صوته صغيرا منبعا من نغم عال .. وكان يجد عناء بالغا في العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت!

ومع هذا المظهر الذي وصفته ، والذي لا مغالاة فيه إطلاقا ، كان السيد "سيمون" مؤدبا . راوية للطرائف ، شديد العناية بلباسه إلى درجة الحذقة . ولما كان راغبا في أن يبدو في أعظم مظاهره فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته في الصباح وهو في السرير؛ لأن الذي كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدي - في بعض الاوقات - إلى مناظر مضحكة ، اعتقد أن "أنيسي" لا تزال تذكرها!

في ذات صباح بينما كان ينتظر في سريره - أو بالأحرى ، على سريره- أصحاب الشكايات ، وقد ارتدى قلنسوة بيضاء بديعة ، مزدانة بزائدتين عريضتين من شريط وردي اللون وصل أحد الرفيين وطرق الباب ، وكانت الخادم قد خرجت ، فما إن سمع السيد "سيمون" الطرقات ، حتى صاح محببا: "ادخل" .. وهو إذا لفظ الكلمة بشيء من القوة انبعثت بصوته الحاد . ودخل الرجل فبحث عن مصدر هذا الصوت النسوي ، وما إن رأى في السرير قلنسوة وشريطا حتى هم بالخروج ثانية ، وهو يقدم للسيدة اعتذارات بالغة غضب السيد "سيمون" ، ولم يزد إلا صراخا فتأكد الرفي من فكرته ، ورأى أنه قد أهين ، فأغرقه بالشتائم ، وقال له سلها: "لست سوى فاجرة" ، وإن السيد الضابط القضائي لا يضرب بحياته المنزلية مثلا طيبا! .. واشتد بالسيد "سيمون" الغضب ، فلم يجد في متناول يده سوى الوعاء الذي يقضي فيه حاجته في الخدع ، فأوشك أن يلقي به على رأس الرجل المسكين لولا أن وصلت مديرة بيته!

(١) كتب "روسو" في مخطوطات الطبعة الأولى أن طول "سيمون" كان قدمين ثم ضرب عليها بالقلم وكتب "ثلاث مخطوطات" ... ولكنه لم يثبت هذا التمدد بل في النسخة الثانية من المخطوطات ، وهي التي استخدمت في طبعة "جنيف" .

وإذا كان هذا القَزَم الضئيل قد شوّهت الطبيعة جسمه فإنه لقي تعويضا في الناحية العقلية التي كانت بطبيعتها مقبولة، والتي كان يُعنى بتحسينها. ومع أنه كان يُقال عنه: إنه كان مستشارا قضائيا موفقا إلا أنه لم يكن يحب مهنته. فالتقى بنفسه في غَمَارِ الأدب، واستطاع أن يوفق. ولقد اكتسب -فوق كل شيء- تلك اللباقة السطحية، تلك الموهبة التي تبعث في المجتمع طرافة، لاسيما مع النساء!.. كان يعرف عن ظهر قلب دَقَائِق الماثورات (١) وما إليها، وقد أوتى فن إبرازها، وربطها بالناسبات، وإحاطتها بجو غريب، وكان الذي حدث مثلا منذ ستين عاما حكاية وقعت بالأمس! وكان ملما بالموسيقى، يُحسن الغناء -بدرجة مقبولة- بصوته الآدمي. وقَصَارَى القول إنه أوتي مواهب أجمل مما يحتاج إليه مستشار قضائي. وكان يحكم مجاملته لنساء "أنيسي" قد أصبح "موضة" بينهن، فكان دائما يَسْحَبْنِه وراءهن وكأنه "نسناس" صغيرا.. حتى لقد راح يزعم أنه كان محظوظا لدى النساء، فكان ذلك يطربهن كثيرا. وكانت سيدة منهن -تدعى "مدام ديياني" - تقول:

إن أقصى ما يشتهي هو أن يقل امرأة في ركبتيها (٢)!

ولما كان مُطْلعا على كتب الادب الراقي، ومشغولا بالحديث عنها فإن كلامه لم يكن ممتعا فحسب، وإنما كان مفيدا أيضا، وعندما اكتسبت -فيما بعد- ميلا إلى الدروس أتميت معرفتي به، فافدت من ذلك نفعا عظيما. وكنت أسمى في بعض الأحيان من "شامبيري" -حيث كنت إذ ذاك - لكي أزوره. وقد أذُكّي هو في هذا الميل وشجعه، وكان يقدم لي بعض الإرشادات في مطالعاتي، فكنت كثيرا ما أنتفع بها. ولسوء الحظ، كانت تَعْمُرُ هذا الجسد الواهن نفس مرهقة الحس، وقد قُدِّر له -بعد ذلك بسنوات- أن يرتكب ذنبا لا أدريه، مما أحزنه، فلم يلبث أن قُضِيَ نَحْبُه. وبإلها من خسارة! لقد كان -يقينا- رجلا طيبا، ضئيل الجسم، يبدأ المرء بالضحك منه، ثم ينتهي بأن يحبه!.. ومع أن حياته لم تكن مرتبطة بحياتي في شيء إلا أنني أخذت عنه بعض دروس نافعة، فرايت -هداف من العرفان- أن أخصه بحيز من ذكرياتي!



وما إن انصرفت من لدن السيد "سيمون" حتى هرعت إلى الشارع الذي كانت الأنسة "جالي" (٣) تقيم فيه، نميا نفسي بأن أرى شخصا، داخلا أو خارجا، أو فاتحا إحدى النوافذ، على الأقل!.. ولكن شيئا ما لم يُلَحْ لي، ولا هِزَّة بل إن البيت ظل -طيلة مُكثي هناك- مغلقا تماما، وكأنه لم يعمر قط بسكان. وكان الشارع صغيرا ومقفرا، فكان وجود إنسان كفيلا بأن يستلفت الأنظار.. وبين الحين والحين، كان يَغْبِرُه مار، ما بين داخل أو خارج من البيوت المجاورة. وقلقت من أجل نفسي، فقد تراءى لي أنهم كانوا يحدسون سر وجودي هناك. وأمّضتني هذه الفكرة، فقد اعتدت دائما أن أقدم شرف وطمأنينة أولئك الأعزاء لدي على مسراتي الخاصة.

وأخيرا، مللت لعبة العاشق الإسباني (٤)، ولما لم يكن ثمة "جيتار" معي فقد اعتزمت الكتابة إلى الأنسة "دي جرافينرييه". وكنت أفضل أن أكتب لصديقتها ولكني لم أكن أجسُر، فضلا عن أنه كان من الاليق أن أبدأ بالتي كنت مدينا لها بمعرفة الأخرى، والتي كنت معها أكثر ألفة ومودة. وما إن أتممت رسالتي حتى حملتها إلى الأنسة "جيرو" (٥) وفقا لما اتفقت عليه مع الأنستين عندما افترقنا،

(١) مجموعات الأقوال الماثورة من بعض الشخصيات، والطرائف الصغيرة المرتبطة بهم. (٢) تعني أنه لا يستطيع أن يصل إلى نفسها أو يدها لفصل قامته! (٣) الأنسة "جالي" والأنسة "دي جرافينرييه" هما الفتاتان اللتان قضى روسو معهما يوما بهيجا في الريف. (٤) اعتماد العاشق في "إسبانيا" أن يقف على قارعة الطريق، بالقرب من دار الحبيبة ويمضي في العزف على "الجهنار" عسى أن تفتن إلى وجوده، فتدغم عليه بنظرة. (٥) "جيرو" هي صديقة توصيفة مدام "دي فاران" المدعوة "ميرسيريه"، وكانت "جيرو" قد أعلنت على روسو الحب، برغم نفوره الشديدة منها!

وكانتا هما اللتان اقترحتا هذه الطريقة للتراسل . ذلك ان الأنسة "جيرو" كانت تحترف تنجيد الاثاث، وقد عملت حينما في دار السيدة "جمالي"؛ ومن ثم فقد كان دخول الدار مباحا لها . والحق ان اختيار هذه الوسيلة لم يبد لي موفقا ولكنني خشيتُ ألا تُرْشِحَ الفئتان سواها إذا أنا أثرت أي اعتراض . كما أنني لم أجروُ على القول : إنها كانت تعمل لحسابها الخاص .. وكنت أشعر بالفضة لجرد أنها كانت تجروُ على أن تظن نفسها في نظري - منتسمة إلى نفس جنس الأنستين ! على أنني ارتضيت في النهاية هذه الوسيلة لنقل رسالتي ؛ نظرا لعدم وجود سواها، فاقدمت عليها برغم كل النذر ! واكتشفت "جيرو" سرِّي منذ الكلمة الاولى، فما كان هذا بالامر العسير . وإذا كانت الرسالة الموجهة إلى فتاة شابة لا تشي بحقيقة الامر فإن ارتباكِي واضطرابي كانا كفيلين بأن يكشفوا سرِّي ! وقد يخطر بالبال أن هذه المهمة لم تبعث في نفس الفتاة أي سرور ولكنها في الواقع تكفلت بها، وادتها بأمانة .

وفي الصباح التالي هَرَعْتُ إليها، فوجدت الرد المنشود . وما كان أسرعني في الخروج من دارها، لاقراءه واقبله دون حرج ! وليست بي حاجة إلى أن أفيض في هذا ولكن الذي يحتاج إلى إسهاب هو مسلك الأنسة "جيرو"، فقد وجدت فيه من الرقة والاعتدال فوق ما كنت أتوقع . كانت من الحكمة بحيث رأت أنها سبسنى عمرها السبع والثلاثين، وبعينها الشبيهتين بعيني الأرنب، وبأنفها الملوث بالسموط، وبصوتها الخاد الرفيع وبشرتها السوداء - لا يمكن أن تُبَارِي فتاتين شابتين، مليئتين بالحسن، وفي كل أبهة الجمال .. ومن ثم لم تشأ أن تغدر بهما، كما لم تشأ أن تخدمهما .. بل إنها آثرت أن تفقدني على أن تساعدني على الظفر بي .. (كما سيبدو فيما بعد) .

٧ - سنة ١٩٢٢

وكانت "ميرسيري" قد بدأت تفكر - منذ فترة - في العودة إلى "فريبور"؛ إذ إنها لم تتلق أي نبأ من سيدتها، وما لبثت الأنسة "جيرو" أن حملتها على أن تُقرر ذلك، بل إنها ذهبت إلى ابعد من هذا، فادخلت في رَوْعِهَا أن من المستحسن أن يُرافقها أحد إلى دار أبيها، ورشحتني لذلك (١) ورات "ميرسيري" الصغيرة - التي لم اكن بغيبضا إليها - أن الفكرة صالحة، فإذا بهما تحدثنني عنها، في نفس اليوم، وكانها أمر مفروغ منه ! ولما لم أجد ما يضيرني في البعد بهذه الطريقة فقد وافقت، وأنا احسب أن الرحلة لن تعدو ثمانية أيام على الأكثر ولكن "جيرو" لم تحسب مثل هذا الحساب، وتولت تدبير كل شيء . واضطرتُّ إلى أن أكشف حالتي المالية، فسرعان ما دُبر لي الموارد إذ تكفلت "ميرسيري" بنفقاتي،، وتعويضا عن الخسارة التي تكبدتها بذلك وافقت الفتاة - تحت إلحاحي - على أن تُرْمِلَ متاعها البسيط مقدما بينما نقطع نحن الرحلة على الاقدام، متمهلين .. وهذا ما حدث !

ولكم يؤسفني أن اتحدث عن فتيات عديدات كُنَّ يُحِبِّبْنِي .. على أنني لا اجد مبررا لان ازهو بما خرجت به من كل هذه الغراميات .. ومن ثم أرى أن بوسعي أن أقول الحق دون تَمَوِّيه، فإن الأنسة "ميرسيري" - التي كانت أصغر منا وأقل دهاء من "جيرو" - لم تبد قط نشاطا كالذي كانت هذه تبديه لإغرائي، وإنما كانت تقلدُ لهجتي وصوتي وإلغائي، وتردد كلماتي، وتوليني من الاهتمام ما كان ينبغي أن أوليها إياه .. كما كنا نحرص دائما على أن نَنَامَ في حجرة واحدة؛ إذ كانت شديدة

(١) كانت هذه هي الحيلة التي خُات بها "جيرو" الماكرة كي تبعد "روس" عن محبوبته، وعن المدينة كلها !

الخوف... وهي ألفة نادرا ما تقف عند هذا الحد، في رحلة تجمع بين شاب في العشرين وفتاة في الخامسة والعشرين!.. ولكن هذا هو عين ما جرى، في هذه المناسبة. فبالرغم من أن "ميرسييريه" لم تكن دميعة فإن سذاجتي لم تقف عند حد أنني لم أعهد - خلال الرحلة بأسرها - إلى التلطف بآفته مغازلة فحسب، وإنما بلغت بي السذاجة أنني لم أفكر - مجرد تفكير - في شيء من هذا القبيل على الإطلاق!.. بل إنه لو خطرت لي هذه الفكرة لعجزت لغبائي عن أن أفيد منها! فما كنت لا تصور كيف تنام فتاة وشاب في فراش واحد.. وكنت إخال أن الاستعداد لمثل هذا الأمر الرهيب يتطلب قرؤنا من الزمن!.. وإذا كانت "ميرسييريه" البائسة قد طمعت - حين تكفلت بنفقاتي - في جزاء من هذا القبيل فقد خاب حدسها؛ لأننا بلغنا "فريبور" بنفس الحال التي غادرنا بها "أنيسي" تماما!

وعندما مررنا بـ "جنيف" لم أسع لزبارة أحد، ولكنني أوشكت أن أصاب بمرض من فرط انفعالي وأنا أعبر جسر المدينة. أبدا ما أقبلت على هذه المدينة، ولا ولجت أبوابها دون أن أحس بقلبي يغوص وقد أثقلته الانفعالات الطاغية!.. فبينما كانت صورة الحرية النبيلة تسمو بروحي كان التفكير في المساواة والاتحاد ورقة الخلق يؤثر في نفسي إلى الدرجة التي تدفع عندها عينا، ويبعث في حسرة محتدمة على كوني قد حرمت كل هذه النعم!.. وكم كنت مخفئا! - ولكن، كم كان هذا الشعور طبيعيا، كذلك! - لقد كنت إخال أنني أرى كل هذه النعم في وطني؛ لأنني كنت أحملها في سويداء قلبي!

واضطربنا إلى أن نمر بمدينة "ليون" .. فهل كنت أجتازها دون أن أرى أبي الشيخ؟! لو أنني فعلت لكنت خليقا بأن أموت بعده - كمدا!.. ومن ثم تركت "ميرسييريه" في الفندق وذهبت لأراه، برغم كل الاعتبارات، آه، ما كان أشد خطئي إذ أوجست من لقائه!.. فما إن اقتربت منه حتى تفتح قلبه لعاطفة الأبوة العارمة.. وكم بكى عندما تعانقنا!.. ولقد ظن - بادئ الأمر - أنني عدت إليه، فانباته بقصتي وبخطتي.. وعارض في وهن، وراح يبصرني بالآخطار التي كنت أعرض نفسي لها، قائلا: إن أقصر النزوات والحماقات هي أفضلها!.. وعدا ذلك لم يُدْخِلْهُ أي ميل إلى غصبي على البقاء، وأرى أنه كان في ذلك على حق، ولكن من المؤكد أنه لم يبذل كل ما كان في وسعه لاستيقائي، إما لأنه كان يرى - في تقديره - أن من واجبي ألا أعود إليه، وإما لأنه كان في حيرة.. ولعله لم يكن يدري ما الذي يفعله بي في مثل تلك السن التي بلغتها!.. ولقد علمت فيما بعد أنه كون لنفسه عن زميلتي في الرحلة فكرة كانت جد ظالمة وجد بعيدة عن الحقيقة ولكنها - على أية حال - كانت طبيعية!.. وكانت زوجة أبي امرأة طيبة، على شيء من الذهاء والقول المغسول، فقد تظاهرت بالرغبة في استيقائي للعشاء.. ولكنني لم أمكث، وإن وعدتهما بأن أبقى معهما وقتا أطول عند عودتي، وعهدت إليهما بحزمة متاعي الصغيرة، التي كنت قد أرسلتها في مركب، والتي كنت حائرا فيما أفعله بها. وفي اليوم التالي رحلت مبكرا، وأنا جد مغتبط بأنني رأيت والدي، وأنني وجدت الجراءة على أن أؤدي واجبي!



ووصلنا بسلام إلى "فريبور"، وكانت مغازلات الأنسة "ميرسييريه" قد خفت عندما اقتربت نهاية الرحلة. حتى إذا وصلنا لم تعد تبدي لي سوى الفتور، كما أن أباهما - الذي لم يكن غارقا في الرخاء - لم يؤلني حفاوة بالغة فاضطرت إلى أن أقضي ليلتي في أحد المشارب.. وزرتهما في اليوم

التالي، فدَعَوَانِي إلى العشاء، وقبلت الدعوة.. ثم افترقنا دونما دموع، وعدت في المساء إلى المبيت في المشرب. وفي اليوم التالي رحلت، دون أن أدري وجهة أقصدها!

وكانت تلك فرصة أخرى أرادت فيها العناية أن تمنحني ما كنت أبتغيه لكي أنفِقَ أيامي في هناء.. فلقد كانت "ميرسيري" فتاةً جد طيبة، ولئن لم تكن بالذكية ولا بالجميلة، فإنها لم تكن -كذلك- بالدُميمة، كما أنها كانت على شيء من النشاط وكثير من الرزانة، وكانت تتعرَّض أحيانا لنوبات قصيرة عابرة، تقضيها في بكاء، ولكن هذه النوبات لم تكن تُفْضِي قط إلى عواقب عاصفة. ولقد كانت الفتاة صادقة الميل نحوِي، فكان يوسعي أن أتزوجها دون عناء، وأن أحترف مهنة أبيها (١) -إذ إن ميلي للموسيقى كان كفيلاً بأن يجعلني أحب هذه المهنة- وإن استقر في "فريبور"، وهي بلدة صغيرة، قليلة الجمال، ولكنها تَضُمُّ قوما طيبين، وكنت بذلك ساحرٌ بلا شك متعا عظيمة، ولكنني كنت خليفاً بأن أعيش في سلام إلى آخر لحظة في حياتي. ولقد كنت جديراً بأن أعرف -أكثر من أي امرئ آخر- أنه لم يكن ثمة ما يبرر التردد لحظة واحدة إزاء صفقة كهذه!

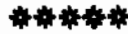
وعلى أثر رحيلي من "فريبور" لم أرجع إلى "ليون"، وإنما انجهمت إلى "لوزان"؛ فقد شئت أن أتملّى بمنظر البحيرة الجميلة التي تُشَاهِدُ هناك في أكثر أجزائها اتساعاً. ولم تكن أغلب البواعث الخفية التي تقرر مسلكي، بواعث جامدة.. فإن المناظر التي تشاهد عن بعد نادراً ما كانت من القوة بحيث تحفزني على العمل، كما أن المستقبل غير المضمون كان يجعلني أنظر دائماً إلى المشروعات التي يتطلب تنفيذها أجلاً طويلاً نظرتي إلى حيل خادعة.. وأنا بطبعي، أنغمس في الآمال كغيري طالما كانت لا تُكَبِّدُنِي شيئاً، أما إذا كانت تتطلب رعاية مستمرة فإنني لا أمضي وراءها.. وإن أقل متعة صغيرة تُعرِّضُ لي، وتكون في متناول يدي لأكثر إغراء لي من مباحج الفردوس.. على أنني أستثني من ذلك المتعة التي يعقبها ألم، فهي لا تُغَرِّبُنِي قط؛ لأنني لا أحب سوى المسرات النقية الخالصة، وهذه لا يحظى بها المرء إطلاقاً عندما يعرف أنه إنما يهيمُّ نفسه للندم!

وكنت بحاجة ماسة إلى بلوغ أي مكان.. فكان أقرب الأماكن هو أفضلهما! ولما كنت قد ضللتُ طريقي فقد ألفتيتني -ذات مساء- في "موهون"، حيث انفتحت القليل الذي كان قد تبقى معي ماعدا عشرة "كسروترز" (٢) لم تلبث أن تبددت في الغداء، في اليوم التالي.. حتى إذا بلغت -في المساء- قرية صغيرة على مقربة من "لوزان"، دخلت أحد المشارب وليس في جيبِي ذَنْقُ أدفعه لقاء مبيتِي، بل إنني لم أكن أدري ما قد يكون من امري! وكنت جد جائع فتجلدت وطلبت عشاء، كما لو كنت أملك أن أدفع ثمنه!.. ثم أويت إلى مضجعي دون أن أحمل هماً، فاستغرقت في نوم هادئ. وبعد أن أظفرت -في الصباح التالي- وحاسبتُ مضجعي ردت أن أترك له صديري رهناً، لقاء السبعة "باتزوات" (٣)، التي بلغت نفقاتي ولكن الرجل الطيب أبي، وقال: إنه -والحمد للسماء- لم يجرّد أحداً قط من ثيابه، وإنه ما كان ليشرع في ذلك لقاء سبعة "باتزوات"؛ ومن ثم فقد بات في وسعي أن أحفظ بصديري، على أن أدفع له حقه متى استطعت. وقد تأثرت لطيبته، ولكن بدرجة أقل مما كان ينبغي، وأقل مما صرت أشعر كلما تذكرت الأمر بعد ذلك. وقد بادرتُ بإرسال المبلغ إليه فيما بعد، شاكرًا، مع رجل ائتمنته.. على أنني بعد خمس عشرة سنة، مررت بـ"لوزان"، في عودتي من "إيطاليا"، فشعرت بأسف صادق لكوني نسيت اسم المشرب واسم الرجل، وإلا لذهبت لرؤيته، ولخطبتُ بسرور حقيقي وأنا أذكره بالخير الذي أسداه، وثبت له أنه لم يضعه في غير موضعه!.. وكمن من خدمات أكثر أهمية، بلا شك -ولكنها بذلت بكثير من التفضُّل والمن- سدت لي أقل استحقاقاً

(١) يفهم من هذه العبارة أن أباهما كان موسيقياً. (٢) "الكروترز" عملة ألمانية ونمساوية قديمة. (٣) "الباتز" عملة ألمانية أخرى.

للعرفان من العمل الإنساني البسيط الذي بذله هذا الرجل الطيب في غير زهو! وفيما كنت أقترّب من "لوزان" رحت أتأمل الضيق الذي وجدته فيه، والوسائل التي أستطيع بها أن أنتزع نفسي منه دون أن أطلع زوجة أبي على تماسي... وأخذت أقيس نفسي -في سفري على الأقدام- بصديقي "فنتور" عندما وصل إلى "أنيسي" فإذا بهذه الفكرة تُبثّ الدفء في نفسي، حتى إنني اعتزمت أن أكون "فنتور" صغيراً في "لوزان" دون أن يجول بخاطري أنني لم أوتَ لطفه ولا مواهبه... وقررت أن أقوم بتدريس الموسيقى التي لم أكن على علم بها، وأن أزعم أنني وفدت من "باريس" -التي لم أزرها قط!- وبناء على هذا المشروع البديع شرعت في السؤال عن فندق صغير أستطيع أن أجد فيه مقراً مريحاً بأبخس النفقات؛ إذ لم تكن ثمة مدرسة للشمامسة أستطيع أن أعرض عليها معونتي، كما أنني لم أكن من الغُباة بحيث أندس وسط أهل الفن... ودلني البعض على شخص يدعى "بيروتيه" كان يؤجر غرفاً في داره، وتجلى لي أن هذا الـ "بيروتيه" كان خير رجل في العالم، وقد أحسن استقبالي. وإذ رَوَيْتُ له أكاذيبي الصغيرة -كما دبرتها- وعدني بأن يذكّرني لدى الناس، وأن يسعى ليأتيني ببعض التلاميذ. وقال لي: إنه لن يسألني أجراً إلا بعد أن أكتسب نقوداً، وكان أجر المنزل خمسة دنائير بيضاء (١)، وهو أجر زهيد بالنسبة للمكان ولكنه كان باهظاً بالنسبة لي. ولقد نصحتني "بيروتيه" بأن أكون في البداية "نصف نزيل"، أي أن أستمع بالإقامة، وبغداء يتألف من حساء دسم -لا أكثر- وبعشاء طيب في المساء... فوافقت. كان هذا الـ "بيروتيه" المسكين يقدم لي كل هذه الميزات عن طيب خاطر، وعن خير نية في الدنيا. ولم يكن يدخر وسعاً كي يُساعدني!

ترى لماذا قُدر لي -وقد وجدت كل هؤلاء الناس الطيبين في صباي- ألا أجد منهم في كبري إلا القليلين؟.. أليكون نوعهم قد انقرض؟.. لا، ولكن الطبقة التي اضطر إلى البحث عنهم فيها اليوم لم تعد عين الطبقة التي كنت أعثر عليهم فيها من قبل! ذلك لأن نداء الأحاسيس الفطرية يزداد تردداً وأنبيئاً لدى الناس الذين لا يسمعون التشدد بالعواطف العظمى بينهم إلا قليلاً!.. أما بين أبناء الطبقات الراقية فإن المشاعر الفطرية تَحْتَنَقُ تماماً، فلا يعلو سوى صوت المصلحة أو الغرور!



وكتبت لأبي من "لوزان" فارسل حزمة متاعي، وخَصَّنِي بنصائح رائعة، كان خليقاً بي أن أقيّد منها... وكنت قد لاحظت أنني أصبحت أتعرض لغفترات من الشرود لم أدر مآناها، بل كنت لا أشعر خلالها بنفسي -وهنا أيضاً بادرة من البوارد التي تستحق الملاحظة!- ولكي تدرّك إلى أي مدى كنت أفقد رأيي، وإلى أي مدى "فنتورت" نفسي -أي تشبّهت بـ "فنتور"، إن صح هذا القول- يكفني أن نرى كم من الأعمال المجنونة كنت أتيتها معاً، وفي آن واحد!؛ فهذا قد عَدَوْتُ مدرسا للغناء دون أن أعرف كيف أفكّ رموز أي لحن! إذ إن الشهور السنة التي قضيتها مع "لوميسر" لم تكن بالكافية، حتى إذا كنت قد أفدت منها! -ثم إنني كنت قد تعلمت على يدي أستاذ، وكان هذا كافياً لأن يجعلني لا أكتثر بالدراسة (٢)!-

وإذ صرّيتُ باريسياً من "جنيف"، وكاثوليكيّاً في بلد "بروتستانتية" فقد رأيت أن علي أن أغير اسمي كما غيرت عقيدتي ووطني، إذ كنت أحاول دائماً أن أصبح أقرب ما أكون إلى المثل العظيم

(١) (ECL) عملة قديمة من الفضة. (٢) لعله يقصد أن الفن لم يكن موهبة أصيلة في نفسه.

الذي اتخذته . وقد كان يسمى نفسه "فنتور دي فيلنيف" ، لذلك قلبت اسم "روسو" إلى "ووسور" ، أو "فوسور" ، واسميت نفسي "فوسور دي فيلنيف" ^١ ولقد كان "فنتور" على معرفة بالتلحين ، وإن لم يقل شيئا عن ذلك .. أما أنا فبدون معرفة بالتلحين رحلت افتخر ببراعتي أمام العالمين .. وبدون أن استطيع تمييز أبسط أغنية دارجة جعلت من نفسي ملحنًا .. ولم يكن هذا كل ما في الأمر ، فقد قُدمتُ إلى السيد "دي تريتوران" - وكان استاذًا في القانون أحب الموسيقى واعتاد أن يقيم حفلات موسيقية في داره - فشئت أن أعرض عليه "عينه" من براعتي ، وعكفت على وضع لحن لإحدى حفلاته في جُرة بالغة ، وكانني كنت أعرف كيف أؤدي المهمة .. ووأظنتُ على العمل خمسة عشر يوما في إعداد هذا اللحن الجميل ، وفي نسخ صورته ، وفي تقسيم أجزائه ، وفي توزيعها باطمئنان بالغ ، وكان اللحن تحفة متناسقة . وأخيرا - الأمر الذي لا يكاد يُصدق ، ولكنه الحقيقة الخالصة - أردت أن أتوج هذا الإنتاج الراقى بشكل يليق به ، فاضفت في النهاية أغنية بديعة كانت تتردد في الطرقات ، ولعل الناس أجمعين لا يزالون يذكرونها ، وهذا نصها :

"يا للفجور .. ويا للجهود .. ماذا؟!"

هل غدرت حبيبتك "كلاريس" بأهلك؟! .. إلخ .

وكان "فنتور" قد لَقِّنني هذا اللحن - الذي يُعرَف على أوتار الطبقة الثانية - مع كلمات أخرى بديعة ، تذكُرته بفضلها ؛ ومن ثم أضفت في نهاية لحنِي هذا المقطع وأنغامه الخفيفة ، وقدمت للجميع على أنها من ابتداعي ، في اعتداد ، وكانني كنت أخطب قوما من سكان القمر واجتمعت الفرقة لعزف لحنِي فشرحت لكل فرد نوع الحركة ، وطريقة الأداء ، وعلامات تكرار الأجزاء ، وانهمكت في ذلك كل الانهماك .. ففضى العازفون خمسا أو ست دقائق سبدت لي كخمسة أو ستة قرون - في تنسيق أصواتهم وآلاتهم ، حتى أصبحوا أخيرا على تمام الأبهة ، فوقعت الضربات الخمس أو الست إشارة الانتباه ، على منضدة القيادة ، بأنبوبة بديعة من الورق ، فساد الصمت ، وبدأت أوزع الوقت في عظمة وجد .. وبدأ العزف ! - لا ، فمنذ ظهور "الأوبرا" الفرنسية على قيد الحياة ، لم تسمع مثل تلك "الضوضاء" - ومهما يكن قد خالَج القوم بصدد براعتي المزعومة فإن الأثر كان أسوأ من أي شيء توقعوه .. وكتم الموسيقيون ضحكهم بينما فتح المستمعون عيونهم عن آخرها ، وكانوا على استعداد لأن يسدوا آذانهم ، ولكنهم لم يعرفوا لذلك وسيلة . وعمد العازفون القُسا - رغبة في السخيرية - إلى العزف بشدة كافية لأن تخرق طبلة أذن الأصم (١) !

وأوتيت من الجلد ما يكفي لأن أَسْتَمِر في دوري دون توقف ، وإن راح عرقي يتصب غزيرا في الواقع .. فقد منعني الحياء ، فلم أجُرْ على الهرب بينما كان الجميع جالسين . وعلى سبيل العزاء ، سمعت المساعدين المحيطين بي ينهامسون بعضهم في آذان بعض ، أو - بالأحرى - في أذني .. فقال أحدهم : "ليس في هذا ما يطاق" .. وقال آخر : "يالها من موسيقى جنوبية" .. وقال غيره : "ياللحن الشيطاني !" ، مسكين أنت يا "جسان جساك" ، فما طمعت - في تلك اللحظة - في أن تَنزِعَ أنغامك هذه يوما ، وفي حضرة ملك فرنسا وحاشيته بأسرها ، تمشات الدهشة ، وتصفيق الإعجاب .. وأن تنهاس النسوة الفاتنات ، في المقصورات المحيطة بك : "يالها من نغمات ساحرة .. أية موسيقى فائنة ! .. كل هذه الانغام تنفذ إلي القلب !" .

على أن الذي رَدَّ القوم إلى رضاهم هو ذاك المقطع الذي أضفته في النهاية .. فما إن عرفتُ بضع نغمات

(١) في الأصل : تخرق أذن أحد الخمسة عشر عشرينا .. كناية عن نزول المستشفى الذي يحمل هذا الاسم "الخمس عشرة عشرينا" في باريس ، والذي أنشئ في الأصل لباوي ١٢٠٠م .

منه حتى سمعت الفقهيات تتصاعد من كل جانب .. وأخذ كل امرئ يُهتفي بذوقي الجميل، ويؤكد لي أن هذا المقطع كفيف بأن يذيع اسمي، وأنتي جدير بأن تُردّد أغامي في كل مكان، ولست بحاجة إلى أن أصف غمي، ولا إلى أن أعترف بأنني كنت أستحقه!

وفي اليوم التالي جاء أحد العازفين - وكان يُدعى "ليستولد" - ليراني، وكان من الأمانة بحيث إنه لم يهتني بنجاحي .. فإذا شعوري العميق بحماقتي، وبأخجل والندم والياس من جرّاء الحال التي انحدرت إليها، واستحالة إبقاء قلبي مُغلّقاً على هذه الآلام الجسيمة .. إذا شعوري هذا يحملني على أن أفتح قلبي له، وأن أطلق العنان لدموعي .. وبدلاً من أن أكتفي بأن أعترف له بجهلي أفضيتُ إليه بكل شيء، وسألته أن يكتّم سري، فوعدني بذلك، وبربوعده على النحو الذي يمكن تصوّره .. فما إن حل مساء اليوم ذاته حتى كانت "لوزان" بأسرها قد عرفت حقيقتي! .. وكان أعجب ما في الأمر أن أحداً لم يطلعني على أنه قد عرفها، ولا "بيروتية" الطيب، الذي لم يحجم، برغم ذلك كله، عن إيوائني وإطعامي!

وقدر لي أن أعيش ولكن في حزن غامر. وكان من جراء موقف كهذا أن "لوزان" لم تعد بالنسبة لي مقاما مستحبا، فلم يُقبل التلاميذ زرافات. بل إنني لم أظفر بتلميذة واحدة، ولا بأحد من أبناء المدينة .. كل الذين ظفرت بهم كانوا اثنين أو ثلاثة من الألمان الذين كانوا من الغباء بقدر ما كنت من الجهل، وكانوا يُضايقُوني إلى درجة الموت، كما أنهم لم يصبحوا - على يدي - ولو عازفين غير منتظمين! .. ولم أَدْعُ إلا إلى بيت واحد، كانت فيه فتاة صغيرة - كانها الحية - أخذت تتلهى بإطلاعي على كثير من القطع الموسيقية التي كنت عاجزا عن قراءة "نوتاتها"، ثم كانت تنطلق في الغناء - بعد ذلك - أمام مدرس الموسيقى لثريه كيف يجب أن يُؤدّي اللحن! .. وكنت لا أكاد أستطيع أن أقرأ أي لحن من أول نظرة، حتى إنني - في الحفلة الباهرة التي تحدّثت عنها - كنت عاجزا عن أن اتبّع العزف لحظة لاتّبين ما إذا كان العازفون يُحسِنُونَ توقيع ما كان تحت بصري، وما كنت قد ألفتة بنفسي!، أم لا!

وفي غمرة هذا الهوان وجدتُ عزاءً في الأنباء التي كنت أتلقهاها بين وقت وآخر من الصديقتين الفاتنتين .. فلقد اعتدت دائما أن أجد طاقة مرفهة عظيمة في الجنس الآخر، فليس ثمة ما يؤأسّي أحزاني - في المصائب - أكثر من أنني لطيفة تُعنى بي! .. على أن هذا التراسل لم يلبث أن انقطع بعد ذلك بقليل، ولم يُقدّر له أن يستأنف قط .. غير أن ذلك كان في الواقع ذنبي، إذ إنني عندما غيرت محل إقامتي أغفلت أن أبعث إليهما بعنواني، ثم نسيتهما تماما؛ إذ كنت مضطرا - بحكم الضرورة - إلى أن أفكر في نفسي باستمرار!



ولقد انقضى وقت طويل دون أن أتحديث عن "ماما" (١) المسكينة. على أن المرء يكون جد مخطئ إذا ظن أنني نسيْتُها هي الأخرى فإنني لم أكف عن التفكير فيها، وعن الشوق إلى العثور عليها ثانية، لا لحاجتي المادية فحسب، وإنما لما هو أكثر من ذلك .. لحاجتي القلبية! .. كان تعلّقي بها - برغم ما كان عليه من حرارة وحنان - لا يحولُ بيني وبين أن أحب غيرها، ولكن على غير شاكلة حبي لها! فإن النساء جميعا

(١) رأينا في الجزء الأول كيف أطلق "روسو" على راحيته الكريمة "مدام دي فاران" لقب "ماما".

كن -على السواء- مَدِينَاتٌ بعاطفتي لمفاتيحنهن .. أما هي، فكانت لها مكانة فريدة، دونها مكانات الاخريات، فلم تكن مفاتيحن تعدو عليها .. بل لقد كان من المحتمل أن تهرم "ماما" وأن تصبح دميمة، وأنا مقيم على جبهها، دون أن يقل شَغَفِي بها! .. كان قلبي قد نقل إلى شخصها كل التمجيد الذي استشعره من قبل نحو جمالها، فما كانت عواطفني نحوها لتتغير قط -مهما يكن التغير الذي يتعرض مظهرها له- طالما ظلت في جوهرها هي بذاتها! .. وكنت أدركُ تماما أنني مدين لها بالفضل ولكني لم أفكر في ذلك قط، في الواقع .. بل كان ما فعلته ومالم تفعله من أجلي سواء عندي، إذ إنني لم أحببها عن شعور بالواجب أو بالصلحة الذاتية، ولا عن خضوع وامتنال، وإنما أحببتها لأنني خُلِقْتُ كي أحبها! .. وكنت عندما أقع في هوى أية امرأة أخرى أشغل بها -كما ينبغي أن أعترف- فيقل تفكيري في "ماما" ولكني كنت إذا ما عدتُ للتفكير فيها أفكر بنفس المنعة. وما شغلت بها قط -سواء كنت على حب أو لم أكن- دون أن أشعر بأنني لن أجد سعادة حقيقية قط في الحياة طالما كنت بعيدا عنها!

ومع أنني لم أسمع عنها منذ أمد طويل إلا أنني لم أعتقد قط بأنني فقدتها تماما، ولا خطر لي أن من الممكن أن تكون قد نسيته، . وكنت أقول لنفسني: "إنها لن تلبث أن تعلم -طال الوقت أو قصر- بأنني شريد وحيد، فتبعثُ إلي بما يُطمِئِنُّني إلى أنها على قيد الحياة. ولسوف القاهها ثانية، بكل تأكيد. وفي انتظار ذلك كان من بواعث البهجة أن أعيش في مَسَقَطِ رأسها، وأن أجتاز الطرقات التي سارت فيها من قبل، وأمر بالبيوت التي كانت تقيم فيها .. كل هذا بالحدس والتخمين، فقد كان من نزواتي الحمقاء أنني كنت عاجزا عن أن أحمل نفسي على الاستعلام عنها، بل عن ذكر اسمها، مالم تكن ثمة ضرورة ماسة .. كان يبدو لي أنني بذكر اسمها أشي بكل ما كانت تُلهِمُنِي إياه من مشاعر، وأن فمي يفضح سر قلبي، وأنني أخرجها بطريقة ما! كذلك خُيلَ إلي أن تحرجني عن ذكر اسمها كان يمتزج بشعور ما كان يوحي إليّ بأن أحدا قد يذكرها أمامي بسوء! فقد كان الناس يُكثرون من الحديث عن الخطوة التي اتخذتها، ويمسّون سلوكها بعض الشيء؛ لذلك أثرتُ ألا أسمع أي شيء يقال عنها -على الإطلاق- خوفا من أن يقال لي ما لا أتوق إلى سماعه!

ولما لم يكن تلاميذي يشغلونني كثيرا، وكان مسقط رأسها لا يبعد عن "لوزان" بأكثر من أربعة فراسخ، فقد قضيت ثلاثة أيام أو أربعة أتمشى هناك، دون أن يفارقني أعذبُ شعورٍ عرفته. كان لمنظر بحيرة "جنيف" وضافها البديعة سحر يامر عيني دائما، ولا قبل لي بوصفه .. سحر لم يكن يُنحصرُ في جمال المنظر فحسب بل كان يشتمل أيضا على شيء أكثر جاذبية، وأقدر على التأثير علي، والسيطرة على مشاعري. وفي جميع المرات التي كنت أقترُب فيها من مقاطعة "فود" كان يُخَامِرُنِي شعورٌ ينطوي على ذكرى "مدام دي فاران" -التي ولدت هناك- وأبي، الذي عاش هناك، والآنسة "دي فيلسون" التي استمتعت بأولى ثمار حب صباي، وكثير من الرحلات البهيجة التي قمتُ بها في طفولتي .. وسبب آخر -فيما يبدو لي- كان أكثر إثارة، وأشدُّ غموضا، وأقوى سلطانا من كل هذه مجتمعة! .. كانت الرغبة المتأججة في هذه الحياة الهائنة الوادعة -التي كانت تفرمني برغم أنني ولدت لها- تتجه دائما إلى مقاطعة "فود"، على مقربة من البحيرة، ووسط الريف الفُتَّان .. كنت أصبو إلى أن يكون لي بستان على شاطئ هذه

البحيرة دون سواها، وإلى أن يكون لي صديق أمين، وامرأة لطيفة، وبقرة، وزورق صغير.. ولن أنعم بسعادة كاملة على الأرض إلا إذا تحقّق لي كل هذا! وإني لأضحك من السذاجة التي كانت تحدوني إلى زيارة هذه البلاد مرارا، لمجرد البحث عن هذه السعادة الخيالية! وكنت أدعّش دائما إذ كنت أجد سكانها - لا سيما النساء منهم - على النقيض مما كنت أعتقد.. لكم كان يهولني هذا التناقض!.. أبدا لم يلح لي أن كلا من المقاطعة وأهلها قد خلق من أجل الآخر!



وفي خلال الرحلة إلى "فيفاي" (١)، أطلقت نفسي - وأنا أتمشى على شاطئ البحيرة الجميلة - للشجون العذبة، فإذا بقلبي يندفع في شوق إلى آلاف من المفاتن البريقة، وأترعّ نفسي بالانفعالات، فرحت أتهجد وأبكي كالطفل!.. كم من مرة توقفت لأبكي ماشاء لي البكاء!.. وكنت أجلس على حجر كبير، أتسلى بتأمل دموعي وهي تتساقط في الماء!

وفي "فيفاي" أقمتُ في "لاكليه". وفي خلال اليومين اللذين أقمتهما هناك دون أن أرى أحدا تملكني نحو هذه المدينة حبٌ ظلّ يلاحقني في كل رحلاتي، وحملتني - في النهاية - على أن أقيم فيها معبدا لأبطال خيالي القصصي. وإني لأقول - عن طيب خاطر - لأولئك الذين أوتوا ذوقا وحسامرهقين: "أذهبوا إلى "فيفاي" .. وجُوسُوا خلال ريفها، وتأملوا المواقع، وتمشّوا على ضفاف البحيرة، وقولوا ما إذا كانت الطبيعة لم تخلق هذا البلد الجميل لـ "جوليا" و "كلير" و "سان برو" (٢) .. ولكن، لا تتوقعوا أن تجدوهم هناك!.. على أنني أعود الآن إلى قصتي:

ولما كنت كاثوليكيّا، وقد اعترف بي كذلك فقد رحلت أمارس جهارا، وبدون إحجام، العقيدة التي اعتنقتها.. وكنت - في أيام الأحد ذات الجو المعتدل - أحضر الصلاة في "أسين"، على مائدة فرسخين من "لسوزان"، فكنت أقطع المسافة عادة في صحبة غيري من الكاثوليكين، أذكر منهم بالذات شخصا كان يحترف التطريز الباريسي، وقد غاب عني اسمه. ولم يكن الرجل باريسيا على شاكلتي، وإنما كان باريسيا صميما، من "باريس". وكان تقياً مؤمنا، ذا فطرة طيبة كابناء "شامباني"، وقد بلغ من حبه لوطنه أنه لم يسمح لنفسه البتة بالارتياح في أنني باريسي مثله خوفا من أن يُضَيّع على نفسه فرصة الحديث عن "باريس". وكان لدى السيد "دي كروزا" - مساعد الحاكم - بستاني من "باريس" كذلك ولكنه كان أقل طيبة، وكان يرى أن من المساس بكرامة بلده أن يجرو أي إنسان على أن يتّجسّس إليها دون أن يكون له حق في هذا الشرف!.. لذلك راح يطرني بالأسئلة، وهو يستسم في خبث، بلهجة الواثق بأنه لن يلبث أن يكتشف غلظة! ولقد سألتني مرة عن أبرز معالم "مارشيه نيف"، فاجبته اعتباطا وتخططا، كما يستطيع المرء أن يحدث. وجدديري اليوم - وقد أقمت في "باريس" عشرين عاما - أن أكون على دراية بها، ومع ذلك، فلو أن أحدا وجه إلي سؤالا كهذا السؤال لما كان ارتياكي في الإجابة أقل منه يومئذ، ولاستنتج أي امرئ - من هذا الارتباك - أنني لم أقتنُ "باريس" قطا. إلى هذا الحد يكون المرء معرضا للاعتماد على ظواهر خداعة، ولو صادف الحقيقة!

(١) مسقط رأس مدام "دي فاران". (٢) هؤلاء الثلاثة من أبطال قصة روسو الطويلة "هيلويز الجديدة".

وليس بوسعي أن أذكر تماما مدة إقامتي يومئذ في "لوزان"، فإنني لم أحصل من هذه المدينة ذكريات حية. كل ما أدره هو أنني حين وجدت نفسي عاجزا عن كسب عيشي فيها نزحت منها إلى "فيوشاتيل" حيث قضيت الشتاء. ولقد كنت في هذه المدينة أكثر توفيقا؛ إذ كان لدي تلاميذ، كما أنني كسبت منها ما مكنتني من الوفاء بديني لصديقي الطبيب "بيروتيه"، الذي كان من النبيل بحيث أرسل إلي -في الماضي- حزمة متاعى الصغيرة برغم أنني كنت مدينا له بمبلغ كبير!

ولقد تعلمت الموسيقى -دون قصد مني- خلال تدريسي إياها، وكانت حياتي على قدر لا بأس به من الدعة. كانت حياة تكفي لأن يقنع بها أي رجل عاقل ولكن قلبي القلق كان يصبو إلى شيء آخر. . . . وكنت في أيام الأحد والأيام الأخرى التي أخلو فيها من العمل أرتع في الريف والغابات المجاورة، دون أن أكف عن التَّجَوُّل، والتأمل، والتشهُد. . . . وكنت إذا ما خرجت من المدينة لا أعود إليها قبل المساء. وفي ذات يوم، كنت في "بودوي" فولجت فندقا لتناول الغداء، وإذا بي أرى رجلا طويل اللحية، ذا حلة بنفسجية على النمط اليوناني، وقلنسوة من الفرو، وقد أوتي مظهرا ينم عن نبيل. وكان يجد عَنَاءً -في أكثر الأحيان- في أن يجعل القوم يفهمون ما كان يبغى، إذ كان لا يكاد ينطق بغير لهجة ركيكة لا سبيل إلى تمييزها تقريبا، ولكنها كانت شديدة الشبه باللغة الإيطالية، ولا لغة غيرها. وفهمت كل ما كان يقول تقريبا، وكنت الوحيد الذي فهم. ولم يجد الرجل بوسعه أن يوضح ما يبغى إلا بتبادل الإشارات مع صاحب الفندق ومع أبناء المنطقة، فَوَحَّهْتُ إليه بضع كلمات بالإيطالية، فهمها تماما، فنهض وعانقني في ابتهاج، وسرعان ما تعارفنا، ومنذ تلك اللحظة عملت مترجما له. وكان غداؤه شهيا، في حين أن غدائي كان أقل من المتوسط فدعاني إلى أن أشاركه طعامه، فلم أبد تمنعا يذكر. وبينما كنا نَشْرَبُ ونتكلم وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا! . . . وروى لي أنه كان قَسًّا يونانيا، و"أرشيمنديريت" لبيت المقدس، وقد أوفد لجمع اكتتابات من أوروبا لتجديد كنيسة المهد المقدس. وأطلعني علي شهادات بدیعة من القيصرة والإمبراطور، كما كان لديه كثير غيرها من ملوك آخرين. وكان جد رَأْسِ عما جمع حتى ذلك الحين ولكنه كان قد صادف في ألمانيا صعوبات لا تخطر بالبال؛ إذ إنه لم يكن يفقه كلمة واحدة من الألمانية أو اللاتينية أو الفرنسية، فكان مضطرا إلى الاقتصار على لغته اليونانية، وعلى اللغة التركية، واللغة الفرنجية؟ مما لم يُسَعِفْهُ كثيرا في البلدان التي لم يكن ملما بالسنتها. لذلك عرض علي أن أصحبه فأكون له سكرتيرا ومترجما، وإلى جانب أن حلتي البنفسجية المتواضعة -التي كنت قد ابتعتها حديثا- لم تكن تنسجم مع مركزي الجديد، فإنني لم أوت من أناقة المظهر سوى قسط بسيط، مما جعله يعتقد أن الظفر بي أمر غير عسير. ولم يكن في ذلك مخطئا، فسرعان ما تم اتفاقنا، إذ إنني لم أطلب شيئا، في حين أنه وعد بالكثير. . . وبدون احتياط، ولا ضمان، ولا معرفة، أسلمته قيادي. . . وهكذا رحلت من الغد في طريقي إلى بيت المقدس!

وبدأنا رحلتنا بمقاطعة "فريبور"، فلم يخرج منها بطائل، وبينما كنا نشرب ونتكلم، وثقنا من تآلفنا، فلم ينته الغداء حتى أصبحنا لا نطيق افتراقا! . . .

إذ إن كرامته الكنيسية لم تكن لِتَسْمَحَ له بأن يقوم بدور المتسول، ولا بجمع الاكتتابات من خاصة

القوم . على أننا عرضنا مهمته على مجلس الشيوخ، ففتحنا مبلغا صغيرا . ومن هناك بمننا شطر "بيرن"، وهبطنا في فندق "أوفوكون"، وكان في ذلك العهد نُزلًا طيبا، يؤمه وسط طيب . وكانت المائدة حافلة، ومحفوظة بالعناية . وكان قد انقضى وقت طويل اضطرت فيه إلى النزول بالفنادق الرخيصة، ومن ثم فقد كان لزاما عليّ أن أهين نفسي لتعويض ما فاتني، وكانت الفرصة سَانِحَةً، فاستغللتُها . ولقد كان السيد "الأرشميندريت" نفسه رجلا طيب المعاشرة، مشغوقا بالمائدة، مرححا، يجيد الحديث مع من كانوا يفهمونه . ولم تكن تنقصه المعرفة، وكان يُجيدُ عرض بلاغته اليونانية بكثير من البراعة . وحدث ذات يوم أنه أصاب أصبعه بجرح عميق، بينما كنا نكسر بندقا عقب الغداء، فلما انساب الدم دافقا، عرض أصبعه على الحضور وهو يقول ضاحكا: "الابدوا إعجابكم يا سادة .. إنه دم "بيلا سجي" (١) .

ولم تكن خدماتي له قليلة النفع في "بيرن" فلم أخرج منها بنتيجة سيئة كما كنت أخشى، وإنما كنت أكثر جرأة وأبلغ حديثا مما لو كنت أعمل لنفسى! .. على أن الأمور لم تجر بالبساطة التي جرت بها في "فريبور"، بل كان لابد من مؤتمرات طويلة وعديدة من كبار رجال الدولة، كما أن فُحَصَ شهادات "الأرشميندريت" لم يكن بالمسألة التي تتم في يوم واحد . وأخيرا، عندما تمت الإجراءات اللازمة، كان علينا أن نعرض الأمر على مجلس الشيوخ . فذهبتُ مع "الأرشميندريت" بوصفي مترجما له، فطلّبتُ إليّ أن أتكلّم، وكان هذا آخر ما توقعت، فما خطر ببالي أن ثمة ضرورة -بعد المحادثات الطويلة مع الأعضاء فرادي- إلى مخاطبة المجلس مجتمعا، وكأنما لم يدر من قبل أي حديث! .. فتصوروا ارتباكى! .. تصوروا رجلا خجولا مثلي، يُطلّبتُ بأن يتكلّم لا أمام ملا من الناس فحسب، وإنما أمام مجلس شيوخ (بيرن) بالذات .. وأن يتكلّم ارتجالا، وليست أمامه مذكرة واحدة معدة .. كان هذا ما أوشك أن يقتلني! .. ومع ذلك فإنني لم أجبن، وإنما عَرَضْتُ في وضوح وإيجاز مهمة "الأرشميندريت"، وأطريت نقوى الأمراء الذين ساهموا في الاكتتاب الذي جاء لجمعه، ولكي أثير حمية مثل هؤلاء السادة الفخام قلت: إنه من غير المتوقع إزاء كرمهم المألوف أن يكونوا أقل من أولئك .. ثم حاولت أن أثبت لهم أن مثل هذا العمل الخيري يُهمُّ المسيحيين جميعا، دون ما تمييز بين مذاهبهم .. وانتهيت بأن وعدت كل من يساهم فيه ببركات من السماء!

وإن أقول إن خطابي كان مؤثرا، بيد أنه صادف -بالتأكيد- هوى لدى المستمعين . وعند مغادرة الاجتماع تلقى "الأرشميندريت" تبرعا سخيا مشرفا، فضلا عن إطراءات لذكاء سكرتيه، نُعِمْتُ بمهمة ترجمتها إليه، وإن لم أجسر على أن أنقلها بنصها! وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تكلّمت فيها على الملأ وأمام صاحب سلطان، ولعلها أيضا المرة الأولى التي تكلّمت فيها بلباقة وإجادة . فأي تحول في تصرفات نفس الرجل! .. لقد ذهبت أخيرا -منذ ثلاث سنوات- إلى "إيفردون" لأزور صديقي القديم السيد "روجان"، فاستقبلتُ وفدا جاء يشكرني إذ أهديت مكتبة البلدة بعض الكتب .. والسويسريون خطباء بارعون؛ ومن ثم انطلق هؤلاء السادة في الخطابة لي، ووجدتني مضطرا للرد، ولكنني ارتبكت بدرجة كبيرة حين شرعت في ذلك، واضطرت أفكاري إلى درجة جعلتني أوجزُ كي لا أجعل نفسي موضع

(١) نسبة إلى "بيلاسجو"، وهو عصر هريك كان ينتشر قديما على سواحل وفي جزر شرقي البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجة، ويرتبط بالعنصر الإغريقي .

السخرية... وعلى الرغم من أنني خجول بطبيعتي، إلا أنني كنت جسوراً في بعض الأحيان -في شبابي- ولكنني لم أكن كذلك قط في كبري... فكلما ازددت تعرفاً على المجتمع، قلت قدرتي على أن أكيف نفسي وفقاً لآساليه في الحديث!



وإذ غادرنا "بيرن" ذهبنا إلى "سولير"؛ إذ ارتأى "الأرشيمندريت" أن يجتاز ألمانيا ثانية، عائداً عن طريق المجر أو بولندا، وهي رحلة بالغة الطول ولكنه لم يخش طولها؛ إذ كان كيسه خليقاً بأن يمتلئ خلال الطريق بدلاً من أن يفرغ... أما أنا، فكان سواء لدي أرحلت على جواد أو على قدمي، فما كنت لأبتغي أفضل من الترحال بهذا الشكل، طيلة العمر... ولكن كان مكتوباً لي ألا أمضي في ترحالي بعيداً! كان أول ما فعلناه عند وصولنا إلى "سولير" هو الذهاب لتحية السيد سفير "فرنسا"، وكان هذا السفير -لسوء حظ أسقفي- هو "المركيز دي بوناك" الذي كان سفيراً لدى الباب العالي، والذي قدر له أن يكون على معرفة وافية بكل ما يتعلق بكنسية المهدي المقدس. وقضى "الأرشيمندريت" ربع ساعة في المقابلة التي لم يُسمح لي بحضورها، لأن السيد السفير كان يفهم لسان الفرنجة ويُعادلني -على الأقل- في إتقان الحديث بالإيطالية. وعندما خرج صاحبي اليوناني، هممتُ بأن أتبعه، ولكنني استوقفت، إذ حان دوري لمقابلة السفير، فقد تقدمت على أنني باريصي، ومن ثم تحت ولاية صاحب السعادة! وسألني السفير عمن أكون، ونَشَدَنِي أن أقول الحقيقة، فوعدت بذلك، ورجوتُ بأن ياذن لي بأن أخلو إليه، فأذن لي، وصحبني إلى مكتبه، وأغلق الباب... وإذ ذاك ارتعيت على قدميه، وبررت بوعدي... وما كنت خليقاً بأن أضن بالكلام، ولو لم أعد بشيء، إذ كانت الرغبة المستمرة في أن أفضي بما في صدري تدفع قلبي إلى شفتي في أية لحظة... وإذا كنت قد كشفتُ حقيقتي دون تحفظ للموسيقى "ليتولد" فما كان من المحتمل أن ألجأ إلى التكتم أمام المركيز "دي بوناك"!

وبدا عليه الاقتناع بقصتي القصيرة، وبالصرخة التي فضفتُ بها عن صدري، فامسك بيدي وقادني إلى السيدة زوجة السفير، فقدمني إليها، وأوجز لها قصتي، فتلقنتني السيدة "دي بوناك" في رفق، وقالت: إنني يجب ألا أترك مع ذلك الراهب اليوناني. ومن ثم تقرر أن أبقي في الدار حتى يربأ ما يمكنُ يفعل من أجلي. ووددتُ أن أذهب فأودع "الأرشيمندريتي" المسكين الذي كنت أشعرُ بميل نحوه، فلم يؤذن لي، وإنما أوُفد إليه من أنبائه بأنني قد احتجزت... وإن هي إلا ربع ساعة، حتى كانت حزمة متاعبي الصغيرة قد وصلت. وعهد بي إلى السيد "دي لامارتينيير" -سكرتير السفارة- فقال وهو يريني الغرفة التي أعدت لي: "لقد شغل هذه الحجرة -في عهد "كونت دي لوك" - رجل مشهور كان له نفس اسمك (١)، وعليك وحده أن تملأ مركزه من جميع الاعتبارات، حتى يقال: "روسو" الأول، و"روسو" الثاني!... وما كان كان لهذا التشابه -الذي لم أعلق عليه أملاً إذ ذاك- أن يستهوي مطامعي، لو قدر لي أن أطلع على المستقبل فأرى الثمن الذي كان مقدراً علي أن أدفعه من أجله يوماً!

(١) كان الشخص المقصود هو "جان باتيست روسو" (١٦٧١-١٧٤١). وكان شاعراً غنائياً فرنسياً... وهناك "روسو" ثالث، هو "بيير روسو" (١٧٢٥-١٧٨٥) وكان كاتباً مسرحياً. وقد قيل بهذا الصدد: "ثلاثة مؤلفين يدعون باسم "روسو"، فاعصيتهم من باريس إلى روما: "روسو" الباريسي كان عظيماً، و"روسو" الجيني كان أحق، و"روسو" التولوزي كان هباءاً".

ولقد اثار قول السيد "دي لامارتنيير" فضولي، فقرأت مؤلفات ذلك الذي شغلت غرفته . وإزاء الجمالة التي وجهت إلي، واعتقادا مني بانني أوتيت موهبة الشعر، نظمت أغنية في مدح السيدة "دي بوناك"، كمحاولة أولى، على أن هذه النزوة لم يطل أمدها.. ولقد اعتدت أن أنظم الشعر جزافا بين وقت وآخر- فهو مران لا بأس به لتدريب المرء على الرشاقة في تكوين العبارات، ولتحسين الأسلوب النثري، ولكني لم أجد في الشعر الفرنسي قط جاذبية كافية لان نجعلني اتفرغ له!

ورغب السيد "دي لامارتنيير" في أن يرى أسلوبي، فسالني أن أكتب عين القصة التي رويتها للسيد السفير، فكتبت له رسالة طويلة -سمعت انها الآن في حوزة السيد "دي مارتان"، الذي ظل زمنا طويلا ملحقا بالسفارة في عهد المركيز "دي بوناك"، والذي خلف السيد "دي لامارتنيير" في عهد تولي السيد "دي كورتى" السفارة! -ولقد رجوت السيد "دي مالشييرب" أن يسئلى للحصول لي على نسخة من هذه الرسالة.. وإذا قدر لي أن أعظمربها بوساطته، أو بوساطة سواء فسوف توجد في المجموعة التي ستلحق باعتراقاتي.

واخذت الخبرة التي بدأت أحظى بها تخفف من جموح مشروعاتي الخيالية شيئا فشيئا، فلم اقتصر -مثلا- على عدم الوقوع في هوى السيدة "دي بوناك" فحسب، بل إنني رأيت لتوي أنني لن أجد مجالا كبيرا للرقى في دار زوجها، إذ كان السيد "دي لامارتنيير" راسخا في منصبه، وكان السيد "دي ماريان" متربصا ليخلفه، مما كان لا يدع لي مجالا للأمل -مهما يكن الحظ- في أكثر من منصب مساعد السكرتير الذي لم يكن يستهويني كثيرا؛ ومن ثم فإنني حين استشرت فيما يطلب أن أفعل أبديت رغبة شديدة في الذهاب إلى "باريس". واستماع السيد السفير هذا الرأي الذي بدا خليقا بأن يخلصه مني على الأقل!.. وقال السيد "ديرفيه"، السكرتير المترجم للسفارة إن صديقه السيد "جودار" -وكان ضابطا سويسريا برتبة كولونيل، في خدمة فرنسا- كان يبحث عن شخص يعهد إليه برعاية ابن أخيه، الذي التحق بالخدمة وهو بعد صغير السن؛ ومن ثم فقد رأى أنني خليق بأن أروق له. وبناء على هذه الفكرة، التي قبّلت في تسرع، تقرر سفري.. فطار قلبي فرحا، إذ رأيت أمامي رحلة تنتهي بي إلى "باريس"!!.. ومنحوني بعض خطابات للتوصية، ومائة فرنك للإنفاق على الرحلة، تصحبها نصائح طيبة.. ثم رحلت!

وقضيت في هذه الرحلة خمسة عشر يوما، أعدها بين الأيام السعيدة في حياتي. وكنت شابا، موفور الصحة، وكان معي مال كاف، وآمال وافرة، وقد انطلقت في الرحلة على قدمي. وكنت أسافر وحيدا، وقد يُعجّب المرء -إن لم يكن قد ألمّ بطبايعي- إذ يراني اعتبر ذلك ميزة، فقد كانت تصوراتي الناعمة تؤنسني، ولم يكن بوسع الواقع أن يتمخض عن أروع من هذه التصورات التي كان يوحى إلي بها خيالي المتاجج.. وهكذا كنت إذا عرض علي امرؤ مجلسا في عربة، أو اقترب مني شخص في الطريق، أعبس خشية أن يهدم الصرح الذي كنت أبنيه في خيالي أثناء سيرتي!.. على أن أفكارني كانت في هذه المرة "عسكرية" صرفة، فقد كنت موشكا أن أكون مرافقا لرجل عسكري، وأن أصبح عسكريا أنا الآخر، إذ كانت التدابير قد اتخذت لكي التحق بالمدرسة العسكرية. ورحت أتمثل نفسي في زي ضابط، وقد حملت ريشة بيضاء بدية، فأفغم قلبي بهذه الفكرة الرفيعة. وكانت لدي بعض معلومات باهتة عن هندسة التحصينات، فقد

كان خالي مهندساً؛ ومن ثم فقد اعتبرتُ نفسي -بطريقة ما- عسكرياً بالفطرة!.. وكان قصرُ نظري عقبة ولكنها عقبة لم تُزعِجني، فقد عولت على أن أعوض هذا العيب بالجلد والشجاعة. وكنت قد قرأت أن الماريشال "شومبيرج" كان قصير النظر، فلماذا لا يكون الماريشال "روسو" على شاكلته؟.. وهكذا رحت أتدفا على حرارة هذه الأوهام حتى إنني لم أعد أرى سوى فرق من الجند، ومتاريس، وسلال الطوابي (١)، والمدفعيات، وشخصي وسط النار والدخان، أصدر الأوامر في هدوء، وأنا أمسك بمنظار الميدان في يدي!.. ومع ذلك فإنني عندما كنت اجتاز المناطق الريفية الجميلة كنت أرى الأدغال والجداول؛ فيجعلني هذا المنظر الفتان أتهد حَسرةً، وأشعر في عَمرةِ ابتهاجي بالجد أن قلبي لم يُخلق لمثل هذا الضجيج، وسرعان ما كنت أتمثل نفسي وسط خرافي الحبيبة -دون أن أدري كيف انتقلت إليها- نابذاً إلى الأبد أعمال مارس (٢)!

كم كَذَبْتُ مَشَارِفَ "باريس" الفكرة التي كانت لديّ عنها!.. كانت المناظر التي رأيتها تزين ظاهراً مدينة "تورين"، وجمال طرقاتها، وتناسق صفوف بيوتها قد جعلتني أطعمُ في مزيد من ذلك كله في "باريس"، فكنتُ أتمثلها مدينة لها من الجمال بقدر ما لها من الاتساع، وقد أوتيت أبهى حسن.. لا يرى المرء فيها سوى شوارع رائعة، وقصور من مرمر وذهب!.. فلما دخلتها عن طريق ضاحية "سان مارسو" لم أر سوى شوارع صغيرة قَدِرةً قميئة، وبيوت بشعة سوداء، وجو من الدنس والفقر، ومتسولين، وحوذيين، وتجار للثياب القديمة، ومُتَادِينَ يعلنون عن العلاج بالبركة وعن القبعات القديمة!.. كل هذا صدمني منذ البداية، إلى درجة أن كُلَّ العظمة الحقيقية التي رأيتها في "باريس" -بعد ذلك- لم تُقَوَّ على أن تقضي على هذا الأثر الأول؛ ومن ثم ظلت أكن دائماً نُفُوراً خفياً من الإقامة في هذه العاصمة!.. واستطيع أن أقول: إن المدة التي عشتها فيها -بعد ذلك- لم تُشغل بأكملها إلا في السعي وراء موارد تمكيني من العيش بعيداً عنها!

هكذا تكون ثَمَارُ الخيال البالغ النشاط، الذي يَتَمَادَى إلى ما وراء مبالغات البشر، والذي يطمع دائماً في أن يرى أكثر مما يقال له!.. فكلم امتدحت لي "باريس"، حتى إنني صَوَّرْتُها لنفسي على غرار "بابل" القديمة، التي كان من المحتمل -لو قُدِّر لي أن أزورها- أن أجدَ فيها الكثير الذي لا يتفق مع الصورة التي أكون قد رسمتها لها في خيالي!.. ولقد حدث لي الشيء نفسه عندما زرت دار "الأوبرا"، التي سارعت إلى مشاهدتها في اليوم الذي أعقب وصولي.. ثم وقع لي الشيء ذاته -فيما بعد- عندما زرت "فرساي"، ثم حين شهدت البحر للمرة الأولى.. ولسوف يظل الأمر ذاته يراودني كلما رأيت شيئاً أكون قد سمعت عنه إطناباً بالغا.. ذلك لأنه من المستحيل على البشر، ومن العسير على الطبيعة ذاتها، التفوق على خصب خيالي!

وخيل إلي -من الطريقة التي استقبلني بها كل أولئك الذين حملتُ إليهم رسائل التوصية- أن حظي قد اكتمل، وكان الشخص الذي تلقى أكبر قسط من التوصية، والذي استقبلني بأقل قسط من الحفاوة هو السيد "دي سوربك" الذي كان قد اعتزل العمل وعاش متفلسفاً في ضاحية "بانيو"، حيث زُرْتُهُ مراراً، وحيث لم يقدم لي كوب ماء قط!.. ولقد حَظِيتُ باستقبال أوفر من مدام "دي مرفيسيه" -زوجة أخ المترجم- ومن ابنتهما، وكان ضابطاً في الحرس. فإن الأم وابنتها لم يتلقياني في حفاوة فحسب، بل إنهما

دَعَوَانِي إِلَى مَائِدَتِهِمَا، فَاسْتَغْلَلْتُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مُرَارًا إِثْنَاءَ إِقَامَتِي فِي "بَاريس". وَلاحَ لِي أَنَّ مَسَامَ "دِي مَرْفِييه" كَانَتْ حَسَنَاءَ يَوْمًا مَا، فَقَدْ كَانَ شَعْرُهَا مَايَزَالُ ذَا سَوَادٍ بَدِيعٍ، وَكَانَتْ تَنْسَقُهُ فِي حَلَقَاتٍ عَلَى جَبِينِهَا، وَفَقَالَ لِلنَّمَطِ الْقَدِيمِ. وَكَانَتْ مُحْتَفِظَةً بِمَا لَا يَخْبُو حِينَ تَخْبُرُ الْمَفَاتِنَ الشَّخْصِيَّةَ.. وَأَعْنِي بِذَلِكَ: عَقْلًا لَا بَاسَ بِهِ. وَقَدْ بَدَأَ أَنَّهَا اسْتَسَاغَتْ فِكْرِي، وَأَخَذَتْ تَبْذِلُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهَا لِمُسَاعَدَتِي، وَلَكِنْ أَحَدًا لَمْ يُؤَازِرْهَا.. وَمَالَيْتُ أَنْ تَبِينَتْ بِجَلَاءِ الْاهْتِمَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَوَلَّاهَا تَحْوِي. عَلَى أَنَّ مِنْ وَاجِبِي إِنْصَافَ الْفَرَنْسِيِّينَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَغَالُونَ فِي الْاِحْتِجَاجَاتِ - كَمَا يَقَالُ - بَلْ إِنَّ مَا يُبْدُونَهُ مِنْهَا يَكُونُ صَادِقًا عَلَى الدَّوَامِ. عَلَى أَنَّ لَهُمْ فِي التَّظَاهَرِ بِالْاهْتِمَامِ بِكَ أَسْلُوبًا أَكْثَرَ خِدَاعًا مِنْ زَخْرَفِ الْقَوْلِ! أَمَّا الْمَجَامِلَاتُ الضَّخْمَةُ الْمَائُورَةُ عَنِ السُّوَيْسِيِّينَ، فَلَا تَجُوزُ إِلَّا عَلَى الْحَقِيقِ! إِنْ طَبَاعَ الْفَرَنْسِيِّينَ لَيْسَتْ بِاللُّغَةِ الْإِعْرَاءِ وَالْفَنَنَةِ إِلَّا أَنَّهَا بِاللُّغَةِ الْبَسَاطَةِ.. وَقَدْ يُلَوِّحُ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ لَكَ كُلَّ مَا يُوَدُّونَ أَنْ يَفْعَلُوهُ، لَكِنِّي يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا لَكَ مَفَاجِآتَ مُسْتَحْبَةٍ. بَلْ إِنَّنِي لَأَذْهَبُ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا كَاذِبِينَ فِي مَظَاهِرِهِمْ، فَهَمَّ بِطَبِيعَتِهِمْ بِشُرُوشٍ، عَطُوفُونَ، مَحْبُونَ لِلْخَيْرِ.. بَلْ إِنَّهُمْ - مَعَهُمَا يَقَالُ - أَكْثَرُ صَدَقًا فِي عَوَاطِفِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّةٍ أُخْرَى.. بَيِّدَ أَنَّهُمْ نَزَقُونَ، سَرِيعُوا الْمَلَلِ وَالتَّقَلُّبِ. إِنَّهُمْ يَشْعُرُونَ فِي الْوَاقِعِ بِالْعَوَاطِفِ الَّتِي يُبْدُونَهَا لَكَ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْعَوَاطِفُ سَرْعَانِ مَا تَذْهَبُ كَمَا جَاءَتْ.. وَهَمَّ حِينَ يَحْدُثُونَكَ يَنْصَرِفُونَ إِلَيْكَ بِجَمَاعٍ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَنْسُونُكَ بِمَجْرَدِ أَنْ تَغِيبَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ.. فَلَا دَوَامَ لَشَيْءٍ فِي قُلُوبِهِمْ، بَلْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَدَيْهِمْ ابْنُ لَحْظَةٍ!

وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ حَظَّيْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَجَامِلَاتِ وَقَلِيلٍ مِنَ النِّفَعِ.. وَظَهَرَ أَنَّ ذَلِكَ الْكُولُونِيَلِ "جُودَار" - الَّذِي أَوْفَدْتُ لَابْنَ أَخِيهِ - كَانَ شَيْخًا وَغَدًا شَحِيحًا، مَا إِنْ رَأَى مَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ مَحْنَةٍ حَتَّى طَمَعَ فِي أَنْ يَظْفِرَ بِخِدْمَاتِي دُونَ مُقَابِلٍ، بَرِغَمَ أَنَّهُ كَانَ يَتَقَلَّبُ فِي الذَّهَبِ!.. فَلَقَدْ أَرَادَنِي عَلَى أَنْ أَكُونَ لَابْنَ أَخِيهِ بِمِثَابَةِ وَصِيفِ بَدُونِ أَجْرٍ، أَكْثَرَ مِنْ رِثَاءٍ وَمَرْبِيَا حَقِيقِيًّا! وَلَمَّا كُنْتُ مُرَافِقًا لِإِيَّاهُ بِاسْتِمْرَارٍ، وَمَعْنَى مِنَ الْخِدْمَةِ لِذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ لِرِثَاءِ أَنْ أَعِيشَ عَلَى مَرْتَبَتِي كَطَالِبٍ عَسْكَرِيٍّ - أَوْ بِأَلَاخَرَى كَجُنْدِيٍّ - وَكَادَ التَّمَسُّ لَا يُوَافِقُ عَلَى مَنْحِي حِلَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ أَقْنَعَ بِحِلَّةِ الْخِدْمَةِ الَّتِي تَقْدِمُهَا الْكُنْيَةُ لِلْجُنْدِيِّ الْعَادِي. وَلَقَدْ حَالَتْ مَسَامَ "دِي مَرْفِييه" نَفْسَهَا بَيْنِي وَبَيْنَ قَبُولِ هَذِهِ الْمُتَقَرَّحَاتِ، إِذْ اسْتَنْكَرَتْهَا.. وَكَذَلِكَ أَبَدَى إِلَيْهَا عَيْنَ الشُّعُورِ. وَدَارَ الْبَحْثُ عَنْ عَمَلِ آخِرِ لِي، فَلَمْ يُسْفَرْ عَنْ شَيْءٍ. وَبَدَأَتْ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ أَحْسَنَ بِحَاجَةِ مَاسَةٍ إِلَى الْمَالِ، فَمَا كَانَتْ الْفَرَنْكَاتُ الْمِائَةِ الَّتِي أَنْفَقْتُ مِنْهَا عَلَى رِحْلَتِي لِتَكْفِينِي فِتْرَةَ اطْوَلِ، عَلَى أَنَّي - لِحَسَنِ الْحِظِّ - تَلْقَيْتُ مِنْ لَدُنِ السَّيِّدِ السَّفِيرِ مَنَحَةً صَغِيرَةً أُخْرَى. كَانَتْ عَظِيمَةً النَّفْعِ لِي. وَاعْتَقَدْتُ أَنَّهُ مَا كَانَ لِيَسْتَخْلِي عَنِّي لَوْ أَنَّي كُنْتُ قَدْ أُوتِيتُ مُزِيدًا مِنَ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ التَّقَاعُ، وَالْإِنْتِظَارُ، وَالْإِسْتِرْحَامُ أُمُورٌ مُسْتَحِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِي.. فَانْصَرَفْتُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْرَةِ وَلَمْ أَعِدْ أَتَرَدَّدْ عَلَيْهَا!

وَلَمْ أَكُنْ قَدْ نَسِيتُ "مَامَا" الْمُسْكِينَةَ، وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَ لِي أَنْ أَعِشَ عَلَيْهَا؟ أَيْنَ كَانَ لِي أَنْ أُبَحِّثَ عَنْهَا؟.. وَكَانَتْ "مَسَامَ دِي مَرْفِييه" - الَّتِي عَرَفْتُ قِصَّتِي - قَدْ سَاعَدَتْنِي فِي هَذَا الْبَحْثِ فِتْرَةً طَوِيلَةً، دُونَ جَدْوَى... وَأَخِيرًا، عَلِمْتُ أَنَّ مَسَامَ "دِي قَارَانَ" قَدْ غَادَرَتْ "بَاريس" مِنْذَ شَهْرَيْنِ، وَلَكِنْ أَحَدًا لَمْ يَدْرِ هَلْ ذَهَبَتْ إِلَى "مَافُوي" أَمْ إِلَى "تُورِين"، بَلْ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالُوا إِنَّهَا عَادَتْ إِلَى "سُويسِرَا". وَمَا كُنْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ أَضَيِّعَ وَقْتًا فِي عَقْدِ الْعَزْمِ عَلَى الْإِنِّطْلَاقِ فِي أَثَرِهَا، وَأَنَا وَائِقٌ بِأَنَّ الْبَحْثَ عَنْهَا - أَيًّا كَانَ

مكانها - سيكون في الأقاليم أيسر من كل ما قدر لي أن أقوم به في "باريس" !

وقبل أن أرحل مارستُ براعتي الشعرية الجديدة في رسالة إلى الكولونيل "جودار"، نلتُ منه فيها بأقصى ما استطعت ! ولقد عرضت هذا الهذيان على مدام "دي مرفيسيه"، فبدلاً من أن تلومني - كما كان ينبغي أن تفعل - ضحكت كثيراً من سخرياتي، وكذلك فعل إننها الذي لم يكن يحب السيد "جودار"، على ما أعتقد - وخليق بي أن اعترف بأنه لم يكن أهلاً للحب ! - وهكذا ألفتني مياً إلى إرسال القصيدة إليه، بعد أن وجدتُ تشجيعاً على ذلك، فحزمتُ الصفحات، وكتبت عليها عنوانه. وإذا لم يكن في باريس خدمة داخلية للبريد - يومئذ - فقد وضعت الخطاب في جيبِي، وأرسلته من "أوكسير" عندما مررت بها. ومازلت أضحك أحياناً عندما أفكرُ في الإمتعاضات التي لا بد أن يكون الكولونيل قد أبداه وهو يقرأ هذه القصيدة التي وصفته أدق وصف، والتي بدأت هكذا :

"أظننتُ أيها الكهلُ الآثم، أن نزوة حمقاء تُوحِي إليّ بالشوق إلى تربية ابن أخيك ؟"

ولقد كانت هذه القصيدة الصغيرة ركيكة في الواقع، بيد أنها لم تكن تفتقرُ إلى الطلاوة، كما كانت تنم عن استعداد طيب لفن "الهجاء" .. على أنها كانت الهجو الوحيد الذي أنساب من قلبي، فإن قلبي لم يحوِ من الخبث ما يمكنني من استغلال موهبة كهذه، وإن كنت أرى أن المرء يستطيع أن يحكم - من بعض المحادلات القلمية التي اكتسبها من وقت إلى آخر دفاعاً عن نفسي - أنني لو كنت قد أوتيت رُوح الصراع لعز على من يهاجموني أن يضحكوا عقيب النزال !

إن أكثر ما أسف عليه من تفصيلات حياتي التي قدر لها أن تضع من ذاكرتي، هو أنني لم اكتب يوميات عن أسفاري. فما قدر لي قط أن أكون أكثر تفكيراً، وأكثر استمراءً لوجودي وحياتي، وأكثر قرباً من حقيقتي - إذ جاز لي أن أقول هذا - مما كنت في تلك الرحلات التي كنت أقوم بها سيراً على قدمي، ففي المشي شيء ينعش نشاطي ويسمو بأفكاري. وأنا لا أكاد أفكر عندما أكون ساكناً، لا بُدَ لجسمي من أن يكون في حركة حتى يتحرك عقلي. إن رؤية الريف، وتتابع المناظر الممتعة، والخلاء، والشهية المفتوحة والصحة الطيبة اللذين اكتسبهما بالمشي. والحياة الحرة في الفنادق الريفية... وغياب كل ما يجعلني أحسُ بأنني عالمة على غيري، وكل ما يذكرني بمركزي، وكل ما يفكرني بحالي... كل هذا يطلق روحي من عقاليها، ويمنحني جرأة بالغة في التفكير، ويلقي بي - كما ينبغي أن يقال - في بحار الكائنات الشاسعة لكي أجمعها وأفرزها وأنسقها كما يحلو لي، دون ما حرج أو خوف... كنت أتصرف في الطبيعة بأسرها، وكأنني المسيطر عليها.. فكان قلبي في تنقله من شيء إلى شيء يتحدُّ مع تلك الأشياء التي تروقُ له ويميزها عن سواها، ويحيط نفسه برؤي فاتنة، وينتشي بأحاسيس عذبة. وإذا كنت - في سبيل تسجيل هذه الأحاسيس وإثباتها - أستعذبُ وصفها في نفسي، فإية خطوط قوية، وإية ألوان بهيجة، وإية تعبيرات مثالفة أضيفها عليها... وقد يقال : إن هذه كلها قد وجدت في مؤلفاتي وإن كانت قد كتبت في سني أفولتي... أه ! ليت أحداً قد رأى ما كتبت في صدر شبابي وما ألفتُ في رحلاتي، وما أنشأت من أفكار لم اكتبها إطلاقاً!.. وقد تقولون : لماذا لم تكتبها؟.. واجيب أنا : لماذا اكتبها؟.. لماذا أحرم نفسي السحر الواقعي للذة، لكي أقول للغير إنني استمتعت بهذه اللذة؟.. وفيهم يعنيني القراء، والجمهور،

والأرض بأسرها مادمت أُحَلِّقُ في السماء؟ .. ثم، افتراني كنت أحمل -في رحلاتي- ورقا وأقلاما؟ .. لو أنني كنت قد فكرت في كل هذا لما وأفاني شيء مما كان جديرا بالتسجيل .. إنني لم أكن أتنبأ بموعد الأفكار، وإنما كانت تَوَاتِينِي عندما تشاء هي وليس حين أشاء أنا! .. وكانت تمنع عن موافاتي، أو تأتي زُرُافَاتٍ فَتَطْعُنِي علي بقوتها وعددها .. وما كانت عشرة مجلدات في اليوم بكافية لتدوينها! من أين لي الوقت الذي أكتبها فيه؟ .. كنت إذا بلغت بلدا لا أفكر إلا في غداء شهوي . وإذا بارحت بلدا لا أفكر إلا في سير سريع، فقد كنت أحس بأن ثمة نعيمًا جديدًا على الأبواب، فلا أفكر إلا في السعي إليه!

وما شَعَرْتُ بكل هذا يوما قدر ما شعرت في رحلة العودة التي أتحَدَّثُ عنها .. ففي طريقي إلى "باريس"، كانت خواطري محدودة بما كنت ذاهبا لعمله هناك! إذ كنت قد انصرفت إلى الحياة العملية التي ظننت أنها كانت تنبسط أمامي، والتي كنتُ خَلِيقًا بأن أخوضها بكثير من الفخر ولكن هذه الحياة كانت غير تلك التي دعاني قلبي إليها، وقد آذت مخلوقات الواقع كائنات الخيال .. كان الكولونيل "جودارد" وابن أخيه لا يتسَقَّان مع بطل مثلي . أما الآن فقد تخلصت من هذه العقبات بفضل السماء، وأصبح في مقدوري أن أغوص وفق هواي في عالم الأوهام إذ لم يبق أمامي سوى هذا العالم! .. ولقد همت فيه تماما حتى إنني ضللت طريقي عدة مرات فعلا، ولكنني كنت خليقا بأن أغتم لو أنني سلكت طريقا أكثر انجماها إلى مقصدي . ذلك لأنني توهمت أنني لن أجد نفسي على الأرض من جديد، لدى وصولي إلى "ليون" فَوَدَدْتُ ألا أبلغها أبدا!

وفي يوم من الأيام انحرفت عن طريقي عمدا؛ لأتأمل عن كثب مكانا تراءى لي جديرا بالإعجاب . وبلغ من ابتهاجي به أنني أكثرت من الدوران حوله، حتى ضللت تماما في النهاية .. وبعد عدة ساعات من السير على غير هدى، وقد أنهكتني التعب وبرح الجوع والعطش، دخلت لدى فلاح لم تكن داره جميلة المظهر ولكنها كانت الوحيدة التي رأيتها فيما حولي . وكنت إِيْخَالُ أن الأمر كما في "جنيف" أو في "مويسرا" عموما، حيث يخفُّ جميع السكان الميسوري الحال إلى إظهار كرمهم . وسالت هذا الفلاح أن يمنحني ما أتناوله غداء، عارضا عليه أن أدفع الثمن . فقدم لي لبنا خشرا وقطعة من خبز الشعير الخشن، قائلا: إن ذلك كان كل ما لديه . فشربت اللبن جذلا، وأكلت الخبز، بقشه و"ردته"! بيد أن هذا لم يكن قوتا كافيا لرد النشاط إلى رجل أنهكه التعب .. وأدرك الفلاح -الذي تفرس في عن كثب- صدق قصتي بما تجلئ له من شهيتي، فصارحني بعد ذلك فوراً بأنه استطاع أن يتبين أنني كنت شابا طيبا وأميناً (١)، وأنني لم آت كي أبتز منه مالا .. ثم فتح باب مخزن صغير -بالقرب من المطبخ- وهبط منه، وعاد بعد دقيقة برغيف بديع من خبز القمح المحمص، وقطعة شهية من لحم مُقَدَّد، وإن توخى التفتير في حجمها، وزجاجة شراب انعش مرآها فؤادي أكثر من كل ما عداها! .. وأضاف إلى ذلك قطعة سميكة من العجوة، فحظيت بغداء لم يحظ بمثله قط عابر سبيل! .. وعندما حان وقت الدفع عاود الرجل قلقه وخوفه، فأبى أن يأخذ شيئا من نقودي، ورفضها في النزاع غير عادي . والطريف في الأمر أنني لم أستطع أن أتصور ما كان يخيفه . وأخيرا، أطلق هذه الكلمات الرهيبة وهو يرتجف: "محصلو العوائد" و"جرذان القبور" (٢) . وأفهمني أنه كان يُخْبئُ شرابه بسبب العوائد، وكان يخفي خبزه بسبب الضرائب "العشور"، وأنه يغدو رجلا ضائعا لو ارتاب هؤلاء في أنه لم يكن يتصورُ جوعا! .. ولقد ترك كل ما قاله الرجل عن هذا الموضوع -الذي لم تكن لدي

(١) من الجلي أن ملاحي -في ذلك العهد- لم تكن قد شابهت بعد الملامح التي رسمت في صوري بعد ذلك . (٢) "جرذان القبور" لقب كان يطلق في ذلك العهد على مندوبي الحكومة الذين يتفقدون موارد المرء ويقدرُون ما ينبغي عليه أن يدفع من مكوس وخراج .

أنفه فكرة عنه— أثر لن يمحى، كان بمثابة "بذرة" الكراهية التي لا تخبو، والتي راحت تذكو في قلبي— منذ ذلك الحين— ضد المظالم التي كانت تحيق بالشعب الشمس، وضد الطغاة. كان هذا الرجل لا يجرو— برغم يسر حاله— على أن يأكل الخبز الذي كسبه بعرق جبينه، ولم يكن يملك أن يتفادى خرابه إلا بأن ييدي نفس الشقاء الذي كان يسيطر على من حوله... وغادرت داره وأنا موزع بين السخط والتأثر، أرثي لحظ تلك البلدان الجميلة التي لم تسبخ الطبيعة هباتها عليها إلا لتجعلها فريسة لمصلي الضرائب المتوحشين!

هذه هي الذكرى الواضحة الوحيدة التي تبقت لي من كل ما حدث خلال تلك الرحلة. ولست أذكر إلى جوارها سوى أنني حين اقتربت من "ليون" شعرت بميل إلى أن أطيل طريقي كي أسعى إلى مشاهدة ضفاف "الليبيون"، فقد كان بين القصص التي قرأتها مع أبي، قصة لم أنسها، بل كثيرا ما عادت إلى ذاكرتي.. تلك هي "أستريه" (١)!! فسألت عن الطريق إلى "فوريز". وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة أحد الفنادق علمت أن تلك المنطقة كانت ذات موارد طبية للعمال، وأن فيها كثيرا من المساكين، وأن القوم يجيدون صناعة الحديد. فهذا هذا القول من جموح خيالي في الحال؛ إذ أدركت أن من غير الملائم أن أسعى للبحث عن أمثال "ديانا" و"سيلفاندر" (٢) بين قوم من الحدادين... ولابد أن المرأة الطيبة— التي شجعتني على هذا النحو— ظننتي صانع أفعال مرتزق!

ولم يكن ذهابي إلى "ليون" دون ما غرض على الإطلاق، فما إن وصلت إليها حتى سعت إلى جهة "شاسوت" لزبارة الأنسة "دي شاتيليه"، صديقة مدام "دي فاران" التي كانت قد أعطتني رسالة لها عندما ذهبت مع السيد "لوميتر". ومن ثم فقد كان ثمة تعارف بيننا. وأنبأتني الأنسة "دي شاتيليه" بأن صديقها "مدام دي فاران" كانت قد مرت— فعلا— بـ "ليون"، ولكنها تجهل ما إذا كانت قد واصلت رحلتها حتى "بييمونت". بل إنها عند رحيلها لم تكن مستقرة الرأي على ما إذا كانت ستخرج على "سافوا" أم لا.. وأضافت الأنسة أنها على استعداد لأن تكتب في طلب الأنباء، إذا شئت، وأن خير ما ينبغي أن أفعله هو أن أنتظر في "ليون". وتقبلت الاقتراح، ولكنني لم أجرو على أن أقول للأنسة "دي شاتيليه" أنني كنت ملهوفا على الجواب المرتقب، وإن كيسي الصغير الناضب لم يكن يتيح لي الانتظار طويلا! ولم يكن ما صدني عن المصارحة أنها أساءت استقبالي، فهي— على النقيض— قد أبدت لي كثيرا من المحاملات، وعاملتني في مساواة جردتني من الجراة على أن أخفي عنها حالي، وأن أهبط من مكانة الزميل المقبول، إلى مكانة المستجدي التمس!

ومع أنني التزم تسلسل الحوادث التي أوردتها في هذا الكتاب فإنني أعود بالذاكرة إلى رحلة أخرى إلى "ليون" قمت بها في عين تلك الفترة، وإن لم يكن بوسعي أن أحدد زمانها بالضبط، وقد وجدت نفسي خلالها في ضائقة شديدة. وثمة حادث صغير— من العسير أن أروي— لا يتيح لي قط أن أنساه: فقد كنت ذات مساء أجلس في "بيلكور"، بعد عشاء جد خفيف، أفكر في وسيلة أنزع بها نفسي من ضيقي، وإذا برجل له مظهر أولئك المشتغلين بالحري، الذين يدعون في "ليون" باسم "القماشين". ووجه إلي الخطاب، فرددت عليه. ولم نكد نستمر في الحديث نحو ربع ساعة حتى عرض علي بنفس الهدوء الذي كان يلازمه، وبدون أي تغير في لهجته— أن نلهو معا في الريف. وانتظرت أن يبين نوع اللهو، ولكنه شرع— دون أن يتبس بكلمة أخرى— يصور لي مثالا لهذا اللهو (٣). وكنا

(١) قصة عن غرام الرعاة للروائي "أونوريه دورغيه" (١٥٦٨-١٦٢٥). (٢) عاشقان من الآلهة برد ذكرهما في قصة "أستريه". (٣) يبدو أن هذه الرذيلة هي الاستثناء، أو "العادة السرية".

متلاصقين تقريبا، ولم تَشْتَدْ ظلمة الليل بعد بدرجة تحول دون رؤية العمل الذي تهيأ له . ولم يكن له مطمع في شخصي، فما من شيء تَمَّ -على الأقل- عن هذا القصد، كما أن المكان لم يكن ملائما لذلك .. فهو لم يكن يبغني -كما قال لي- سوى أن يلهو، وألهو أنا الآخر، كل منا على حدة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا، حتى إنه لم يَحْطُرْ بباله أنني قد لا أنظر إلى الأمر نظرته! .. ولقد جزعت لهذه الفُحَّة، حتى إنني نهضت مسرعا -دون أن أرد عليه- وهربت بأقصى ما أسعفتني ساقاي، وأنا أتوهم أن ذلك الشقي كان في أثري! وكنت من الاضطراب بحيث إنني بدلا من أن أقصد إلى ماوأي عن طريق "سان دومينيك"، انطلقتُ أعدو بجوار أرصفة الميناء، فلم أقف حتى كنت قد عبرت الجسر الخشبي، وأنا أرتجف وكأنني عائِدُ لتوي بعد ارتكاب جريمة! .. ولقد كنت فريسة لتلك الرذيلة من قبل، ولكن هذا الحادث أبرأني منها زمنا طويلا!

وقد صادفتُ سفي أثناء الرحلة الثانية -مغامرة من نفس النوع تقريبا، ولكنها عرضتني لخطر عظيم . وإليك قصتها: كنت قد أحسست بأن مواردني أوشكت أن تَنْضُبَ، فأخذتُ أقتصد في إنفاق المبلغ الضئيل المتبقي، بحيث أصبحت لا أتناول وجباتي في فندق إلا لاما .. ثم لم أعد أتناول منها شيئا هناك على الإطلاق، إذ كان بوسعي أن أحظى في المشرب، لقاء خمسة أو ستة "سو"، بشع يفوق ما كنت أحظى به في الفندق لقاء ستة وعشرين! .. وإذ لم أعد أتناول طعامي في الفندق، لم أدر كيف كان لي أن أظل أبيتُ هناك، إذ إنني خجلت من أن أشغل حجرة دون أن أتيح لصاحب الفندق مجالا كافيا للريح . وكان الفصل يديع الجو، لكن الحر اشتد في إحدى الأمسيات، فقررت أن أقضي الليل في الميدان العام . وما إن استلقيت على مقعد عريض هناك، حتى مر راهب، قرأني نائما على هذا النحو، وإذ ذاك اقترب فسألني عما إذا لم يكن لي ماوأي، وأفضيت إليه بحالي، فبدأ عليه التائر، وجلس إلى جواري، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان حديثه مناسبا، إذ كان كل ما قاله يُوحِي إلي بخير فكرة عن الناس . ولما رأيته أنستُ إليه قال لي: إنه لم يكن يملك مسكنا فخما واسعا، بل كان مسكنه يتألف من حجرة واحدة، ولكنه ما كان -يقينا- ليدعني أنام في الميدان العام . ولما كان الوقت متأخرا، ولا سبيل إلى البحث عن مأوئ لي، فقد عرض علي نصف سريره في تلك الليلة . وقبلت العرض، وقد خالجنني الأمل في أن أكون قد عثرت على صديق قد يستطيع أن يكون ذا نفع لي . وذهبنا إلى مسكنه، فأشعل ضوءا تراءت حجرتي لي على هديه مناسبة، برغم صغرها، وأخذ مضيغي بكرمني في أدب جم، ثم أخرج من وعاء زجاجي بعض الكريز الذي كان منقوعا في الشراب .. فأكمل كل منا انتنين، ثم أويئنا إلى السرير .

وكانت لهذا الرجل نفس ميول صاحبي اليهودي الذي كان في دار الضيافة بالدير . ولكنه لم يبدأ بمثل وحشية ذاك، إما لأنه أدرك أن بوسعي أن أصل بصوتي إلى الأسعاع، فخشي أن يضطرنني إلى الدفاع عن نفسي .. وإما لأنه كان في الواقع ضَعِيفَ التثبُّت من خططه، فلم يجزؤ على أن يقترح بصراحة تحقيقها، وإنما حاول استئثاره انفعالاتي دون أن يستثير شكوكي! .. ولما كنت قد تعلمت من التجربة الأولى، فإنني أدركت سراحا مقصده، فارتجفت .. ولم أكن أعرف في أي منزل ولا بين أي يَدَين كنت، فخشيت أن أدفع حياتي ثمنا لاية ضجة أحدثتها! .. فتظاهرت بتجاهل ما كان يبغيه مني، ولكنني أهديت استياء شديدا من ملاطفاته، وإذ عَقِدْتُ العزم على ألا أتقبل أي تماد منه فقد تصرفت بحيث اضطرته إلى أن يكبح نفسه . ثم تحدثت إليه بكل ما أوتيت من لطف وحزم ..

ويدون إبداء أي ارتياب في شيء، اعتذرتُ له بتجربتي السابقة عن القلق الذي أبديته نحوه، ورحت أباغ في رواية تلك التجربة بعبارة مُفَعَّمة بالاستبشاح والاشمئزاز، بحيث أثرتُ اشمئزازه -على ما اعتقد- ومن ثم عدل عن غايته القذرة تماما.. فقضينا ما تبقى من الليل في هدوء. بل إنه ذكر لي كثيرا من الأمور الطيبة الرقيقة، فما كان -بالتأكيد- خلوا من الميزات، برغم أنه كان غدا كبيرا!

وفي الصباح لم يشأ السيد الراهب أن يَبْدُو مستاء، فتحدث عن تناول الإفطار، وسأل إحدى ابنتي صاحبة الدار -وكانت جميلة- أن تُحضِرَ لنا فطورا، فقالت له: أن لا وقت لديها لذلك. ووجه الرجاء إلى أختها، فلم تتفضل عليه برد!.. وظللنا ننتظر، ولا أثر لفطورا.. وأخيرا انتقلنا إلى حجرة الأنتستين، فإذا بهما تستقبلان الراهب بنذر ضئيل من التلطف. ولم يكن لي أن أطمع في استقبال أفضل: فإن كبرى الفتاتين دَأَسَتْ -وهي تستدير- طرف قدمي بكعب حذاءها المذهب وكانت في قدمي بشرة (كاللو) شديد الإيلام -اضطرتني من قبل إلى أن أقطع طرف حذائي- أما الفتاة الأخرى فقد جَذَبَتْ من خلفي فجأة مقعدا كنت أهم بالجلوس عليه.. بينما كانت أمهما تُلقِي من النافذة بعض الماء الذي أغرق وجهي!.. وعلاوة على ذلك كن، أينما جلست، يقصصيني للبحث عن شيء ما!.. أبدأ لم ألق في حياتي مثل هذه "الحفاوة"!.. وكنت أرى في نظراتهن المهينة الساحرة سُخْطًا مكتوما، كنت من الغباء بحيث لم أفقهه. وفي دهولي ودهشني، أوشتُ أن إِخَالَ أن الشيطان قد استولى عليهن جميعا، فبدأت أشعر بجزع شديد. وفي تلك الأثناء، أدرك الراهب -الذي كان يتظاهر بأنه لم يكن يرى أو يسمع- أن لا أمل في فُطور، فقرر مبارحة الدار.. وأسرعت خلفه وأنا مغتبط بالإفلات من الشيطانات الثلاث!

وفي أثناء سَيْرنا عرض علي أن نَذْهَبَ فنُفْطِرَ في مقهى. وعلى الرغم من أنني كنت شديد الجوع، إلا أنني لم أقبل هذه الدعوة التي لم يُصِرَ عليها بعد ذلك، ومن ثم افترقنا بعد أن اجتزنا ثَلَاثَةَ شوارع أو أربعة. أما أنا فقد كنت مبتهجا إذ غاب عني مَنْظَرُ كل ما كان يمت إلى تلك الدار اللعينة.. وأما هو فكان مرتاحا -فيما اعتقد- إذ ابتعد بي عنها حتى لا يسهل علي أن أعرفها.. وإذ لم تكن قد عرضت لي من قبل أمثال هاتين المغامرتين، سواء في "باريس" أو سواها، فإنهما لم تخلقا في نفسي أثرا طيبا عن أهل "ليون"، بل ظللت دائما اعتبر هذه المدينة مثالا للمدينة الأوروبية التي يسودها أَفْطَحُ فساد!

ولا تساعد الظروف التي انحدرت إليها في تلك المدينة على الاحتفاظ عنها بذكريات طيبة. ولو كنت قد خُلِفْتُ على غرار سواي: لو أوتيت مثلا موهبة الاقتراض، أو أن أكون مدينا لفندق في لسهل علي أن انتزع نفسي من الحرج ولكن مقدرتي على هذا الأمر كانت تعادل نُفُورِي منه؛ ولكي تتصوروا إلى أي مدى بلغ عجزِي ونفوري بكففي أن تعرفوا أنني بعد أن قضيت حياتي كلها -تقريبا- في الفاقة، وكنت أوشت في كثير من الأحيان على ألا أجد القُوتَ، لم أتلُق يوما من دائن مطالبة بنقود إلا أجبته في اللُحْظَةِ عينها. وما عَرَفْتُ الطريق إلى القروض قط بل كنت دائما أؤثر العَنَاءَ على الديون المالية!

ولقد كان من العذاب حقا أن أهبط إلى درك قضاء الليل في الشارع، الأمر الذي حدث لي مرارا في "ليون"، فلقد أثرتُ أن أستغل الدراهم القليلة التي بقبت لي في دفع ثمن خُبْزِي بدلا من دفع أجر ماوأي.. فقد كان خطرُ النوم في العراء أقل من خطر الموت جوعا!.. والعجيب في الأمر أنني لم أكن -في تلك الظروف القاسية- قلقا ولا حزينا! لم يكن لدي أدنى قلق يصدد المستقبل، بل رُحْتُ أنتظر -مطمئنا- الرد الذي كان لابد أن تتلقاه الآنسة "دي شاتيليه".. وكنت أنام في العَمْرَاءِ،

مستلقيا على الأرض، أو على مقعد عريض، مستغرقا في النعاس وكأنني في سرير من الورود! .. وأذكر -بوجه خاص- أنني أنفقت ليلة ممتعة خارج المدينة، على أرض طريق ممتدة إلى جانب نهر "الرون" أو "الساؤن" -فلست أذكر أي النهرين كان!- وكانت تحف بالجانب الآخر للطريق حدائق أقيمت على ارتفاع فوق مستوى الأرض. وكان الحر قائظا في نهار ذلك اليوم، ولكن الليل كان بديعا، وقد روى الندى الأعشاب الظامئة.. ولم تكن ثمة ريح إذ كانت الليلة ساكنة، وكان النسيم رقيقا، خلوا من الرطوبة.. وقد خلفت الشمس وراءها -بعد الغروب- أبخرة حمراء في السماء، أحال أنعكاسها الماء إلى لون الورد! .. وكانت أشجار الحدائق العالية عامرة بالبلابل التي راحت تتجاوب بالشدو، وأخذت أتمشى في نشوة مسلما حواسي وفؤادي لهذه المتعة الضافية، فلم تداخني سوى حسرة -تمثلت في زفرة- لأنني كنت مضطرا إلى استمرار هذه المتعة وحدي.. واصلت السير إلى ساعة متأخرة من الليل، وأنا مستغرق في تأملاتي الناعمة، دون أن أظن إلى أن التعب قد أدركني.. ولكنني انتهيت إلى ذلك أخيرا، فالقيت بنفسي -في اغتباط- على قاعدة "كوة" أو باب زائف نحت في جدار سياج الحدائق، وقد تعانقت الأفنان مؤلفة شبه "سقف" فوق سريري.. كما جثم بلبل فوق رأسي مباشرة، وراح يغردي لي.. حتى نمت.

وكان نعاسي لطيفا، كما كان استيقاظي اللطيف.. فقد كان الصباح رائعا، ووقعت عيناوي -حين فتحتهما- على الماء والخضرة، وريف بديع!.. ونهضت من مرقدي، فتمطيت، وإذا شعرت بالجوع انطلقت طروبا صوب المدينة، وقد عقدت العزم على أن أنفق على فطوري القطعتين الفضييتين اللتين بقيتا من نقودي!.. وكم كنت مبتهجا، حتى إنني أخذت أردد إحدى أغاني "باتيستات" التي كنت أحفظها عن ظهر قلب، كان عنوانها: "حمام ثوميري" .. ألا فلتبارك السماء "باتيستات" الطبيب وأغنيته، فقد أتاحا لي فطورا أفضل مما كنت أُنْتَوِي، وغداء أكثر إمتاعا -وهما وجبتان لم تكونا في الحسينان قط!- فبينما كنت سائرا أغني -على خير حال- سمعت شخصا خلفي، فالتفت، وإذا بأحد "الأنطونيين" يتبعني، وقد لاح أنه كان ينصت إلى غنائي في طرب. وبادرني بالحديث، فحياتي، وسألني عما إذا كنت على إلمام بالموسيقى، فاجبت: "بعض الشيء"، بلهجة توحى إليه بأنني كنت أعرف الكثير.. وتابع سؤالي، فرويت له شطرا من قصة حياتي، وإذا ذاك سألني عما إذا لم يكن قد سبق لي أن نسخت "نوتات" موسيقية، فقلت له: "كثيرا" -وكان هذا صدقا، إذ كان معظم ما تعلمته من الموسيقى عن طريق النسخ- فقال: "حسنا! تعال معي، ففي وسعي أن أشغلك بضعة أيام، لن يعوزك خلالها شيء.. على شريطة ألا تغادر الحجرة قط!.. ووافقت عن طيب خاطر، فتيته!

وكان هذا الأنطواني يدعى السيد "روليشون"، وكان يحب الموسيقى ويحذقها ويغني في الحفلات الصغيرة التي كان يقيمها مع أصدقائه. ولم يكن في هذا سوى كل ما هو بريء وشريف، ولكن هوايته كانت تنحدر -كما اتضح لي- إلى تهوؤس كان مضطرا إلى التستر عليه بعض الشيء!.. وقادني إلى حجرة صغيرة نزلت بها، فوجدت فيها كثيرا من القطع الموسيقية التي نقلها هو، كما أعطاني سواها لكي أنقلها، وكانت من بينها الأغنية التي كنت أرددها، والتي كان مُزِمعا أن يغنيها بعد أيام.. وقضيت وقت الطعام -فما كنت في أي يوم من أيام حياتي أكثر شهية ولا أفضل غداء مما كنت خلال تلك الأيام!- وكان الرجل يحمل الطعام إلي بنفسه من المطبخ، ولا بد أن طعام القوم كان طيبا شهيا، إذا صح أن ما كان يقدم لي كان من طعامهم العادي!.. ولقد كنت طيلة عمري لا أجد في الأكل متعة، وجدير بي أن أعترف كذلك بأن هذه الوجبات جاءت في الوقت المناسب تماما، إذ

إنني كنت جافا كالخشب. ورحت أعمل بنفس الإقبال الذي كنت أكلُّ به، وهو إقبال لم يكن بالقليل!.. على أنني، في الواقع، لم أكن دقيقا في عملي بقدر ما كنت سريعا. وقد حدث بعد ذلك ببضعة أيام أن قابلني السيد "روليشون" في الطريق فأتباني بأن منسوخاتي جعلت العزف الموسيقي مستحيلا، لأنها وجدت مليئة بالشطط والتكرار والتحريف. ومن الواجب أن أعترف بأنني اخترت المهنة الوحيدة التي كنت أقل الناس استعدادا لها، لا لأن علاماتي الموسيقية لم تكن جميلة أو لأنني لم أكن دقيقا في النقل، وإنما لأن الملل من عمل جد طويل كان يشتت بالي إلى درجة أنني كنت أقضي في المحو وقتا أطول مما كنت أقضي في الكتابة، وإلى درجة أن منسوخاتي لم تكن صالحة للتنفيذ - بالعزف - ما لم أبدأ عناية فائقة بمراجعتها.. وهكذا أسأت إنجاز عملي، في الوقت الذي كنت أسعى فيه لأدائه على خير وجه.. وبدلا من أن أسرع إذا بي أتخطئ! على أن هذا لم يمنع السيد "روليشون" من أن يُحسِّن معاملتي إلى النهاية، ومن أن يمنحني كذلك - عند انصرافي - دينارا لم أكن أستحقه البتة، وإن كان قد أنقذني من ضائقتي.. وإن هي إلا أيام قلائل، حتى تلقيت نبأ من "ماما" - التي كانت في "شامبيري" - مصحوبا بنقود، كي ألق بها، الأمر الذي أسرعت إلى تحقيقه مسرورا. ومنذ ذلك الحين حتى اليوم كثيرا ما أوشكت موارد مالي على النفاد، ولكنها لم تذهب في نُصوبها قط إلى الدرجة التي اضطررت معها إلى الصوم. وإني لأذكر تلك الفترة من حياتي بقلب شديد الشعور بالعناية الإلهية، فلقد كانت تلك آخر مرة في حياتي أشعر فيها بالتعاسة والجوع!

ولقد مكثت في "ليون" سبعة أيام أو ثمانية، في انتظار بعض مهام كانت "ماما" قد عهدت بها إلى الآنسة "دي شاتيليه" وفي أثناء هذه الفترة كنت أكثر مشابة على زيارة الآنسة من ذي قبل، فرحت أنعم بالحديث إليها عن صديقتها، ولم أعد مثقل البال إلا بتلك الأفكار القاسية التي كانت تعاودني عن مركزي، وإلا بمحاولة إخفاء هذا المركز. ولم تكن الآنسة "دي شاتيليه" بالشابة، ولا بالجميلة، ولكنها لم تكن تفتقر إلى الملاحظة، وكانت رقيقة الأعطاف، ودودا، كما كان ذكاؤها يُضفي بهاء على هذا الود. ولقد أوتيت ذلك الشغف بالتأمل الخلقي الذي يقود إلى دراسة الشخصيات، وإليها أدين بأول حافز أصلي دفعني إلى هذا الاتجاه. وكانت مشغوفة بقصص "ليسا"، لا سيما قصة "جسيل بلا" التي حَدَّثتني عنها وأعارتنيها، فقرأتها في استمتاع، ولكنني لم أكن قد نضجت بعد بحيث أفقه هذا النوع من القراءة، إذ كنت أنشدُ القصص الخافلة بالاحاسيس الرفيعة. وهكذا قضيت وقتي إلى جوار مدفأة الآنسة "دي شاتيليه" في استمتاع وانتفاع، ومن المحقق أن الاحاديث الطريفة ذات الطابع الفكري - التي تصدر عن امرأة موهوبة - أصلح لتكوين الشاب من كل ما في الكتب من فلسفة مُتَحَدِّلة!.. ولقد تعرفت - بين المقيمين في "شاسوت" وأصدقائهم - إلى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، تدعى الآنسة "سير"، لم أبدأ لها إذ ذاك اهتماما عظيما، ولكنني شَغَفْتُ بها حبا بعد ذلك بثمانين أو تسع سنوات.. وكنت على حق في تدلّهي بها، فقد كانت فتاة ساحرة (١).

وفي غمرة انشغالي بتوقع رؤية "ماما" الطيبة - عما قريب - أهملت أوهامي قليلا، إذ عوضتني الهناء الحقيقية التي كانت في انتظاري، عن السعي وراء الخيالات.. فإني لم أعثر على "ماما" مرة أخرى فحسب، وإنما وجدت في قربها، وبوساطتها، ظرفا موافيا، إذ أشارت في رسالتها إلى أنها عثرت لي على عمل كانت تأمل أن يروِّق لي، كما أنه لم يكن ليقصيني عنها. ولقد أرهقت حدسي في التكهن بنوع ذلك العمل، بيد أنه كان لا بد للمرء من أن يصبح نبيا حتى يُصيب الحدس!.. وكان لدي من المال ما يكفي لأن أقوم برحلة مريحة. وقد رغبت الآنسة "دي شاتيليه" في أن استاجر

جوادا، ولكنني لم أكن أملك أن أوافقها، وكنت على حق. ولولا ذلك لفقدت متعة آخر رحلة على الأقدام في حياتي - فليست أستطيع أن أصف النزاهات التي كثيرا ما كنت أقوم بها في الضواحي المجاورة أثناء إقامتي في "موتبير"، بأنها رحلات على الأقدام!

ومن الأمور العجيبة أن خيالي لا يُحلقُ قط راضيا إلا عندما تكون حالي غير مرضية، كما أنه - من ناحية أخرى - يغدو أقل ما يكون ابتساما عندما يبتسم كل ما حولي! ... فإن رأسي النكد لا يستطيع أن يتكيف مع الأشياء، فهو لا يقنع بتجميل الأمور، وإنما يَصُبُّ إلى الخلق والابتداع. .. كما أن الأشياء الحقيقية لا تبدو له إلا كما هي في الواقع، فهو إنما يجيدُ تَنَمُّقَ الأشياء الخيالية فحسب. وعلى هذا القياس، لا بد لي من أن أكون في الشتاء، إذا شئت أن أصور الربيع! وإذا رغبت في وصف جمال مناظر الطبيعة، وجب أن أكون داخل الجدران. .. ولقد قلت مائة مرة: إنه لو كان قد قدر لي يوما أن أُلْقَى في غَيَاهِبِ سجن "الباستيل" لكنت قد رسمت أبداع صورة للحرية!

وعندما بارحت "ليون" لم أكن أرى أمامي سوى مستقبل باسم. .. ولقد كنت سعيدا، وكان لي الحق في ذلك، بعد أن حرمت هذه السعادة وأنا أغادر "باريس". .. ومع ذلك فإنني لم أنعم خلال هذه الرحلة بتلك الخواطر البهيجة التي كانت ترافقني في الرحلة الأخرى. كان قلبي جدلاً، ولكن هذا كان غاية ما في الأمر. ورحت أقترب في اشتياق نحو تلك الصديقة الرائعة التي كنت أسمى لرؤيتها من جديد، وأتذوق مقدما حلالة العيش بالقرب منها، ولكن في غير نشوة سكري، إذ كنت دواما أتوقع ذلك، فكأنما لم يكن فيما أنا مقبل عليه شيء جديد! ..

ولقد خامرني القلق بصدد ما كنت مقدما على عمله، وكأنما كان في ذلك ما يدعو إلى الإشفاق. .. وكانت أفكارني ساكنة وادعة، وليست "سماوية"، تُسَلِّبُ الروح والعقل. وكانت الأشياء المادية تجتذب نظري، فكنت أولي مناظر الطبيعة اهتمامي. .. كنت لاحظ الأشجار والدور والجداول، وأحدث نفسي عند مُلتَقِيَاتِ الطرق، فقد كنت في خوف من أن أضل، ولكنني لم أضل على الإطلاق. .. وبإيجاز: لم أعد أحلق بين السحب، وإنما كنت دائما حيث كنت. .. فلم أبعد قط عن الواقع!

وأنا في الحديث عن رحلاتي، تماما كما أنا في أدائها، لا أتعجل بلوغ غايتي. .. وهكذا كان قلبي يخفق طربا وأنا أقترب من "ماما" العزيزة، ولكنني لم أغد السَّيْرَ إليها، فإنني أحب السير كما يروق لي، ولا أتوقف إلا حين يحلو لي. .. فحياة التَّجَوُّلِ هي التي تلائمني، والسفر على الأقدام، في وقت بديع، وفي بلد جميل، دون ما تعجل، ونحو غاية مرغوبة، هو أكثر أساليب العيش طراً ملاءمة لذوقي! وعدا ذلك، فإن ما أعنيه "بالبلد الجميل" أصبح معروفا: فما من بلاد مبسوطة الأديم بدت لعيني جميلة، مهما يكن جمالها. .. بل لا بد لي من سيول، وصخور، وأشجار صنوبر، وغابات سوداء، وجبال، وطرق مُنْحَدرة أو أبطها، ومهاوي من حولي تشير رعيي! ولقد أتيت لي هذه المتعة، واستمراتها في أروع سحرها، وأنا أقترب من "شامبير" .. فغير بعيد من جبل شديد الانحدار - يسمى "بادي لاشيل" - كان ثمة نهج يجري تحت طريق واسعة منحوتة في الصخر، عند البقعة المسماة "شامي". وكان نهجاً قصيرا، يندفع جامعا عبر مهاو سحيقة بدا أنه حفرها خلال آلاف السنين. .. وكان ثمة سياج على حافة الطريق لتفادي التكيبات، مما مكنتني من أن أطل على الأعماق، وأن أحظى بالدوار وفق هواي! .. ذلك لأن من الأمور الطريفة في مزاجي أنني أميل إلى الأماكن السحيقة الانخفاض، التي يدور لها رأسي، وأنني أحب هذا الدوار كثيرا ما دمت مطمئنا إلى

سلامتي .. ومن ثم انحنيت في اطمئنان فوق السياج، ومددت أنفي في الفضاء، وظللت هكذا ساعات طويلة، أتأمل بين وقت وآخر- الزيد والماء الأزرق الذي كنت أسمع هديره وسط صراخ الغريان وصيحات الطيور الجارحة التي كانت تحلق من صخرة إلى صخرة، ومن دُغْل إلى دُغْل على بعد مائة فرسخ تحتي .. وفي البقاع التي كانت الأرض تنبسط عندها في انحدار شديد، حيث لم تكن الأشجار من الكشافة بحيث تحول دون مروق الحصى، رحت أجمع أكبر ما استطعت حمله من الأحجار، ووضعتها على السياج، ثم أخذت اطوح بها واحدة بعد أخرى، مستعذبا رؤيتها وهي تترق، ثم ترتطم فتتهشم إلى ألف قطعة، قبل أن تبلغ قاع الهاوية!

وإذا ازددت قربا من "شاميري"، رأيت منظرا مشابها ولكنه من نوع مخالف: كانت الطريق تمتد عند أقدام صخرة كانت أبدع مسقط مائي شهدته في حياتي. وكان الجبل منحدرًا إلى درجة تجعل الماء يندفع في الفضاء، ثم يهبط بعيدا في قوس كبير، بحيث يستطيع المرء أن يمر بين الماء والصخرة دون أن يبتل أحيانا! ولكن كان من السهل أن يُخدع الإنسان إذا لم يكن حذرا في حسابه. ذلك لأن الماء -عند انحداره من هذا الارتفاع الشاهق- ينشق ويسقط في رشاش .. فإذا ما اقترب المرء من هذه السحابة من الرذاذ، اخضل بالماء في لحظة، دون أن يفطن سفي بادئ الأمر- إلى أنه قد ابتل!

ووصلت أخيرا .. ورأيتها من جديد! .. ولم تكن وحيدة، فقد كان المدير العام للإقليم لديها في اللحظة التي دخلت فيها عليها. وبدون أن أتكلم، تناولت يدي وقدمتني إليه بذلك اللطف الذي كان يفتح لها كل القلوب: "ها هو يا سيدي هذا الشاب المسكين، فتكرم برعايته طالما استحق الرعاية، ولن أشعر بعد ذلك بقلق من أجله، بقية حياته! .. ثم وجهت إلي الخطاب قائلة: "إنك الآن يا بني في خدمة الملك .. أشكر السيد المدير، إذ هيأ لك أسباب العيش! .. وفتحت عيني الواسعتين دون أن أقول شيئا، ودون أن أدري فيم ينبغي أن أفكر إذ إن طموحي المطرد النمو أدار رأسي، فتصورت نفسي للتو مديرا صغيرا! .. ومن المؤكد أن حظي لم يرق إلى الثالث الذي أوحى به إلى خيالي هذه البداية، بيد أنه كان يكفيني إذ ذاك أن أعيش فحسب، وقد كان مادبر لي أكثر مما رجوت .. وهاكم جليلة الأمر:

خطر للملك "فيكتور اماديه" -على ضوء الحروب السابقة، وحالة الميراث الذي آل إليه عن آباءه- أن هذا الميراث لن يلبث أن يفلت منه يوما، ومن ثم فقد سعى إلى استنزاف موارده. ولما كان قد قرر -قبل ذلك بسنوات قلائل- أن يخضع الاشراف لضريبة العشور، فإنه أمر بإجراء تقدير عام لجميع الأراضي، لتعيين مساحتها وقيمتها، ليتسنى بعد ذلك فرض الضريبة العقارية، وإعادة تنسيقها بمزيد من المساواة. وكان هذا العمل قد بدأ في عهد الأب، واستؤنف في عهد الابن .. واستخدم لهذه المهمة مائتان أو ثلاثمائة شخص ممن يتولون مسح الأرض -وكانوا يدعون مهندسين- ومن الكتاب الذين أطلق عليهم لقب السكرتيرين. وقد حصلت لي "هاما" على منصب بين هؤلاء الآخرين. ومع أن المنصب لم يكن عظيم المرد إلا أنه كان يدر ما يكفي للعيش عن سعة في تلك المنطقة. وكان السيئ في الأمر أن هذا التعمين كان مؤقتا، ولكنه جعلني في وضع يمكنني من البحث عن منصب أفضل وارتياب الحصول عليه. وكان من بصيرة "هاما" أن نعمدت الظفر لي برعاية خاصة من المدير، حتى أتمكن من الانتقال إلى منصب أرسخ مكانة، إذا ما حانت نهاية عملي في المنصب الأول.

ودخلت الخدمة عقب وصولي بأيام قلائل، ولم يكن في هذا العمل شيء من العناء، فسرعان ما خبرته. وهكذا قدر لي للمرة الأولى -بعد أربع أو خمس سنوات قضيتها في التجوال والطيش،

والعذاب، منذ بارحت "جنيف" - أن أبداً في كسب عيشي بعمل مشرفاً
ولقد تبدو هذه التفصيلات المسهبة عن باكورة صباي، أمورا صبيانية .. ولكنني غير مُستأنٍ لذلك،
فعلى الرغم من أنني ولدت رجلاً - لاعتبارات معينة - إلا أنني ظلت طفلاً لأمس طويل، ولا أزال
كذلك لاعتبارات كثيرة أخرى .. وأنا لم أعد بأن أقدم للرأي العام شخصية عظيمة، وإنما وعدت بأن
أصف تلك الشخصية التي أوتيتها. ولابد - لكي تعرفوني في كبري - من أن تلمسوا إلماً كافياً
بصباي، ذلك لأن الأشياء المادية - بوجه عام - أقل انطباعاً في نفسي من ذكرياتها، كما أن جميع
أفكاري تتخذ شكل صور خيالية .. في حين أن الأحداث الأولى التي طبعت نفسها على صفحة
ذهني ظلت باقية، ولم تملك الأحداث التي انطبعت بعدها سوى أن تندمج فيها، بدلاً من أن تطفئ
عليها! .. وهناك مجموعة متعاقبة من العواطف والآراء التي تطفئ على كل ما يأتي بعدها من عواطف
وأفكار، ولابد من التعرف على الأولى لكي يتسنى الحكم على الأخيرة. وقد اعتدت - في جميع
الاحوال - أن أعنى بالأسباب الأولى حتى يكون ترابط النتائج وتسلسلها محسوساً .. وإني لأرجو أن
أستطيع - إلى حد ما - أن أعرض نفسي شفافة أمام عيني القارئ، ومن أجل هذا أسعى إلى أن أطلع
عليها تحت جميع الأضواء، وأن أعرضها من جميع النواحي، وأن أستيقن من أنه لن تغيب عن
ملاحظته أية حركة من حركاتها، حتى يكون قادراً في النهاية على أن يحكم بنفسه على المبادئ التي
انتهجتها.

وإذا كنت أُلقي على نفسي مسؤولية النتيجة، وأقول للقارئ: "هذه هي شخصيتي"، فقد يخيل
إليه أنني إذا لم أكن أخدعه هو فإنني - على الأقل - أخدع نفسي. أما عندما أكتفي بتفصيل كل ما
جرى لي، وكل ما فعلت، وكل ما خطر ببالي، وكل ما خالطني من مشاعر فإنني لا أستطيع أن أغرر به
- بمحض رغبتني على الأقل - بل إنني لو أردت لما وجدت الأمر سهلاً .. ومن ثم فإنني أترك له عبء
تجميع هذه العناصر، وتقرير نوع الخلق الذي تؤلفه، إذ يجب أن تكون النتيجة من صنعه هو، حتى
إذا أخطأ بعد ذلك، كان الخطأ كله من ذنبه. على أنه لا يكفي - من أجل هذه الغاية - أن تكون
قصصي صادقة، وإنما يجب كذلك أن تكون دقيقة. وليس لي أن أحكم على أهمية الوقائع، وإنما
بقتضيني الواجب أن أرويها جميعاً، ثم أترك له مهمة فرزها. وهذا ما حرصت عليه - حتى الآن -
بكل ما أوتيت من شجاعة، ولن أحيده عنه فيما يلي. غير أن ذكريات أوسط العمر، تكون دائماً أقل
تألقاً من ذكريات باكورة الصبا. ولقد بدأت بأن اقتبست عن هذه أفضل قسط استطعت اقتباسه. فإذا
وانتني الذكريات الأخرى بنفس الوضوح فإن القراء الذين ملوا الأولى، ربما ازدادوا مللاً .. أما أنا
ببالذات - فلن أكون مستأن من عملي، وليس لدي ما أخشاه في المشروع سوى أمر واحد: وليس
هذا الأمر هو الإسراف في القول، أو سرد الأكاذيب، وإنما هو ألا أقول كل شيء، أو أن أخفي
الحقائق.

الكروامة الخامسة

(من سنة ١٧٣٢ إلى ١٧٣٦)

كان ذلك في سنة ١٧٣٢ - على ما يَبْدُو لي - إذ وصلت إلى "شامبيري"، كما ذكرت، وبدأت عملي في مَسَاحِ الأرض، في خدمة الملك. وكنت قد تجاوزت عامي العشرين، ودنوت من الحادي والعشرين. وكنت - من الناحية العقلية - وافي التكوين بالنسبة لسني، ولكن المقدرة على الحكم على الأمور لم تكن متوفرة لي، بل كنت في مَسِيس الحاجة إلى الأيدي التي وَقَعْتُ بينها، لاتعلم كيف أتصرف؛ ذلك لأن سنوات التجارب القليلة لم تَقَوَّ على أن تُبَغِّني تماما من خيالاتي الشاعرية. وعلى الرغم من كل البأساء التي عانيتُها فإنني لم أعرف عن الدنيا والناس إلا القليل، وكانني لم أَدْفَع ثمن المعرفة!

واقسمت في داري، - أعني في دار "ماما" - ولكنني لم استرد قط الغرفة التي كانت لي في "أنيسي"، فلم تعد ثمة حديقة، ولا جدول، ولا مناظر... بل كان البيت الذي شَغَلته مُعْتَمَماً كثيباً، وكانت غرفتي أكثر غرف البيت ظُلْمة وكآبة: جدار بدلا من مناظر الطبيعة، وحارة مسدودة بدلا من الشارع، وقليل من الهواء، ونُزْر من ضوء النهار، ومساحة ضئيلة، وصراصير، وفتران، وأخشاب بالية تكسو الأرض... كل هذه ما كانت لتجمل من الغرفة سكننا بهيجا، ولكنني كنت في دارها - دار "ماما" - وبالقرب منها... ولما كنت بلا انقطاع في مكتبي أو في غرفتها فإنني لم أنتبه كثيرا إلى بَشَاعَةِ غرفتي، إذ لم يكن لدي وقت للتفكير فيها. ولسوف يبدو عجيبا أن نقيم "ماما" في "شامبيري" خَصِيصاً لتسكن هذه الدار الوضيعة، ولكنها كانت حيلة ماهرة من جانبها، ينبغي ألا أغفل ذكرها: فلقد واجهتُ فكرة الرحيل إلى "تورين" وهي كارهة، إذ كانت تشعر - بعد الثورات التي كانت حديقة العهد، وبعد القلاقل التي كانت لا تزال تَلُمُ بالبلاط - أن الوقت لم يكن ملائماً لوجودها هناك. في حين أن شؤونها كانت تتطلب ظُهُورَها، إذ كانت تخشى أن تغدو منسية أو ضحية للوَشَائَات، لاسيما أنها كانت تعلم أن الكونت "دي سان لوران" - المدير العام للمالية - لم يكن يَحِيلُ إليها. وكانت له في "شامبيري" دار عتيقة، رديئة البنيان، وفي موقع بلغ من سوءه أنها كانت تظل خاوية باستمرار، فاستأجرتها "ماما" واستقرتُ فيها... وكان هذا التصرف أكثر توفيقا من الرحيل إلى "تورين"، فلم يَقْطَعْ معاشها قط، بل أصبح الكونت "دي سان لوران" - منذ ذلك الحين - من أصدقائها!

والْقَيْتُ إدارة بيتها تَقَرُّبُ ما كانت عليه من قبل، كما ظل وصيفها الوفي "كلود آنيه" معها دائما... وهو - كما أظنني ذكرت - فلاح من "موقورو"، اعتاد في طفولته أن يجمع الأعشاب في منطقة "جورا" لصناعة الشاي السويسري. فالحقته "ماما" بخدمتها من أجل عقاقيرها، إذ وَجَدْتُ من الأصوب والأوفر أن يكون خادمها خبيرا بالأعشاب... وكان مشغولا كل الشَّغَف بدراسة النباتات، فَحَبِّذْتُ هذا الميل إلى درجة أن أصبح الرجل خبيرا نباتيا بحق، ولولا أنه مات في شبابه لكان من المحتمل أن يُذَاع اسمه في هذا العلم، بقدر ما يستحق أن يُحْلَدَ اسمه بين الشرفاء الأتباء. ولما كان جادا، بل ووقورا، كما أنني كنت أصغره فإنه غدا مني بمشابة المرئي، مما عصمني من كثير من

الحماقات، إذ كان ذا أثر على نفسي، فلم أكن أجسرُ على أن أنسى نفسي في حضرته! وكان له عين الأثر على نفس سيده التي عرفت حسن إدراكه، واستقامته، وولاءه الذي لا يتزعزع نحوها، فجازته خير الجزاء.. ولقد كان "كلود أنيه" - بلا مراء- رجلاً نادراً، بل إنه الوحيد الذي رأيته من نوعه على الإطلاق! كان متشداً، متزناً، مفكراً، حكيماً في تصرفاته، هادئاً في طباعه، موجزاً مفيداً في أقواله. وكان في عواطفه عنف لم يكن يدعه يظهر البتة.. عنف كان يَنْهَشُ أحشائه، ولكنه لم يدفعه أبداً إلى أن يرتكب في حياته سوى حماقة واحدة، ولكنها كانت رهيبة.. تلك هي أنه سَمَّ نفسه..! وقد وقع هذا الحادث المحزن عقب وصولي بقليل، وكان خليفاً بأن يطلعني على مدى المودة الوثيقة التي كانت بين هذا الفتى وسيدته، إذ إنني ما كنت لأحسها إطلاقاً لو لم تُثَبِّتْني بها هي بنفسها..! ويقينا أنه إذا كان الولاء، والتحمس، والوفاء، جذيراً بجزء من نوع تلك المودة، فقد كان "أنيه" أهلاً لذلك، والذي يثبت أنه كان خليفاً به أنه لم يسئ استغلال ثقة سيده أبداً!.. وكان نادراً ما يتشادان، ودائماً تنتهي مشاداتهما على خير، على أنه قدر لإحداها أن تنتهي بسوء، فلقد قالت السيدة لـ"أنيه" -في غضبها- كلمة مثيرة لم يَقُْ على احتمالها، وفي تأثره وأساه، وقعت يده على زجاجة بها خلاصة دهن الأفيون، فتجرع محتوياتها، ثم استلقى في هدوء، مطمئناً إلى أنه لن يستيقظ قط!.. ولحسن الحظ أن مدام "دي فاران" راحت تجوسُ خلال دارها -وهي قلقة، منفعلة- فعثرت على الزجاجة الفارغة، وحَدَسَتْ الباقي، فأسرعت لنجدته، وهي تطلق صرخات اجتذبتني إليها.. فاعترفت لي بكل شيء وناشدتني المعونة، ونجحنا بعد كثير من العناء في حمله على تَقْيُّ الأفيون. وإذا شهدت هذا المنظر، عجبت لغياثي إذ لم يُساورني قط أَثَقُ ريب في الصلات التي أنبأتني هي بها!.. بيد أن "كلود أنيه" كان من التكتّم بحيث إن من يفوقوني في جلاء البصيرة كانوا خليقين بأن يفتروا بمظهره! وكان الصِّلحُ بينهما بعد ذلك من نوع جعلني أثائر -أنا نفسي- أشد التاثر. ومنذ ذلك الحين أَصَفْتُ إلى التقدير احتراماً نحوه، وأصبحت تلميذاً له، إلى حد ما.. الأمر الذي لم أجد فيه عيباً!



على أنني لم أُنْج من الألم إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع "هاما" في مودة تفوق مودتي كثيراً. بل إنني فكرت يوماً في أن أشتني لنفسي مثل هذه المكائنة، غير أنه كان من الشاق على نفسي أن أراها تحتلّ بشخص آخر!.. وكان هذا أمراً طبيعياً، ومع ذلك فإنني بدلاً من أن أشعر بِنُفُور من ذلك الذي سلبني إياها، وجدت أن وفائي للسيدة قد امتد -في الواقع- إليه هو الآخر! فقد كنت راغباً -قبل كل شيء- في سعادتها، ومادام هو ضرورياً لهذه السعادة، فقد ارتضيت أن يكون هو الآخر سعيداً. أما هو، فإنه "غاص" تماماً في وِجْهَاتِ نظر مولاته، واستشعر صداقة صادقة نحو الصديق الذي اصطفته. وبدون أن يفرض عليّ السلطة التي كان مركزه يخوله إياها، فإنه مارس -بطريقة طبيعية- تلك السُلْطَة التي كان ذكاؤه الفائق يتيحها له على ذكائي، بحيث لم أجرؤ البتة على عمل ما قد يبدو استهجاناً له، كما أنه لم يكن يستهجن سوى ما هو سيئ. وهكذا عشنا في وحدة أسعدتنا جميعاً، ولم يكن ليقوى على تقويضها سوى الموت!.. ومن أدلة روعة شخصية تلك المرأة الحبيبة، أن كل الذين أحبوا كانوا يتحابون فيما بينهم.. فكانت الغيرة، بل والتنافس، يَخْضَعَان للشعور المسيطر الذي كانت توحى به السيدة، وهكذا لم أر قط واحداً ممن كانوا يحيطون بها يُضْمِرُ

شرا لآخر... فليكن أولئك الذين يقرءون كتابي لحظة عن مطالعتهم، عند هذا المديح، فإذا وجدوا -وهم يتأملونه- امرأة أخرى يستطيعون أن يقولوا عنها الشيء ذاته فليتملقوا بها ليضمّنوا الطمانينة في حياتهم... ولو كانت -عدا ذلك- آخر الغايات!

وهنا تبدأ -منذ وصولي إلى "شامبيري"، حتى رحيلي إلى "باريس" في سنة ١٧٤١- فترة مداها ثماني أو تسع سنوات، ساروي خلالها من الحوادث التي تستحق الرواية عددا قليلا؛ لأن حياتي كانت جد بسيطة وبهيجة. وكانت رتأبها هذه هي عين ما كانت تمس إليه حاجتي لكي أستكمل تكوين شخصيتي التي حالت القلاقل المستمرة دون استقرارها. وفي هذه الفترة الغالية، تماسكت تربيتي - المتنوعة، غير المتابعة - فجعلت مني الشخص الذي لم أكف بعد ذلك عن أن أكونه في غمار العواصف التي كانت تتربص بي، ولقد كان هذا التطور غير محسوس، كما كان بطيئا مصحوبا ببضعة أحداث جديرة بالذكر... بل جديرة بالمراعاة والتنمية!

ففي بداية الأمر لم أشغل بشيء سوى عملي، إذ إن قيود المكتب لم تكن تدعني أفكر في شيء آخر. وكان الوقت القليل الذي أحرره فيه ينقضي إلى جوار "ماما" الطيبة. ولما لم تكن لدي فسحة للقراءة، فإن شغفي بالاطلاع لم يعد يملكني. حتى إذا أصبحت واجباتي نوعا من العادة المتواترة قل انشغال بالي بها، فعادوني التملل والقلق، وأصبحت القراءة ضرورة -من جديد- وكأنما كان هذا الميل يحتدم كلما عز إرضاءه، فكان خليقا بأن يغدو ولعا جُنُونيا - كما حدث عندما كنت في كنف معلمي (١) - لو لم تتدخل بعض نوازع أخرى فتحول اهتمامي عنه.

ومع أن عملياتنا لم تكن تتطلب تعمقا في الحساب إلا أنها كانت تحتاج إلى قدر منه كان كافيا لأن يُزَجَّجني في بعض الأحيان. ولكي أتغلب على هذه العقبة. ابتعت بعض كتب في علم الحساب، واستوعبتها جيدا، إذ كنت أستاذكها وحدي. وقد تبينت أن الحساب التطبيقي أوسع نطاقا مما يتصور المرء، إذا ما كانت الدقة منشودة. فثمة عمليات بالغة الطول، كنت أرى المهندسين يخطئون أحيانا في سياقها. بيد أن التفكير المقتصر بالمران يتيح موانع جليلة، فلا يلبث المرء أن يهتدي إلى أساليب مُقْتَضِبَة يثير ابتكارها اعتداده بنفسه، كما أن دقتها تُرضي العقل، وتضفي سحرا على عمل لا ينطوي على حمد ولا عرفان. ولقد تعمقت في هذا الباب تعمقا موفقا إلى درجة أن أية معضلة قابلة لأن تحل بالأرقام وحدها لم تكن تُعْجِبني!.. حتى إنني الآن، وقد أخذ كل ما عرفته ينمحي من ذاكرتي يوما بعد يوم، أجد أن هذه المعرفة التي اكتسبتها لانتزال باقية -إلى حد ما- بعد انصرافي عنها ثلاثين عاما!.. ولقد حدث منذ أيام، وفي خلال رحلة قمت بها إلى "دافينجورت"، أن عاوت أبناء مضيقي في درس الحساب، فكان سروري يفوق التصور، إذ حللت -دون ما خطأ- مسألة من أشد المسائل تعقدا. وكان يخيل إلي وأنا أسجل الأرقام أنني في "شامبيري" من جديد، وفي أيام شبابي الهائنة. فلقد ارتدت إلي تلك الأيام، على بعد الشقة بيني وبينها!

كذلك ولد تلوين خرائط مهندسينا الميل إلى الرسم في نفسي، فابتعت بعض الألوان، وشرعت أرسم الزهور والمناظر الطبيعية. وبما يُرْتَى له أنني اكتشفت أنني لم أوت سوى موهبة طفيفة في هذا الفن الذي كنت أميل إليه بكل جوارحي!.. وكنت خَلِيقاً بأن أقضي -بين أقلامي وفرشي- أشهرها بأكملها، دون أن أبرح داري. وإذا أصبحت هذه الهواية تستأثر باهتمامي إلى درجة كبيرة، فقد رُؤي انتزاعي من سيطرتها. وهكذا الحال دائما بالنسبة لكل الميول التي أشرع في الانصراف إليها بكل نفسي، إذ إنها تَتَضَاعَفُ وتستحيل إلى شغف، فسرعان ما لا أعود أرى في الدنيا سوى المتعة التي

استشعرها في مزاولتها . ولم تبرئني السن من هذا العيب ، بل إنه لم يتضاءل مع مرور السنين ، حتى إنني لأراني -وأنا أكتب هذا الآن- كمخرف كهل يهيم بدراسة أخرى لا نفع من ورائها ، ولا يفقه فيها شيئا . . . دراسة يضطر أولئك الذين كرسوا لها حياتهم إبان شبابهم ، إلى التخلي عنها في مثل السن التي أريد أن أشرع في ممارستها فيها !



ولقد كانت هذه الهواية خليقة بأن تبدو أمرا طبيعيا في ذلك الوقت (١) ، إذ كانت الفرصة سائحة ، وكان ثمة ما يُغريني بانتهازها . فإن الرضا الذي كنت أشهده في عيني "آفيه" وهو يعود إلى الدار محملا بالنباتات الجديدة ، جعلني -مرتين أو ثلاثا- على وشك أن أنصرف إلى جمع الأعشاب معه . واكاد أوقن بأن هذه الهواية كانت قيمة بأن تستولي علي لو أنني خرجت معه مرة ، ولعلني كنت قد أصبحت اليوم خبيرا كبيرا بالنباتات . . . فلست أعرف في الدنيا دراسة أكثر ملاءمة لميولي الطبيعية من دراسة النبات ، وما الحياة التي أعيشها في الريف منذ عشر سنوات سوى دراسة مستمرة للأعشاب ، دون ما هدف -في الواقع- ودون ما تقدم . . . علي أنني لم أكن في ذلك العهد على بينة بشيء عن علم النبات ، فشعرت بنوع من الأزداء -بل ومن النفور- لهذه الدراسة . ولم أر فيها سوى ما يراه كل الجهلة من أنها حرفة المهتم بصناعة العقاقير -فإن "ماما" ، التي كانت تحبها ، لم تكن تُفقد منها إلا في هذه الصناعة ، ولم تكن تبحث إلا عن النباتات العادية ، لتستغلها في عقاقيرها -وهكذا كان علم النبات والكيمياء والتشريح تختلط في ذهني تحت اسم الطب ، ولم تكن تصلح إلا لإمدادي بفكاهات ساخرة طيلة يومي ، ولتجلب علي الصفعات بين وقت وآخر

وإلى جانب ذلك أخذ ميل آخر مختلف عن هذا -بل على النقيض منه إلى حد كبير - ينمو في نفسي باطراد ، وسرعان ما ابتلع كل ما عداه : وأعني بذلك الموسيقى . ولابد أنني خلقت لهذا الفن بالتاكيد ، فقد بدأت أحبه منذ باكورة طفولتي وهو الوحيد الذي ظللت أحبه باستمرار في جميع الأوقات . والعجيب في الأمر أن الفن الذي خلقت من أجله ، قد كَبِدَني تعلمه -برغم ذلك- عناء كبيرا ، وكان تقدمي فيه من البطء بحيث إنني لم أجرو قط على الغناء باعتماد ، بعد كل التدريب الذي مارسته في حياتي ! . . . أما الذي حُبب إلي هذه الدراسة -في ذلك الحين بوجه خاص- فهو أنني كنت أستطيع أن أواصلها مع "ماما" . فمع أن أذواقنا في النواحي الأخرى كانت جد مختلفة إلا أن الموسيقى كانت -بالنسبة لنا- رابطا يجمع بيننا ، فكنت أحب دائما أن أفيد منه . وما كانت "ماما" لتأبى ذلك بل إنني كنت إذ ذاك أكاد أعادّلها تقدما في هذا الفن ، فكان في وسعنا بعد محاولتين أو ثلاث أن نحل رموز أي لحن . وكنت أحيانا إذا ما رايتها مستغرقة أمام موقد ، أقول لها : "ماما" ، هاك لحننا ساحرا لائنين ، يبدو لي أنه خليق بأن يجعل رائحة عقاقيرك تنم عن احتراقها" . . . فكانت تقول لي : "آه! . . . قسما لأجعلنك تأكلها إذا أنت شغلتنني عنها حتى تحترق!" . . . وبينما يدور الجدل ، كنت أجريها إلى معزفها ، فنسى نفسي ، حتى تحترق خلاصة الأيست أو العرعر (٢) بالفعل ، فتُلطِّخُ "ماما" بها وجهي . . . وكما كان كل ذلك عذبا!

ومن هذا ترون أنني وإن كنت لم أوت من الفراغ إلا وقتا قصيرا فقد كان لدي كثير من الأمور التي أنفق فيها هذا الوقت . على أنه كان ثمة -إلى جانب ذلك- ملهاة خليقة بأن تُعادل وحدها كل الملاهي الأخرى وإليك قصتها : كنا نقيم في شبه سجن معتم خائف ، حتى إننا كنا بحاجة إلى الخروج

(١) شغل "روسو" -وهو يكتب هذه الكراسة من اعترافاته- بفلاحة البساتين . (٢) الأيست عقار مخدر ، "والعرعر" نبات

أحيانا لننشد الهواء في الريف. وأغرى "أميسه" "ماما" بأن تستأجر بستانا في الضواحي لثربية النباتات، وكان يَلْحَقُ بهذا البستان بيت ريفي صغير بديع، جُهِّزَ بأثاث متواضع، وأقيم فيه سرير. وكثيرا ما كنا نتناول عشاءنا هناك كما كنت أنام فيه أحيانا.. ولقد أولعتُ -دون أن أظن- بهذا "المعزل" الصغير، فحملت إليه قليلا من الكتب وعددا من المطبوعات، وقضيت شطرا من وقتي في تزيينه، وفي إعداد مفاجأة مستحبة لـ "ماما" إذا ما خرجت للتنزه في ذلك المكان. وكنت أبتعدُ عنها أحيانا؛ لكي أشغل بها بالي، ولكي أفكر فيها بمزيد من الابتهاج. وكانت هذه نزوة أخرى لا يسعني أن أبررها أو أشرحها ولكنني أعترف بها؛ لأنها كانت حقيقة. وإني لأذكر أن مدام "دي لوكسمبورج" حدثتني مازحة -ذات مرة- عن رجل اعتاد أن يفارق عشيقته لكي يكتب إليها رسائل... وقد قلت لها: إنه كان من المحتمل أن أكون ذلك الرجل -وكان خليقا بي أن أضيف أنني كنت أتصرف أحيانا مثله- على أنني لم أكن أشعر قط، وأنا مع "ماما" بضرورة الابتعاد عنها كي أزداد حبا لها؛ لأنني كنت إذا ما خلوتُ إليها أشعرُ بطمأنينة كاملة كما لو كنتُ وحيدا... وهي حال لم أستشعرها البتة في حضور أي امرئ آخر -رجلا كان أو امرأة- مهما يكن تعلقي به... ولكنها كثيرا ما كانت تحاطُ بـ "دي لوكسمبورج" لم أكن أنسجم معهم إطلاقا، فكان ينتابني شعور من الضيق والملل، يدفعني إلى ملاذي ذاك (١)، حيث كان بوسعي أن أتناول بها كما كنت أبتغيها، دون أن أخشى أن يتعقبني الزائرون الثقلاء.

وعلى هذه الحال -التي كان وقتي فيها موزعا بين العمل والهدوء والتعلم- نعمت بحياة مُفْعَمَةٍ بأعذب دعة! على أن أوروبا لم تكن في مثل طمأنينتي، إذ كانت "فرنسا" والإمبراطور قد أعلنوا الحرب لتوهما، وساهم ملك "سردينيا" في النزاع، فأخذ الجيش الفرنسي يتقدم عبر "بييمونت" ليفزوا أراضي "ميلان". ومرت فرقة منه خلال "شامبير"، كان بين كتابها كتيبة "شامباني"، التي كان قائدها الدوق "دي لاترمويي". وقد قدمت إليه، فكان مسرعا في عودته -وإني لموفن من أنه لم يتذكرني البتة بعد ذلك!- وكان بستاننا الصغير يقوم في أقصى طرف الضاحية التي دخلها الجند؛ ومن ثم فقد كان بوسعي أن أنعم تماما بمتعة مشاهدتهم وهم يمرون، وكنت من التحمس لنجاح هذه الحرب كما لو كانت لي مصالح عظيمة مُهْدَدَةٌ بها... ولم يكن قد جال بخاطري حتى ذلك الحين أن أفكر في المسائل العامة فبدأت أقرأ الصحف للمرة الأولى، ولكن... في تحيز لـ "فرنسا" (٢) كان يجعل قلبي يخفق طربا كلما أحرزت أقل نجاح بينما كانت إخفاقاتها تحزنني وكأنها قد ألمت بي أنا... ولو أن هذه الحماسة كانت عابرة لما وجدت لها جذيرة بأن أتحدث عنها ولكنها تغلغلَت في فؤادي دون ما سبب كاف، حتى إنني حين قمت -في "باريس" - بدور عدو الطغاة المعتز بدعوته شعرت -رغما عن نفسي- بميل خفي إلى هذه الأمة التي وجدت لها راسفة في الذلة، وإلى الحكومة التي كنت أظاها بالنقمة عليها. والطريف في الأمر أنني -لحجلي من شعور يناقض مبادئ- لم أجسر على أن أقضي به لأي امرئ، ورحت أسخرُ من الفرنسيين في هزائهم بينما كان قلبي يدمى من أجلهم، أكثر مما كانت تدنّي قلوبهم هم! ومن المؤكد أنني الرجل الوحيد الذي يعيش بين قوم أحسنوا معاملته وهم بحبهم ولكنه مع ذلك يظهر نحوهم، وهو بينهم، روح الأزداء! وهذا الميل من ناحيتي مجرد من الهوى، وهو من القوة، والبقاء، والمناعة بحيث إنني لم أستطع أن أبرئ نفسي من هذا الضعف، حتى بعد رحيلي عن "فرنسا"، عقب العاصفة التي تبارت حُكُومَتُها وحُكَّامُها وكتائبها في إثارتها ضدي، ومنذ أصبح العرف المألوف هو إغراقي بما لا أستحق من سباب... نعم، إنني أحبهم برغم نفسي، وبرغم سوء معاملتهم إياي!

(١) يقصد البيت الريفي الملحق بالبستان. (٢) لم يكن "روسو" يعتبر "فرنسا" وطنه؛ فقد كان من رعايا "جنيف" بـ "سويسرا".

ولقد سعت طويلا إلى تبين سبب هذا التحيز، فعمزتُ عن العثور عليه اللهم إلا في عين المناسبة التي أوجدته: فإن الميل المطرد إلى الأدب أولاني شغفا بالكتب الفرنسية ومؤلفيها وبلاد هؤلاء المؤلفين. وفي الوقت الذي مرفيه الجيش الفرنسي بـ "شامبيري"، كنت أقرأ كتاب "برانتوم" المسمى "القادة العظام"، فكان رأسي مليئا بأمثال "كليسون" و"بايار"، و"لوتريك"، و"كولين"، و"مورورنسي"، و"تريموي"، وكنت أحب ذرياتهم بوصفهم ورثة فضائلهم وبسالتهم. ورحلت إخال أنني ألح في كل كتبية مرت تلك العصابات السوداء الشهيرة، التي أحرزت تلك البطولات، من قبل، في "بيسجوت". وموجز القول: إنني ربطت ما كنت أراه، بالأفكار التي كنت أقتبسها عن الكتب. وراحت مطالعاتي الدائبة - وكانت لاتزال مقصورة على مؤلفات الأدباء الفرنسيين - تغذي حبي لبلادهم، ثم حولت هذا الحب في النهاية إلى شغف أعشى لم يقو شيء على التغلب عليه! ولقد سنحت لي - فيما بعد - الفرصة كي ألاحظ في سياق رحلاتي أن هذا الأثر لم يكن قاصرا علي بالذات، وإنما كان يتعداني - بدرجة متفاوتة - إلى أفراد من جميع البلدان، وهم ذلك القسم من الأمة الذي يحب القراءة ويُقْبِلُ على الأدب، فكان هذا الشغف يرجع على النفور العام الذي توحى به عجرفة أخلاق الفرنسيين... والملاحظ في هذا الصدد أن قصص أدبائهم أكثر استيلاء من رجالهم على قلوب النساء في جميع البلدان.. كما أن تحفهم التمثيلية تجتذب الشباب إلى مسارحهم، فإن شهرة مسارح "باريس" تجذب إليها زُرَّافَات من الأجانب، الذين يعودون إلى أوطانهم وهم من أشد المعجبين المتحمسين لها... وبالاختصار أقول: إن الذوق الرائع الذي يبين في أدب الفرنسيين يسبي عقول كل أولئك الذين أوتوا أي قدر من العقل. ولقد رأيت خلال تلك الحرب - التي انتهت أسوأ نهاية بالنسبة لهم - أن مؤلفيهم وفلاسفتهم قد صانوا شرف اسم "فرنسا" الذي لطخه معاربوها!

وقد كنت إذ ذاك فرنسيا متحمسا، نهما إلى الأنباء، فكنت أذهب مع حشد متسقطي الأخبار إلى ساحة السوق لانتظار البريد. وكنت - في غباء يفوق غباء الحمار في الأسطورة - أشغل نفسي كثيرا بمحاولة معرفة أي سيد سيكون لي شرف حمل سرجه وركابه، فلقد قيل في تلك الأثناء: إننا سنتبع "فرنسا"، وإن "سافوا" ستبادل باراضي "ميلان". على أنه من الواجب الاعتراف بأنني كنت على حق في قلقي، فلو أن هذه الحرب انقلبت في غير صالح الحلفاء لتعرض معاش "ماما" لخطر كبير. غير أنني كنت مُقْعَمًا بالثقة في أصدقائي الطبيين (١)، ولم تخب هذه الثقة - في هذه المرة - بفضل ملك "سردينيا"، الذي لم أفكر فيه إذ ذاك!



وبينما كان الصِّراعُ دائرا في "إيطاليا" كان الغناء دائرا في "فرنسا"!... فقد بدأت أوبرات "رامو" تُحدث ضجة، وترفع من شأن مؤلفاته النظرية التي كان غموضها قد جعلها في متناول نغرضيل من الناس. ولقد سمعت عفوا من مؤلفه "رسالة في التوافق" فلم أرغ حتى حصلت على هذا الكتاب. وبمصادفة أخرى، سقطت مريضا. وكان مرضي نوعا من الالتهاب، الذي كان عنيفا وقصيرا، ولكن نقاهتي كانت طويلة، فلم يكن بوسعي الخروج لمدة شهر. وفي خلال هذه الفترة عكفت على "رسالة في التوافق" التي تهتمها، ولكنها كانت طويلة، مخشوة بالإسهاب، سيئة العرض إلى درجة أنني شعرت بأن لا بد لي من وقت طويل كي أدرسها وأستوعبها. وأرجأت جهودي، ورحلت أجلو عيني

بالموسيقى . ولم تفارق ذهني أغاني "بيرنيسيه" ، التي رحت أتدرب عليها . (فقد حفظت منها عن ظهر قلب أربعاً أو خمساً ، منها تلك التي كانت تُدعى "آلهة الحب النائمة" ، التي لم أسمعها ثانية منذ ذلك الحين ، والتي لا أزال أحفظها كلها تقريباً . وكذلك "الحب الذي لدغته نحلة" ، وهي أغنية جد بديعة من تأليف "كليرامبو" حفظتها في عين ذلك الوقت تقريباً .

واستكمالاً لشغفي ، وصل من (فال داوست) عازف أرغن شاب يُدعى الأب "باليه" ، كان مُوسيقياً مَجِيداً ، ورجلاً طيباً ، وعازفاً يجيد مصاحبة من يغني . وتعرفت إليه ، فأصبحنا لا نفرق . وكان قد تتلمذ على راهب إيطالي بارع في العزف على الأرغن ، فحدثني عن مبادئه في الموسيقى ، وقارنتها بمبادئ "رامسو" - الذي كنت أعجبُ به - وملأت رأسي بالعزف الذي يصاحب الغناء ، ويتناسق الأنغام وتوافقها . وكان لا بد من أن أشحذ حساسية أذني لكل هذا ، فاقترحت على "هاما" إقامة حفلة موسيقية في كل شهر ، فوافق . وإذا بي أستغرق في تلك الحفلات ، فلم أعدُ أشغل بشيء آخر ليلاً أو نهاراً . . . والواقع أنني شُغِلْتُ شَطِراً كبيراً من وقتي في تنظيم الموسيقى ، والحفلات الموسيقية ، والادوات ، وتقسيم الأدوار ، وما إلى ذلك ! . . . وكانت "هاما" تغني ، كما أن الأب "كاتون" - الذي سبق أن تحدثت عنه ، والذي سأحدث عنه مرة أخرى - كان يغني هو الآخر . وكان أستاذ للرقص يدعى "روش" يعزف مع ابنه على "الكمان" ، والسيد "كانافا" - وهو موسيقي "بييمونتي" كان موظفاً في المساحة ، وقد تزوج بعد ذلك واستقر في "باريس" - يعزف على الكمان الكبير بينما كان الأب "باليه" يصاحبهم على "البيانو" ، كما كان لي شرف قيادة الموسيقى ، دون أن أنسى العصا . وفي وسع المرء أن يتصور مدى جمال كل ذلك ! . . . ولئن لم تكن هذه الحفلات كذلك التي كانت تقام لدى السيد دي "تريثوران" ، إلا أنها كانت تُقَرَّبُ منها !

وأثارت الحفلات الموسيقية الصغيرة التي أخذت تقيمها مدام "دي فاران" - وهي حديثة عهد بالإيمان ، وكانت تعيشُ على بر الملك ، كما كان يقال - تَذَمُّرَ عصبية الانتقياء ولكنها كانت مَلْهَأَةً مستحبة لكثير من الشرفاء . ولكن هل يستطيع أحد أن يحدث : من الذي كنت أضعه على رأس تلك المناسبات ؟ . . . كان راهباً ، ولكنه راهب موهوب ، بل ومحبوب ، أثرت بلاياه ، فيما بعد ، على نفسي تأثيراً قوياً ، ولا تزال ذكره - التي أرتبطتُ بذكرى أجمل أيامي - عزيزة لدي . ذلك هو الأب "كاتون" - أحد الرهبان الجلبيليين (١) - الذي عمل بالاشتراك مع الكونت "دورتان" على مصادرة موسيقى "الهريرة" المسكينة في "ليون" ، ولم يكن هذا أبداً ما في حياته . فقد تخرج في "السوربون" ، وعاش ردها طويلاً في أرقى الأوساط الباريسية ، وكان ذا حظوة خاصة لدى المركز "دانترمون" ، الذي كان سفيراً لـ "سردينيا" في ذلك العهد . وكان حَسَنَ البنيان ، ممتلئ الجسم ، بارز العينين ، ذا شعر أسود كان يتجمد بطبيعته على جبينه ، وذا أخلاق نبيلة وصريحة ومتواضعة ، في آن واحد ! . . . كان مظهره بسيطاً وبديعاً ، دون ما شيء من النفاق أو السُلْطَةِ التي عرفت عن الرهبان ، ودون ذلك الصُّلْفِ المألوف لدى نجوم المجتمع ، وإن كان واحداً منهم . . . لم يكن يبدي سوى اعتداد الرجل الشريف ، الذي يحترم نفسه - دون أن يخجل من لباسه - ويشعر دائماً بأنه في الوسط المحترم إما يكون في مكانه الطبيعي . ومع أنه لم يكن جد متعلم بالدرجة التي تتفق مع "الدكتوراه" التي كان يحملها إلا أنه كان كامل العُدَّة والاستعداد لأن يكون من رجال المجتمع . . . ولم يكن يتلَهَّفُ على أن يعرض معرفته ، وإنما كان يستغلها في الفرص المناسبة ، حتى لقد كان يظن أنه أُوتِي من المعرفة أكثر مما كان يمتلك ! . . . ولما كان قد عاش طويلاً في المجتمع الراقي فإنه كان يُؤَلِّي المؤلفات المستحبة من الاهتمام أكثر مما كان يولي العلم

(١) سبق أن شرحنا مذهب الرهبان الجلبيليين في الجزء الأول ، ونضيف أنهم من "الفرنسيكان" .

الجاف . وكان حاضر البديهة، يقرض الشعر، ويجيد الكلام، ويحذق الغناء، وقد وهب صوتا جميلا، كما كان يعزف على "الأرغمن" و"البيانو". وكان هذا أكثر مما يكفي لأن يجعله منشودا ومرغوبا -وهكذا كان بالفعل!- بيد أن ذلك كله لم يحمله على أن يهمل واجبات منصبه إلا بقدر تافه، فلم يلبث أن اختير -برغم غيره مزاحميه- نائبا لرئيس طائفته في إقليمه . وبمعنى آخر، كان من أرفع أفراد الطائفة شانا!

ولقد تعرّف الأب "كاتون" إلى "ماما" لدى المركيز "دانترمون". وكان قد سمع عن حفلاتنا الموسيقية في أحاديث القوم، فأعرب عن رغبة في المساهمة فيها. وقد فُعل، فأكسبها بهجة! وسرعان ما توثق ودنا بفضل ميلنا المشترك للموسيقى، إذ كان هذا الميل -لدى كل منا- ولعا متاججا، وكان كل ما بيننا من فارق هو أنه كان موسيقيا موهوبا حقا، في حين أنني لم أكن سوى مُتطفّل على الفن! وكنا نذهب فنعرّف في غرفته، مع "كانالفا" والأب "باليه"، كما كنا نعرّف على أرغنه أحيانا في أيام الأعياد . وكثيرا ما كنا نتناول غداءنا على مائدته الصغيرة، فقد كان -وهذا أيضا من دواعي العجب بالنسبة لراهب- كريما، مغذّاقا، ذواقة للأطعمة في غير نهم. وكان في أيام حفلاتنا يتناول عشاءه في دار "ماما"، فكانت تلك المادب كثيرة المرح والسرور، يقال فيها كل ما يخطر بالبال، وتُلقَى فيها الاغاني الثنائية .. بينما أسترسل أنا على سجيّتي، فأغدق الملح والطرائف . وكان الأب "كاتون" يبدو لطيفا، و"ماما" تستأثر بالإعجاب بينما يقدّو الأب "باليه" هدفا للضحك، بصوته الذي يشبه خوار الثور! .. أينها اللحظات العذبة الحافلة بعذب الشباب لكم طالّ بك البعاد! ..

وبما أنني لن أعود إلى الكلام عن هذا الأب "كاتون" المسكين فإنني أوجز هنا قصته المحزنة في كلمتين: فإن الرهبان الآخرين الذين كانوا يغارون منه -أو بالأحرى يحقدون عليه- إذ رأوا فيه كفاءة وخصالا حميدة، ليس فيها من فساد الرهبان شيء. أوسعوه كراهية لأنه لم يكن بغيبضا مثلهم! .. فاجتمع رؤساؤهم عليه، وأوغروا ضده الرهبان الذين كانوا يحسدونه على مركزه، والذين لم يكونوا يجرّؤون من قبل على التطلع إليه، ومناواته .. فرمّى باله إهانة، وأقصي عن منصبه، وانتزعت منه حجرته التي كان قد أثّنها بأناقة وبساطة معا، وحبسوه حيث لا أدري .. وأخيرا، أغرقه أولئك التعمساء بوصمات لم تقو نفسه الشريفة الابية -بحق- على احتمالها، وبعد أن كان بهجة أظرف المجالس، مات أسي على فراش حقير "برش"، في ركن ما من "زفرانة" أو "جيب"، مأسوفا عليه ومبكيًا من جميع الأشراف الذين عرفوه، والذين لم يجدوا فيه أي عيب سوى أنه كان راهبا!



وفي سياق هذه المعيشة، لم ألبث أن عدّدت -بعد أمد وجيز، غارقا في الموسيقى .. والفيتني بعيدا عن التفكير في أي شيء آخر، ولم أعد أذهب إلى مكنتي إلا غصبا، فقد أصبح الإرهاق والجهد الدائب يُسببان لي عناء لا يطاق .. وانتهيت أخيرا إلى الرغبة في ترك مناصبي، لا كرس نفسي بأكملها للموسيقى! وفي وسع المرء أن يتصور أن هذه الحماقة لم تقابل بغير معارضة، فإن ترك منصب شريف، ودخل ثابت، للجبري وراء تلاميذ غير مضمونين (١)، كان نهجا خلوا من الحكمة، بحيث لم يكن يرضي "ماما" .. بل إننا إذا افترضنا أن توفيقى المقبل بلغ ما كنت أتصوره من ضخامة فإن ذلك كان يحد من طموحي ويخصّره في نطاق متواضع، إذ يهبط بي طوال العمر إلى مركز الموسيقي (الموسيقار)! .. وأخذت تلك المرأة التي لم تكن ترسم سوى أبداع الخطط، والتي لم تعد تحكم علي

(١) كان يعتزم أن يتكسب عيشه من تدريس الموسيقى.

قط وفقاً لرأي السيد "دوبسون"، أخذت ترمقني في المم وأنا أشغل جدياً بموهبة كانت تراها غير مربحة، وكثيراً ما كانت تردد لي ذلك المثل الرفيع الذي قل ما يصدق في "باريس": "إن الذي يُتقنُ الغناء ويحذق الرقص، يتخذ لنفسه مهنة قل أن ترفع من قدره". على أنها - من ناحية أخرى - كانت تراني منساقاً ليل لا يقاوم، فإن ولعي بالموسيقى غداً جنونا، ومن ثم فقد حق لها أن تخشى أن يتأثر عملي من جراء انشغالي، فيؤدي إلى أن أحرم منصبي، وهو أمر كان من الخير أن أقدم عليه بنفسي (١) .. ومرة أخرى بينت لها أن هذا المنصب لم يكن مقدراً له أن يدوم طويلاً، وأنه لابد لي من مهنة أكتسب منها عيشي، وأن السعي إلى أن أكتسب بالمران حذقاً للفن الذي كان ميلي يدفعني إليه - والذي اختارته لي هي - أضمن من أن أضع نفسي تحت رحمة من يولونني حماهم، أو أن أحاول عملاً جديداً قد يجانبني فيه التوفيق، وقد يدعني - في النهاية - بلا موارد لكسب عيشي، بعد أن أكون قد تجاوزت سن التعليم .. وانتزعت أخيراً موافقتها، بالغضب واللجاجة والملاينة أكثر مني بالحجج المقنعة .. فهرعت لفوري مقدماً استقالتني إلى السيد "كوتشيللي" - المدير العام للمساحة - في زهو وخيلاء، وكانني أقدمت على أكثر الأعمال بطولية .. وهكذا تركت منصبي طواعية، دون ماداع، ولا عذر، ولا مبرر .. بل في اغتباط يفوق اغتباطي يوم ظفرت به قبل عامين!

هذه الخطوة - برغم أنها كانت حماقة مطلقة - أكسبني في البلاد نوعاً من الاعتبار الذي أفادني . وظن البعض أنني أستند إلى موارد لم أكن أمتلكها في حين أن غيرهم قدروا موهبتي على ضوء تضحياتي - وهم يروني أنصرف بكل نفسي إلى الموسيقى - واعتقدوا إزاء كل هذا الولع بالفن أنني لابد على معرفة فائقة به .. ولما كان الأعراس ملكاً في مملكة العميان فقد أخذني القوم على أنني أستاذ بارع؛ لأنه لم يكن ثمة من المعلمين سوى الرديئين! .. وإلى جانب ذلك فإنني لم يكن يعوزني حذق الغناء - إلى درجة لا بأس بها - كما كنت مفضلاً بسبب سني وشكلي، فسرعان ما أصبح لي من التلميذات أكثر مما كان يلزمني لتعويض مرتبي كموظف كتابي!

ومن المؤكد أنه لم يكن بوسع امرئ أن ينتقل - في سبيل الاستمتاع بالحياة - من أمر إلى نقيضه، بأسرع مما انتقلت أنا .. ففي المساحة كنت أمارس - ثماني ساعات في اليوم - أشد الأعمال كآبة، مع أناس كانوا هم الآخرون أشد الناس كآبة، حبساً في مكتب مسمم بأنفاس وعرق كل هؤلاء الأجلاف الذين كان معظمهم بالغني القذارة، مشعثين - حتى إنني كنت أشعر بدوار وغثيان لفرط الانتباه والرائحة والجهد والضيق أحياناً! فإذا بي الآن، بدلاً من ذلك، أجدني أغوص فجأة في المجتمع الراقي، وأصبح مرغوباً ومنشوداً في خير البيوت، أحظى بالحفاوة والملاطفة والإكرام في كل مكان، حيث ترتقب وصولي آتسات لطيفات أنيقات، ليستقبلنني في تلهف! .. لا أدري سوى الأشياء الفاتنة، ولا أشم سوى الورد وزهر البرتقال، ولا أحاط إلا بالغناء والكلام والضحك واللهم .. ولا أعادر بيتاً إلا لأجد كل هذا في بيت آخر! .. ولسوف يقرني القارئ على أنه - وقد تساوت الميزات - لم يكن ثمة مجال للتردد في الاختيار. والحق أنني رَضِيتُ عن اختياري إلى درجة أنني لم أستمع الندم قط .. حتى في هذه اللحظة، وأنا أزن أعمال حياتي بميزان العقل، بعد أن تحررت من البواعث النزقة التي كانت تحدوني إذ ذاك!

ولقد كانت هذه هي المرة الوحيدة - تقريباً - التي لم أطلع فيها سوى ميولي، فلم يَحْبُ رجائي! ولقد أدت الحفاوة السلسة، والروح اللطيفة، والطباع السهلة التي أوتيها أهل تلك البلاد إلى جعل اتصالي بالدنيا أمراً مستحباً، وقد كان الميل الذي تملكني إذ ذاك نحو هذا كله، دليلاً أثبت لي بجلاء

انه إذا كان قد قدر لي الا احب العيش وسط الناس، فقد كان هذا ذنبهم أكثر مما هو ذنبي!
وما يؤسف له أن أهل "سالفوا" ليسوا أغنياء -أو لعله كان أمرا أجدر بالأسف أن يكونوا أغنياء!-
ذلك أنهم، على ما هم عليه، خير من عرفت من الناس، وأحسنهم معاشرة. وإذا كانت في الدنيا مدينة
صغيرة تستنى فيها عذوبة الحياة، في وسط ملائم ومأمون فهذه المدينة هي "شامبيري". فإن
الأسرات العريقة في الإقليم، التي تتجمع في هذه المدينة، لم تؤت إلا ما يكفيها للعيش، دون ما
زيادة.. وهم بحكم الضرورة -نظرا لمجزهم عن الإغراق في طموحهم- يتبعون نصيحة "سينياس"
(١)، فيكرسون شبابهم للخدمة العسكرية، ثم يعودون ليقضوا شيخوختهم في وطنهم بسلام.
وبذلك يتقاسم الشرف والحكمة حياتهم، أما نساؤهم فجميلات وجماليات بحق، إذ إنهن يملكن
جميعا ما يجعل للجمال قيمة، بل وما يُغني عنه. ومن العجيب أنني -وقد قُدر لي بحكم مهنتي أن
أرى كثيرا من الشابات- لا أذكر أنني رأيت واحدة في "شامبيري" لم تكن فاتنة. قد يقال: إنني
كنت ميالا لأن أراهن فائتات، وربما كان في هذا بعض الحق ولكنني لم أكن بحاجة إلى أن أُضيف
إليه من خيالي. والحقيقة أنني لا أملك أن أفكر في تلميذاتي الشابات دون أن أطرِب..
وكيف أذكر هنا أبدعهن حسنا، دون أن أتمثلهن معي في تلك الأيام الهائلة التي نَعَمًا بها!.. تلك
اللحظات البريقة العذبة التي قضيناها معا!.. كانت أولاهن الآنسة "دي ميلاريد"، جارتني وأخت
التلميذ السيد "جاسيم". وكانت سمراء طروبا، مليئة بنشاط ورشاقة ناعمين، ومجردة من كل نَزَق،
وكانت -كمعظم لدأتهن- تميل إلى النخافة، ولكن عينيه اللامعتين، وقوامها الأهيف، وخلقها
ال جذاب، لم تكن في حاجة إلى زينة كي تروق للإبصار. ولقد اعتدت أن أذهب إليها في الصباح
فأجدها عادة في ثياب البيت، لا يزين رأسها سوى شعرها الذي رفعته في إهمال، وقد ازدان ببضع
زهرات كانت توضع عند وصولي، ثم ترفع عقب انصرافي ليتسنى تنسيق الشعر!.. ولست أخشى
في الدنيا أكثر من شابة في ثياب البيت! -وتقل خَشْيَتِي هذه مرة إذا كانت الفتاة في كامل
ثيابها!- أما الآنسة "مانتون"، التي كنت أذهب إليها بعد الظهيرة، فكانت دائما في كامل ثيابها،
وكانت هي الأخرى تُحدث في نفسي أثرا بالغ الرقة، ولكنه من نوع مختلف. كان شعرها أشقر مغبر
اللون، وكانت بالغة الظرف، وبالغة الخجل، ناصعة البياض، ذات صوت صاف، واضح، موسيقي
الرنين، ولكنها لم تكن تجسُر على رفعه. وكانت ثمة ندبة على صدرها خلفها حرق نشأ عن ماء
مغلي. ولم يكن الوشاح الحريري الأزرق ليستر هذه الندبة تماما، فكانت تجتذب انتباهي، الذي لم
يعد -بعد زمن قصير- ينحصر في الندبة وحدها!

وهناك الآنسة "دي شال"، التي كانت هي الأخرى من جاراتي. وكانت فتاة ناضجة، وأقبة العود،
عريضة المنكبين، تميل للبدانة. وكانت طيبة جدا. ومع أنها لم تكن جميلة إلا أنها جديرة بالذكرى
لكرم خلقها، واعتدال طباعها، وطيبة سَجِيَّتِها. أما اختها السيدة "دي شارلي" -أجمل امرأة في
"شامبيري" - فكانت قد تجاوزت سن تعلم الموسيقى ولكنها أتاحت التعلم لابنتها التي كانت لانزال
صغيرة، والتي كان جمالها الناشئ يوحى بأنه سَيُضَارِعُ جمال أمها، ولولا أنها -لسوء الحظ- كانت
ذات شعر ضارب إلى الحمرة. وكانت لي في "دير الزيارة" آنسة فرنسية صغيرة "غاب عني اسمها
ولكنها جديرة بأن تحمل مكانا بين الأثيرات لدي". وكانت قد اكتسبت ما للراهبات من لهجة مُثَنِّدة،
مترامية.. وبهذه اللهجة المترامية كانت تلقي ملحا طريفة، لا تبدو ملائمة لوقارها! وعدا ذلك كانت
كسولا، لا تحب أن تتجشَّمُ عناء إظهار ذكائها -إذ كان ذلك صنيعا لا يبيحه لكل امرئ!.. ولم يخطر

(١) كان "سينياس" وزير "بروس" ملك "مبيروس" -إحدى جزر اليونان - وابن "أخيل" الذي قضى على طروادة ووضع خاتمة للحرب القروادية.

لها أن توليني هذا الصنيع إلا بعد شهر أو اثنين من التدريس، فقد شئت أن تجعلني أكثر مواظبة على موافاتها، إذ إنني ما استطعت قط أن أحمل نفسي على الدقة في المواعيد، كنت أحب دروسي أثناء قيامي بإلقائها، ولكني لم أكن أحب أن أقسّر على حضورها، ولا أن أكون مُقيداً بموعدها.. فقد كان التقيد والانصياع أمرين لا أطيقهما، بحيث كانا يحملاني على أن أكره السرور ذاته!.. ويقال إن في "تركيا"، لدى "المحمديين"، ينطلق في الطرقات عندما يُشرفُ النهار على الطلوع- رجل يدعو الأزواج إلى أن يؤدوا واجباتهم نحو زوجاتهم. وإني لخليق بأن أكون تركيا غير صالح في هذا الموعد (١).

كذلك كانت لي تلميذات من الطبقة الوسطى، ومنهن واحدة كانت سببا غير مباشر في تحولي في علاقتي، أرى أن اتحدث عنه، مادمت ملزما بأن أروي كل شيء. كانت ابنة بدال "بقال"، تُدعى الآنسة "لار". وكانت نموذجاً كاملاً لتمثال إغريقي، حتى إنني كنت خليفاً بأن أصفها بأنها أجمل فتاة رأيته في حياتي لو قدر للجمال الصادق أن يوجد بلا روح ولا حياة!.. كان فتورها وبرودها وتجردها من الشعور، تبلغ فيها درجة لا يُصدّقها العقل. وكان من المستحيل إرضائها، كما كان من المستحيل إغضاها، على السواء. وإني لمقتنع بأنه لو قُدِّرَ لامرئ أن يحاول العبث بها لتركته يفعل، لا عن ميل، وإنما عن بِلادة!.. وهكذا كانت أمها-التي لم تشأ لها أن تتعرض للخطر- لا تفارقها لحظة. ولقد حاولت بغاية جهدها أن توفِّظ مشاعرها، إذ أتاحت لها دراسة الغناء، وجاءت لها بمدرس شاب كي يعلمها.. ولكن دون جدوى.. وبينما كان المدرس يسعى لفتنة الابنة كانت الأم تسعى لفتنة المدرس، ولكن إحداهما لم تكن أكثر توفيقاً من الأخرى!.. كانت السيدة "لار" تجمع إلى نصيبها الطبيعى من الحيوية، ما كان ينبغي لابنتها أن تحرزه! كانت امرأة ذات وجه صغير، يقظ، عابس، تنشرت فيه آثار الجدري، وكانت لها عينا صغيران، شديتان التالقي، يشوبهما شيء من الاحمرار-لأنها كانت منحرفة الصحة باستمرار-وكنت أجد عند وصولي، في كل صباح، قهوتي الممزوجة بالقشدة. ولم يفت الأم قط أن تستقبلني بقبلة تجيد طبعها على الفم، فكنت -بدافع من الفضول- أتمنى لو أردتها إلى الابنة، لاتبين كيف تتلقاها!.. على أن كل هذا كان يتم على صورة من البساطة وعدم التكلف، بحيث كانت المغازلات والقبيلات تأخذ مجراها كالمعتاد، إذا ما كان السيد "لار" موجوداً!.. وكان رب الأسرة رجلاً طيباً، وأباً حقيقياً لابنته، فما خدعته زوجته يوماً، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك (٢)!

وكنْتُ أتلقى هذه المغازلات بغياثي الموهود، مُفسراً إياها على أنها إشارات لثود الصادق!.. على أنني كنت أتضايق أحياناً، لأن السيدة "لار" لم تكن تُغفل أداءها قط!.. وكنْتُ إذا مررت خلال النهار بالحنوت دون أن أعرج عليه يخلق ذلك ضجيجاً.. فكنت أضطر حين أكون في عجلة من أمري إلى أن أدور متخذاً طريقاً أخرى، لفرط يقيني بصعوبة خروجي من لدن السيدة كما دخلت! وهكذا كانت السيدة "لار" شديدة الانشغال بي، بالقياس إلى عدم اهتمامي بها. ولقد أثرت في هذه الحفاوات كثيراً، حتى إنني تحدثت عنها إلى "ماما"، وكانها أمر غير مستغرب. ولو كان فيها ما يُستغرب لما كنت أقل حديثاً عنها، فقد كان كتمان أي سر عن هذه السيدة أمراً غير ممكن. كان قلبي مفتوحاً أمامها كما هو مفتوح أمام الله!.. لكنها لم تتلق الأمر بمثل ما تلقته من بساطة، فقد رأت أن ما كنت أعتبره "مودّة"، إنما كان في حقيقته "مغازلات"!!.. وحَدَّستُ أن السيدة "لار" رأت من الكرامة ألا تدعني غراً كبيراً كما وجدتني، فسعت -بهشتى الطرق- إلى أن تكشف لي غايتها!..

(١) من المفهوم أن هذه قرية من القرى التي شاعت في أوروبا في فترة الحروب الصليبية. وقد كان كل مسلم يسمى تركيا. (٢) يقصد أنها لم تكن بحاجة إلى خداعها، إنما لأنها كانت تمارس التقبيل أمامه، وإما لأنها كانت تعجز عن اجتذاب الرجال رغم مغازلاتها.

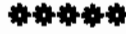
وكان لدى "ماما" من البواعث اللائقة بها، ما جعلها ترغب في أن تعصمني من الشراك التي كانت سني وشكلي يُعَرِّضَانِي لَهَا، فضلا عن أنه لم يكن من الإنصاف أن تتولى امرأة أخرى تعليم تلميذها! ثم نُصِبَ في طريقي شَرَكٌ أخطر من المعتاد! .. وبرغم أنني استطعت أن أنجو منه، فإن هذا الشراك نبه "ماما" إلى أن الأخطار التي كانت تهددني دون انقطاع، أصبحت تستوجب كل الاحتياطات التي رأت أن تتخذها! .. ذلك أن السيدة "كونتيسة مانتون" -أم إحدى تلميذاتي- كانت امرأة واسعة الذكاء، عرفت بأنها أوتيت من الحبث مالا يقل عن ذكاائها. وقد تسببت -كما كان يقال- في كثير من المنازعات، منها ما كان ذا عواقب مشؤومة على أسرة "دانترهون". وكانت "ماما" على علاقة بها تكفي لأن تُطْلَعَهَا على أخلاقها، فقد أولعت "ماما" -في براءة- بشخص كانت مدام "دي مانتون" قد بنت عليه آمالا، فأنهتتها بالعدوان على إيثار كان مُوجِّهاً إليها، برغم أن "ماما" لم تفعل .. بل إنها لم تسع إلى هذا الإيثار، ولم تقبله! .. ولكن منذ ذلك الحين عمدت مدام "مانتون" إلى تدبير عدة مكائد لغريمتها، لم يُقدَّرَ لاية مَكِيدَةٍ منها أن تنجح. وسأروي واحدة من أكثرها إثارة للضحك، على سبيل المثال: فقد كانتا مرة في الريف مع عدد من السادة -من الحيران- بينهم الشخص المذكور، الذي كانت مدام "دي مانتون" تعلق عليه آمالها. وفي أحد الأيام، قالت هذه لأحد السادة: إن مدام "دي فسارون" لم تكن سوى امرأة متحذلقة، وإنها عديمة الذوق، لا تُحَسِّنُ ارتداء ثيابها، وتحرص على أن تغطي عنقها كنساء الطبقة الوسطى. فقال السيد، الذي كان مولعا بالمزاح: "أما عن هذه النقطة الأخيرة، فإن لديها عُدْرًا، إذ إنني أعرف أن لديها نُذْبَةً كبيرة على شكل الفار البشع، مطبوعة على صدرها، وهي شديدة الشبه بالفار، حتى ليقال إنها تجري! ..". والحب -كالبغضاء- يُوحي بالتصديق، لذلك اعتزمت مدام "دي مانتون" أن تستغل هذا الاكتشاف. وفي ذات يوم، بينما كانت "ماما" تلعب الورق مع الشخص الذي جَحَدَ إيثار السيدة، إذا بهذه تنتهز الفرصة فتتسلل إلى ما وراء غريمتها، ثم توشك أن تقلب مقعدها لتزيح وشاحها عن عنقها! .. وبدلا من أن يرى السيد فارا كبيرا، رأى شيئا على النقيض تماما، لم يكن نِسْيَانُهُ بأسهل من مشاهدته! .. وهذا ما لم يكن في حُسْبَانِ السيدة!

وبرغم أنني لم أكن بالشخصية التي تَشْتَغُلُ بال مدام "دي مانتون"، التي لم تكن تبغي حولها سوى اللامعين، فإنها أولتني بعض الاهتمام، لا من أجل شكلي -الذي لم يشغلها البتة بالتأكيد- وإنما من أجل ذكائي المزعوم، الذي كان من المحتمل أن يجعلني ذا نفع لها! .. فلقد كانت مُحْتَدِمَةً الميل للهجاء، وكانت تحب نظم الاغاني والأشعار في هَجْوِ الذين لا يروقون لها! .. فلو أنها وجدت لدي كفاءة كافية لمعاونتها في نظم أشعارها، واستعدادا كافيا لكتابتها لكان في وسعنا -فيما بيننا- أن نُقِيمَ "شامبييري" ونقعدنا! .. وكان في الوسع طبعاً للاهتمام إلى مصدر هذه الهجائيات، وإذ ذاك كانت السيدة "مانتون" كفيلة بأن تتوصل من المسألة بأن تضحي بي، فَيُلْقَى بي في السجن! .. ولعلني كنت أمكث فيه بقية عمري، لأنني قمت بدور "فبوس" (١) مع السيدات!

لكن شيئا من كل هذا لم يحدث -لحسن الحظ- فقد استيقنتني مدام "دي مانتون" مرتين أو ثلاثا للغداء، لتستدرجني في الحديث، فאלفت أنني لم أكن سوى أبلة! وكنت -أنا نفسي- أشعر بذلك، وأتحسر له، وأغبط صديقي "فيكتور" على مواهبه، في حين أنني كنت جديرا بأن أحمد غباثي إذ أنقذني من المحاطر! وهكذا ظللت -بالنسبة لمدام "مانتون" -المدرس الذي يُلْقِنُ ابنتها الموسيقى، لا

(١) فبوس: من أسماء أبو لولون إله التنبؤات والطب والشعر والموسيقى عند الرومان! .. كما أنه كان إله النهار والشمس، ومنهما اشتق اسم "فبوس". وهو ابن الإله "جوبيتر" رب الأرباب وأبهم لدى الرومان.

أكثر.. ولكنني عشت في أمان، وظللت مرغوبا في "شامبيري" .. وهذا أفضل من أن أكون ذكيا -في نظرها- وأفموانا في نظر بقية القوم!



وإذ كان الأمر على هذه الشاكلة فقد رأت "ماما" -لانتزاعي من مخاطر شبابي- أن الوقت قد حان كي تعاملني كرجل، وهذا ما فعلته.. ولكن، باغرب طريقة فذة خطرت لامرأة في ظروف مشابهة: فقد وجدت أنها أكثر جدية في مسلكها، وأكثر أدبا في قولها، مما عهدتها.. واستبدلت -للفور- بالمرح الماجن الذي اعتادت أن تخرجه بتعاليمها، لهجة متحفظة على الدوام، لم تكن مالوفة ولا قاسية، ولكنها كانت تشبه التمهيد لشرح ما.. وبعد أن بحثت عبثا، في أطواء نفسي، عن سبب لهذا التحول، سألتها.. وكان هذا ما تنتظره، فإذا بها تقترح أن نخرج للتنزه في البستان الصغير في اليوم التالي، فذهبا إليه منذ الصباح. وكانت قد اتخذت من الإجراءات ما يكفل بقاءنا وحيدين طوال النهار الذي استغلته في إعدادي للنعم التي شاءت أن تُغدقها علي.. لا بالمغازلات والإغواء -كما تفعل أية امرأة أخرى- وإنما بأحاديث مُفعّنة بالعاطفة والحكمة، قصدت بها إلى تعليمي أكثر مما قصدت إلى إغوائي، وكانت تنفذ إلى قلبي أكثر مما تنفذ إلى حسي! ومع ما كانت عليه هذه الأحاديث من بهاء ونفع، وبالرغم من أنها لم تكن سوى أحاديث فاترة حزينة إلا أنني لم أولها كل ما كانت تستحق من انتباه، ولا نقشتها على ذاكرتي كما فعلت في كافة الأوقات الأخرى.. بل إن استهلالها -ذلك المسلك التمهيدي- بلبل فكري، فجعلني أحلم واشرد -بالرغم مني- وهي تتكلم.. وغدوت أقل اهتماما بما كانت تقوله، مني بالبحث عما كانت تبغي الوصول إليه.. وما إن فهمت -وهو مالم يكن بالسهل علي- طرافة الفكرة التي لم تجل أبدا بخاطري، طيلة الوقت الذي عشته معها، حتى تملكنتني الفكرة تماما، فلم أعد قادرا على التفكير فيما كانت تقوله لي "ماما" .. لم أعد أفكر إلا فيها هي وحدها، دون أن أنصت إليها!

إن الرغبة في حمل الشباب على الإصغاء لما يراء قوله لهم، بإطلاعهم مقدما على غاية جد مشوقة لهم، أسلوب معكوس، وإن كان جد مالوف لدى المعلمين، حتى لقد عجزت -أنا نفسي- عن تحاشيه في كتابي "إميل". فإن الشاب إذ يؤخذ بالغاية التي يُوعَدُ بها، يُشغل بها وحدها، ويتخطى في تسرع أحاديثك التمهيدية، ليصل مسرعا منذ البداية إلى الغاية التي تسعى به إليها في بضع بالغ -حسبما يرى هو- أما إذا أُريد الاستحواذ على انتباهه فيجب ألا يُمكن من أن ينفذ إلى الغاية مقدما، وهذا ما أساءت "ماما" تقديره. فبطريقة فذة تتمشى مع عقلها للنسق المنتظم، عمدت إلى احتياط لا طائل منه قط، إذ فرضت شروطا. ولكنني لم أكد أتبين جزاء هذه الشروط، حتى أنصرفت عن سماعها، وبادرت إلى الموافقة على كل شيء.. بل إنني لاشك في وجود رجل في الدنيا بقوى -مهما تكن أمانته وجلده- على المساومة في مثل هذه الحال، وفي وجود امرأة واحدة تقبل أن تُغفر له ذلك إذا فعله!.. وكنتيجة لطريقته الفريدة وضعت "ماما" في هذا الاتفاق أشد قيود أدبية، ومنحتني ثمانية أيام أفكر خلالها.. وهي مهلة أكدت لها -كذبا وزورا- أنني لم أكن بحاجة إليها.. فالواقع أنه مما زاد من غرابة الموضوع، وبلغ بها ذروتها أنني كنت جد مُغْتَبِط بتقبل هذا المشروع، بقدر ما أذهلتني طرافته، وبقدر ما شعرت بانقلاب في أفكاري، كان يتطلب مني وقتا لتنظيمها!

ولقد يُخَال أن هذه الأيام الثمانية بدت لي كثمانية قرون، ولكن الأمر كان على النقيض، فلقد

تمنيت لو أنها امتدت فعلا إلى هذا الأجل! .. ولست أدري كيف أصفُ حالتي، فقد كانت لونا من الجزع المسترجع بنفاد الصبر، إذ كنت خلالها جزعا مما كنت أتوقُّ إليه، إلى درجة أنني فكرت جدًّا -في بعض الأوقات- في وسيلة مهذبة لتفادي الهناء الموعود! .. وتصور طبايعي المتهورة النزقة، ودمي الفائر، وقلبي المنتشي بالحب، وصحني الموفورة، وسني! ..، وتذكر أنني في هذه الحال، وفي ظمئي إلى النساء، لم أكن قد مسَّستُ بعد واحدة منهن! .. ومن هنا فإن الخيال، والحاجة، والغرور، والفضول، تجمعت كلها لتذكِّي في نفسي رغبة نهمة متأججة في أن أكون رجلا، وفي أن أثبت أنني رجل! .. يضاف إلى ذلك -وهذا أمر يجب ألا يغفل- أن تعلقي الحنون، المحتدم، بـ"هاها" كان بعيدا عن التضاؤل، بل إنه راح يزداد اتقادا يوما بعد يوم حتى لم أعد أهنأ إلا بقربها، وحتى إنني لم أكن أفأرقها إلا لأفكر فيها، وحتى إن قلبي كان مترعا، لا بطيبتها ولطفها فحسب، وإنما بجنسها، وشكلها، وشخصها .. وبإيجاز: بها، بجميع الاعتبارات التي كانت تجعلها عزيزة علي .. ولا يخطرن بالبال أنها كانت قد اكتهلت، أو بدت لي مكتهلة؛ لأنني كنت أصغرها بعشر أو اثنتي عشرة سنة، فالواقع أنها لم تتعرض إلا لتغيير بسيط، بل إنها -في نظري- لم تتغير البتة خلال السنوات الخمس أو الست التي كنت أغيب فيها في نوبات من النشوة، من سحر النظرة الأولى! .. كانت تبدو لي فاتنة دائما، وكان كل امرئ يعتبرها كذلك، في تلك الآونة .. كل ما هنالك أن قوامها وحده ازداد بدانة، بعض الشيء .. عدا ذلك، فإنها احتفظت بنفس العين، ونفس البشرة، ونفس الصدر، ونفس الملامح، ونفس الشعر الأشقر الجميل، ونفس المرح .. وبكل شيء، حتى صوتها، ذلك الصوت الشاب ذو الجرس الفضي، الذي كان له دائما تأثير كبير على نفسي، حتى إنني لا أستطيع -إلى اليوم- أن أسمع رنين صوت عذب لفتاة شابة، دون أن أثأثر به!

ومن الطبيعي أن الأمر الذي كان لي أن أخشاه خلال انتظار الظفر بامرأة حبيبة كهذه هو التَّعَجُّل وعدم المقدرة على ضبط شهواتي بدرجة كافية، فأصبح خيالي مسيطرا علي .. ولسوف ترى أن مجرد التفكير في بعض الأفضال الطفيفة التي كانت ترتقبني بالقرب من الحبيبة -في سن متقدمة- كانت تلهب دمي إلى الدرجة التي يستحيل علي عندها أن اجتاز دون عناء الفارق القصير الذي كان يفصل بيني وبينها .. فكيف كان يتسنى لي -وأنا في عنفوان الشباب- أن أشعر بشوق قليل إلى المتعة الأولى؟ .. وكيف قدر لي أن أرقب ساعة القرب، بالم أكثر مني بابتهاج؟ .. كيف حدث أنني شعرت بنفور وخوف تقريبا، بدلا من أن أشعر بالمباهج التي كانت خليفة بأن تسكرني؟ لا شك في أنني لو كنت قد استطعت الفرار من هنائي -بطريقة مهذبة- لفعلت بكل قلبي .. ولقد وعدت بأن أروي عجائب في تاريخ تعلقي بها، وهذه -بلاشك- عجيبة لم تكن متوقعة إطلاقا!

ولا شك أن القارئ يرى -في استنكار- أنها وقد استسلمت لرجل غيري، قد حطت من قدرها في نظري وهي تشركني مع هذا الرجل، وأن الشعور بعدم التقدير لها خليف بأن يكون قد هذا من سورة تلك المشاعر التي الهمتنيها .. ولكن القارئ يخطئ في هذا الظن، فإن هذا الإشراك كان قاسي الإيلام لي حقا .. وكان هذا راجعا إلى رقة مشاعري بطبيعتها، بقدر ما كان ناشئا عن أنني وجدت الأمر غير لائق بها ولا بي في الواقع .. وبوسعي أن أقسم بأنني لم أكن مشغوقا بحبها يوما قدر ما شغفت عندما كنت قليل الرغبة في الظفر بها، فلقد كنت أعرف عن قلبها الطاهر، ومزاجها الجليدي ما يعصمني من أن أظن لحظة أن للذة الحسية دخلا في هذا الإقدام منها على أن تمنحني نفسها! .. وإنما كنت مقتنعا -تمام الاقتناع- بأن مجرد الاهتمام بتجنبي مخاطر لم يكن من سبيل سوى هذا

لتفاديها، وبصونني من أجل نفسي وواجباتي فحسب، هو الذي جعلها تأخذ على عاتقها "واجبا" لم تكن تنظر إليه نظرة غيرها من النساء، كما سابين فيما بعد. ولقد أشفقت عليها، كما أشفقت على نفسي، ووددت لو أقول لها: "لا يا ماما"، لا ضرورة لهذا، سأردع نفسي بدون هذا... ولكنني لم أجسر، أولا: لأن هذا لم يكن بالشيء الذي يقال، وثانيا: لأنني شعرت في قرارتي بأن هذا غير صحيح، وأنه ليست ثمة سوى امرأة واحدة تملك -في الواقع- أن تصونني عن بقية النساء، وأن تعصمني من الغوايات. وكنت دون أن أشتبه الظفر بها -جد مسرور لأنها كانت تصدني عن اشتهاؤ الظفر بالأخريات، إلى درجة أنني رحتُ اعتبر كل ما يشغلني عنها لونا من النحس والشقاء!

ولقد كانت ألفتنا الوثيقة، ومعاشرتنا البريقة، أبعد من أن توهن مشاعري نحو "ماما"، بل إنها عززتها، ولكنها -في الوقت ذاته- اتجهت بها اتجاها جديدا، فجعلتها أكثر وجداً، وربما أكثر هيأماً، ولكنها كذلك أقل شهوة. وبحكم مناداتي إياها بـ "ماما"، وبحكم معاملتها بالغة الابن اعتدت أن اعتبر نفسي بمثابة ابنها! وأعتقد أن هذا كان السبب الحقيقي في قلّة تعجلي للظفر بها، برغم أنها كانت جد حبيبة لدي. وإني لأذكر بجلاء أن أحاسيسي الأولى كانت أكثر شهوانية، دون أن تكون نشيطة مُحفّزة. فكنت في "أنيسي" نشوان، ولكنني لم أعد كذلك في "شامبيري". ومع أنني ظلمت أحبها دائما بكل وجد ممكن إلا أنني ازددت حبا لها لذاتها، كما غدوت أقل حبا لها من أجل نفسي، أو أنني لم أعد -على الأقل- أسعى إلى هنائي بقدر ما كنت أسعى إلى استمتاعي بقربها. كانت -بالنسبة لي- أكثر من أخت، وأكثر من أم، وأكثر من صديقة، بل وأكثر من عشيقة، ولهذا السبب بالذات، لم تكن عشيقة!.. وإيجاز: كنت أحبها إلى درجة تجعلني لا اشتبهها.. وهذا أوضح ما في آرائتي وأفكاري!

وحان أخيراً اليوم الذي كان مرهوبا، أكثر منه مرغوبا!... ووعدت بكل شيء، فلم أنكث بوعودي. ولقد عزز قلبي عهودي دون أن يطمع في جزاء. ومع ذلك فإنني ظفرت بالجزاء.. ورأيتني للمرة الأولى في أحضان امرأة، وامرأة كنت أعشقها.. أنكنت سعيدة!.. لا!.. لقد تذوقت اللذة، ولكن شعورا بأسي طاع ستم سحرها، فكنت وكأني ارتكبت جريمة الزنا مع إحدى المحرمات.. ولقد بللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاثا، وأنا أضمرها بين ذراعي في وجد.. أما هي، فلم تكن حزينة ولا مرحة، وإنما كانت حنوناً وساكنة. ولما كانت على قدر ضئيل من الحب الشهواني، ولم تكن تشد اللذة الحسية قط فإنها لم تشعر بالمتعة، ولا عانت الندم إطلاقاً!

وإني لأكرر أن كل زلاتها ترتبت على أخطائها، وليس عن شهواتها قط.. كانت طيبة المنبت، وكان قلبها طاهرا، وكانت تمح الأمور الشريفة، كما كانت كل ميولها مستقيمة صالحة، وذوقها رقيقا.. ولقد نشأت على لطف الشئائل، وهو ما كانت تحبه دائما، وإن لم تتبعه قط، لأنها بدلا من أن تنصت إلى قلبها -الذي كان يرشدها إلى الصواب- كانت تُصغي إلى عقلها الذي كان يخطئ في إرشادها!.. وعندما كانت المبادئ الزائفة تُضلّلها كانت المشاعر الصادقة تكذب هذه المبادئ دائما. ولكن "ماما" كانت -لسوء الحظ- تخدع نفسها بالفلسفة، وقد أدت المبادئ الخلقية التي استمدتها منها، إلى إفساد المبادئ التي كان قلبها يملئها عليها!

وكان السيد "دي تافيل" -عشيقها الأول- هو أستاذها في الفلسفة، وكانت المبادئ التي لقنها إياها هي تلك التي وجدها ضرورية لإغوائها! فلقد وجدها وفية لزوجها ولواجباتها، قاترة دائما، مفكرة، متبعة على الأحاسيس الشهوانية، فعمد إلى مهاجمتها بالسفسطة والمغالطات. وانتهى إلى

إقناعها بأن واجباتها -التي كانت مُتَشَبِّهَةً بها- لغو من تعاليم الدين التي وضعت خصيصاً لتسليّة الأطفال، وأن الاتصال الجنسي -في حد ذاته- هو أقل التصرفات أهمية، وأن الوفاء الزوجي محض التزام ظاهري، كل قيمته الخلقية مجرد رأي!.. وأن راحة الأزواج هي الأصل الوحيد لواجبات النساء، ومن ثمّ فإن الحَيَانَاتِ المجهولة -التي لا يكون لها أثر لدى من ترتكب ضدّهم، لأنهم لا يدرون بها- لا أثر لها على الضمير كذلك!.. ومجمل القول أنه أقنعها بأن الأمر لا قيمة له في حد ذاته، وأنه لا يكون ذاتاً إلا إذا أُتْضِخَ، وأن كل امرأة تبدو فاضلة إنما تدين بمظهرها الفاضل لهذا السبب وحده. وهكذا وصل الوغد إلى غايته، فافسد عقل طفلة، ولكنه لم يقو على إفساد قلبها!.. ولقد عوقب على ذلك باعتى ألوان الغيرة، إذ اعتقد أنها كانت تعامله كما علمها أن تعامل زوجها! ولست أدري ما إذا كان على خطأ في ذلك، فإن الراهب "بيريه" خلفه في علاقته بها. إنما الذي أدريه هو أن الطُّغْيَ البارد الذي أوّيته هذه المرأة، والذي كان خليقاً بأن يعصمها من هذا المسلك كان هو عين ما منعها -بعد ذلك- من أن تنبذه!.. فما قدر لها أن تدرك أن الناس تخلع أهمية على الشيء الذي لا قيمة له لديها، وما مجدت قط -باسم الفضيلة- زهداً لا يكبدها سوى جهنم بسيطاً!

على أنها لم تسئ قط استغلال هذه المبادئ الزائفة من أجل نفسها، وإنما استغلتها من أجل الغير، وكان ذلك من جراء نظرية تعادل تلك المبادئ زيفاً، وإن تمشت مع ما فطر عليه قلبُ السيدة من طيبة. فلقد كانت تعتقد دائماً أن لا شيء يربط أي رجل بامرأة سوى ظَفَرِه بأربه منها. ومع أنها لم تكن تحب أصدقاءها إلا بدافع من المودة فإن مودتها كانت من اللطف والرفقة بحيث إنها كانت تُسْتَخْدَمُ كُلُّ وسيلة ممكنة لتوثق ارتباط هؤلاء الأصدقاء بها.. والغريب في الأمر أنها كانت توفّق في بلوغ غايتها باستمرار تقريباً. فقد كانت حبيبة حقاً، حتى إن المرء كلما عظمت اللفة التي يعيش عليها معها ازداد اكتشافاً لأسباب جديدة تدفعه إلى حبها. وهناك أمر آخر جدير بالملاحظة، هو أنها بعد ضعفها الأول، لم تكن تخلع أفضالها الناعمة قط إلا على البائسين. وكان اللامعون يفقدون -سدى- العناء الذي يتكبّدونه للوصول إليها، ولكن.. إذا مبادات تشعر بالإشفاق يوماً على رجل فلا بد من أن يكون هذا الرجل قليل الجدارة بالحب، إذا هي لم تنته إلى أن تحبه!.. وكانت إذا أقدمت على اختيار أشخاص يليقون بها، لا تصدر في اختيارها عن الميول الخسيسة التي لم تكن قط تقارب فؤادها النبيل، بل إنها لم تكن تصدر إلا عن خلقها المفرط الكرم، المفرط الرحمة، المفرط الحنان، المفرط الحساسية.. هذا الخلق الذي لم تكن تحكمه دائماً بحكمة وبصيرة كافيتين!

وإذا كانت بعض المبادئ الزائفة قد غرّرت بها فكم من مبادئ رائعة اعتنقتها، فلم تتخل عنها قط!.. وبكم من الفضائل كفرت عن نواحي ضعفها، إذا جاز للمرء أن يُطلقَ هذا الاسم على أخطاء لم يكن للإدراك فيها نصيب يذكر!.. بل إن هذا الرجل الذي غشها في ناحية أحسن تعليمها في ألف ناحية أخرى. ثم إن عواطفها -التي لم تكن متاجعة مندفعه- كانت تُتَبَّحُ لها أن تتبع دائماً أضواء العقل، فكانت تسلك جادة الصواب عندما لا تُضللها السفسطة.. كانت دوافعها حميدة، حتى في أغلاطها، وكانت آراؤها الزائفة كفيلة بأن تدفعها إلى الزلل، ولكنها لم تكن تقوى على الزلل عن رغبة وطواعية.. كانت تكره الرياء والكذب، وكانت منصفة، عادلة، شفوياً، منكراً لذاتها، وفيه لوعدها ولأصدقائها ولواجباتها -التي كانت تعترف بأنها واجبات- عاجزة عن الانتقام والبغضاء، دون أن تكون لديها أقل فكرة عن أن في الصَّفْحِ أية ميزة أو فضيلة!.. وأخيراً، لو أننا عدنا إلى تلك الحاصل التي لم يكن لها فيها عُذْر يذكر نجد أنها لم تكن تدرك كيف تقدر قيمة الأفضال الناعمة

التي كانت تخلعها على من يقع عليهم اختيارها، ولا كانت تتخذ منها مادة للتجار أو المساومة.. كانت سخية في إغداق هذه الافضال ولكنها أبدا لم تكن تبيعها، بالرغم من أنها كانت في شغل دائما بموارد العيش.. وإني لأجسرو على القول: إنه إذا كان سقراط قد استطاع أن يحترم "أسباسيا" (١) فإنه كان قمينا بأن يحترم مدام "دي فاران"!

وإني لأعرف مقدما أنني إذ أصفها بالشخصية الحكيمة، والطبيعة الباردة، سوف أتهم بالتناقض كالمعتاد، وبحق. ولكن من الجائز أن الطبيعة قد أخطأت، وأن اجتماع هاتين الخلتين ما كان يجب أن يوجد. ولكني لا أعرف سوى أنه قد وجد فعلا!.. إن كل الذين عرفوا مدام "دي فاران" - ومنهم عدد كبير لا يزال على قيد الحياة - يعلمون أنها كانت كذلك. بل إنني لأجسرو على أن أضيف أنها لم تعرف سوى متعة واحدة من المتع الحقيقية في الحياة، وتلك هي "تيسير الاستمتاع بالحياة لأولئك الذين كانت تحبهم. ومن المباح لكل امرئ أن يناقش ما تقدم بحرية تامة، وأن يثبت عن علم ودراية أنه غير صحيح. إن مهمتي هي أن أقول الحق، ولكن ليس أن أحمل الناس على تصديقه!

ولقد ألمت شيئا فشيئا بكل الذي قلته، خلال الاحاديث التي أعقبت اتحادنا (٢)، والتي كان لها وحدها الفضل في جعل هذا الاتحاد عذبا، ولقد كانت على حق إذ داخلها الأمل في أن يكون صنيعها ذا نفع لي، فقد أفدت منه في علمي فوائد كثيرة: فلقد كانت "ماما" - حتى ذلك الوقت - تتحدث إلي كما لو كنت طفلا، ولكنها بدأت تُعَامِلُنِي كرجل، فحدثتني عن نفسها. وكان كل ما قالته لي مشوقا ومشيرا لاهتمامي، فتأثرت به إلى درجة أنني كنت - إذا ما استعدته لنفسه - أخرج من اعترافاتها بفوائد تفوق كل ما خرجت به من دروسها. ونحن عندما نشعر أن مُحَدِّثَنَا إنما يتحدث من فؤاده، تتفتح قلوبنا لتلقي اعترافاته.. ولن يقدر لكل ما لدى أي مدرس من علم، أن يصل إلى مرتبة الشرثرة العاطفية الناعمة التي تفيض من امرأة ذكية ظفرت بولاء المرء وتعلقه!

ولقد هيات لها ظُرُوفُ الألفة الوثيقة التي عشت فيها معها، فرصة تكوين رأي عني ينطوي على مزيد من التقدير عن ذي قبل.. كانت ترى أنني - على الرغم من خجلي وتقاعسي - أهل لأن أدرّب على الحياة، وأنني لو ظهرت يوما في مستوى معين لتسنى أن أصبح في مركز يمكنني من أن أشق طريقي، وبهذه الفكرة، كَرَسْتُ نفسها لا لتشكيل وعيي فحسب، وإنما لصوغ مظهري ومسلّكي كذلك، حتى تجعلني جديرا بالحب والتقدير معا. وإذا صح أن النجاح في الدنيا يقتصر بالفضيلة - وهو مالا يؤمن به من ناحيتي - فإنني مقتنع على الأقل بأنه لم تكن ثمة وسيلة تؤدي إلى مثل هذه الغاية سوى تلك التي اتخذتها "ماما" ورغبت في أن تلقني إياها!.. فلقد كانت مدام "دي فاران" تفهم الجنس البشري، وتفهم - إلى درجة عالية - فن التّعامل مع الناس دون خداع أو تهور، ودون غش أو إساءة ولكنها كانت تُلقِّنُ هذا الفن بشخصيتها أكثر منها بدروسها، وكانت أكثر معرفة بممارسته منها بشرحه، وكنت أنا - دون رجال العالم طرا - أقلهم قابلية لأن أتعلّمه!.. ومن ثم فقد كانت مُحَاوَلَاتُهَا في هذا الاتجاه - جهودا مضية، وكذلك كان حال كل ما تجشمته لتزودني بأساتذة للمبارزة والرقص. ومع أنني كنت لَدُنَّ العود، حسن القوام إلا أنني لم أتعلّم قط كيف أرقص، ولو لدقيقة واحدة، فلقد اعتدت - بفضل البشور "الكاللو" - أن أسير على عقبي قدمي، وهي عادة لم يستطع "رووش" أن يشفيني منها. وبالرغم من خفة مظهري فإنني لم أكن قادرا يوما على أن أقفز عبر حفرة عادية. وكانت حالي أنكى في مدرسة المبارزة. فقد ظللت - بعد ثلاثة أشهر من الدراسة -

(١) "أسباسيا": كانت عشيقة بريكليس السياسي الاثيني، في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وقد كان سالونها ملتقى اللامعين من مشاهير أثينا. (٢) يقصد العلاقة الجنسية التي قامت بينه وبين مدام "دي فاران"

مضطرا إلى أن أقتصرَ على الصُّد والمراوغة، بعيدا عن أن أقوى على الهجوم.. كما أنني لم أوت قط رِسْغا لينة أو ذراعا ثابتة، بحيث تحتفظ بالشيش كلما حلا للاستاذ أن يطوح بها. أضف إلى ذلك أنني أوتيت نفورا قاتلا من هذه الرياضة، ومن المدرس الذي كان يحاول أن يعلمنيها. فما آمنت قط بأن من المستساغ الفخر بفن قتل أي إنسان!.. ولكي يُدْخِلَ المدرسَ عِلْمَهُ الواسعَ في ذهني اعتاد ألا يشرحه إلا بمقارنات مقتبسة عن الموسيقى، التي لم يكن يلم بشيء منها، فوجد أوجها لتشابه عجيب بين أبعاد الثلث والربع (١)، وبين المسافات الموسيقية التي تحمل الاسم ذاته. وكان إذا أراد أن يقوم بحركة خَادَعَة، دعاني إلى أن انتبه إلى DIESE (٢)، لأن النغمات الحادة كانت تسمى قديما FIENTES (٣).. وإذا أراد أن يطوح بشيشي من يدي قال ضاحكا إن هذه "وقفة".. وقصاري

القول: إنني لم أر في حياتي متعلما (٤) لا يطاق أكثر من هذا المسكين، بريشته وصدارته الجلدية. ومن ثم فإن تَقَدُّمي في تدريباتي كان بسيطا، حتى إنني لم ألث أن هجرتها لجرد كراهيتي لها ولكنني أحرزت تفوقا في فن أكثر نفعا، هو: القناعة بحظي، وعدم الطمع في نصيب أشد بريقا، كنت قد بدأت أشعر أنني لم أخلق له!.. وإذا كنتُ منصرفا بكل نفسي إلى الرغبة في إتاحة حياة سعيدة لـ "ماما"، فإنني كنت أحس دائما بمزيد من الغبطة في قُرْبها.. ولما كانت دروسي الموسيقية كثيرا ما تضطرنني إلى البُعْد عنها لأهرع إلى المدينة فإنني بدأت -برغم شغفي بالموسيقى- أشعر بضيق من هذه الدروس!

ولست أدري ما إذا كان "كلود آفيه" قد لاحظ تَوَثُّقَ علاقتنا، وعندي ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا لم يَحْفَ عليه، لقد كان فتى شديد الذكاء، ولكنه كان شديد التكتيم، لا يتحدث قط بما يناقض تفكيره، بيد أنه لم يكن يبوح بهذا التفكير دائما، ومع أنه لم يُبدِ أتفه بادرة عن علمه بالامر إلا أنه أظهر هذا العلم بمسلكه.. وما كان هذا المسلك صادرا عن خسة نفس، وإنما عن اعتناق لمبادئ سيده، مما لم يكن يملك معه أن يَسْتَهْجِنَ تصرفها وفقا لهذه المبادئ. ومع أنه كان أصغر منها سنا إلا أنه كان من التَضُّوج والوقار بحيث إنه نظر إلينا كما لو كنا طفلين جديرين بالإشفاق والتسامح، بينما رُحنا ننظر إليه كرجل محترم، نكن له تقديرا ومراعاة.. وما أدركت مدى العلاقة التي كانت بينه وبينها إلا بعد أن خَانَتْهُ. ولما كانت تعلم أنني لم أكن أفكر إلا بفكرها، ولا أشعر إلا بشمورها، ولا أتنفس إلا عن طريقها، فقد أطلعتني على مدى حبها له، حتى أكن له نفس المحبة، وكانت أقل إسهابا في بيان ودها، منها في بيان تقديرها له، فقد كان هذا هو الشعور الذي أستطيع أن أشاركها إياه كل المشاركة. وكم من مرة هفت بقلبي -أنا وهو- وجعلتنا تَتَعَانَقُ باكبين، إذ راحت تقول لنا إننا لآزمان معا لإسعاد حياتنا!.. ألا ليت اللاتي يقرآن هذا لا يبتسمن في خي!.. فإن طباع السيدة كانت تجعل هذه الضرورة أمرا لا مرية فيه.. كانت ضرورة نابعة عن فؤادها فحسب!

وهكذا قامت بين "ثلاثتنا" زَمَالَة قد لا يكون لها مثيل على الأرض!.. كانت جميع أمانينا، وميولنا، وقلوبنا مشتركة، وما كان أي منها يتجاوز نطاق هذه الحلقة الصغيرة. وأصبح اعتياد العيش معا، والحياة في مَعَزَلٍ عن الدنيا، من القوة بحيث إن كل شيء كان ينقلب في أنظارنا إذا غاب واحد من ثلاثتنا عن المائدة، أو شاركنا الوجبات رابع!.. وبالرغم من الروابط الخاصة التي كانت بيننا فإن الخلوات بين أي اثنين منا لم تكن في حلاوة اجتماع ثلاثتنا.. وكان الذي حال دون أي توتر بيننا هو الثقة البالغة المتبادلة، والذي عصمنا من الملل هو أننا كنا جد مَشْغُولِينَ، إذ كانت "ماما" لا تنفك

(١) من مصطلحات أبعاد الخطوات في المصارعة. (٢) علامة من علامات الموسيقى ترفع العلامة التي تليها بنفس مقام. (٣) المعنى اللغوي يخدع أو يغرر.. وفي الموسيقى نغم حاد.. (٤) المتعلم هو الذي يدعى العلم..

تبتكر المشروعات ولا تكف عن العمل، ولا تسمح لأي منا بأن يركن إلى الخمول.. كما كان لدى كل منا من العمل الخاص ما يكفي للء أوقاتنا. وفي رأيي أن البطالة ليست أقل من الوحدة إفسادا للجماعة.. وليس أدعى لتضييق الأفق، ولا أكثر مدعاة للتفاهة، واللغو، والاحقاد، والمنغصات، والأكاذيب، من أن تمكث جماعة - إلى الأبد - بين جدران غرفة واحدة، متقابلين، وليس لديهم من عمل سوى الثرثرة باستمرار.. فإنه إذا كان لدى كل امرئ ما يشغله فهو لن يتكلم إلا إذا كان لديه شيء يقال. أما إذا لم يكن لديه عمل فإنه لا يجد أمامه سوى الكلام بلا انقطاع، وهذا أدعى الأمور للضجر وأخطرها!.. بل إنني لأجرؤ على أن أذهب إلى أبعد من هذا، فأقول: إنه لابد - لجعل أية صحة ملائمة حقاً - من أن يقوم كل امرئ لا بعمل أي كان، فحسب، وإنما بعمل يتطلب قدراً من الاهتمام. فالحياسة مثلاً ليست عملاً، ومن ثم فإن مهمة تسلية امرأة تقوم بالحياسة تتطلب عناء يعادل ما تتطلبه تسلية امرأة تجلس مكتوفة اليدين. أما حين تطرؤ، فإن الأمر يختلف، إذ إن التطرؤ يشغلها بدرجة تكفي للء فترات الصمت. والمزج المضحك، هو أن ترى في مكان ما مثلاً اثني عشر أخرق ثقيل الدم، يقومون، ويجلسون، ويغدون، ويروحون، ويدورون على أعقابهم، ويحركون التحف - التي على رف المدفأة - مائتي مرة، ويعتصرون أمخاخهم ليبقوا على تيار الكلمات دافقاً لا ينضب.. ما أبدعها من مهمة!.. مثل هؤلاء - أيأ كانوا - يصبح بعضهم عبئاً على بعض، وعلى أنفسهم! ولقد اغتذت - حين كنت في "موتيسر" - أن أذهب لصنع الأشرطة المجدولة في دور الجيران.. ولو أنني عدت إلى ذلك المجتمع لحملت في جيبى دائماً "البيلوكة" (١)، وللعبت بها طوال النهار، لأشغل بها عن الكلام عندما لا يكون لدي ما يقال. ولو أن كل امرئ فعل ذلك، لأصبح الناس أقل شراً، ولأصبحت مجتمعاتهم أسلم، وأحب، على ما اعتقد! وقصارى القول: دع الما جنين يضحكون، ولكنني أرى أن المذهب الخلقي الوحيد الذي في متناول القرن الحاضر، هو مذهب "البيلوكية"!

والى جانب هذا، لم يكن لدينا وقت كافٍ للتحوط ضد السام عندما نكون معاً، فإن الزائرين المزعجين كانوا يسببون لنا من السام ما يجعلنا لا نشعر بشيء منه إذا ما خلا بعضنا إلى بعض!.. ولم يكن الضيق - الذي اعتادوا أن يوحوا إلي به من قبل - قد تضائل. وكل ما كان هناك من اختلاف هو أنني لم أعد أجد وقتاً كافياً لأن أسلم نفسي إليه!.. ولم تكن "ماما" المسكينة قد فقدت شيئاً من شغفها القديم بالمشروعات والخطط، بل إن الأمر كان على النقيض، فبازدياد إلحاح حاجاتها المعيشية أخذت تزداد إغراقاً في المشروعات لسد هذه الحاجات.. وبقدرة ما قلت مواردها الراحنة ازدادت تدبيراً لها في أوامها بشأن المستقبل. ولم يزداد مرور السنين إلا إغراقاً في هذا التهور، وبقدرة ما كانت تفقد من ميل إلى ملاذ الدنيا والشباب، أخذت تعوضه بميل إلى الأسرار والخطط. فلم يكن البيت ليخلو قط من المشعوذين، والصناع، والكيميائيين والمغامرين على اختلاف أنواعهم، الذين كانوا يُعَثِّرون الثروات بالملايين، وينتهون إلى أن يصبحوا بحاجة إلى دينار!.. ولم يكن أي واحد منهم ليخرج من لدنها صفر اليدين، وقد كان من بواعث ذهولي أنها كانت قادرة - لوقت طويل - على مثل هذا الإسراف دون أن ترهق مواردها، أو تستنفد صبر دائئها!

كان المشروع الذي شغلها أكثر من أي شيء آخر - في الوقت الذي أخذت عنه - والذي لم يكن أبعد المشروعات التي صاغتها عن المعقول، هو إنشاء حديقة ملكية للنباتات في "شامبيرى"، يُعَيَّن لها مديراً وفي وسع المرء أن يفهم مقدماً من الذي كان موعوداً بهذا المنصب. فإن موقع هذه المدينة وسط جبال "الألب" كان جد مناسب للتجارب النباتية، ولما كانت "ماما" تحاول دائماً أن تساعد كل

(١) البيلوكة: لعبة تتألف من كرة مثقوبة، تتصل بخيط دقيق بعضاً صغيرة مديبة في أحد طرفيها، ومجوفة في الآخر.. ويمسك المرء بالطرف النديب، ويطلع الكرة في الهواء محاولاً إدخالها في الطرف الجوف. وقد شاع أخيراً نوع منها يتألف من كرة وكوب صغيرة من البلاستيك.

مشروع بآخر، فإنها قرّنت هذا المشروع بمشروع كلية للصيدلة، الأمر الذي بدا مفيدا -حقا- لمنطقة فقيرة في هذا الباب إلى درجة أن الصيادلة كانوا الأطباء الوحيدين فيها تقريبا!.. وكانت إقامة الطبيب الأول "جروسى" في "شامبيرى" -بعد موت الملك "فيكتور"، تبدو لها ملائمة جدا للفكرة، أو لعلها هي التي أوّخت بها. ومهما يكن الأمر فإنها أقبلت على تملّق "جروسى" المذكور الذي لم يكن بالشخص السهل المراس بل كان أكثر من عرفت في حياتي سخرية وقسوة، وسبحكم القارئ على ذلك من حادثين أو ثلاثة أذكرها كنماذج!

فلقد كان "جروسى" يتشاور يوما مع أطباء آخرين، استدعى أحدهم من "أنيسى" ليعالج مريضا. وجرو هذا الأخير -الذي لم يكن قد استكمل لياقته كطبيب- على أن يعارض رأي السيد الطبيب الأول "جروسى"، فكان رد هذا الأخير عليه، أن سأل عن موعد عودته من حيث أتى، وعن الطريق التي اعتمز أن يسلكها، والمركبة التي سوف يستقلها! وإذا أجاب الآخر عن كل هذه الأسئلة، سأل "مستجوبه" بدوره عما إذا كان يستطيع أن يؤدي له أية خدمة، فقال "جروسى": "لا، لا خدمة هناك.. وإنما أريد أن أقف في نافذة على طريقك، لاستمتع برؤية حمار يركب جوادا!"

وكان "جروسى" بخيلا بقدر ما كان غنيا وصعب المراس. ولقد أراد أحد أصدقائه يوما على أن يقرضه نقودا، بضمائن طبية، فقال له وهو يمسك بذراعه، وقد كثر عن أنيابه: "يا صديقي.. إذا هبط القديس "بطرس" من السماء ليقترض مني عشر "بيستولات" (١)، وقدم لي المهدي المقدس ضامنا لما أقرضته!.. وفي ذات يوم، دعي للغداء لدى السيد "الكونت بيكون"، حاكم "سافوا" -الذي كان شديد الدين- فوصل قبل الموعد، وكان صاحب السعادة منصرفا إلى تسميحاته، فعرض عليه أن يتسلى بالتسبيح. وإذا لم يدر الطبيب بماذا يجيب، ابتسم ابتسامة رهيبة، وركع، ولكنه لم يكذب يثلو اثنتين من التسميحات اللائكية، حتى عجز عن الاحتمال، فنهض على حين غرة، وتناول عصاه، وانصرف بدون أن ينس بيت شقة! فهرع الكونت "بيكون" خلفه، وهو يصيح به: "يا سيد "جروسى" يا سيد "جروسى" ا! امكث، فإن على السّفود حَجَلًا بديعا" (٢). قالتفت إليه الآخر مجيبا: "يا سيدي الكونت لو أنك وهبتي ملاكا مشويا لما بقيت!.. هذا هو السيد الطبيب الأول "جروسى"، الذي تولته "ماما" وانتهت إلى ترويضه. ومع أنه كان جم المشاغل إلى أقصى حد، فقد اعتاد أن يتردد كثيرا جدا على دارها، وقد اصطفى "آنيه" فأثره بوده، مُبْدِياً تقديره لعلمه، متحدثا عنه باحترام. والأمر الذي ما كان ليتوقعه أحد من دب شرس كهذا، أنه راح يعامل الوصيف باحترام كبير، ليمحو آثار الماضي! ذلك لأنه وإن كان "آنيه" لم يعد في مرتبة الخدم إلا أنه كان من المعروف أنه كان من قبل خادما، ولم يكن يعوزه شيء قدر مُسَلِّك الطبيب الأول، واحترامه، كيما يعامله الناس بأسلوب ما كانوا لياخذوه قط عن شخص آخر سوى "جروسى"!. وكان "كلود آنيه" بيزته السوداء، وشعره المستعار الجيد التنسيق، ومظهره الجاد الوقور، ومسلكه الرصين الحذر، وإلمامه الواسع بعلم النبات والطب، وتأييد رئيس الكلية له، خليقا بأن يجعله يامل -بحق- في أن يشغل منصب مدير حديقة النباتات الملكية، لو قُدِّرَ للمشروع أن يتحقق! والواقع أن "جروسى" حبَّذ المشروع، واحتضنه، ولم يعد ينتظر لعرضه على البلاط الملكي، سوى اللحظة التي يسمح فيها استقرار السلم بالتفكير في الأشياء المفيدة، وتوفير بعض المال من أجلها.

ولكن هذا المشروع -الذي كان من المحتمل أن يصرفني تحقيقه إلى التفرغ لعلم النبات، إذ كان يخيل إلي أنني خلّقت له- أخفق بسبب حادث من هذه الحوادث التي تقلب خير الخطط المتناسقة.

(١) عملة ذهبية قديمة، كانت قيمتها تتغير بتغير العصر والبلد الذي يصكها. (٢) السّفود: المشواة. والحجل: نوع من الطيور.

وكان مقدرا علي أن أصبح تدريجيا مثالا للإنسان البائس . ومن الممكن القول : إن العناية الإلهية -التي كانت تبثني بتلك الاختبارات الضخمة- كانت تزيج بيدها كل ما كان يمنعي من خوض تلك المحن . ففي إحدى الجولات التي كان "آنيه" يقوم بها إلى أعالي الجبال للبحث عن "الجنبة" -وهي نبات نادر لم يكن ينمو إلا على جبال الالب، وكان السيد "جروسى" بحاجة إليه- تعرض الفتى المسكين لحرارة أدت إلى إصابته بنوبة من داء الجنب (التهاب غشاء البلوري)، لم تقو "الجنبة" على إنقاذه منها، ورغم ما كان يقال من أنها علاج لهذا الداء بالذات . وبالرغم من كل مهارة "جروسى"، الذي كان نطاسياً حاذقاً حقاً، وبالرغم من العناية التي لا حد لها والتي بذلناها -سَيِّدَةُ الطَّبِيبَةِ وأنا- له، فإنه مات بين أيدينا، في اليوم الخامس، بعد أن عانى آلاماً فظيعة في النزاع الأخير، لم يجد خلالها سِوى دعواتي التي رحت أبذلها في أسى وحماس بالغين، والتي كانت خليقة بأن تسري عنه لو أنه فهمها... وهكذا فقدت أوفى صديق حظيت به في حياتي .. رجلاً جديراً بالتقدير، نادراً، نَوَّلْتُ الطَّبِيبَةَ تربيته وتعليمه، وكان -وهو في منصبه كخادم- يغذي قلبه بكل فضائل العظماء، ولعله لم يكن بحاجة -لكي يظهر الدنيا بأسرها على أنه من هؤلاء- إلا لعمر أطول، ومركز أفضل!

وفي اليوم التالي، كنت أتحدث عنه إلى "ماما" بأشد وأصدق الأسى، عندما خطرت لي فجأة -وسط الكلام- أدنا وأخيب فكرة: تلك هي أنني خليق بأن أرث ثيابه، ولا سيما بزة سوداء أنيقة كانت تستهويني... فكرت في هذا، فإذا بي أفصح عنه، إذ إن التفكير والقول كانا مترادفين عندي حين أكون بالقرب من "ماما". ولم يجعلها شيء أكثر شعوراً بالخسارة التي منيت بها، قدر هذه الكلمة المتهورة البغيضة، فقد كان إنكار الذات ونبل النفس خَصْلَتَيْنِ امتاز بهما الراحل . وأشاحت عني المرأة المسكينة -دون أن تجيب بكلمة- وانخرطت في البكاء... وما كان أعز دموعها وأغلاها! لقد أفصحت هذه الدموع عن معانيها، وانسابت إلى فؤادي، ففسلت عنه آخر آثار الاحاسيس الخسيسة، غير الكريمة... فلم تدخله هذه الاحاسيس بعد ذلك!

ولقد أضرت هذه الخسارة بـ"ماما"، بقدر ما أحزنتها، فلم تكف شؤوئها عن الانهيار منذ تلك اللحظة، إذ كان "آنيه" فتى دقيقاً، منظماً، عني بتنظيم دار سيدته . وكانت بقطته مهابة من الخدم، فإذا الإسراف يتضاءل... حتى "ماما" نفسها كانت تخشى لومه، وتحد من نفقاتها . ولم تكن تكثفي بحبه، بل كانت ترغب في الاحتفاظ بتقديره، وكانت تخشى اللوم العادل الذي كان يجزؤ أحياناً على إبدائه، إذ كانت تسخو بمال غيرها لا بمالها فحسب!... ولقد كنت أرى رأيه في هذا، بل وأعريت عنه فعلاً، ولكني لم أوت ما كان له من نفوذ عليها، فلم يكن لأقوالي ما كان لأقواله من تأثير لديها . ولما لم يعد له وجود اضطررت إلى أن أتخذ مكانه، وهو ما كنت قليل المقدرة عليه والميل إليه، فلم أحسن ملء المركز، إذ إنني كنت قليل العناية، شديد الحجل، فتركت كل شيء يسير على هواه، وأنا أنحو على نفسي باللائمة، وبجانب هذا، فإنني لم أحظ بسلطانته، وإن حظيت بنفس الثقة التي كان ينعم بها . وكنت أرى الفوضى فأتحسر عليها، وأشكو منها، ولكن أحداً لم يكن يُصْغِي إلي . فقد كنت أصغر سناً وأكثر مرحاً من أن أبدو عاقلاً حكيماً . وعندما كنت أسعى للتدخل والرقابة كانت "ماما" تقابلني بصَفَعَاتٍ بسيطة مُدَلِّلة، وتدعوني بمِرْشِدها الصغير، وتضطرني إلى أن أعود للدور الذي كان يلائمني!

وكان الاقتناع العميق بالضائقة التي كان إسرافها المطلق كفيلاً بأن يفرقها فيها -إن عاجلاً أو آجلاً- قد ترك أثراً في نفسي... وقد اشتد هذا الأثر كثيراً حين أصبحت -كمشرف على شؤون الدار-

قادرا على أن أتبين بنفسي الفارق بين دخلها ونفقاتها، فقد كانت كَفَّةُ الأخيرة أرجح! - وإلى هذه الفترة أرجع تاريخ الميل الذي استشعرته منذ ذلك الحين إلى التقدير - وأنا لم أكن قط مسرفا في نزع، إلا في نوبات عابرة، ولكنني حتى ذلك الحين لم أكن قد حملت هم ما إذا كانت ثمة نفود كثيرة أو قليلة.. فبدأت أهتم بهذا، وأُعنى بكيس نقودي.. وهكذا تحولت إلى البخل، نتيجة باعث رائع جدا، ذلك أن همي الاوحد انحصر - في الحقيقة - في: كيف أقتصد لـ "ماما" شيئا يقيها محنة الانهيار الذي كنت أراه مقبلا؟! وكنت أخشى أن يحجز دائنوها على معاشها، أو أن ينقطع هذا المعاش نهائيا، فخيّل إلي - لضيق عقلي - أن مدخراتي الضئيلة ستكون، إذ ذاك، عظمة النفع لها! على أنه لا ذخار شيء ما، ولحفظه - قبل كل شيء - كان لابد من مكان لإخفائه فيه عنها، إذ لم يكن من المجدي لهذه الخطة أن تعرف "ماما" شيئا عن وجود مدخراتي القليلة، عندما تكون في أشد الحاجة إلى المال!.. ومن ثم رحلت أبحث عن عدة مخايب أودعتها بضع قطع من ففة "اللولو"، معتزما أن أضاعف الرصيد بين وقت وآخر، إلى أن تحين اللحظة التي كنت أعتمزم أن أطرحه فيها عند قدميها! ولكنني كنت من الارتباك في اختيار مخايبتي بحيث إن "ماما" كانت دائما تُعثرُ عليها، إذ ذاك كانت تشعرني بذلك، بأن تأخذ النقود التي أودعتها، وتضع بدلا منها مبلغا أكبر، من عملات أخرى مخالفة!.. وكنت أشعر من ذلك بخجل بالغ، فاضع كنزي الصغير في صندوق النفقات العامة، (فإنها لم تكن تغفل قط عن أن تنفقه على ثياب أو أشياء أخرى لي، كسيف ذي مقبض فضي، أو ساعة، أو أي شيء من هذا القبيل)!

وإذ أيقنت من أنني لن أفلح في الادخار، وأن ما أذخره لن يكون - بعد ذلك - ذا نفع يذكر لها، شعرت أخيرا بأنه لم يعد ثمة ما يُعملُ إزاء النكبة التي كنت أخشاها، اللهم إلا أن أحصل على منصب يمكنني من أن أعولها بنفسي، بمجرد أن تكف عن إمدادي بالمال، وبمجرد أن تجد نفسها في فاقة!.. ووضعت خططي على أساس ميولي الخاصة - لسوء الحظ - فاضررت في غباء على أن أنشد نجاحا في الموسيقى، إذ أحسست بأنغام وألحان تتصاعد في رأسي، فظننت أنني مستطيع - بمجرد أن أصبح في مركز يمكنني من استغلالها - أن أغدو شهيرا، وأن أصبح "أورفيه" (١) حديثا، لا تخفق أنغامه في اجتذاب فضة "بيرو" (٢) بأسرها!.. ولما كنت قد بدأت إذ ذاك أقرأ "النوتة" بإتقان كبير فإن المسألة أصبحت متشعبة في: كيف أستطيع أن أتعلم التلحين؟.. وكانت الصعوبة هي أن أعثر على من يعلمني؛ لأنني لم أكن أأمل أن أتمكن من أن أعلم نفسي بمساعدة كتاب "رامسو" - الذي كنت أعتر به - فحسب.. ولم يكن في "سافوا" - منذ رحيل "لوميتير" - امرؤ على دراية بأي شيء عن تناسق النغم!

وهنا يترأى مظهر آخر من مظاهر التناقض التي تحفل بها حياتي، والتي كثيرا ما أفضت بي إلى أن أحيّد عن غايتي، حتى وأنا أظن أنني أسير إليها صادقا: فإن "فينشور" كان قد تحدث إلي كثيرا عن الراهب "بلائنشار"، أستاذه في التلحين.. وكان رجلا قديرا، عظيم الموهبة، كان إذ ذاك أستاذا للموسيقى في كاتدرائية "بيزانسون"، وهو يشغل اليوم عين المنصب في كنيسة "فرصاي". وقلت لنفسني: إنني خليق بالذهاب إلى "بيزانسون" لأتلقى دراسة على الأب "بلائنشار"، وقد بدت لي هذه الفكرة معقولة، حتى إنني سمعت إلى أن أحمل "ماما" على أن تراها كذلك. فإذا بها تعمل على

(١) "أورفيه" هو "أورفيوس"، الشاعر والموسيقي الإغريقي الذي ورد ذكره في الأساطير على أنه ابن "أبوللو"، ويعزى إليه أنه ابتعد الرمة "هاديس" من الموت بموسيقاه العذبة وألحانه الساحرة. وقد استجاب له الآلهة على شريطة أن يسير أمام "هاديس" دون أن يلتفت خلفه لينظر إليها، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على وعده، فعادت إلى موتها. وقد نسبت إليه عقيدة دينية تصوفية، من أهم معالمها الإيمان بحياة جديدة بعد الموت.

(٢) "بيرو" إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية، وقد اشتهرت بأنها غنية بمناجم الفضة وبعض المعادن الأخرى.

إعداد متاعبي البسيط، وقد فعلت ذلك بالإسراف الذي كانت تلجأ إليه في كل شيء. وهكذا.. بينما كنت أهدف دائما إلى تفادي إفلاسها، وإلى أن أصلح في المستقبل نتائج إسرافها، إذا بقي أبداً - في نفس اللحظة - بتكيدها ثمانمائة فرنك!.. فعجلتُ خرابها لكي أهيئ نفسي لعلاج حالها! ومهما تكن الحماسة التي انطوى عليها هذا التصرف فإن الوهم كان بأكمله راجعا إلي، وإليها هي الأخرى. فقد أقنع كل منا الآخر، فكنت من ناحيتي مقتنعا بأنني أقوم بعمل نافع من أجلها، وكانت هي مقتنعة بأنني أقوم بعمل نافع من أجل نفسي!

وكنْتُ أَعُوْلُ على أنني سأجد "فينتور" باقيا في "أنيسي"، فاحصل منه على خطاب إلى الأب "بلانشار". ولكنه لم يكن هناك، وكان علي أن أقنع من الدراسة كلها - بقدراس من أربعة أجزاء، من تلحينه، كان قد تركه لي. وبهذه الشفاعة ذهبت إلى "بيزانسون"، مارا بـ "جنيف" - حيث زرتُ أهلي - وبـ "ليون"، حيث زرت أبي الذي تلقاني كالمعتاد، وتكفل بأن يرسل في أثري حقيبتَي لكنها لم تصل إلا بعدي، لأنني كنت مسافرا على جواد.. ووصلت إلى "بيزانسون"، فاحسن الأب "بلانشار" استقبالي، ووعدني بأن يزودني بدروسه، وقَدَّم إلي خدماته. وفيما نحن على أهبة البدء إذا بي أعلم من أبي بأن حقيبتَي قد ضيقت وصودرت في "روس"، وهي نقطة للجمارك الفرنسية على الحدود السويسرية. وفي غمرة انزعاجي لهذا النباء، انتفعت بالاصدقاء الذين اكتسبتهم في "بيزانسون" لمعرفة السبب الداعي لهذه المصادرة، إذ لم أتصور أي مبرر لها، بحكم اطمئنانني إلى أنني لم أكن أمتلك شيئا من المهربات. وأخيرا عرفت السبب، ولابد لي من ذكره لأنه أمر عجيب! ذلك أنني كنت قد التقيت في "شامبييري" بكهل من "ليون" يدعى "ديفيغيه"، كان قد عمل في إدارة الجوازات، في عهد الوصاية، وقد وفد ليعمل في المساحة، لحاجته إلى عمل. وكان قد عاش في المجتمعات الراقية، وأوتي مواهب وقدرا من المعرفة، واللطف، والادب، كما كان ملما بالموسيقى. ولما كنت أعمل في حجرة واحدة معه فإن كلا منا مال إلى إيثار الآخر، وسط الدببة المسعورة التي كانت تحيط بنا.. وكان له مراسلون في "باريس" يوافونه بتلك التفاهات الرخيصة، وتلك المطبوعات اليومية التي تنتشر دون أن يدري أحد كيف تنتشر، وتموت دون أن يدري أحد كيف تموت، ثم لا يعود أحد إلى التفكير فيها بعد أن تغيب عن الذكر. ولما كنت أصطحبه معي أحيانا لتناول الغداء لدى "ماما"، فإنه كان يعاملني بقدر كبير من الاحترام. ولكي يجعل نفسه حلو المعشر، كان يحاول أن يحملني على أن أحب هذه الصحف التافهة التي كنت أنفر منها دائما إلى درجة أنني لم أقرأ من تلقاء نفسي شيئا منها في حياتي. ولسوء حظي أن إحدى هذه الورقات اللعينة، ظلت في جيب صدر إحدى السترات الجديدة التي لم أكن قد ارتديتها سوى مرتين أو ثلاثا لكي لا يتعرض لها رجال الجمارك. وكانت تلك الوريقة تضم تحريفا "يانسينيا" (١) غشا لمشهد جميل لمسرحية راسين "ميشريداث".. ولم أكن قد قرأت من هذا التحريف سوى عشرة أبيات شعرية، ثم تركتها، ونسيتها في جيب. وكان هذا ما أدى إلى مصادرة امتعتي، فإن رجال الجمارك الذين أشرفوا على تفتيش حقيبتَي بناو على هذه الوريقة قضية كبيرة، زاعمين أنها اجتلبت من "جنيف" لتطبع وتوزع في "فرنسا"، وشنوا حملة من الطعن والقدح المبنيين على التقوى، ضد "أعداء الله والكنيسة". ومن المدح والثناء على أولئك الذين استطاعوا بيقظتهم وتقواهم أن يحولوا دون تنفيذ هذا المشروع الجهنمي!.. ولابد أنهم وجدوا أن أقمصتي كانت هي الأخرى تُنْصَحُ بالزندقة، إذ إنهم - استنادا إلى هذه الوريقة الرهيبة - صادروا كل

(١) اليانسينية مذهب ديني ابتدعه قس هولندي يدعى "كورنيليس يانسين" في القرن السابع عشر، ونادى فيه بأن تعاليم القديس أو غسطين بشأن الغفران وحرية الإرادة والقدر تتعارض مع آراء رجال الدين المحدثين، لا سيما الجيزويت (اليسوعيين). وقد اشتد الصراع بين أتباع "يانسين" والجزويت في فرنسا، ومن هذا نذكر الأهمية التي أضفناها لموظفو الجمارك على القصيدة التي وجدت لدى "روس".

شيء، فلم ألتق أبداً أي نبا أو بيان عن حقيقتي البائسة! ولقد طلب الموظفون الذين كتبت إليهم أوسطهم في الأمر، معلومات وبيانات، وشهادات، ومذكرات، بلغ من كثرتها أنني بعد أن تخطيطت ألف مرة في هذا التيه، اضطررت إلى التخلي عن كل شيء! وإنني لنادم حقاً على عدم الاحتفاظ بالدعوى التي وضعها موظفو "روسو"، فقد كانت خليقة بأن تبرز وأن تكون موضع امتياز بين الوثائق التي ستصحب هذا المؤلف.

وجعلتني هذه الحسارة أبادر بالعودة إلى "شامبيري" دون أن أكون قد أبرمت شيئاً مع الأب "بلانشار". وبعد أن وزنت كل الأمور، وتبينت أن النحاس يلاحقني في كل مشروعاتي، عقدت العزم على أن أنصرف بكل جوارحي إلى "ماما" وحدها، وأن أشاركها حفظها، والأعود إلى الاهتمام غير المجدي بمستقبل لم أكن أملك إزاءه شيئاً. وقد تلقتني "ماما" وكأنني جليتُ إليها كنوزاً، وزودت صوان ملابسي الصغير شيئاً فشيئاً، وسرعان ما تنوسي تقريباً سوء طالعني الذي كان فادحاً سواء لي أو لها!

ومع أن هذا النحاس قد هدأ من حدة مشروعاتي الموسيقية إلا أنني لم أتخل قط عن أن أدرس كتاب "رامو" باستمرار، وانتهيت بفضل الجهد الشاق إلى أن أستوعبه، وإلى أن أقوم ببضع محاولات صغيرة في التلحين، شجعتني نجاحها. وكان الكونت "دي بيلجارده" -ابن مركز "دانترمون" - قد عاد من "دورسدن" بعد موت الملك "أوجيست". وكان قد أقام ردها طويلاً في "باريس"، وأحب للموسيقى حباً جماً، وشغف بمؤلفات "رامو" بوجه خاص. وكان أخوه الكونت "دي نانجي" يعزف على الكمان، والسيدة الكونتيسة "ديلاتور" -شقيقتهما- تجيد الغناء بعض الشيء. فأدى كل هذا إلى أن أصبحت الموسيقى هي الهواية الشائعة في "شامبيري"، وأنشئ نوع من الفرقة الموسيقية العامة. وقد أزدادوا في بادئ الأمر منحي إدارة هذه الفرقة، ولكن سرعاناً ما تجلّى أنها فوق طاقتي، فأتخذت تدبيرات أخرى. ولم أتخل عن تقديم بضع قطع صغيرة من تلحيني، بينها أغنية أصابت رضاء كثيراً. ولم تكن هذه الأغنية قطعة بدعية التلحين ولكنها كانت مليئة بالوان جديدة من الغناء، ومؤثرات ما كان أحد يرتقبها مني. ولم يستطع هؤلاء السادة أن يصدقوا أنني -وقد كنت أسيء قراءة المقطوعات الموسيقية- كنت في وضع يمكنني من تأليف ألحان مقبولة، فلم يرتابوا قط في أنني انتحلت لنفسني فخر عمل سواي!.. ولكي يتحروا الأمر أقبل السيد "دي نانجي" ذات صباح ليبحث عني، ومعه إحدى أغاني "كليرامبو"، وقد عدل فيها -كما قال لي- لكي تلائم صوته، غير أنه كان من الضروري وضع أنغام أخرى للترنيم الثاني، إذ إن التعديل جعل من غير الممكن عزف الأنغام التي وضعها "كليرامبو" على الكمان الكبيرة. وأجبت بآن هذا عمل ضخم، لا يمكن أدائه في التو، فظن أنني أبحث عن مهرب، وألح علي في أن أضع له -على الأقل- أنغام ترنيم إلثائي ففعلت. وقد أسأت في ذلك بلا شك؛ لأنه لا بد لي، لكي أجيد أداء أي أمر، أن أكون على سجليتي وحررتي.. بيد أنني وضعت ما طلبت مني وفقاً للقواعد على الأقل، ولما كان السيد حاضراً، فإنه لم يستطع أن يرتاب في أنني لم بأصول التلحين. ومن ثم فإنني لم أفقد تلاميذي، ولكنني ازدددت فتوراً -بعض الشيء- نحو الموسيقى، إذ رأيت القوم قد ألفوا فرقة موسيقية وأهملوني في تأليفها!



وحوالي ذلك الوقت، عقد الصلح وساد السلام، وعبر الجيش الفرنسي الجبال عائداً إلى بلاده..

وجاء عدد من الضباط لزيارة "ماما"، كان بينهم السيد الكونت "لوتريك" -قائد كتيبة "أورليان"، والمندوب المفوض في "جنيف" بعد ذلك، وإذا سَمِعَهَا تتحدث عني أبدى اهتماما كبيرا بي، ووعدني بأمور كثيرة، لم يندكرها البتة إلا في العام الأخير من حياته، عندما لم أكن بحاجة إليه... كما مر بـ "شامبيري" -في الوقت ذاته- مركز "دي سنيكتير" الشاب، الذي كان أبوه إذ ذاك سفيراً لدى "تورين"، فتناول الغداء في دار السيدة "دي مانتون"، وكنت أنا الآخر أتغدى هناك في ذلك اليوم. وبعد الغداء أثار المركز ذكر الموسيقى، وكان واسع الدّراية بها. وكانت أوبرا "جيفته" حديثة العهد إذ ذاك، فتكلم عنها، وحيء إليه بها، فإذا به يجعلني أرثجف، إذ اقترح أن نؤديها معا... وما إن فتح الكتاب، حتى وقع بصره على هذه المقطوعة الشهيرة، التي يؤديها فريقان من المنشدين "الكورس":

"إن الأرض، والجحيم، بل والسماء ذاتها لترتجف جميعاً أمام الرب"

وسألني: "كم دوراً تريد أن تؤدي؟" .. فاجبت: "سأخذ لنفسني هذه الأدوار الستة" .. ولم أكن قد اعتدت بعد هذه النزوة الفرنسية، وإذا كنت قد أدت الأدوار -مُرْتَبِكاً في بعض الأحيان- إلا أنني لم أدر إطلاقاً كيف يملك رجل واحد أن يؤدي ستة أدوار -بل دورين- في وقت واحد! وما كبديني شيء من المشقة، في ممارسة الموسيقى، أكثر من القفز ببساطة من دور إلى آخر، موجها عيني إلى فصل بأكمله في آن واحد. ولابد أن السيد "دي سنيكتير" انساق -من جراء الطريقة التي أدت بها هذا المشروع- إلى الظن بأنني لم أكن على معرفة بالموسيقى. ولعله أراد أن يتحرى صحة ارتيابه، فاقترح علي أن أكتب "نوتة" أغنية كان يريد أن يقدمها إلى الآنسة "دي مانتون"، فلم أملك أن أرفض.. وراح يترجم بالآغنية وأنا أكتب ودون أن أسأله أن يكسر من التكرار. ثم قرأها بعد ذلك، فوجدها -كما كانت حقيقة- صحيحة التسجيل. وكان قد لاحظ ارتباكاً، فطاب له أن يُطِيبَ في امتداح توفيقتي البسيط. والواقع أنني كنت على معرفة طيبة جداً بالموسيقى، ولم يكن ينقصني سوى سرعة الاستيعاب، من أول نظرة القُبْها، وهو الأمر الذي لم أملكه، والذي لا سبيل إلى اكتسابه في الموسيقى إلا بالمران الدائب.. ومهما يكن الأمر، فإنني تقبلت العناية الأمينة التي بذلها لي -محمو- من اذهان الآخرين، ومن ذهني -الحياة الذي عانيته. ولقد وجدتني مُنْسَاقاً -عدة مرات بعد ذلك- إلى أن أذكره بهذه القصة، عندما كنت ألقي به في عدة دور بـ "باريس"، بعد اثني عشر أو خمسة عشر عاماً، لاريه أنني كنت احتفظ بالذكرى. ولكنه كان قد فَقَدَ بصره منذ ذلك الحين، فَخَشِيتُ أن أجدد شجونه إذ أذكره بالنفع الذي كان يجنيه من هذا البصر فيما مضى، وأمسكت لساني!



وأصل الآن إلى اللحظة التي بدأت تربط وجودي الماضي بوجودي الراهن، فإن بعض الصداقات التي امتدت منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الحاضر، أصبحت جد غالية لدي. وإنها لتحملني كثيراً على أن أتخسر على ما كنت أسعدُ به من خمبول الذكر، حين كان أولئك الذين يعلنون أنهم أصدقاؤني، أصدقاء بالفعل، يحبونني لذاتي، بنية طيبة، لا عن زهو بان يكونوا مرتبطين برجل نابه الذكر، أو عن رغبة خفية في أن يجدوا مزيداً من الفُرص للإساءة إليه... وإلى هذه الفترة أرجع معرفتي الأولى

بصديقي القديم "جوفكور" الذي ظل دائما صديقا لي، برغم جهود الآخرين لإبعاده عني.. ظل دائما؟.. لا، مع الأسف!.. فلقد قُدِّرَ لي أن أخسره. ولكنه لم يكف عن حبي إلا حين كف عن الحياة، ولم تنته صداقتنا إلا بانتهاء عمره. ولقد كان السيد "دي جوفكور" من أرق وأحب الرجال الذين وجدوا على ظهر البسيطة، وما كان من الممكن لأحد أن يراه دون أن يحبه، ولا أن يعيش معه بدون أن يتعلق به في ولاء.. أبدا لم أر في حياتي ملامح أكثر صراحة أو رقة.. ولا وجه أكثر وقارا، أو أكثر إظهارا للحس المرهف والذكاء، أو أكثر إحياء بالثقة!.. ومهما يكن تحفظ المرء، فقد كان من المستحيل عليه أن يتمالك نفسه - منذ أول نظرة - من أن يصبح على لغة معه، وكأنه عرفه منذ عشرين عاما!.. حتى أنا - الذي كان يجد مشقة في أن يكون على سجيته مع الأغراب - اطمأننت إليه منذ اللحظة الأولى. كان سلوكه، ولهجته، وأقواله، تتمشى مجتمعة مع ملامحه. وكان رنين صوته جليا، مليئا، واضح الجرس. كان صوتا عذبا، جهوريا، قويا رنانا، يملا الأذن ويرن في الفؤاد. وما كان في الوسع أن يوجد مرح أكثر اعتدالا، وأكثر لطفا من مرحه.. ولا كياسة أصدق وأبسط من سذاجته، ولا مواهب أكثر تاصلا ونموا وإزهارا من مواهبه!.. أضف إلى هذا قلبا ودودا، مسرفا بعض الشيء في حبه للناس جميعا، وشخصية فعالة للخير دون ترو!.. وكان ميالا لخدمة الأصدقاء في حمية، أو لعله كان يسمى لاكتساب صداقة أولئك الذين يستطيع أن يخدمهم، وهو يدرك أنه إنما يغدو أحذق أداء لشؤونه الزهية، عندما يخدم بحرارة شؤون الغير!

وكان "جوفكور" ابن ساعاتي بسيط وكان - هو الآخر - ساعاتيا، ولكن شكله وكفاءته قاداه إلى جو آخر لم يتلصقا في أن يتفدَّ إليه، فقد تعرف إلى السيد "ديلاكلو سير" - مندوب "فرنسا" المقيم في "جنيف" - الذي أولاه وده، فأحرز له صلات تعارف أخرى في "باريس"، أجدت عليه نفعاً، واستطاع بنفوذ أصحابها أن يظفر بحق إمداد "فاليه" بالملح، مما عاد عليه بدخل قدره عشرون ألف ليرة. وقد انتهت به ثروته - وهي جد كافية - إلى هذا الحد في علاقته بالرجال. أما من ناحية النساء، فقد كان يجد عناء. كان عليه أن يختار، وأن يفعل ما يشاء. وكان من أندر وأشرف ما امتاز به أنه في علاقاته بالأشخاص - من كافة الرتب والدرجات - كان محبواً من الجميع، مرجواً من الناس طرا، دون أن يتعرض لحسد أو بغضاء أي شخص. وإني لأعتقد أنه مات دون أن يرى في حياته عدوا واحدا!.. كم كان سعيدا!.. وكان يذهب في كل عام إلى حمامات "ايكس"، حيث يجتمع خيرة الناس من البلدان المجاورة. وإذا كان على ود مع عليه القوم في "سافوا"، فقد جاء من "ايكس" إلى "شامبيري" لزيارة الكونت "دي بيلجارد" وأبيه المركز "دانترمون".. وفي دارهما عرفته "ماما" وعرفتني به. وقد تجددت هذه المعرفة - التي لم يبد إذ ذاك أن من المقدر لها أن تنتهي إلى شيء. والتي انقطعت عدة سنوات، بعد ذلك - في مناسبة سارويها، وأصبحت ودا وثيقا صادقا. وهذا كاف لأن يبرر حديثي عن صديق كنت وثيق الارتباط به. وحتى إذا لم يكن ثمة مصلحة شخصية في تذكره، فإنه كان رجلا حبيبا، ولد سعيدا، حتى إنني أعتقد دائما أن ذكره جديرة بأن تبقى لتكون فخرا للجنس البشري. ومن المحقق أنه كانت لهذا الرجل الساحر أخطاؤه كغيره من البشر، وكما سيتجلي فيما بعد. ولكن، لعله كان يغدو أقل استئثارا بالحببة إذا لم تكن له أخطاء. فقد كان من الضروري - لجعله جديراً - بالاهتمام إلى أقصى ما كان ممكنا - أن يوجد في مسلكه ما يستحق الصفع والغفران!

وهناك علاقة أخرى تمت إلى ذلك العهد، ولم تفسر بعد، بل إنها لاتزال توعز إلي بالأمل في الهناء الدنيوي الذي يتعذر موته في قلب الإنسان. فلقد شغل السيد "دي كوفزيبه" - وهو سيد من أبناء

"سافو"، كان إذ ذاك شابا لطيفا- بتعلم الموسيقى، أو -بالأحرى- بالتعرف إلى ذلك الذي يَقُولُ تدريسيها. ولقد أوتي السيد "دي كونزيميه" ذكاء وميلا إلى الصداقات الجميلة، وكان يقرن هذا بلطف الخلق؛ مما جعله لين الجانب إلى حد كبير، مثلما كنت أنا الآخر -إلى حد كبير كذلك- بالنسبة لمن أجدهم على هذه الشاكلة. وسرعان ما توثقت صلتنا (١)، فإن بُذُورَ الأدب والفلسفة التي كانت قد بدأت تختمر في رأسي، والتي لم تكن ترتقب سوى شيء من الرعاية والتشجيع لتتحرر لتوها وجدت هذه الرعاية والتشجيع لدى السيد "دي كونزيميه"، إذ كان على قُدْرٍ من الميل إلى الموسيقى، فكان في هذا خير كبير لي، لأن ساعات الدرس راحت تنقضي في كافة الأشياء عدا التدريب على الألحان. وكنا نتناول الفطور معا، ونتجاذب الحديث، ونقرأ بعض المطبوعات الحديثة، ولا نَقُوهُ بكلمة واحدة في الموسيقى. وكانت الرسائل المتبادلة بين "فولتير" وولي عهد "بروسيا" قد أحدثت ضجة في ذلك الحين، فكنا كثيرا ما نتكلم عن هذين الرجلين الشهيرين، اللذين ارتقى أحدهما العرش بعد ذلك بقليل، في حين كان الآخر مَوْضِعَ تشهير -بقدر ما هو الآن موضع تمجيد- مما كان يجعلنا نرتي في إخلاص لسوء الطالع الذي بدا أنه كان يلاحقه، والذي كثيرا ما يكون نصيب ذوي المواهب العظيمة. وكان الأمير البروسي قد حظي بقسط من السعادة في شبابه، أما "فولتير" فكان يلوح وكأنه خلق لكي لا يسعد البتة. وكان الاهتمام الذي تولانا نحو كل منهما قد امتد إلى كل ما كان يتعلق به، فلم يكن يفوتنا شيء مما كتبه "فولتير". وقد ألهمتني المتعة التي حظيت بها من هذه المطالعات، بالرغبة في أن أتعلم الكتابة البليغة، وأن أحاول أن أقلد ما لهذا المؤلف من أسلوب بديع، كُنْتُ مفتونا به. ولقد ظهر بعد ذلك بقليل كتابه "الرسائل الفلسفية"، ومع أنه لم يكن أفضل مؤلفاته إلا أنه كان أعظم ما اجتذبتني إلى الدرس، ومنذ ولد في هذا الميل لم يقدر له أن يَخْبُرَ أو يَقْرَأ!

على أن الوقت لم يكن قد حان بعد كي أتفرغ للأدب تفرغا تاما، إذ كانت لاتزال لدي بقية من التزق، والرغبة في العُدُوّ والرواح، التي كانت قد هذأت وإن لم تكن قد خمدت، والتي وجدت ما يغذيها في سياق العيش في بيت مدام "دي فاران". فقد كانت الحياة هناك أكثر صحبا من أن تلائم مزاجي الانعزالي، إذ إن سيل الأغراب الذين كانوا يتدفقون عليها من كافة الأرجاء، واقتناعي بأنهم لم يكونوا يسعون إلا إلى التغرير بها -كل بطريقته- جعل حياتي في البيت عذابا منتظما... فمنذ أن خلفت "كلود أنيسه" في الظفر بثقة مولاته، رحت أتعقب عن كُتُبٍ تطور شؤونها، وأرى تدهورها الذي كان يزعجني. ولقد أطلعتها، وتولست إليها، وضغطت عليها، ورحت أناشدها مائة مرة، ولكن دون ما جدوى على الإطلاق... لقد ارتعيت على قدميها، وعرضت عليها -باقوى ما وسعني- النكبة التي كانت تتهددها، ورحت أنصحها في إلحاح بأن تحذ من نفقاتها، وأن تبدأ بتطبيق ذلك علي أنا، وأن تعاني قليلا الحرمان وهي بعد لا تزال شابة بدلا من أن تُضَاعِفَ ديونها ودائنيها باستمرار، مما يعرضها لمضايقاتهم وللفاقة أيام شيخوختها... ومُسْ صِدْقُ تَحْمِسي عواطفها، فجارتني في شعوري، ووعدتني بأجمل ما في الدنيا من وعود. ولكن كل شيء كان يقدو منسيا، بمجرد أن يصل أحد الأفاقين! وبعد ألف دليل على عدم جدوى إرشاداتي، ما الذي تراه قد بقي لي -كي أفعله- سوى أن أغض بصري عن الشر الذي لم أكن أملك دفعه؟ لقد رحت أنأى عن البيت الذي عجزت عن حراسة

(١) قدر لي أن أراه بعد ذلك، وأن أجده قد تغير تغيرا شاملا. فبالسيد "شوازيل" من ساحر قديرا... فما قدر لأحد من معارفي القدامى أن ينجو من قدرته على التبدل!

هذه الإضافة وجدت في الأصول الأولى المكتوبة بخط "روسو"، ولكن لا أثر لها في طبعة "جنيف".

بابه، وأخذت أقوم برحلات قصيرة إلى "ليون" و"جنيف"، شغلت بالي عن همي الكظيم، بينما كانت -في الوقت ذاته- تزيد من عبثه، نظرا لنفقاتي... وبوسعي أن أقسم بأنني كنت خَلِيقاً بأن اتحمل باغتيال كل تضيق، لو أن "ماما" كانت تنتفع حقاً من ذلك الاقتصاد... ولكنني كنت مَوْقِناً من أن ما كنت أحرم نفسي منه، كان ينتقل إلى الأفاقين، ومن ثم فإنني كنت أسيء استغلال سخائها لكي أقاسمهم ما كانت تغدقه عليهم... وكالكلب العائد من المذبح، كنت أستولي على قُضْمَةٍ من القطعة التي لم أستطع أن أنقذها من الكلاب الأخرى!

ولم تكن تعوزني الحجج لتبرير كل هذه الرحلات، وكانت "ماما" وحدها تُغْدِني بهذه الحجج، إذ كان لديها الكثير من الاتصالات، والمباحثات، والشؤون، والمهام التي تحتاج إلى شخص مَوْثُوقٍ به. ولم يكن عليها سوى أن توفدني، كما أنني لم أكن أرجو سوى أن أذهب... ولم تُخَفِّقْ هذه الحال في تهئية حياة مليعة بالترحال. ولقد هيات لي هذه الرحلات فرص عقد صلات تعارف طيبة، كانت -فيما بعد- مستحبة وناقعة. ومن هذه الصلات التي عقدتها في "ليون" معرفتي بالسيد "بريشون" -وهي المعرفة التي ألوم نفسي لأنني لم أعمل على تنميتها بدرجة كافية، برغم ما كان السيد قد أبداه لي من طيبة وكرم- ثم تعرفني إلى "باريسو" الطبيب، الذي ساعدت عنه في حينه... وفي "جروينول" تعرفت إلى السيدة "دي دييهان"، والسيدة حرم رئيس "الباردونانش" (١)، وكانت امرأة جَمَّةَ الذكاء، على استعداد لأن تؤثرني بودها لو أنني أوتيت مزيداً من الفرص لزيارتها... وفي "جنيف" تعرفت إلى السيد "ديلا كلوسير" -مندوب "فرنسا" المقيم- الذي حدثني في أحيان كثيرة عن أمي، التي كانت ماتزال تحتل مكانةً في فؤاده، برغم الموت والزمن... كما تعرفت إلى السيدين "باريسو"، وكان الأب منهما -وقد اعتاد أن يناديني بابنه الأصغر- حُلُوّ المعشر، ومن أجدر من عرفتهم بالاحترام. وقد قدر لهذين المواطنين أن ينحازا إلى فريقين متعارضين -أثناء اضطرابات الجمهورية- فكان الابن في صُفُوفِ "البورجوازيين"، بينما كان الأب في صفوف الطبقة الحاكمة. وعندما حمل كل من الفريقين السلاح ضد الآخر -في سنة ١٧٣٧- كنت في "جنيف"، فُقدَر لي أن أرى الأب والابن يخرجان مسلحين من بيت واحد، أحدهما ليذهب إلى دار محافظة المدينة، والآخر ليذهب إلى مركز قيادته، وهما موقنان من أنهما لن يلبثا أن يجدا نفسيهما -بعد ساعتين- وجها لوجه، معرضين لأن يقتل كل منهما الآخر... ولقد تركَّ هذا المنظر الرهيب طابعاً عميقاً في نفسي، حتى إنني أقسمت ألا أشارك قط في أية حرب أهلية، وألا أذود بالسلاح عن الحرية -في داخل البلاد- سواء بنفسي أو بتجبيدي، إذا ما قدر لي أن أمارس حقوقي كمواطن. وإني لأشهد بأنني وفيت بهذا العهد في مناسبة عسيرة، ولسوف يتبين -أو هكذا أظن، على الأقل- أن هذا الاعتدال كان ذا فوائد جمة.

على أنني لم أكن قد بلغت -بعد- هذا الغوران الأول للوطنية، الذي أثارته "جنيف" -بتسلحها- في فؤادي. وللمرء أن يحكم على مدى بعدي من ذلك على ضوء واقعة خطيرة أثرت علي، وقد نسيت أن أذكرها في مكانها، ويجب ألا أغفلها: ذلك أن خالي "برنار" كان قد انتقل منذ سنوات عديدة إلى "كارولينا" (٢) لإنشاء مدينة "تشارلستون"، التي وضع تصميمها. ومالبت أن مات بعد

(١) BARDONANCHE (٢) الطاهر أن "روسو" يقصد "كارولينا الجنوبية"، وهي إحدى ولايات أمريكا الشمالية القائمة على الساحل الجنوبي الأطلسي. وتعتبر "تشارلستون" من أكبر مدنها.

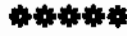
ذلك بقليل. كذلك مات ابن خالي المسكين، في خدمة ملك "بروميا". وهكذا فقدت عمتي ابنها وزوجها في آن واحد تقريبا، فادى هذان المصابان إلى إذكاء ودها لأقرب قريب بقي لها، وهو أنا.. فكنت إذا ما ذهبت إلى "جنيف" أنزلُ لديها، وكنت أتسلى بأن أنبش الكتب والأوراق التي تركها خالي، وأقلب صفحاتها. وقد وجدت كثيرا من الأشياء العجيبة، من بينها أوراق ما كان أحد ليحدث وجودها يقينا. وكانت عمتي -التي لم تعلق أهمية تذكر على تلك الأوراق- على استعداد لأن تدعني أخذها جميعا، لو أنني شئت ذلك. على أنني قنعتُ بكتابين أو ثلاثة، تحمل تعليقات وشرحا بخط جدي "برنار" القس، ومنها مؤلفات "روهو" اليتيمة (١)، وقد طبعت في مجلد حجم "ربع القطع" (٢)، وملكت هوائشها بملاحظات رائعة، حببت إلي العلوم الرياضية. ولقد بقي هذا الكتاب بين كتب مدام "دي فاران"، وإني لأشعر بالحزن دائما لأنني لم احتفظ به. وقد أضفتُ إلى هذه الكتب خمسا أو سنا من المذكرات المخطوطة، وواحدة مطبوعة هي المذكرة الشهيرة التي كتبها "ميشيلي دوكرية"، وكان رجلا عظيم العبقرية، عالما متنورا، ولكنه كثير الشطط في آرائه، فلقي معاملة سيئة من حكام "جنيف". وقد مات مؤخرا في قلعة "أربيرج"، حيث ظل سجينا أعواما طويلة، لأنه -على ما قيل- اشترك في مؤامرة "بيرون"!

وكانت هذه المذكرة نقداً رصينا عادلا لتلك الخطبة الكبيرة، والسخيفة، التي وضعت للتحصينات، والتي حقق جزءا منها في "جنيف"، وقد كانت أضحوخة كبرى لدى الخبراء الذين لم يدركوا ما كان للمجلس (٣) من غاية سرية من وراء تنفيذ هذا المشروع الهائل. ولما كان السيد "ميشيلي" قد أقصى عن "هيئة التحصينات" لأنه غاب المشروع، فقد اعتقد أن بوسعه كعضو من "المائتين" (٤) -وكمواطن كذلك- أن يعلن رأيه بمزيد من الإسهاب، وهذا ما فعله في مذكرته هذه، التي أقدم -في غير حكمة- على طبعها، ولكنه لم ينشرها، لأنه لم يطبع منها سوى عدد محدود من النسخ، أرسله إلى "المائتين" .. ولكن هذه النسخ صودرت جميعا في البريد، بأمر من المجلس الاستشاري الصغير (٥). ولقد وجدتُ هذه المذكرة بين أوراق خالي، مع الرد الذي عهد إليه بوضعه، فأخذت كلا منهما. وكنت قد قمت بهذه الرحلة عقب انفصالي عن "المساحة" بقليل، ولما أزل على بعض الارتباط بالمستشار "كوتشيللي"، الذي كان رئيسا لها. وقد حدث -بعد وقت قصير- أن رجائي مدير الجمارك أن أقوم بدور الإشبين لطفله. وكانت السيدة "دي كوتشيللي" هي الإشبينة، فادار هذا التكريم رأسي، وحاولت -وأنا مزهو بأن اغدو في مكانة جد قريبة من مكانة السيد المستشار- أن أقوم بعمل ذي قيمة، لا بدو جديراً بمثل هذا الشرف العظيم .. وانسياقا وراء هذه الفكرة لم أر أفضل من أن أطلعه على مذكرتي المطبوعة التي ألفها السيد "ميشيلي"، والتي كانت -في الحقيقة- تحفة نادرة، كي أبرهن له على أنني أنتمي إلى عليا القوم في "جنيف"، ممن كانوا يعرفون أسرار الدولة! .. على أنني -بدافع من شيء من الحذر، لم أكن أدري ماأنا -لم أطلعه قط على رد خالي عن المذكرة، ولعل ذلك كان راجعا إلى أن الرد كان بخط اليد، وأنه لم يكن ليليق بمقام المستشار

(١) أي التي لم تنشر إلا بعد موت مؤلفها. (٢) يكاد يعادل ضعف حجم "كتابي" و"مطبوعات كتابي" أو يزيد قليلا في العرض.

(٣) المجلس الذي كان يضم عددا من المستشارين، وبتولى حكم "جنيف". (٤) مجلس المائتين.. يظهر أنه كان مجلسا نهائيا يضم ذوي المواهب في "جنيف"، بمثابة مجلس للنواب. (٥) مجلس الشيوخ.

سوى كل مطبوع!.. بيد أنه شعر بقيمة كبرى للوثيقة التي كنت من الغباء بحيث ائتمنته عليها، فلم يقدر لي قط أن أسترجمها أو أن أراها ثانية.. حتى إذا أيقنت من عدم جدوى جهودي رأيت أن أستغل الأمر، وأن أحول السرقة إلى هدية!.. ولست أرتب إطلاقاً في أنه قد أحسن استغلال هذه التحفة في بلاط "تورمين" - فقد كانت طريقة أكثر مما كانت نافعة - وأنه عني، بطريقة أو بأخرى، بالحصول على مبلغ كبير من المال كان من الطبيعي أن يزعم أنه أنفقه في الحصول عليها!.. ولما كان من أقل أحداث المستقبل احتمالاً وإمكاناً - لحسن الحظ - أن يقدم ملك سردينيا يوماً على حصار "جنيف"، وإن لم يكن هذا الأمر مستحيلاً، فقد ظلمت دائماً ألوم غروري الأحق الذي جعلني أكتشف مواطن الضعف في استحكامات المدينة لآلد أعدائها!



وقضيت عامين أو ثلاثة على هذه الحال، بين الموسيقى، والحكام، والمشروعات، والرحلات.. انتقل دائماً من أمر إلى آخر، وأنشدُ دائماً الاستقرار دون أن أدري فيم أَسْتَقِرُّ، ولكنني كنت أتجه تدريجياً إلى الدراسة، والتلقي برجال الأدب، وأسمع الأحاديث الأدبية، وأجرؤ في بعض الأحيان - على أن أخوضها أنا الآخر، مقتبساً أساليب الكتب بدلاً من أن أستوعب محتوياتها! وكنت أقوم بين آن وآخر، أثناء رحلاتي إلى "جنيف"، بزيارات عابرة لصديقي القديم السيد "سيمون"، الذي أذكى كثيراً نغمسي الوليد للأدب بتزويدي بأحدث الأنباء عن "دولته"، وهي أنباء كان يأخذها عن "باييه" أو عن "كولوميه". كذلك كثيراً ما كنت ألتقي في "شامبيوي" بواحد من "اليعاقبة" كان أستاذاً لعلوم الطبيعة، وراهما صالحاً. ولقد نسيت اسمه، ولكنه كثيراً ما كان يَقومُ بتجارب صغيرة أثارت اهتمامي للغاية، فوددت أن أخذُ حذوه فاصنع المداد العاطفي (١). وللوصول إلى هذه الغاية، ملأت زجاجة إلى ما فوق منتصفها بالجير الحي، وبمادة مركبة من الزرنيخ والكبريت والماء، ثم أحكمت سداده. وبدأ التفاعل في الحال - تقريباً - وبعنف شديد، فأسرعت إلى الزجاجاة لأزيل سداداتها، ولكنني لم أصل في الوقت المناسب، فإذا بها تقفز في وجهي وكأنها قنبلة.. وأبتلعتُ الزرنيخ والحديد والجير، فكادت أموت! وقد مكثت أكثر من ستة أسابيع وأنا أعمى، وأدركت من ذلك أنني يجب ألا أقحم نفسي في تجارب العلوم الطبيعية، دون إلمام بالعناصر المستخدمة!

وقد ألحقت هذه المغامرة ضرراً بصحتي، التي كانت في انحدار محسوس منذ فترة من الزمن. ولست أدري من أين جاءني هذا الانهيار، فقد كنتُ حَسَنَ النَّبْئَانِ، ولم أكن أقدم على أي إفراط، من أي نوع ومع ذلك فإنني كنت أنهار بجلاء! ولقد كنت جيد التركيب، عريض الصدر، مما كان يتيح لرئتي فراغاً كافياً كي تتحركاً بسهولة.. ولكنني كنت سهرم ذلك - قصير الأنفاس، وكنت أشعر بضيق، وأرسل الزفرات دون إرادة مني. ولقد أصِبتُ باضطراب في القلب، وأخذت أبصق دماً، واستولت علي الحمى البطيئة التي لم تفارقني تماماً على الإطلاق.. فكيف يقع المرء في مثل هذه الحال

(١) نوع من المداد يعرف باسم (المداد السري) ولعل "روسو" أسماء المداد العاطفي؛ لأنه كان يستخدم في المراسلات الغرامية، فما إن يحفظ حتى تبدو الورقة وكأنها خالية من الكتابة، إلى أن تعرض لحرارة اللهب فيبرز ما تحته!

وهو في زهرة العمر، دون أن يكون ثمة أذى داخلي على الإطلاق، ودون أن يكون قد فعل ما يقضي على صحته؟

يُقال أحيانا: إن السَّيفَ يُبْلِي القِرَابَ. وهذه هي قصتي، فإن شهواتي قد أحييتني، وشهواتي قد أماتتني!.. وقد يقال: أية شهوات؟.. كانت توافه.. كانت أكثر أمور الدنيا انطباعا بالطابع الصبباني، ولكنها كانت تثيرني كما كان خليقا أن يثيرني الاستيلاء على "هيلين" (١)، أو على عرش الكون!.. وكانت النساء في مقدمة هذه المثيرات! فكانت حواسي تحتفظ بهدوئها، إذا ما ظفرت بواحدة، ولكن قلبي لم يكن يعرف الهدوء قط! كانت مستلزمات الهوى تنهشني وأنا في غمرة اللذة. وكنت قد أوتيت أما حنوناً، وصديقة حبيبة، غير أنه كان لا بد لي من عشيقه. وكنت أتمثل العشيقه المنشودة في مكان "ماما"، وأصورها لنفسني في ألف صورة ووضع، لكي أموه على نفسي!.. ولو أنني تذكرت -وأنا أعانقها- أنني إنما كنت أضخم "ماما" بين ذراعي، لما فترت حرارة عنائي، ولكن كافة شهواتي كانت خليقة بأن تخبر، وكنت أبكي وجداً، ولا أستمع بلذة!.. لذة؟.. أفخلق هذا الحظ ليكون من نصيب الإنسان؟.. آه، لو أنه قدر لي يوماً -هل مرة واحدة في حياتي- أن أتذوق كل لذات الحب في أوج تدفقها فإني أعتقد أن كياني الهش لم يكن ليقوى على الاحتمال!.. كنت قمينا بأن أموت في مكاننا!

وهكذا كنت أكتوي بالحب، دون ما هدف. ولعل هذه الحال هي أشد الحالات إرهاقا!.. وكنت قلقاً معذباً لسوء حال شؤون "ماما" المسكينة، ولتصرفاتها غير الحكيمة، التي كان مألهاً أن تُقَوِّدَ إلى خرابها تماماً، في وقت قصير. وكان خيالي القاسي -الذي يسبق المصائب دائماً- يصور لي هذه المصيبة بالذات، دون انقطاع، وبكل مداها، وبكافة نتائجها!.. فرايت نفسي -مقدماً- مضطراً إلى أن أفترق -بحكم الفاقة- عن تلك التي كَرُسْتُ لها حياتي، والتي لم يكن بوسعني أن أستمع بهذه الحياة، بدونها!.. وهكذا كنت دواماً مضطرب النفس!.. كانت الشهوات والخاوف تنهشني بالتناوب! وكانت الموسيقى -بالنسبة لي- شَهْوَةً أخرى، أقل عتواً ولكنها لم تكن أقل إرهاقا، بفضل التخمس الذي ارتقيت به في غَمَرَتِهَا، وبفضل الدراسة الدائبة لكتب "رامو" المبهمة، وبفضل إصراري العنيد على الرغبة في أن أحشر بها ذاكرتي التي كانت ترفضها دائماً، وبفضل الجري المستمر (٢)، وبفضل تلك المجموعات الهائلة التي كنت أراكمها، وكثيراً ما كنت أقضي ليالي بأسرها في نسخها!.. ولكن، لماذا أقتصر على الشهوات الدائمة، في حين أن كل النزوات التي كانت تمر بخاطري دون انقطاع: الأهواء العابرة التي لا تمكث سوى يوم واحد، كرحلة، أو حفلة موسيقية، أو مسرحية فكاهية أحب أن أشهدها!.. كل هذه الأشياء التي كانت أبعد ما في الدنيا عن مَسْرَاتِي وعن أعمالي، أصبحت لدي بدورها بمثابة شهوات عديدة عنيفة، كانت في جيشانها المستهجن تسبب لي أصدق ألوان العذاب!.. بل إن قِرَاءَةَ مصائب "كليفلاند" الخيالية -وهي القراءة التي كنت أقبل عليها في نهم، والتي كثيراً ما كنت أعجز عن الاسترسال فيها- كانت تُثِيرُ أشجاني، فيما أعتقد، أكثر مما كانت تثيرها مصائبها!

(١) هيلين الطروادية: كانت أجمل نساء الإغريق، وقد تزوجت من "منيلوس" ملك أسبرطة!.. ولكن باريس -أمير طروادة- اختطفها، فشن أمراء اليونان حرباً على طروادة دامت عشر سنوات، وانتهت ببرد هيلين إلى زوجها. (٢) يقصد التنفل والترحال باستمرار.

وكان ثمة شخص من أبناء "جنيف" يدعى السيد "باجيريه"، عمل فترة في خدمة "بطرس الأكبر" في البلاط الروسي. وقد كان من أعظم الأوغاد، ومن أشد الحمقى الذين رأيتهم في حياتي.. وكان دائما يفكر في مشروعات تماثله حماقة، فقد كان ينثر الملايين كالطر، ولم تكن الأصفار تكبده شيئا (١).. وإذ جاء هذا الرجل إلى "شامبيري" من أجل بعض قضايا كانت معروضة على مجلس الشيوخ، فقد استولى على إرادة "ماما"، كما كان متوقعا، وفي مقابل كنوزه من الأصفار -التي كان يُغدِّقها بسخاء- أخذ يبتز منها تلك الدنانير البائسة، قطعة بعد قطعة!.. ولم أحبه إطلاقا، وقد أدرك هو ذلك -فما كان الأمر يوما بالمهمة العسيرة (٢)- فلم يدع نوعا من الخسة لم يستخدمه كي يتقرب إلي.. وألى على نفسه أن يغريني بتعلم الشطرنج، ورغم أنه كان لا يحدِّق!.. ولقد حاولت ذلك، بالرغم من نفسي تقريبا. وبعد أن تعلمت الحركات في غير ما اكتراث بما إذا كانت صوابا أو خطأ، إذا بتقدمي بتزايد سرعيا، حتى إنني استطعت قبل نهاية الجلسة الأولى أن أرد إليه الهزيمة التي كان قد أذاقنيها في البداية!.. ولم أقنع بذلك، فقد شغفت بالشطرنج، وابتعت طاقما، كما اشترت "الكالابروا" (٣)، واحتسست نفسي في غرفتي، ورحت أقضي الأيام والليالي في السعي لتعلم كل الحركات الافتتاحية عن ظهر قلب، وحشو رأسي بها طوعا أو كراهية، وأنا العب وحيدا، دون ما هواة ولا نهاية!.. وبعد شهرين أو ثلاثة من هذا العمل الشاق، والجهود التي تفوق الخيال، ذهبت إلى المقهى وأنا واهن، شاحب، متلبذ الذهن تقريبا. وقُمتُ بتجربة، فلعبت مرة أخرى مع السيد "باجيريه" .. وهزمني مرة، فاثنتين، فعشرين مرة، فقد اختلطت كثير من الترتيبات المختلفة في رأسي، كما كان خيالي بَالِغَ الوهن، حتى إنني لم أعد أرى أمامي سوى سحابة غائمة!.. وفي كل مرة حاولت فيها أن أتدرب لحفظ الحركات بمعونة كتاب "فيليدور" أو كتاب "ستاما"، كان يحدث لي عَيْنُ الشيء.. وبعد أن أنهك قواي، أجد نفسي أشد ضعفا من ذي قبل. وسواء كنت قد هجرت الشطرنج، أو أنني وجدت في لعبه متنفسا لي فإنني لم أحرز أبدا أي تقدم منذ تلك الجلسة الأولى، حتى إنني لأجد نفسي دائما حيث انتهيت إذ ذاك، ولو أنني تدرت آلاف القُرُونِ لما انتهيت إلا إلى إعطاء "باجيريه" الدور، فحسب!.. وقد تقول: هكذا يستغل الوقت على أحسن وجه!.. والحق أن الوقت الذي انفقته في ذلك لم يكن قليلا، وما كفت عن المحاولة الأولى إلا عندما لم تعد لدي طاقة على الاستمرار.. وعندما ظهرت خارج غرفتي، كُنْتُ أَبْدُو كشخص خارج من قبر. ولو أنني استمررت على النهج ذاته، لما ظللت "خارجا من القبر" طويلا (٤)! وإن المرء ليقربان من العسير -لاسيما في خمس الشباب- أن يدع مثل هذا الرأس جسد صاحبه في صحة!

ولقد أثر تداعي صحتي على طبعي، كما هذا من حمية خيالي. فما إن شعرت بضعفي حتى ازدادت هُدُوءًا، وفقدت بعض شغفي بالأسفار. وإذ ازدادت استقرارا تعرضت لا للملل وإنما للأسى والسوداء، فإذا التهوس يحل محل الشهوات والعواطف المشبوبة، وإذا ذبولي ينقلب حزنا واكتئابا، وأصبحت أبكي وأتهد دون ما سبب،. وشعرت بأن الحياة تَقَلَّتْ مني دون أن أكون قد تذوقتها،

(١) يقصد أن الرجل كان يدعي الثراء وهو لا يملك شيئا. (٢) يريد "روسو" بذلك أن عرفان عواطفه وما يجول بنفسه، لم يكن بالمهمة العسيرة على أي شخص. (٣) "الكالابروا" رسالة في الشطرنج، وضعها لاعب إيطالي ماهر كان يدعى "جواكينو جريكو"، عاش في عهد لويس الرابع عشر. (٤) يقصد أنه كان خليقا بأن يلزم القبر.. أي يموت.

واخذت اتحسر على الحال التي سأتترك "ماما" البائسة فيها، وعلى الحال التي كنت أراها موشكة على التردى فيها.. وبوسعي ان أقول: إن فراقها وتركها في مَسْقَةٍ كان مضدراً أساى الوحيد... وأخيراً، سقطت مريضاً حقاً، فراحت تعنى بي كما لم تكن أم بطفليها، وقد كان في هذا خير لها هي الأخرى؛ إذ حوّلها عن المشروعات، وصرفها عن أصحاب المشروعات.. ما كان أعذب الموت لو أنه جاء إذ ذاك!.. وإذا لم أكن قد استمتعت بكثير من نعم الحياة فإنني لم أشعر إلا بقليل من محنها. وكانت روحي الوادعة خليقة بأن ترحل دون الشعور القاسي بظلم الناس.. الشعور الذي يُسمّم الحياة والموت!.. وكنت أجد العزاء في أنني كنت أحباً في النصف الأفضل من نفسي (١)، وهذا لا يكاد يعتبر موتاً! ولولا القلق الذي كنت أستشعره إزاء حظها لقضيت نَحْبِي وكأنني استسلم للنعاس.. بل إن هواجسي كانت ذات غاية رقيقة لطيفة، خَفَّفَتْ من مرارتها.. ولقد قلت لها يوماً: "إن كل كياني بين يديك، فأسعديه!".. وحدث في مرتين أو ثلاث -عندما كنت في أسوأ حال- أن نهضت في الليل، وجررت نفسي إلى غرفتها؛ لكي أقدم لها نصائح بصدد تصرفاتها.. نصائح أجروا على القول بأنها كانت عادلة وحكيمة، ولكن اهتمامي بمصير "ماما" كان يغلب في هذه النصائح على كل شيء آخر.. وكأنما كانت الدموع غذائي ودوائي، فقد كنت أستمّد قوة من تلك الدموع التي كنت أذرفها في قريتها، وأنا معها، جالسا على سريرها، ممسكا بيديها بين يدي. وكانت الساعات تنصرم ونحن مستغرقان في هذه الأحاديث الليلية، ثم أعود إلى غرفتي وأنا أحسن حالا مما كنت حين بارحتها، وقد اغتبطت واطمانت للوعود التي عاهدتني عليها، والآمال التي بثتها في نفسي.. وإذا ذلك كنت أنام بقلب مطمئن، وبشفقة في العناية الإلهية. إنني لأدعو الله -بعد أن تعرضت لكثير من الأسباب التي تدعو إلى كراهية الحياة وبعد كثير من العواصف التي هزت حياتي وجعلتها مجرد عبء- أن يكون الموت الذي قدر له أن يختم هذه الحياة أقل قسوة مما كان في تلك اللحظة!

وبفضل العناية، والسهر، والضئى الذي يفوق التصور استطاعت "ماما" أن تنقذني، ومن المحقق أنها الشخص الوحيد الذي كان بوسعه إقناؤي. فقد كان إيماني ضعيفا بدواء الأطباء ولكنني أوتيت إيمانا عارما بدواء الأصدقاء الصادقين، والأشياء التي يتوقف عليها هناؤنا تفضل كثيرا كافة الأشياء الأخرى!.. وإذا كانت في الحياة عاطفة مستعذبة فإنما هي تلك التي استشعرناها إذ عاد كل منا إلى الآخر. ولم يزد شغفنا المتبادل -فما كان من الممكن أن يزداد- ولكنه اتخذ مزيدا من الالفة، لا أدري كيف أشرحه.. وغدا في بساطته الضافية، أشد تأثيرا!.. وهكذا أصبحت بكل كياني صُنْعَ يَدَيْهَا. أصبحت ابنها تماما، بل وأكثر مما لو أنها كانت أُمِّي حقاً!.. ودون ما تفكير أو قَصْدٍ، لم نَعُدْ نفترق، بل بدانا ندمج كيائنا في وجود مشترك، وداخلنا شعور مشترك بأن كلا منا لم يكن لازما للآخر فحسب، وإنما كان فيه الكفاية والغناء له عن سواه.. فعودنا نفسنا على ألا نفكر في أي شيء غريب عنا، وعلى أن نُقَصِّرَ سعادتنا وكل شهواتنا قصرا تاما على ذلك "الاقتناء" المتبادل (٢)، الذي أحسبه كان فريدا من نوعه بين البشر، والذي لم يكن -كما قلت- صادرا عن هوى فحسب، وإنما كان اقتناء أكثر واقعية من المألوف.. كان -دون ما استناد إلى الاحساس أو الجنس أو السن أو المظهر- يرتبط

(١) نصفه الأفضل هي مدام "دي فاران" (٢) يقصد بالاقتناء المتبادل، العلاقة الجنسية الكاملة بينه وبين مدام "دي فاران".

بكل مقومات شخصية الفرد!

ترى كيف قدر لهذه الهنة الا تجتلب السعادة إلى حياتنا حتى آخر أيام "ماما" وأيامي؟.. لم يكن هذا ذنبى، ولدي من الدليل ما يعزيني!.. كذلك لم يكن ذنبها هي، أو لم يكن بإرادتها، على الأقل!.. فلقد كُتِبَ للطبيعة التي لا تلين، أن تُفَرِّضَ سلطانها (١) سريعا. على أن هذه النكسة المشؤومة لم تكن مفاجئة، بل كانت ثمة مهلة، والحمد للسماء!.. كانت ثمة فترة قصيرة، وغالية، لم تنته نتيجة ذنب مني، ولست ألوم نفسي أو اتهمها بإساءة استغلالها!

ذلك أنني - وإن كنت قد شغيت من مرضي الخطير - إلا أنني لم أَسْتَعِدْ قط قواي. فما عادت لصدري عافيته، وإنما لازمتني دائما بقية من الحمى، جعلتني في ذبول وكلل. فلم أعد أصبو إلى شيء سوى أن أنفق أيامي إلى جوار تلك التي كانت عزيزة لدي، وأن أعضدها في نواياها الطيبة، وأن أمكنها من أن تحس بما للحياة الهائفة من سحر حقيقي، وأن أجعل حياتها على هذه الشاكلة فيما يتوقف علي. بيد أنني رأيت - ببل شعرت - أن العزلة المستمرة التي كانت تجمعنا في بيت مُعْتَمٍ كثيب لن تلبث أن تتسم هي الأخرى بطابع حزين. ولأح لنا علاج ذلك، وكأنه قفز من تلقاء نفسه، حين أوصتني "ماما" باللين، ورغبت في أن أذهب إلى الريف لاتناولها هناك. ووافقتها على شريطة أن تذهب معي. وكان هذا كافيا لأن تعقد عزمها، ولم يبق سوى أن نختار المكان. ولم يكن البستان القائم في الضاحية، من الريف تماما.. إذ إنه - لوقوعه بين منازل ويساتين أخرى - لم يؤت فتنة المكان الريفي الملائم للاستجمام.. فضلا عن أننا - عقب موت "آنيه" - نخلينا عن البستان رغبة في الاقتصاد، إذ لم يعد يراودنا الشوق إلى نباتاته النادرة، كما أن ثمة اعتبارات أخرى حملتنا على أن نأسف على فقد هذا المنزل!

وانتهزت - إذ ذاك - فُرْصَةَ الشُّعُورِ بالملل الذي لمسته عندها نحو المدينة، فاقترحت عليها أن تهجرها نهائيا، وأن نستقر معا في عزلة مستحبة، في دار صغيرة على بعد كاف لأن يصد المتطفلين! ولقد كانت على استعداد لأن تفعل، وكان هذا الاقتراح - الذي ألهمني إياه ملاكها الحارس وملاكى - كفيلا بأن يضمن لنا - حقا - أياما سعيدة هادئة، حتى اللحظة التي يفرق فيها الموت بيننا، ولكن هذا لم يكن الحظ الذي قُدِّرَ لنا، فقد كُتِبَ على "ماما" أن تَبْتَلِيَ بكل بلايا الفاقة وسوء الحال - بعد أن قضت عمرها في الرخاء - حتى تغادر الدنيا وهي غير آسفة عليها.. أما أنا، فقد كتب على أن أعاني التماسات - من كل نوع - كي أصبح يوما مثالا للمرء الذي لا يحدوه سوى حب الصالح العام والعدالة، بحيث يجرو - وهو غير مسلح بغير براءته وحدها - على أن يقول الحقيقة للناس جهارا، دون مؤازرة الأنصار، ودون أن يؤلف حزبا لحمايته!

ولقد عمل هاجس تمس على اسْتَبْقَاءِ "ماما"، فلم تجرؤ على أن تهجر بيتها الفقير، خوفا من أن تغضب مالكة. وقالت لي: "إن فكرة العزلة التي تقترحها بديعة، وإنها لتروق لي ولكن لا بد من تدبير أسباب العيش، حتى في العزلة. وإني لا تعرض - بمبارحة سجنى - لأن أفقد مَصْدَرَ عيشي، فإذا لم يَعدْ

(١) برمي "روسو" بهذا إلى أن حكم الطبيعة - مثلا في الضعف الذي أصاب صحنه - هو الذي فرض عليه وعلى مدام "دي غاران" ألا يستمرآ في سعادتهما إلى نهاية عمرهما.

لدينا خبز في الغابات أصبح من المحتوم علينا أن نعود إلى المدينة بحثاً عنه، ولكي نقتل من حاجتنا إلى العودة، يجب ألا نهجر المدينة نهائياً.. فلندفع هذا الإيجار البسيط للكونت "دي سان لوران" حتى يَدْعُ لي معاشي (١)، ولنبحث عن مأوى منعزل بعيد عن المدينة بدرجة تمكننا من العيش في دعة، وقريب منها بحيث نستطيع أن نعود إليها في الحال، إذا ما دعت الضرورة.. وهذا ما جرى، فبعد بحث قصير، استقر بنا المقام في "شارميت"، وهي ضيعة كان يمتلكها السيد "دي كونزيه"، على مشارف "شامبيري"، ولكنها منعزلة وغير مطروقة، حتى لكانها تقع على مائة فرسخ منها.. فبين تلين مرتفعين، يمتد -شمالاً وجنوباً- واد صغير، يجري في اسفله جدول، تحف به الصخور والأشجار. وعلى أحد الجانبين -بطول هذا الوادي- بضعة بيوت متناثرة، تُناسِبُ كل المناسبة أي امرئ يَهْفُو إلى مأوى خلوي منعزل. وبعد أن تفرجنا على بيتين أو ثلاثة -من هذه البيوت- اخترنا في النهاية أبداعها، وكان ملكاً لسيد في خدمة الحكومة يدعى السيد "نواريه". وكان البيت جد ملائم للسكنى، تقوم أمامه حديقة مرتفعة عن سطح الأرض، تعلوها كَرْمَةٌ، ويمتد تحتها بستان، وفي مواجهتها غابة من أشجار البلوط، ونبع قريب. وعلى مرتفع من الجبل، مروج لرعي الأنعام. ومجمل القول توفرت فيه كل مستلزمات الأسرة الريفية الصغيرة التي كنا نعتزم إيواءها هناك. وبقدر ما أستطيع أن أتذكر الأزمان والتواريخ، تسلمنا البيت حوالي نهاية صيف سنة ١٧٣٦. ولقد طُرِئَتْ في أول ليلة قَضَيْنَاهَا هناك، فقلت لصاحبي العزيزة وأنا أعانقها وأغرقها بدموع الحب والابتهاج: "أواه، يا "ماما" ا.. إن هذا المقر لهو وكر الهناء والبراءة.. فإذا لم نجد ههنا -وكل منا مع الآخر- فليس لنا أن نرجو العُثُورَ عليهما في أي مكان" (٢).

(١) ذكر "روسو" من قبل أن "سان لوران" كان مشرفاً على الشؤون المالية لبلاط ملك سربانيا، وأن مدام دي فاران لم تعلمن إلى استمرار معانها إلا بعد أن استأجرت منه ذلك البيت الصغير، فاكتمت بذلك وده. (٢) في أوائل القرن التاسع عشر آل هذا البيت -الذي أقام فيه "روسو" ودام "دي فاران" - إلى كاتب كانت له مؤلفات أدبية وعلمية، وقد أصدر في سنة ١٨١٧ كتاباً عن "شارميت"، سجل فيه كل صغيرة وكبيرة من أوصاف هذا البيت الذي اعتاد السياح أن يترددوا عليه. وقد بُنيت إلى جدار المنزل -بجانب مدخله- لوحة حجرية أمر بوضعها "هيراو سيشيل" في سنة ١٧٩٢ -عندما كان حاكماً للمنطقة- وقد نقشت عليها أبيات شعرية للذكرى، هذا معناه:

"أيها المأوى الذي شغلته جان جاك.. إنك لنذكري بعبقريته، وبحبه للعزلة، وبخسسه وحميته.. وبصاحبه وطيشه.. لقد جرؤ على أن يكرس حياته للمجد والحقيقة.. وكان دائماً مضطهداً، إما بنفسه وإما بالخاصدين"

الكراصة السادسة

سنة ١٧٣٦

"هالك كل ما كنت أتمنى: قطعة أرض غير شاسعة،

"وهديقة، ونبع ماء فياض بقرب الدار،

"وإلى جانب هذا.. فابرة صغيرة.."

ولم استطع قط أن أضيف إلى هذا:

"لقد هَبَّتْني الآلهة.. بأكثر مما استَهَيْتُ" (١)

ولكن لا بأس، فما كنت بحاجة إلى أكثر من ذلك، بل إنني لم أكن بحاجة إلى أن أمتلك هذه الأشياء، وإنما كان يكفياني أن أستمتع بها!.. ولقد قلت -وشعرت- منذ أجل طويل، أن المالك والمنفعة كثيرا ما يكونان شخصين جد مختلفين، حتى إذا أقصينا الأزواج والعشاق عن المقارنة! هنا يبدأ هناء حياتي القصير، وهنا أقبلت اللحظات الوادعة -وإن كانت وجيزة- التي أباحت لي الحق في أن أقول: "إنني عشت" .. أيتها اللحظات الغالية، التي آسى عليها كل الأسى .. ألا أبدئي من جديد -من أجلي- سريانك الحبيب، وتتابعي في ذاكرتي أكثر بطئا مما كنت في فرارك في الواقع، إذا كان هذا ممكنا!.. كيف لي بأن أطيل -كما أشاء- هذا الحديث المؤثر، الساذج، فاردد نفس الأقوال دائما، دون أن أبعث في نفوس قرائي -بتكرارها- سأمًا اللهم إلا إذا شئت أنا نفسي العود إلى ترديدها دون انقطاع!.. كذلك، ليت كل هذا يتألف من وقائع، ومن أعمال، ومن أقوال أستطيع أن أصفها وإن أردتها إلى الحياة بطريقة ما، ولكن.. كيف لي أن أقول مالم يقل، ولم يفعل، ولم يطف بخاطر، ولكنه استمر، بل استشر -ولست أملك أن أبين أي سبب آخر لهنائي سوى هذا الشعور البسيط!.. كُنْتُ أَسْتَقِظُ مع الشمس، وأنا سعيد.. فَأَتَسَشَّى، وأنا سعيد.. وأرى "ماما"، وأنا سعيد.. وأقارفها، وأنا سعيد.. وأهيم في الغابات والربا، وأرتاد الوديان، وأقرأ، وأقعد عن العمل، وأُفْلِحُ الحديقة، وأجني الزهور، وأساعد في أعمال البيت.. والهناء يتبعني في كل مكان.. لم يكن ينحصر في شيء معين، وإنما كان يشيع في كل كياني، ولم يكن يُفَارِقُنِي لحظة واحدة! ما من شيء جرى لي أثناء تلك الفترة الحبيبة، ولا من شيء فعلته أو قلته أو فكرت فيه إبانها إلا بقي فلم يتسرب من ذاكرتي. إن الأوقات التي سبقتها، والأوقات التي لحقتها، لا توافي ذهني إلا بين آن وآخر، فأذكرها دون تمييز، وفي تخيل.. ولكنني أذكر هذه الفترة بأسرها، وكأنها مازال باقية! إن

(١) هذه الأبيات من أشعار "هوراس"، وقد أوردها "روسو" باللاتينية، وعلق عليها بالسطر الذي قطع به تنامها.

خيالي الذي كان يتطلع دائما إلى الامام -في شبابي- والذي أصبح اليوم يلتفت إلى الوراء، يعوضني بهاتين الذكريتين الفاتنتين عن الرجاء الذي فقدته إلى الأبد! فإنني لم أعد أرى في المستقبل ما يستهويني، بل إن رجعات الماضي وحدها هي التي تستطيع أن تهفو بعواطفني.. وهذه الذكريات تمتاز -في الفترة التي أحدث عنها- بأنها بالغة الحيوية والصدق، حتى إنها كثيرا ما تجعلني أحيا سعيدا برغم بؤسي وسوء حظي!

وإنني لأقدم من هذه الذكريات مثالا واحدا يمكن من الحكم على وضوحها وصدقها: ففي أول يوم ذهبنا فيه كي نبني في "شارميت"، كانت "ماما" في محفة محمولة على الاكتاف بينما تبعتهما على قدمي. وكان الطريق صاعدا، وهي ثقيلة الوزن -بعض الشيء- فخشيت أن تضاعف من إنهاك قوى الحمالين، ورغبت في أن تهبط في منتصف الطريق تقريبا، لتقطع ما تبقى منه على قدميها. وفيما كانت تسير رأيت شيئا أزرق في الحسك (١)، فقالت لي: ها هو القُضَاب (٢) لا يزال مُزْهراً!.. ولم اكن قد رأيت القُضَاب قط، ومع ذلك فإنني لم انحن لفحصه، وكنت قصير النظر بدرجة لا تمكنني من أن اتبين النباتات التي على الأرض، إذا كنت أقف منتصب القامة. واكتفيت بأن ألقيت نظرة على ذلك النبات، وأنا أمر به.. ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبا، قبل أن أرى أي قُضَاب -مرة أخرى- أو ألقي إليه بالا. وفي سنة ١٧٦٤، كنت في "كريسييه" مع صديقي السيد "دي بيسرو"، فنسلقنا جبلا صغيرا نقوم على قمته استراحة "صالون" بديعة، تسمى بحق "بيلفي" -المنظر الجميل- وكنت قد بدأت إذ ذاك أهوى دراسة الاعشاب بعض الشيء. وفيما كنا نصعد، ونحن نتأمل الادغال إذا بي اطلق صيحة جذلانة: "آه!.. ها هو ذا القُضَاب"!.. وكان ذلك حقا. ولاحظ "دي بيسرو" فرحي، ولكنه جهل سببه. ولسوف يعرفه، إذ إنني أرجو أن يقرأ يوما ما كتبت هنا. وبوسع القارئ أن يحكم -من الاثر الذي أحدثته في نفسي مناسبة تافهة كهذه- على مدى التأثير الذي يحدثه كل ما يمت إلى تلك الفترة!



على أن جو الريف لم يرد إليّ صيحتي السابقة إطلاقا، فلقد كنت ذابلا، وقد ازدادت حالتي سوءا، ولم أعد أطيق اللين، فلم يكن ثمة بد من التحول عنه. وكان الماء هو العلاج الشائع -إذ ذاك- لكل داء، فأقبلت على الماء في غير ماحكمة، حتى إنه كاد يشفييني، لا من عللي، وإنما من حياتي (٣)!.. ففي كل صباح، كنت أذهب -عندما أستيقظ- إلى النبع، حاملا وعاء كبيرا. وهناك، كنت أشرب على التعاقب -وأنا أتمشى- ما يعادل ملء زجاجتين. وتحولت نهائيا عن تناول الشراب في وجباتي. وكان الماء الذي اعتدت شربه عسبر الهضم قليلا، شأن معظم مياه الجبال.. وموجز القول إنني ظللت على نهجتي، حتى إنني -في أقل من شهرين- اتلفت تماما معدتي التي كنت أحتفظ بها حتى ذلك الوقت في خير حال! وإذ لم تعد تهضم، أدركت أنني لا ينبغي أن أرجو لها شفاء.. وفي ذلك الحين بالذات وقع لي حادث كان فريدا في نوعه وفي عواقبه التي لن تنتهي إلا بانتهاء حياتي!

ففي ذات صباح -لم اكن فيه أسوأ حالا من المعتاد- كنت أرفع مائدة صغيرة على قوائمها، وإذا بي أشعر باضطراب حاد -لا يكاد يبدو له سبب- في جميع جسمي. ولست اجد له تشبيها أفضل من أنه كان مثل نوع من عاصفة هبت في دمي، وانتشرت لتوها في كل أعضائي جسمي! وأخذت

(١) الاعشاب الشوكية التي تحف بالطريق. (٢) نوع من النبات البري. (٣) هذا هو نص تعبير "روسو". ومن الطريف أن كلمة "بيلفي" -في العربية- تعني "بئر"، كما تعني "هلك". وهو عين ما أراد "روسو"!

عروقي تنبض بقوة هائلة حتى إنني لم أشعر بنبضها فحسب، وإنما سمعته، لا سيما نبض الشرايين السباتية. وقد صحب ذلك ضوضاء هائلة في أذني، وكانت هذه الضوضاء مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أنواع: طنين قوي مكتوم، وخرير واضح كأنه ينبعث من ماء جار، وصفير حاد جدا، ثم النبضات التي ذكرتها، والتي كان بوسعي أن أعد دقاتها دون أن أجس نبضي أو أمس جسمي بيدي! وكان هذا الصخب الداخلي من الضخامة بحيث إنه من إرهاف السمع الذي كان لدي قبل ذلك، وجعلني ثقيل السمع - لا أصم تماما - كما هو شائي منذ ذلك الحين!

وفي الوسع تقدير دهشتي وانزعاجي، فقد خيل إلي أنني أموت، ولزمت سريري، واستدعيت الطبيب فرويت له حالي وأنا أرتجف، إذ كنت أعتبرها بلا علاج! وأعتقد أنه شاركني هذا الرأي، ولكنه قام بما تحتمه عليه مهنته، وراح يسرد علي تعليقات طويلة لم ألقه منها شيئا البتة، ثم عمد - تمشيا مع نظريته الرفيعة الشأن - إلى إجراء "تجارب على كائنات حية" (١)، وهو العلاج التجريبي الذي طاب له أن يجربه معي، وكان جد اليم، ومثيرا، وقليل المفعول، حتى إنني سرعان ما تحولت عنه.. وبعد بضعة أسابيع، رأيت أنني لم أتحسن، ولا ازدادت سوءا، فغادرت فراشي، واستأنفت حياتي العادية، مع استمرار نبض عروقي وطين أذني اللذين لم يفارقاني دقيقة واحدة، منذ ذلك الحين.. أي منذ ثلاثين عاما!

وكننت حتى ذاك الوقت كثير النوم، فإذا الحرمان التام من النوم - الذي رافق كل هذه الأعراض، والذي ظل يلزمها باستمرار حتى الآن - انتهى إلى إقناعي بأنه لم يبق أمامي أجل طويل في الحياة. وقد هدأ هذا الاقتناع من اهتمامي بالشفاء، فترة من الزمن. وإذا رأيت أن ليس بوسعي أن أطيل من حياتي فقد اعتزمت أن أفيد بأكبر شطر يمكن مما تبقى لي من العمر. وهذا ما تسنى لي بفضل صنيع فذ أسدته لي الطبيعة، إذ أعفنتني - في مثل هذه الحال المشؤومة - من الآلام التي يبدو أنها كانت قيمة بان تنابني. كننت أتضايق من هذه الضوضاء في أذني، ولكنني لم أكن أعاني منها، كما أنها لم تكن مضحكة بآية مضايقات مستمرة أخرى، اللهم إلا الأرق في أثناء الليل، وبضيق دائم في التنفس، لم يكن ليرقي إلى درجة الربو، ولا كان يبدو محسوسا إلا عندما أحاول الجري، أو أرق نفسي في العمل أكثر مما ينبغي قليلا.

هذا الحادث - الذي كان خليقا بأن يقتل بدني - لم يقتل سوى شهواتي، وإني لأبارك السماء في كل يوم لهذا الأثر السعيد الذي أحدثه في نفسي. وأستطيع أن أقول: إنني لم أبدأ العيش إلا حين اعتبرت نفسي رجلا ميتا!.. وبينما رحلت أقدر الأشياء - التي كننت مزمعا أن أتخلي عنها - بقيمتها الحقيقية، شرعت أشغل بالي بأمور أسمى وأنبى، وكأنما كننت أريد أن أستيق الزمن إلى تلك الأمور التي كان ينبغي أن أبادر إلى أدائها، والتي كننت قد أهملتها - حتى ذاك الحين - إهمالا شديدا. كننت كثيرا ما أمسخ الدين وفقا لهواي، ولكنني لم أكن قط بلا دين على الإطلاق. ولم يكن يكيدني شيئا أن أعود إلى هذا الموضوع الكئيب بالنسبة لكثير من الناس، ولكنه لطيف بالنسبة لأمري يشد فيه مادة للامل والعزاء.. وكانت "ماما" - في هذا الصدد - أكثر نفعا لي من كل رجال الدين قاطبة!.. فلم تغفل - وهي التي اعتادت أن تضع لكل شيء نهجا خاصا - عن أن تطبق هذا على الدين كذلك. وكان منهجها يتألف من أفكار جد متباعدة ومفككة: بعضها معقول للغاية، والآخر طائشة جدا.. ومن مشاعر مرتبطة بشخصيتها، ومن أفكار قديمة نبعت من تربيتها. فبالقاعدة أن المؤمنين يتمثلون الله على ضوء أنفسهم، فالطيون يتمثلونه طيبا، والخبيثون يتمثلونه خبيثا.. والمؤمنون الحقودون

والمشائمون، لا يرون سوى الجحيم، لأنهم يستغنون النعمة للعالم بأسرها.. أما النفوس المحبة والوداعة، فإنها لا تخشى الجحيم إطلاقاً.. ومن المدهشات التي لم يُقدّر لي أن أتغلب عليها قط، أن رأيت "فينيون" الطيب (١) يتحدث عن ذلك في مؤلفه "تيليماك"، وكأنه كان يؤمن به حق الإيمان.. على أنني أرجو أن يكون قد لجأ -إذ ذاك- إلى الكذب.. إذ إنه لا بد للمرء، بالرغم من كل اعتبار، من أن يكذب أحياناً، إذا ما كان أسقفاً -وهذه حقيقة يعرفها الجميع- أما "ماما"، فلم تكذب علي. كانت هذه النفس المنزهة عن الغرض، لا تقوى على أن تتصور إلهاً مُنتقماً دائماً السخط، وما كانت لترى في الله سوى الرحمة والشفقة، في حين أن الاتقياء لا يرون فيه سوى القصاص والعقاب. وكثيراً ما كانت تقول لي: إنه ليس من العدالة في شيء أن يُنشد الله القصص منا؛ لأنه لم يمنحنا ما يلزم لكي نكون كما ينبغي؛ ومن ثم فإن القصاص يكون بمثابة مطالبتنا بأكثر مما منحنا.. والغريب في الأمر، أنها -برغم عدم إيمانها بالجحيم- لم تتخل قط عن إيمانها بالمطهر (٢)، وقد تأثرت هذا عن أنها لم تكن تدري ما تفعله بالنفوس الشريرة، فما كانت تملك أن تدمغها بالشر، ولا كانت تملك أن تسلكها في الصالحين ريشاً تغدو صالحة فعلاً.. ولابد في الواقع من الاعتراف -سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة- بأن الأشرار مُصدرون حيرة دائماً!

وهناك أمر غريب آخر، فمن الواضح أن نظرية الخطيئة الكبرى والتكفير، تنهار بفضل هذا النهج، حتى إن أساس المسيحية الشائعة ليهتز، وحتى إن الكاثوليكية لا تعود قادرة على أن تظل قائمة. ومع ذلك فقد كانت "ماما" كاثوليكية صالحة، أو كانت تجهر بذلك، ومن المؤكد أنها كانت تصدر في جهرها عن إيمان جدد صحيح. وكان يبدو لها أن الناس اعتادوا أن يفسروا الكتاب المقدس في حرفية وتزمت أكثر مما ينبغي.. وكان يلوح لها أن كل ما يقرأ عن العذاب الأبدي يجب أن يؤخذ على أنه وعيد أو مجاز وكناية.. وكان موت المسيح يتراءى لها مثلاً للخير القدسي، يرشد الناس إلى أن يحبوا الله وأن يتحاربوا فيما بينهم على غراره!.. وموجز القول، إنها كانت وفية للديانة التي اعتنقتها، وقد قبلت في إخلاص كل مقررات العقيدة.. غير أنه كان يبدو منها -إذا ما نوقشت في كل مادة على حدة- أن عقيدتها تختلف تماماً عن الكنيسة التي كانت تقر لها بالولاء دائماً.. ولقد أوتيت -فوق ذلك- سذاجة قلب، وصراحة أكثر تأثيراً من أي رياء. وكثيراً ما كانت هذه الصراحة تحير الناس، حتى الرأغب الذي اعتاد أن يتلقى اعترافاتها، والذي لم تكن تخفي عنه شيئاً، فقد اعتادت أن تقول له: "إنني كاثوليكية صالحة، وأود أن أكون دائماً كذلك.. وإني لأعني بكل طاقة نفسي -مقررات أمنا الكنيسة المقدسة، على أنني لا أتحكم في إيماني، وإن كنت أتحكم في إرادتي، فاسيطر عليها دون ما تحفظ. وإني لأرغبة في أن أؤمن كل الإيمان. فيماذا تطالبني فوق هذا؟".

وإني لأعتقد بأنها كانت خليفة بأن تتبع القانون الخلقي المسيحي -ولو لم يكن يوجد ثمة قانون خلقي مسيحي- لأن مبادئه تتمشى تماماً مع أخلاقها. وكانت تفعل كل ما يأمربه لكنها كانت قيمة بأن تفعله ولو لم تؤمر به!.. وكانت تحب أن تبدي طاعتها في الأمور غير المهمة؛ فمثلاً لو كان أكل اللحوم مباحاً -بل لو أنه كان مفروضاً- في أيام الصوم، لَصَامَتْ عنه فيما بينها وبين الله، دون أية حاجة لمراعاة الاعتبارات التي تملبها الحكمة. ولكن هذه القواعد الخلقية كانت تتبع دائماً مبادئ السيد "دي تافيل" (٣)، أو بالأحرى كانت "ماما" تدعي أنها لا ترى تناقضاً بينها، فكانت على

(١) Fénelon, Télémaque (٢) المطهر في المعتقدات الدينية، هو الطريق الذي يقضي من النار إلى الجنة، ويقضي فيه البشر -عقب الموت مباشرة- مدة للتكفير عن خطاياهم، قبل أن يصحبوا أهلاً لدخول الجنة! (٣) سبق لروسو أن ذكر أن المسير دي "تافيل" قد أفسد معتقدات مدام "دي فاران"، في سبيل بلوغ مآربه منها فأرسى في نفسها الاعتقاد بأن إرضاء شهوات النفس لا يتعارض مع إرضاء الله والضمير!

استعداد لان تُضَاجَع عشرين رجلا - في كل يوم - وهي مطمئنة الضمير، دون أن يكون لها هم سوى إرضاء الشهوة. ولني لأعرف أن كثيرات من المتدينات لسن أكثر منها ترددًا في هذه الناحية، ولكن الفارق بينها وبينهن هو أنهن ينسفن إلى الغواية بفضل مشهوراتهن، في حين أنها تنساق بفضل فلسفتها السفسطائية... ولقد كانت في أثناء أكثر الأحاديث العاطفية تأثيرا - بل وأجرؤ على أن أقول: أكثر الأحاديث التهذيبية عبرة - تنساق إلى هذا الموضوع، فلا تتغير حياتها، ولا تتغير لهجتها، ولا يخطر ببالها أنها تُناقض نفسها. بل إنها كانت تقطع تلك الأحاديث - إذا دعت الحاجة - لتشكل في هذا الموضوع، ثم تعود إلى حديثها الأول بنفس الهدوء السابق.. وهكذا كانت صادقة في اقتناعها إلى درجة أن الأمر كله لم يكن يعدو أن يكون - في نظرها - مبدأ اجتماعيا يستطيع كل من أوتي إدراكا أن يؤوله أو يطبقه أو ينبذه، وفقا لنظرته إلى الموضوع، دون أقل تعرض للإساءة إلى الله!

ومع أنني - بالتاكيد - لم أكن أرى رأيها في هذا الموضوع إلا أنني اعترف بانني لم أجرؤ على معارضتها، خجلا مني من أن أبدي من قلة اللطف والادب ما كانت تتطلبه المعارضة. ولقد كان بوسعي أن أضع قاعدة للآخرين، وأن أحاول أن أسستني نفسي منها (١). ولكن طباغ "ماما" لم تكن فيها الوقاية الكافية لها من أن تسيء استغلال مبادئها، كما أنني كنت أعرف أنها امرأة لا تميل إلى التقلب والتلون، وأن استباحة الاستثناء لنفسها كان معناه أن ادع لها فرصة إباحته لكل من يروق لها!.. على أنني أورد هذا التناقض هنا - بين ما أورد من تناقضات - بمحض المصادفة، برغم أنه كان دائما قليل الأثر في سلوكها، بل إنه لم يكن ذا أثر البتة، في ذلك الحين.. غير أنني وعدت بأن أعرض مبادئها في صدق وإخلاص، ولني لأراغب في أن أفي بوعدتي.

ولأرجع ثانية إلى الحديث عن نفسي.. فما إن وجدت لدى "ماما" كل المبادئ التي كنت بحاجة إليها لأعزز نفسي ضد مخاوف الموت وما وراءه حتى أقبلت باطمئنان على هذا المصدر للثقة، وأصبحت أكثر تعلقا بها مني في أي وقت آخر، وكأنما كنت أود أن أنقل إليها الحياة التي كنت أحس بأنها توشك أن تهجرني!.. وترتبت على مضاعفة تعلقي بها، وعلى الاقتناع بأنه لم يبق أمامي في الحياة سوى أجل قصير، وعلى رضائي العميق بما كتبت لي في المستقبل.. ترتبت على كل هذا، حالة دائمة من الطمأنينة - بل ومن اللذة - خمدت فيها كافة الانفعالات التي تنأى بالهواجس والآمال عنا، ولكنها - في الوقت ذاته - تركتني أنعم في سكينته، ودون مأهم، بما تبقى في عمري من أيام!.. وكان ثمة عامل أسهم في جعل هذه الحال أكثر عذوبة، ذلك هو السعي إلى تنمية ميل "ماما" إلى الريف، بكل وسائل اللهو والتسلية التي كان بوسعي توفيرها. وفيما كنت أحملها على أن تحب حديثتها، وساحة دواجنها، وحماماتها، وبقراتها، اكتسبت أنا الآخر ميلا نحو هذه جميعا، وإذا بهذه الشواغل البسيطة - التي كانت تملأ نهاري دون أن تعكر صفائي - تجديني تحسنا في صحيتي يفوق ما أجدانيه اللبن وسائر الأدوية الأخرى التي استخدمت للمحافظة على كياني البائس، إلى أقصى ما كان ممكنا!

ووجدنا في قطف الثمار وجني الفواكه تسلية فيما تبقى من ذلك العام، فأخذنا نزداد شغفا بالحياة الريفية، وسط الناس الطيبين الذين كانوا يحيطون بنا. وشهدنا اقتراب الشتاء بأسف بالغ، فعدنا إلى المدينة وكاننا كنا نذهب إلى منفى.. لا سيما أنا، إذ كنت في ريب من أنني سأشهد الربيع مرة أخرى، فاعتقدت أنني ودعت "شارميت" إلى الأبد. ولم أبرحها دون أن أقبل الأرض والأشجار، ودون

(١) كان "روسو" لا يفر مدام "دي فاران" في فلسفتها السفسطائية التي لقنها إياها المسير "دي تافيل". ولكن هذه الفلسفة بالذات، هي التي يسرت له أن يصبح عشيقا لمدام "دي فاران"، فلواته هدم هذه الفلسفة - ليمسح قيام مثل هذه العلاقة بين السيدة وغيره من الرجال - لتحتم عليه أن يبحث عن سبيل ليستني نفسه، حتى لا يجرم فيها!

أن ارتد إليها عدة مرات كلما ابتعدت عنها! ولما كنت قد تخلّيت -منذ زمن طويل- عن تلميذاتي، وفقدت شغفي بملاهي المدينة ومجتمعاتها فإنني لم أعد أغادر البيت، ولم أعد أرى أحدا سوى "ماما" والسيد "سالومون" الذي أصبح -منذ قليل- طبيبا وطبيبي.. وكان رجلا أميناً، ذكياً، "كارتني" (١) متحمساً. يحسن الحديث عن نظام العالم، وقد عادت عليّ أحاديثه العذبة، المفيدة بخير يفوق ما عادت عليّ به كل وصفاته الطبية. وما كنت لأطيق يوماً ذلك الغباء وذلك التخبّط الأحمق الذي تحفل به الأحاديث العادية، ولكن الأحاديث النافعة الدسمة تبعث دائماً في نفسي سروراً عارماً، وما اعتدت أن أرفضها قط!.. وقد تولاني ميل شديد إلى أحاديث السيد "سالومون"، فقد لاح لي أنني كنت أكتسبُ معه -سلفاً- تلك المعلومات الرفيعة التي كان مقدراً لروحي أن تكتسبها حين تتخلص من القيود التي كانت تثقلها. وقد امتد الميل الذي استشعرته نحوه إلى الموضوعات التي كان يعالجها، فشرعت أبحث عن الكتب التي تستطيع أن تُساعِدني على أن أحسن فهمه. وكانت الكتب التي تفرّج التقوى بالعلوم هي أكثرها ملاءمة لي، لا سيما كتب "الخطابة" وكتب "بور-رويال" (٢) التي أخذتُ أطلعها، أو بالأحرى، التمسها. ووقع بين يدي منها كتاب للاب "لامبي" عنوانه "أحاديث عن العلوم". وكان عبارة عن مقدمة للتعريف بالكتب التي تعالج العلوم. وقد قرأته وأعدت قراءته مائة مرة، وعقدت العزم على أن أجعله مرشدي. والفيتني في النهاية انجذب -بالرغم من حالتي الصحية- أو بالأحرى بفضلها، إلى الدراسة دون أن أملك مقاومة. وبينما كنت أنظر إلى كل يوم وكأنه آخر أيامي رحت أدرس في خمس عارم، وكانني سأعيش دوماً!.. ولقد قيل لي: إن هذا كان ضاراً بي، ولكنني أعتقد -من ناحيتي- أن هذا قد أفادني، لا ذهنياً فحسب، وإنما جسدياً كذلك.. إذ إن هذا الشغل، الذي شغفت به، صار مستعذباً لدي، حتى إنني لم أعد أفكر في عللي، ومن ثم أصبحت أقل تأثراً بها. ومن الصحيح يقينا أن شيئاً لم يوفر لي شفاء حقيقياً، ولكنني -إذ لم أعد أشعر بالملحادة- تعودت الوهن، وعدم النوم، وأن أفكر بدلاً من أن أعمل، و-أخيراً- أن أنظر إلى التداعي التدرجي البطيء، الذي ألم بكيمياني، وكأنه تطوّر لا مناص منه، ولا يملك أن يوقّفه سوى الموت!

ولم تصرفني هذه الفكرة عن كل هموم الحياة التي لا جدوى منها فحسب وإنما أعفّفتني أيضاً من مضايقات الأدوية التي كنت -حتى ذلك الوقت- أضطر إلى تقبلها مرغماً. فإن "سالومون" لم يلبث أن اقتنع بأن هذه العقاقير لم تكن تملك لي إنقاذاً، فأعفاني من غصاضتها، ووقع بأن يهدئ من شجن "ماما" المسكينة ببعض الوصفات غير الضارة التي تغر المريض وتحفظ على الطبيب سمعته! وتحولت عن نظام التغذية الضيق النطاق، فعدت إلى تناول الشراب وكل مستلزمات حياة الإنسان الموفور الصحة، بقدر ما كانت قواي تسمح. وكنت أقبلُ على كل شيء في اعتدال ولكنني لم أحرم نفسي من شيء البتة!.. بل إنني عدت إلى الخروج، واستأنفت زيارة معارفي، لا سيما السيد "دي كوفنزييه"، الذي كانت صحبته تروق لي كثيراً. وقصاري القول: إن ارتقاب الموت لم يعق ميلي للدرس، بل بدا أنه أذكاه، سواء كان ذلك راجعاً إلى أنني رأيت أن من الجميل أن أدرس حتى ساعتني الأخيرة، أو كان راجعاً إلى أن بقية من الأمل في الحياة كانت تكمن متوارية في قرارة قلبي!.. ورحلت أسرع في جمع بعض المعرفة للعالم الآخر، وكأنما كنت أعتقد أنني لن أمتلك فيه من المعرفة سوى القدر الذي سأحمله إليه. وأصبحت ولوعاً ببحاثوت كتبي يدعى السيد "بوشار"، اعتاد أن يتردد عليه عدد من رجال الأدب.. وعندما أصبح الربيع -الذي كنت أظنني لن أشهده ثانية- على

(١) أي من اتباع تعاليم "دهكارت". (٢) من كتب المدرسة اليانسينية.. وقد سبق أن أوردنا نبذة عنها في تعليق سابق.

الأبواب، جَمَعْتُ لنفسي عددا من الكتب لأحملها معي إلى "شارميت"، إذا كان لي حظ الرجوع إليها!

وأتيج لي هذا الحظ فاستغلته لصالحتي .. وإن الأعتباط الذي شهدت به البراعم الأولى للربيع ليجل عن الوصف! .. كانت رؤية الربيع مرة أخرى، بمثابة البعث في الفردوس .. فما إن بدأت الثلوج في الذوبان حتى هجرنا وكرنا، ووصلنا إلى "شارميت" لنحظى هناك بأولى أنغام البلبل. ومنذ ذلك الحين لم أعد أفكر في الموت! ومن العجيب حقا أنني لم أصب قط بأمراض شديدة الوطأة في الريف. ولقد عانيت كثيرا من الآلام هناك، ولكنني لم ألزم السرير أبدا. وكثيرا ما كنت أقول، -عندما أشعر أنني أسوأ حالا من المعتاد-: "عندما تروني موشكا على الموت أحملوني إلى ظل بلوطة، وأعدكم بأن أعود إليكم مُعافى!"

ومع أنني كنت لا أزال ضعيفا إلا أنني عاودت أعمالتي الريفية، ولكن بقدر يتناسب مع قواي. وقد عانيت أسى حقيقيا لعدم استطاعتي أن أعني بالحديقة وحدي .. بيد أنني كنت إذا هويت ست مرات بالمعول شعرت بأنني أفقد أنفاسي، وتَصَبَّبَ العرق مني، وشعرت بعجز عن الاستمرار .. وإذا انحيت، كان خفقان قلبي يتضاعف، والدم يندفع إلى رأسي بقوة بالغة تضطرنني إلى الاعتدال سريعا. وإذا اضطرت إلى أن أقتصر على أعمال أقل إرهاقا فقد تكفلت -بين ما اضطلعتُ به من مهام- بأعشاش الحمام، فشغقت بها جدا، حتى إنني كثيرا ما كنت أقضي عدة ساعات هناك دون أن أشعر بالملل لحظة .. والحمامة جد هيابة، وصعبة الترويض إلا أنني توصلت إلى أن أبث في حماماتي الثقة، حتى إنها راحت تتبعني في كل مكان، وتدعني أمسكها متى شئت .. ولم أكن أظهر في الحديقة أو في ساحة الدار، دون أن تحط اثنتان أو ثلاث على ذراعي ورأسي في الحال .. وبالرغم من الغبطة التي كنت استشعرها، فإن هذا الموكب لم يلبث أن غدا متعبا إلى درجة اضطرت معها إلى أن أتبد هذه الالفة. ولقد اعتدت دائما أن أجد متعة فذة في استئناس الحيوان، لا سيما ما يكون منه خجولا وبريا نفورا. وكان يبدو لي من المطرب أن أوحى للحيوان بالثقة، وما خدعته قط، إذ كنت أود أن يحبني بانطلاق ودون قيد!

ولقد ذكرت أنني أحضرتُ معي كُتُباً .. وقد انتفعت بها، ولكن بطريقة أقل تمكينا لي من التعلم، وأدعى إلى الحيرة وبلبلة الفكر. فإن الفكرة الخاطئة التي كانت لدي عن الأمور أغرتني بأنه لا بد لقراءة كتاب قراءة مثمرة، من أن يحرز المرء كافة المعلومات الأولية التي يرتبط بها موضوع هذا الكتاب، دون أن يخطر ببالي أن المؤلف نفسه كثيرا ما لا يكون محيطا بهذه المعلومات .. وأنه إنما يأخذها عن كتب أخرى، بقدر ما تدعو الحاجة. وبهذه الفكرة الدالة على غباء، رحت أتوقف عن القراءة في كل لحظة، مضطرا إلى أن ألثث باستمرار من كتاب إلى آخر .. وكنت أحيانا أضطر إلى أن أستنفد مكتبات بأسرها، قبل أن أصل إلى الصفحة العاشرة من الكتاب الذي أرجو أن أدرسه! .. ومع ذلك فإنني اتبعت هذا الأسلوب المجرد من الإدراك، في إسراف، حتى إنني بددت وقتا لا حد له، وأرهقت رأسي إلى درجة أنني لم أعد أقوى على رؤية أو استيعاب شيء ما .. وفطنت -لحسن الحظ- إلى أنني كنت أسلك طريقا خاطئا، يقودني إلى تيه هائل، فعدلت عنه قبل أن أضل تماما!

ومهما تكن قلة ما لدى الإنسان من ميل حقيقي للعلوم فإن أول شيء يشعر به حين يُقبل على دراسة العلوم هو ترابطها الذي يجعلها تنقارب، وتتعاون، ويلقي كل منها الضوء على الآخر، بحيث لا يكون ثمة غنى لواحد منها عن الآخر. ومع أن الذكاء البشري لا يقوى على أن يسمها جميعا، بل

لا بد له دائما من أن يتخذ واحدا منها كأساس إلا أن المرء كثيرا ما يجد نفسه في الظلام - لا سيما في العلم الذي اختاره - إذا هو لم يَلْمُ بفكرة عن العلوم الباقية . . . ولقد شعرت بأن هذا الذي آليت على نفسي كان - في حد ذاته - شيئا طيبا ونافعاً، وأنه ليس من حاجة إلا إلى تبديل الأسلوب . فاقبلت على "دائرة المعارف" أولاً . وقسمتها وفقاً لفروعها، ثم رأيت أن لا بد لي من أن أفعل العكس تماماً فادرس هذه الفروع منفصلة، وأمضي في كل منها على حدة، إلى النقطة التي يلتقي عندها بسواها، فتتحد جميعاً . وبهذا عدت إلى التقسيم المألوف، ولكنني عدت إليه وقد أصبحت رجلاً يعرف ما ينبغي أن يفعل . وفي هذا عوضني التأمل عن المعرفة، وساعد التفكير الطبيعي للغاية، على إرشادي للصواب . وسواء كان مقدراً لي أن أعيش أو أن أموت، فقد رأيت أنني لم أوت وقتاً أُضَيِّعُهُ . وعدم الإلمام بشيء - في سن تقرب من الخامسة والعشرين - مع الرغبة في التعلم، يتطلبُ الانهماك في الاستفادة من الوقت . ومع أنني لم أكن أدري عند أية نقطة قد يحلو للحظ أو للموت أن يوقف تحمسي، إلا أنني كنت راغباً - مهما تكن الظروف - في أن أَلْمُ بفكرة عن كل شيء، لكي أتين اتجاه كفاءاتي الطبيعية، أكثر مني لكي أحكم بنفسي على قيمة المدايرة القائمة على التشقق!

ووجدت في تنفيذ هذا المشروع فائدة أخرى لم أكن قد فكرت فيها، وهي توفير أطول وقت ممكن لاستغلاله في ذلك . ولا بد أنني لم أخلق للدرس؛ لأن العُكُوفَ عليه طويلاً يُضْجِرُنِي إلى درجة أنه من المستحيل علي أن اضطر نفسي إلى الانشغال بموضوع واحد لنصف ساعة بأكمله، لا سيما حين أكون منصرفاً إلى متابعة سير تفكير شخص غيري (١)، في حين أنني أَقْوَى أحياناً على أن أستغرق في تفكيري الخاص أمداً أطول، بل ويتوفيق كبيراً! . . . أما حين اتتبع تفكير مؤلف ما، لبضع صفحات اضطر إلى مطالعتها بإمعان واستيعاب، فإن عقلي يَشْرُدُ وَيَتَوَّهُ بين السحاب! . . . فإذا أصررت فإنني أهرق نفسي عبثاً، وأصاب بدوار، ولا أعود أرى شيئاً . . . أما إذا تعاقبت موضوعات متباينة - ولو كان تعاقبها متواصلاً دون إهمال - فإن الواحد منها يسري عني عَنَاءٌ الذي سبقه، ومن ثم فإنني أمضي فيها بيسر، دون أن أشعر بحاجة إلى أية مهلة للراحة أو التخفف . ولقد عمدت إلى الاستفادة من هذه الملاحظة في الخطة التي أنتهجتُها للدرس، فرحت أمزج الموضوعات بشكل كان يجعلني أشغل بها طيلة اليوم دون أن أسام البتة! . . . ومن الصحيح أن المهام الريفية والمنزلية كانت تحدث تغييراً نافعاً، ولكنني - في غمرة التحمس المطرد - لم ألبث أن وجدت الوسيلة لتوفير وقت للدرس - إلى جانب أداء هذه المهام - ولأن أشغل بأمرين في آن واحد، دون أن يَحْطُرُ لي أن هذا يقل من إتقاني لكل منهما!

على أنني أعمد إلى شيء من التحفظ، بشأن هذه التفصيلات الدقيقة التي تفتتني، والتي أثقل بها أحياناً على قارئ . . . وهو تحفظ لا يحدهه القارئ إطلاقاً إذا أنا لم أعن بتبنيه إليه . فهنا - على سبيل المثال - أذكر في استعْذَابِ كافة المحاولات المتباينة التي قمت بها لتقسيم وقتي على نمط أتاح لي أن أجِد فيه أكثر قدر ممكن من المتعة ومن الفائدة، في آن واحد . وبوسعي أن أقول: إن تلك الفترة، التي قضيتها في عزلة، وفي مرض مستمر كانت أقل فترات عمري تعرضاً للْحُسُولِ والضيق . وقد انقضت شهران أو ثلاثة على هذا النسق، في تعرف اتجاه عقلي، وفي الاستمتاع - في أجمل فصول السنة، وفي البقعة التي أحالها هذا الفصل فاتنة - بسحر الحياة الذي أحسست بقيمته تماماً: كسحر الرمال العذبة، غير المقيدة - إذا صح أن نطلق هذا الاسم على معايشة قانت على اتحاد كامل - أو سحر معرفة رائعة كنت أعترم أن اكتسبها، ولكنني كنت أنتشي بها وكأنني حصلتُها فعلاً . . . أو لعل نَشَوْتُهَا كانت أشد لأن لذة الدرس والتعلم كانت ذات دخل كبير في سعادتي!

ومن الواجب التَّجَاوُزُ عن هذه المحاولات التي كانت بالنسبة لي مبعث لذة وابتهاج، ولكنها كانت أبسط من أن تشرح. فانا أكرر أن السعادة الحققة لا تُوصَفُ، وإنما هي تحسُّ.. وكلما عَزَّ وصفها كان الشعور بها أفضل وأجمل؛ إذ إنها ليست نتيجة مجموعة من الوقائع، وإنما هي حالة دائمة. إنني كثيرا ما أُكْرِرُ نفسي ولكنني خليق بأن أزداد تكرارا لو أنني رويت الشيء الواحد بعدد المرات التي يخطر فيها ببالي! وعندما اتخذت حياتي -التي كانت كثيرة التغير- مجرى أكثر انتظاما فهاكم أقرب وصف ممكن لتوزيع أوقاتي:

كنت استيقظ قبل مشرق الشمس في كل صباح، فأمرق خلال بستان مجاور، إلى طريق جد بديعة، فوق حقول الكروم التي كانت تمتد بطول سفح الجبل حتى "شامبيري". وهناك -وأنا أتمشى- كنت أتلو صلاتي التي لم تكن تتألف من مجرد تحريك شفتي بتمتمة فارغة، وإنما كانت تتعمَّلُ في سمو صادق بالقلب إلى خالق هذه الطبيعة البديعة، التي كانت آيات جمالها تنبسط أمام عيني.. فما أحببت قط أداء الصلاة في الحجرة، فقد كانت الجدران وكل تلك الأشياء التي من صنع الإنسان تبدو لي دائما وكأنها تحول ببني وبين الله.. وإني لأحب أن أفكر فيه وأتأمل آياته بينما يكون فؤادي منتظما إليه. وبوسعي أن أقول: إن صلاتي كانت خالصة، وكانت جديرة -لهذا السبب- بأن تستجاب. ولم أكن أسأل لنفسي -ولتلك التي كانت دعواتي لا تفرق ببني وبينها إطلاقا- سوى حياة بريئة، مطمئنة، خالية من الرذيلة (١)، ومن الألم، ومن الفاقة المدقعة، ومن موت الاستقامة.. وما إليها، في المستقبل. وعدا ذلك، كانت هذه العبادة تنصرف في معظمها إلى الإعجاب والتأمل، أكثر مما تنصرف إلى الدعاء والسؤال.. إذ إنني أدرك أن خير وسيلة للحصول من مانع النعم الحقيقية على تلك النعم اللازمة لنا هي في العمل على أن نستحقها، أكثر مما هي في طلبها منه!.. وكنت أعود من نزعتي بعد دورة طويلة، وأنا مُنصرفُ البال إلى تأمل المناظر الريفية المحيطة بي، في سرور واستمتاع، فهي الوحيدة التي لا تملها العين والقلب أبدا. وكنت أقرب من بعدما إذا كان النهار قد بدأ عند "ماما"، فإذا ما أبصرت نافذتها مفتوحة ارتجفت غبطة، وهرعت نحو الدار. أما إذا كانت النافذة مغلقة فقد كنت أدلف إلى الحديقة وأنتظر حتى تستيقظ، وأنا أتسلى باسترجاع ما درست في المساء السابق، أو العمل في الحديقة. وإذا يُفتح مصراع النافذة، أبادر لأقبل "ماما" في فراشها، وهي مائتال نصف نائمة، في كثير من الأحيان.. وكان هذا التقبيل طاهرا أكثر منه عاطفيا، يستمد من براءته -بالذات- سحرا لم يقترن قط بملاذ الحس!

وكنا نَظْفِرُ عادة على فهوة بالدين. وكانت هذه أكثر فترات النهار هدوءا وسكينة لنا، فكنا نستمرسل في الحديث على سجيئنا. ولقد خلغت لي هذه الجلسات -التي كانت طويلة في العادة- ميلا قويا إلى الإفطار، وإني لا أوتر الطريقة الإنجليزية أو السويسرية التي تعتبر الإفطار وجبة كاملة تُقَسَّمُ الأسرة بأكملها، -على الطريقة الفرنسية التي يفطر بمقتضاها كل امرئ في حجرته بمفرده، أو لا يفطر إطلاقا، في الغالب.

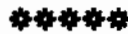
وبعد ساعة أو اثنتين -تمضيان في الحديث- كنت أدخل إلى كني حتى موعد الغداء. وكنت أبدا بكتاب من كتب الفلسفة، مثل كتاب "المنطق" -بور-روبال، و"المقالة" -لوك، وكتب "مالبراناش"، و"ليبينيتز" و"ديكارت"، إلخ. وسرعان ما كنت ألاحظ أن بين هؤلاء المؤلفين تناقضا دائما. فخطررت لي فكرة خيالية أوحى بالتقريب بينهم، مما أتعبني كثيرا وجلعني أبدد كثيرا من الوقت.. وكنت أربك ذهني دون أن أحزِرَ تقديما ما.. وإذ طرحت عني -في النهاية- هذا الأسلوب

(١) من الغريب أن يصر "روسو" على أن العلاقة المشينة -مهما تكن ميراثها- بينه وبين مذام "دي فارين"، لم تكن من الرذيلة في شيء!

كذلك انتهجت أسلوبا يفضل به درجة لا حد لها، وإليه أعزو كل التقدم الذي استطعت أن أحرزه، بالرغم من نقص استعدادي.. فمن المؤكد أنني لم أوت قط استعدادا كبيرا للدرس.. ولقد آليت على نفسي -وأنا أقرأ لكل مؤلف- أن أستوعب كل أفكاره وأتبعها دون أن أخلطها بآرائي، أو بآراء أي مؤلف آخر، ودون أن أجادلها. بل إنني كنت أقول لنفسني: "لنبدا باختزان الآراء بدقة -صحيحة كانت أو خاطئة- ريثما يتوفر لعقلي من الغذاء ما يمكنه من المقارنة بينها والمفاضلة". وإنني لأعلم أن هذا الأسلوب لا يخلو من العيوب ولكنه أفلح في تمكيني من غاييتي، وهي التعلم. وبعد بضع سنوات قضيتها في عدم التفكير إلا على غرار سواي، -دون ما تأمل بل وبدون تمحيص- ألفت نفسي مألوكا لدخر من العلم كاف لإرضائي، ولتمكيني من أن أفكر دون معونة الغير!.. وعندما كانت الرحلات والشواغل تحرمني فرصة اللجوء إلى كتيبتي -في ذلك الحين- كنت أتسلى باسترجاع ما قرأت والمقارنة بين بعضه وبعض، فإذن كل شيء بميزان، وأصْدِرُ في بعض الأحيان -أحكاما على أساتذتي. ومع أنني بدأت أشحن مقدرتي على النقد في سن متأخرة إلا أنني لم أجد أنها قد تبددت، وعندما نشرت آرائي الخاصة لم اتهم أبدا بأنني عيب لاساتذتي، ولا بأنني "أحلف بكلمات أستاذ ما" (١)!

وانتقلت من هذه الدراسات إلى مبادئ الهندسة، التي لم أجاوزها كثيرا قط، إذ أصررت على أن أقهر ضعف ذاكرتي، بفضل الرجوع مرة مرة إلى حيث بدأت، والشروع باستمرار في تتبع خطواتي السابقة. ولم أستسغ تعاليم "يوكليد" (٢)، الذي كان يُعنى بتسلسل البراهين أكثر من عنايته بشرايط الأفكار. وفضلت هندسة الألب "لامبي"، الذي أصبح -منذ ذلك الحين- من أحب المؤلفين إلي، والذي أعدت قراءة مؤلفاته في استمراء.. وجاء الجبر بعد ذلك، فكان الألب "لامبي" هو الذي اتخذته مرشدا. حتى إذا تقدمت في دراستي، أقبلت على "علم الحساب" للألب "رينو"، ثم على كتابه "تحاليل تستند إلى براهين"، الذي لم أفعل أكثر من أن مررت به مر الكرام. ولم أمض قط إلى الحد الذي أفهم عنده تطبيق الجبر على الهندسة، فما أحببت قط هذه الطريقة التي نجعلك تمضي في العملية الرياضية دون أن تدري ما الذي تفعله. وكان حل أية مسألة هندسية بالمعادلات الجبرية يبدو لي مثل عَرَفٍ لحن بالاكْتفاء بإدارة يد (٣)!

وعندما وجدت بالحساب -لأول مرة- أن مربع المعادلة الجبرية ذات الحدين يتألف من مربع كل حد من حدودها، ومن ضعف حاصل ضرب كل منهما في الآخر (٤)، لم أشأ أن أصدق ذلك -برغم صحة عملية الضرب التي أجريتها- إلا بعد أن سجلت العملية بالأرقام. وليس معنى هذا أنني لم أوت ميلا عظيما إلى الجبر، لأنه لا يعالج سويكميات مجردة (مبهمة)، ولكنني كنت -عند تطبيقه على المساحات والأبعاد- أحب أن أرى العملية ممثلة بسطور وخطوط، وبدون ذلك لم أكن أفهم منها شيئا!



وجاءت اللغة اللاتينية، بعد ذلك. وكانت هذه أشق دراستي، فلم أحرز فيها أبدا أي تقدم كبير. واتبعت في البداية أسلوب "بور-رويسال" اللاتيني، ولكن دون ما ثمرة. فإن هذه الأشعار الاستروقوطية (٥) كانت تقبض قلبي، ولا تستطيع أن تلج أذني!.. ووجدتني أضل وسط أكديس

(١) مثل لاتيني شاع عن تلاميذ "فيثاغورس"، الذين كانوا يرددون آراء أسلافهم في إيمان أصمى (٢) عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ووضع أصولا للعلوم الرياضية في ١٣ كتابا، خص الهندسة منها تسعة كتب. (٣) يشبه "روسو" حل المسائل الهندسية بالمعادلات الجبرية، بإدارة يد آلة موسيقية ذات زنبرك، فإذا بها تردد النغم دون أن يدري من أدارها شيئا من طريقة عمله! (٤) (١+١) = ٢+٢، ٢+٢ = ٤، ٢+٢ = ٤، كانت قبائل "الاستروقوط" البربرية هي المصدر الأول للغة اللاتينية.

القواعد، وما إن استوعب قاعدة حتى أكون قد نسيت التي سبقتها!.. فليست دراسة الكلمات بالتالي تليق بإنسان بلا ذاكرة، وما أصررت على هذه الدراسة إلا لكي أغصّب ذاكرتي على أن تقوى، فحسب!.. وكان لابد من أن أهجرها في النهاية، على أنني استوعبت التركيب بالدرجة التي تكفي لأن أستطيع أن أقرأ أسلوب كاتب سلس، بمساعدة قاموس. وقد اتبعت هذا النهج، فوجدتني أتقدم وأقبلت على الترجمة، لاكتابة، وإنما في الذاكرة، واقتصرت على ذلك. وبفضل الزمن والمران أصبحت أقرأ بطلاقة كافية مؤلفات الكتاب اللاتينيين، ولكنني لم أستطع قط أن أتكلّم أو أكتب هذه اللغة.. وهذا ما حيرني كثيرا، حين الفيتني -دون أن أدري كيف- مُدْرَجًا في عداد أهل الأدب. ومن العيوب الأخرى التي تربت على هذه الطريقة من طرق التعلم أنني لم أتعلّم قط علم العروض، وكنت أقلّ إلماا بقواعد نظم الشعر. ومع أنني -في رغبتني أن أتذوق وقع اللغة شعرا ونثرا- بذلت جهودا كثيرة للإحاطة بها إلا أنني أوقن بأن تحقيق هذا -دون معونة أستاذ- أمر يقرب من المستحيل، وإذا استوعبت تركيب أسهل الأشعار جميعها، وهو السُداسي الوزن، نلّمت صبرا كافيا لأن أزن كل شعر "فيرجيل"، مبينا القاعدة والكم، فإذا ما ارتبت فيما إذا كان أحد المقاطع طويلا أو قصيرا رجعت إلى كتاب "فيرجيل" لاسترشده به. ومن الواضح أن هذا جعلني ارتكب أخطاء كثيرة بسبب التغير الذي تسمح به قواعد النظم.. على أنه إذا كان لتعلم المرء بنفسه فائدة فإن له -كذلك- عيوبها عظيمة، في مقدمتها العناء الذي يفوق التصور. وإني لأدري بهذا من أي شخص، أيا كان!

وكنّت أأفارق كتبي قبيل الظهر، فإذا لم يكن الغداء معدا فإنني كنت أسمى إلى زيارة صديقتاني الحمايم، أو للعمل في الحديقة، في انتظار موعد الغداء. وعندما أسمع النداء أهرع -وأنا جد مغتبط- وقد أوتيت شهية عظيمة. فمن الجدير بالملاحظة أن شهيتي لا تتخلى عني، مهما أكن مريضا. وكنا نتغذى في انشراح، ونحن نتبادل الحديث في شؤوننا حتى تُفَرَّغَ "ماما" من الأكل. وكنا -إذا ما تحسن الجو- نذهب، مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، إلى ما وراء الدار، لنتناول القهوة في مقصورة علية الجو، ظليلة، زينتها بحشيشة الدينار (١)، وكنا نشعرُ بارتياح شديد إليها في القبط. وهناك، كنا نقضي وقتا -ليس بالطويل-، في تفقّد خضرتنا وزهورنا، وفي أحاديث تتعلق بطريقة معيشتنا، كانت نجعلنا أقدر تذوقا لجمالها. وكانت لي أسرة أخرى، في أقصى الحديقة، تتألف من نحل. ولم يكن يفوتني قط أن أزورها، وكثيرا ما كانت "ماما" تصحبني. وكنت أهتم كثيرا بعملها، وأنعم للغاية برؤيتها في عودتها من جني الزهور، وقد أثقلت سيقانها الدقيقة بأحمالها، بحيث كان يتعذر عليها المشي أحيانا. ولقد حملني الفضول -في الأيام الأولى- على أن أحاول التثبت مما كنت أرى، فلدغني النحل مرتين أو ثلاثا، ولكننا لم نلبث أن وثقنا تعارفنا حتى إنه كان يدعُني وشانني، مهما اقترب منه.. وكان يتجمع حولي -مهما تكن الخلايا مليئة، تاهبا للإفراز- فيحيط على يدي ووجهي دون أن يلدغني قط!.. إن كل الحيوانات تُوجسُ عادة من الإنسان -وهي ليست مخطئة في ذلك- ولكنها ما إن تطمئن مرة إلى أنه لا يريد بها أذى حتى تصبح ثقتها به عظيمة إلى درجة أنه لا يسيء إلى هذه الثقة إلا إذا كان همجيا بربريا!

وكنّت أعود إلى كتبي، بيد أن أعمالي -فيما بعد الظهر- كانت أقل جَدَارَةً بأن تحمل اسم "العمل والدراسة"، منها باسم "الراحة والتسلية". فما كنت لأطبق قط العمل المكتبي بعد غدائي؛ لأن كل عمل، في الأيام الحارة يكبدني عناء، بوجه عام. على أنني كنت أشغل نفسي بالقراءة دون الاستذكار، وبغير إرهاق، بل وبغير ضابط أو قاعدة. وكان الشيء الذي اعتدت أن أوأظب عليه بدقة،

هو التاريخ والجغرافيا. ولما كان هذان لا يتطلبان أي جهد عقلي فإنني كنت أمضي فيهما قدما بقدر ما كانت تسمح ذاكرتي القاصرة، وحاولت أن أدرس مؤلف الأب "بيتو"، وانغمست في غياهب علم التاريخ، ولكنني كنت لا أميل إلى الأجزاء الدقيقة منه التي لا قاع لها ولا شاطئ (١) وكنت أفضل عليها الأبعاد الدقيقة التوقيت، ومسرى الأجرام السماوية. بل إنني كنت خليقا بأن أغرم بعلم الفلك لو أنني أوتيت أدوات له، ولكنني كنت مضطرا إلى أن أقنع ببعض مبادئه التي تؤخذ عن الكتب، وبعض مشاهدات غير دقيقة - خلال منظار مقرب - كانت كافية لمعرفة المواقع العامة للأجرام فحسب، إذ إن نظري القصير لم يكن يسمح لي بتمييز أي شيء بالعين المجردة، فما بالك بالكواكب؟ .. وأذكر - في هذا الصدد - حادثا كثيرا ما يحملني تذكُّره على الضحك: فقد ابتعت خريطة فلكية لأدرس عليها الطوالع، وثبَّتها إلى إطار، وكنت في الليالي الصافية أذهب إلى الحديقة فاضع إطاري على أربع قوائم في ارتفاع قامتي تقريبا، بحيث تكون الخريطة مقلوبة. ولكي أضيئها دون أن تطفئ الريح شمعتي، كنت أضع هذه في دلو على الأرض، بين القوائم الأربع، ثم أنظر - بالتناوب - إلى الخريطة بعيني، وإلى الكواكب بمنظاري، وأروح أضني نفسي بالتعرف على النجوم واستنتاج الطوالع. وأظنني قد قلت: إن حديقة السيد "نواريه" كانت مرتفعة عن مستوى الأرض، بحيث كان كل ما يجري يُشاهد من الطريق. وحدث - ذات مساء - أن كان بعض الفلاحين مارين في ساعة متأخرة، فأروني في هيئة مضحكة، وقد انهمكت في عملي. وكان الضوء الواهن المنعكس على خريطة - والذي لم يكونوا يرون مصدره، لأنه كان محجوبا عن أنظارهم بحواف الدلو - كما كانت هذه القوائم الأربع، والصفحة الورقية الكبيرة المكسوة بالأشكال والأرقام، والإطار، وحركة منظاري، الذي كانوا يرونه وهو يروح ويحيى .. كل هذه أوحى بفكرة السحر، مما أفرغهم! .. ولم يكن ليأسي صالحا لأن يُطمئنهم، فقد كنت أرثدي قبعة ذات حافة عريضة، تعلو قلنسوتي "طاقيتي"، وقد أجبرتني "ماما" على ارتدائها، مما هبنا لأنظار أولئك الفلاحين صورة ساحر حقيقي! ولما كان الوقت يتأخرُ منتصف الليل فإنهم لم يرتابوا إطلاقا في أنهم أمام اجتماع للسحرة! ولما كان فضولهم أقل من أن يزين لهم مشاهدة ما كان يجري فإنهم فروا وهم في فزع شديد، وأيقظوا جيرانهم ليرووا لهم ما رأوا! .. وانتشرت القصة بسرعة حتى إن كل امرئ في الجيرة كان يعرف - في اليوم التالي - أن اجتماع السحرة عقد في دار السيد "نواريه". ولست أدري ما كانت تؤدي إليه هذه الشائعة في النهاية لو لم يعتمد أحد الفلاحين الذين شهدوا حركاتي السحرية، إلى أن يرفع شكاته - في اليوم ذاته - إلى اثنين من "الجيزويت"، اعتادا أن يترددا علينا، فسقها الشكوى دون أن يعرفا جلية الأمر. ثم ذكرنا لنا القصة، فأدليت إليهما بالسبب، وضحكنا لذلك كثيرا. على أنه تقرر - خشية تكرار ذلك الحادث - أن أقوم بمشاهداتي الفلكية في المستقبل دون استعانة بضوء، مكتفيا بالرجوع إلى الخريطة داخل الدار. والذين قرعوا كتابي: "رمائل الجبل"، عن أعمال السحرية في "البندقية"، رأوا - كما أرجو - أن السحر كان صنعتي ردحا طويلا!

هكذا كانت حياتي في "شارميت" عندما لم أكن مشغولا بأية مهمة ريفية، فقد كانت هذه تظفر بالفضلية دائما، كما أنني كنت - في الأعمال التي لا تتجاوز طاقتي - أعمل كأي فلاح! .. على أنه من الصحيح أن ضَعْفِي البالغ لم يدع لي - إذ ذاك - من مقدرة في هذا المجال، اللهم إلا النية الطيبة. .. هذا فضلا عن أنني كنت أبغي أن أقوم بعملين في آن واحد؛ ولهذا السبب لم أتقن أيا منهما. إذ كنت قد وضعت نُصْبَ عيني أن أهيب نفسي - بالقوة - ذاكرة طيبة، فدايت على محاولة

(١) يقصد أنها من العسق بحيث أنه كان يتخطى فيها دون أن يهتدي إلى غاية أو ينفذ منها شيئا.

أن أحفظ كثيراً من المعرفة عن ظَهْرِ قَلْبٍ . ومن أجل هذا كنت أحمل معي دائماً كتاباً أدرسه وأستذكره وأرده على نفسي وأنا منهمك في العمل، متحملاً في ذلك عناء لا يصدق العقل ! ولست أدري كيف أن إصراري على هذه المحاولات غير المجدية وهذه المجهودات المستمرة لم ينته إلى أن أغدو - في النهاية - غيباً . . . كان لابد من أن أدرس ديوان الشاعر " فيرجيل " EGLOGUES وإن أكرر الدرس عشرين مرة، ومع ذلك فإنني لم أفقه منه كلمة واحدة ! ولقد فقدت، أو فَكَّكْتُ، عدداً كبيراً من الكتب باعتيادي حملها معي في كل مكان، سواء كان ذلك في أعشاش الحمام، أو في الحديقة، أو في البستان، أو في مزرعة الكروم . وكنت أثناء انشغالي بشيء أضع الكتاب في أسفل إحدى الأشجار، أو على السياج العنسي، ثم كنت أنسى أن أخذه ثانية . . . وكثيراً ما كنت أجده - بعد خمسة عشر يوماً - تالفاً، أو يكون قَرَضَهُ النمل والقواقع . وأصبحت هذه اللفتة إلى التعلم تُهَوِّسُما دفعني إلى ما يقرب من العتَّة والحماقة، حتى إنني - لانشغال بالي - كنت لا أنفك أنتم وأغمم !

ولقد أحالني مؤلفات " بور-رويال " وكتاب " الخطابة " - اللذين كنت أقرؤهما بكثرة باللغة - إلى شخص نصف " يانسنيني " . وبالرغم من قوة إيماني، فإن " لاهوت " هذا المذهب القاسي كان يُزعجني أحياناً . . . وأخذت رهبة الجحيم - الذي لم أكن حتى ذلك الوقت أخافه كثيراً - تقض طمانيتي شيئاً فشيئاً . . . ولو لم ترفه " هاما " عن نفسي لقلب هذا المذهب الرهيب كل كياني . . . وقد بذل الراهب الذي اعتدت أن أفضي إليه باعترافاتي - والذي كان يتلقَّى اعترافاتنا هي الأخرى - قصارى وسعه في أن يجعلني في حال ذهنية طيبة . وكان هذا الراهب من " الجيزويت "، ويدعى الأب " هيميه " . وقد كان شيخاً طيباً، حكيماً، ساظلاً دائماً وأقر ذكراه . ومع أنه كان " جيزويتياً " إلا أنه كان في سداجة الطفل، وكانت أخلاقه وادعة أكثر منها متراخية، وهذا عين ما كنت في حاجة إليه، لأعيد إلى نفسي توازنها بعد الانطباعات الكثيرة التي أحدثتها " اليانسنينية " . وكان هذا الرجل الطيب وزميله - الأب " كويميه " - يَفْدَان كثيراً لزيارتنا في " شارميت "، برغم أن الطريق كانت شديدة الوعورة، وأطول مما ينبغي بالنسبة لمن هم في سنهما . ولقد كانت زيارتهما ذات أثر طيب عظيم على نفسي، أسأل الله أن يُسَبِّحَ على روحيهما جزاء مثله . . . إذ كانا طاعنين في السن - في ذلك الوقت - بحيث إنني لا أظنهما على قيد الحياة اليوم . وكنت - أنا الآخر - أذهب لزيارتهم في " شامبيري "، فالتفت دارهما تدريجاً، وأصبحت مكتبتهم رهن إرادتي . وإن ذكرى هذه الفترة السعيدة لثرتبط ارتباطاً وثيقاً بذكرى " الجيزويتيين " حتى إنني أحب كلا منهما من أجل الآخر . ومع أن مذهبهما كان يبدو لي دائماً - خطراً إلا أنني لم أستطع أن أجد قط ميلاً إلى أن أوليهما كراهية صادقة !

ولكم أود أن أعرف ما إذا كان يطوفُ بقلوب الغير من الأفكار الصبانية ما يطوف بقلبي أحياناً . ففي غمرة دراساتي، وفي سياق حياة بريئة إلى أقصى ما يُسْتَطَاعُ، وبالرغم من كل ما قيل لي فإن الخوف من الجحيم لا يزال يزعجني أحياناً . وكنت أسأل نفسي : " في أي حال أنا ؟ "، وهل أدان لو أنني مت في هذه اللحظة ؟ . . . وعلى هَذِي أسأتني " اليانسنيني "، لم يكن ثمة ريب في الأمر . . . ولكنني كنت أرى الحكم يختلف، على هدى ضميري . . . وإذ كنت دائماً في خوف، اتخبط في هذا التذبذب القاسي، فقد أخذت الجأ - وأنا أبحث عن مخرج - إلى وسائل من ادعى الأمور للضحك، وكنت من أجلها على استعداد لأن أحبس أي إنسان أراه ياتئها . . . ففي ذات يوم أخذت - بطريقة آتية، وأنا أفكر في هذا الموضوع المقص - أرمي جُدُوعَ الأشجار بالأحجار، بما كان لي من مقدرة على الرماية . . . أعني دون أن أصيب أياً منها تقريباً . . . وفيما كنت في غمرة هذا العمل الطريف خطر لي أن

اتخذ منه لونا من الشعوذة كي أطامن قلقي . فقلت لنفسي : "سارمي هذا الحجر نحو الشجرة المواجهة لي فإذا أصبت كانت الإصابة بشيرا بالنجاة، وإذا أخفقت فقد حاقت بي اللعنة" .. وفيما كنت أقول هذا طوحت بالحجر، بيد مرتجفة، وبخفقان عنيف في القلب .. ولكنني يتوفيق بالغ، حتى إن الحجر أصاب الشجرة في منتصفها تماما، وهو أمر -إن شئتم الحق- لم يكن بالعسير، إذ إنني كنت قد عنيت باختيار شجرة غليظة الجذع جدا، وقريبة جدا . ومنذ ذلك الوقت لم يعد يخالجنني شك في خلاصي .. ولست أدري -وأنا أذكر هذا الحادث- أضحك أم اتحسر على نفسي إن لكم -أيها الكبار، الذين تضحكون ولا شك- أن تطربوا، ولكن .. لا تسخروا من ضعفي أو عبثي، فإني أقسم لكم إنني أشعر به تمام الشعور!

على أن هذه الاضطرابات، وهذه الدموع التي قد لا يمكن فصلها عن التقوى والإيمان لم تكن حالا دائمة . فقد كنت -سوجه عام- موفور الهدوء، وكان الأثر الذي خلّفته فكرة الموت المبكر في نفسي أقل انتماء إلى الحزن منه إلى الضعف والاستكانة الوادعة، التي كان لها سحرها الخاص .. ولقد عثرت بين أوراق قديمة على قطعة رثاء كنت قد وجهتها إلى نفسي، أهنتها فيها على موتي في سن يشعر عندها المرء بقدر كاف من الشجاعة على مواجهة الموت، دون أن أكون قد عانيت عللا قاسية -بدنية كانت أو عقلية- خلال حياتي .. ولكم كنت مُصيبا! .. كان ثمة هاجس يُخيفني من الحياة خشية العذاب .. لكأنما كنت أرى مقدما المصير الذي كان في انتظاري في أواخر أيامي .. أبدا ما كنت قريبا من الحكمة بقدر ما كنت في تلك الفترة السعيدة .. ففي يعدي عن الحسرة البالغة على الماضي، وفي تحرري من هواجس المستقبل كان الشعور الغالب على نفسي باستمرار هو شعور الاستمتاع بالحاضر . إن الاتقياء يؤتون -عادة- قدرا ضئيلا من شهوة متájعة، تجعلهم يتذوقون في استمرار تلك الملاذ البريقة المباحة لهم . ولكن الدنيويين يرون في ذلك جرما من جانب الاتقياء . ولست أدري لذلك سببا .. لا، بل أحسبني أعرف تماما .. فهم يحسدون الاتقياء على بهجة الملاذ الساذجة التي فقدوا هم طعمها! .. ولقد كان هذا الميل لدي، فوجدت من بواعث الغبطة أن أرضيه وأنا مطمئن الضمير .. وكان قلبي مايزال غضا، فأسلم نفسه إليه تماما، وفي فرح الطفل، أو بالاحرى -إذا كان لي أن أجرو على القول- في شبق الملاك! .. فقد كان لهذه المتع الوادعة، ما لباهج الفردوس من سحر جليل! .. كان تناول الغذاء على الحشائش في "مونثانيول"، وتناول العشاء تحت الخمائل، وجني الفواكه، واقتطاف العنب، والامسيات التي كانت تُقضى في انتزاع ألياف القنب مع رجالنا .. كل هذه كانت أعيادا حافلة وجدت "ماما" فيها عين ما كنت أنا أجد من سرور .

وكانت النزاهات التي نقوم بها وحيدين، ذات فتنه أشد وأكثر، لأن القلب كان ينطلق متحررا . ولقد قمنا -فيما قمنا به منها- بنزهة تعتبر من المعالم في ذاكرتي : كان ذلك في يوم عيد للقديس "لويس"، الذي سُميت "ماما" باسمه، وانطلقنا معا -وحيدين- في البكور، بعد قدّأس جاء أحد الرهبان "الكرومليين" ليلقيه علينا -في مطلع النهار- في كنيسة صغيرة مُلحقة بالدار . وكنت قد اقترحت أن نتمشى في جانب الوادي المقابل للجانب الذي كنا فيه، ولم تكن قد زرنا قط . فارسلنا زادا مُقدّما، إذ كانت النزهة تستغرق اليوم بطوله . ولم تكن "ماما" ثقيلة في سيرها، برغم أنها كانت بدنية، ممتلئة الجسم، فأخذنا نتنقل من هضبة إلى هضبة، ومن غابة إلى غابة، في الشمس حيناً وفي الظل أحيانا، ونحن نستريح من آن إلى آخر، وقد غفلنا تماما عن سير الزمن . وكنا نتحدث عن أنفسنا، وعن رابطتنا الوثيقة، وعن عذوبة نصيبنا في الحياة، رافعين -من أجل دوامه- دَعَوَات لم تستجب! ..

وكان كل شيء يبدو وكأنه يُدبر في الخفاء لجعل هذا النهار هنيئاً. وكان ثمة مطر قد تساقط منذ فترة قريبة، فلا أثر لغبار.. كما كانت ثمة جداول جارئة، ونسيم يداعب أوراق الشجر. وكان الهواء نقياً، والافق خلواً من السُحب، والسماء -كقلبيتنا- يسودها الصفاء!.. تناولنا غداءنا في دار أحد الفلاحين، وقد تقاسمناه مع أسرته التي باركتنا وشكرتنا من صميم الأفئدة. ما أطيب أولئك الفقراء من أهل "سافوا"!

وبعد الغداء لذنا بالظل تحت الأشجار الوارفة، حيث رحت أتسلى بجمع بعض العيدان الخشبية الجافة لنعد قهوتنا، بينما كانت "ماما" تتلهم بتفقد الأعشاب بين الأدغال. ورأت الزهور التي كنت قد جمعتها أثناء الطريق، فاخذت تُلقت نظري إلى ألف غريبة وعجيبة في تكوينها، مما لذ لي كثيراً، ومما كان خليقاً بأن يجعلني أميل إلى علم النبات لولا أن أوان هذا الميل لم يكن قد حان، فقد كنت منصرفاً عنه إلى كثير من الدراسات الأخرى. وخَطَرْتُ لي فكرة حولتني عن الزهور والنباتات: فإن الجو الروحي الذي ألفيتني فيه، وكل ما قلنا وفعلنا في ذلك اليوم، وكل الأشياء التي خَلَبَتْ لُبِّي، ذكرتني بذلك الحلم الذي رأيته وأنا في كامل اليقظة في "أنيسي" قبل سبع أو ثماني سنوات، والذي رَوَيْته في مكانه (١). وكان الشبه من القوة بحيث إنني حين تذكرت الحلم اهتزت مشاعري تأثراً وانساب دمعي.. وفي نوبة من الانفعال العاطفي، عانقت تلك الحبيبة الغالية، وقلت لها في وَجْدٍ: "ماما"، "ماما".. لقد كنت موعوداً بهذا اليوم منذ أجل طويل، ولست أرى ما يُفوقه!.. إن سعادتي -بفضلك- في أوجها، فليتها لا تتناقص بعد ذلك!.. ليتها تدوم طالما ظلت أنعم باستمرارها!.. ليتها لا تَنقُضِي إلا مع انقضاء أجلي!"

وهكذا أخذت تنساب أيامي السعيدة.. بل الأيام التي كانت أكثر من سعيدة، حتى إنني -للعجزي عن أن أتبين ما قد يقوى على تَمَكُّيرها- كنت أتصور أنها لن تنتهي -في الواقع- إلا مع نهايتي!.. وليس معنى هذا أن نبع وساوسي كان قد نَضَبَ تماماً، وإنما كان معناه أنني رايت هذه الوسواس تتخذ طريقاً آخر مكنتني من أن أوجه أحزاني وآلامي إلى أهداف نافعة، جلبت عليها دواء ناجحاً!.. ولقد كانت "ماما" تُحبُّ الرفيفَ بطبيعتها، فوجد هذا الميل مني ما يذكيه. وما لبثت أن انتقلت إليها -تدرجاً- عدوى الشغف بالأعمال الريفية.. وكانت تُحبُّ تَقْوِيمَ الأرض (٢)، كما كانت لديها -فوق هذا- معرفة ومعلومات كانت تستغلها في هذا الصدد باستمتاع. ولم تَقْنَعْ بالأرض التي كانت تابعة للبيت الذي استولت عليه، بل إنها كانت تستأجر تارة حقلاً، وتارة مَرَجاً. وانتَهت إلى أن ركزت روح ابتكار المشروع لديها في الأمور الزراعية، بدلاً من أن تبقى عَاطِلَةً في الدار. وبدأت تعمل لكي تصير -في القريب العاجل- مزارعة كبيرة!

ولم أكن أحب كثيراً أن أراها تتوسع في ذلك، فرحت أعارضها فيه قُصَارَى ما استطعت، وأنا واثق تمام الثقة بأنها كانت دائماً تغتر فتخطئ، وأن روحها المتحررة السخية كانت تحملها دائماً على أن تُنْفِقَ أكثر مما يعود عليها من إنتاج. على أنني وجدت عزاء في التفكير في أن هذا الإنتاج لن يكون معدوماً -على الأقل- وأنه قد يساعدها على العيش.. وبالنسبة إلى كافة المشروعات التي قدر لها أن تَرَسِمَهَا بدا لي هذا المشروع أقل إيقاعاً للخراب بها. ومع أنني لم أر -مثلاً- فيه مورداً للربح إلا أنني رأيت فيه شأغلاً يقبها باستمرار حيل المحتالين الخبيثة!

وبهذه الفكرة أصبحت أرغب كل الرغبة في أن أسترِد قوتي وصحتي معاً، حتى يتسنى لي أن أسهرَ على أعمالها، وأن أغدو رئيساً لعمالها، أو العامل الأول في خدمتها. ومن الطبيعي أن المران

والرياضة اللذين حملتني هذه الرغبة على القيام بهما أصبحا ينتزعاني في كثير من الأحيان من كتيبي، ويشغلاني عن حالي الصحية؛ مما كان خليقا بأن يسير بها نحو التحسن!

من سنة ١٧٢٧ إلى سنة ١٧٤١

عاد "باريسو" من إيطاليا في الشتاء التالي، وقد جلب لي معه بعض الكتب، منها كتابا للأب "بانشييري": "بونتمبي" و"كارتلا بير ميوزيكا"، اللذان حببا إلي دراسة تاريخ الموسيقى، والأبحاث النظرية في هذا الفن الجميل، وبقي "باريسو" معنا فترة من الزمن. ولما كنت قد بلغت سن الرشد قبل ذلك ببضعة أشهر فقد اتفقنا على أن أذهب إلى "جنيف" في الربيع التالي؛ لأطالب بشروء أمي، أو لأطالب -على الأقل- بذلك النصيب الذي خصني منها، ريثما نستبين ما ألم بأخي. ونفذت هذه الخطة كما اتفقنا، فذهبت إلى "جنيف" حيث لحق بي أبي، وكان قد ألف منذ فترة طويلة أن يزور المدينة دون أن يحتك به أحد بالرغم من أن الحكم الذي صدر عليه كان ما يزال قائما. ولكن أبي كان موضع التقدير لبعالته، والاحترام لأمانيه، فتظاهر أولو الأمر بأنهم نسوا قضيته الصغيرة. وكان الحكماء في شغل شاغل بالمشروع العظيم الذي بزغ فجره بعد ذلك بقليل؛ ولذلك أبوا أن يُشيروا نائرة الطبقات الوسطى قبل الأوان، بأن يذكروهم بتحزيبهم السابق في لحظة غير مواتية.

وخشيت أن تقوم في وجهي الصعوبات بسبب ارتدادني عن مذهبي، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث، فقوانين "جنيف" في هذا الشأن ليست في صرامة قوانين "برن"، حيث يفقد من يرتد عن دينه لا منزلته فحسب بل أملاكه أيضا. ولم يكن ثمة نزاع في حقي إلا أن الميراث نفسه -لمسبب لا أدركه- تضاءل إلى مبلغ تافه. ومع أن أخي كان -في غالب الظن- قد لقي ربه إلا أنه لم يكن ثمة دليل قانوني على هذا. لم يكن عندي من الأسانيد ما يكفي لأن أطلب بنصيبه، فتركته عن طيب خاطر لأبي يستعين به على حياته، وقد كان له حق المنفعة مادام على قيد الحياة. وما إن تمت الإجراءات القانونية وتسلمت مالي حتى أنفقت شيئا منه في شراء بعض الكتب، وهرعت إلى "ماما" أضع الباقي تحت قدميها، وكان قلبي يطفح بشرا أثناء الرحلة. وفي اللحظة التي وضعت فيها هذا المال في يدها كنت أسعد ألف مرة من اللحظة التي تسلمته فيها!.. وتقبلت هي المال قبول النفس السامية الرفيعة التي لا تجد من العسير عليها أن تأتي مثل هذا الفعل، فلا يدهشها أن يعاملها الغير نفس المعاملة.. وقد أنفقت المال كله تقريبا على شخصي، بنفس تلك البساطة التي اتسمت بها. ولو كان هذا المال قد جاء من مصدر آخر لانفقت على نفس هذه الصورة!

ولم أكن في ذلك الوقت قد استعدت صحتي تماما بل -على العكس- كنت أذوي وأذبل بشكل واضح... كنت في شحوب الموتى وهزال الهيكل العظمي، وكانت ضربات عروقي فظيعة لا تحتمل، وازدادت نبضات قلبي، وكنت أعاني على الدوام عسر التنفس.. وازدادت ضعفا آخر الأمر حتى كنت لا أكاد أستطيع الحراك.. كنت لا أستطيع أن أغذ السير إلا وأشعر بالاختناق، ولا أتحمي دون أن يصيبني الدوار، وتعذر علي رفع أصغر الأثقال، فأكرهت على البقاء ساكنا جامدا، وهو أكبر عذاب يصيب رجلا في مثل قلقي وضجري. ولا شك في أن مرضي كان مرده "الهستيريا" إلى حد كبير، فكأنني قد بليت بذلك المرض الذي لا يصيب إلا السعداء!.. فالدموع التي كثيرا ما كنت أدرفها دون سبب يدعو إلى البكاء.. وفرحتي وافتتاني بحفيف ورقة من أوراق الشجر، أو تغريد طائر طروب..

ومزاجي المتقلب في حياة بلغت ذروة الهناء، كل هذه كانت دلائل على كَلَال من تأثير السعادة يؤدي إلى حساسية مفرطة. ونحن لم ننزود للسعادة في هذا العالم إلا بالقليل، مما يقتضي أن يُعاني الروح أو الجسم.. إذا لم يعانينا معا.. وسعادة الواحد منهما تؤدي الآخر دائما تقريبا. وبينما كنت مستطيعا أن أنعم بحياتي في سعادة تامة فإن أنحلالَ جهازِ جسمي كان يحول بيني وبين ذلك دون أن يستطيع أحد أن يدلني على موضع الداء مني. ويبدو أن جسمي قد استعاد فيما بعد قوته بالرغم من التداعي الذي أحسه في كبيري والآلمي المبرحة الحقيقية التي أصبحت في الكبر أشد قوة وتبريحا. واليوم، -وأنا أكتب هذه السطور، وقد نال مني الضعف وبلغت الستين من عمري أو أكاد، وغلبتني الآلام من كل نوع على أمري- أشعر أن في كياني من الحياة والقوة على احتمال الآلم أكثر مما كان لدي من الحياة والقوة على الاستمتاع -في مَبْعَةِ الصبا- في غمرة من أصدق آيات السعادة.

ورغبة في إذلال نفسي إذلالا تاما شرعت -بعد أن قرأت شيئا من الفلسفة- في دراسة التشريح، وعرفت عدد الأعضاء المستقلة التي يتألف منها جهاز جسمي ووظائفها. وكنت أميل للشعور، عشرين مرة في اليوم، بأن الحلل قد دَبَّ في أعضائي جميعا، ولم يكن يُذهِلُنِي قط أن أجدني في حالة احتضار، وإنما كان يدهشني أنني مازلت قادرا على الحياة! وكنت أعتقد أنني مصاب بكل مرض اقرا أوصافه، وإني لمقتنع بأنني لو لم أكن مريضا فقد جعلتني هذه الدراسة القاتلة كذلك.. فلقد كنت أجد في الأعراض التي تتنبأني أعراض كل علة، فحسبتي مصابا بالعلل جميعا!.. وبذلك انتابني مرض، هو أقسى الأمراض جميعا، وكنت أظنني براء منه.. وأعني به الرغبة الملحة في أن أُشْفَى، وهي رغبة يَتَعَذَّرُ على المرء أن يَفْلِتَ منها إذا ما بدأ في قراءة الكتب الطبية!.. وانتهيت بشيء من البحث والتأمل والمقارنة إلى أن أساس مرضي هو "ورم ليفي في القلب"!.. وقد لاح على "سالمون" نفسه أن الفكرة أذهلته، ولكن كان من الواجب أن تؤدي هذه الافتراضات تأييدا معقولا في قراراتي السابقة إلا أن الحال لم تكن كذلك، فقد بذلت كل ما وسعني من جُهد عقلي لاكتشاف طريقة علاج الورم الليفي الذي يصيب القلب.. وقد صح مني العزم على أن أتكفل بهذا العلاج الرائع. ولقد قيل للتمس "آنيه" في رحلته إلى "مونبيلييه" لزيارة حدائق النباتات ومسيو "سوفاج" -المعيد- بأن مسيو "فيز" قد شَفَى مريضا بهذا الورم الليفي، وكان هذا كافيا لأن يوحى إلي برغبة ملحة في أن أقصد مسيو "فيز" للاستشارة.. فقد أعاد الأمل في الشفاء إلى نفسي الشجاعة وزودني بالقوة على تَجَسُّم مَشَاق الرحلة، وكان المال الذي جئت به من "جنيف" عوني على ذلك. وشجعني "ماما" على الذهاب، وهي أبعدُ الناس عن أن تُحاول إثباتي عن عزمي.. وهكذا وجدتني في طريقي إلى "مونبيلييه"! وما كانت بي حاجة لأن أذهب إلى هذا المكان الثاني سعيًا وراء الطبيب الذي أنا في حاجة إليه!.. واستقللت عربة في "جرينوبل" -إذ كان ركوب الجياد يُتَجَنَّبُ كثيرا- فوصلت إلى "سوران" -بعد عرْبتي- خمس أو ست عربات غيرها، الواحدة في إثر الأخرى.. وكان معظم هذه العربات جزءا من موكب عروس زُفَّت حديثا اسمها السيدة "دي كولمبييه"، وكانت ترافقها سيدة أخرى هي السيدة "دي لارنجاج"، أصغر منها سنا، وإن لم تكن جذابة في ملامحها مثلما هي في ظرفها.. وكانت تنوي أن ترتحل من "رومانس" -وهي المدينة التي ستوقف فيها السيدة "دي كولومبييه" - إلى مدينة "سانت أندريول" قرب "سان أسبري". ونظرا لما طُبِعَتْ عليه من خَجَلٍ ذاع صيته فلا تحسبن أنني نعرفت بهاتين السيدتين الطريفتين وحاشيتهما بسهولة.. ولكنني كنت أسافر في نفس الطريق الذي يسافران فيه، وأنزل في الفنادق نفسها التي ينزلان فيها، فَحَشِيتُ أن يُقال

عني : إنني أبعث على السام والملاة، وكنت مكرها أيضا على الجلوس معهم إلى مائدة واحدة .. فوجدت من المستحيل علي آخر الأمر أن أتجنب التعرف بهما، ففعلت هذا .. تعرفت بالسيدتين بأسرع مما كنت أريدا .. وبرغم أن كل هذه الضوضاء لم تكن لتناسب رجلا مريضا، وخاصة إذا كان في مثل مزاجي إلا أن حُب الاستطلاع يجعل هذه المخلوقات الماكرات غاية في الإغراء حتى إنهن عندما يردن التعرف برجل يبدآن في امتلاك لبه، وهذا ما وقع لي ! .. بيد أنه كان يحيط بالسيدة "دي كولومبييه" بعض الشبان المثانقين، إحاطة السوار بالمعصم، مما لم يُفسح لها الوقت للتعرف بي .. أضف إلى هذا أن الأمر لم يكن ليستحق منها التفاتا مادامنا كنا على وشك الافتراق . ولكن السيدة "دي لارناج"، ولم يكن ليحيط بها هذا القدر من المعجبين، كان لابد لها أن تتزوّد لرحلتها بما يلزم، وهكذا كانت السيدة "دي لارناج" هي التي أخذت على عاتقها إذن أن تغزو قلبي .. ومنذ ذلك الحين وداعا لـ "جان چسالك" المسكين -أو على الأصح وداعا للحمى والهستيريا والورم الليفي- وداعا لكل شيء وأنا في صحبتها، ماعدا بعض نبضات القلب التي بقيت، والتي لم يبد منها أي ميل لشفائي منها . وكان سوء حالتي الصحية هو أول موضوع تطرقنا إلى الحديث فيه . لقد كانتا تريان أنني مريض وتعلمان أنني ذاهب إلى "مونبيليه"، ولابد أن مظهري وأخلاقي قد جعلت من الواضح أنني لست خليعا .. ذلك أنه تبين لي، -مما تلا من الحوادث- أنهما لم تشبها في أنني ذاهب إلى "مونبيليه" لكي أعالج من نتائج الخلاعة، ومع أن سوء الصحة ليس مما يحبب النساء كثيرا في المرة فقد أثار سقمي اهتمام هاتين السيدتين، فكانتا ترسلان إلي في الصباح تسالان عن حالتي وتدعوانني إلى تناول الشوكولاتة معهما، وتسالاني كيف قضيت ليلتي .. وذات مرة أجبت بأنني لا أدري، على ما أُلُفْتُ في عاداتي الحميدة من الكلام دون تفكير، فحملهما هذا الرد على الاعتقاد بأنني مجنون، وشرعنا تفحصاني بدقة أكثر . ولم أصب من ذلك بضرر، وإن سمعت السيدة "دي كولومبييه" تقول مرة لصديقتها: "إنه لا خلاق له ولكنه ظريف"، وقد شجعتني هذه الكلمات كثيرا ودعنتي إلى العمل بمقتضاها!

وازدادت علاقتنا توثقا، فاضطررت إلى أن أتحدث عن نفسي، وأن أفصح عمن أكون ومن أهدأت . وقد سبب لي هذا شيئا من الحيرة والارتباك؛ لأنني أدركت بوضوح أن كلمة "مرتد" ستقضي علي سمعتي في الطبقة الراقية وبين السيدات المهذبات، ولست أدري أية نزوة غريبة تلك التي تملكنتني وجعلتني أقول إنني إنجليزي، ووصفت نفسي بأنني يعقوبي، وسميت نفسي "دودنج"، فاخذتا تدعوانني بالمستر "دودنج"، وكان معنا شخص لعين هو "المركيز ده تورنيان"، وكان مريضا مثلي إلا أن كبر سنه وسوء خلقه كانا ضغثا على إيلائه، وقد استبدت به رغبة في محادثة مستر "دودنج"، وحدثني عن الملك "جيمس" وعن مدعي العرش وبلاط سان جرمان القديم . وكنت على أحر من الجمر فأنني لم أكن أعرف شيئا عن كل هذا اللهم إلا القليل الذي قرأته في كتاب الكونت "هاملتون" وفي الصحف ولكنني أحسنت استخدام ما كان في جعبتي من معلومات ضئيلة حتى خرجت من ورطتي .. ولحسن الحظ لم يسألني أحد عن اللغة الإنجليزية التي لم أكن أفهم منها كلمة! وكنا على أطلب ما نكون العلاقات والود، ننظر إلى فراقنا نظرة أسف وحسرة، وكنا نساغر نهارا، وفي صباح يوم أحد وجدنا أنفسنا في "سان مارسيلان"، وأبدت السيدة "دي لارناج" رغبتها في حضور القداس، فصحبتهما، مما كاد يفسد خطتي: فقد مارست طقوس القداس كما كنت أفعل دائما، واستنتجت هي من سلوكي المتواضع المتحفظ أنني من المتعبدين، فسألت فكرتها عني -كما اعترفت لي بعد ذلك بيومين- وقد اقتضاني الأمر قدرا كبيرا من الكياسة كي أمحو هذه الفكرة

السيدة، أو بالأحرى أن السيدة "دي لارنسا" -وهي المرأة المخنكة الخبيثة التي لا يدركها اليأس بسهولة- كانت على استعداد لأن تخاطر بالتودد إليّ لثرى كيف أنقذ نفسي.. وقد أسرفت في التودد حتى إنني، -وأنا الذي لا أغالي في تقدير مظهري الشخصي- اعتقدت أنها تسخر مني، وتملكتني هذه الفكرة حتى لم يبق ضرب من ضروب الطيش والرعونة لم أرتكبه..! لقد كنت في ذلك أسوأ من المركيز "دي ليجز" (١)، وكانت السيدة "دي لارنسا" ثابتة العزم، فحاولت إغرائني كثيرا، وكانت تحادثني في رقة بالغة، حتى إن رجلا أحكم مني كان يجد من الصعب عليه أن يأخذ هذا كله مأخذ الجدا وكلمها ألحت في سعيها ازداد يقيني بفكرتي، والذي عذبني أكثر فأكثر انني أصبحت جادا في ولعي بها، فقلت لها -ولنفسي- في ناوه: "آه! لو أن كل ما نقولينه كان صحيحا لكنت أسعد مخلوق!". واعتقد أن بساطتي المجردة إنما خيبت ظنها، ولكنها لم تكن مستعدة للإقرار بالهزيمة!

وكنا قد تركنا السيدة دي "كولومبيه" وحاشيتها في "رومانس"، وتابعنا المسير في ببطء ونحن في غاية السرور -السيدة دي "لارنسا" والمركيز دي "تورنيان" وأنا- وكان المركيز -بالرغم من أنه رجل مريض كثير الشافف والتذمر- كيسا ظريفا، غير أنه لم يكن مما يفتنّ له أن يرى غيره من الناس يتمتعون دون أن يستطيع هو تذوق المتعة مثلهم.. ولم تمن السيدة دي "لارنسا" إلا قليلا بإخفاء ميلها إليّ، حتى إنه كان أسرع مني في ملاحظته، وكان يجب أن تزودني تهكماته الخبيثة على الأقل بالثقة التي لم أكن لأجرؤ على استخلاصها من تودد السيدة إليّ لولا أنني ظننت -في روح من العناد، كنت أنا وحدي قادرا عليها- أنهما قد اتفقا على أن يلهاؤا على حسابي! وأدار هذه الفكرة السخيفة رأسي تماما آخر الأمر، وجعلتني الحب دور الغرّ الأبله في موقف ربما أمرني فيه قلبي -وقد تملك الحب شغافه- بأن أنصرف تصرفا أفضل من هذا التصرف بكثير. ولست أدري كيف أن السيدة "دي لارنسا" لم يملكها النفور من كآبتي بحيث كانت تنأى عني وهي تزودني أشد الأزدراء، وإنما كانت امرأة بارعة تفهم من تعامل من الناس، قرأت في وضوح أن مسلكي كان يتسم بالفباء أكثر مما يتسم بفتور الهمة!

وأفلحت المرأة آخر الأمر، وبشيء من المشقة، في البوح بما يكنه صدرها، وكنا قد بلغنا "فالانس" في موعد الغداء وبقينا بها -وفقا لعاداتنا الحميدة- بقية النهار، وحططنا رحالنا خارج المدينة، في "سان جاك" -ولن أنسى هذا الفندق أو الغرفة التي كانت تنزل فيها السيدة "دي لارنسا"!- وقد أرادت أن تقوم بنزهة بعد الغداء، وكانت تعلم أن المركيز ليس مولعا بالسير، وكان هدفها من ذلك أن تنفرد بي، وبيتت أن تنتفع بخلوتها معي أكبر انتفاع ممكن، ذلك أنه لم يبق ثمة وقت تُضيّعه، إن كان قد بقي شيء من الوقت تنتفع به.. وسرنا حول المدينة وعلى طول الخنادق، وعدت القي على مسامعها قصتي الطويلة عن أمراضني، فكانت تجيب عليها في رقة بالغة، وتضغط أحيانا بذراعي على قلبها، حتى إنه لم يكن يحول بيني وبين الاقتناع بأنها تجد في حديثها إلا غباوة كغبوتي..! أما الأمر الذي لم يحسب حسابه فهو أن الحب كان قد نال مني مثالا عظيما، فلقد سبق لي أن قلت: إن السيدة كانت ظريفة، وقد جعلها الحب فاتنة، وأعاد إليها كل بهائها في صدر شبابها، وكانت تصطنع في توددها من المكر والدهاء ما كان خليقا بأن يغري رجلا من أوسع الرجال خبرة وتجربة. وكنت قلقا مضطربا، وكثيرا ما هممت بأن أنجاوز معها حد الأدب لكن الخوف من إساءتها أو إغضبائها بل والخوف الأكبر من أن أصبح موضعا للسخرية والاستهزاء، وأن أزود المائدة بقصة تُروى عني، وأن

(١) شخصية في كوميديا "ماريفو"، أحب لأول مرة وكان في غاية الحجل من أن يبوح بحبه، في حين أن شخصية الكونتس كانت على النقيض من شخصيته تماما.

يهنئني المراكز العاتي -الذي لا يرحم- على بسالتي، كل ذلك عاقني وأثار غيظي من خجلي الأخرق وعدم استطاعتي التغلب عليه، في حين كنت أنحي على نفسي باللائمة من جرّائه.. لقد كنت في عذاب اليم، وكنت قد نبذت كلامي الذي يغلب عليه الحياء، فقد شعرت بسخافته بعد أن قطعت من الطريق هذا الشوط الكبير. ولكني، وقد انتابني الحيرة فلم أعرف كيف أتصرف أو ماذا أقول، لزمّت الصمت وعلت وجهي الكآبة. ومُجملُ القول: إنني فعلت كل ما من شأنه أن يصيبني بالمعاملة التي كنت أخشاها!.. على أن السيدة "دي لارناج" كانت لحسن الحظ رحيمة رؤوفا، فقطعت حبل السكون فجأة بوضع ذراعها حول رقبتني، ثم حدثني فيها -وقد أطبق على فمي- في لغة صريحة واضحة لم تدع لي مجالاً لأي شك بعد ذلك. وما كانت الأزمة لتقع في لحظة أسعد من تلك اللحظة، فلقد أصبحت ظريفاً، ومنحتني ثِقَتَهَا، وهي التي حال افتقاري إليها دائماً دون أن أكون طبيعياً. أما في هذه المرة، فقد كنت على سجيّتي، ولم يحدث أن أجادت عيناى ومشاعري وقلبي، في الحديث، مثل هذه الإجادة!.. كما لم يحدث لي من قبل أن أصلحت أخطائي هكذا تماماً.. وإذا كانت هذه المغامرة الصغيرة قد كَلَّفَت السيدة "دي لارناج" شيئاً من الجهد والتعب، فعندي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأنها لم تندم عليها!

ولو أنني عشتُ مائة عام لما استطعت أن أفكر قط في هذه المرأة الفاتنة دون فيض من السرور يَظْفَى عليّ! وأنا أصفها بالفتنة، لأنها وإن لم تكن بالصغيرة أو الجميلة فإنها لم تكن أيضاً بالعجوز ولا بالدميمة، ولم يكن في وجهها ما يحول دون أن يظهر ذكاؤها وظرفها في أبهى حُلَلِهَمَا. ونحن إذا قارناها مقارنة مستفيضة بغيرها من النساء لوجدنا أن أقل ما يتصف بالنضارة وجهها، واعتقد أنها أفسدته بما كانت تُصَبِّغُهُ به من المسحوق الأحمر "الروح".. وقد كانت ثمة أسباب لاستهانتها بفضيلتها، فقد كانت هذه خير وسيلة تؤكد بها مفاتنها. كان من الممكن أن تنظر إليها دون أن تحبها، ولكن ما كنت لتستطيع أن تمتلكها دون أن تعشقها، ويلوح لي أن هذا من شأنه أن يثبت أنها لم تكن تسرف دائماً في حياءٍ إسرافها فيه معي.. لقد كان توددها إليّ مفاجئاً حياً، حتى ليتعذر عليّ أن أجد عذراً تُبرره، سوى أن قلبها كان له في ذلك نصيب كنصيب حواسها. وفي الفترة الوجيزة اللذيذة التي قضيتها معها.. اجتمعت لي أسباب ذلك الاعتدال الذي أرغمتني عليه وفرضته عليّ فرضاً، فإنها -برغم كونها شهوانية جيّاشة عاطفة- كانت تفكر في صحتي أكثر مما تفكر في متعتها! ولم يفك المراكز ما كان بيننا من تفاهم! على أنه لم يكف عن المزاح معي، بل إنه على التقيّض كان يعاملني -أكثر من ذي قبل- معاملة العاشق البالغ الحياء، شهيد قسوة السيدة وصُدُودِهَا! ولم تكن تفلت منه كلمة أو ابتسامة أو نظرة تدعني أشتبّه في أنه قد كشف أمرنا.. بحيث كان لي أن اعتقد أننا خدعناه، لولا أن السيدة "دي لارناج"، وكانت أكثر مني فطنة وحذقاً، أخبرتني بأن الحال ليست كما وصفت، بل إنه كان رجلاً شهماً من أصحاب المروءة والنبيل.. والواقع أنه ما من أحد كان يظهر ما أظهر من أدب، أو يتصرف في كياسة أكثر مما كان يتصرف هو دوماً، حتى نحوي أنا -عدا تهكمه، وخاصة بعد نجاحي- ولعله كان يَعزُّو الفضل في ذلك إليّ، واعتبرني شخصاً غير ذلك الاحتمال الذي كنت أبدوهُ -وقد كان في ذلك مخطئاً، كما مر بنا!- ومهما يكن من أمر فقد انتفعت بخطئه. ومن الحق أن أقول: إنني، وقد انقلبَت كِفَّةُ الميزان، كنت أحتمل نكاته بصدر رحب وسماحة، بل كنت أجيبه عليها -والسعادة تغلب عليّ- فخوراً بأن أكشف أمام السيدة "دي لارناج" تلك الفطنة التي وصفتني بها، بعد أن لم أعد الرجل الذي كُنْتُه!

ولقد كنا في الريف، وفي فصل تَشِيْعُ فيه البهجة، واستمتعنا به غاية الاستمتاع بفضل الركيز، ولو اني كنت مستطيعا أن أستغني عن عنايته بنا، تلك العناية التي امتدت حتى شملت مخادعنا، فقد كان يرسل خادمه ليحجز لنا حجراتنا مقدما. وكان هذا الوغد -إما من تلقاء نفسه أو بناء على أوامر الركيز- يحجز لسيدة دائما غرفة مجاورة لغرفة السيدة "دي لارناج"، في حين يُلقِي بنا في الطرف الآخر من الفندق... على أن هذا لم يُسبب لي من الحرج إلا القليل، بل أضاف إلي فتنة مقابلاتنا.. ودامت هذه الحياة البهجة السعيدة أربعة أو خمسة أيام، ثملت خلالها بأحلى اللذات! كانت لذة حبة لا زيف فيها، ولم تُشَبِّها أقل شائبة من الألم.. أول وآخر ما نعمت به من هذه المتعة.. ولا يسعني إلا القول بأنني مدين للسيدة "دي لارناج" بأنني لن أرحل عن هذا العالم دون أن أعرف طعم المتعة واللذة!

لم يكن شعوري نحوها هو الحب بمعناه، وإنما كان على الأقل مُجَاوِبَةً رقيقة للحب الذي تُظهِرُه لي.. وكانت هي ملحة في إشفاء غليلها من الصلة الجنسية، حلوة في ممارستها، بحيث جعلت فيها كل ما يكون في الهوى من فتنة وسحر، مجردين من ذلك الهذيان الذي يدير العقل ويفسد المتعة. إنني لم أشعر بالحب الصادق إلا مرة واحدة في حياتي، ولم يكن هذا معها، بل إنني لم أحبها كما أحببت ومازلت أحب مدام دي "فاران"، ولكن امتلاكها كان يُضْفِي علي من المتعة ما يَفُوقُ متعتي مع الأخرى مائة مرة.. لقد كانت متعتي مع "ماما" يشوبها دائما شعور بالحزن.. شعور دفين بالضيق، موضعه القلب. وهو شعور كنت أجد صعوبة في التغلب عليه، بحيث إنني بدلا من تهنئة نفسي على امتلاكها كنت أنحي على نفسي باللائمة لإذلالها وتحقيرها..! أما مع السيدة "دي لارناج" فقد كنت، على العكس، فخورا برجولتي وبسعادتي.. وأطلقت لنفسي أَلْعَانَ، في اطمئنان وفرح، لإشباع رغباتي. ولقد شاركها الشعور الذي بعثته فيها، وكنت أمتلك زمام نفسي، وأنظر إلى فوزي نظرة الارتياح النفسي التي أنظر بها تماما إلى المتعة، وأستمد منها الوسيلة التي تعينني على مضاعفتها!

ولا أذكر متى تركنا الركيز -الذي كان من أهل المنطقة- غير أننا كنا وحدنا عندما بلغنا "مونتيليمار"، حيث أمرت السيدة "دي لارناج" خادمها بأن تَسْتَقِلَّ عربتي بينما ركبت أنا عربتها، وأستطيع أن أؤكد لكم أننا بهذه الطريقة لم نجد الرحلة شاقة. وإنني لأجد من الصعب علي أن أصف المنطقة التي اجتزناها، وقد بقيت السيدة في "مونتيليمار" ثلاثة أيام، ليعُضِرْ شؤونها، على أنها لم تتركني خلالها إلا ربيع ساعة قامت فيها بزيارة، عادت عليها بدعوات عاجلة ملحة. ولم تكن ميالة بأي حال من الأحوال لقبول هذه الدعوات، فزعمت أنها متوعدة المزاج، على أن هذا لم يحل بيننا وبين السير معا وحدنا -كل يوم- في أجمل بقعة من بقاع الريف، وفي ظل أجمل سماء في العالم.. واحسرتنا على تلك الأيام الثلاثة! لقد جَدَّ في حياتي من الأسباب مادعاني للندم عليها أحيانا! فما استمتعنا قط بمثلها بعد ذلك!



والحب أثناء السفر لا يمكن أن يدوم، وهكذا اضطررنا للافتراق.. واعترف إن الوقت كان قد حان لذلك لا لأنني أُنْفِيتْ وزهْدَت، أو لسبب من هذا القبيل، بل إنني كنت أزداد ولعا بها يوما بعد يوم، غير أنني بالرغم من حرصها، لم يبق لي -ما خلا صفاء النية- إلا القليل. وقبل أن نفترق أردت أن

استمتع بذلك القليل، فأذعنتُ هي لرغبتِي، على سبيل الاحتياط من غادات "مونبيلييه". وتحايَلنا على ما كان يعترينا من أسي بإعداد العدة للمقابلة مرة أخرى.. وكان قد تقرر أن استمر في العلاج، الذي أفادني فائدة عَظْمِي، وأن أقضي الشتاء في "سانت أندريول" تحت رعايتها، على أن أبقي خمسة أسابيع أو ستة فقط في "مونبيلييه"، حتى تُفَسِّحَ لها الوقت لكي تعد الترتيبات التمهيدية الضرورية، معنا للفضيحة. وقد لفتني التعليمات المفصلة عما كنت بحاجة إلى معرفته، وعما يجب أن أقول والكيفية التي يجب أن أتعرفَ بها عليها، وكان علينا في الوقت نفسه أن نتبادل الرسائل. وقد حدثني طويلا في جد واهتمام عن وجوب العناية بصحتي، ونصحتني بأن أستشير بعض الأطباء الماهرين وأن أعتنى باتباع ما يشارون به، وأخذت على عاتقها أن تجعلني أنفذ تعليماتهم، مهما كان من صَرَاحتِها، مادمت معها. واعتقد أنها كانت تتحدث في صدق وإخلاص، إذ إنها كانت تحبني، وقد زودتني بالأدلة الكثيرة على ذلك التي يعتمد عليها أكثر من الاعتماد على هبتها نفسها لي!.. وقد أمكنها أن تحكم من طريقة سفرِي بأنني لم أكن أفرغ في المال، ومع أنها هي أيضا لم تكن بالموسرة بأي حال من الأحوال إلا أنها كانت تريد أن تُقاسِمَنِي ما في كيس نقودها، وكانت قد جاءت به مليئا من "جزيويل".. وقد وجدت مشقة عظيمة في حملها على قبول اعتذاري، وتركها أخيرا، تاركا في قلبها -فيما اعتقد- حبا صادقا لي!

وانتهت رحلتي بينما كنت أستعيدُها في ذاكرتي منذ البداية، وكنت قانعا في تلك اللحظة كل القناعة بأن أجلس في عربة مريحة أحلم، في راحة ويسر، بالمتع التي كان من نصيبي أن أنعم بها، وبذلك التي وعدتني بها. لم أكن أفكر إلا في "سانت أندريول" والحياة البهيجة التي كانت تنتظرني فيها، ولم أكن أرى إلا السيدة "دي لارناج" وبيتها.. أما بقية العالم فلم تكن بالنسبة لي شيئا مذكورا، حتى "هاما" نَسِيتُها، واستغرقت في التفكير في كافة التفاصيل التي ذكَّرتُها لي السيدة "دي لارناج" حتى تُوحِي إلي مقدما بفكرة عن منزلها وعن جيرانها وأصدقائها وطريقة حياتها. وكانت لها ابنة كثيرا ما حدثتني عنها في عبارات من الحب أسرفت فيها كل الإسراف، وكانت ابنتها هذه في السادسة عشرة من عمرها، رشيقة فاتنة ودودا. ووعدتني السيدة "دي لارناج" بأنني سأكون ولا شك صاحبَ الحُظوة الكبرى عندها. ولم انس هذا الوعد، وقد استبد بي الفضول لكي أرى كيف تنصرف الآنسة "دي لارناج" نحو صديق أمها الحميم! كانت تلك هذ أحلامي من "بون سان أسيري" حتى "ريمولان".. ولقد قيل لي: أن أذهب وأشهد "بون دوجار" "جسر الحرم". ولم يُفَتِّنِي أن أفعل، فلقد كان الجسر هو الأثر الروماني الأول الذي شاهدته. وانتظرت أن أرى نُصْبا جديرا بالأيدي التي أقامته.. وللأسرة الأولى والأخيرة في حياتي تجاوزت الحقيقة ما كنت أتخيل: لم يكن يستطيع غير الرومان إقامة هذا الأثر الخالد!

لقد أثر في نفسي منظر هذا العمل البسيط، النبيل مع ذلك، أعظم تأثير.. ذلك أنه كان يقوم في قلب الصحراء، حيث السُكُونُ والوَحْدَةُ يبرزان الأشياء إبرازا عظيما ويثيران شعورا بالإعجاب أقوى وأشد، إذ إن هذا الجسر المزعوم لم يكن إلا مجرى ماء فوقه قناطر، ومن الطبيعي أن يتساءل المرء أية قوة تلك التي نقلت هذه الأحجار الضخمة إلى هذا المكان النائي عن أي محجر من المحاجر، وتمثلت في أذرع الآلاف المؤلفة من الرجال في بقعة لا يقيم أحد منهم فيها!

واجترتُ الطَّبَقَاتِ الثلاث التي كان يتألف منها هذا البناء البديع، وكنت أشعر داخلها باحترام كاد يمنعني من أن أطأها بقدمي، وحملتني صَدَى وقع قدمي تحت هذه الأقبية العظيمة على أن أتخيل أنني

أسمع الأصوات القوية لأولئك الذين أقاموا صرحها! شعرت أنني ضائع في وسط هذه العظيمة كأنني الحشرة، وشعرت بالرغم من إحساسي بضآلتي كان روحي قد سَمَتْ بطريقة ما، وقلت أحدث نفسي وأنا أتأوه: "لماذا لم أولد رومانياً؟"، وبقيت في ذلك المكان بضعة ساعات في تأمل يذهل العقل، وعدت وأنا سارح الفكر، ولم يكن شرود الفكر ليوافق السيدة "دي لارناج"، وهي التي عنيت بأن تحذرنى من فتيات "مونبيلييه"، لا من جسر الحرس.. لكن المرء لا يفكر في كل شيء!

وفي "نيسم" ذهبت لأشاهد الملعب المدرج، إنه عمل أكثر روعة بكثير من جسر الحرس، إلا أن تأثيره علي كان أقل بكثير من تأثير الجسر.. فإما أن الجسر قد استنفذ كل إعجابي، أو أن المدرج، وهو يقع في وسط المدينة، كان أقل من أن يشير إعجابي! لقد كانت تحيط بهذا الميدان البديع الفسيح الأرجاء منازلٌ صغيرةٌ قبيحة، وامتلأت الحلبة بمنازل أخرى، أصغر وأقبح، حتى إن المنظر كله كان يبعث في النفس الشعور بالاضطراب وعدم التناسق، كما كان النفور يخمد المتعة والدهشة، وقد رأيت منذ ذلك الحين مَلْعَبٌ "فيرونا" وهو أصغر بكثير وأقل مهابة وجلالا، ولكنهم احتفظوا به في أكبر قدر ممكن من النظافة والأناقة، ولهذا السبب وحده أثر في تأثيرا أبلغ وأقوى، ووقع من نفسي موقع القبول.. إن الفرنسيين لا يعنون بشيء ولا يحترمون النصب، وهم تواقون أشد التوق للقيام بأي عمل، ولكنهم لا يعرفون كيف يتمونه أو كيف يحفظونه سليما إذا ما انتهوا منه!

لقد تبدلت حالي كثيرا، واستيقظت أحاسيسي -وكانت قد تنهت إلى العمل- حتى بقيت يوما أكمله في فندق "بون دي لونيل" لانعم مع الزائرين الآخرين بطيب الجو الذي شاع فيه، وكان هذا الفندق -إذ ذاك- أشهر فندق في أوروبا، كما كان جديرا بما اكتسب من صيت، فقد عرف أصحابه كيف يستغلون موقعه البديع، فزودوه بوفرة من أطايب المأكولات. لقد كان من الغريب حقا أن تجد في دار نائية منعزلة -وفي وسط الريف- مائدة زودت بسماك البحر وسماك النهر ولحوم الصيد البديعة ومجموعة من الأشربة المنتقاة، تقدم لك في أدب وكياسة لا تجدهما إلا في بيوت العظماء والموسرين.. وكل هذا بخمسة وثلاثين "سو" لشخص!.. إلا أن "جسور دي لونيل" لم يبق في هذا المستوى طويلا، إذ إنه تمادى في استغلال سمعته، حتى فقدوها بأسرها في النهاية!

ولقد نسيت أثناء رحلتي أنني كنت مريضا، فلم أتذكر ذلك إلا عندما بلغت "مونبيلييه". ولقد كان من المحقق أنني شَفِيتُ من نوبات الهستيريا التي كانت تنتابني، إلا أن كل عللي الأخرى بقيت. ومع أن اعتيادي إياها جعلني أقل إحساسا بها، إلا أنها كانت تكفي لأن تحمل أي إنسان على الاعتقاد -إذا ما تعرض لنوباتها فجأة- بأنه على باب القبر.. كانت هذه العلل -في الواقع- أكثر بعثا للانزعاج منها إثارة للآلم، وكانت تُسببُ من عذاب العقل أكثر مما تسبب من عذاب الجسم، وهي التي كانت تعلن عن تَدْمِيرِهِ فيما يلوح. ومن ثم فإنني كنت -حين أُشْعِلُ بالانفعالات العنيفة- لا أفكر في حالتي الصحية. ولكن عللي لم تكن خيالية، فكنت أعود إلى الإحساس بها مرة أخرى عندما يعاودني هدوئي، وبدأت عندئذ أفكر تفكيرا جديدا في نصيحة السيدة "دي لارناج"، وفي هدفي من رحلتي، فاستشرت أشهر الأطباء وعلى الأخص السيد "فيز".

وزيادة في الحيرة، نزلت عند طبيب. كان إيرلنديا اسمه "فيتز موريس"، وكان ينزل عنده عدد عظيم من طلبة الطب. ومما جعل منزله أكثر مدعاة لراحة المريض المقيم، أنه كان يقنع بأجر معقول لقاء الماكل والمسكر، ولا يتقاضى شيئا من نزلائه في مقابل الرعاية الطبية.. وقد أخذ على عاتقه أن ينفذ تعليمات السيد "فيز"، وأن يعنى بصحتي. أما فيما يتعلق بالغذاء فقد كان يوفي ما عليه وفاء يدعو

للإعجاب، فلم يكن بين النزلاء من يُعاني عُسْر الهضم. ومع أنني لم أكن ممن يابهون بالحرمات من الطعام، إلا أن القصر التي تهيج لي المقارنة كانت في تناول يدي، حتى إنني لم أتناول في بعض الأحيان من أن أتبين - فيما بيني وبين نفسي - أن السيد دي "تورنيان" كان مورداً للأغذية أفضل من السيد "فيتز موريس"، وعلى كل حال فلم تكن نشكو الجوع تماماً!.. وكان الطلبة الشبان غاية في المرح، وقد أفادني حقاً هذا الأسلوب من أساليب الحياة، وحال دون إصابتي بما كان ينتابني قبلاً من الاكتئاب. وكنت أقضي الصباح في تناول الأدوية، وخاصة بعض المياه - التي اعتقد أنها كانت تأتي من "فالس"، وإن لم أكن واثقاً بذلك - وفي الكتابة إلى السيدة "دي لارنجان". ذلك أن الرسائل ظَلَّتْ مستمرة، وقد آلت "روسو" على نفسه أن يأتي بخطابات صديقه "دودنج".

وكنْتُ أَنْطَلِقُ - عند الظهر - في جولة إلى "كانتورج" مع أحد زملائنا الشبان الذين كانوا ينزلون معنا. وقد كانوا جميعاً على خلق عظيم. وكنا نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء، فإذا ما فرغنا منه، كان معظمنا يُشغَلُ بمسألة مهمة حتى المساء.. تلك هي أننا كنا ننتقل إلى خارج المدينة، لنلعب دورين أو ثلاثة من لعبة الكرة والصورجان، ولنتناول شاي الأصيل. ولم أكن أشارك في اللعب معهم، إذ لم تتوفر لي القوة أو البراعة في اللعب، ولكنني كنت أراهم على النتيجة.. وهكذا كنت أتبع لاعبينا وكراتهم عبر الطرق الوعرة الصخرية، وأنا مهتم برهاني، فأنعم برياضة صحية ممتعة، كانت تناسني إلى أقصى حد. وكنا نتناول الشاي في مقصف خارج المدينة، وغني عن البيان أن هذه الوجبات كانت مليئة بالمرح، ولكنني أضيف إلى هذا أنها كانت محتشمة، بالرغم من أن فتيات المقصف كن جميلات!.. وكان رئيس الفريق هو السيد "فيتز موريس" نفسه، فقد كان لاعباً عظيماً. وأستطيع أن أقر - بالرغم من سوء سمعة الطلبة - أنني وجدت بين هؤلاء الشبان من الأدب والحُصْنَةِ مالا يسهل العثور عليه بين عدد مساوٍ لهم من الرجال الناضجين.. كانوا أميل للوضوء منهم للفسق، وللمرح منهم للخلاعة. ولما كان من السهل علي أن أعتاد أي سبيل من سبل الحياة - عندما يكون ذلك باختيار - فإنني لم أعد أتمنى أكثر من استمرار هذه الحال.

وكان بين الطلبة عدد من "الأيرلنديين" حاولت أن أتعلم منهم بضع كلمات إنجليزية ناهباً لذهابي إلى "سانت انديول"، فقد كانت السيدة "دي لارنجان" تَسْتَحْثِنِي في كل بريد، وكنت على استعداد لكي أذعن إلى رغبتها. وكان من الواضح أن أطبائي - وقد غاب عنهم عِلْتي - اعتبروا الوجود لها إلا في مُخَيَّلَتِي. وبناءً على هذا فإنهم كانوا يعالجونني بأعشابهم الصينية ومياههم والدين الخشنة.. والأطباء كالفلاسفة، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف عن علماء أصول الدين، إذ إنهم لا يُقْرُونَ بأن شيئاً ما صحيح إلا إذا كان في استطاعتهم أن يعللوه، كما أنهم يجعلون من إدراكهم مقياساً لكل ما هو ممكن!.. ولم يكن هؤلاء السادة يدركون شيئاً عن عِلْتي، ولذلك لم أكن مريضاً البتة، في رأيهم!.. فإن الأطباء يعرفون كل شيء طبعاً!.. وكنت أرى أنهم إنما يحاولون خداعي وحملني على إنفاق مالي، ولما كنت أعتقد أن نائيتهم في "سانت انديول" ستفعل عيني ما كانوا يفعلون - ولكن بطريقة أظرف - فقد صَحَّ عَزَمِي على أن أَفْضَلُهَا عليهم!.. وما إن قرأت رأيي على هذا القرار الحكيم حتى رحلت عن "مونبيلييه"، فغادرتها في أواخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، بعد أن أقمت فيها ستة أسابيع أو شهرين، وبعد أن أنفقت فيها اثني عشر "لوى" (١)، دون أن يعود ذلك بأي نفع على صحتي أو على إدراكي، اللهم عدا منهج في التشریح بدأته تحت إرشاد السيد "فيتز موريس"، واضطرت أن أكف عن تلقيه نظراً للرائحة النتنة التي كانت تنصاعد من الجثث المشرحة، فقد وجدت أن من المستحيل علي أن أحملها!

وشعرت أنني غير مستريح للقرار الذي اتخذته، فشرعت أفكر فيه وأنا أواصل رحلتي صوب "بون سان اسبري" وكان الطريق يؤدي إلى "شامبيري" كما كان يؤدي إلى "سانت انديول"، فاثارت -ذكرى "ماما" ورسائلها -ولو أنها لم تكن تكتب كثيرا كما كانت السيدة "دي لارنساج" تفعل -لوعج الحسرة في فؤادي من جديد، بعد أن كنت قد أخدمتها في الشطر الأول من رحلتي.. وكانت في عودتها قوية عنيفة، حتى إنها رجحت على حب المتعة، فلم أجد مناصا من الاستماع إلى صوت العقل وحده. ولعلني كنت في دور الافاق -الذي عدت إلى الشروع في أدائه- أقل توفيقا وحظا مما كنت في المرة الأولى. ذلك لأن الأمر -في هذه المرة- لم يكن يتطلب سوى أن يوجد في بلدة "سانت انديول" بأسرها، شخص واحد، سبق له أن زار "إنجلترا"، وعرف "الإنجليز"، وتمكن من لغتهم، حتى يُفَضِّحَ أمرى.. وكان من المحتمل ألا أروق لأسرة السيدة "دي لارنساج"، فتعاملني بقليل من الكياسة. إذ كانت ابنتها -التي كنت أفكر فيها، بالرغم مني، أكثر مما كان ينبغي- تسبب لي قلقا لم يفارقني.. وكنت أرتجف لمجرد احتمال أنني قد أقع في هواها!.. وكان هذا الخوف يولف نصف العوامل التي كانت تحملني على العدول.. وكنت أقول لنفسى: اترائني -في مقابل أفضال الأم- أسمى لإفساد الابنة وللدخول معها في علاقة بغیضة، تصيب الأسرة بالتصدع والعار والفضيحة والجحيم معا؟

كانت هذه الفكرة تُوقِعُ الرعبَ في نفسى، ومن ثم فقد صممت تصميمًا جازما على أن أقام هذه النفس وأهزمها، إذا أنا شعرت بمثل هذه الرغبة الدنيئة. ولكن.. لماذا أعرض نفسى لصراع كهذا؟.. أية حال تعسة من العيش تلك التي تدعوني إلى أن أحييا مع الأم -التي كنت أوقن من أنني سَمِئْتُهَا- بينما يضطرم قلبي بحب الابنة، دون أن أجرؤ على أن أكشف لها قلبي؟.. أية ضرورة تدعو إلى السعي نحو حال كهذه، أتعرض فيها للبلايا والإهانات والندم، في سبيل متع حظيت مقدما بأعظمها فتنه؟.. ذلك أنه كان من المحقق أن أهوائي كانت قد فَقدَتْ حديثها الأولى.. كان الميل للمتعة ما يزال قويا، ولكن العاطفة المتأججة كانت قد ولت. وقد خالطت ذلك أفكار تتصل بموقفي، وواجباتي، وتلك الأم المفرطة الطيبة والكرم، التي تورطت في ديون -فوق التي كانت تنقل عاتقها- في سبيل نفقاتي الطائشة، والتي أَنْفَقَتْ كل ما كانت تملك من أجلي، أنا الذي كنت أَخْدَعُهَا بخسة.. ولقد اشتد هذا التائب وثقل على ضميري حتى انقلبت الكفة آخر الأمر، فما إن اقتربت من "سان اسبري" حتى قررت أن أسرع باجتياز "سان انديول" دون أن أتوقف فيها. ونفذت هذا القرار ببسالة، وإن كنت لا أنكر أنني زفرت بعض زفرات. بيد أنني في رضائي عن نفسي كنت أُنذِقُ -للمرة الأولى في حياتي- لذة القدرة على أن أقول: "من حقي أن أشيد بذكر نفسي، فإنني أعرف كيف أقدم واجبي على متعتي"!

وهذا هو الالتزام الحقيقي الأول، الذي خرجت به من دراستي، إذ إنها علمتني أن أفكر، وأن أقارن.. وبعد مبادئ الظهر والعفة -التي انتهجتها منذ عهد قريب- وبعد قواعد الحكمة والفضيلة التي ارتضيتها لنفسى، والتي كنت فخورا كل الفخر باتباعها وجدتني أشعر بالخزي من أن أكون متساهلا مع نفسي، ومن أن أخالف قواعدى المقررة بهذه السرعة، وهذه القوة، وطفى هذا الشعور علي، فانتصر على المتعة، وربما كان للاعتزاز بالنفس نصيب -في قراري- يعادل نصيب الفضيلة سواء بسواء. ولكن إذا لم يكن هذا الاعتزاز هو الفضيلة ذاتها فإن آثاره كانت تشابه آثار الفضيلة إلى درجة أن المرء يخطئ في التفريق بينهما!

ومن الآثار الطيبة للأفعال الصالحة أنها تسمو بالروح وتميل بها إلى الإتيان بشيء أفضل، ذلك أن الضعفَ البشري بلغ مبلغا عظيما، حتى لينبغي لنا أن نسلك في عداد الأفعال الصالحة الامتناع عن الشر الذي تُغرينا نفوسنا على ارتكابه .. وما إن اتخذت قراري حتى أصبحت رجلا آخر، أو -على الأصح- أصبحت الرجل الذي كنته من قبل .. الرجل الذي حملته نشوة هذه التجربة على أن يختفي. فواصلت رحلتي وقد انطوى صدري على أطيب المشاعر وأفضل القرارات، مُتَوِيًّا التكفير عن خطيئي، وعدم التفكير إلا في تنظيم سلوكي في المستقبل على أساس من قوانين الفضيلة، مكرسا نفسي دون قيد أو شرط لخدمة أبر الامهات، منذرا لها إخلاصا يعادل حبي لها، منصتا لنداء واجبي وحده، ولكن وأسفاه! ..

كان إخلاصي في العودة إلى الفضيلة يبدو وكأنه يُخَبِّئُ لي مصيرا آخر. بيد أن مصيري الحقيقي كان قد كتب في لَوْحِ القدر، وبدأ يتحقق فعلا. وفي اللحظة التي لم يكن فيها قلبي -الزاهرُ بحب كل ما هو طاهر وشريف- يرى أمامه سوى البراءة والسعادة، كنت أقترب من اللحظة القاتلة التي قُدِّرَ لها أن تجر وراءها تلك السلسلة الطويلة من الكوارث التي حلت بي!

كان تعجل الوصول قد جعلني أسرع في سفري أكثر مما كنت أنتوي، وكنت قد أرسلت خطابا إلى "ماما" من "فالانس" أخبرها فيه باليوم والساعة اللذين توقعت أن أصل فيهما. ولما كنت قد استبقت موعدني بنصف يوم، فقد قضيت ذلك الوقت في "شاباريان" لكي أصِلَ في اللحظة التي عُيِّنَتْها بالضبط، وكنت أثوقُ إلى أن أستمع غاية الاستمتاع بمراها ثانية، ففضلت أن أؤجل وصولي قليلا حتى أضيف إلى ذلك متعة الشعور بأن ثمة من ينتظره. وكان حليف هذا الإجراء النجاح دائما، فقد كنت أجدُ القوم يحتفلون بوصولي -في كل مرة- وكأنه يومٌ عيد صغير. وهذا ما توقعته في هذه المناسبة، وكانت تلك العناية -التي كانت تهفو بالقلب والمشاعر- جديرة بالتعب الذي كان يبذل في سبيل الظفر بها!

ووصلت في اللحظة التي عيَّنتها تماما. ومذ كنت على مسافة بعيدة من غايتي، رحمت أَنْعِمُ النظر في الطريق، علني أراها .. "ماما" .. وراح قلبي يَخْفِقُ في عنف أخذ يُطْرِدُ بازدياد اقترابي. ووصلت وأنا الهت، إذ إنني كنت قد تركت عربتي في المدينة .. ولم أر أحدا في الفناء أو عند الباب أو مطلا من النافذة فبدأ القلق يُساورُنِي خشية أن يكون قد وقع حادث .. ودخلت فإذا كل شيء هادئ، وبعض العمال يأكلون في المطبخ، ولم تكن ثمة أمارات تنم عن أن القوم ينتظرونني. وبدت الدهشة على الخادم لرؤيائي إذ إنها كانت تجهل أمر قدومي. وصعدت الدرج .. وأخيرا رأيته .. تلك الأم العزيزة، التي اجتمع لها في قلبي كل ما في الحب من رقة وقوة وإخلاص. وهرعت إليها، فَأَلْقَيْتُ نفسي عند قدميها. وقالت لي وهي تُعَانِقُنِي: "آه إذن فقد عُدتَ أيها الصغير! .. أكانت رحلتك ممتعة؟ .. كيف حالك؟". وأذهلني هذا الاستقبالُ بعض الشيء، فسألته عما إذا كانت قد تلقت خطابي. وأجابته بـ "نعم"، فقلت: "ما كنت أعتقد هذا". وانتهى الحديث عند هذا الحد، فقد كان معها شاب تذكرتُ أنني رأيته في المنزل قبل رحيلي، ولكنه بدا -في هذه المرة- وكان المقام قد استقرَّ به هناك، وكان ذلك هو الواقع فعلا. ومجمل القول إنني وجدت من حُلِّ محلي!

وكان الشاب من منطقة "فو"، وكان أبوه -واسمه "فنتزوريه" - أمين حصن "شييون"، أو كبير ضباطه كما كان يدعو نفسه. أما الابن فقد كان عاملا يصنع الشعر المستعار، وكان يطوف بالبلاد مارسا مهنته، عندما قدم نفسه إلى السيدة دي "فساران" فأخسنت استقباله، كما كانت تفعل مع

عابري الطريق جميعا، لا سيما أولئك الذين يكونون قادمين من مسقط رأسها. وكان الشاب ذا شعر أشقر غزير حائل اللون، وجسم يديع التكوين، ووجه سمين، وعقل في ثقل جسمه... فقد كان يتحدث كالمرور المتحذلق، وهو يخلط بين اللهجات، ويمزج الأحاديث التي تتطلبها مهنته بقصة طويلة - عن مغامراته وفتوحاته الغرامية - لم يكن يضمنها، - فيما زعم - سوى نصف من ضاجعهن من المركيزات!.. وكان يدعي أنه ما صغف شعر حسناء إلا وزين رأس زوجها أيضا!.. كان مغرورا أخرق جاهلا وقحا، أما ماعدا هذا فقد كان من أحسن الشبان في العالم!.. ذلك هو البديل الذي حل محلي أثناء غيابي والرفيق الذي قدمه إلي بعد عودتي! وإذا كانت الأرواح التي تنطلق من القيود الدنيوية تظل ترى - خلال أضواء الأبدية - ما يجري بين أهل الأرض فاغفر لي - إذن - أيها الطيف الحبيب الأثير، أنني لا أغض الطرف عن أخطائك ولا عن أخطائي، بل إنني أكشف عنها جميعا أمام القارئ، وعلى قدم المساواة!.. لسوف أكون - ولابد لي من أن أكون - صادقا نحوك صدقي نحو نفسي، ولن يصيبك من ذلك قط إلا ما يقل كثيرا عما يصيبني أنا!.. أكم يكفر خلقك الوديع الرقيق، وطيبة قلبك - التي لا ينضب معينها - وصراحتك، وكل صفاتك الباعثة على الإعجاب.. كم تكفر هذه عن نقاط ضعفك إذا ما ذكرت تلك الهفوات التي يمكن أن توصف بأنها من أخطاء عقلك وحده!.. لقد أخطأت ولكنك كنت براء من الرذيلة ولقد استحق مسلكك اللوم، ولكن قلبك ظل نقيًا دائما.

ولقد أظهر القادِمُ الحديثُ غيرة وحمية وعناية بتنفيذ الشؤون الصغيرة العديدة التي كانت "ماما" تحتاج إليها، ونصب نفسه رئيساً على عمالها.. وكان كثير الضجيج، بقدر ما كنت شديد الهدوء!.. كان القوم يرونه ويسمعونه في كل مكان في وقت واحد: عند المحراث، وفي مخزن الدريس، وفي مخزن الخشب، وفي الأسطبل، وفي ساحة المزرعة. وكانت فلاحه البساتين هي الشيء الوحيد الذي أهمله، إذ إنها كانت هادئة جدا، لا تهسي الفرصة لإحداث ضوضاء. كان يفرح أشد الفرح بوسق عربة وقيادتها، ونشر الخشب أو تكسيه.. فما كنت كنت تراه إلا والفأس والبلطة في يده، وهو يعدو ويدفع ما أمامه ويصبح بكل ما فيه من قوة.. ولست أدري كم من عمل الرجال قام به، ولكن الذي أدريه أنه كان يحدث من الضوضاء قدر ما يحدثه عشرة رجال أو اثنا عشر. وكانت كل هذه الضوضاء والحركة تخدع "ماما" المسكينة، فقد حسبت أنها وجدت في هذا الشاب كنزا يعاونها في شؤونها، وأرادت أن تحمله على التعلق بها فاستخدمت في ذلك كل السبل التي اعتقدت أن من الممكن أن تأتي بالنتيجة المرجوة.. ولم تنس ذلك السبيل الذي كانت تقول عليه أكثر من سواه!

ولابد أن القارئ قد استشف شيئا عن قلبي، وعن مشاعره الصادقة الثابتة، لا سيما تلك التي حدثت بي إلى العودة إلى "ماما" إذ ذاك، ولكن يا للانقلاب المفاجئ الكامل في كياني كله!.. فليضع القارئ نفسه في موضعي ليستطيع الحكم!.. لقد رأيت كل ذلك المستقبل السعيد - الذي تخيلته لنفسى - يتلاشى في لحظة، وتبددت أحلام السعادة التي كنت أعترضها اعتزازا.. ووجدتني للمرة الأولى وحيدا، أنا الذي ألغت منذ صباي الأرى لنفسى وجودا إلا في وجود "ماما"!.. كانت تلك اللحظة فظيعة، ولكن اللحظات التي تلتها كانت قائمة كمية.. كنت ما زال شابا ولكن ذلك الشعور العذب بالمتعة والأمل - الذي يبعث الحياة في الشباب - كان قد هجرني إلى الأبد. ومنذ ذلك الحين مات في أعماقي الحس المرهف - نصف ميتة - ولم أعد أرى أمامي إلا اطلالا حزينة لحياة نافهة، فإذا ما أذكى شهواتي - بين الحين والحين - طيف من سعادة، فإن هذه السعادة لا تبدو لي حقيقية.. بل إنني

كنت أوقن بأن ظفري بها لن يجعلني سعيدا حقاً
ولقد كنت غاية في السداجة، كما كانت ثقتي بـ"ماما" جد عارمة، حتى إنني لم أحس قط
السبب الحقيقي للهجة الالفة التي كان القادم الجديد يتحدث بها، والتي اعتبرتها من نتائج طبيعة
"ماما" السهلة الهينة التي تجتذب الناس جميعاً إليها.. وما كنت لأحس الأمر لو لم تُبجّ به هي
نفسها، فقد بادرت إلى الاعتراف في صراحة كان من المحتمل أن تُذكّبي سَخَطِي لو أن قلبي كان يتسع
لمزيد من السخط.. ذلك أنها كانت ترى الأمر بسيطاً، فقد عابت علي إهمالي أثناء وجودي في
البيت، وتذرعت ضدي بغياي المتكرر، وكأنما كانت طبيعتها تقتضيها ملء الفراغ بأسرع ما يمكن،
فقلت لها وقلبي يتمزق حزناً: "واها يا ماما" .. ما هذا الذي تجربين على أن تحدّثيني به؟ .. ياله من
جزاء على إخلاص كذلك الذي أثرتك به! .. هل أنقذت حياتي هكذا مراراً، لغير ما داع إلا لتحرميني
ذلك الذي جعلها عزيزة عندي؟ .. إن هذا سيُورِدُني مَوْرَدَ التهلُّكة، ولكنك ستأسفين على فقدي! ..
فردت - في هدوء كان خليقاً بأن يدفعني إلى الجنون - بأنني طفل، وأن الناس لا يموتون من مثل هذه
الأمور، وإنني لم أفقد شيئاً، وأنا خليقان بأن نكون صديقين حميمين - بكل ما للمصادقة من معنى -
ووثيقي الصلة في كل أمر من الأمور، وأن حبها العميق لي لن يقل ولن ينتهي إلا بانتهاء حياتها! ..
ومجمل القول: إنها جعلتني أدرك أن جميع مزايي باقية على ما كانت عليه، وإنني لن أجد أي
نقص فيها بالرغم من أن ثمة من أصبح يُشاركني إياها. ولم يظهر قط حبي لها - في صفائه وصدقه
وقوته - ولا ظهرت روحي - في إخلاصها واستقامتها - مثلما ظهرت على هذه الصورة الواضحة، في
تلك اللحظة، فقد أَلْقَيْتُ بنفسي عند قدميها، وذرفت الدموع مداراراً، وأمسكت بركبتها، وهتفت
بها وأنا شارد الفكر: "كلا يا ماما" .. إنني أحبك حبا أعمق من أن يَسْمَحَ لي بإذلالك، وأمتلكك
أغلى عندي من أن أستطيع مشاركة آخر فيه .. إن الندم الذي شعرت به عندما وهبتي نفسك - لأول
مرة - قد ازداد بازدياد حبي، ولن أستطيع أن أحتمل هذا الندم بنفس الثمن. لسوف أظل دائماً
أعشقك. وأبقى جديراً بحبك طالما ظلت حاجتي إلى احترامك أكثر من حاجتي إلى امتلاكك. إنني
أَكِلُ أمر نفسك إلى نفسك، وأضحى في سبيل اتحاد قلبي بك بكل متعي .. وخير عندي أن أموت ألف
مرة من أن أسمى إلى إذلال من أحب! ..

ولقد ظَلَلْتُ آميناً على هذا القرار في ثبات وحزم أجرؤ على القول بأنهما جديراً بالشعور الذي
دفعني إلى هذا القرار. ومنذ تلك اللحظة كنت أنظر إلى تلك الأم العزيزة بعيني الابن البار! .. ولابد
لي من أن أضيف إلى هذا أن قرارى، وإن لم يكن قد صادف موافقة منها شخصياً - كما تبين لي
جلياً - إلا أنها لم تحاول قط أن تُثَنِّبني عن عَزَمِي بتلك الاقتراحات المغرية، ولا الملائمة، ولا بِسَبِيلِ
الغواية التي تجيد النساء استخدامها دون أن تصبن أنفسهن بالجروح، والتي نادراً ما يمنين فيها بالقتل!



ووجدتني مكرها على أن أسمى إلى مصير مستقل عن "ماما" .. واستعصى علي التفكير فَسْرَعَانَ
ما ارتيمت في أحضان نقيضه تماماً، إذ سميت إلى البحث عن المصير المنشود عندها هي نفسها ..
واستغرقت في البحث عنه عندها، حتى أفلحت في نسيان نفسي أو كدت، واستوعبت مشاعري
الرغبة الملحة في أن أراها سعيدة مهما كان الثمن .. ولقد كان من العبث لها أن تُفَضِّلَ سعادتها على
سعادتي، فلقد كنت أرى سعادتي في أغوار سعادتها بالرغم منها!

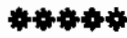
وهكذا بدأت تنمو مع مصائب تلك الفضائل التي كانت بذورها قد غُرست في أعماق قلبي، والتي هذبتهَا الدراسة، ولم تكن تنتظرها إلا الشدة حتى تؤتي ثمارها. وكانت النتيجة الأولى لإنكار الذات والتجرد عن الغرض أن زال من قلبي كل شعور بالحقد والحسد نحو ذلك الذي حل محلي، بل إنني -على العكس من ذلك- كنت أريد في إخلاص صادق أن أُصبح وثيق الصلة بهذا الشاب، وأن أصوغ خُلُقَه، وأعلمه وأشعره بسعادته، وأجعله جديرا بها إذا أمكن. وبالاختصار أن أفعل له ما سبق لـ "آنيه" أن فعله من أجلي في ظروف مماثلة!.. إلا أن طبيعتنا لم تكونا متماثلتين. ومع أنني كنت أرق حاشية وأوسع علما من "آنيه" إلا أنني لم أوت قلة مبالاة أو ثباته أو قوة خلقه، التي كانت تبعث على الاحترام، والتي كان لابد منها لضمان النجاح، زد على ذلك أنني لم أكن أجِد في هذا الشاب الصفات التي وجدها "آنيه" في، وأعني: دَمَائَةُ الخُلُقِ والحب والعرفان الجميل.. وأهم من هذا كله، الإدراك بأنني أحتاج لرعايته، والرغبة الملحة في الانتفاع بهذه الرعاية.

كانت تُعوِّزُه كل هذه الصفات. وكان هذا الذي أردت أن ألقنه العلم لا يعتبرني أكثر من مُتَحَدِّقٍ يبعث على السام والضجر، ولا يحسن من الأمور سوى الشرثرة. وكان -من ناحية أخرى- يعجب بنفسه بوصفه شخصا له شأنه في المنزل. فكان يغالي في تقدير الخدمات التي يحسب أنه كان يؤديها بالضروءاء التي كان يحدثها. وكان يرى أن خُؤُومَه ومعاوِلَه أنفع كثيرا من كل كُنْبي القديمة!.. ولقد كان مصيبا بعض الشيء ولكنه -اعتمادا على هذا- كان يزهو ويستكبر في صورة تدعو المرء إلى الإغراق في الضحك. وكان يحاول أن يمثل مع الفلاحين دور سيّد من سادة الريف، فما لبث أن أخذ يعاملني نفس المعاملة بل أنه راح يُعَامِلُ "ماما" كذلك!.. وإذ بدا له أن الاسم "فقر ونريد" لم يكن فيه ما يميزه، هجره واتخذ له اسم السيد دي "كسورتييل"، وهو الاسم الذي عرِفَ به فيما بعد في "شامبيري" وفي "مورين" حيث تزوج!

ومجمل القول إن هذا الشخص البار لم يلبث أن أصبح كل شيء في المنزل بينما أصبحت أنا.. لا شيء!.. ولو أن سوء الطالع ساقني إلى إغضابه فإن "ماما" هي التي كانت تَلْقَى اللوم بدلا مني؛ ولهذا السبب فإن خوفي من تعريضها إلى سلوكه الفظ كان يدعو إلى أن أجيبه إلى كل رغباته وعندما كان يُقْبَلُ على تفسير الأخشاب -وهو عمل كان يفخر به كل الفخر- كنت أقف متفرجا عاطلا، ومعجبا صامتا بقوته وجلده على العمل! على أن سَجَايَاهُ لم تكن في مجموعها بالسجايا القبيحة.. لقد كان يحب "ماما" لأنه ما من أحد كان يستطيع أن يمسك نفسه عن حبها. ثم إنه لم يظهر لي شيئا من النُفُور أو الكراهية، وكان في اللحظات التي يستولي فيها السكون عليه ينصت إلينا هادئا، ثم يعترف في صراحة بأنه لم يكن إلا أَحْمَقَ.. ولا يلبث -بعد ذلك مباشرة- أن يرتكب حماقات جديدة. زد على ذلك أن إدراكه كان محدودا، كما كان دَوَقُه وضيعا، حتى لقد كان يتعذر على المرء مجادلته، أو الشعور بالراحة معه. ولم يقنع بالظفر بأشد النساء فتنة وسحرا، بل إنه جمع -على سبيل التغيير- بينها وبين وصيفة عجوز حمراء الشعر خلا منها من الأسنان، وكانت "ماما" تحتل خدماتها -التي تشير في النفس الاشتزاز- في صَبَرٍ وأناة، وإن كانت تضيق بها كل الضيق! وإذ شاهدت هذا اللؤم الجديد بلغ مني الحقد والغيط مبلغهما. على أنني لاحظت شيئا آخر في الوقت ذاته -كان أشد تأثيرا في نفسي، ودفعني إلى اليأس أكثر من أي أمر آخر وقع حتى ذلك اليوم. وكان هذا الشيء هو قُتُورٌ في مسلك "ماما" نحو، أخذ يزيد رويدا رويدا!

ذلك أن الحرمان الذي فرضته على نفسي والذي تظاهرت هي بالموافقة عليه إنما هو أحد تلك

الامور التي لا تغتفرها النساء قط - وإن تظاهرن بقبولها! - لا بسبب ما حُرِمْنَ هن منه، وإنما بسبب الشعور بعدم الاكتراث الذي ينطوي عليه الامر. ولو أنك أخذت -على سبيل المثال- أوفر النساء عقلا، وأكثرهن فلسفة وأقلهن شبقا لوجدت أن الجريمة الوحيدة التي لا تُغْفَرُها هذه المرأة للرجل قط -ولو كان اهتمامها به عدا ذلك أضرال ما يكون- هي أن يكون بوسعه أن يستمتع بها ولكنه لا يفعل!... وليكن مفهوما أن هذه القاعدة بلا استثناء، إذ إن العاطفة -سهما تكن طبيعية وقوية- لا تَلْبِثُ أن تتغير لدى المرأة بسبب الحرمان الذي لا بَاعث له سوى الفضيلة والحب والتقدير... ومنذ ذلك الحين لم أعد أجد لدى "ماما" تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين قلبين، والتي كانت تُغْعمُ قلبي دائما بأحلى المنع. ولم تعد تُبْوحُ لي بأسرارها اللهم إلا أن تشكو من ذلك الدخيل. أما عندما يكونان معا على صفاء فإنني لم أكن أحظى بأسرارها... ولم تلبث -آخر الامر- أن انتهجت نحوي مسلكا بأعد بيني وبينها تدريجا، ومع أن حضوري ظل مبعث سرور لها إلا أنه لم يعد ضرورة لا غنى لها عنها حتى لقد كنت أقضي أياما بطولها دون أن أراها، فما كانت لتفطن إلى ذلك!



وَوَجَدْتُني -دون أن افطن- مَعْرُولا وحيدا في هذا المنزل الذي كنت فيه قبل ذلك بمشابهة "الروح" ١... والذي أصبحت أحييا فيه حياة مزدوجة كما ينبغي أن يقال... فالتفت تدريجا أن أغض الطرف عن كل ما كان يقع في هذا المنزل، بل إنني أخذت أعتزل أولئك الذين كانوا يقيمون فيه ولكي أجنب نفسي العذاب المتصل رحت أحتبس نفسي مع كُتُبي، أو أذهب فأبكي وأناؤه ما شاء لي الهوى وسط الغابات. وسرعان ما أَصْبَحْتُ تلك الحياة فوق ما يطيقه إنسان، وشعرت بأن الوجود الشخصي مع البعد القلبي بالنسبة لامرأة كنت أعزها كل هذا الإعزاز كان يَهيجُ شَجُوني... وأن الكف عن رؤيتها أقل قسوة! ولذلك قررت أن أهجر المنزل... ولقد قلت لها هذا، فإذا بها تحبذه بدلا من أن تعارضه!... وكانت لها صديقة في "جروينوبل" -تُدعى السيدة "ديبيان"- كان زوجها صديقا للسيد "دي مايلي"، محافظ مدينة "ليون". ولقد اقترح السيد "ديبيان" أن اتولى تعليم أولاد السيد "دي مايلي"، فقبلت، ورحلت إلى "ليون" دون أن أَسْبَبَ لنفسي -بل دون أن أشعر تقريبا- بأقل أسف على فراق كان مجرد التفكير فيه -فيما مضى- يبعث فينا آلاما كنزعات الموت!

وكانت لدي المعرفة الضرورية -تقريبا- لكي أكون مربيا، واعتقد أنني أوتيت موهبة لذلك. وقد اتسع لي الوقت -في السنة التي قضيتها بمنزل السيدة "دي مايلي"- كي أكتشف عن حقيقة نفسي، فإذا ما فُطِرْتُ عليه من مساحة ورقة كفيل بأن يجعلني أهلا لهذه المهنة لولا ما كان يشوبه من حدة الطبع... فقد كنت كالملاك الكرم، طالما سارت الامور على مايرام، وطالما كنت أرى تعبي وعنايتي -الذين لم أكن أقتصد فيهما- يُؤْتِيَان ثمارا ولكنني كنت أعقدو شيطانا إذا ما انقلبت الامور. وعندما كان يستعصي على تلميذي فهمي كنت أَهْذِي كالجنون، فإذا بدت منهما امارات تَنَمُّ عن خُبث وعِصْيَان فإنني كنت أتمنى لو استطعت أن أقتلهما... وما كان هذا المسلك ليكفل لهما العلم أو الادب... وكانا غلامين يختلف طبع كل منهما عن الآخر كل الاختلاف: أحدهما في الثامنة أو التاسعة من العمر، ويدعى "صانت هاري"، له وجه جميل، وعقل متفتح. وكان نشيطا، طائشا، لعبوا، ماكرًا... إلا أن مكره كان يتسم دائما بالمرح!... أما الأصغر -واسمه "كونديلاك"- فقد كان غبيا أو يكاد، نافها كسولا، أوتي عناد البغل... وكان عاجزا عن أن يتعلم شيئا!

ولقد أكرهت على تقسيم عملي بين الاثنين، كما هو واضح للقارئ، ولعلني كنت مستطيعا بشيء من الصبر والهدوء، أن أوفق في عملي ولكنني كنت خلوًا منهما، ومن ثم فإنني لم أحرز مع تلميذي أي تقدم، وكانت النتيجة غاية في السوء.. وما كنت لافتقر إلى المشاورة، وإنما كان يعوزني الأتزان والكياسة بوجه خاص.. إذ إنني لم أكن أعرف من الأساليب التي تُستخدَم مع الأطفال إلا ثلاثة، كانت كلها دائما عَقِيْمَة عديمة الجدوى، وكثيرا ما كانت تعود عليهم بأبلغ الضرر.. وهذه السبل الثلاث هي: العاطفة، والمجادلة، والغضب. ولقد تأثرت ذات مرة من "سانت ماري" تأثرا ذرفت معه الدموع، وحاولت أن أثير فيه عَاطِفَة ماثلة، كأنما كان في وسع الطفل أن يتأثر تأثرا صحيحا.. وفي مناسبة أخرى أَرَهَقْتُ نفسي في مجادلته، وكأنه كان قادرا على أن يفهمني، ولما كان يلجأ في بعض الأحيان إلى جدال غاية في المكر والدهاء فقد اعتقدت أنه لابد ذكي مادام يعرف كيف يجادل.. أما "كونديلاك" الصغير، فقد كان أَشَدَّ جَلْبًا للضيق والضرر، إذ إنه لم يكن يفهم شيئا، ولا يجيب عن أي سؤال، ولا يتأثر بأي مؤثر.. كان عنيدا لا يتزحزح عن موقفه، ولم يكن موقفا في شيء اللهم إلا في إثارة غضبي. وإذ ذاك، كان يَخدُو هو العاقل وأنا الطفل!

لقد تَبَيَّنَتْ كل أخطائي، وكنت أدركها تمام الإدراك إذ إنني درست أخلاق تلميذي وافلحت في سبر غورها. ولا أعتقد أن حيلهما انطلت علي مرة، ولكن ما جدوى تبين الشر إذا كنت لا أعرف كيف أعالجه؟.. ومع أنني كنت استشف كل شيء إلا أنني لم أكن أمنع شيئا، ولم أفلح في شيء.. كان كل ما أفعله هو عين ما كان ينبغي لي ألا أفعله!

ولم يكتب لي -فيما يتصل بأمر نفسي- من النجاح أكثر مما كتب لي فيما يتعلق بتلميذي، وكانت السيدة "ديبيان" قد أوصت بي السيدة "دي مابلي"، وطلبت منها أن تُهْدِبَ عاداتي وأن تُطَبِّعَنِي بطابع يتفق والمجتمع الراقي، فجهدت السيدة في ذلك بعض الجهد، وأرادت أن تُعَلِّمَنِي كيف أُشْرِفُ البيت الذي أنزل فيه بيد أنني أبدت من الارتباك والحجل بل والغباء مأثبط منها ودعاها إلى اليأس مني. ولكن هذا لم يمنعي من الوقوع في حبها بطريقتي الموهودة، وقد عَمَلْتُ على أن تلاحظ هذا، وإن لم أجروا أبدا على البوح لها بحبي، ولم يكن من طبيعتها أن تتودد قط إلى رجل، ومن ثم فقد ذهبت غَمَزَاتِي ونظراتي وتواهاتي إدراج الرياح، وسرعان ما سمعتها، إذ رأيت أنها لم تكن تؤدي إلى شيء!

وكنت أثناء إقامتي مع "ماما" قد فقدت تماما الرغبة في السرقات الصغيرة إذ إنني حين رأيت أن كل شيء قد بات ملك يدي، لم أعد أجِد ما يَدْعُو إلى السرقة! فضلا عن أن المبادئ السامية التي انتهجتها كانت كفيلة بأن تجعل مني في المستقبل شخصا ساميا لا يأتي أمثال هذه الصغائر، وهذا ما صرت إليه -يقينا- منذ ذلك الحين.. بيد أن هذا لم يكن راجعا إلى أنني استأصلت الداء من جذوره وإنما كان مرده إلى أنني تعلمت التغلب على ما كان يبتليني من إغراء. وكان الخوف كثيرا ما يتملكني من أن أوغل في السرقة -كما كنت أفعل في طفولتي- إذا عاودتني الرغبة وتَهَيَّأت لي الفُرْصَة. وقد تبدى لي الدليل على ذلك في دار السيد "دي مابلي". فبالرغم من كثرة الأشياء الصغيرة التي كانت تُحِيطُ بي، والتي كانت في متناول يدي إلا أنني لم أولها نظرة واحدة.. غير أن رغبة قوية تملكنتني في الحصول على شراب أبيض بسيط المفعول اسمه شراب "أرمو"، كان لذيق الطعم، وقد طاب لي كثيرا بعد أن تناولت منه بضع كؤوس على المائدة.. وكان كشيئا بعض الشيء، وقد زهوت بمهارتي في تنقية الشراب، فعهد إلي بهذا النوع بالذات، فقممت بتنقيته، ولكنني أفسدته أثناء ذلك. على أن

الفساد لم يَلْحَقْ إلا مظهره، فظل لذيق الطعم، وكنت أنتهز الفرصة لأخذ بعض الزجاجات بين الحين والحين أتجرعها عندما يحلو لي، ولكنني لسوء الحظ- لم ألك أقوى علي أن أشرب دون أن أقرن الشراب بالأكل، فما حيلتي في الحصول على الخبز؟.. كان من المستحيل علي أن أحتفظ بشيء منه. ولو أنني أرسلتُ الخدم لشرائه لانفضح أمري، ولكان ذلك -في الوقت نفسه- إهانة، أو شبه إهانة، لرب البيت، كذلك كنت أخشى أن اشتريه بنفسي، فكيف يستطيع سيد "مُهَذَّب" -والسيف إلى جانبه- دخول مخبز وشراء رغيف من الخبز؟.. وأخيرا تذكرت الملجأ الأخير الذي لجأ إليه أمير كبير قيل له: إن الفلاحين لم يكونوا يجدون الخبز فأجاب بقوله: "إذن دعوهم يأكلون الفطائر" .. ولكن، يا لَلْمَشَقَّة التي كابدتها في الحصول على الفطائر!.. كنت أخرج وحدي في طلبها، فاجتازُ المدينة بأكملها في بعض الأحيان من طرف إلى طرف، وأمر ثلاثين محلا من محلات الفطائر، قبل أن أَدْخُلَ أحدها. وكان من الضروري ألا يكون في المحل غير شخص واحد، وأن تكون سمات هذا الشخص بشوشا جدا، قبل أن يستقر رأيي على المغامرة .. وما إن كنت أفوز بكمكتني الصغيرة العزيزة، وأحكم غلق باب غرفتي علي حتى كنت آتي بزجاجة شرابي من قَاع صوان بغرفتي .. وباللنشوات الصغيرة اللذيذة التي نَعِمْتُ بها وحدي وأنا أقرأ بضع صفحات من رواية!.. فقد كنت أحب دائما أن أقرأ وأنا أتناول طعامي إذا كنت وحيدا فإن القراءة أثناء الطعام كانت دائما الهواية التي تعوضني عن سمر أخلو إليه. وكنت ألتهمُ صفحة ثم أزدرد لقمة، وكان كتابي كان يتناول الطعام معي!

وأنا لم أكن أبدا فاسقا أو سَكِّيرا بل الواقع أنني لم أَتَمَلُ في حياتي قط!.. وهكذا تَوَالَتْ سرقاتي الصغيرة، التي لم تك تخلو تماما من الحرص والحذر، بيد أنها لم تلبث أن اكتُشِفَتْ، إذ فَضَحَتْ الزجاجات أمري. ولم توجه إلي أية ملاحظة إلا أن القبر لم يعد موكولا إلي، وقد تصرف السيد "دي هابلي" في هذا كله تصرفا كريما معقولا، فقد كان رجلا شهما، يُخْفِي تحت ستار من الحشونة الملائمة لمنصبه نزعة رقيقة حقا، وطيبة قلب نادرة!.. كان ذكيا عادلا، بل إنه كان لطيفا، وهو أمر لا تنتظره من ضابط من ضباط البوليس الراكب. وقد قدَّرتُ له تسامحه فأصبحت أكثر تعلقا به، وحملني هذا على أن أَتَكُنَّ في منزله فترة أطول مما كان ينبغي لي، ولكنني وقد كرهت آخر الأمر مهنة لم أكن أصِّلح لها -بعد أن زَجَجْتُ بنفسِي في موقف كله تعب، ولم يكن فيه ما يسر. وبعد سنة من التجربة لم أقتصد فيها شيئا من جَهْدِي- قررت أن أترك تلميزي وأنا مقتنع بأنني لن أفلح في تنشغلتها تنشئة صحيحة. وكان السيد "دي هابلي" يرى هذا جيدا كما كنت أراه علي أنني لا أعتقد أنه كان يقدم علي فصلي -من تلقاء نفسه- لو لم أكفه مؤونة العناء.. ومن الحق أن هذا التساهل المفرط -في حال كهذه- ليس بما أقره!

ومما زاد في عدم احتمالي لمركزي أنني كنت أقارنه على الدوام بذلك المركز الذي خُلِفْتُ ورائي: ذكرى "شارميت" الغالية، وذكرى حديقتي وأشجارتي، ونبعِي، وبستاني -سوفوق هذا وذاك- ذكرى تلك التي أشعر أنني خلقت من أجلها، والتي كانت حياة كل شيء وروح. وعندما كانت تُعَاودني ذكرى متعنا وحياتنا البريئة كان قلبي يبرزح تحت شعور من الضيق والاختناق يَسْلُبُنِي الشجاعة والقدرة على أن أفعل أي شيء! وقد راودتني -مائة مرة- رغبة عنيفة في الانطلاق لفوري على قدمي، والعودة إلى السيدة دي "فاران" .. كنت علي استعداد لأن أموت لفوري راضيا لو قُدِّرَ لي أن أراها مرة أخرى!

ولم أستطع -آخر الأمر- أن أقاومَ هذه الذكريات الرقيقة -التي كانت تُناديني إليها- مهما يكن

الشمس، فقلت لنفسي: إنني لم أتذرع بما يكفي من الصبر والكرم والود، وإنني لو كنت قد أجهدت نفسي أكثر مما فعلت لظلت أعيش معها في علاقة من الصداقة الخالصة، وقد وضعت أجمل المشروعات في العالم وتحمرت شوقاً إلى تنفيذها!



وهكذا تركت ذات يوم كل شيء ونبذت كل شيء، ثم شرعت في رحلتي أنهب الأرض نهبا، فوصلت إلى الدار بعد استخدام جميع وسائل المواصلات التي توفرت لي في صدر شبابي.. ووجدتني عند قدميها مرة أخرى! أواه! لقد كنت أموت مغتبطا، لو أنني وجدت -عند عودتي- في استقبالها إياي، أو في عينيها، أو في عناقها، أو -أخيرا- في قلبها، ربَّع ذلك الذي كنت أجده من قبل، والذي كانت نفسي مفعمة به في عودتي!

واحسرتاه على ما يُصادف البشر من خدع قاتلة!.. لقد تلقنتني "ماما" بذلك القلب الطيب الذي لا يموت إلا بموتها، ولكنني بحثت عني عن الماضي الذي ولى إلى غير عودة. وما إن مكثتُ معها نصف ساعة حتى شعرت بأن سعادتي السابقة قد زالت إلى الأبد، ووجدتني في نفس المركز المحزن الذي اضطررت إلى الهرب منه دون أن أستطيع توجيه اللوم إلى إنسان!.. ذلك أن "كورنيل" لم يكن في قرارة نفسه فتى شريفا، وقد لاح عليه السرور -لا الضيق- لم رأي ولكن كيف أستطيع أن أحتمل وجودي كشخص زائد عن الحاجة، عند تلك التي كنت لها كل شيء، والتي لن تكف عن أن تكون لي كل شيء؟.. كيف أستطيع أن أعيش غريبا في منزل كنت أشعر أنني ابنه؟.. بل إن رؤية الأشياء التي شهدت هنائي الماضي كانت تزيد المفارقة إيلا.. وكنت خليقا بأن اغدو أقل الما في أي جو آخر للمعيشة فإن شعوري بأنني كنت أذكر دون انقطاع كل تلك الذكريات الحلوة كان يهيج في صدري الإحساس بفداحة ما فقدت.. وإذ راحت الحسرات -التي لم يكن من ورائها طائل -تنهش قلبي، واستبدت بي أشد ألوان الكتابة سودا أخذت الود بالوحدة في غير أوقات الطعام، وانفردت بكتبي، وسعيت إلى أن أجدها بعض التسلية النافعة!

وشعرت بأن الخطر -الذي كنت أخشاه طويلا- بات وشيك الوقوع، فاخذت أجهد عقلي من جديد محاولا أن أجده من نفسي وسيلة للتحصن ضده إذا ما نضبت موارد "ماما".. فلقد كنت أدبر شؤونها المنزلية على أساس ألا تزداد الأمور سوءا أما بعد أن تركتها فقد تغير كل شيء.. كان مديرو ماليتها مسرعا، يريد أن يختال بجواد أصيل وعريه.. وكان مولعا بتمثيل دور النبيل أمام الحيران، كما أنه كان -في كل ذلك- يؤدي عملا لا يعرف عنه شيئا. وكان معاش "ماما" مستنفدا مقدما. إذ كانت الدفقات التي تواتيها منه -كل ثلاثة أشهر- مرهونة، وكانت متأخرة في دفع الإيجار، وقد تراكت عليها الديون، وتوقعت أن يحجز علي معاشها، أو أن يقطع عنها نهائيا.. ومجمل القول إنني لم أر أمامي إلا الخراب والكوارث، وبدت لي تلك اللحظة وشيكة، حتى لقد تجسم أمام ناظري كل ما تنطوي عليه من فظائع!

وكانت غرفتي العزيزة الصغيرة هي ملهائي الوحيدة، وبعد أن بحثت طويلا عن أدوية لعلاج قلقي العقلي فكرت في أن أبحث عن علاج للمتعاب التي كنت أتنبأ بها، وعدت إلى أفكار القديمة، وبدأت فجأة أبني القصور في "إسبانيا"، محاولا أن أنقذ "ماما" المسكين من النهاية القاسية التي كنت أراها على وشك التردى فيها!.. لكنني لم أكن أشعر أنني على علم كاف، ولا كنت أعتقد

أنني موهوب إلى حد يكفي لأن يلمع نجمي بين رجال الأدب، أو أن أجمع ثروة بهذه الوسيلة.. والهممتني فكرة جديدة -خطرت لي- بالثقة التي عجزت عنها مواهبي المتوسطة.. ذلك أنني لم أكن قد أفلعتُ عن دراسة الموسيقى عندما كفت عن تدريسها، بل إنني -على النقيض من ذلك- كنت قد درست نظرياتها دراسة تكفياني لأن اعتبر نفسي عالما في هذه الناحية من الفن. وبينما كنت أسترجع الصعوبة التي صادفتني في تعلم قراءة "النوتة"، والصعوبة الكبرى التي كنت لأزال ألقها في الغناء بمجرد النظر إلى "النوتة"، أخذت أفكر في أن هذه المشقة قد تكون راجعة إلى طبيعة الأمر وليس إلى عجز وقصور، لاسيما أنني كنت أعلم أنه ليس من السهل على أي إنسان أن يتعلم الموسيقى. وعندما فحصت ترتيب العلامات الموسيقية وجدت أنها كثيرا ما تنم عن سوء ابتكار.. وكنت قد فكرت طويلا في التعبير عن السلم الموسيقي بالأرقام، وذلك لتفادي رسم الخطوط والعلامات المدرجة عند الرغبة في كتابة أبسط النغمات. ولم تكن تعوقني سوى صعوبات تتصل بالطبقات والزمن وقيم "النوتة".

وقد عاودتني هذه الفكرة من جديد فلما أنعمتُ النظر فيها وجدت أن هذه الصعوبات ليست مما يتعذر التغلب عليه.. وأفلحت في تنفيذ فكرتي فاستطعت آخر الأمر أن أكتب أي موسيقى -مهما يكن شأنها- بأكثر ما يمكن من الدقة.. بل إن بوسعي أن أقول: بأكثر قدر من البساطة. واعتبرت نفسي -منذ تلك اللحظة- من أصحاب الثراء!.. ولم أعد أفكر -وأنا شديد الشوق إلى أن تقتسم معي ثروتي، تلك المرأة التي كنت مدينا لها بكل شيء- إلا في الارتحال إلى "باريس"، موقنا من أنني سأحدثُ انقلابا بمجرد عرض مشروعي على المحفل "الأكاديمي"!.. وكنت قد حملت معي -من "ليون"- قليلا من المال، كما أنني بعثت كتيبي. وهكذا لم يمض أسبوع حتى أصبح قرارني معدا للتنفيذ، فرحلت أخيرا عن "سافوا"، حاملا معي مشروعي الموسيقي، وأنا مفعم بالأفكار الرائعة التي ألهمنيها هذا المشروع، كما رحلت من قبل عن "تورين" مصطحبا نافورتي الصغيرة! تلك كانت أخطاء شبابي وعيوبه، سرّدت قصتها بإخلاص صادق يرضي قلبي. وإذا قدر لي -فيما بعد- أن أمجد السنوات التالية من عمري، -سنوات النضج- بأية فضيلة من الفضائل فلن أكون -في ذلك- إلا منتهجا عين الصراحة التي اتبعتها من قبل، فهذه هي نيتي وغايتي! على أنه من الواجب أن أتوقف هنا.. إن الزمن كفيل بأن يدفع كثيرا من الاستار والأحجية. وإذا قدر لمذكراتي أن تنتقل إلى الأجيال المقبلة فقد نفهم هذه الأجيال يوما ما كان ينبغي أن أقول.. وإذا ذاك سيتبين السر في إخلادي إلى الصمت!

الكراة السابعة

سنة ١٧٤١

بعد عامين من الصُمت والصبر اعود إلى القلم بالرغم مما كنت قد اعترزمت . فامسك أيها القارئ حكمك على الأسباب التي تضطرنني إلى ذلك فلن يكون بوسعك أن تحكم إلا بعد أن تقرأ ما أنا قائل!

لقد تبين أن شيايى الوادع مضى ينساب في حياة معتدلة، كثيرة الرفق، دون ما ضائقات بالغة، ولا فترات رخاء عارم.. وكان هذا الاعتدال -إلى حد كبير- نتاج طبيعتي التي جمعت بين التوثب والضعف، ومن ثم فهي أقل اندفاعا إلى الإقدام منها إلى التأثر بالمثبطات.. وإنها لتخرج من تقاعدها بفورات ولكنها لا تلبث أن تعود بتقاعس واستمرء.. كما أنها تحملني دائما -بعيدا عن الفضائل الكبرى، وأكثر بعداً عن الرذائل الكبرى- إلى حياة الخمول والدعة التي كنت أظنني قد خلقت لها، دون أن تتمكنني إطلاقاً من تحقيق أي شيء عظيم، سواء كان طيباً أو خبيثاً!

أما أعظم اختلاف الصورة التي سارسمها عاجلاً.. فإن القدر الذي ظل خلال ثلاثين عاماً يحابي ميولي، راح يُعارضها ثلاثين عاماً أخرى، وسيتجلى كيف أن هذا التعارض المستمر بين مركزي وميولي، قد خلق عيوباً جسيمة، وتعاسات لم يسمع لها مثيل، وكل الفضائل -ماعدا القوة- التي تجعل من البلايا أعمالاً مجيدة!

لقد كُتبت الجزء الأول بأسره من اعترافاتي، من الذاكرة.. ولابد أنني ارتكبت كثيراً من الأخطاء فيه، أما وأنا مضطر إلى كتابة الجزء الثاني من الذاكرة -كذلك- فمن المحتمل أنني سأرتكب مزيداً من الأخطاء!.. فإن الذكريات الناعمة التي تَبَقَّتْ لي عن أعوامي الجميلة التي انقضت في هدوء وبراءة قد تركت ألف أثر فائن أحب أن أسترجعه دون ما توانا.. ولسوف يتجلى عاجلاً مدى اختلاف هذه الأعوام عن بقية عمري. إن استعادة ذكراها لهي لونٌ من المرارة المتجددة. وبدلاً من أن أضاعف مرارات حالي الراهنة بتلك الذكريات الباعثة على الأسى فإنني أقصيها إلى أبعد ما أستطيع، وكثيراً ما أنجح في ذلك إلى درجة أنني لا أقوى على العثور عليها عند الحاجة. وإن هذه المقدرة على نسيان الهموم بسهولة لعزاء أسبغته السماء علي، وسط تلك الهموم التي راق للقدر أن يهيلها يوماً على رأسي. فإن ذاكرتي التي تستعيد بمقدرة فذة ما يستحب من الأمور، هي العامل المرجح السعيد الذي يغالب خيالي الفظيع الذي لا يجعلني أرى سوى القاسي من أحداث المستقبل!

إن كل الأوراق التي جمعتها كي تعينني على التذكر، وكي أهندي بها في هذا المشروع قد انتقلت إلى أيدي أخرى ولن يقدر لها أن تعود إلى يدي.. ومن ثم فلست أملك مرشداً أميناً أستطيع أن اعتمد عليه اللهم إلا واحداً يَتمَثِّلُ في سلسلة الأحاسيس التي كانت تنم عن تتابع نمو كياني وعن الأحداث المتعاقبة التي كانت إما سبباً وإما نتيجة لتلك الأحاسيس والمشارع.. إنني لا أنسى مصائبى بسهولة، ولكنني لا أستطيع أن أنسى أخطائي، كما أنني أقل نسياناً لمشاعري الطيبة؛ فإن ذكراها أعز لدي من أن تمحى عن صفحة قلبي إلى الأبد. ولقد أستطيع أن أحذف شيئاً من الوقائع أو أن أحرفها، وقد أرتكب أخطاء في التواريخ، ولكن من المتعذر أن يختلط علي الأمر -أو أن أخطئ- إزاء ما

حَمَلْتَنِي عَوَاطِفِي عَلَى فَعْلِهِ. وهذا هو الموضوع الرئيسي هنا. فإن الغرض الحقيقي لاعترافي هو أن أكتشف بدقة عن دخيلة نفسي في جميع مواقف حياتي.. فإنني إنما وعدت بأن أروي قصة نفسي. ولكي أكتبها بأمانة لا أراني بحاجة إلى مذكرات أخرى، إذ يكفي أن أعود للغوص في أعماقي، كدأبي حتى الآن!

على أن ثمة فترة تتألف من ست أو سبع سنوات، أملك -لحسن الحظ- مَعْلُومَاتٍ وثيقة عنها، ممثلة في مجموعة منسوخة من خطابات معينة، استقرت النسخ الأصلية لها في حوزة السيد "دي بيسرو". وهذه المجموعة -التي تنتهي في سنة ١٧٦٠- تشمل جميع الفترة التي مكثتها في "الصومعة" -"الأرميتاج"- ونزاعي الكبير مع من كانوا يزعمون أنهم أصدقائي.. وإنها لفترة من حياتي جذيرة بالذكرة؛ فهي منبع كل البلايا الأخرى. أما بالنسبة للخطابات الأصلية الأقرب عهدا، والتي بقيت في حوزتي -وهي قليلة العدد جدا- فإنني لن أنسخها وأضيفها إلى هذه المجموعة التي قدر لها أن تكون أَضْحَمَ من أن أرجو أن أوفق في إخفائها عن عِيُون رُقَبَائِي (١)، وإنما سأسلكها في سياق هذا المؤلف نفسه، عندما يبدو لي أنها كفيلة بأن تلقي أضواء على الوقائع، سواء لصاحي أو ضدي. ذلك أنني لا أخشى قط أن ينسى القارئ أنني أكتب اعترافاتي، وأن يظن أنني أكتب تَقْرِيطًا أو مبررا لما تَحَلَّلَ حياتي.. وإنما يجدر به ألا يتوقع أن أمسك عن ذكر الحقيقة إذا كانت في صفي وصالحي.

وعدا ذلك فليس لهذا القسم الثاني من صفة يشترك فيها مع القسم الأول سوى هذه الحقيقة، وليس له من ميزة عليه إلا بقدر أهمية الأمور التي يتضمنها. وعدا ذلك فلن يخفق هذا القسم في أن يكون مغايرا لسابقه من كافة الاعتبارات (٢). فلقد كتبت الأول بلذة وسرور وارتياح، في "ووتون" أو في قصر "تساري"، وكانت لكل الذكريات التي تَوَارَدَتْ على خاطري مباحج جديدة. ولقد رحت أسترجمها دون انقطاع، وباستمتاع متجدد، فاستطعت أن أراجع وأنقح ما أوردته من أوصاف -دون ما ملل أو ضيق- حتى أصبحت راضيا عنها. أما اليوم، فإن ذاكرتي وعقلي الكليلين يكادان يجعلانني عاجزا عن كل عمل، ولست أَشْغُلُ بهذا القسم إلا مُكْرَهَا، والأسى يعتصر قلبي.. إنه لا يمثل -بالنسبة إلي- سوى مِحَنٍ وَخِيَانَاتٍ وَغَدَرٍ وَذِكْرِيَّاتٍ تَحْزِنُ النَّفْسَ وَتَمْزِقُهَا.. إنني لأنزل للدنيا عن كل شيء كمي أوارى في ليل الزمان ما أنا موشك أن أقوله.. وإنني إذ أضطر إلى الكلام -بالرغم مني- أعمد كذلك إلى الاستخفاء، وإلى التحايل، وإلى محاولة الخداع، وأنحدر إلى تصرفات أنا أبعد الناس عن أن أكون قد خلقت لممارستها!

إن للسقف الذي أوجد تحته عِيُونًا، وللجدران المحيطة بي آذانا. وإنني -إذ يَحْفُ بُي جواسيس وُرقباءُ أشرار ويقظون، وإذ يتوزعني القلق والهَم- لاسطر على الورق في عجلة بضع كلمات مفككة لا أكاد أجد وقتا لمراجعتها. فما بالكم بتصحيحها.. إنني أدرك أن أعدائي لايزالون -برغم الحواجز الهائلة التي تُقام حولي دون انقطاع- في خوف دائم من أن تجد الحقيقة منفذا تتسرب منه. فكيف يتسنى لي أن أدفع بها إلى النور؟.. لسوف أحاول، وأنا قليل الرجاء في النجاح. فمن ذا الذي يقول:

(١) العبارة التي ذكرها "روسو" هي: إخفائها عن أعين "أرجوساتي اليقظة". وأرجوساتي هي جمع "أرجوس" وهو تعبير مجازي. فإن "أرجوس" اسم يطلق في أساطير اليونان على صلاقي ذي مائة عين، أقامته الربة "هيرا" -عندما تولتها الغيرة- ليراقب "هر" معشوقة الإله "زئوس"، التي كانت قد مسخت على شكل بقرة (٢) التعبير الذي أورده "روسو" هو: "لن يخفق في أن يكون أقل شأنا". وهو ما لا أحسبه مقصده. فالواقع أن هذا الجزء من اعترافاته -وهو الذي يشمل الكراسات من ٧ إلى ١٢- يضم أحداثا ومعلومات على قدر كبير من القيمة قد يفوق قدر ما ورد في القسم الأول. ولذا اختار "روسو" هذا الوصف لأنه كان -عندما كتب هذا القسم- ضحية لانفعالات نفسية قاسية. أوحث إليه بأن أعز أصدقائه الذين آووه في إنجلترا -حيث كتب الكراسات الست الأولى- قد تأمروا عليه مع ملك بروسيا، فغادر بلادهم، وظل ينتقل وهو متشكك، لا يكاد يأس إلى استقرار. ومن هنا ندرك سر التشاؤم والأسى والشك والقلق التي تطبع حديثه هذا.

إن في هذا مادة لصور مستحبة، ولإضفاء ألوان جذابة على هذه الصور... إنني لهذا أنذر المقبلين على قراءة هذا، بأن ليس ثمة شيء في سياق هذا الحديث - يستطيع أن يقيهم السأم، اللهم سوى الرغبة في استكمال التعرف على إنسان، وسوى الحب الصادق للحق والصدق!



تركتهموني - في القسم الأول - وأنا راحل محصور إلى "باريس"، مخلقا قلبي في "شارميت"، حيث أقمت آخر قلعة لي في "إسبانيا" (١)، معتزما أن أعود إلى هناك يوما فاطرح عند قدمي "ماما" - إذ تكون قد ارتدت إلى نفسها وسجيتها - ما أكون قد أحرزت من كنوز، ومطمئنا إلى طريقي الموسيقية بوصفها ثروة محققة أكيدة!

وتخلفت بعض الوقت في "ليون" لأزور معارفي، ولأحصل على بعض التوصيات التي أفيد منها في "باريس"، ولأبيع كُتبي الهندسية التي كنت قد حملتها معي، ولقد رحب بي الجميع، فظهر السيد والسيدة "دي مابلي" اغتباطا لرؤيتي، ودعواني للغداء عدة مرات، وتعرفت لديهما بالراهب "دي مابلي"، كما كنت قد تعرفت من قبل بالراهب "دي كونديلاك"، وكان الاثنان قد أقبلا لزيارة شقيقهما. ولقد أعطاني الراهب "دي مابلي" خطابات تقدمه إلى أناس في "باريس"، منها واحد للسيد "دي فونتيل"، وآخر للكونت "دي كايوس". وقد أتاحت لي الرسالتان معرفة شخصيتين لطيفتين جدا، لا سيما السيد الأول الذي لم يكف حتى موته عن أن يؤثّرني بوده، وعن أن يمنحني - في الأحاديث التي كانت تدور في خلواتنا - نصائح كان خليقا بي أن أحسن الاستفادة منها.

وزرت السيد "بورده" الذي كنت قد تعرفت به منذ وقت طويل، والذي كثيرا ما ساعدني بقلب كبير وباعظم سرور صادق. ولقد ألفيته في هذه المناسبة على حالة التي عهدتها. فقد كان هو الذي باع كُتبي، كما أعطاني من لديه - أو حصل لي من الغير - على خطابات توصية طيبة. وزرت السيد وكيل الحكومة، فقد كنت مدينا له بمعرفة السيد "دي بورده"، كما أدين له بالتعرف إلى الدوق "دي ريشيليو"، الذي مرّب "ليون" في ذلك الوقت، فقدمني السيد "بالو" إليه. وقد أحسن السيد "ريشيليو" استقبالي، ودعاني إلى أن أزوره في "باريس" - وهذا ما فعلته عدة مرات - ولكن... دون أن يكون لهذه الشخصية الرفيعة - التي سأتكلم عنها كثيرا فيما بعد - أي نفع لي!

كذلك زرت الموسيقي "دافيد" الذي أولاني عون في ضائقتي في إحدى رحلاتي السابقة، إذ أعارني - أو منحني - قلنسوة وزوجا من الجوارب، لم أردّها إليه قط، ولا هو سألني أن أردّها أبدا، برغم أننا تقابلنا كثيرا منذ ذلك الحين. على أنني لم ألبث أن قدمت إليه - فيما بعد - هدية تعادل تلك الأشياء تقريبا. وبوسعي أن أتحدث عن نفسي بأشياء أفضل من هذا لو أنني كنت بصدد ما كان ينبغي عمله، لا ما عملته فعلا... وهما حالان ليستا سواء لسوء الحظ!

كذلك رأيت النبيل السخّي "بيريشون"، فلم أفتقد سخاءه المعهود، فقد منّحتني عين الهدية التي كان قد قدمها من قبل إلى "برنار" اللطيف إذ دفع أجر مقعدي في عربة البريد السريعة... وزرت الجراح "باريسو"، أحسن وأفضل الناس عملا: كما قابلت عزيزته "جودفروا" التي كان على علاقة مستمرة بها منذ عشر سنوات، والتي كانت كل مؤهلاتها تقريبا تتمثل في لطف الخلق وطيبة القلب، والتي لم يكن في وسع المرء أن يراها لأول مرة دون أن يوليها حسن اهتمامه، ولا أن يفارقها دون ما إشفاق وتأثر، إذ إنها كانت في آخر أطوار السل، الذي لم تلبث أن ماتت به بعد ذلك بقليل. وليس

أقدر على كشف الميول الحقيقية لأي إنسان، من أخلاق أولئك الذين يتعلق بهم (١) .. وقد كان بوسع أي امرئ رأى "جودفروا" اللطيفة أن يدرك شخصية "باريسو" الطيب.

إنني مدين لكل هؤلاء الكرام. ولقد أغفلتهم جميعا - فيما بعد - لا عن جُحود، وبالتأكيد، وإنما نتيجة ذلك الكسل العتيد الذي كثيرا ما يُظهرني مظهر الجاحد .. بينما الواقع أن ذكرى خدماتهم لم تبرح فؤادي قط، كما أن إظهارهم على عرفاني ما كان ليكبديني ما تكبديني الماثرة على ذكره. ولقد كانت المواظبة على التراسل أمرا فوق طاقتي دائما، فإني ما إن أبدأ في الشعور بتكاسلي فيها حتى يحملني الحجل والخيرة في طريقة إصلاح عيبي على مضاعفة هذا العيب، فإذا بي أكف عن الكتابة بالمرّة! ومن ثم فقد لذت بالصمت إزاء هؤلاء حتى بدا أنني نسيتهم. ومع ذلك فإن "باريسسو" و"بيريشون" لم يُلقيا بالا، فكنت أجدهما دائما كما عهدتهما. أما في حالة السيد "بورده"، فلن يلبث أن يتبدى كيف أن الانتقام للشعور بالإهمال، حل - بعد عشرين عاما - محل الحب الصادق والذكاء البديع!

وما ينبغي لي أن أنسى - قبل مبارحة "ليسون" - شخصية لطيفة زرتها في اغتباط لم أشعر قط بمثلها - وقد تركت في فؤادي ذكريات جد رقيقة. تلك هي الآنسة "سيير"، التي تحدثت عنها في القسم الأول (٢)، والتي جددتُ تعارفي بها عندما كنت في دار السيد "دي مايلي". ولما كان لدي متسع من الوقت، - في هذه الرحلة - فقد رأيتها كثيرا، ومال إليها قلبي في وجد قوي. ولدي من الاعتبار ما يحملني على أن أظن أن قلبها لم يكن على النقيض بيد أنها أولتني من الشقة ما بدد كل إغراء بأن أسيء استغلالها. ولم تكن تملك شيئا، ولا كنت أنا أملك أكثر منها، وكان مركزنا جد متشابهين إلى درجة لا تغري بأن نتحد، لا سيما وأنني كنت - بالأراء التي كانت تَمْلِكُنِي - بعيدا كل البعد عن التفكير في الزواج. ولقد أنبأتني بأن تاجرا شابا، - يدعى السيد "جنيف"، - كان يبدو راغبا في أن يرتبط بها. وقد التقيت به عندها مرة أو اثنتين، فترأى لي أنه شاب أمين شريف، وكان معروفا بذلك. وإذا خُيِّل إلي أنها كانت تحبه تمنيت أن يتزوجها - وهو ما فعله فيما بعد - فأسرعت بالرحيل كي لا أعكر صفو عواطفهما البريئة، مُزجيا لسعادة هذه الشابة الفاتنة دعوات لم يقدر لها أن تستجاب على هذه الأرض إلا لأجل قصير .. وأسفاه! .. جد قصيرا .. فقد علمت فيما بعد أنها ماتت بعد عامين أو ثلاثة من زواجها! ولما كنت قد شغلتُ طيلة رحلتي بحسرات عاطفية فقد أحسست - ولا أزال أحس في كثير من الأحيان، كلما فكرت في ذلك - بأنه إذا كانت التضحيات التي يقدم عليها المرء في سبيل الواجب والفضيلة تكبده ثمنا غاليا إلا أنه لا يلبث أن يتلقى الجزاء ممثلا في الذكريات الناعمة التي تخلفها له تلك التضحيات في قرارة فؤاده!

وإذا كنت قد رأيت "باريس" - في رحلتي السابقة - من ناحية لا تجمعها أهلا للإعجاب فإنني رأيت - في هذه الرحلة - جانبها اللامع. على أن هذا لم يكن الشأن بالنسبة لسُكْنَايَ، فقد ذهبت - حسب إرشاد السيد "بورده" - للإقامة في نُزُلٍ "سان كنتان"، بشارع "ديه كورديه"، على مقربة من "السوربون" .. وكان شارعاً وضيعاً، ونزلاً وضيعاً، وحجرة وضيعة .. ومع ذلك فقد اعتاد هذا النزل

(١) أردف "روسو" - في هامش مؤلفه - معلقاً على هذا بقوله: "ألم يكن قد خدع في اختياره من البداية، أو ألم تكن شخصية المرأة التي تعلق بها قد تغيرت - بعد ذلك بتأثير مجموعة من الظروف غير العادية، فإن من المستحيل أن تكون هذه القاعدة مطلقة. ولو أريد إقرار هذه القاعدة دون تعديل لماز الحكم على "سفرط" بشخصية زوجته "كسانثيت"، أو "ديون" بشخصية صديقه "كاليبوس" .. وهذا خليق بأن يكون أبعد الأحكام عن الإصاف، وأكثرها خلافاً. وفوق هذا لا ينبغي أن تطبق هذه القاعدة هنا على زوجتي تطبيقاً يسميها إلهي. فهي بالتأكيد أضيق عقلاً وأسهل تسباقاً للخداع مما كنت أمتصو، ولكنها ذات خلق طاهر، راجع، خال من أي خبث، جدير بكل تقديري، وهذا ما سيظل يحظى به ما حبيت". (٢) الكرسيه الرابعة. وقد كتب لها "روسو" يوماً روع خطاب غرامي في كل مخلفاته الأدبية!

ان باوي رجالا محترمين، من أمثال "جرميسيه"، و"بورڊ"، والراهبين الشقيقتين "دي مابلي"، و"كونڊيللاك"، وكثيرين غيرهم - وإن لم أعثر فيه، لسوء الحظ، علي واحد منهم - غير أنني التقيت بشاب يدعى السيد "دي يونسفون"، كان ريفيا أعرج، محاميا، يحرص على انتقاء ألفاظه. وقد تعرفت عن طريقه إلى السيد "روجان" الذي أصبح الآن أقدم أصدقائي. وعن طريقه تعرفت إلى الفيلسوف "ديديرو"، الذي ساكتر من الحديث عنه فيما بعد.



ولقد وصلتُ إلى "باريس" في خريف سنة ١٧٤١، وكل مواردِي خمسة عشر "لسوي"، ومسرحيتي الهزلية "فارسيس"، ومشروعي الموسيقي. ولما لم يكن لدي وقتٌ أضيعه في محاولة تدبير إنفاقها على خير وجه، فقد أسرعْتُ إلى استغلال خطابات التوصية التي كنت أحملها. وأي شاب يصل إلى "باريس" مزودا بِشكّل وسيم، ومعلنا عن نفسه بمواهبه قمينٌ بأن يتأكد دائما من أنه سيجد ترحيبا. وقد كنت كذلك، فمكنتني هذا من أن أحظى بنعم كثيرة، وإن كانت لم تساعدني ماديا بدرجة تذكر. ومن كافة الأشخاص الذين حملت إليهم التوصيات لم يثبت سوى ثلاثة أنهم نافعون لي، وهم: السيد "داميسان" - وكان سيدا من "سافوا"، كان إذ ذاك من الفرسان، وأحسبُه كان ذا حظوة لدى الأميرة "دي كارينيان" ثم السيد "دي بوز"، سكرتير ديوان الخطوط وحارس الأوسمة بديوان الملك.. وأخيرا الأب "كاستيل" الجيزويتي، مخترع "الكلافيسان" (١) البصري. وكانت خطابات التوصية للآخرين منهم صادرة من الراهب "دي مابلي".

ولقد تكفل السيد "داميسان" بما كانت تمس إليهِ حاجتي إذ عرفني إلى اثنين، أحدهما: السيد "دي جاسك"، رئيس برلمان "بورڊو" (٢)، الذي كان يَحذُق العزف على الكمان حذقا بالغا.. وثانيهما: الراهب "دي ليون"، الذي كان يقيم إذ ذاك في السوربون، وكان راهبا شابا، موقر اللطف، مات في زهرة عمره، بعد أن تألّق في المجتمع لبضع سنوات تحت اسم "الشفاليه روهان" (٣). وكان كل منهما مشغوبا بتعلم التلحين، فرحت أدرسه لهما بضعة أشهر، مما أتمش مواردِي المالية الناضبة. ولقد أولاني الأب "ليون" وده، ورغب في أن يتخذني سكرتيرا له، ولكنه لم يكن غنيا، فلم يكن بوسعه أن يدفع لي مرتبا يتجاوز ثمانمائة فرنك.. فرفضت منصبه وأنا آسف، إذ لم يكن مرتبه يكفي لنفقات سكنائي وتغذيتي ومستلزمات معيشتي.

أما السيد "بوز"، فقد استقبلني استقبالا طيبا جدا. وكان عالما، ومشغوبا بالمعرفة ولكنه كان متغطرسا بعض الشيء. وكانت السيدة "دي بوز" حليقة بان تكون ابنته، لا زوجته! وكانت لأمعة الذكاء ذات مهابة. وقد تناولت الغداء في دارهما بضع مرات، وما كان أحد ليشعر بمثل ما كنت أشعر به من خجل وارتباك في محضرها، فقد كان مسلّكها غير المتكلف يُحرّجني ويجعل مسلّكي ادعى إلى الضحك.. فإذا قدمت لي طبقا كنت أدفع "شوكتي" فالتقط - في تواضع - قطعة صغيرة مما

(١) الكلافيسان آلة موسيقية، و"الكلافيسان البصري" آلة ذات مفاتيح تتصل - إلى جانب الأوتار - بمحركات ملونة. فإذا عزف عليها - كما يعزف على الآلة الموسيقية - تلبعت الألوان تنابيع الأنغام، بحيث تتمشى الألوان الأساسية السبعة الأولى، مع الأنغام السبعة الأولى في الموسيقى. وكانت غاية المهترع، أن يحدث المؤثرات النغمية بالألوان! (٢) في الأصل: الرئيس ذو القلنسوة المحفنية السوداء المستديرة! (٣) بحثنا عن سيرة الشفاليه دي روهان، فلم نجد من يحمل لقب "شفاليه" - أي فارس - وينطبق عليه ما ذكره "روسو" من التالّق وقصر العمر، سوى "الشفاليه لويس دي روهان"، الذي اشترك في مؤامرة ضد الملك لويس الرابع عشر، وأعدم. ولكن هذا عاش بين سنتي ١٦٣٥ و١٦٧٤، أي قبل مولد "روسو". و"روهان" الوحيد الذي عاصره "روسو" هو الأمير إدوار دي روهان - الذي عاش بين سنتي ١٧٣٤ و١٨٠٣ - وكان كاردينالا، ولكنه لم يكن "شفاليه". ولعل الأمر ليس على "روسو".

تقدمه لي، بطريقة كانت تجعلها ترد إلى خادمها الطبق الذي كانت قد أعدته لي، وهي تدير وجهها لكي لا أراها وهي تضحك... ومع ذلك، فما كان يُساورها أي ريب في صلاحية رأس هذا الريفي الشاب، ولم يفتُها أن ترى فيه بعض الذكاء. ولقد قدمني السيد "دي بوز" إلى صديقه السيد "دي ريومور"، الذي اعتاد أن يحضر إلى داره لتناول الغداء في أيام الجمعة، وهي أيام انعقاد اجتماعات محفل العلوم. ولقد حدثه السيد "دي بوز" عن مشروعي، وعن الرغبة التي كانت لدي في أن أضعه تحت اختيار المحفل، فَنَكَّفَلَ السيد "دي ريومور" بالاقتراح، فلم يَلَبَّثْ أن حظي بالقبول!

وفي اليوم المحدد لمناقشة المشروع تولى السيد "دي ريومور" تقديمي والتعريف بي. وفي اليوم ذاته - ٢٢ آب (أغسطس) سنة ١٧٤٢ - تشرفت بأن قرأت على المحفل المذكرة التي أعدتها لذلك. ومع أن هذا المحفل الجليل كان عظيم المهابة والرهبة - يقينا - فإنني كنت أمامه أقل ارتباكاً مني أمام السيدة "دي بوز"، واستطعت أن أؤدي القراءة وأن أجيب عن الأسئلة بنجاح. فاستقبلت الرسالة بتقدير، وجلبت لي التهاني، مما أدهشني أكثر مما سُرَّني.. فما كنت لاتصور أن أي امرئ لا ينتمي إلى المحفل - أي كان - يبدو لأعضائه ذا إدراك سليم! وكانت اللجنة التي تولت مناقشتي تتكون من السادة دي "ميران"، و"هيلو"، و"دي فوشي". وكان ثلاثتهم من الأكفاء دون ما ريب.. ولكن لم يكن بينهم واحد يلم بالموسيقى إلّما كافياً - على الأقل - لأن يجعله في وضع يمكنه من الحكم على مشروعي!

سنة ١٧٤٢

وفي خلال مناقشاتني مع هؤلاء السادة تبينت - في شك أكثر مني في دهشة - أن العلماء وإن كانوا أقل من سواهم تحاملاً، في بعض الأحيان، إلا أنهم أكثر تشبُّهاً بما يكون لديهم من آراء، وكأنهم يجدون في ذلك لونا من التعويض. فيقدر ما كانت معارضة هؤلاء السادة واهية، وخاطئة في الغالب، ومع أنني كنت أردّها بحجج قاطعة - برغم تهبيبي، كما ينبغي أن اعترف، وبرغم سوء تعبيري - إلا أنني لم أوفق مرة واحدة إلى أن أحملهم على أن يفهموا قولي وأن يقتنعوا به. وكنت أُنْهَيْتُ دائماً للسهولة التي كانوا يخطئونني بها - مستخدمين في ذلك بعض العبارات الرنانة - دون أن يكونوا قد فهموا شيئاً.. ولقد اُكْتُشِفُوا - حيث لا أدري - أن راهبا يدعى الاب "سوهيتي"، كان قد تصوّر فكرة كتابة السلم الموسيقي بالأرقام. وكان هذا كافياً لأن يَزْعُمُوا أن طريقتي لم تكن جديدة. وقد يكون الأمر كذلك، إذ إنني وإن لم أسمع قط بالاب "سوهيتي"، ومع أن طريقته في كتابة النغمات الرئيسية السبع في الترانيم الكنسية دون أي تفكير في الشمانيات، لا تستحق - في أي اعتبار - أن تقاس بابتكاري البسيط الملائم لكتابة جميع أنواع الموسيقى الممكن تصورها، في غير مشقة، بوساطة الأرقام: من طبقات، ووقفات، وثمانيات، ومسافات وتوقيت، وتقييم.. وكلها أشياء لم تخطر لـ "سوهيتي" ببال إطلاقاً.. بالرغم من كل هذا، فقد كان من الصحيح تماماً أن يُقال إنه - فيما يتعلق بالتعبير الأولي عن النغمات الرئيسية السبع - كان أول مبتكر في هذا المضمار. ولكنهم (١) لم يَكْتَفُوا بأن يُعْزُوا إلى هذا الابتكار البدائي أهمية أكثر مما كان يستحقها، وإنما أبوا أن يقفوا عند هذا، وبمجرد أن حاولوا أن يتكلموا عن المبادئ الأساسية للطريقة لم يقولوا سوى لغو.

كانت الميزة الكبرى لطريقتي، هي الاستغناء عن التبديل والطبقات، بحيث يمكن كتابة أية قطعة

ونقلها حسب الرغبة، ومهما تكن الطبقة المنشودة، بوساطة التبديل المقترح في حرف ابتدائي واحد عند بداية اللحن. ولكن هؤلاء السادة كانوا قد سمعوا بعض مدعي الموسيقى في باريس يقولون: إن طريقة العزف بتبديل الطبقات غير ذات قيمة. ومن هنا، قلبوا أبرز ميزات طريقتي إلى اعتراض ضدها يتعذر التغلب عليه، وانتهوا إلى تقرير أن طريقتي صالحة للاداء الصوتي، وغير صالحة للاداء الآلي، بدلا من أن يقرروا - كما كان ينبغي - أنها صالحة للاداء الصوتي، وأكثر صلاحية للاداء الآلي. وبناء على تقريرهم، منحتني المحفل شهادة مليئة بالإطراء البديع للغاية، يتبدى خلال سطورها أنه - في الواقع - لم ير أن طريقتي جديدة ولا نافعة... ولم أشعر قط بأن من الواجب أن أزين بمثل هذه الوثيقة مؤلفي الذي سميت "رسالة في الموسيقى الحديثة"، ولجات فيه إلى تحكيم الرأي العام!

ومن حقي - في هذه المناسبة - أن ألفت النظر إلى أن المعرفة الممتازة بالشيء - على شريطة أن تكون شاملة عميقة - أفضل من كائنة الأضواء التي تلقىها الثقافة والعلوم، في تمكين المرء من إصابة الحكم، إذا لم تكن هذه الأضواء مقترنة بدراسة خاصة للموضوع المعروض على بساط البحث. وكان الاعتراض القوي الوحيد الذي وجه إلى طريقتي موجه من "رامو". وما إن شرحت له ردي حتى تبين ضعفه، فقال: "إن علاماتك صالحة جدا، من حيث إنها تحدد القيم الموسيقية ببساطة ووضوح، كما أنها تعين المسافات بدقة، وتبين دائما النغم المفرد في حالة ازدواج النغم، وهي أمور لا تيسرها طريقة النوتة العادية... ولكن علاماتك غير صالحة من حيث إنها تتطلب جهدا ذهنيا لا يتناسب دائما مع سرعة الاداء". واستطرد قائلا: "إن وضع علامتنا الموسيقية يتجلى للعين دون حاجة إلى الاستعانة بهذا الجهد الذهني. فإذا ارتبط نغمان - أحدهما مرتفع جدا، والآخر منخفض جدا - بسلسلة من الأنغام الوسيطة فإن بوسعي أن أرى - من أول نظرة - التطرق التدريجي من أحد النغمين إلى الآخر... أما حسب طريقتك فلا بد لي - للتأكد من هذا التسلسل - من أن أورد كل أرقامك متعاقبة - الواحد بعد الآخر؛ ومن ثم فإن النظرة الشاملة لا تمدك بشيء!"

ولاح لي أنه اعتراض مُفحِمٌ فافترت لتوي بقوته، في حين أنه بسيط ومدهش... فهو اعتراض لا تُوحى به سوى الخبرة الواسعة بالفن؛ ومن ثم فلا عجب في أنه لم يخطر ببال أحد من أعضاء المحفل، ولكن هذه هي حال هؤلاء العلماء الكبار جميعا، فهم يعرفون كل الأشياء، بيد أن إلمامهم بكل شيء - على حدة - قليل، بحيث لا ينبغي للواحد منهم أن يقضي برأي إلا فيما يتعلق بالفرع الذي اختصه بدراسته!

وقد أتاحت لي زيارتي المتعددة لأعضاء لجنة مناقشة رسالتي، ولغيرهم من أعضاء المحفل فرص التعرف إلى جميع أولئك الذين كانوا في طليعة المبرزين في ميدان الأدب في "باريس" ومن ثم فإنني كنت على معرفة قائمة بهم عندما وجدتني - فيما بعد - مدرجا بفتة في سلكهم. أما في الفترة التي أتحدث عنها فقد كنت - لفرط استغراقي في طريقتي الموسيقية - مصرا على أن أحدث بها انقلابا في هذا الفن، وأن أحرز بهذا شهرة ترتبط دائما في ميادين الفن الجميل - في "باريس" - بالثناء... ولهذا احتسبت نفسي في غرفتي وعكفت على العمل شهرين أو ثلاثة في حمية لا سبيل إلى وصفها، لأشرح - في مؤلف أقدمه للرأي العام - المذكرة التي قرأتها على المحفل. وكانت العقبة تتمثل في العثور على ناشر يتكفل بمؤلفي نظرا لأن الرموز الجديدة كانت تتطلب بعض نفقات، في حين أن الناشرين لا يبيعون دراهمهم على رؤوس المبتدئين، مع أنني كنت أرى أن من الإنصاف أن يعود علي مؤلفي بالخيز الذي التهمته وأنا أكتبه!

وعشر لي "بونفون" على "كابو" -الاب- الذي عَقَدَ معي اتفاقا على أن نقسم الربح، بغض النظر عن "الامتياز" (١) الذي كان علي أن أتكفل بدفع نفقاته وحدي. وقد أساء "كابو" -المذكور- تدبير الامر، بحيث إن النفود التي دفعتها لأحصل على الامتياز ذهبت ادراج الرياح، ولم أخرج ب درهم واحد من هذه الطبعة، التي كانت -في الواقع- ضئيلة الرواج، بالرغم من أن الراهب "ديفونتين" وعد بالعمل على ترويجها، كما أن غيرة من الصحفيين تحدثوا عنها حديثا طيبا!

ولقد كانت العقبة الكبرى في تجربة طريقتي، هي أن أحدا لم يكن ليرضى بأن يُضَيَّع الوقت الذي يتطلبه تعلمها، إذا هي لم تصبح الطريقة السائدة في الموسيقى. وقد قلت ردا على ذلك: إن المران على أسلوب في العلاقات الموسيقية يجعل الافكار من الواضح بحيث إن الذي يشرع في تعلم العلامات الموسيقية العادية، يستطيع أن يقتصد من الوقت الذي يسرفه تعلمها، إذا هو بدأ بطريقتي. وإقامة الدليل العملي، قدمت دروسا فيها -بالبحان- لشابة أمريكية تدعى الآنسة "دي رولان"، كان السيد "روجان" قد عرفني بها. فإذا بها تُصَيِّحُ -خلال ثلاثة أشهر- قادرة على أن تقرأ على "نوتتي" أي نوع من الموسيقى، وأن تُغني بمجرد النظر إلى "النوتة" -بإتقان يفوق إتقاني أنا- كل قطعة غير بالغة الصعوبة. وكان هذا التوفيق رائعا، ولكنه ظل مجهولا. فقد كان أي امرئ سواي خليقا بأن يملأ الصحف به، أما أنا، فبالرغم من أنني أوتيت المقدرة على اكتشاف الأشياء المفيدة، إلا أنني لم أعمد قط إلى إبراز قيمتها!

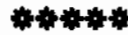
وهكذا تَحَطَّمت "نافورتي الصغيرة" مرة أخرى (٢). ولكنني في هذه المرة الثانية، كنت في الثلاثين من عمري، وكنت قد وَجَدْتُ نفسي في طرق "باريس" المعقدة، حيث لا يستطيع المرء أن يعيش بلا مَوَارِدَ. ولن يدهش القرار الذي انتهى بي إلى هذه النهاية سوى أولئك الذين لم يقرءوا بإمعان الجزء الأول من هذه المذكرات!.. ذلك أنني كنت قد بذلت مجهودا كبيرا، وإن لم يكن مثمرا، فكنت بحاجة إلى استجمام. وبدلا من أن استسلم للقنوط أسلمت نفسي لحمولي المجهود، وللعباية الإلهية، ولكي أوع لهذه العناية وقتا كي تقوم فيه بدورها، فقد أقبلت على إنفاق بضع قطع مالية من فقة "لوي" -كانت قد بقيت معي- في غير ما تعجل!.. ودَبَّرْتُ نَفَقَاتُ مُتَعِي البريئة بحيث لا أتخلى عنها، فلم أأخذ أذهب إلى المقهى سوى مرة في كل يومين، وإلى المسرح مرتين في الأسبوع. أما النفقات اللازمة لصحية الفتيات فإنني لم أكن بحاجة إلى الحد منها؛ لأنني لم أنفق "سو" واحد على هذه الناحية، في حياتي، اللهم إلا في مناسبة واحدة.

ولقد كانت السكينة، واللذة، والثقة التي استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة - بالرغم من أنني لم أكن أمتلك موارد تمكنني من أن أستمرف فيها ثلاثة أشهر - من الصفات الغدّة في حياتي، ومن الظواهر العجيبة في طياعي!.. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بي، هي عين الشيء الذي جردني من الجراءة على أن أظهر بين الناس.. كما أن الضرورة التي كانت تدعوني إلى زيارة الناس، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه، حتى إنني كُفِفْتُ عن زيارة أعضاء المخفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب، الذين قد تعرفت إليهم. وأصبح "ماريفو" والراهب دي "مابلي" و"فونتينيل" هم الوحيدون - تقريبا - الذين ظللت أزور دورهم في بعض الأحيان. كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتي الهزلية "فارسيس" فراقته، وتكرّم بأن أدخل عليها بعض التنقيح!.. وكان "ديسندرو" يصفرهم كثيرا في السن، فقد كان يقاريني عمرا. وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتنا، ومن ثم فإننا كنا نتحدث

(١) نظام يقابل "حق النشر" بقصر حق طبع كتاب معين، على مؤلف أو ناشر معين. (٢) يشبه "روسو" مشروعه الموسيقي، بالنافورة الصغيرة التي بنى عليها آمالا عندما بارح "تورين"، والتي أورد قصتها في الكرامة الثالثة.

عنها، كما أنه كان يحدثني عن مشروعاته الأدبية، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوي دامت خمس عشرة سنة، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول، لو أنني لم أدفع دفعا - لسوء الحظ - إلى مهنته ذاتها.. وكان هو صاحب الذنب في ذلك!

ولن يمكن تصور الطريقة التي استغللت فيها هذه الفترة القصيرة، الثمينة، التي سبقت اضطرابي إلى أن أتسول قوتي... فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها. واعتدت أن أتحمس كل صباح - في حوالي الساعة العاشرة - في حدائق "لوكسمبورج"، حاملا "فيرجيل" أو "روسو" في جيبي (١)، وأروح أردد في ذهني - حتى موعد الغداء - أحد الأناشيد القدسية، أو أحد أناشيد الرعاة، دون أن يثبط من عزيمتي أنني كنت واثقا بأنني لن ألبث - إذ أردد الجزء الذي اخترته ليومي - أن أنسى الجزء الذي حفظته بالأمس... وتذكرت أن الأسرى الإثنيين - بعد هزيمة "نيسياس" في "ميراكيوز" - (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار "هوميروس". ولقد كان الدرس الذي استخلصته من هذه، كي أعد نفسي للفاقة، هو أن أروض ذاكرتي البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب!



وكانت لدي طريقة مبتكرة مكينة أخرى في الشطرنج، الذي كنت أكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر - من الأيام التي لم أكن أذهب فيها إلى المسرح - في مقهى "موجي". وقد تعرفت هناك إلى السيد دي "فيليدور"، وإلى جميع لاعبي الشطرنج الكبار في ذلك العهد، دون أن أحرز مزيدا من التقدم في اللعب. على أنني لم أكن أرتاب في أنني لن ألبث أن أعقدوا في النهاية أقوى منهم جميعا، وكان هذا - في رأيي - كافيا لأن يمدني بمورد للعيش. وكنت كلما استهوتني فكرة طائشة جديدة، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائما.. كنت أقول لنفسني: "إن الذي يبرز في شيء، يطمئن دائما إلى أنه منشود. فلنبرز إذن في أي شيء، وإذا ذاك أعقدو مرغوبا.. إن الفرص سانحة، وعلى كفاءتي يتوقف ما بقي من الأمر!.. ولم يكن هذا التفكير الصباني وليد سفسطي، وإنما كان نتاج كسلي. فقد كنت في جزعي من الجهود الضخمة السريعة التي كانت خليقة بأن ترهقني، أسمى إلى أن أزين كسلي لنفسني، وإلى أن أداري خجلي من نفسي بحجج ملائمة!

وهكذا مكث ساكنا إلى أن انتهت نفودي. واعتقد أنني كنت على استعداد لأن أقبع حتى آخر "سو" لدي، دون أي قلق، لو لم يوقظني الأب "كاستيل" - الذي كنت أذهب لزيارته أحيانا، وأنا في طريقي إلى المقهى - من سيأتي. ولقد كان الأب "كاستيل" مخبولا، ولكنه كان - برغم هذا - رجلا طيبا. وقد غاظه أن رأيي أبعد وقتي وإمكاناتي بهذا الشكل، دون أن أفعل شيئا. فقال لي: "مادام الموسيقيون، ومادام العلماء، يابون أن يغنوا بطريقتك، فعدل من أوتارك، وجرب النساء، ولعلك تكون - في هذه الناحية - أكثر توفيقا!...

لقد تحدثت عنك إلى السيدة دي "بوزينفال"، فاذهب لزيارتها، واذكر أنك قادم من لدني!.. إنها امرأة طيبة، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنتها (٣) ولسوف تلتقي في دارها بابنتها السيدة دي "بروجلي"، وهي امرأة ذكية.. وهناك السيدة "دوبان"، وهي الأخرى ممن حدثتهن

(١) يقصد ديواني الشاعرين "فيرجيل" و"جان باتيست روسو". (٢) كان "نيسياس" من أشهر القادة الإغريق الذين برزوا في حروب البالوبونيز، وقد هزم وهلك في حملة "صقلية" في سنة ٤١٣ قبل الميلاد. (٣) كانت الباورنة دي "بوزينفال" بولندية متزوجة من فرنسي.

عنك، فاحمل إليها مؤلفك، لأنها تتوق إلى رؤيته، وسوف تحسن استقبالك... إن المرء لا يستطيع أن يبرم عملا في "باريس" إلا بوساطة النساء، فهن كالمحننيات، التي يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها... فالفريقان يتقاربان باستمرار، ولكنهما لا يتماسان أبداً!

ويعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر، استجمعت أخيراً شجاعتي، وذهبت لزيارة السيدة "بوزينفال"، فأكربت وفادتي، وإذ دخلت السيدة دي "بروجلي" الغرفة، بادرته قائلة: "ها هو ذا، يابنتي، السيد "روسو" الذي حدثنا عنه الأب "كاستيل"؟" فاطرت السيدة دي "بروجلي" مؤلفي، وقادتني إلى معزفها، لتريني أنها كانت معنية به. ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة، فاردت الانصراف، غير أن السيدة دي "بوزينفال" قالت لي: "إنك على مسافة بعيدة من مسكنك، فامكث، وتناول غداءك هنا". ولم أكن بحاجة إلى إلحاح... وبعد ربع ساعة، أدركت أن المائدة التي دعنتي إليها كانت مائدة الخدم!... فقد كانت السيدة دي "بوزينفال" طيبة، ولكنها كانت ضيقة الأفق، شديدة الاعتداد بعراقه أصلها البولندي، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام الواجب للمواهب. وقد حكمت علي - في هذه المناسبة - بمسلكي أكثر منها بملبسي الذي كان - برغم بساطته المتناهية - لائقا كل اللياقة، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم... لاسيما وأنني كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخدم من زمن طويل، ولم أكن راغباً في أن اتعلمها من جديد (٢)...

وقلت للسيدة دي "بوزينفال" - دون أن أبدي غضبي - إنني تذكرت أنه لا بد لي من العودة إلى مسكني لمهمة بسيطة. فاقتربت مدام دي "بروجلي" من أمها، وهمست في أذنها بضع كلمات كان لها تأثير سريع، إذ نهضت مدام دي "بوزينفال" لتستقبلي قائلة: "إنني أقصد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء... معنا". ورايت أن التثبث بالكرامة عمل أخرق، فمكثت. وإلى جانب ذلك، كان لطف السيدة "بروجلي" قد ملك قلبي، وجعلني أرتاح إليها، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها. وداخلني الأمل في أنها لن تندم - إذا ما عرفتني جيداً - على أنها أولتني هذا الكرم. ولقد تناول الغداء هناك أيضاً، السيد رئيس "لاموانيون"، وهو من أعظم أصدقاء الأسرة، وكان - كالسيدة دي "بروجلي" - يالف اللهجة الباريسية الموزجة، التي تتألف من كلمات صغيرة، كلها كنايةات بسيطة رفيعة... ولم يكن لـ "جان چاك" البائس مجال للتألق في هذا المضمار!... وكنت من حسن الإدراك بحيث إنني لم أشأ أن أتظرف بالرغم من "منيرفا" (٣)، فامسكت لساني!... ما كان أسعدني لو أنني كنت دائماً بهذه الحكمة؟... لقد كنت بهذا جديراً بالآأتردى في الدرك الذي أجدني اليوم فيه!

ولقد استأثرت لما بدوت عليه من ثقل الفهم، ولعجزني عن أن أبرر - في نظر السيدة دي "بروجلي" - ما فعلته هي من أجلي.

لذلك لجأت - بعد الغداء - إلى موردي المعهود. فقد كانت في جيبتي رسالة شعرية، كتبها إلى "بريسو" أثناء مقامي في "ليون"، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة، فعمدت إلى قراءتها، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء. ولقد خيل إلي - سواء عن غرور، أو عن صدق في تأويلاتي - أنني رأيت عيني السيدة دي "بروجلي" تقولان بنظراتها لامها: "ما رأيك يا ماما؟!.."

(١) الخط التقاربي - أو التقريبي - في الهندسة، هو خط مستقيم يطابق المنحنى تطابقاً لا نهائياً... أي أنهما يتقاربان دائماً دون أن يتماسا!

(٢) يعني "روسو" أنه كان قد نسي معايشة الخدم وارتفع فوق مستواهم ولعلنا نذكر - مما جاء في الجزء الأول - أنه عمل خادماً فترة من الزمن.

(٣) "منيرفا" ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان. ويشير "روسو" بهذا التعبير إلى أنه لم يشأ أن يدعي ما كان بعيداً عن أن يسمفه فيه ذكاءه.

افكنت على خطأ إذ قلت لك : إن هذا الرجل كان أكثر جدارة بأن يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك؟ .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب، ولكنني شعرت بالرضا بعد أن ثارت لنفسي على هذا النحو. ولقد تبادت السيدة دي "بروجلي" قليلا في الرأي الطيب الذي داخلها نحوي، معتقدة أنني لن ألبث أن أثير ضجة في "باريس"، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء. ولكي ترشدني في هذا المجال الذي كنت غير خبير به، أعطتني "مذكرات الكونت..."، قائلة: "إن هذا الكتاب مرشد ستحتاج إليه في المجتمع، وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر".

ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما، بهذه النسخة، معترفا بفضل اليد التي جاءني عن طريقها، وإن كنت كثيرا ما أضحك للرأي الذي لاح أن هذه السيدة قد ارتأت عن مؤهلاتي للظرف والملاطفة.. ومنذ اللحظة التي طالعت فيها هذا الكتاب، رغبت في أن أخطب ود صاحبه. وقد حققت الأحداث هذه الرغبة، فإذا هو الصديق الصادق الوحيد لي بين رجال الأدب (١).

وجرؤت - منذ ذلك الحين - على أن أطمئن إلى أن السيدة البارونة دي "بورينفال"، والسيدة المركيزة دي "بروجلي" - وقد اهتمتا بأمرى - لن تدعاني طويلا بلا مصدر للعيش. ولم أخطئ الحدى!.. فلنتكلم الآن عن دخولي دار السيدة "دوبان"، الذي كانت عواقبه أطول مدى وأجلا!



كانت السيدة "دوبان" - كما هو معروف - ابنة "صمويل برنار"، والسيدة "فونتين" .. وكنت ثلاث أخوات، من الممكن أن يدعين بالحسان الثلاث: السيدة "ديلا توش" - التي فرت إلى "إنجلترا" مع دوق "كينجستون" - والسيدة "دارني"، عشيقة السيد الأمير دي "كونتي"، بل - بالأحرى - صديقتها، الصديقة الوحيدة المخلصة، وكانت امرأة جديرة بأن تعشق؛ للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الذي لم يكن يفارق طباعها.. وأخيرا، السيدة "دوبان"، أجمل الثلاث، والوحيدة منهن التي لم يكن ثمة عوج يعاب عليها في مسلكها!.. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد "دوبان"، إذ إن أمها منحتة إياها، مع منصب "الملتزم العام" (٢) وثروة ضخمة، عرفانا لحسن حفاوته بها في إقليمه!

وكانت - عندما رأيتها لأول مرة - لا تزال من أجمل نساء "باريس". وقد استقبلتني في غرفة زينتها، وكانت ذراعها عاريتين، وشعرها مهوشا، وثوبها مهذلا.. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جذيدا علي، فلم يحتمله رأسي البائس، واضطربت، وارتبكت.. وموجز القول أنني شغفت هوى بدمام "دوبان"!

ولم يلح أن اضطرابي قد أحدث أثرا سيئا، إذا إنها لم تبتد ما ينم عن أنها لاحظته. وفي استقبالها للكتاب ومؤلفه، راحت تحدثني عن مشروعي الحديث الملمة به.. وغنت، وصاحبت غنائها بالعزف، واستبقتني للغداء، وأجلستني إلى جانبها حول المائدة. وما كان يدبر رأسي أكثر من هذا، فإذا بي أغدو مجنوننا بها!.. وسمحت لي بأن أتردد عليها، فاستغللت - بل أسأت استغلال - هذا السماح، إذ أصبحت أذهب إلى دارها في كافة الأيام تقريبا، وأتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبي، ولكنني لم أجسر على ذلك، فقد ضاعفت من خجلي

(١) عقب "روسو" - في هامش مذكراته - على هذا بقوله: "هكذا ظلت أعتمد طويلا، وعن اقتناع راسخ، حتى إنني عهدت إليه - منذ عودتي إلى "باريس" - باعترافاتي. إذ إن "جان جاك" الحذر المستريب، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخذاع، إلا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما". (٢) الملتزم العام: هو الموكل بتحصيل الضرائب.

الطبيعي عدة أسباب .. كان دخول أي بيت من بيوت الأثرياء المرفهين، بمثابة باب مفتوح للحفظ، فلم أشأ - في موقعي إذ ذاك - أن أتعرض لإغلاق هذا الباب. ثم إن السيدة "دوبان" كانت - برغم لطفها - رصينة وباردة، فلم أجد في مسلكها شيئا مشجعا يثير جرأتي. وكانت دارها متألقة كآية دار أخرى في "باريس"، في ذلك الحين، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشيء؛ لكي تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم. فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين: من عظماء، وأدباء، ونساء جميلات .. وما كان ليبرى عندها سوى الدوقات، والسفراء، وذوي الأشرطة الزرقاء (١) .. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دي "روهان"، والسيدة الكونتيسة دي "فوركالكييه"، والسيدة دي "ميربوا"، والسيدة دي "برينوليه"، والليدي "هيرفي"، بين صديقاتها ..

كما أن السيد دي "فونتيل"، والراهب دي "سان بيير"، والراهب "سالييه"، والسيد دي "فورمو"، والسيد "دي بيرني"، والسيد دي "بوفون"، والسيد دي "فولتير"، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها. وبما أن مسلكها المتحفظ لم يجذب إليها عددا كبيرا من الشباب، فقد كانت الجماعة التي اعتادت الاجتماع في دارها، صفوة مختارة وبالتالي أكثر وقارا .. وما كان لـ "جان چاك" البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتالق كثيرا وسط كل هؤلاء؛ لذلك فإنني لم أجسر على أن أفضي للسيدة بعواطفني، ولكني لم أعد أطيق صمتا، فجزوت على الكتابة. وقد احتفظت بالخطاب يومين، دون أن تذكر لي شيئا عنه. وفي اليوم الثالث، ردت مع بضع كلمات تائب، ولكن الكلمات ماتت على شفتي، وخبا وجدي الفجائي مع أملي. وبعد هذا الإعلان الكتابي لحيي، واصلت العيش بقربها كذي قبل، دون أن أحدثها عن شيء من عواطفني، ولو بنظرات عيني!

ولقد ظننت أن حماقتي أصبحت منسية، ولكنني كنت مخطئا .. وكان السيد دي "فرانكويي"، نجل السيد "دوبان"، وابن زوج السيدة "دوبان" (٢)، يقارب السيدة في السن، ويقاريني. وكان لأمع الذكاء، مليح الهيئة، يحسن الظهور بمظاهر العظمة. ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة "دوبان"، لاشيء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة، ولكنها ضافية اللطف، وعاشت معهما في وئام تام، وكان السيد دي "فرانكويي" يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها، ومن ثم فإن الموسيقى - التي كان يلعب بها إماما عظيما - كانت وسيلة ورباطا بيننا؛ ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرا، فتعلقت به.

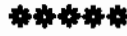
وقد أوعز إليّ - فجأة - بأن السيدة "دوبان" أصبحت ترى أن زيارتي أكثر مما كان ينبغي، ورجاني أن أكف عنها ..! ولعل هذه الإشارة كانت في محلها، لو أنها صدرت عندما أعادت السيدة الخطاب إليّ. أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام - أو عشرة - ودون أي سبب آخر، فقد لاحظت لي غير ذات موضوع. وبما زاد الموقف غرابة، أن هذا لم يضعف الحفاوة - التي كنت أقابل بها في دار السيد والسيدة دي "فرانكويي" - عن ذي قبل! على أنني خفت من تردد عليهما، وكنت موشكا أن أقطع زيارتي تماما، لولا أن السيدة "دوبان" - مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها - سألتني أن أعنى، لثمانية أيام أو عشرة، بابنها الذي كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريشما يصل المربي الجديد.

ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية في عذاب، لم يكن ليحمله احتملا سوى لذة إرضاء السيدة "دوبان" ..! إذ كان "شينونسو" المسكين (٣) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزي على الأسرة،

(١) لقب يطلق على فرسان الطيف المقدس. على أن من المحتمل أن يكون "روسو" قد استعمله هنا بمعنى: المبرزين من القوم. (٢) أي أنه كان ثمة زواج سابق للسيد "دوبان". ويلاحظ أن "دي" قبل الاسم، معناه أن صاحبه يحمل لقباً، وهذا يبرر عدم حمل "فرانكويي" لاسم "دوبان".

(٣) "شينونسو" هو اسم ابن مدام "دوبان".

وكان سببا في موته بعد ذلك، في جزيرة "بوربون". ولقد كنت - أثناء وجودي بجواره - أحول بينه وبين أن يؤدي نفسه أو يؤدي غيره. وما كانت هذه المهمة بالسهلة، كما أنني لم أكن لاتولها ثمانية أيام أخرى، ولو منحنتني السيدة "دوبان" نفسها في مقابل ذلك!



وأولاني السيد دي "فرانكويي" صداقته، فعملت معه، وبدأنا نتلقى سويا منهجا في الكيمياء لدى "رويل". ولكي أكون على مقربة منه، تركت نزلي - بـ "سان كيتان" - وانتقلت للإقامة في "ساحة التنس" بشارع "فرديليه"، الذي كان يفضي إلى شارع "بلايسير"، حيث يقيم السيد "دوبان". وهناك، نشأ عن إصابتي ببرد أهملته، أن وقعت فريسة التهاب رئوي كدت أموت منه. وكثيرا ما كنت أصاب في شبابي بتلك الأمراض الالتهابية: التهابات البلورة (ذات الجنب)، والتهابات اللوزتين - التي كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص - وغيرها، مما لا أراني بحاجة إلى تسجيله هنا، وكانت جميعا تدفعني إلى حيث أرى الموت عن كשב كاف لأن آلف شكله!.. وسنح لي الوقت - أثناء نقاهتي - للتفكير في حالي، وللرثاء لجنبي، وضعفي، وكسلي الذي كان - برغم ما كنت أكتوي به من نار - يتركني أذبل في خمول ذهني على أبواب الفاقة!

وكنت في اليوم السابق لوقوعي في المرض، قد ذهبت لمشاهدة "أوبرا" لـ "روبييه" كانت تمثل إذ ذاك، وقد غاب عني اسمها. وبالرغم من أن تعنتي في الحكم على مواهب سواي جعلني دائما لا أطمئن إلى مواهبي، فإنني لم أستطع أن أكتب نفسي عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة، فاقدة الحرارة، خلوا من الابتكار والتجديد. وكنت أجزؤ - في بعض الأحيان - على أن أقول لنفسي: "يخيل إلي أن بوسمي أن أصنع خيرا من هذا" .. بيد أن الفكرة - الباعثة على التهييب - التي داخلتني عن تلحين "الأوبرا"، والأهمية التي كنت أسمع الإخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل، ثبطت عزيمتي في الحال، وجعلتني أتضرع خجلا لجراتي على التفكير في ذلك!..

ثم، أين لي بمن يرضى بأن يزودني بالأقوال اللازمة لاية "أوبرا"، وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواي؟.. ولقد عاودتني هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا، أثناء مرضي، فرحت إبان هذيانتي أنظم الأغاني والثنائيات والأناشيد الجماعية.. وأوقن أنني نظمت قطعتين أو ثلاثا لفوري - وغفو الخاطر - ربما كانت جذيرة بإعجاب الأساتذة، لو أنهم سمعوها تؤدي.. ولو تسنى تسجيل أحلام امرئ محموم، فاية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهذيان!

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه، تشغلني أثناء نقاهتي، ولكن في توارد أكثر هدوءا. وبدافع من التفكير في ذلك - بل وبالرغم من نفسي - اعتزمت أن أرضي نفسي، وأن أحاول وضع "أوبرا"، بكلامها وموسيقاها، دون معونة من أحد. ولم تكن هذه أول محاولة لي، إذ كنت قد ألفت في "شامبيري" أوبرا ومأساة - أوبرا تراجيدي - بعنوان "أيفيس وأنا كساريت"، وكنت من حسن الإدراك بحيث رمت بها في النار!.. كما نظمت في "ليون" أخرى بعنوان "اكتشاف الدنيا الجديدة"، لم ألبث بعد أن قرأتها على السيد "بوود"، والراهب دي "هابلي"، والراهب "تروبيه" وغيرهم، أن انتهيت بها إلى عين المصير، بالرغم من أنني كنت قد كتبت موسيقى المطلع والفصل الأول، وعندما اطلع "دافيسيد" على الموسيقى، أنبأني بأنها كانت تحتوي على مقاطع تليق

"بيونوتشي". (١)

وفي هذه المرة، أحت لتفكري وقتا للتفكير في مشروعى، قبل أن أمد يدي إلى العمل. ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة "يالية" ثلاثة موضوعات مختلفة، في ثلاثة فصول مستقلة، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين.

ونسجت كل منهما حول غراميات أحد الشعراء، ثم أسميتها "عرائس الشعر اللطاف" (٢).. وكان الفصل الأول يدور حول "قاس" (٣)، وقد صيغت موسيقاه في أسلوب قوي، أما الفصل الثاني، فكان عن "أوفيد"، وكانت موسيقاه رقيقة، في حين أطلقت على الفصل الثالث اسم "أنا كريون"، وقد روعي فيه أن يفوح بأنفاس الإطراء والمديح... وجربت براعتي - في البداية - في الفصل الأول، فعكفت عليه بحماس مكثني - للمرة الأولى - من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة في التلحين!..

وفي ذات مساء كنت أهم بدخول دار "الأوبرا"، وإذا بي أجدني نهبا للأفكار، وإذا بها تطغى عليّ فرددت نقودي إلى جيبي، وأسعرت إلى غرفتي وأغلقتها على نفسي، وارتقيت على السرير، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضوء النهار.. وهناك، أسلمت نفسي تماما للإلهامات الشعرية والموسيقية، فوضعت بسرعة، وفي سبع ساعات أو ثمان، أروع قسم من الفصل... وبوسعي أن أقول إن حبي للأميرة دي "فيراري" - إذ إنني كنت "قاس" إذ ذاك - ومشاعري النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم، أتاحت لي - لليلة واحدة - من المتع ما كان يفوق مائة مرة، كل ما كنت خليقا بأن أجدّه بين ذراعي الأميرة نفسها (٤).. ولم يبق في رأسي - في الصباح - سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته، ولكن هذا الجزء - الذي شوهه الإجهاد والتعب - لم يخفق في أن يكشف عن قوة المقطوعات التي تبقت كالأطلال!

وفي هذه المرة، لم أمض بعيدا في هذا المشروع كثيرا؛ نظرا لانصرافي إلى الشؤون الأخرى. ولم تكن السيدة دي "بوزينفال"، والسيدة دي "بروجلي" - اللتان ظللت أزورهما من وقت لآخر - قد نسيانني تماما في غمرة تعلقني بأسرة "دويان". فقد حدث أن عين السيد الكونت دي "مونتيجي" - الذي كان ضابطا في الحرس - سفيرا في "فيينا". وكان مدينا بسفارته إلى "بارجك" (٥) الذي كان قد ثابر على مصاحبته. كما أن أخاه - الشيفالييه دي "مونتيجي" - كان "فارس الكم" للسيد ولي العهد (٦). وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٧)، وبالزاهب "الاري" - عضو المحفل الفرنسي - الذي كنت أزوره، في بعض الأحيان، كذلك. وإذا علمت السيدة دي "بروجلي" بأن السفير كان يبحث عن سكرتير، رشحتني لديه. وشرعنا نبحث الأمر، فطلبت خمسين "لوي" كمرتب، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر. ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة "بيستول" (٨) كما كان عليّ أن أتكفل بتفقات سفرى، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق، وفاز السيد دي "فرانكويي" - الذي بذل قصارى وسعه ليحول بيني وبين

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الإيطاليين، كانوا أبا وابنيه، وقد أقام أصغر الأبنين ردها في "غيلنرا"، وكان أكثر الثلاثة شهرة.
(٢) Les Muses Galantes (٣) "تاس": هو الشاعر الإيطالي "توركانو تاسو"، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة. وقد عاش في القرن السادس عشر. ولهذا اختار "روسو" طابع القصة للفصل الذي نسجه حوله. أما "أوفيد"، فكان شاعرا "لاتينيا"، اقترن اسمه بالحب والهوى، ورغم ما قاساه في حياته من شجون ومتاعب، حتى إنه مات متغيبا. أما "أنا كريون"، فكان شاعرا غنائيا تفوح أغانيه بتمجيد المهر والطعام واللذة.
(٤) كانت الأميرة أجمل نساء عصرها، وقد تصور "روسو" أنه "تاس" الذي تدله في هواها، وثار على مظالم أخيها (٥) كان "بارجك" هو الخادم الخاص "لكركديال دي فلوري"، الذي كان واسع النفوذ لدى الملك. (٦) فرسان الكم: طائفة من النبلاء كانوا يجتمعون بين التدين والبطولة، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتعلمهم. (٧) السيدة دي "بوزينفال" وابنتها. (٨) كان "اللوي" إذ ذاك ٢٤ فرنكا، و"البيستول" ١٠ فقط.

الرحيل - بخاريه، فمكثت بينما رحل السيد دي "مونتيجي" مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد "فولو"، كانت وزارة الخارجية هي التي رشحته له. ولكنهما لم يكادا يبلغان "فيسينا"، حتى اختلفا وتشاجرا. وإذا رأى "فولو" أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون، هجره هناك، ولم يعد لدى السيد دي "مونتيجي" سوى راهب شاب يدعى دي "بيني"، كان كاتباً تحت إرشاد السكرتير، ولم يكن في مركز يؤهله لأن يملأ المنصب؛ ومن ثم اضطر السفير إلي أن يلجأ إلي مرة أخرى.

وقد أفهمني أخوه "الشيغالبيه" - الذي كان موفور الذكاء - أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير، وبهذا أفلح في أن يغريني بقبول الألف فرنك (١) .. كما تسلمت عشرين "لوي" لنفقات رحلتي .. فبادرت إلى السفر

من سنة ١٧٤٢

إلى سنة ١٧٤٤

وعند "ليون"، تمكنت أن أتخذ طريق "مون سيني"؛ لأزور "ماما" المسكينة، زيارة عابرة. بيد أنني اتحدت مع نهر "الرون"، ثم انتقلت بالبحر إلى "طولون". وكان ذلك بسبب الحرب، وبداعي الاقتصاد؛ وللحصول - كذلك - على جواز للسفر من السيد دي "ميربوا"، الذي كان يشرف على الإقليم إذ ذاك، والذي كنت موفدا إليه بتوصية. وإذا لم يكن بوسع السيد دي "مونتيجي" أن يستغني عني، فقد راح يكتب لي الرسائل تلو الرسائل، متعجلاً سفري. ولكن حادثاً عاقني.

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك في "فيسينا". وكان الأسطول البريطاني يرسو هناك، فزار المركب التي كنت عليها، وقد عرضنا ذلك عند وصولنا إلى "جنوا" - بعد رحلة طويلة شاقة - إلى أن نحنجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوماً.

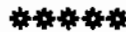
وترك لنا الخيار بين البقاء على سطح المركب، أو في المعزل الصحي، الذي أئذنا بأننا لن نجد فيه شيئاً، اللهم إلا الجدران الأربعة، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأنيته. واختار الجميع البقاء في السفينة، ولكن الحر المرهق، وضيق المكان، وتعذر التريض على القدمين، والحشرات، جعلتني أفضل المعزل. فاقننت إلى مبنى كبير ذي طابقين. وكان عارياً تماماً، فلم أعثر فيه على نافذة، ولا منضدة ولا سرير، ولا مقعد .. بل ولا كرسي منخفض بلا مسند لأجلس عليه، ولا حزمة من القش أرقده عليها .. وأحضروا إليّ معطفي، والحقيبة الصغيرة التي تضم ثياب النوم، وحقيبتَي الكبيرتين، ثم أغلقت دوني أبواب، ذات أقفال هائلة .. وبقيت هناك، حراً في أن أتحول وفق هواي، من حجرة إلى أخرى، ومن طابق إلى آخر، دون أن ألتقي في كل مكان بغير العزلة، والتجرد من الأثاث

ولم يحملني كل هذا على أن أندم لاختياري المعزل دون المركب، بل رحت أدبر أموري - كما لو كنت "روبنصن" (٢) - جديداً - للأيام الثمانية والعشرين، وكأنني كنت مقبلاً على الإقامة طيلة العمر، وكنت أتسلى - في البداية - باصطياد القمل الذي التقطته على المركب. فلما أصبحت نظيفاً في النهاية، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية، تحولت إلى تأنيث الحجرة التي اخترتها، فصنعت حشية بديعة من ستراتي وأقمصتي، وملاءات من عدة مناشف، خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزارَي المنزل "الروب دي شامبير"، ووسادة من معطفي الذي لفقته، واتخذت مقعداً من إحدى

(١) يبدو أنه يقصد قيمة المرتب السنوي. (٢) يقصد "روبنصن كروزو".

حقيقتي بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين، وأخرجت ورقاً ومحبرة، ونسقت حوالي اثني عشر كتاباً كنت أمتلكها، لتكون مكتبة. وقصاري القول إنني هبات مقامي تهيئاً طيباً حتى إنني كنت في ذلك المعزل العاري انعم بإقامة تعدل إقامتي في مكنتي بساحة التنس في شارع "ديلا فيرديليه"، فيما عدا الستائر والنوافذ... وكانت وجباتي تقدم في كثير من مظاهر الأبهة، إذ كان يرافقها جنديان شهراً حريتهما في طرفي بندقيتهما. وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتني، كما كانت عرصة السلم بمثابة مائدة، فإذا ما أعد الغداء، دق الذين أحضروه ناقوساً - أثناء انسحابهم - لتنبيهي إلى أنه قد آن لي أن أجلس إلى المائدة.

وعندما كنت أنصرف عن القراءة أو لكتابة، أو استكمال تائيت حجرتي - بين الوجبات - كنت أتمشى في مقبرة البروتستانت، التي كانت بمثابة ساحة لمسكني، أو أضعد إلى برج يطل على الميناء، حيث يتسنى لي رؤية السفن في دخولها وخروجها. وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوماً، وكنت قمينا بأن أقضي الأيام العشرين بأسرها دون أن أضجر لحظة، لولا السيد دي "جسونفسي" - المبعوث الفرنسي - الذي كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطاباً معبِقاً بالخل، ومعطرًا، وشبه محترق... فقد أنقص مدة احتجاجي ثمانية أيام، قضيتها في داره، حيث أعترف بأنني وجدت من راحة المقام ما لم أجدّه في معزلي... وقد أبدى لي عطفًا قويًا، كما أن سكرتيره "ديبون" كان شاباً طيباً، اصطحبني إلى بيوت عديدة - سواء في "جنوا" أو في الريف - حيث كانت التسرية موفورة. وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل، التي ظللنا نرعاها ردحا طويلاً من الزمن. وما لبثت أن استأنفت رحيلي - راضياً مرتاحاً - مخترقاً سهل "لباردي". وزرت "ميلان"، و"فيرونا"، و"بريسيا"، و"بادو"، ثم وصلت في النهاية إلى "البندقية"، حيث كان السفير في انتظاري، وهو نافذ الصبر!



ووجدت أكداً من الرسائل - سواء من البلاط الملكي أو من السفراء الآخرين - لم يكن في وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة، برغم أنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك. ولما لم أكن قد عملت قط في منصب من هذا النوع، ولا رأيت في حياتي شفرة حكومية، فقد خشيت - في البداية - أن أرتبك، ولكنني تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك... وفي أقل من أسبوع، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعاً، إذ إنها لم تكن - في الواقع - تستحق عناء. فقد كانت السفارة القائمة في البندقية قليلة العمل دائماً، فضلاً عن أن مثل هذا الرجل - السيد دي "مونتيجي" - لم يكن ممن يعهد إليهم بأية مفاوضات. ولقد كان في حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعرف كيف يملئ رسائله، ولا كيف يكتب بخط مقروء. ومن ثم فإنني كنت أعظم النفع له، وقد شعر بذلك، فأحسن معاملتي. وكان ثمة باعث آخر حمّله على ذلك، فقد تولّى أعمال السفارة - بعد رحيل سلفه السيد "دي فرولاي"، الذي اختبل عقله - القنصل الفرنسي، الذي كان يدعى السيد "لوبلون"، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دي "مونتيجي" ريشماً يدر به على نظام العمل. ولقد جنح السيد دي "مونتيجي" - في غيرته من أن سواه كان يؤدي عمله، برغم أنه كان عاجزاً عن أدائه بنفسه - إلى كراهية القنصل، فما إن قدر لي أن أصل، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة،

ليكلها إليّ". ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب "سكرتير السفارة"، فقد دعاني إلى أن أحمل هذا اللقب. وما أوفد - طيلة بقائي معه - أحدا سواي بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه (١). والواقع أنه كان من الطبيعي أن يفضل أن يكون في منصب سكرتير السفارة رجل تابع له، عن أن يكل هذا المنصب إلى القنصل، أو موظف كتابي معين بمعرفة البلاط.

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزي جد ملائم، ومنع أفراد بطانته، الذين كانوا من الإيطاليين - كما كان أتباعه ومعظم خدمه - من أن ينازعوني الأولوية في داره. وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان، في صون حقوقه الدبلوماسية، وأعني بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التي بذلت مرارا عديدة لانتهاكها، والتي كان موظفوه - من أبناء البندقية - لا يحفلون بمقاومتها. ومن ثم فإنني لم أسمح قط للخارجيين على القانون باللجوء إلى هذا المقر، بالرغم من أنني كنت خليقا بأن أجنبي من وراء ذلك نفعا كبيرا، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مفاسمتي إياه... بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتارية التي يطلق عليها اسم "أعمال الديوان". ومع أن الحرب كانت قائمة، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر، وكان يدفع عن كل جواز منها، "سيكان" (٢) للسكرتير الذي ينجزه ويصدق عليه. وقد اعتاد كل من سبقوني أن يتقاضوا هذا "السيكان" من الفرنسيين، ومن الأجانب على السواء. بيد أنني وجدت هذا الإجراء غير عادل، ومع أنني لم أكن فرنسيا، فإنني الغيتته بالنسبة للفرنسيين، وإن رحمت أنقاض حقي - في غير تماهل - من كل من عداهم. فلما أرسل لي المركز "سكوتي" - شقيق الشخص الذي كانت له الحظوة لدى ملكة "إسبانيا" - يطلب يوما جوازا، دون أن يرسل لي "السيكان"، فطالبته به، وهو اجترأ لم ينسب قط ذلك الإيطالي المفطور على الانتقام. ومنذ أن أصبح هذا الإصلاح الذي أدخلته على رسوم الجوازات معروفا، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من متحلي الجنسية الفرنسية، الذين يزعمون - في رطانة محتملة - أن هذا من إقليم "بروفانس"، والآخر من "بيكار"، والثالث من "بيرجندي". ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا، فإنني لم أكن أخدع قط، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبني "سيكاني"، أو أن فرنسا واحدا دفعه لي. وكنت من الغباء بحيث أنبات السيد دي "مونتيجي" - الذي لم يكن يعلم شيئا عن أي شيء - بما فعلت. فإذا كلمة "سيكان" تجعله يفتح أذنيه، وبدون أن يبدي لي رأيا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين، طلب أن أسوي معه الحساب بشأن الآخرين، واعداد إياي بمنافع في مقابل ذلك...!

ورفضت اقتراحه عن احتقار؛ لضعته أكثر مني عن تأثر من أجل مصلحتي، وألح عليّ، فإذا بغضبي يحتدم، وقلت في تحمس شديد: "لا يا سيدي... إن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك، ودع لي ما هو حقي، فلن أنزل عن "سو" واحد منه!". وإذا رأى أنه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة، عمد إلى وسيلة أخرى، ولم يخجل من أن يقول إنني ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه، فمن العدل أن أتحمل نفقات هذا الديوان. ولم أشأ أن أجادل في هذا الأمر، ومن ذلك الحين أخذت ابتاع من مالي المداد، والورق، وشمع الأختام، وشمع الإضاءة، والأشرطة، وما إلى ذلك... حتى خاتم الدولة الذي أصلحته، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا...! ولم يحل دون أن أعين جزءا صغيرا من إيراد عملية الجوازات للراهب دي "بيني"، الذي كان شابا طيبا، والذي كان أبعد من أن يطلب لنفسه

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية - في ذلك الحين - أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية، عن طريق مندوبين يوفدهم إليهم، وسموئين يوفدهم السفراء إليه. وقد كان مجلس الشيوخ - في بعض نظم الحكم - ذا سلطة تنفيذية. وهكذا كان في البندقية. (٢) السيكان: عملة تتراوح قيمتها ٩ و ١٢ فرنكا.

شيئا من هذا القبيل. وإذا كان قد تلطّف نحوي، فإنني لم أكن أقل كرما نحوه، ومن ثم فقد عشنا معا في وئام على الدوام.



ولقد وجدت عملي - إذ مارسته - أقل إرهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه في شيء، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل - وكأنما كان يسر بهذه العرقلة - كل ما كان يلهمني الإدراك السليم وبعض أضواء المعرفة لا تقن خدمته وخدمة الملك! . وكان أكثر أعماله انطواء على إدراكي، هو ارتباطه بالمركز دي "ماري"، سفير "إسبانيا"، الذي كان بارعا، أريبا، وكان بوسعه أن يقوده من أنفه إلى حيث شاء، لولا أنه - نظرا لارتباط مصالح التاجين - كان يحضه عادة خير النصح، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصيح، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ! . وكان الشيء الوحيد الذي اشتركا في عمله، هو إغراء البندقيين بالتزام الحياء. وكان هؤلاء لا يكفون عن ادعاء الأمانة في صون الحياء، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمساويين - علانية - بالذخائر، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم! . أما السيد دي "مونتييجي" - الذي اعتقد أنه كان ينبغي إرضاء الجمهورية (١) - فلم يكن يتوانى، بالرغم من بياناتي عن أن يحملني على أن أؤكد في كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياء إطلاقا. وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطرنني إلى أن أكتب وأرتكب - في كل لحظة - سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيها، مادامت هذه رغبته، ولكنها كانت - في بعض الأحيان - تجعل أداء واجباتي أمرا لا يطاق! . بل أمرا غير ميسور عمليا! . مثال ذلك: أنه كان يصبر إصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك، ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شيء ما يجعل مثل هذه الحيلة لازمة! . ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة - الذي كانت رسائل البلاط تصل فيه - ويوم السبت - الذي كانت رسائلنا تصدر فيه - لكتابة هذه بالشفرة، ولكتابة الكميات الكبيرة من الرسائل التي كان عليّ أن أعددتها ليحملها البريد في اليوم ذاته. فابتكر لذلك خطة بديعة، تلك هي أن أعد - في يوم الخميس - ردود الرسائل التي يكون مقدرا لها أن تصل في اليوم التالي! . ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة - بالرغم مما وسعني أن أقوله عن استحالة، بل وسخف، تنفيذها - حتى إنه حتم اتباعها، فلم أكن أخفق قط، طيلة المدة التي مكثتها معه بعد ذلك - في أن أحمل إليه في صباح يوم الخميس، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التي كان يلقيها في مناسبات عابرة خلال الأسبوع، والتي كنت أسجلها في مفكرتي، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التي كنت ألتقطها من هنا وهناك؛ لأزود بها في هذه المهمة العجيبة! . أقول إنني لم أخفق قط في أن أقدم إليه في صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التي ينبغي تصديرها في يوم السبت، فيما عدا بعض إضافات، أو تعديلات كنت أؤدها في عجلة، على ضوء الرسائل التي تصل في يوم الجمعة، والتي كانت رسائلنا تعتبر ردا لها!

وكانت له نزوة أخرى، غاية في الطرافة، أضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها: تلك هي إرسال كل نبأ إلى مصدره، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادي! . فكان يرسل الأنباء الواردة عن البلاد إلى السيد "أميلو" (٢)، وتلك الواردة عن "باريس" إلى السيد دي "موريبا"،

(١) حكومة جمهورية البندقية. (٢) كان السيد "أميلو" وزيرا للخارجية، وكان البلاط هو مقر منصبه.

وتلك المتعلقة بـ "السويد" إلى السيد "دافرينكور"، وتلك الخاصة بـ "بطرسبورج" إلى السيد "ديلاشيتاردى" .. بل إنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الواردة منه هو بالذات، والتي كنت أجري تعديلات طفيفة عليها! .. ولما كان قد اعتاد أن يلقي نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها - دون بقية ما كنت أحمله إليه ليرقمه - فإنه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها مما جعلني أكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجي، أو - على الأقل - أن أبدل من الأنباء، فلا أوجه لكل منهم عين الأنباء التي سبق أن أرسلها!

.. بيد أنه كان من المستحيل علي أن أصوغ الرسائل الهامة في أسلوب معقول، بل إنني كنت اعتبر نفسي سعيدا، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحي أفكاره. فقد كان هذا يضطرنني إلى العودة إلى نسخ الرسالة التي زانها بهذه السخافة الجديدة. السخافة التي كان لابد من تكريرها بنسخها - بسرعة - بالشفرة، إذ إنه لم يكن يوقع الرسالة بدونها! .. ولقد راودني الإغراء عشرين مرة - مراعاة لسمعته - بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذي قاله، ولكنني كنت أدرك أنه ليس ثمة ما يبيح لي إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة، فكنت أدعه يهذي على مسؤوليته، قانعا بأن أصارحه برأيي، وبأن أؤدي الواجب المفروض علي نحوه!



وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة، وجلد، وحمية كانت تستحق جزاء غير ذلك الذي تلقينته في النهاية .. كان قد حان لكي أكون - ولو مرة واحدة - كما هيأتني السماء التي أنعمت علي بفطرة طيبة، وكما أهلتني التربية التي تلقينتها على أيدي أفضل النساء تلك التي أتمتعها لنفسي .. وهذا ما حدث فعلا. فقد كنت وحيدا، بلا أصدقاء ولا ناصحين، وبلا تجربة، في بلد أجنبي، وفي خدمة أمة أجنبية، وفي وسط ثلة من الاندال الذين كانوا يستحثونني على أن أحذو حذوهم في سبيل مصلحتهم، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم .. على أنني بدلا من أن أفعل أي شيء من هذا القبيل، أخلصت الخدمة لـ "فرنسا" - التي لم أكن مدينا لها بأي واجب - وكنت أكثر إخلاصا في خدمة السفير في كل مكان موكولا إلي، كما ينبغي أن يقال بحق! .. وإذ لم يكن ما يؤخذ علي في منصب كهذا، جد مكشوف للأنظار المتطلعة، فقد استحققت وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١)، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل، وحب كل الفرنسيين المقيمين في "البندقية". ولم يشذ عن ذلك القنصل الذي خلفته - للأسف - في المهام التي كنت أدرك أنها من حق، والتي جلبت علي من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور!

وإذ انصاع السيد دي "مونتيجي" دون تحفظ للمركز دي "ماري" - الذي لم يكن ليهمم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسي - أهمل هذه الواجبات إلى درجة أنه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون - الذين كانوا في "البندقية" - أن لـ "فرنسا" سفيرا مقيما في المدينة، لولاي أنا! .. ولما كانوا دائما يظردون دون ما استماع إلى شكواهم - كلما نشدوا حمايته - فإنهم أصبحوا يزدرونه، ولم يروا واحد منهم قط في معيته، أو على مائدته، التي لم يكن - في الواقع - يدعوهم إليها إطلاقا.

وكنت كثيرا ما أخذ علي عاتقي أداء ما كان ينبغي علي رئيسي أن يؤديه، وأؤدي للفرنسيين - الذين كانوا يلجئون إليه أو إلي أنا - كل ما كان في طوقي من خدمات. ولقد كنت خليقا بأن أفعل

فوق ما كنت أفعل، لو أنني كنت في أي بلد آخر... ولكنني لم أكن أملك - بحكم منصبي - أن أقابل أي شخص من ذوي النفوذ، فكنت كثيرا ما اضطر إلى أن ألتجأ إلى القنصل... وكان لدى القنصل من دواعي الحذر - نظرا لاستقراره مع أسرته في البلد - ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى... على أنني كنت أجسر أحيانا - عندما أراه صامتا لا يجرؤ على الكلام - على الإقدام على تصرفات خطيرة، قدر لي التوفيق في كثير منها. وإني لأذكر مغامرة منها، لا تزال ذكرها تحملني على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد، أن رواد المسرح بـ"باريس" مدينون لي بـ"كورالين" وأختها "كايي"، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا. فلقد تعاقد "فيرونيز" - أبوهما - على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية. وبعد أن تسلم ألفي فرنك لنفقات الرحلة، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح "سان لوك" (١) بـ"البندقية"، حيث اجتذبت "كورالين" - برغم أنها كانت لا تزال طفلة - كثيرا من الناس. فكتب السيد الدوق دي "جيفر" الأمين الأول للديوان الملكي - إلى السفير مطالبا بالآب وابنتيه، وسلمني السيد دي "مونتيجي" الخطاب، وكانت كل التعليمات التي زودني بها، هي: "انظر هذا الأمر!"

فذهبت إلى السيد "لوبيلون"، ورجوته أن يخاطب السيد الذي كان يمتلك مسرح "سان لوك"، والذي كان من أعضاء مجلس الشيوخ - ويدعى، على ما أظن، "جستنياني" - فيقنعه بأن يسرح "فيرونيز"، الذي كان متعاقدا لخدمة الملك. ولم يكون "لوبيلون" متحمسا للمهمة، فأساء أداءها، وتعلل "جستنياني" بمختلف الحجج، فلم يسرح "فيرونيز". واغتظت... وكنا في "الكونفال"، فاستقللت زورقا وقد تقنعت، وذهبت إلى قصر "جستنياني". وبهت كل من رأي في جندولي وأنا في ثيابي الرسمية، إذ إن "البندقية" لم تر شيئا لهذا العمل من قبل. ودخلت القصر، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمي على أنني "السيدة ذات القناع"، وما إن دخلت عليه، حتى أزحت قناعي، وأعلنت اسمي، فامتقع وجه عضو الشيوخ، وجمد مشدوها. وإذ ذاك قلت له في لهجة أبناء البندقية: "سيدي، يؤسفني أن أزجج سعادتك بزيارتي، ولكن في مسرح "سان لوك" - التابع لك - رجلا يدعى "فيرونيز"، تعاقد على خدمة الملك، وقد طالبت به دون جدوى؛ لذلك جئت أطلب به باسم صاحب الجلالة!". وأحدث هذا القول - على إيجازه - أثرا. فلم أكد أنصرف، حتى هرع صاحبنا إلى محققي الدولة القضائيين، الذين أوضحوا الموقف، ففصل "فيرونيز" في اليوم ذاته. وكان أن أوفدت إلى هذا من أتدروه بأنه إذا لم يرحل في خلال أسبوع، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه... ومن ثم رحل!



وفي مناسبة أخرى، أنقذت ريان سفينة تجارية من مأزق، بجهود وحدها، ودون معونة أي شخص تقريبا.

وكان الريان من أبناء "مارسيليا"، ويدعى "أوليفيه"، وقد نسبت اسم السفينة، فقد تشاجر ملاحوه مع "الاسكلافونيين" (٢) الذين كانوا في خدمة الجمهورية. وكان من جراء الشغب الذي ارتكب أن احتجزت السفينة، وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا - سوى الريان - لم يكن يملك أن يصعد إليها أو يغادرها دون إذن.

(١) أضاف روسو إلى هذا قوله: "لست واقفا من أنه لم يكن مسرح "سان صمويل"، فإن الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتي تماما". (٢) أبناء بلاد الكريبات.

ولجأ الريان إلى السفير، الذي صرفه في جفاء، فلجأ إلى القنصل، ولكنه قال له إن مسأله لم تكن مسألة تجارية، وأنه لا يملك التدخل. وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك، جاءني فأوضحت للسيد دي "مونتيجي" أن عليه أن يسمح لي بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ. ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لي، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة، وإنما أذكر تماما أن المساعي التي بذلتها لم تنته إلى شيء، وظل التحفظ قائما، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة في رسالة إلى السيد دي "موريا"، وإن لقيت عناء كبيرا في إقناع السيد دي "مونتيجي" بأن يحيز هذا البيان. وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح في "البندقية" - برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء - إذ كنت أملك الدليل على ذلك، فمثلا في الفقرات التي اعتدت أن أجدها منقولة بالنص في الصحيفة الرسمية.. وهولون من عدم الأمانة، حاولت عشا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه. وكانت غايتي من الحديث عن هذا الحادث المكدر في الرسالة، هي أن أستغل فضول سلطات البندقية، لكي أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة.. فإن الريان كان مسوقا إلى الإفلاس قبل أن يصدر رد البلاط على هذه المسألة، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد. بل إنني أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لاستجوب الملاحين، واصطحبت الراهب "باتيريل" - كاتم أسرار القنصل - الذي لم يات إلا كارها. فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ. ولما لم يكن يوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة؛ بسبب الحظر المفروض، فقد بقيت في جندولي، وقمت بالتحقيق من هناك، موجها أسئلتي بصوت مرتفع، وإلى كل الملاحين تباعا، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعي إجابات في صالحهم. ولقد حاولت أن أحمل "باتيريل" على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه، وهو أمر كان من مهامه - في الواقع - أكثر مما كان من مهامي، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك إطلاقا، ولم ينبس بكلمة واحدة، بل إنه كاد يابى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا.. على أن هذه الخطوة - المنطوية على شيء من الجراءة - كانت موفقة للغاية، فأخرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل. وأراد الريان أن يقدم لي هدية، فقلت له وأنا أدق كتفه، دون أن أبدي استياء: كاتب "أوليفيه"، أظن أن رجلا لا يتقاضى من الفرنسيين رسم الجوازات - وهو حق مقرر له - يرضى أن يتقاضى ثمن حماية الملك؟.. ورغب الريان في أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة - على الأقل - فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة "الإسبانية"، المدعو "كاريو" - وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة "الإسبانية" في "باريس"، وقائما بالأعمال فيها.. وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود، تماثل تلك التي كانت بين سفيرينا!

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا، لو أنني عرفت - إذ رحلت أفعل كل ما وسعني من خير، في أتم تمرد من المصلحة الذاتية - كيف أدخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة؛ حتى لا أغدو مستغفلا، فأخدم الغير على حساب مصالحى!.. ولكن أنفه الأخطاء في منصب - كذا الذي كنت أشغله - لا تمر دون تبعات، ومن ثم فقد كنت استنزف كل انتباهي في الجهد لتفادي أية أخطاء مضادة لعملي.



ولقد كنت - في كل ما يتعلق بواجبي الرئيسي منظما إلى أقصى درجات النظام، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقة.

وفيما عدا بضعة أخطاء اضطررتي التعجل المفرط إلى ارتكابها في صوغ الشفرة - وقد اشتكى منها معاونو السيد "أميلو" ذات مرة - لم يأخذ علي السفير، أو أي امرئ سواه، إهمالا في أداء أي واجب من واجباتي، وهو أمر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الإهمال، وشديد التهور مثلي.. بيد أنني كنت أغفل وأهمل في تصرفي في المسائل الخاصة التي كنت آخذها على عاتقي - أحيانا - فكان حب الإنصاف يجعلني أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسي، قبل أن يفكر أي امرئ في أن يشكو منه!.. ولن أذكر - في هذا المجال - سوى حادث واحد، كان له أثر في رحيلي عن "البندقية"، وقد لي أن أشعر بآثاره - بعد ذلك - في "باريس"!

ذلك أن طاهينا - وكان يدعى "روسيلو" - أحضر من "فرنسا" سندا قديما بمائتي فرنك، كان أحد صناع الشعر المستعار - من أصدقائه - قد تسلمه من نبيل بندق يدعى "جانيتو فاني"، في مقابل قلنسوات من الشعر المستعار.

وأحضر لي "روسيلو" هذا السند، ورجاني أن أحاول عمل أي شيء يصدهه، بالإجراءات السليمة. وكنت أعرف - كما كان يعرف هو الآخر - أن العادة التي كانت متبعة لدى نبلاء "البندقية"، هي ألا يدفعوا قط أية ديون تحملوها في الخارج ماداموا قد عادوا إلى وطنهم. فإذا بذل أي سعي لفسرهم على الدفع، أرهقوا الدائن التعس بالإرجاء الطويل المتكرر، وبالنفقات، حتى تشبط عزيمته، ولا يلبث أن يعدل - في النهاية - عن المطالبة، أو يقبل أية تسوية ضئيلة!.. ورجوت السيد "لوبلون" أن يتحدث إلي "جانيتو" فاعترف هذا بالورقة، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها. وبعد كفاح طويل، وعده بأن يدفع ثلاثة "سيكانات". فلما حمل إليه "لوبلون" السند، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة، فلم يكن ثمة بد من الانتظار.. وفي خلال هذه المهلة، دب الخلاف بيني وبين السفير، فخرجت من خدمته. وقد تركت أوراق السفارة في أتم نظام، ولكن سند "روسيلو" لم يوجد بينها قط. وأكد لي السيد "لوبلون" أنه كان قد رده إلي، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك، ولكنني عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند.

ولما كان "جانيتو" قد أقر بالدين، فقد رجوت السيد "لوبلون" أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة في مقابل إيصال، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه، ولكن "جانيتو" رفض الأمرين، إذ علم بضياح السند.. فعرضت على "روسيلو" السيكانات الثلاثة - من جيبى الخاص - كسداد للسند، ولكنه أبى أن يأخذها، وأخبرني بأن أسوي الأمر مع الدائن الباريسي، الذي أعطاني عنوانه. ولكن صانع الشعر المستعار، طالب بسنده أو بدينه كاملا، إذ علم بما حدث. فما الذي كنت أضن به - في سورة غيظي - في مقابل العثور على هذا السند اللعين؟!.. ودفعت المائتي فرنك من مالي، في وقت كنت فيه في أشد الضيق المالي. وهكذا كان ضياح الوثيقة سببا في حصول الدائن على دينه كاملا، في حين أنه لو كان قد تسنى - لسوء حظه - العثور على السند، لوجد عناء في انتزاع العشرة "أيكو" (١) الموعودة من صاحب السعادة "جانيتو فاني"!

ولقد جعلتني المقدرة - التي استثمرتها في نفسي - على أداء عملي، مفعما بالميل إليه.. وفيما عدا صحبتي لصديقي "كاريو"، وللفاضل "التونا" - الذي لن ألث أن أتحدث عنه - وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة - التي تمثلت في التردد على ساحة "سان مارك"، وعلى المسرح - وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا في أغلب الأحيان.. فيما عدا ذلك، كانت واجباتي هي الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة. ومع أن عملي لم يكن شاقا أكثر مما ينبغي، لا سيما إزاء العون الذي كنت ألقاه من الراهب دي "بيني"، إلا أن

مراسلاتنا كانت كثيرة جدا، كما أننا في فترة حرب؛ ومن ثم فلم تكن تعوزني الشواغل، بل كنت أقضي شطرا كبيرا من النهار في العمل - في كافة الأيام - كما أنني كنت أعمل، في أيام البريد، إلى منتصف الليل أحيانا. وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التي شرعت في ممارستها، والتي كنت - على ضوء البداية الناجحة - أعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد.. والواقع أنه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عني لدى الجميع، ابتداء من السفير الذي كان راضيا عن خدماتي رضاء تاما، فلم يشك منها قط.. وما جاء كل الغضب - الذي ثار فيما بعد - إلا عن أنني حين وجدت شكاياتي لا تلقى أذنا سامعة، طلبت إعفائي من العمل. وكان كل سفراء الملك ووزرائه - الذين كنا على تراسل معهم - يهتفون على كفاءة سكرتيره، وهو ما كان يجب أن يثير اعتراضه، ولكنه أحدث أثرا عكسيا في رأسه سيئ التفكير. وكانت بين هذه التهاني واحدة بالذات، تلقاها في ظرف حرج، فلم يغتفرها لي قط. وهي جديرة بأن أتأكد عناء شرحها.

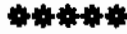
وذلك أنه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه، حتى إنه في يوم السبت ذاته - وهو يوم إرسال كل الرسائل تقريبا - لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريشما ينتهي العمل، وإنما كان يطلب - باستمرار متعجلا - رسائل الملك والوزراء، ليوقعها في عجلة، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدري، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع، مما كان يضطرنني - عندما لا تكون هناك سوى أخبار عادية - إلى أن أصوغها في قالب نشرات الأخبار.. أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل، فكنت أتولى توقيعها بنفسي. وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد "فانسان"، القائم بأعمال الملك في "فيينا". وكان ذلك في الوقت الذي سار فيه الأمير "لوبكوفيتش"، زاحفا على "نابولي"، والذي قام فيه الكونت دي "جساج" بتقهقره الذي لا ينسى، والذي كان أروع عمل عسكري في القرن كله، وكان حديث "أوروبا". وكان النبا الذي بلغنا، هو أن رجلا - أرسل إلينا السيد "فانسان" أوصافه - كان قد غادر "فيينا"، معترضا المرور بـ "البندقية"، قاصدا - متخفيا - "بروتسي"؛ ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب "النمساويين". ونظرا لغياب السيد دي "مونتيجي" - الذي لم يكن ليهتم بشيء - فإنني أرسلت إلى السيد المركزي "ديلوبيتال" هذا النبا الذي كان في وقته المناسب، حتى ليحتمل أن يكون آل "بوربون" مدينين إلى "جان چاك" المغبون بفضل الإبقاء على مملكة "نابولي"!

وإذ شكر المركزي "ديلوبيتال" زميله - كما كان ينبغي - امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التي أداها للقضية المشتركة، فإذا الكونت دي "مونتيجي" - الذي كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله في هذه المسألة - يخال أنه يلمح لوما خلال هذه التهنئة، فحدثني عنها في استياء. وكنت قد أقدمت على أن أفعل مع الكونت دي "كاستيلان" - السفير الفرنسي في "القسطنطينية" - ما فعلته مع المركزي "ديلوبيتال"، وإن كان النبا أقل أهمية. وإذا لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى "القسطنطينية" سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من وقت إلى آخر إلى "بايله" (٢)، فقد كان السفير الفرنسي ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا رأى داعيا لذلك. وكان هذا الإخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين، ولكن السيد دي "مونتيجي" لم يكن يلقي اعتبارا كافيا، ومن ثم فقد كانوا يكتفون بإخطاره قبل رحيل البريد بساعة أو اثنتين، مجرد مراعاة الشكليات..!

وكان هذا يضطرنني - في كثير من المرات - إلى أن أعد الرسالة في غياب السفير. وكان السيد

(١) "چاك چاك روسو" نفسه. (٢) "بايل": لقب سفير "البندقية" في "القسطنطينية".

"كاستيلان" يذكرنى - فى رده - بعبارة التكريم، وكذلك كان السيد دي "جونفيمى" - فى "جنوا" - يفعل، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصي، سببا لخلافات جديدة..



واعترف بأننى لم أحاول أن اتحاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسعى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة.

وكان يبدو لى أن الإنصاف يبيح لى - إذ أحسن الخدمة - أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطبية، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها، ومنع الجزاء عنها.

ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتى فى أداء مهامى كانت - فى نظر السفير - سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا!

وكانت داره - التى لم يكن يحسن إدارتها إطلاقا - مليئة بالسفلة: كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة، بينما كانت "للإيطاليين" المكانة العليا.. وحتى فيما بين هؤلاء، كان الموظفون الصالحون الذين ألحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة يطردون فى غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير، الذى شغل المركز نفسه فى عهد سلفه الكونت دي "فرولاي"، والذى كان يدعى - على ما اعتقد - الكونت "بياتي"، أو ما يقرب من هذا الاسم.. أما المستشار الثانى - وكان السيد دي "مونتيجي" هو الذى اختاره بنفسه - فكان شقيا من "مانتوي"، يدعى "دومينيك فيتالي"، وقد عهد إليه السفير بشؤون داره، فاستطاع بالتعلق وبالشع الخسيس أن يكتسب ثقته، ويغدر أثيرا له، مما أضر بمن كان قد ظل بالدار من أمناء قلائل، وبالسكربتير الذى كان على رأسهم.. وعين الرجل الشريف أمينا له وكان يثير دائما قلق اللثام. وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهني، بيد أن كراهيته كانت ترجع - كذلك - إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير. ولا بد لى من أن أعلن هذا السبب، ولكم أن تدينونى إذا كنت مخطئا!

ذلك أنه كان للسفير - وفقا لتقليد راسخ منذ أمد طويل - مقصورة فى كل من المسارح الخمسة. وكان يعين - على مائدة الغداء، فى كل يوم - المسرح الذى يعتمزم الذهاب إليه، فكنت أنا الذى يليه فى الاختيار، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى. وكنت آخذ - عند انصرافى - مفتاح المقصورة التى اخترتها. ففي ذات يوم، لم يكن "فيتالي" - الذى كان يحتفظ بالمفاتيح - موجودا، فعمدت إلى ساع كان فى خدمتى، بأن يحضر لى مفتاحي فى دار عينتها له. ولكن "فيتالي" لم يرسل المفتاح، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه. ومما زاد من غيظي، أن الساعى أدلى بهذا النبأ أمام الملا. فلما كان المساء حاول "فيتالي" أن يتقدم ببطع كلمات يعتذر بها، ولكننى لم أنصت إليه، بل قلت له: "تعال غدا أيها السيد، فقلها فى نفس الساعة، وفي نفس الدار التى تلقيت أنا الإهانة فيها، وأمام الناس الذين شهدوها.. وإلا، فسوف أطلب بعد غد - ومهما يكن ما يحدث - بأن يغادر أحدنا هذه السفارة!". وأفحمت لهجتي الحاسمة، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة، واعتذر علانية، فى صغار يلىق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل.

وبينما كان يبدى لى احتراما بالغا، راح يعمل على شاكلة "الإيطاليين" (١) ومع أنه لم يستطع

أن يحمل السفير على فصلي، إلا أنه اضطرني إلى أن أستقيل من تلقاء نفسي!
ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفني، ولكنه عرف ما كان يخدم أغراضه..
عرف أنني كنت من الطيبة واللين بحيث احتمل المظالم غير المقصودة، وأنني من الكبرياء بحيث لا
أحتمل الإهانات المتعمدة، وأنني أحب التواضع والوقار في المناسبات الملائمة، وأنني لم أكن أقل
حرصا على ما ينبغي لي من تكريم، مني على أداء ما هو واجب عليّ منه للغير.. وهذا ما استغله ووفق
بفضله إلى مضايقتي. فقد قلب السفارة رأسا على عقب، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون
الاصول، وترتيب المراكز، والدقة، والنظام. والبيت إذا خلا من امرأة، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى
بقليل مما يحتاج إليه سواء، في سبيل التمكن للاحتشام من أن يسوده مقتربا بالكرامة والوقار. أما هذا
الرجل، فإنه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور، ووكرا للاندال والفاستقين. وخلع
منصب المستشار الثاني (١) على قواد (٢) مثله، كان يمتلك دارا للدعارة في "كروادي مالت" -
صليب "مالطة" - فكان هذان اللشيمان في وثام تام، وعلى وقاحة تعادل فجورهما!.. فلم يعد في
الدار ركن واحد يليق برجل شريف، فيما عدا غرفة السفير وحدها.. بل إن هذه أيضا لم تكن كما
ينبغي!

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ألا يتناول عشاء قط، فقد كانت تمد لنا - المستشارين وأنا -
مائدة خاصة في المساء، يجلس إليها الراهب دي "بيني" والسعاة كذلك. وكان المرء حريّا بأن يلقي
في أحقر المطاعم خدمة أكرم، وأدوات للمائدة أنظف، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك!.. فما
كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء، وصحاف من القصدير، وشوكات من الحديد. ولقد
كنت خليقا بأن أحمل ما كان يدور في السر، لولا أنني حرمت من جندولي، فأصبحت الوحيد - بين
سكرتيري السفراء - الذي يضطر إلى أن يستأجر جندولا، أو أن يسير على قدميه. ولم يكن يرافقني
- إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ - سوى خدام صاحب السعادة السفير (٣). وإلى جانب هذا،
كان كل ما يحدث في السفارة لا يخفى على أهل المدينة، فقد كان كل موظفي السفير يرفعون
عقائدهم بتلك الأنباء. وكان "دومينيك" - السبب الأوحى في كل هذا - هو أكثرهم إمعانا في رفع
صوته!..

فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التي كنا نلقاها، إنما كانت تمسني أكثر مما تمس سواي.
وكنت الوحيد - من موظفي الدار - الذي يتورع عن الكلام خارجها، ولكنني كنت أرفع صوتي
بالشكوى للسفير.. لا مما كان يجري فحسب، بل منه هو نفسه كذلك، إذ كان - بفضل التحريض
الخفي من مستشاره الحبيث - يوجه إليّ في كل يوم إهانة جديدة. ولما كنت مضطرا إلى الإنفاق عن
سعة لكي أظهر في مستوى أقراني، وفي مظهر يليق بمنصبي، فإني لم أستطع أن أدخر "سو" واحدا
من مخصصاتي، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودا، راح يحدثني عن تقديره وثقته، وكان هذا
كافيا لأن يملأ جيبتي، ولأن يمدني بكل حاجاتي!



وانتهى هذان الشقيان (٤) إلى أن عبثا برأس سيدهما الذي لم يكن سليم التفكير أصلا، فقاده
إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بأنها تحف أثرية. كما

(١) إذ إنه خلف الكونت "بباني" في منصب الأمين الأول. (٢) في الأصل الفرنسي... Maq. (٣) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة إذا ما أوفد ناشيا عن السفير، حاجب رفيع الدرجة ومستشار. (٤) المستشاران الإيطاليان.

حملته على أن يستأجر قصرا - في "برينتا" - بأجر يعادل ضعف قيمته، واقتسما الفرق مع المالك. وكانت الغرف مبطنة بالقيشاني، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل أنواع الرخام، وفقا للطراز الذي كان شائعا في البلاد. ولقد عمد السيد "مونتيجي" إلى تغطية كل هذه الزخارف، بالواح من خشب الصنوبر، متعللا بحجة عجيبة، هي أن هذا هو الذي كان متبعاً في الدور الباريسية^(١). ولحجة أخرى كهذه، كان هو السفير الوحيد - في "البندقية" - الذي جرد سعاة سفارته من السيوف، وخدمه الخصوصيين من العصي.. هكذا كان الرجل الذي راح يكرهني، لجرد أنني كنت أخدمه بامانة. ولعله كان صادرا في ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذي حملته على التصرفات السالفة الذكر

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينة، وقسوته، وسوء معاملته، طالما ظلمت أراها صادرة عن الطبع التي جبل عليها، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية. ولكنني لم أكد أتبين أن الخطئة كانت مرسومة لحرمانني من الاعتبار الذي كنت أستحقه بفضل خدماتي الصادقة، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبي. وكان أول دليل تلقينته على سوء نيته، هو ذلك الذي حدث بمناسبة مائدة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دي "موديني" وأسرته، عندما حلوا بـ "البندقية".

فقد أنبأني بأنه لن يكون لي محل في تلك المائدة. فأجبتته مستاء - ولكن في غير غضب - بأنني قد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا، فإذا أبدى السيد الدوق دي "موديني" - عند مجيئه - أنني يجب أن أغيب عن المائدة، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة "السفير"، ومن الواجب علي، ألا أنصاع لهذه الرغبة. فقال في حدة: "ماذا؟.. إيطالب سكرتيري - وهو لم يبلغ مرتبة المستشار - أن يتناول الغداء مع عاهل، في حين أن مستشاري لن يحضرا المائدة؟". فأجبت: "أجل ياسيدي، فإن المنصب الذي شرفنتني سعادتك به، يرفع مقامي... طالما كنت أشغله - إلى درجة تجعل لي الأولوية حتى على مستشاريك، أو أولئك الذين يقال عنهم إنهم مستشاروك، ومن ثم فإن لي حق الحضور في مناسبات ليس لهم أن يحضروها. وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يذكر، تحتم علي - في اليوم الذي تحضر فيه التشريفات الرسمية - أن أتبعك في ثياب التشرية، وأن أحظى بحضور مآدب قصر "سان ماركو" معك. ولست أدري كيف لا يجوز للشخص الذي يجلس في مائدة عامة مع "الدوج" (١) ومجلس شيوخ "البندقية"، أن يجلس مع السيد الدوق "موديني" بالذات، إلى مائدة واحدة؟". ومع أن حاجتي كانت فوق كل رد، إلا أن السفير لم يسلم بها. غير أننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع. إذ إن السيد الدوق دي "موديني" لم يأت للغداء على مائدته قط!



ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتي، وعن امتهان حقوقي، مفتصبا الامتيازات البسيطة التي تتعلق بمنصبي، فكان يجردني منها ليخلعها على عزيزه "فيتالي". وإني لوائت بأنه لو استطاع أن يجزؤ على إيفاده - بدلا مني - إلى مجلس الشيوخ، لفعل. وكان يستخدم الراهب دي "بيني" عادة، لكتابة خطابات الخاصة في حجرة مكتبه، فعهد إليه بأن يكتب إلى السيد دي "موريبا" تقريراً عن مسألة الربان "أوليفيه"، لم يذكرني فيه البتة، مع أنني كنت الوحيد الذي تدخل في المسألة.. بل إنه أنكر علي شرف التحقيق الرسمي الذي قمت به - والذي

(١) لقد كان يطلق على رئيس الدولة في البندقية.

أرسل إلى السيد دي "موريبا" نسخة منه - وعزاه إلى "باتيزيل"، الذي لم ينسب بنت شفة، فلقد أراد أن يغيبني وأن يرضي صاحب الخطوة لديه، دون أن يستغني عني برغم ذلك، إذ شعر بأنه لم يكن لي عشر على خليفة لي، بنفس السهولة التي عشر بها على خليفة للسيد دي "قولو" - سلفي - الذي كان قد أشاع في الخارج فكرة صحيحة عنه... ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظرا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ... لم يكن في غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله، ويدير كل أموره، دون تدخل منه... سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة، والهوان الذي يجعله يروق للسيد المستشارين المدللين... ومن ثم فقد أراد أن يستغني عن يميني وأن يكيدني في آن واحد، بأن يمكيني بعيدا عن وطني، وعن وطنه، دون ما نقود تمكيني من العودة. ولعله كان جديرا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة. ولكن "فيتالي" كان يرى آراء أخرى، وكان يبغني حملي على الرحيل، وقد وفق في غايته. فما إن تبينت أنني كنت أبعد جهودي، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتي وكأنها جرائم، بدلا من أن يحمدها لي... وأنني لم يعد لي أن أطمع - طالما ظللت معه - في غير المضايقات في الداخل، وعدم الإنصاف في الخارج... وأن الأذى الذي كان يحاول أن يلحقه بي قد يفوق في الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت في خدمته، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام... ما إن تبينت كل هذا، حتى قررت أن أستأذنه في أن يعفني من العمل، مفسحا له الوقت كي يحصل لنفسه على سكرتير. على أنه ظل سادرا في مسلكه، دون أن يجيب بنعم أو لا. فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر، كتبت إلى أخيه، مفصلا كافة البواعث، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحي، مضيفا إلى ذلك أنني لن أمكث في منصبتي على أية حال...!

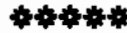
وانتظرت طويلا، دون أن أتلقى جوابا. وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة، عندما تسلم السفير - أخيرا - رسالة من أخيه.

ولابد أنها كانت شديدة اللهجة، إذ إنني لم أره - برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب - في مثل الهياج الذي رأيته فيه إذ ذاك. وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدري ما يقول، فاتهمني بأنني بعث أسرار الشفرة. وأخذت أضحك، ثم سأله في لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن في "الهندقية" بأسرها مفعلا واحدا يرضى بأن يدفع "أيكو" واحدا من أجلها. وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا، فهم بأن يدعو أتباعه لكي يلقوا بي من النافذة، كما قال. وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئي، ولكنني إزاء هذا التهديد - وجدت أن الغضب والعزة قد تملكاني بدوري، فاندفعت إلى الباب، وبعد أن دفعت المزلاج الذي يوصده من الداخل، عدت إليه وقلت في لهجة رهيبة: "لا ياسيدي الكونت، لن يتدخل أتباعك في هذه المسألة، فتكرم بتسويتها فيما بيننا!". وهذا تصرفي ومظهري من سوريته في الحال، وتجلت الدهشة والروع على أساريه. فلما رأيته قد تخلى عن هياجه، ودعته بكلمات موجزة، ثم ذهبت - دون أن أنتظر منه جوابا - ففتحت الباب، وخرجت، فاجترت الحجرة الملحقة بمكتبه في ثبات، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم، والذين اعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتي منهم لمناصرتي. وبدون أن أعود إلى غرفتي. هبطت السلم، وغادرت القصر، فلم أدخله بعد ذلك قط!



وذهبت لفوري إلى السيد "لوبلون"، لانبثه بما حدث، فلم يبد دهشة كثيرة، إذ كان يعرف الرجل، وإنما استبقاني للغداء. وكان هذا الغداء - برغم التعمجل في إعداده - بهيجا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوي المكانة، الذين كانوا في "البندقية".

ولم يكن بينهم فرد واحد في صف السفير، فقد روى القنصل حكايتي على الجماعة، وما إن الموا بها حتى صاحوا جميعا في وقت واحد، ولكن في غير صالح صاحب السعادة. ولم يكن هذا قد سوى حسابي، ولا اعطاني "مسو" واحدا. ولما كانت كل موارد لا تتجاوز بضع قطع من فئة "السلوي"، فقد وجدته في حيرة من أمر سفري. وإذا بكل الجيوب تفتتح لي، فاخذت عشرين "سيكان" من السيد "لوبلون"، ومثلها من السيد دي "سان سير"، الذي كنت وثيق الصلة به، وكان يلي القنصل في المكانة من قلبي. ثم شكرت الباقيين، وبقيت - إلى أن قدر لي الرحيل - مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية؛ لكي أثبت للرأي العام أن الأمة لم تكن مشتركة في مظالم السفير. ولقد أهاج هذا أن رأي موضع تكريم في محنتي، بينما كان هو - برغم مركزه كسفير - منبوذا، ففقد عقله تماما، وأخذ يتصرف كالمجنون. وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالي. فلما أنباني بذلك الراهب دي "بيشي"، قررت أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن أبادر إلى الرحيل في اليوم التالي، كما كنت اعتزم. وقد درس تصرفي فلفني إقرارا، كما غدوت موضع تقدير عام. ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعاء، كما أنبأتني - عن طريق القنصل - بأن لي أن أبقى في "البندقية" ما شئت، دون أن أزجج نفسي بتصرفات رجل أحمق! ومن ثم واصلت زيارتي لأصدقائي، وذهبت لأودع السفير "الإسباني" - الذي أحسن استقبالي - والكونت دي "فينوكيتي"، وزير "نابلي"، الذي لم أجده، فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من اللف الخطابات. وما لبثت أن رحلت - في النهاية - غير مخلف ورائي أية ديون، برغم ضائقتي، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل، وسوى خمسين "ايكو" كنت مدينا بها لتاجر يدعى "سورانددي"، وقد تكفل "كاريو" بدفعها إليه، وإن لم أردا إليه قط، بالرغم من أننا تقابلنا كثيرا بعد ذلك الحين. أما القرضان اللذان تحدثت عنهما، فقد سددهما كاملين بمجرد أن تيسر لي ذلك.



ولا يجوز أن نترك "البندقية" دون كلمة عن ملاهي هذه المدينة الشهيرة، أو على الأقل - عن القسط الضئيل منها، الذي قدر لي أن أنعم به أثناء مقامي هناك. ولقد رويت كيف أنني - في شبابي - كنت مقلا في السعي إلى ملذات هذه المرحلة من السن، أو - على الأقل - المتع التي توصف بأنها ملذات.

ولم أغير من مسلكتي هذا في "البندقية"، ولكن مشاغلي - التي كانت كفيفة بأن تمنعني من أي تغير - جعلت أسباب التسلية البسيطة، التي كنت استبجحها، أكثر إمتاعا. وكانت أولى هذه الأسباب والطفها هي مصاحبة الأكفاء من الناس: السادة "لوبلون"، ودي "سان سيير"، و"كاريو"، و"التونا"، وسيد "فورلاني" (١) نسيت - لشدة أسفي - اسمه، ولكني لا أستطيع أن أذكر لطفه دون أن تتأثر نفسي. ولقد أوتي - دون كل من عرفت من الرجال - أقرب القلوب شيها بقلبي. ولقد ارتبطنا كذلك بأثنين أو ثلاثة من الإنجليز، واسمي الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى. وكانت

(١) الفورلان اسم يطلق على أبناء منطقة "نهرول"، التي يقع جزء منها - الآن - في "النمسا"، وجزء آخر في "إيطاليا". وهناك رقصة باسم "فورلان".

لهؤلاء السادة جميعا زوجات، أو صديقات، أو عشيقات. ولكن جميعا - تقريبا - نساء موهوبات، تعزف الموسيقى ويدور الرقص في بيوتهن. وكان لعب الميسر يدور هناك أيضا، ولكن في القليل النادر، إذ إن ميلونا النزاعة، ومواهينا، وشغفنا بالمرح، جعلت هذه التسلية - الميسر - عقيمة، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر... وكنت قد حملت معي من "باريس"، التحامل الذي خلقه الشعور القومي ضد الموسيقى الإيطالية، ولكنني كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرفف الذي لا يمكن لمثل هذا التحامل أن يصمد أمامها. فسرعان ما سرى إلى نفسي ذلك الشغف الذي توحيه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصدددها. وإذا سمعت "الباركارول" (١) تبينت أنني لم أسمع قبل ذلك غناء!..

وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا، حتى إنني كنت حين أضيّق بالثرثرة، والأكل واللعب في المقصورات - في الوقت الذي لم أكن أهفو فيه إلا إلى الإنصات - أتسلل في كثير من الأحيان من رفاقي؛ لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار. وهناك كنت أجلس وحيدا في مقصورة مغلقة، وأسلم نفسي للذة الاستمتاع بالأداء، برغم طوله، دون أن يزعجني شيء، حتى نهاية السهرة. وفي ذات يوم، استسلمت للنوم - في مسرح "سان كرويزوستوم" - فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط في فراشي، ولم تقو الألمان الصاخبة، الرائعة، على إيقاظي، ولكن... من لي بمن يصف الشعور العذب الذي أحدثه في نفسي النغم الناعم والغناء الملائكي اللذان أيقظاني!.. وأية لحظة، وأي استغراق، وأية نشوة تلك التي استشعرتها حين فتحت أذني وعيني في آن واحد!.. كانت أول فكرة وأتتني هي أنني كنت في الفردوس!.. كانت تلك المقطوعة الرائعة، التي لا أزال أذكرها، والتي لن أنساها ما حييت، تبدأ هكذا:

"استحوذت علي الجميلة... التي أثارت أعماقي (٢). ورغبت في أن أحصل على لحن هذه القطعة، وقد ظفرت به، واحتفظت به زمنا طويلا، ولكنه لم يكن على الورق في روعته التي كان بها في ذاكرتي... كانت الأنغام واحدة، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا... لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التي كان يتردد بها في رأسي، والتي كان يؤدي بها في الواقع عندما أيقظني! أما الموسيقى التي تعتبر - في رأيي - أسمى من موسيقى الأوبرا، والتي لا مثيل لها في "إيطاليا" أو في بقية العالم، فهي موسيقى "الأسكوله" و"الأسكوله" بيوت خيرية أنشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللاتي لا موارد لهن، واللاتي تمهدن الجمهورية بعد ذلك، إما للزواج، وإما للالتحاق بالاديرة.

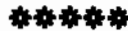
وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التي تنمي في هؤلاء الفتيات الصغيرات. ففي يوم الأحد من كل أسبوع، وفي كنيسة كل من هذه "الأسكولات" الأربع، تؤدي خلال قداسات الغروب مقطوعات (٣) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أداؤها أكبر الموسيقيين الإيطاليين... وهي تؤدي في المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المشابك (المعشق كجدران المتابر). ويقتصر أداؤها على الفتيات اللاتي لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها... وليس بوسعي أن أتصور شيئا الذ، وأعذب، وأكثر تأثيرا في النفس من هذه الموسيقى. فإن دسامة الفن، وعذوبة الغناء، وجمال الأصوات، ودقة الأداء... كل ما في هذه الحفلات الموسيقية البهيجة، يساهم في خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى "جودة الأسلوب"،

(١) أغاني نوتية الجندول. (٢) Conservami la bella che si m'accebbe il con. (٣) المقطوعات المقصودة "Motets" وهي مقطوعات

موسيقية غنائية دينية، تنظم من التعالم اللاتينية الخاصة بالطغوس الدينية.

ولكنني ارتاب في أن ثمة قلبا بشريا في مناعة منه!.. ولم يتخل "كاريو" وإياي قط عن حضور هذه القداسات في كنيسة "المنديكتاني"، ولم تكن الوحيدتين في ذلك، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة.. بل إن ممثلي الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائي مسترشدين بهذه النماذج الرائعة. وكان الشيء الذي يدفعني إلى القنوط، يتمثل في تلك الجدران الخشبية اللعينة، التي لم تكن تسمح بمرور شيء سوى الأصوات، والتي كانت تحجب عني الملائكة اللاتي قد أوتين - ولابد - جمالا يليق بهذه الأصوات.. ولم يكن لي من حديث إلا عن هذا الموضوع، وقد تحدثت فيه يوما، في دار السيد "لوبلون"، فقال: "إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات، فمن السهل إرضاء شوقك. فإني من المشرفين على المؤسسة، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة (١) معهن!"

ولم أتركه يرتاح حتى بربرعه. وإذا دخلت القاعة التي ضمت هؤلاء الجميلات اللاتي طال شوقي إليهن. استشعرت رجفة عاشقة لم أعدها من قبل. وقدم السيد "لوبلون" إلي هؤلاء المغنيات الشهيرات، اللاتي كانت أسماؤهن وأصواتهن هي كل ما عرفته عنهن: "تعالى يا صوفي"!.. إنها بشعة الخلقة!.. "تعالى يا كاتينا"!.. إنها ذات عين واحدة!.. "تعالى يا بيتينا"!.. كان الجديري يشوه وجهها!.. لم تكذب توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر.. وضحك القاسي من المفاجأة العنيفة التي صادفتني.. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل!.. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات "في كورس"، فتولاني الأسى. وفي أثناء الوجبة الخفيفة، رحنا نداعبن فإذا المرح يفيض بهن، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التي تبينت وجودها فيهن. فقلت لنفسى: ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع، ما لم يكن قد أوتين أرواحا سامية.. وكن كذلك فعلا. وأخيرا، تغير رأيي فيهن إلى درجة أنني انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات!.. وجرؤت - في عناء - على العودة إلى حضور قداسهن، وقد تبينت ما طمأنني. وقد ظللت أجد غناءهن عذبا، وأرى أن أصواتهن كانت تضفي على وجوههن بهاء، حتى إنني كنت أصغر - ما دمت اسمع غناءهن - على أن أنصورهن جميلات، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناى! والموسيقى - في "إيطاليا" - لا تكاد تتكلف شيئا يذكر، ومن ثم فإن حرمان النفس منها - إذا كان لدى المرء ميل إليها - لا يكاد يستحق العناء الذي يبذل في سبيل ذلك. وقد استأجرت معزفا، وكنت في مقابل "ايكو" واحد، أستقدم إلى داري أربعة أو خمسة من عازفي الموسيقى الغنائية، أتدرب معهم - مرة في الأسبوع - على عزف القطع التي تكون قد استأثرت بأعظم قدر من إعجابي في "الأوبرا". وكنت أجرب كذلك عزف بعض الألحان الغنائية التي ضمتها "عراس الشعر اللطاف" (٢) ولقد سألني أستاذ الموسيقى الإيقاعية في "سان جان كريستوستوم" قطعتين منهما - إما لأنه أعجب بهما حقاً، وإما لأنه أراد أن يشملقني - فسرني أن أسمعهما تؤديان على أيدي فرقته الرائعة، وأن تؤدي رقصاتهما الصغيرة "بيتينا".. وهي فتاة جميلة، لطيفة كان يرعاها "إسباني" مسن أصدقائها، يدعى "فاجواجا"، كثيرا ما قضينا السهرات في داره.



أما عن النساء، فليس لرجل أن يعرض عنهن في مدينة كـ "البندقية"!.. وقد يقال لي: "أليس لديك ما تعترف به في هذا الصدد؟".. بلى فإن لدي ما يقال فعلا، وإني لمقدم على هذا الاعتراف

(١) Gouter "تعبيرة" أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء. (٢) "الأوبرا" التي كان "روسو" قد ألفها في "باريس".

بنفس الصراحة التي فإن لدي اتبعته في كل اعترافاتي الأخرى.. ولقد كنت دائما أنفر من البغايا، بيد أنه لم يكن لدي سواهن في "البندقية"؛ إذ كان محرما عليّ و"لوج" معظم البيوت في المدينة، من جراء منصبي. ولقد كانت فتيات السيد "لويلون" جد لطيفات، ولكن التقرب إليهن كان أمرا عسيرا، كما أن احترامي لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لي مجرد التفكير في اشتهاهن! ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدعى الأنسة دي "كاتاليو"، كانت ابنة مندوب ملك "بروسيا". ولكن "كاريو" كان يهواها، حتى إنه كان يسعى إلى الزواج منها.. ولقد كان ميسور الحال، في حين أنني لم أكن أملك شيئا.. كان مرتبه مائة "لوي"، أما أنا فلم أكن أنقاضي سوى مائة "بيستول". وبغض النظر عن أنني ما كنت لأستبج أن أسطو على صيد صديقي، فإنني كنت أدرك أن ليس لرجل خالي الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان، أينما يكن.. ولو كن في "البندقية".. ولم أكن قد فقدت عاداتي المشؤومة، وأعني بها استبدال الحاجات التي أصبو إليها. ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لي سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التي يخلقها الجو المحيط بي، فإنني عشت في هذه المدينة عاما تقريبا، وأنا محتفظ بما كان لي - في "باريس" - من طهر وحكمة.. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا، دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلي:

ولقد اتاح لي أولهما السيد الشريف "فيتالي" (١)، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذي أجبرته على أن يقدمه لي في أكمل صيغة رسمية. فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهي "البندقية"، فأخذ السادة يعتبرون علي عدم اكتراثي بأشد هذه الملاهي حرارة، ويطنبون في إطراء رقة الغواني البندقيات، قائلين أن ليس في العالم من يضارعهن. وقال "دومينييك" إنني خليق بأن أتعرف إلى أبدهن طرا، وأنه يرجو أن يقدمني إليها، وأنني سأطرب لمعرفة. وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المخرج، فإذا بالكونت "بياتي" - وكان كهلا وقورا - يقول في صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالي، إنه يؤمن بأنني أعقل من أن أدع عدوي يقودني إلى دار غانية. والواقع أنني لم أشتعر ميلا، ولا تأثرت بإغراء، ولكنني انتهيت بالرغم من ذلك - وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التي لم أكن أملك أن أفهمها - إلى أن تركت عدوي يقودني، على النقيض من إملاء ميولي، وقلبي، وعقلي، بل وإرادتي.. كنت منساقا لمجرد الضعف والحجل من إيذاء عدم الثقة به، ولقد كانت "السادوانا" (٢) التي ذهبنا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه، بل إنه كان جميلا، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذي يروق لي.

وتركني "دومينييك" في دارها، فأرسلت في طلب بعض المثلجات "آيس كريم"، وسألته أن تغني لي، ثم تهيأت - بعد نصف ساعة - للانصراف، تاركا على المنضدة "دوكا" (٣)، ولكنها في عزة نفس غريبة - أبت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقبله.. وفي غيابه - لا يقل غرابة - أرضيت عزة نفسها!.. وعدت إلى القصر وأنا موقن من أنني أصبت بمرض خبيث، حتى إن أول ما فعلت هو أن أرسلت في طلب طبيب، لأطلب منه بعض الأدوية. وليس ثمة ما يعادل الغم الذي عانيته طوال ثلاثة أشهر، دون ما علة حقيقية، ودون ظهور أية علامة تبرزه. فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان غانية دون ما ضرر!.. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره، لكي يطمئنني، فلم يوفق إلا إلى إقناعي بأنني كنت مخلوقا على نمط خاص، لا يجعلني أصاب بالعدوى بسهولة. ومع أنني قد أكون أقل من أي رجل آخر تعرضا لهذا الخطر، إلا أن عدم تأثر صحتي البتة من هذه الناحية بالذات، يبدو لي دليلا على أن الطبيب كان مصيبا!.. على أن هذا الرأي لم يجعلني

(١) واضح أن "روسو" يسحر من "فيتالي" إذ يصفه بأنه شريف. (٢) الغانية. (٣) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و ١٢ فرنكا.

متهورا قط، وإذا كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية، فإن في وسعي أن أقول: إنني لم أسوء استغلالها!



أما مغامرتي الأخرى، فمع أنها كانت مع غانية كذلك، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف، سواء في أصلها أو في نتائجها.

فلقد ذكرت أن الكابتن "أوليفيه" - الريان - قد دعاني إلى الغداء على ظهر سفينة، وأنني اصطحبت سكرتير السفارة "الإسبانية". وكنت أتوقع أن تحببنا المدافع، فإذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تطلق، مما غاظني كثيرا، بسبب "كاريو"، الذي رأيته مستاء. والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدي لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتاكيد، كما أنني كنت إخالني جديرا بشيء من التمييز من الريان. ولم أستطع أن أخفي ما كان بنفسه، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما. ومع أن الغداء كان بديعا، وقد أدار "أوليفيه" الانخاب في إكرام رائع، فإنني بدأت المادبة وأنا منحرف المزاج؛ ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل!

وعند احتساء النخب الأول، توقعت تصفيقا على الأقل، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.. وضحك "كاريو" - الذي قرأ ما في خاطري - إذ رأيته أغمغم كالطفل. وفي ثلث الغداء، رأيت جندولا يقترب، وإذا الريان يقول لي: "لعمري!.. خذ حذرك ياسيدي فما هو ذا العدوا" فسألته عم كان يعني، وإذا ذاك أجاب بدعابة. ورسا الجندول بجوار السفينة، فرأيت فتاة باهرة الجمال، باللغة الرشاقة، في ثياب مغرية، تغادره.. وفي ثلاث قفزات كانت في الغرفة. ورأيتها تستقر إلى جوارى، قبل أن أفطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها!.. وكانت فائنة بقدر ما كانت رشيقة.. سمرء في العشرين من عمرها، على الأكثر!.. ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية، وكانت لهجتها وحدها كافية لأن تدبر رأسي. وفيما كانت تأكل وتتكلم، أخذت ترمقني، ثم تفرست في لحظة، وما لبثت أن صاحت: "ياللعذراء الطيبة!.. آه! ما أطول الوقت الذي انقضى يا عزيزي "بريمون" دون أن أراك!.. وارتمت في أحضاني، وألصقت فمها بفمي، واحتضنتني حتى كادت تزهق أنفاسي!..

وراحت عينها الواسعتان السوداوان - على غرار العيون الشرقية - ترميان قلبي بشواظ من لهب. ومع أن المفاجأة أحدثت شيئا من الاضطراب في البداية، إلا أن غريزتي الشهوية سرعان ما تملكنتني - بالرغم من الحضور - إلى درجة أن الغائنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحي، إذ إنني ثملت، أو بالأحرى جننت!.. فلما رأيته قد بلغت الدرجة التي كانت ترجوها، خففت من عناقها، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها.. حتى إذا راق لها أن تبدي لنا السبب الحقيقي أو الزائف لهذا النزق قالت: لنا إنني كنت أشبه السيد دي "بريمون"، مدير جمر "توسكاني"، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا.. وإنها كانت - ولا تزال - مقيمة بهذا السيد دي "بريمون"، وإنها كانت قد هجرته لحماقتها.. وأنها قد اختارتني بدلا عنه، فشأت أن تهواني؛ لأن هذا كان يروق لها، وأن من الواجب - للسبب ذاته - أن أحبها، طالما ظل هذا يلائمها، فإذا ما هجرته فجأة، وجب أن احتملها صابرا، كما كان يفعل عزيزها "بريمون"!! واستولت علي كما لو أنني كنت ملك يمينها، فعهدت إلي بقفازيها، ومروحتها، وحزامها، وقلنسوتها.. وراحت تأمرني بأن أذهب إلى وأدت هذه العلاقة إلى أن أصبحت

كل الملاحى الأخرى نفايات عقيمة، فلم أعد أغادر مسكنى إلا لأذهب إلى "تيريز"، وبات مسكنها مقرى تقريبا. ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى، حتى إن "الأوبرا" التى كنت عاكفا على تأليفها، اكتملت - كلاما وموسيقى - فى أقل من ثلاثة أشهر.

ولم تبق سوى بعض الحان تكميلية، وبعض الحان لتصحب المناظر. وقد ضايقنى هذا كثيرا، فعرضت على "فيليدور" أن يتولاه فى مقابل نصب من الريح، فجاء مرتين، وأضاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر "أوفيد"، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل - الذى كان يتطلب مثابة - فى مقابل ربح بعيد وغير مضمون؛ ومن ثم فإنه لم يعد، واكملت عملى بنفسى.

وإذا اكتملت "أوبوي"، آن لى أن أحصل من وراثتها على بعض الدخل، وكان هذا - فى حد ذاته - "أوبرا" أخرى، أشد عناء... فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى "باريس" إذا كان المرء يعيش فى عزلة. ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد "ديلابولينير"، الذى قدمنى إليه "جوفكور" فى داره، عند عودتى من "جنيف". وكان السيد "ديلابولينير" هو نصير (١) "رامو"، إذ كانت السيدة "ديلابولينير" تلميذته هذا المتواضعة، المتفانية فى الطاعة؛ ومن ثم فقد كان "رامو" هو المطر والصحو (٢) فى هذا المنزل، كما ينبغي أن يقال... ولقد ظننت أنه قد يقتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه، فرغبت فى أن أريه مؤلفى، ولكنه أبى أن يراه، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات، إذ إن هذا كان يتعبه كل التعب. وعقب "ديلابولينير" على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصغاء، وعرض أن يجمع موسيقيين لاداء بعض القطع، ولم أكن أرجو أفضل من هذا... ووافق "رامسو" وهو يزمجر، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون، لا بد وأن تكون شيئا بديعا...

وأسرعت أنسخ أودار خمس أو ست من أحسن المقطوعات، وتهيأ لى اثنا عشر من العازفين، بينما تولى الغناء "البرت"، و"بيرا"، والأنتسة "بوردونيه". وما إن بدأ الحن الافتتاح، حتى رمى "رامو" - بإطنايه فى المديح - إلى الإيحاء بأن اللحن ما كان ليتمكن أن يكون من تأليفى. ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدي أمارات التبرم، ونقاد الصبر. ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت "كونشرتاتور" - كان أداؤها قويا محكما، والموسيقى المصاحبة لها رائعة - فخاطبني فى خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين، وأعلن أن جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره، فى حين أن الباقي من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها... ومن الصحيح أن مؤلفى كان غير متناسق، وعلى غير قاعدة؛ ومن ثم فقد كان رفيع القيمة فى بعض أجزائه، وعقيما فى بعض آخر، شأن العمل الذى يقوم به كل امرئ لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية، دون ما سند من العلم. وزعم "رامو" أنه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير، لم يؤت أية موهبة ولا أى ذوق... ولكن العازفين، ورب الدار - بوجه خاص - لم يشاركوه رأيه. ولقد سمع السيد دي "رشيليو" - الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار، والسيدة دي "بولينير"، كما هو معروف - بحديث مؤلفى، فرغب فى أن يسمع "الأوبرا" بأكملها، معتزما أن يعمل على عرضها فى البلاط إذا راقته له. ومن ثم مثلت "الأوبرا" - بكامل ما كانت تتطلب من مغنيين وموسيقيين - على نفقة الملك، فى دار السيد "بونيفال"، الموكل بالحفلات الملكية. وقام "فرانكوير" بالإخراج... ولقد كانت النتيجة مذهشة، حتى إن السيد الدوق دي "ريشيليو" لم يكف عن الصياح والتصفيق. وفى نهاية

(١) النصير المقصود هنا، هو الرجل ذو الجاه والمال، الذى برعى أدبيا أو فنانا ويبدل له يد العون. (٢) تعبير فرنسي معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة، بحيث يفضى أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره. ويقابله فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو "أكل فى الكل".

أغنية جماعية - في الفصل الخاص بـ "قاس" - نهض وجاءني فصافحتني قائلاً: "هذا هو اللحن الذي يشجني، ياسيد "روسسو"! ... ما سمعت قط أجمل منه، وإني لأود أن أقدم هذه التحفة في "فرساي". ولم تنبس السيدة دي "بولينيير" - التي كانت حاضرة - بكلمة واحدة. أما "رامو"، فبالرغم من أنه دعي، إلا أنه لم يشأ أن يحضر.

وفي اليوم التالي، استقبلتني السيدة "بولينيير" - في غرفة زينتها - استقبالا شديدا الجفوة، وتعمدت أن تحط أمامي من شأن مؤلفي، وقالت لي: إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دي "ريشيليو"، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه، ونصحتني بالآأعول كثيرا على أوبراي! ... وأقبل السيد الدوق بعد قليل، فتحدث إلي بلهجة تخالف ذلك تماما، إذ أطرى مواهبي، وبدأ مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفي على مشهد من الملك. وقال: ليس هناك ما لا يمكن إجازته في البلاط، سوى الفصل الخاص بـ "قاس"، فعليك أن تكتب فصلا غيره! ". وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعني إلى أن أذهب إلى داري، فأحتبس نفسي. وفي غضون ثلاثة أسابيع، استطعت أن أضع فصلا يحل محل فصل "قاس"، وكان موضوعه "هيسود (١)" يتلقى الإلهام من إحدى عرائس خياله.

واهتمت إلى طريقة خفية مكنتني من أن أؤس في هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبي وقصة الغيرة التي راق لـ "رامو" أن يكرم بها هذه المواهب. ولقد كان في هذا الفصل الجديد سمو أقل جبروتا، وأكثر تمسكا وإحكاما عما كان في الفصل الذي كان يدور حول "قاس". وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى، ولو أن الفصلين الآخرين كانا معادلين لهذا، لقدرة للأوبرا أن تعرض بنجاح. بيد أن مشروعا آخر عرض لي - فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه - فارجأت أداء هذه المسرحية!

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

أقيمت في "فرساي" - في الشتاء الذي أعقب معركة "دي فونتينو" - حفلات كثيرة، كان بينها عدة أوبرات عرضت في مسرح الـ "بييتيت إيكوري". وكان بين هذه مسرحية "فولتير"، التي كانت تحمل اسم "أميرة نافار"، والتي نظم "رامو" موسيقاها. وقد عدلت وبدل اسمها إلى "أعياد رامير". وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات في الأغاني والرقصات التي كانت في "الدراما" السابقة، سواء من حيث التركيب الشعري، أو التركيب الموسيقي. واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدي هذه الغاية المزدوجة، إذ إن "فولتير" كان - إذ ذاك - في "اللوورين"، وكذلك كان "رامو". وكانا منهما مكنين معا في أوبرا "معبد المجد" (٢)، فلم يكن في وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة. ومن ثم فإن السيد دي "ريشيليو" تذكروني، وعرض علي أن أقوم بالمهمة. ولكي أحسن تبين ما ينبغي عمله، أرسل إلي كلا من الشعر والموسيقى على حدة. ولم أشأ - قبل كل شيء - أن أؤس ألفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف، فكتبت إليه في هذا الصدد، رسالة جد أمينة ومحترمة - في الوقت ذاته - وفقا لما كان يتطلبه الظرف. وها هو ذا رده، الذي يوجد الاصل الخطي له، في ملف الأوراق "أ"، رقم (١):

"١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٤٥

"إنك لتجمع ياسيدي بين موهبتين كانتا - حتى اليوم - منفصلتين دائما. وهما سيبان كافيان

(١) "هيسود": كان شاعرا إغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل، محاولا أن يضع دستوراً أخلاقيا يخلل المحبة والسلام. وقد قدم "كتابي" - في العدد ٥٥ - سيرته وملخصا لأعظم رسالاته: "الأيام والأعمال". (٢) Temple de Gloire.

لحملي على أن أقدرك وأن أسمى إلى أن أحبك. وإنني لفي هم من أجلك، إذ تستخدم هاتين الموهبتين في عمل غير جدير بهما كل الإدارة. فمئذ بضعة أشهر، طلب إلي السيد الدوق دي "ريشيليو" - طلبا جازما - أن أعد، في لمح البصر، مسودة صغيرة غير دقيقة، لبضعة مناظر نافهة وناقصة، تتمشى مع أغان ورقصات لا ثلاثتها إطلاقا. وقد صدعت برغبته بحذافيرها، ورحت أعمل في سرعة فائقة، ودون ما إجابة. ثم أرسلت هذه المسودة التبعة إلى السيد الدوق دي "ريشيليو"، وأنا موقن من أنه لن يستخدمها، ومن أنني لن أضطر إلى تصحيحها. ولحسن الحظ أنها بين يديك، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء، إذ إنني قد أقصيتها تماما عن ذهني. ولست أشك في أنك ستفتح كل الأخطاء. التي لا بد من أن تكون قد أفلتت مني في تعجل تأليف التصميم البسيط، وأنك قد ملأت كل نقص!

"وإنني لأذكر أن من السهوات التي تنم عن طيش، أنني نسيت أن أوضح في هذه المناظر - التي تربط بين الأغاني والرقصات - كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقة أو قصر. وإذا لم يكن الشخص الذي أقام الحفلات لتكريمها ساحرا، وإنما كان سيذا إسبانيا، لذلك يبدو لي أنه لا ينبغي أن ندع للسحر مجالا. فأرجو أن تكرم ياسيدي بإعادة النظر في هذا الجزء، الذي لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة. وانظر ما إذا كان من الضروري أن تفتح أبواب السجن، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول، يعد من أجلها.. إنني لأعرف تمام المعرفة أن الأمر كله معاب للغاية، وأنه ليس مما يليق بأي كائن مفكر أن يحمل هذه التفاهات على محمل الجد، ولكن.. بما أن علينا ألا نسب من الأشياء إلا أقل ما يستطاع، فمن الواجب أن نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك في أوبرا غنائية راقصة رديئة.

"إنني أدع لك وللسيد "بالو" كل شيء، وأعتقد أنني لن أليث أن أتشرف بأن أقدم لك آيات شكري عما قريب، وبأن أؤكد لك ياسيدي، إلى أي مدى يشرفني أن أكون... إلخ".
ولا يعجب المرء لما في هذا الخطاب من أدب جم - إذا قيس بخطابات "فولتير" نصف المهذبة التي كتبها لي بعد ذلك الحين - فقد كان يظنني ذا مكانة كبيرة لدى السيد "دي ريشيليو"، فحملة الرءاء المرن على أن يبدي كثيرا من الاعتبار للوفاد الجديد على البلاط، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته!



وإذ حصلت من السيد دي "فولتير" هذا السلطان، وأعفيت من كل اعتبار لـ "رامو" - الذي لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلي - فإنني عكفت على العمل - ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتي قد أنجزت. ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة، إذ كان همي الأوحده هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا، ومن حقي أن أعتقد أنني قد وفقت. أما مهمتي - في الناحية الموسيقية - فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد، فضلا عن أنني اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات، منها اللحن الافتتاحي، وكل ألحان الإلقاء الغنائي (١) التي تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة، إذ كنت مضطرا إلى أن أربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات، بقليل من السطور - في كثير من الأحيان - وبواسطة أنغام سريعة جدا، ذلك لأنني عقدت عزمي على ألا أغير أو أعدل لحنا واحدا، حتى لا يتهمني "رامو" بإفساد ألحانه الأصلية. ولقد وفقت في هذا الإلقاء الغنائي. فكانت النبرات واضحة، مليئة بالقوة، رائعة في تناسق نغماتها، بوجه خاص. ولقد أدى التفكير في هذين العاملين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما - على هذا النحو - إلى رفع روحي المعنوية،

وبوسمي أن أقول إنني في هذا العمل الذي لم يكن لي من ورائه حمد ولا مجد، والذي لم يكن مقدورا للرأي العام ذاته أن يعلم بفضلتي فيه - حافظت دائما على مثلي ومستواي!
ولقد أجريت التجارب على المسرحية - بالشكل الذي نقحتها إليه - في مسرح "الأوبرا" الكبير.
ووجدتني الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة. فقد كان "فولتير" متغيبا، في حين أن "رامو" لم يحضر، أو لعله تعمد أن يتواري. وكانت كلمات المناجاة (١) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلقا:
"ألا أيها الموت تعال، فاختم تعاسات حياتي!"

وكننت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تمشي معها، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هي التي خصتها السيدة "ديلا بوبلينير" بنقدها، إذ اتهمتني - في تحامل - بأنني وضعت لحنا جنازيا. وبدأ السيد "دي ريشيليو" بأن يسأل - في إنصاف - عمن كتب كلمات المناجاة، فاطلعت على المخطوط الذي كان قد أرسله إلي، والذي أثبت أنها من وضع "فولتير". فقال: "إن المخطئ - في هذه الحال - هو "فولتير" وحده". وظل كل ما فعلت معرضا - خلال التجربة - لاستهجان السيدة "ديلا بوبلينير"، ولإنصاف السيد "دي ريشيليو". على أنني ما لبثت أن تبين أن التحامل كان شديدا الوطأة، فقد أشير علي بتنقيح عدة أشياء في مؤلفي، كان لابد من استشارة السيد "رامو" بشأنها. وأكرمني أن تكون هذه هي النتيجة، بدلا من الإطراء الذي كنت أرتقبه، والذي كنت جديرا به يقينا. فعدت إلى بيتي بقلب مثقل... وسقطت مريضا، وقد هدني الإعياء، وراح الأسى ينهشني... وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج!

وأرسل "رامو" - الذي وكلت إليه التعديلات التي أشارت إليها السيدة "ديلا بوبلينير" - يطلب إلي افتتاحية "أوبرا" الكبرى، ليضعها في مكان تلك التي وضعتها. وفطنت - لحسن الحظ - إلى الخيلة، فرفضت. ولم يكن قد بقي على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية، واضطر إلى أن يترك تلك التي كنت قد وضعتها من قبل... وكانت على النسق الإيطالي، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على "فرنسا"، في ذلك الوقت. ومع ذلك فإنه لقي استساغة، وسمعت من السيد "دي فالماليت" - رئيس ديوان الملك، وزوج ابنة السيد "موسار"، وكان قريبا وصديقا لي - أن هواة الفن أبدوا كل الرضا عن مؤلفي، وأن الرأي العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج "رامو". غير أن هذا اتخذ من الإجراءات - بالتواطؤ مع السيدة "ديلا بوبلينير" - ما يحول دون معرفته أنني قد ساهمت في تلك القطعة. فعلى الكتب (٢) التي توزع على النظارة، والتي تثبت فيها دائما أسماء المؤلفين، ولم يذكر سوى اسم "فولتير". وآثر "رامو" إغفال اسمه على أن يرى اسمي مقترنا به!

وما إن تمكنت من مغادرة داري، حتى رغبت في زيارة السيد "دي ريشيليو". ولكن الفرصة كانت قد فاتتني، إذ إنه كان قد رحل إلى "دنكرك"، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل الحملة التي كانت موجهة إلى "إيكوسيا" "أسكتلندا". ولما عاد، قلت لنفسي - لأبرر كسلي - إن المناسبة قد انقضت. وبما أنني لم أعد أراه منذ ذلك الحين، فقد أضعت على نفسي التكريم الذي كان مؤلفي يستحقه... التكريم الذي كان جديرا بأن يدره علي. ومن ثم فإن وقتي، وعملي، وحزني، ومرضي،

(١) المونولوج: وهو الحديث الفردي الذي يلقيه المرء لنفسه. (٢) يقصد الكتاب الذي يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية. وما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار، ولا مؤلف الموسيقى.

ولما أورد فقط اسم "فال" مؤلف "البالية". وقد عرضت التمثيلية في "فرساي" في ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥، أي بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذي كتب فيه "فولتير" رسالته. وقد ذكر "روسو" - في الفترة السابقة - أن "رامو" طلب افتتاحية "عراس أحلام الشعراء" قبل هذا العرض بخمسة أيام، فكانه المزمع التعديلات في حوالي يومين!

والنقود التي كلفنيها.. كل هذا تكبدته دون أن يعود علي بـ"سو" واحد، بل ودون أي تعويض. ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى أن السيد "دي ريشيليو" كان ميالا بطبعه نحوي، وكان يحسن الظن بمواهيبي، ولكن نحسي والسيدة "ديلا بويلينيير" حالا دون كل نتيجة لحسن طويته!

وما استطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التي كنت أغضب نفسي على إرضائها، والتي اعتدت أن أثابر على أن أبادي لها مجاملتي. ولقد شرح لي "جوفكور" الأسباب، فقال: "هناك - أولا - صداقتها لـ"رامو"، الذي كان يحظى علنا برعايتها، والذي لم يكن يحتمل أية منافسة.. وفوق ذلك، كان ثمة ذنب جوهرى يعيبك في نظرها، ولن تغتفره لك أبدا.. ذلك هو أنك "جنيفي"!!.. وهنا بين لي أن الراهب "هوبير" - الذي وفد هو الآخر من "جنيف"، والذي كان صديقا صدوقا للسيد "ديلا بويلينيير" - كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة، التي كان يعرفها تمام المعرفة، والتي حرصت - بعد الزواج - على أن تولي كل جنيفي كراهية لا سبيل إلى مغالبتها. وأردف "جوفكور" قائلا:

"ومع أن "لابلوبيلينيير" يكن لك ودا - أنا موقن منه - إلا أنه ليس لك أن تعتمد على مؤازرته، فهو مدله في هوى زوجته، وهي تكرهك.. وإنها لخبيرة ماهرة.. ولن يكون لك شأن في هذا المنزل". وأدركت ما كان يرمي إليه!



ولقد أدى لي "جوفكور" هذا خدمة أخرى - حوالي ذلك الوقت - كنت في حاجة ماسة إليها. فلقد فقدت أبي الفاضل، وقد قارب الستين من عمره. ولم أشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليفا بأن أحس بها في الماضي، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالي بمثل ما كانت تشغله في هذه الآونة. إذ إنني لم أحاول قط - خلال حياته - أن أطالب ببقية تركة أمي التي كان يحصل دخلها البسيط. أما بعد موته، فلم يداخلني تردد بهذا الشأن، ولكن عدم توفر دليل قضائي على وفاة أخي، كان عقبة أخذ "جوفكور" على عاتقه عبء إزاحتها، وقد أزاحها فعلا بفضل مساعي المحامي "دي لولم". ولما كنت في حاجة ملحة إلى هذا المورد الضئيل، وكانت المسألة محوطة بالريب، فقد رحت أنتظر نبا حاسما في صبر نافذ وتلهف. وفي ذات مساء، وجدت، إذ عدت إلى مسكني - الرسالة التي كان منتظرا أن تشتمل على هذا النبا، فتناولتها لأفضها، وأنا أرتجف في لهفة خجلت منها في سربرتي، وقلت لنفسي في ازدراء:

"وبعد؟!.. أينساق "چمان چماك" لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة؟.. ووضعت لفوري الرسالة على رف المدفأة، ثم خلعت ثيابي، وأويت إلى فراشي في هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت.. ثم صحوت في اليوم التالي متأخرا، دون أن أعود إلى التفكير في الرسالة. وفيما كنت أرتدي ثيابي، لحنها ففضضتها في غير تعجل، ووجدت فيها حوالة مالية - ولكن بوسمي أن أقسم إن أقواها جميعا كانت تلك التي نهتني إلى انتصاري على نفسي. وأستطيع أن أذكر عشرين من امثال هذه المناسبة في حياتي، ولكني لا أجد وقتا لكي أروي كل شيء. ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى "ماما" وأنا أبكي حسرة على الأوقات السعيدة، التي كانت كل رسائلها توحى بضيقتها. ولقد أرسلت لي أكواما من الوصفات والأسرار التي كانت تزعم أن بوسمي أن أجمع بها ثروة لي ولها.

ولقد كان مجرد التفكير في فاقتها يعصر قلبي، ويضيق أفق عقلي. وكان القليل - الذي اعتدت أن أرسله إليها - يقع في أيدي الأندال الذين كانوا يحيطون بها، دون أن تنتفع بشيء منه. فجعلني هذا أكره أن أشرك هؤلاء النساء فيما كانت تمس إليه حاجتي، لاسيما بعد المحاولات غير المجدية التي بذلتها لانتزاع "ماما" من قبضاتهم، مما سيرد ذكره فيما بعد.

وانساب الوقت، وانساب النقود معه. وكنا اثنين، بل أربعة. . بل إننا كنا سبعة أو ثمانية، كما يحسن أن يقال.

ذلك لأنه بالرغم من أن "تيريز" كانت زاهدة في أية مصلحة شخصية، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها. فما إن رأت أحوالها تتحسن قليلا - بفضل رعايتي - حتى استدعت كل أسرته لتشاطرها الغنيمة. فإذا بالآخوات، والأبناء، والبنات، والأحفاد يقدون جميعا، ماعدا ابنتها الكبرى، التي كانت متزوجة من مدير عربات النقل في "أنجير" .. وأصبح كل ما أفعله من أجل "تيريز"، يتحول بفضل أمها إلى هؤلاء النهمين. ولما لم أكن جشعا، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة، فإني لم أرتكب أية حماقات. بل إنني في اغتيابي بأن أعول "تيريز" - في حياة لا بأس بها، خالية من الترف، ولكنها في وقاء من الحاجة - أقرررتها على أن تسلم أمها كل ما كان يوسعها أن تكسبه من عملها. ولم أكن أقصر على ذلك .. ولكنني استسلمت للقدر الذي كان يتعقبني .. ففي الوقت الذي كانت فيه "ماما" ضحية لآندالها، كانت "تيريز" ضحية لأسرتها، ولم يكن بوسعني أن أقدم أي عون يعود بالنفع على تلك التي كانت أقصد نفعها في الحالين. ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة "لوفاسير" - وهي الوحيدة التي لم تحظ بصداق من أهلها - هي الوحيدة التي راحت تعول أباه وأمه .. وأن هذه المسكينة - بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها وأخواتها، بل ومن أبناء هؤلاء - أصبحت فريسة لنهبهم، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل. ولم يكن بين أبناء أخوتها سوى واحدة فقط، تدعى "جوتون ليدوك"، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم.

ولما كنت كثيرا ما أراهم مجتمعين، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب، فانا أنادي ابنة الأخ بـ ابنة أخي، والعمة بـ يا عمتي. وأصبح الفريقان يناديانني بـ يا عمي .. ومن هنا نشأ اسم "العمة" الذي أنادي به "تيريز" باستمرار، والذي يردده أصدقائي في بعض الأحيان، على سبيل المداعبة!



ومن المعقول أنني لم أضيع لحظة واحدة - في مثل هذا الموقف - دون أن أحاول أن انتزع نفسي منه، وإذا حدثت أن السيد دي "ويشيليو" قد نسيني، ولم أعد آمل في شيء من ناحية البلاط، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم أوبراي في "باريس". ولكنني صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا، في حين أن حاجتي كانت تزداد شدة يوما بعد يوم. ولقد أشير علي بأن أقدم تمثيلتي الهزلية الصغيرة "فارسي" على مسرح الإيطاليين "أوزيتاليان". فقبلت التمثيلية، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل، مما سرنني كثيرا. ولكن هذا كان غاية ما في الأمر إذ إنني لم أوفق قط إلى أن أحملهم على إخراج المسرحية. حتى إذا ضقت بمداينة الممثلين الفكاهيين، انصرف عنهم. ولجأت

في النهاية إلى الحيلة الأخيرة التي بقيت لي، والتي كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع. فبينما كنت أتردد على دار السيد "ديلا بونلينيير"، ظللت بعيدا عن دار السيد "دوبان". ومع أن ريتي الدارين كانتا على بعض صلات القرى، إلا أنهما لم تكونا على وئام، ولم تتزاورا قط. بل لم تكن بين الدارين أية صلة، وإنما كان "فيسريو" هو الوحيد الذي اعتاد أن يتردد على هذه وتلك. وقد وكل إليه أمر السعي إلى حملي على العودة إلى دار السيد "دوبان". وكان السيد "فرانكوي" ماضيا - في تلك الأثناء - في دراسة التاريخ الطبيعي، والكيمياء، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة. واطنه كان يطمع في عضوية محفل العلوم، وكان يرغب - في سبيل ذلك - في أن يضع كتابا، وقد خطر له أنني أستطيع أن أكون ذا نفع في هذا الصدد. وكان للسيدة "دوبان" - من ناحيتها - رأي مشابه في شخصي، كما أنها كانت تفكر في أن تؤلف كتابا. ومن ثم فقد ودا أن يستأجراني لكون أشبه بسكرتير يتقاسمونه. وكان هذا هو الهدف من مساعي "فيسريو". فطلبت - كعربون - أن يستخدم السيد "دي فرانكوي" نفوذه ونفوذه "جيليو" من أجل تجربة لإخراج تمثيلتي في الأوبرا، فوافق. وأجريت عدة تجارب لإخراج "عرائس الشعر اللطاف" في "المخزن" (١) في بادئ الأمر، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير. وحضر التجربة الكثير من الناس، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد. على أنني شعرت أثناء الأداء الموسيقي - الذي أساء "ريسل" الإشراف عليه - بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة، وعلى هذا فإنني سحبتها دون ما إيضاح، ودون أن أعرض نفسي لسماع رفضها. ولكنني رايت بجلاء، ومن عدة بوادر، أن التمثيلية ما كانت ستجاز، ولو كانت في أكمل حال. ذلك لأن السيد "دي فرانكوي" كان قد وعد حقا بأن يهيئ السبيل لتجربتها، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها. وقد بر بوعده تماما. ولقد كان يخيل إلي دائما - في هذه المناسبة وفي كثير غيرها - بأنه ومدام "دوبان" لم يكونا حريصين على أن يدعاني اكتسب شهرة محققة في المجتمع؛ ولعل ذلك كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن - عندما تظهر مؤلفاتهما - أنهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهي. ومع ذلك، فإن السيدة "دوبان" كانت دائما مقتصدة في رأيها عن كفاءتي؛ ومن ثم فإنها لم تستخدمني قط إلا لأكتب ما كانت تمليه علي، أو لأقوم لها بأبحاث بحثة، ومن ثم فإن هذا الظن - فيما يتعلق بها - قد يكون جائرا!

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

أدى هذا الفشل الأخير إلى تشييط عزيمتي تماما، فهجرت كل أمل في الرقي والمجد، ولم أعد أفكر في مواهي الحقيقة أو الموهومة، التي لم تعد علي بطلال، بل كرست وقتي وجهدي لكسب قوتي وقوت "فيسريزي"، بالشكل الذي راق لهذين اللذين تكفلا بتمكينني من ذلك. ومن ثم فإنني تفرغت تماما للسيدة "دوبان" والسيد "دي فرانكوي". ولم يدفعني هذا إلى سعة من العيش موفورة.. فإن المرتب الذي تقاضيته في العامين الأولين - وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا - كان لا يكاد يوفر لي حاجاتي الأولية. إذ إنني كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة منهما، في حجرة مؤنثة، بحي من الأحياء التي تتطلب نفقات كثيرة، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر، في الضرف الأقصى ل"باريس"، عند نهاية شارع "سان جاك"، حيث كنت أذهب لتناول العشاء في كل مساء تقريبا، مهما تكن حال الطقس.

(١) القسم الذي كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية ولباب التمثيل.

وسرعان ما ألقت عملي الجديد، بل إنني بدأت أميل إليه فاهتممت بالكيمياء، وتلقيت دروسا عدة مع السيد "دي فرانكوي"، لدى السيد "رويل". ورحنا نسود أكادسا من الورق بما كنا نكتبه في هذا العلم، سواء عن صواب أو عن خطأ، ورغم أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية! . ولقد ذهبنا - في سنة ١٧٤٧ - لقضاء الحريف في "تورين"، في "شانتو دي شينونسو"، القصر الملكي القائم على نهر "الشير"، والذي شيده "هنري الثاني" من أجل "ديانا دي بواتيير" .. التي لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك. وكان هذا القصر قد آل إلى السيد "دوبان"، بوصفه المشرف العام على الأراضي الزراعية للملك.

ولقد استمتعنا كثيرا بالإقامة في هذا المكان البديع، وازددنا سمنة، حتى إنني أصبحت بدينا كالرهبان! .. ونعمنا بقدر كبير من الموسيقى، كما أنني ألقت عدة ثلاثيات غنائية (١)، زاخرة بالقوة وبالتناسق النفسي، وسوف أتحدث عنها في "الملحق" إذا قدر لي أن أكتبه. كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكاهية، واستطعت - في خمسة عشر يوما - أن أؤلف واحدة، من ثلاثة فصول، أسميتها "الخطبة المتهورة" (٢)، وهي موجودة بين أوراقي، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط. ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخرى، منها قصيدة بعنوان "درب سيلفيا" (٣)، عن درب في المتنزه الذي كان يمتد على ضفاف نهر "الشير". على أن هذا لم يصرفني عن دراساتي الكيميائية، ولا عن العمل الذي كنت أؤديه للسيدة "دوبان".

وبينما كنت ازداد سمنة في "شينونسو"، كانت "تيريزي" المسكينة تتضخم في "باريس" بشكل آخر، حتى إذا عدت، وجدت "المؤلف" الذي كنت بدأت، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها (٤). وقد دفع بي هذا - نظرا لموقفي - إلى حيرة بالغة، لولا أن زملاء المائدة أمدوني بالحيلة الوحيدة التي كان بوسعها أن تخرجني من المازق. وهي من البيانات الدقيقة التي لا أملك أن أبوح بها في بساطة، لأنني قد أضطر - إذا أقدمت على أي إيضاح - إلى أن التمس لنفسني المعاذير، أو إلى أن أدين نفسي، وما أراني راغبا في أن أفعل هذا أو ذاك!

ففي أثناء إقامة "التونا" في "باريس"، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا، بدلا من أن نأكل في أحد المطاعم. فكانت نتردد على السيدة "لاميل"، بالقرب من ممر "الأوبرا" .. وكانت زوجة حائكة، تقدم أطعمة غير شهية، ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم. فما كان لأي مجهول أن يلج المكان، بل كان لابد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك. وكان "الكوماندور دي جرافيل" ممن استقروا هناك. وهو شيخ ماجن، موفور الظرف والذكاء، ولكنه بذى اللسان .. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكي، تألفت من ضباط من فرق الحرس، والفرسان .. وكان "الكوماندور دي تونان" حامي كل فتيات الأوبرا، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان - في كل يوم - كافة أنباء هذا الوسط العابت .. أما السيدان "دوبليسي" - وكان "بكباشي" محالا إلى الاستيداع، وشيخا طيبا حكيما - و"أنسيليه" (٥) - وكان من ضباط الفرسان - فقد فرضا قدرا من النظام على هؤلاء الشبان. كذلك كان يتردد على

(١) قطع غنائية يشترك في أدائها ثلاثة أشخاص. (٢) L'Engagement Téméraire. (٣) لم يلبث القصر أن آل إلى مالك هدم هذا الدرب الذي أذاع "روسو" شهرته، والذي كان يجذب زوار "فرنسا" من الأجانب. (٤) من المفهوم أنه يعني أن علاقته بـ "تيريز" انضمت جنبا. (٥) عقب "روسو" على هذا بقوله: "إلى هذا الأنسليه أهديت تمثيلية فكاهية صغيرة من تأليفي، بعنوان "أسرى الحرب"، وضمتها بعد التكميلات التي نزلت بالفرنسيين في "أفاري" و "بوهيميا"، ولم أجزأ إطلاقا على أن أعترف بها، أو أن أعرفها. وكان ذلك لسبب واحد، هو أن الملك، و "فرنسا"، والفرنسيين، لم يحظوا - فيما أحسب - بأفضل ولا أصدق من الإطراء الذي اشتد عليه هذه التمثيلية. ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة، فإنني لم أجسر على أن أعترف بأنني مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئ. وإذا كنت أشد أسي لمصائب "فرنسا" من الفرنسيين أنفسهم، فقد خشيت أن تؤخذ على محمل الملق والجبن. أمارات الحب الصادق، الذي ذكرت - في الجزء الأول من اعترافاتي - عهده وسببه، والذي كنت استحي من إيداعه!" وقد ورد ذكر ذلك في الكراسة الخامسة.

المكان تجار، وماليون، ومتعهدون بتوريد الاغذية. ولكنهم كانوا مؤدبين، أمناء، من المبرزين في حرفهم ومهنتهم. وكان السيد "دي بيس" والسيد "دي فوركااد" بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم. وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك انسانا محترمين من جميع الانواع فيما عدا الرهبان وذوي الاوشحة (١) الذين لم يقع عليهم بصري هناك إطلاقا، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم. وكانت هذه المائدة، على ازدهامها، جد مرحة في غير صخب، كثيرة الثرثرة في غير بذاءات. فما كان القائد "الكوماندور" الشيخ لينسى البتة - بكل قصصه المأجنة - الادب الذي الفه في البلاط، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا أية كلمة بذية لا تغتفرها له النساء. وكانت لهجته دستوراً للمائدة كلها، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية في كثير من التحرر والكياسة. ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب، فقد كان العمر الذي يفضي إلى دار السيدة "لاسيل"، يؤدي كذلك إلى حانوت السيدة "دوشات"، وهي تاجرة أزياء ذائعة الصيت، كانت تستخدم - إذ ذاك - فتيات موفورات الجمال، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهم الحديث، بعد الغداء. وكان بوسعي أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون، لو أنني كنت أكثر جرة مما أنا. إذ إنني لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن ألج الحانوت، كما كانوا يفعلون، ولكنني لم أجسر. أما السيدة "لاسيل"، فقد ظللت أذهب لتناول الطعام لديها في كثير من الاحيان، عقب رحيل "التونا". وهناك، سمعت فيضا من الحكايات المسلية - كما اقتبست تدريجيا المبادئ التي ألفيتها مستتبة هناك - دون المقاييس الخلقية، والحمد للسماء!.. فمن أشرف أودوا، إلى أزواج خدعوا، إلى نساء استخفتهن الغواية، إلى أطفال ولدوا في الخفاء.. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك. وكان ذلك الذي يساهم أكثر من سواه، في زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب. ولقد أصابني عدوى هذا كله، فصغت طريقة تفكيري على نسق تلك التي رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء، ومفرطي الادب بوجه عام!.. وقلت لنفسي: "مادم هذا هو العرف السائد في البلاد، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها"!! وهذه هي الحيلة التي كنت أنشد لها. فاعتزمت - في اغتباط - أن انتهجها، دون أية هواجس من ناحيتي أو تردد.. وكل ما كان علي أن أنقلب عليه، هو مخاوف "تيريز"، التي كابدت - في حملها على انتهاز الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شرفها - كل ما في الدنيا من عناء!..

ولقد انضمت لي أمها، التي كانت تخشى الشورط في طفل جديد. وانصاعت "تيريز" فسي النهاية، فاخترت مولدة "داية" حكيمة، مأمونة، تدعى الآنسة "جوان" - كانت تقيم عند "رأس سان أوستاش" - لنعهد إليها بهذه الوديعة. فلما آن الاوان، نقلت "تيريز" - بمعرفة أمها - إلى دار الآنسة "جوان"، لتضع حملها، وذهبت إلى هناك عدة مرات لازورها، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين، لتوضع إحداهما في ثياب الطفل، على أن تودعه القابلة "الداية" إدارة ملجأ اللقطاء، بالطريقة المعهودة.. وفي العام التالي، تكررت المضايقة، وتكرر العلاج، فيما عدا الرمز الذي أغفل!.. ولم يعد ثمة تفكير في الامر - من ناحيتي - لا ولم يكن ثمة انصياع بفوق انصياع الام، التي أطاعت وهي تنهد. ولسوف تبدو تباعا كل التغيرات التي أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوب في التفكير، وعلى مصيري كذلك. أما الآن، فلنلزم هذه المرحلة الاولى، إذ إن معقباتها - التي كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة - لن تلبث أن تضطرنني إلى العودة إليها كثيرا.

ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بيني وبين السيدة "ديسيناي"، التي كثيرا ما سيتردد اسمها في هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة "ديسكلافيل"، ثم تزوجت من السيد "ديسيناي"، نجل السيد "دي لاليف دي بيلجرواد"، الذي كان مديرا عاما للأراضي الزراعية.. ولقد كان الزوج موسيقيا، على شاكلة السيد "دي فرانكوي". كذلك كانت هي الأخرى موسيقية، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيميا بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة. وقد مني السيد "دي فرانكوي" إلى السيدة "ديسيناي"، فكنت أتناول العشاء معها في بعض الأحيان. وكانت لطيفة، ذكية، موهوبة، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا.

على أنها أوتيت صديقة - تدعى الآنسة "ديست" - كانت تعتبر خبيثة، وكانت تعاشر "الشيفالييه دي فالوري"، الذي لم يكن حسن السمعة، واعتقد أن صحة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة "ديسيناي"، التي حبتها الطبيعة بسجية غلابة، وصفات رائعة، تخفف من أن تتوازن مع نزواتها.

ولقد أوحى إليها السيد "دي فرانكوي" قسما من الود الذي كان يكنه نحوي، وصارحتني بصلاته بها، ولهذا السبب فإنني ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد "ديسيناي"!!

كذلك آثرني السيد "دي فرانكوي" باعترافات عجيبة من هذه السيدة، لم تذكرها لي بنفسها إطلاقا، ولم يخطر ببالها البتة أنني كنت على علم بها. فإنني لم أفتح فمي - ولن أفتحه - بالحديث في هذا الموضوع، إليها أو إلى أي امرئ آخر (١).

ولقد أدت كل هذه الاعترافات - من كل من الطرفين - إلى الزج بي في موقف جد حرج، لاسيما إزاء السيدة دي "فرانكوي"، التي كانت تعرفني خير معرفة، فلم تفقد ثقتها بي، بالرغم من توثق صلاتي بغريمتها. ولقد عمدت - بقدر ما كان بوسعي - إلى مواساة هذه السيدة البائسة، التي لم يبادلها زوجها - دون ما شك - ما كانت توليه من حب. وكنت أصغي إلى هؤلاء الثلاثة، كل على حدة، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء، دون أن يقدر قط لأي من ثلاثتهم أن ينتزع مني شيئا من أسرار الاثنين الآخرين، ودون أن أخفي عن كل من المرأتين ودي لغريمتهما!!

ولقد حاولت السيدة "دي فرانكوي" أن تفيد مني في أمور كثيرة، فقبولت برفض بات.. كما أن السيدة "ديسيناي" أرادت أن تحملني - ذات مرة - رسالة إلى "فرانكوي"، فلم تقابل برفض مشابه فحسب، بل إنني صارحتها بجلاء تام، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض علي مثل هذا الأمر - مرة ثانية - إذا شاءت أن تقصيني عن دارها إلى الأبد!! ومن الواجب أن أنصف السيدة "ديسيناي"، فإنها كانت أبعد من أن تبدي استياء من مسلكي، بل إنها تحدثت عنه إلى "فرانكوي" بأبلغ تقدير، ولم يقل ترحيبها بي بعده، عما اعتادت أن تستقبلني به قبله. وهكذا استطعت أن أمضي موفقا وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم في معاشي - إلى حد ما - والذين كنت أكن لهم صادق المليل.. واستطعت أن أحفظ - إلى النهاية - بودهم، وتقديرهم، وثقتهم، إذ رحت أتصرف في رفق ومجاملة، يرافقهما - دائما - استقامة وحزم. وبالرغم من غبائي وحمائتي، فإن السيدة "ديسيناي" كانت تميل إلى أن تصطحبني إلى الحفلات اللاهية التي كانت تقام في "لاشيفريت"، في قصر على نهر "سان دنيس"، من أملاك السيد "دي

(١) لم تعد اعترافات السيد دي "فرانكوي" لـ "روسو" سرا خافيا على أحد.

فإن المذكرات التي نشرت باسم "ديسيناي" تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها.. وأنها نقلت هذا المرض إلى عشيقها، الذي قدر له أن يموت به!

بيلجراد". وكان ثمة مسرح هناك، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات. وقد عهد إلي بأحد الأدوار، فظلمت استذكره ستة أشهر - دون انقطاع - ومع ذلك فإنني لم أستغن عمن راح يهمس إلي بعباراته من البداية إلى النهاية، أثناء التمثيل!.. وبعد هذه التجربة، لم يعرض علي أي دورا وفي تعرفي بالسيدة "ديسيناي"، حظيت كذلك بمعرفة الأنسة "دي بيلجراد"، التي لم تلبث أن أصبحت كونتة "هودينو". وكانت أول مرة رأيته فيها، في اليوم السابق على زواجها. وقد حدثتني طويلا (١)، بتلك الالفة الساحرة التي فطرت عليها. وألفتها مفرطة في اللطف، ولكنني كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتي يوما، وأن تجرني - عن براءة ودون إدراك أو قصد - إلى الحضيض الذي أعيش فيه اليوم!

ومع أنني لم أتحدث عن "ديدرو" منذ عودتي من "البندقية"، ولا عن صديقي السيد "روجان"، إلا أنني لم أهمل أيا منهما، بل إن روابط الود أخذت تزداد توثقا بيني وبين الأول - بوجه خاص - يوما بعد يوم. وكما أنني أوتيت "تيريز"، فقد أوتيت هو "فانيت"، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحي التقارب بيننا. ولكن الفارق كان في أن "تيريزي"، وإن ماثلت "فانيتة" في حسن الشكل، إلا أنها كانت أرق مزاجا، وألطف شخصية منها، وقد خلقت لتربط برجل محترم.. أما فاتاة فكانت سليطة، "زفرة" اللسان، لا تبدي أمام أنظار الغير ما يخفي سوء التربية. ولقد تزوجها - ومع ذلك - وكان هذا عملا طيبا منه، إذ كان قد وعدها بالزواج. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى أن أحذو حذوه، إذ إنني لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقا!

ولقد اتصلت كذلك بالراهب "دي كونديلاك"، الذي لم يكن أفضل مني حالا في الأدب، ولكنه كان مهيبا لأن يصير إلي ما أصبح اليوم عليه، ولعلني كنت أول من أبصر كفاءته، وقدره حق قدره. ولاح أنه كذلك ارتاح إلي، وعندما احتبست نفسي في غرفتي بشارع "جان سان دنيس" - على مقربة من "الأوبرا" - لاضع الفصل الذي ضمنته أوامري عن "هيسمود"، اعتاد أن يفد في بعض الأحيان، فيتناول الغداء معي، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات. ولقد كان يعمل - في ذاك - في كتابه: "رسالة في أصل المعرفة البشرية"، الذي كان أول مؤلفاته.

فلما فرغ منه، تمثلت الحيرة في العثور على ناشر يتكفل بنشره. إذ إن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدئ في صلف وجفاء. وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع - إذ ذاك - ومن ثم فإنه لم يكن موردا لموضوع جذاب. ولقد تحدثت إلى "ديدرو" عن "كونديلاك" ومؤلفه، وحملته على أن يتعرف إليه. ولقد خلقا لكي يتوافقا، فسرعان ما تألفا. وأغرى "ديدرو" الناشر "دوران" على أن يقبل مخطوط الراهب، فتسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة، في مقابل كتابه الأول، مائة "إيكو"، وكان في هذا إشارا له وتكريما ما كان من المحتمل أن يلقاهما لولاي!.. ولما كنا نحن الثلاثة (٢) نقيم في أحياء متباعدة جدا؛ فإننا كنا نجتمع مرة في الأسبوع، في "الباليه رويال". فنذهب لتناول الغداء معا في فندق "البانييه فلوري". لا بد أن هذه المادبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة إلي "ديدرو" كثيرا، إذ إنه لم يتخلف عنها قط، وهو الذي كان يخفق دائما في أن يذكر مواعيده الأخرى. ولقد رسمت - في تلك اللقاءات - خطة نشرة دورية تسمى "الساحر" (٣)، على أن نكتبها بالتعاقب، "ديدرو" وأنا. ولقد وضعت المخطوط الأولى للعدد الأول، فادى هذا إلى أن أتعرف إلى "داليمبير"، الذي حدثه "ديدرو" عن النشرة. غير أن أحداثا - لم تكن منظورة - اعترضت

(١) استعمل "روسو" هذا تعبيرا غير شائع في الفرنسية، لذلك استعملنا في الترجمة "حدثتني" بدلا من "تحدثت إلي أو معي" (٢) الرابع وديدرو "روسو". (٣) Le Persi Fleur.

طريقنا، فظل المشروع عند هذا الحد. وكان هذان المؤلفان (١) قد اضطلعوا بوضع "قاموس محيط"، قصد به - في البداية - أن يكون نظيرا مترجما الموسوعة "تشامبرز"، وقريب الشبه من "قاموس جيمس الطبي" الذي كان "ديدرو" قد فرغ من ترجمته. ولقد رغب "ديدرو" في أن يشركني في بعض أجزاء مشروعه الثاني، فاقترح علي أن اضطلع بالقسم الموسيقي. وقد قبلت، وأدبت مهمتي في عجلة، وفي غير إجادة، خلال الأشهر الثلاثة التي حددتها لي، كما حددتها لكافة المؤلفين، الذين قدر لهم أن يشتركوا في هذا المشروع. على أنني كنت الوحيد الذي كان قد أكمل عمله في الموعد المعين، فأسلمته مخطوطي، الذي كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وصفاء السيد دي "فرانكويني"، ويدعى "ديبون"، فكتبه بخط حسن، ودفعت له في مقابل ذلك - من جيبتي الخاص - عشر قطع من فئة "الايكو"، لم يقدر لي قط أن أستردها. إذ إن "ديدرو" كان قد وعدني - باسم الناشرين - بقسط من الأرباح، ولم يعد إلى محادثتي بشأنه مرة أخرى، ولا فاتحته أبصده!

ولقد تعطل مشروع "الموسوعة" بسبب سجنه. واجتلب عليه كتابه "أفكار فلسفية" بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما. ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه "رسالة عن العميان"، الذي لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة "دوبريه دي سان مارو" والسيد "ريومير" أن فيها ما يمسهما، ومن ثم فقد سجن "ديدرو" - من أجلها - في سجن "فانسين". . . ولن يصف شيء مدى الشدائد التي أحدثتها في نفسي محنة صديقي. فإذا بخيالي المكتئب - الذي اعتاد دائما أن يضخم المحن - يجمع في انزعاجه، إذ خيل إلي أن "ديدرو" قد يمكث هناك طيلة عمره، فكدت أجن لذلك، وكتبت إلى السيدة "دي بومبادور"، أناشدها إطلاق سراحه، أو العمل على أن أحبس معه. ولم أتلق ردا ما عن خطابي، إذ إنه كان جد بعيد عن المعقول، فلم يحدث أثرا. ولست أدعي لنفسني فخر أن يكون خطابي قد ساهم فيما حدث بعد ذلك، من تخفيف متاعب السجن على "ديدرو" المسكين. على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة أخرى بنفس القسوة، فلست أشك في أنني كنت أموت كمدا وقنوطا، تحت أسوار ذلك السجن اللعين. . . وحتى إذا كان خطابي قد أحدث مفعولا يسيرا، فإنني لم أوله أهمية تذكر، حتى إنني لم أتحدث عنه إلا لثفر قليل من الناس. . . ولم أتحدث عنه إلى "ديدرو" نفسه البتة!

(١) "ديدرو" و"دالمبير".

الكراصة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بي أن أقف قليلا إذ انتهت الكراصة السابقة. فمع الكراصة، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن، التي أملت بي.

لم يفتني - أثناء ترددي على دارين من المع دور "باريس" - أن أعقد بعض صلات التعارف، برغم قلة لياقتي. فتعرفت - فيمن تعرفت إليهم لدى السيدة "دوبان" - إلى الأمير الشاب وريث إمارة "ماكس جوتا"، وإلى مربية البارون "دي تون"، كما تعرفت لدى السيد "ديلا بويلينيير" إلى السيد "دي سيجاي"، صديق البارون "دي تون"، وكان معروفا في عالم الأدب بالنسخة البديعة التي كانت لديه من ديوان "روسو" (١). ولقد دعانا البارون - أقصد دعا السيد "سيجاي" وإياي - إلى قضاء يوم أو اثنين في "فوننتاي - سو - بو"، حيث كان الأمير يمتلك دارا، فذهبنا.. وفيما كنا نمر بـ "فانسين"، شعرت بقلبي يتمزق، إذ رأيت السجن. ولمح البارون آثار ذلك على وجهي. وعند العشاء، تحدث الأمير عن سجن "ديدرو"، فعمد البارون - ليحملني على الكلام - إلى اتهام السجين بالنزق.. وهو عين ما بدر مني في غلظتي إذ انبريت للدفاع عنه..

ولقد اغتفر لي هذا الاندفاع، باعتباري رجلا انساق لعاطفته نحو صديق تعس، واتخذ الحديث وجهة أخرى. وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير، أحدهما يدعى "كليفيل"، وهو رجل جم الذكاء، كان في ذلك الحين قسا، راعيا للأمير، وغدا فيما بعد مرييا له، خلفا للبارون.. أما الآخر، فكان شابا يدعى السيد "جرم"، كان يتكفل بالقراءة للأمير، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر. وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك.

ومنذ تلك الليلة، بدأت بيني وبين "كليفيل" رابطة. لم تلبث أن تطورت إلى صداقة. أما صلتي بالسيد "جرم"، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة، إذ إنه لم يكن يحاول أن يظهر، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور، الذي خلعه عليه الثراء فيما بعد.. ولقد دار الحديث عند الغداء - في اليوم التالي - عن الموسيقى، فأجاد الخوض فيه. وقد انتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف، فقضينا اليوم في موسيقى، على معزف الأمير، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التي كانت جد لطيفة في أولها، وجد نكدة في آخرها، والتي سأكثر من الحديث عنها فيما بعد.

وإذ عدنا إلى "باريس"، علمت بالنبا المفرح.. بأن "ديدرو" قد غادر "الززانة"، وأنه منح قلعة ومتنزه "فانسين" كسجن له - اعتمادا على وعد شرف منه - وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه. ولكم شق علي ألا أستطيع أن أهرع إليه في التوا.. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة، لدى السيدة "دوبان"، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها.. وبعد ثلاثة أو أربعة قرون من التلهف، طرت لارتمي بين ذراعي صديقي.. وبالحا من لحظة جلست عن الوصف.. ولم أجده وحيدا، بل كان معه "اليمبير" وأمين صندوق كنيسة "سانت شابيل".. وإذ دخلت، لم أر في المكان سواه، ولم أفعل سوى أن قفزت، وصرخت.. والصقت وجهي بوجهه، وضممته بشدة دون كلام، سوى كلام دموعي وعبراتي.. كنت أحتنق شوقا وطربا.. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقي، وأستدار نحو

رجل الكنيسة قائلا: "أترى ياسيدي كيف يحبني أصدقائي؟" .. وإذا كنت غارقا في انفعالاتي، فإني لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب، ولكنني إذ أفكر فيه أحيانا - بعد ذلك - أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن يكون أول ما يخطر ببالي لو أنني كنت في موقف "ديدرو" ١
ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر، فلقد تركت "الزئزنة" طابعا فظيحا على نفسه، ومع أنه ارتاح إلى المقام في القلعة، وغدا حرا في التجول في متنزه لم تكن تحيط به أسوار، إلا أنه كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه؛ كي لا يستسلم للأفكار السوداء. ولما كنت الشخص الذي يعطف أشد العطف على آلامه - يقينا - فقد رأيت أنني ولابد - كذلك - الشخص الذي تسري عنه رؤيته، أكثر من أي شيء آخر. وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة، فقد رحت أتردد عليه بعد ذلك - مرة كل يومين - وحيدا، أو مع زوجته، لأقضي معه فترة الأصيل.



وجاء الصيف في ذلك العام - ١٧٤٩ - شديد الحر. وكان ثمة فرسخان بين "باريس" و"فانسين". ولما لم أكن في سعة تمكيني من استئجار عربة، فقد اعتدت أن أنطلق في الساعة الثانية - من بعد الظهر - على قدمي، إذا ما كنت وحيدا.. وكنت أغذ السير لأصل في أقرب وقت.. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق، غير وارقة الأفنان، على ما هو مألوف في تلك المنطقة، فلم تكن تضفي علي شيئا من الظل تقريبا، وكثيرا ما كنت أرتقي على الأرض، وقد أرهقني الحر والتعب، وعجزت عن المضي.. ولكي أخفف من سرعة انطلاقي، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة. وفي ذات يوم، اصطحبت كتاب "تقويم فرنسا". وفيما كنت أقرأ إبان سيرتي، صادفت السؤال الذي طرحه المحفل العلمي لـ "ديجون"، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالي: "هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها؟". وما إن قرأت هذه الكلمات، حتى تمثلت كونا آخر، وغدوت إنسانا آخر. ومع أنني احتفظت بذكرى حية للأثر الذي أحدثه السؤال في نفسي، إلا أن تفاصيل الواقعة غابت عن بالي مذ أودعتها إحدى رسائلني الأربع إلى السيد "دي ماليزيرب". وهذه إحدى الظواهر العجيبة التي تتصف بها ذاكرتي، والتي تستحق الذكر. فهي حين تسعفني لا تمضي في ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها. وما إن أسكب ما استودعته إياه على الورق، حتى تتخلى عني.. وإذا ما كتبت شيئا مرة، فإني لا أعود أذكره إطلاقا.. وترافقني هذه الظاهرة، حتى في الموسيقى. فقد كنت أعرف كثيرا من الأغاني عن ظهر قلب، قبل أن أدرسها. ولكنني لم أكد أهدق الغناء من "النوتة"، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية في ذاكرتي، وما أراني أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها، من كل الأغاني التي كنت أحبها! والذي أذكره بجلاء - في هذه المناسبة - هو أنني عندما بلغت "فانسين" كنت في حال من الانفعال تشبه بحرا من الحمى. ولأحظ "ديدرو" ذلك، فأفضيت إليه بالسبب، وقرأت عليه "مناجاة فابريشيوس" (٢)، التي كتبته بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط. فشجعني على أن أنشر آرائي، وأن أشارك في المباراة. وقد كان هذا!.. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين. فلقد كان ما بقي من عمري ومن تعاساتي نتيجة لامناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال (٣)

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمي بـ "ديجون"، لأحسن رسالة تكتب في الموضوع الذي يطرحة للنسابة. (٢) Prosopée de Fabricius.. وكان "فابريشيوس" فنصلا من حكام الرومان، وقد عرف بالتهاج البساطة في مبادئه الخلقية، وبالوفاء، والنزاهة، والتجرد من المصلحة الذاتية. واتخذ اسمه رمزا للرجل الذي يظل قفيرا سليم الذمة مهما يرتفع في مناصب الحكم. (٣) أضاف "روسو" - في رسالة إلى "ماليزيرب" تفصيلات بدعية لهذه المناسبة، إذ قال: وشعرت بدوار طاع يستولي على رأسي، يشبه نشوة السكران.. وبخفقان عفيف.. فلم أعد أتمالك أنفاسي وأنا أصير، ومن ثم ارتقيت على إحدى أشجار الطريق، وقضيت نصف ساعة في هذا الانفعال، فلما أفقت تبين أن صدر صدائي كان مخضلا بالدموع، دون أن أكون قد شعرت بانتي ذرفتها..

وتسامت مشاعري إلى مستوى أفكاري، بسرعة تفوق التصور. فإذا بكل أهوائي النافهة تختنق في فورة الحقيقة، والحرية، والفضيلة.. وأدعى من هذا إلى الدهشة، أن هذه الفورة ظلت محتدمة في فؤادي طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى، بدرجة لعلها لم تساور قلب أي بشر آخر!

وأقبلت على العمل في إعداد هذا المقال، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن أنتهجها في كل مؤلفاتي الأخرى تقريبا. فقد خصصتها بالساعات التي لم يكن النوم يواتيني فيها بالليل.

وكنت أستغرق في التفكير، وأنا في فراشي مغمض العينين، وأروح أقلب عباراتي في رأسي، وأعاود تقليبها في عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها، أودعتها ذاكرتي إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق. ولكن الوقت الذي كان يستغرقه نهوضي وارتداء ثيابي، كان يضيعها علي.. فإذا ما عكفت على ورقي، لم يوافني شيء مما نظمته في بالي تقريبا.

ورأيت أن أستخدم السيدة "لوفاسيور" كسكرتيرة، فاسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة مني، وكانت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد ناري. وتؤدي الخدمات البسيطة التي احتاج إليها، اقتصادا لأجر الخادم، وعند وصولها، كنت أملئ عليها من سريري ما أعدته في الليل. وقد أدى هذا النظام - الذي اتبعته زمنا طويلا - إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان.. حتى إذا فرغت من المقال، عرضته على "ديدرو"، الذي أبدى ارتياحا إليه، وأشار إلى بعض تعديلات. على أن هذا العمل الأدبي المليء بالحرارة والقوة، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما، فهو - دون كل ما انساب من قلبي - أضعفها في الحجة، وافقرها إلى التناسب والتناسق. على أن فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة، مهما تكن المواهب التي فطر المرء عليها!

وأرسلت هذا المقال، دون أن أتحدث عنه إلى أحد، اللهم إلا "جرم" - فيما أظن - إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه بأعظم ود، منذ التحق بخدمة الكونت دي "فرييز". وكان لديه معزف اتخذناه ملثقى يجمعنا، فكنت أقضي مع "جرم" حوله كل لحظات فراغي، نغني الألحان الإيطالية، وأغاني ملاحي الجندول، دون انقطاع أو مثل من الصباح حتى المساء، أو - بالأحرى - من المساء إلى الصباح. وعندما كنت لا أوجد في دار السيدة "دوبان"، فقد كان من المحقق أن أوجد لدى السيد "جرم"، أو معه - على الأقل - سواء في نزعة أو في مسرح. وكنت قد كسفت عن الذهاب إلى مسرح "الكوميدي إيتاليين" - الذي كنت أستمع بحق دخوله بالبحان، والذي لم يكن "جرم" يحبه - وأصبحت أتردد معه على "الكوميدي فرانسيز"، الذي كان مولعا به. وقصارى القول أن جاذبية قوية ربطتني بهذا الشاب، حتى إنني أصبحت لا أطيق بعدا عنه، وحتى إن العمة المسكينة (١) غدت موضع إهمال مني..! أقصد أنني أقللت من زيارتي إياها، إذ إن عاطفتي لم تهن لحظة واحدة خلال حياتي!

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغي الضئيل بين ميولي، إلى أن تجددت لدي، بقوة لا قبل لي بها، الرغبة - التي ساورتني منذ وقت طويل - في أن يكون لي ولد "تيريز" مسكن واحد. ولكن العقبة التي تمثلت في عدد أفراد أسرتها، وفي الحاجة إلى المال لشراء الأثاث - بوجه خاص - جعلتني أعدل حتى ذلك الحين. ثم سنحت لي فرصة المحاولة، فانتزعتها.. ذلك أن السيد "دي فرانكويي" والسيدة "دوبان" شعرا تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك في العام، مبلغ غير كاف، فرعنا من تلقاء نفسيهما مرتبي السنوي إلى خمسين "لوي". وفضلا عن هذا، فإن السيدة "دوبان" لم تكذب تسمع بأنني كنت أسعى إلى تأثيث مسكن خاص لي، حتى ساعدتني ببعض نفحات من

(١) ذكر "روسو" أن هذا اللقب أطلقه أصدقائه على "تيريز".

اجل هذا الغرض. وبالإضافة إلى الأثاث الذي كان لدى "تيريز" من قبل، لمنا شملنا، واستأجرنا مسكنا صغيرا في مبنى "اللاجهدوك"، بشارع "جرينيل سانت أونوريه"، لدى قوم طبيي السمعة جدا، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع، وأقمنا هناك في أمان وارتياح سبع سنوات.. إلى أن نزلت إلى "الأرميتاج".



كان والد "تيريز" كهلا طيبا، مفرط الدعة، يخاف من زوجته كل الخوف؛ من ثم فقد أطلق عليها لقب "الملازم كرمينيل" (١) الذي خلعه "جرم" بعد ذلك - على سبيل الدعابة - على ابنتها. ولم تكن السيدة "لوفاسير" تفتقر إلى حضور البديهة، وأقصد في أدب الخطاب، بل إنها كانت تفخر بآدابها، وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقي، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن أطيعه. وكانت تقدم لابنتها من النصيح أسوأ، وقد حاولت أن تحملها على أن تخدعني وتمكربي!.. وكانت تداهن أصدقائي - كلا على حدة - وتحاول أن تتقرب إلى الواحد منهم على حساب الآخر، أو على حسابي أنا!.. وفيما عدا ذلك فإنها كانت أما طيبة؛ لأنها وجدت أن مصلحتها في أن تكون كذلك. وكانت تتستر على أخطاء ابنتها، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك.. هذه المرأة التي أغرقها بعنايتي ورعايتي، وبالهدايا الصغيرة، والتي كنت أتوق من قلبي إلى أن أحمل نفسي على حبها، كانت - بسبب استحالة نجاحي في هذا الصدد - السبب الأول للتعجب الذي كنت أعانيه في مسكني الصغير. وفيما عدا هذا، فإن بوسعي أن أقول: إنني تذوقت - خلال هذه السنوات الست أو السبع - أكمل هناء عائلي يسمح به الضعف البشري!

كان قلب "تيريزي" قلب ملك، وقد عززت حياتنا المشتركة حينها، فأخذنا نزداد إحساسا - يوما بعد يوم - بأن كلا منا خلق للآخر. ولو قدر لمتعنا أن توصف، لكانت بساطتها داعية للضحك، سواء في ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدتين، حيث كنت أنفق - بعظمة - ثمانية أو عشرة "مسو" في إحدى الحانات.. أو عشاؤنا البسيط في النافذة، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة.. فكانت هذه تستخدم - بهذا الوضع - كمائدة، وكنا نستنشق الهواء الطلق، ونشاهد ما حولنا، والمارة.. ومع أننا كنا في الطابق الرابع. إلا أنه كان في وسعنا أن نطل على الطريق، ونحن نتناول الطعام، ترى من ذا الذي يستطيع أن يصف، بل من ذا الذي يستطيع أن يشعر بمفاتيح هذه الوجبات التي كانت تتألف - في مجموعها - من ربع رغيف من الخبز الخشن، وبعض الكريز، وقطعة صغيرة من الجبن، ونصف "سيتيه" (٢) من الشراب كنا نشربه معا؟.. أينها الصداقة، والثقة، واللفة، وراحة البال.. ما لذ مذاق!.. لقد كنا نتمكث أحيانا في جلستنا هذه إلى منتصف الليل، دون أن نفكر في شيء ودون أن نغفلن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم المعجوز إليه!

.. ولكن لندع هذه التفاصيل التي قد تبدو عقيمة، أو مضحكة، فلقد اعتدت أن أشعر - وأن

أصرح - دائما بأن الهناء الحق لا توصف!

ولقد حظيت - في نفس تلك الفترة تقريبا - بمحنة أخرى، كانت أكثر خشونة من هذه.. وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها. فلقد ذكرت أن "كليفيل" - القس - كان لطيفا، ولم تكن علاقائي

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا في "الشاتيل"، وهو الاسم الذي يطلق على دار للقضاء في "باريس"، تغتم اثنين من أقدم المحاكم، إحداها مدنية والأخرى جنائية. (٢) نصف "سيتيه" يعادل جزءا على ١٦ من الجالون.

به ثقل ثوقنا عن علاقتي بـ "جريم"، حتى أصبحنا متكافئين. وكنا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتي. وكانت هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات "كلبفيل"، ونكاته المهدبة، والمداعبات الجرمانية من "جريم"، الذي لم يكن بعد قد طلق العيب.. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة، بل كان المرح يملا مكانها. وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا، فلم نعد نطيق افتراقا. وكان "كلبفيل" قد أثبت مسكنا لفتاة صغيرة، لم تكف عن أن تهب نفسها لكل الناس؛ لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده.. وفي ذات مساء، كنا نلج أحد المقاهي، وإذا بنا نجد "كلبفيل" خارجا منه، في طريقه إليها ليتناول العشاء معها. فداعيناه ببعض الفكاهات، التي انتقم لنفسه منها بلباقة، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء، ثم راح يسخر منا بدوره. ويدت لي الفتاة المسكينة حلوة السجاي، مفرطة الدعة، غير مدربة على مهنتها التي كانت تبصرها بها - بقدر الإمكان - عجوز ماكرة كانت برفقتها. واستخفنا الحديث والشراب إلى درجة نسينا معها أنفسنا. ولم يشأ "كلبفيل" الطيب أن ينتقص من كرمه، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة، التي لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكي!.. ولقد اعتاد "جريم" دائما أن يؤكد أنه لم يمسه، وأنه ما طال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا، ونفاد صبرنا. وإذا كان قد تعفف عنها، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة، إذ إنه - قبل التحاقه بخدمة الكونت "دي فيريز"، وإقامته في داره - أقام لدى فتيات من غانيات حي "سان روش" بالذات.

وخرجت من شارع "ديه هوانو" - حيث كانت الفتاة تقيم - وأنا أشد استحياء من القديس "بريسو"، حين بارح المنزل الذي أسكر فيه. ولقد كنت أتمثل قصتي بجلاء، وأنا أكتب قصته.. ولاحظت "تيريز" أن في الأمر شيئا، لاسيما وأنني كنت مرتبكا، وكنت أبدو ساخطا على نفسي. وقد تخففت من العيب، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز. وكما أحسنت صنعا، إذ إن "جريم" جاءها - في الصباح التالي - متشفيا، وروى لها ذنبي في مبالغة. ومنذ ذلك الحين، لم يكف قط عن أن يذكرها به في خبث وإغظة. وكان هذا أشنع ذنوبه، فقد كان من حقي - إذ ائتمنته على سري طواعية، وفي غير تحفظ - أن أتوقع منه ألا يحملني على أن أندم يوما على هذه الثقة.

أبدا لم أشعر بطيبة قلب "تيريزي"، كما شعرت بها في هذه المناسبة، فقد أبدت من الدهول والاستنكار لتصرف "جريم"، أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائي، فلم أتمشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا، مؤثرا، لم ألمح خلاله أي أثر لسخط أو ضغينة!.. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة، تعادل طيبة قلبها، وهذا جل ما يقال!.. على أن ثمة مثالا لذلك، جديرا بالذكر، يحضرني الآن.. فلقد ذكرت لها أن "كلبفيل" كان قسا، وراعيا لأمير "ساكس - جوتا". وكان القس - في رأيها - رجلا ممتازا، حتى إنها في تخبطها بين الأفكار المتباينة، أخذت "كلبفيل" على أنه "البابا". ومن ثم فقد ظننتها اختبلت، حين أنبأتني - ذات مرة - عند عودتي إلى المنزل، بأن "البابا" قد حضر لزيارتي. واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت بأسرع ما وسعني لأروي هذه القصة لـ "جريم" و"كلبفيل"، الذي لصق به اسم "البابا". كما أطلقنا على غانية شارع "ديه هوانو"، اسم "الماما جان" (١)!. وكان هذا مشار ضحك عز علينا أن نخمده، حتى كدنا نخفق!.. إن أولئك الذين جعلوني أقول - في خطاب حلا لهم أن ينسبوه إلي - إنني لم أضحك في حياتي سوى مرتين، لم يعرفوا شيئا عني في هذه الفترة، أو في أيام صباي، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا!

من سنة ١٧٥٠

إلى سنة ١٧٥٢

علمت في العام التالي - سنة ١٧٥٠ - أن مقالي فاز بالجائزة في "ديجون"، وكنت قد كسفت عن التفكير فيه. فابقظ هذا النبا - من جديد - كل الأفكار التي كانت قد أوجت إلي به، وبث فيها قوة جديدة، وأدى إلى أن تحركت - للمرة الأولى - رواسب البطولة والفضيلة التي كان أبي، ووطني، و"بلورسارخ" قد أودعوها قلبي في طفولتي. فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرا وفاضلا، وأن أرتفع بنفسي فوق اعتبارات الحظ والرأي العام، وأن أكون مستقلا بذاتي. ومع أن الحياء والزائف، والخوف من الرأي العام منعاني - بادئ الأمر - من أن أمضي وفقا لهذه المبادئ، ومن أن أخرج فجأة، وعلانية، على عادات وعرف القرن الذي أعيش فيه.. إلا أنني منذ ذلك الحين عقدت عزمي، ولم أرجئ تنفيذ ما انتويت لآمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كي يغدو موقفا.

وفيما كنت أرسم فلسفتي عن واجبات الإنسان، وقع حادث جعلني أفضل التفكير في واجباتي الشخصية. فقد كانت "تيسريز" حبلتي للمرة الثالثة.. وفي أمانة تامة ببني وبين نفسي، وفي اعتزاز مفرط، صدف بي عن الرغبة في أن تكون أعمالي مكذبة لمبادئ، شرعت أدرس مصير أولادي وعلاقتي بهم، على ضوء قوانين الطبيعة، والعدالة، والعقل، والدين.. الدين القدسي، الأزلي، كما أراده خالقه، لا كما شوهه البشر في تظاهروهم بالرغبة في تطهيره، ولا كما حوله الناس - بقوانينهم الموضوعة - إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات.. فإن فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه! ولو أنني كنت مخطئا في استنتاجاتي، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمانينة، التي أقبلت بها عليها.. ولو أنني كنت من أولئك الناس ذوي المنبت الوضع، وذوي الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوي النفوس التي لا ينبت فيها أي إحساس صادق بالعدالة والإنسانية، لكان جمود قلبي ميسور الإدراك. ولكن ما أوتيت من حرارة القلب، وإرهاق الحس، وسهولة التعلق بالناس، وهذا السلطان الذي كانت تفرضه علي علاقاتي بهم، وهذه اللوعات القاسية التي كنت أعانيها إذا ما اضطرت إلى قطع العلاقات.. وهذه النية الطيبة التي فطرت عليها نحو أقراني، وحبي المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق، وما هو جميل، وما هو عدل.. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه، وهذا العجز عن الكراهية والحقد، بل وعن تمنيهما.. وهذا الخنان، وهذا الشعور الناعم بالثواب الذي أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكرم ولطيف.. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتألف في قلب واحد، مع الحرمان الذي بدوس - في غير ما تورع - أعذب الالتزامات وأحلاها؟ لا!.. إنني لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل، فإن "جهان جهالك" لم يكن قط عديم الشعور، ناكرا للصلات الرحم، ولا كان أبدا جاحدا، لحظة واحدة في حياته!.. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت، ولكني لم أكن قط قاسي القلب.. ولو أنني شئت أن أفضي بحجمي، لتكلمت أكثر مما ينبغي. وبما أنها كانت من القوة بحيث أغوتني، فإنني أخشى أن تغوي كثيرين غيري، ولست أبغي أن أعرض الشبان - الذين قد يقرأون حديثي - لأن ينساقوا إلى الإساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ. ومن ثم فساكتفي بأن أقول إن غلطتي كانت على هذا النسق: إنني إذ أسلمت أولادي إلى الدولة لتربيتهم؛ لعجزني عن تنشئتهم بنفسي، وإذ قضيت عليهم أن يصبحوا عمالا أو مزارعين، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة، كنت أظنني أؤدي تصرفا يليق باب مواطن صالح،

وكنت أثقل نفسي عضوا في جمهورية "أفلاطون". ولقد أشعرتني حسرات قلبي - في أكثر من مرة، فيما بعد - أنني كنت مخطئا، ولكن عقلي كان أبعد من أن يوحى إليّ بنفس الرأي، ومن ثم فإنني كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوه في حياته، ومن الحظ الذي كان يتهددهم إذا ما اضطرت إلى التخلي عنهم. ولو أنني أسلمتهم إلى السيدة "ديسيناي"، أو السيدة "دي لوكسمبورج"، اللتين رغبنا - فيما بعد - في أن تكفلناهم، سواء بدافع من الصداقة، أو من الكرم، أو من أي حافز آخر.. لو أنني فعلت ذلك، فهل تراهم كانوا يغدون أكثر سعادة، أو ينشئون رجالا أمناء محترمين، على الأقل؟.. لست أدري، ولكنني واثق بأنهم كانوا خليقين بأن ينشئوا على كراهية أبويهم، وربما على الغدر بهما!.. ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة، أنهم لم يعرفوا أبويهم!

وهكذا أسلم ابني الثالث إلى ملجأ اللقطاء، كما كان شأن الطفلين السابقين.. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ إنني أوتيت خمسة. ولقد بدا لي هذا الإجراء ملائما، حكيما، مشروعا، إلى درجة أنني إذا كنت لم أفخر به علانية، فإنما كنت أصدر في ذلك عن شيء من مراعاة خاطر أمهم.. على أنني أنبات به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتي بها.. قلته لـ "ديندرو"، و"لـ جريم"، كما ذكرته - فيما بعد - للسيدة "ديسيناي"، ثم للسيدة "دي لوكسمبورج" بعد ذلك.. ولقد فعلت ذلك صراحة، وبمطلق الحرية، دون أي اضطراب، وكان بوسعي أن أخفي الأمر بسهولة عن الناس أجمعين.. إذ إن الأنسة "جوان" (١) كانت أمينة، كتومة جدا، وكان بوسعي أن أطمئن إليها كل الاطمئنان. وكان الوحيد من أصدقائي، الذي كنت أجد مصلحة في أن أكشف له سري، هو الطبيب "فيسيري"، الذي عني بعملي المسكينة، في إحدى مرات الوضع، عندما ساءت حالها. ومجمل القول إنني لم أحط تصرفي بشيء من الغموض، لا لأنني لم أتعلم قط أن أكنم شيئا عن أصدقائي فحسب، وإنما لأنني لم أكن أرى - في الواقع - أي ضرر في ذلك. إذ إنني - إذا قدرنا كافة الاعتبارات - قد اخترت لأولادي الخير، أو ما أمنت بأنه الخير. بل إنني كنت أتمنى - ولا أزال - لو أنني نشأت وتربيت على شاكلتهم!

وفي الوقت الذي كنت أسجل فيه اعترافاتي هذه، كانت السيدة "لوفاسيير" تحذو حذوي - من ناحيتها - بيد أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا. وكنت قد قدمتها - هي وابنتها - إلى السيدة "دوبان" التي أولتهما ألف آية من آيات الطبية، بدافع من صداقتها لي. ولقد أطلعتها الام على سر ابنتها. فما كان من السيدة "دوبان" الطيبة، السخية، التي لم تطلع قط على مدى حرصي على أن أوفر لهما كل أسباب العيش - برغم تواضع مواردني - إلا كفلت للابنة معاشا سخيا كتبت عني هذه سره، بأمر من أمها، طيلة مقامي في "باريس"، فلم تعترف لي به إلا في "الأرميتاج"، وبعد أن كشفت لي عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها في صدرها. ولقد كنت أجهل أن للسيدة "دوبان" علما بشيء، إذ إنها لم تبد إطلاقا أية إشارة.. كما أنني أجهل ما إذا كانت السيدة "دي شينونسو" - زوجة ابنها - على علم بالامر هي الأخرى. على أن السيدة "دي فرانكويي" - زوجة ابن زوجها - أحاطت به، ولم تستطع أن تمسك لسانها، فتحدثت إلي عنه في العام التالي، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة. وقد حملني هذا على أن أكتب لها - عن هذا الموضوع - رسالة توجد في أوراقتي، وقد عرضت فيها من حججي، ما كان بوسعي أن أذكره دون أن أقحم السيدة "لوفاسيير" وأسرتها، إذ إن

(١) الأنسة "جوان" هي الغالبة أو المولدة التي كانت تعني بـ "تيريز" عند الوضع، وتكفل بتسليم الأطفال إلى ملجأ اللقطاء.

معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم، وقد تكتمتها (١).
 إنني لأطمئن إلى كتمان السيدة "دوبان" للأمر، وإلى مودة السيدة "دي شينونسو"، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة "دي فرانكوي"، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سري مدويا، بوقت طويل. ومن ثم فإنه ما كان ليتفشى إلا على السنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات!..
 والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بيني وبينهم الصلات. وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم في الواقع، دون رغبة مني في أن أعني نفسي من اللوم الذي أستحقه، بل إنني لا أؤثر أن أخذ الذنب على عاتقي، على أن أقضي عليهم بما يستحقه خبثهم. إن ذنبي لعظيم، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ.. فلقد أهملت واجباتي، بيد أن الرغبة في الإيذاء لم تداخل فؤادي أبدا، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث بإقناع عن أطفال لم يرههم إطلاقا.. ولكن خيانة ثقة الصداقة، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات، ونشر الأسرار التي سكبت في صدورنا، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذي ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا.. هذه كلها ليست أخطاء، ولكنها خسة نفس وسخيمة!
 لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتي، لا تبريرات تصرفاتي؛ ومن ثم فإنني أقف - في هذا الموضوع - عند هذا الحد. ومن واجبي أن أكون صادقا، وللغرض أن يكون عادلا. ولن أطالبه قط بأكثر من هذا.



وأدى زواج السيد "دي شينونسو" إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه، بفضل مزاياء الزوجة الجديدة وعقلها. فقد كانت شابة مفرطة اللطف، بدا أنها أثرتني من بين الكتب الذين كانوا في خدمة السيد "دوبان" .. وكانت الابنة الوحيدة للسيدة "فيكونت دي بروشيشوار"، الصديقة الحميمة للكونت "دي فرييز"، وبالتالي لـ "جريم" الذي كان ملحقا بخدمته. على أنني كنت الشخص الذي قدمه إلى ابنته وأدخله دارها! (٢) ولكن طباعهما لم تتفق، ومن ثم فإن هذه الصلة لم تدم طويلا. أما "جريم" - الذي لم يكن يضع عينيه، منذ ذلك الحين، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر - فقد أثر الأمر، التي كانت من نجوم المجتمع الراقي، على الابنة التي كانت تنشأ أصدقاء تثق بهم، وترتاح إليهم، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء!.. وإذ لم تجد السيدة "دوبان" في السيدة "دي شينونسو" كل ما كانت ترجوه من لين، أحالت دارها إلى مكان كعيب بالنسبة للشابة. فآثرت السيدة "دي شينونسو" - التي كانت معترزة بميزاتها، وربما بمبنتها أيضا - أن تنبذ ملامحي المجتمع، وأن تبقى وحيدة - تقريبا - في مخدعها، على أن تحتل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها!
 ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقي بها، مدفوعا بذلك الميل الطبيعي الذي كان يجتذبني إلى التعساء. ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة، وإن كان في بعض الأحيان ينحدر إلى السفسطة. وكان حديثها جد جذاب لي. إذ إنه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب، ومع عمقه هذا، فإنها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها!.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو أنها أقامت عودها مستويا. أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة، في جمال نادر. مما كان يذكرني بـ "ماما" البائسة في أوج شبابها، فكان يهيج فؤادي. بيد أن المبادئ القويمة التي كنت قد رسمتها لنفسني - من عهد قريب - وآليت أن أتبعها مهما تكبدت، جعلتني في أمان منها، ومن مفاتها!..

(١) سرد هذه الأسباب الحاسمة في الكرامة التاسعة. (٢) يقصد "روسو" أن العروس كانت ابنة الكونت "دي فرييز" من علاقته "بالفيكونت دي بروشيشوار"، ولكنها تنسب "للفيكونت"، ومن ثم فإنه كانت تحمل إياها الحقيقي، الذي قدم إليها كصديق!

ولقد اعتدت - طيلة فصل الصيف بأكمله - أن أقضي معها ثلاث أو أربع ساعات في عزلة، ألقيتها الحساب في درس جدي، وأضايقتها بأرقام التي لا تنتهي، دون أن أقول لها كلمة غزل واحدة، ودون أن أرمقها بنظرة.. ولو أن هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة، لما كنت قمينا بأن نكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد.. ولكن القدر كان قد كتب علي ألا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة في حياتي، وأن تكون أول وآخر زفرات قلبي على امرأة غير هذه!

ولقد كنت دائما - مذ أقمت في دار السيدة "دوسان" - راضيا بنصبي، لا أبدي أية رغبة في أن يتحسن. ولقد جاءت الزيادة التي أضافتها السيدة إلى مرتبي - بالاشتراك مع السيد "دي فرانكوي" - صادرة عن محض إرادتهما وحدهما فحسب.. وفي هذا العام، فكر السيد "فرانكوي" - الذي كانت صداقته لي تزداد يوما بعد يوم - في أن يضعني في مركز أعلى قدرا، وأكثر ثباتا. ولقد كان محصلا عاما لمالية "فرنسا"، وإذا كان السيد "دودوييه" - أمين خزائنه - مكتئلا وغنيا، وراغبا في أن يعتزل العمل، فقد عرض علي السيد دي "فرانكوي" هذا المنصب.. ولكي أعد نفسي لتوليته، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد "دودوييه" لتلقى عنه الإرشادات الضرورية. وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل، أو أن "دودوييه" - الذي بدا لي راغبا في أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر - لم يكن يلقيني أصول المهنة عن طيب خاطر، فإنني رحمت ألم بالمعلومات التي كنت محتاجا إليها، في بطة وسوء استيعاب.. ولم ينفذ إلى رأسي قط نظام الحسابات التي كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة. على أنني وإن لم أستوعب دقائق المهنة، لم أتوان قط عن أن أمضي مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الإدارة. بل إنني شرعت فيها، فتوليت السجلات والخزائن، وصرفت وتسلمت نقودا، وأصدرت إيصالات. ومع أن ما لدي من ميل أقل من أن يؤهلني لهذه المهنة، إلا أن تقدم سني جعلني حكيما، فعقدت العزم على أن أتغلب على نفوري من أن أنصرف بكل نفسي إلى وظيفتي. ولكن سوء الحظ شاء - في الوقت الذي بدأت آلف عملي فيه - أن يقوم السيد "دي فرانكوي" برحلة قصيرة، ظلت خلالها الموكل الوحيد بخزائنه، التي لم يكن يودعها - في ذلك الوقت - سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات. فإذا القلق وانشغال البال، اللذان سببتهما هذه الأمانة، يقنعاني بأنني لم أخلق لأكون صرافا. ولست أرتاب في أن اللهفة التي رحمت أرتقب بها عودة السيد "دي فرانكوي" قد ساهمت في المرض الذي وقعت فريسته عقب هذه العودة.

ولقد قلت في الجزء الأول من اعترافاتي إنني كنت موشكا على الموت عندما ولدت. وكان ثمة عيب في تكوين المشانة، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة، خلال سني عمري الأولى، فكانت عمتي "مسوزان" - التي تولت العناية بي - تلقى عناء لا يمكن تصوره، كي تصون حياتي. على أنها أفلحت في ذلك، واستطاعت ببني القوية أن تتغلب في النهاية، فتحسنت صحتي كثيرا خلال صباي.. وماعدا نوبة الضعف والهزال التي ذكرتها من قبل، وماعدا كثرة احتياجي إلى التبول، الأمر الذي كان أقل ارتفاع في الحرارة يجعله عملية متعبة.. فيما عدا ذلك فإنني بلغت الثلاثين من عمري، دون أن أحس بما كان في جسمي من عيب سابق.

وأصابني أولى العلل عند وصولي إلى "البندقية". فإن عناء الرحلة، والحر الشديد الذي عانيته، جلبا علي رغبة مستمرة في التبول، وأوجاعا في الكليتين، لازمتني حتى مقدم الشتاء. ولقد أيقنت بعد زيارتي للغانية أنني ميت، ولكنني - مع ذلك - لم أعان أقل تعب.. وبعد أن أرهقت نفسي بالوهم - أكثر مني بالآلام جسدية - بسبب "جولييتا"، إذا بصحتي خير مما كانت في

أي يوم. وظللت هكذا إلى ما بعد سجن "فيدرو"، إذ إن اشتداد سخونة دمي - خلال رحلاتي إلى "فانسين" في الحر القاطظ الذي كان سائداً إذ ذاك - أدى إلى ألم عنيف في الكليتين، لم أستعد - مذ واتاني - صحتي الأولى!

وفي الفترة التي أتحدث عنها، أدى إسرافي في إرهاق نفسي بالعمل البغيض في تلك الخزانة اللعينة، إلى أن اضمحلت صحتي أكثر من ذي قبل، ومكنت في فراشي خمسة أسابيع أو ستة، في أشد اغتمام يمكن تصوره. وأوفدت السيدة "دوبان" لميادتي "موران"، الذي كان ذائع الصيت، والذي سبب لي - برغم مهارته ورقة لمساته - أوجاعاً لا تخطر ببال، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتي، فنصحني بأن ألبأ إلى "داران"، الذي استطاع بمجساته - وكانت أكثر مرونة - أن يخفف عني بعض الأوجاع. على أن "موران" - حين أنبا السيدة "دوبان" بحالي - صارحها بأنني لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر. وحملني هذا الحديث - الذي نمي إلي - على أن أفكر جدياً في حالي، وفي حماقة التضحية براحة جسمي وبالي في الأيام القلائل التي تبتقت لي في الحياة، لأغدو مستعبداً لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأي ميل... ومن ناحية أخرى، كيف كان لي أن أوفق بين المبادئ القاسية التي اتخذتها لنفسى، وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلاً... ألم يكن من الجافاة للذوق أن أدعو - وأنا المحصل العام للمالية - إلى التجرد من المصلحة الذاتية، وإلى الفقر؟

واشتد تخمر هذه الآراء في رأسي باشتداد الحمى، وراحت تنماسك بقوة، حتى إن شيئاً لم يقو - منذ ذاك الحين - على تبديدها، فوطدت عزمي - خلال فترة نقاهتي - على تنفيذ ما استقر عليه رأيي خلال اشتداد الحمى... ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة، معتزماً أن أقضي في الاستقلال والفقر، الفترة القصيرة التي تبتقت لي في الحياة، فاستخدمت كل قوى روحي في تحطيم أغلال الرأي العام، وفي أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيراً، دون أن أحفل بالثبته برأي الناس.

وكانت العقبات التي اضطرت لمغالبتها، والجهد الذي بذلتها للانتصار عليها، فوق كل تصور. وقد وفقت بقدر المستطاع، بل وأكثر مما كنت أرجو، ولو أنني نجحت في أن أدفع عني ربة الصداقة، بقدر توفيق في التحرر من ربة الرأي العام، لبلغت غاية ماربي، بل لعلها كانت أعظم الغايات التي خطرت لمخلوق فأن، وأدعائها - على الأقل - للفضيلة... على أنني - إذا رحمت أتخطت تحت أقدام الأحكام الخرقاء التي تصدر عن قطع الادعاء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء - أسلم نفسي وانقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، والذين كانوا يغارون من أن يروني أشق وحدي طريقاً جديدة. وأنا أبدو جد منهك في إسعاد نفسي، فلم يعمدوا يفكرون - في الواقع - إلا في أن يجعلوني مشاراً للضحك، وشرعوا في العمل على تحقيري؛ لكي يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتي... كان تغير شخصيتي، الذي بدأ في هذه الفترة - وليست شهرتي الأدبية - هو الذي أثار غيرتهم مني... ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لي أن ضربت بمسلكي مثلاً بدا أنه ضائقهم... لقد فطرت على الود، فكانت طباعي السلسة الوديمة تغذي هذا الود دون عناء. ولقد كنت محبوباً من كل أولئك الذين عرفوني، طالما كنت أعيش مجهولاً لدى الرأي العام، فلم يكن لي عدو واحد... على أن اسمي لم يكذب ولمع، حتى أصبحت بلا أصدقاء... وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أنني كنت محاطاً بقرم كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء، في حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التي يتيحها هذا الاسم، إلا لكي يجروني إلى الهلاك... ولسوف تنكشف في سياق هذه المذكرات، تلك المؤامرة البشعة. على أنني ساكتني - في الوقت الحاضر - بأن أشير إلى أصلها، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها!

كان لابد لي، في الاستقلال الذي أردت أن أحيا فيه، من أن أحصل على القوت. وصور لي خيالي وسيلة جد سهلة، هي نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة. ولو أن عملا أكثر ثباتا من هذا كان يؤدي إلى الغاية ذاتها، لأقدمت عليه.

ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولي، كما أنها كانت الوحيدة الكفيلة بأن تهني لي قوتي من يوم إلى آخر، دون أن تقتضي خضوعا أو تبعية لأحد. ومن ثم قنعت بها.. واعتقادا مني بأنني لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل، خنفت صوت غروري، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال، إلى ناسخ موسيقي!.. وظننت أنني قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلني ندم يذكر، حتى إنني لم أتدخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فاحترفها بمجرد أن وسعني ذلك.

ولقد أدى نجاح مقالتي الأول، إلى زيادة تيسير تحقيق هذا القرار. وقد تكفل "ديدرو" بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة. وقد كتب لي - وأنا طريق الفراش - رسالة أعلنني فيها بنشر المقال ونتيجة ذلك. فقال: "لقد حظي بكل إطرء.. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل". ولقد منحني هذا التحجيد - الذي أولاه الرأي العام عن رضا لكاتب مغمور - أول اطمئنان حقيقي إلى كفاءتي التي كنت في ريب منها قبل ذلك، برغم مشاعري الداخلية. وتبينت النفع العظيم الذي كان يوسعي أن أظفر به من هذه الكفاءة، بالنسبة إلى القرار الذي كنت أهم بتنفيذه، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية، لن يعانني الحاجة إلى العمل إطلاقا!

وما إن استقر رأيي وتوطد عزمي، حتى كتبت إلى السيد "دي فرانكوي" أنبئه بذلك، واشكر له - وللسيده "دوبان" كذلك - كل أنعمهما، سائلا إياهما أن يعهدا إلي بما يرغبان في نسخه. ولم يفقه "فرانكوي" من هذه الرسالة شيئا، بل ظن أنني مازلت في فترة اشتداد الحمى، فهرع إلى داري، ولكنه لم يستطع أن يعزز عني عنه.. وذهب فأنبا السيده "دوبان" والناس كلهم بأنني قد اختليت، فتركته يقول ما شاء، ومضيت في طريقي. وبدأت إصلاح ملابسني بنفسني، فتخلت عن الزوائد المطرزة بالقصب، وعن الجوارب البيضاء، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر المستعار، وطرحت عني سيفي، وبعث ساعتني، وهتفت لنفسي في غبطة تفوق التصور: "الحمد للسماء، فلن تعود بي حاجة إلى تعرف كم الساعة!". وتكرم السيد "فرانكوي" بالترث فترة طويلة، قبل أن يتصرف بشأن خزانته، حتى إذا رأى - في النهاية - أنني مصر على قراري، عين السيد "دالبيار"، الذي كان قبل ذلك مربيا ومعلما لـ "شينونسو" في صغره، والذي كان معروفا في ميدان فلاحه البساتين بكتابته عن "الزهور الباريسية" (١).

ومما خفف من عنت انقلابي النقشفي، أنني لم أطبق الزهد - في البداية - على ملابسني الداخلية المتبقية مما كان لدي في "البندقية". فقد كانت جميلة ووفيرة، وكنت مولعا بها بوجه خاص. وبفضل اضطراري إلى أن اتخذها مظهرا للنظافة، إذا بي أجعلها موضع بذخ وترف، الأمر الذي لم يلبث أن أبهظني.

ولقد تكرم علي شخص ما فخلصني من هذه الريقة. ففي أمسية عيد الميلاد، وبينما كانت الحفادامات في قداس الغروب، بينما كنت في "حفلة موسيقية روحية" (٢) اغتصب باب غرفة في أعلى الدار، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله.. وسرقت الثياب جميعها، وكان بينها اثنتان وأربعون قميصا لي من أبداع الأقمشة، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابي الداخلية. ومما ذكره

(١) أضاف "روسو" إلى هذا قوله: "لست أشك إطلاقا في أن 'فرانكوي' وخلصاه برددون رواية مناقضة لهذه، ولكنني استشهد بما قاله 'فرانكوي' - إذ ذلك - وما ظل بردد له لئلا وقتا طويلا بعد ذلك، إلى أن تكونت الوامرة. ولابد أن ذوي الإدراك السليم والام الطيبة، لا يزالون يذكرون قوله". (٢) وهي حفلات لا تعرف فيها سوى الموسيقى الدينية، كنوع من الرياضة الروحية.

الجيران شوهده رجل يغادر الدار - في تلك الفترة - حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت "تيريز" وإياي في أخيها، الذي عرف بأنه امرؤ سوء . وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية، ولكنه تأكد بأدلة كثيرة عززته لدينا، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق، خشية أن اكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك في داري، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع "تيريز" وطالعي، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة، ورحت أناشدها أكثر من ذي قبل، أن تطرح عنها عبثا خطيرا كهذا . ولقد أبرأني هذا الحادث من ولعي بالثياب الداخلية الجميلة، ولم أعد أقنتي بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية، تمشي مع بقية ملاسبي .

وإذ استكملت انقلابي الإصلاحية بهذا الشكل، لم يعد لي من هم سوى أن أدعّمه وأعزّزه، بالعمل على أن أجتث من قلبي كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس . وكل ما كان يوسعني أن يحولني - بدافع من الخوف أو من اللوم - عن كل ما كان في حد ذاته طبييا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التي أحدثتها مقالتي، أثار قراري ضجة هو الآخر، وجلب علي عملا مكثيا من أن أبدا مهنتي الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقنتني عن أن أنجح في هذه المهنة بالقدر الذي كنت قميئا بأن أحصل عليه في ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحتي السيئة . فإن مرضي الأخير خلف معقيات منعتني من أن أستعيد حالي الصحية السابقة، وإنني لأعتقد بأن الأطباء الذين أسلمت نفسي إلى رعايتهم، الخفوا بي من الضرر فوق ما لحقه المرض . فلقد سمعت بالتوالي إلى "موران"، "ف" داران"، "ف" هيلفيتيوس"، "ف" مالوان"، "ف" تيري . . . وكانوا جميعا من الأساتذة، وكلهم من أصدقائي، وقد عاجني كل منهم على طريقته دون أن يخفف عني شيئا، بل إنهم أضعفوني كثيرا . وكنت كلما حملت نفسي على اتباع إرشاداتهم، ازدادت شحوبا، وهزلا، وضعفا . وأخذ خيالي - الذي أزعجوه - يقيس حالي بمدى مفعول عقاقيرهم، فلم يعد يصور لي سوى سلسلة متتابعة من الآلام، التي تسبق الموت، ومن احتباس البول، والحصباء، وأحجار القبر . . . كانت كل ألوان العلاج التي تخفف عن الغير - من مياه طبية، وحمامات، وحجامة - لا تزيد أوجاعي إلا استفحالا . وإذ وجدت أن مجسات "داران" - وهي الوحيدة التي أدت إلى بعض النتائج، وجعلتني أعتقد أن لا سبيل لي إلى الحياة بدونها - لم تكن تهنيئ لي، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم في اقتناء كمية هائلة من المجسات، تكفيني طيلة العمر، ولو فارق "داران" الحياة . . . ولابد أنني أنفقت خمسين "لوي" على الأقل، خلال السنوات الثماني أو العشر التي استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع . . . ومن اليسير تبين أن علاجا باهظ النفقات، مؤلما مرعجا كهذا، كان يشغلني عن العمل، وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت، لا يشعر برغبة ملهوفة في كسب خبزه اليومي !



وكانت الشواغل الأدبية ملهأة أخرى، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملي اليومي . فما هو أن نشر مقالتي، حتى انقض علي حماة الأدب، وكانهم عصبة جمعت صفوفها . وغازطني أن أجد مثل هذا العدد من "السادة جسن" الصغار (١)، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالامر، فقد امتشقت قلبي، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات في صفوفهم . . . وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلبي، سيد من "نانسي" يدعى السيد "جوتيه"، فقد أهين بغلظة في رسالة

(١) السيد "جسن" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" "طبيب الغرام" وقد استعار "روسو" هذا الاسم ليرمز إلى المتعامل الذي تعميه المصلحة الشخصية عن الحق .

إلى "جسوم". أما الثاني، فكان الملك "ستانيلاس" (١) نفسه، الذي لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدي. وقد اضطرني الشرف الذي أضفاه عليّ، إلى أن أبدل لهجتي في الرد عليه، فأتخذت لهجة أكثر وقاراً، وإن لم تكن أقل شدة.

ففتدت رسالته تماماً، دون أن أغض من احترام المؤلف. ولقد عرفت أن "جيزويتيا" يدعى الأب "مسينو" كان ذا يد في الموضوع، فاعتمدت على فطنتي في التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية، فكشفت - في طريقي - عن خطأ تاريخي كنت أعتقد أنه لا يصدر إلا عن قلم قداسته. وهذا المقال - الذي كان أقل من سواء إثارة للضحك لسبب ما - يعتبر في حد ذاته فريداً في نوعه. فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأي العام كيف أن في وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق، ضد عاهل ذي سلطان. وكان من العسير أن أتخذ لهجة أبية ومحترمة - في الوقت ذاته - تفوق تلك التي اتخذتها في ردي عليه. وكنت مجدوداً إذ قدر لي أن أنازل غريماً كان قلبي مفعماً نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق. ولقد ظن أصدقائي - الذين انزعجوا من أجلي - أنهم لن يلبثوا أن يروني في "الباستيل"، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلني لحظة واحدة... وكنت محقاً. فقد قال هذا الأمير الطيب، بعد أن اطلع على ردي: "لقد تلقيت جزائي، ولن أزج بنفسي في الأمر بعد ذلك". ومن ذلك الحين، تلقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم - التي ساضطر إلى ذكر بعضها - وانتشر مقالتي في "فرنسا" وأوروبا في هدوء، دون أن يجد امرؤ فيه منفذاً إلى لوم!

وصادت - بعد ذلك بقليل - غريماً آخر لم أكن أتوقعه هو السيد "بورو" الذي كنت أعرفه في "ليون"، والذي أولاني - قبل عشر سنوات - كثيراً من الود، وأدى لي عدة خدمات، ولم أكن قد نسيت، ولكنني كنت قد تغافلت عنه تكاسلاً، كما أنني لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتي، إذ أعوزتني الفرصة المواتية لأبعث بها إليه - وكنت في ذلك مخطئاً. ولقد هاجمني - ولكن في أدب وأمانة - فرددت عليه بنفس اللهجة. وعاد إلى الهجوم بإصرار، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم، لم ينبس بعده بكلمة (٢)، ولكنه صار أشد أعدائي، وانتهز وقت محنتي ليوجه إلي شتائم مقدعة، كما رحل إلى "لندن" خصيصاً لكي يسمى إلى إيذائي!

ولقد شغلتنني هذه المجادلات القلمية كل الشغل، إذ بددت كثيراً من الوقت الذي كان يتطلبه عملي في النسخ، وعاقبت تقدمي في طلب الحقيقة، وحدث من الكسب الذي كان يدخل جيبي. وكان "بيسو" - ناشر مؤلفاتي في ذلك الحين - لا يمنحني دائماً سوى مبالغ زهيدة جداً في مقابل كتيباتي، وكثيراً ما كان لا يدفع شيئاً البتة. ومن أمثلة ذلك أنني لم أتلق درهما واحداً عن رسالتي الأولى، إذ أعطاه "ديدرو" إياها دون مقابل. وكان لأبد من أن أنتظر طويلاً. وإن أنتزع منه القليل - الذي كان يجود به - "سو" إثر "سو". وفي الوقت ذاته، لم تكن سوقتي في النسخ رائجة، فقد كنت مشغولاً بمهنتين، وهذه هي الوسيلة لكي أسيء أداء كل منهما!.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان في ناحية أخرى، وقد تمثل هذا التعارض في تباین أسلوب الحياة الذي كانت كل منهما تضطرني إلى انتهاجه.. ذلك أن نجاح مؤلفاتي الأولى، جعلني قبله الانظار. إذ أثارت المكانة التي احتلتها فضول الناس، وولد الرغبة في معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار، الذي لم يكن يخطب ود أحد، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقاً، سعيداً.. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التي كنت

(١) الملك "ستانيلاس" الأول، ملك "بولندا" وقد عاش سنة ١٦٧٧ إلى سنة ١٧٦٦، وخلفه "ستانيلاس" الثاني، آخر ملوك "بولندا"، وقد عاش بين سنتي ١٧٢٢ و ١٧٩٨، والغالب أن "روسو" قصد أولهما. (٢) يبدو أن الذاكرة خللت "روسو" هنا، إذ إنه لم يوجه إلى "بورو" سوى رد واحد، بشأن مقاله: "في فوائد العلوم" لم يرد إطلاقاً على مقال كان لنفس الكاتب في الموضوع ذاته.

أنشدتها مستحيلة، إذ لم تعد حجرتي تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبوني وقتي بمختلف الحجج. وعمدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجي إلى موائدهن.. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتي.. ولم أجد أقوى على صدهم جميعا، ففي الوقت الذي جلبت فيه على نفسي ألف عدو - بسبب الرفض - كانت رغبتني في مجاملة الغير تستعبدني، ولم أجد أحظى من يومي بساعة واحدة لنفسي، مهما أحاول!



وأدركت إذ ذاك أن العيش في فقر وحرية، ليس دائما بالسهولة التي يتصورها المرء. فلقد شئت أن أعيش على مهنتي، ولكن الجمهور لم يشأ!.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة، لتعويضني عن الوقت الذي كان يضيع عليّ، فإذا الهدايا - من بشخصه (١). ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا، كبيرها وصغيرها، دون ما استثناء لإرضاء أحدا.. ولم يؤد كل هذا إلا إلى اجتذاب واهبي الهدايا، الذين كانوا يطمعون في أن يحفظوا بفخر الثغلب على صدودي، وأن يدينوني بفضيلهم بالرغم مني. وكم من امرئ كان يضمن عليّ "إيكو" واحد - لو أنني طلبته - ولكنه راح يضايقني بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمني بالفطسة والكبر، ليثأر لنفسه من رفضي!

ولابد أن القارئ قد حدس أن القرار الذي كنت قد اتخذته، والنهج الذي رغبت في انتهاجه، لم يصادفاه هوى لدى السيدة "لوفامير". ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتي، في أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجهيات أمها؛ ومن ثم فإن "الدادتين" (٢) - كما اعتاد "جوفكور" أن يسميهما - لم تكونا حازمتين دائما مثلي في رفض الهدايا، من ناحيتهما، ومع أن كثيرا من الأشياء توارى عني، إلا أنني رأيت ما كان كافيا لأن يقنعني بأنني لم أر كل شيء!.. وقد عذبنني هذا، لا خشية أن أنهم بالتواطؤ معهما - وهو ما تنبأت بأنني ملاقيه عما قريب - وإنما بسبب الفكرة القاسية التي أوحى بها عجزني من أن أكون صاحب السلطان في بيتي، وعلى نفسي!

ولقد رجوت، وتوسلت، وغضبت.. دون جدوى!.. ولقد صورتنني الأم في صورة المتذمر، الأبدى التائب والتوبيخ، ورمتنني بأنني مشاكس شرس.. وكانت لا تفنأ تنهاس مع أصدقائي.. كان كل شيء في بيتي محوطا بالغموض والأسرار، ولكني - اتقاءا للتعرض للعواصف دون انقطاع - لم أجد أجروا على الاستفسار عما كان يجري. ولقد كان التخلص من هذا الإزعاج يتطلب حزما لم أكن أملكه، إذ إنني كنت أعرف كيف أصبح، ولكنني كنت لا أدري كيف أقرن الصباح بالعمل.. فتركت أصبح، وظل كل شيء ماضيا في مجراه؟

هذه المزعجات المستمرة، وهذه المضايقات اليومية التي كنت فريسة لها، جعلت - في النهاية - مسكني ومقامي في "باريس" من أبغض الأمور. وكنت إذا ما سمحت لي صحتني بالخروج، وإذا لم أنسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء معارفي، أتمشى وحيدا، وأنا أحلم بخطتي العظيمة في الحياة. وكنت أسطر بعض الحواطر، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرصاص اعتدت أن أحتفظ بهما في جيبي. وهكذا دفعت بي المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسي، إلى مهنة الأدب نهائيا، فقد رحلت

(١) بوليشنيل: شخصية وردت في خرافات "نابولي" القديمة، يرتدي صاحبها قبعة ذات قرنين، وقد تضخم جسمه من إمام ومن خلف، وله أنف كمنقار الدجاجة، وصوت أجش حاد يطنل في خفة (أخف).. وهو رجل شرس، صاخب، عرييد، مشاكس. (٢) الواقع أن التعبير الدارج "دانة" أدق من مرببة في أداء المعنى.

الوذ بها فرارا من تلك المضايقات . وهذا هو السر في أنني بثت كل مؤلفاتي الأولى، المرارة والضيق اللذين دفعاني إلى أن اشغل نفسي بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم في ذلك .. فإنني حين أقمحت - بالرغم مني - في المجتمع، دون أن أوتى طباعه . أو أن أكون على استعداد لأن أكتسبها، قررت أن أتخذ لنفسني طباعا خاصة تغنيني . وإذا كانت حماقتي وحيائي الممض - اللذين عجزت عن مغالبتهما - صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزني آداب اللياقة، فقد رأيت - لكي أشجع نفسي - أن أدوس تلك الآداب تحت قدمي . وأحالي الحياء إلى هجاء مقذع لاذع، وحرصت على أن أزدرى آداب اللياقة التي لم أتعلم كيف أمارسها . ومن الصحيح أن هذه الغلظة تمشت مع مبادئ الجديدة، فإذا بها تكتسب سموا في عقلي، وتتخذ مظهر الجراءة المنبثقة عن الفضيلة .. واستطيع أن أذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل الجليل، استطاعت أن تصمد خيرا - ولأمد أطول - مما كان مرتقيا، بطبيعة الحال، لجهد مناقض لسجيتي إلى هذا الحد، ومع ذلك فإنني كنت أسيء دائما الاحتفاظ بشخصيتي، فيما بيني وبين نفسي - بوجه خاص - بالرغم مما ذاع عني في المجتمع من نفور من البشر، أوحى به مظهري الخارجي وبعض الكلمات التي تنم عن ذلك .. وإذا راح أصدقائي ومعارفي يقدرّون هذا الذب الوحشي وكأنه حمل، وإذا راحوا يحدّون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية، العامة، فإنني لم أكن أملك قط أن أقول كلمة واحدة، لأي امرئ كان!



وادت قصة "خراف القرية" إلى تألقي في المجتمع، فلم يعد في "باريس" رجل مرموق فوق ما كنت أنا . ويرتبط تاريخ هذه القصة - التي تمثل فترة من حياتي - بعلاقات كنت قد أنشأتها في ذلك الحين . وهذه تفصيلات أرى واجبا عليّ أن أتناولها، لكي تفهم القصة حق الفهم .

كان لدي عدد كبير جدا من المعارف، بيد أنني لم أصطف منهم سوى صديقين، هما "ديدرو" و"جرم" . ونظرا لما أوتيت من رغبة في أن أجمع كل أولئك الأعراء لدي، فإن صداقتي الوثيقة لكل منهما، لم تدع مناصا من أن يصبح كل منهما صديقا حميما للآخر، إذ إنني جمعتهم معا، فإذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بي أنا . وكان لـ "ديدرو" معارف لا حصر لهم، أما "جرم"، فقد كان يشتهي المعارف، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمع في أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . فاتحت له صداقة "ديدرو"، وصداقة "جوفكور" .. واصطحبته إلى دار السيدة دي "شينونسو"، ودار السيدة "ديبيناي"، ودار البارون "دولباخ"، الذي وجدته مرتبطا به على الرغم مني تقريبا .. وغدا كل أصدقائي أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية في السهولة، ولكن أحدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لي! .. وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان "جرم" يقيم في بيت الكونت دي "فرييز"، فإنه كان يدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكنني لم أتلق قط أي دليل على الود أو اللطف من الكونت دي "فرييز"، أو الكونت دي "شومبيرج" - قريه الذي كان وثيق اللفة بـ "جرم" - أو من أي شخص آخر، ذكرا كان أو أنثى، ممن كانت لـ "جرم" بهم علاقة، عن طريق هذين السيدتين . وكان الوحيد المستثنى منهم، هو الراهب "راينال" الذي أثبت أنه صديق لي، وإن كان صديقا له، والذي اعتاد أن يقدم كيس نقوده لي - إذا

دعت الحاجة - في كرم مالفوف. على أنني كنت أعرف الراهب "راينال" قبل أن يعرفه "جرجم" نفسه بوقت طويل، وكنت أميل إليه دائما، عقب تصرف مفعم بالركة واللياقة أسدها إلي في مناسبة طفيفة القيمة، ولكنني لم أنسها البتة.

كان هذا الأب "راينال" صديقا حبيبا بالتأكيد. ولقد تسنى لي الدليل على ذلك، حوالي الوقت الذي أنا بصدهه تقريبا، وفي أمر يتعلق بـ "جرجم" ذاته، إذ كان على علاقة وثيقة به. فلقد ظل "جرجم" بعض الوقت على صداقة خالصة بالأنسة "فيل"، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلهما في هواها، وأن ينتزعها من "كاهوسالك". ولكن الحسنة طردت هذا المتيم الجديد، وهي تفخر بوفائها، فحمل الشاب الأمر محملا اليما، حتى إنه فكر في الموت. وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ. فقد راح يقضي نهاره وليله في غيبوبة، تظل خلالها عيناه مفتوحتين، ونبضه منتظما، ولكن.. بلا كلام، ولا طعام، ولا حركة.. وكان يبدو أحيانا ما ينم عن أنه كان يسمع، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا، ولو بالإشارة!

وكان - إلى جانب ذلك - غير منفعل، ولا متالم، ولا محموم.. وكان يبقى على هذه الحال، وكأنه ميت! وتشاطرت والراهب "راينال" رعايته، فكان الراهب - نظرا لتفوقه علي في متانة البنيان وقوة البدن - يسهر الليالي، بينما كنت أعني به في النهار. وكنا لا نفارقه إطلاقا، فلا يبرحه أي منا حتى يصل الآخر. وجزع الكونت دي "فرييز"، فأحضر له "سيناك" الذي قال - بعد أن فحصه فحوصا دقيقا - ألا علة هناك، ولم يصف له دواء. وكان إشفاقي على صديقي قد حملني على أن أراقب بإمعان محيا الطبيب، فلمحته يتسم وهو يغادر المكان.

ومع ذلك فإن المريض ظل أياما عديدة دون حراك، ودون أن يتناول حساء، أو أي شيء، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ، الذي كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر، والذي كان يزدرده في لهفة. وفي ذات صباح يديع، استيقظ "جرجم"، وارتنى ثيابه، واستأنف حياته العادية، دون أن يحدثني قط، أو يحدث الراهب - فيما علمت - أو يحدث أي مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة، ولا عن العناية التي أوليناها إياها طيلة استمرارها!

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا، أن تؤدي قسوة إحدى غانيات الأوبرا، إلى أن يموت رجل لفرط اليأس!.. وأذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت "جرجم" في المجتمع، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب، والصداقة، والوفاء، في كافة الاعتبارات. وجعلته هذه الفكرة مرموقا، ومكرما لدى المجتمع الراقي. وبهذا تباعد عني، أنا الذي لم أكن بالنسبة له أكثر من نكاة أو أداة!..

ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عني، فأحزنتني ذلك، إذ إن كل المشاعر المضطربة التي كان يتظاهر بها، كانت عين المشاعر التي خالجتني نحوه، دون أن اتظاهر بها. ولقد كنت مغتبطا لنجاحه في المجتمع، ولكنني لم أكن أحب له أن ينسى أصدقاءه في غمرة النجاح. ولقد قلت له يوما: "إنك لتهملني يا "جرجم"، وإنني لأغفر لك ذلك. فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المديوي، وشرعت تتبين أنه فارغ، فإنني أأمل أن تعود إلي، ولسوف تجعدي دوما كما عهدتني. أما في الآونة الحاضرة، فلا تضايق نفسك، فسوف ادعك تفعل ما يحلو لك، وسوف أنتظرك". وقال لي إنني كنت على حق ودبر خطته على هذا النسق، وانطلق في طريقه إلى نهاية الشوط، حتى إنني لم أعد أراه إلا مع الأصدقاء المشتركين لكلينا!

وكانت دار البارون "دولباخ" هي ملتقانا الرئيسي. قبل أن يرتبط بمدام "ديبيناي" ارتباطا وثيقا. وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامي وقد أوتي ثروة عظيمة جدا، فاستغلها استغلالا نبيلًا، وفتح داره لاهل الأدب والفضل، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملا مكانه بينهم. وإذا كان على علاقة بـ "ديسدرو" منذ أمد طويل، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بي، قبل أن يغدو اسمي معروفا. وصدني نفور طبيعي عن أن أستجيب لتقريبه فترة طويلة. وقد سألني عن السبب ذات يوم، فقلت له: "إنك واسع الثراء". ولكنه ألح في طلب ودي، واستطاع أن يتغلب على توجسي في النهاية. لقد كانت نكيتي الكبرى دائما، هي عجزتي عن مقاومة الإطراء واللفظ، وما وجدني يوما أتخلي عن هذه الشيعة!



ومن حالات التعارف التي تحولت إلى صداقة بمجرد أن وجدت من حقي أن أنشدها، معرفتي بالسيد "ديكلو". ولقد انقضت عدة سنوات منذ رأيته - للمرة الأولى - في "لاشيفريرت"، لدى السيدة "ديبيناي"، التي كان على صلات طيبة بها. ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا، ثم رحل في اليوم ذاته.

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء. وكانت السيدة "ديبيناي" قد حدثت عني وعن أوبراي "عرائس الشعر اللطاف". وكان "ديكلو" ذا مواهب عظيمة، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين، ومن ثم فقد مال إلي، ودعاني إلى زيارته. وبالرغم من ميلتي القديم (١)، الذي عززته المعرفة، فإن حياتي وكسلي ظلا يعوقانني، حتى لم يبق ثمة ما يقريني إليه سوى لطفه، وحفاوته. على أنني تشجعت بنجاحي الأول (٢) وبما بلغني من إطرائه هذا النجاح، فقممت بزيارته، وجاء لزيارتي، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلني أعزبه دائما، وإليها - وإلى شهادة قلبي الصادق - أدب بمعرفة أن الاستقامة والوفاء، قد تقترن أحيانا بالثقافة الأدبية!

ولقد كانت كثير من علاقاتي - التي تقل متانة عما ذكرت، والتي أتجاوز عن ذكرها هنا - نتيجة مرات نجاحي الأولى، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوي. فلقد كانت نفسي تنكشف على حقيقتها سريعا، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف... على أن من النساء اللاتي سعين إلى التعرف بي في تلك الآونة، امرأة صارت أقوى صلة بي من سواها. تلك هي السيدة المركيزة دي "كريكي"، ابنة أخ السيد "لوبيبي دي فرولاي"، الذي كان سفيرا لـ "فرنسا" في "مالطة". وكان أخوها سلفا للسيد دي "مونتيجي" في السفارة الفرنسية في "البندقية"، وزرته عقب عودتي من تلك المدينة.. ولقد كتبت السيدة دي "كريكي" إلي، فذهبت لزيارتها.. واستقبلتني في مودة، وتناولت الغداء لديها بضع مرات، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء.. منهم السيد "موران" - مؤلف "سبارتاكوس" و"بارنيفلت" وغيرهما - الذي أصبح من ذلك الحين الد أعدائي، لغير ما سبب استطيع أن أتصوره، سوى أنني أحمل اسم رجل كان أبوه قد اضطهده بخسة وظلم.

ويرى من هذا، أنني - كناسخ كان ينبغي أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء - كنت أصادف كثيرا من الشواغل التي كانت تعوق عملي اليومي عن أن يكون جد مريح، وكانت تمنعني من أن أعني العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقي. وكنت أضيق أكثر من نصف الوقت المتبقي لي، في محو أو كشط الأخطاء التي كنت أرتكبها فيما أنسخ، أو في إعادة كتابته من جديد. وقد أدى هذه

الانزعاج إلى أن أصبحت لا أطيق "باريس" يوما بعد يوم، وإلى حملي على أن أنشد الريف برغبة قوية. فذهبت عدة مرات لأقضي أياما في "ماركوسي"، التي كانت مدام "لوفاسير" على معرفة بأسقفها.. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث إنه لم يجد أي ضير في مقامنا في داره.. ولقد ذهب معنا "جرم" مرة إلى هناك (١). وكان الأسقف ذا صوت رخيم، كما كان يجيد الغناء، ومع أنه لم يكن ملما بالموسيقى، إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة؛ ومن ثم فقد قضينا الوقت في ترديد الأغاني الثلاثة التي كنت قد وضعتها في "شينونسو"، كما لحت أغنيتين أو ثلاثا جديدة، وضع "جرم" والأسقف كلماتها بقدر ما سمعها. ولست أملك أن أمنع نفسي عن التحمس على تلك الأغاني الثلاثة التي وضعت في لحظات مفعمة بالخيطة الخالصة، والتي تركتها في "فوتون" ومعها جميع قطعي الموسيقية. ولعل الآنسة "دافنيورت" قد اتخذت منها أشرطة ورقية، للفق شعرها.. على أنها كانت جديرة بأن تصان، فقد كانت - في الغالب - دقيقة الوزن.

وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة - وقد اغتبطت لرؤية "العمة" منشورة مسرورة، كما كنت أنا الآخر مبتهجا - أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا، نظمته في عجلة وفي غير عناية.. وسيوجد بين أوراقها.



وكان لي - في مكان أكثر قربا من "باريس" - ملاذ آخر يلائم مزاجي.. تلك هي دار السيد "موسار"، مواطني، وقريب، وصديقي، الذي أعد لنفسه ماوى فائتا في "باسي"، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوداعة. وكان السيد "موسار" تاجر مجوهرات، وكان رجلا سليم الذوق، جمع من حرفته ثروة طيبة، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دي "فالماليت" - ابن صراف ومدير فندق الملك - ثم استقر رأيه الحكيم على أن يهجر في أيام شيخوخته التجارة والعمل، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن، بين هموم الحياة ونهاية الأجل.

وكان "موسار" الطبيب فيلسوفا عمليا حقا، فكان يعيش بلا هموم، في دار بديعة ابتناها لنفسه، وفي حديقة غناء زرعها بيديه. وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة، عثر على قواقع متحجرة، ووجد بها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى في الطبيعة سوى قواقع، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع... وأصبح لا يفكر دائما إلا في هذا الأمر، وفي اكتشافه الفذ، حتى أهاجته هذه الأفكار، وأوشكت - في النهاية - أن تتخذ في رأسه شكل نظرية - أعني خيلا - لولا أن الموت تدخل في الأمر - لحسن حظ عقله، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزون به، ويجدون في داره أبدع ماوى - فانتزع من بينهم، متوسلا بأعرب وأقسى مرض.. ذلك هو تورم في معدته، كان دائم التضخم، وكان يحرمه من الأكل، دون أن يتبدى سببه برغم طول العهد به، ثم انتهى بموته جوعا، بعد سنوات عديدة من العذاب... ولست أملك أن أسترجع نهاية عمر هذا الرجل، دون أن ينقبض فؤادي. فقد ظل يستقبلنا - "لينيبي" وأنا - بسرور عارم.. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التي كان يعانيها، على أن ينأيا عنه إلى آخر ساعة في حياته.. وإني لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام - الذي اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا - إلا بعينه، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاي الخفيف، إلا ليلفظها في اللحظة التالية... ولكن كم من أوقات - قبل تلك الآلام

(١) أضاف "روسو" إلى هذا الاستدراك التالي: "لما كنت قد أغفلت هنا ذكر حادث ثافة، ولكنه جدير بالذكر، وقع لي مع "جرم" المذكور ذات صباح، وقد اعترنا تناول الغذاء عند عين "سان فاندريه"، فإني لن أعود إلى هذا الحادث. ولكنني حين فكرت فيه - فيما بعد - استنتجت أن "جرم" كان يبيت اللبة في قرارة قلبه - منذ ذلك الحين - على المواجهة التي نفذها فيما بعد بنجاح رائع".

- قضيتها في داره مسرورا، مع النخبة التي اصطفاها من الاصدقاء!.. وإني لاضع على رأس هؤلاء الراهب "بريغو" (١)، وكان شخصا لطيفا، سلسا، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جديدة بالخلود، ولا يبدي - سواء في مظهره، أو في معشره - شيئا من ذلك الجو القاتم الذي فرضه على مؤلفاته.. والطبيب "بروكوب"، وكان "يعسوب" صغيرا (٢)، ذا حظوة لدى النساء، و"بولاجيه" المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية "الاستبداد الشرقي"، وقد عمد فيما أعتقد - إلى التوسع في نظريات "موسار" عن مدى عمر الدنيا.. أما بين النساء، فأذكر السيدة "دافيس" ابنة أخت "فولتير"، التي كانت - إذ ذاك - طيبة ساذجة، ولم تكن قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر.. والسيدة "فانلو" التي لم تكن جميلة حقا، ولكنها كانت فاتنة، وكانت في غناها كالملاك.. والسيدة "فالمليت" التي كانت تحذق الغناء هي الأخرى، والتي كانت - برغم هزالها - بالغة اللطف لو أنها خفت من تظاهرها باللطف!.. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد "موسار" - تقريبا - وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لي، لولا أن نظراته عن القواقع كانت الذ، حتى لأذهب إلى القول بأنني عكفت لسنة أشهر على العمل في مكتبه، في دراسة هذه النظرية، باغتياب لم يكن يقل عن اغتيابه!

وكان يلح - من زمن طويل قبل ذلك - بأن مياه "باسي" كانت كفيلة بأن تصلح حالتي الصحية، وكان يصر على أن أتردد على داره لكي أتناولها. وقد انصعت أخيرا له؛ لكي أتنزع نفسي - بعض الوقت - من ضجيج المدينة، فقضيت في "باسي" ثمانية أيام أو عشرة، أفدت منها كل الفائدة، بفضل إقامتي في الريف، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه. وكان "موسار" يهوى العزف على الكمان الكبيرة، ويشغف بالموسيقى الإيطالية. وفي ذات مساء، أطلنا الحديث - قبل أن ناوي إلى مخادعنا - في هذا المجال، وتكلمنا بوجه خاص عن "أوبرا بوفيا"، التي رآها كل منا على حدة - في "إيطاليا" - والتي أعجب بها كل منا إعجابا بالغا.. ولم أتم في تلك الليلة، فشرعت أفكر في وسيلة تمكنني من أن أتيح مثل هذا النوع من "الدrama" لـ "فرنسا"، إذا لم يكن شبه بين "غراميات راجوند" وهذا النوع (٣). وفي الصباح التالي، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر، تتمشى مع هذه الفكرة - أثناء ما كنت أترىض وأتناول المياه - ونسقتها مع الألحان التي توافدت على رأسي خلال ذلك. وسطرت جميع هذه الأغاني، في "صالون" ذي قبة، فوق الحديقة. ثم لم أتورع عن أن أعرضها - أثناء تناول الشاي - على "موسار" والأنسة "دوفيرنيوا" مديرة داره، التي كانت بالغة الطيبة واللطف حقا. وكانت القطع الثلاث التي نظمته في عجلة، تؤلف الأغنية الفردية الأولى، وهي: "فقدت خادمي" و"عراف القرية"، و"الحب يخشى على نفسه".. ثم الثنائي الأخير: "أبدا لن أخطبك، يا "كولان"، إلخ! ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضي فيها. ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لغيتهما من كل منهما، لكنت خليقا بأن ألقي قصاصتي إلى النار، ولا أعود إلى التفكير فيها، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هذه، على الأقل!.. ومن ثم فقد وجدني متحمسا، حتى إن "الدrama" اكتملت خلال ستة أيام، فيما عدا بضعة سطور.. كما أنني وضعت أفكار الموسيقى كلها، فلم يعد أمامي ما أفعله في "باريس"، سوى أن اضيف بعض مقطوعات إلقائية، وأن أملا بعض الحواشي. وقد فرغت بسرعة من كل هذه، فلم تنقض ثلاثة أسابيع، حتى كانت المناظر قد نسجت، وأصبحت مهياة للعرض. ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخر، وقد قدر لها ألا توضع إلا بعد ذلك بوقت طويل.

(١) اشتهر باسم "آل برغو" واسمه الأصلي "برغو ديكسيل" وهو مؤلف قصة "مارتن ليسكو" الخالدة وقد ولد في سنة ١٦٩٧ ومات في سنة ١٨٦٣. (٢) يعسوب: شخصية أسطورية إغريقية، وإن كان "هيرودوت" يقول إنه شخصية حقيقية، وقد عاش في "مصر" واشتهر بالرحلات والأدب. (٣) كوميديا موسيقية عرضت في "الأوبرا الباريسية" في سنة ١٧٤٢.

اثارني وضع هذا العمل الادبي الفني، حتى لقد تملكني شوق عارم إلى سماعه، وحتى إنني كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شيء، في سبيل أن أراه معروضا أمامي - بالشكل الذي كنت أتمثله في خيالي - في غرفة موصدة، كما فعلت "لولي" - فيما يقال - إذ شهدت يوما مسرحية "أرميد" تمثل أمامها وحدها. ولما لم يكن من الميسور لي أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور، فقد كان من الضروري، لكي تمثل هذه الأوبرا، من أن تلقى قبولا في دار "الأوبرا". ولكنها - لسوء الحظ - كانت من نمط جديد كل الجدة، لم تالفه آذان الجمهور، كما أن فشل "عرائس الشعر اللطاف" جعلني أتوقع المصير ذاته للعراف (١)، إذا أنا قدمتها باسمي. وقد ساعدني "ديكلو" على الخروج من هذا المازق. إذ تكفل بأن يسمي إلى إجراء تجارب على المسرحية، دون أن يكشف عن اسم المؤلف. ولكي لا أتم عن نفسي، فإنني لم أحضر التجربة، وظل كل امرئ - حتى "الكمانان الصغيران" (٢)، اللذان توليا الإخراج - يجهلان اسم المؤلف، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية. ولقد فتن كل من سمعها حتى إن جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها في اليوم التالي. ولقد شهد السيد "كوري" - مدير حفلات البلاط - التجربة، فطلب المسرحية لتعرض في البلاط، ولكن "ديكلو" - الذي كان يعرف نواياه فخشي أن يكون سلطاني على المسرحية في البلاط أقل منه في "باريس" - رفض أن يسلمه إياها، فعاد "كوري" يطلبها بحكم منصبه. واحتدم الجدل بينهما، حتى لقد تطور ذات يوم - وهما في "الأوبرا" - فاوشكا أن يخرجنا لنتبارزا، لولا أن حيل بينهما.

ورؤي الاتصال بي بشأنها، ولكنني تركت البت في ذلك إلى السيد "ديكلو"، فكان لابد من الرجوع إليه. وتوسط السيد الدوق "دوهون" في الأمر، فرأى "ديكلو" - في النهاية - أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة، وقدمت المسرحية لتمثل في "فونتينيلو". وكان الجزء الذي أوليته أعظم اهتمام، والذي نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف، هو الإلقاء الغنائي.

فقد نسق الإلقاء - في أوبراي - بطريقة جديدة تماما، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات. ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هذا التجديد، إذ خيف من أن يصدم الآذان التي ألفت الرتابة. ومن ثم فإنني وافقت على أن يضع "فرانكويي" و"جيليوت" الحانا جديدة للإلقاء، ولكنني رفضت أن تكون لي يد في ذلك.

وإذ تم إعداد كل شيء، وحدد يوم العرض، اقترح علي أن أرحل إلى "فونتينيلو" لأحضر التجربة الأخيرة، على الأقل. فذهبت مع الأنسة "فيل"، و"جرم"، والراهب "راينال" - على ما أظن - في إحدى العربات الملكية. ولم يكن ثمة بأس بالتجربة، بل إنني كنت أكثر رضا عنها مما توقعت. وكانت الفرقة الموسيقية قوية، كثيرة النفر، مؤلفة من موسيقيي "الأوبرا" والفرقة الملكية. وقام "جيليوت" بدور "كولان". والأنسة "فيل" بدور "كوليت"، و"كوفيتيه" بدور العراف. وكان المنشدون من "الأوبرا". ولم ادل بغير ملاحظات قليلة، فقد تولى "جيليوت" الإخراج، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل. وبالرغم من مظهري الروماني، فإنني كنت في حياء التلميذ إذا ألقى نفسه وسط كل هؤلاء القوم!

وفي اليوم التالي - وهو يوم العرض - ذهبت لأتناول الفطور في مقهى "الجران كوهون"، فإذا به

(١) أطلق "روسو" على هذه "الأوبرا" اسم عراف القرية. (٢) لقد اشتهر به "رسميل" و"فرانكوير" اللذان كانا يتولين الإخراج الموسيقي، وقادة الفرقة الموسيقية في "الأوبرا". وقد سببا بذلك، لأنهما اعتادا في صباهما أن يطرقا بالبهوت، وهما يعزفان على "الكمان".

زاخر بالناس، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة، وتعذر الدخول إلى المسرح. وقال ضابط من الحضور، إنه دخل بلا عناء، وأسهب في وصف ما حدث داخل المسرح، كما وصف المؤلف، وروى ما قاله وما فعله. والذي أذهلني في حديثه الطويل - الذي ألقاه في بساطة واعتداد - أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة!

.. بل لقد تجلّى لي تماما، أن هذا الذي تكلم عن التجربة بلهجة العالم، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف - الذي قال إنه رآه كما صورته - حاضرا أمام عيني، فلم يتعرف عليه.. وكان أغرب ما في هذه الواقعة، هو الأثر الذي أحدثته في نفسي. فلقد كان ذلك الرجل كبير السن، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء، ولا الزهو، سواء في مظهره، أو لهجته. بل إن سيماه كانت تنم عن أنه رجل فاضل، كما كان وسام "صليب سان لوي" - على صدره - يوحي بأنه ضابط قديم. ولقد استأثر باهتمامي بالرغم مني، وبرغم قبحته في الكذب. وفيما كان يمضي في أكاذيبه، راح وجهي يتضجر خجلا، وأخذت أغض بصري وأتململ في مجلسي. وكنت أسأل نفسي أحيانا: اليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة؟!..

وأخيرا، أسرعت بإفراغ قديم "الشيكلانة" دون أن أنبس ببنت شفة، وأنا أرغف خشية أن يتعرف علي أحد فيخجله، ومررت بمجلسه وأنا منكسر رأسي، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت، بينما كان القوم ماضين في الحديث عما كان يصفه. ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح في العرق. ولو أن أحدا عرفني وذكر اسمي قبل خروجي، فإني أوقن بأنني كنت خليقا بأن أبدي من الحجل والارتباك ما يبديه أي مذنب، مجرد الشعور بالصغار الذي كان الرجل جديرا بأن يشعر به إذا ما اقتضحت أكاذيبه!



وهانذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة في حياتي، فإن من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية، لانه من المستحيل تقريبا ألا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير. على أنني سأحاول أن أروي كيف تصرفت، وعن أية بواعث صدرت تصرفاتي، دون أن أضيف ما ينم عن إطرأ أو عن لوم. ففي ذلك اليوم المقصود، بدوت في نفس الزبي المهمل الذي ألقته، وقد نمت لحيتي، وبدا شعري المستعار غير منسق. وبهذا المظهر الذي نبا عن اللياقة، والذي كنت أعتبره دليلا على الشجاعة، دخلت القاعة التي كان من المنتظر أن يفد عليها الملك، والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها، بعد قليل.

وتقدمت لأحتل مكاني في المقصورة التي قادني إليها السيد دي "كسوري" .. وكانت هي مقصوريته، مقصورة واسعة .. في مواجهة مقصورة أخرى، أصغر منها حجما، وأكثر ارتفاعا، جلس فيها الملك والسيدة دي "بومبادور". ولم يداخلني شك في أنني أجلس كذلك؛ لكي أبدا واضحا، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك، وقد أحاطت بي السيدات. وعندما أوقدت أضواء المسرح، وجدتهني - في ملابسني تلك - وسط قوم في أوج الاناقة، فبدأت أشعر بضيق وحر. وسألت نفسي عما إذا كنت في المكان اللائق، وعما إذا كنت في الثياب اللائقة.

وبعد لحظات من الحرج، أجبت نفسي عن هذا التساؤل في جراحة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع، أكثر مما انبعثت عن قوة حججي: "أجل" ..! وقلت لنفسي: "إنني في المكان اللائق بي، مادمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتي .. وإذا كنت في ثيابي المعتادة، ولست أفضل أو أقل مما

الفت، فما ذلك إلا لأنني دعيت، ولأنني الفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب، ولأنه - فوق كل شيء - ليس هناك من يفوقني جدارة باستمراء ثمار جهدي ومواهب، ولو أنني عدت إلى الخضوع للرأي العام في أمر واحد، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأي العام - في كل شيء - من جديد. أما إذا شئت أن أثبت على نهجي، فمن الواجب ألا أخجل - أينما أكون - من أن أردي ما يتلاءم مع ظروف الحياة التي اخترتها لنفسني. إن مظهري الخارجي بسيط وغير متأنق، ولكنه ليس قذرا، ولا مستهجنا. وكذلك اللحية - في حد ذاتها - ما دامت الطبيعة هي التي تخلعها علينا. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانا، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة. وقد يراني الناس مضحكا، أو سفيها. حسنا، وفيهم يهمني هذا؟.. يجب أن أتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم، ما دمت لا استحقهما^١



"وشعرت بعد هذه المناجاة القصيرة بالثقة تعاودني، إلى درجة كانت كافية لأن تجعلني جريئا. وهو ما كنت بحاجة إليه. على أنني لم أر في الفضول الذي تعرضت له، سوى مظهر للادب والحفاوة، سواء كان مرد ذلك الرأي إلى تأثير وجود العاهل، أو إلى التصرف الطبيعي الذي أبداه أولئك الذين أحاطت بهي قلوبهم.. وشعرت بالتأثر، حتى إنني بدأت أحس بالقلق - من جديد - على نفسي وعلى مصير مسرحيني، خشية أن أقضي على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة - في صالحه - كان يبدو لي أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق.

وكننت قد تذرعت ضد سخريتهم، ولكن عطفهم - الذي لم أكن أتوقعه - طغى عليّ كل الطغيان، حتى إنني رحمت أر تجف كالطفل، عندما ابتداء التمثيل!

وسرعان ما تبين أن ليس ثمة مبرر للقلق.. كان أداء المسرحية جد سيئ من ناحية الممثلين، ولكن الغناء كان جيدا، والموسيقى حسنة الأداء. ومنذ المشهد الأول - الذي كان مؤثرا في بساطته حقا - سمعت في المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانا لم يسمع من قبل في مثل هذا النوع من التمثيليات.

وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته، حتى إنه تفشى في جميع النظارة، وإن ضعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته، كما ينبغي أن يقال بأسلوب "مونتسكيو". وقد بلغ هذا الأثر أوجه في المشهد الذي دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين. ومن المعتاد ألا يصفق أحد قط، في حضور الملك، وقد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح، مما أفاد التمثيلية والمؤلف.

وسمعت حولي همسات نساء كن يلحن لي في جمال الملائكة، وهن يقلن بعضهم لبعض: "هذا فائق.. هذا خللاب!.. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب". وهزنتي لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين، حتى انطلقت دموعي، فلم أستطع أن أكبحها في الأغنية الثنائية الأولى، إذ لاحظت أنني لم أكن الوحيد الذي بكى!.. ومررت بي لحظة، رجعت فيها إلى نفسي، إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التي أقيمت بدار السيد دي "تريثوران". وأحدثت هذه الذكرى في نفسي شعورا كشعور العبد الرقيق الذي كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١)، ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل، إذ إنني سرعان ما استسلمت تماما - ودون أي تحفظ - لنشوة مذاق مجدي. ومع ذلك فإنني أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت - في تلك اللحظة - أكثر أثرا من غرور المؤلف في هذه النشوة!.. فمن المؤكد

أنه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور، لما تاججت في نفسي الرغبة الملحة في أن أتلقى بشفتي الدموع العذبة التي تسببت في انسيابها!.. ولقد شهدت تمثيليات أثار من نوبات الإعجاب ما كان أشد مما رايت في هذه الليلة، ولكنني لم أشهد قط نشوة في مثل تدفق، وفي مثل بهاء، وفي مثل تأثير هذه التي استولت تماما على النظارة، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التي تعرض فيها المسرحية، ولا سيما وأنها كانت تعرض في البلاط الملكي. ولابد أن الذين شهدوها إذ ذاك، لا يزالون يذكرونها، فقد كان تأثيرها فذا!

وفي الليلة ذاتها، أوفد السيد الدوق "دومون"، من أنباني بأن أكون موجودا في القصر، في الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي، وبأنه سيقدمني إلى الملك. وأضاف السيد دي "كوري" - الذي حمل إلي الرسالة - أنه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحي معاشا، وأن الملك أراد أن يعلنني بذلك بنفسه!

فهل مما يصدق أن الليلة، التي أعقبت يوما بهذا الإشراق، كانت ليلة هم وحيرة؟.. كانت أولى أفكاري، بعد هذه الخواطر السالفة، تتمثل في حاجة ملحة إلى الخروج (١)، كبدتني في المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل، وكان من الممكن أن تعذبني في اليوم التالي، عندما أكون في بهو الملك أو في جناحه، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك! كان هذا الداء هو السبب الرئيسي الذي حملني على تجنب الاجتماعات، والذي منعتني من الأطمئنان إلى البقاء في غرفة مغلقة لدى السيدات. وكان مجرد التفكير في الموقف الذي قد تقحمني فيه هذه الضرورة، كافيا لأن يحرمني، إلى درجة تسلمني إلى الإغماء، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت. ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال!

ورحت - بعد ذلك - أتصور نفسي ماثلا أمام الملك، وأنا أقدم إليه، فينزل ويقف ليحدثني.. وهنا لا بد من سرعة الخاطر، وحضور البديهة للإجابة. أفكان حيائي اللعين - الذي اعتاد أن يضايقني أمام أقل المغمورين - ليهجرني أمام ملك "فرنسا"؟.. وهل يدعني أحسن اختيار ما ينبغي أن يقال، في التو؟.. وددت لو أستطيع - دون أن أتخلى عن المظهر واللمعة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما - أن أبدي إدراكي للشرف المتاح لي من مثل هذا العاهل؟.. كان لا بد لي من أن ألفت بعض الحقائق الجليلة والنافعة، في غلالة من الثناء الجميل البارع!.. ولكي أتمكن من أن أعد - مقدما - جوابا موفقا، كان لا بد لي من أن أعرف بالدقة، ما يمكن أن يقوله لي الملك.. وكنت واثقا - بعد ذلك - بأنني لن أستطيع أن استحضر في وجوده ما أكون قد أعددتة!.. فماذا يكون شائي، في هذه اللحظة أمام أعين الحاشية كلها، إذا أفلتت مني، في غمرة اضطرابي، بعض سخافات العادية؟.. لقد روعني هذا الخطر، وأزعجني، وجعلني أرثج وأنا أعقد العزم على ألا أعرض نفسي له، مهما تكن العواقب؟

ومن الصحيح أنني فقدت المعاش الذي عرض علي بصفة غير رسمية، ولكنني - في الوقت ذاته - نجوت من الجور الذي كان مقدرا أن يفرضه علي.. ألا وداعا للحقيقة، وللحرية، وللشجاعة!.. كيف كنت أجبر - بعد ذلك - على أن أتكلم بحرية ونزاهة؟.. لم يكن لدي سوى أن أتملق، أو أن أصمت، لو أنني قبلت هذا المعاش، ثم، من ذا الذي كان يضمن دفعه إلي؟.. وأية خطوات كان علي أن اتخذها، وأي أناس كنت مضطرا إلى أن أداهن؟.. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدني أكثر مما يكبدني الاستغناء عنه من حرص، وأكثر من الكثير من المضايقات! ومن ثم فقد اقتنعت بأنني

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة. ولعلنا نذكر أنه كان يتعرض لنوبات بكثرت فيها من التبول.

إذ أرفضه إنما اتخذ قرارا ينطبق أشد الانطباق على مبادئ، وأضحى بالمظهر في مقابل الواقع. ولقد أفضيت إلى "جرم" بعزمي، فلم يعارضني. أما بالنسبة للآخرين، فقد تعللت بصحتي، ورحلت في نفس الصباح!



وأثار رحيلي ضجة، وعيب علي بوجه عام. فما كانت حججي لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا، وسرعان ما اتهمت بالصلف، مما أَرْضَى - للتو - غيرة أولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت!.. وفي اليوم التالي، كتب إلي "جيلوت" خطابا فصل فيه نجاح تمثيلتي، والشغف الذي أبداه الملك نفسه بها. وقال: إن جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء، بأنكر صوت في مملكته، مرددا: "لقد فقدت خادمي، لقد أضعت كل هنائي!.. وأردف أن "العراف" ستعرض مرة ثانية بعد أسبوعين، مما سيمرر أمام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذي كلل العرض الأول!

وفيما كنت ألج دار السيدة "ديسيناي" - في الساعة التاسعة مساء، بعد يومين - حيث كنت مزمعا أن أتناول العشاء، رأيت مركبة تعترض طريقي إلى الباب. وأشار إليّ شخص في المركبة بأن أصعد إليها، فصعدت، وإذا بهذا الشخص هو "ديلدرو". وحدثنني عن المعاش في حرارة ما كنت أتوقعها من فيلسوف في مثل هذا الموضوع. ولم ير جريمة في ألا أكون راغبا في أن أقدم إلى الملك، ولكنه رأى أن عدم اكتراثي للمعاش جريمة منكورة.. وقال لي إنني إذا كنت لا أهتم بالمعاش من أجل نفسي، فليس من حقي أن أكون كذلك من أجل السيدة "لوفاسير" وابنتها، فإن من واجبي ألا أحرمهما من أية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما.. وبما أنه لم يكن من الممكن أن يقال - برغم كل شيء - إنني رفضت هذا المعاش، فقد أصر على أن من الجدير بي أن أطلبه، وأن أحصل عليه بأي ثمن، ما دامت نية لمنحي إياه.. ومع أنني تأثرت لتحمسه، إلا أنني لم أستطع أن أقر مبادئ. فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع، كان أول جدال دار بيننا. ولقد كانت كل خلافاتنا - التي أعقبت ذلك - من نفس النوع، إذ كان يملئ عليّ ما كان يزعم أن من الجدير بي أن أفعله، في حين أنني كنت أرفض في حزم، لأنني لم أكن أوّمن بأنه واجب عليّ!

وكان الوقت متاخرا عندما افترقنا، فرغبت في أن أصطحبه للعشاء لدى السيدة "ديسيناي"، ولكنه لم يكن راغبا البتة.. فبالرغم من أن الجهود التي كانت الرغبة في الجمع بين أولئك الذين أحبهم، تدفعني إلى بذلها من وقت إلى آخر، فإنني لم أفلق في إغرائه على زيارتها.. بل إنني ذهبت إلى أبعد من هذا، إذ صحبت السيدة إلى بابه، فرفض أن يفتحه لنا.. كان يعزف دائما عن لقاءها، ولم يكن يتكلم عنها قط، إلا في ازدراء بالغ.. وما تألف الاثنان إلا بعد خلافي مع كل منهما، وإذا ذاك، بدا يتكلم عنها باحترام!

ومنذ ذلك الحين، لاح أن "ديلدرو" و"جرم" كانا يحاولان أن يؤلّيا "الدادتين" عليّ وأن يفهماهما أنهما إذا لم تكونا في رخاء، فإنما كان مرد ذلك إلى سوء نيتي، وأنهما لن تصيبا مني أي خير قط!.. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجري، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة "ديسيناي" على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ، وما لست أدريه كذلك!.. بل إنهما رغبا في أن يستدرجا "ديكلو"، كما استدرجا "دولباخ"، إلى محالفتهم، ولكن الأول راح يرفض باستمرار. وكانت لدي إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير، ولكنني لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمان طويل. وكثيرا ما

أكون على حق إذ أرثي لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائي الذين كانوا يسعون إلى الخط من شائي - وأنا معلول، وفي أشد حالات العزلة الكئيبة - فلنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم للإسعادي، بالوسائل التي كانت خير ما يؤدي إلى إتعاسي، في الواقع.

سنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية "العراف" في "باريس"، في عيد المرافع "الكرونفال" التالي، أي في سنة ١٧٥٣. وكنت قد وجدت وقتا كافيا - في تلك الأثناء - لوضع لحن الافتتاح، والالحن التي تتخلل المشاهد. وكان لابد لهذه الالحن - كما وضعت وكتبت - من أن تشيع حركة في التمثيلية، من أولها لآخرها، وأن تجعل منها في مجموعها - في رأيي - لوحات جد مستحبة، ولكنني حين عرضت الفكرة على "الأوبرا" لم ألق مستمعا واحدا، فاضطرت إلى أن أنسج سلسلة من الأغاني والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الالحن وإن لم تضرب تأثير المشاهد، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم أنها كانت زاخرة بالأفكار البديعة. ولقد حذفت الالحن الإلقائية التي وضعها "جسيلوت"، وأحللت محلها ألحانا من وضعي، هي تلك التي كانت موجودة في الأصل. فإذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية - كما أعترف - وأقصد بذلك الطريقة التي كان يلقيها بها الممثلون - إلا أنها لم تؤذ سمع أحد، بل إنها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية، كما اعتبرت كذلك - من ناحية النظم - حتى لدى الجمهور.

وأهديت التمثيلية إلى السيد "ديكلو" الذي رعاها، وأعلنت أن هذا سيظل الإهداء الوحيد. على أنني كتبت إهداء لشخص آخر - بموافقة السيد "ديكلو" - ومع ذلك فإنه ولا بد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما!

ولدي عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة، ولكن ثمة أمور أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا أنفقه في تلك. على أنني قد أعود إليها يوما، في "الملحق". وإن كنت - مع ذلك - لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر في كل ما أعقب ذلك من أحداث. فلقد اطلعت ذات يوم، في مكتب البارون "دولباخ"، على موسيقاه. وبعد أن شهدت كثيرا من القطع، قال لي وهو يريني مجموعة من الالحن، على المعزف: "هاك قطع لحنت من أجلي خصيصا، وهي مليقة بالذوق، صالحة، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواي. فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها في الالحن التي تتخلل مشاهدك!". ولما كان ذهني زاخرا بموضوعات الالحن و"سيمفونيات" تفوق ما كان بوسعي أن أفيد؛ منه، فإنني لم أجد كثير احتفال بالحنه. على أنه راح يلح علي بحرارة اضطرت معها إلى أن أنتقي إحدى أغاني الرعاة، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذي يلح فيه رفاق "كسوليت" (١) المسرح. وحدث بعد بضعة أشهر - و"العراف" ما تزال تعرض - أن ولجت يوما غرفة "جسريم"، وإذا بنفسر من الناس يحيطون بمعزفه، وإذا به هو ينهض عن المعزف في تعجل، بمجرد وصولي.

واتجه بصري - بحركة آلية - حامل "النوتة" الموسيقية، فرأيت مجموعة البارون "دولباخ" بالذات مفتوحة عند القطعة التي ألح علي في أن أخذها، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط! وبعد ذلك ببعض الوقت، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة، على معزف السيد "ديسيناي"، في يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية في دارها، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا، لو لم يشع بعد

قليل، أنني لم أكن مؤلف "عراف القرية". ونظرا لأنني لم أكن يوما عازفا ماهرا، فإني أوقن أنه كان من المحتمل أن يقال إنني لم أكن أعرف شيئا عن الموسيقى، لولا "قاموس الموسيقى" الذي كنت قد وضعته (١).



ولقد حدث قبل إخراج "عراف القرية" بفترة من الزمن، أن وصل إلى "باريس" بعض الممثلين الهزليين "الإيطاليين"، فدعوا إلى التمثيل في "الأوبرا" دون أن يخطر ببال ما كان مقدرا أن يترتب على ذلك. وإذا كانوا سيئي التمثيل، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت - غير حافلة - على لذة القطع التي كانت تعزفها، فإنهم ألحقوا بفن الأوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه. ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (٢)، اللذين كانا يسمعان في الدار ذاتها، في يوم واحد، فتح الآذان الفرنسية، فلم تعد تطبق ببطء الموسيقى التي اعتادتها، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية. فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف.

فرؤي أن من الضروري تغيير نظام العرض، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية. فعمدت "إيجليه"، و"بيجماليون" و"الجن" (٣)، ولكن أبانها لم تستطع أن تستوي على ساقها. ولم تصمد للمقارنة سوى "عراف القرية"، إذ قوبلت باستحسان فاق "الوصيفة" (٤) "الإيطالية" ذاتها. وكان ذهني مليئا - عندما وضعت المشهد الذي بين فصلي تمثيلي - بالخان المسرحية الإيطالية، فاستعرت بعض أفكار منها. غير أنني كنت أبعد من أن أتوقع أن انتقد في هذه الناحية. ولو أنني كنت ممن يسلطون على إنتاج الغير، فكمن من سرقات كان يجب أن تتكشف، وكمن كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بإبرازها! ولكن شيئا من هذا لم يحدث، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التي بذلت للعثور في إنتاجي الموسيقي على آتفه أثر من موسيقى سواي. كما أن كل الأغاني كانت تبدو - إذا ما قورنت بالأغاني الأصلية التي كان يزعم أنني أخذتها عنها - جديدة، جذبة الطابع الموسيقي الذي ابتدعته. ولو أن "موندوفيل" أو "رامو" تعرض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا!

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى "الإيطالية" مستمعين جد متحمسين، فإذا "باريس" بأسرها تنقسم إلى فريقين، راحا يتجادلان في عنف، وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين. وكان اقوامهما نفوذا، وأكثرهما عددا، يتألف من العظماء، والأغنياء، والنساء، ويتشبهت بالموسيقى "الفرنسية". أما الآخر - وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا - فكان يتألف من فنانيين حقيقيين، ومن أكفاء ونوابغ. وكانت عصبية تجتمع في دار "الأوبرا"، تحت مقصورة الملكة، بينما كان الفريق الآخر يملا بقية الصالة، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسي، تحت مقصورة الملك. ومن هنا جاء اسماء الحزبين الذين اشتهرا في ذلك الحين: "ركن الملك"، و"ركن الملكة".

وأدى الخلاف - إذ احتدم - إلى إصدار منشورات. فإذا شاء "ركن الملك" أن يهزأ، سخر منه "النبي الصغير"، وإذا أقحم نفسه في جدال، أفحمته "رسالة في الموسيقى الفرنسية". وكانت هاتان المنشورتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء في هذه المعركة، أما المنشورات الباقية فقد ماتت. وكان "جورج" يحرق الأولى، وأنا أحرر الأخرى!

(١) ما كنت لأحدث على الإطلاق، أن هذا سيغال فيما بعد، برغم وجود "قاموس" (٢) موسيقى الأوبرا الفرنسية، وموسيقى الأوبرا الإيطالية. (٣) Ege, pynsualion, Lesyipe. (٤) Serve Padrona. وهي إحدى التمثيليات التي كانت الفرقة الإيطالية تعرضها.

بيد أن "النبي الصغير" ظلت تنسب إلي طويلا - في إصرار - برغم إنكاري، وكانت تحرر بأسلوب فكه، ولا تجشم محررها أقل عناء.. في حين أن "رسالة في الموسيقى" كانت تميل إلى الجد، وقد أثارت ضدي الأمة بأسرها؛ إذ خيل إليها أنها - مثلة في موسيقاها - قد أهنت!.. وأن وصف الأثر الذي أحدثته هذه النشرة - والذي يفوق ما يصدقه العقل - لجدير بقلم "تاسيتوس" (١).. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت.. وكان البرلمان قد أوقف عن الاجتماع، وبلغت ثورة السخط ذروتها، وأخذ كل شيء يندثر بانفجار وشيك!.. وما إن ظهرت النشرة، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ولم يعد ثمة تفكير في غير الخطر المحدق بالموسيقى "الفرنسية"، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدي أنا.. بل إنه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفق منه أبدا. ففي البلاط، لم تعد ثمة موازنة إلا بين "الباستيل" والنفي، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض علي، لو لم يفلح السيد "دي فوييه" في إيضاح ما في هذا من تصرف أخرق. وقد يظن القارئ أنني أعرف، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة في الدولة. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة واقعة، لعل "باريس" بأسرها تشهد بها حتى اليوم، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (٢).



وإذا كانت حريتي لم تصادر، فإنني لم أعف من أدنى الإهانات، بل إن حياتي أصبحت في خطر. فأعدت فرقة موسيقى "الأوبرا" مؤامرة شريفة لاغتيالني أثناء مغادرتي المسرح. وقد نمت إلي، فلم تزدني إلا ترددا على الأوبرا، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل، أن السيد "أنسيلو" - الضابط في فرقة الفرسان - الذي كان يكن لي مودة، قد أقصد مفعول هذه المؤامرة، إذ دبر حمايتي - عند مبارحتي الأوبرا - دون أن أشعر. وكان أول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا، هو حرمانني من الدخول، وأن يحدث ذلك بأشد الأساليب المهينة.. أي بمنعي علنا من الدخول بدون "تذكرة"، بطريقة اضطررتني إلى ابتياع "تذكرة" في الشرفة العليا للدار (٣)؛ لكي أتفادى عار الرجوع دون دخول، في ذلك اليوم. وكان الظلم صارخا جدا، إذ إن الثمن الوحيد الذي تقاضيته عن أوبراي، عندما نزلت لهم عنها، هو حق الدخول - دون مقابل - طيلة العمر. ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين - ومن ثم فقد كان استحقاقي إياه مضاعفا - إلا أنني حرصت على اشتراطه، بحضور السيد "ديكلو". ومن الصحيح أنني تلقيت - عن طريق خزنة الأوبرا - خمسين "لوي" كمكافأة شريفة لم أطلبها.. فضلا عن أن هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للمواثيق، فإن دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل، الذي طالبت به رسميا، والذي كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع!

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة، حتى إن الجمهور - الذي كان في أوج عداوته لي - لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا بالإجماع، وصاح كثيرون - ممن كانوا يسبونني في الليلة السالفة - بأعلى أصواتهم في دار "الأوبرا"، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول - وبهذا الأسلوب - مؤلف يستحقه عن جدارة، بل وله أن يصحب معه شخصين بالجان، وهكذا المثل الإيطالي القائل: "يعرف الصديق في المحنة".

ولم يكن لدي إزاء هذا سوى قرار واحد، هو أن أسترد تمثيليتي؛ مادمت قد حرمت الجزاء المتفق

(١) "كورنيليوس تاسيتوس"، كاتب ومعلم ذاع صيته في التاريخ الروماني وقد عاش فيما بين سنتي ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة. (٢) كتب "روسو" هذا الجزء حوالي سنة ١٧٦٨. (٣) أدنى الدرجات في المسرح.. "أعلى التياترو".

عليه . ومن ثم كتبت إلى السيد "دارجنسون" ، الذي كان يتولى إدارة "الأوبرا" ، وأرسلت رسالتي بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها رداً ، فظلت المذكرة - وكذلك الرسالة - دون جواب ، ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخاً في فؤادي ، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذي كنت دائماً أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت "الأوبرا" بتمثيلي وسلبتي الجزء الذي كنت قد نزلت في مقابله عن حقوقي فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوي ، فإنه يعتبر سرقة . . إما إذا حدث من القوي نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !

أما الكسب المالي الذي دره هذا العمل الفني ، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على أي مؤلف سواي ، إلا أنه كان - بالنسبة إليّ - من الضخامة بحيث إنه كان كافياً لأن يمكنني من العيش عليه سنوات عدة ، وأن يعوضني عن عملي في النسخ ، إذ إن هذا العمل كان كاسداً على الدوام . فلقد نلت مائة "لوي" من الملك ، وخمسين من السيدة دي "بومبادور" - عن عرض التمثيلية في "البيل في" ، حيث قامت هي نفسها بدور "كولان" وخمسين من "الأوبرا" ، وخمسمائة من "بيسو" مقابل نشرها . . أي أن هذا العمل الثانوي ، الذي لم يكلفني سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در علي من النقود - برغم سوء حظي وبرغم غيائي - ما يعادل مادره علي كتابي "إميل" ، الذي استغرق مني عشرين عاماً في التفكير ، وثلاثة في التأليف . . على هذه التمثيلية . . وقد تمثل هذا الثمن في المضايقات التي لا نهاية لها ، والتي ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بذرة الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة ، والتي لم تتكشف إلا بعد ذلك بوقت طويل . . ولم أعد - منذ نجاحها - أجد من "جورج" و"ديدرو" ، أو من أي من الأدباء الذين كنت أعرفهم - ماعداً القليل - الحفاوة ، والصراحة ، وحسن المعاشرة التي كنت إخالني قد عثرت عليها لديهم من قبل . وأصبحت لا أكاد أظهر في دار البارون ، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاماً . . ويتجمع القوم في فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظل وحيداً لا أجد من أبادله الحديث . . ولقد تحملت طويلاً هذا الانفضاض عني ، ولما كنت أرى أن السيدة "فولباخ" - التي كانت لطيفة وحفية - قد ظلت تكرم وفادتي باستمرار ، فإنني رحت أتقبل جفوة زوجها ، بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه في أحد الأيام تحرش بي دون داع ، ودون مبرر ، وفي غلظة بالغة ، في حضور "ديدرو" ، الذي لم ينبس بكلمة . . وفي حضور "مارجنسي" ، الذي كثيراً ما أعرب لي - منذ ذلك الحين - عن إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتي . . وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة ، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقاً . على أن هذا لم يمنعني من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله ، في حين أنه لم يذكرني دائماً إلا بمباراة حاقدة ، جارحة ، فما وصفني مرة إلا بـ "خادم المدرسة" الصغير ، دون أن يملك - برغم ذلك - أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان نوعها ، بدرت مني نحوه ، أو نحو أي امرئ كان يهتم بأمره . وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتي وهواجسي . . أما أنا ، فاعتقدت أن أصدقائي المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لي تأليف الكتب - وإن تكن كتباً رائعة - لأن هذا المجد لم يكن غريباً عنهم . بيد أنهم لم يكونوا يغفرون لي أن وضعت أوبراً ، ولا أن لقي هذا العمل الأدبي الفني نجاحاً باهراً ، لأن أحداً منهم لم يكن في وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج ، ولا أن يطمع في عين ما نلت من تقدير وتكريم . . كان "ديكلو" وحده هو الذي سما فوق الغيرة ، بل إنه بدا أكثر مودة لي ، واصطحبني إلى دار الأنسة "كيسول" ، حيث لقيت رعاية ، وأنسا ، وملاطفة ، بقدر ما

افتقدت في دار السيد "دولباخ" !



وبينما كانت "العراف" تمثل في "الأوبرا" كان مؤلفها موضوع مناقشة في "الكوميدي فرانسيز"، ولكنه كان أقل حظا من تمثيلته .. ذلك أنني إذ عجزت - خلال سبع أو ثماني سنوات - عن عرض "نارسييس" في مسرح "الإيطاليين" "أوزيتاليان"، بغضت هذا المسرح الذي كان يمثلوه يسيئون أداء المسرحيات "الفرنسية". ومن ثم فقد كان حريا بي أن أكون أشد رغبة في أن تعرض تمثيلتي في المسرح "الفرنسي" - الكوميدي "فرانسيز" - مني في أن تعرض لدى "الإيطاليين". وأفضيت برغبتي إلى "لانو" الممثل الفكاهي، الذي كنت قد تعرفت إليه، والذي كان معروفا - كذلك - بأنه رجل فاضل ذو نفوذ.

ولقد أعجب بتمثيلتي الفكاهة "نارسييس"، وأخذ على عاتقه أن يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفها. وحصل لي - في الوقت ذاته - على ترخيص بالدخول، دون مقابل، سررت به كل السرور، إذ كنت دواما أؤثر المسرح الفرنسي على المسرحين الآخرين "الأوبرا" و"الإيطالي". واستقبلت التمثيلية باستحسان، برغم أنها قدمت دون ذكر المؤلف .. بيد أن لدي ما يحملني على أن أعتقد أن الممثلين، وكثيرين غيرهم، لم يكونوا يجهلون. ولقد قامت الأنستان "جوسان" و"جرانفال" بدوري العاشقين. ومع أن الأداء أسفر عن نقص في البراعة، إلا أنه - برجه عام - لا يمكن أن يوصف بأنه سيئ تماما. على أنني دهشت - وتأثرت - لما تبدي من استغراق الجمهور، إذ راح يصفي في صبر وهدهوء، من أول التمثيلية إلى آخرها، بل وسمح بعرضها مرة ثانية، دون أن يبدي أية بادرة تنم عن ملل!

أما أنا، فقد بلغ من ضجري - في العرض الأول - أنني لم أستطع المكث إلى النهاية. فتركت المسرح، وذهبت إلى مقهى "دي بروكوب"، حيث وجدت "بواسي" وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلي. وهناك، أعلنت فشلي بصوت عال، معترفا في شجاعة وتواضع بأنني مؤلف التمثيلية، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يروونه فيها. ولقد لقي هذا الاعتراف العلني من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة، إعجابا قويا، حتى إنه بدا لي أقل ما يكون إبلاما .. كذلك وجدت جزاء لمواطني الصادقة في الجراءة التي أقدمت بها على اعترافي. واعتقد أنني - في هذه المناسبة - لقيت في الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بأن أجده من حياء زائف لو أنني لذت بالصمت! .. على أنني - إذ تبين أن لا شك هناك في أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة، وإن كان التمثيل قد شوها - عملت على طبعها، وبدأت في المقدمة - التي كانت من خير ما كتبت - أكشف عن مبادئي في صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل.

وسرعان ما سنحت لي فرصة الإقدام - في غير ما تحفظ - على عرض هذه المبادئ في مؤلف أدبي عظيم الأهمية. فقد حدث ذلك العام "١٧٥٣" - على ما أظن - أن اتخذ محفل "ديجون" من موضوع "منشأ عدم المساواة بين البشر" مادة لبرنامج مسابقته. وهزني هذا الموضوع العظيم، وأذهلني أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة. على أنه إذا كان قد أوتى هذه الشجاعة، فقد رأيت أن بوسعي أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه .. وشرعت في ذلك ..



ولكني أفكر في هذا الموضوع العظيم، وأنا مرتاح الخاطر، قمت برحلة إلى "سان جيرمين"، حيث قضيت سبعة أيام أو ثمانية، مع "تيريز" ومضيفتنا - التي كانت امرأة طيبة - وإحدى صديقاتها. وإني لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزوهات في حياتي.. وكان الجو جميلاً، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والتفقات. وراحت "تيريز" تتسلى بصحبتهما. أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحت أشاطرهن ابتهاجهن في أوقات الوجبات، متخففاً من كل هم. وكنت أقضي بقية النهار موغلاً في الغابة، حيث أخذت أبحث، وحيث وجدت صورة العصور الأولى، فرحت أتعقب التاريخ خلالها في جراحة، مهونا من شأن أكاذيب البشر الشافهة.. وتجاسرت على أن أكتشف طبيعتهم، وأتتبع سير الزمن، والأشياء التي شوهدت هذه الطبيعة.. وبالمقارنة بين الإنسان - كما صنعه الإنسان - والإنسان كما صنعه الطبيعة، كشفت له - في كماله المزعوم - عن المصدر الحقيقي لمصائبه وشقائه.

وارتفعت روحي - وقد انتشت بهذه التاملات السامية - إلى مقربة من مقام الربوبية، فاطللت من هناك على أقراني من أبناء البشر، وهم يسرون عمياناً في طريق الأباطيل والأوهام، وطريق أخطائهم، ومحنتهم، وجرائمهم.. ورحت أصبح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعوا أن يسمعوه: "أيها الحمقى، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة، ألا تعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم!". وكانت نتيجة هذه التاملات: "حديث في عدم المساواة"، وهو مقال صادف هوى من نفس "ديدرو"، فاق كل ما صادفته كتاباتي الأخرى، وقد أولاني نصيحة بشأنه، كانت أنفع النصائح (١)، ولكنها لم تجد في "أوروبا" كلها من القراء من أدركها سوى قليلين، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها..!

وكان المقال قد كتب من أجل المسابقة، فأرسلته وأنا واثق - سلفاً - بأنه لن يفوز بنجاح، إذ كنت أعرف عن يقين أن جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التي من هذا النوع! وأدت هذه النزهة وهذا الشاغل إلى تحسن مزاجي وصحتي. إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول، وقد استسلمت نهائياً للأطباء، فاستنزفوا قواي - دون أن يخففوا عنتي - وهدموا بنييتي. ولكنني عندما عدت من "سان جيرمين" وجدت مزيداً من القوى، وشعرت بكثير من التحسن.

وتبعث هذه البادرة، فعمدت العزم على أن أشفى، أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير. وودعتهم إلى الأبد. وشرعت أعيش ليومي، أستريح عندما أعجز عن المشي، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير. وكانت الحياة في "باريس"، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر، لا ثروق لي.. كان تعصب الأدباء وتحزبهم، ومنازعاتهم الغزيرة، وافتقارهم إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم، والمظهر المترفع الذي يخدعون به المجتمع.. كل هذه كانت بغیضة إلى نفسي..! وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس، ولا سيما أصدقائي!

حتى لقد عافت نفسي هذه الحياة الصاخبة، وأخذت أتوق - في رغبة صادقة - إلى الإقامة في

(١) علق "روسو" على هذا، بقوله: "لم يكن لدي - في الوقت الذي كتبت فيه هذا - أي حدس عن مؤامرة "ديدرو" و"جيرم" الكبرى، ولذا لكنت قد رأيت بسهولة كيف استغل الأول ثقتي؛ لكني يخلع على كتاباتي هذا الأسلوب الجاف، وهذا الجو القاتم الذي لم يستمر بعد أن توقف عن توجيهي.. فالجزء الخامس بالفيلسوف الذي سد أذني - خلال إحدى نقاط الجدل - حتى يكتسب صلاية دون أنات رجل في محنة، من أسلوب "ديدرو". وقد أمدني بكثير غير هذا الجزء، وبوقفة شدة، حتى إنني لم أفر على حمل نفسي على استعماله. على أنني عزوت تلك الروح القاتمة إلى ما جرى له في "زنانة" "فانسين". وأن هذه الروح لتبدو مرة أخرى، ونسبة كبيرة، في مؤلفه "كليرفال". بيد أنه لم يخطر بباله إطلاقاً أن أرتاب في أن هذا كان ينطوي على أدنى نية خبيثة!"

الريف . ولما لم أجد أي أمل في أن تمكنني مهنتي من الاستقرار هناك، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات - التي كنت أستطيع أن أفرغ فيها من العمل - هناك . واعتدت، لعدة أشهر، أن أخرج للرياضة وحيدا - عقب الغداء في بداية الأمر - في غابة "بولونيا"؛ لأدبر في فكري موضوعات لمؤلفاتي المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل!

من سنة ١٧٥٤

إلى سنة ١٧٥٦

رأى - "جوفكور" - الذي كانت علاقاتي به في أوج توثقها إذ ذاك - أن لايد له من الرحيل إلى "جنيف" بحكم عمله، فعرض عليّ أن أرافقه في هذه الرحلة . ووافقت على ذلك .
وإذ لم أكن بصحة جيدة أستغني معها عن عناية "السدادة" (١)، فقد قرر أن تكون معنا في الرحلة، وأن تتولى أمها حراسة البيت . وأعدنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا، في أول حزيران (يونيو) سنة ١٧٥٤ .

وجدير بي أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التي صادفتني خلال سني عمري الاثنتين والأربعين - إذ ذاك - والتي نهتني إلى تلك الفطرة المفعمة بالشقة التي فطرت عليها، والتي اعتدت دائما أن أسلم نفسي إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديهما . وكنت كثيرا ما أهبط وأسير على قدمي . ولم نكد نقطع نصف طريقنا، حتى أبدت "تيريز" أعظم نفور من أن تبقى وحيدة في العربة مع "جوفكور"، فما إن رغبت في الهبوط - بالرغم من رجائها - حتى هبطت هي الأخرى وسارت . وظللت الرمها وقتا طويلا على هذه النزوة، بل ورحت أعارضها بشدة، حتى رأت نفسها مضطرة - في النهاية - إلى أن تصارحني بالسبب . . وخيل إليّ أنني أحلم . . وهويت من حائق، عندما سمعت أن صديقي السيد دي "جوفكور"، المسن الذي جاوز الستين، والمصاب بالنقرس، والمنهار البنيان، والذي هدته حياة اللهو والعبث . . صديقي هذا كان يبذل غاية جهده، مذ بدأنا الرحلة؛ ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة، امرأة كانت لصديقه . . وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل، وبأدعائها إلى الحجل، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده . . وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن يقرأ عليها كتابا فاحشا، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التي امتلأ بها الكتاب . . ولقد ألفت "تيريز" بالكتاب الخبيث - مرة - من العربة، وهي في غمرة السخط . وقالت إن الرجل في أول يوم في الرحلة، انتهز فرصة إيوائي إلى الفراش قبل العشاء - إذ كنت أعاني صداعا شديدا - واستنفذ الوقت كله - وقد كان خلاله وحيدا معها - في محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج، أو بالجدي، منها برجل محترم، أثمنتته على نفسي وعلى رفيقتي!

يا للمفاجأة! . . ويا له من ألم في الفؤاد جديد عليّ . . أيقدر لي، أنا الذي كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والتبيلة التي تكسبها بهاءها - أن أجد نفسي لأول مرة في حياتي، أقرن هذه الصداقة بالازدراء، وأسحب ثقتي وتقديري من رجل كنت أحبه،

وكنيت اعتقد انني محبوب منه؟.. لقد أخفى الشمس مسلكه المعيب عني، ولكي أتجنب إحراج "تيريز"؛ ألفتني مضطرا إلى أن أخفي عنه استيائي، وإلى أن أدفن في قرارة فؤادي مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا.. فبنا وهم الصداقة الوداع القدسي، لقد كان "جوفكور" أول من رفع نقابك لعيني، وكم من أيد قاسية قد حالت - منذ ذلك الحين - دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية! وتركت "جوفكور" في "ليون"؛ لاتخذ طريقي خلال إقليم "سافوا"، إذ لم أقو على أن أمر - من جديد - على مقربة من "ماما" دون أن أراها. ولقد رأيته.. ولكن، يا إلهي.. في أية حال؟ بل في أي هوان؟.. ما الذي تبقى لها من صفاتها الأولى؟.. أفهذه هي السيدة دي "فاران" بعينها، التي كانت متألقة، والتي أوفدني إليها أسقف "بونفير"؟.. لشد ما حزن قلبي..! ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها.

ورحت ألحف عليها في حرارة، ودون جدوى، مرددا ما ألححت عليها به عدة مرات في خطاباتي، ضارعا إليها أن تأتي فتعيش معي في سكينه، وتسمح لي بأن أكرس أيامي وأيام "تيريز" من أجل أن نحيل أيامها سعيدة. ولكنها أبت أن تصغي إليّ متشبثة بمعاشها الذي لم تسحب منه شيئا، منذ آمد طويل، برغم أنه كان يدفع بانتظام. ووهبتها - مرة أخرى - قسطا طفيفا من نقودي، يقل عما كان ينبغي أن أعطيها، وأقل مما كان يجب أن أقدم، لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ "سو" واحدا

ولقد قامت - أثناء مكثي بـ "جنيف" - برحلة في "شابليه"، فجاءت لزيارتي في "جرايخ كاسال". وكان يعوزها المال كي تواصل الرحلة، ولم أكن أحمل معي ما كان لازما لها، فأرسلته إليها بعد ساعة، بواسطة "تيريز". ياللمسكينه "ماما"!! فلاذكر دليلا واحدا جديدا، على طيبة قلبها: ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها، سوى خاتم صغير، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول أصبع "تيريز"، التي نقلته في التو إلى أصبع "ماما" من جديد، وهي تقبل تلك اليد النبيلة وترويهها بدموعها!

.. آه! كانت تلك هي اللحظة المواتية لكي أسدد ديني..! كان خليقا بي أن أهجر الكل لاتباعها، وأن الازمها حتى ساعتها الأخيرة، وأن أقاسمها حفلها، مهما يكن..! ولكني لم أفعل شيئا من هذا القبيل، فقد شعرت - وقد شغلت عنها بغيرها - أن الرابطة التي كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت، إذ كان ينقصها الرجاء في أن أستطيع أن أحيل علاقتي بـ "ماما" إلى شيء نافع لها..! ولقد بكيت حسرة عليها، ولكنني لم أتبعتها.. وليس بين بواعث تائب الضمير التي صادفتني في حياتي، ما هو أشد ولا أبقي من هذا الباعث!! وإني لاستحق ألوان العقاب الفظيعة التي لم تكف عن تعذيبني منذ ذلك الحين.. فليتها تكفر عن جحودي!! الجحود الذي تبدي في مسلكي فعلا، ولكنه مرق قلبي في عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما!



كنت قبل رحيلي من "باريس" قد شرعت في صوغ إهداء "حديث في عدم المساواة"، وقد فرغت منها في "شامبيري"، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان، إذ رأيت أن من الأفضل ألا أقرن التاريخ باسم "باريس" أو "جنيف"، كي أتفادي كل المضايقات..! وإذ وصلت إلى "جنيف"، أسلمت نفسي لتحمسي، وهيامي بالنظام الجمهوري.. هذا التحمس المستهام الذي قادني إلى هناك، والذي

ازداد بالاستقبال الذي حظيت به . وفي غمرة المآذب والمجاملات التي أحاطتني بها كل الأوساط، استسلمت بكل كياني إلى الغيرة الوطنية، وقد أخرجني أن أحرم من حقوقي كمواطن؛ بسبب اعتناقي ديناً يخالف دين آبائي (١)، ففكرت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورايت أن الإنجيل واحد لجميع المسيحيين، وأن لب العقيدة، ما يختلف إلا باختلاف أولئك الذين أقحموا أنفسهم في تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد - في كل بلد - أن يعين أسلوب العبادة، وأن يبت في مسألة العقيدة المعقدة . . ومن ثم فإن واجب الرعية أن يقرروا العقيدة، وأن يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطي بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعم إنمائي، بل إنه عززه، لاسيما وإنني كنت أنفر من المنازعات والتعصب . ولقد أدت دراسة الإنسان والكون - في كل مكان - إلى اطلاعي على القضايا الرئيسية والعقلية التي توجهها . ولقد علمتني قراءة التوراة - لاسيما الإنجيل الذي انصرف إليه عدة سنوات - كيف أزدري التفسيرات الجوفاء الحمقاء، التي خلعتها على تعاليم "عيسى" المسيح أناس ليسوا أهلاً لإدراكها على الإطلاق . . ومجمل القول إن الفلسفة إذ قربتني من جوهر الدين، صرفتني عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة، التي حجبت عن الناس هذا الجوهر!

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك، ليس بحاجة إلى طريقتين يختار بينهما في الوصول إلى المسيحية، فإنني كنت أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام - في كل دولة - إنما يدخل في نطاق التشريع والقانون . ومن هذا المبدأ المعقول، الاجتماعي، السلمي - الذي جر علي ما جر من اضطهادات قاسية - انسابت هذه النتيجة: إذا شئت أن أصبح مواطناً، فإن من واجبي أن أكون بروتستانتيًا، وأن أعود إلى دين وطني . وعقدت عزمي على ذلك، بل إنني استشرت في ذلك راعي الأبرشية التي كنت أقيم فيها، والتي كانت خارج المدينة . . ولم أكن أرجو سوى ألا أضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة في هذا الصدد، إلا أنه رأي التجاوز عنها إكراماً لي، فعينت لجنة من خمسة أو ستة أعضاء، لتتلقى إقرارتي بعقيدتي، في جلسة خاصة . ولسوء الطالع، شاء القس "برهريو" - وكان شخصاً لطيفاً، ليّنًا، ربطتني به روابط من الود - أن يلح عليّ بأن من دواعي الغبطة أن ألقى كلمة في هذا الاجتماع الصغير . وأزعجني توقع هذه الكلمة، إلى درجة أنني - بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة أسابيع - أعددت خطاباً قصيراً . . وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى إنني عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه . . وتصرفت كماغبى تلاميذ المدارس . . وتولى أعضاء اللجنة عني الحديث، ورحت أجيب في عي "لا" و "نعم"، ثم قبلت في الطائفة، وردت إليّ حقوقي كمواطن . . وكذلك أدرج اسمي في قائمة "الحرس الوطني" الذي كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (٢)، ودعيت إلى اجتماع غير عادي للمجلس العام، لتلقي اليمين من "السندليك" "موسار" (٣) .

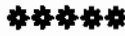
ولقد تأثرت للمواطن الطيبة التي أبدأها لي المجلس ومجمع الكرادلة - في هذه المناسبة - وللإجراءات الكريمة الحفية التي صدرت من جميع المستشارين، والقساوسة، والمواطنين، حتى إنني - بدافع من الرجاءات الملحة من "ديلوك" الطبيب، ومن "ميللي" الصادق بوجه خاص - لم أعد أفكر في العودة إلى "باريس" إلا لكي أتخلص من مسكني، وأسوي أعماله البسيطة، وأجد عملاً للسيدة "لوفاسير" وزوجها - بقيهما العوز - ثم أعود مع "تيريز" فنستقر في "جنيف" بقية حياتي .

(١) كان "روسو" قد تحول عن الكاثوليكية إلى البروتستانتية في صباه . (٢) ذكر "روسو" أنه كان يقيم خارج المدينة، فكان ضمه إلى الحرس نوعاً من التكريم له . (٣) "السندليك" هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

وإذ استقر رأيي على هذا القرار، أرجأت كل الشواغل الهامة، لكي أهنأ بأصدقائي إلى أن يحين وقت الرحيل إلى "باريس". وكانت أكثر ألوان التسلية إرضاء لي، هي الطواف حول البحيرة في قارب مع "ديلووك" الأب، وزوجة ابنه، و"تيريزي". وقضينا سبعة أيام في هذه الجولة، في أبدع طقس عرفته. وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التي أطربتني - عند الطرف الأقصى للبحيرة - وأوردت بعض أوصافها في "هيلويز الجديدة" عندما كتبتها بعد سنوات ١

وكانت الصلات الرئيسية التي عقدتها في "جنيف" - عدا صلتني بـ "ديلووك" الذي تحدثت عنه - هي صداقتي للقس "فيرن"، الذي كنت قد عرفته في "باريس" من قبل، والذي كانت لدي عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد.. وصداقتي للسيد "برودويو"، الذي كان - في ذلك الحين - راعي "أبرشية" ريفية، وأصبح اليوم أستاذاً للادب، والذي ساقط دائماً انحساراً على صحبته المفعمة باللفظ والدعة، وإن كان هو قد رأى أن فصح هذه المعرفة، كان عملاً سليماً.. وهناك السيد "جالابير"، الذي كان أستاذاً لعلم الطبيعة - إذ ذاك - ثم أصبح مستشاراً و"سنديك"، وقد قرأت عليه رسالتي عن عدم المساواة - بعد أن تجاوزت عن المقدمة والإهداء - فبدا عليه أنه طرب لها.. والامتداد "لولان"، الذي ظلمت على ترأسل معه حتى وفاته، والذي ذهب في ثقته بي إلى درجة أن عهد إلي بأن ابتاع بعض الكتب للمكتبة العامة.. والأستاذ "فيرنيه"، الذي أدار لي ظهره - ككل الناس - بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليفين بأن يمس قلبه، إذا كان قلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشيء.. ١

و"شاهوي"، الكاتب الذي خلف "جوفكور" في العمل، والذي رغب في أن يخلفه في الصداقة، وسرعان ما خلفه فعلاً.. و"ميرسيه دي ميزير"، وقد كان صديقاً قديماً لأبي، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لي، ولكنه - بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل، ثم أصبح مؤلفاً مسرحياً، ومرشحاً لمجلس المائتين - تحول عن آرائه، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته.. على أن التعارف الذي وضعت فيه أكبر أملي، هو تعارفي مع "مولتو".. وكان شاباً توحى مواهبه وذكاءه المتأجج بمستقبل عظيم له. وقد اعتدت دائماً أن أشعر بعطف عليه، برغم أن مسلكه نحوي كثيراً ما يثير الريب، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بالذ أعدائي.. على أنني - برغم كل هذا - لا أستطيع أن أصد نفسي عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوماً هو الذائد عن مذكراتي، والمنقمة لي، بوصفي صديقه!



وفي غمرة هذه المتع والمرفهات، لم أفقد ميلي إلى النزعات، التي كنت أنطلق فيها وحيداً على قدمي، فلم أكف عن ممارستها.. وكمن من نزعات طويلة تمشت خلالها على ضفاف البحيرة، لم يكن يمحك خلالها في رأسي - الذي اعتاد العمل - شيء من الهواجس. وكنت ألقب في ذهني أثناءها المشروع الذي كنت قد رسمته من قبل، لكتابي: "المذاهب السياسية"، الذي لن ألبث أن أتحدث عنه.. كذلك كنت أفكر في كتابة "تاريخ فالليه" (١).. ومأساة شعرية لم يجرديني موضوعها - الذي لم يكن سوى حياة "لو كريس" (٢) - من الأمل في خنق الضحكات، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة المتعسة على المسرح مرة أخرى، وفي وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسي. كذلك حاولت أن أعالج موضوع "كاسيتوس" (٣)، وترجمت الكتاب

(١) إقليم "الغالية" في الأراضي "الرومانية"، في الوادي الأعلى لنهر الرودن. (٢) امرأة رومانية، قتلت نفسها بأساً وكمداً عندما اغتصبها ابن حاكم روما "المسيح"، فادت مأساتها إلى قيام النظام الجمهوري في روما سنة ٥١٠ قبل الميلاد. (٣) "كاسيتوس" كاتب روماني أوردنا سيرته في صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و"التواريخ" من أشهر مؤلفاته.

الأول من "التواريخ" .. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .
وبعد أربعة أشهر من الإقامة في "جنيف" ، عدت إلى "باريس" في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، متحاشيا المرور بـ "ليون" ؛ حتى لا ألتقي في طريقي بـ "جوفكور" . ولما كنت قد قررت - في تدبيراتي - ألا أعود إلى "جنيف" إلا في الربيع التالي ، فقد عاودت في الشتاء عاداتي وأعمالي ، التي كان أهمها مراجعة النسخ التجريبية "البروفات" لرسالتي "حديث في عدم المساواة" ، التي كانت تطبع في "هولندا" ، لدى الناشر "ريمي" الذي كنت قد تعرفت إليه في "جنيف" . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهوري ، وكان مثل هذا الإهداء لا يروق للمجلس (١) ، فقد انتظرت حتى أرى وقعه في "جنيف" قبل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الوقع في صالحى ، بل إن ذاك الإهداء - الذي لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية - خلق لي في المجلس أعداء ، كما جلب عليّ غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لي السيد "شويه" - "السنديك" الأكبر ، في ذلك الحين - رسالة مهذبة ولكنها فاترة ، ستوجد في أوراقى ، في الملف "أ" رقم "٣" . وتلقيت من بعض الخاصة - وبينهم "ديلموك" و"جالابير" - تهاني قليلة ، كانت هي غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء "جنيف" يشكر لي صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب ، والتي تبدو ملموسة في الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . وأذكر أنني كنت أتناول الغداء - ذات يوم - في دار السيدة "دوبان" ، في "كليشي" ، بصحبة "كروميلان" - وزير الجمهورية (٢) - والسيد دي "ميران" ، فقال هذا في صراحة مسموعة ، إن المجلس كان مدينا لي بمكافأة وبتكريم عام ، من أجل هذا الكتاب ، وإنه إنما يخزي نفسه إذا قصر في هذا . ولم يجرؤ "كروميلان" - الذي كان ضئيل الجسم ، أسود القلب ، ذئبي المكر - أن يرد على ذلك في حضوري ، ولكنه لوى فمه في حركة بشعة أضحكت السيد "دوبان" .. وكانت الفائدة الوحيدة التي عادت عليّ من هذا المؤلف - إلى جانب أنني أرضيت به فؤادي - هي لقب "المواطن" الذي خلعه عليّ أصدقاؤى ، ثم هذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ؛ لفرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخابي ما كان ليحولني عن تحقيق أوتى إلى "جنيف" ، لو لم تتغلب على ذلك براعت كانت ذات نفوذ قوي على فؤادي . فإن السيد "ديسيناي" كان راغبا في أن يضيف إلى قصر "لاشيفريرت" جناحا كان ينقصه ، فأنفق في سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا - ذات يوم - مع السيدة "ديسيناي" ، لمشاهدة عملية البناء ، مضينا في سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالي ربع فرسخ ، أي إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر ، في متاخمة غابة "مونفورنسي" ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخا خلويا ، وقد ألحق به كوخ مهدم ، يدعى "ليوميتاج" (٣) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بي ، قد ملك عليّ حواسي عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتي إلى "جنيف" . وفي إعجابي به ، انبعثت مني هذه الكلمات : "أه ! يا له من مقام بهيج ياسيدي ! .. ها هو ذا ملاذ كائنا خلق لي ! .." ولم تكثر السيدة "ديسيناي" لقولي كثيرا ، في ذلك الحين . ولكنني - في زيارتي الثانية - دهشت عندما وجدت في مكان الطلل القديم ، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيا ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد ! .. ذلك أن السيدة "ديسيناي" عملت على إنشاء هذا المبنى في صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة في ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون في القصر ، وبعض المواد التي كانت متوفرة

(١) مجلس المائتين ، الذي بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية "جنيف" . (٢) الوزير المفوض لجمهورية "جنيف" في "باريس" . (٣) L'Ermitage .
أي صومعة المئذنة .

هناك

وعندما رأت دهشتي، قالت: "ها هو ذا ملجؤك يادبي، فقد اخترته بنفسك، وقد أنالتهك إياه الصداقة، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر في البعد عني!". وما أعتقد أنني شعرت يوما بتأثر أشد، ولا أعذب مما شعرت به. إذ ذاك... وغسلت بدموعي يد صديقتي الكريمة، وإذا لم أكن قد تخلّيت تماما عن عزمي في تلك اللحظة، فإن هذا العزم قد تصدع على الأقل!.. وأصبحت السيدة "ديبيناي" - التي أبت أن تنهزم أمام رغبتني في الاستقرار في "جنيف" - شديدة الإحاح، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة، وبكثير من الأشخاص؛ لكي تتغلب علي.. بل إنها ذهبت في ذلك إلى حد أن عينت السيدة "لوفاسير" وابنتها في خدمتها.. وبهذا انتصرت في النهاية على إصراري. وإذا تنحيت عن فكرة الاستقرار في وطني، قررت، ووعدت بأن أقيم في "ليرميثاج". وبينما كان المبنى يجف (١)، تكفلت السيدة "ديبيناي" بأمر الأثاث. ومن ثم فإن المكان كان معدا تماما للسكنى في الربيع التالي.



وكان من الأشياء التي ساعدت كثيرا على أن أبت في الأمر، استقرار المقام بـ"فولتير"، على مقربة من "جنيف". فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك، وإنني خليق بأن أجد في وطني عين النقائص، والمظاهر، والأخلاق التي كانت تنفرني من "باريس"، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لي من خيار في مسلكتي سوى أن أكون أحد اثنين: إما متحذلقا متخطرا لا يطاق، أو مواطنا رديفا جباناً!.. ولقد أدى الخطاب الذي كتبه لي "فولتير" عن كتابي الأخير، إلى أن أشير إلى هواجسي في ردي، فكان الأثر الذي أحدثته إشارتي معززا لرأبي. ومنذ ذلك الحين، اعتبرت "جنيف" في حكم الضائعة، ولم أكن مخطئا في حديسي. ولعله كان من الخلق بي أن أتحدى العاصفة، لو أنني شعرت بمقدرة على ذلك، ولكن.. ما الذي كنت أملك أن أفعله - وأنا وحيد، خجول، عبي - ضد رجل متكبر، غني، يستند إلى مؤازرة الكبار، ويجيد الكلام البراق، وقد صار معبود النساء والشباب؟.. لقد خشيت أن أعرض شجاعتني للخطر، دون جدوى، فلم أنصت إلا إلى فطرتي المسألة، وإلى حبي للطمأنينة والحمول.. فهو إذا كان قد خدعني إذ ذاك، فإنه لا يزال يخدعني اليوم، في هذا المضمار، عينه!.. ولو أنني أثرت المقام في "جنيف"، لجنبت نفسي كثيرا من المحن والتماسات، ولكنني - بكل ما أوتيت من حمية، ومن غيرة وطنية - أشك في أنني كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم، أو نافع، لبلادي.

وكان "ترونيشان" قد استقر في "جنيف" حوالي ذلك الوقت، فما لبث أن جاء إلى "باريس" بعد قليل، ليقوم بدور الدجال (٢)، وليتسلل إلى بعض كنوزها. وما إن وصل، حتى قام بزيارة "الشيغالليه جوكور".. وكانت السيدة "ديبيناي" توافقه إلى أن تستشير شخصيا، ولكن الوصول إليه - خلال صفوف الجماهير - لم يكن ميسورا. وهرعت إلي، فأقنعت "ترونيشان" بأن يذهب لزيارتها، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها - فيما بعد - على حسابي أنا!.. هكذا كان نصيبي دائما، فما جمعت بين صديقين - كنت أعرف كلا منهما على حدة - إلا واتحدا، دون توان، ضدي. ومع أنهم في المؤامرة - التي دخلها آل "ترونيشان" من ذلك الحين، لكي ينحطوا ببلادهما إلى درك

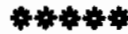
(١) كانت العادة - في ذلك العهد - أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه، ربما يجف اللبن والملاط للمستخدمان في إنشائه. (٢) ترونيشان: الطبيب "الوسمري"، الذي ولد في "جنيف" سنة ١٧٠٩، ومات سنة ١٧٨١.

العبودية - كانوا يشعرون بمقت نحوي، إلا أن الطبيب ظل طويلا يبدي لي آيات حسن النية. بل إنه ذهب إلى درجة أن كتب لي، بعد عودته إلى "جنيف" عارضا علي منصباً فخرياً يضعني على رأس المكتبة العامة هناك. ولكن رأيي كان قد استقر، فلم يزغ هذا العرض عزمي.

وعدت - في هذه الفترة - أتردد على دار السيد "دولباخ" .. وكانت مناسبة ذلك أن الموت عدا على زوجته - كما عدا على السيدة "فرانكويزي" - إبان إقامتي في "جنيف". وقد حدثني "ديدرو" - إذ أشار إلى ذلك في خطابه - عن الحزن العميق الذي نزل بالزوج، فحرك الأسى فؤادي، وتحسرت - في نفسي - على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد "دولباخ".

إذ إن هذا الحادث الحزن جعلني أنسى كل أخطائه، وما إن عدت من "جنيف"، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها في "فرنسا" ليسري عنه الأسى، حتى ذهبت لزيارته مع "جسريم" واصدقاء آخرين، وواصلت زيارته - بعد ذلك - إلى أن رحلت إلى "ليوميتاج". وعندما شاع في الوسط المحيط به، أن السيدة "ديسيناي" - التي لم يكن قد تعرف إليها بعد - كانت تعد لي مسكناً، انهالت علي السخريات كالطرر، وقيل إنني عاجز عن أن أعيش بدون تعلق وإطراء المدينة، وبدون متعتها وملاهيها، وإنني لن أطيق البقاء في عزلة، ولو لخمس عشرة يوماً! .. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعري، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم، ومضيت في طريقي. ومع ذلك، فإن "دولباخ" ساعدني على أن أعثر على ماوى للشيخ "الطيب لوفاسير" (١) الذي كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذي كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يهبطها، فكانت لا تكف عن أن ترجوني أن أريحها منه! ..

وقد وضع في ملجأ للفقراء، حيث عجل كبير سنه، وحزنه لبعده عن أسرته، بإرساله إلى القبر، بمجرد أن حل بالمكان تقريباً! .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيراً، ولكن "تيسريز" - التي كانت مشغوفة بحبه - لم تجد قط عزاء لمصائبها فيه، ولم تصنع عن نفسها قط إذ تركته - وهو على شفا نهاية أجله - يقضي أيامه الأخيرة بعيداً عنها!



وتلقيت في هذه الفترة تقريباً، زيارة لم أكن أرتقيها قط، وإن كان صاحبها من أقدم المعارف. وأعني به صديقي "فيكتور"، الذي فاجاني ذات صباح لطيف، عندما كان آخر شخص يخطر ببالي. وكان معه زميل .. وكما لاح لي أنه تغير! .. فبدلاً من أخلاقه الكريمة السالفة، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل، منعني من أن أكاشفه بدخيلتي .. أو لعل عيني لم تعود كما عهدتهما، أو أن الإفراط في العبث قد أطفأ ذكاه، أو أن كل تالفه السابق كان يعتمد على إشرافة الصبا، التي لم يعد محتفظاً بها! .. ولقد عاملته في غير اكتراث تقريباً، وافترقنا في فتور. ولكنه لم يكذب ينصرف، حتى أهاجت ذكرى الفتنة القديمة .. ذكريات صباي، تلك الذكريات التي كانت في رونقها، وفي بهائها، وفي كمالها، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التي لم تكن - اليوم - أقل تغيراً منه .. وطرائف وأقاصيص تلك الاوقات الهانئة .. وذلك اليوم الشعري الذي قضيته في "تسون"، في براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما أنعمنا به عليّ، مجرد قبلة على اليد، ولكنها خلفت - مع ذلك -

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "هذه إحدى الخيل التي تخدعني بها ذاكرتي. فقد علمت لتوي - وبعد كتابة هذا بامد طويل - خلال حديث مع زوجتي عن أبيها الطيب، أن الذي ساعد على إنزاله بالملجأ، لم يكن السيد "دولباخ"، وإنما كان السيد دي "شيزنوس"، الذي كان إذ ذاك من أعضاء لجنة "أندوق الله". وقد نسبته تماماً، وذكرت السيد "دولباخ" في مكانه، إلى درجة أنني كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذي قام بالخدمة .. والفندق الذي يعنيه "روسو" هنا من أقدم ملاجئ "باريس".

حسرة ناعمة دائمة...!

وإذا كل النشوات البهيجة التي أسكرت قلبي الشاب، والتي شعرت بها إذ ذاك في أقوى صورها، والتي كنت أظنها قد ولت إلى الأبد... كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة، جعلتني أبكي شياحي الذي أدبر بمباهجه، والذي ضاع علي!.. آه! كم كنت جديرا بأن أبكي عودة هذه الذكريات - العودة المتأخرة، الحزينة - لو أنني تبت بالأسى الذي كان مرتقبا أن تكبديه!

وقبل أن أغادر "باريس"، وفي أثناء الشتاء الذي سبق اعتكافي، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبي، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها. ذلك أن "باليسو" - وكان عضوا في محفل "نانسي"، أذاعت صيته بضع تمثيلات وضعها - كان قد ظفر بعرض إحدى هذه التمثيلات في "لونيڤيل". على مشهد من ملك "بولندا". وكان من الجلي أنه أراد أن ينشد المخطوطة، إذ دس في تمثيلته شخصية رجل جرؤ على أن يناجز الملك بقلمه. ولكن "ستانيسلاس" كان رجلا كريما، لا يميل إلى الهجو، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل في محضره. فكتب السيد الكونت دي "تريسان" - بأمر من الملك - إلى "داليمير" وإلى أنا، فأنباني بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق إقصاء السيد "باليسو"، عن المحفل. على أنني رجوت السيد "تريسان" مخلصا - في ردي - بأن يشفع لدى ملك "بولندا" للحصول على عفو عن "باليسو". وصدر العفو فعلا. وإذ كتب لي السيد دي "تريسان" ليخبرني - باسم الملك - بذلك، أضاف أن هذا الحادث سيثبت في سجلات المحفل، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم، أكثر مما هو عفو. وأخيرا، حصلت - بعد عناء ورجاء - على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات، والا يبقى أي أثر منها بصفة رسمية. وقد سحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك، ومن جانب السيد دي "تريسان"، مما أثار زهوي إلى حد كبير. وشعرت في هذه المناسبة بأن تقدير أولئك الذين هم جديرون بالتقدير، يبعث في النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور... وقد ضمنت خطابات السيد دي "تريسان" وردودي إلى أوراقتي، وستوجد أصولها في ملف "أ"، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١.

إنني لأشعر كل الشعور، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضوء يوما، أنني أخلد بنفسي هنا ذكرى واقعة كنت أرغب في أن أمحو آثارها، ولكنني أثبت كثيرا غيرها، على الرغم مني. فإن الهدف الأكبر لمشروعي هذا، يتمثل دائما أمام عيني. فإن الواجب الذي لا محيص عنه، والذي يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صورة، لا تدع لي سبيلا للنكوص، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقني عن غايتي. إنني في موقف الغد الفريد، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه. فلكي أعرف القراء بنفسي، لأبد لي أن أعرف كل نواحي هذه النفس، طيبها وردبها. إن اعترافاتي مرتبطة - بالضرورة - باعترافات كثير من الناس، وإني لأبوح بهذه وتلك لنفس الصراحة، في كل ما يتعلق بي، دون أن أجد ما يقتضي أن أعامل أي امرئ غيري بما لا أعامل به نفسي، ولست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبدت.

إنني أصبو إلى أن أكون دائما منصفًا وصادقا، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولا أذكر من الشر إلا ما يتعلق بي، ويقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره.

فمن ذا الذي يجد من حقه أن يطالبني - وأنا في هذا الموقف الذي أقحمت فيه - بمزيد... إن اعترافاتي لم تكتب إطلاقا لكي تظهر في حياتي، ولا في حياة الأشخاص الذين تناولهم. ولو كان لي السلطان على مصيري، ومصير هذا المخطوط، لما رأى النور إلا بعد موتي وموت هؤلاء الأشخاص بوقت

طويل ولكن الجهود التي يبذلها الشائشون ذوو النفوذ - مدفوعين بجزعهم منها - لكي يمحوا كل أثر لهذا المخطط، يضطرنني إلى أن أبذل كل ما يسمح لي به أشد القوانين، وأقسى ألوان العدالة، في سبيل صون هذه الآثار. ولو كان مقدرا لذكرياتي أن تموت معي، حتى لا أمس أي أحد، لتحملت أي ظلم جائر وعابر، يترتب على ذلك. أما وقد قدر لاسمي أن يعيش - أخيرا - فإن من واجبي أن أحاول أن أسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التمس الذي كان يحمله. كي أبدية على ما كان عليه في الواقع والحقيقة، وليس كما عمل أعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه!

الكرامة التاسعة

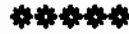
سنة ١٧٥٦

لم يسمح لي التلهف على سكنى "ليرميثاج" بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البديع، فما إن تم إعداد مسكني حتى أسرعرت إلى الإقامة فيه، وسط السخريات المدوية من ثلة "دولباخ"، الذين راحوا يتنبأون علانية بأنني لن أستطيع أن احتمل العزلة ثلاثة أشهر، وأنهم لن يلبثوا أن يروني عائدا لأعترف بإخفاقي، ولأعيش مثلهم في "باريس". أما أنا - وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيتي - فإني إذ رأيت نفسي وشيك العودة إليها، لم أبد أي اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر. فإني منذ أن القيت - على الرغم مني - في المجتمع، لم أكف عن التحسر على "شارميت"، وعلى الحياة الناعمة التي حظيت بها هناك.. كنت أحس أنني خلقت للإقامة في الريف، فكان من المستحيل أن أهنأ بالمعيش في غيره.. في "البندقية": في غمرة الشؤون العامة، وفي منصب خاص بنوع من التمثيل الدبلوماسي، وفي آمالي الطامحة ومشروعاتي للرقى.. في "باريس": في دوامة المجتمع الراقي، وفي الملاذ الحسية التي تكتنف حفلات العشاء، وفي حفلات المسرح اللامعة، وفي سحب المجد الزائف الذي حف بي.. في كل هذه وتلك، كانت ذكريات ادغالي، وجداولي، ونجوالي على القدمين، حاضرة أبدا لتشغل بالي وتبعث الأسى في نفسي، وتنتزع مني التهديدات والحنين والحسرة!

كل الأعمال التي كان في طوقني أن أجعل نفسي في ريقتها، وكل المشروعات الطامحة التي راحت تنمي حميتي باطراد، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك الببحوحة الريفية الهائشة، التي رحت أهنئ نفسي - في تلك اللحظة - على أنني أحرزتها.. فإني وإن لم أحظ بالاستقلال الكريم - الذي كنت أعتبره وحده الكفيل بأن يقودني إلى هذه الهناءة - إلا أنني رأيت أن بوسعي، نظرا لوضعي الخاص، أن أستغني عنه، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة. على أنني لم أكن أملك دخلا ما، وإن كنت أمتلك اسما ومواهب.. وكنت معتدلا، وقد حرمت نفسي من معظم الحاجات الباهظة النفقات.. تلك التي كانت منشودة لدى الناس عامة. وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلي، إلا أنني كنت مجدا عندما أشاء، ولم يكن كسلي راجعا إلى أنني عاطل خمول، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذي لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل. ولم يكن احترافي نسخ القطع الموسيقية راجعا، ولا مربحا، ولكنه كان مصدر رزق مضمون، وقد حبذ المجتمع شجاعتي إذا أقدمت على اختياره. فقد كان لي دائما أن أطمئن إلى عمل، وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشي إذا أنا عملت جادا. وكانت الفرنكات الألفان التي تبقت من أرباحي من "عراف القرية" ومن مؤلفاتي الأخرى، بمثابة رصيد يقيني الضيق. كما أن المؤلفات العديدة التي كانت تحت الإعداد، كانت تبشر - دون ما تطفل على الناشرين - بموارد كافية لأن تمكيني من العمل على سجييتي، دون ما إرهاق لنفسي، بل ودون أن أجور على أوقات الفراغ المخصصة للتريض والتجوال. وكانت أسرتي الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة أشخاص شغل كل منهم بما هو نافع، ولم تكن إعالتها مبهظة. وقصارى القول إن مواردني - بالنسبة لحاجاتي ورغباتي - كانت قادرة بحق على أن تتيح لي السعادة الدائمة في الحياة التي اختارتها ميولي.

ولقد كان بوسعي أن أرتقي تماما في احضان الجانب الاكثر إدرارا للريح، وبدلا من أن اذل قلبي للنسخ، كان بوسعي أن أكرسه تكرسا تاما للكتابة التي كانت - في الاعتكاف الذي اخترته، والذي شعرت بانني قادر على مواصلته - كفيلة بأن تمكيني من أن أعيش في سعة، بل في بذخ، لو أنني وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف، والعناية بنشر كتب جيدة. بيد أنني كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش، لن تلبث أن تخنق نبوغي، وأن تقتل موهبتي التي كانت في قلبي أكثر مما كانت في قلبي، والتي لم تنبث إلا من أسلوب في التفكير راق، أشم، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة.. فما من شيء قوي، ولا من شيء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجبر مرثا!

إن الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بأن تدفعني إلى أن أتعجل أكثر من أن اتقن. ولولا أن الرغبة في النجاح زجت بي إلى الدسائس، لكان من المحتمل أن تجعلني أناضل لأقول ما قد يطيب للناس، وليس ما هو صادق ونافع!.. وبدلا من المؤلف المبرز، الذي كان بوسعي أن أعده، فإنني ما كنت لأصبح سوى مسود للورق!.. لا، لا!.. لقد كنت أشعر دائما أن مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة، إلا إذا كان التأليف بعيدا عن أن يكون حرفة.. إذ إنه من الصعب، كل الصعب، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلًا ساميًا. إذا ما كان مضطرا إلى ألا يفكر إلا طلبا للرزق!.. ولكي يكون الكاتب قادرا، ولكي يجسر على أن ينطلق بالحقائق الجلييلة، ينبغي ألا يعمل على النجاح ويركن إليه. ولقد دفعت بكسبي إلى الناس بضمير مطمئن إلى أنني إنما تكلمت من أجل الصالح العام، غير حافل بأي شيء آخر. فإذا رفض الكتاب، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه. أما أنا، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكي أعيش، فإن مهنتي كانت كفيلة بأن تعولني، إذا لم تلق كتبي مشترى.. وهذا بالذات هو الذي جعلها تباع وتزوج!



وفي التاسع من نيسان (أبريل) سنة ١٧٥٦، غادرت المدينة فلم أعد إلى سكني المدن قط، إذ إنني لا أعتبر من السكنى في شيء، تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها - فيما بعد - سواء في "باريس" أو في "لندن" أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد إقامة عابرة، أو إقامة بالرغم مني دائما!.. ولقد أقلت السيدة "ديسيناي" ثلاثتنا في عربتها، وتولى خادمها الريفي أمر متاعبي البسيط، واستقر بي المقام في بيتي الجديد، في اليوم ذاته. ووجدت معزلي الصغير مهيا ذا أثاث بسيط، ولكنه كاف وينم عن ذوق!.. كانت اليد التي عنيت بإعداد هذا الأثاث قد أضفت عليه - في نظري - قيمة تفوق كل تقدير، وقد لذ لي أن أكون ضيف صديقتي، في بيت من اختياري، شيدته هي خصيصا لي!

ومع أن الطقس كان باردا، بل كان ثمة جليد، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر، وكانت زهور النرجس، وورود الربيع قد ظهرت، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار.. وقد امتازت ليلة وصولي بأول شدة للبلبل في أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتي!.. وبعد نعاس خفيف، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكني، فخلت أنني لا أزال في شارع "جرينيل"، لولا أن شدة البلبل نهني، فهتفت في نشوتي: "ها قد تحققت كل أمانبي أخيرا!..". وكان أول ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسي لمفعول الأشياء الريفية التي كانت تحيط بي. وبدلا من أن أشرع في تنسيق مسكني، فإنني شرعت في إعداد نفسي لنزهاتي، فلم يبق ثمة درب، ولا شجرة ضخمة، ولا غيضة (مجموعة من الشجر)، ولا بقعة منعزلة حول مسكني، إلا وتفقدتها في اليوم

التالي .. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لي ..! كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران - وإن لم تكن موحشة - تنقلني في الخيال إلى آخر أطراف المعمورة .. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التي تملك القلوب، والتي لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن.

وما قدر لأمري أن انتقل إلى هناك فجأة، أن يصدق أنه كان لا يبعد عن "باريس" بأكثر من أربعة فراسخ! وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتي الريفية، فكرت في تنسيق أوراقي، وتنظيم مهامى، فخصصت فترة الصباح للنسخ - كما اعتدت أن أفعل دائما - وفترة ما بعد الغداء للترريض والتجوال، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص، إذ إنني لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجليتي إطلاقا، إلا في الهواء الطلق والفضاء، ولم أجِد بنفسى ميلا إلى أن أغير أسلوبى، بل إنني قدرت أن غابة "مونمورنسي" - التي كانت تكاد تصل إلى بابى - لن تلبث أن تغدو مكتبة، ومكان عملى ..! وكانت لدي عدة مؤلفات بدأتها من قبل، فعمدت إلى مراجعتها .. كنت مبدعا كل الإبداع في مشروعاتى، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء، في ضوضاء المدينة. وقد توقعت أن أمضي فيها بمزيد من العجلة، إذا ما تحققت من كل ما اعتاد أن يشغلنى عن العمل .. واعتقد أنني قد حققت هذا التوقع تماما .. وبالنسبة لرجل كثير المرض، كثير التردد على قصر "لاشيفريت" و"أبيناي" و"أوبون" وقصر "مونمورنسي"، كثير التشاغل عن عمله في داره؛ بفضل الفضوليين المتعطلين، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره .. إذا قدر كل هذا، وأحصيت المؤلفات التي أنجزتها خلال السنوات الست - التي قضيتها في "ليرميلاج" و"مونمورنسي" - لتجلى، فيما أوقن، أنني إذا كنت قد بددت وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن، فإن تبديده لم يكن في خمول، على الأقل!

وبين الأعمال الأدبية المتباينة - التي كانت على الرف - كان المؤلف الذي أطلت التفكير فيه، والذي أقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف، والذي وددت أن أعمل فيه طول عمري، والذي اعتقد أنه ختم شهرتى .. ذلك هو كتابى في "المذاهب السياسية".

إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة - أو أربع عشرة - سنة، مذ خطرت لي فكرته، عندما كنت مقيما في "البندقية"، حيث أتيت لي الفرصة كي أشهد عيوب نظام الحكم فيها، برغم ما كان له من صيت. ومن ذلك الحين، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق، فقدر لي أن أرى أن كل شيء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية، وأنه ما من شعب يملك - مهما يكن تقدمه - أن يصبح في حال غير التي تعد لها طبيعة نظام الحكم فيه. ومن ثم فإن المسألة الكبرى - مسألة خير نظام ممكن للحكم - انكشفت في نظري إلى ما يأتى: ما كنه نظام الحكم الصالح لتشكوين الشعب الذي يكون أفضل صفاتا، وأكثر تنورا، وأوسع حكمة .. وبالإيجاز الشعب الذي يكون "أحسن" شعب، بأوسع معاني كلمة "أحسن" ..؟. ولاح لي أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر، قريب الشبه منه، وإن لم يكن مثله تماما. ذلك هو: ما هي الحكومة التي تحرص - بطبيعتها - دائما، على أن تكون وثيقة القرب من القانون ..؟ ومن هنا خطر لي سؤال آخر: ما هو القانون ..؟. وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة. ورأيت أن هذا كله يفضي إلى حقائق عظيمة، ذات نفع بالنسبة لرعاية الجنس البشرى، ولأسيما رفاهية وطنى، حيث لم أجِد - خلال الرحلة التي قست بها إلى هناك - دراية بالقانون وبالحرية صحيحة، ولا واضحة بالقدر الذي كان يرضينى. ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية - بطريق غير مباشر - هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم، وخير شفيع لي كي يغفروا لي أن استطعت أن أمد بصري إلى أعلى وأبعد مما بلغته أبصارهم!

ومع أنني كنت قد عكفت - خمس سنوات أو ست - على وضع هذا المؤلف، إلا أنني لم أكن قد قطعت فيه شوطا يذكر، فإن الكتب التي من هذا القبيل، تتطلب تأملا، وفراغا، وطمانينة. فضلا عن أنني كنت أعمل فيه في الخفاء - كما يقال - دون أن أفتح أحدا - ولا "ديدرو" نفسه - بما اعترمت. فقد كنت أخشى ألا يبدو ملائما كل الملاءمة لروح العصر، وللبلد الذي كنت أكتبه فيه، وأن جزع أصدقائي قد يعرقل جهودي في تنفيذه (١). ولم أكن بعد واثقا بأنه سيتم في وقت مناسب، وبحيث يتسنى ظهوره إبان حياتي.. وكنت راغبا في أن أتمكن دون أي تقصيد - من أن أهب موضوعي كل ما كان يتطلبه. ولما كنت خلوا من التحامل المغرض، وغير راغب قط في الجنوح إليهما - فإنني كنت مطمئنا إلى أنني سأظل دائما بمنأى عن اللوم.. لقد وددت أن أستخدم - أكمل استخدام، دون ريب - حق التفكير، هذا الحق الذي أوتيته بحكم وجودي.. ولكنني في حرصي دائما على احترام نظام الحكم الذي كنت أعيش في ظلاله. وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقا، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير.. في كل حرصي هذا، لم أكن راغبا - في الوقت ذاته - في أن أفرط، بدافع من الخوف، في إماتة هذا الحق.. حقي في التفكير. بل إنني لاذهب إلى الاعتراف بأنني وجدت وضعي في "فرنسا" - كأجنبي يعيش فيها - مواتيا لكي أقول الحق في جراحة.. فقد كنت أدرك تماما أنني ما دمت لا أطبع شيئا في الدولة، دون ما إذن - وهو ما كنت أعتزمه - فلن أكون مسؤولا أمام أي أحد في "فرنسا" عن مبادئي - وعن الترويج لها في أي مكان آخر.. ولقد كان من المحتمل أن أكون أقل حرية في "جنيف"، أو في أي مكان آخر طبعته فيه ككتبي، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها. ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير في حملي على أن أنصاع لإلحاح السيدة "ديبيناي"، فاهجر ما كنت قد انتويت من الإقامة في "جنيف". فقد شعرت - كما ذكرت في "إميل" - بأن المرء إذا أراد أن يؤلف كتابا في الصالح الحقيقي لوطنه، فليس له أن يؤلفها في هذا الوطن، اللهم إلا أن يكون موهوبا في التأمر والدرس والخداع!

ومما زادني سعادة، أنني اقتنعت بأن حكومة "فرنسا"، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعني في سلام، إن لم تحمني، ولو أنها لم تكن تنتظر إلي بعين راضية!.. ولقد كان هذا - فيما بدا لي - نهجا سياسيا بسيطا، وصريحا إذ إنه يرمي إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه.. فلو أنني حملت على مغادرة "فرنسا" - وهو ما لكل الحكومات الحق في أن تقدم عليه - لظلت ككتبي ماضية في الصدور، ولكن بتحفظ أقل.. أما إذا تركت دون إزعاج فإنني - كمؤلف - سأعتبر رهينة وضمانا لكتبي، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التي كانت متغلغلة في بقية أوروبا، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق، ورفي تفكير!

والذين يحكمون - على ضوء النتيجة - بأن ثقتي قد غررت بي، ربما كانوا هم المخدوعون. فني العاصفة التي هبت علي، كانت ككتبي خير حجة في جانبي، لولا أن شخصي هو الذي كان مقصودا.. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على "جان جاك" نفسه.. وكان أسوأ ما جرته كتاباتي، هو التكريم الذي كان من المحتمل أن يولوني إياه. ولكن.. يجب ألا نقفز إلى المستقبل، ولندعه إلى حينه!.. ولست أدري ما إذا كان هذا اللغز - فهو لا يزال لغزا في

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت حكمة "ديكتر" المترتبة هي التي أوحى إلي بهذا الخوف. أما "ديدرو"، فلست أدري كيف كانت اجتماعاتي به تنجح دائما إلى جملي أكثر سخرية وهجوا وقذاعا مما كنت بطبيعتي.

وهذا بالذات هو الذي ردتني عن أن أستشيره في مشروع كنت راغبا في ألا أستخدم فيه سوى قوة المنطق والمهاجة فقط، دون أنفه أثر لمحت أو تعصب.

ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذي انتهجته في هذا المؤلف، على ضوء أسلوبني في "العقد الاجتماعي" الذي أخذته عنه.

نظري إلى اليوم - سيلقى ما يوضحه في نظر قرائي، فيما بعد .
ولمّا الذي أدريه هو أنه إذا كانت آرائي التي جاهرته بها، جديرة بأن تجلب عليّ المعاملة التي قاسيتها، لما توانيت عن التعجيل بأن أصبح فريسة لها؛ ذلك لأن ما ظهر من كتيبي - التي بسطت فيها هذه المبادئ بكل جرأة، إن لم أقل بكل شجاعة (١) - كان قد أحدث أثره، على ما بدا، قبل أن آوي إلى "ليرميتاج"، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزني الحرب، أو - على الأقل - أن يعوق نشر المؤلف في "فرنسا"، حيث كان يباع في علانية لا تقل عن التي كان يباع بها في "هولندا". ولقد ظهرت "هيلوينز الجديدة" - بعد ذلك - بنفس السهولة، وب نفس التحيز، كما ينبغي أن يقال . ومن الأمور التي تبدو أبعد من أن تصدق، أن العقيدة التي بشرت بها في "هيلوينز" هذه، كانت عين تلك التي بشرت بها في "أسقف صالوا" ... وكل ما أقدمت على قوله في "العقد الاجتماعي"، كان قد قيل في "حديث في عدم المساواة" .. وكل ما جاهرته به في "إميل"، ظهر قبل ذلك في "جولي" .. ولكن هذه العبارات المدوية، لم تثر سخطا قبل ذلك ضد الكتائين الأولين (٢)، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هي التي أثارت سخطا ضد الكتاب الأخير (٣) .



وهناك مشروع كتاب آخر، من نفس النوع تقريبا، ولكن فكرته وانتني متأخرة عن أفكار تلك الكتب، وقد شغلت بالي في ذلك الحين .. "مختارات من أعمال الأب دي سان بيير"، الذي لم أملك الحديث عنه من قبل، إذ شغلني عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إليّ بالفكرة الراهب دي "سابلي" - عقب عودتي من "جنيف" .. ولم يعرضها عليّ مباشرة، وإنما وسط في الأمر السيدة "دويان"، التي كانت مهتمة - إلى حد ما - بإقناعي بالاضطلاع بالمشروع! .. فقد كانت إحدى ثلاث أو أربع من حسان "باريس"، تهافتن على الراهب الشيخ "سان بيير" . وإذا لم تكن قد ظفرت بالإيثار منه، فإنها - على الأقل - قد نقاسمته مع السيدة "ديجويون" . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحي، تبعث على يدي سكرتها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بدیعة، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير، إلى درجة تجعل من العسير على القارئ أن يحتمل قراءتها . وما كان يبعث على الدهشة، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد "أطفال كبار"، ولكنه - مع ذلك - كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا .. فضلا عن أنه لم يتجشم أي عناء في حملهم على الإنصات إليه .

من أجل هذا عرض عليّ الاضطلاع بهذه المهمة التي كانت نافعة - في حد ذاتها - كما كانت مناسبة لرجل مجد في النسخ والتعديل، ولكنه كسول في التأليف، ألفى أن المجهود الذي يبذل في التفكير مرهق، فكان يؤثر - فيما يوافق هواه - أن ينقح ويحسن أفكار سواه، على أن يبتدع أفكارا جديدة من لدنه! .. وإلى جانب ذلك، فإنني لم أقصر دوري على مجرد تفكييري في بعض الأحيان، وكنت مطلق اليد في أن أصوغ عملي بالشكل الذي يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر في مسوح الراهب "سان بيير"، دون ما تعرض للخطر الذي قد يحدث بها إذا ما ظهرت في ثيابي أنا . وفضلا عن كل هذا، فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة، ثم الاستيعاب

(١) بقصد كتابه: "حديث في عدم المساواة في الظروف والأحوال" . (٢) بقصد كتابه: "إميل" "حديث في عدم المساواة" . (٣) بقصد "العقد الاجتماعي" .

والتفكير، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة، مضطربة التنسق، مليئة بالحشر، والإطناب، والتكرار، والآراء الضحلة أو الخاطئة.. وكان لابد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجلييلة الدسمة، التي كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة!.. بل إنني كنت موشكا - في كثير من الأحيان - على أن أنفض يدي منها، لو أنني استطعت أن أنسحب في تصرف كريم.. ولكنني عندما تقبلت مخطوطات الراهب - التي أعطانيها ابن أخيه الكونت دي "سان بيير"، بإيعاز من "سان لامبير" - أصبحت مرتبطا بشكل ما، بأن أستعملها.. وأصبح الواجب يقتضيني إما أن أردّها، وإما أن أجعل لها قيمة. وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى "ليرميتاج"، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغي!

ورحت أفكر - إذ ذاك أيضا - في مشروع كتاب ثالث، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسي، ومما زاد من شعوري بالرغبة في الإقدام عليه، أنني وجدت من الأسباب ما جعلني أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقي للجنس البشري، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التي رسمتها مطابقة ناجحة. فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون - في سياق حياتهم - على غير ما هم عليه أصلا، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف. ولم أكن أبغي بإصدار كتاب في ذلك، أن أقر شيئا معروفا كل المعرفة، بل كان لدي غرض جديد تمام الجدة، وذو أهمية بالغة.. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه التطورات والتغيرات - التي تطرأ على الناس في حياتهم - وأن أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا، وأن أبين كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا، لكي نصبح أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا، واطمئنانا إليها!.. ذلك لأنه لا جدال في أن الرجل الشريف يعاني في مقاومة الشهوات التي اكتمل تكوينها - والتي ينبغي عليه أن يقاومها - عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها، لو قدر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع. فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوي، ولكنه - في مرة أخرى - يستسلم لأنه ضعيف.. ولو أنه كان على ما كان عليه من قبل، لما استسلم.

وفيما كنت أفحص نفسي، وأبحث في النفوس الأخرى عما يمكن لهذا التباين من الحدوث، تبينت أنه إنما يعتمد - إلى حد كبير - على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته - من قبل - من انطباعات داخلية، وأنا في تغيرنا المستمر - بفعل حواسنا، وأجهزتنا البدنية - إنما نكشف، دون أن نفلطن عن أثر ذلك التغير في أنفسنا، وفي آرائنا، وفي مشاعرنا، وفي أعمالنا ذاتها!.. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة - التي جمعتها - تملو على كل طعن.. وقد بدت لي في أصولها الطبيعية صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك، بتغير بتغير الظروف، ويمكن من وضع العقل أو صونه في حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة!.. فكم من أخطاء يمكن إنقاذ العقل منها، وكم من رذائل يتسنى خنقها في مهدها، إذا تيسرت معرفة التحكم في النظام الحيواني، بحيث يتلاءم مع النظام الخلقي الذي كثيرا ما يتعرض للاضطراب!.. إن أحوال الجو، والفصول، والأصوات، والألوان، والظلام، والنور، والعناصر، والمواد، والضجة، والصمت، والحركة والسكون.. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقولنا بالتوالي.. كلها تمدنا بالف فرصة، تكاد تكون مضمونة، للتحكم - منذ البداية - في المشاعر التي نتركها تتحكم فينا!

هكذا كانت الفكرة الأصلية، التي كنت قد سطرتها على الورق، والتي توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوي المنبت السليم، الذين يتحدون ضعفهم، في سبيل حبهيم الصادق للفضيلة.. حتى لقد

بدالي أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة، كما هو من حيث الكتابة!.. ومع ذلك، فإنني لم أحرز سوى تقدم ضئيل في هذا المؤلف - الذي جعلت له عنوانا: "المبادئ الخلقية الحسية، أو مادية الحكيم" (١) - فقد حالت شواغل، لن تلبث أن تتكشف، دون أن أعكف عليه.. ولن يلبث أن يتضح كذلك، أن هذه كانت خاتمة مشروعني، الذي كان أقرب إلى نفسي من كل ما يبدو!



وكنْتُ - إلى جانب كل هذا - قد فكرت منذ زمن، في نظام للتربية كانت السيدة دي "شينونسو" قد رجعتني أن أشتغل به، في غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذي وضعه زوجها لتربيته!.. ولقد استوجب سلطان الصداقة أن أنصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه، برغم أنه لم يكن - في حد ذاته - مما يصادف هوى من نفسي. ومن ثم فإن هذا المشروع هو الوحيد - بين كل المشروعات - التي ذكرتها من قبل - الذي أنجزته. ولقد كانت الغاية التي وضعتها نصب عيني - وأنا أعمل فيه - جدية كما يترأى لي، بأن تتيح للمؤلف جزءا آخر غير الذي أتاحه. ولكن.. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المزعج، قبل أن يحين أوانه.. فسوف اضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد!

ولقد امتدنت هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير في نزهاتي اليومية. إذ إنني - واعتقد أنني ذكرت هذا من قبل - لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى، فما إن أقف، حتى أكف عن التفكير، فليس في وسع عقلي أن يتحرك إلا مع قدمي. على أنني اتخذت الحيلة، فوفرت لنفسي عملا يؤديه داخل البيت في الأيام المطيرة. ذلك هو "قاموس الموسيقى"، الذي كانت مواده وأصوله مبعثرة، ناقصة، مشتتة بحال تجعل من الضروري إعادة كتابة السفر كله، من أوله إلى آخره تقريبا. ولقد ابتعت بعض الكتب التي كنت بحاجة إليها من أجل ذلك، وقضيت شهرين في السعي إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى، التي استعيرت لي من "مكتبة الملك"، والتي أبيع لي أن أصبح بعضها معي إلى "ليرميتاج". هذه كانت المواد التي تهئ لي العمل في البيت، عندما لا يسمح الطقس لي بالخروج، أو عندما أسام النسخ والنقل. ولقد وافقني هذا التدبير إلى درجة أنني وازبنت عليه في "ليرميتاج"، وفي قصر "مونمورنسي" على السواء، ثم في "موتير" بعد ذلك، حيث أكملت هذا المؤلف، بينما كنت ماضيا في مؤلفات غيره. وقد اعتدت دائما أن أجد في تغيير الأعمال مادة للترويح حقا!

وتبعت في دقة بالغة - ولفترة من الزمن - النظام الذي ذكرته، فوجدته صالحا للغاية، ولكن الفصل الجميل "الربيع" لم يلبث أن زاد من تردد السيدة "ديبيناي" على ضيعة "إيبيناي" أو ضيعة "لاشيفريت"، فوجدت من الشواغل - التي لم تكن تكبدني من قبل شيئا، ولكنني لم أحسب لها في تدبيري حسابا - ما عطل كثيرا من مشروعاتي الأخرى. فلقد قلت - من قبل - إن للسيدة "ديبيناي" خصالا بالغة اللطف، إذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا، وتخدمهم بكثير من الشهامة، ولا ترضن عليهم بوقت ولا بمال، ومن ثم فإنها كانت تستحق - عن جدارة - أن تجازى عن ذلك برعاية خاصة. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - أؤدي هذا الواجب، دون أن أفكر في أنه واجب، ولكنني لم ألبث أن فهمت - في النهاية - أنني مفلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعوري بوطأتها

سوى الصداقة وحدها!.. ولقد ضاعفت من هذا المعبء بنفوري من المجتمعات الحافلة، إذ تكرمت السيدة "ديسيناي" فعرضت اقتراحا بدا ملائما بالنسبة لي، وأكثر ملاءمة بالنسبة لها، ذلك هو أن تحيطني علما بالأوقات التي تكون فيها على انفراد، أو على وشك الانفراد. ولقد وافقت على ذلك، دون أن أفطن إلى ما كنت أقيد به نفسي. وترتب على ذلك أنني لم أعد أؤدي لها زيارات في الوقت المناسب لي، ولكن في الوقت المناسب لها هي، وأنني لم أطمئن يوما إلى أن نهاري رهن رغبتي. ولقد أفسد هذا القيد - إلى حد كبير - ما كانت توفره لي زياراتي لها - فيما مضى - من متعة.. وتبينت أن الحرية - التي طالما وعدتني بها - لم تمنح لي إلا بشرط ألا أحظى بها إطلاقا!.. ولقد رغبت - في مرة أو مرتين - في أن أجريها، فإذا بكثير من الرسائل، وكثير من المذكرات، وكثير من إشارات الخوف تنهال من السيدة "ديسيناي" معربة عن قلقها على صحتي.. حتى تبينت تماما ألا شفيح لي في عدم الإسراع إليها لدى أول بادرة تنم عن رغبتها، إلا بأن ألزم فراشي تماما!

وكنت مضطرا إلى أن أخضع لهذه الريقة، فانصعت في تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من الحرية.. وقد ساعد الوفاء الصادق - الذي كنت أكنه للسيدة - على الخيلولة، إلى حد كبير، دون أن أشعر بالأغلال التي كانت ترتبط بهذا الموقف. ولقد استطاعت السيدة "ديسيناي" أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ - الذي خلفه غياب الثلة التي كانت تحيط بها - إلى حد ما. ولقد كانت التسلية التي ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرا، ولكنها كانت أفضل من العزلة الشامة، التي لم تكن تطيقها. على أنها أصبحت أقدر على ملء الفراغ بسهولة، عندما شرعت تجرب قلمها في الأدب، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص، ورسائل، وفكاهيات، وحكايات، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها!.. على أن الكتابة لم تكن أعظم ما لذ لها بل إن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب.. فإذا هي سودت صحيفتين أو ثلاثا، كان من الضروري لها أن تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم، ويحبذونه. ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة، اللهم إلا إذا أشفع لي مستمع آخر!..

ذلك لأنني - كنت وحدي - لا أكاد أساوي شيئا يذكر، لا في ندوة السيدة "ديسيناي" فحسب، وإنما في ندوة السيد "دولباخ"، وحيثما كان "جهرم" نجما مثالقا.. وكان هذا التجاهل التام لقدري يلائمني تمام الملاءمة، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة وحيدتين، إذ إنني لم أكن أعرف أي مسلك أتخذ.. ذلك لأنني لم أكن أجروء على الحديث في الأدب إذ لم أكن أعتبر كفتا لإبداء الرأي فيه - ولا في آداب السلوك، والمجاملة، والإناس، لأنني كنت مفرط الحجل، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز، أكثر من خشيتي الموت!.. فضلا عن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة "ديسيناي"، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة في حياتي، ولو قدر أن أعيش طيلة عمري بصحبتها.. وما كان ذلك لأنني كنت أضمر نفورا شخصيا منها، بل لعلمي - على النقيض - كنت أحبها كل الحب كصديقة، وكنت قادرا على أن أحبها كعشيقة!.. كان يروق لي أن أراها، وأن أجاذبها الحديث. ومع أن حديثها كان طليا - إذا ما كانت في جماعة - إلا أنه كان ممحضا في الجلسات الخاصة.. أما حديثي أنا، فلم يكن لبقا سيالا، ولم يكن ذا عون كبير في إنسانها.. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة، أرهق نفسي في سبيل بحث الحياة في الجلسة. ومع أن هذا كثيرا ما كان يتعبني، إلا أنه أبدا ما ضايقتني!.. كنت أؤدي لها آيات الغزل عن طيب خاطر، وامنحها بعض قبلات أخوية صغيرة، لم يكن يلوح لي أنها ذات إثارة حسية لها.. وكان هذا غاية ما

في الأمر...

فلقد كانت مغرطة التحول، شديدة البياض، ذات صدر مبسوط كراحتي!.. وكان هذا العيب وحده، كافيا لأن يطفئ كل حرارة في كياني، فما قدر لقلبي ولا لحسي يوما أن يريا أية أنوثة في امرأة بلا نهدين.. وقد كانت ثمة أسباب أخرى - لا جدوى من ذكرها - تجعلني أنسى الناحية الجنسية دائما، إذا ما كنت بالقرب من السيدة "ديبياني"!!



أما وقد رضت عقلي على قبول تبعية لا غنى عنها، فإنني أسلمت نفسي لها، دون ما مقاومة فالفيتها - في العام الأول، على الأقل - أقل عيبا مما كنت أتوقع. وكانت من عادة السيدة "ديبياني" أن تقضي الصيف بأسره - تقريبا - في الريف. ولكنها لم تقض هناك، في هذا العام، سوى شطر منه.. إما لأن أعمالها، كانت تتطلب وجودها في "باريس"، وإما لأن غياب "جرم"، جعل الإقامة في "لاشفريرت" أقل ملاءمة لها عن ذي قبل. ولقد كنت أستغل الفترات التي لم تكن تقضيها هناك، أو التي كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس؛ لأنعم بعزلتي مع "فيسريزي" الطيبة وأمه، على نمط يجعلني أعرف لهذه الفترات قدرها. ومع أنني كنت قد اعتدت - لبضع سنوات - أن أتردد على الريف كثيرا، إلا أنني لم أكن أستمتع بهذه الرحلات، إذ إنها كانت دائما في صحبة أشخاص محبين للمظاهر، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد والحرج، وإن كانت قد أذكت في نفسي الميل إلى المتع الرفيعة.. وكنت كلما لحت هذه المتع عن كثر، ازدادت شعورا بحرمانني منها. كنت قد سمعت - كل السام - "صالونات" باريس، ونافورات الماء، والبساتين، وحدائق الزهور. وكان أصحابها أشد بعثا للملل.. كنت ضجرا من التطريز، والمعزف، وحبك الصوف، والانحناءات، والمجاملات الحمقاء، والعواطف الضحلة، ورواة القصص التافهين، ومآدب العشاء الكبيرة، حتى أصبحت إذا ما لحت - بنظرة من ركن عيني - شجرة من أشجار الصنوبر، أو عشباً من الأعشاب الشوكية، أو سباج مزرعة، أو مخزنا للغلال، أو مرجاً.. وحتى أصبحت إذا ما شممت - وأنا أمر بمزرعة - عبير "العجة" المتويلة بالأعشاب الشذية.. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد أصوات الماعز الرفيعة.. أصبحت أتمنى إزاء هذا كله، أن يذهب كل الطلاء الأحمر، والمساحيق، والعمطور، إلى الشيطان!.. وكنت أتخسر على الغداء الذي تعده الزوجة المتفرغة لبيتها في الريف، والنيبذ المحلي.. وكنت أود - من قلبي - أن ألكم السيد الطاهي، والسيد رئيس السقا، اللذين كانا يضطراني إلى أن أتناول الغداء في موعد عشائي المعتاد، وأن أتناول العشاء في الساعة التي اعتدت أن أنام فيها.. وكنت أود - فوق كل شيء - أن أصنع السادة خدم الموائد، الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التي أكلها، ويبيعوني - إذا لم أشأ أن أموت ظمأ - نيبذ مخدومهم المعتق، بما يفوق عشرة أمثال ما أ دفعه من أجله في أرقى حانة!

ولكن.. هانذا أخيرا في داري، في ماوى منزعل مستحب، حرفي أن أقضي أيامي في حياة مستقلة، متشابهة، آمنة، كنت أشعر أنني إنما خلقت لأنعم بها!.. وقبل أن أذكر الأثر الذي أحدثه هذا الوضع - الجديد عليّ - في فؤادي، يروى لي أن أخص الميول الخفية لهذا القلب، حتى يتسنى الإلمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة.

لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادي مع "تيريز" هو التاريخ الذي أصبحت فيه حريصا على مبادئ الخلق. فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق، مذ انفصم في قسوة ذلك الود الذي كنت مكتفيا به.. إن الظلم إلى الهناء لا يمكن أن يرتوي في قلب الإنسان!.. ولقد كانت "ماما" تسعى إلى الشيخوخة، وتنحدر إلى الهوان، وكان من الواضح لي أنها لن تسعد ثانية على الأرض، فلم يبق لي سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى، ما دمت قد فقدت كل أمل في أن أقاسمها سعادتها!.. رحلت أطفو من فكرة إلى فكرة، ومن خطة إلى خطة، بعض الوقت. وكانت رحلتي إلى "البندفية" خليقة بأن تزج بي في الشؤون العامة، لو أن الرجل الذي قدر لي أن أرتبط به، كان على شيء من الإدراك السليم. وأنا ممن يسهل هبوط عزيمتهم، لا سيما في المشروعات الشاقة، البطيئة. لذلك فإن ضعف نجاح هذا العمل "الشؤون العامة" نفرني من أمثاله. ولما كنت - وفقا لمبدئي القديم - أنظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها أحابيل للحمقى، فقد وطنت العزم على أن أعيش - بعد ذلك - دون أية خطة مرسومة، إذ إنني لم أعد أرى شيئا في الحياة كان قادرا على أن يغريني على أن أتعب نفسي!

وفي هذه الفترة بالذات، بدأ تعارفا، فلاح لي أن لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة، يتمشى مع طبيعة شخصيتي، حتى إنني ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن، ولا الزلات على إضعافها، ولم يؤد أي شيء - كان يحتمل أن يفصمها - إلا إلى توثيقها. ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلي، عندما أكتشف عن الجراح والآلام التي خلفتها في قلبي - في أوج تعاسي - دون أن تبدر مني شكوى واحدة، حتى الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور!

وعندما يعرف أنني - بعد أن فعلت كل شيء، وبعد أن جابهت كل عناء لاتفادى فراقها، وبعد أن عشت معها خمساً وعشرين سنة برغم سجية البشر - أقدمت في النهاية على الزواج منها في شيخوختي، دون أن يكون لديها أي توقع، أو أي رجاء، ودون أن أرتبط معها بخطوبة أو بوعد.. عندما يعرف هذا، يسهل على المرء أن يصدق أن الحب الجامح، الذي عبث برأسي منذ اليوم الأول، قد قادني تدريجاً إلى آخر حماقاتي.. ولسوف يزداد المرء اقتناعاً بهذا، إذا ما عرف الأسباب الخاصة، والقوية، والتي كانت خليقة بأن تمنعني من أن أقدم على شيء كهذا.. فماذا يظن إذن، إذا أنا أعلنت - بكل ما لا بد أن يكون قد عرف في خلقي من صدق - أنني منذ اللحظة الأولى التي رايتها فيها، حتى يومنا هذا، لم أشعر نحوها بأصال قبس من الحب، وأنني لم أعد أكثر اشتهاً لمضاجعتها، مني لمضاجعة السيدة دي "فاران"، وأن الرغبات الحسية التي كنت أشبعها لديها، لم تكن - في نظري - سوى استجابة للنزاع الجنسية، دون أن يكون لها أية علاقة بالفرد؟

.. قد يعتقد القارئ أنني إذ أوتيت بنية تختلف عن بنية سواي من الرجال، كنت عاجزاً عن أن أشعر بالحب، لا سيما وأنه لم يدخل قط بين المشاعر التي ربطتني بملكما المرأتين، اللتين كانتا أعز النساء لدي. ولكن، صبراً يا قارئ!.. إن اللحظة المشؤومة تقترب، وستجد أنك مخدوع أكثر مما تخال!



إنني أكرر حديثي، وإني لأدرك ذلك، ولكنه أمر لا بد منه. لقد كانت أولى، وأعظم، وأقوى، واعتنى حاجاتي جميعاً، تنحصر بأكملها في فؤادي.. تلك هي الحاجة إلى زمالة أشد ما تكون ألفة وقربى وتوثقاً.. ومن أجل هذا الغرض - بوجه خاص - كنت محتاجاً إلى امرأة أكثر مني إلى رجل..

إلى صديقة، أكثر مني إلى صديق. وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث إن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها.. كنت أتوق إلى روحين في جسد واحد، وقد ظننت - بدون ذلك - أشعر بالفراغ دائما!

ولقد ظننت أن اللحظة التي لا أعود أشعر فيها بذلك، قد حانت.. فإن هذه الشابة اللطيفة، كانت كفيلة - بفضل ألف من الصفات الرائعة، بل وبفضل مظهرها الشخصي الذي كان خلوا من أي افتعال، أو إغواء - بأن تستوعب كل كياني في كيائها، لو أنني استطعت أن استوعب كيائها في كياني، كما كنت آمل!

ولم يكن لدي ما أخشاه من ناحية الرجال - فقد كنت موقنا من أنني الرجل الوحيد الذي أحبه "تيريز" حبا صادقا - وكانت شهواتها من الفتور بدرجة أنها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غربي، حتى عندما كفت عن أن أكون رجلها في هذا المجال!.. ولم تكن لي أسرة، في حين أنها كانت ذات أسرة، ولم تكن هذه الأسرة - التي كان أفرادها جميعا من صنف يخالف في الخلق صنفها - بالتي استطيع أن اعتبرها كإسرتي.. وكان هذا أول أسباب شقائي!.. ما الذي كنت أتردد في أن أجود به، لكي أضع نفسي من أمها موضع الابن؟..

لقد حاولت ما وسعنتني الحيلة، دون أن أوفق إطلاقا!..

كان من العيب أن أحاول أن أوجد كل مصالحتنا، فقد كان هذا مستحيلا.. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصالحي تختلف عن مصالحي، ثم تضعها في وجه هذه، بل وضد مصالح ابنتها برغم أن الصنفين لم يكونا مختلفين!.. ولقد أصبحت، وأولادها الآخرون، وأحفادها ديدانا ظامئة إلى الدماء، وكان أبسط ضرر الحقوه بـ "تيريز"، هو أنهم راحوا يسرقونها. إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع - حتى لبنات أخواتها - فتركت نفسها نهبا ومطية، دون أن تنبس ببنت شفة.. ولقد آلمني أن أرى أنه لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا لمساعدتها، برغم أنني كنت أعتصر مواردتي ونصائحي في هذا السبيل!.. ولقد حاولت أن أقصيها عن أمها، ولكنها كانت تعارض هذا دائما، فاحترمت معارضتها، وازدادت تقديرا لها، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها ومصالحي. كانت مطبوعة على الوفاء لامها ولبقية أسرتها، ومن ثم فقد كانت ملكا لهم، أكثر مما كانت ملكا لي، بل وأكثر ما كانت ملكا لنفسها!

والآن .. تعال نعيش مع "روسو" في العالم

الذي كان يعيش فيه

منذ قرنين كاملين:

ولم يكن جشعهم مؤديا إلى إفلاسها، بقدر ما كان نصحبهم مؤذيا لها... وقصارى القول إنها إذا ما لم تكن جارية لهم بمعنى الكلمة - والفضل في ذلك لحبها لي ولنفسها المفطورة على الطيبة - فإنها كانت من الخضوع لهم بدرجة تمنع - إلى حد كبير - أثر المبادئ الطيبة التي سمعت إلى أن ابنها فيها.

هذا هو السر في أن فراغ قلبي لم يلق في علاقة خالصة متبادلة كهذه - أودعتها كل ما في هذا من عاطفة - ما يملؤه تماما، وكان الأطفال كفيلين بملء هذا الخواء.. وقد رزقنا بهم، ولكن إنجابهم زاد الأمر سوءا. فلقد كنت أرتجف لمجرد التفكير في تسليمهم إلى هذه الأسرة سيئة النشأة؛ لتكفل لهم نشأة أسوأ.. كان ما لتربية اللقطاء - في الملجأ - من احتمالات سيئة، أهون من ذلك بكثير.. وهذا التبرير للقرار الذي اتخذته، كان الوحيد الذي لم أجروء على ذكره للسيدة "دي فرانكوي"، برغم أنه أقوى بكثير من تلك التي سقتها في خطابي إليها. فقد آثرت أن أبقي في غير منجاة من لوم ثقيل الوطأة؛ لكي أعول أسرة امرأة كنت أحبها. ولكن من الممكن - على ضوء أخلاق أخيها التمس، إن لم نقل على أعضاء أخرى - الحكم بما إذا كان واجبي إذ ذاك أن أعرض ابنائي لأن يتلقوا تربية كثرية!

وإذا لم أستطع أن استمتع تمام الاستمتاع بهذه الصحبة الوثيقة التي كنت أشعر بحاجة إليها، فقد سمعت إلى معززات وإن لم تملأ فراغ قلبي، إلا أنها جعلتني أقل شعورا به؛ وإذا كنت أفتقد صديقا يؤثرني بكل وده ونفسه فقد وجدتني بحاجة إلى أصدقاء أوتوا من التحريض والتحفيز ما يطغى على تراخي وكسلي؛ ومن ثم فقد رحت أنمي وأعزز علاقاتي بـ "ديدرو" والراهب "دي كونديلاك"، وأقبلت على علاقات جديدة - ولكنها أكثر توثقا... بـ "جسيم"، وما لبثت أن وجدتني في النهاية - بفضل تلك "الرسالة" الثمينة التي رويت قصتها من قبل - مرتقيا، دون ما تفكير، بين احضان الأدب، الذي كنت أظنني قد هجرته إلى الأبد!

ولقد أفضى بي ارتيادي الأول للآداب - خلال طريق جديدة - إلى عالم فكري آخر، لم أكن أملك أن أتأمل بسلطته وإيجازه السامي، دونما تحمس... وسرعان ما أصبحت بفضل انهماكي لا أرى في معارف فلاسفتنا سوى خطأ وحماقة، ولا أرى في نظامنا الاجتماعي سوى ظلم وتعاسة، وفي انسيابي لضلال الغرور الأرعن خيل إلي أنني إنما خلقت لكي أبعد جميع هذه الأباطيل؛ وإذا رايت أنه لا بد لي من أن أجعل تصرفي يتمشى مع مبادئ - إذا شئت أن يكون رأيي مسموعا - فإنني انتهجت المسلك الأوحده الذي لم يتح لي أن أستمرفيه، والذي لم يغتفر لي أصدقائي المزعمون أن جعلت نفسي مثالا وقدوة فيه، والذي جعلني في البداية - اضموكة، وكان خليقا بأن يجعلني - في النهاية - موضع الاحترام لو أنه تسنى لي أن أثابر عليه!



ولقد كنت حتى ذلك الحين طيباً؛ فأصبحت من تلك اللحظة فاضلاً، أو نشواناً بالفضيلة على الأقل!.. وقد بدأت هذه النشوة في رأسي ولكنها سرت إلى قلبي، وعلى أطلال الغرور المقبوض نبتت أنبل كبرياء.. ولم أكن متظاهراً بشيء بل إنني غدت كما كنت أبدو حقاً، وفي خلال السنوات الأربع - على الأقل - التي داسها هذا الفوران في أقصى قوته - لم أعجز عن أن أعتنق - بيني وبين السماء - كل جليل وجميل يمكن أن ينتاب قلب بشر، ومن هنا نبتت بلاعتي المفاجئة.. ومن هنا تولد ذلك الذهب السماوي الصادق الذي ألهمني وانتشر في كتبتي الأولى، والذي لم يكن - إبان أربعين عاماً - قد فقد شرارة واحدة؛ لأنه لم يكن قد استمر بعد خلالها!

ولقد تغيرت تغيراً حقيقياً، حتى إن أصدقائي ومعارفي لم يعودوا يعرفونني. لم أعد ذلك الرجل الخجول، الذي كان حياً أكثر منه متواضعاً، والذي لم يكن يجزؤ على أن يظهر نفسه، ولا على أن يتكلم، والذي كانت الكلمة الماجنة تريكه، والنظرة الصادرة من أية امرأة تبعث حمرة الخجل في وجهه!.. وفي جراحة، وفخر، وإقدام، رحت أحمل في كل مكان اعتداداً كان وطيداً بقدر ما كان بسيطاً، وكان مقره في أعماقي، وليس في مظهري... وكان من جراء الأزداء التي ألهمتنه تأملاتي العميقة - نحو أخلاق ومبادئ وأوهام عصري - أن أصبحت أبعد من أن أتأثر بسخریات أصحاب الأخلاق والمبادئ.. فكنت أسحق ملهمهم ونكاتهم الصغيرة بحكمي وأمثالي، كما أسحق حشرة بين أصابعي. فإيا له من انقلاب!.. لقد راحت "باريس" بأسرها تردد السخریات الوخازة اللاذعة التي أخذت تبعث من رجل لم يكن قبل عامين - ولا بعد عشرة أعوام - يعرف كيف يهتدي إلى ما ينبغي عليه أن يقوله، ولا الكلمة التي يجدر به أن يستعملها!.. إن أي فرد يسعى إلى العثور على أشد الحالات مناقضة لطبيعتي لن يعثر إلا على حالي هذه، وإذا هو رغب في أن يذكر فترة واحدة من الفترات القصار التي تخللت حياتي - وكنت فيها على غير ما أنا بفطرتي - فلن يعثر على بغيته إلا في هذا الزمن الذي أتحدث عنه.. ولكنها فترة لم تدم ستة أيام، أو ستة أسابيع، وإنما دامت ست سنوات، ولعلها كانت قمينة بأن تدوم حتى الآن لولا الظروف الخاصة التي أدت إلى انتهائها، والتي ردتني إلى فطرتي التي حاولت أن أنتشل نفسي منها!

وبدا هذا التغير بمجرد أن بارحت "باريس"، ولم تعد مناظر الرذائل، في هذه المدينة الكبيرة، تغذي الاستنكار الذي كانت تبعثه في نفسي. ذلك أنني؛ إذ أصبحت لا أرى الناس كففت عن ازدراءهم، وإذ لم أعد أرى أهل الخبث كففت عن بغضهم. فإن قلبي المقطور على العزوف عن الكراهية، لم يعد يملك سوى الرثاء لتعسهم؛ إذ إنه لم يكن قادراً على أن يتبين فيه مكرهم، وسرعان ما أحمدهم لهذا الاتجاه - الأكثر لطفاً.. ولكنه أقل سمواً من اتجاهي السابق - حدة الاندفاع الذي ظل يجتاحني طويلاً.. وعدت - دون أن يقطن أحد، بل ودون أن أقطن أنا نفسي تقريباً - خجولاً، مجاملاً، هيباً.. عدت - بإيجاز - "جان چاك" الذي كنته من قبل تماماً!

ولو أن الانقلاب لم يؤد إلا إلى ردي إلى حالي الطبيعية - فلم يتجاوز ذلك - لكان الأمر خيراً.. ولكنه - لسوء الحظ - ذهب إلى أبعد من ذلك، وحملني مسرعاً إلى النقيض، ومنذ ذلك الحين لم تعد نفسي - في اضطرابها - تستقر في نطاق الطمأنينة، ولا يمكنها التذبذب المتجدد باستمراره من أن ترين هناك وتبقى. فلنخض دقائق هذا الانقلاب الثاني..

فقد كانت فترة رهيبة، مشؤومة، في مصير لا مثيل له بين البشر!



لما كنا مجرد ثلاثة أفراد في ماوانا المنعزل (١)، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي الفراغ والوحدة إلي توثيق تألفتنا. وهذا ما حدث بيني وبين "تيريز"؛ فرحنا نقضي - تحت الأشجار الوارفة الظلال - ساعات عذبة، ننعم خلالها بعزلة لم أندوق من قبل مثل حلاوتها! ولاح لي أن "تيريز" هي الأخرى كانت أكثر استمتاعا بخلواتنا منها في أي وقت مضى، ففتحت لي قلبها دونما تحفظ، وأطلعتني على أمور - عن أمها وأسرتها - أوتيت المقدرة على أن تكتمها عني زمنا طويلا. فقد اعتادت وأمها أن يتلقيا من السيدة "دوبان" هدايا كثيرة كنت أنا المقصود بها، لكن العجوز الماكرة آثرت بها نفسها وأبناءها الآخرين - لتفادي غضبي - دون أن تدع شيئا لـ "تيريز"، ومع تحذيرها - أشد تحذير - من أن تقول لي شيئا عنها.. وهو أمر كانت الفتاة المسكينة تنفذه في طاعة تفرق التصورا!

ومما أدهشني - أكثر من أي شيء آخر - أن تبين أن تبيئت أنه إلى جانب الأحاديث المتكثمة - التي أكثر "ديدرو" و "جرم" من عقدها مع الأم وابنتها ليصرفاهما عني، والتي لم تفلح بفضل مقاومة "تيريز" - فإن الاثنين راحا يعقدان كثيرا من الاجتماعات السرية مع الأم، دون أن تدري الابنة شيئا مما كان يدبر بينهم.. كان كل ما علمته هو أن الهدايا الصغيرة كانت تلعب دورا في الموضوع، وأنه كانت ثمة جيئات وروحات، كانوا يحاولون التستر عليها، وكانت هي تجهل الباعث عليها جهلا تاما!.. وعندما رحلنا عن "باريس"، كان قد انقضى وقت طويل، اعتادت خلاله السيدة "لوفامير" زيارة "جرم" مرتين أو ثلاثا في الشهر، حيث كانت تقضي بضع ساعات في أحاديث كان الحرص على تكتمها يدعو إلى إقصاء خادهم "جرم" عن المعسكر في كل مرة!

وقد رت أن الباعث لم يكن سوى ذلك المشروع الذي حاول "ديدرو" و "جرم" أن يستدرجا الابنة إليه، حين وعدا بأن يحصلا لها ولأمها - بمعونة السيدة "ديبيناي" - على تصريح بالتجار بالملاح، أو حانوت لبيع التبغ.. وبإيجاز عندما لوحا لهما بفرص الكسب. ولقد أوحى إلي هاتان المرأتان بأنني لم أكن في وضع يمكنني من أن أفعل من أجلهما شيئا، بل ولم أكن أملك - بسببهما - أن أفعل شيئا لنفسي، ولما كنت لم أر في كل هذا سوى نوايا حسنة فإنني لم أحمل لأحد ضغينة، على الإطلاق، ولم يشرني سوى الغموض، لا سيما من جانب العجوز التي راحت - فوق كل هذا - تزداد رياء ودهاء نحوي، يوما بعد يوم، دون أن يمنعها ذلك من أن تلوم ابنتها باستمرار - وفي الخفاء - على أنها كانت مسرفة في حبها إياي، وأنها كانت تصارحني بكل شيء، وأنها لم تكن سوى غبية لن تلبث أن تبين أنها كانت ضحية غفلتها!

لقد أوتيت هذه المرأة أعلى درجات البراعة في اصطيد عصفورين بحجر واحد، وفي أن تخفي عن أحد المتواطئين معها ما تلقته من الآخر، وأن تخفي عني أنا ما تسلمته من الجميع!.. وكان بوسعي أن أغفر لها جشعها ولكنني لا أستطيع أن أغفر لها رياءها. أي شيء كان يجوز لها إخفاؤه عني.. عني أنا، الذي كانت تدرك تماما أن سعادته تكاد تعتمد كل الاعتماد على سعادة ابنتها وسعادتها هي؟.. إن ما بذلته لابنتها، إنما كنت أبذلته لنفسي.. أما ما فعلته من أجلها هي، فقد كان جديرا بالعرفان منها.. كان حريا بها أن تعترف بالفضل لابنتها، على الأقل، وأن تحبني إكراما لحبها لابنتها التي كانت تحبني!.. لقد انتشلتها من اليأس الكامل وكانت تستمد قوتها مني، وكانت مدينة لي بكل تلك المعارف التي عرفت كل المعرفة كيف تفيد منها!.. ولقد ظلت "تيريز" وقتنا طويلا تعولها بما كانت تكسبه من عملها، وأصبحت تغذيها من خبزي!.. كانت مدينة بكل هذا لابنتها دون أن تفعل لهذه الابنة شيئا!.. وكانت بناتها الأخريات - اللاتي منحتهن "تيريز" مهورا "دوطات"

استنفدت كل ما لها - أبعد من أن يساعدنها بل إنهن رحن يلمتهن مواردها ومواردي .. وتبينت أنه كان حرياً بالسيدة "لوفاسير" - في مثل هذا الموقف - أن تتطلع إلي كصديقها الأوحـد، وكأصدق من يزود عنها ويكفلها، وبدلاً من أن تكتف عني الأمور التي كانت من ذات شؤوني، وبدلاً من أن تتأمر ضدي في عقر داري، كان عليها أن تطلعتني - في إخلاص - على كل ما كان خليقاً بأن يهمني، إذا ما علمت به قبلي . فبأية عين كان بوسعي - إذن - أن أرى مسلكتها الغادر، الغامض؟ .. وما الذي كان ينبغي أن أظنه - فوق كل شيء - عن المشاعر التي تذرعت بها لدى ابنتها؟ .. أي جحود هائل كان جحودها عندما سعت إلى أن توسوس إليها؟

كل هذه الخواطر ألبت فؤادي - في النهاية - ضد هذه المرأة، حتى أنني لم أعد أنظر إليها دون احتقار .. على أنني لم أكف قط عن أن أعامل أم شريكة حياتي باحترام، وأن أبدي لها - في كل شيء - ما يبديه الابن من اعتبار وتقدير .. بيد أنني لم أكن - في الحق - لأحب أن أمكث معها وقتاً طويلاً، ولم يكن بوسعي أن أغضب نفسي على ما لا تحب!

وهنا أيضاً كانت إحدى تلك اللحظات القصيرة التي مرت بحياتي، والتي رأيت فيها السعادة جد دائية، دون أن أقوى على نيلها، ودون أن يكون لي ذنب في فوانها! .. ولو أن هذه المرأة كانت طيبة الشخصية لظل ثلثتنا سعداء حتى نهاية أعمارنا .. ولكان آخر من يبقى منا على قيد الحياة وحيداً جديراً بالثناء . ولكنكم سترون - بدلاً من ذلك - تطور الأمور، وستحكمون بانفسكم: أكان بوسعي أن أغير حال هذه المرأة؟

ذلك أن السيدة "لوفاسير" - حين رأت أنني وطلدت مكانتي في فؤاد ابنتها، وأنها فقدت الفتاة - راحت تناضل لاستعادتها، وبدلاً من أن تقترب مني عن طريقها أخذت تسعى إلى إيفار صدري عليها، وكان من الوسائل التي استخدمتها أن استدعت أشرطةها إلى معاونتها، وكنت قد رجوت "تيريز" بالآلا تستقدم أحداً إلى "ليرميلاج"، فوعدتني بذلك .. غير أنهم كانوا يستدعون في غيابي، ودون استشارتي، وكانت "تيريز" تحمل على أن تعد بالآلا تقول لي شيئاً، وما إن تمت الخطوة الأولى حتى غدا كل شيء سهلاً . فإن المرة إذا أخفى - مرة - عمن يحب أمراً، فإنه لا يلبث أن يكتف عنه كل شيء، دون تورع . فما كنت أذهب إلى "لاشيفريت" (١)، حتى كان "ليرميلاج" يزخر باناس يقبلون على الاستمتاع بالمقام هناك في استمرار، والام دائماً ما تكون قوية السلطان على الابنة التي فطرت على الطيبة .. ومع ذلك فإن العجز لم نستطع - برغم كل جهودها - أن نفرز "تيريز" على أن نأخذ بآرائها، أو أن تستدرجها إلى التآمر ضدي، أما عن نفسها فإنها كانت قد وطنت عزمها - دون انتكاس - على وضع خاص: فكانت تنظر - من ناحية - إلى ابنتها وإلى أنا كشخصين تستطيع أن تقيم في دارهما فحسب .. وكانت تنظر - من ناحية أخرى - إلى "ديدرو"، و"جرم"، و"دلباخ"، والسيدة "ديبيناي" كاشخاص يعدون بأمور كثيرة، ويمنحون بعض أشياء .. وما خطر لها قط أنها كانت تخطئ إذ تسير في ركاب زوجة ناظر عام للزراعة، و"بارون" . ولو أنني كنت دقيق النظر لرأيت - منذ ذلك الحين - أنني إنما كنت أغذي أفعى في أحضاني . بيد أن ثقتي العمياء - التي لم يغيرها شيء حتى الآن - كانت لا تدع لي سبيلاً إلى أن أحس أن هناك من يبغي الشر بمن هو جدير منه بالحب! .. وفي الوقت الذي كنت أرى فيه ألف دسيسة تحيط بي فلم أكن أملك أن أشكو إلا من جور أولئك الذين كنت أدعوهم أصدقاء لي، والذين كانوا يسمعون إلى أن يجعلوني - بالرغم مني - سعيداً على نسقهم . لا على النسق الذي كان يحلوا لي!

(١) "لاشيفريت" الضيعة التي كان بها قصر آل "ديبيناي"، والتي كان "ليرميلاج" في أقصى الغابات الملتصقة بها.

ومع أن "تيريز" أثبت أن تنحاز إلى أمها في تأمرها إلا أنها أبقت على سرها، وكان باعشها على ذلك خليفًا بالتقدير، ولن أقطع بما إذا كانت قد أحسنت أو أنها أساءت... وعندما يكون بين امرأتين سرفاتهما تشغفان بالثرثرة معا، وقد قرب هذا بين "تيريز" وأمها، وأصبح مسلك "تيريز" - إذ وزعت ولاءها - يشمرني - في بعض الأحيان - بالوحدة؛ لأنني لم أعد اعتبر ما كان بيننا نحن الثلاثة صحبة ومعاشرة، وفي تلك الفترة، اشتد شعوري بالخطأ الذي ارتكبته، في بداية رابطتنا، إذ إنني لم أستغل اللين الذي كان حبها يوحى به إليها لكي أزينها بمواهب ومعرفة كانت كفيلة بأن تقرب بيننا في معتكفنا، وبأن تملأ وقتها ووقتي على خير وجه، دون أن تدعنا نشعر بفوات الوقت في عزلتنا، وليس معنى هذا أن الحديث بيننا كان مجديا، ولا أنها أبدت بادرة تمتع عن ملل خلال نزهاتنا، وإنما معناه أنه لم يكن لدينا عدد من الآراء المشتركة يكفي لكي يكون موردا مدخرا... ولم يكن بوسعنا أن نتكلم بلا انقطاع عن مشروعاتنا، التي اقتصرت - منذ ذلك الحين - على لهونا، وكانت الأشياء المحيطة بنا توحى إلينا بخواطر كانت فوق إدراك "تيريز".

ولم تكن علاقة كعلاقتنا - دامت اثنتي عشرة سنة - بحاجة إلى كلام؛ إذ أصبح كل منا يعرف الآخر إلى درجة لم يعد يجد معها سبيلا إلى مزيد؛ ومن ثم فإن المورد الوحيد الذي تبقى للحديث بيننا، تمثل في الثرثرة غير المجدية، والنصائح، والنكات الركيكة... ولا يشعر المرء بقيمة العيش مع شخص يعرف كيف يفكر، قدر ما يشعر في العزلة، بوجه خاص. أما أنا، فلم أكن بحاجة إلى هذه الميزة كي أهنأ بصحبة "تيريز". بيد أن "تيريز" كانت بحاجة إليها، كي تجد دائما ما يسرها في صحبتي.

وكان أسوأ ما في الأمر أننا كنا مضطرين إلى أن نعقد لقاءاتنا الخاصة في الخفاء؛ إذ إن أمها أصبحت تضايقني وتضطرني إلى أن اتحين الفرص لتلك الخلوات... كنت مقيد الحرية في داري، بأوجز تعبير، وكان جو الحب يفسد جو الصداقة؛ ومن ثم فإننا كنا نمارس علاقة بدنية، دون أن نعيش في محبة قلبية!

وما إن خيل لي أنني لاحظت على "تيريز" أنها كانت تتعلل أحيانا للتهرب من النزهاة التي كنت أعرض عليها أن تشاركنيها على الأقدام حتى كفت عن أن اقترحها عليها، دون أن أطلعها على أي استياء من أنها لم تكن تلقى فيها من المسرة ما كنت ألقى؛ ذلك لأن السرور شيء لا يتوقف على الإرادة، ولقد كنت واثقا من ولاء قلبها، فكان في هذا الكفاية لي... وطالما كانت مسراتي هي عين مسراتها فإنني كنت أقبل على الاستمتاع بها معها... أما حين لا يكون الأمر كذلك فكنت أوتر رضاها على رضائي!

وهكذا قدر لي، وأنا نصف مخدوع بآمالي، وقد رحلت أمارس حياة تتفق ومزاجي، في بقعة منعزلة اخترتها لنفسني، ومع شخص كنت أعزه... وهكذا قدر لي أن أشعر - برغم كل هذا - بأنني وحيد... كان ما ينقصني يحول دون تذوقي لما أوتيت، فقد اعتدت - فيما يتعلق بالسعادة والسرور - أن أنال كل شيء، أو لا أنال شيئا على الإطلاق... ولسوف يتجلى - فيما بعد - السرفي أن هذا الإيضاح بدا لي لازما. أما الآن. فإنني أمضي في رواية قصتي.



كنت أؤمن بأنني امتلكت كنزا حقيقيا: تمثل في المخطوطات التي دفع بها إلي الكونت "دي سان بيير". فلما فحصتها، تبين أنها لم تكن أكثر من مجموعة من مؤلفات عمه - التي نشرت من قبل - وقد نقحت وصححت بيده، وأضيفت إليها بضع قطع صغيرة أخرى لم تر الضوء من قبل، وما كتبه في الموضوعات الخلقية تأكدت لي فكرة كانت قد أوحى لي بها بعض رسائل منه أطلعني عليها السيدة "دي كريكي"، ومؤداها أنه أوتي من العقل فوق ما كنت أتصور. بيد أنني حين تعمقت في فحص مؤلفاته السياسية وجدت أنها لم تكشف لي إلا عن آراء سطحية، ومشروعات نافعة ولكنها ليست عملية بفضل الرأي الذي لم يقدر للمؤلف أن يتخلص منه. . الرأي القائل بأن البشر يهتدون في أعمالهم بمعارفهم وليس بمواظفهم! . . كانت الفكرة العظيمة التي داخلته بصدد ألوان المعرفة الحديثة، جعلته يعتقد هذا المبدأ الزائف عن إمكان وصول العقل إلى درجة الكمال. . المبدأ الذي قامت عليه كل النظريات التي اقترحها، والمنبع الذي فاضت منه كل سفسطاته السياسية. إن هذا الرجل الفذ - الذي كان مفخرة عصره وجنسه - قد يكون الأوحده - منذ وجود العنصر البشري - الذي لم يشغف في حياته بغير العقل. ولكنه - مع ذلك - كان يتخبط من خطأ إلى آخر في آرائه ونظرياته؛ رغبة منه في أن يجعل كل الناس على نسقه، بدلا من أن يأخذهم على علاقتهم، وعلى ما هم عليه، وما سيطلون عليه! . ومن ثم فهو لم يكن يشقى إلا من أجل كائنات وهمية، وهو يخال أنه يعمل من أجل معاصريه!

وإذ تبين كل هذا الفيتني في حيرة من أمر القالب الذي أصوغ فيه عملي. فلو أنني أبقيت على آراء المؤلف لما أدبت شيئا نافعا، ولو أنني عدلتها كما كان ينبغي لجاء عملي منافيا للأمانة؛ إذ إن تسلمي المخطوطات كان إلزاما لي بأن أكون أميناً إزاء مؤلفها، وانتهيت أخيرا إلى الرأي الذي بدا لي أكثر ملاءمة ولياقة، وأعظم حكمة ونفعا. . وذلك بأن أعرض آراء المؤلف وآرائني كلا على حدة؛ وبذلك أخوض نظرياته، وأوضحها، وأوسع نطاقها دون أن أضرب بشيء لكي تنال حظها من التقدير! ومن ثم فقد كان لابد لعملي من أن يتألف من جزئين منفصلين تمام الانفصال: أحدهما: يخص لشرح مختلف غايات المؤلف على النسق الذي ذكرته. . أما الثاني: - الذي لم يكن ليظهر إلا بعد أن يحدث الأول مفعوله - فكان عليّ أن أعرض فيه حكمي على تلك الغايات ذاتها. . مما كان خليقا بأن يبينها - في بعض الأوقات - كفصيده من نظم شخص ميفض للبشرية! . .

وكان لابد من أن ينوج هذا الكتاب كله بإيراد حياة المؤلف، وكنت قد جمعت لذلك كمية لا بأس بها من المواد التي رحت أزين لنفسني أنني لن أشوهها إذ استخدمها، وكنت قد التقيت بالآب "دي سان - بيير" مرتين أو ثلاثا - في شبخوخته - فكان التبجيل الذي أكنه لذكراه ضمنا يطمئنني إلى أن السيد الكونت لن يستانء من الطريقة التي عاملت بها قريبه في مجموعها!

وأجريت محاولتي الأولى على "السلام الدائم"، وهي الأبحاث التي تضمنتها المجموعة وأكثرها نصيبا من العناية. وقبل أن أستغرق في أفكارها تجلت فقرات كل ما كتبه الراهب - في هذا الموضوع البديع - بحذافيره، دون أن أضيق قط بما كان يتخلل حديثه من إطالة وتكرار، ولقد اطلع الرأي العام على هذه الرسالة المستخلصة؛ ومن ثم فليس لدي ما أقوله عنها. أما الحكم الذي ارتأيت بصدها فلم يطبع قط، ولست أدري إن كان سيطبع يوما ولكنه كتب في ذات الوقت الذي أعدت فيه كتابة الرسالة، وانتقلت من ذلك إلى نظرية "البوليسينودي"، أو تعدد المجالس. . وهي الرسالة التي وضعها في عهد الوصاية على العرش؛ لبروج للنظام الحكومي الذي اختاره الوصي، والذي أدى إلى إقصاء

الراهب "سان - بيير" عن المحفل الفرنسي "الأكاديمي فرانسييز" - من جراء بعض رسالات كتبت ضد النظام الحكومي السالف الذكر الذي أحرق الدوق "دو مين"، والكاردينال "دي بولينياك"، وقد أتممت هذا العمل كما فعلت بسابقه، سواء الرسالة أو الحكم ولكنني توقفت عند هذا الحد، دونما رغبة في مواصلة هذا المشروع، الذي ما كان ينبغي أن أبداه!

وكان الخاطر الذي أوحى إليّ بنبذه قد وافاني من تلقاء ذاته، وكان من المدهش أنه لم يخطر لي قبل ذلك. فإن معظم كتابات الراهب كانت في مجموعها - أو كانت تشتمل على - ملاحظات نافذة لبعض نواحي نظام الحكم في "فرنسا"، وكان بعضها من الصراحة والتحرر بدرجة يعتبر معها الراهب مجدودا لأنه أفلت من العقاب الذي كانت خليفة بأن تجرعه عليه، على أنه كان يعتبر في الأوساط الوزارية - طيلة الوقت - كواحد من المبشرين، أكثر منه كسياسي حقيقي؛ ومن ثم فقد ترك يقول كل ما كان يحلو له؛ لأنه كان من الجلي أن أحدا لم يكن يصغي إليه. غير أن الأمر كان يختلف إذا ما حملت أنا انتقاداته إلى الأسماع.. ولقد كان فرنسيا، ولم أكن أنا كذلك، فإذا كررت انتقاداته - ولو باسمه - لتعرضت لأن أسأل عنها سؤالا عسيرا صارما - ولكن دونما ظلم - عما كنت أقحم نفسي فيه.

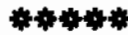
وقبل أن أوغل في ذلك فطنت - لحسن الحظ - إلى المآخذ الذي كنت أتيسحه ضد نفسي، وتراجعت مسرعا؛ فلقد كنت أدرك أنني - إذ أعيش وحيدا وسط رجال، ورجال كلهم أقوى مني - لن أقوى قط، ومهما تكن وسائلتي على أن أقي نفسي أي أذى يحلو لهم أن يوقعوه بي، ولم يكن ثمة في وسعي - إزاء ذلك - سوى أمر واحد: هو أن أجعل من المستحيل عليهم - إذا هم راموا إيذائي - أن يفعلوا ذلك ظلما، وهذا المبدأ - الذي جعلني أهجر الأب "سان بيير" - كثيرا ما حملني على أن أطرح عني كثيرا من المشروعات التي أعترض بها، والذين يبادرون دائما إلى أن يجعلوا من الخنة جريمة كانوا خليقين بأن يدهشوا، إذا عرفوا كل ما تجشمت في حياتي؛ لكي لا يقال لي - عن صدق - في أوقات محني: "لقد استحققتها تماما".

وتركني نبذ هذا العمل حائرا - بعض الوقت - بشأن ما أتولاه بعد، وكانت هذه الفترة من البطالة مضيقا لي؛ إذ جعلتني أحول أفكاري إلى نفسي، نظرا لعدم وجود ما يشغلني. فلم تعد لدي مشروعات للمستقبل تروق لخيالي، كما أنه لم يكن من الميسور أن أدبر شيئا من هذه المشروعات؛ لأن وضعي الراهب كان هو عين الوضع الذي جمع كل رغباتي.. ومن ثم فإنني لم أذكر في مشروعات جديدة، ومع ذلك فقد ظللت أشعر بفراغ، وما زاد هذه الحال قسوة أنني لم أكن أجد ما يفضلها؛ إذ كنت قد أوقفت أرق عواطفني على امرأة راقية لفؤادي، وقد بادلتني هذه العواطف؛ فعشت معها على سجيبي، وفق ما حلا لي، كما ينبغي أن يقال، ومع ذلك فإن ضيقا خفيا ظل يستولي على فؤادي لا يبرحه في قربها ولا في بعدها، وكنت أشعر - وأنا ضجيعها - أنها مازالت غير خالصة لي.. وكان مجرد التفكير في أنني لم أكن لها كل من لها يجعلها تبدو لي شيئا لا يذكر تقريبا!

وكان لي أصدقاء من الجنسين، ارتبطت بهم بأخلص الود، وبأكمل التقدير، وكنت مطمئنا إلى أنهم يكونون لي - مقابلا - أصدق المشاعر، فلم يخطر ببالي قط - ولو مرة واحدة - أن أرتاب في إخلاصهم ومع ذلك فقد كانت هذه الصداقة مبعث عذاب - لا نعيم لي - نظرا لعنادهم، بل ولإلحاحهم في معارضة كل ميولي وأهوائي وطريقة حياتي، إلى درجة أنه كان يكفيني أن أبدي رغبة في شيء لا يهم سوى وحدي، ولا يتوقف عليهم، حتى أراهم يتأزرون - في الحال - لإقناعي

بالتخلي عنه . هذا الإصرار على السيطرة على كل أهوائي الذي كان يزيد جورا أنني لم أكن بمنأى عن محاولة السيطرة على أهوائهم - فحسب بل إنني لم أعن قط بتعرف هذه الأهواء - لم يلبث أن أصبح مرهقا لي إلى درجة قاسية، حتى إنني لم أعد - في النهاية - أتسلم رسالة منهم إلا وشعرت وأنا أفضها - بشيء من الخوف كانت مطالعة الرسالة لا تلبث أن تبرره .. ولقد تبينت - بالنظر إلى أنهم كانوا يصغرونني سنا، وكانوا في أشد الحاجة إلى الدروس التي يخصوني بها - إن معاملتهم لي كانت أقرب ما تكون إلى معاملة الكبار لطفل صغير، وكنت أقول لهم: "أحبوني كما أحبكم، وماعدا ذلك، فلا تتدخلوا في شؤني مادمت لا أتدخل في شؤنكم، وهذا جل ما أسألكم إياه". وإذا كانوا قد أولوني أحد المطلبين فمن المؤكد أنه لم يكن المطلب الأخير!

ولقد كان لي مسكن ناء، في عزلة فائتة، وكنت سيد داري وربها، وكان بوسعي أن أعيش هناك على هواي، دون أن يفرض علي مخلوق سيطرته. ولكن هذه السكنى فرضت علي واجبا كان أداؤه يحلولي لولا أنه كان محتوما علي. فلم تكن حريتي بأسرها سوى أمر موقوف بل إنها كانت خاضعة لسلطان يفوق مجرد الأوامر .. وكنت مضطرا إلى قبول هذا الوضع باختياري .. لم أكن أملك صباحا واحدا أستطيع أن أقول فيه لنفسي، وأنا أستيقظ: "ماستغل هذا اليوم كما يحلولي". فإلى جانب أنني كنت رهنا لتدبيرات السيدة "ديسيناي" كنت رهنا كذلك لإزعاج أكبر .. إزعاج الجمهور والوافدين؛ إذ إن المسافة التي كانت تفصلني عن "باريس"، لم تحل دون أن يأتي إلي يوميا زرافات من المتبطلين، الذين كانوا لا يعرفون كيف يفيدون من وقتهم، اللهم إلا أن يبددوا وقتي دون أي اكتراث .. وكنت أفاجا بهجومهم دون رحمة، وأنا أبعد ما أكون عن توقعهم .. ونادرا ما رسمت خطة بديدة لنهاري دون أن أراها راسا على عقب؛ من جراء وصول وافد! وقصاري القول إنني - كنت في غمرة النعم التي كنت أشد ما أكون شوقا إليها - لم أحظ قط بالسرور الخالص .. فرحت أرتد وثبا إلى أيام صباي الصافية، وكنت أهتف لنفسي أحيانا، وأنا أتهدد: "أه .. لست هنا في "شارميت"! (١).



وأفضت بي ذكريات المراحل المتباينة من حياتي إلى التفكير فيما انتهيت إليه، ورأيتني وقد بلغت أعتاب الشيخوخة، فريسة لشروير اليمه، واعتقدت أنني كنت أقترب من نهاية حياتي العملية، دون أن أكون قد نعمت في أوجها بشيء من تلك المتع التي كان القلب يصبو إليها، ودون أن أكون قد أفسحت المجال لتلك المشاعر المتوقدة التي كنت أشعر بان قلبي كان يدخرها .. ودون أن أكون قد استمررت، بل دون أن أكون قد تذوقت - على الأقل - تلك اللذة المسكرة التي كنت أحس بها في أعماقي، في عفوانها، والتي كان افتقادها الهدف والمجال يجعلها دائما مكبوحه، عاجزة عن أن تنطلق بكل قواها اللهم إلا خلال زفرائي!

فكيف قدر لرجل حينه الطبيعة بروح واسعة الآفاق، وكانت الحياة لديه هي الحب .. كيف قدر لي أن أعجز - حتى ذلك الحين - عن العثور على صديق يكون لي كل نفسه .. صديق صادق، وأنا الذي كنت أشعر أنني خلقت لكي أكون كذلك ..!

كيف قدر لي، وقد أوتيت مشاعر متأججة، وقلبا مفعما بالحب، ألا أكتوي مرة واحدة - على الأقل - بلهب هذا الحب، من أجل شخص معين؟ .. ورأيت نفسي أقترب من أعتاب الشيخوخة،

(١) "شارميت": بقعة في الريف السويسري، قضى فيها "روسو" فترة التقاعد التي قدر له بعدها أن يفترق عن السيدة "دي فاران".

والحاجة إلى الحب تفري فؤادي، دون أن أملك قط لها إرضاء أو إشباعاً.. رأيتني أوشك أن أموت دون أن أكون قد نعمت بالحياة!

هذه الخواطر الحزينة - وإن كانت ناعمة مفعمة بالحنان - حملتني على أن أرتد بأفكاري إلى نفسي في حسرة لم تخل من لذة.. قد لاح لي أن القدر كان مدينا لي بشيء لم يستطع أن يمنحني. فلماذا خلقت إذن بميزات ومواهب طيبة إذا كان قد قدر لي أن أتركها إلى النهاية دون أن أستغلها؟.. كان الشعور بقيمة الميزات الكامنة في نفسي يوحى إليّ بالشعور بالغبن، ولكنه كان - في الوقت ذاته - يعوضني بما يخفف من وطأته، يحملني على أن أذرف الدمع الذي كنت أرتاح إلى أن أتركه ينساب!



وافتنى هذه الخواطر في أجمل فصول السنة.. في شهر حزيران (يونيو)، وفي البساتين الرطبة، بين شدو البلايل وخرير المداول.. لقد تكالبت جميعاً على دفعي إلى أحضان هذا النعيم المغري الذي خلقت له.. ولكنها دفعتني في حالة ذهنية قاسية، صعبة، تولدت عن المشاعر التي ظلت تتفاعل طويلاً في نفسي، فكانت كفيفة بأن تسلمني إلى هذا الوضع إلى الأبد.. ووجدتني - لشقوتي - أميل إلى تذكر مائدة العشاء في قصر "تون" (١)، والتقائي بتلكما الفتاتين الساحرتين (٢)، في فصل من العام كهذا الذي كنت فيه - في هذه المرحلة - وفي بقعة قريبة الشبه من هذه التي كنت فيها في الآونة التي أتحدث عنها.. ولقد اجتلبت لي هذه الذكرى - التي زادها فتنة ما كان فيها من ربح البراءة - ذكريات أخرى من نوعها، وما لبثت أن رأيت الأشخاص والأشياء التي أيقظت مشاعري في صباي تتجمع حولي: الأنسة "جالبي"، والأنسة "دي جرافينيريه"، والأنسة "دي بريسي"، والسيدة "بازيل"، والسيدة "دي لارنيج"، وتلميذاتي الحسان.. حتى "جوليتا" اللاذعة، التي لم يستطع قلبي أن يسلوها.. والفيتني محوطاً بسرب من الحوريات - من معارفي القديمات - اللائي لم يكن الشوق المتأجج نحوهن بالشعور الجديد لدي.. وفار دمي وسخن، ودار رأسي بالرغم من شعري الذي دب إليه الشيب، وإذا بالمواطن الجنيفي الجاد الوقور، وإذا بـ "جان چاك" المتكشف الذي أشرف على الخامسة والأربعين من عمره يرتد فجأة هائماً وراء الحب.. ومع أن النشوة التي تملكنتني كانت مبالغتها وجامحة إلا أنها كانت قوية وثابتة، فلم يكن من سبيل إلى شفائي منها إلا عن طريق نوبة الشفاء الفظيعة - غير المرتقبة - التي أسلمتني إليها هذه النشوة ذاتها!

بيد أن هذه النشوة لم تصل - برغم ما ذهبت إليه - إلى الحد الذي يجعلني أنسى سني ومركزتي، فأخذ نفسي بان لدي القدرة على أن أوحى الحب إلى الحسان، مرة أخرى.. أو إلى الدرجة التي تجعلني أحاول أن أفرج عن هذا اللهب المتأجج، وإن كان غير مشمر، اللهب الذي كنت أشعر - منذ طفولتي - بقلبي يحترق فيه عبثاً.. بل إنني ما كنت أمل في ذلك، ولا كنت أشتهيه، فقد أدركت أن زمن الهوى قد ولى، وكنت من الشعور بالسخرية التي تنهال على العشاق إذا ما غرؤوا في كبرهم بحيث إنني كنت أربأ بنفسي أن أتعرض لها.. وما كنت بالرجل الذي ينقلب مغروراً معتداً بنفسه في سني التداعي، بعد أن كنت مقسطاً في سني ازدهاري.. ثم إنني - كمحب للسلام - كنت أخشى العواصف المنزلية، وكنت أحب "تيسريز" في إخلاص بالغ يجعلني أربأ بأن أعرضها للوعة رؤيتي منساقاً إلى سواها بمشاعر أشد احتداماً من تلك التي كانت تشيرها في نفسي؟

فما الذي تراني فعلت في هذه المناسبة؟

لابد أن يكون قارئ قد حدس تصرفي لو أنه قد تتبعني - حتى الآن - في شيء من الانتباه! ذلك أن استحالة اقتناص المخلوقات الحقيقية طوحت بي إلى عالم الأوهام والخيالات.. وعندما عز عليّ أن أرى في الوجود من هم أهل لصبابتي، وحتى أغذي هذه الصبابة من عالم مثالي، سرعان ما عمّر خيالي الخصب بأناس ممن يحيل إليهم فؤادي.. أبدا ما لقي هذا المنيع مني مثل هذا الترحيب، وأبدا ما كان يوما مثمرا إلى هذا الحد.. ورحت في نوبات الهيام أسكر بجرجعات دسمة من أبهج المشاعر التي دبت يوما في قلب إنسان!

وتناسيت العنصر البشري تماما؛ فجعلت لنفسي مجتمعات من مخلوقات اتسمت بالكمال.. مخلوقات سماوية في فضائلها وجمالها.. أصدقاء أمناء، موفوري الحنان والوفاء، لا سبيل إلى مثلهم في العالم الدنيوي، وشغفت بالتحليق في هذه الآفاق بين الأطياف الفاتنة التي كانت تحف بي، حتى إنني أصبحت أنفق الساعات بل الأيام في ذلك - دون حساب - وأنسى كل شيء آخر؛ فما إن ألتهم لقمة من طعام في عجلة حتى أتحرق لهفة إلى الفرار، لكي أهرع إلى الأحراش ثانية. فإذا قدر لي - وقد تأهبت للانتقال إلى عالمي السحري - أن أرى نعسا من أهل الأرض يفيد فإنني كنت أعجز عن أن أتلف أو أن أكتم غيظي، وكنت - إذ أفقد سيطرتي على نفسي - أستقبلهم في جفاء يكاد أن يوصف بالعنف غير المهذب، ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة اشتهازي بأنني ميفض للبشر، في حين أنه كان خليقا بأن يكسبني شهرة مناقضة لذلك لو أتيج للناس أن يقرءوا قلبي حق القراءة!



وفي أوج نشوتي الكبرى، وجددتني أجذب كما تشد الطائفة الورقية بالحيط؛ لارد إلى مكاني الطبيعي بفضل نوبة حادة من نوبات دائي. فاستخدمت العلاج الأوحده الذي كان يسري عني ألا وهو المجسمات (١)، الأمر الذي أوقف غرامياتي الملائكية.. ذلك لأنه إلى جانب أن المرء لا يميل إلى الهوى وهو يعاني الألم فإن خيالي - الذي اعتاد أن يذكر في الريف وتحت الأشجار - يذوي ويحتضر داخل الحجرات، وتحت ألواح السقوف الخشبية، ولكم كنت أتمسك إذ أذكر أن ليس لجنيات الغاب (٢) وجود، فلا مرء في أنني كنت خليقا بأن أوقف عليها عواطفني!

وضاعف من أساي أن حدثت في تلك الفترة ذاتها متاعب منزلية أخرى: فلقد كانت السيدة "لوفامير" ماضية في بذل قصارى جهدها لتؤلب ابنتها عليّ في الوقت الذي كانت تؤثرني فيه بأبدع المجاملات.. ولقد تلقيت رسائل من جيراني القدامى أثبتت فيها بأن العجوز الداهية كانت قد تورطت - دون علمي - في ديون عديدة باسم "تيريز" وبعلمها.. ولكن هذه لم تذكر لي شيئا عنها ولم أستا لأضطري إلى دفع هذه الديون بقدر ما استأت لأنها ظلت مكتومة عني!.. كيف تسنى لمن لم أكنتم عنها سرا أن تخفي عني مثل هذا السر؟.. وهل للمرء أن يخفي أمرا عن أولئك الذين يحبه؟.. وكانت عصبة "دولباخ" قد بدأت تخشى جدبا - إذ رأتني لا أزور "باريس" - أن أكون قد استطيت الإقامة في الريف، وأنني قد أكون من الحماقه - في رأيهم - بحيث أبقي هناك؛ ومن ثم بدأت المشاغبات التي أريد بها حملي - بأسلوب غير مباشر - على العودة إلى المدينة، وبدأ "ديدرو" - الذي لم يشأ أن يكشف عن دوره سريعا - بأن صرف عني "ديليسير" الذي كنت قد عرفت به،

(١) روى "روسو" حديث مرضه وعلاجه (٢) "الدرياد".. جنات الغاب، فقد ورد في أساطير الإغريق ذكر غابة كانت تنقص كل شجرة فيها حورية، أو جنية فاتنة.

والذي تلقى ما شاء "ديدرو" أن يوحى به إليه من إعازات، فنقلها إليّ دون أن يدري الغرض الحقيقي الذي كان مقصودا بها!

ولاح كأنما أجمع كل شيء على انتزاعي من أوهامي الناعمة، الطائشة!.. وقبل أن أفيق من نوبة المرض تلقيت نسخة من قصيدة خراب "برشلونة" التي ظننت أنها أرسلت إليّ من لدن المؤلف (١)، فالزمني هذا بأن أكتب إليه، وبأن أتحدث عن قصيدته.. وهذا ما فعلته في خطاب طبع بعد ذلك دون أن استشار في أمر نشره، كما سيرد فيما يلي:

فلقد ذهلت؛ إذ رأيت هذا المسكين يتخبط في حيرته - كما ينبغي أن يقال - إزاء الثروة والمجد، فيحمل في مرارة على محن الحياة وتعاماتها ويخلص إلى أن كل ما في الحياة شر وسوء؛ فتولتني رغبة رعناء في أن أردّه إلى رشده، وأن أثبت له أن كل ما في الحياة خير وطيب. فالواقع أن "فولتير" - وإن بدا دائما مؤمنا بالله - لم يؤمن قط بغير الشيطان!.. إذ إن إلهه المزعوم لم يكن سوى كائن شرير، لا يجد لذة - في رأي "فولتير" - إلا في الأذى، وإذا كان سخف هذا الرأي واضحا إلا أنه مثير لصدوره - بوجه خاص - من رجل أثقل بالخيريات من كل نوع، فإذا به يسعى - من أحضان هنائه - لبث القنوط في نفوس أقرانه، بأن يصور لهم كل النكبات - التي كان هو بمنجى عنها - في صورة بشعة قاسية!.. ولما كنت أحق منه بأن أعدد مساوي الحياة الإنسانية وأن أزنّها فقد استعرضتها في غير تحيز، وأثبتت له أن الحكمة الإلهية براء من كل هذه المساوي، وأن هذه إنما تدّين بأصولها إلى سوء استخدام الإنسان لمواهبه، أكثر منها إلى الطبيعة ذاتها، ولقد عاملته في هذا الخطاب بكل اعتبار، وكل مراعاة، وكل تلطّف.. بل إنني لاذهب إلى القول بأنني عاملته بكل احترام ممكن، ولما كنت أعرف مدى سهولة احتياج حبه لنفسه فإنني لم أبعث بهذه الرسالة إليه شخصيا، وإنما أرسلتها إلى الدكتور "تروانشان" - طبيبه وصديقه - وخولته مطلق السلطان في أن يسلمها إليه أو أن يكتسبها عنه، وفقا لما يراه مناسباً.. وقدم "تروانشان" الرسالة، فرد عليّ "فولتير" ببضعة سطور أبدى فيها أنه كان مريضا، وساهرا على مريض؛ ومن ثم فإنه رأى أن يرجئ رده إلى وقت آخر.. ولم يقل شيئا في الموضوع؛ وإذ أرسل لي "تروانشان" هذا الخطاب أرفقه بآخر منه، أعرب فيه عن قلة تقدير للشخص الذي عهد به إليه!

ولم أقدم على نشر هذين الخطابين بل ولا على إطلاع أحد عليهما، فما أحببت قط عرض مثل هذه الأنواع من الانتصارات الصغيرة، بيد أن أصولها موجودة في أضيائي (الملف "أ" رقم ٢٠ و ٢١)، ولقد نشر "فولتير" - بعد ذلك - الرد الذي وعدني به، والذي لم يرسله إليّ قط. وما هذا الرد سوى قصة "كانديد"، التي لا أملك أن أتحدث عنها؛ لأنني لم أقرأها!



كانت كل هذه الشواغل خليقة بأن تبرئني تماما من غرامياتي.. ولعلها كانت وسيلة أرسلتها السماء إليّ لتحول دون معقباتها المشؤومة. ولكن نجمي المنحوس كان في صعود، فما إن شرعت في الخروج ثانية - بعد شفائي - حتى عاد رأسي وقلبي وقدمي إلى عين الدروب السالفة وأقول "عين" في نطاق ضيق، وإذا إن آرائي كانت - في هذه المرة - أقل سموا وجموحا، فظلت على الأرض. ولكنها أحسنت اختيار نخبة من كل ما أمكنها العثور عليه من الأشياء المستحبة، فلم تكده هذه النخبة تقل في وهميتها عن العالم الوهمي الذي هجرته!

فلقد رسمت لنفسى الحب، والصدقة - وهما معبودا قلبي - في أبداع الأشكال الخلاية، وطاب لي أن أزينهما بكل ما كنت أعجب به دائما من مفاتن الجنس، ولقد ملت إلى تصورهما صديقتين، وليسا صديقين؛ لأن مثل هذا المثال من الصدقة - وإن كان نادرا - إلا أنه أكثر ملائمة ولطفا في الوقت ذاته! ..

وخلعت عليهما شخصيتين متجانستين وإن كانتا مختلفتين، ووجهين ليسا بالغى الكمال ولكنهما يلائمان مزاجي، يشعان رحمة وإحساسا، وجعلت إحداهما سمراء، والأخرى ناصعة البياض.. إحداهما كثيرة الحركة والمرح، والأخرى رقيقة هادئة.. إحداهما عاقلة حكيمة، والأخرى ضعيفة ولكنه ضعف يهفو بالافسدة إلى الدرجة التي تمكن الفضيلة من الكسب بفضلها.. ووهبت إحداهما حبيبا كانت الأخرى صديقتها الحنون.. بل وأكثر من ذلك. ولكنني لم أذع مجالا لتزاحم، أو خصام، أو غيره؛ لأنه من العسير عليّ أن أتصور المشاعر المؤلمة، ولم أشأ أن أشوه الصورة الفاتنة بشيء يحط من قدر الطبيعة؛ وإذ شغفت بالنموذجين الفاتنين تمثلتني - قدر الإمكان - العاشق والصديق.. بيد أنني جعلته مليحا وشابا، وخلعت عليه - فوق ذلك ما كنت أراه في نفسي من فضائل وعيوب. ولكي أضع هاتين الشخصيتين في وسط يلائمهما رحت أستعرض - تباعا - أجمل البقاع التي رأيتهما خلال أسفاري. ولكنني لم أهتم إلى إحراش ذات بهجة كافية، ولا بلد كاف لتحريك العواطف، وفق ما كان يروق لي، ولقد كانت وديان "تيسالي" خليقة بأن ترضيني لو أنني كنت قد رأيتهما. ولكن خيالي كان قد تعب من الابتكار، فرغب في بقعة حقيقية تصلح لأن تكون أساسا، ولأن توحى إلي بصورة عن حقيقة أولئك الذين كنت أزمع أن أسكنهم هذا المكان، ولقد فكرت طويلا في جزر "بوروسا" (١) التي كان منظرها الساحر قد أطربني ولكنني وجدت فيها من الوشي والزينة المصطنعة أكثر مما كنت أبغي لشخصياتي، ومع ذلك فقد كان لابد من بحيرة؛ فأنتهيت إلى اختيار تلك التي لم يكن قلبي يكف عن التحوم حولها، واستقررت على ذلك الجزء من الشاطئ الذي كانت أمانتي قد أقامت عليه مقامي منذ أمد بعيد، في السعادة الوهمية التي جعلتني حظي أقصر عليها.. فلقد ظل مسقط رأس "ماما" المسكينة ينطوي على سحر خاص بالنسبة لي، وأدى تباين المواقع، وتنوعها، وروعة، وجلال المنظر في مجموعها.. هذه الصفات التي تبهر الحواس، وتهز القلب، وتسمو بالروح، أدت إلى أن أقر الرأي، وأن أوطد مقام شخصياتي الشابة الحبيبة في "فيفاي".. كان هذا جماع ما تصورته إذ ذاك، أما الباقي فلم يضاف إليه إلا فيما بعد.

ولقد قصرت نفسي على هذا المشروع المبهم المعالم زمنا طويلا؛ لأنه كان كافيا لأن يملأ خيالي بأطياف مستحبة، وفؤادي بعواطف كان يحب أن يتغذى عليها، ولم تلبث هذه التصورات أن اكتسبت - بحكم تكرار ترددتها عليّ - قدرا كبيرا من الثبات؛ فوطدت نفسها في عقلي تحت شكل محدد؛ وإذ ذاك خطر لي أن أعبر على الورق عن بعض المواقف التي كانت توحى إلي بها، فاسترجعت كل مشاعر شبابي؛ لاتيح المجال - إلى مدى معين - للفرجة في الحب.. تلك الرغبة التي لم أستطع قط أن أشبعها، والتي كنت أشعر بأنها تلتهمني!

والقبت على الورق - في البداية - بضعة حروف متناثرة دون تسلسل أو ترابط، وكنت كلما حاولت أن أضم بعضها إلى بعض أجد نفسي في حيرة شديدة، الأمر الذي لا يكاد أن يبدو معقولا، وإن كان هو الحقيقة عينها - برغم ذلك - هو أن الجزءين الأولين كتبنا بأسرها - تقريبا - بهذه الطريقة دون أن يكون لدي خطة مكتملة التكوين بل ودون أن أتوقع أن أنساق يوما إلى أن أجعل

منهما عملاً أدبياً منسقاً؛ ومن ثم فسوف يرى أن هذين الجزئين المؤلفين - بعد وقت طويل - من مواد لم تكن مهيأة للمكان الذي وضعه فيه، مليشان بحشو من كلام مسهب ولكنه مقل في معناه، مما لا يوجد في الأجزاء الأخرى.



وفي عنفوان تخيلاتني زارتنى السيدة "دوديتسو"، فكانت هذه أول زيارة تؤديها لي في حياتها، ولكنها - لسوء الطالع - لم تكن الأخيرة، كما سيبدو فيما بعد.. وكانت الكونتيسة "دوديتسو" ابنة المرحوم السيد "دي بليجاره"، الناظر العام للزراعة، وأخت السيدة "ديسيناي" والسيد "دي لاليف" و"ديلا بريس"، اللذين صاروا من مقدمي السفراء (١)، ولقد ذكرت من قبل كيف تعرفت إليها قبل زواجها. ولكنني لم أرها بعده إلا في الحفلات التي كانت تقام في "لاشيفريت"، وفي ضيافة أخت زوجها، السيدة "ديسيناي"، وإذ قدر لي أن أقضي عدة أيام معها، سواء في "لاشيفريت" أو في "ايبسيناي"، فإنني لم أجدها مفرطة اللطف فحسب بل إنني خلت أنني رأيت منها ميلاً نحوى، وكانت جد مشغوفة بالترريض معي على الأقدام، وقد كان كل منا قديرا على المشي، ولم يكن الحديث يفتر بيننا. بيد أنني لم أرها قط في "باريس" بالرغم من أنها دعتنني بل وألحقت عليّ في ذلك، ولقد زاد من اهتمامي بها علاقاتها مع السيد "دي سان - لامبير"، الذي كانت عرى الصداقة قد بدأت تتوثق بيني وبينه.. ومن أجل إبلاغي أبناء هذا الصديق كان مجيئها إلى "ليرميتاج".

ولقد بدت هذه الزيارة - إلى حد ما - كفاتحة قصة غرامية؛ ذلك لأنها ضللت الطريق - أثناء قدومها - إذ انحرف سائق عربتها عن الطريق عن منحني فيها، وأراد أن يقتضب المسافة بأن يسعى في خط مستقيم بين الطاحون القائمة في "كليرفو" و"ليرميتاج". ولكن العربة غاصت في الوحل في قاع الوادي الصغير؛ فقررت السيدة أن تبرحها وأن تقطع ما بقي من الرحلة على قدميها. ولكن حذاءيها الرقيقين لم يلبس أن ابتلا، ثم غاصت هي في الوحل، ولقي خدمها أشد العناء في تخليصها.. وقد ر لها أن تصل أخيراً إلى "ليرميتاج"، وقد ارتدت حذاءي رجل، وسط رنين الضحكات التي مزجت بها ضحكاتي حين شهدت منظر الوصول!.. وكانت السيدة مضطرة إلى أن تغير جميع ثيابها. وقد تولت "تيريز" هذه المهمة بينما أقنعتها أنا بأن تطرح عنها كبرياءها، وأن تشاركنا وجبة "تصبيرة" ريفية، لم تلبث أن استمراتها.

وكان الوقت قد فات، فلم تمكث سوى برهة وجيزة. بيد أن اللقاء كان مرحاً، وقد راق لها، وبدا عليها الميل إلى أن تأتي مرة أخرى. ومع ذلك فإنها لم تحقق ذلك إلا في العام التالي. ولكن، وأسفاه.. إن هذا الإرجاء لم يعصمني في شيء!



وقضيت خريف تلك السنة في عمل لا يخطر ببال أحد.. ذلك هو حراسة فواكه السيد "ديسيناي". فلقد كان خزان المياه التي تروي بساتين "لاشيفريت" يقوم عند مبنى "ليرميتاج"، وكانت ثمة حديقة محوطة بأسوار حجرية، وقد زرعت فيها أشجار متباينة، كانت تمد السيد "ديسيناي" بفواكه تفوق في كميتها إنتاج الحديقة الملحقة بمطابخ "لاشيفريت" برغم أن ثلاثة أرباعها

(١) مقدمو السفراء، كانوا موظفين يتولون تقديم السفراء والأمراء الأجانب عند زيارتهم الملك أو رئيس الدولة.

كان يسرق؛ ولكي لا أكون ضيفا عديم النفع، فإنني تكفلت بشؤون الحديقة، وبالإشراف على البستاني، وسار كل شيء على ما يرام، حتى حان موسم الفاكهة، فإذا بها تختفي تباعا - كلما نضجت - دون أن أدري ما كان يحل بها، وأكد لي البستاني أن جرذان الحقل التهمت جميعا؛ ومن ثم فقد أعلنت الحرب على الجرذان حتى قضيت على كثير منها. ومع ذلك فقد ظلت الفاكهة في اختفاء، واحكمت الرقابة حتى اكتشفت أخيرا أن البستاني نفسه كان الجرذ الأكبر.. فلقد كان يقيم في "مونتورنسي"، وكان يفد مع زوجته وأولاده في جنح الليل، فيحملون الكميات التي يكون قد أعدها - في النهار - من الفاكهة؛ ليعرضها الرجل للبيع في سوق "باريس" جهارا، وكأنه أوتي بستانا ملك يمينه.. وكان هذا التمس الذي أغرقته بخيراتي، والذي كست "تيسريز" أولاده، والذي أصبحت أعول أباه تقريبا، بعد أن كان يتسول.. هذا التمس كان يسرقنا نحن أيضا، بسهولة وقحة؛ وإذا لم يكن بيننا نحن الثلاثة من أوتي بقطة كافية لأن توقفه عند حده.. ولقد استطاع - في ليلة واحدة - أن يفرغ قبو مسكني؛ فإذا بي لا أعثر فيه على شيء في الصباح التالي!

ولقد كنت احتمل أعماله، عندما كان يبدو أنه يقصر نشاطه علي وحدي.. أما وقد رغبت في تحمل مسؤولية الفاكهة فإنني اضطررت إلى أن أفصح السارق، ورجعتي السيدة "ديسيناي" أن أنقذه أجره، وأسرحه من الخدمة، وأبحث عن سواه. ففعلت.. ولما راح هذا الشقي يحوم حول "ليرميتاج" كل ليلة، متسلحا بقضيب حديدي ضخيم، كان يبدو كالهراوة، ومتبوعا بأندال آخرين من صنفه فقد رايت لكي أطمئن "الدادتين" (١) اللتين أفرعهما هذا الرجل إلى أقصى حد أن ادعو خليفته لأن ينام في "ليرميتاج" كل ليلة. ولكن هذا لم يهدئ من روعهما؛ فطلبت من السيدة "ديسيناي" بندقية احتفظت بها في غرفة البستاني، مع تنبيهه إلى عدم استعمالها إلا عند الحاجة - عندما تبدر محاولة لاقتحام الباب أو تسور الحديقة - وألا يطلق في هذه الحال سوى البارود مجرد إرهاب اللصوص، ولا مراء في أن هذا كان أقل احتياط يتخذ من أجل السلامة العامة لرجل معلول، يقضي الشتاء وسط الغابات وحيدا مع امرأتين رعديتين، وحصلت أخيرا على كلب صغير ليستخدم في الحراسة.

وإذا جاء "ديليبير" لزيارتي في تلك الفترة، فقد رويت له قصتي، وضحكت معه من استعدادي العسكري. فلما عاد إلى "باريس" رغب في أن يضحك "ديدرو" بدوره.. ومن هنا علمت عصبية "دولباخ" أنني كنت أعتمز جادا أن أقضي الشتاء في "ليرميتاج"، فأسخطهم هذا الإصرار على عزمي؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يتصوروه وعملوا - ريثما يرسمون بعض الحيل لكي يعكروا إقامتي (٢) - إلي الوقوعة، عن طريق "ديدرو"، بيني وبين "ديليبير"، الذي اعتبر احتياطيا - في البداية - مجرد امرطبيعي، ولكنه لم يلبث أن انتهى إلى أنه أمر مناقض لمبادئ، وأسوأ من أن يستحق السخرية فحسب.. وصارحتني بذلك في خطابات أغرقني فيها بنكات لاذعة، بلغ من لاذعها أنها كانت تمس كرامتي لو أن مزاجي كان ميالا إلى هذا الاتجاه، ولكنني كنت مغرقا - إذ ذاك - في المشاعر الرقيقة، اللطيفة، فلم أشك في أي شيء آخر، واعتبرت سخرياته اللاذعة مجرد مداعبات للإضحاك، كما اعتبرت "ديليبير" مجرد ماجن، في حين أن أي امرئ غيري كان خليقا بأن يعتبره مخبولا! (٣).

(١) "الدادتان" هو الاسم الذي أطلقه أصدقاء "روسو" على "تيريز" وأنها. (٢) عقب "روسو" على هذه النقطة - بعد الفراغ من كتابة اعترافاته - بقوله: "أنني - في خلطي هذه - أعجب من غيبيتي إذ لم أبصر - عندما كنت أكتب هذه السطور - أن الاستياء الذي استشعرته عصبية "دولباخ" - حين تبينت أنني كنت مزعم الإقامة في الريف - لم يكن راجعا إلا إلى أنهم لم يعودوا يجدون السيدة "لوفاسير" في متناول يدهم؛ ليرشد هم في خطوتهم بأن تحدد لهم الأماكن والمواعيد، وهذه الفكرة - التي لم تتروني إلا أخيرا جدا - توضح تماما غرابة سلوكهم الذي يبدو غير واضح تحت أية افتراضات أخرى.. ولم يوجد هذا التعقيب في أية طبعة سابقة على سنة ١٨٠١م ينم عن أن هذه الفكرة واثت عندما لم تعد النسخة الثانية من المخطوطات في حوزته. (٣) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة: "ومن ثم فإن الذين حرروا، أضاعوا جهدهم سدى في هذه المناسبة. فقضيت الشتاء في هدوء بالغ".

وبفضل اليقظة والعناية، أفلحت تماما في حماية الحديقة التي درت ثلاثة أمثال ما درته من الفاكهة في العام السابق، برغم أن المحصول كان فاشلا - تقريبا - في هذه السنة. بل إنني رافقت الشحنات التي أرسلتها إلى "لاشيفريت" و"ايسيتاي"، وحملت بنفسى بعض السلال، وإنني لأذكر أنني و"العمة" (١) حملنا في إحدى المرات سلة بلغ من ثقلها أننا اضطررنا - لكي نتفادى التداعى تحت وطأة الحمل - إلى أن نستريح كل اثنتي عشرة خطوة.. ووصلنا - في النهاية - مبللين بالعرق!

سنة ١٧٥٧

عندما شرع فصل الطقس السيئ في إلزامي مسكني وددت أن أعاود مهامى التي تؤدي في البيت، ولكنني لم أجد إلى ذلك سبيلا؛ لأنني لم أعد أرى في كل مكان سوى الصديقتين الفاتنتين (٢)، وصديقهما، وما يحيط بهما، والبلد الذي يقيمان فيه، والأشياء التي خلقها خيالي أو هذبها من أجلهما، ولم أعد ملك نفسي لحظة واحدة، فإن هذا الحلم لم يعد يفارقني، وبعد جهود كثيرة - غير مجدية - لإقصاء هذه الرؤى الخيالية عني وجددتني أنساق لغوايتها، فلا أشغل منذ ذلك الحين إلا بمحاولة توفير شيء من النظام وشيء من التنايع فيها - لكي أجعل منها نوعا من القصص الخيالي.

وكان أعظم ما حيرني هو ذلك الخجل الذي ساورني؛ إذ شعرت بأنني أناقض نفسي صراحة وفي جرة. أفبعد المبادئ الصارمة التي أرسيتها بكل هذا الضجيج، وبعد الآراء التقشفية التي رحت أبشر بها بكل هذه القوة، وبعد الحملات اللاذعة التي حملتها على الكتب الناعمة التي كانت تفوح بالحُب والميوعة.. أفبعد كل هذا يكون ثمة ما هو أبعد عن الارتقاب، وأدعى للدهشة والاستنكار من أن أرى فجأة وقد انضويت - بمحض إرادتي - بين مؤلفي تلك الكتب التي انتقدتها بكل هذه القسوة!.. لقد أحسست بهذا التذبذب في عنفوان قوته، فرحت ألوم نفسي، وأستحيي منها، واسخط عليها.. ولكن كل هذا لم يكن كافيا لأن يردني إلى حجابي.

وكان عليّ - في انصياعي التام - أن أخوض كل المخاطر، وأن أتعبا لمواجهة ما يقال.. وأن أعد ذهني لكل شيء اللهم إلا أن أتعرض لأن أقرر - فيما بعد - ما إذا كنت أنشر كتابي على الناس أو لا أنشره؛ إذ إنني لم أكن أعتقد أنني قد أنشره!

وإذ انتهيت إلى هذا الرأي؛ ألقيت بكل نفسي في غمرة تصوراتي، وبفضل تقليبها في ذهني مرارا رسمت في النهاية مشروع الخطة التي شاهد الرأي العام الكتاب يخرجها بمقتضاها، ومن المحقق أن هذا كان خيرا ما يستمد من نزواتي.. فإن حب الخير - الذي لم يغادر قلبي البتة - حول هذه النزوات تحويلا طبيعيا نحو أهداف نافعة، كان من الممكن أن تغدو مشمرة وذات نفع خلقي. لقد كانت مناظري المستوحاة من الحب خليقة بأن تفقد بهاءها لو أعوزتها صبغة البراءة اللطيفة. إن الفتاة الضعيفة تكون موضع إشفاق، قد يجعله الحب مادة مشوقة لا تفتر متعتها في كثير من الأحيان. ولكن من ذا الذي يطيق - دون استنكار - منظر الآداب والأخلاق في إضار حديث؟.. أي شيء ادعى للتقزز من غرور الزوجة الخائنة، التي تدوس كل واجباتها تحت قدميها جهارا، ثم تزعم - برغم ذلك - أن زوجها خليق بأن يتقبل في عرفان عميق ما تمنحه من صنيع؛ إذ تنكركم فلا تدع نفسها تباعث وهي تمارس الحيانة؟!.. ليس للمخلوقات المثالية الكاملة وجود؛ ومن ثم فإن الدروس التي تروحي بها جد بعيدة عن أن نستسيغها. أما إذا قدر لشابة، منحتها الطبيعة قلبا يزخر بالشرف بقدر ما هو مفعم

(١) العمة: لقب اعتمد "روسو" أن يطلقه على "تيريز". (٢) يقصد الشخصيتين اللتين ابتدعهما خياله.

بالحنان، أن تدع الحب يغلبها وهي فتاة عذراء، ثم تجد من نفسها القوة على أن تهزمه بدورها - وقد غدت امرأة ثيبا - لتغدو عفيفة من جديد... إن الذي يقول لك إن هذه الصورة في مجموعها فاضحة، وغير مفيدة لكاذب ومنافق، فلا تصغ إليه، مهما يكن!

وكان لذي إلى جانب الأخلاق والأمانة الزوجية - اللذين يرتبطان ارتباطا جوهريا بكل نظام اجتماعي - هدف أعمق وأكثر تواريا.. ذلك هو التوافق، والوثام العام.. وهو هدف أعظم من سابقه، وربما كان - في حد ذاته - أكثر قيمة وأهمية.. بل إنه كان كذلك في تلك الآونة حقا.. ولم تكن العاصفة التي أثارها "الموسوعة" (١) قد خمدت بل إنها كانت - في هذه الفترة - في أوج احتدامها. فقد انطلق كل من الفريقين (٢) بهاجم الآخر في سمار جامع، وكأنهما قطيعان من ذئاب مسعورة، ناهب كل منهما لأن يمزق الآخر في هياجه.. لا فريقان من مسيحيين (٣) وفلاسفة تواقين لتبادل المعرفة والإنفاع، كي يهدي كل منهما الآخر إلى طريق الحقيقة!.. بل إنه لمن الجائز أن يقال: إن كلا من الفريقين لم يكن ينقصه سوى قادة عاملين ذوي شهرة؛ كي ينقلب النزاع إلى حرب أهلية.. ويعلم الله ما كان يترتب على حرب أهلية دينية، كانت أقسى ألوان التعصب تكمن في قرارة كل من الجانبين!



ولما كنت بفطرتي عدوا لكل تحزب؛ فإنني أفضيت إلى كل من الجانبين بالحقائق المبررة التي أبوا أن ينصتوا إليها، وأنظت بنفسي مهمة أخرى تراءت لي - في سذاجتي - جديرة بالإعجاب. تلك هي أن أخفف من العداء المتبادل بين الفريقين، وأن أقوض أباطيلهما ونعراتهما، وأبين لكل كفاءة - الآخر وفضائله وجدارته بالتقدير العام وباحترام الجنس البشري بأسره (٤) ولقد ظفر هذا المشروع غير المعقول - الذي قادني إلى عين الخطأ الذي أخذته على الأب "سان بيير" - بالنجاح الذي كان يستحقه.. إذ إنه لم يقرب بين الفريقين، وإنما ألهمهما معا ضدي.. وإلى أن تكشف لي حماقتي أقبلت عليها بكل حماس جدير بالخافز الذي ألهمنيها، كما ينبغي أن يقال، فرسمت شخصيتي "فولمار" و"جولي"، وأنا في نشوة حملتني على أن أمل في أن أجعلهما معا خليقين بالحب، وأن يتسنى ذلك عن طريق حب كل منهما للآخر!

وإذ ارتحت إلى رسم الهيكل البدائي لمشروعي؛ عدت إلى المواقف التي كنت قد عينتها للتوسع والتفصيل؛ فادى النظام الذي رتبته بمقتضاه إلى الجزءين الأولين من كتاب "جولي" الذي كتبته وفرغت من نسخه خلال شهور الشتاء - في غبطة لا سبيل إلى وصفها - مستعملا أبديع ورق مذهب الخواف، ومستخدما مسحوقا أزرق وفضيا لتجفيف مداد الكتابة، وشرطا أزرق لا مثيل له لربط صفحات كراساتي، وموجز القول إنني لم أضن بكل شيء أنيق وبديع على فتاتي الفاتنتين اللتين عشقتهما وكانني "بيجماليون" آخر (٥). فكنت في كل مساء، أقرأ - إلى جانب مدفاتي - هذين الجزءين وأرددهما على سمع "الدادتين". فكانت الابنة تذرف معي الدمع حنانا، دون أن تنبس ببنت شفة أما الأم التي لم تجد فيما كنت أقرأ أية مجاملات - فإنها لم تفقه شيئا، فكانت تمكث ساكنة، مكتفية بأن تردد لي دائما في لحظات الصمت: "هذا بديع جدا ياسيدي!"

(١) أورد "روسو" ذكر "دائرة المعارف" أو "الموسوعة" (٢) بقصد انصار المشروع ومعارضيه. (٣) يستعمل "روسو" كلمة "المسيحيين" هنا بمعنى المسيحيين، المتنوعين. (٤) كان تنفيذ هذه المهمة يستل في إنتاج كتاب هو محور حديثه في هذه الفقرات.. وهو كتاب "جولي". (٥) "بيجماليون": ملك زعمت الأساطير الإغريقية أنه صنع تمثالا من عاج للمرأة - كما كان يراها - فإذا به يتبدل في هوى التمثال، حتى بنت "أفروديت" الحياة في العاج؛ فانقلب التمثال أنثى تزوجها الملك الفنان.

وأقلق السيدة "ديبيناي" أن تعلم أنني كنت وحيدا - في الشتاء - وسط الغابات، وفي منزل منعزل، فراحت تكثر من إيفاد من يتسقطون أنباثي، وما تلقيت قط مثل هذه الشواهد الصادقة على مودتها لي، كما أن مشاعري لم تكن يوما أكثر حرارة مما كانت في مقابلة ودها، وإنني لاذنب إذا أغفلت أن أذكر من هذه الشواهد أنها أرسلت إلي صورتها، وسألني أن أذن لها بالحصول على صورتي - بريشة "لاتور" - ثم عرضتها في قاعة جلوسها "صالونها". كذلك ينبغي ألا أغفل لفنة أخرى من لفتاتها قد تبدو مضحكة ولكنها من معالم تاريخ شخصيتي، وذلك بفضل الأثر الذي أحدثته في نفسي. ففي ذات يوم، وقد اشتد تكاثف الصقيع، فضضت حزمة أرسلتها هي لي، وضمنتها عدة أشياء تكفلت بإعدادها لي، فوجدت بينها "جولنة" داخلية قصيرة، من "الفانيلا" الإنجليزية، ذكرت أنها اعتادت أن ترتديها، وأعربت عن رغبتها في أن أصنع منها صدارة، وكان أسلوب رسالتها ساحرا مليئا بالحنان والسذاجة، وبدالي هذا الدليل على العناية - الذي كان يفوق كل ما تمليه الصداقة - بالغ الحنان، حتى لكانها قد تعرت لكي تكسوني، وحتى إنني - في جيشان عواطفني - قبلت الرسالة و"الجولنة" عشرين مرة، وأنا أبكي! وظنت "تيريز" أنني قد اختبلت!.. ومن العجيب حقا أن شيئا من دلائل الود - التي أسبغتها علي السيدة "ديبيناي" - لم يؤثر في نفسي قدر ما أثر هذا الدليل الذي ما اعتدت أن أتذكره دون أن تخفق مشاعري، حتى بعد القطيعة التي ضربت بيننا، وقد احتفظت برسالتها القصيرة أمدا طويلا، وكنت خليقا بأن أظل محتفظا بها لولا أنها لقيت مصيرها مع رسائلي الأخرى التي تمت إلى هذه الفترة (١).

ومع أن احتباس البول لم يدع لي نصيبا يذكر من الراحة في ذلك الشتاء، ومن أنني كنت أضطر - لفترة من الزمن - إلى استخدام المحسسات .. مع ذلك فإن هذا الفصل كان أمتع الفصول التي قضيتها - منذ وصولي إلى "فرنسا" - وأكثرها هدوءا!.. ففي خلال الشهور الأربعة أو الخمسة التي ساعد سوء الطقس على زيادة اعتكافي وعزلتي عن الزائرين، استمرت هذه الحياة المستقلة، المسترسلة، البسيطة، كما لم استمرتها من قبل .. ولم يزدها الاستمرار - في نظري - إلا قسوة .. ولم يكن لي من أي أنيس سوى "الدادتين" - في عالم الحقيقة - وابنتي جنسهما، في عالم الفكر، وفي القرار الذي أوتيت من حسن الإدراك ما مكنتني من اتخاذه، دون أن أحفل بصيحات أصدقائي .. الذين أغضبهم أن رأوني أفلت من تسلطهم (٢) .. ولكم حمدت السماء عندما سمعت عن محاولة معتوه (٣) وحين حدثني "ديليهر" والسيدة "ديبيناي" - في خطاباتهما - عن الاضطرابات والقلقل التي سادت "باريس"؛ إذ كنت بمنأى عن مناظر الإرهاب والجريمة التي لم يكن لها من أثر سوى تغذية وشحن المزاج الصفراوي الذي كان مرأى الاضطرابات العامة يثيره في نفسي .. في حين أنني لم أكن أرى نفسي - في هذه الفترة - محوطا بغير أطباف باسمه، وادعة، فكان فؤادي غير منساق لغير الأحاسيس المستحبة اللطيفة. إنني لأسجل هنا - في انتشاء - سير تلك اللحظات الوادعة التي كانت آخر ما أتيت لي أن أنعم به. فإن الربيع الذي أعقب هذا الشتاء الهادئ شهد تفتح بذور المصائب التي بقي علي أن أصفها، والتي لن يقدر لمرء أن يرى - خلال نسيجها - فترة تشبه هذه التي كنت

(١) نشرت هذه الرسالة في مذكرات السيدة "ديبيناي" وقد جاء بها: "أرسل إلى ناسكي هذه الأشياء للسيدتين "لوفاسير"، ولما كان الرسول الذي استخدمه جديداً فهناك بيان ما أرسلت معه .. وفي نهاية الأشياء قالت:

"قطعة من "الفانيلا" الحريرية جد صالحة لها" أي السيدة "لوفاسير" لتصنع منها صدارة مناسبة لها، أو لك أنت، وعم صباح ياملك الدبة! .. ومن الواضح أن هذه الرسالة لا تستحق كل هذا الإسهاب الذي ذكرها به "روسو"، ولكن إيرادها في سياق ذكرياته - على هذا النحو - يدل على مدى تقديره لما كان أصدقائه يؤثرون به من كرم وعطف، وعلى أن ما لقيه من بعض هؤلاء الأصدقاء لم يحمله على أن يجحد أفضالهم في لوفات الصفا! (٢) بقصد قرار الزوج عن "باريس" والاعتكاف في الريف. (٣) محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر، في ٢ يناير سنة ١٧٥٧.

أستطيع أن أجد فيها متنفسا!



ومع ذلك أراني أنذكر أنني - خلال هذه الفترة المطمئنة بل وفي أعماق عزلي - لم أبق بمنجى تام من عصبية "دولباخ". فقد أثار "ديدرو" بعض مضايقات لي، وما لم أكن موغلا في الخطأ فإنني أظن أن "أبناء السفاح" - وهي القضية التي سأتحدث عنها توا - ظهرت في هذا الشتاء.

ولست بحاجة إلى أن أذكر عددا جد ضئيل من الوثائق التي يمكن الاستناد إليها فيما يتعلق بهذه الفترة.. بل إن الوثائق التي تركت لي منها، غير دقيقة التواريخ إلى حد كبير. فإن "ديدرو" لم يكن يثبت التاريخ على رسالة قط، وكذلك لم تكن السيدة "ديسيناي" والسيدة "دوديتو" تؤرخان خطاباتها بغير ذكر اسم اليوم، وكان "ديليير" يحذو حذوها في أكثر الأحيان. فلما أردت أن أرتب هذه الرسائل كان عليّ أن اتحسس طريقي في الظلام لأحس تواريخ لا يمكن الجزم بصحتها، ولا أملك أن أركن إليها؛ ومن ثم فإنني - إذ أعجز عن إثبات بداية هذه الفتن والخلافات بدقة - أوثر أن أروي فيما بعد - في قسم منفصل - كل ما أستطيع أن أذكره عنها.

ولقد ضاعفت عودة الربيع من شطحاتي العاطفية؛ فإذا بي في نوباتي الولهانة أصوغ - للجزءين الأخيرين من "جولي" - عدة خطابات تطفح بالنشوة التي كنت فيها وأنا أكتبها، وأستطيع أن أذكر الرسالة التي دارت حول جنة الوثنيين، والرسالة التي وصفت النزهة على ضفاف البحيرة، وهما اللتان - إذا صح ما أذكر - تختتمان الجزء الرابع. فإذا قدر لأحد أن يقرأ هاتين الرسالتين دون أن يشعر بقلبه يلين وبذوب في نفس المشاعر التي أملتتها عليّ فخير له أن يغلق الكتاب؛ لأنه غير قدير على أن يعرف للأشياء العاطفية قيمتها!

وفي تلك الآونة بالذات، تلقيت زيارة ثانية - لم تكن مرتقبة - من السيدة "دوديتو". فلقد وفدت على "أوبسون" - في وسط وادي "مونمورنسي" - في غياب زوجها الذي كان ضابطا في الشرطة، وعشيقها الذي كان كذلك في السلك العسكري.

وكانت قد اتخذت لإقامتها هناك بيتا بديعا للغاية، ومن هذا البيت جاءت في نزهة ثانية إلى "ليرميتاج"، وقد قامت بهذه الرحلة على صهوة جواد، وفي زي الرجال، ومع أنني لا أميل إلى مثل هذا الخلط في الأزياء إلا أنني أعجبت بما كان في تنكرها هذا من جو شاعري، خيالي، وكان شعوري في هذه المرة هو.. الحب! وإذا كانت هذه هي المرة الأولى - والوحيدة - في حياتي بأسرها، وقد تركت معقباتها أثرا على ذاكرتي طبع بقوة لا تجعله ينمحي، فلا بد من أن أخوض هذه المسألة بشيء من التفصيل.

كانت السيدة الكونتيسة "دوديتو" تقترب من عامها الثلاثين، ولم تكن جميلة على الإطلاق؛ فقد ترك الجدري آثاره على وجهها، وكانت بشرتها تفتقد النعومة، كما أنها كانت قصيرة النظر، ذات عينين مستديرتين أكثر مما ينبغي.. بيد أنها أوتيت مع كل هذا إشراقة الشباب، وكانت قسماتها - التي جمعت بين الحيوية والرق - جذابة، وكانت تمتلك فيضاً من شعر أسود رائع، مجمد بطبيعته، ومنسدل حتى ركبتيها.. أما قوامها فكان صغيراً لطيفاً، وكانت تودع كل حركاتها خفراً وبهاء في وقت واحد، وكان ذكاؤها عادياً ومقبولاً للغاية، وقد اقترن فيه المرح وخلو البال والسذاجة هنا اقتران. فكانت تنساب في سيل من الدعابات الفاتنة التي لم تكن تتكلفها البتة، والتي كانت تنطلق بالرغم

منها أحيانا، وكانت على كثير من المواهب المستحبة، فكانت تتقن العزف على "البيانو"، وتجيد الرقص، وتقرض أشعارا بديعة للغاية. أما أخلاقها فكانت ملائكية، باطنها رقة النفس، وظاهرها الحكمة والقوة والجمع بين كل الفضائل.. وكانت - فوق كل هذا - أهلا للشقة في المعاشرة، وذات وفاء في الصحبة، إلى درجة أن أعداءها أنفسهم لم يكونوا بحاجة إلى أن يتستروا منها، وأقصد بأعدائها أولئك الذين، أو بالأحرى أولئك اللائي كن يكرهونها. أما من ناحيتها هي، فقد كانت ذات قلب لا يقوى على أن يكره أحدا، واعتقد أن هذا التشابه في الطباع، قد ساعد كثيرا على إذكاء وجدي نحوها!

وما سمعتها قط - في الخلوات التي كانت تمتاز بأوثق مظاهر الود - تتحدث بسوء عن الغائبين بل ولا عن أخت زوجها!..

وما كانت تملك أن تخفي ما يفكرها عن أي مخلوق، ولا أن تكبح شيئا من مشاعرها، حتى إنني لأميل إلى الاعتقاد بأنها كانت تتحدث عن عشيقها إلى زوجها بنفس الصراحة التي كانت تتحدث بها عنه إلى أصدقائها ومعارفها وكل الناس على السواء.. وأخيرا، فإن الذي يثبت - دون مرأه - نقاء وإخلاص فطرتها الرائعة هو: أنها كانت تتعرض لأعجب نوبات شرود الذهن، ولاكثر نوبات السهو مدعاة للضحك، وكثيرا ما كانت هذه النوبات تفتقد الحكمة - بالنسبة لها هي بالذات - ولكنها لم تكن لتمس قط أي إنسان بما يجرح كرامته!

وكانت قد زفت - وهي بعد صغيرة، وبالرغم عنها - إلى الكونت "دوديتو" الذي كان ذا جاه، وكان عسكريا شهما ولكنه كان مقامرا، شرسا، يعوزه اللطف؛ فلم تحبه هي قط.. وإنما وجدت في السيد "دي سان لامبير" كل ما كان لدى زوجها من خصال طيبة، إلى جانب صفات أخرى أكثر ملاءمة.. فمن ذكاء، إلى فضائل، إلى مواهب، ولو جاز للمرء أن يغفر شيئا من طباع ذلك العهد فإنما الجدير بالغفران حقا هي العلاقة التي لا تزدد مع الزمن إلا صفاء، ولا تزيد آثارها إلا تكريما وتمجيذا، ولا يدعمها سوى الاحترام والتقدير المتبادلين (١)!

وعلى قدر ما يخيل إليّ كانت قد صدرت في زيارتها لي عن قليل من ميلها الخاص، وكثير من الرغبة في إرضاء "سان - لامبير". فقد كان يستحشها على ذلك، وكان على صواب؛ إذ اعتقد أن الصداقة التي بدأت تقوم بيننا كانت خليقة بأن تجعل هذه الصحبة ملائمة مستحبة لثلاثتنا، وكانت تعلم أنني مطلع على علاقتهم؛ ومن ثم فإن في استطاعتها أن تتحدث إليّ عنه دون حرج كانت كفيلة بأن تجعلها تتراح إلى صحبتي؛ ومن ثم جاءت.. واستقبلتها.. وكنت نشوان بحب غير ذي هدف منظور، فإذا النشوة تسحر عيني، وإذا الهدف يتركز عليها هي. فرأيت "جسولي" - التي ابتدعتها - في السيدة "دوديتو".. ولم أعد - بعد قليل - أرى سوى السيدة "دوديتو" فقط، وقد اكتسبت بكل أسباب الكمال التي كنت أزين بها معبودة قلبي!.. ولكي تسكرني تماما، راحت تحدثني عن "سان - لامبير" في وجد مشبوب.. فيالسلطان الهوى المضيق!.. لقد استولت عليّ - إذ كنت أسمعها، وإذ كنت أشعر بالقرب منها - قشعريرة عذبة لم أعهد لها قط في قرب أي شخص!..

(١) توفيت هذه السيدة وهي في الثالثة والثمانين من عمرها، وقد ظلت إلى آخر حياتها محتفظة بطيبة نفسها، واحترام عواطفها وخيالها، وميلها إلى اللهور والمسررات الذهنية، وكانت ذات براعة في غرض الشعر، وقد قالت في قصيدة ودعت بها عشيقها "سان - لامبير"، قبل رحيله للخدمة العسكرية:

"الحبيب الذي أعبد.. وقد تاهب لغراقي
بقيت له لحظة.. فأراد أن يستغلها".
"بألها من متعة باطلة.. يشتهي اقتناصها.
وما أشد الضنى.. ليصبح المرء لذة".

وراحت تتكلم، وأنا نهب للانفعالات .. ووهمت أنني لم أكن مهتما بغير مشاعرها، فإذا بي أحس بمشاعر على شاكلتها .. ورحلت أجرع - في دفعات كبيرة - الكاس المسمومة التي لم أعد أتذوق فيها سوى الخلاوة العذبة! .. وفي النهاية، بعثت في نفسي نحوها - دون أن أفطن، ودون أن تظن هي - كل ما عبرت عنه من مشاعرها نحو حبيبها. واحسرتها! .. كان الوقت المناسب قد فات، وكان من القسوة أن أحترق بوجد مشرب - لم يكن في عنفه بأقل منه في تعاسته وشقوته - نحو امرأة كان قلبها مليئا بحب آخر!

وبالرغم من الانفعالات الغريبة التي خامرتني في قربها فإنني لم أفطن - في البداية - إلى ما أصابني .. ولم يكن ذلك إلا بعد رحيلها، وعندما أردت أن أفكر في "جولي" فإذا بي أبهت؛ إذ وجدت أنني لم أعد أقوى على التفكير في غير السيدة "دوديتو"؛ وإذ ذاك انجذبت الحجب عن عيني، وأحسست بسوء حظي؛ فرحت أئن وأتأوه .. ولكنني لم أحس ما كان هناك من نتائج! ولقد ترددت طويلا بصدد الطريقة التي أنتهجها في تصرفي نحوها، وكأنما كان الحب الحقيقي قد خلف من العقل ما يكفي لكي أخير لنفسي المسلك .. ولم أكن قد انتهيت إلى قرار عندما جاءت مرة أخرى؛ ففاجأتني على غير استعداد.

وفي هذه المرة أيقنت من موقعي، فإذا الحياء - قرين السوء - يعقل لساني؛ فرحت أرتجف أمامها، دون أن أجرؤ على أن أفتح فمي، أو أن أرفع عيني .. كنت في اضطراب لا سبيل إلى وصفه، حتى لقد كان من المستحيل ألا تكون قد ابصرته، واعتزمت أن أصارحها، وأن أدعها تحبس السبب .. فقد كنت بهذا كائنني أبوح لها بصراحة تامة!

ولو أنني كنت شابا ومليحا، وكانت السيدة "دوديتو" قد أبدت ضعفا - من جراء هذا - لأقدمت هنا على لوم مسلكها.

ولكن شيئا من هذا لم يكن، ولم أكن أملك سوى أن أطري مسلكها وأعجب به! .. وكان الرأي الذي اتخذته يجمع بين الكرم والحكمة. فما كان بوسعها أن تنأى عني فجأة، دون أن تذكر السبب لـ "سان لامبير"، الذي أوصاها - بنفسه - بأن تزورني .. ومعنى هذا، تعريض صديقين للقطيعة، وقد يترتب عليه فضيحة كانت راغبة في تفاديها! .. وكانت تكن لي كل تقدير، وكل خير. ولقد رثت لخبلي، وراحت تلتمس له المعاذير - في غير تملق ولا رياء - وحاولت أن تبرئني منه .. ولقد كان يسرها - كل السرور - أن تتمكن من الإبقاء - لنفسها ولحبيبها - على صديق كانت تقدره حق قدره، ولم تحدثني عن شيء يمثل الاغتباط الذي راحت تحدثني به عن الود ولطف المعاشرة اللذين نستطيع أن نوثقهما بيننا نحن الثلاثة، عندما أعود إلى رشدي .. على أنها لم تقتصر تماما على هذه المواساة الودية، ولم تعفني - عند الحاجة - من تانيبات كانت أقسى مما كنت أستحق!



ولم أكن أقل منها قسوة في تانيب نفسي! .. فما إن أصبحت وحيدا حتى عدت إلى نفسي، وإذا بي أكثر هدوءا، بعد أن بحث بما كنت أكتم .. فإن الحب إذا ما عرف لتلك التي أوجت به يغدو أكثر احتمالا! .. ولابد أن الشدة التي رحت ألوم بها نفسي على الحب الذي استشعرته كانت كفيلة بأن تبرئني منه، لو أن هذا كان ميسورا! .. أية حوافز قوية لم أمتنع بها لخلق هذا الحب!؟ .. إن قوانيني الخلقية، وأحاسيسي، ومبادئ، وحياتي، وخيانة العهد، والإجرام، وإساءة استغلال الودية التي

اثنمنت عليها بحكم الصداقة، والسخرية التي كان يستوجبها تحرقى - في مثل هذه السن - بأشد الصبابات جموحا، نحو هدف لم يردعني انشغال قلبه، ولا سمح لي بأي رجاء.. صبابة كانت - فوق كل هذا - بعيدة عن أن تمتاز بما يكفل لها الدوام، بل إنها راحت تتجاوز حد الاحتمال يوما بعد يوم.. كل هذه الأمور والاعتبارات فكرت فيها!

من ذا الذي يصدق أن الاعتبار الأخير الذي كان كفيلا بأن يرجح كفة الاعتبارات الأخرى، كان هو الذي أوهرن قوتها جميعا؟!.. فلقد قلت لنفسي: "أية هواجس أحفل بها إزاء نزوة حمقاء، لا يتعذب بها سواي؟" .. أفانا مغازل شاب يحق للسيدة "دوديتو" أن نخشاني؟.. ألن يقال - على ضوء ما كانت توحيه إليّ نزعات الغرور - أن نظرفي، ومسلكي، ومظهري قد أغويتها؟.. إذن، فاحبب ما شاء لك الهوى، يا "جان چاك" البائس.. احبب وأنت مرتاح الضمير، ولا تخش أن يزعم زفراتك "سان - لامبير"!

ولقد أصبح من الواضح أنني لم أكن يوما مقداما على نشدان النفع الذاتي، واستغلال الفرص حتى في صباي، وكان هذا المذهب في التفكير يتسق مع اتجاه ذهني؛ فكان يمتدح صبايتي ويزينها؛ مما سهل عليّ الاستسلام لها في غير تحفظ، بل والضحك من الهواجس الوقحة التي خلت - عن غرور، وليس عن تعقل - أنني أوحيت بها!.. فباله من درس جليل للنفوس الشريفة، التي لا تهاجمها الرذيلة جهارا قط ولكنها تتحايل على مباغتتها، وهي تتوارى دائما وراء ستار من الزهد.. أو من الفضيلة غالبا!

كنت مذنبا دون ندم ولكنني سرعان ما أصبحت مذنبا دون حد.. وأناشدكم أن تتروا كيف سارت صبايتي في اعقاب طبيعتي، لتجربي في النهاية إلى الهاوية!.. لقد اتخذت هذه الصبابة - في البداية - مظهر التواضع؛ لكي تطمئنني.. ثم دفعت هذا التواضع إلى أن انقلب تحديا؛ لكي تحفزني!.. ومع أن السيدة "دوديتو" لم تكف عن تذكيري بواجبي، وعن محاولة ردي إلى حجابي.. ومع أنها لم ترض لحظة عن حماقتي إلا أنها - ظلت عدا ذلك - تعاملني بأعظم قدر من اللطف، وراحت تبدي نحوي أرق مظاهر الود، وإني لاعترف بأن هذا الود ما كان ليكفيني لو أنني آمنت بأنه كان صادقا، غير أنني ألقيته أشد تمحسا من أن يكون صادقا؛ فمضيت قدما في الإعزاز إلى نفسي بأن الحب - الذي لم يعد منذ ذلك الحين ملائما لسني ولا لشكلي - قد حققني في نظر السيدة "دوديتو"، وأن هذه الشاببة النزقة لم تكن تبغي سوى أن تتخذ مني ومن عواطفني - التي لم تكن تلائم سني - مادة للتسلية، وأنها قد صارحت "سان - لامبير" بذلك، فإذا استنكاره لعدم وفائي بحمله على أن يرى فيّ ما كانت تراه حبيبته، وإذا بينهما اتفاق للعبث بي والضحك مني!.. هذا الوهم الذي حملني - عندما كنت في السادسة والعشرين من عمري - على أن اتقادم مع السيدة "دي لارناج" - دون أن أكون على تعارف بها - لم يكن مما يغتفر في سن الخامسة والأربعين، ومع السيدة "دوديتو" لو أنني تجاهلت أنها وحبيبها كانا أكرم من أن ينغمسا في مثل هذه الملهاة القاسية!

وواصلت السيدة "دوديتو" أداء زيارات لي لم أكن لأتوانى عن ردها؛ فلقد كانت مثلي، تحب التريض على الأقدام؛ فكنا نقوم بنزهات طويلة في منطقة من الريف فاتنة، وبما أنني قنعت بأن أحب، وبأن أجرو على الإفشاء بحبي فقد كان خليقا بي أن أغتبط بأنني في أنها وضع لو لم يفسد تهوري كل فتنة. ذلك أنها لم تفهم - في البداية - شيئا من النزق الذي كنت أقبّل به ملاطفاتها، ولكن قلبي العاجز دواما عن أن يتعلم كيف يخفي ما بداخله لم يدعها طويلا في جهل بما كان يساورني،

ولقد حاولت أن تحمل شكوكي ومخاوفي على محمل الدعاية ولكنها أخفقت في هذه المحاولة التي لم تؤد إلا إلى نوبات من الغضب المحتدم؛ ومن ثم فإنها غيرت مسلكها، ومع أن رقتها الناعمة لم تنزع إلا أنها راحت توجه إلي من التائب ما كان يخترم قلبي .. وأطلعتني - في مقابل مخاوفي الظالمة - على قلق رحت أعيبه .. وطالبتها بدليل على أنها لم تكن تهزأ بي فلم تجد من وسيلة - لكي تطمئنني - سوى عين الشيء الذي كنت أنشده! .. ورحلت الح! .. وكان الموضوع دقيقاً، شائكاً! .. ومن العجيب - بل لعله من المصادفات الغذة - أن تتمكن امرأة جرؤت على التماذي إلى حد المساومة من أن تخرج من المازق بسلام .. فإنها لم تاب علي شيئاً مما يستطيع أرق الود أن يكفله .. ولكنها لم تمنحني شيئاً مما كان يحتمل أن يريدها في حماة الخيانة! .. وقدر لي أن أرى - في ذلة وهوان - أن النيران التي كان أنفه صنيع من ناحيتها يؤججها في فؤادي لم تشعل في قلبها أضال شرارة!

ولقد قلت - في مكان ما (١) - : إن على المرء ألا يتيح للشهوات شيئاً على الإطلاق إذا هو رغب في أن ينكر عليها بعض الأشياء! .. ولتبين مدى إخفاق هذا الرأي في قصتي مع السيدة "دوديتو"، ومدى حكمتها هي ومداد رأيها في الاعتماد على نفسها يجب أن أصف بإسهاب خلواتنا الطويلة، العديدة، وإن أبين كل ما كان يصحبها من انفعالات وفورات خلال الشهور الأربعة التي قضيناها معا في ود لا يكاد يكون له مثيل بين صديقين من جنسين مختلفين، اقتصرنا على حدود معينة لم يتجاوزها البتة. آه! .. إذا كنت قد تأخرت طويلاً قبل أن أشعر بالحب الحقيقي، فما أفدح الثمن الذي دفعه قلبي وحواسي! .. ويا للانفعالات التي لا بد للمرء من أن يستشعرها بالقرب من شخص حبيب، بحبنا، إذا قدر للهوى الذي لا يلقي جزءاً أن يوحى بنظير له!

ولكنني أخطئ، إذ أقول "حبا بدون جزء"؛ فإن حبي كان يحظى بمقابل إلى حد ما .. كان حبا متعادلاً لدى الطرفين وإن لم يكن متبادلاً بينهما .. كان كلانا نشوان بالهوى: هواها لحبيبها، وهواي لها! .. وكانت زفرائنا ودموعنا المتسرية تختلط معاً، وكانت نجواناً، واعتراقاتنا، ومشاعرنا مترابطة أوثق ترابط حتى لقد كان من المستحيل ألا تتحد عند أمر من الأمور! .. ومع ذلك فإن السيدة "دوديتو" لم تكن تنسى نفسها لحظة واحدة، في غمرة النشوة الخطرة .. أما أنا فاعترف - بل أقسم - إنني إذا كنت قد حاولت في بعض الأحيان، أن أحملها على الخيانة، مدفوعاً بمشاعري الشهوية إلا أنني لم أكن أصدر في ذلك عن شهوة حقيقية قط! .. كان استعمار وجدي يبقى هذا الوجد في نطاقه، من تلقاء ذاته! .. ذلك؛ لأن واجب إنكار الذات بهر روحي، كما أن رواء الفضائل جميعها زاد معبود قلبي بهاء في عيني، فكان في تدنيس طيفه القدسي قضاء مبرماً عليه، ولقد كنت خليقاً بأن ارتكب هذا الجرم؛ إذ إنه ارتكب في فؤادي مائة مرة، ولكن .. كيف كنت أجزؤ على أن أهين حبيبتي "صوفي" ١٩ .. أفكان هذا من المحتمل يوماً! .. لا، لا هكذا رحت أؤكد لها - في نفسي وفؤادي - مائة مرة .. ولو أنني ملكت يوماً أن أرضي نفسي، ولو أن الحبيبة أسلمتني نفسها طواعية، وعن طيب خاطر لكان جديراً بي أن أرفض السعادة بهذا الثمن. لقد كنت أحبها حباً أقوى من أن أطمع في وصالها!



إن المسافة بين "ليرميتاج" و"أويون" تقرب من فرسخ، وقد قدر لي أحياناً - في رحلاتي العديدة

إلى "أوبون" - أن أقضي ليلي هناك، وفي إحدى الليالي - بعد أن تناولنا العشاء على انفراد - شرعنا في التريض في الحديقة، في غمرة ضوء كان ثمة حشر واسع النطاق، سعيها فيه إلى روضة جميلة يزيناها مسقط مائي - كنت أنا صاحب الفكرة في إقامته - وكانت السيدة "دوديتسو" هي التي تولت إنشائه.. يا له من تذكارات خالد للبراءة والغبطة!.. وفي هذه الروضة جلست وإياها على أريكة من الحشائش، تحت خيميلة محملة بالزهور.. وبحث - في سبيل التعبير عن مشاعر قلبي - عن لغة تليق بهذه المشاعر، وكانت هذه أول مرة - بل المرة الوحيدة في حياتي - التي سموت فيها عالياً بمشاعري إذا جاز إطلاق هذا الوصف على الفتنة الوادعة، المغرية، التي يوحى بها إلى قلب الرجل أرق ألوان الحب وأقواها. يا للدموع النشوى التي سكبتها على ركبتيها!.. ويا للدموع التي استدرتها إياها على الرغم منها!.. وأخيراً صاحت في انفعال لا إرادي: "لا!.. لم يوجد بين الرجال عاشق بهذه الدرجة قط.. وأبداً لم يحب عاشق بهذا الوجد!.. ولكن صديقك "سان - لامبير" يسمع إلينا، وما كان لقلبي أن يحب مرتين!.. ولم أخرج عن الصوت إلا بالزفرات، واحتضنتها.. وإي عناق!

ولكن هذا كان جل ما في الأمر!.. وكانت قد قضت ستة أشهر وحيدة، أعني بمنأى عن عشيقها وعن زوجها.. وكنت قد ظلمت - لثلاثة أشهر - أراها في كل يوم تقريباً، وكان الحب ثالثاً على الدوام!.. ولقد تعيشنا على انفراد.. وكنا وحيدتين في خيميلة، تحت ضوء القمر الزاهي.. وبعد ساعتين من أرق وأبدع حديث، غادرت - في منتصف الليل - هذه الخيميلة، وأحضنان صديقها (١).. وهي لم تمس بدنس، لاتزال طاهرة الجسد والقلب، كما أقبلت في البداية..

الا تدبر كل هذه الظروف يا قارئ فلن أضيف مزيداً قط!

ومن ذا الذي لا يستطيع أن يتصور أن أحاسيسي تركتني دون إزعاج - في هذه المناسبة - كما اعتادت أن تفعل من قبل إزاء "تيريز" و"ماما". ولقد قلت من قبل إن ما خاغرني في هذه المرة، هو الحب.. الحب في جماع قواه وفي عنفوان جيشانه!.. ولن أصف هياجي، ولا ارتجافي، ولا خفقان فؤادي، ولا اختلاجاتي المتشنجة، ولا ضعف القلب الذي كنت أستشعره باستمرار، فمن الميسور إدراكها من التأثير الذي كان طيفها وحده يحدثه في نفسي!

فقد ذكرت أن "ليرميتاج" كان بعيداً عن "أوبون"، وكنت أمر في طريقي بتلال "اندليللي" البديعة، وفيما كنت أسير إلى "أوبون" رحت أحلم بتلك التي كنت أسعى إلى زيارتها، وباللقاء الناعم، وبالقبلة التي تنتظرني عند وصولي. هذه القبلة الوحيدة، هذه القبلة الخطرة، ألهمت دمي - حتى قبل أن ألتقها - بدرجة جعلتني أشعر بالدوار، وبأن ستارا قد هبط على بصري فأعماني.. واهتزت ركبتي على فلم تعودا تقويان على حملي.. ووجدتني مضطراً إلى التوقف عن السير، بل وإلى الجلوس.. فإني كل كياني اضطرب، دونما مبرر واضح.. وكدت أروح في إغماءة!.. وإذ فطنت إلى الخطر؛ رحت أحاول - حين عاودت السير ثانية - أن اشغل بالي بتفكير آخر.. على أنني لم أكد أقطع عشرين خطوة حتى عاودتني نفس الرؤى وما ترتب عليها في هجوم لم أجد في هدفي دونما ضرر لو لم أجاهد كي أطيّقها!

ووصلت إلى "أوبون" واهن القوى، مرهقا، منهوكا، لا أكاد أستوي معتدل القامة، وما إن رايتها - أي السيدة "دوديتسو" - حتى ارتدت إليّ، قواي، ولم أعد أشعر بالقرب منها إلا بتدفق قوى لا تنضب، ولا نفع لها أبداً!.. وكان في طريقي، وعلى مشرف من "أوبون" طريق مرصوفة لا بأس بها يطلق عليها اسم "مونت أوليمب" اعتدنا أن نلتقي عندها أحياناً، وقد أقبل كل من ناحيته، وكنت

(١) يقصد نفسه طبعاً!.. ولا تزال الروضة، والخيميلة، والمسقط المائي والدار ذاتها باقية في "أوبون" ..

الأسبق إلى الوصول؛ فكان عليّ أن أنتظر ولكن ما أغلى ما كان هذا الانتظار يكبدنيه... ولكي أشغل بالي؛ حاولت أن أكتب بقلمسي الرصاص بعض مذكرات كانت جديرة بأن تكتب باطهر ما لدي من دم... وما قدر لي قط أن أتم واحدة تكون مقروءة، وعندما كانت هي نعيد إحداها في الكوة التي اتفقنا على إبداع الرسائل فيها لم تكن تطالع فيها سوى الحال الذهنية المتداعية التي كنت فيه عند كتابتها... ولقد أدت هذه الحال - لا سيما بقاؤها طيلة ثلاثة أشهر من الانفعال والكبت - إلى إرهابي، حتى إنني لم أبل منها لعدة سنوات، وانتهت بأن خلفت لي هبوطا ساحم له معي، أو يحملني معه إلى القبر، وكانت هذه هي الغبطة الغرامية الوحيدة للرجل الذي أوتي أشد الأمزجة - التي أنجبتها الطبيعة - تاججا، وأعظمها تهيبا وخجلا، في آن واحد... كما كانت هذه آخر الايام الجميلة التي احتسبتها على الأرض... فمنذ ذلك الحين بدأ نسيج محن حياتي ومصائبها... النسيج الطويل الذي سبى أنه غير منقطع!



ولقد تبدى - خلال مجرى حياتي بأسره - أن قلبي شفاف كالبلور، فلم يتعلم أن يكتب قط - لدقيقة واحدة - أية عاطفة على شيء من الاحتدام لأذت به؛ ومن ثم ففي الوسع إدراك المدى الذي كان في طاقتي أن أذهب إليه في كتمان حبي للسيدة "دوديتسو"... كان ودنا جليا لكل عين، فلم نحطه بشيء من الكتمان ولا الغموض؛ إذ إن طبيعته لم تكن من نوع يحتاج إلى ذلك... وكما كانت السيدة "دوديتسو" تكن لي أرق ود - دون أن نجد أي حرج أو تشريب - فإنني كنت أحسن نحوها بتقدير ما كان سواي ليدرك - مدى عدالته وصحته؛ ومن ثم فإننا كنا في طمأنينتنا الغرور نتيج فرضا للنيل منا أكثر مما كنا نفعل لو أننا كنا مذبذبين. هي بصراحاتها، وتشتت بالها، وعدم اكترائها بالتفكير. وأنا بصدق عاطفتي، وتهيب وخجلي، وغروري، ونفاد صبري، وفوراتي العاطفية... فكنا نذهب معا إلى "لاشيفريرت"، أو نلتقي هناك على موعد - في كثير من الأحيان - أو دون موعد - في بعض الأحيان - وكنا نواصل هناك ما ألفنا من حياة، فنتمشى معا وحيدين يوما - ونحن نتبادل الحديث عن هوانا، وواجباتنا، وصديقتنا، وخططنا البريئة - في المتنزه المواجه لجناح السيدة "ديسيناي"، ونحت نوافذها التي كانت ترقبنا منها، وترانا بعيني قلبها يغل دافق من نبع الغضب للكرامة؛ إذ كانت نخال في ألفتنا إهمالا لها وازدراء بها!

ولقد أوتيت النساء براعة في إخفاء غضبهن، لا سيما إذا كان هذا الغضب عارما، قويا... وقد أحرزت السيدة "ديسيناي" - التي كانت واسعة العقل والحيلة - برغم عنفها، قدرا كبيرا من هذه البراعة؛ لذلك فقد راحت تتظاهر بأنها لم تكن ترى شيئا أو ترتاب في شيء، وبينما أخذت تضاعف اهتمامها بي ورعايتها إياي - إلى حد المضايقة - راحت تحير أخت زوجها بخشونة مسلكها، وجفاء معاملتها، وتمريضاتها المهينة التي بدا أنها كانت تحاول أن توحى بها إليّ، وتبشها في نفسي أنا الآخر، ومن السهل إدراك أنها لم توفق ولكنني كنت حائرا معذبا. كنت نهبا لمشاعر متعارضة، ففي الوقت الذي كان فيه عطف السيدة "ديسيناي" ولطفها يؤثران في نفسي كنت أجد عناء في كبح سخطي؛ إذ أرى تضالوا احترامها للسيدة "دوديتسو"، ولقد استطاعت الأخيرة أن تحتل ذلك دون تذمر - بل ودون ضغينة - بفضل ما أوتيته من طباع ملائكية. كما أنها كثيرا ما كانت شاردة البال، لا تكاد تحس ما حولها حتى إنها لم تكن تلاحظ ما كان يجري!

وكننت مستغرقا في وجددي حتى إنني لم أكن أبصر سوى "صوفي" - وقد كان هذا من أسماء "دوديتسو" - فلم أنظن إلى شيء، بل ولا إلى أنني أصبحت حديث أهل القصر جميعا والزائرين... وقد كان البارون "دولباخ" - الذي لم يزر "لاشيفريرت" من قبل على ما أعلم - بين هؤلاء الآخرين. ولو أنني كنت من التريث بالدرجة التي صرت إليها فيما بعد لشككت كل الشك في أن السيدة "ديسيناي" دبرت عمدا هذه الزيارة؛ لتتيح له فرصة الاستمتاع بمشاهدة المناظر المسلية مناظر المواطن العاشق!

على أنني كنت من الغباء بحيث لم أر ما كان واضحا متالفا لكل مخلوق، ومع ذلك فإن غباي كله لم يحل بيني وبين أن أرى أن "البارون" كان أكثر اغتباطا وانشراحا من عادته، وبدلا من أن يتجه في وجهي أغرتني بسيل من الدعايات التي لم أفقه منها شيئا، وحملت إلى - دون أن أحجب - واضطرت السيدة "ديسيناي" إلى أن تمسك جنبها لتحد من ضحكها، ولكنني لم أستطع أن أدري شيئا من حقيقة أمرهما... ولما لم يكن مزاحهما قد تجاوز الحدود؛ لذلك فقد كان خيرا ما أفعله - لو أنني فهمت كنهه - هو أن أدلي فيه بدلوي ولكن الواقع هو أنه كان من السهل أن يلمح المرء في عيني "البارون" - خلال مرحة الساخر - وميضاً من طرب مغيط، كان من المحتمل أن يثير قلقي لو أنني انتبهت إليه إذ ذاك كما انتبهت فيما بعد، حين استرجعته في ذهني.

وحدث أن ذهبت لزيارة السيدة "دوديتسو" فسي "أوبون" - يوما - عقب عودتها من إحدى رحلاتها إلى "باريس"؛ فوجدتها واجمة، ولاحظت أنها كانت تبكي قبل وصولي، واضطرت إلى أن أتمالك نفسي؛ إذ كانت السيدة "دوبلينفسكي" - "أخت زوجها" - حاضرة ولكنني ما كدت أدخل إليها لحظة حتى أفضيت إليها بقلقي؛ فقالت وهي تنهد: "آه...! لشد ما أخشى أن تجردني نزواتك من كل طمأنينة وراحة بال، طيلة ما تبقى من حياتي... لقد نقل إلى "سان - لامبير" أمرنا، بأسلوب محرف، وإنه لينصفني ولكنه مستاء... والآنك من هذا أنه لا يصارحني بكل شيء... على أنني - لحسن الحظ - لم أتكم أمر صداقتنا التي نشأت تحت رعايته... فقد كانت خطباتي - كقلبي - مليئة به، ولم أخف عنه شيئا سوى حبك الأرعن الذي كنت آمل أن أبرئك منه، والذي أستطيع أن أثبت أنه يراه جرما من ناحيتي، وإن لم يذكر لي ذلك. لقد أساء إلينا شخص ما، وظلمني، ولكن... لا بأس، وعلينا أن نقصم تعارفنا، أو ليكون مسلكك كما ينبغي ولبيق؛ فلست رغبة في أن أكن شيئا - بعد الآن - عن حبيبي!"

وكانت هذه هي أول لحظة أدركت فيها عار رؤية نفسي مهينا؛ إذ فطنت إلى إساءتي إزاء شابة أحسست بانها كانت محقة في لومها، وكان خليقا بي أن أكون راغيا لها وناصحا، وكان السخط الذي بعثه هذا في نفسي كفيلا بأن يجعلني من القوة بحيث أستطيع أن أغالب ضعفي، لولا أن الإشفاق الحنون - الذي أثارته في نفسي ضحية هذا الضعف - طغى على قلبي. فوالسفاة...! أفكانت هذه لحظة أملك فيها أن أثبت في قلبي صلابة، وهو زاهر بالدموع التي كانت تنساب إليه من كل ناحية!؟ وما لبث هذا الحنان أن انقلب إلى غضب على وشاة السوء الذين لم يروا من شعور خاطيء، - ولكنه غير إرادي - سوى جانبه الآثم... دون أن يعتقدوا - بل دون أن يحدسوا - ما كان لهذا القلب الذي نبض به من إخلاص شريف!



ولم نبق طويلا في ريب من اليد التي وجهت هذه الصفعة! كنا نعرف - معا - أن السيدة "ديسيناي" كانت تكتب "سان - لامبير". ولم تكن هذه هي العاصفة الأولى التي أثارها ضد السيدة "دوديتو" فلقد بذلت محاولات لا عداد لها؛ لتنتزع "سان - لامبير" منها، وكان ما أحرزته بعض هذه المحاولات - في الماضي - يحمل السيدة "دوديتو" على أن ترتجف فرقا بما يخبئه لها المستقبل!.. وإلى جانب ذلك، كان "جرم" - الذي اعتقد أنه تبع السيد "دي كاستري" في رحيله مع الجيش - في "ويستفاليا"، وكذلك كان "سان - لامبير" وكانا يتزاوران أحيانا!.. وكان "جرم" قد حاول التقرب إلى السيدة "دوديتو" ولكن محاولاته أخفقت، وقد أغضبه هذا إلى الدرجة التي جعلته يكف عن زيارتها؛ ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور - على ضوء ما اشتهر به من اتضاع - مدى "برود الدم" الذي تلقى به ما زعم من أن السيدة "دوديتو" آثرت عليه رجلا يكبره سنا، لا سيما وأنه لم يكن يتكلم عن هذا الرجل - من عرف طريقه إلى الأوساط الراقية - إلا باعتباره شخصا ينعم برعايته وعطفه!

وغدت وسواسي من ناحية السيدة "ديسيناي" أمورا مؤكدة عندما سمعت ما حدث في بيتي. فقد اعتادت "تيريز" أن تتردد على "لاشيفريت" - في الفترات التي كنت أقضيها هناك - لتحمل لي خطاباتي، أو لتؤدي لي بعض أشياء كانت صحتي المعتلة تتطلبها، ولقد حدث أن سألتها السيدة "ديسيناي" عم إذا كانت السيدة "دوديتو" تكتبني فلما أنبأتها بأننا نتبادل الرسائل راحت تلح عليها لتسلمها رسائل السيدة "دوديتو"، مؤكدة لها أنها ستحكم إغلاق هذه الرسائل ثانية بمهارة لا نتم عن أنها فضت!.. ولقد عمدت "تيريز" - دون أن تكشف عن مدى استنكارها لهذا الطلب، ودون أن تنبني به - إلى اتخاذ أقصى أسباب الحيلة؛ لتخفي ما كانت تحمله إلي من رسائل!.. وكان إجراء حكيمًا؛ إذ إن السيدة "ديسيناي" قد أقامت عليها رقابة كلما جاءت، وكانت تترصد بها حتى تمر بها، وقد ذهبت في جراتها إلى حد تفتيش مريلتها!

بل إنها فعلت ما هو أكثر من هذا: فقد دعت نفسها والسيد "دي مارجينسي" يوما إلى الغداء في "لهرميتاج"، وكانت هذه أول مرة تفعل فيها ذلك منذ سكنته، واستغلت اللحظة التي كنت أتمشى فيها مع "مارجينسي" فذهبت مع الأم والأبنة إلى غرفة مكتبي، وسألتهما أن تطلعيا علي رسائل السيدة "دوديتو"، ولو أن الأم كانت تعرف مكان هذه الرسائل لكان من المحقق أن تسلمها إليها ولكن الأبنة وحدها - لحسن الحظ - هي التي كانت تعرف المكان، وقد زعمت أنني لا أحتفظ بشيء منها!.. وكانت في هذا كاذبة، دون نزاع.. ولكنه أشرف، وأخلص، وأكرم خداع!.. وإذا رأت السيدة "ديسيناي" أنها لن تستطيع أن تغريها راحت تحاول أن تستنهض غيرتها بأن أخذت تلومها على طيبة قلبها، وعدم بصيرتها، ومضت تقول لها: "كيف تغفلين عن تبين أن علاقتهما آثمة؟.. إذا كنت - برغم كل الذي تستطيعين أن تبصريه بعينيك - لا تزالين بحاجة إلى مزيد من الأدلة فعاوني فيما كان يجب أن تفعله أنت للحصول على ذلك!.. إنك تقولين إنه يمزق رسائل السيدة "دوديتو" بمجرد أن يطلع عليها، حسنا!.. إذن فاجمعي القصاصات بعناية، وأسلمينيها، وسوف أصفها بعضها إلى بعض!"

هكذا كانت الدروس التي لقنتها صديقتي لرفيقتي!



ولقد كانت "تيريز" من الحكمة بحيث إنها لم تذكر لي شيئا عن هذه المحاولات زمتنا طويلا ولكنها حين رأت ورطتي - في النهاية - شعرت أن من واجبها أن تفضي إلي بكل شيء؛ حتى أصبح على بصيرة بأولئك الذين كان علي أن انازلهم، فاتخذ من الخطرات ما يكفل حمايتي من الغدر الذي كان مدبرا لي!

وكان سخطي وغضبي يفوقان كل وصف. بدلا من أن أخفي ما بنفسني عن السيدة "ديبياني" - كما كانت هي تفعل معي - وأقابل دسائسها بمثلها فإنني انسقت للتهور، دون أن أكبح نفسي، وأقدمت - بتسرعي الممهد - على القطيعة علانية، ومن الممكن قياس اندفاعي وعدم فطنتي بالرسائل التالية التي تبين بوضوح كاف كيف تصرف كل منا في هذه المناسبة:

رسالة من السيدة "ديبياني" (الملف ١ - رقم ٤٤)

"ما السبب في أنني لا أراك، يا صديقتي العزيزة؟.. إنني قلقة بصدك. لقد وعدتني مخلصا بأن تعكف على الهجيء والذهاب، بين هنا و"ليرميستاج"؛ وعلى هذا فقد تركتك تفعل ما يحلو لك. ولكن، لا.. لقد تركت أسبوعا ينقضي دون أن تبر بوعدك، ولولا أنني نبتت بأنك بخير لظننتك مريضا!

"لقد ارتقيبتك بالأمس، أو في اليوم السابق عليه ولكنني لم أر لك أثرا. فيالله.. ما شأنك، وماذا جرى لك؟.. ليس ثمة ما يشغلك، وليس ثمة ما يزعجك. فإنني أطمئن نفسي إلى أنك ما كنت لتتوانى عن الهجيء لتفضي إلي بما يهملك لو كان الأمر كذلك.. إذن، فلا بد أنك مريض.. إنني أرجوك أن تسري عني قلقي فورا.. وداعا يا صديقتي العزيزة، ولعل هذه الـ "وداعا"، تواتيني بـ "صباح الخير" منك!"

الرد

"صباح الأربعاء"

"ليس بوسعي أن أقول لك شيئا، بل إنني أترى ريشا أستكمل معلوماتي، وهذا ما سوف يتحقق عاجلا، أو آجلا، وإلى أن يتم ذلك ثقي من أن البراءة المتهمه، ستلقى مدافعا أوتي من الحماس ما يكفي لأن يتيح للواشين - أيا كانوا - ما يدعوهم للندم والخسرة!"

الرسالة الثانية من السيدة نفسها (الملف ١ - رقم ٤٥).

"أعرف أن خطابك يثير ذعري؟.. ما الذي يرمي إليه؟.. لقد أعدت قراءته خمسا وعشرين مرة، والحق أنني لم أفقه منه شيئا. كل ما أراه هو أنك قلق معذب، وأنت كنتظن إلى أن يزول عنك ذلك، قبل أن تكلمني في الأمر. أفهكذا ما تعاهدنا عليه يا صديقتي العزيزة؟.. فما الذي جرى - إذن - لهذه الصداقة، ولهذا الثقة؟ وكيف تراني فقدتها؟ هل غضبتك ضدي، أو هي من أجلي؟.. مهما يكن الأمر، فإنني أناشدك أن تأتي الليلة، وتذكر أنك وعدتني - ولم تنقض بعد ثمانية أيام - بالا تكتم في قلبك شيئا، وبأن تفتحني في التو. إنني أتشبت بهذه الثقة، يا صديقتي العزيزة.."

"مهلاً! لقد فرغت من قراءة خطابك مرة أخرى فلم أكن أفضل حظاً في فهمه من ذي قبل، ولكنه يجعلني ارتجف. لكم يبدو لي أنك مهتاج بدرجة قاسية، فأرجو أن تهدأ. أما وأنا أجهل موضوع همومك، فإني لا أدري ماذا أقول، اللهم إلا أنني سأظل أضارحك شقاء، إلى أن يقدر لي أن أراك.. فإذا لم تكن هنا في الساعة السادسة من هذا المساء فسأنتقل غداً إلى "ليرميتاج"، مهما تكن حال الطقس، ومهما تكن حالتي أنا؛ إذ إنني لن أستطيع مضياً في تحمل هذا القلق!

"فعم صباحاً، يا صديقي العزيز الطيب.. وكيفما يكن الأمر، فإني أجازف بأن أدعوك - دون أن أدري ما إذا كنت بحاجة إلى هذا النصيح أو إنك لست بحاجة - إلى أن تحاول الحيلة وإيقاف التقدم الذي يحرقه الانزعاج والقلق، في العزلة. فإن الذبابة لا تلبث أن تصبح وحشاً هائلاً.. وقد جربت هذا، كثيراً".

الرد

"مساء هذا الأربعاء

"ليس بوسعي أن أزورك، ولا أن أتقبل زيارتك، طالما ظل القلق الذي أستشعره. إن الثقة التي تتكلمين عنها لم تعد قائمة، ولن يسهل عليك أن تستردها.. إنني لا أرى تلهفك الراهن، سوى الرغبة في أن تستخلصي من اعترافات الغير نفعا يخدم وجهات نظرك ولكن قلبي - الذي يبادر إلى الارتقاء في أحضان أي قلب يفتح له - يغلق أبوابه في وجه المكر والحيلة. إنني أعرف ما وراء الصعوبة التي تلقينها في تفهم رسالتي. أفتعتقديني من الغفلة بحيث أظن أنك لم تفهميها؟ لا ولكنني سأعرف كيف أقهر دهائك بالصراحة.. وسأفصح عن نفسي بمزيد من الجلاء؛ لكي ينسني لك أن تصبحي أكثر فهماً لي.

"هناك عاشقان وثيقا الترابط، وأهل لأن يتحابا، يحتلان من نفسي مكانة عزيزة، وأحسبك لن تدري من أعني إلا إذا ذكرت لك اسميهما، وأرى أن هناك من حاول التفرقة بينهما وأنني الشخص الذي استخدم لإثارة غيرة أحدهما، ولم يكن الاختيار جد بارع بيد أنه لاح ملائماً للغرض الخبيث.. وأنت التي أرتاب في أنها مديرة هذا الخبيث، وأرجو أن يزداد هذا اتضاحاً!

"وهكذا - على ما عرف - تتعرض المرأة - التي أجعلها فوق كل من عداها - لمعرفة تقسيم قلبها وشخصها بين عاشقين، كما أتعرض أنا لعار أن أكون أحد هذين الشخصين الضعيفين النفس.. لو أنني عرفت أنك كنت تقدمين على مثل هذا الظن بها وبني - للحظة واحدة من العمر - لأبغضت حتى الموت. ولكنني لا أتهمك إلا بأنك قلت، وليس بأنك ظننت وفكرت.. ولست أفهم - في مثل هذه الحال - من من الثلاثة كنت تشتهين إيذاءه. ولكنك خليقة - إذا كنت تحبين طمأنينة النفس - بأن تخشي النحس الذي يجلبه عليك النجاح..

إنني لم أكنم عنك - ولا عنها - وكل ما أراه من سوء في بعض روابط معينة، ولكنني أرجو أن تنتهي هذه الروابط بوسيلة شريفة تعادل المشاعر التي نالفت منها في الأصل، وأن ينقلب حب غير مشروع، إلى صداقة أبدية، أفانا الذي لم أوقع يوماً بمخلوق أذى استخدم كوسيلة بريفة لإيذاء أصدقائي؟ لا، لن أصفح عنك أبداً. بل إنني لخلق بأن أصبح عدوك الذي لا سبيل إلى استرضائه،

ولن أحترم في ذلك سوى أسرارك وحدك؛ لأنني لن أكون يوما رجلا بلا عهد ولا ولاء
 "إنني لا أتصور أن تدوم الحيرة - التي أعانيها - طويلا، ولن ألبث أن أتبين ما إذا كنت مخطئا؛
 وإذا ذلك فقد يكون من واجبي أن أصلح غلطة كبرى، ولن يكون في حياتي ما أقدم عليه بطيب خاطر
 يفوق ما سافعل به ذلك.. ولكن، أتعرفين كيف ساكفر عن أخطائي في الفترة القصيرة التي ساظل
 أقضيها على مقربة منك؟.. لسوف يكون ذلك بأن أفعل ما لا قبل لغيري بفعله.. بأن أقول لك
 بصراحة ما يراه الناس فيك، وبأن أطلعك على الثغرات التي يحتم عليك رتقها في نسيج سمعتك،
 وبالرغم من كل من يحيطون بك من مدعي الصداقة فإنك عندما ترينني أرحل ستودعين الصدق؛ إذ
 إنك لن تجدي بعدي من يقوله لك".

الرسالة الثالثة من السيدة "ديسيناي" (الملف ١ رقم ٤٦)

"لم أفهم رسالتك التي تلقيتها في هذا الصباح، ولست أقول هذا إلا أنه كذلك، وإنني لانتظر
 رسالة هذا المساء، فلا تخش ألا أجيب عنها قط، وإنما أنا جد نواقة إلى أن أنساها، ومع أنك تشير
 إشفائي إلا أنني لا أملك دفعا للمرارة التي ملأت بها نفسي. أن استخدم المكر والدهاء معك؟.. أنا
 أنهم بأسود الشناعات؟
 "وداعا، وإنني لاندنم على أنك كنت هنا.. وداعا، فلست أدري ماذا أقول.. وداعا، ولن أتوق إلا
 إلى أن أصفح عنك. ولك أن تأتي عندما يحلو لك، وسوف تستقبل بأفضل ما لا تؤهلك له
 شكوكك، وليس عليك سوى أن تريح نفسك من عناء الانشغال بسمعتي، فليس في الأمر ما يهمني.
 إن مسلكي طيب، وهذا يكفيني..
 "عدا هذا فإنني أجهل تماما ما جرى للشخصين اللذين يحتلان من نفسي أنا الأخرى، المكانة
 العزيزة التي يحتلانها من نفسك (١)."



ولقد خلصتني هذه الرسالة الأخيرة من حيرة البسة، ولكنها ألقت بي إلى أخرى لم تكن تقل
 عنها، ومع أن هذه الرسائل وردوها تبودلت بسرعة بالغة في بحر يوم واحد، إلا أن هذه الفترة كانت
 كافية؛ لكي أقطع استرسال نوبات غضبي، ولكي أفكر في ضخامة اندفاعي غير الحكيم، ولم تكن
 السيدة "دودويتو" قد أوصتني بشيء قدر ما أوصتني بأن ألزم الهدوء، وأن أترك لها عبء تخليص
 نفسها بنفسها من هذه المسألة، وبأن أتفادى كل قطيعة وكل ضجة، لا سيما في تلك الفترة بالذات،
 ومع ذلك فهأنذا أذكت - بإهاناتي البالغة الصراحة والمقدعة الفظاعة - نار السخط في قلب امرأة لم
 تكن إذ ذاك ترجو سوى ذلك، وما كان لي - بطبيعة الحال - أن أنتظر من ناحيتها سوى رد بالغ
 الكبرياء، والازدراء، والإهانة، إلى درجة لا أملك معها - إلا بأقصى ذلة مهينة - أن أحجم عن مغادرة
 بيتها في الحال. على أن دهاءها كان - لحسن الحظ - يفوق غضبي؛ فتفادت بلهجة جوابها أن تسف
 في تحقيري إلى هذا الحد. غير أنه لم يكن ثمة بد من أن أغادر البيت، أو أن أذهب لزيارتها على

(١) في النص الذي ورد في "مذكرات مدام "ديسيناي" ذكرت العبارة الأخيرة، على النسق التالي: "أنني أحلك - متى شئت - بما ذكرت بشأن
 أسراري، حتى لا أجشعك عناء صباتها، فإنك لتعرف - أكثر من أي شخص آخر - أن ليس لدي إلا كل ما يشرهني الإنضاء به". وقد أرسلت
 نسخة من هذا النص إلى "جرم".

الفور... لم يكن ثمة مفر من اختيار أحد الأمرين! وقد استقر رأيي على الأخير منهما، وأنا في حيرة شديدة من المسلك الذي كان ينبغي أن انتهجه في الإيضاح الذي توقع أن أطلب به. فكيف كان بوسعي أن أخلص نفسي بدون أن أقحم السيدة "دوديتو" أو "ثيريز"؟... إذ ويل لتلك التي ساضطر إلى أن أقضي باسمها!.. ما من شيء في انتقام امرأة حقوق، بارعة في المكائد إلا آثار مخاوفي على تلك التي قد تقع النقمة على رأسها، وما قصرت رسائلتي على مجرد "شكوك" إلا لتفادي هذه النقمة، إذ إنني بذلك تلافيت أن اضطر إلى تقديم أدلة، ومن الصحيح أن هذا جعل فوراتي أبعد من أن تغتفر، إذ ما كان أي شك مجرد ليبيح لي أن أعامل امرأة صديقة، كما عاملت السيدة "ديسيناي". ولكن.. هنا بالذات، تبدأ المحاولة الكبيرة والنبيلة، التي حققتها بجدارة؛ إذ كفرت عن أخطائي ومواطن ضعفي المستترة بأن تحملت ذنوبا أشد وأقسى، لم أكن مرتكبها، ولا كنت يوما جديرا بوزرها.

على أنني لم اضطر إلى تحمل الهجوم الذي كنت أخشاه بل كان كل نصيبي منه هو الخوف الذي راودني. فما إن اقتربت من السيدة "ديسيناي" حتى ألقت بذراعيها حول عنقي، وانفجرت باكية، ومس قلبي هذا الاستقبال غير المرتقب، من صديقة قديمة؛ فتأثرت كل التأثر، وبكيت كثيرا أنا الآخر..

وقلت لها بضع كلمات، لم يكن لها من معنى.. وقالت لي بضع كلمات مثلها، كانت أبعد من أن تكون ذات معنى.. وكان هذا غاية الأمر! ثم أعدت المائدة، فجلسنا إليها معا. وهناك، وفي انتظار أن ادعى للإيضاح - الذي ظننت أنه لم يرجأ إلا ريثما نفرغ من العشاء - كنت في أسوأ حال؛ إذ إنني أنصاع دائما لأقل اضطراب يملكني، حتى إنني لأعجز عن أن أخفيه عن أقل الناس ملاحظة وفطنة، ولقد كان ارتياكي كفيلا بأن يلهمها الشجاعة بيد أنها لم تجرؤ على الإقدام؛ ومن ثم لم يكن هناك إيضاح بعد العشاء يفوق ما كان قبله!.. لا ولا كان ثمة في غد.. بل إن خلواتنا الصامتة، لم تملأ إلا بأمور غير ذات بال، أو ببضع محاولات مؤدبة من جانبي، حاولت بها أن أشرح موقعي، وأن أوعز بأنني لم أكن أملك أن أقول شيئا عن الأساس الذي قامت عليه شكوكي، وأن أؤكد - بكل إخلاص وصدق - أن حياتي بأسرها ستنفق في إصلاح ما كان في هذه الشكوك من غبن، لو أنني تثبت من أنها لم تقم على أساس ما!

ولم تبد السيدة "ديسيناي" أقل فضولا إلى معرفة كنه هذه الشكوك تماما، ولا كيف واثنتي. بل اقتصر الصلح بيننا - سواء من ناحيتها أو من ناحيتي - على العناق الذي ضمنا حين التقينا، ولما كانت هي الوحيدة التي مستها الإساءة - من الناحية الشكلية على الأقل - فقد لاح أن لا داعي يدعوني إلى أن أسعى إلى إيضاح لم تكن تنشده هي نفسها؛ ومن ثم عدت إلى بيتي كما بارحته!.. عدا ذلك، ظلت علاقتي بها على ما كانت عليه من قبل، وسرعان ما نسيت النزاع نسيانا شبه تام، واعتقدت - في غياب - أنها قد نسيت هي الأخرى؛ لأنها لم تعد تبدي ما يدل على أنها ظلت تذكره!



ولم يكن هذا - كما سيبدو سريعا - هو الكرب الوحيد الذي جره عليّ ضعفي، ولكنني تعرضت لكروب غيره لم تكن أقل إزعاجا، ولكنني لم أكن مجتلبها حقا، وما كان لها من داع سوى الرغبة في

انتزاعي من عزلي (١)، ولقد واتنتي هذه المضايقات من "ديدرو" وعصبة "دولباخ". فإن "ديدرو" لم يكف يوما - منذ استقرار في "ليسميتاج" - عن التحرش بي، سواء بنفسه، أو عن طريق "دبليس"، وسرعان ما تبينت من دعابات هذا بشأن نزواتي في الغابة، مدى الغبطة التي خلعوها بها عليّ الناسك ثوب الراعي العاشق ولكن هذا لم يكن محور المآخذ التي آخذت بها "ديدرو" بل كانت ثمة أسباب أشد وأعظم!

ذلك أنه عقب نشر "ابن السفاح"، أرسل لي نسخة من الكتاب قرأتها بالاهتمام والشوق اللذين يولييهما المرء عادة مؤلفا من إنتاج صديق له، وإذا طالعت الحوار الشعري الذي ألحق به دهشت، بل وحزنت؛ إذ وجدت فيه - إلى جانب عدة تلميحات كريمة، ولكنها تحتل، وقد وجهها ضد أولئك الذين يعيشون في عزلة - هذه العبارة الخشنة، المريرة، التي لم يكن لها مجال في السياق: "لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث!"

وهذه العبارة مبهمة، وتحتل تاويلين، كما يبدو لي. أحدهما صادق كل الصدق، والآخر زائف كل الزيف؛ إذ إن من المستحيل على إنسان يعيش - ويرغب في أن يعيش - في عزلة أن يبغى إيذاء أحد؛ وبالتالي فمن المستحيل أن يكون خبيثا. ومن ثم فقد كانت العبارة - في حد ذاتها - تتطلب إيضاحا.. وهي أكثر تطلبا له، لصدورها من مؤلف كان له - عندما طبعت هذه العبارة - صديق يلوذ بالعزلة، وبدا لي أنه من المستنكر، ومن المحافة للأمانة أن يكون "ديدرو" قد نسي - عند نشرها - هذا الصديق المعتكف.. أو - إذا كان قد تذكره - ألا يكون قد أردف - في تعميمه الرأي، على الأقل - ما كان ينبغي عليه من استثناء كرم وعادل، لا بالنسبة لهذا الصديق فحسب، وإنما بالنسبة إلى كثير من الحكماء ذوي المكانة، الذين كانوا ينشدون في العزلة - في جميع الأزمان - الهدوء والسلام، والذين سمح مؤلف لنفسه - لأول مرة منذ خلق الدنيا - بأن يجعل منهم - على كثرتهم - أشرارا بلا استثناء، وبجرة قلم!

كنت أحب "ديدرو" من قلبي، وكنت أقدره صادقا، وكنت مطمئنا تمام الطمأنينة إلى عين العواطف من ناحيته. ولكنني ضقت بعناده - الذي لم يكن يلين - في معارضتي في أدواقي، وميولي، وأسلوب معيشتي وفي كل ما كان يعينني وحدي، بوجه خاص.. وأثارني مرأى رجل يصغرني ويسعى بكل حيلة إلى أن يسيطر عليّ كما لو كنت طفلا.. ونفرتني منه سهولة إزجائه الوعود، وإهماله الوفاء بها.. وغاظني منه كثرة المواعيد المعقودة وتخليه عنها، وشغفه بعقد مواعيد جديدة لكي ينكث بها مرة أخرى.. ومللت انتظاره عبثا ثلاث أو أربع مرات في الشهر في أيام كان يحددها هو، لكي أنتهي إلى تناول العشاء وحيدا في المساء، بعد أن أكون قد سرت إلى "سان دنيس" عسى أن التقى به في الطريق، وبعد أن أكون قد ارتقيته طوال النهار.. كان قلبي متخما بمثل هذه العيوب المتراكمة، وكان العيب الأخير منها يبدو لي أشدها، كما أنه كان أكثرها جرحا لكرامتي، ولقد كتبت إليه شاكيا ولكن.. في حنان ولطف جعلاني أغرق ورقتي بالدموع، وكان خطابي مؤثرا إلى درجة كانت خليقة بأن تستدر دموعه. ولكن أحدا ما كان ليحدث رده على ذلك الخطاب.. وها هو بنصه (الملف ١ - رقم ٣٣):

"إنني لجد مغتبط؛ لأن كتابي راق لك.. إنك لا تقرني على رأيي بشأن الناسك المعتزلين، فحدث عنهم ولا حرج، ما شاء لك الحديث، فلسوف تظل الوحيد في العالم، الذي أفكر فيه في هذا المجال..

(١) أردف "روسو" معنيا بقوله: "وأعني بذلك، الرغبة في انتزاع المرأة المعجوز من هذه العزلة، إذ كانت الحاجة ماسة إليها في تدبير المؤامرة. ومن الدهش أن ثقتي الخسفاء في الغير، ظلت - إن هذه العاصفة الطويلة الأجل - تحول بيني وبين أن أقوم أنها هي - ولست أنا - التي كانت مرغمة العودة إلى باريس.. ويقصد بالمرأة المعجوز هنا، السيدة "لوفاسير"، أم "تيريز".

ومع ذلك فلا يزال لدي الكثير مما أستطيع أن أقوله بهذا الصدد، لو كان في الوسع الكلام دون إغضابك.

إن امرأة في الثمانين من عمرها .. إلخ. لقد أنبأني بعضهم بعبارة من خطاب كتبه ابن السيدة "ديبيناي"، ولابد أنه أملك كثيرا، وإلا فإنني لم ألم كل الإمام بدخيلة نفسك".

ولابد لي من أن أوضح العبارتين الأخيرتين من هذا الخطاب: ففي بداية مكثي في "ليرميتاج" لم تبد السيدة "لوفاسير" ارتياحا، ووجدت أن المكان كان منعزلا أكثر مما ينبغي، وقد رددت ملاحظاتها في هذا الصدد على مسمعي، فعرضت أن أردّها إلى "باريس"، إذا كانت تفضل ذلك، وإن أدفع لها أجر سكناها هناك، وأن أعني بحاجاتها كما أنها كانت ماضية في الإقامة معي .. بيد أنها رفضت اقتراحي، وأعلنت أنها جد راضية عن "ليرميتاج"، وأن جو الريف كان مفيدا لها، وقد تبدى أن هذا كان صحيحا؛ إذ إنها ارتدت إلى الشباب، كما ينبغي أن يقال، وأصبحت أفضل حالا مما كانت في "باريس". بل إن ابنتها أكدت لي أنها كانت - في قرارة نفسها - مستاءة لمبارحتنا "ليرميتاج"، الذي كان مقاما فاتنا حقا، وأنها كانت مشغوفة بما كان يشغلها من توافه الحديقة وفواكهها، وأنها إنما قالت ما قالت بإيعاز من الغير؛ لتحاول إغرائني على العودة إلى "باريس"!

وإذ أخفقت تلك المحاولة، سعوا إلى أن يحصلوا بإثارة الريب على ما لم تؤد إليه المجاملة، فراحوا يعلنون أن من الجرم أن استبقي المعجوز هناك بعيدا عن الخدمات التي قد تحتاج إليها في مثل سنّها، دون أن يفتنوا إلى أنها وكثيراً من المكتهلين، الذين يطبل طقس الريف الرائع من حياتها - كانوا يستطيعون الحصول على تلك الخدمات في "مونفورسي"، التي كانت جد قريبة من مسكني .. وكأنما لم يكن ثمة كهول إلا في "باريس"، ولم يكن في وسع الطاعنين في السن أن يعيشوا في أي مكان آخر .. ولقد كانت السيدة "لوفاسير" - التي كانت أكلوا، عظيمة النهم - عرضة لالتهابات المرارة، ولتوبات قاسية من الإسهال، كانت تلازمها أياما، ولا تلبث أن تشفى من تلقاء ذاتها، ولم تكن المعجوز تتناول شيئا حين كانت في "باريس" - وإنما كانت تترك الطبيعة تتخذ مجراها. وكذلك كانت تفعل في "ليرميتاج"؛ إذ أدركت أنها لا تملك سبيلا خيرا من هذه!

ولكن الراغبين في إثارة المتاعب، لم يعبثوا بهذا، فما دام لم يكن ثمة أطباء ولا صيادلة في الريف فإن استبقاء المعجوز هناك، كان يعني الرغبة في موتها. برغم أنها كانت هناك في صحة طيبة! .. وكان خليقا بـ "ديدرو" أن يحدد السن التي لا يجوز بعدها السماح للمسنين بالبقاء بعيدا عن "باريس"، والتي يكون استبقاؤهم بعدها قتلا مع الإصرار! .. ولقد كان هذا أحد الذنوب الشنيعين اللذين لم يشأ من أجلهما أن يستثنيني من رأيه! .. "لا يلزم العزلة سوى أهل الخبث"!

وكان هذا تفسير تعجبه المؤثر، والـ "إلى آخره" التي تكرم بإضافتها، حين قال: "أن امرأة في الثمانين من عمرها .. إلخ"



وخطر لي أنني لن أجد ردا على هذا اللوم أفضل من أن أرجع إلى السيدة "لوفاسير" نفسها. فسألته أن تكتب إلى السيدة "ديبيناي" معبرة عن شعورها الطبيعي إزاء الأمر؛ ولكي أتركها تسترسل على سجيته، لم أسأله أن تطلعني على خطابها .. بل إنني أطلعتها على الخطاب التالي،

الذي كنت قد كتبتك إلى السيدة "ديبينا"، بشأن رد - كنت قد اعتزمت أن أجيب به عن خطاب أعنف من السابق، ورد من "ديدرو" - ولكنها منعتني من إرسال هذا الرد.

يوم الخميس

"إن السيدة "لوفاسير" تعتزم أن تكتب إليك، أيتها الصديقة الطيبة.. فلقد رجوتها أن تروي لك بصراحة ما يدور بخلدها؛ ولكي تكون على سجيئتها تماما، فقد أخبرتها بأنني لا أريد أن أرى خطابها، كما أنني أناشدك ألا تذكر لي شيئا عن محتوياته.

"إنني لم أرسل خطابي (١) ما دمت تعارضين في ذلك، ولكن شعوري بأنني طعنت طعنة بالغة، يجعل من الصغار، بل ومن الغش الذي لا أسمح به لنفسي أنني أرضى بأن أكون مخطئا.. ولا مرء في أن "الإنجيل" يدعو المرء الذي يصفع على أحد خديه، أن يدير الخد الآخر، ولكنه لا يدعو إلى أن يطلب الصفح. أفتذكرين ذلك الرجل الذي يهتف - في المسرحية الفكاهة - وهو ينهال بعصاه ضربا: "ها هو ذا دور الفيلسوف"؟

"لا تخدعي نفسك إذ ترين أن بوسعك أن تمنعني من الهجيء متعلقة بسوء الطقس هنا، في الآونة الحاضرة.. فإن حقنه سيهبه ما تاباه عليه الصداقة من وقت وقوة.. وستكون هذه هي أول مرة في حياته، يفد فيها في ذات اليوم الذي يضره موعدا! ولسوف يبذل قصارى جهده، لكي يأتي فيردد بلسانه ما كاله لي في خطاباته من إهانات، ولسوف أتحمّلها ببالغ الصبر، ولسوف يعود إلى "باريس"، وهو مريض؛ ومن ثم أغدو أنا - كالمعتاد - شخصا بغضا كل البغض. فماذا أفعل؟... لا مفر من الاحتمال!

"ولكن.. ألسنت تعجبين بحكمة شخص رغب في أن يجيء فيصحبني إلى "سان دنيس" في مركبة؛ لتتناول الغداء هناك، ثم يقلني - في العودة - في مركبة.. ثم لا تلبث ثروته أن تعجز - بعد ثمانية أيام - (الملف أ - الرسالة رقم ٣٤) - عن أن تمكنه من أن يفد على "ليرميتاج" إلا سائرا على قدميه..؟ ليس من المستحيل في شيء - إذا تكلمنا بأسلوبه - أن تكون هذه هي سمة الإخلاص وحسن النية، ولكن لا بد له - في هذه الحال - من أن يطرأ على موارده تغير خارجي خلال ثمانية أيام!

"إنني أشاطرك أساك من أجل مرض السيدة والدتك، ولكنك ترين أن آلامك تعادل آلامي. فإن رؤية الأشخاص الذين نجهم مرضى، أقل إبلاما للنفس من الغبن والقسوة.

"فوداعا يا صديقتي الطيبة، وستكون هذه آخر مرة أتحدث فيها إليك عن هذه المسألة التعسة.. إنك تحدثيني عن الذهاب إلى "باريس" في هدوء أعصاب كفيف بأن يطربني، لو أنه حدث في ظروف أخرى".

وأنياب "ديدرو" بما فعلت مع السيدة "لوفاسير"، نزولا عند رأي السيدة "ديبينا" نفسها، وقد اختارت السيدة "لوفاسير" البقاء في "ليرميتاج" - وهو ما كان في وسع أي امرئ أن يحدثه - لأنها كانت جد مرتاحة إلى المقام فيه، حيث كانت تجد دائما أنيسا، وحيث كانت تحيا حياة تروق لها؛ ومن ثم فإن "ديدرو" لم يعد يدري بأي ذنب يتهمني، فجعل من هذا الاحتياط الذي اتخذته (٢) ذنبا، كما اتخذ من استمرار بقاء السيدة "لوفاسير" في "ليرميتاج" ذنبا آخر، بالرغم من أن هذا البقاء كان بمحض اختيارها وقد ظلت حرة في أن تعود إلى "باريس" لتقيم متمتعة بنفس ما كانت تتمتع به في بيتي من مساعدة.

(١) بغض الرد على الخطاب القاسي الذي تلقاه من "ديدرو". (٢) الاحتياط الذي تمثل في أنه ترك مدام "لوفاسير" تكتب ما تشاء، دون أن يطلع على خطابها.

هذا هو بيان اللوم الأول، الذي ورد في رسالة "ديدرو" رقم ٣ . أما إيضاح اللوم الثاني، ففي سياق خطابه رقم ٣٤ :

"لا بد أن "الأديب" (١) قد كتب إليك عن أن ثمة عشرين شريدا تمسوا على الأسوار، يموتون بردا وجوعا، ويرتقبون المليم الذي اعتدت أن تمنحهم إياه . هذه عينة من ثروتنا البسيطة . . ولو أنك استمعت إلى بقيتها لوجدت فيها ما يروك، كهذه!" .

وها هو ذا ردي على هذا الجدل البغيض، الذي بدا وكأن "ديدرو" كان مزهوا به: "أعتقد أنني رددت على "الأديب" - أقصد ابن ناظر الزراعة العام - بأنني لا أشفق على الفقراء الذين رأهم على الأسوار يرتقبون مليمي، وأن من الواضح أنه قد عوضهم عما فقدوا، وأنتي قد عينته بديلا عني، وأنه ليس لفقراء "باريس" أن يشتكوا من هذا التغيير، وأنتي لا أجد من السهل العثور على بديل آخر يصلح لفقراء "مونفورنسي"، الذين هم أشد حاجة! . . فهنا شيخ طيب، ومحترم، قضى حياته في العمل، ولم يعد اليوم يقوم عليه، فهو يموت جوعا إبان شيخوخته، وإن ضميمي ليشعر بارتياح إزاء قطعتي "السو" اللتين أمنحه إياهما في يوم الاثنين من كل أسبوع، يفوق ذلك الارتياح الذي يستشعره إذا أنا وزعت مائة مليم على صعاليك الأسوار . إنكم لتلهون - بامعشر الفلاسفة - حين تنظرون إلى جميع سكان المدن، بحسبانهم الوحيدين الذين يطالبكم الواجب بأن تشغلوا بأمرهم . . إنما يتعلم المرء حب الإنسانية وخدمتها في الريف، ولا يتعلم في المدن سوى ازدرائها!" .



هكذا كانت الوسواس العجيبة، التي استند إليها رجل ذكي، منساقا لنزوة حمقاء حملته على أن يجعل - جادا - من معادي عن "باريس" ذنبا وجرمًا، وعلى أن يحاول أن يبرهن لي بحالي إن لا سبيل إلى الإقامة خارج العاصمة إلا إذا كان المرء خبيثا، ولست أدري اليوم كيف كنت من البلاهة بحيث رددت عليه، واستأت منه، بدلا من أن يكون جوابي الاوحد، هو أن أضحك ساخرًا؟! . . على أن قرارات السيدة "ديبيناي" والضجة التي أثارتها عصبة "دولباخ"، استولت على أذهان الناس وغرتهم، حتى لقد اعتبرت - بوجه عام - مخطئا في هذه المسألة . . وحتى إن السيدة "دوديتو" نفسها - وهي من أشد المعجبات بـ "ديدرو" - رغبت في أن أذهب إلى زيارته في "باريس"، وأن أؤدي - كل المقدمات لصلح لم يدم طويلا بالرغم من أنه كان مخلصا وكان من ناحيتي . .

وكانت الحجة الموقفة التي استغلتها السيدة "دوديتو" للتأثير على قلبي هي أن "ديدرو" كان - في هذه اللحظة - تمسا شقيا . فإلى جانب العاصفة التي ثارت ضد "الموسوعة"، كان عليه أن يحتمل عاصفة أخرى أشد عنقا، أثارها الكتاب . فبالرغم من المقدمة الصغيرة التي مهد لها به، اتهم "ديدرو" بأنه قد نقله بأكمله عن "جولدونني"، ولقد كان "ديدرو" أكثر تأثرا وارتياكا بالنقد من "فولتير" ولقد ذهب السيدة "دي جرافيني" في دهائها إلى حد أنها أذاعت شائعة بأنني انتهزت هذه الفرصة لكي أقطع ما كان بيني وبينه؛ لذلك فقد رأيت أن من الإنصاف والكرم أن أظهر نقيض ذلك على الملا؛ فذهبت لأقضي يومين في داره، وإن لم أقضهما في صحبته وحده! . . وكانت هذه هي رحلتي الثانية إلى "باريس"، منذ استغربي المقام في "ليرميتاج" . فقد قمت بالرحلة الأولى؛ لا بادر بأن أكون إلى جوار "جوفكور" الذي أصيب بنوبة فالج، لم يقدر له أن يشفى منها تماما، وقد ظللت طيلة مرضه ملازما فراشه حتى تجاوز الخطر!

واحسن "ديدرو" استقبالي.. فما أقدر عناق الأصدقاء على محو الأخطاء... وأية سخيمة يمكن أن تظل في القلب بعد ذلك؟.. وتبادلنا بعض الإيضاحات، كما كان ثمة داع لها، ما دامت الإساءات متبادلة. ففي مثل هذه الحال، لا يكون ثمة ما ينبغي فعله سوى.. التسيان، لا خصوصا انه لم تكن ثمة دسائس خفية - فيما كنت أعلم على الأقل - كما كانت الحال مع السيدة "ديسيناي"، ولقد اطلعتني على مشروع كتابه. "أب الأسرة"، فقلت له: "هذا خير دفاع عن "ابن السفاح"!.. فالزم الصمت، وامض في هذا المؤلف بعناية، ثم طوح به فجأة في وجوه أعدائك، فإنه الرد الوحيد". ولقد فعل ذلك، ووجد انها خطة موفقة!

ولقد أرسلت إليه الجزئين الأولين من "جولي" - قبل ذلك بستة أشهر - أسأله رأيه فيهما، ولم يكن قد قراهما بعد؛ فطالعنا شطرا منهما معا، وقد وجد انهما "قرطسة" (١)، وكان هذا هو التعبير الذي استخدمه، قاصدا أن الجزئين كانا مليئين بالكلام المنمق، وبالتكرار والإطالة، وكنت قد شعرت بذلك، من تلقاء نفسي، ولكن ما أوردته فيهما كان هذيان الحمى (٢). ولم أكن راجعته أو صححته. على أن الأجزاء الأخيرة ليست على هذا الغرار، لاسيما الرابع والسادس، فإنهما تحفة في البلاغة.

وفي اليوم التالي لوصولي رغب - في إصرار - في أن يصطحبني لتناول العشاء لدى السيد "دولباخ" راغبا في أن أفسخ الاتفاق الخاص بأصول كتاب "الكيمياء"؛ لأنني كنت أربأ بنفسني أن أكون على التزام نحو هذا الرجل (٣). ولقد انتصر "ديدرو" على طول الخط، واقسم على أن السيد "دولباخ" كان يكن لي أخلص الود، وأن الواجب يقتضي أن أغفر له مسلكه الذي يتخذه مع الناس كافة، والذي يعاني منه أصدقاؤه أكثر مما يعاني سواهم، وصور لي أن رفض إنتاج هذا الكتاب، بعد أن قبلته منذ عامين، إهانة لصاحب العرض، لا يستحق أن يجازى بها. بل إن هذا الرفض قد يساء تأويله؛ فيحمل على محمل اللوم لأنه مكث هذا الأمد الطويل دون أن يحقق الاتفاق، واستطرد قائلا: "إنني أرى "دولباخ" في كل يوم، وأعرف حال نفسه أكثر مما تعرفها أنت، وإذا لم يكن ثمة مجال لك كي ترضى عن هذا العمل، أفنتظن أن صديقك يقدم على نصحك بأن تحط من قدر نفسك؟". وفي إيجاز، سمحت لنفسني بأن أسلم له - بكل ما عرف عني من ضعف - وذهينا معا لتناول العشاء مع "البارون"، الذي استقبلني على مألوف عاداته. ولكن زوجته تلقتني بتطور بل وبجفاء غير كريم (٤) حتى كنت أنكر فيها "كارولين" اللطيفة، التي أظهرت لي - قبل زواجها - كثيرا من آيات النية الطيبة. وكنت قد لاحظت - قبل ذلك بزمان طويل - أنني لم أجد زائرا مرموقا مذ أصبح "جسريم" ضيفا مستمرا في قصر "اين".



وبينما كنت في "باريس" وفد "سان - لامبير" في إجازة من الجيش، ولما لم أكن قد علمت بذلك؛ فلأنني لم أره إلا بعد عودتي إلى الريف، في "لاشيفريت" أولا، ثم في "ليرميثاج"، حيث

(١) قرطسة: مشتقة من قرطاس، هو الورق... وهو يقصد هنا، أن المادة كانت حشوا، أو مجرد تسويد ورق. (٢) كتب "روسو" الجزئين الأولين من "جولي"، وقد انتهت الحثين إلى الحب، فراح يوحى إليه بأحلام مجنونة، على ما أورد من قبل. (٣) يقصد "دولباخ". ويلاحظ أن "روسو" لم يذكر شيئا من قبل عن "أصول كتاب في الكيمياء"، ولا عن "الاتفاق" الذي تم بشأن ذلك؛ ومن ثم فإن إبراد الأمر على هذه الصورة، يبدو محوطا بالغموض، ولنسا نجد فيما كتب شيئا يلقي مزيدا من الضوء على المسألة. (٤) ذكر "روسو" في الكراسة الثامنة ثمة موت السيدة "دولباخ". ومن ثم يحسن أن نذكر هنا أن البارون "دولباخ" كان ما يزال في مقتبل الشباب عندما تم زواجه؛ فكانت زوجته الجديدة هي "كارولين - سو" آن د - اين"، وهي أخت زوجته المتوفاة، وقد حصل على إذن بذلك من "روما"، ومن هنا نفهم أن قصر "اين" - الذي ذكر بعد ذلك - كان من أملاك الزوجة.

أقبل مع السيدة "دوديتو"، واستضافا نفسيهما للغداء، ومن الميسور تصور مدى الاغتياب الذي استقبلتهما به... ولكنني كنت أكثر اغتباطا بمشاهدة انسجامهما البديع، وسعدت بدوري، إذ اطمأننت إلى أنني لم أعكر صفو هوائهما، وبوسعي أن أقسم على أنني ما كنت - طيلة وجدي الطائش بل وفي تلك الآونة بالذات - لآتمنى أن آخذ السيدة "دوديتو" من "سان - لامبير"، ولو استطعت إلى ذلك سبيلا... بل إنني ما كنت لأشعر بمجرد الرغبة في ذلك!.. فلقد وجدتتها جديدة بحسب "سان لامبير"، مدلهة في هواه، حتى إنني لم أكّد أتصور أنها تستطيع أن تهيم بي بهذا القدر، وكان كل ما طمعت فيه - في بُحْران الوجد - هو أن تدعني أحبها من ناحيتي، دونما رغبة مني في أن أعكر صفو رابطتهما!.. وقصارى القول إنني - برغم عنف الصباية التي كانت تلتهمني بنيرانها - وجدت متعة في أن أكون موضع ثقة هذه السيدة، لا تقل عن المتعة التي كنت خليقا بأن أستشعرها إذا كنت هدف حبها، ولم أنظر إلى عاشقها لحظة على أنه غريم أو مزاحم، وإنما ظللت - على الدوام - أنظر إليه كصديق، ولقد يقال إن هذا لم يكن بعد غراما حقيقيا فليكن!.. لقد كان أكثر من الغرام!

أما "سان - لامبير"، فقد كان تصرفه تصرف الرجل الكريم، الرزين، ولما كنت المذنب الوحيد، فإنني كذلك كنت الجدير بالعقاب، وكان عقابي مشوبا بالتسامح. فقد عاملني "سان - لامبير" في خشونة، ولكن في ود، واستطعت أن ألمح أنني قد فقدت بعض تقديره، ولكنني لم أفقد شيئا البتة من صداقته؛ فتعزيت بذلك موقنا من أن استعادة الأولى أسهل بكثير من استعادة الثانية.. ومدركا أنه كان أعقل وأحكم من أن ينقم على ضعف لإرادتي، وطاريء، ومنبعث عن عيب طبيعي، وإذا كانت ثمة أخطاء من ناحيتي - في كل ما جرى - فإنها كانت طفيفة. أفانا الذي سعى إلى عشيقته؟.. ألم يكن هو الذي أرسلها إلي؟.. ألم تكن هي التي جاءتنني؟ فهل كان بوسعي أن أمتنع عن استقبالها؟.. ما الذي كنت أملك أن أفعله؟.. إنهما هما سر البلوى، ولم يكن من معذب سواي! ولو أن "سان - لامبير" كان في مكاني لفعل عين ما فعلت بل ربما أسوأ مما فعلت!.. ذلك لأن السيدة "دوديتو" - برغم وفائها، وبرغم جدارتها بالاحترام - كانت امرأة!.. ولقد كان هو كثير التغيب؛ فكانت الفرص موفورة، والمغريات شديدة، وكان من الشاق حقا أن تذود دائما عن نفسها ضد أي عاشق أكثر جراءة، بعين التوفيق الذي صددتني به، وبقينا أنه كان من الكثير - الذي ينبغي أن يذكر لنا، هي وأنا - أن استطعنا في ظروف كهذه أن نضع حدودا، لم نسمح لأنفسينا قط بتخطيها! ومع أنني من أستطيع أن أستخلص من أعماق قلبي شهادة كريمة في صالحتي إلا أن المظاهر كانت ضدي، حتى إن الشعور بالحجل الطاغي - الذي كان يتسلط عليّ دوما - خلع عليّ، في حضور "سان - لامبير" مظهر المذنب، فأكثر هو من استغلاله لإذلالتي، وكان ثمة حادث واحد يوضح هذا الموقف المتبادل. فلقد قرأت عليه - عقب الغداء - الرسالة التي كنت قد كتبتها لـ "فولتير"، قبل عام، والذي سمع بامرأها، وإذا به يستسلم للنعاس بينما كنت أقرؤها، وبعد أن كنت فخورا، إذا بي أغدو غيبا، فلا أجرؤ على أن أقطع القراءة؛ ومن ثم فقد استرسلت فيها بينما استرسل هو في الغفط!.. وهكذا أذلت نفسي.. وهكذا كان ثاره لنفسه.. غير أن كرم نفسه لم يكن يخوله أن يمارس هذه الأساليب إلا فيما بيننا نحن الثلاثة!



وبعد أن رحل "سان - لامبير" ثانية، الفيت السيدة "دوديتو" قد تغيرت إزائتي تغيرا شديدا، وقد ذهلت لهذا وكأنه لم يكن خليفيا بي أن أتوقعه، وتأثرت به أكثر مما كان ينبغي؛ مما سبب لي كثيرا من الآلام والتباريح. وكأنما كل شيء مما توقعت أن يبرئني، كان يزيد من تغلغل السهم في قلبي.. ذلك السهم الذي أصبح - في النهاية - أوثر أن أكسره عن أن أنزعه!

وعقدت العزم على أن أقهر نفسي تماما، والا ادع شيئا إلا فعلته لكي أحول صبابتي الرعناء إلى صداقة طاهرة، باقية؛ وعلى ضوء هذه الغاية رسمت أروع الخطط في الحياة، ولم يكن يعوزني في تنفيذها سوى معونة السيدة "دوديتو". فلما حاولت أن أحدها عنها وجدتها شاردة البال، مضطربة الخاطر؛ فشعرت بانها لم تعد تحس بأية لذة في صحبتي! وتبينت بجلاء أن شيئا ما قد جرى، وأنها لم تكن راغبة في أن تبقيني به، وما قدر لي قط أن أعرفه، ولقد عذبتني أقسى العذاب هذا التغير الذي عجزت عن أن أصل إلى إيضاح له، وسالنتني أن أرد إليها خطاياها؛ فردتها جميعا بأمانة جرح كرامتي أن السيدة ارتابت فيها لحظة!.. وكان هذا الارتباب طعنة أخرى أصابني، كما لا بد أن تكون قد أدركت، وقد أنصفتني وعوضتني ولكنها لم تفعل ذلك فورا. فقد أدركت أن فحص حزمة الرسائل التي أسلمتها إياها، جعلها تظفن إلى ظلمها. بل إنني استطعت أن أرى أنها قد أنبت نفسها على ذلك؛ فوجدت في ذلك شيئا من التعويض.

وما كان لها أن تأخذ رسائلها دون أن تعيد إليّ رسائلتي.. وقالت لي إنها أحرقتها، فجزوت بدوري على أن أرتاب في ذلك، كما ينبغي أن أعترف. لا. إن المرء لا يلقي بمثل هذه الخطابات إلى النار. لقد وجدت مثل هذه الخطابات محترقة في قصة "جولي"، فيا لله!.. ما الذي قيل عن ذلك؟ لا، لا، لا. إن المرأة التي أوتيت القدرة على توقد كل هذا الوجد، لا يمكن أن تواتيها الشجاعة قط على أن تحرق أدلة وجوده. ولكنني مع ذلك لم أكن أخشى أن تسيء استغلالها، فما كنت لأومن بانها قادرة على ذلك. كما أنني كنت قد اتخذت التدابير للحيلولة دون ذلك!.. ذلك أن الخوف الأحق - والمستخدم في الوقت ذاته - من أن أتعرض للسخرية حملني على أن أبدا هذه المكاتبات بصيغة تجعل رسائلتي في مأمن من أن تذاع، ولقد ذهبت في ذلك إلى حد الإسراف في الألفة التي كنت قد انتهجتها في نشوتي، فرحت أخاطبها بصيغة المفرد، ولكنني حرصت في ذلك على ألا تجرح هذه الألفة كرامتها. ومع أنها شكت مرارا من ذلك، إلا أنها لم توفق إلى حملي على العدول.. ولم تؤد شكواها إلا إلى إيقاف هواجسي، فضلا عن أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على التراجع، ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة، وقدر لها يوما أن ترى الضوء لعرف الناس كيف أحببت! (١).

ولقد أدى الألم الذي أحدثه فتور السيدة "دوديتو"، واليقين من أنني كنت أستحقه إلى أن أنهج منها عجبيا؛ إذ شكوت منه إلى "سان - لامبير" نفسه!.. وفي انتظار نتيجة خطابي بهذا الصدد، أغرقت نفسي في الشواغل التي لم يكن ثمة بد من أن أسارع بالبحث عنها. فلقد أقيمت في "لاشيفريت" بعض حفلات، وضعت الموسيقى التي عزفت فيها، وحفز نشاطي على ذلك، تلك المتعة التي تمثلتها؛ إذ أرفع من قدر نفسي في عيني السيدة "دوديتو"، بعرض الموهبة التي كانت تغرم بها، وساعد ظرف آخر على إذكاء نشاطي وهو: رغبتني في أن أظهر للملا أن مؤلف "عراف القرية" كان على دراية بالموسيقى؛ إذ كنت قد لاحظت من فترة طويلة أن ثمة من كان يعمل في الخفاء على در

(١) رغبت السيدة "بروثان" التي كانت تقيم على مقربة من "أوبون" في أن تعرف حقيقة مصير هذه الرسائل؛ فسألت السيدة "دوديتو" يوما عن الأمر؛ فأجابتها هذه بانها قد أحرقتها فعلا ما عدا رسالة واحدة، لم توث الشجاعة على حرقها؛ لأنها كانت قطعة من البلاغة والفرام المشوب... وقد أسلمتها إلى السيد دي "سان - لامبير". هذا ما ذكره السيد "دي موسيه" - في كتيب له بعنوان: "حكايات للتغليب على مذكرات السيدة ديبينا" - عن شهادة السيدة الفيكوتنة "دلارا"، التي عاشت في ود وثيق مع السيدة "دوديتو" زهاء ثلاثة عشر عاما.

الريب حول ذلك، فيما يختص بالتأليف الموسيقي على الأقل!... ولقد كان أول ظهوري في "ماريس"، والاختيارات التي تعرضت لها في مناسبات مختلفة في داري السيدة "دويان" والسيدة "ديلابوليهنير"، والقدر الذي الفته من الموسيقى خلال أربع عشرة سنة - وسط أعظم أهل الفن شهرة، وتمت أبصارهم - ثم أوبرا "عرائس الشعر اللطاف"، بل وأوبرا "العراف"، وأغنية كتبها للآنسة "فيل" وغنتها بنفسها في حفلات "الموسيقى الروحية"، والمناقشات العديدة التي دارت بيني وبين كبار الأساتذة عن هذا الفن الجميل... كل هذه البراهين كانت جديرة بأن تمنع، أو بأن تبدد أية شكوك من هذا القبيل. ولكنها - مع ذلك - كانت موجودة، حتى في "لاشيفريت"، فقد رأيت أن السيد "ديسيناي" لم يكن بمنجى منها!... وبدون أن أظهر أنني كنت أفطن إلى ذلك عكفت على تلحين أنشودة من أجله؛ لتدشين كنيسة "لاشيفريت"، وسألته أن يمدني بالكلمات التي ينتقياها لها بنفسه. فعهد إلي "دي لينان" - مربي ابنه - بأن يكتبها، وقد ألف "دي لينان" بضعة أبيات تناسب المقام، وبعد ثمانية أيام من موافاتي بها، كانت الأنشودة معدة.

وفي هذه المرة، كان الغيظ هو ملهمي، فلم تخرج من بين يدي يوما موسيقى أجزل من هذه!... وقد بدأت أبياتها بهذه الكلمات اللاتينية: *Ecce sedes hic Tonantis* (١).

وكانت روعة المقدمة الموسيقية، تتمثل في مجازاة الكلمات، فكانت الأنشودة بأسرها من البهاء بحيث بهت كل امرئ إعجابا!... وكنت قد وضعت اللحن لفرقة موسيقية كبيرة، وقد حشد "ديسيناي" خير العازفين، وتولت السيدة "بيرونا" - وهي مغنية إيطالية - إلقاء الأنشودة، وكان العزف رائعا في مصاحبتها. وقد نجمت الأنشودة نجاحا باهرا، حتى إنها ألقيت بعد ذلك في حفلات "الموسيقى الروحية"، حيث لقيت نفس الإعجاب مرتين، وبالرغم من الدسائس الخفية ومن سوء الإخراج!... كذلك اقترحت - بمناسبة عيد ميلاد السيد "ديسيناي" - قطعة غنائية نصفها تمثيل عادي، ونصفها تمثيل صامت بالإيماء، وقد تولت السيدة "ديسيناي" تأليف الكلام، وتوليت أنا تأليف الموسيقى، ولقد سمع "جرم" - عند وصوله - بانتصاراتي الموسيقية، ولم تنقض ساعة حتى لم يعد ثمة حديث عنها، ولكن لم يعد ثمة ريب - على الأقل - في أنني كنت أعرف التلحين وأحذقه!



وما إن استقر "جرم" في "لاشيفريت" - حيث كنت لا أشعر بكثير من الانسراح - حتى أفلح في أن يجعل بقائي هناك أمرا لا يطاق، وذلك بتصرفات لم أرها تبدو من أحد قط قبل ذلك، ولا كانت تخطر لي على بال. ففي اليوم السابق على وصوله، نقلت من أفضل غرف الضيوف - وهي التي كانت تجاور مخدع السيد "ديسيناي" - لبيتها "جرم" بينما أفردت لي غرفة أخرى، في أقصى أطراف الدار، وقد قلت للسيدة "ديسيناي" ضاحكا: "ألا انتظري كيف يطرد الوافدون الجدد النزلاء القدامى!" فبدا عليها الارتباك!... وقد فهمت السر في ذلك بجلاء، في ذلك المساء حين علمت أن ثمة بابا خفيا بين مخدعها والمخدع الذي فارقت، وأنها لم تكن قد رأت جدوى من إطلاعي عليها ولم تكن علاقاتها بـ "جرم" سرا على أحد، سواء في قصرها، أو في المجتمع بل ولا على زوجها نفسه!... ومع ذلك فإنها بدلا من أن تأتمني عليها أصرت على إنكارها، برغم أنني كنت الأمين على أسرار تفوقها قيمة، وكانت هي تدرك أن هذه الأسرار بمأمن لدي، ولقد أدركت أن التحفظ كان راجعا إلى

(١) أضاف "روسو" إلى هذا تعقيبا فيه: علست فيما بعد أن هذه الكلمات كانت من نظم "دي سانتوسي"، وأن السيد "دي لينان" نسبها إلى

"جريم" الذي لم يكن راغبا في ان تكون في حوزتي اية اسرار تمسه برغم انه كان مستودع اسراري جميعا

وشفعت له عواطفى القديمة - التي لم تكن قد خمدت - وكفاءته الحققة، بيد أنها لم تستطع ان تصمد أمام العناية التي راح يبذلها لكي يهدمها.. فقد كان سلوكه إزائى، شبيها بسلوك الكونت "دي توفيسير" (١)، حتى إنه لم يكذب يتكلم برد تحميتي حينما استقبلني، لا ولم يوجه إلي كلمة واحدة، وسرعان ما أعفاني من ان أخاطبه؛ إذ لم يحاول أن يوجه إلي ما أجيّب عنه البتة، وكان يتقدمني في أي مكان، دون أن يحاول قط أن يحفل بي، ولقد كان بوسعي أن أتجاوز عن هذا لولا أنه أبدى حرصا على جرح كرامتي، ويكفي أن أسوق واقعة واحدة من ألف؛ ليتسنى الحكم على ذلك: ففي ذات مساء، شعرت السيدة "ديبيناى" بتوكل بسيط؛ فطلبت إلى الخدم أن يحملوا إليها بعض الطعام في مخدعها بالطابق العلوي، حيث اعتزمت أن تتناول العشاء إلى جانب المدفأة، ودعيتني إلى الصعود معها إلى المخدع؛ فلبيت. وما لبث "جريم" أن أقبل بعد ذلك.

وكانت المائدة الصغيرة قد أعدت، بحيث لا تضم سوى شخصين، وأحضر الطعام؛ فاتخذت السيدة "ديبيناى" مجلسها إلى أحد جانبي المدفأة، واستولى السيد "جريم" على مقعد وثير، فاستقر فيه، إلى الجانب الآخر، وجرت المائدة فجعلها بينهما، ونشر المنشقة، وشرع في الأكل دون ان ينبس ببنت شفة لي!.. وتضرج وجه السيدة "ديبيناى" خجلا؛ ولكي تخمله على ان يعتذر عن تصرفه النابي عرضت علي مكانها، ولم يقل "جريم" شيئا ولا هو تطلع نحوي، ولما لم يكن لي من سبيل كي أقترب من المدفأة؛ فقد قررت أن أذرع الحجرة ريشا يحضرون لي أدوات للمائدة.. وتركني أتناول عشائى في طرف المائدة بعيدا عن النار، دون أن يبدي أثفه اعتذار لي وقد كنت أكبره سنا، وكنت معلولا، وكنت صديقا قديما للأسرة وقد قدمته بنفسى إليها؛ فكان خليقا به أن يكرمني لذلك، لاسيما وهو الأثير لدى السيدة!.. وكانت كل تصرفاته معي تشبه كثيرا هذا النموذج. فقد كان يعاملني وكأنني أقل منه شانا حقا، وكان يعتبرني كما لو أنني لم أكن شيئا يذكرا وكان من العسير علي أن أعرف فيه "خادم المدرسة" الذي التحق بخدمة الأمير "ساكس - جوثا"، والذي كان يرى في احتفائي به شرفا وتكرما.. ووجدت عناء أشد في أن أوفق بين هذا الصمت العميق، وهذا الترفع المهين، وبين تلك الصداقة اللطيفة التي كان يتظاهر بأنه يكنها لي، أمام أولئك الذين كان يعرف أنهم إياها فعلا!.. ومن الصحيح أنه لم يكن بيدي شيء اللهم إلا ليرثي لحالي - التي لم أكن أشكو منها على الإطلاق! - ويشفق على حظي المحزن - الذي كنت قريبا به! - ولينمى علي أنني كنت أرفض في فظاظة اللفتات الكريمة، التي كان يعلن أنه مشوق إلى إظهارها نحوي!.. ويفضل هذا الدهاء استطاع أن يحمل القوم على أن يعجبوا بعطفه الكريم، وعلى أن يعتبوا على نفوري الجاحد.. كما استطاع أن يوهم الناس أجمعين دون أن يفتنوا - بالا يتصوروا أن تقوم بين راع شهيم مثله، وتقس شقي مثلي روابط الإحسان من أحد الطرفين، وروابط الالتزام والامتنان من الطرف الآخر.. دون أن يخطر ببالهم - ولو على قبيل الاحتمال - أن هذه الروابط قد تكون صداقة بين ندين متكافئين!

وعيشا حاولت - من ناحيتي - أن أتبين أي اعتبار يخضعني لأي التزام إزاء هذا الراعي الجديد. فلقد أقرضته نقودا، ولكنه لم يقرضني شيئا البتة.. ولقد سهرت عليه في مرضه، ولم يكذب هو يعودني في مرات سقامي.. ولقد عرفته بكل أصدقائي ولكنه لم يعرفني يوما بواحد من أصدقائه.. ولقد أطربته بكل جهدي أما هو.. إذا كان قد أطربني يوما، فإنما فعل في اضيق نطاق من العلانية،

(١) شخصية في إحدى المسرحيات الفكاهة، هي مسرحية "الظفرون" من تأليف "ديبوش". وقد ظهرت في سنة ١٧٣٢.

وبطريقة أخرى!.. وما أدى لي يوما - بل ولم يعرض استعداداه لاداء - خدمة من أي نوع. فكيف إذن كان الراعي الذي غمرني بعطفه؟.. وكيف كنت الاثير المعتمد على رعايته؟.. لقد كان هذا - وما يزال - فوق إدراكي!

ومن الصحيح - إلى حد ما، كثر أو قل هذا الحد - أنه كان شرسا مع كل الناس، ولكنه لم يذهب في شرسته إلى درجة الضراوة مع سواي.. وإني لأذكر أن "سان - لامبير" أوشك - ذات مرة - أن يطوح بطبق الطعام إلى رأس "جرم"، إذ تجرأ على أن يكذبه جهارا على المائدة، قائلا في قحة: "هذا غير صحيح!". وكان يقرن لهجته الساخرة - بطبيعتها - بعجرفة الشخص الحديث العهد بالنعمة.. بل إنه أصبح موضع استهجان، بفضل سفاهته!.. فقد أغراه اختلاطه بكبار القوم على أن يتراءى بمظاهر لم تكن لتؤخذ على أنها معقولة، حتى بين هؤلاء القوم!

ولم يكن ينادي خادمه إلا بكلمة "أيه"، وكان السيد الجليل الشأن قد أوتي عددا كبيرا من الخدم فهو لا يدري أيهم المنوب بخدمته!.. وإذا منحه عطاء، كان يلقي به على الأرض بدلا من أن يدهسه في يده، وقصارى القول إنه كان ينسى أن الخادم إنسان، فكان يوسعه ازدراء وقسوة - في كل مناسبة - بدرجة تشير النفس، حتى إن الفتى - وكان من خيرة الخدم، وقد نزلت له عنه السيدة "ديسيناي" - لم يلبث أن ترك خدمته دوغما شكوى، سوى عدم احتماله هذه المعاملة!.. فكان على شاكلة "لافليو" في مسرحية "المظفرون" الفكهة!

ولقد كان بليد الذهن بقدر ما كان مغرورا، وكان يخال أنه - بعينه الكبيرتين، ووجهه المترهل - ذو حظوة عظيمة لدى السيدات، فإن عددا من أفراد الجنس اللطيف اعتبرته - بعد تمثيلية الأنسة "فيل" الخرافية (١) - رجلا ذا عواطف مشوبة.

وقد أذاع ذلك صيته في المجتمع، واكسبه ميلا إلى أناقة النساء، فراح يتجمل، وأصبحت زينته عملية خطيرة، وكان الناس جميعا يعرفون أنه يستخدم المساحيق والمعاجين.. أما أنا فلم أكن اعتقد ذلك، ولكنني لم ألبث أن بدأت أصدق، لا لجمال بشرته، ولا لمجرد أنني كنت أجد أواني المعاجين على مائدة زينته، وإنما لأنني وجدته - إذ ولجت مخدعه ذات صباح - منهمكا في تنظيف أظفاره بفرجون صغير صنع لهذه الغاية!.. وهي عملية واصل أداؤها أمامي مزهوا، وحدثت أن الرجل الذي يقضي ساعتين من كل صباح في تنظيف أظفاره، لا يضمن بوضع دقائق لكي يملأ تجاعيد جلده بالمعاجين!.. لقد أطلق عليه "جوفكور" الطيب - الذي لم يكن غبيا - اسم "تيران الأبيض"، على سبيل الدعاية والهزء!



ولم تكن كل هذه سوى سفاسف مضحكة ولكنها كانت تخالف أخلاقي، وقد انتهت بأن حملتني على الشك في أخلاقه، فإنني لا أكاد أصدق أن رجلا استولت على رأسه النزوات، يملك لقلبه قيادا في الطريق السوي، ولقد كان يفخر بحساسية روحه وعنفوان مشاعره أكثر مما يفخر بأي شيء آخر. فكيف يتفق هذا مع تلك العيوب التي لا تلتصق بغير ذوي العقول الصغيرة؟.. وكيف تسمح له الانطلاقات الحية المتواصلة، التي تخلق بها مشاعر القلب الحساس - خارج نطاق هذا القلب - أن يشغل باله بأمور تافهة تتعلق بشخصه الضئيل؟.. آه، يا إلهي!.. إن الذي يشعر أن فؤاده يكتوي بهذه النار السماوية يسمى عادة إلى أن ينفثها خارجه، وإلى أن يكشف دخيلة نفسه.. إنه

(١) كان "جرم" قد أحب الأنسة "فيل" - دون أن تبادلها هي الحب - فانتابته غيبوبة عجيبة..

يتلطف إلى أن يعرض قلبه على أسارير وجهه، ولا يفكر قط في أية معاجين، أو أية زينة لهذا الوجه! ولقد تذكرت خلاصة فلسفته الخلقية، كما أنبأتني بها السيدة "ديسيناي" التي كانت قد انتهجتها، وهذه الخلاصة تضم مبدأ واحداً: ذلك هو أن الواجب للأوحد للإنسان هو أن يسير وراء نوازع قلبه، في كل شيء... ولقد أمدني هذا القانون الخلقى - حين سمعت به - بمادة بغیضة للتفكير، برغم أنني لم أعتبره - في ذلك الوقت - أكثر من فكاهة... على أنني سرعان ما تبينت أن هذا المبدأ كان قاعدة تصرفات الرجل فعلاً، ولم أزد - فيما بعد - إلا تثبتاً من ذلك، وإن جاء الدليل على حساسي أنا!.. كان ذلك هو المذهب الباطني، الذي كثيراً ما حدثني عنه "ديدرو"، وإن لم يعتمد قط إلى الإيضاح والشرح.

وتذكرت كذلك الإنذارات العديدة التي تلقيتها - قبل ذلك بسنوات - لتنبهني إلى أن ذاك الرجل كان غشاشاً، وأنه كان يعيث بالمشاعر دون أن تكون لديه عواطف ما، بوجه خاص. واستعرضت عدة وقائع صغيرة، كان السيد "دي فرانكوي" والسيدة "دي شينونسو" قد ذكراها لي بهذا الصدد... فما كان أي منهما ليوليه اعتباراً، ولابد أنهما كانا على دراية طيبة به؛ إذ إن السيدة "دي شينونسو"، كانت ابنة السيد "دي روشيشوار" الصديقة الحميمة للمراحل الكونت "دي فريز"... كما أن السيد "دي فرانكوي" - الذي كان وثيق الصلة بالفيكونت "دي بولينياك" في تلك الفترة - كان كثير التردد على القصر الملكي، في عين الوقت الذي سمح لـ "جسريم" فيه بدخوله، ولقد عرفت "باريس" بأسرها نبأ اليأس الذي استولى عليه عقب وفاة الكونت "دي فريز"، وكان همه الأكبر هو الاحتفاظ بالصيت الذي اكتسبه، بعد المعاملة القاسية التي لقيها من الأنسة "فيل"، والتي كان من الخلق بي أن أكون أقدر الناس على كشف زيف الضجة التي ترتبت عليها لو أنني كنت أقل عمى وغفلة!.. كان لابد من جره إلى قصر "دي كاستري"، حيث أدى دوره بمهارة مصطنعاً أقوى وجد فتاك، وكان في كل صباح يسمى إلى الحديقة؛ ليبكي ما شاء له البكاء، ممسكاً أمام عينيه بمنديل مبتل بالدموع، طالما كان على مشهد من القصر، وما إن يخرج مع انحناء الطريق - إلى شارع ضيق - حتى يدس المنديل في جيبه بعد أن يخرج من هذا كتاباً، على ما رآه أشخاص لم يكن لديه أي ظن عن أنهم كانوا يشاهدونه!

لقد رُوي - وهو يفعل ذلك - أكثر من مرة، سرعان ما أصبح النبأ مشاعاً في "باريس" ولكنه لم يلبث أن راح منسياً... حتى أنا نسيت، ولكن مسألة تخصني عادت تذكرني به.

فلقد كنت طريح الفراش، على اعتاب الموت، في المسكن الذي كنت أتخذه في شارع "دي جرينيل" بينما كان هو في الريف، وفي ذات يوم، أقبل ليعودني، وهو لاهث الأنفاس، وقال إنه قد وصل لتوه من ريفه، وإن هي إلا دقيقة، حتى علمت أنه وصل في اليوم السابق، وأنه شوهد في المسرح، في اليوم ذاته!

ولقد عاودتني الف من هذه الوقائع الصغيرة، ولكن أشد ما أذهلني، تمثل في شيء دهشت لآني لم أفطن إليه من قبل. ذلك أنني كنت قد قدمت "جسريم" إلى جميع أصدقائي، دون استثناء، فلم يلبثوا أن أصبحوا جميعاً أصدقاء له، وكنت لا أكاد أنفصل عنه حتى لقد بات من المتعذر أن أواصل التردد على بيت لم يكن له هو حق دخوله، ولم يرفض زيارته سوى السيدة "دي كريكلي"، ومن ذلك الحين انقطعت عن زيارتها انقطاعاً يكاد يكون تاماً... ولقد تعرف "جسريم" - من ناحيته - على أصدقاء آخرين، سواء كان قد اتصل بهم بنفسه، أو عن طريق الكونت "دي فريز"، ولم يقدر لأحد

من أصدقائه جميعا أن يغدو صديقا لي . كما أنه لم يفه بكلمة واحدة لحسلي على التعرف بهم، على الأقل .. وما أظهر لي واحد من كل أولئك الذين كنت ألتقي بهم في مسكنه أحيانا أية نية حسنة .. ولا الكونت "دي فريز" الذي كان "جريم" يقيم لديه - والذي كان يسرني أن أوثق الصلات معه - ولا الكونت "دي شومبيرج"، قريبه الذي كانت العلاقة بينه وبين "جريم" تفوق الود الوثيقا وهناك ما يفوق ذلك .. فإن أصدقائي الأصليين، الذين جعلت منهم أصدقاء له - والذين كانوا على صلات وثيقة معي قبل هذا التعارف - لم يلبثوا أن تغيروا نحوي بعده .. أبدا لم يقدم لي أحدا من أصدقائه، وإن كنت قد قدمت إليه كل أصدقائي .. ومع ذلك فإنه انتهى إلى أن حرمني منهم جميعا . فإذا كانت هذه هي نتائج الصداقة فما هي نتائج البغضاء؟ ولقد حذرني "ديدرو" مرات عدة - منذ البداية - من أن "جريم" الذي أوليته كل هذه الثقة، لم يكن صديقا لي، وما لبث أن بدل لهجته عندما كف عن أن يكون صديقا لي، هو الآخر!



ولم تتطلب الطريقة التي تصرفت في أولادي بمقتضاها، معونة من أحد، ومع ذلك فقد اطلعت عليها أصدقائي لمجرد إطلاعهم؛ حتى لا أبدو في أعينهم أفضل مما كنت، وكان هؤلاء الأصدقاء ثلاثة فحسب: "ديدرو"، و"جريم"، والسيدة "ديبيناي"، ولقد كان "ديكلو" - وهو أجدر أصدقائي بشقتي - الوحيد الذي لم أنبئه، ومع ذلك فإنه عرف بالامر .. ممن؟ .. لست أدري. ومن المتعذر احتمال أن تكون السيدة "ديبيناي" هي المذنبه بخيانة الثقة - في هذه المرة - لأنها كانت تعلم خير العلم أنني إذا حذوت حذوها - لو أنني كنت قادرا على مثل هذا العمل - لثارت لنفسي بقسوة! .. ويبقى بعد ذلك "جريم" و"ديدرو" اللذان كانا - في ذلك الوقت - واثقي الارتباط في كثير من الأمور، لا سيما ما يكون منها ضدي .. ومن ثم فهناك أكثر من مجرد الاحتمال بأنهما المذنبان معا .. وأراه على أن "ديكلو" - الذي لم أكشفه بسري، والذي لم يكن مضطرا لذلك إلى الصمت - كان هو الوحيد الذي لم يشي بهذا سرا

ولقد بذل "جريم" و"ديدرو" - في محاولتهما لإقضاء "المريبتين" عني - جهدا لاستدراج "ديكلو" إلى المساهمة في خططهما ولكنه كان يرفض دائما في ازدياد، ولم يحدث إلا فيما بعد أن علمت منه كل ما جرى بينه وبينهما بهذا الصدد .. ولكنني كنت إذ ذاك قد عرفت من "تيسيز" ما كان كافيا لأن أبصر في المسألة كلها غاية خفية، وأنهما كانا مشوقين إلى أن يتخلصا مني، دون أظن - على الأقل - إن لم يكن بالرغم مني .. أو أنهما - على الأرجح - كانا ينبغي أن يستغلا هاتين المرأتين كادأتين في خطة سرية، ولقد كان في كل ذلك شيء غير شريف، حقا، وهذا ما تدل عليه معارضة "ديكلو"، دون نزاع، فليز من يشاء في هذا صداقة أو ودا!

لقد كانت هذه الصداقة المزعومة خطرة على حياتي الداخلية، كما كان شأنها على حياتي الخارجية . فإن الاحاديث الطويلة، والعديدة، مع السيدة "لوفاسير" - لعدة سنوات قبل ذلك - قد بدلت من مشاعر هذه المرأة نحوي بدرجة ملموسة .. ومن المحقق أن هذا التبدل لم يكن في صالحني . فماذا كان موضوع الحديث - إذن - خلال هذه الخطوات العجيبة؟ .. وما السرف في هذا الغموض العميق؟ .. وهل كان حديث هذه المرأة العجوز مستحبا إلى درجة اعتباره نعمة، أو مهما إلى درجة تدعو إلى فرض مثل هذا الغموض حوله؟ ..

لقد بدت لي هذه الاجتماعات مضحكة، خلال السنوات الثلاث أو الأربع التي دامت، ولكنني عندما تدبرتها بدأت أعجب منها، وكان هذا الشعور بالعجب كفيلا بأن ينتهي إلى عدم الارتياح، لو أنني عرفت - إذ ذاك - ما كانت هذه المرأة تتآمر عليه ضدي.

وعلى قدر ما كان "جريم" يتظاهر به من تحمس من اجلي - كان يطنطن به المجتمع، وكان من العسير أن يتفق مع المسلك الذي راح يسلكه نحوي بالذات - فإنني لم أكسب شيئا من هذا التحمس، من أية ناحية.. بل إن الإشفاق الذي كان يتظاهر به نحوي أدى إلى الخط من قدرتي أكثر مما أدى إلى نفعي، بل إنه - بقدر ما كان يملك - قد جرّدتني من أرباح المهنة التي اخترتها لنفسي؛ إذ راح يعلن أنني لم أكن أتفن النسخ، وأقر أنه كان صادقا في قوله غير أنه لم يكن مما يليق به أن يقوله، وقد أيقنت أنه لم يكن مازحا؛ إذ إنه استخدم ناسخا غيبي، ولم يدع لي عميلا كان يستطيع إليه وصولا، حتى ليجوز أن يقال إن غايته كانت تتمثل في أن يجعلني عالة عليه وعلى اهتمامه بأن يكفلني وذلك بأن يستغند مواردتي؛ حتى أنحدر إلى مثل هذه الحال!

أما وقد الممت بكل هذا فقد بادر عقلي إلى فرض الصمت على آرائي السابقة في "جريم"، وهي الآراء التي كنت قد ظلمت أرددها - لصالحه - حتى ذاك الحين، ورأيت أن أخلاقه كانت جد مثيرة للشبهات، على الأقل. أما وده وصداقته، فقد قطعت بأنهما زائغان؛ وإذ عقدت العزم - بناء على ذلك - ألا أراه ثانية، فقد بادرت إلى إنباء السيدة "ديسيناي" بذلك، وعززت قراري بعدة مبررات لا سبيل إلى ردها، وإن كنت قد نسيتها الآن!

ولقد عارضت السيدة "ديسيناي" هذا العزم بشدة، دون أن تدري تماما ما ترد به على الحجج التي أقرت رأيي، ولم تكن قد شاورته في الأمر بعد، ولكنها بدلا من أن تفصح عن موقفها شفويا إلي أرسلت - في اليوم التالي - خطابا صيغ ببراعة اشتركا فيها معا، وقد التمسيت لـ "جريم" فيه العذر - دون خوض في تفاصيل أي شيء - استنادا إلى طباعه المنطوية، واعتبرته جرما أن اتهمه بخيانة صديقه، وحضنتني على أن أصلح ما بيننا، ولقد زعزع خطابها عزمي!.. وفي حديث دار بيننا بعد ذلك - وجدتها خلاله أحسن استعدادا منها في المرة الأولى - ارتضيت أن أنهزم، وملت إلى الاعتقاد بأنني ربما كنت قد أسأت الحكم، وأنني - في هذه الحال - قد أخطأت فعلا في حق صديق، أشنع خطأ، مما كان يلزمني بإصلاح ذات البين. وبالإيجاز، فعلت في هذه المرة، ما فعلته عدة مرات من قبل إزاء "ديسدرو" والبارون "دولباخ".. وأقدمت طواعية - من ناحية - وبدافع من ضعفي، من ناحية أخرى، على كل هذه المساعي، التي كان علي أن أفعلها: فذهبت - "كجورج داندان" آخر (١) - لزيارة "جريم"، كي أعذر له عن الإهانات التي ارتكبها هو ضدي؛ إذ كنت منساقا دائما للاعتقاد الخاطيء، الذي عرضني طيلة عمري لألف صغار وضعة أمام أصدقائي المزعومين.. الاعتقاد بأنه ما من بفضاء تصل في قوتها إلى درجة يستعصي معها على اللطف وحسن التصرف أن يغلبها.. في حين أن الأمر على النقيض، فإن كراهية الحبشاء إنما تقوى وتشتد بفضل استحالة العشور على ما يبررها، كما أن شعورهم بذنوبهم لا يؤدي إلا إلى زيادة حقدهم على ضحيتهم!

وعندي - بدون خروج عن سياق قصتي - دليل جد قوي على هذه النظرية، يتمثل في تصرف "جريم" و"ترونيشان" اللذين صارا ألد عدوين لي، عن ميل، وعن لذة، وعن نزوة، دون أن يملكا قط أن يذكر واقعة واحدة - من أي نوع كانت - أكون قد أذيت بها أيهما.. وكان هياجهما -

(١) "جورج داندان" إحدى شخصيات مسرحية "موليير" الفكاهة "هزواج المجول"، وقد كان "داندان" فلاحا تزوج من امرأة من بنات الأسرات العريقة ذات الجاه.

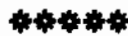
كهياج النمر - يزداد يوما بعد يوم؛ نظرا للسهولة التي كانا يستمرئانه بها!



ولقد توقعت أن يستحي "جريم" من تنازلي، ومن مساعيي للصلح؛ فيلتقاني بذراعيين مفتوحتين، وبارق العواطف. ولكنه - في الواقع - استقبلني وكأنه إمبراطور روماني.. في ترفع لا مثيل له، ولم أكن على استعداد إطلاقا لهذا الاستقبال؛ وإذا ارتبكت لاضطراري إلى أن أؤدي دورا كهذا لا يلائمني، أوضحت غرض زيارتي في بضع كلمات مترددة، وقبل أن يتقبلني في جنة رضاه، راح يلقي - في كثير من التعاطف - حديثا طويلا، كان قد أعدّه من قبل وضمنه عددا من سجاياه النادرة، لا سيما في مضمار الصداقة، وأسهب فترة في ذكر أمر أثر في نفسي كثيرا في البداية: ذلك هو أن الناس كانت ترى فيه دائما حرصه على الاحتفاظ بأصدقائه، وفيما كان يتكلم رحت أقول لنفسي: إن من القسوة - من ناحيتي - أن أكون المستثنى الوحيد من هذه القاعدة، ولقد أكثر من العودة إلى هذا الأمر، في تكلف بالغ، حتى إنه جعلني - في النهاية - أرى أنه إذا لم يكن منساقا في هذا لغير أحاسيس قلبه لكان أقل تأثرا بهذا الأمر الذي انطلق في شرحه مسهبا.. وأنه كان يستغله كحيلة نافعة يصل بوساطتها إلى الغاية التي يقصدها من آرائه هذه!.. ولقد كنت - حتى ذلك الحين - على مثل هذه الحال: فلقد اعتدت دائما أن أحتفظ بأصدقائي، وما فقدت - منذ طفولتي - واحدا منهم اللهم إلا بالموت، ومع ذلك فإنني لم أجعل من هذا الاحتفاظ شاغلا أطيل التفكير فيه.. ولا جعلت منه مبدأ أضعه لنفسي.

وإذا كانت هذه ميزة متوفرة لدى كل منا فلماذا يزهو بها هو وحده، اللهم إلا إذا كان قد فكر فعلا في أن يجردني منها؟.. ولقد عمد - بعد ذلك إلى الخط من قدرتي، بأن راح يبرهن على أن الأصدقاء المشتركين بيننا يفضلونه عليّ أنا!.. وكنت أكثر منه علما بهذا التفضيل، ولكن المهم في الأمر، هو: بأي ثمن ظفربه؟.. أفكان ذلك لأنه أوتي مواهب أو براعة تفوق مواهبي أو براعتي.. أو لأنه كان يرقى بنفسه، أو لأنه كان يسعى إلى الخط من قدرتي؟.. وأخيرا، وبعد أن أرضى نفسه بأن أقام بيني وبينه من الفوارق ما يكفي لأن يجعل للعفو الذي كان يوشك أن يمنحه قيمة منحني قبلة صلح، في عناق واهن، كذلك الذي يتكرم به الملك على من ينصبهم فرسانا.. وهويت من المكان العالي.. ووجدتني مشدوها، لا أدري ما ينبغي أن أقول، بل إنني لم أعثر على كلمة واحدة.. لقد كانت المقابلة كلها تبدو كتأنيب يوجهه أستاذ إلى تلميذ وهو يعفيه من عقوبة الضرب!.. وما فكرت في ذلك قط إلا شعرت بمدى خداع الحكم الذي يقوم على المظاهر - والذي يضفي عليه السوق أهمية وقيمة - وبكثرة ما تكون الجراءة والكبرياء من حظ المذنب.. والحياء والارتباك من حظ البريء.

واصطلحنا!.. كان هذا عزاء - على الأقل - لقلبي الذي كان كل خلاف يدفع به إلى اللواعج القتالة!.. ومن الصواب أن يحدث المرء أن مثل هذا الصلح لم يبدل من أخلاق "جريم" وتصرفاته.. وكل ما أدى إليه هو تجريدي من حق الشكوى من هذه التصرفات!.. ومن ثم فقد عولت على أن أحمل كل شيء، دون أن أفضض بشيء ما!



هذه الهموم الكثيرة التي تعاقبت ضرباتها، واحدة بعد أخرى، طوحت بي إلى حال من الضنى لم تدع في كياني جهداً ليمكنني من أن استعيد السيطرة على نفسي.. وإذ لم أكن قد تلقيت أي رد من "سان - لامبير"، وقد أصبحت موضع إهمال لدى السيدة "دوديتو"، ولم أعد أجروء على أن أبوح بما في قلبي لإنسان ما؛ فقد بدأ الخوف يراودني من أن أكون قد ضيعت حياتي ضحية للاوهام؛ إذ جعلت من الصداقة معبوداً لقلبي.. وكان الدليل على هذا قائماً؛ إذ لم يكن قد بقي لي - من كل أصدقائي - سوى رجلين، ظلاً محتفظين بتقديري، وكان قلبي يركن إليهما وبأمنهما: "ديلكو" - الذي حرمت من رؤيته منذ اعتكافي في "ليرميلاج" - و"سان لامبير".

ووفر في نفسي أنني لن أستطيع أن أصلح من أخطائي نحو هذا الأخير، إلا بأن أفتح له مغاليق قلبي دون تحفظ.. فزمت على أن أعترف له اعترافاً كاملاً، بكل ما لا يحرج عشيقتي، ولم يخطر لي بهال، أن هذا الاختيار، كان أحبولة أخرى نصبها لي هواي؛ ليقربني من السيدة.. ولكن من المحقق أنني كنت على استعداد لأن ألقى بنفسي بين ذراعي عشيقتها دونما تحفظ، وأن أنصاع لإرشاده أنصاعاً تاماً، وأن أمضي في صراحتي إلى أبعد مدى أستطيع الوصول إليه!

وكنيت على استعداد لأن أكتب إليه رسالة ثانية، وأنا موقن من أنه سيحبب عنها عندما علمت بالسبب المحزن الذي دعاه إلى الصمت إزاء الرسالة الأولى: ذلك أنه لم يتحمل إرهاق الحمل، وقد أخبرني السيدة "ديبيناي" بأنه أصيب بنوبة فالج، كما أن السيدة "دوديتو" - التي انتهت بها النعم إلى أن مرضت هي الأخرى، والتي لم تكن في حال تمكنها من الكتابة إلي في الحال - أرسلت إلي كلمة، بعد يومين أو ثلاثة، من "باريس" - حيث كانت في ذلك الحين - وقالت إن "سان - لامبير" رغب في أن ينقل إلى "أكس لا شابيل"؛ ليستشفى بمياها، ولن أقول إن هذا النبأ المحزن أسقمني كما أسقمها، ولكنني أرتاب في أن الأسى الذي بعثه في نفسي كان أقل إبلاماً من لوعتها ودموعها.. فإن الاعتماد الذي نشأ عن معرفة أنه كان في حال كهذه تضاعف من جراء الخوف من أن يكون القلق النفسي (١) قد ساهم في ذلك، مما كان له في نفسي أثر قلق كل ما جرى لي شخصياً، وتولاني شعور قاس بأنني - في تقديري الخاص لنفسي - كنت أفقد القوة المنشودة لكي أحتمل مثل هذا الأسى!

على أن هذا الصديق الكريم، لم يدعني طويلاً، في مثل هذا الهم - لحسن الحظ - إذ إنه لم ينسني، بالرغم من مرضه، وما لبثت أن علمت منه شخصياً أنني كنت قد أسأت الحكم على مشاعره وحاله!

ولكن الوقت قد حان؛ لكي انتقل إلى الانقلاب الكبير - والمفاجئ - الذي طرا على مصيري.. إلى التكبّة التي شطرت حياتي شطرين متباينين، والتي أدت - من جراء سبب جد تافه - إلى عواقب فظيمة!



ذلك أن السيدة "ديبيناي" أرسلت - ذات يوم - تستدعيني، على غير توقع البتة. فلما ولجت مخدعها نحت في عينيها، وفي أساريرها كلها ما يوحي بأنها كانت مضطربة، الأمر الذي زاد من دهشتي؛ إذ إنه لم يكن مألوفاً، فما كان في الدنيا من يحذق السيطرة على أساريره وحركاته مثلها..

(١) القلق النفسي الذي نشأ عن غضب "سان - لامبير" من علاقة "روسو" بعشيقتي.

وقالت لي: "إنني راحلة إلى "جنيف" يا صديقي، فإن صدري في حالة سيئة، وصحتي في انهيار يجعلني أهمل كل شيء؛ إذ لا بد لي من الذهاب كي أزور "ترونيشان" واستشيرهم... ولقد أدى هذا القرار - الذي اتخذ بغتة، وفي بداية الفصل السبي (١) - إلى مضاعفة دهشتي.. فهي لم تشر بكلمة واحدة إلى هذا الأمر، عندما فارقتها قبل ذلك بست وثلاثين ساعة!.. وسألتها عن تعزم اصطحابه، فقالت: إنها كانت راغبة في أن تصطحب ابنها والسيد "دي ليسان"، ثم أضافت في غير اكتراف: "وانت يا دمي" .. ألا تاتي أنت الآخر؟". ولما كنت موقنا من أنها لم تكن جادة في حديثها - إذ كانت تعلم أنني في مثل تلك الآونة من السنة، التي كنا مقبلين عليها، أكون في حال لا تكاد تسمح لي بمبارحة مخدعي - فقد رحت أتفكر ساخرا من رفقة معلول لمعلول آخر!.. وما كانت هي نفسها تعني ما عرضت؛ ومن ثم فإن الأمر انتهى عند هذا الحد، ولم نعد نتحدث إلا عن الاستعداد للرحلة، وهو الأمر الذي انهمكت فيه بكل همة، وعقدت العزم على أن تسافر بعد خمسة عشر يوما. ولم أكن بحاجة إلى كثير من بعد النظر؛ لكي أدرك أن ثمة دافعا خفيا على هذه الرحلة، كنتم عني. وهذا السر - الذي لم يكن سرا على أحد سواي في البيت كله - لم يلبث أن تكشف في اليوم ذاته بواسطة "فيريز". فقد أنباها به كبير الخدم؛ إذ سمعه من وصيفة السيدة!.. ومع أنني بعيد عن أي التزام - نحو السيدة "ديبيني" - يضطرنني إلى كتمان هذا السر؛ لأنني لم أعرفه منها إلا أنه وثيق الارتباط بأولئك الذين نمي إليهم عن طريقهم؛ ومن ثم فليس في وسعي أن أبوح به. على أن هذه الأسرار - التي لم تخرج، ولن تخرج، من فمي، أو على قلبي - لم تلبث أن غدت معروفة لدى كثير من الناس فلم يكن في الوسع أن تظل مجهولة لدى أحد من المحيطين بالسيدة "ديبيني" (٢).

ولقد كان خليقا بي - عندما ألمت بحقيقة الدافع على هذه الرحلة - أن أتبين أن ثمة إيعازا خفيا من عدو لي حاول أن يجعل مني مرافقا للسيدة "ديبيني". ولكنها لم تلح عليّ البتة كي أرافقها؛ ومن ثم فإنني ظلت اعتبر المحاولة أمرا غير جدّي.. ولم أفعل أكثر من أن ضحكت من الشكل الذي كنت أوشك أن أظهر فيه، لو أنني كنت من الغباء بحيث اضطلعت بالمهمة. وبجانب هذا، فإنها كسبت برفضي كثيرا؛ إذ مكنها هذا من أن تغري زوجها بمصاحبته!

وبعد أيام قلائل، تسلمت الرسالة التالية من "ديدرو". وكانت هذه الرسالة مطوية طيتين، بحيث يستطيع أي امرئ أن يقرأ محتوياتها، وكان العنوان يحمل اسمي مردفا بهذه العبارة: "عن طريق السيدة "ديبيني"، وعهد بها إلى السيد "دي ليسان"، أستاذ الابن ومستودع الأم!

رسالة من "ديدرو"

(الملف ١ - رقم ٥٢)

"لقد خلقت لكي أحبك ولكي أؤلمك. لقد علمت أن السيدة "ديبيني" راحلة إلى "جنيف"،

(١) يفصل الشتاء. (٢) كان الدافع السري للرحلة - كما غذا معروفا - هو أن السيدة "ديبيني" حملت؛ نتيجة علاقتها بالسيد "جرم"، ولقد كان من العجيب حقاً أن تصحب معها - في رحلة كهذه - ابنها والمربي الذي كان يعني به. بل الآنكى من هذا، أن زوجها نفسه ورافقها حتى "جنيف"!.. وكان الأعجب أنها اختارت "جنيف" بالذات لتضع حملها الآثم؛ ذلك لأنها ما كانت لتجد التستر المنشود هناك؛ إذ كان مجرد وجودها يجتذب الأنظار إليها.. على أن هذه المتناقضات جميعا، كانت في حد ذاتها أدلة على دهاء هذه المرأة!

بقى دور "روسو" في هذه الواقعة. فلقد كانت الدعوة التي وجهت إليه - دون اكتراف - حيلة أخرى، قصد بها إرضاء غرور السيدة "ديبيني"، بظهور فيلسوف مثله في ركاها.. كما أن "جرم" وعشيقته استغلاها في إظهاره بمظهر المجاهد بفضل السيدة التي منحته مسكنا وأولته ودها!

ولم أسمع بانك مرافق إياها. فإذا كنت راضيا عن السيدة "ديسيناي"، يا صديقي، فمن الواجب أن نرحل معها.. أما إذا كنت مستاء منها فمن الواجب أن تكون أسرع مبادرة إلى الرحيل. أفانت ترزح - أكثر مما ينبغي - بأثقل التزامات أبهظتك بها؟.. إذن، فهناك فرصة لكي تؤدي بعضا منها، ولكي تتخفف من أعبائك. فهل ستجد فرصة أخرى في حياتك لإظهار عرفانك بجمائلها؟.. إنها ذاهبة إلى بلدة ستكون فيها كمن هبطت من أطواء السحاب. وإنها لمريضة، وستكون بحاجة إلي تسرية وترويح.. أتقول الشتاء؟.. ألا انظر يا صديقي!.. إن حجة صحتك قد تكون أقوى مما يخطر ببالي، ولكن، هل تراك اليوم أسوأ حالا مما كنت منذ شهور.. وما ستكون في مطلع الربيع؟.. هل ستكون الرحلة مريحة لك - بعد ثلاثة أشهر - أكثر مما هي اليوم؟.. إنني أصارحك - فيما يتعلق بي - بأنني إذا لم احتمل العربة، لاعتمدت على عصاي، وتبعتها!

"ثم، ألا تخشى أن يسيء الناس تأويل مسلكك؟.. لسوف تنتهم بالجهود، أو بأن لديك حافزا خفيا، وإني لأدرك تماما أنك ستجد قلبك يشهد دائما لضميرك، مهما يكن ما تفعل.. ولكن، هل تكفيك هذه الشهادة في حد ذاتها، وهل من المباح أن تهمل شهادة الغير، إلى حد ما؟

"وعدا ذلك، يا صديقي، اكتب هذا الخطاب وفاء لواجب التزامك به نحوك ونحو نفسي. فإذا لم يرق لك، فطوح به إلى النار، ولا تفكر فيه بعد ذلك، وكأنني لم أكتبه قط.

"وإني لأحبك، وأحبك، وأقبلك".

وتولتني انتفاضة الغضب، واستبد بي الذهول؛ إذ قرأت هذه الرسالة التي وجدت عناء في أن أتمها. ولكن ذلك لم يلهني عن أن ألاحظ اللهجة التي اصطنعها "ديدرو" ليدور مسرفا في اللطف، وفي الترفق، وفي الإخلاص، عما اعتاد في رسائله الأخرى، دون أن يضمن علي بـ"الصدق"، وتبينت الطريق غير المباشرة التي جاءني هذه الرسالة خلالها.. فقد كان العنوان، والأسلوب، والطريقة التي وصلت بها تنم عن مداورة سيئة الغرض؛ ذلك لأننا اعتدنا أن نتكاتب عادة، عن طريق البريد، أو عن طريق حامل الرسائل في "مورغورنسي". وقد كانت هذه هي المرة الأولى، والوحيدة، التي نهج فيها هذا النهج!



وعندما سمحت أولى نوبات الغضب للكرامة بالكتابة بادرت إلى تحرير الجواب التالي، الذي حملته لقوري، من "ليرميதாக" - حيث كنت إذ ذاك - إلى "لاشيفريت"؛ لأطلع عليه السيدة "ديسيناي"؛ إذ رغبت - في غضبي الأعشى - أن أقرأه عليها بنفسي، كما أطلعها على رسالة "ديدرو":

"يا صديقي العزيز، إنك لا تستطيع أن تعرف مدى التزاماتي نحو السيدة "ديسيناي"، ولا المدى الذي تذهب إليه هذه الالتزامات في ربطتي إليها، ولا ما إذا كانت السيدة بحاجة حقا إلى شخصي - في رحلتها - ولا ما إذا كانت راغبة في أن أرافقها، ولا ما إذا كان هذا في إمكاني، ولا الأسباب التي قد تكون لدي لامتنع عن مرافقتها.. ولست آبي أن أناقش هذه النقاط معك. وإلى أن يتم ذلك أحب أن تقر معي أن إملأك علي - بهذا الاعتداد - ما ينبغي علي عمله، دون أن تكون في وضع يمكنك من الجزم، لهو - يافيلسوفي العزيز - عين اللغوا

"وأسوأ ما في الأمر أنني أرى أن هذا ليس رأيك، ولا هو صادر عنك. هذا، بغض النظر عن أنني

غير مستعد لأن ادع نفسي منساقا لطرف ثالث أو رابع تحت اسمك .. وإني لأجد في هذه التصرفات غير المباشرة مداورة لا تتمشى مع صراحتك، ويحسن بك أن تتجنبها في المستقبل، لصالح كل منا!

"أراك تخشى أن يساء تأويل مسلكي، ولكنني اتحدى قلبا كقلبك أن يجرؤ على إساءة الظن بي. أما الآخرون فلعلهم يتحدثون عني بخير، لو أنني شابهتهم. فلعل الله يصونني من أن أكسب رضاهم! .. ودع اللثام يتجسسون علي، ويؤولون مسلكي كما يحلو لهم. فإن "روسو"، ليس بالذي يخشاهم، كما أن "ديدرو" ليس بالذي ينصت إليهم!

"إنك تريدني أن أطوح برسالتك إلى النار، إذا لم ترق لي، والأفكر فيها بعد الآن. أفنتظن أن من السهل نسيان ما يفد منك؟ .. إنك تسترخص دموعي، يا صديقي العزيز، بالآلام التي تسببها لي، كما تسترخص حياتي وصحتي، بالهموم التي تثيرها. فإذا استطعت أن تصحح هذا فستظل صداقتك دائما من أعذب ما أنعم به، ولسوف يقل ما أعانيه من رسالتك".

وإذ ولجت مخدع السيدة "ديبيناى"؛ وجدت "جريم" معها مما أطرني. فقرأت عليهما - بصوت عال، واضح - الرسائلتين، في هدوء نفس ما كنت لأؤمن بأنني قادر عليه حتى إذا فرغت أضفت بضع ملاحظات لم تنم عما وراء ذلك الهدوء، ورأيت أن هذه الجرأة غير المتوقعة، من رجل كان شديد الخور والتردد عادة، قد أدهشتها وأذهلتها معا. فلم يجيبا بكلمة واحدة، ورأيت - فوق ذلك - أن الرجل المتعجرف قد غض بصره، ولم يقر على أن يصمد أمام شرر نظراتي ولكنه في اللحظة ذاتها، عاهد نفسه - في أعماق قلبه - على القضاء علي، وإني لموقن من أنه والسيد "ديبيناى" قد أجمعا على ذلك قبل أن يفترقا!

وحدث في حوالي تلك الآونة أن تلقيت - عن طريق السيدة "دودويتسو" - رسالة من "سان - لامبير" (الملف ١ - رقم ٥٧).

وكان قد أرسلها من "ولفسينبوتيل" قبيل مصابه بأيام قلائل، ردا على رسالتي، ولكنها تأخرت طويلا في الطريق، وقد أتاح لي هذا الجواب شيئا من العزاء كنت في أشد الحاجة إليه في تلك الآونة؛ لما زخر به من دلائل التقدير والصدقة، مما بث في نفسي القوة والجرأة لكي أكون أهلا لذلك، ولقد رحمت - منذ تلك اللحظة - أودي واجبي ولكن من المحقق أنني كنت موشكا على أن أضل، دون رجعة، لو أن "سان - لامبير" ظهر بمظهر أقل حكمة وكرما وإخلاصا!



وأصبح الجو رديئا، وشرع الناس في مغادرة الريف، وأنبأني السيدة "دودويتسو" باليوم الذي اعتزمت فيه أن تأتي لتودع وادينا، وضربت لي موعدا للقاء في "أويون"، وشاءت المصادفة أن يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي حدد لرحيل السيدة "ديبيناى" عن "لاشيفرمت" إلى "باريس"؛ لكي تستكمل استعدادها النهائي لرحلتها، ولقد سافرت في الصباح - لحسن الحظ - فانفسح أمامي الوقت بعد رحيلها؛ كي أذهب فأتناول الغداء مع أخت زوجها، وكنت أحمل رسالة "سان - لامبير" في جيبتي، فرحت أقرأها مرارا أثناء سيرتي، وإذا بها بمثابة درع وقائي من ضعفي، وعاهدت نفسي - وصنت عهدي هذا - على ألا أرى في السيدة "دودويتسو" سوى صديقة لي، وعشيقة صديق لي!

وقضيت معها أربع ساعات أو خمسا، في خلوة ناعمة، وادعة، مستحبة للغاية .. حتى بالنسبة لتربات الحمى اللاهبة التي كنت أكتوي بها في قريتها حتى ذاك الحين! .. ولما كانت تعلم عن يقين أن

قلبي لم يتحول فقد أدركت الجهود التي رحت أبدلها لاسيطر على نفسي، فازدادت تقديرا لي، وسررتي أن رأيت أن صداقتها لي لم تخب أو تفت، ولقد أنبأتني بقرب عودة "سان - لامبير" الذي لم يعد في صحة تمكنه من احتمال عناء الحرب برغم أنه كان قد شفي تقريبا من مرضه؛ ومن ثم فقد رأى أن يترك الخدمة العسكرية؛ لكي يعيش معها في سلام، ورحنا نرسم خطة بديعة، لصحبة وثيقة تضم ثلاثتنا، وقد كان لنا أمل أن يؤدي تنفيذ هذه الخطة إلى نتائج باقية؛ إذ رأينا أنها كانت تقوم على أساس من جميع المشاعر التي تربط بين القلوب المستقيمة، الصالحة، الحساسة.. وكنا نجتمع في نفوسنا الثلاث من المواهب والمعرفة، ما لا يدع لنا حاجة إلى أي غريب عنا.. فواحسرتاه!.. لم أكن - وأنا استسلم للرجاء في حياة يمثل هذه العذوبة.. لأفكر قط فيما كان يخبئه لي المستقبل!

وما لبشنا أن نتحدثنا في موقف الراهن إزاء السيدة "ديسيناي"؛ فاطلعتها على رسالة "ديدرو"، وعلى ردي، وفصلت لها كل ما جرى في هذا الشأن، وأفضيت إليها بعزمي على أن أفارق "ليرميستاج"؛ فعارضته بشدة، وبحجج ذات أثر غلاب على قلبي، وأوضحت لي كم أنها كانت تمنى لو أنني قمت بالرحلة إلى "جنيف"، فقد تنبأت بأنها لن تلبث أن تقحم في هذا الرفض الذي صدر مني، وأن رسالة "ديدرو" تكاد تعلن هذا مقدما. بيد أنها لم تتشبث بهذه المسألة؛ إذ كانت تعلم قوة الدواعي والأسباب التي حملتني على الرفض، كما كنت أعلمها تماما ولكنها استحلقتني أن أتفادى كل ضجة، مهما يكن الثمن الذي يكبدني ذلك، وأن ألطف من آثار رفضي بحجج مقبولة تبعد أي شك ظالم بأن لها يدا في الأمر، وقلت لها إن المهمة التي تفرضها علي لم تكن بالبسيطة الهينة، غير أنني قد آليت على نفسي أن أكفر عن أخطائي، وأن أقدم سمعتها على سمعتي، في كل ما يسمح لي الشرف باحتماله، وأن يلبث أن يتجلى ما إذا كنت قد وفيت بهذا التعهد.

وبوسمي أن أقسم بأن هواي التمس وإن لم يفقد شيئا من عنفوانه، إلا أنني لم أشغف يوما بـ "صوفي" الحبيبة كما كنت مشغرفا في ذلك اليوم بيد أن رسالة "سان - لامبير"، وشعوري بالواجب، ونفوري من الخيانة تركت أثرا طاغيا على نفسي طيلة هذا اللقاء، حتى إن شهواتي فارقنتني وخلفتني معها في سلام، بل حتى أنني لم أجد ما يغريني على أن أقبل يدها!.. فلما حان الفراق قبلتني بمرآى من خدامها، وكانت هذه القبلة - التي خالفت ما كنت أسترقه منها أحيانا، تحت الأشجار - برهانا أكد لي أنني قد غدت مسيطرا على نفسي، وأكاد أوقن بأنه لو أتيت قلبي الوقت لكي يعزز نفسه في هدوء لكانت ثلاثة أشهر أكثر من الكفاية لشغائه تماما!



وهنا انتهت علاقاتي الشخصية بالسيدة "دوديتو" .. العلاقات التي يستطيع أي امرئ أن يحكم عليها من المظاهر، وفقا لطبيعة فؤاده، وإن كان من المحتمل أن الوجد الذي أذكته في قلبي هذه المرأة الرقيقة، هو أقوى وجد شعر به أي رجل على الإطلاق، وسيبقى دائما مجدا مكرما لدى السماء ولدينا بفضل التضحيات الفذة، والأليمة، التي قدمناها - كلانا - في سبيل الواجب، والشرف، والحب، والصداقة!.. لقد كان كل منا يكبر الآخر إكبارا أسمى من أن يسمح لنا بأن نخزي أنفسنا أو نستذلهم!.. وكان لابد لنا من أن نغدو غير جديرين بأي تقدير أو احترام البتة، إذا شئنا أن ننزل عن أي من هذه القيم العليا.. بل إن احتدام مشاعرنا - الذي كان كفيلا بأن يجعلنا آثمين - كان هو الذي حال بيننا وبين أن نغدو كذلك!

وهكذا ودعت هاتين المراتين معا، في يوم واحد، بعد صداقة طويلة لإحادهما، وحب عميق للآخرى.. ودعتهما، وقد قدر لي ألا أرى واحدة منهما بعد ذلك قط، بقية حياتي.. وألا أرى الثانية إلا مرتين فحسب، وفي مناسبتين سأوردهما فيما بعد.

ووجدتني بعد رحيلهما في حيرة بالغة إزاء الوفاء بمثل هذه الالتزامات العديدة، الملحة، المتناقضة، التي تربت على حماقتي وعدم حكمتي، ولو أنني كنت في وضعي العادي، بعد اقتراح تلك الرحلة إلى "جنيف" ورفضني إياها لما كان عليّ سوى أن أمكث قريبا مطمئنا، ولما كان ثمة ما يقال، بعد الذي قيل بهذا الصدد ولكنني بغيائي جعلت منه مسألة لم يكن من الميسور أن تبقى على وضعها، ولم أكن أملك أن أنفاد أي اضطراب إلى تفسير مسلكي بشأنها، إلا بمبارحة "لهرميثاج".. وهو الأمر الذي وعدت السيدة "دوديتو" بالأفعله.. ولولفترة من الزمن، على الأقل. فضلا عن أنها كانت قد استحلقتني أن أبرز رفضي لدى أصدقائي المزعمين، بحيث لا تقحم هي في هذا الرفض، ومع ذلك فإنني لم أكن أملك أن أعلن السبب الحقيقي دون مساس بالسيدة "ديسيناي"، التي كنت مدينا لها ببعض العرفان - دون أدنى شك - بعد كل الذي فعلته من أجلي.

وإذا تدبرت كل هذا مليا وجدتني أواجه اختيارا عسيرا، ولكنه لازم، لا مفر منه: ذلك هو أن أغض من قدر السيدة "ديسيناي"، أو قدر السيدة "دوديتو"، أو قدر نفسي، واخترت الوضع الأخير.. واخترت به شمم، وعن طيب خاطر، ودون تدمير بل وفي كرم كفيل بأن يحو الذنوب التي انحدرت بي إلى هذا الدرك، ولقد أدت هذه التضحية - التي يحتمل أن يكون أصدائي قد توقعوها، والتي عرفوا كيف يستغلونها - إلى القضاء على سمعتي، وجردتني - بفضل جهودهم - من تقدير الجمهور إياي، ولكنها ردت إليّ تقديري نفسي، وسرت عني في محني وضائقتي! وليست هذه هي المرة الأخيرة، التي أقدم فيها على تضحيات مماثلة - كما سيتجلى فيما بعد - ولا هي آخر مرة يستغلون فيها التضحية للذيل مني!

وكان "جرم" هو الوحيد الذي بدا أنه لم يشترك في هذه المسألة، وقد رأيت أن أتوجه إليه؛ فكتبت إليه رسالة طويلة أوضحت فيها سخف الرغبة في النظر إلى اشتراكي في رحلة "جنيف" كواجب مفروض عليّ، وعدم جدواها، وكيف أنني كنت خليقا بأن أكون مصدر متاعب للسيدة "ديسيناي" خلالها، والمضايقات التي كان من المحتمل أن تترتب عليها؛ ولم أستطع أن أقاوم الإغراء الذي راودني نحو إطلاعه - في هذه الرسالة - على أنني كنت على علم بسبب الرحلة، وذكرت أنه كان من بواعث عجبني أن يزعم أحد أن الواجب كان يدعوني إلى القيام بهذه الرحلة في الوقت الذي أعفي هو فيه منها بل ولم يذكر اسمه بصدددها.

هذا الخطاب الذي عجزت فيه عن أن أذكر حججي بجلاء؛ ومن ثم فقد اضطرت إلى المداورة والمراوغة.. هذا الخطاب كان كفيلا بأن يظهرني للرأي العام بمظهر الموغل في الذنوب، بيد أنه كان نموذجاً للرزانة والحكمة لأولئك الذين كانوا على شاكلة "جرم" مذميين بالحقائق التي لم أذكرها، والتي كانت تبرر مسلكي أكمل تبرير. بل إنني لم أحجم عن أن أورد زعما كان في غير صالحني أكثر مما كان في صالحني، وذلك بأن نسبت رأي "ديدرو" إلى أصدقائي الآخرين؛ لاوحي بأن السيدة "دوديتو" كانت تعتنق نفس الرأي - وهو الواقع فعلا - وإن تخاشيت أن أذكر أنها قد عدلت عن رأيها هذا أمام حججي، وما كنت لاستطيع أن ادفع عنها شبهة التواطؤ معي بأفضل من أن أبدو - في تلك المناسبة - على استياء منها.

وأختتم هذا الخطاب بعرض للثقة كان كفيلا بأن يحرك عواطف أي إنسان آخر.. فبينما ناشدت "جرم" أن يتأمل حججي جيدا، وأن ينبغي - بعد ذلك - برأيه، أوحيت إليه أنني سأخذ بهذا الرأي، مهما يكن، وقد كان هذا عين ما انتويت - في الواقع - حتى لو أنه أشار بوجوب سفري. ذلك؛ لأنه لما كان السيد "ديسيناي" قد اضطلع بععبء مراقبة زوجته فإن مرافقتي إياها كانت خليفة بأن تتخذ مظهرا مخالفا لما كانت ستتحذه من قبل؛ إذ كنت إذ ذاك قد سئلت أن أقوم بهذا الواجب، ولم يكن للسيد "ديسيناي" أي ذكر إلا بعد أن رفضت!



وتأخر رد "جرم" بعض الوقت، فلما جاء إذا به رد غريب، انقلبه هنا (الملف ١ - رقم ٥٩):
"لقد أرجئ رحيل السيدة "ديسيناي"؛ فإن ابنها مريض، وقد اضطرت إلى الانتظار إلى أن يعافى. سافكر في خطابك، فامكث هادئا في "ليرميلاج"، وساطلعلك على رأيي في حينه، ولما كان من المحقق أنها لن ترحل قبل بضعة أيام فليس ثمة داع للعجلة، وفي هذه الأثناء في وسعك أن تعرض عليها مرافقتك إياها، إذا رأيت ذلك مناسباً، وإن كان يلوح لي أن هذا لن يغير من الأمر؛ ذلك لأنني لا أرى أي شك - وأنا لا أقل عنك علما بوضعك - في أنها ستقابل عرضك بما ينبغي، ويبدو لي أن كل ما يمكن كسبه بذلك هو أنك ستستطيع أن تقول لأولئك الذين يهيبون بك أن ترحل أنك إذا لم ترحل فلن يكون ذلك راجعا إلى تقصير منك في عرض خدماتك.

"وما عدا هذا لا أستطيع أن أفهم السر في أنك ترى أن من الضرورة اللازمة أن يكون الفيلسوف هو البوق الذي ينقل إليك صوت الناس أجمعين، ولا السر في أنك تتصور أن كل أصدقائك يرون ضرورة سفرك، لمجرد أنه نصحك بالسفر!.. ولو أنك كتبت إلى السيدة "ديسيناي" فإن ردها قد ينفعك في الرد على هؤلاء الأصدقاء، مادمت تقيم كل هذا الوزن للإجابة عليهم!
"وداعا.. تحياتي للسيدة "لوفاسير" ولـ "كريستيل" (١).

وبهت دهشة أذ قرأت هذا الخطاب، ورحت أبحث في قلبي عما قد يكون وراء معناه الظاهري، ولكن بحشي ذهب سدى. فيا للعجب!.. أبداً من أن يرد عليّ رسالتي ببساطة، يستمهلني كي يفكر فيها، وكأنما الوقت الذي استغرقه لم يكن كافياً!.. بل إنه ليطلعنني على الموقف المعلق الذي يرغب في أن يستبقيني فيه وكأنه يفكر في مشكلة عويصة مستعصية الحل، أو كأنه يرى أن يحرمني كل وسيلة للوصول إلى معرفة إحساسه، إلى أن تحين اللحظة التي يراها للكشف عن هذا الإحساس. فما الذي يعنيه هذا الاحتياط، وهذا الإرجاء، وهذا التكتّم، إذن؟.. أفعلّ هذا المنوال يرد المرء على الثقة؟.. أفبيدو هذا تصرفاً مستقيماً، شريفاً؟.. عبثاً بحثت عن تأويل موات يبرر هذا التصرف فإنني لم أجد!

ومهما تكن نيته فإن مركزه كان يجعل تحقيقها سهلاً عليه، إذا كانت موجّهة ضدي.. في حين أنه كان من المستحيل عليّ أن أضع أية عقبة في طريقه؛ فلقد كان ذا حظوة في دار أمير كبير، وكان كثير الأصدقاء في المجتمع، وكان بوسعه - كنتجم لامع، مسموع الكلمة في الأوساط التي كنا معروفين لديها معا - أن ينفذ غاياته وفق هواه، بدهائه المألوف.. في حين أنني - وحيداً في "ليرميلاج"، بعيداً عن الجميع. بدون ناصح، وبلا اتصال بالعالم الخارجي - لم أكن أملك أن أفعل شيئاً، اللهم إلا

أن انتظر، وأمكث صامتا، وكان كل ما فعلته هو أن كتبت إلى السيدة "ديسيناي" - بصدد مرض ابنها - خطابا مهذبا بقدر ما استطعت، دون أن أنساق فيه إلى شرك عرض استعدادي لمرافقتها في رحلتها.

وبعد انتظار طويل في القلق الشديد الوطأة الذي ألقاني فيه هذا الرجل الفظيع سمعت - بعد ثمانية أيام أو عشرة - أن السيدة "ديسيناي" قد سافرت، وتلقيت منه خطابا ثانيا لم يشتمل على أكثر من سبعة أسطر أو ثمانية، ولم أتم قراءتها حتى آخرها؛ إذ إنها أعلنت قطعية بيننا، ولكن في عبارات بدت سخيفة حمقاء؛ لفرط تلهفه على أن يجعلها جارحة. فلقد حرم علي أن أظهر في محضره، وكأنه يحرم علي دخول إقطاعياته. ولم يكن ينقص خطابه - لكي يبدو مضحكا - سوى أن يقرأ في هدوء وباعصاب باردة، وبدون أن أنقل صورة منه (١)، بل وبدون أن أقرأه حتى نهايته، رددته إليه في الحال، مع التعقيب التالي:

"إنني آبي عادة أن أنساق لشكوكي الصائبة؛ ولهذا تأخرت كثيرا في أن أعرفك على حقيقتك. هاك إذن الخطاب الذي استبحت الوقت للتفكير فيه، فإنني أردت إليك؛ لأنه ليس لي، وفي وسعك أن تعرض خطابي على الملا كله، وأن تحقد علي علانية وجهارا، فهذا بهتان في غير صالحك!"

وكان السماح له بعرض خطابي السابق تعقيبا على فقرة وردت في رسالته، ويمكن منها الحكم على المكر العميق الذي لجأ إليه في هذه القضية بأسرها.

فلقد ذكرت أن خطابي كان كفيلا بأن يلقي علي بعض التشريب في انظار أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على حقائق الأمور. وقد تبين "جرم" هذا باغتباط، ولكن كيف كان بوسعه أن يستغله دون أن يكشف موقفه؟... ذلك لأنه كان معرضا - إذا ما عرض خطابي على أحد - لأن يتهم بإساءة استغلال ثقة صديقه.

ولكي يخرج من هذا الحرج؛ خطر له أن يقطع الصلة معي بأشد الطرق استشارة لشعوري، وإيحاء لي بأنه قد أولاني صنيعا؛ إذ لم يطلع أحدا على خطابي، وكان من المؤكد أنني - في سورة الغضب - خليق بأن أرفض أمانته هذه، فأسمح له بأن يعرض خطابي على الدنيا بأسرها.. وهذا عين ما كان يبتغيه تماما، وقد سار كل شيء وفقا لما دبر، ولقد أذاع الخطاب في "باريس" كلها، مع تعليقات من عنده، لم تكن - مع ذلك - موفقة بالدرجة التي كان يرجوها. فقد رؤي أن سماحي له بأن يعرض خطابي - الذي عرف كيف ينتزعه مني - لم يكن ليعفيه من اللوم لما أظهره من تسرع في استغلال كلمتي للعمل على إيذائي، وأخذ الناس يتساءلون باستمرار عن أية ذنوب ارتكبتها نحوه شخصيا تبرر كل هذا الحقد الأهوج. ثم انتهوا - أخيرا - إلى أنه إذا كانت لي أخطاء تضطره إلى القطعية فإن للصدافة - ولو فصمت - حقوقا كان لزاما عليه أن يحترمها!

على أن "باريس" متقلبة، لسوء الحظ، فلا تلبث هذه الملاحظات - وليدة وقتها - أن تتوارى في زوايا النسيان... إذ إن المنكوب يلقي إهمالا مادام غائبا، والمجدود يتغلب مادام حاضرا.. وتستمر لعبة الدس والكيد. الحبيث، وتتجدد، ولا تلبث نتائجها التي تبعث حية - كلما ماتت - أن تمحو كل ما سبقها!

(١) ورد هذا الخطاب في مذكرات السيدة "ديسيناي"، ولم يكن مؤلفا من سبعة أسطر أو ثمانية بل إنه استغرق صفحة ونصف صفحة من الكتاب ولا حظ أن ذكر القطعية لم يرد إلا في آخره، في حين أن "روسو" ذكر أنه لم يقرأه حتى نهايته. على أنه ذكر للسيدة "دودينو" - في رسالة بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٧٥٧ - أنه تلقى من "جرم" خطابا آثار اشتغازه، حتى إنه رده إليه "خشية قراءته مرة ثانية".. وهناك أحد احتمالين: إنه إما يكون "روسو" قد بالغ في وصفه للخطاب، وإما أن ما نشر في مذكرات السيدة "ديسيناي" كان خطابا أهدى لتسريح مسلك "جرم"، وليس الخطاب الأصلي.

على هذا النحو أماط هذا الرجل - الذي ظل يخذلني طويلا - لثامه، وقد اطمأن إلى أنه لم يعد بحاجة إليه، في الوضع الذي ساق إليه الأمور. على أنني كففت عن التفكير في هذا التمس بعد أن تخلصت من الخوف من أن أكون ظالما نحوه، وتركته لضميره. وبعد ثمانية أيام من تسلم ذلك الخطاب تلقيت من السيدة "ديسيناي" ردها على خطابي السابق، محررا في "جنيف" (الملف ب - رقم ١٠)، وتبينت من اللهجة التي لجأت إليها - للمرة الأولى في حياتها - أن كلا منهما كان يعول علي نجاح تدابيرهما، وأنهما كانا يعملان متفقين ومتعاونين، وأنهما كانا ينظران إليّ كرجل ضائع، لا معين له ولا نصير؛ ومن ثم فقد آليا على نفسيهما ألا يدخرا جهدا في سبيل الاستمتاع بسحقي نهائيا!

والواقع أن ظروفني كانت في أسوأ حال: فلقد رأيت أصدقائي يهجرونني دون أن أعرف كيف، ولماذا. فـ "ديدرو"، الذي كان يفخر بأنه باق لي، وباق وحده، والذي وعدني منذ ثلاثة أشهر بأن يزورني لم يأت قط، وكان الشتاء قد بدأ يفرض أثره محسوسا؛ فبدأت معه عللي المألوفة، وكان كياني - برغم مثانة تكوينه - قد ناء تحت تضارب كل هذه العواطف المتناقضة. كنت في حالة إعياء لم تذّر لي طاقة ولا جلدا على الاحتمال. ولو أن معاملاتي، بل لو أن تأييدات "ديدرو" والسيدة "دوديتو" سمحت لي بمبارحة "ليرميتاج" فوراً فإنني لم أكن أدري إلى أين أذهب، ولا كيف أجر نفسي إلى هناك؛ ومن ثم فقد بقيت خامل الذهن، خامد الحراك، دون أن أقوى على التفكير أو العمل. كان مجرد التفكير في أن أتخذ خطوة، أو أكتب رسالة، أو أفوه بكلمة، كفيلا بأن يجعلني أرغف!

ومع ذلك فإنني لم أقو على أن أدع رسالة السيدة "ديسيناي" بلا جواب، وإلا كان ذلك اعترافا بأنني كنت أستحق المعاملة التي أثقلتني وصديقتها بها، وقررت أن أصارحها بمشاعري ونواياي، دون أن أرتاب لحظة في أنها ستبادر إلى إقراي على هذه المشاعر والنوايا، بفضل الشعور الإنساني، والكرم، والطيبة، والأحاسيس الطيبة التي خيل إليّ أنني أراها لديها... وهاك خطابي:

"ليرميتاج": ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٥٧.

"لو قدر لأمري أن يموت حزنا لما كنت أنا الآن على قيد الحياة. ولكنني عقدت عزمي أخيرا. لقد انفصمت عرى الصداقة بيننا ياسيدي، ولكن لهذه التي لم يعد لها بقاء حقوقا أعرف كيف أحترمها. فإنني لم أنس قط أفضالك عليّ، وبوسعك أن تطمئني من ناحيتي إلى كل عرفان يستطيع أن يدين به امرؤ إلى شخص لم يعد ملزما بأن يحبه وأي تفسير آخر لن يكون مجديا، وإنني لأركن إلى ضميري، ولك أن ترجعي إلى ضميرك.

"لقد كنت أعتزم مغادرة "ليرميتاج"، وكان من الواجب أن أفعل. ولكن روي أن أبقي حتى بحين الربيع، وما دامت هذه هي رغبة أصدقائي فسوف أبقي إلى الربيع، لو أنك وافقت على ذلك".

وبعد أن كتبت هذا الخطاب وأرسلته لم أعد أفكر إلا في البقاء هادئا في "ليرميتاج"، وفي العناية بصحتي، ومحاولة استرداد عافيتي، واتخاذ التدابير لمغادرة الدار في الربيع، دونما ضجة، ودونما إعلان للقطيعة، ولكن هذا لم يكن عين ما أعده السيد "جريم"، والسيدة "ديسيناي"، كما سيظهر بعد لحظة.



وحظيت بعد أيام بالزيارة التي أسرفه "ديدرو". في وعوده بأن يؤديها لي، بقدر ما أسرفه في أن يبربتلك الوعود، وما كان أداؤها ليجد وقتا أكثر ملائمة من تلك الآونة. فقد كان "ديدرو" أقدم أصدقائي، وكان الوحيد الذي بقي لي منهم؛ ومن ثم ففي الوسع إدراك مدى السرور الذي تولاني إذ رأيته في هذه الظروف. فلقد كان قلبي مترعا، فافرغته في قلبه، وأوضحته له كثيرا من الوقائع التي كتمت عنه، أو التي موهت عليه، أو زيفت له، وأنباته بما كان يحق لي أن أطلع عليه، من كل ما جرى، ولم أحاول أن أكتم عنه ما كان هو على علم واف به.. لم أحاول أن أكتم عنه أن حبا غير مرفق - بقدر ما كان أرعن - استغل كاداة للقضاء علي، ولكنني لم أبح قط بأن السيدة "دوديتو" كانت على علم بهذا الحب، أو أنني كاشفتها به يوما، على الأقل!

وحدثته عن المناورات غير الكريمة التي قامت بها السيدة "ديبيناي" للاستيلاء على الخطابات البريئة التي كانت أخت زوجها قد كتبتها لي. فلقد رغبت في أن يعرف كل هذه التفصيلات، من شفاه المرأتين اللتين حاولت السيدة أن تغريهما بذلك، وقد أدلت إليه "تيريز" بوصف دقيق لكل شيء. ولكن.. ما الذي أصابني، فعندما حان دور الأم، وسمعتها تعلن وتشبث بأنها لم تكن على علم بشيء من هذا إطلاقا؟! هكذا كان قولها الذي لم تتحول عنه البتة، ولم يكن قد انقضى بعد أربعة أيام، مذ رددت على سمعي كل التفصيلات، التي راحت تناقضها في وجود صديقي!

ولاح لي مسئلكها حاسما؛ فشعرت إذ ذاك شعورا قويا، بمدى غفلتي إذ بقيت امرأة كهذه على مقربة مني، ولم أنطلق أكيل لها السباب بل إنني لم أكد أقوى على أن أقول لها بضع كلمات أعبر بها عن استهجانتي، وأحسست بمدى ما كنت أدين به للابنة التي كانت باستقامتها المنيعة ترسم صورة قوية، تناقض تماما مع ما أبدت الأم من خسة مهينة. على أن رأيي استقر - منذ تلك اللحظة - بشأن العجوز، ولم أنتظر إلا ريثما حانت اللحظة المناسبة لتحقيقه.

ولقد جاءت هذه اللحظة بأسرع مما كنت أتوقع. ففي العاشر من كانون الأول (ديسمبر)، تسلمت ردا من السيدة "ديبيناي"، هذه محتوياته (الملف "ب" - رقم ١١):

"جنيف: أول كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧.

"لم أعد أملك - بعد أن اتحت لك كل دليل ممكن على الصداقة والعطف، خلال عدة سنوات - سوى أن أرثي لك، إنك شقي، وإنني لأرجو أن يكون ضميرك في طمأنينة ضميري، فقد يكون هذا ضروريا لطمأنينة حياتك!

"وما دمت قد رغبت في مبارحة "ليرميستاج"، وكان خليقا بك أن تفعل فإنني أعجب من أصدقائك إذ منعوك. أما أنا، فلست أشتير أصدقائي فيما يتعلق بواجباتي، وليس لدي مزيد أقوله فيما يتعلق بواجباتك!"

كان إنذارا - غير متوقع، ولكنه واضح - بالطرده، فلم يدع لي لحظة واحدة كي أفكر أو أزن.. كان لابد لي من أن أبرح "ليرميستاج": فورا، ومهما تكن حال الطقس، أو حالي الصحية - حتى لو اضطرني ذلك إلى أن أبيت في الغابات، وعلى الصقيع الذي كان يكسو الأرض - ومهما يكن في وسع السيدة "دوديتو" أن تقول أو تفعله إزاء ذلك؛ إذ إنني لم أكن على استعداد لأن أهين نفسي بالرغم من أنني كنت على استعداد لأن أرضي هذه السيدة!



ووجدتني في أشد حيرة عرضت لي في عمري كله ولكنني كنت قد عقدت العزم، وأقسمت على ألا أبيت في "ليرميتاج" في اليوم الثامن، مهما يكن الأمر. وعكفت على نقل أمتعتي الخاصة، وقد فضلت أن أدعها في العراء، على ألا أؤد المفاتيح في اليوم الثامن، فقد كنت توافاً - قبل كل شيء - إلى أن أفرغ من الأمر، قبل أن يستطيع أحد أن يكتب إلي "جنيف".

وأن يتلقى ردا منها.. وأوتيت إقداما ما شعرت به من قبل يوما، فإذا كل قواي ارتدت إلي.. ردها إلي الشمم والإباء اللذان لم تحسب لهما السيدة "دييناي" حسابا!

وساعد الحظ هذه العزيمة الجريئة، فإذا السيد "متي" - المندوب انقضائي (١) - للسيد الأمير "دي كولنديه" - يسمع بورطني، فيعرض علي بيتا صغيرا كان يفتنيه في حديقة داره في "مون لوي" - "مونغورنسي"، وقبلت العرض في نأثر وعرفان.. وتمت الصفقة، فأسرعت إلى شراء بعض أثاث أضمه إلى ما كان عندي؛ لأؤي إليه مع "تيريز".. ونقلت متاعاي على عربة، في كثير من العناء، وينفقات باهظة وبرغم الجليد والصقيع، فقد تم انتقالي في يومين.. حتى إذا كان الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر) رددت مفاتيح "ليرميتاج"، بعد أن دفعت أجر البستاني؛ إذ لم أستطع أن ادفع أجر المسكن!

أما السيدة "لوفاسير"، فقد صارحتها بأن عليها أن تفارقنا، وحاولت ابنتها أن تثنيني ولكني أبيت أن ألين، وعملت على سفرها إلى "باريس"، في عربة البريد، مع كافة متاعها وما كانت تشترك مع ابنتها في امتلاكه من أثاث. كما أنني منحتها بعض المال، وتعهدت بأن أدفع لها نفقات إقامتها لدى أبنائها أو سواهم، وأن أتكفل بمطالب معيشتها بقدر ما يسعني، وألا أدعها قط في عوز طالما كنت أجد قوتي!

وأخيرا، كتبت إلى السيدة "دييناي" الرسالة التالية، في اليوم الذي أعقب غداة وصولي إلى "مون لوي":

"مونغورنسي": ١٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٥٧.

ما كان ثمة ما هو أبسط، ولا ما هو ألزم من أن أخلي منزلك، ياسيدي، ما دمت لا تقرين بقائي فيه؛ وبناء على رفضك الإذن لي بأن أمكث في "ليرميتاج" بقية الشتاء، بادرت إلى مبارحته في الخامس عشر من كانون الأول (ديسمبر). لقد كان مقدرا لي أن أدخله بالرغم مني، وأن أخرج منه كذلك!.. وإني لأشكر لك الإقامة التي أمتتها لي هناك، وقد كنت خليقا بأن أكون أكثر شكرا لك، لو أن الثمن الذي دفعته كان أقل فداحة.

"هذا، وإنك لعلی صواب إذ ترينني شقيا؛ فليس في الدنيا من يعلم خير منك إلى أي مدى يجب أن أكون كذلك!.. وإذا كان من سوء الحظ أن يغتر المرء في اختيار أصدقائه، فليس أقل قسوة من ذلك، أن يضار من جراء خطأ لطيف كهذا!" (٢).

هذه هي القصة الأمانة لإقامتي في "ليرميتاج"، وللأسباب التي اضطررتني إلى مغادرته، وما كنت أملك أن أقتضب هذه القصة بل كان من المهم أن أعرضها بأعظم قدر من الدقة، إذ إن حياتي في هذه الفترة كانت ذات أثر - علي ما بعدها - سيبقى إلى آخر يوم في حياتي!

(١) المحامي الذي يتولى المسائل والقضايا المتعلقة بالحكومة أو الهيئات الإدارية. (٢) ورد نص هذا الخطاب في مذكرات السيدة "دييناي"، متضمنًا - في نهايته - هذه العبارة: "لقد تقاضى البستاني أجره حتى أول يناير". ولم ترد هذه العبارة في أية طبعة من "الاعتراقات"، والظاهر أن "روسو" أغفلها خطأ، في حين أن رد السيدة "دييناي" لا يفهم بدونها.

الكرامة العاشرة

سنة ١٧٥٨

لم تلبث الطاقة غير العادية - التي أمدني بها هياج عابر، كي أبرح "ليرميتاج" - أن فارقتني بمجرد أن صرت خارج هذا البيت. فما إن استقر بي المقام في المسكن الجديد حتى عاودتني نوبات شديدة، متتابة، من احتباس البول، امتزجت بالمضايقات الجديدة التي ترتبت على هبوط في القلب، كان يعذبني منذ أمد، دون أن أعلم أنه كان هبوطاً..!

وسرعان ما غدت فريسة لنوبات أشد قسوة، فجاء الطبيب "ثييري" - صديقي القديم - ليعودني، ويصبرني بحالي، وتجمعت حولي المسابر، والمجسات، والضماجات، وكافة المعدات التي تستلزمها علل الشيخوخة، ما جعلني أشعر شعوراً قاسياً، بأن المرء لا يستطيع أن يحتفظ بشباب القلب - دوغما عتاء - إذا كان الجسد قد باعد بينه وبين الشباب!

ولم يردني الفصل الجميل (الربيع) إلى عافيتي، فقضيت عام ١٧٥٨ في حال من الوهن، أوجت إلى بأنني كنت مشرفاً على نهاية حياتي العملية. بل إنني أبصرت النهاية تقترب في شيء من التعجل؛ وإذ كنت قد برئت من أوهام الصداقة، وافترقت عن كل من كانوا يحبون الحياة إلى فإني لم أعد أرى في هذه الحياة ما يجعلها مستحبة، ولم أعد أبصر فيها سوى شرور ونوائب كانت تحول بيني وبين كل المتع الذاتية. ولكم كنت أتوق إلى اللحظة التي أنطلق فيها متحرراً، بعيداً عن منال أعدائي! ولكن.. نعد إلى سياق الحوادث ثانية.



بدا أن مقامي في "مونتورنسي" قد ساء السيدة "ديسيناي"، ولعلها لم تكن تتوقعه. فإن أساي، وقسوة ذلك الفصل من السنة، والوحدة المنبوذة التي ألفيتني فيها.. كل هذه جعلتها و"جرم" يعتقدان أن بوسعهما - إذا واصلا دفعي إلى أقصى حد - أن يضطراني إلى أن أصرخ طالباً النجدة، وأن يهروا بي إلى آخر درك في الهوان، بغية أن أبقى في المأوى الذي كانت الكرامة تتطلب مني أن أفارقه، ولقد بدلت مسكني فجأة، فلم يجدا من الوقت ما كان يكفي لأن يتوقعا هذه الضربة؛ ومن ثم فلم يبق لهما من خيار سوى أن يضاعفا الاندفاع في المغامرة، أو ينفضا أيديهما منها.. وبالتالي، أن يقضيا عليّ قضاء مبرماً، أو أن يسترداني!

واتخذ "جرم" الرأي الأول، ولكنني اعتقد أن السيدة "ديسيناي" كانت تفضل الثاني، أو أن هذا هو ما ملت إلى الأخذ به، على ضوء ردها على خطابي؛ إذ خفت كثيراً من اللهجة التي اتخذتها في رسائلها السابقة، ولاحظت كأنها تفتح الباب للصالح، ولقد كان تأخر هذا الخطاب - الذي اضطرت إلى انتظاره شهراً كاملاً - دليلاً كافياً على الخيرة التي ألفت نفسها فيها - وهي تحاول أن تسبغ عليه أسلوباً ملائماً - وعلى الخواطر والهراجز التي سبقته. فما كان في وسعها أن تمضي فيه إلى أبعد مما مضت، دون أن تكشف نفسها. ولكن المرء لا يجد - بعد خطاباتنا السابقة، وبعد خروجي المبالغت من دارها - مدعاة للتعجب من العناية التي بذلتها في ذلك الخطاب، ومن حرصها على ألا تدع كلمة

جافية واحدة تنسلل إليه . وإني لأنقله بأكمله؛ ليمتسنى الحكم على ضوئه (الملف ب - رقم ٢٣):
"جنيف": ١٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٥٨ .

"لم اتسلم خطابك المؤرخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر)، سوى بالأمس يا سيدي . فقد أرسل إليّ في حقيبة ملائ بأشياء مختلفة، ظلت طيلة هذه المدة في الطريق، ولن أرد إلا عن العبارة الأخيرة أما الخطاب فلست أفهمه تماما .. وإذا كنا بصدد تبادل الإيضاح، فإني أؤثر أن أحمل كل ما حدث على محمل سوء التفاهم!

"وأعود إلى العبارة الأخيرة .. فلعلك تذكر ياسيدي أننا اتفقنا على أن يتلقى بستاني "ليرميّناج" أجره عن طريقك؛ رغبة في إشعاره بأنه موكل إليك، ولتفادي مشاحنات كتلك المشاحنات السخيفة، الوقحة، والتي صدرت من سلفه .

والدليل على ذلك أن أجره الربع الأول من السنة أسلم إليك، وأنني اتفقت وإياك - قبيل رحيلي ببضعة أيام - على أن تتقاضى ما سبق أن دفعت له، وإني لأدرك أنك أثرت خلافا بشأن هذا - في البداية - ولكنني كنت قد رجوتك أن تؤدي تلك المدفوعات سلفا، فكان من أبسط الأمور أن أردّها إليك، وقد اتفقنا على ذلك . ولكن "كاهوية" أنبائي بأنك رفضت قبول هذه النقود، ولابد أن ثمة لبسا في الأمر، ولقد أمرت بأن تؤدي إليك، من جديد، ولست أرى مبررا لرغبتك في أن تدفع أجر بستاني في خدمتي، بالرغم من اتفاقنا، وبالرغم من أن هذا الأجر يرجع إلى فترة سبقت سكناك "ليرميّناج"؟

"لذلك فإني واثقة يا سيدي بأنك تتذكر كل هذا الذي تشرفت بقوله لك، لن تأبى أن تسترد النقود التي تكرمت بدفعها عني".

ولم أشأ - بعد كل الذي جرى - أن أطمئن إلى السيدة "ديبيناي" أو أثق بها، ولا رغبت البتة في أن أجدد صلاتي بها؛ ومن ثم فإني لم أرد على الخطاب إطلاقا، فانتهت مكاتباتنا عند هذا الحد (١)؛ وإذ تبينت عزمي، حذت حذوي، وانغمست في خطط "جرم" وعصبة "دولباخ"، وضمت جهودها إلى جهودهم للقضاء عليّ، وبينما كان هؤلاء يعملون في "باريس"، راحت هي تعمل في "جنيف"، وقد انضم إليها "جرم" هناك، بعد ذلك، فآتم ما كانت قد بدأت، ولقد ساعدهما "ترونتشان" - الذي استطاعا أن يكسباه في صفهما - بكل قواه، وصار أعنف من راحوا يضطدونني، دون أن يكون لديه - ولا لدي "جرم" ما يؤاخذوني عليه، وراح ثلاثتهم يعملون معا، فبذروا في "جنيف" ما شهد نبأه يترعرع في "باريس" بعد ذلك بأربع سنوات



وكان الأمر أكثر مشقة عليهم في "باريس"؛ حيث كنت معروفا، وحيث كانت القلوب أقل ميلا للبخشاء، فهي لذلك لا تتلقى الإيحاءات بسهولة؛ ولكي يوجهوا ضريبتهم بمزيد من المهارة والحيلة شرعوا في ترويح زعمهم بأنني كنت الأسبق إلى التحول عنهم . (انظر خطاب ديبيجر - الملف ب، رقم ٣) . ومن هنا راحوا - وهم يتظاهرون بأنهم لا يزالون أصدقاء لي - يبذرون بذور الاتهامات

(١) تكذب مذكرات السيدة "ديبيناي" هذا القول، فقد ورد فيها رد من "روسو" وصفته السيدة بأنه "أكثر لذة من جميع خطباته الأخرى" . ويبدو أن "روسو" نسي ذلك، إذ إنه كتب اعترافاته بعد عشر سنوات من تلك الفترة .

الخبیثة، على شكل شکایات من الأخطاء والمظالم التي حاقت بهم على یدی صديقهم، ولقد أدى هذا إلى أن مستمعهم تخلوا عن حذرهم، فاصبحوا أكثر ميلا إلى الإصغاء إلى لومهم، وانتشرت اتهامات الخيانة والجحود في تكتم وحذر، وقد كانت - لنفسی هذا السبب - أشد فعلا بالنفوس، وكنت أعلم أنهم وصومني بأبشع الفظائع، دون أن يستطيعوا قط أن يعرفوا - فيما بينهم - م كانت هذه الفظائع تتألف... كل الذي استطعت أن أخرج به من الشائعات العامة، هو أن هذه الفظائع انحصرت في أربعة ذنوب جوهرية: "أولا" اعتكافي في الريف، و"ثانيا" حبي السيدة "دوديتسو"، و"ثالثا" رفضي مرافقة السيدة "ديسيناي" إلى "جنيف"، و"رابعا" نزوحي عن "ليرميحاج"، وإذا كانوا قد أضافوا سخافات أخرى فلا بد أنهم اتخذوا أبلغ حيلة، حتى إنه غدا من المستحيل عليّ تماما أن أعلم موضوعها.

وإلى هذه الفترة بالذات، اعتقد أن يوسعي أن أرجع تاريخ تكوين حملة منظمة، لم يلبث أن انضوى تحت لوائها أولئك الذين تخلوا عني بنجاح وتقدم سريعين، إلى درجة أنها كانت خليقة بأن تبدو رائعة في نظر من لا يدري مدى السهولة التي يستطيع بها كل ما هو يساعد شرور البشر أن يحظى بالتأييد، ولا بد لي الآن من أن أشرح - في أوجز ما يسعني - ماهو واضح لنظري من هذه الحملة الخفية العميقة الأصول.

ذلك أنني احتفظت ببساطة ميولي الأصلية، حتى بعد أن طبق اسمي آفاق "أوروبا"، وغدوت مشهورا، ولقد أدى مقتي القتال لكل ما يسمى حزبا، وعصبة، وشيعة، إلى بقائي حرا، مستقلا، دونما قيود سوى ميول فؤادي، وكنت وحيدا، غريبا، منطويا، بلا نصير ولا أسرة فلم أعتد إلا على مبادئي وواجباتي، وسلكت في جلد طرق الاستقامة، فما تملقت ولا تزلفت إنسانا على حساب العدالة والحقيقة، وفضلا عن ذلك فإنني لذت - منذ عامين - بالعزلة، دون أن اتسقط الأنباء، وبدون أي اتصال بشؤون العالم. فما كنت أحاط بأي شيء، ولا كنت أهفو إلى أنباء شيء ما... وكنت أعيش على أربعة فراسخ من "باريس"، وكانني - بفضل عدم اكتراثي - أعيش في جزيرة "تينيان"، تفصلني عن هذه العاصمة بحارا!

أما "جریم" و"ديدرو" و"دولباخ" فكانوا - على النقيض - في وسط الدوامة، يعيشون في مجتمع أرقى الطبقات، يتقاسمون فيما بينهم جميع آفاق الفكر تقريبا، فكان العظماء، وذوو العقول النابهة، وأهل الأدب، والمحامون، والنساء ينصتون جميعا إليهم، إذا ما أجمعوا على حديث، ومن السهل تبين النفع الذي يضيفه مثل هذا الوضع على ثلاثة رجال اجتمعوا على رابع مثل وضعي... ومن الصحيح أن "ديدرو" و"دولباخ" لم يكونا - أو أنني لا أعتقد، على الأقل، أنهما كانا - ممن يدبرون الدسائس البالغة الخبث والشر؛ إذ إن واحدا منهما لم يكن ذا خبث وشر، في حين أن الآخر لم يكن ذا دهاء ومكر" (١)... على أن هذا السبب بالذات، هو الذي جعل العصبة وثيقة الترابط. فكان "جریم" يرسم وحده الخطة في رأسه، فلا يُطلع الاثنین الآخرين على أكثر مما يراه ضروريا لتمكينهما من المساهمة في تحقيق تلك الخطة، وكان استعلاؤه عليهما يجعل تعاونهما ميسورا، بحيث تتناسب النتيجة مع مواهبه الرفيعة!



(١) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة تعقيبا جاء فيه: "وأصبحت الآن ملكا لهم، وفقا لاتفاق جديد، عقد بيننا أخيرا".

وبهذه المواهب الفائقة عمد "جسيم" - وقد أدرك النفع الذي يستطيع أن يستمده من وضع كل منا - إلى وضع مشروع لقلب سمعتي رأسا على عقب، ولإضفاء سمعة مناقضة لها تماما على اسمي، دون أن يقحم نفسه .. وذلك بأن يبدأ بإحاطتي بصرح من الغموض والإبهام، تعذر عليّ أن اخترق حجب لآلتي النور على مناوراته، ولاكتشف أمره!

ولقد كان هذا المشروع شاقا؛ إذ كان عليّ "جسيم" أن يموه ما فيه من ظلم، في أنظار أولئك الذين كان عليه أن يستعين بهم .. كان عليه أن يغرر بالأمناء، وكان عليه أن يقصي عني كل الناس، فلا يدع لي صديقا واحدا، صغيرا كان ذلك الصديق أو كبيرا؛ فماذا عساي أقول؟ .. كان لابد له من ألا يدع كلمة واحدة عن الحقيقة تنفذ إليّ .. ولو أن رجلا كريما واحدا جاءني، وقال لي: "إنك تؤدي دور الرجل الفاضل، ومع ذلك، فانظر كيف تعامل، وكيف يحكم القوم على أعمالك. فماذا لديك من قول؟" .. كانت الحقيقة خليقة إذ ذاك بأن تنتصر، فيبوء "جسيم" بالخذلان! .. ولقد كان يدرك هذا، ولكنه دنس قلبه، ولم يقدر الناس حق قدرهم .. إنني لحزين من أجل الكرامة الإنسانية، التي قدرها بمثل هذه الدقة!

وإذ سار في هذه الدروب المتوارية تحت الأرض، كان لابد له من أن يبطيء؛ كي يطمئن إلى مواقع قدميه؛ ومن ثم ظل اثني عشر عاما وهو يتابع خطته، ومع ذلك فما يزال لديه أشق ما يجب أن يفعله .. ذلك هو أن يغرر بالرأي العام بأسره! .. إن هناك عيونا ظلت تراقبه عن كذب أقرب مما يظن .. وإنه لخائف من هذا، فهو لا يجرؤ بعد عليّ أن يكشف مؤامراته في وضوح النهار (١) .. ولكنه اهتدى إلى أقل الطرق صعوبة، لكي يدخل السلطان بين عناصر المؤامرة، فيقتضي هذا السلطان عليّ. وإذ استند عليّ هذه الدعامة راح يتقدم وهو أكثر طمأنينة، وأذئاب السلطان لا يولون الاستقامة والعدل كثير تفكير، في العادة .. وهم أقل اكتراثا بالصراحة؛ ومن ثم فإنه لم يعد يخشى فطنة وأمانة بعض الخبيرين إطلاقا! .. عليّ أنه كان من الضروري له - بوجه خاص - أن أكون محاطا بظلمات دامسة، وأن تظل مؤامراته متوارية عن بصري على الدوام، وكانت حيلته الكبرى هي أن يبدو للانظار أنه كان يحابيني ويعطف عليّ - في الوقت الذي كان يحط من من قدرتي، في الواقع - وأن يخلع على غدره مظهر الكرم والشهامة!



ولقد شعرت بأولى نتائج هذه الحملة عن طريق الاتهامات المستترة التي راحت عصبه "دولباخ" تشيعها، دون أن يتسنى لي أن أعلم - بل ولا أن أخمن - ما كانت تتألف منه هذه الاتهامات، ولقد ذكر لي "ديليير" في رسائله أنني رميت بعض الشناعات .. وذكر لي "ديلدرو" الشيء ذاته، في غموض وإبهام، فلما حاولت استيضاح كل منهما؛ إذا بكل شيء ينحصر في الاتهامات الرئيسية السالفة الذكر.

وشعرت بفتور يسرى تدريجا في رسائل السيدة "دوديتو"، فلم أستطع أن أعزو هذا الفتور إلى "سان - لامبير" الذي ظل يكتب لي بعين الود المعهود، والذي أخذ يزورني بعد عودته. كذلك لم أستطع أن ألقى اللوم على نفسي؛ إذ إننا كنا قد افترقنا وكل منا راض عن الآخر، ولم يحدث - منذ ذلك الحين - شيء من ناحيتي، اللهم إلا رحيلي عن "ليرميتاج"، وهو أمر شعرت هي نفسها

(١) وهنا أضاف "روسو" التعميق التالي: "ولقد اتخذ - منذ كتابه هذا - خطوته الكبرى، بأكمل نجاح، وبأكبر توفيق جعل على الأفهام، وإني لأعتقد أن "فرونشان" هو الذي أمدته بالتشجيع والوسيلة".

بضرورته، ومن ثم فإنني لم أعرف كيف أوّل هذا الفتور - الذي لم تجهز به وإن أحسّه قلبي - فشعرت بقلق شامل، وكنت أدرك أنها اعتادت أن تداهن زوجة أخيها و"جسري"، نظرا لملاقتيهما بـ"سان - لامبير"، فخشيت مناوراتهما والأعبيهما. ونكا هذا القلق اللتاع جراحي، وأحال رسائلي عاصفة، حتى إنها لم تلبث أن أصبحت تعافها!.. كنت الملح الف شيء قاس، دون أن أميز شيئا بوضوح. كنت في وضع هو أبعد الأوضاع عن أن يطيقه رجل كان من اليسير أن يتقد خياله.. ولو أنني كنت في عزلة تامة، ولو إنني كنت لا أعرف شيئا على الإطلاق لكنت خليقا بأن أكون أكثر هدوءا، ولكن فؤادي كان ما يزال متشبثا بالعواطف التي أتاحت لأعدائي ألف مأخذ ضدي، ولم تؤد الأشعة الواهنة التي كانت تنفذ إلى عزلي إلا إلى أن أرى المعميات التي كان القوم يخفونها عني، أشد حلكة وسوادا من ذي قبل!

وكنت خليقا - دونما شك - بأن أنداعى تحت هذا العذاب الذي كان أقسى وأثقل من أن تحتمله فطرتي الصريحة، التي كانت تجعل من المستحيل تماما أن أخفي مشاعري، وكانت - في الوقت ذاته - تجعلني خائفا كل الخوف من تلك الأشياء التي كانت تخفي عني. على أن أمورا أخرى، لم تلبث - لحسن الحظ - أن عرضت لي، وكانت مشوقة لقلبي بدرجة كافية لكي تولد تحولا سليما، نأى به من تلك الأمور التي كانت تشغله، على الرغم منه!



وكان "ديدرو" قد حدثني - أثناء زيارته الأخيرة لـ"ليرميحاج" - عن مقال كتبه "دامبير" عن "جنيف" في "الموسوعة"، وقال لي: إن هذا المقال - الذي أقره بعض ذوي المكانة العليا من أهل "جنيف" - كان يرمي إلى إنشاء مسرح في "جنيف"، وأن الخطوات اللازمة قد اتخذت، وأن الأمد لن يطول حتى يكون هذا الإنشاء قد تم، ولما كان "ديدرو" قد حبذ المشروع، ولم يداخله شك في نجاحه، كما كان لدي كثير من الأمور التي أردت أن أبحثها معه فإنني لم أشأ أن أمضي في جدل حول هذا الموضوع، ولم أقل شيئا، ولكنني شعرت باستنكار لكل هذه الدسائس التي كانت تحاك لإفساد موطني، فانتظرت بصبر نافذ ظهور الجزء الذي ضم المقال - من "الموسوعة" - لكي أثبت ما إذا كانت ثمة وسيلة للمرد عليه بطريقة تعرقل هذه الحيلة المشؤومة!

وتلقت الجزء عقب استقرار في "مون - لوي" بوقت قصير، فوجدت أن المقال قد كتب بكثير من الدهاء والحذق، وأنه كان أهلا للقلم الذي سطره. على أن ذلك لم يصرفني عن الاهتمام بالرد عليه، وبالرغم من الخور الذي كان يعتريني، وبالرغم من شجني وآلامي، ومن قسوة الطقس، وما اتسم به مسكني الجديد - الذي لم يكن مقامي فيه قد استقر تماما - من عدم توفر أسباب الراحة، فقد عكفت على العمل بتحمس قهر كل شيء.

وفي شتاء قاس إلى درجة ليست بالبسيطة، وفي شهر شباط (فبراير)، وفي الظروف التي وصفتها آنفا، رحت أقضي ساعتين من الصباح، ومثلهما من المساء، في شرفة مكشوفة، عند طرف الحديقة التي كان بيتي يقوم فيها، وكانت هذه الشرفة - التي كانت تقع في نهاية درب محاط بسيج - تطل على وادي "مونفورنسي" وبركة الأسماك، وتكشف لي على البعد، بقدر ما كان يسمح لي البصر، قصر "سان جراسيان" الجميل المنظر، برغم بساطة بنيانه.. القصر الذي اعتمكف فيه "كاتينا" الفاضل.. وفي هذه البقعة - التي كانت في تلك الفترة قارسة البرد، والتي كانت بلا وقاء من الريح

والصقيع، وبلا أية نار سوى قلبي - نظمت، في ثلاثة أسابيع، خطابي إلى "الأمير" حول المسارح! وكان ذلك أول موضوع أكملته - إذ لم أكن أتمت سوى النصف من "جولي" فوجدت فيه سحر العمل. كانت الغيرة على الفضيلة هي معبودي حتى ذلك الحين، ولكن الحنان والرقّة حلا محلها في روحي، في هذه المناسبة!

كانت المظالم التي لم أكن - بالنسبة لها - أكثر من متفرج، قد أهاجتني، أما التي كنت هدفها فقد أحزنتني، ولم يكن ذلك الحزن - المجرد من كل حزن ومرارة - سوى شجن قلب مفرط الحب والحنان.. قلب اغتر فِيمَن كان يؤمن بأنهم على شاكلته؛ فاضطر إلى أن ينطوي على نفسه!.. كان قلبي قد أغمم بما حدث لي أخيراً، وكان ما يزال يهتز بانفعالات عديدة عنيغة، فراح يمزج إحساسه بالآلام، بالأفكار التي تولدت عن تفكيري في الموضوع، فإذا آثار هذا المزج تنعكس على ما كتبت، وإذا بي - دون أن أفطن - أصف فيه حقيقة موقفي الواقعي.. رسمت فيه "جسوم"، والسيدة "ديبينا"، والسيدة "دوديتو"، و"سان - لاميير"، ونفسي. وكنت أذرف - وأنا أكتب كل هذا - دموعاً عذبة!.. فو الهفتاه!.. إن المرء ليلبس في المقال أن الحب - هذا الحب الجبار الذي كنت أحاول أن أشفي منه - لم يكن قد فارق قلبي بعد!.. ولقد كان يمتزج بكل هذا؛ شعور بالإشفاق على نفسي؛ إذ شعرت بأنني أموت، وكنت أؤمن بأنني أودع الرأي العام للمرة الأخيرة!.. وبدلاً من أخاف الموت رحت أرقب اقترابه بغبطة، ولكنني كنت أحس بالحسرة؛ لأنني كنت أفارق أبناء جلدتي دون أن يكونوا قد شعروا بقيمتي وقدري.. دون أن يدروا كم كنت جديراً بأن أحظى بالحب منهم، لو أنهم كانوا أكثر معرفة بي مما هم!.. وهذه هي الأسباب الدفينة للهجة الغريبة التي سادت هذا المقال، والتي تبدو جد مناقضة للهجة مؤلفي الذي سبقه (١).

ونقحت المقال وأعدت نسخته، وأوشكت أن أدفعه إلى الطباعة، وإذا بي أتلقي رسالة من السيدة "دوديتو" - بعد طول صمت - وإذا بهذه الرسالة تفرقني في هم جديد، لعله أقسى ما كنت قد خبرت من هموم، حتى ذاك الحين. فلقد أنبأني السيدة في هذه الرسالة (الملف ب - رقم ٣٤) بأن هيامي بها بات معروفاً في "باريس" بأسرها، وإنني قد أفضيت به إلى قوم أذاعوه، وأن هذه الضجة قد ترامت إلى أذني عشيقها، وكادت تكلفه حياته، وأنه في النهاية - قد أنصفها، فعاد الوثام بينهما.. ولكنها كانت مضطرة - من أجله، ومن أجل نفسها والحرص على سمعتها كذلك - إلى أن تقطع كل علاقة بي!.. وأكدت لي أن كلا منهما لن يكف - بعد ذلك - عن أن يهتم بأمرى، وأن يدافع عني أمام الملا!.. وأنها ستبعث - بين الحين والحين - في طلب إخباري!



وهتفت في نفسي: "حتى أنت يا ديدرو!.. أيها الصديق غير الجدير بالود". ومع ذلك فإنني لم أكن أملك - بعد - أن أبت في أمره؛ إذ كان ضعفي معروفاً لدى أناس آخرين، وكان من المحتمل أن يكونوا قد وشوا به، ولقد طاب لي أن استسلم للشك.. ولكنني لم ألبث أن وجدتني عاجزاً عن ذلك؛ إذ إن "سان - لاميير" أقدم - بعد ذلك بقليل - على تصرف يليق بكرم نفسه. فقد - وهو العارف بحقيقة نفسي - الحال التي كنت فيها، وقد غدر بي فريق من أصدقائي، وهجرني الباقون، فاقبل يزورني بنفسه!.. ولم يكن لديه متسع من الوقت في المرة الأولى، فاقبل مرة ثانية. ولكنني لم

أكن - لسوء الحظ - في البيت؛ إذ إنني لم أكن أتوقع مجيئه، ودار بينه وبين "تيريز" - التي كانت في البيت - حديث استغرق حوالي ساعتين، قال كل منهما للآخر - في سباقه - كثيرا من الأمور، التي كان من الضروري لكل منا أن يعلم بها.. ولقد كانت دهشتي حين علمت أن أحدا لم يكن يرتاب في أنني عاشرت السيدة "ديبيناي"، كما كان "جويم" يعاشرها في ذلك الحين، تعادل دهشته حين عرف أن هذا النبأ كاذب!.. فلقد كان "سان" - لاميير" يحظى من نعمة السيدة بمثل ما كنت أحظى!.. وكانت جميع الأضواء التي انبثقت عن هذا الحديث كافية لان تخنق في نفسي كل أسى داخلها لفصم عرى الود مع هذه السيدة، إلى غير رجعة!

ولقد أوضح "سان" - لاميير" - "تيريز" - فيما يتعلق بالسيدة "دوديتو" - كثيرا من الظروف التي لم تكن معروفة لدى "تيريز" بل ولا لدى السيدة "دوديتو" نفسها!.. فما كان يعرفها سواي أنا وحدي، وما أفضيت بها إلا إلى "ديدرو" وحده، وتحت اسم الصداقة، فإذا به يختار "سان لاميير" - بالذات؛ ليبوح له بها!.. وكان هذا الأمر الأخير هو العامل الحاسم لدي؛ فعددت العزم على أن أقاطع "ديدرو" إلى الأبد، ولم يعد يشغلني بصدده ذلك سوى تخير الأسلوب الذي أحقق به القطيعة. فلقد تبين أن المقاطعة المتكتمة، كانت لا تلبث أن تنقلب ضدي؛ إذ إنها كانت تترك قناع الصداقة مسدلا على وجوه أفعاء أعدائي!

إن قواعد السلوك الطيب التي قامت في الدنيا على هذا الأساس تبدو كما لو كانت من إملاء روح الخداع والغدر. فإن التظاهر بصداقة امرئ ما - عندما تكون هذه الصداقة قد انتهت - لا يعني سوى الاحتفاظ بوسائل إيهاء ذلك المرء، بالتصويه على ذوي النفوس الشريفة!.. واسترجعت في ذهني أن "مونتسكيو" الجليل، بادر - حين قاطع الأب "دي تورغين" - إلى إعلان القطيعة مدوية، إذ قال للناس أجمعين: "لا تنصتوا إلى الأب "تورغين"، ولا لي، إذا تكلم كل منا على الآخر؛ فإننا لم نعد صديقين!". ولقد قوبل هذا المسلك بإعجاب بالغ، وأكبر الناس جميعا صراحته وكرم نفسه، واعتزمت أن انتهج هذا المسلك مع "ديدرو"، ولكن، كيف كان يتسنى لي أن أعلن من معزلي هذه القطيعة المشروعة، لاسيما إذا شئت أن أتجنب الفضائح؟.. وقررت أن أضمن مقالتي فقرة من "الكتساب المقدس" من "سفر ابن سيراخ" تعبر عن هذه القطيعة - بل وعن موضوعها - بوضوح كاف، لكل من كان يعنيه الأمر، دون أن تعني شيئا لبقية الناس، وفوق ذلك فإنني عانيت بالأشهر - في المقال - إلى ذلك الصديق الذي نبذته، إلا بالأسلوب الكريم الذي ينبغي على المرء دائما نحوه أية صداقة باقية، وفي الوسع تبين ذلك في المقال ذاته.



ليس في هذه الدنيا سوى حظ، وسوء حظ، ولا وسط بينهما، ويبدو أن كل عمل ينطوي على شجاعة وجراحة، لأبد وأن ينقلب - عند الخصومة - إلى ذنب وجريمة؛ ذلك لأن المسلك الذي اجتلب لـ "مونتسكيو" الإعجاب، لم يجلب عليّ أنا سوى اللوم والتقريع!.. فما إن طبع مقالتي وحصلت على نسخ منه حتى أرسلت واحدة إلى "سان" - لاميير"، الذي كان قد كتب إليّ - في اليوم السابق مباشرة - رسالة باسم السيدة "دوديتو" واسمه، زحرت بأرق آيات الود (الملف "ب" - رقم ٣٧)، وهاكم الخطاب الذي كتبه لي، وهو يرد النسخة التي أرسلتها إليه (الملف "ب" - رقم ٣٨):

"أوبون": ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"لم أستطع حقاً - يا سيدي - أن أتقبل الهدية التي أرسلتها إليّ". فعندما بلغت من مقدمتك الفقرة التي ذكرت فيها "ديدرو"، وأوردت فقرة من "سفر الجامعة" - (وقد أخطأ هنا، فهي من "سفر ابن سيراخ" - وقع الكتاب من يدي؛ فلقد بدا لي - بعد الحديث الذي دار بيننا إبان هذا الصيف - أنك كنت مقتنعا ببراءة "ديدرو" من المخالفات المزعومة التي رميته بها .

"ومن الجائز أن يكون قد أخطأ في حقلك، فلست أدري.. ولكن الذي أدريه هو أن هذه الأخطاء لا تعطيك الحق في أن توجه إليه إهانة علنية. فأنت لا تجهل الاضطهادات التي يعانيها، وهانتها تضم صوت صديق قديم إلى صرخات الحاسدين!.. ولست أكتمك ياسيدي، مدى ما تثيرني هذه القسوة الفظيعة!.. إنني لا أعاشر "ديدرو"، ولكنني أجله وأكرمه، وأشعر بحدة الألم الذي تسببه لرجل لم تأخذ عليه - فيما بيننا، على الأقل - ما يستحق اللوم، اللهم إلا قدرا ضئيلا من الضعف .

"إننا لنتخلف كثيرا يا سيدي - من ناحية المبدأ - بحيث لن يتسنى لنا أن نكون على اتفاق يوما . فانس وجودي، ولن يكون هذا بالأمر العسير عليك؛ فإنني لم أفعل قط من الخير - أو الشر - للرجال ما يظل في الأذهان أمدا طويلا، وأعاهدك ياسيدي - من ناحيتي - على أن أنسى شخصك، والا أذكر في نفسي سوى مواهبك".

ولم يكن شعوري بالألم، أقل من شعوري بالشمم والغضب للكرامة من جراء هذا الخطاب، وفي فورة شقائي، وقد استرددت عزة نفسي، رددت عليه بالرسالة التالية:

"مونتورنسي": ١١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٨ .

"سيدي: ما إن قرأت خطابك حتى شرفتك بالدهشة منه، ولقد كنت من الحماسة بحيث تأثرت به، ولكنني وجدته غير جدير بالرد!

"إنني غير راغب في مواصلة نسخ القطع الموسيقية للسيدة "دوديتو"، وإذا لم يرق لها أن تحتفظ بما لديها منها فهي وسعها أن تردّها إليّ، وساعيد لها نقودها. أما إذا استبقته فلها أن ترسل - في أي وقت شاءت - في طلب ما بقي من أوراقها ونقودها، وإنني لأرجوها - في الوقت ذاته - أن ترد إليّ ما يكون لديها من أوراقتي .

"وداعا يا سيدي...".

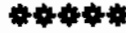
والشجاعة في المحزن، تلقى الروح في القلوب الهياية، ولكنها تشرح القلوب الكريمة، ويبدو أن هذه الرسالة قد ردت "سان - لاميير" إلى حجاجه فندم على ما فعل. ولكنه كان من الإسراف في الكبرياء بحيث تعذر عليه أن يقر بذلك صراحة؛ فلاذ بالصمت، ولعله كان يعد العدة ليجعل الضربة - التي وجهها إليّ - مميتة!.. وإن هي إلا خمسة عشر يوما حتى تلقيت من السيد "ديبيناى" الرسالة التالية (الملف "ب" الرسالة رقم ١٠):

"هذا الخميس: ٢٦ .

"تلقيت ياسيدي، الكتاب الذي تكرمت بإرساله، وإنني لأقرؤه بنغمة بالغة، وهذا هو الإحساس الذي اعتاد أن يداخلني دائما، وأنا أقرأ كل المؤلفات التي نفتها قلمك. فتقبل جزيل شكري، ولقد كنت أود أن أقدمه لك شخصيا، لو أن شؤوني سمحت لي بأن أقيم وقتا على مقربة من مقامك،

ولكنني قل أن نزلت بـ "لاشيفريت" في هذا العام.
 إن السيد والسيدة "دوبان" قادمان لتناول الغداء عندي، يوم الأحد القادم. كما أتوقع أن يكون
 بين الحضور السيدان "دي سان - لامبير"، و"دي فرانكوي"، والسيدة "دوديتو"، ولسوف يكون
 من دواعي غيظتي حقا أن تكون بيننا ياسيدي.
 إن كل الذين سيكُونون في داري، يرغبون في وجودك، وسوف يغتبطون بأن يشاطروني متعة
 قضاء بعض اليوم معك.
 "وإنه ليشرفني أن أكون، مع اكمل التقدير... إلخ".

واخذ قلبي يندق بعنف مروع، من جراء هذا الخطاب؛ ذلك لأن فكرة الظهور أمام السيدة
 "دوديتو" - بعد أن كنا حديث "باريس" عاما بأكمله - جعلتني أرعج، ولا أكاد أجد الجراءة
 الكافية على أن أواجه هذا الاختبار. ومع ذلك فقد كان "سان - لامبير" راغبا في ذلك، وقد تكلم
 "ديسيناي" نيابة عن كل ضيوفه، ولم يكن بينهم من اغتبط ببقائه؛ ومن ثم فإني انتهيت إلى أنني لن
 أكون - من كافة الاعتبارات - متطفلا، إذا قبلت دعوة إلى الغداء، كنت مدعوا إليها من كافة
 الضيوف، ولهذا فإني وعدت بالحضور، وكان يوم الأحد سيئ الطقس فأرسل السيد "ديسيناي" عربته
 لتقني. فذهبت!



وأثار وصولي عاصفة من المشاعر الطيبة، فما قدر لي يوما أن أحظى باستقبال يفوق هذا مودة
 وحفاوة.. حتى ليتمكن القول بأن القوم كانوا يشعرون بمدى حاجتي إلى ما يشرح صدري، ولا تدري
 سوى القلوب الفرنسية مثل هذه الألوان من العواطف. على أنني وجدت أناسا أكثر مما كنت أتوقع،
 بينهم الكونت "دي دوديتو" - الذي لم أكن قد تعرفت عليه قط - وأخته السيدة "دي بليفيي"
 التي كنت أرجو أن أعفي من مقابلتها، وكانت قد وفدت على "أوبسون" مرات عديدة في العام
 السابق، وكانت زوجة أخيها تتركها تحرق الإرم غيظا عندما كنا ننطلق في نزهاتنا الخلوية وحيدين؛
 ومن ثم فقد تولاهما نحوي نفور راح ترضيه - أثناء المأدبة - على هراة.. فمن الممكن حدسه، إن
 وجود الكونت "دوديتو" و"سان - لامبير" لم يكن مبعث طرب لي، وإن الرجل الذي تتولاه الحيرة
 والخرج - في مثل هذه المناسبات - لا يستطيع أن يتالق فيها بسهولة.. أبدا ما عانيت مثل ما عانيت
 إذ ذاك، ولا أكفهر محياي كما أكفهر في هذه المناسبة، ولا تعرضت لحملات لم تكن متوقعة كتلك
 التي تعرضت إليها من هذه السيدة.

وعندما غادرنا المائدة أخيرا ابتعدت عن هذه المرأة السليطة وسرني أن رأيت "سان - لامبير"
 والسيدة "دوديتو" يسعيان نحوي فظللنا شطرا من فترة ما بعد الظهر، نتجاذب الحديث في مسائل لم
 تكن ذات بال، في الواقع، ولكنها اتاحت لنا عين اللفة التي كانت بيننا قبل طيشي، ولم يغفل قلبي
 قط هذا الود، ولو أن "سان - لامبير" استطاع أن يطلع على دخيلتي لأطمأن إلى ذلك يقينا، وبوسمي
 أن أقسم أنه بالرغم من أن مرأى السيدة "دوديتو" - عند وصولي - قد أثار ضربات قلبي في عنف
 بالغ، حتى أوشكت أن أفقد وعيي، إلا أنني لم أكن أفكر فيها - عندما انصرفت - إذ شغلت عنها
 بـ "سان - لامبير"!

وبالرغم من السخریات الخبيثة - التي صدرت عن السيدة "دي بلينفسي" - إلا أن هذه المأدبة شرحت صدرتي، فرحت أهنيء نفسي بحرارة على أنني لم أرفض الدعوة. فلقد تبينت هناك أن دسائس "جریم" وعصبة "دولباخ" لم تشتت أصدقائي القدامى عني (١)، وليس هذا جل ما تبينت بل إن مشاعر السيدة "دوديتو" و"سان - لامبير" لم تتحول كما كنت أتوقع.. واستطعت أن أفهم - أخيرا أن اليعاد الذي حجب السيدة "دوديتو" عني، كان مرده إلى الغيرة، أكثر مما كان إلى نقص في تقديرها إياي، ولقد وجدت في هذا عزاء وتسرية!.. ذلك لأن اطمئناني إلى أنني لم أكن موضع احتقار لدى أولئك الذين كنت اعتز بهم كان يمكنني من أن أرفض سيطرتي على قلبي بكثير من القوة والتوفيق، وإذا كنت لم أوفق إلى أن أحمده تماما - في هذا القلب - هوى آثما ومنحوسا، فإنني استطعت أن أسيطر على هذا الهوى وأن أرمضه، على الأقل، فلم يدفعني - منذ ذلك الحين - إلى أن أرتكب خطأ واحدا. وما تزال أعمال النسخ - التي أغرتني السيدة "دوديتو" باستئنافها لحسابها - ومؤلفاتي، التي واصلت إرسالها إليها عند ظهورها.. ما تزال هذه وتلك، تأتيني منها - بين الحين والحين - برسائل ومذكرات، قد لا تكون ذات قيمة، ولكنها باعثة على الرضا.. بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك - كما سيتبين فيما بعد - وأن المسلك المتبادل بين ثلاثتنا - بعد أن انقطع اتصالنا - ليقوم مثالا على الطريقة التي يفترق بها أهل الشرف عندما يصبح من المستحب ألا يلتقوا!

وهناك نفع آخر أقدمته من هذه المأدبة: ذلك هو أنها صارت حديث "باريس"، واتخذت كدليل قاطع يدحض الشائعة التي كان أعدائي قد روجوا لها في كل مكان، عن أنني كنت على أشد الخصام مع أولئك الذين حضروها جميعا، لا سيما السيد "ديسيناي" بالذات!.. وكنت قد كتبت له - عند مبارحة "ليرميتاج" - رسالة شكر مهذبة، أجاب عنها بأدب مائل، ولم تنقطع المحادثات المتبادلة، سواء بيني وبينه، أو بيني وبين السيد "دي لاليف" - شقيقه - الذي كان يفد إلى "مونمورنسي" لزيارتي، ويبعث إلي بصوره، وما عدا زوجتي شقيقي السيدة "دوديتو" لم أكن يوما على علاقة سيئة بأحد من الأسرة.



ولقد حظي مقالتي الموجه إلى "دالمبير" بنجاح عظيم، ولقد كان هذا شأن مؤلفاتي جميعا، ولكن هذا المقال بالذات، كان أحبها إلي في نفسي؛ إذ إنه نبه الرأي العام إلى عدم الثقة بتخرصات عصبة "دولباخ". فعندما انتقلت إلى "ليرميتاج"، تنبؤوا - باعتدادهم الماثور - بأنني لن أستطيع البقاء هناك لأكثر من ثلاثة أشهر. حتى إذا رأوني أمكث هناك عشرين شهرا، ثم أظل - بعد أن اضطرت إلى مبارحته - في الريف، راحوا يتشددون بأن هذا لم يكن سوى مجرد عناد محض، وأنني قد ضقت - إلى حد الموت بعزلي، ولكن الغرور والكبرياء كانا يغريان قلبي، ويجعلاني أؤثر الموت هناك - ضحية العناد - على أن أرجع عن رأيي وأعود إلى "باريس". ولكن رسالتي إلى "دالمبير" جاءت عيقة بأنفاس روح وادعة، في غير اصطناع، ولو أنني كنت أعاني النكد في عزلي لبدا هذا ملموسا في لهجتي، كما كان يبدو جليا في جميع ما كنت قد كتبت إبان إقامتي في "باريس".. ولكن هذه الروح اختفت في أول مؤلف وضعته في الريف، وقد كانت هذه الظاهرة برهانا قاطعا لدى القادرين على الملاحظة؛ إذ رأوا - في مقالتي - أنني عدت إلى طبيعتي.

ومع ذلك، فإن هذا المقال - المفعم باللطف - قد جلب لي عدوا جديدا في عالم الادب، من جراء

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "ولقد كان هذا ما ظلت أؤمن به - بسذاجة قلبي - حتى كتابة الاعترافات".

غفلتي وسوء طالعي المعهود! ذلك أنني كنت قد تعرفت - لدى السيد "ديلا بوبلينير" على "مارمونتيل"، ثم توثق هذا التعارف لدى "البارون"، وكان "مارمونتيل" يتولى - إذ ذاك - تحرير صحيفة "ميركوري فرانس"، ولما كنت أربأ بنفسي أن أرسل مؤلفاتي إلى أولئك الذين يكتبون للصحف، ومع ذلك فقد كنت راغباً في أن أرسل هذا المؤلف بالذات إلى "مارمونتيل" دون أن أشعره بأنه موجه إليه كمحرر، أو لكي يتحدث عنه في صحيفته، فقد كتبت على النسخة التي أرسلتها إليه أنها غير موجهة إلى "محرر الميركوري"، وإنما إلى "السيد مارمونتيل"، وظننت أنني بذلك كنت أقدم له مجاملة لطيفة، ولكنه - كما بدا - رأى فيها إهانة بالغة، فأصبح عدواً لا تهدأ لخصامه سورة، وكتب ضد مقالتي مقالا مؤدباً، ولكن أسلوبه لم يخل من غل ملموس، ومن ذلك الحين لم يدع فرصة تمر دون أن يطعنني في المجتمع، أو يسيء إليّ - في مؤلفاتي - إساءة غير مباشرة... إلى هذا الحد يتعذر ترويض أنانية أهل الأدب، وإلى هذا الحد يجب أن يكون المرء على حذر فيما يوجهه إليهم من مجاملات، فلا يدع أي شيء يمكن أن يؤول على غير معناه!

سنة ١٧٥٩

أما وقد غدوت مطمئناً، من كل جانب، فقد رحت أستغل فراغي وحررتي في استئناف أعمالتي الأدبية بمزيد من الانتظام. فأتمت - في ذلك الشتاء - "جولي"، وأرسلتها إلى "ريه" الذي أتم طباعتها في العام التالي. غير أن انصرافي إلى العمل، لم يلبث أن اضطرب من جراء حادث تافه، ولكنه مكدر. فقد علمت أن الاستعداد كان يجري في "الأوبرا" لعرض "عراف القرية" من جديد، وغازني أن وجدت أولئك القوم يتصرفون في إنتاجي دون اكتراث بي، فعدت إلى المذكرة التي كنت قد أرسلتها - يوماً - إلى السيد "دارجنسون" ولم أتلق عنها جواباً، فنقحتها، وأرسلتها عن طريق السيد "سيلون"، مع خطاب تكرم بأن يعنى بتسليمه إلى السيد الكونت "دي سان - فلورنتان"، الذي كان قد خلف السيد "دارجنسون" في إدارة "الأوبرا"، ولقد تحدث "ديكلو" - إذ أنبأته بما فعلت - إلى "الكمائين الصغيرين" بهذا الشأن، فعرضاً عليه أن يعيداً إليّ، لا أوبرا، وإنما التصريح بدخول الدار دون مقابل، وهو ما لم يكن ذا نفع لي؛ وإذ رأيت أنه لا أمل لي في أي إنصاف، فقد تخلّيت عن المسألة كلها، وواصل المشرفون على إدارة "الأوبرا" استغلال "عراف القرية" وفق هواهم - وكأنها ملك خاص لهم - ويجنون منها الأرباح، دون أن يعنوا بالرد على احتجاجاتي، أو ينصتوا إليها، مع أن هذه "الأوبرا" ملك لي وحدي، دون منازع (١).

ومنذ نفضت عن نفسي ربة الطغاة الذين أوسعوني جوراً، رحت أعيش حياة سهلة، مسترسلة، وادعة وقد حرمت من فتنة علاقيتين من أقوى العلاقات العاطفية، وتحررت من أغلالهما الثقيلة، ولفرط مقتني للأصدقاء "الحماة" الذين كانوا يظهرون رعايتهم لي، لمجرد الرغبة في أن يوجهوا مصيري وفق هواهم، وأن يجعلوني - على الرغم مني - أسير أفضالهم المزعومة، عقدت العزم، على أن أقصر علاقاتي - في المستقبل - على مجرد حسن النية والود الخالص، الذي يضيء على الحياة بهجة - دون أن يفرض أية قيود على الحرية التامة - والذي يقوم على أساس المساواة الكاملة... ولقد كان لديّ من هذا النوع من العلاقات قدر كاف لأن يمكنني من أن أتذوق متع الجماعة والإنسان، دون أن أكون

(١) أضاف 'روسو' إلى هذه الفقرة للتعقيب التالي: "اعترف بأن كل ما استطعت - منذ كتابة هذا المؤلف - أن أتبعه خلال المعامبات الغامضة التي تحيط بي، يجعلني أخشى ألا أكون قد عرفت "ديدرو" حق المعرفة!"

مضطرا إلى أن اعتمد عليها اعتمادا يحد من استقلالي، وما إن جريت هذا الأسلوب من أساليب الحياة حتى شعرت بأنه أنسبها لسني، ولأقضي الأيام الباقية من عمري في سلام، بعيدا عن الأنواء، والخلافات، والمضايقات، التي كدت أغرق في حمايتها، في الفترة الأخيرة.



وكنّت خلال إقامتي في "ليرميثاج"، ومنذ أن استقر بي المقام في "مونثورنسي" قد عقدت صلات تعارف مستحبة، في المنطقة لم تكن تفرض عليّ أية التزامات، وعلى رأس هؤلاء المعارف "لويزو دي موليون" الشاب، الذي كان ما يزال في بداية عمله كمحام، وعلى جهل بالمركز الذي كان موشكا أن يشغله، ولم تكن لديّ من الهواجس مثل ما تولاه، فرحت أبين له الحياة العملية الموفقة، التي ينعم بها اليوم، وتنبأت له بأنه إذا حرص أشد الحرص على تخير قضاياه، وإذا هو تشبث دائما بالدفاع عن الحق والفضيلة فإن هذه المشاعر السامية لن تلبث أن تصقل نبوغه، وتجعله في مصاف كبار المحامين والخطباء، ولقد تبع نصحي، وإنه ليحظي اليوم بالنتيجة، ولقد كان دفاعه عن السيد "دي بورت"، خليقا بأن يعادل ما كان يصدر عن الخطيب الإغريقي "ديموستين" ... وكان يفد لقضاء عطلته من كل عام، في "سان - بريس" - على أربعة فراسخ من "ليرميثاج" - في ضيعة آل "موليون" التي كانت تمتلكها أمه، والتي عاش فيها من قبل "بوسيويه" العظيم، وهي ضيعة أدي تعاقب أمثال هؤلاء الملوك عليها إلى تعذر بقاء أسرة إقطاعية على أرضها!

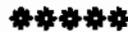
وكان لي في القرية ذاتها - "سان - بريس" - صديق آخر هو الكنتي "جيران" .. وكان رجلا موهوبا، مطلعاً، لطيفاً، وفي أرقى مصاف أبناء مهنته، ولقد تعرفت بفضلها إلى "جان نياولم"، وكان صديقا له من باعة الكتب، على تراسل مستمر معه، وهو الذي نشر كتابي "إميل"، فيما بعد. وعلى مسافة أدنى من "سان - بريس"، تعرفت إلى راعي كنيسة "جورسلي" - السيد "مالثور" - الذي كان يصلح لأن يكون وزيرا ومن رجال الحكم منه لأن يكون "حسوريا" لكنيسة إحدى القرى .. أو كان جديرا - على الأقل - بأبرشية يديرها، إذا قدر للمواهب أن تحدد مراكز الرجال! .. ولقد كان يوما سكرتيرا للكونت "دولوك"، وعرف "جان بابتيست روسو" معرفة وثيقة، وكان مفعم النفس بالتقدير لذكرى هذا الشاعر الجليل - الذي قدر له أن يقصّي عن موطنه - بقدر ما كان مليء القلب بالمقت لذلك الوغد "سوراني" الذي كان سببا في القضاء على ذلك الشاعر .. وكان "الخوري" يعرف عددا من النوادر الطريفة عن كل منهما، لم يذكرها "سيجاي" في سيرة الشاعر، التي لم تنشر بعد، ولقد أكد لي السيد "مالثور" أن الكونت "دولوك" لم يجد يوما سبيلا إلى الشكوى منه، بل إنه ظل يكن له صداقة حارة إلى آخر أيام حياته، ولقد منح السيد "دي فانتميل" الخوري منصبه المريح - بعد وفاة مخدمه السابق - ليعيش في عزلة هادئة. وقد روي لي أنه استخدم - قبل ذلك - في كثير من الأعمال، ظل - رغم تقدم سنه - يحتفظ بذكريات واضحة لها، وكان يحدثني عنها بلهجة تتم عن حكمة وحصافة، وكان حديثه مفيدا بقدر ما كان مسليا، لا يوحى إلى المرء قط بعقلية "خوري" القرية، وكان يجمع بين دراية الرجل الخبير بالنديا، وشوق الطالب الراغب في التعليم، ولقد كانت صحبته هي أحب صحبة إلى بعض المقيمين في المنطقة من جيراني، ولقد فارقت وفي نفسي أبلغ الأسف لذلك.

وتعرفت في "مونغورنسي" إلى أعضاء هيئة الوعظ، ومنهم الأب "بيرتيه" الذي كان أستاذا في العلوم الطبيعية، والذي توثقت صلتني به - برغم لحة من الاختيال بعلمه في خلقه - لما لمست فيه من طيبة. على أنني وجدت عناء في محاولة التوفيق بين سذاجته المسرفة، وبين تحايله على أن يزوج بنفسه في كل مكان.. في دور العظماء، وبين النساء، ولدى الاتقياء، وفي أوساط الفلاسفة. كان يعرف كيف يرضي أهواء جميع الناس!.. ولقد وجدت متعة بالغة في صحبته، ورحت أتحدث عنه إلى كل إنسان، ومن الجلي أن كل ما كنت أقوله عنه، قد نغى إليه؛ فقد شكرني ذات يوم، مبتسما، لأنني كنت اعتبره رجلا طيبا، ونحت في ابتسامته لونا من اللؤم بدل سحنته - في نظري - تبديلا تاما، ولا تزال هذه الابتسامة تمثل في ذاكرتي أحيانا، منذ ذاك الحين، ولست أملك أن أصورها بأكثر من أنها ابتسامة "يانورج" وهو بيتاع أغنام "داندينو". ولقد بدأ تعارفا عقب وصولي إلى "ليرميتاج" بوقت قصير، ثم أخذ يكثُر من التردد على الدار لزيارتي بعد ذلك.

وكنْتُ قد استقررت في مقامي في "مونغورنسي"، عندما رحل الأب "بيرتيه" إلى "باريس"، ليقم فيها، وهناك أخذ يلتقي بالسيدة "لوقامير" في كثير من الأحيان وقد كتب لي ذات يوم - كان فيه أبعد الناس عن ذهني - يطلعنني، على لسان هذه المرأة، على أن "جرم" عرض عليها أن يعولها، ويستأذني باسمها في قبول هذا العرض، وعلمت أن "جرم" عرض عليها معاشا قدره ثلاثمائة لييرة، على شريطة أن تذهب لتقيم في "دويبي"، بين "لاشيفريت" و"مونغورنسي"، ولست بحاجة إلى أن أذكر وقع هذا النبا على نفسي.. لقد أثار دهشة تفوق ما لو علمت أن "جرم" أوتي دخلا قدره مائة ألف لييرة، أو أنه أنشأ علاقة غير شريفة مع هذه المرأة.. وكأنه لم يعتبره إجراما مني أن اصطحب هذه المرأة إلى ذات الريف الذي يميل الآن إلى إعادتها إليه.. أو كان السن رجعت بها القهقري منذ أثار هذا الاتهام!

وأدركت أن المعجز الماكرة ما كتبت تسألني الإذن - وهي التي لم تكن تتورع عن أن تغض البصر عنه إذا ما رفضت - إلا لكي تنفادي أن تفقد ما كنت آمنحها إياه من ناحيتي، ومع أن هذا التطوع للخير - من جانب "جرم" - بدا غير عادي في عيني إلا أنه لم يشغلني إذ ذاك، بقدر ما شغلني فيما بعد. على أنه لو قدر لي حينذاك أن أعرف كل ما عرفت بعده لما أحججت عن أن أعلنها بموافقتي - كما فعلت إذ ذاك - ما لم أكن على استعداد لأن أعوضها عما عرضه عليها "جرم"!

ومنذ ذلك الحين أبراني الأب "بيرتيه" من الاعتراض بطبيعة الأمر الذي بدا له عجبا، حين صارحته به في غياب!



كان هذا الأب "بيرتيه" بالذات، على معرفة برجلين، كانا بدوريهما يشدان التعرف إلي، دون أن أدري لذلك داعيا؛ إذ لم يكن ثمة تقارب يذكر - في الواقع - بين ميولهما وميولي. ذاك هما ابنا "ميلشيسبيديك" اللذان لم يقدر لاحد أن يعرف وطنهما، ولا أسرتهما، بل - وربما - لقبهما الحقيقي، وكانا من "اليانسين" (١) وقد أخذهما القوم على أنهما راهبان مستخفيان، ولعل ذلك كان راجعا إلى عاداتهما التي كانت تعرضهما للسخرية.. عادة حمل سيفين طويلين، كانا يتشبثان بهما، وكانت السرية الضافية التي راحا يسبغانها على كل تصرفاتهما، تكسبهما مظهر زعماء

(١) "اليانسين" أتباع مذهب ديني، ورد شرحه في الجزء الأول من "الاعترافات".

الأحزاب أو الشيع، ولم أشك قط في أنهما هما اللذان كانا يصدران "الجازيت اكليسيا ستيك"، الصحيفة الدينية.

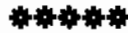
وكان أحدهما فارغ القامة، بشوشا، متملقا، يدعى السيد "فيرو" .. أما الآخر، فكان قلة في الجسم، ربعة القوام، ساخرا، كثير الجدول فيما لا طائل منه، ويدعى السيد "ميتار"، وكان كل منهما ينادي الآخر بـ "ابن العم"، وكانا يقيمان في "باريس" مع "داليمير"، في بيت مربيته، وقد اتخذنا في "مومورنسي" بيتا صغيرا، راحا يقضيان فيه فصل الصيف من كل عام، وكانا يدبران شؤون بيتهما بنفسيهما، دون خدم ولا حشم، وكانا يتناوبان أسبوعيا الذهاب إلى السوق، والطهو، وكنس البيت. وفيما ذلك، كانا يعيشان ناعمين، وكنت أتناول الطعام علي مائدتهما، ويتناولانه على مائدتي، في بعض الأحيان، ولست أدري السرفي أنهما كانا يشغلان بي، في حين أنني لم أكن أحفل بهما إلا لأنهما كانا يهويان الشطرنج .. ولكي أظفر بمباراة صغيرة، متواضعة، كنت أحتفل أربع ساعات مضجرة، ولما كانا يسعيان إلى أن يدسا أنفيهما في كل شيء فإن "تيريز" أطلقت عليهما اسم "الثرثارين"، وقد لصق بهما هذا الاسم في "مومورنسي".

هؤلاء مع السيد "ميتي" - صاحب بيتي، الذي كان رجلا وقورا - كانوا أهم معارفي في الريف، وكنت ما أزال أحتفظ بعدد كاف في "باريس"؛ لكي أنسى الحياة هناك - كلما طاب لي ذلك - خارج نطاق وسط الأدباء، حيث لم أكن أعول على صديق سوى "ديكلو" وحده .. فقد كان "ديليير" ما يزال جد صغير السن بالنسبة لي، ومع أنه لم يلبث إذ عرفت عن كذب الدسائس ضدي من العصبية الفلسفية - أن نأى بنفسه تماما عن هذا الوسط، أو هكذا ظننته، على الأقل .. ولم أكن قد استطعت بعد أن أنسى سهولة مبادرته إلى جعل نفسه بوقا لكل أولئك المتأمرين!

وكنت ما أزال أحتفظ - في المكانة الأولى - بصديقي القديم المحترم السيد "روجسان"، وهو من أصدقاء الأيام الطيبة، الذين لا أدين بمعرفتهم لكتاباتي، وإنما لشخصي؛ ولهذا السبب استطعت أن أحتفظ به دوما، وكان من أصدقائي أيضا، مواطني الشيخ الطيب "لينيبي"، وابنته السيدة "لامبير"، التي كانت إذ ذاك أرملة، وهناك - كذلك - شاب من "جنيف" يدعى "كوانديه"، كان فتى طيبا - كما بدا لي - مجتهدا، خدوما، ذا حمية .. بيد أنه كان جاهلا، متواكلا، شرها، نفعيا، وقد جاء - منذ البداية - لزيارتي في "ليرميستاج"، وبدون دعوة - اللهم إلا من نفسه - استقر في بيتي، بالرغم مني، وكان على ميل للرسم، وعلى معرفة بأهل الفن، وقد أفدت منه في رسوم "جولي"، فآلى على نفسه أن يشرف على الرسوم واللوحات "الكليشييات"، وقد أدى هذه المهمة خير أداء.

وكان لدي - فوق ذلك - بيت السيد "دوبان" الذي غدا أقل بهاء، مما كان في أنضر أيام السيدة "دوبان" (أيام شبابها) والذي ظل من خيرة الدور الباريسية بفضل مواهب سادته وخلالهم، وبفضل الصفوة التي كانت تتردد عليه، ولما كنت قد اعتدت أن أفضلهم على من عداهم طرا، ولم أهجرهم إلا لكي أعيش طليقا فإنهم لم يكفوا قط عن أن يرمقوني بعين الود، وكنت واثقا من حفاوة السيدة "دوبان" بي في جميع الاوقات. بل إنني استطعت اعتبارها من جاراتي في الريف - كذلك - منذ أقاموا دارا في "كليشي"، اعتدت أن أقضي فيهما يوما أو يومين - في بعض الأحيان - وكنت خليقا بأن أكثر من التردد عليها، لو أن السيدة "دوبان" والسيدة "شيتونسو" كانتا تعيشان على مزيد من الوثام. ولكن تعذر توزيع اهتمام المرء بين امرأتين لا تنسجمان معا، جعلني اضيق كثيرا بـ "كليشي".

ولما كنت مرتبطة بالسيدة "شينونسو" بود أكثر يسرا وأشد ألفة فإنني كنت أحظى بمتعة رؤيتها - وأنا أكثر ارتياحا - في "دوبي"، التي كانت جد قريبة من مسكني، حيث كانت قد استأجرت دارا صغيرة.. كما كنت أسعد برؤيتها في داري، حيث اعتادت أن تأتي لزيارتي في كثير من الأحيان. كذلك كان بين معارفي في "باريس" السيدة "دي كريكي"، التي أوغلت في التعبد والتدين، وكفت عن لقاء "داليمير" و"مارمونتيل" ومن على شاكلتهما، ومعظم أهل الأدب، اللهم إلا الأب "ترويليسه" - على ما أعتقد - الذي كان في ذلك الحين شبه مرء متملق، حتى إنها لم تلبث أن ضاقت به. أما أنا، فكانت تشد صحتي، ولم تفقد ودها نحوي، بل ظلت دائما على تراسل معي، وقد أرسلت لي بعض دجاج "لوسان" السمين كهدية في رأس السنة. كما كانت تعترض أن تفد لزيارتي في العام التالي عندما أفسدت عليها خططها رحلة قامت بها السيدة "دي لوكسمبورج" في الوقت ذاته، وإنني لاحتفظ لها في نفسي بمكانة خاصة، ولسوف تظل ذات مقام في ذاكرتي على الدوام.



وكان لدي صديق، جدير بأن أجعله في مقدمة الجميع اللهم إلا "روجران". ذلك هو زميلي وصديقي القديم "كاريو"، الذي أصبح السكرتير الأسمى للسفارة الإسبانية في "البندقية"، ثم في "السويد"، حيث عينه بلاط بلاده قائما بالأعمال، ثم عين سكرتير أصليا لسفارة بلاده في "باريس". ففاجأني بزيارة في "موغورنسي"، في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن أن أتوقعه، وكان يتقلد وساما إسبانيا - نسبت اسمه - ذا صليب بديع مرصع بالأحجار الكريمة، وكان مضطرا إلى أن يضيف إلى اسمه - في وثائق النسب - حرفا آخر، فأصبح يحمل اسم "الشيغالبييه دي كاريون". ولقد وجدته على ما عهدته عليه دائما: عين القلب الرائع، والعقل الذي يزداد لطفا وسحرا يوما بعد يوم.. وكنت خليقا بأن أعاود الفتى معه، كما كنا من قبل، لو لم يدخل "كوفانديه" بيننا - كهده - فينتهر بعدي عن "باريس"؛ ليتسلل - باسمي - إلى مكاني منه، ويغدو موضع ثقته، ويسلمني رده في تحمسه لخدمتي!

وتعيد ذكرى - "كاريون" إلى ذهني ذكر أحد جيراني في الريف، كنت خليقا بأن أذنب أشنع ذنب لو أنني أغفلت الحديث عنه لاسيما أنني مسوق إلى أن أعترف بخطأ لا يفتخر نحوه. ذلك هو السيد الكريم "لوبلون"، الذي أدى لي كثيرا من الخدمات في "البندقية"، والذي جاء في رحلة إلى "فرنسا" - مع أسرته - فاستأجر دارا ريفية في "لابريش"، التي لم تكن تبعد كثيرا عن "موغورنسي"، وما إن عرفت أنه جاري حتى خفق قلبي طربا، ورأيت أن أزوره بدافع من سروري، أكثر مما كان ذلك بدافع من الواجب، وذهبت لذلك في اليوم التالي مباشرة، وإذا بي التقي بأناس كانوا قادمين لزيارتي. فاضطرت إلى العودة معهم. وبعد يومين، سمعت إليه مرة ثانية، فوجدته يتناول غداءه في "باريس" مع أسرته (١). وذهبت مرة ثانية، فإذا به في داره، وسمعت أصوات نساء، ورأيت لدى الباب عربة أزعجتني؛ إذ كنت أود أن أقابله - دون دخيل ولو في المرة الأولى، على الأقل، لا تكلم معي عن علاقاتنا القديمة. وموجز القول، إنني رحت أرجى زيارتي يوما بعد آخر، حتى منعني حيائي من التقصير - طيلة هذه المدة - في تحقيق هذا الواجب، من أن أؤديه إطلاقا. فكان

(١) أضاف "روسو" إلى هذه العبارة، التعقيب التالي: "كنت عند كتابة هذا، مقعما بنقني القديمة العساء، أبعد ما أكون عن أن أرتاب في السب الحقيقي لهذه الرحلة إلى "باريس"، وفي نتائجها".

إقدامي على الانتظار طويلا، سببا في ألا أجرو - في النهاية - على أن أظهر نفسي، ولقد أدى هذا الإهمال - الذي لم يكن السيد "لوبلون" يملك سوى أن يستنكره، عن حق - إلى أن جعل تخاذلي يبدو جحودا، ومع ذلك فإنني لم أشعر في قرارة فؤادي - بأي تثريب .. ذلك لأنني لو كنت قادرا على أن أتبع للسيد "لوبلون" أي سرور حقيقي - وإن لم يكن على علم به - فإنه ما كان ليجدني في يقيني، متكاسلا. ولكن الخمول، والإهمال، والتهاون في أداء الواجبات الثقافية، كثيرا ما كانت أبلغ إساءة إليّ، بل من أعظم الرذائل. كانت أبشع أخطائي تتمثل في التفاضي، فنادرا ما كنت أفعل ما لم يكن ينبغي أن أفعله، وأندر من ذلك - لسوء الحظ - أنني لم أكن أفعل ما يجب فعله!



وما دمت قد عدت إلى المعارف الذين ظفرت بهم في "البندقية"، فخلق بي إلا أنسي علاقة تتصل بهم، وقد دامت أمدا أطول من بقية العلاقات، وأقصد علاقتي بالسيد "دي جونفسي"، الذي ظل - منذ عودته من "جنوا" - يواصل إبداء كثير من الود نحوي، وكان شديد الشغف بلقائي، وبالحديث عن المسائل والشؤون الإيطالية، وعن حماقات السيد "دي مونتيجي"، التي عرف - من ناحيته - بعض نوادرها، عن طريق وزارة الخارجية، التي كانت له بها كثير من الصلات. ولكم سررت؛ إذ التقيت في داره بزميلي القديم "دوبسون"، الذي كان قد حصل على منصب في إقليمه، وكانت شؤونه تحمله إلى "باريس" من آن إلى آخر.

ولقد أخذ السيد "جونفسي" يزاد إلحاحا في لقائي، شيئا فشيئا، حتى أصبح مصدرا لإزعاج لي.. ولما كنا نقيم في حين متباعدين، فقد بات يثير ضجة بيننا، إذا انقضى أسبوع كامل دون أن أذهب فأتناول الغداء لديه وكان إذا ذهب إلى ضيعة "جونفسي"، يسعى دوما إلى اصطحابي، ولكنني بعد أن قضيت هناك ثمانية أيام - ذات مرة - شعرت بأنها لا تكاد تنصرم، لم أعد أجد رغبة في العودة إليها، ولقد كان السيد "جونفسي" رجلا كريما، شهما - بكل تأكيد - كما كان لطيفا في نواح خاصة، ولكنه كان محدود الذكاء... وكان جميلا، مزهوا بشكله إلى حد ما، وباعثا على الضجر.. وكانت لديه مجموعة جد فريدة في نوعها، بل لعلها كانت وحيدة في العالم، فكان جد مشغول بها، وكان يشغل بها ضيوفه الذين كانوا يجدونها - أحيانا - أقل تشويقا مما كان يجدها هو تلك كانت مجموعة كاملة من أغاني البلاط الملكي، والأغاني الباريسية - منذ أكثر من خمسين عاما - توجد بينها كثير من الطرائف، التي كان من المستحيل على الباحث أن يعثر عليها في أي مكان آخر.. وإنها لذكريات في تاريخ "فرنسا"، نادرا ما تخطر بالبال لدى كافة الأمم الأخرى!

وفي ذات يوم - وقد كنا في أوج وثامنا - استقبلني استقبالا باردا، جليديا، لا يماثل مسلكه العادي، حتى أنني بعد أن أتمت له فرصة ليشرح هذا المسلك - بل وسألته أيضا - فلم يفعل، خرجت من داره وقد قرع عزمي على ألا أضع قدمي فيها مرة أخرى؛ إذ إنني لا أشاهد ثانية - على الإطلاق - حيث أكون قد حظيت باستقبال سيئ مرة.. ولم يكن هنا "ديدرو" يشفع للسيد "دي جونفسي"، ولقد أزهقت عقلي عبثا. كي أتبين أي ذنب يحتمل أن أكون قد ارتكبته نحوه؛ إذ إنني لم أستطع أن أتذكر شيئا، وكنت موقنا من أنني لم أتحدث قط عنه أو عمن يمت إليه، إلا باحترام كبير؛ إذ إنني كنت صادقا في ودي له، وبجانب أنني لم أكن أملك ما أقوله عنه سوى كل خير، فقد كان من أكثر مبادئي صلاية، ألا أتحدث عن البيوت التي أزورها، إلا في إجلال وأمانة.

وأخيراً، وبعد تخطيط، انتهيت إلى الحدس التالي: ففي آخر مرة التقينا فيها، دعاني إلى العشاء في مسكن فتيات من معارفه، مع اثنين أو ثلاثة من موظفي وزارة الخارجية، وكانوا رجلاً مترزين، لا يبدو عليهم قط أي فجور أو خلاعة.. وبوسعي أن أقسم على أنني - من ناحيتي - قضيت الأمسية في خواطر حزينة من أجل النصيب النعس الذي أوتيته هؤلاء الفتيات المسكينات، ولم أساهم في نفقات العشاء؛ لأن السيد "دي جونففي" كان صاحب الدعوة.. كما أنني لم أهب الفتيات شيئاً؛ لأنني لم أتح لهم فرصة التكسب مني، كما فعلت في واقعة "البادوانا". وبعد ثلاثة أيام أو أربعة - لم أزر فيها الفتيات مرة أخرى - ذهبت لتناول الغداء في دار السيد "دي جونففي"، الذي لم أكن قد رأيته منذ تلك المناسبة، فإذا به يستقبلني على النحو الذي ذكرته، ولما لم أستطع أن أتصور سبباً سوى احتمال وقوع سوء تفاهم لأمراً ما يتصل بذلك العشاء؛ وإذا تبين أنه غير راغب في أن يشرح مسلكه، فقد انقطعت عن زيارته، ولكنني ظلت أرسل إليه مؤلفاتي، فكان يبعث إليّ - أحياناً - بتحياته.

وفي ذات مساء، قابلته في غرفة الاستراحة بمسرح "الكوميدي"، فإذا به يعتب عليّ في لطف أنني لم أعد أزرره، ولكن هذا لم يحملني على العودة إليه، وهكذا، بدأ الأمر - في هذه الحالة - مجرد إحجام أكثر منه قطيعة.. على أنني لم أره قط بعد ذلك، ولا سمعت عنه مزيداً بعد ذلك الوقت.

وقد تكون الفرصة جد متأخرة - بعد أن انفصلت صلتنا لعدة سنوات - لكي نجدد صداقتنا، وهذا هو السبب في أنني لم أذكر هنا السيد "دي جونففي"، بين الأصدقاء الذين ظلت أحفظ بهم في "باريس"، برغم أنني ترددت على داره فترة طويلة.



على أنني لن أضخم القائمة بأسماء معارف آخرين أقل ألفة، أو أسماء أولئك الذين قل توثق لأفني بهم تدريجاً، لتغيب عنهم، ولو أنني ما أزال أراهم في الريف أحياناً، سواء في داري أو في دور جيراني، ومنهم - على سبيل المثال - الراهبان "دي كوندليللاك" و"دي مابلي"، والسادة "دي ميران"، و"دي لاليف"، و"دي بواجيلو"، و"واتيليه"، و"أنسيليه" وغيرهم ممن يطول سرد أسمائهم. كذلك أورد في ذكر عابر، السيد "دي مارجينسي"، الأمين الخاص للملك، والمضرب القديم في ندوة "دولباخ"، والذي لم يلبث أن هجرها كما هجرتها أنا، وقد كان صديقاً حميماً للسيدة "ديسيناي"، ولم يلبث أن انفصل عنها كما انفصلت أنا.. ثم أذكر صديقه "ديماهي"، مؤلف المسرحية الفكاهية: "السفيه"، الذي اكتسب شهرة، ولكنه لم يلبث أن غاب عن الأذهان والاسماع.

ولقد كان الأول - "دي مارجينسي" - جاراً لي في الريف؛ إذ كانت ضيعة "دي مارجينسي" قريبة من "مونكورنسي"، وكنا على تعارف قديم، ولكن الجوار، وبعض التشابه في تجاربنا في الحياة، قربا بيننا..! أما الثاني، فلم يلبث أن مات بعد تعرفنا بقليل، وكان ذا كفاءة وذكاء، ولكنه كان يشبه بطل مسرحيته الفكاهية، في بعض النواحي، إذ كان ماجناً - بعض الشيء - مع النساء، ولم يحظ بكثير من الأسف أو الحزن عند موته!

على أنني لا أستطيع أن أغفل علاقة جديدة بالمراسلة - في تلك الآونة - كان لها من الأثر عليّ ما تبقى من حياتي، ما لا يدعني أتجاوز ذكر منشئها، وأقصد بهذا السيد "دي لاموانيون دي مالبزيرب" أول رئيس لمجلس المعونة، الذي كان - إذ ذاك - رقيباً على الكتب المطبوعة، وقد أدى مهمته بكثير من الحصافة وسعة الأفق واللين، فكان مصدر ارتياح كبير لرجال الأدب، ولم أكن قد

زرتة قط في "باريس"، ولكنني كنت ألقى منه كثيرا من التيسيرات الجديرة بالتقدير، فيما يتعلق بالرقابة.. وقد علمت أنه في أكثر من مناسبة، كان يؤنب - في قسوة - أولئك الذين اعتادوا أن يكتبوا ضدي، ولقد وقمت على أدلة جديدة على كرمه وأفضاله، بالنسبة لنشر "جولي". فإن إرسال "بروفات" مؤلف ضخم كهذا من "أمستردام" - حيث كان يطبع - كانت باهظة؛ ومن ثم فإنه سمح بأن ترد باسمه هو؛ إذ كانت المراسلات الموجهة إليه معفاة من رسوم البريد. فكانت "البروفات" ترسل باسمه، فيبعث بها إلي دون نفقات كذلك، بفضل والده السيد حامل الاختام، وعندما تم طبع الكتاب رفض بيعه في المملكة إلا بعد طبعة دبر أمرها، بحيث يؤول ربحها إليّ وحدي، بالرغم مني.. ولما كان هذا الربح يعتبر - من جانبي - سرقة وجورا على حقوق الناشر "ريسه"، الذي كنت قد بعته أصول كتابي، فإنني لم أرفض فحسب قبول هذه الهدية - التي دبرت لي بدون إذنه، وإن كان قد أقرها في كرم النفس - بل إنني رغبت في أن أقتسم معه المائة "بيستول" التي تجمعت منها، والتي أبى أن يقبل منها شيئا، ولقد ضايقتني هذه المائة "بيستول"؛ إذ لم يكن السيد "دي ماليزيرب" قد شاورني في أمرها، ولم يهدد لدي حتى أكون على علم إذ أرى مؤلفي يستغل استغلالا بغضا، فيمنع بيع الطبعة الجيدة، ريثما تستنفد نسخ الطبعة الرديئة! (١)

ولقد اعتدت أن أنظر دائما إلى السيد "دي ماليزيرب" كرجل أجمعت الشواهد على استقامته. فما حملني شيء مما حدث على أن أرتاب في أمانته لحظة واحدة، ولكنه كان ضعيفا بقدر ما كان شريفا؛ ومن ثم فإنه كان يسبب المضايقات أحيانا، لأولئك الذين كان يشغل بأمرهم، رغبة منه في حمايتهم، وفي سبيل هذا لم يكتف بأن أمر بحذف أكثر من مائة صفحة من طبعة "باريس"، بل إنه عدا على النسخة التي أرسلها إلى السيدة "دي بومبادور" - من الطبعة الجيدة - بطريقة جذيرة بأن تسمى انتهاكا للأمانة. فلقد قيل في سياق ذلك الكتاب، إن زوجة الفحام أجدر بالاحترام من عشيقة أمير، وإنني لأقسم على أن هذه العبارة قد عرضت لي في سياق التأليف، دون أن يقصد بها أحد، وقد تبينت - عندما أعدت قراءة الكتاب - أن الخواطر قد تتجه إلى شخص بالذات.

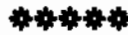
غير أنني لم أشأ أن أحذف هذه العبارة، جريا على مبدئي الصلب المتعنت، من عدم حذف أي شيء مراعاة لأي تاويل قد يحمل على محمله، مادام ضميري شاهدا على أنني لم أكن أقصد به ذلك التأويل عندما كتبت.. واكتفيت بأن أبدلت كلمة "ملك" - التي كنت قد كتبتها في بادئ الأمر - بكلمة "أمير"!

ولم يرض هذا التعديل السيد "دي ماليزيرب" - على ما بدا - فحذف العبارة تماما في طبعة جديدة للصفحة في ورقة مستقلة، الصقها في عناية تامة على الصفحة الأصلية، في النسخة الموجهة إلى السيدة "دي بومبادور". على أنها لم تجهل هذه الحيلة من حيل التعمية، فقد وجدت بعض نفوس "طيبة" أطلعتها عليها. أما أنا، فلم أعلم بها إلا بعد زمن طويل، عندما شرعت أحسن آثارها! أو ليس هذا - بدوره - أصل كراهية مستترة، ولكنها مريرة، من سيدة أخرى كانت في وضع مشابه (٢)، وإن لم أعرف عنه شيئا، بل ولا كنت قد عرفت أنها هي عندما كتبت هذه الفقرة؟.. ولقد تم تعارفي بها عندما نشر الكتاب؛ فشعرت بكثير من القلق وعدم الارتياح، وأعربت عن ذلك لـ "الشيغالبيه دي لورنزي"، الذي ضحك ساخرا، وأكد لي أن هذه السيدة لم تمس بما يجرح كرامتها في شيء، بل إنها لم تنتبه إلى الأمر. ولقد صدقت قوله، ولعلني كنت متلهفا بعض الشيء عليه،

(١) الطبعة الجيدة هي التي طبعت في "أمستردام"، أما الرديئة فهي التي دبر "دي ماليزيرب" إصدارها في "باريس" لمصلحة "روس". (٢) بنفس الكونتيسة "دي بوقلير"، التي كانت عشيقة الأمير "دي كونتي"!

فاستعدت طمأنيتي في وقت لم يكن من الملائم لي أن أطمئن فيه وتلقيت مع مقدم الشتاء، دليلاً، جديداً على كرم السيد "دي ماليزيرب"، قدرته كل التقدير، وإن لم أر من الحكمة أن أنتفع به. فلقد كان ثمة منصب خال في صحيفة العلماء "جسورنال ديه سافان"، وقد كتب لي "مارجينيسي" يعرض هذا المنصب عليّ وكأنه كان يفعل ذلك بدافع من نفسه، بيد أنه كان من اليسير عليّ أن أرى من أسلوب خطابه (الملف "ج" - رقم ٣٣) يعمل بأوامر من سلطة فوقه.. بل إنه أوحى إليّ بنفسه في خطاب تال (الملف "ج" - رقم ٤٧) أنه كان مكلفاً بأن يعرض عليّ المنصب، وكان العمل بسيطاً، يتألف من قطعتين تستخلصان شهرياً من كتب ترسل إليّ؛ ومن ثم فلن أكون بحاجة قط إلى أن أذهب إلى "باريس" ولو في زيارة للمسؤول، أقدم فيها شكري. ولقد مهد لي هذا المنصب سبيل دخول مجتمع أدباء الطبقة الأولى، السادة: "ميران"، و"كليرو"، و"دي جيبيني"، والراهب "بارثليمي"، وقد كنت على تعارف سابق بالاولين، فتطلعت في غبطة إلى التعرف بالآخرين.

وفوق كل ذلك، كان لي أن اتقاضى عن هذا العمل غير المرهق - الذي كان من السهل عليّ أدائه - مكافأة قدرها ثمانمائة فرنك، مخصصة لهذا المنصب.. وفكرت بضع ساعات، قبل أن أنتهي إلى قرار، وبوسعي أن أقسم بأن ترددي ما كان راجعاً إلا إلى الخوف من إغضاب "مارجينيسي"، وعدم إرضاء السيد "دي ماليزيرب". على أن الضيق - الذي لم أقر على مقاومته - من عدم تمكني من العمل في الوقت الذي يحلوني، واضطراري إلى أن أكون مقيداً بمواعيد معينة، ثم تأكدي من عدم إجادتي للأعمال التي أكون مجبراً على أدائها.. كل هذه تحالفت وتغلّبت - في النهاية - على كل اعتبار آخر، وحملتني على أن أقرر رفض منصب لم أكن مهياً له.. فلقد كنت أعرف أن نبوغي لم يكن يأتي إلا عن نوع معين من الاهتمام المشوب بالموضوعات التي أرى علاجها، وأنه لم يكن ثمة ما هو أقوى - على إذكاء عقيرتي - من حب كل ما هو عظيم، وكل ما هو صادق وحقيقي، وكل ما هو جميل. فما قيمة الموضوعات التي كان عليّ أن أستخلصها من أغلب الكتب.. بل ما قيمة هذه الكتب ذاتها لدي؟.. كان عدم اكتراثي بكل هذا كفيلاً بأن يجمد قلبي، وأن يبلد ذهني!.. لقد ظنوا أن بوسعي أن أكتب بحكم المهنة فحسب - ككل الأدباء الآخرين - في حين أنني لم أكن قط أملك أن أكتب إلا عن إichاء وإلهام؛ وبقينا أن هذا لم يكن بالمادة اللازمة لصحيفة العلماء؛ ومن ثم فإنني كتبت إلى "مارجينيسي" رسالة شكرته فيها، وشرحت له - في أكثر ما وسعني من أدب - أسباب رفضي بالتفصيل؛ حتى لا يكون له - أو للسيد "دي ماليزيرب" - أن يظن أن لسوء الطبع، أو للفرور أثراً في هذا الرفض، ولقد أقرني كلاهما على ما ذهبت إليه، دون أن يؤثر ذلك على ودعهما لي.. وظل الأمر سرا مصوناً، فلم يتح للرأي العام أن يعرف أتعفه شيء عنه!



والواقع أن هذا العرض لم يأتي في لحظة مناسبة لكي أوافق عليه؛ إذ إنني كنت قد اعتزمت - منذ فترة - أن أهجر الأدب هجراناً تاماً بل أهجر مهنة التأليف؛ فإن كل الذي جرى جعلني أشمئز تماماً من أهل الأدب، وقد ثبت لدي أنه كان من المستحيل أن أمضي في هذه المهنة بالذات، دون أن أنصل بهم، ولم يكن أشمئزائي من أهل المجتمع بأقل من ذلك.. بل إنني كنت قد برمت بالاختلاط الذي أقدمت عليه في الحياة عامة، سواء من ناحيتي أو من ناحية المجتمع.. فإنني لم أكن مهياً لذلك، وعلى

ضوء التجارب المتواصلة شعرت أكثر من ذي قبل بأن كل العلاقات القائمة على غير تكافؤ أو مساواة، تكون مضرة دائما بالجانب الضعيف فيها، ولقد كانت معيشتي مع قوم ذوي ثراء، يمتنون إلى طبقة أخرى غير التي اخترتها، دون أن أعيش على نمطهم، ومع ذلك فإنني كنت مضطرا إلى أن أقلدتهم في كثير من الأمور.. وكانت النفقات النثرية - التي لا تعد شيئا مذكورا لديهم - عبئا مرهقا، بقدر ما كانت ضرورة لازمة!.. فإذا ما ذهب رجل لزيارة بيت في الريف، اضطلع بخدمته - سواء على المائدة، أو في مخدعه - خادمه الخاص.. فهو يرسله وراء حاجاته، دون أن يتصل اتصالا مباشرا بخدم البيت، بل وربما دون أن يقع عليهم بصره، فلا شيء بينه وبينهم اللهم إلا أنه يمنحهم هبة كلما طاب له ذلك.. أما أنا، فقد كنت وحيدا، بلا خادم خاص؛ ومن ثم فإنني كنت تحت رحمة خدم البيت الذي أزوره، وكان من الضرورات الماسة لي أن أكسب ودهم، إذا شئت ألا أعاني كثيرا من المضايقات.. ولما كنت أعمل كسيدهم، على قدم المساواة، فقد كان لزاما علي أن أعامل الخدم كما يعاملهم السيد، بل وإن أبدي لهم أكثر مما يبدي أي امرئ آخر؛ لأنني كنت - في الواقع - أكثر من سواي حاجة إلى خدماتهم!

ولم تكن هذه بالمسألة الجسيمة، في الدور التي لم يكن يوجد بها سوى نفر قليل من الخدم.. ولكن الدور التي كنت أزورها، كانت تضم أعدادا كبيرة. منهم، كلهم أنذال مسعورون، شديدو اليقظة.. لمصالحهم الخاصة!.. وكان الأنذال يعرفون كيف يدبرون خططهم، بحيث أحتاج إلى خدمات كل واحد منهم بدوره!

وكل نساء "باريس" - اللاتي أوتين ذكاء فائقا - لا يصين إطلاقا في آرائهن بهذا الصدد، ومن ثم فقد استنزفن مواردني، في رغبتهن في الإبقاء على هذه الموارد، فإذا كنت ذاهبا لتناول العشاء في دار لإحدهن - على مسافة قليلة من بيتي - أمرت السيدة بإعداد جيادها لتقلني مركبتها في عودتي، بدلا من أن تدعني أطلب مركبة بالأجر.. وكانت تغبط؛ لأنها توفر علي بذلك الأربعة والعشرين "سو"، أجر العربة. دون أن يخطر ببالها شيء من "الإيكو" الذي كنت أهبه خادمو العربة والحوذي. ولو أن سيدة كتبت إلي من "باريس"، وشاءت أن تبعث برسالتها إلى "ليرميلاج" أو "موغورنسي"، فإنها إشفافا علي من أن أدفع الأربعة "سو" - التي كان يكلفنيها خطابها (١) - كانت ترسله مع واحد من خدمها، فيأتي به سيرا على قدميه، وهو مبلى بعرقه.. وكنت اضطر إلى أن أمنحه غداء، وأهبه "إيكو" لاشك أنه كان أهلا لاكتسابه!.. أما إذا هي دعنتني لقضاء ثمانية أيام - أو خمسة عشر - معها، في الريف، فإنها كانت تقول لنفسها: "لسوف يكون هذا توفيرا لبعض نفقات المسكين، على أية حال!.. فهو لن يتكبد شيئا من نفقات قوته، أثناء مقامه هنا!.. وكانت تنسى أنني لم أكن أقوم بأي عمل - في تلك الفترة - وإنني أظل مسؤولا عن دفع إيجار مسكني، ونفقات من فيه، والغسيل، والكساء.. وإنني كنت أدفع - في سبيل قص شعري وإزالة لحيتي - ضعف ما اعتدت أن أدفع.. وإن إقامتي في دارها، كانت تكبدني فوق ما اعتدت أن أنفق في داري!

ومع أنني اقتضيت المنح البسيطة التي كنت أهبها لخدم البيوت التي اعتدت أن أترك عليها كثيرا إلا أنها ظلت ترهق مواردني، وأعتقد أنني أنفقت ما يزيد على خمسة وعشرين "إيكو"، في دار السيدة "دوديتو" - في "أوبسون" - حيث لم أتم أكثر من أربع أو خمس مرات.. وأكثر من مائة "بيستول" في "أبيياني" و"لاشيفريت"، خلال السنوات الخمس أو الست التي اعتدت فيها أن أكون ضيفا مترددا على الإقصرين..

ذلك أن النفقات من الأمور التي لا مفر منها لرجل في مثل حالتي، لا يعرف كيف يؤدي لنفسه شيئا، ولا كيف يستعمل ذكائه في إنجاز شيء، ولا يستطيع - كذلك أن يطبق رؤية وصيف يزمرج ويؤدي مهامه وهو ساخط.. بل إنني في دار السيدة "دوبان" - حيث كنت في مكانة أي فرد من أفراد الأسرة، وحيث أدبت ألف خدمة للخدم - لم أخط منهم يوما بشيء، ما لم تكن نقودي واسطة بيننا؛ ومن ثم فإنني لم ألبث أن اضطررت إلى أن أتخلى نهائيا عن هذه المنح الضئيلة، التي لم يعد مركزي يسمح لي بإنفاقها.. وإذ ذاك فقط، شعرت - أكثر من ذي قبل - بمضار الاختلاط بمن ينتمون إلى غير طبقة المرء!

أضف إلى هذا أنني لو استمرت هذه الحياة لشعرت بعزاء عن هذه النفقات الباهظة، إذ إنها تكون - إذ ذاك - ثمنًا لمسرأتي. ولكن الإفلاس الذي لا يأتي بغير المضايقة، أمر يفوق كل احتمال، ولقد اشتد شعوري بوطأة هذا المسلك من مسالك الحياة، حتى إنني انتهزت فرصة تلك الفترة من التحرر، التي كنت أحظى بها - إذ ذاك - فعقدت العزم على أن أجعلها دائمة، بأن أنيد - نبذا تاما - المجتمع الراقي، وتاليف الكتب، وكل صلة بالادب، وأن اعتكف - ما بقي لي من أيام في الحياة - في ذلك النطاق الضيق، الوادع، الهادئ، الذي كنت أشعر بأنني خلقت من أجله!

ولقد أدت أرباح الكتاب الذي ضمنته مقالتي "رسالة إلى "داليمبير"، وكتاب "هيلويز" الجديدة" إلى زيادة لا بأس بها، في مواردتي التي كانت قد اعتصرت في "ليوميتاج". فقد رأيت أمامي حوالي ألف "إيكو"، وكنت قد تقدمت كثيرا في تأليف كتاب "إميل"، الذي قصرت عليه اهتمامي بعد أن فرغت من "هيلويز"، وكان دخله جديرا بأن يضاعف هذا المبلغ على الأقل؛ ومن ثم فقد فكرت في مشروع لاستثمار هذا الرصيد بطريقة تجلب علي إيرادا صغيرا يكفي - إذا ضم إلى ما تدره علي أعمال النسخ - لأن يوفر معاشي دونما حاجة إلى المضي في الكتابة. كذلك كان لدي كتابان مؤجلان، أولهما "المذاهب السياسية".. ولقد درست حال هذا الكتاب، فوجدت أنه ما يزال يتطلب عدة سنوات من العمل، ولم تكن لدي جراءة على المضي فيه، وأن أنتظر إلى أن يتم، قبل أن أنفذ ما اعتزمت. ومن ثم فإنني عدلت عنه، وقررت أن استخلص منه ما يسعني استخلاصه، ثم أحرق ما يزيد.. وإذ انهمكت في هذا العمل بكل قوة، دون أن أقطع استرسالتي في "إميل"، قدر لي أن أضع - في أقل من عامين - العبارات الأخيرة لكتاب "العقد الاجتماعي" (١).

وبقي "قاموس الموسيقى" - أو "الموسوعة الموسيقية" - وكان العمل فيها مجرد جهد آلي، يمكن القيام به في أي وقت، ولم أقدم عليه إلا طلبا للنقود فحسب، وقد احتفظت لنفسني بحق نبذه، أو إنعامه متى شئت، وفقا لما إذا كانت مواردتي الأخرى توحى بأن دخله ضروري، أو أنه فائض عن الحاجة. أما كتاب "الأخلاق في الشؤون الحسية" - الذي كنت قد وضعت خطوطه الأولى - فقد نبذته نهائيا!

وأخيرا وكنت أعول على مشروع، إذا ما قدر لي أن أستغني عن أعمال النسخ.. ذلك هو أن أوغل في الابتعاد عن "باريس"، حيث كان سيل الزائرين يجعل نفقات معيشتي فادحة، ويحرمني من الوقت لزيارتها.. ولكي أدفع عني في عزلتي شعور الملل - الذي يقال إنه يعدد على المؤلف، إذا هو ألقى قلما جانباً - احتفظت لنفسني بعمل كفيف بأن يملأ الفراغ في وحدتي، دون أن يستدرجني إلى الانسياق لإغراء نشر أي جديد، خلال ما تبقى من عمري. فما كنت أدري أية نزوة تملك "رويه"، فراح - منذ زمن طويل - يستحثني على كتابة ذكريات حياتي، ومع أن هذه الذكريات لم تكن -

(١) قدم كتابي "ملخصا لكتاب "إميل" في عدده الرابع، وملخصا لكتاب "العقد الاجتماعي" في العدد ٣٢.

حتى ذاك الحين - مشوقة - من حديث الأحداث - إلا أنني شعرت بأن من الممكن أن أجعلها مشوقة، بفضل الروح التي أتناول بها الموضوع؛ ومن ثم صممت على أن أجعلها عملاً فريداً في نوعه بأن اكتبها بصدق لا مثيل له، حتى يتسنى - ولو مرة واحدة - أن يرى الناس رجلاً على حقيقته، كما يرى هو دخيلة نفسه!

ولقد اعتدت دائماً أن أسخر من سذاجة "موفتاني" التي غررت به، فجعلته يعنى عناية فائقة بالآ ينسب إلى نفسه إلا كل مستحب، في حين أنه كان يتظاهر بالاعتراف بعبوبه.. أما أنا - الذي اعتدت أن أعتقد دائماً أنني، من كافة الاعتبارات، خير الرجال - فقد شعرت بأنه ما من قلب بشري - مهما يكن نقياً - إلا ويطوي بين جوانحه عيباً ذمياً، ولقد كنت أدرك أنني صورت للناس في صورة تخالف تماماً صورتي الحقيقية، بل وتبدو في بعض الأحيان مشوّهة، حتى إنني - برغم السوء الذي لا ابتغي إخفاءه قط - لن أبوء إلا بالكسب، إذا أطلعت الناس على حقيقة نفسي.. وإلى جانب هذا، فما كان من الميسور أن أكشف نفسي، دون أن أكشف الآخرين على حقيقتهم؛ ومن ثم فإنه لم يكن في الوسع نشر هذا المؤلف إلا بعد وفاتي، و وفاة كثيرين غيري، ولقد زادني هذا قوة على الإقدام على تسجيل اعترافاتي، التي لن يقدر لي أن أخجل منها أمام إنسان؛ ولهذا فقد عولت على أن أخصص أوقات فراغي للمضي في تنفيذ هذا المشروع، وبدأت أجمع الرسائل والأوراق التي قد ترشد ذاكرتي أو تعينها، والاسف يملأ نفسي حسرة على كل ما كنت قد مزقته، أو أحرقته، أو أضعته حتى ذلك الوقت!



ولقد كان لمشروع الاعتكاف التام - وهو من أحكم المشروعات التي خطرت لي - أثر قوي على ذهني، وكنت قد شرعت في تنفيذه عندما ألقت بي السماء - التي كانت تعد لي مصيراً آخر - في دوامة جديدة!

ذلك أن إقليم "مونغورنسي"، الميراث العريق الفخم - الذي كانت تتوارثه الأسرة، صاحبة هذا الاسم - لم يعد ملكاً لهذه الأسرة، مذ صدر، وكان قد آل - بزواج أخت الدوق "هنري" - إلى أسرة "كونديه"، التي أبدلت اسم "مونغورنسي" باسم "انجيان"، ولم يكن لهذه الدوقية من قصر سوى حصن قديم، تحفظ فيه الوثائق، ويتلقى فيه السادة أمارات الولاء. على أن ثمة بيتاً معيناً يرى في "مونغورنسي" - أو "انجيان" - شيدته "كروازيه" - الملقب بالفقير - ويضارع في فخامته أعظم القصور، حتى ليستحق أن يسمى قصراً.. إن المنظر المهيّب لهذا المبنى البديع، والمرتفع الذي يقوم عليه، والمنظر الذي يشرف عليه، والذي قد لا يكون له شبيه في العالم، وقاعة الاستقبال الرحبة فيه، التي ازدانت برسوم يد حاذقة، وحداثته التي غرسها "لونسستر" الذائع الصيت.. كل هذه تؤلف وحدة شاملة، ذات جلال باهر، يمثل - في الوقت ذاته - بساطة لا أدري مبعثها، ولكنها توحى بإعجاب باق!

ولقد اعتاد السيد المارشال دوق "دي لوكسمبورج" - الذي كان يشغل هذا البيت في ذلك الحين - أن يفد في كل عام مرتين إلى هذا الإقليم الذي كان آباءه وأجداده سادة له فيما مضى، فيقضي خمسة أسابيع أو ستة، كأي ساكن عادي، ولكن في أبهة لا تقل رواء عما للبيت من روعة عريقة..

وفي أول رحلة جاء فيها، بعد أن استقر بي المقام في "مونمورنسي"، أوفد إليّ وصيفا يحمل تحيات السيد المارشال والسيدة زوجته، ودعوة إلى تناول العشاء معهما، عندما يروق لي ذلك! وما من مرة جاء فيها وأهملنا إرسال التحيات ذاتها، والدعوة عينها، وقد ذكرني هذا بالسيدة "دي بوزينفيل" حين همت أن ترسلني لتناول الغداء مع الخدم. ولقد تغير الزمن، ولكنني بقيت على حالتي، ولم أكن راغبا البتة في أن أرسل لتناول الغداء في قاعة الخدم، كما أنني لم أكن أحفل كثيرا بموائد العظماء، وقد كنت أؤثر لو أنهم تركوني في حالتي، دون أن يكرموني، ودون أن يحقروني؛ ومن ثم فقد رددت في أدب واحترام على مجاملات السيد والسيدة "دي لوكسمبورج"، غير أنني لم أقبل قط دعوتهما. فإن صحتي المعتلة - فضلا عن خجلي وتهبيبي الطبيعيين - كانت تجعلني أقشعر لمجرد التفكير في أن أظهر في جمع من أعضاء البلاط الملكي... بل إنني لم أذهب إلى القصر في زيارة للشكر والتحية، برغم أنني أدركت كل الإدراك، أن هذا ما كان ينبغي مني، وأن كل هذا الإلحاح لم يكن صادرا عن كرم وتلطف بقدر ما كان صادرا عن فضول!

على أنهما وإصلا مجاملاتهما، بل وراحا يضاعفانها، وكانت السيدة كونتة "دي بوفلير" - التي كانت وثيقة الصلة بالسيدة المارشالة - قد جاءت إليّ "مونمورنسي"، فأرسلت تسأل عني، وعما إذا كان لها أن تزورني، وأجبت كما كان ينبغي من أن أجيب، ولكنني لم أحرك ساكنا، وفي خلال رحلة عيد الفصح من السنة التالية - ١٧٥٩ - زارني مرارا الشيفالبيه "دي لوفزي" الذي كان ينتمي إلى حاشية السيد الأمير "دي كونتي"، وإلى ندوة السيدة "دي لوكسمبورج"، ولقد توثقت المعرفة بيننا، فراح يلح عليّ بالذهاب إلى القصر. ولكنني أبيت! وأخيرا، وفي أصيل ذات يوم، رأيت السيد المارشال "دي لوكسمبورج"، وكان آخر من توقعت رؤيته... وكان يقترب وفي معيته خمسة أشخاص أو ستة، ولم يبق لي من وسيلة للتهرب، وما كنت أملك أن اتحاشاه. كما أنني لم أكن أملك أن اتفادى رد زيارته، وتقديم آيات احترامتي للسيدة المارشالة - التي أغرقتني بما حملة إليّ من مظاهر تفضلها - إلا اعتبرت متغطرا سيئ التربة. وهكذا بدأت - تحت أنحس الطوالع - علاقة لم يكن بوسعي أن أتهرب منها أطول مما فعلت... وإن كانت شعورا عميق الجذور، قد أوحى إليّ بالتوجس مما أقحمت عليه!



كنت في خوف بالغ من السيدة "دي لوكسمبورج"؛ فلقد كنت أعلم أنها لطيفة مليحة، وقد رأيتها مرارا في المسرح، وفي دار السيدة "دويان"، قبل عشر أو اثني عشرة سنة، حين كانت تلقب بدوقة "دي بوفلير"، وهي بعد تتلألا في طلائع أضواء جمالها. ولكنها عرفت بالخبث وسوء السيرة، وكانت هذه السمعة لسيدة - في مثل مكانتها العظيمة - تشير ارتعادي! وما إن رأيتها حتى وقعت أسيرها؛ فقد ألفيتها ساحرة... أوتيت ذلك السحر الذي لا يعدو عليه الزمن، والذي خلق لكي يفتك بفؤادي!... وكنت أتوقع أن أجد حديثها ساخرا، مليحا بالتوريات ولكنه لم يكن كذلك، بل كان أفضل من ذلك بكثير. ذلك لأن حديث السيدة "دي لوكسمبورج" لا يتألق بالذكاء، ولا يكشف عن سمو الروح، كما أنه لا ينم عن رقة مهذبة بمعنى الكلمة، ولكنه مغمم بالفكاهة التي لا تؤذي إطلاقا، ولكنها تبهج السامع دائما!... وكانت مجاملاتها وعباراتها المتسلقة تعبت بالنفوس، بقدر ما هي بسيطة، توحى بانها إنما كانت تتساقط من بين شفثيها دون

تفكير منها، وكأنها فوراً قلب متزعزِع!.. وخيل إليّ أنني لحت - خلال زيارتي الأولى - أنها استطابت مجلسي، برغم انطوائي، وثقل عباراتي.. ولقد كانت كل سيدات البلاط يحذقن إحداث هذا الأثر - سواء كن في ذلك صادقات، أو مصطنعات - عندما يحلو لهن ولكنهن جميعاً لم يكن يحذقن إحداثه بالطريقة الفاتنة التي كانت تجيدها السيدة "دي لوكسمبورج"، فلا يقوى المرء على أن يرتاب في صدقه!

ولقد كان من المحتمل أن تصل ثقتي بها إلى الكمال منذ اليوم الأول - كما صارت بعد ذلك بوقت قصير - لولا أن السيدة الدوقة "دي مونفورسي"، زوجة ابنها، كانت على شيء من الحقد، وكانت - فيما أعتقد - شابة رعناء، مشاكسة، عقدت عزمها على أن تهاجمني، حتى تجعلني - وسط مجاملات حمايتها ومغازلاتها - أعتقد أنها إنما كانتا تسخران مني!

ولعني كنت خليقاً بأن أجد ارتياحها، نظراً لهذا التوجس الذي داخلني نحو السيدتين لولا أن الكرم البالغ الدافق من السيد المارشال أقنعني بأن ودهما كان صادقا، ولم يكن ثمة ما هو ادعى للعجب - إذا ما نظرنا إلى طبيعتي الخجول - من مبادرتي إلى أخذ السيد المارشال بكلمته، من حيث المساواة التي أurdني على أن أكون عليها معه.. ليس أعجب من هذا سوى مبادرته إلى احترام رغبتني في الاستقلال التام الذي أردت أن أعيش فيه؛ ومن ثم فإنه والسيدة "دي لوكسمبورج" لم يبديا أي قلق - ولو للحظة واحدة - بصدد مواردني وأسباب عيشي، اقتناعاً منهما بأنني كنت على صواب في أن أكون قانعاً بمركزي، غير راغب في أي تغيير.. فمع أنني لم أكن أملك أن ارتاب في الاهتمام العطوف الذي كانا يبديانه نحوي إلا أنهما لم يعرضاً قط أن يسعيا لإيجاد منصب لي، أو أن يساعداني بنفوذهما، اللهم إلا مرة واحدة، عندما أبدت السيدة "دي لوكسمبورج" رغبة في أن أدخل المحفل الفرنسي، "الأكاديمية فرانسيز".. ولقد أشرت إلى أن عقيدتي الدينية تقوم دون ذلك، فقالت إن هذه لم تكن عقبة تذكر، وإلا فإنها تتكفل بإزاحتها، إذا كانت كذلك!.. وأجبت بأنه برغم الشرف الذي يضيفه عليّ انتمائي إلى مثل هذه الهيئة الموقرة فإنني - بعد رفضي دعوة السيدة "دي تريستان"، وملك "بولندا"، بطريقة ما، أن انضم إلى محفل "نانسي" - لا أستطيع أن أقبل عضوية أي محفل آخر، وأنا مرتاح الضمير. ولم تحاول السيدة "دي لوكسمبورج" أن تمضي في الإلحاح، ولا دار أي حديث في هذا الصدد، بعد ذلك!

هذه البساطة في الصلات مع مثل هؤلاء السادة العظماء، الذين كان في وسعهم أن يضيفوا عليّ المآثر - إذ كان السيد "دي لوكسمبورج" صديقا شخصيا للملك عن جدارة - تناقض تماماً، وبشكل عجيب، مع الاهتمام المستمر - الذي لم يكن أقل مضايقة مما هو اصطناعياً ورياء - الذي كان يبديه أولئك الأصدقاء الذين هجرتهم، والذين كانوا يتظاهرون برعايتي، ويسعون إلى استذلالني، أكثر مما كانوا يسعون إلى خدمتي!

وعندما زارني السيد المارشال في "مون - لوي" استقبلته وحاشيته في غرفتي الوحيدة، وأنا مخرج.. لا لأنني كنت مضطراً إلى أن أدعوه إلى الجلوس وسط صحافيي القذرة وأواني المهشمة؛ وإنما لأن أرض الحجر كانت متداعية، متساقطة، وقد خشيت أن يؤدي ثقل مرافقي إلى انهيارها. وما خشيت على نفسي من الخطر، وإنما خشيت على هذا السيد الجليل مما كان تواضعه يعرضه له، فعملت على التعجيل بإبعاده عن الحجر؛ إذ اقتدته - برغم الجو الذي كان شديد البرد - إلى شرفتي التي كانت في مهب الرياح، ولم تكن بها مدفاة ما!.. وما إن صرنا هناك حتى أطلعتني على السبب

الذي اقتدته من أجله إلى المكان، فرواه بدوره إلى السيدة المارشلة، وألحقا معا في حملي على الإقامة في القصر - ريشما يتم إصلاح أرض الحجر - أو في مبنى ملحق بالقصر، وسط المتنزه، يطلق عليه اسم "القصر الصغير"، إن شئت.



وهذا المسكن الفاتن جدير بالحديث .. ذلك أن متنزه، أو حديقة "مونغورنسي" لم تكن في مستوى واحد، كحديقة "لاشيفريت"، فهي تل غير مستو، تتناثر فيه المرتفعات والمنخفضات، التي استغلها الفنان الماهر؛ ليخلق سلسلة من المتنوعات: من أحراش، ومياه، وزخارف، ومناظر متباينة، وليضاغف - كما ينبغي أن يقال - المساحة المحدودة، في نظر الرائي، ويتوج هذا المتنزه شرفة يعلوها القصر .. أما في طرفه الأدنى، فإنه يؤلف مضيقا لا يلبث أن يفتح ويتسع، في اتجاه الوادي، وتمتد في زاويته صفحة شاسعة من الماء. وبين بساتين البرتقال - التي ملأت المساحة التي يتسع عندها المضيق - والماء، وفي وسط كثبان تزينها الأحراش والأشجار، يقوم "القصر الصغير" الذي اشترت إليه

ولقد كان هذا المبنى، والأراضي المحيطة به، ملك لـ "لوپرون" الشهير (١)، من قبل، وقد جعل من إنشاء هذا المبنى وتزيينه ملهاته، وأقبل على ذلك بأفخم فنون العمارة والزخرفة، اللذين برز هذا الرسام العظيم فيهما، ولقد أعيد بناء هذا القصر فيما بعد، ولكن التصميمات التي وضعها صاحبه الأول، روعيت عند التجديد، وهو قصر صغير، وبسيط، ولكنه أنيق، ولما كان يقوم بين خزان ري بستان البرتقال، وبين المساحة المائية الشاسعة، فقد كان معرضا للرطوبة؛ ومن ثم فقد كان يخترقه في وسط، رواق مكشوف (منور)، بين طبقتين من الأعمدة، فكان الهواء الجاري في المبنى كله، يتخفف من رطوبته في ذلك الرواق، وعندما ينظر المرء إلى المبنى من عل - من زاوية الجانب المقابل - يراه محوطا تماما بالماء، فكانه جزيرة مسحورة، أو كانه أبداع جزر "بوروميه" الثلاث - جزيرة "إيسو لابيلا" - في بحيرة "ماجيجوري".

في هذا المبنى المنعزل، ترك لي حق اختيار أحد الأجنحة الأربعة الكاملة، التي كان يضمها، فضلا عن الطابق الأرضي، الذي كان يتألف من قاعة للرقص، وأخرى للليلياردو، ومطبخ. وقد اخترت أصغر الأجنحة وأبسطها، وهو الذي كان يعمل المطبخ، الذي سمح لي باستخدامه، وكان الجناح بديعا، نظيفا ذا أثاث يشيع فيه اللونان الأزرق والأبيض، وفي هذه العزلة العميقة، البهيجة - وسط الغابات والمياه، وعلى شقشقة الطيور من كل نوع، محوطا بعبير زهور البرتقال - وضعت الجزء الخامس من "إميل"، وأنا شبه ثمل .. ومن ثم فإن اللون الجديد الذي يبدو فيه الشطر الأكبر منه، يرجع في الواقع إلى الأثر الفعال الذي عكسه الوسط الذي كنت أكتبه فيه!

لكم كنت أهرع ملهوبا - عند بزوع الشمس، في الصباح - كي أتشمس الهواء العبق في الرواق! .. وما أحلى القهوة المزوجة باللبن، التي كنت أتناولها مع "تيسريز" هناك! .. وكانت قطعتي وكلبي يؤنسنا، وكانت هذه الصحبة وحدها كافية لإنساني طيلة حياتي، فما كنت معها لأشعر بلحظة من الملل! .. كنت في جنة أرضية، وقد عشت هناك في حال من السذاجة والبراءة، ورحت أنعم بالسعادة!

ولقد أبدى لي السيد والسيدة "دي لوكسمبورج"، خلال الزيارة التي قاما بها في شهر تموز (يوليو)، كثيرا من ألوان الرعاية، وعاملاني في كرم بالغ، حتى إتني - وقد كنت أعيش في رحابهما،

مغمورا بمجاملاتهما - لم أكن أملك ما أجازيهما به، سوى أن أكثر من تردد عليهما؛ فأصبحت لا أكاد أفارقهما إطلاقاً؛ إذ كنت أذهب في الصباح؛ لأقدم تحياتي إلى السيدة المارشلة.. وبعد أن أتناول غذائي هناك كنت أتمشى، إبان الأصيل، مع السيد المارشال.. ولكنني لم أكن أمكث للعشاء؛ إذ كانا يدعوان إلى مائدتهما دائماً عدداً من عليّة القوم، فضلاً عن أنهما كانا يتناولان العشاء في ساعة متأخرة بالنسبة لي.. وإلى ذلك الوقت، كان كل شيء يمضي مواتياً، وما كان ليوقع شيء من الضرر، وإنني عرفت كيف أدع الأمور تجري في أعنتها. ولكنني لم أكن يوماً بقادر على أن أنهج منهاجاً وسطاً في علاقاتي الودية، ولا استطعت يوماً أن أكتفي بأن أؤدي واجباتي نحو المجتمع، وإنما كنت دائماً أنشد أحد امرين: إما كل شيء، أو لا شيء!.. وما إن أظفر بكل شيء، وأرى نفسي مكراً مدلاً لدى قوم من ذوي الجاه حتى أتجاوز الحدود، فتتملكني نحوهم صداقة لا تباح عادة إلا بين الأنداد المتعادلين، وكنت أكشف عنها باللفة المتحررة من الكلفة، في حين أنهم لم يكونوا - من ناحيتهم - يتخلون عن آداب اللياقة التي نشئوا عليها وتعودوها، ومع ذلك فإنني لم أشعر يوماً بأنني متحرر على سجليتي، مع السيدة المارشلة! ومع أنني لم أكن مطمئناً كل الاطمئنان إلى شخصيتها، إلا أنني لم أكن أخشاهما بقدر ما كنت أخشى عقلها.. وهذا وحده ما كان يكبح جماحي.

فلقد كنت أعرف أن إرضاءها في الحديث صعب، وكان من حقها أن تكون كذلك؛ إذ كنت أدرك أن النساء - وسيدات الطبقة الرفيعة منهن، بوجه خاص - كن لا يشتهين من الحديث سوى التسلية والترويح، وأنهن يؤثرن التجريح على الإملال!..

وقد حدثت - من ملاحظات السيدة "دي لوكسمبورج" على أحداث الذين كانوا ينصرفون من لديها - ما كان قد خامرها ولابد بصدد أحداث السخيفة؛ ومن ثم فإنني فكرت في حيلة لأعفي نفسي من حرج الحديث إليها.. تلك هي أن أقرأ عليها!.. وكانت قد سمعت عن "جولي"، وعرفت أنها طبعاً، فأبدت شوقاً إلى رؤية هذا الكتاب؛ وإذا ذاك عرضت عليها أن أقرأ لها فوافقت.

وأصبحت أذهب إليها في الساعة العاشرة من كل صباح، ولا يلبث أن يأتي السيد "لو كسمبورج"، ويغلق الباب. وأروح أقرأ إلى جوار فراشها. وقد قسمت جلسات القراءة تقسيماً دقيقاً، بحيث تدوم طيلة بقائهما، لو أنها لم تقطع حبلاً إقامتها؛ إذ أدى خسران معركة كبرى إلى استياء الملك فاضطر السيد "دي لوكسمبورج" إلى المبادرة بالعودة إلى البلاط، ولقد فاق نجاح هذه الحيلة كل ما توقعت؛ إذ استولى على السيدة "دي لوكسمبورج" شغف طاغ بـ "جولي" وبمؤلفها. فأصبحت لا تتكلم إلا عني، ولا تفكر إلا في طيلة اليوم، وتعانقني عشر مرات في النهار، وأصررت على أن أجلس باستمرار إلى مائدتها، وكانت - إذا حاول واحد من كبار السادة أن يحتل مكاني - تخبرهم أن ذاك مقعدي، وتحملهم على الجلوس في أماكن أخرى!

ومن السهل تصور الأثر الذي خلفته هذه التصرفات الساحرة، في نفسي، أنا الذي كانت تستعبدني أبسط مظاهر العاطفة؛ فإذا بي أغدو شديد التعلق بها، بقدر ما كانت هي تبدي لي من ميل، وكان المصدر الأوحد لخوفي - حين فطنت إلى هذا الهيام - هو شعوري بأنني لم أكن مستملاً إلى الدرجة التي تستبقي حياً؛ ومن ثم فإنه قد ينقلب إلى كراهية.. ولقد كان هذا الخوف - لسوء حظي - قائماً على أسس سليمة جداً!



ولابد أن ثمة تعارضا كان قائما بين اتجاه عقلها واتجاه عقلي .. فبغض النظر عن كثير من الهذيان الاحمق الذي كان يفلت مني في كل لحظة من لحظات أحاديثنا، بل وبغض النظر عن خطاباتي .. كانت ثمة أشياء تذكرها، حتى في خير أوقات صفائي معها، دون أن يقدر لي أن أحس سببها، ولن أذكر هنا سوى مثال واحد، وإن كنت أستطيع أن أذكر عشرين! .. فلقد عرفت أنني كنت أعد للسيدة "دوديتو" نسخة من "هيلويث" تكلفت كل صفحة منها مبلغا كبيرا؛ فرغيت في أن أعد لها نسخة على الأسس ذاتها، ووعدتها بأن أفعل؛ ومن ثم وضعتها في قائمة عملائي، وكتبت لها بضعة سطور رقيقة وصريحة، أو هكذا كانت نيتي، على الأقل، وإذا بي أتلقى الرد التالي، الذي أدهشني كل الدهشة (الملف "ج" رقم ٤٣) :

"فرساي" : هذا الثلاثة.

"إنني لمغتبطة، وإنني لراضية .. ولقد أدخل خطابك على نفسي سرورا لا حد له، وإنني لأبادر إلى أن أعلنك بذلك، وإلى أن أشكرك من أجله .

"هاك نص تعبيرك في خطابك : "بالرغم من أنك عميلة جد طيبة حقا فإنني أجد بعض صعوبة في قبول نقودك، والأحرى أن يكون علي أن أدفع ثمن المتعة التي سأحظى بها إذ أعمل من أجلك" . ولن أذكر هذا الموضوع مرة أخرى!

"يوسفني وبقلقني أنك لا تحدثني قط عن صحتك، فليس ثمة ما يهمني أكثر منها . إنني أحبك من كل قلبي .. وإنه - كما أؤكد لك - لأمر محزن حقا أن أظلمك على هذا، إذ إنني كنت أؤثر أن أحظى بغبطة قوله لك بلساني!

"إن السيد "دي لوكسمبورج" يحبك، ويقبلك من كل فؤاده" .

وما إن استلمت هذا الخطاب حتى سارعت إلى الإجابة عنه - قبل أن أفحصه فحصا مليا - لاحتج ضد التأويل غير اللائق، وبعد أن عكفت عدة أيام على هذا الفحص، في قلق يسهل تصور مدهاء، ودون أن أفقه شيئا من الأمر، وجددتني في النهاية أكتب ردي النهائي بهذا الصدد :

"مونغورنسي" : ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٥٩ .

"فحصت الفقرة التي ترجمت إليها خطابي، مائة مرة ومرة، منذ رسالتي الأخيرة، ولقد تأملتنيها من حيث معناها الطبيعي الصحيح، وتدبرتها على ضوء كل معنى يمكن أن تحمله، وإنني لاعترف - ياسيدتي المارشالة - بأنني لم أعد أدري ما إذا كنت أنا الذي يدين لك بالاعتذارات، أو أنه يجدر بك أن تكوني أنت المدينة بها لي" .

ولقد انقضت الآن عشر سنوات مذ كتبت هذه الرسائل . وكم من مرة فكرت فيها، منذ ذلك الحين .. وما أزال - حتى في يومي هذا - في غياب من هذا الموضوع، حتى إنني لم أستطع أن أفهم ما الذي يحتمل أن تكون قد وجدته في الفقرة .. ولن أقول إنها وجدت شيئا ماسا، ولكنه من المحتمل أن يكون مكدرا .

أما عن النسخة المخطوطة من "هيلويث"، التي رغبت السيدة "دي لوكسمبورج" في أن تقتنيها فخلق بي أن أذكر هنا ما كنت قد عزمت على أن أفعله؛ لكي أضفي عليها امتيازاً خاصاً، دون بقية النسخ جميعاً . ذلك أنني كنت قد كتبت مغامرات اللورد "إدوارد" مستقلة، وكنت قد ظلمت طويلاً متردداً، لا أقطع بما إذا كنت أضمرها - سواء كاملة، أو بعض فقرات منها - إلى هذا الكتاب، الذي

كانت تلوح أنها غير متمشية معها، ولقد قررت في النهاية أن أحذفها كلها؛ لأن عدم اتساقها مع أسلوب بقية الكتاب كان كفيلا بأن يفسد بساطته المؤثرة. ثم وجدت سببا أقوى، عندما تعرفت إلى السيدة "دي لوكسمبورج". فلقد كانت في تلك المغامرات مركيزة رومانية ذات شخصية بالغة التهتك، وكان من الممكن أن يحاول بعض من كانوا لا يعيرون السيدة المارشالة إلا بسمعتها أن يربطوا بين صفاتها وبعض صفات تلك المركيزة، بالرغم من أنه لم تكن ثمة علاقة بين الاثنين؛ لذلك غبطت نفسي على القدر الذي اتخذته، وآليت أن أتثبت به. ولكنني في رغبتني العارمة في أن أزيد من قيمة نسخة السيدة "دي لوكسمبورج" بشيء لم تتضمنه النسخ الأخرى.. ألم يكن يحسن بي أن أذكر هذه المغامرات المشؤومة، وإن أرسم خطة لكي استخلص شيئا منها أضيفه إلى النسخة؟.. كان مشروعا أخرق، لا يمكن للمرء أن يعزو الاندفاع إليه إلا إلى القدر الذي كان يجبرني إلى هلاكي.

(١) Quos Volt Perdere Jupiter, Lementat

ولقد كنت من الحماقة بحيث أعددت هذا الاقتباس بكثير من العناية، وبكثير من الجهد، وأرسلتها إليها وكأنها أجمل شيء في الدنيا. وأخبرتني - في الوقت ذاته بأنني قد أحرقت النسخة الأصلية، وهو ما كنت قد فعلته حقا؛ ومن ثم فإنها الوحيدة التي كانت تمتلك هذه القطعة ولن يقدر لإنسان سواها أن يراها إلا إذا أطلعتني هي عليها، ولكن هذا العمل كان أبعد من أن يثبت لها حكمتي وحصافتي - كما كنت أتوقع - إذ إنه لم يوح إليها بالفكرة التي كانت قد خطرت لي، عن الشبه بين بطلة المؤلف وبينها، وهو ما لا بد قد أذى شعورها. على أن غبائي كان من الإفراط بحيث إنني لم استشعر أي شك في أنها خليقة بأن تبهر بما فعلت.. ولم تمتدح لي عملي بالتحمس الذي كنت أتوقعه، بل إنها - لدعشتي البالغة - لم تتحدث إلي قط عن المخطوط الذي أرسلته إليها، وما حدثت الأمر - لفرد ما كنت مغتبطا بتصرفي - إلا بعد أمد طويل، وبسبب ظواهر أخرى، كانت مرتبة على ذلك!



أما نسختها المخطوطة من الكتاب الأصلي - "هليويز" - فقد واثنتي فكرة أخرى بصدها، كانت أكثر حكمة من سابقتها، ولكنها كانت - في أثرها البعيد - تكاد تعادلها إساءة إلي. فلكم يساهم كل شيء في مساعدة القدر، عندما يدفع بإنسان إلى الشقاء!.. فلقد كانت فكرتي هي أن أزين هذه النسخة المخطوطة بصورة من لوحات "جسولي"، التي تصادف أن كانت صفحاتها من عين حجم صفحات المخطوط. فطلبت هذه الرسوم من "كوانديه"؛ إذ إنها كانت ملكا لي بكل حق مشروع فضلا عن أنني كنت قد تركت له ما درته هذه الرسوم من ربح؛ إذ إنها كانت قد لقيت رواجاً عظيماً. على أن "كوانديه" كان أكثر خبثاً، مما كنت أنا عكس الخبث!.. وقد أدى إلحاحي في طلب هذه الرسوم إلى أن يحدث الغرض الذي كنت أريدها من أجله. ثم أغرائني بأن ادعها معه، زاعماً أنه سينقحها وما ليث - في النهاية - أن قدمها إلى السيدة بنفسه!

(٢) Eg, Versicuios Feci. Tulit Alter Honores

ولقد أدى هذا إلى دخوله قصر "دي لوكسمبورج"، وحظوته بمكانة معينة، وكان - منذ استقراره في القصر الصغير - يكثر من زيارتي، ويختار الصباح دائماً موعداً لهذه الزيارة، لاسيما

(١) بيت من الشعر القديم، اعتاد كتاب القرن السادس عشر - في فرنسا - أن يدرسه في كتاباتهم، ومعناه أن الإله "جوبيتر" يطيش - أو يحرق - عقل أولئك الذين يقضي عليهم بالهلاك. (٢) من شعر "فريجول": "أنا أنظم الشعر وغيري يعني الحمد"

عندما كان يتصادف وجود السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" في "موغورنسي"، وكان هذا يؤدي إلى ألا أذهب إلى القصر إطلاقاً لكنني أقضي معه سحابة الصباح، وكنت ألام على هذا التغيب، فأذكر السبب، فأقابل بإلحاح في دعوة السيد "كوانديه" إلى القصر.. وقد فعلت، وكان هذا عين ما ابتغاه الوغد!.. وهكذا كان للافضال الكريمة العارمة، التي كانت تغدق عليّ، أثرها الكبير في أن الكاتب الأجير لدى السيد "فيلوسون" والذي كان يدعى أحياناً إلى مائدة مخدمه—عندما لا يكون ثمة ضيف آخر يؤنس السيد—وجد نفسه فجأة على مائدة أحد قادة "فرنسا" العظام، مع الأمراء، والسيدات الدوقات، وكل أصحاب المكانة العليا في البلاط الملكي!

ولن أنسى البتة أنه كان مضطراً إلى العودة إلى "باريس" مبكراً—ذات يوم—فقال السيد المارشال للحضور، عقب الغداء: "تعالوا نسر على الطريق المفضية إلى "سان - دنيس"، لنرافق السيد "كوانديه"، ولم يقو الفتى البائس على الاحتمال فدار رأسه لهذا الكرم. أما أنا، فقد اهتز قلبي، حتى إنني لم أقو على أن أنبس بكلمة واحدة، وسرت وراء القوم، وأنا أبكي كالطفل، وأموت لهفة على أن أقبل مواقع قدمي هذا المارشال الطيب.. على أن استعفاف قصة ذلك الكتاب المنسوخ، جعلني أسبق الزمن إلى هذه الواقعة، فلنعد إلى الأحداث وفقاً لنظام ورودها، بقدر ما تسمح لي ذاكرتي.



لم يكد العمل في البيت الصغير في "مون - لوي" يفرغ، حتى فرشته بأثاث مناسب وبسيط، وعدت إلى الإقامة فيه، غير قادر على أن أنبذ ذلك القانون الذي وضعته لنفسني إذ غادرت "ليرميثاج"، واعني به أن يكون مقامي دائماً في مسكن أمتلكه. على أنني - مع ذلك - لم أستطع أن أقطع بالتخلي عن مسكني في "القصر الصغير"؛ ومن ثم فقد ظللت محتفظاً بمفتاحه، وكنت كثيراً ما أنام هناك - لفرط ولعي بالفطور البديع في الرواق - كما كنت أقضي فيه يومين أو ثلاثة، في بعض الأحيان، وكأنه بيت خلوي للترويح عن النفس، ولعلني كنت أحظى - في تلك الفترة - بمسكن أكثر راحة ولياقة مما كان يحظى به أي فرد عادي في "أوروبا". ذلك لأن صاحب الدار التي كنت أسكنها - السيد "مستي"، الذي كان خير رجل في الدنيا - ترك لي الإشراف الكلي على عمليات الإصلاح في "مون - لوي"، وأصر على أن أستخدم عماله وفق ما كنت أهوى دون أي تدخل فيه، وقد وجدت ما مكنتني من أن أجعل من غرفة واحدة في الطابق الأول جناحاً كاملاً مؤلفاً من حجرة للنوم، وحجرة أخرى ملحقة بها، وخزانة كبيرة للثياب، وفي الطابق الأرضي، كان ثمة المطبخ وحجرة "تيريز". أما الشرفة فقد تحولت إلى حجرة للمكتب، بعد إقامة حاجز زجاجي، وإدخال مدفأة عليها. ولقد رحلت أتسلى - كلما كنت هناك - بزخرفة الشرفة الخارجية، التي كانت تقبع تحت ظلال صفيين من أشجار الزيزفون الصغير. فغرست صفيين آخرين؛ لأقيم أيكة دائمة، وعملت على إقامة بضع أرائك حجرية هناك، وأحطتها بالشجيرات ذات الزهر الأبيض، وبالليلاب، وزهر الجبل، وأقمت سياجاً بديعاً من الزهور موازياً لصفي الأشجار.. ولما كانت هذه الأيكة أكثر ارتفاعاً من شرفة القصر - وكان المنظر الذي تشرف عليه لا يقل عن ذلك الذي تشرف عليه الأخرى، وقد عمرها عدد من الطيور التي استألفتها واستأنستها - فإنني جعلت منها حجرة استقبال إذا ما وفد عليّ ضيوف،

كالسيد والسيدة "دي لوكسمبورج"، والسيد الدوق دي فيلروي"، والسيد الامير "دي تينجري"، والسيد المركيز "دار منتيير"، والسيدة الدوقة "دي مونغورنسي"، والسيدة الدوقة "دي بوفليير"، والسيدة الكونتة "دي فالينتينوا"، والسيدة الكونتة "بوفليير" وغيرهم ممن كانوا في مكانتهم، والذين كانوا يفضلون بتجشمون عناء صعود طريق متعبة، من القصر إلى "مون - لوي"، وقد كنت مدينا بالحظوة بكل هذه الزيارات إلى السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" وقد كنت ألس هذا، فكان قلبي يطفر بالعرفان بأفضالهما، ولقد حدث في إحدى نوبات التأثر العاطفي، أن قلت للسيد "دي لوكسمبورج": "آه، يا سيدي المارشال... لقد كنت أكره العظماء قبل أن أعرفك، وأنا الآن أكثر كراهية لهم، منذ جعلتني أشعر كم يسهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع حب وإعجاب".

وعدا ذلك فإنني أسأل كل أولئك الذين عرفوني أثناء هذه المدة هل كانوا قد لاحظوا أن هذه اللحمة من الذكاء قد بهرتني لحظة، وهل كان دخان هذا البخور قد صعد في رأسي، وعم إذا كانوا قد رأوني أقل تمشيا مع طباعي، وأقل بساطة في مسلكي، وأقل تطفأ مع الناس، وأقل ألفة مع جيراني، وأقل استعدادا لمعونة كل امرئ عندما يكون ذلك في مكنتي، دون أن أتعرض للضر الذي يترتب على السخافات والسفاهات التي لا حصر لها، والتي كثيرا ما تنطلق في غير حكمة فتورثني الحرج دون انقطاع؟..

وإذا كان قلبي قد اعتاد أن يجتذبنني نحو قصر "مونغورنسي"، نظرا لصداق تعلقني بصاحبيه فإنه كان لا يلبث أن يردني بنفس الطريقة التي أمكنتني؛ لاتذوق حلاوة هذه الحياة المسترسلة البسيطة التي لم يكن لي من سبيل إلى السعادة خارج نطاقها، ولقد اتصلت روابط الصداقة بين "تيريز" وابنة واحد من جيراني، كان يعمل في البناء - ويدعى "بيلو" - فحذوت حذوها مع الأب... وكنت أتناول الغداء في القصر، في الظهيرة - وأنا كاره بعض الشيء - رغبة في إرضاء السيدة المارشالة، وكنت أعود في المساء؛ لاتناول العشاء مع "بيلو" الجليل وأسرته، في بيته أحيانا، وفي بيتي أحيانا أخرى.

وإلى جانب هذين البيتين، سرعان ما وجدت ثالثا في قصر "دي لوكسمبورج" بـ "باريس"، إذ راح صاحبيه يلحان علي في إخلاص كي أزورهما في بعض الأحيان، حتى إنني استجبت لهما، برغم نفوري من "باريس"، التي لم أذهب إليها - عقب اعتكافي في "ليرميتاج" - إلا في المناسبتين اللتين ذكرتهما من قبل... وحتى إذ ذاك، ما كنت أذهب إلا في أيام محدودة من قبل، لمجرد تناول العشاء، ثم أعود في الصباح التالي، وكنت أدخل القصر وأغادره خلال الحديقة المتصلة بالطريق المؤدية من الريف، بشكل أستطيع معه أن أقول - بكل صدق - إنني لم أضع قدما على أرض "باريس" المرسوفة!



وفي غمرة هذا الرخاء العابر، راحت النكبة - التي حددت نهايته - تتجمع على البعد. فلقد عقدت - عقب عودتي للإقامة في "مون - لوي" تعارفا جديدا، بالرغم مني، كالمهمود... تعارفا يعتبر بداية مرحلة في تاريخي، ولسوف يبدو - فيما يلي - ما إذا كان هذا التعارف طيبا أو سيئا. أما الطرف الآخر فيه فكانت السيدة المركيزة "دي فيرديلان"، جارتني التي كان زوجها قد ابتاع

منزلا ريفيا في "سواسي"، على مقربة من "مورغورنسي" ولقد كانت الأنسة "دارس" ابنة للكونت "دارس" الذي كان رجلا ذا مكانة، ولكنه كان فقيرا.. ثم تزوجت من السيد "دي فيرديلان"، وكان كهلا، قبيح الشكل، أصم، جاف الخلق، قاسي الطبع، غيورا، مشوه الحلقة بالندوب، أعور.. ولكنه كان - عدا ذلك - رجلا طيبا، إذا ما عرف المرء كيف يفهمه.. وكان يمتلك ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا من الليبرات دخلا سنويا، من أجله زفت الغشاة إليه.. وكان هذا الرجل العجيب يتوعد، ويصرخ، ويزمجر، ويغري، يبكى امرأته طيلة النهار، ولكنه ينتهي دائما بأن ينفذ ما ابتغت هي، بعد أن يكون قد أحرقها.. فلقد كانت تعرف كيف تجعله يعتقد أنه هو - وليس هي - الذي كان يبتغي ذلك الشيء المنشود!

ولقد كان السيد "دي مارجينسي" - الذي تحدثت عنه من قبل - صديقا للسيدة، وأصبح صديقا لزوجها كذلك، وقد أسكنهما - منذ بضع سنوات - بالأجر، في قصره القائم في "مارجينسي"، على مقربة من "أوبسون" و"أرديسي" وهناك، كانا يقيمان في فترة هيامي بالسيدة "دوديتسو"، ولقد تعرفت كل من السيدة "دي فيرديلان" وهذه الأخيرة عن طريق صديقتهما المشتركة، السيدة "دوديتسو"، ولما كانت حديقة قصر "مارجينسي" تقع على الطريق التي اعتادت السيدة "دوديتسو" أن تسلكها - في رياضتها المحببة إليها - إلى "مونت أوليمب" فإن السيدة "دي فيرديلان" أسلمتها مفتاحها؛ لتستطيع أن تمر خلال الحديقة، وبفضل هذا المفتاح كنت أسعى إليها في كثير من الأحيان، ولكنني لم أكن مولعا باللقاءات غير المرتقبة، وكنت إذا قابلتنا السيدة "دي فيرديلان" مصادفة أتركهما دون أن أنبس بكلمة، وأمضي في سيري، وما كان هذا المسلك غير اللبق ليعطيها فكرة طيبة عني. ومع ذلك فإنها سعت إلى صحبتي عندما كانت في "سواسي"!

ولقد وفدت على "مون - لوي" عدة مرات لتقابلني، دون أن تجدني في البيت. فلما لم أزد زيارتها رأيت أن ترسل إليّ بعض أصص الزهور؛ لأزين بها أيكتي لكي تضطرني إلى أن أزورها، ووجدتني مسوقا إلى الذهاب إليها وشكرها، وكان في هذا ما يكفي لأن يتم التعارف!

ولقد كانت هذه العلاقة عاصفة في بدايتها، شأن كل علاقة كنت أعقدها بالرغم مني.. بل إنها لم تكن يوما هادئة، في الواقع. فإن اتجاه عقل السيدة "فيرديلان" كان مخالفا أكثر مما ينبغي لاتجاه عقلي، وكانت تطلق ألفاظ السوء والسخرية المتوارية بكثير من البساطة حتى إنها كانت تتطلب من المرء انتباهها مستمرا - ومرهقا بالنسبة لي - لكي يدرك متى كان يحلو لها أن تهزأ به.. وتحضرني إحدى نوادر عبثها وسفاهتها، التي تكفي للحكم عليها. فلقد حدث أن عين أخوها قائدا لسفينة حربية "فرقاطة" كانت في طريقها ضد "الإنجليز"، وقدر لي أن أتحدث عن طريقة تسليح هذه "الفرقاطة"، دون أن أمس سرعتها بنقد، وإذا بها تقول، بدون أن تغير لهجتها: "أجل.. إن المرء لا يأخذ من المدافع إلا القدر اللازم لهزيمته"!!

ونادرا ما سمعتها تقول خبرا عن أي من أصدقائها الغائبين، اللهم إلا إذا دست خلاله شيئا ضدهم، وكانت تسخر من لا تجد فيه سوءا، ولم تستثن من ذلك صديقها "مارجينسي"!

ومن الأمور التي وجدت أنها لا تطاق منها ذلك الإزعاج المستمر الذي كان يتمثل في رسائلها الصغيرة، وهداياها البسيطة، وقصاصاتها التي كنت أضطر إلى أن اعتصر مخي لكي أجيب عنها، والتي كانت تسبب لي حرجا متجددا، سواء لكي أشكر، أو لكي أرفض.. ومع ذلك فإنني لم ألبث أن تعلقت بها، بحكم رؤيتي إياها باستمرار. فقد كانت - مثلي - لها شجونها، وكان تبادلنا

الفضفضة، يتيح لنا خلوات طريفة. فليس اقوى على ربط القلوب من لذة المشاركة في إراقة الدموع... فكان كل منا ينشد الآخر؛ لكي نتبادل التسرية والتعزية، وهذه الحاجة بالذات، كثيرا ما جعلتني أغفل عن أمور كثيرة، وكنت قد خشنت كثيرا في صراحتي معها فكان لزاما عليّ - بعد أن أبدت أفعال الاحترام لشخصيتها، في بعض الأحيان - أن أخشى عن حق، ألا يكون بوسعها أن تصفح عني، وهاكم مثالا للخطابات التي كنت أكتبها أحيانا إليها، والتي يجدر - ونحن بصدددها - أن أذكر أنها لم تكن تبدي في ردودها عنها أية بادرة من بوادر الغضب:

"مونغورنسي": ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٦٠ .

"تقولين لي، ياسيديتي، إنك لم تحسني الإفصاح عن نفسك، حتى تجعليني ألمس أنني أسأت الإفصاح عن نفسي، وتحديثني عن غبائك المزعوم؛ لتنبهيني إلى غيائي، وتتشدقن بأنك طيبة وكأنك تخشين أن تؤذي بكلمتك، كما أنك تبدين الأعذار؛ لتشعريني بأنني مدين بشيء منها إليك.

"أجل، ياسيديتي، إنني لأدرك هذا تماما، فانا الذي كنت غيبيا، ساذجا، وأمسوا من هذا، إن أمكن!.. أنا الذي أسأت اختيار عباراتي، دون أن أرمي رضاء سيدة فرنسية، تبدي كثيرا من الاهتمام إلى الأقوال، وتحسن الحديث، مثلك. ولكن.. لاحظني أنني أخذت هذه العبارات على محملها العادي في اللغة، دون أن أعرف أو أحس شيئا من التأويلات التي تعلق بها أحيانا، في الأوساط الباريسية الفاضلة. فإذا كانت ثمة تعبيرات تحتل تأويلات - في بعض الأحيان - فإنني أحاول بمسلكي أن أحدد معناها.. إلخ".

وكانت بقية الرسالة بالأسلوب ذاته. فتأمل ردّها (الملف "د" - رقم ٤١)، واحكم على مدى الهدوء، الذي يكاد يفوق التصور، والذي أوتيه قلب امرأة، لم تجد ما يستثير سخطا من خطاب كهذا سوى ما أوردته في ردّها، وما أبدته بمسلكها!.. ولم يبطئ "كواندييه" - بما عرف عنه من انتهاز للفرص، وجراحة تذهب إلى درجة الفحّة، وتربص باصدقائي - في أن يتقدم إلى السيدة "دي فيرديلان" باسمي، وسرعان ما أصبح أوثق صلة مني بها، دون أن أدري.. لقد كان هذا "الكواندييه" مخلوقا عجيبا، لا مثيل له.. كان يتقدم باسمي إلى جميع معارفي، فيبوطد مكانه في دورهم، ويأكل على موائدهم دون كلفة! وكان في وفائه المتحمس لي لا يتحدث عني إليهم إلا والدموع في عينيه، ولكنه إذا ما زارني، تمسك بأشد ألوان التكنم عن هذه العلاقات، وعن كل شيء كان يشعرني أنه يثير اهتمامي.. وبدلا من أن يذكر لي ما سمعه، أو قاله، أو رآه - مما يهمني - كان يلزم الإصغاء إليّ بل وبوجه إليّ الأسئلة! وما عرف يوما شيئا عن "باريس" إلا ما كنت أنبئه به.. وقصاري القول إنه لم يكن ليحدثني عن أي امرئ، في حين كان كل امرئ يحدثني عنه، وما كان مغلقا، غامضا، إلا مع صديقه.. أنا!.

ولكن، لنندع "كوفندييه" والسيدة "دي فيرديلان" في الوقت الحاضر، فلن نلبث أن نعود إليهما فيما بعد!



حدث بعد عودتي إلى سكني "مون - لوي" بوقت قصير، أن أقبل الرسام "لاتور" لزيارتي،

وحمل إليّ صورة رسمها لي بالطباشير "الباستيل"، وكان قد عرضها بضع سنوات - قبل ذلك - في صالة العرض وكان يرغب في أن يقدمها هدية لي، ولكنني أبيت أن أقبلها. غير أن السيدة "ديبيناى" - التي أهدتني صورتها، وودت أن تأخذ هذا الرسم - قد حملتني على أن أعدها بأن أطلبه، فإذا "لا تسور" يستغرق بعض الوقت في تنقيحه، وفي تلك الأثناء حدثت القطيعة بيني وبين السيدة "ديبيناى"، فرددت إليها صورتها، ولم أعد أفكر في أن أهدبها صورتى؛ ومن ثم فإنني علقت هذه في غرفتي في "القصر الصغير". ولقد رأها السيد "دي لوكسمبورج" هناك، فاعجب بها؛ ومن ثم فإنني عرضتها عليه، فتقبلها.. وأرسلتها إليه!

ولقد أدرك والسيدة "دي لوكسمبورج" أنني خليك بأن أسر إذا ما حصلت على صورتيهما، فعهدا إلى فنان ماهر بأن يرسمهما في صورتين دقيقتين، زين بهما صندوقا للحلوى صنع من البللور الصخري، على قاعدة من الذهب، وقدماه إليّ بطريقة لبقة، طربت لها، وما رضيت السيدة "دي لوكسمبورج" قط عن حرصى على أن أجعل صورتها في الجانب الأعلى من الصندوق.. وكانت كثيرا ما تعتب عليّ، أنني كنت أكثر حبا للسيد "دي لوكسمبورج" مني لها، وما دفعت هذا عن نفسي يوما لأنه كان حقيقة؛ ومن ثم فقد شاءت أن تريني في لباقة - ولكن في وضوح كاف - بإصرارها على مكان صورتها، أنها لم تنس هذا الإيثار مني لزوجها!

ولقد ارتكبت - حوالي هذه الآونة بالذات - حماقة لم تساعد على احتفاظي بودها ومجاملاتها. فنع أنني لم أكن على تعارف بالسيد "دي سيلويت" - المراقب العام للمالية - وكنت غير مبال إلى إلا أنني كنت أعتنق فكرة جد طيبة عن كفاءته الإدارية. فلما بدأت قبضته تشد على رجال المال، رأيت أنه لم يشرع في هذه الخطوة، في لحظة مواتية. ومع ذلك فإنني رجوت له كل توفيق؛ لذلك فقد بادرت دون ترو - حين بلغني أنه أقبل من منصبه - إلى كتابة الرسالة التالية إليه.. وهي رسالة لا أحاول - في الواقع - أن أبررها:

"مونغورنسي": ٢ كانون الول (ديسمبر) سنة ١٧٥٩.

"تكرم يا سيدي فتقبل احترام رجل معتزل، غير معروف لديك، ولكنه يقدر فيك مواهبك، ويحترمك لكفاءتك الإدارية، وقد كرمك بأن أيقن بأن هذه الإدارة لن تبقى في يديك طويلا. إنك جرؤت على أن تواجه صيحات جامعي المال؛ إذ رأيت أن ليس في وسعك إنقاذ الدولة إلا على حساب رأس المال الذي أودى بها إلى الدمار، ولقد غبطتك على منصبك؛ إذ رأيتك تسحق هؤلاء الأندال.. وإني اليوم لا أكبرك؛ إذ أراك تغادره دون أن تكذب نفسك..! فاهنا بنفسك ياسيدي، فقد أجدك موقفك شرفا مستظل تنعم به، دون منازع، أمدا طويلا.. إن ترهات الأوغاد لمجد للرجل المستقيم!"

سنة ١٧٦٠

ولقد حدثتني السيدة "دي لوكسمبورج" عن هذا الخطاب - وكانت تعلم أنني كتبتة عندما أقبلت في عطلة عيد الفصح، فاطلعتها عليه.. ورغبت في الحصول على نسخة منه، فاعطيتها بغيتها، ولكنني كنت أجهل - إذ قدمتها إليها - أنها كانت من "جامعي المال" الذين كانوا يهتمون بالمضاربات خارج "البورصة"، والذين عملوا على إقالة "سيلويت".

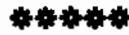
ومن الجدير أن يقال: إنني بدوت وكأني كنت استنهض عامدا بغضاء سيدة لطيفة وذات نفوذ، كنت - في الواقع - ازداد تعلقا بها يوما بعد يوم، وكنت بعيدا كل البعد عن أن أرغب في أن أجر على نفسي سخطها، بالرغم من أنني كنت - بتصرفاتي الرعناء المتكررة - أفعل كل ما يتطلبه ذلك، واعتقد أن لا حاجة بي إلى أن أذكر أن إلى هذه السيدة بالذات، تعزى قصة الدواء الملين للمعدة الذي وصفه السيد "تروثسان"، والذي تحدثت عنه في الجزء الأول من اعترافاتي (١) .. أما السيدة الأخرى، التي كانت معها، فهي السيدة "دي ميربوا"، وما ذكرت لي أي منهما هذا الموضوع مرة أخرى، ولا أبدت أية بادرة توحى بأنها تذكره، ولكن افترض أن تكون السيدة "دي لوكسمبورج" قد نسيت حقا، أمر عسير، وإن لم يقدر للمرء أن يعرف الحوادث التي أعقبته. أما أنا، فقد كنت أحاول أن أطمئن نفسي من أمر حماقتي متوسلا لذلك بأنني لم أكن أصدر في أي من هذه الحماقات عن قصد الإيذاء، وكأنما كان من المحتمل أن تغفر امرأة أمورا من هذا القبيل، ولو كانت على أتم يقين من أنها لم تكن متعمدة!

ومع ذلك، فالبرغم مما كان يلوح عليها من أنها لم تكن ترى شيئا، أو تحس بشيء، وبالرغم من أنني لم أستشعر أي تضائل في شعورها، ولا تغير في تصرفاتها إلا أن حاجسا خفيا - لم يكن منبعثا إلا عن أساس مكين - راح يوحى إليّ دون انقطاع، بأن النفور لن يلبث أن يعقب هذا الهيام. أفكان لي أن أتوقع من سيدة عظيمة القدر - إلى هذا الحد - ثباتا ووفاء يكون بمامن من غبائي وضعف حيلتي؟ .. إنني لم أكن أعرف أن أخفي عنها شيئا، حتى هذا الهاجس الذي راح يقض راحة بالي، ولم يزدني إلا جفاء وانطواء، وهذا ما يمكن رؤيته في الخطاب التالي الذي انطوى على نبوءة عجيبة. تنبيه: هذا الخطاب الذي لم تحمل مسودته تاريخا، كتب في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٦٠، على أكثر تقدير.

"ما أقسى أفضالك! .. لماذا تعكرين طمانينة شخص وحيد معتزل، نبذ ملاذ الحياة لكي يستشعر مزيدا من الملل منها؟ ..

لقد قضيت أيامي أبحث عشا عن علاقات ودية ثابتة، ولقد عجزت عن أن أوطد شيئا منها، في الأوساط التي كنت أملك إليها وصولا .. أفكان عليّ أن أبحث عنها في أوساطك أنت؟ "ليس للطموح ولا للمصلحة الذاتية إغراء لدي، فأنا مغرور بعض الشيء، هيا ب بعض الشيء، وبوسعي أن أقاوم كل شيء، في العواطف! .. فلماذا تهاجماني معا في ضعف يجب أن تغلب عليه، مادام تدفق القلوب الحساسة لن يقوى على أن يقرني منكما، نظرا لليون الذي يفصل بيننا؟ "أفيكون العرفان كافيا لقلب لا يعرف رياء، ولا يشعر بأنه قادر إلا على الصداقة؟ .. الصداقة يا سيدتي المارشالة! .. آه .. هنا مصدر تعاستي! .. من الجميل منك، ومن السيد المارشال، أن تستخدموا هذه الكلمة، ولكني أحمق إذ أصدق أنكما تعنيانها! .. إنكما تلهوان لتسريا عن نفسيكما، أما أنا فمتعلق بوفاء، فإذا نهاية اللهو تعذني لحسرات جديدة! .. لكم أكره كل القابيكما، ولكم أرثي لكما إذ تحملاهما! .. إنكما لتبدوان - في نظري - جديرين بأن تتذوقا كل مفاتن الحياة الخاصة، المغمورة! .. لم لا تقيمان في "كلاران"؟ .. إنني لأتوق إلى أن أنشد هناك هناء حياتي، إما قصر "مونفونسي"، وإما قصر "لوكسمبورج"! .. أفهناك تنبغي رؤية "جان چاك"؟ .. أفهناك ينبغي لواحد من أصدقاء المساواة أن يروي عواطف قلب حساس، يخشى - إذ يدفع بهذا الشكل ثمن

التقدير الذي أبدي إليه - أن يعطي أكثر مما يتسلم؟
"إنكما طيبان وحكيمان كذلك، وإنني لأدري ذلك، وقد رأيته. وإنني لآسف على أنني لم أستطع أن أصدقك قبل الآن. على أنني إذ أقدر الطبقة التي تنتميان إليها، والأسلوب الذي تعيشان عليه، أرى أن لا شيء يستطيع أن يترك طابعا باقيا في نفسيكما؛ ومن ثم فإن أشياء كثيرة تتعاقب لديكما، فيمحو كل منهما الآخر، ولا يقدر لأحد أن يبقى دائما".
"لسوف تنسيني ياسيدتي، بعد أن جعلتني أعجز ما أكون عن أن أحذو حذوك فأنسى أنا الآخر. لقد خلقت لكي تجعلني مني إنسانا شقيا، دون أن يكون لك العذر".



وما قرنت اسم السيد "دي لوكسمبورج" باسمها إلا لأخفف من جفوة الرسالة، وما عدا ذلك، فقد كنت واثقا به، فلم أشعر بالقلق لحظة إزاء دوام صداقته، وما قدر لشيء من الهواجس التي راودتني بشأن زوجته، أن يمتد إليه... أبدا ما شعرت بأقل تزعزع في ثقتي بشخصيته، التي كنت أعرف أنها ضعيفة، ولكنها أهل للثقة، فما كنت أخشى فتورا من ناحيته، إلا بقدر ما كنت أترقب منه إقداما بطوليا... كانت بساطة وألفة علاقاتنا تبين كيف كان كل منا يركن إلى الآخر، وقد كنا معا على صفاء، ولسوف أظل ما حييت أمجد ذكرى هذا السيد الفاضل واعتز بها.. مهما تكن المحاولات التي بذلت كي تباعد بينه وبينني فسابقي مطمئنا إلى أنه مات وهو صديق لي.. كما لو كنت قد تلقيت آخر أنفاسه!

ولقد انتهت مطالعات "جولي" في زيارتها الثانية لـ "مونفورنسي"، في سنة ١٧٦٠. وكان عليّ أن انتقل إلى "إميل" لكي أبقى مع السيدة "دي لوكسمبورج"، ولكن هذا الانتقال لم يكن موفقا؛ إما لأن الموضوع لم يرق لها، وإما لأنها كانت قد ملت كل هذه المطالعات. ومع ذلك فإنها رغبت - وهي تلومني على أن تركت نفسي لتغريير الناشئين بي - في أن أترك لها طبع الكتاب ونشره؛ حتى تستطيع أن تعقد صفقة أفضل. ووافقت على اقتراحها، مشروطا ألا يطبع الكتاب في "فرنسا".
وهذا ما قام بيننا خلاف طويل حوله. فقد كنت أرى أن من المستحيل الحصول على إذن بطبعه في المملكة، وأن ليس من الحكمة طلب هذا الإذن.. وما كنت - في الوقت ذاته - لاقبل أن يطبع في "فرنسا" بغير ذلك. أما هي، فكانت ترى أن هذا ليس بالأمر العسير - من ناحية الرقابة - تحت النظام الذي انتهجته الحكومة، وقد وجدت الوسيلة التي جعلت بها السيد "دي ماليزيرب" يقرأها على آرائها، فكتب إليّ رسالة طويلة؛ لكي أقر بأن كتاب "عودة أسقف سافوا إلى الإيمان" هو عين ما يجب أن يقابل بالتحبيذ من كل الجنس البشري في كافة الأرجاء، بل وفي البلاط الملكي في تلك الظروف... وعجبت إذ وجدت هذا الموظف المسؤول الذي كان بطبيعته رعيديا، قد تساهل في هذه المسألة إلى هذا الحد!

ولما كانت مجرد الموافقة منه كافية لإجازة طبع الكتاب قانونا، فإنني لم أعد أملك أي اعتراض. على أنني - بسبب نذر خفي غريب هجس في نفسي - ظللت أصر على أن يطبع الكتاب في "هولندا"، وبوساطة المكتبي "نياولم"، الذي لم أكتف بأن أرشدت إليه، بل إنني كتبت إليه استشيرته، ووافقت على أن تكون الطبعة لحساب ناشر "فرنسي"، أي أن يتم إعدادها في "هولندا"،

وتباع في "باريس"، أو في أي مكان آخر، فما كان البيع ليعني في شيء وهذه هي عين النقاط التي اتفقت عليها مع السيدة "دي لوكسمبورج"، والتي أسلمتها المخطوط بعد إبرامه.



وكانت قد أحضرت معها - في هذه الرحلة - ابنة أختها، الأنسة "دي يوفلييسر"، وهي الآن السيدة دوق "دي لوزون"، وكان اسمها "إميللي"، ولقد كانت فتاة فتاة، وكان وجهها، ورفقتها، وخفرتها، تحمل براءة العذارى الحقيقية. فما كان ثمة ما هو الطف ولا ادعى للاهتمام من وجهها، ولا كان هناك ما هو أكثر طهرا من المشاعر التي كانت تثيرها في النفس... ولا غرو، فقد كانت طفلة، لم تتجاوز العام الحادي عشر من عمرها؛ وإذا وجدت السيدة المارشالة بالغة الحياء راحت تبذل قصارى وسعها لتخرجها من هذا الخجل؛ فسمحت لي مرارا بأن أقبلها، الأمر الذي أقدمت عليه بحيائي المعهود، وبدلا من المداعبات اللطيفة التي كان أي امرئ آخر خليقا بأن يقولها - إذا ما كان في موضعي - ظللت صامتا، عيبا.. فلم أدر من كان أكثرنا حياء: الصغيرة المسكينة أم أنا؟..

وفي ذات يوم صادفتها وحيدة على سلم "القصر الصغير"، وكانت قد أقبلت لتزور "تيريز"، حيث كانت مربيتها في زيارتها؛ وإذا لم أدر ما ينبغي أن أقوله لها سألتها أن تمنحني قبلة، فلم تأبها علي، بكل ما في قلبها من براءة وطهر، لاسيما أنها كانت قد منحني قبلة أخرى في صباح اليوم ذاته، بأمر من خالة أمها، وفي حضورها.

وفي اليوم التالي، صادفت - وأنا أقر "إميل" على السيدة المارشالة - فقرة حرمت فيها، بحجة قوية، عين الشيء الذي كنت قد فعلته - أنا نفسي - في اليوم السابق، ووجدت السيدة أن ما ذهبت إليه - في تلك الفترة - كان صوابا، وأبدت بعض ملاحظات معقولة، جعلتني أتصرف خجلا. لكم ألعن غبائي الذي يفوق التصور، والذي كثيرا ما جعلني أبدو خبيثا، أثما، في حين أنني لم أكن أكثر من أحمق، سريع الارتباك!.. ولقد كانت حماقتي من ذلك النوع الذي يؤخذ على أنه عذر زائف، من رجل عرف عنه أنه ذكي!.. إن بوسعي أن أقسم على أن تلك القبلة كانت خالية من كل ما يستحق اللوم، وأن قلب الأنسة "إميللي" وعواطفها، لم تكن - في هذه الناحية - أظهر من قلبي وعواطفني أنا!.. بل إن بوسعي كذلك أن أقسم إنني لو كنت قد استطعت - في تلك اللحظة - أن أتخاشى لقاء الصبية لفعلت؛ إذ إنني - بالرغم من سروري لرآها - كنت في حيرة بالغة، لا أكاد أجد شيئا مناسباً أقوله لها وأنا أمر بها.

ترى كيف يتسنى لطفلة أن تبعث الارتباك لدى رجل لم يستطع سلطان الملك أن يرهيه؟.. أي قرار يتخذ؟.. وكيف يتصرف إذا هو تجرد فجأة من حضور ذهنه؟.. إنني إذا غضبت نفسي على الحديث إلى من أقابلهم من الناس فليست أقول سوى هذيان لا يفهم.. وإذا أنا لم أقل شيئا اتهمت بأنني أنفر من البشر، وبأنني حيوان وحشي، وبأنني دب!.. لقد كان الغباء الكامل أحب إلي من هذه الحال، ولكن المواهب التي كانت تعوزني في صحبة الناس، هي التي جعلت تلك التي أمك، أداة لدماري!

وفي نهاية مقام السيدة "دي لوكسمبورج" - في هذه الزيارة - قامت بعمل طيب، كان لي فيه نصيب. فقد حدث أن أهان "ديدرو" - في تهور بالغ - السيدة الاميرة "دي روبيك"، وكانت من

بنات السيد "دي لوكسمبورج"، ولقد انتقم لها الأديب الذي يتمتع برعايتها، "باليسو"، بمسرحيته الهزلية "الفلاسفة" التي تعرضت أنا فيها للسخرية، كما عومل فيها "ديدرو" بقسوة عنيفة، وما كان المؤلف أكثر إشفاقاً عليّ منه على "ديدرو"، مراعاة للالتزامات كانت تفرض عليه ذلك نحوي، بقدر ما كان ذلك لخوفه من أن يغضب والد السيدة التي كانت ترعاه، فقد كان يعرف أن السيد "دي لوكسمبورج" كان حفيباً بي، ودوداً نحوي..

ولقد أرسل إليّ "دوشين" الكتيب - الذي لم أكن قد تعرفت إليه إذ ذاك - نسخة من المسرحية عندما طبعته فحدثت أنه ما فعل ذلك إلا بإيعاز من "باليسو"، الذي ربما خال أنني قد أبتهج لمراى رجل - فصمت عرى الصلوات معه - يمرغ في التراب. ولكنه أخطأ في هذا خطأ مفرطاً، فمع أنني كنت قد قطعت ما بيني وبين "ديدرو" - الذي كنت أؤمن بأنه ضعيف، وغير أمين على الأسرار - أكثر منه خبيثاً - إلا أنني احتفظت له في قلبي بشعور من الولاء، بل ومن الإكبار والاحترام، نظراً لصدقتنا القديمة، من ناحيته، كما كانت من ناحيتي.

على أن الأمر يختلف بالنسبة إلى "جرم" الذي كان غشاشاً خادعاً، والذي لم يحبني إطلاقاً، بل وما كان بقادر على الحب، والذي تحول في الخفاء فأصبح أقذع الشائنين لي، دون أي مبرر اللهم إلا الرغبة في إرضاء غيرته الحاقدة!.. وما كان هذا بالشخص ذي القيمة لديّ، أما الآخر، فسيظل دائماً صديقي القديم، ومن ثم فقد تحركت في فؤادي أرق المشاعر، عندما رايت تلك المسرحية البغيضة، ولم أقو على المضي في قراءتها، بل إنني رددتها "إلى" "دوشين" ولما أتمها، وأرفقت بها الرسالة التالية:

"مونفورنسي": ٢١ مايو سنة ١٧٦٠

"ما إن تصفحت المسرحية التي أرسلتها إليّ، يا سيدي حتى اشماززت إذ وجدتني موضع إطراء، وإنني لأرفض هذه الهدية البشعة، وإنني لأعتقد أنك بإرسالها إليّ، لم تكن تبغي الإساءة، ولكنك تجهل أو أنك قد نسيت أنني قد تشرفت بأن أكون صديق رجل جدير بكل احترام، ولم يكن يستحق أن يذم وأن يفترى عليه، في هذه المسبة المطبوعة".



ولقد أطلع "دوشين" "ديدرو" على هذه الرسالة فبدلاً من أن يتأثر بها، إذا هو يستاء منها. فما كان لأنانيته أن تغتفر لي التصرف الكريم الذي يكسبني تفوقاً عليه، وقد سمعت أن زوجته راحت تحمل عليّ في كل مكان، في حقد لم يحزني إلا قليلاً؛ إذ كنت أعرف أن الناس جميعاً كانوا يعرفون أنها سليطة!

ولقد وجد "ديدرو" بدوره، منتقماً له في شخص الراهب "موريليه" الذي وضع كتيباً ضد "باليسو"، ولقد قلد فيه "النبي الصغير" وأسماء "الرؤيا"، ولقد أقدم - في تهوّر - على إهانة السيدة "دي روبيك" في كتيبه هذا، فعمل أصدقائها على إلقاءه في سجن "الباستيل" .. أما هي، فلم تكن بطبيعتها شديدة الحقد، كما أنها كانت على شفا الموت إذ ذاك؛ ومن ثم فلسنت أعتقد أنها كانت ذات يد في هذا الانتقام.

ولقد كتب إليّ "داليمبير" - الذي كان وثيق الصلة بالراهب "موريليه" - وسالني أن أرجو

السيدة "دي لوكسمبورج" بأن تشفع له كي يسترد حريته، واعداً بأن يطريها في "الموسوعة"، كرمز لامتنانه. وقد اختفى هذا الخطاب مع عدد آخر من الخطابات، في قصر "دي لوكسمبورج" عندما كانت أوراقي مودعة هناك. وها هو ذا ردي:

"لم أكن أرتقب خطابك ياسيدي، حتى أشهد السيدة، المارشالة "دي لوكسمبورج" على الألم الذي يكيدني سجن الراهب "موريليه". فهي تعرف الاهتمام الذي لديّ نحو هذه المسألة، وسوف تعرف كذلك الاهتمام الذي تبديه نحوها وسيكفيها ذلك لكي تهتم بالأمر بنفسها، وتعرف أنه رجل كفء.

"وفوق ذلك، فبالرغم من أنها والسيد المارشال يشرفاني بكرم هو عزاء حياتي، وبالرغم من أن اسم صديقك (١) يعتبر - لديها - توصية في صالح الراهب "موريليه" إلا أنني أجهل إلى أي مدى يلائمها أن يستغلا، في هذه المناسبة، ما لمكانتهما من نفوذ، وما لشخصيهما من اعتبار، ولست أميل إلى الاعتقاد بأن العمل الانتقامي - في هذا الموضوع - ذو علاقة بالسيدة الأميرة "دي روبيك" بالقدر الذي يلوح في ظنك. بل لو أن الأمر كان كذلك حقاً فخليق ألا نفترض أن لذة الانتقام للنفس، وقف على الفلاسفة وحدهم، وأنهم إذا اختاروا أن يكونوا نساء كان على النساء أن يصبحن فلاسفة! "ولسوف أوفيك بما ستقوله لي السيدة "دي لوكسمبورج" عندما أطلعها على رسالتك. وفي الانتظار اعتقد أنني من المعرفة بها بالدرجة التي تمكنني من أن أطمئنك مقدماً بأنها إذا استطابت أن تساهم في إطلاق سراح الراهب "موريليه" فإنها - بقينا - نأبى أن تقبل رمز الامتنان الذي تعد بأن تؤثرها به في "الموسوعة"، بالرغم من أنها قد تشعر بأن في هذا العمل تكريماً لها.. لأنها لا تبذل الخير طمعاً في الثناء، وإنما لترضي قلبها الطيب فحسب".

ولم أدر شيئاً في استشارة حماسة السيدة "دي لوكسمبورج" وعطفها في سبيل السجين البائس، واستطعت أن أوفق في ذلك فقد قامت برحلة إلى "فرساي"، خصيصاً لتقابل السيد الكونت "دي سان - فلورنتان"، وقد أدت هذه الرحلة إلى تقصير أمد إقامتها في "مونفورنسي"، التي اضطر السيدة المارشال إلى مبارحتها - في الوقت ذاته - ليذهب إلى "روان"، حيث أوفده الملك كحاكم لـ "نورماندي"، من جراء بعض حركات من البرلمان أريد إحباطها، وها هو ذا الخطاب الذي كتبته لي السيدة "دي لوكسمبورج"، غداة اليوم التالي لرحيلها:

(الملف "د" - رقم ٢٣).

"فرساي": يوم الأربعاء.

"سافر السيد "دي لوكسمبورج" في الساعة السادسة من صباح أمس، ولست أدري ما إذا كنت سألحق به. إنني في انتظار أنباءه؛ لأنه هو نفسه لا يدري كم من الوقت سيقضيه هناك.

"لقد قابلت السيد "دي سان - فلورنتان" الذي وجدت عنده أشد الميل إلى مساعدة الراهب "موريليه"، بيد أنه يلقى - في ذلك - عقبات، يرجو أن يذللها وينتصر عليها في أول مرة يحظى فيها بلقاء الملك، وسيكون ذلك في الأسبوع المقبل.

ولقد سألته صنيعاً آخر ذلك هو ألا ينفي الراهب؛ لأن هذا كان موضع دراسة، وكان من المراد إقصاؤه إلى "نانسي".

(١) يقصد "روسو" - بهذا التعبير - نفسه.

"هذا هو، يا سيدي، ما استطعت أن أصل إليه، ولكنني أعدك بالأأدع للسيد "دي مان - فلورنتان" سبيلا إلى الراحة إلا بعد أن تنتهي المسألة وفق ما تشتهي .
والآن، تعال أقل لك أي حزن أعانيه لفراقك بهذه العجلة، ولكنني أعلل نفسي بأنك لا ترتاب في ذلك!

"إنني أحبك من كل قلبي، وطيلة حياتي".
وبعد بضعة أيام تلقيت هذه الرسالة القصيرة من "داليمبير"، فبعثت في نفسي فرحة صادقة:

"غادر الراهب "الباستيل" بفضل عنايتك، يافيلسوفي العزيز، ولن تكون لسجنه معقيات بعد ذلك. ولقد سافر إلى الريف، وهو يبعث - كما أبعث أنا أيضا - إليك ألف شكر وتحية. ولك تقديري وودي".

كذلك كتب لي الراهب - بعد بضعة أيام - رسالة شكر (الملف "د" رقم ٢٩)، لم يبد لي فيها أثر من شعور قلبي، بل لقد لاح فيها أنه كان يهون - إلى حد ما - من قيمة الخدمة التي أدتها له، وبعد زمن قصير تبين أنه و"داليمبير" قد جفياي - ولن أقول قد اقتلعاني ليحلا محلي - في الخطوة لدى السيدة "دي لوكسمبورج"، وأنني فقدت من تقديرها، بقدر ما كسبها. على أنني جد بعيد عن أن أرتاب في أن الراهب "موريليه" قد ساهم في الخط من قدرتي، فإني أجله عن ذلك. أما السيد "داليمبير"، فليس لدي ما أقوله عنه هنا، وسأتكلم عنه فيما بعد.



وكانت لدي - في ذلك الوقت بالذات - مسألة أخرى. أدت إلى آخر خطاب كتبته إلى السيد "فولتير". . . وكان خطابا أطلق من جرائه الصرخات مدوية، معلنا أنه إهانة له منكرة، ولكنه لم يطلع مخلوقا عليه قط. ولسوف أورد هنا.

ذلك أن الراهب "تروبلية" - الذي كنت على معرفة بسيطة به، والذي لم أره إلا نادرا - كتب إلي في ١٣ يونيو سنة ١٧٦٠، (الملف "د" - رقم ١١)، لينبئني بأن السيد "فورمي" - صديقه ومراسله - قد طبع في يومياته رسالتي إلى السيد "دي فولتير"، عن نكبة "لشبون". وقد أراد الراهب "تروبلية" أن يعرف كيف تسنى هذا النشر، وسألني - بدهائه الجيزوتي - رأيي في إعادة نشر هذه الرسالة، دون أن يريد مصارحتي برأيه هو!

ولما كنت أكره أصحاب المكر كراهية تامة، فإني شكرته - بقدر ما كان يستحق - ولكن في شيء من الجفاء، ولقد لاحظ ذلك، ولكنه لم يردعه عن أن يحاول استدراجي من جديد، في رسالتيين أو ثلاث، حتى تبين كل ما كان يريد أن يعرفه. ولقد أدركت تماما - مهما يكن ما يقوله "تروبلية" - أن "فورمي" لم يكن قد وجد رسالتي إلى السيد "دي فولتير" منشورة، وإنه إنما نشرها بنفسه لأول مرة، وعرفت أنه كاذب لا يخجل، اعتاد - بصراحة - أن يكسب دخلا من وراء مؤلفات غيره، وإن لم يكن قد جرؤ بعد على الوقاحة المذهلة، وأعني بها حذف اسم المؤلف من كتاب سبق نشره؛ ليضع هو اسمه عليه، ويبيعه لمنفعته الخاصة (١).

ولكن، كيف تسنى لذلك الخطاب أن يصل إلى يديه؟ .. هذه هي المسألة، التي لم تكن

مستعصية الحل، وإن كنت من السذاجة بحيث حرت في أمرها. فبالرغم من أن "فولتير" كان قد نال تكريماً ضافياً في هذا الخطاب إلا أنه كان على حق في أن يشكو - بالرغم من مسئلة النابي - لو أنني كنت قد نشرت الخطاب بدون موافقته؛ ومن ثم فقد رأيت أن أكتب إليه بهذا الشأن، وهاكم هذا الخطاب الثاني الذي لم يرد عليه إطلاقاً، والذي تظاهر بالهياج - حتى الجنون - من جرائه، كي ينطلق في فظاعته بكثير من التححرر.

"مومورنسي" ١٧ يونيو سنة ١٧٦٠.

"ما ظننت قط ياسيدي، أنني ساجد نفسي على تكاتب معك ثانية. ولكني - إذ علمت أن الخطاب الذي كتبتك إليك في سنة ١٧٥٦ - قد طبع في "برلين" وجدت من الواجب أن أطلعك على تصرفي في هذا الصدد، وأني لأؤدى هذا الواجب بصدق وبساطة.

"إن هذا الخطاب؛ إذ وجه إليك حقاً لم يكن مقدراً له أن يطبع، وما أفضيت بمحتوياته - بقيود اشترطتها - إلا لثلاثة أشخاص، لم يكن حقوق الصداقة لتبيح لي أو عليهم شيئاً من هذا القبيل، كما أن حقوق الصداقة هذه بالذات، لا تسمح لهم أن يستيوا استغلال الأمانة، بأن ينتهكوا عهدهم.. هؤلاء الأشخاص الثلاثة هم: السيدة "دي شينونسو" - زوجة ابن السيدة "دوبان" - والسيدة الكونتيسة "دودويتو"، وألماني يدعى "جرم" ولقد كانت السيدة "دي شينونسو" تواقاً إلى أن يطبع هذا الخطاب، وسألتني أن أوافق على ذلك، وقد قلت لها: إن هذا يتوقف على موافقتك أنت، وقد سألتك ذلك بنفسها فاجبت أنت بالرفض، ولم تثر المسألة بعد ذلك.

"على أن السيد الراهب "تروبلية"، الذي لا تربطني به صلة ما كتب إليّ بدافع من عناية مفعمة بالكرم، فذكر أنه تلقى صفحات من يوميات السيد "فورمي" وإذا به يقرأ فيها ذاك الخطاب بالذات، مع كلمة قال فيها المحرر - تحت تاريخ ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٩ - : إنه وجد الخطاب قبل بضعة أسابيع، في مكتبات "برلين"، وأنه لما كان من النشرات التي سرعان ما تختفي دون أي رجاء في عودتها فقد رأى أن من واجبه أن يفرد له مكاناً من يومياته!

"هذا ياسيدي، كل ما عرفته عن الأمر، ومن المحقق جداً، أن هذا الخطاب لم يتسلل إلى سمع أحد - فسي "باريس" - أو لسانه حتى الآن، ومن المؤكد كذلك أن النسخة التي وقعت في يدي السيد "فورمي" - سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة - لا يمكن أن تصل إليه إلا من طريقك أنت، وهو الأمر غير المحتمل. أو من طريق واحد من الأشخاص الثلاثة الذين ذكرت أسماءهم.. وأخيراً، من المؤكد جداً، أن أيّاً من السيدتين لا يمكن أن تقدم على مثل هذه الخيانة للأمانة، وليس بوسعي - من معزلي - أن أصل إلى مزيد من المعرفة في هذا الصدد ولكنك على تراسل مع كثيرين ومن السهل عليك - من طريقهم وبمعونتهم - أن تتعقب المسألة حتى مصدرها الأصلي، إذا رأيت أنها تستحق العناء، وأن تعرف حقيقة الواقعة.

"ولقد ذكر لي السيد الراهب "تروبلية" - في رسالته هذه - أنه يحتفظ بتلك الورقة من اليوميات، وأنه لن يعيرها لأحد بدون رضائي قط، وهذا ما لن يصدر مني قط!.. غير أن هذه النسخة قد لا تكون الوحيدة في "باريس" ورجائي هو ألا يطبع هذا الخطاب هناك، وسأبذل قصارى وسعي من أجل ذلك. على أنني إذا عجزت عن الحيلولة دون طبعه، ونمى إليّ النبا - في الوقت المناسب - فقد أستطيع أن أتمسك بحق الأسبقية؛ وإذ ذاك فلن أتردد في نشره بنفسني، وهذا - كما يبدو لي - مجرد تصرف طبيعي عادل.

"أما ردك عن الخطاب ذاته، فإنني لم أبح به مخلوق، ولك أن تطمئن إلى أنه لن ينشر إطلاقاً دون إذنك، وهو ما لن أكون من الاستهانة بالسري بحيث أسالك إياه؛ لأنني أعلم تمام العلم أن ما يكتبه إنسان لإنسان آخر، ليس مما ينشر على الملأ. أما إذا شئت أن تكتب رداً موجهاً إليّ، بغرض النشر، فإنني أعدك بأن أحقه بأمانة برسالتي، دون أن أعقب عليه بكلمة واحدة.

"إنني لا أحبك إطلاقاً يا سيدي، ولكنك وجهت إليّ من الإساءات، ما لا أملك سوى أن أشعر بأبلغ الملام بسببها.. أنا تلميذك، وأشد المعجبين تحمساً لك!.. لقد أضعت "جنيف" جزءاً لها ما لقيته منها من إيواء.. ولقد نفرت مني أبناء وطني، في مقابل الشاء الذي أضفيتها عليك لديهم أنك أنت الذي جعلت حياتي في وطني ومسقط رأسي أمراً لا أطيقه!.. إنك أنت الذي ستضطرني إلى أن أموت على أرض أجنبية - محروماً من كل ما يحتاج للمحتضرين من تسرية ومواساة - وألا ألقى من التكريم أكثر من أن ألقى في حمأة.. بينما ترافقك في وطني كل آيات التكريم التي يحق لإنسان أن يطعم فيها!.. إنني - بإيجاز - أكرهك، وما دمت رغبته في هذا!.. ولكنني أكرهك كرجل لا يزال خليفاً بأن يحبك، إذا كنت ترغب في ذلك. إن العاطفة الوحيدة التي تبقى - من كل الأحاسيس التي يزرعها قلبي نحوك - فهي عاطفة الإعجاب الذي لا يمكن للمرء أن يباه على عبقريتك البديعة، والحب لما تكتب، وإذا كنت لا أقوى على أن أكرم فيك سوى مواهبك فليس هذا ذنب، ولن يعوزني قط الاحترام الواجب نحو هذه المواهب، ولا السلوك الذي تتطلبه.

"وداعاً يا سيدي"

تنبيه: يلاحظ أن هذا الخطاب وإن كتب منذ حوالي سبع سنوات إلا أنني لم أتحدث عنه إلى نفس حية، ولا أطلعت عليه أحداً، وكذلك كان شأن الخطابين اللذين اضطرني السيد "هيوم" إلى أن أكتبهما له في الصيف الماضي، حتى أثار الضجة - التي يعرفها كل امرئ - بشأنهما. إن السوء الذي اضطر إلى أن أقوله لأعدائي، إنما أوجهه إليهم فيما بيننا. أما الخير - إذا وجد شيء منه - فإنني أقوله علانية وبقلب سليم.

وفي غمرة هذه المشاحنات الأدبية الطفيفة، التي لم تزدني إلا إصراراً على عزمي، قدر لي أن أتلقى أعظم تكريم أسدته إليّ مهنة الأدب.. التكريم الذي كنت أشد اعتزازاً به مني بأي شيء آخر. وقد تمثل هذا التكريم في تنازل السيد الأمير "دي كونتي" بزيارتي مرتين، إحداهما في "القصر الصغير"، والآخرى في "مون - لوي"، ولقد اختار في كل من المرتين - على السواء - للفترة التي لم تكن فيها السيدة "دي لوكسمبورج". في "مونورنسي"؛ حتى يكون أكثر إظهاراً؛ لأنه إنما كان قادماً من أجلي، وما ارتبت يوماً في أنني إنما كنت مديناً بأولى مكارم هذا الأمير، إلى السيدة "دي لوكسمبورج"، وإلى السيدة "دي يوفليير". غير أنني لا أرتاب كذلك في أنني مدين بالعطف الذي لم يكف قط - منذ ذلك الحين - عن أن يشرفني به، إلى مشاعري الخاصة، وإلى نفسي.

تنبيه: لاحظوا إصرار هذه التقية العمياء، الغبية على البقاء في غمرة كل الإساءات التي كانت كفيلاً بأن تجعلني أسوء الظن بها. ولكنها لم تختف إلا بعد عودتي إلى "باريس" في سنة ١٧٧٠.

ولما كان مسكني في "مون - لوي" جد صغير، وموقع الأيكة جميل، فقد أخذت الأمير إليها؛ إذا به - لكي يتوج أفضاله - يرغب في أن يشرفني بأن يلعب دوراً في الشطرنج معي، وكنت أعرف أن بوسعه أن يهزم الشيفالييه "لورينزي" الذي كان أمهر مني لعباً. على أنني كسبت الدورين اللذين

لعبتهما، بالرغم من إشارات وغمزات الشيفالييه وأولئك الذين كانوا حضورا، فقد تظاهرت بأنني لم أكن أراها، وعندما انتهينا قلت له في لهجة جادة، مفعمة بالاحترام: "مولاي، إنني أوقر سمعك في خشوع يفوق أي تورع عن كسبك في الشطرخ دائما". .. فشر هذا الأمير العظيم - النابه، المطلع، الذي كان اهلا لأن يابي التملق، أو هكذا ظننت، على الأقل - أنني الوحيد بين الحضور، الذي عامله كإنسان، ولدي كل ما يجعلني أعتقد أنه شعر بامتنان حقيقي نحوي لذلك!

ولو أنني علمت عنه أنه استاء مني لما أنبت نفسي على أنني لم أرض بأن أخدعه في شيء، ولست أجد - يقينا - ما يحملني على أن ألوم نفسي على أنني أسأت - في قلبي - تقبل أفضاله، وإن كنت قد فعلت ذلك أحيانا حقا، في حين أنه كان يبدي رقة لا حد لها في مسلكه نحوي، ولقد أرسل إلي بعد أيام قلائل سلة مليئة بطيور القنص؛ فتقبلتها بقبول سليم، وما لبث - بعد ذلك بفترة - أن أرسل إلي سلة أخرى، مصحوبة برقعة من أحد حراس صيده، كتبت بإملاء منه؛ ليخبرني بأن محتويات السلة من الطيور التي أصيبت بيد صاحب السمو نفسه، ولقد تقبلتها ولكنني كتبت إلى السيدة "دي بوفليير"، أنبشها بأنني لن أتقبل مزيدا من هذه الهدايا، وقد جلب علي هذا الخطاب لوما عاما، كنت أستحقه؛ فإن رفض هدايا الصيد من أمير من الأسرة المالكة، يبدي - إلى جانب ذلك - في إهدائها كل لطف، إنما ينم عن فظاظة من شخص سيئ النشأة، ينسى نفسه، أكثر مما ينم عن شعور مرهف من رجل ذي كرامة وكبرياء، يرغب في أن يحتفظ باستقلاله. وما قرأت قط هذا الخطاب إلا تضرع وجهي خجلا منه، وإلا أنبت نفسي على كتابته.

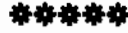
على أنني لم أقدم على كتابة اعترافاتي؛ لكي أسكت متكتما حماقاتي، وإن الواقعة الراهنة لملؤني اشمئزا من نفسي، إلى درجة تفوق كل ما يمكن أن يغريني على تكتمتها! وإذا كنت لم أضف إلى ذلك حماقة جديدة بأن أغدو منافسا له فإنني كنت جد قريب من أن أفعل هذا؛ إذ إن السيدة "دي بوفليير"، كانت - في ذلك الوقت - مازال عشيقته، ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك، وكانت تفد لزيارتي كثيرا، في صحبة الشيفالييه "دي لورينزي"، وكانت جميلة، ما تزال في شبابها، وكانت تعجب بالفكر الروماني، في حين أنني كنت دائما مولعا بالخيال الشعري، وكان في هذا تشابه كاف. ولقد كدت أفصح نفسي، وأعتقد أنها نحت ذلك، وكذلك لاحظته الشيفالييه، فقد حدثني بصده - على الأقل - بطريقة لم ترم إلى تشبيط عاطفتي!

ولكنني كنت في هذه المرة حكيما، وكان الزمن يستدعي ذلك؛ إذ إنني كنت في الخمسين من عمري، ولما كنت مفعم النفس بالنصيحة التي أسداها إلي الشيب في رسالتي إلى "داليمبر" فقد خجلت من ألا أفيد منها، وإلى جانب ذلك فإنني - بعد أن علمت كل ما لم أكن أعلم من قبل - كنت خليقا بأن أكون قد فقدت صوابي تماما، لو أنني جرؤت على أن أصبو إلى منافسة غريم في مثل تلك المكانة الرفيعة.

وأخيرا فإنني على ما يبدو لم أكن قد شفيت تماما من هوى السيدة "دوديتو"، فكنت أحس بأنه ما من شيء بعد هذا الهوى يمكن أن يحتل محله من قلبي، وودعت الحب ما بقي من عمري.

لقد تلقيت - قبيل اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور - ملاطفات خطيرة، من شابة لها أغراض لدي، وقد كانت ملاطفاتها مصحوبة بنظرات زاخرة بالمعاني، ولكن .. إذا كانت تظاهرن بفسيان سني عمري الخمسين فإن من واجبي أن أذكرها! .. وبعد أن انتزعت نفسي من فخها، لم يعد يساورني أي خوف من الوقوع، بل إنني لأشعر بأن في وسعي أن أثق بنفسي - في هذا الصدد - بقية عمري!

ولقد لاحظت السيدة "دي بوفليير" الانفعال الذي بعثه وجودها في نفسي، وكان بوسعها أن تلاحظ كذلك أنني قد انتصرت عليه. إنني لست من الطيش، ولا من الغرور، بحيث أعتقد أنني - في هذه السن - أثير في نفسها أي ميل نحوي، ولكني - على ضوء بعض عبارات استخدمتها في حديثها إلى "تيريز" - أعتقد أنني أثرت نوعاً من الشعور الفضولي في نفسها. فإذا صح هذا، وإذا لم تكن قد صفحت عني لأنني لم أرض هذا الفضول فجدير بي أن أقرباً أنني خلقت لأكون ضحية عيوبي وضعفي مادام الحب المظفر مصدر تعاسة لي، والحب المهزوم مصدر تعاسة أكبر!



هنا تنتهي مجموعة الرسائل التي كانت بمثابة دليل لي في هذين الجزئين، ومنذ الآن، لن يكون لي سوى أن أقفوا آثار ذكرياتي لكنها - في هذه المرحلة قاسية - مازال باقية، كما أن طابعها ما يزال قويا، حتى أنني أراني عاجزاً - رغم ضياعها في بحر التعاسات البالغة - عن أن أنسى دقائق أول غرق منيت به سفينتي، بالرغم من أن ما بعده، لا يوفر لي سوى ذكريات مرتبكة، غير واضحة المعالم. وهكذا استطيع السير في كراستي التالية وأنا مازال كثير الاطمئنان إلى مواقع قدمي.. فإذا اشتط بي الناي فلن يكون هذا مدعاة لأي عجب!

الكرامة الحادية عشرة

سنة ١٧٦١

ومع أن قصة "جولي" -التي استغرقت طباعتها أمدا طويلا- لم تكن قد ظهرت بعد حتى نهاية سنة ١٧٦٠، إلا أنها كانت قد شرعت تثير ضجة كبرى. فإن السيدة "دي لوكسمبورج" راحت تتحدث عنها في البلاط، كما أن السيدة "دوديتو" كانت تتحدث عنها في "باريس". بل إن هذه الأخيرة استأذنتني، باسم "سان-لامبير" -في قراءة القصة- من النسخة المخطوطة -على ملك "بولندا"، الذي فتن بها. وعمد "ديكلو" -الذي كنت قد سمحت بقراءتها عليه - إلى الحديث عنها في المجمع "الأكاديمية". فكانت "باريس" بأسرها تتحرق شوقا في انتظار هذه القصة، وحوصرت متاجر الكتب في شارع "سان جاك" و"باليه رويال" بالناس الذين كانوا يتسائلون عن أنبائها! وظهرت أخيرا، فكان نجاحها الحارق متمشيا مع الشوق الذي كانت ترتقب به! (١).

وتحدثت السيدة زوجة ولي العهد -التي كانت من أوائل من اطلعوا عليها- إلى السيدة "دي لوكسمبورج" عنها، فوصفتها بأنها مؤلف يسلب الالباب. ولقد انقسمت الآراء بين أهل الادب. أما لدى الجمهور، فلم يكن ثمة سوى رأي واحد..

وافتننت النساء -بوجه خاص- بالكتاب والمؤلف، إلى حد أنه لم يكن بينهن من لم يكن في وسعي أن أغزو قلوبهن، لو أنني شئت، سوى القليلات.. حتى في الأوساط الراقية!.. ولدي على ذلك أدلة لا أبغي نشرها ولكنها تؤيد قلبي، دون ما حاجة إلى ذلك. ومن العجيب أن هذا الكتاب كان أكثر نجاحا في "فرنسا" منه في بقية "أوروبا"، بالرغم من أن الفرنسيين -رجالا ونساء- لم يجدوا مني معاملة طيبة جدا فيه. ولقد كانت ضالة نجاحه في "سويسرا"، وعظم نجاحه في "باريس"، مناقضين لكل ما توقعت. فهل كانت الصداقة، والحب، والفضيلة، أكثر سلطانا في "باريس" منها في أي مكان آخر؟! لا، بلا شك، وإنما كان لايزال يغلب عليها ذلك الشعور العارم، الذي ينتشي به القلب، عندما تصور له الأحاسيس النقية، الناعمة، الفاضلة.. والذي يحدونا إلى أن نعزز بما لدى الغير من هذه الأحاسيس التي لم يعد لدينا منها شيء!.. إن الفساد يشيع اليوم في كل مكان، فلا وجود لاخلاق، ولا لفضيلة في "أوروبا". فإذا قدر أن يكون ثمة حب باق لها، فإن "باريس" هي المكان الذي يجب أن نبحت عنه فيه (٢).

وفي غمرة هذه الأباطيل والثرهات العاطفية، كان لابد من الإلمام بتحليل القلب البشري تحليلا صحيحا، حتى لا يخلط المرء الأحاسيس الفطرية الصادقة بها. كان لابد -للشعور بالعواطف القلبية المرهفة التي اشتمل عليها هذا الكتاب- من رقة ولباقة لا تتوفران إلا بالاتصال بالمجتمع الراقى، إذا جاز لي أن أقول هذا. وإني لأشبه الجزء الرابع من هذا المؤلف بكتاب "أميرة كليف"، دون مسا تورع.. وأؤكد أن هذين الكتابين ما كانت قيمتهما لتتجلى، لو أن قراءتهما اقتصرتا على الأقاليم وحدها. لذلك فلا عجب من أن أعظم نجاح ظفرت به "جولي" كان في البلاط الملكي. فقد أثارت هناك أهواء عارمة -ولكنها مستترة- كانت خليقة بأن تحظى بالإعجاب، لأن أفراد الحاشية كانوا على دراسة ومران

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "كانت النسخة توزع للقراءة بالثني عشر "سو" في الساعة، في الأيام الأولى لظهور الكتاب. (٢) أضاف "روسو" في هامش كتابه: "كتب هذا في سنة ١٧٦٩".

بأن يستشفوا ما وراءها. على أنه لابد من الإشارة هنا إلى مفارقة ظاهرة: تلك هي أن مطالعة هذا النوع من المؤلفات، لا يلائم -يقينا- أولئك الأذكياء الذين لا يتجه ذكاؤهم إلا إلى المكر، والذين لم يؤتوا من الألعية إلا ما يمكنهم من أن يكتشفوا السوء.. والذين لا يبصرون شيئا على الإطلاق، حيث لا يتبدى للابصار سوى كل ما هو طيب وحسن!.. فلو أن "جولي" نشرت في بلد معين يخطر ببالي -مثلا- لما أقبل أحد على قراءتها حتى نهايتها، ولما ت في يوم مولدها!

ولقد جمعت معظم الرسائل التي كتبت إلي عن هذا المؤلف، في حزمة عهدت بها إلى السيدة "دي نادياك" (١). فإذا قدر لهذه المجموعة أن ترى النور، فإنها ستكشف عن كثير من الغرائب، وعن تناقض في الرأي، يبين ما يلقيه المرء إذا ما تعرض لمسألة تهم الرأي العام. على أن أقل ما فطن إليه القوم، هو عين الميزة التي ستجعل هذا المؤلف فريدا في نوعه دائما، ميزة بساطة الموضوع، وتسلسل السياق، الذي اقتصر على ثلاثة أشخاص، وتتابع في ستة مجلدات دون ما استعانة بأحداث، أو مغامرات خيالية، أو شواثب من أي نوع، سواء فيما يتعلق بأبطال القصة أو بتصرفاتهم!.. وكان "ديدرو" قد أطرى "ريتشاردسن" (٢) كثيرا، للتنوع الهائل الذي تجلى في مواقف قصته، ولتعدد الشخصيات التي قدمها وليس من شك في أن "ريتشاردسن" كان موفقا إذ خلع على تلك الشخصيات كل الصفات المميزة. على أنه عمد -فيما يتعلق بصدها- إلى ما هو شائع لدى القاصصين غير الناضجين، الذين يتسترون على تفاهة أفكارهم بزحمة الشخصيات والوقائع. إذ إن من السهل استثارة الاهتمام، بتقديم سبل لا انقطاع له من الأحداث العجيبة والوجوه المستحدثة، التي تتوالى وكأنها أطيايف مصباح سحري.. ولكن استبقاء هذا الاهتمام على الدوام، بنفس الأشياء، ودون ما وقائع غريبة مذهشة، أمر بالغ المشقة!.. وعندما تتساوى جميع الاعتبارات، نجد أن بساطة الموضوع تضاعف من جمال الكتاب.. ومن هنا نرى أن قصص "ريتشاردسن"، وإن تفوقت في كثير من الاعتبارات، إلا أنها لا تقاس، من هذه الناحية، بقصتي. وإذا كانت هذه قد ماتت -وإنني لأدرك هذا، وأعرف السبب- إلا أنها لن تلبث أن تبعث من جديد!

وما كنت أخشى سوى أن يكون تطور القصة مملا، بحكم بساطته، وأن أكون قد عجزت عن توفير قدر كاف من الاهتمام، يظل مستمرا حتى نهايتها، ولكني لم أثبت أن اطمأننت، بفضل واقعة هزت مشاعري، أكثر مما هزتها جميع التهاني والمديح التي اجتلبها علي هذا الكتاب:

ذلك أن القصة ظهرت في بداية أعياد المرافع "الكرنفال". فحملها أحد الباعة المتجولين إلى السيدة الأميرة "دي تالمون" (٣)، في أحد الأيام التي أقيمت بها الحفلات الراقصة بدار "الأوبرا". وبعد أن تناولت السيدة العشاء، ارتدت ثيابها تاهبا للذهاب إلى الحفلة. حتى إذا اضطرت إلى الانتظار ساعة، عمدت إلى قراءة القصة الجديدة، وعند منتصف الليل، أمرت بأن تشد الجياد إلى عربتها، ثم واصلت القراءة. وأقبل من أعلنها بأن العربة معدة، ولكنها لم تجب. وإذا رأى خدما أنها قد نسيت نفسها، أقبلوا ينبهونها إلى أن الساعة بلغت الثانية صباحا. فقالت وهي مسترسلة في القراءة: "لا داعي بعد للعجلة!". وبعد فترة، تبين أن ساعتها كانت قد توقفت عن العمل، فدقت الجرس لتستعلم عن الوقت، فقيل لها: إن الساعة كانت الرابعة. فقالت: "إذن فالوقت جد متأخر، ولا سبيل إلى الذهاب

(١) كانت السيدة "دي نادياك" رئيسة لدبر "جوسيف فونتان"، الذي كان يضم بينمات مدينة "روان"، والذي كان يقع على مقربة من قصر "شانتو دي نير" -سقالة مدينة صور- حيث نزل "روس" فترة من الزمن. وبما يذكر، أن روس كتب قطعة من الموسيقى الدينية. بوحى من هذه السيدة، ولا تزال النسخة الخطية لهذه القطعة مودعة في المكتبة الملكية. بالمتحف الفرنسي. (٢) "ريتشاردسن" مؤلف "أميرة كليف" التي يقيمها روس بقصته "جولي". (٣) استمدرك "روس" في هامش كتابه قائلا: "لم تكن هي، وإنما كانت سيدة أخرى، لا أعرف اسمها. بيد أنني تأكدت من الواقعة ذاتها".

إلى المرقص، فاطلقوا الجياد! ". وخلصت ثيابها، ثم قضت بقية الليل في القراءة! ومذ رويت لي هذه الواقعة، أصبحت مشوقا دائما إلى رؤية السيدة "دي تالمون"، لا لكي أعرف منها -بالذات- أن الواقعة صحيحة، فحسب، وإنما لأنني لم أكن أعلم قط أن من الممكن أن يشعر أي شخص بمثل هذا الاهتمام المحتدم نحو "جولي"، دون أن يكون قد أوتي الحاسة السادسة.. حاسة الإدراك الخلفي والأدبي التي لم تحظ بها سوى قلوب قلائل، والتي لا سبيل بدونها إلى فهم قلبي! ولقد كان الأمر الذي جعل النساء يؤثرنني بهذه الدرجة، هو الاعتقاد الذي داخلهن بأنني أودعت الكتاب سيرتي الحقيقية، وأنني بالذات، كنت بطل هذه القصة. ولقد طغى من تغلغل هذا الاعتقاد، أن كتبت السيدة "دي بولينيك" إلى السيدة "دي فرديلان"، لترجوني أن أسمح لها بأن ترى صورة "جولي". فلقد اقتنع الناس جميعا بأن من المستحيل التعبير عن الأحاسيس بهذا الإبداع، دون أن أكون قد شعرت بها.. ولا وصف فورات الحب بهذا الأسلوب المتأجج، ما لم تكن منبعثة من الفؤاد مباشرة. ولقد كان الناس على حق في ذلك، فمن المحقق أنني كتبت هذه القصة وأنا في أشد حالات الجوى استعارا.. على أن من الخطأ الظن بأنه لا بد من مادة واقعية لإحداث هذا اللهب.. كما أن من أبعد الأمور عن الإدراك، تصور مدى الوجد الذي كانت تذكيه في فؤادي مخلوقات خيالية موهومة، ففيما عدا بعض ذكريات قلائل من الصبا، ومن السيدة "دوديتسو"، لم يكن الشوق -الذي كابדתه ووصفته- قائما إلا نحو أطيايف الخيال السابحة في الهواء.

ولم أشأ أن أعز أو أن أهضم خطأ كان في صالحه. ومن الميسور للمرء أن يتبين من المقدمة التي صفتها على شكل حوار، والتي طبعتها على حدة، كيف تركت الرأي العام في شك إزاء هذه النقطة. وقد يقول المتزمتون: إن الواجب كان يقتضي أن أعلن الحقيقة بجلاء تام. على أنني -من ناحيتي- لا أرى التزاما كان يحدوني إلى أن أفعل ذلك، وأعتقد أنني كنت خليقا بأن أبدو غيبا، أكثر مني صريحا، لو أنني أقدمت على هذا البيان، دون ما ضرورة تدعو إليه!



وظهر في ذلك الوقت -تقريبا- "السلام الدائم"، الذي كنت قد عهدت، في العام السابق، بمخطوطه إلى شخص -يدعى السيد "دي باستيد"- كان رئيس تحرير صحيفة تدعى "لوموند"، أي العالم، وقد رغب في أن ينشر كل مخطوطاتي في هذه الصحيفة، رضيت أم لم أرض.. ولقد كان من معارف السيد "ديكلو"، فراح يلح علي باسمه في أن أساعده على ملء صفحات "لوموند". وكان قد سمع عن "جولي"، فأراد أن أنشرها في صحيفته، كما ود لو أنشر فيها "أميل". وكان خليقا بأن يرغب في أن أنشر فيها "العقد الاجتماعي" لو أنه حدس وجوده. فلما ضقت بالحاحه -في النهاية- قررت أن أنزل له عما خرجت به من "السلام الدائم" في مقابل اثني عشر "لوي". وكان الاتفاق بيننا على أن ينشره في صحيفته، ولكنه لم يكده يستولي على المخطوط، حتى رأى أن يطبعه في كتاب مستقل، بعد حذف فقرات منه اقتطعها الرقيب. ترى ما الذي كان خليقا بأن يحدث، لو أنني كنت قد أضفت إلى المخطوط آرائه وتعليقاتي على الكتاب الأصلي؟ إنني لحسن الحظ لم أتحدث عنها إلى السيد "دي باستيد"، ومن ثم فإنها لم تدخل ضمن صفتنا!.. ولا تزال هذه الآراء بين أوراقه، مسجلة بخط اليد. وإذا قدر لها أن تظهر، فسوف يتجلى كم كانت فكاهات "فولثير" وآراؤه المعنودة، في هذا الموضوع، خليقة بأن تضحكني.. أنا الذي أدرك تمام الإدراك مدى ذكاء هذا

المسكين، فيما يتعلق بالأمور السياسية التي جرؤ على أن يقحم نفسه فيها! وفي غمرة نجاحي لدى الرأي العام، والحظوة التي نلتها لدى السيدات، رحت أشعر بأنني كنت أفقد مكانتي في قصر "دي لوكسمبورج"، لا لدى السيد المارشال -الذي كان يبدو أنه راح يضاعف بره بي، وصداقته لي، يوما بعد يوم- وإنما لدى السيدة المارشالة.. فإن مخدعها لم يعد يفتح كثيرا في وجهي، بعد أن لم يعد لدي ما أقرؤه عليها. ومع أنني كنت أتردد على القصر بانتظام بالغ خلال زيارتهما "لمونمورنسي" -إلا أنني أصبحت نادرا ما أراها، في غير أوقات اجتماعنا حول المائدة. بل إن المقعد المجاور لها، لم يعد قاصرا علي وحدي، كما كان العهد من قبل.. وإذ لم تعد السيدة تعرضه علي، وأصبحت تقسط في الحديث إلي، ولم يعد لدي -أنا الآخر- الكثير مما يقال لها، فإنني ارتحمت كثيرا إلى اتخاذ مكان آخر حول المائدة، كنت أشعر فيه بالحرية، لا سيما في المساء، إذ وجدتني أعود -دون أن أفتن- الجلوس على مقربة من السيد المارشال.

وبمناسبة "المساء"، أتذكر أنني قلت: إنني لم أكن أتناول العشاء في القصر. وقد كان هذا صحيحا، في بداية التعارف. على أنه لما كان السيد "دي لوكسمبورج" قد اعتاد ألا يتناول غداء قط، بل ولا حتى أن يظهر حول مائدة الغداء، فقد ترتب على ذلك أنني لم أتناول الطعام معه قط، برغم انقضاء شهور عديدة على تعارفنا، كنت فيها قد الفت التردد على الدار. وكان من الكرم بحيث أشار إلى ذلك، مما دعاني إلى أن أقرر الذهاب لتناول العشاء هناك، في بعض الأحيان التي لا يكون فيها ثمة ضيوف عديدون. وكنت أستمع بذلك كثيرا، إذ إننا كنا قد اعتدنا -تقريبا- تناول الغداء في الهواء الطلق، و"دون ما كلفة" -كما يقال- في حين أن العشاء كان يستغرق وقتا طويلا، لأن الضيوف كانوا ينشدون فيه فرصة الراحة بعد نزهة طويلة على الأقدام.. وكان الطعام جد شهوي، لأن السيد "دي لوكسمبورج" كان أكلوا.. كما كانت المائدة مستحبة، لأن السيدة "دي لوكسمبورج" كانت تقترح الأنخاب، في كثير من الجلال واللفظ الساحرين. وبدون هذا الإيضاح يتعذر إدراك الفقرة التي وردت في ختام إحدى رسائل السيد "دي لوكسمبورج" (الملف "ج" -رقم ٣٦)، إذ قال السيد: إنه كان يشكر نزهاتنا بكثير من السرور، لاسيما حين كنا نعود إلى القصر في المساء، فلا نجد أثرا لعجلات العربات في ساحة القصر. ذلك لأنه لما كانت الرمال -التي يكتسي بها الفناء- لا تسوى إلا في الصباح، فإنني كنت أستطيع أن أحدث من عدد الخطوط التي تخلفها عليها العجلات، عدد الضيوف الذين وصلوا في فترة الاصيل!



ولقد أترعت تلك السنة (١٦٧١) كأس المحن التي حاقت بهذا السيد الكريم منذ كان لي شرف التعرف إليه، وكأنما كانت الشرور التي راح القدر يعددها لي، مسوقة لأن تبدأ بالرجل الذي شعرت نحوه بأصدق الود، والذي كان جديرا بكل ولاء.. ففي العام الأول لتعارفنا، فقد أخته: السيدة الدوقة "دي فيلروي". وفي العام الثاني، فقد أخته السيدة الأميرة "دي روبيك".. وفي الثالث، فجع في ابنه الأورحد -الدوق "دي مونمورنسي" - وفي حفيده الكونت "دي لوكسمبورج"، الوريث الأورحد والأخير للأسرة ولقبها. ولقد تحمل السيد المارشال كل هذه التكببات بجلد باد -في الظاهر- ولكن قلبه ظل -في الخفاء- داميا، ما تبقى من حياته، وراحت صحته تضعحل، وكانت ميتة ابنه -المفجعة، غير المتوقعة- جديرة بأن تكون أشد ناثيرا عليه من كل شيء، إذ إنها حدثت في عين

اللحظة التي كان الملك قد منح فيها ابنه -ووعده بأن يمنح حفيده- الحق في أن يخلفه في قيادة الحرس الخاص. وقدر عليه أن يتعذب برؤية حياة هذا الطفل -حفيده- الذي تركزت فيه كل هذه الآمال، تذوي رويدا أمام عينيه؛ من جراء ما كان لأمه من ثقة عمياء بالطبيب الذي تسبب في وفاته.. فقد مات الطفل لفرط حاجته إلى الغذاء، إذ إنه لم يكن يتغذى على غير العقاقير!

واحسرتاه!.. ليتهم أخذوا برأيي، فلو أنهم فعلوا لظل الجد والحفيد على قيد الحياة!.. فكم قلت وكم كتبت للسيد المارشال.. وكم جلوت الرأي للسيدة "دي مونفورنسي"، بصدد نظام التغذية، الذي كان يتجاوز حدود التقشف، والذي كانت تتبعه نحو ابنها، بسبب ثقتها بالطبيب!.. ومع أن السيدة "دي لوكسمبورج" كانت تشاطرنني الرأي، إلا أنها لم تشأ أن تتدخل في سلطة الأم، كما أن السيد "دي لوكسمبورج" كان لطيفا، لبنا، فلم يشأ أن يعارضها!.. وكانت السيدة "دي مونفورنسي" تكن للطبيب "بورودو" ثقة انتهت بان راح ابنها ضحية لها!.. لشدة ما كان الصغير المسكين يغبط كلما استطاع أن يحصل على إذن بالحضور إلى "مسون-لوي" مع السيدة "دي بوفليير"، إذ كان يطلب إلى "تيريز" بعض الطعام فيودع أمعاءه الخاوية شيئا من الغذاء!.. لكم كنت أرثي -في دخيلتي- لتعاسات العظيمة، كلما رأيت هذا الوريث الاوحد لمثل هذه الشروة الواسعة، ومثل هذا الاسم الرفيع، ومثل هذه الألقاب والرتب الكثيرة، -يلتهم في نهم المتسول كسرة صغيرة، متواضعة، من الخبز!.. على أن الطبيب انتصر على كل ما قلت وفعلت!.. ومات الصغير جوعا!

وهذه الثقة في الدجالين وأدعياء الطب -التي اهلكت الحفيد- هي ذاتها التي حفرت قبر الجد، فضلا عن أنه كان من ضعف العقل، بحيث راح يحاول أن يخفي على نفسه علل الشيخوخة. فلقد كان السيد "دي لوكسمبورج" يعاني -بين آن وآخر- آلاما في الأصبع الكبيرى لقدمه. وقد تعرض -أثناء وجوده في "مونفورنسي"- لنوبة حرمة النوم، وجعلته شبه محموم. وإذا جرؤت على أن اللفظ كلمة "النقرس"، انهالت السيدة "دي لوكسمبورج" علي ثائبا، فقد أعلن وصيف السيد المارشال وجراحه أن مرضه لم يكن من "النقرس" في شيء، وراحا يسبغان على العضو الموجوع بلسما، وهذا الألم -لسوء الحظ- فلما أخذ يعود بعد ذلك، كانوا يلجشون، دون ما تردد، إلى عين الدواء الذي أحدث الراحة وسرى الوجع من قبل!.. وباضمحلال صحة السيد المارشال، أخذت آلامه تزداد، فكانت العقاقير تزداد معها!.. وعندما تبينت السيدة "دي لوكسمبورج" -في النهاية- أن "النقرس" هو الذي كان مصدر الآلام، عارضت هذا العلاج الأخرى. فراحوا يكتمون عنها -بعد ذلك- حاله، حتى مات السيد "دي لوكسمبورج" بعد سنوات قلائل، بفضل خطئه، ومن جراء إصراره على أن يعالج نفسه بنفسه، وفق هواه. ولكن.. ليس لنا أن نمنع في استباق المصائب، فكم لدي من حديث أريد أن أرويه قبل ذلك!



ولقد كان من النحس العجيب حقا، أن كل شيء كنت أقوله أو أفعله، بدا وكأنه مسوق إلى أن يسوء السيدة "دي لوكسمبورج"، ولو كنت في أشد الشوق إلى أن أحتفظ برضاها!.. ولم تكن الآلام التي احتملها السيد "دي لوكسمبورج" -من الصدمات التي تعاقبت عليه- تزيدني إلا تعلقا

به، وبالتالي، بالسيدة "دي لوكسمبورج"، إذ كانا يبديان دواما صادقي الاتحاد إلى درجة أن العواطف التي تخالج المرء نحو أحدهما، كانت تمتد بطبيعة الوضع إلى الآخر!.. ولقد راحت الشيخوخة تثقل كاهل السيد المارشال. كان حضوره المتواصل في البلاط الملكي، والواجبات التي يتطلبها ذلك، ورحلات الصيد المتتالية، والإرهاق الذي كان يترتب على الخدمة خلال فصل الصيد، كل هذه كانت تتطلب قوة الشباب، ولم أكن أرى ثمة وسيلة تمكنه من القوة التي يتطلبها منصبه وإذا لم يكن ثمة من أن توزع رتبة على الغير، وأن ينطفئ بريق اسمه بعد موته - لعدم وجود وريث له - فلم يكن هناك ما يدعوه إلى أن يستمر في حياة عملية مرهقة، كانت الغاية الرئيسية منها هي أن يستبقي لابنائه ما كان له من حظوة لدى العاهل!

وفي أحد الأيام، كنا نحن الثلاثة معا، ولا غريب بيننا، وقد راح السيد المارشال يشكو من متاعب واجباته في البلاط، بروح الرجل الذي ثببت المصائب عزمته. فجزوت على أن أحدثه عن التقاعد، وأزجيت إليه النصيحة التي قدمها "سينياس" إلى "بيروس" (١). فتنهد ولم يجب برأي قاطع. ولكن السيدة "دي لوكسمبورج" راحت - في أول لحظة رأتني فيها على حدة - تلومني في عنف على نصيحتي التي أزعجتها.. على ما بدا لي. وأضافت إلى ذلك إشارة لم ألبث أن شعرت بعذتها، ولم تلبث أن حولتني عن فكرة العودة ثانية إلى هذا الموضوع.. تلك هي أن اعتياد العيش في البلاط الملكي طويلا، أصبح ضرورة لا غنى عنها. بل إنه كان - حتى في تلك الظروف - ملهاة تصرف بال السيد "دي لوكسمبورج" عن همومه، وأن اعتزال البلاط - الذي نصحته به - لن يكون مبعث راحة واستجمام له، بقدر ما يكون إقصاء ونفيا!.. ولن يلبث الخمول، والملل، والحزن أن يضعا لحياته نهاية!.. ومع أنها رأت ولا بد أنها قد اقنعتني، ومع أنها كانت تستطيع أن تركز إلى الوعد الذي قطعته لها، والذي ظلمت أصونه، فقد لاح لي أنها لم تطمئن يوما من هذه الناحية. وإني لأذكر أن اختلائي بالسيد المارشال أصبح - منذ ذلك الحين - نادرا، وكانت خلواتنا تتعرض باستمرار لما يقطع علينا حبلا!

وفي الوقت الذي تعاونت فيه بلاهاتي ونحسي على الإساءة إلي - لدى السيدة - لم يكن هناك من يشفع لي لديها، ممن كانت تؤثرهم بمقابلاتها ومودتها.. لا سيما الراهب "دي بوفليير" الذي أوتي أكثر قسط من الذكاء يتاح لشباب في سنه، والذي لم يكن يميل إلي البتة!.. ولم يقتصر أمره على أنه كان الوحيد - في حاشية السيدة المارشالة - الذي لم يكن يبدي اتفه احتفاء بي، على الإطلاق، بل إنني لاحظت - في كل زيارة يؤديها إلى "مونمورنسي" - أنني كنت أفقد شيئا من حظوتي لدى السيدة. على أنه من المحقق أن من الصحيح أن مجرد وجوده كان كافيا لأن يؤدي إلى ذلك، دون أي تعمد من ناحيته.. فإن سخافاتني كانت تبدو معتمة، ثقيلة، إلى جانب غماته المتسمة بالجلال، وبسمو الروح. ولقد كانت زيارته لـ "مونمورنسي" نادرة، خلال العامين الأولين، وكنت بفضل تسامح السيدة المارشالة، قادرا على أن أحتفظ بمكانتي، ولكنه لم يكذب بزيادة انتظاما في زيارته، حتى وجدني مقصيا عن هذه المكانة، دون ما أمل في استعادتها!

ولقد كنت على استعداد لأن أنطوي تحت جناحه، وأن أتخذ الوضع الذي يحمله على مصادفتي، لولا أن خرج موقفني - الذي جعل من رضاه عني ضرورة لازمة لي - كان هو عين السبب الذي منعتني من أن أكسب هذا الرضا وإذا كل ما رحمت أبذل في هذا الصدد، يطيش فيؤدي إلى القضاء على ما

(١) كان "بيروس" ملكا على "إبيروس" بين سنتي ٣١٨ و ٣٧٢ قبل الميلاد، وقد غزا "إيطاليا" قبل وفاته بثمانين سنوات، ومع أنه هزم الرومان مرتين، إلا أنه تكبد خسائر جسيمة، وكتب عليه أن ينكسر في النهاية وأن يعود إلى بلاده اليونانية، أما "سينياس" فكان وزيره ومستشاره، وكان الملك يقول إنه يحكمته أكسب من المدن ما لم تكسبه إياها الجيوش. على أن الوزير كان يعارض جموح الملك في مقامه، وقد حاول أن يشبهه عن غزو "إيطاليا" بحدث سجله التاريخ مثالا للنصح البليغ. وهو الذي أشار إليه "روسو".

كان لي من حظوة لدى السيدة "المارشالة"، دون أن يجديني أي نفع في التقرب إليه... وكان في وسعه أن يوفق في كل شيء، بفضل ذكائه، بيد أن عجزه التام عن الاستمرار في الدأب، وميله إلى النزق واللهور، لم يمكنه من أن يكتب سوى حذق غير مكتمل في كل عمل. ولقد أتبع له -على سبيل التعويض- أن يؤدي كثيرا من هذه الأعمال، فكان هذا -في حد ذاته- هو كل ما يلزمه لكي يلمع في المجتمع الراقي، الذي كان يصبو إلى التالق فيه!.. كان يحسن نظم القصائد الصغيرة، ويتقن كتابة الرسائل القصيرة، ويعزف الموسيقى ببعض المهارة، ويرسم هونا ما بالطباشير الملونة. وقد أبدى رغبة في أن يرسم لوحة للسيدة "دي لوكسمبورج"، فجاءت اللوحة بشعة، وقالت السيدة إنها لم تكن تشبهها في شيء، وقد كانت محقة تماما في ذلك. ولقد سالني الراهب الغادر رأيي، فإذا بي -كأي غبي كذاب- أزعج أن اللوحة كانت تشبهها. وكنت بذلك أرجو أن أتملق الراهب، ولكنني لم أتملق السيدة المارشالة، فسجلتها ضدي في قائمة الأخطاء، بينما راح الراهب يضحك مني، بعد أن نجحت خدعته!.. ولقد تعلمت -بفضل نتيجة هذه المحاولة، التي جاءت متأخرة، في الملق والمداهنة- ألا أقدم مختارا على الرباء والتملق، بالرغم من منيرفا(١)!



لقد كانت ميزتي التي فطرت عليها، هي أن أقول للناس حقائق مفيدة، -ولكنها جافة قاسية- في كثير من التحمس والشجاعة. وكان خليقا بي أن أظل على ذلك... إنني لم أخلق قط لكي أطري -ولن أقول: أتملق- الغير. ولقد كان سوء توجيه الإطراء الذي حاولت أن أزجيه، أكثر إيذاء لي من أقسى لوم قدر لي أن أصدره. وإني لأذكر هنا مثالا بلغ من فظاعته أن عواقبه لم تغير مجرى حياتي فحسب، بل إنها ربما أثرت على سمعتي كذلك، عبر الأجيال!

فلقد اعتاد السيد "دي شوازيل"(٢) أن ينفذ إلى القصر لتناول العشاء، في بعض الأحيان، خلال فترات إقامة السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" في "مونغورنسي". وأقبل ذات يوم، وأنا أغادر القصر. فدار الحديث عني، وروى له السيد "دي لوكسمبورج" قصتي في "البندقية" مع السيد "دي مونتيجي". فقال السيد "دي شوازيل": إنه كان من الخسارة حقا أن هجرت العمل الديبلوماسي، وإنني إذا رغبت في العودة إلى هذا العمل، فلن يجد ما يسره أكثر من أن يستخدمني. وأبلغني السيد "دي لوكسمبورج" بالأمر، فتأثرت به أكثر مما ينبغي، إذ إنني لم أعتد أن ألقى من الوزراء أية معاملة. وليس بوسعي أن أجزم بأنني لم أكن على استعداد لأن أجعل من نفسي أحق، مرة أخرى -بالرغم من قراراتي السابقة- لو أن صحتي كانت تتيح لي أن أفكر في الأمر.

إن الطموح لم يعتد أن يتملكني، إلا في الفترات الموجزة التي كانت كل الشهوات الأخرى تفارقني خلالها. ولكن فترة واحدة من هذه الفترات، كانت كفيلة بأن تذكي عواطفني مرة أخرى. ومن ثم فإن هذه النية الكريمة من السيد "دي شوازيل"، ملكت علي شعوري، ودعمت التقدير الذي كانت بعض أعماله الوزارية قد حملتني على أن أكنه له. فقد كان "حلف الأسرة" بالذات، يبدو -في نظري- دليلا على أن الرجل كان سياسيا من ساسة الصف الأول(٣).

(١) بالرغم من منيرفا: مثل اصطلاح عليه، في الحديث عن بصر على عمل لم يؤت موجهة تمكنه من إتقانه، وكان يطلق أصلا على الشاعر الذي يمارس النظم وإن لم يؤت ملكة الشعر. (٢) الدوق "أنتين-فرانسوا دي شوازيل"، كان وزيرا للخارجية في عهد "لويس الخامس عشر"، وأبدى براعة في إصلاح النتائج السيئة التي نرتبت على حرب السنوات السبع. وتدبر له فرنسا بكثير من الأفضال العسكرية، والدبلوماسية. وقد عاش بين عامي ١٧١٩ و ١٧٨٥. (٣) حلف الأسرة: معاهدة تحالف عسكري، أبرمت في سنة ١٧٦٦، بين الأسرتين الملكيتين في فرنسا وأسبانيا، وكانتا تشعيان معا إلى آل بوربون.

وقد ازددت تقديرا له عندما قارنت أعماله بأعمال من سبقوه في المنصب، دون أن استثني منهم السيدة "دي بومبادور" التي كنت اعتبرها بمثابة "رئيس للوزراء" .. وعندما كان يشاع أن واحدا من هذين الاثنين يناجز الآخر العدا، فاعتقد أنني كنت أدعو بالنصر لفرنسا، عندما كنت أدعو بالنصر للسيد "دي شوازيل".

ذلك لأنني كنت أستشعر دائما نفورا من السيدة "دي بومبادور"، حتى عندما رأيتهما -قبل أن يرتفع نجمها- لدى السيدة "ديلابولينير"، وكانت إذ ذاك ماتزال تحمل اسم السيدة "ديتوال". ومنذ ذلك الحين، أحنقني منها صمتها إزاء موضوع "ديدرو" (١)، ومسلكتها نحوي، سواء فيما يتعلق بتمثيلتي "أعياد راهير" (٢) أو "عرائس الشعر اللطاف" (٣) أو أوبرا "عراف القرية" (٤) التي لم تعد علي بأي دخل أو نفع يتناسب مع نجاحتها. ففي كل هذه المناسبات، كنت أجد السيدة "دي بومبادور" قليلة الحرص على أن ترضيني. على أن هذا لم يمنع الشيفالبييه "دي لورنزي" من أن يقترح علي أن أؤلف شيئا في مديح هذه السيدة، في تلك الآونة، موحيا إلي بأن هذا قد يجديني نفعاً. ولقد أثار هذا الاقتراح استنكاري، لاسيما إذ رايت بجلاء أنه لم يكن صادرا عنه شخصيا .. وقد أدركت تماما أن هذا الرجل، الذي لم يكن ذا قيمة -في حد ذاته- لم يكن ليفكر أو يعمل قط، إلا بإيعاز من سواه. ولم أوت قط من القدرة ما يمكنني من كبح نفسي لكي أخفي عنه ازدرائي لاقتراحه .. أو لكي أخفي عن أي أمرئ آخر عدم ميلي إلى الخطوة الموعودة. ولقد أدركت هي ذلك، وإني لموقن من ذلك .. كل هذه الاعتبارات وحدث بين مصلحتي الذاتية، وميولي الطبيعية، في الادعيات التي كنت أرجو فيها النجاح للسيد "دي شوازيل" .. وكنت قد شعرت -قبل ذلك- بتحبيز لمقدراته ومواهبه، التي كانت كل ما أعرفه عنه .. كما إنني كنت مفعما بالعرفان لما أبداه نحوي من نوايا طيبة، جاهلا -في عزلي- بأذواقه ومسالكه في الحياة، ومن ثم فقد رحت أتطلع إليه كأنه المنتقم للجمهور ولي .. ولما كنت -في ذلك الحين- منصرفا إلى وضع الخطوط النهائية في مؤلفي "العقد الاجتماعي"، فإنني وضعت في فقرة واحدة رأيي في الوزارات السابقة، وفي هذه الوزارة أوشكت أن تطغى عليها. ولقد أغفلت -في هذه المناسبة- أكثر مبادئي رسوخا في نفسي، ولم يخطر ببالي أن المرء إذا أراد أن يتحسس في المديح، وفي اللوم، في مقال واحد -دون أن يورد أسماء- فمن الواجب أن يقصر المديح على أولئك الذين يقصدهم به، بأسلوب لا يجعل مجالا لأشد النفوس انانية، لأن تسيء فهمه. ولقد كنت من الحماسة بحيث ظننتني في مأمن من هذا، فلم يخطر ببالي قط أن من الممكن تأويل ما قصدت إليه. ولسوف يتجلى فيما بعد ما إذا كنت قد أصبت!

ومن مظاهر سوء طالعني، أنني كنت دائما على اتصال ببعض الكتابيات من النساء. وقد خلت أنني لن ألث أن أتفادى ذلك، بعلاقاتي بسيدات الطبقة الراقية على الأقل. ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن حظي ظل يلاحقني. ومع أن السيدة "دي لوكسمبورج" لم تتعرض قط لهذه النزوة -فيما كنت أعرف- إلا أن السيدة الكونتيسة "دي بوفليسير" كانت مصابة بها. فقد كتبت مأساة -تمثيلية نشريته- قرئت في البداية، ثم أديرت على حاشية السيد الأمير "دي كوني" فقبِلت بإطراء. ولكن السيدة لم تقنع بكل هذا الإطراء، فشاعت أن تستشيرني أنا الآخر، لتحظى بالثناء مني. وقد

(١) كان "ديدرو" قد سجن، وكتب "روسو" إلى السيدة: "دي بومبادور" كي تعمل على إطلاق سراحه. (٢) أوبرا كان "فولتير" قد وضع كلماتها، كما وضع "رامو" ألحانها، ثم عهد الدوق "ريشيلو" إلى "روسو" بأن يعيد كتابة الكلام والموسيقى مع تنقيحهما. (٣) أوبرا كان قد شرع في تأليفها في أول عهده بالإقامة في "باريس"، وعرضت في حفلة حضرها ريشيلو. (٤) أوبرا من تأليف "روسو"، عرضت على مسرح القصر الملكي بحضور الملك.

منحتها هذا الشاء، ولكن في عبارات معتدلة، بقدر ما كان المؤلف يستحق. وفوق ذلك، فقد رأيت أن من واجبي أن أطلعها على أن تمثيليتها -التي كانت بعنوان "العبد الكريم" - شديدة الشبه جدا بمسرحية إنجليزية لم تكن معروفة على نطاق واسع، ولكنها ترجمت إلى الفرنسية، وكانت تحمل اسم "أورونوكو". ولقد شكرت لي السيدة "دي بوفليير" رأيي، وأكدت لي لفورها أن لا علاقة البتة لمسرحيتها بالمسرحية الأخرى. ولم أبع قط بهذه السرقة الأدبية مخلوق من البشر سواها، وما صارحتها -هي- إلا أداء لواجب القيتة على عاتقي. بيد أن هذا لم يصدني عن أن أكثر من التفكير -منذ ذلك الحين- في الطريقة التي أدى بها "جيل بلا" واجبه نحو الأسقف الواعظ، وما ترتب على ذلك. (١).



وإلى جانب الراهب "دي بوفليير" -الذي لم يحبني قط- والسيدة "دي بوفليير"، التي ارتكبت نحوها أخطاء لا تغتفرها امرأة، ولا كاتبة، فإن بقية أصدقاء السيدة "المارشالة" كانوا دائما قليلي الميل إلى أن يكونوا أصدقاء لي. وكان منهم السيد دي "هينو" رئيس البرلمان، الذي لم يعغه انضمامه إلى زمرة المؤلفين من عيوبهم.. والسيدة "دوديفان"، والآنسة "دي ليسيناس"، اللتان كانتا على صلة وثيقة بـ"فولتير"، وعلى صداقة حميمة بـ"المبسر"، الذي انتهت ثانيتهما إلى الإقامة معه.. بكل شرف وصلاح طبعاً، فيجب ألا يؤول هذا على أي محمل آخر!.. ولقد بدأت بشعور قوي نحو السيدة "دوديفان"، التي أثار ضياع بصرها إشفاقي. ولكن منهجها في المعيشة كان يناقض منهجي تماماً، حتى إن ساعة استيقاظ أحدنا من النوم، كانت هي ساعة هجوع الآخر تقريباً.. وكان شغفها الجامح بالطرائف الفكرية البسيطة، والأهمية التي كانت تضفيها -سواء بالحق أو بالباطل- على كل خلاف كان يظهر، والعنف الغاشم الذي كانت تطلق به تعليقاتها في لهجة خطابية، ومغالاتها في التعصب لكل شيء، أو ضد كل شيء -مما لم يكن يسمح لها بأن تتكلم في موضوع إلا بانفعال- وتحيزها الذي كان يفوق المعقول، وعنادها الذي لا يلين، وتحمسها غير الحكيم الذي كان يحملها عليه التعتت لأرائها المستوحاة من العاطفة.. كل هذه لم تلبث أن حولتني عن الاهتمام الذي كنت على استعداد لأن أوليها إياه!.. فاهملتها. ولقد لاحظت ذلك، فكان هذا كافياً لأن يثير سخطها، ومع أنني شعرت بمدى ما ينبغي أن يخشاه المرء من امرأة لها هذه الشخصية، إلا أنني كنت أؤثر أن أعرض نفسي لسعار حقدّها، على أن أعرضها لودها!

وكأنما لم يكف أن يكون لي أصدقاء قليلون في حاشية السيدة "دي لوكسمبورج"، فإذا لي أعداء في أسرتها.. ومع أن هؤلاء الأعداء انحصروا في واحد، إلا أنه كان -في الموقف الذي أصبحت أجد نفسي فيه- يعادل مائة. ومن المحقق أن هذا الشخص لم يكن أخاها، السيد الدوق "دي فليروي"، الذي لم يكتف بأن زارني في داري، بل دعاني عدة مرات إلى ضيعة "فيلروي".. ولما كنت قد أجبت دعوته بكل احترام وأدب، فإنه أخذ هذا الجواب على محمل القبول، ودبر مع السيد والسيدة "دي لوكسمبورج" رحلة تستغرق حوالي خمسة عشر يوماً، كان علي أن أرافقهم فيها. وكانت التدابير التي تتطلبها صحتي، لا تسمح لي بأن أنتقل من داري دون ما تعرض للضرر، فرجوت السيد "دي لوكسمبورج" بأن يتكرم بالاعتذار عني. ويرى من جوابه "الملف د" - رقم ٣ - أنه أدى

(١) قصة "جيل بلا" من اكمل المؤلفات الخلقية، وقد وضعها "لوساج" في سنة ١٧١٥، وجعل بطلها يعيش مثلاً للأخلاق، برغم ما كانت الحياة تطرح به إليه من أحداث. والحادث الذي أشار إليه "روسو"، دار بين "جيل بلا" و"أسقف غرناطة"، وقد رسم فيه "لوساج" صورة رائعة للكاتب الذين يتظاهرون بالتحمس الشديد للحقيقة، ولكنهم لا يفون لها فيما بينهم وبين أنفسهم!

ذلك أبدع أداء ممكن، ولم يبد لي السيد الدوق "دي فيلروي" عطفًا يقل عما عهدت منه. ولكن ابن أخيه، ووريثه -المركيز "دي فيلروي" الشاب- لم يشاطر ما شرفني به من عواطف كريمة.. وأعترف أنني -هدوري- لم أوله ما كنت أولي عمه من احترام. وكانت مظاهره المتعجرفة الفاسدة تجعله -في نظري- لا يطاق فإذا فتوري نحوه لا يجلب علي سوى بغضائه.

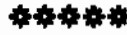
وفي ذات مساء، ذهب إلى درجة أن سبني على المائدة، فاسأت تلقي الإهانة، لأنني غبي، ولست حاضر البديهة، بل إن الغضب يسلبني القدر الذي أوتيته من الذكاء، بدلا من أن يرهفه ويشحذه. وكان لدي كلب تلقينه هدية -وهو بعد صغير- عقب وصولي إلى "ليرميتاج" مباشرة، وأطلقت عليه اسم "دوق". ومع أن هذا الكلب لم يكن جميلا، إلا أنه كان من سلالة نادرة، وقد جعلته صديقي وصاحبي، وكان -يقينا- أكثر استحقاقا لهذا الوصف من معظم أولئك الذين استحلوه لأنفسهم، فلم يلبث أن غدا محبوبا في قصر "مونفورنسي" بفضل طبيعته اللطيفة المستملحة، وبفضل تعلق كل منا بالآخر، بيد أنني في لحظة من لحظات الضعف الاحمق، غيرت اسمه إلى "تركي"، وكأنما لم تكن هناك مشات من الكلاب تدعى "مركيز"، دون أن يشعر أي "مركيز" بإهانة في ذلك. ولقد راح المركيز "دي فيلروي" -الذي علم بهذا التغير في الاسم- يلح علي، حتى اضطررتني إلى أن أروي ما فعلت، في حضور القوم.. ولم تكن الإهانة التي نشأت عن اسم "دوق" -في القصة- ممثلة في إطلاقه على كلب، وإنما في أنني لم البث أن حرمته منه. وكان أسوأ ما في الأمر، هو أن كثيرا من الأدواق (١) كانوا حضورا، وكان السيد "دي لوكسمبورج" دوقا، وكذلك كان ابنه. وكان المركيز "دي فيلروي" مرشحا لأن يصبح دوقا -وإنه لذلك الآن- فراح يلهم في قسوة بالخرج الذي دفعني إليه، وبالأثر الذي أحدثه. ولقد تأكدت -في اليوم التالي- بأن عمته قد أنبته في عنف على ذلك. ومن الممكن تصور مدى ما كان هذا التفرع كفيلا بأن يصلح علاقاتي به كثيرا، لو أننا افترضناه صادقا!

ولم يكن لي من مدافع ضد هذا كله -سواء في قصر "لوكسمبورج" أو في القلعة- سوى الشيفالييه "دي لورنزي". الذي كان يجاهر بأنه صديقي. ولكنه كان مازال صديقا لـ "الدبير"، أكثر مما كان لي، فقد راح -تحت رعايته- يلقي حظوة لدى النساء، بزعم أنه عالم هندسي كبير. وكان إلى جانب ذلك، المدلل صاحب الخطوة -أو بالأحرى القط الوادع - للسيدة الكونتيسة "دي بوفليير" التي كانت هي الأخرى صديقة حميمة لـ "الدبير".. فما كان للشيفالييه "دي لورنزي" من وجود ولا كان بوسعه أن يفكر، إلا بقرعها. وهكذا كان كل من يتصلون بالسيدة "دي لوكسمبورج" يبدون وكأنهم يعملون معا على إيذائي في رأيها، في الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن أن أجد مقاومة خارجية تصلح من نزقي، وتستقي لي رضا السيدة. ومع ذلك فإنها -إلى جانب تكريمها بأن تتعهد كتاب "إمبيل" - أبدت لي دليلا جديدا على كرمها وعطفها، مما حملني على أن أعتقد بأنها كانت مازال تحتفظ لي -بل وستظل دائما تحتفظ لي- بالصدقة التي كثيرا ما وعدتني بأن تؤثرني بها إلى نهاية عمري، حتى وإن كانت قد بدأت تسأمي!

وما إن خطر لي أن بوسعي أن أطمئن إلى هذا الشعور من ناحيتها، حتى شرعت أسري عن فؤادي، بأن أعترف لها بكل أخطائي نحوها. إذ كان مبدئي الوطيد، يحملني على أن أبين نفسي لأصدقائي على حقيقتها، لا أسوأ ولا أطيب. فاطلعتها على علاقاتي بـ "تيريز"، وبناتجها جميعا، دون أن أغفل الطريقة التي تخلصت بها من أطفالي. وتلقت اعترافاتي في تلفظ، بل في تلفظ بالغ،

(١) بفضل الترجمة أن يجمع "دوق" على "أدواق"، تمييزا له عن "دوقات"، وهي جمع "دوقة".

وأعفتني من اللوم الذي كنت أستحقه.. وكان أكثر ما أثر في نفسي -بوجه خاص- ذلك الكرم الذي أغدقته علي "تيريز"، فكانت تمنحها هدايا صغيرة، وتستدعيها، وتشجعها على أن تزورها، وتلقاها بكثير من الحنان واللفظ.. وكثيرا ما كانت تقبلها أمام الجميع. ولقد استخف الفتاة المسكينة الفرح والعرفان اللذان كنت أشاطرها بإهماما يقسنا.. بل إن الكرم الذي كان السيد والسيدة دي "لو كسمبورج" يغراني به خلالها، أكثر تأثيرا في نفسي من ذلك الذي كانا يظهرانه تحوي مباشرة.



ظلت الأمور على هذا الوضع فترة طويلة، ولكن السيدة "المارشال" لم تلبث -في النهاية- أن أمعت في تفضلها، فأعربت عن رغبتها في أن تسترد أطفالي وتكفلهم (١). وكانت قد عرفت أنني قد وضعت رمزا في ثياب الطفل الأكبر، فسألني النسخة الثانية لهذا الرمز، فقدمتها إليها. واستخدمت في هذا البحث وصيغتها الخاصة وموضع ثقتها "لاروش"، الذي قام بتحريات لم تؤد إلى طائل، فلم يتمكن من العثور على شيء، بالرغم من أنه لم يكن قد انقضى على إبداع الطفل أكثر من اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة، ولو أن سجلات ملجأ اللقطاء كانت منظمة، أو لو أن التحريات كانت دقيقة، لما عثر العثور على الرمز. ومهما يكن من الأمر، فإنني كنت أقل استياء لهذا الفشل، مما كان ينبغي علي لو أنني كنت قد تبعت آثار الطفل منذ مولده. ولو أن طفلا قدم إلي -على هدي البيانات التي قدمتها- على أنه ابني، لكان الشك فيما إذا كان هو ابني حقا، أو أنه أبدل بطفل آخر، خليقا بأن يبعث هواجس تضني فؤادي، ولما نعمت بالإحساس الطبيعي الصادق، في أكمل آيات سحره.. فلا بد -لاستيقاء هذا الشعور وسحره- من توفر الألفة والاعتماد منذ مولد الطفل، على الأقل، ولكن البعاد الطويل لطفل لم يعرفه المرء بعد، يوهن شعور الأبوة والأمومة، ولا يلبث أن يقضي عليه تماما في النهاية. فلا سبيل هناك البتة إلى أن يحظى طفل كفلته مربية، بحب يضارع ما يحظى به طفل نشأ تحت بصر المرء.. وقد يخفف هذا الخاطر من التبعات التي ترتبت على أخطائي، ولكنه يضاعف من وطأة أصلها ومنبعها!

وقد يكون من المفيد أن نلاحظ أن "لاروش" هذا، بالذات، قد تعرف -عن طريق "تيريز"- بالسيدة "لوفامير"، التي ظل "جريم" يكفلها في "دوي"، على مقربة من "لاشيفريت"، وعلى مسافة جد قصيرة من "مونجورنسي". فلما غادرت هذه المنطقة، استعنت بـ "لاروش" في مواصلة إرسال النقود التي لم أكف يوما عن إمدادها بها. وأعتقد أنه كثيرا ما كان يحمل إليها هدايا من السيدة "المارشال"، ومن ثم فإنها لم تكن تستحق أي عطف أو رثاء، برغم أنها ظلت دائمة الشكوى. أما "جريم"، فإنني طبعته على ألا أحب الكلام عن أرى أن من واجبي أن أكرههم، ومن ثم فإنني لم أتحذ عن إطلاقا إلى السيدة دي "لو كسمبورج"، اللهم إلا في الحالات التي كنت أضطر فيها إلى ذلك اضطرارا. على أنها ذكرت اسمه مرارا، دون أن تنبشني بما كان من رأيها فيه، بل ودون أن تدعني أستشف ما إذا كان هذا الرجل من معارفها، أو لم يكن. ولما كان التحفظ من أولئك الذين أحبهم، أو الذين درجوا على الصراحة التامة معي، أمرا لا يلائم مزاجي -لا سيما حين يكون في أمور تخصهم- لذلك فإنني كثيرا ما فكرت، منذ ذلك الحين، في أمر هذا التحفظ الذي أبدته السيدة لي.. على أن هذا التفكير لم يكن يراودني، إلا عندما تجعله الأحداث أمرا طبيعيا!

(١) كان "روسو" قد أنجب خمسة من "تيريز" سفاحا؛ وأودعهم مع اللقطاء.

وإذ مكثت فترة طويلة، دون أن أسمع أي حديث عن "إميل" -بعد أن وكلت أمر الكتاب إلى السيدة دي "لوكسمبورج" - علمت في النهاية، أن الصديقة قد أبرمت في "باريس"، مع الناشر "دوشين"، ثم أبرمت بوساطته مع "نياولم" في "أمستردام". وقد أرسلت السيدة دي "لوكسمبورج" إلي نسختي العقدتين -مع "دوشين" - كي أوقعهما. وتبينت أنهما كتبتا بنفس الخط الذي كانت تكتب به رسائل السيد دي "مالييرب"، إذ إنه لم يكن يكتبها بيده.

وحملتني تأكيد من أن الاتفاق قد عقد تحت بصر هذا السيد وبموافقته، إلى أن أوقع وأنا مطمئن. وإذ ذاك أعطاني "دوشين" عن نسخته من المخطوطات ستة آلاف فرنك -هي نصف الحساب- ومائة أو مائتي نسخة من الكتاب المطبوع، على ما أظن. وما إن وقعت نسختي العقد حتى أرسلتهما إلى السيدة دي "لوكسمبورج" -وفقا لرغبتها- فأعطت إحداهما إلى "دوشين"، واستبقت الأخرى، بدلا من أن ترسلها لي، فلم أرها بعد ذلك!

ومع أن تعرفني إلى السيد والسيدة دي "لوكسمبورج" أدخل شيئا من التعديل على شروعي في الاعتزال، إلا أنه لم يصرفني تماما عن هذه الخطوة، بل إنني ظللت أشعر -حتى في أوج حظوتي لدى السيدة "المارشالة" - بأنني ما كنت لاحتمل، أو أطيق الأشخاص المحيطين بالسيد "المارشال" وبها، لولا صدق تعلقي بهما. وكانت كل حيرتي تتمثل في محاولة التوفيق بين هذا التعلق وبين، نوع الحياة الأكثر ملاءمة لذوقي وأقل إيذاء لصحتي. فقد كان الإرهاق المستمر، والعشاء المتأخر يجعلان صحتي غير مستقرة على حال، ورغم كل العناية التي كانت تبذل لتجنب تعريضني لأي ضرر. إذ كان السيد "المارشال" وزوجته يبديان كل اهتمام بهذه الناحية، شأنهما بأية ناحية أخرى. ففي كل مساء -مثلا- لم يكن السيد "المارشال" ليغفل أن يصحبني بعد العشاء، شئت أو لم أشأ، لاحذو حذوه في الإيواء إلى الفراش مبكرا. ولم يكف عن ذلك إلا قبيل نكيتي بأمد وجيز، والسبب لم أدر به!

بل إنني قبل أن ألمح فنور السيدة "المارشالة"، رغبت في أن أحقق مشروعني القديم، حتى لا أعرض نفسي لهذا الفتور، ولكن الوسائل أعوزتني لهذا التحقيق، فكنت مضطرا إلى أن انتظر حتى يتم إبرام الاتفاق الخاص بكتاب "إميل" .. وفي خلال هذا الانتظار، وضعت المخطوط الأخيرة في كتاب "العقد الاجتماعي"، ثم أرسلته إلى "ريمي"، محددا ثمن المخطوط بالف فرنك، فأعطاني هذا المبلغ. وربما كان من المستحسن ألا أغفل هنا واقعة صغيرة تتعلق بالمخطوط المذكور. فلقد أرسلته في غلاف محكم الاختام إلى "ديفوازان"، وكان كاهنا من بلاد "الفود" (١)، وقسا تابعا لسفارة "هولندا"، وقد اعتاد أن يفد أحيانا لزيارتي. فنكفل بحمل المخطوط إلى "ريمي" الذي كان على اتصال به. ولقد كان المخطوط مكتوبا بخط جد رفيع ودقيق، فكان من الصغر بحيث إنه لم يملأ جيبه. ومع ذلك، فقد حدث -بينما كان يجتاز الحدود- أن وقعت الحزمة، بطريقة لا أدريها، في أيدي موظفي الجمارك، الذين فضوها وفحصوها، ثم ردوها إليهم في الحال، عندما طالب بها باسم السفير. وقد أتاح له هذا الحادث فرصة الاطلاع على المخطوط، كما أنبأني في سذاجة! .. ولقد أظن -في الوقت ذاته- في إطراء المؤلف، دون ما كلمة لوم أو انتقاد، محتفظا لنفسه -بلا ريب- بحق القيام بدور المنتقم للمسيحية عندما قدر للكتاب أن يظهر! .. ولقد استخلص المخطوط وأرسله إلى "ريمي". هذه -في الواقع- هي القصة التي أوردها في الرسالة التي أنبأني فيها بالأمر، وهذا كل ما قدر لي أن أعرفه عن الواقعة.

وإلى جانب هذين الكتابين -"إميل" و"العقد الاجتماعي"، -وكذلك "الموسوعة الموسيقية"

التي كنت أعمل فيها من وقت إلى آخر، كانت لدي مؤلفات أخرى أقل أهمية، وكلها معدة للنشر، فاعتزمت أن أنشرها متفرقة، أو مع مجموعة عامة تشمل مؤلفاتي، إذا قدر لي أن أصدر واحدة. وكان أهم هذه المؤلفات- التي لا يزال أغلبها مخطوطات كتبها "روبيرو" - "رسالة في منشأ اللغات"، كنت قد قرأتها على السيد "دي هاليزيروب" و"الشيغالبيه" "لورنزي" الذي استحسنتها. ولقد حسبت ما تدره علي هذه المؤلفات جميعا -بعد تغطية كافة النفقات- بما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من الفرنكات، على الأقل.. وهو مبلغ قررت أن أستثمره ليدر ريعا مدى الحياة، لصالح "لصالح" "تيريز". على أن نذهب بعد ذلك -كما ذكرت لها- لنقيم معا في أعماق أحد الأقاليم الريفية، حيث لا أزعج الرأي العام بنفسي، ولا أشغل نفسي بشيء اللهم إلا أن أختتم أيامي في سلام، مواصلا عمل الخير قدر وسعي، في الوسط المحيط بي.. ومستأنفا كتابة الذكريات التي كنت أفكر فيها، على مهل!

هكذا كان المشروع الذي يسر لي تحقيقه كرم "رسمي" .. هذا الكرم الذي ينبغي ألا أمر به مر الصامتين. فإن هذا الناشر، الذي سمعت عنه الكثير من سوء، في "باريس"، كان الوحيد -بين كل أولئك الذين كانت لي بهم علاقات- الذي كنت أجد منه ما يرضيني دائما (١). ومن المحقق أننا كنا نختلف أحيانا بشأن نشر كتابي، إذ إنه كان متلكنا، بينما كنت أنا متعجلا. ولكنني كنت أجد جدي أمين، ودقيق في المسائل المادية والإجراءات التي تتعلق بها، بالرغم من أنني لم أعقد معه قط اتفاقا رسميا. وهو -كذلك- الوحيد الذي أقر صراحة بأنه أفاد من معاملاته معي، وكثيرا، ما أنبأني بأنه مدين لي بثروته، وعرض علي أن يشاركني فيها. ولما كان عاجزا عن أن يطلعني مباشرة على عرفانه، فقد رغب في أن يشهدني عليه بما يديه لخليتي، فرصد لها معاشا سنويا قدره ثلاثمائة فرنك مدى حياتها، وأثبت في عقد التسجيل أن هذا المبلغ كان عرفانا منه بالفوائد التي أتحنتها له. لقد سوى هذه المسألة معي في غير ضجة، ولا إعلان، ولا من، ولو لم أكن أنا أول من تحدث عنها إلى الناس أجمعين، لما علم أحد عنها شيئا.. فلقد تأثرت بهذا الإجراء، إلى درجة أنني منذ ذلك الحين أصبحت مرتبطا بـ"رسمي" بود صادق. ولقد رغب -بعد ذلك بوقت وجيز- في أن أكون أبا روحيا -"أشيينا" - لأحد أطفاله، فوافقت. وكان من دواعي أساي، أنني -في الحال التي انحدرت إليها- كنت محروما من كل فرصة تمكيني من أن أجعل وفائي ذا نفع لابنتي الروحية ولاهلها. ترى كيف تسنى لي -وأنا الممتن إلى هذه الدرجة لما أبداه هذا الناشر من كرم متواضع- أن أكون أقل امتنانا للعواطف الصارخة، التي كان كثير من علية القوم يبدونها وهم يملئون الكون بالطنطنة بالخير الذي يقولون: إنهم رغبوا في إسدائه إلي، والذي لم أشعر به البتة؟.. أفكان الذنب في ذلك ذنبهم، أم تراه كان ذنبي؟.. أفكان الأمر مجرد زهو باطل منهم، أم أنه كان جحودا مني؟.. ألا زن الأمر -أيها القارئ العاقل- واحكم.. أما أنا، فسوف ألوذ بالصمت!

ولقد كان هذا المعاش موردا كبيرا لـ"تيريز"، وعزاء عظيما لي. وفيما عدا هذا العزاء، كنت أبعد من أن أطمع في أن أحصل منه -ولا من جميع الهدايا التي كانت تقدم إليها- أي نفع مباشر لي شخصيا. فكانت هي المتصرفة الوحيدة في الجميع، على الدوام، وعندما كنت أحتفظ لها بمالها، كنت أقدم لها عنه حسابا آمنا، دون أن أضع فلسا واحدا منه في نفقاتنا المشتركة، حتى عندما يقدر لها أن تكون أكثر مني ثروة. وكنت أقول لها: "إن مالي لنا معا، أما مالك فإنه لك وحدك". وما

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "عندما كتبت هذا كنت بعيدا عن أن أتصوره، أو أتبين أو أحسن أعمال العيش التي اكتشفت حينها بعد- حدونها في طبع مؤلفاتي والتي اضطر إلى الاعتراف بها".

كففت قط عن أن أتبع معها هذا المبدأ الذي كثيرا ما كنت أردده على مسمعيها . أما أولئك الذين أوتوا من الخسة ما أباح لهم أن يتهمونني بأنني كنت أثقل بيديها ، ما كنت أرفضه بيدي ، فليسوا يحكمون على قلبي إلا بما كانت عليه قلوبهم -دون شك- وإنهم ليسيؤون فهمي كل الإساءة . ولقد كنت على استعداد لأن أشاطرها -عن طيب نفس- الخبز الذي تكسبه بعرقها ، ولكنني ما كنت قط لأشاطرها ما تتلقاه إحسانا! . وإني لألجأ إلى شهادتها في هذه المسألة ، سواء الآن أم فيما بعد ، عندما يقدر لها أن تعيش بعدي ، وفقا لسنن الطبيعة! على أنها -لسوء الحظ- قليلة الإمام بالشؤون الاقتصادية ، من كافة الاعتبارات ، قليلة الحرص على المال ، مسرفة . . لا عن غرور أو نهم ، وإنما عن إهمال فذ ، عجيب! . . وليس في هذه الدنيا من أوتي الكمال ، فإذا لم يكن ثمة بد من أن يكون لصفاتها الرائعة ، ما يقابلها في كفة التناقض ، فإنني أؤثر أن تكون لها عيوب ، على أن تكون لها رذائل . . وإن كانت هذه العيوب أكثر إساءة إلينا معا من الرذائل ، في بعض الأحيان! . . إن الجهود التي بذلتها من أجلها -كما فعلت من قبل ، من أجل "ماما" - كي أجمع لها بعض المذكرات التي تصبح يوما موردا لعيشها ، تفوق كل تصور . . بيد أنها كانت دائما جهودا مضنية . فإن أيا منهما -سواء هي أو "ماما" - لم تحاول يوما أن تعمل لمصلحتها ، فكان كل شيء لا يلبث -برغم كل جهودي- أن يضيع بمجرد أن يأتي! . . ومع البساطة التي كانت "تيريز" تنتهجها ، فإن المعاش الذي رصده لها "ريسي" لم يكن قط كافيا لحاجاتها ، كما أنني لم أكن أستقي شيئا من دخلي في كل عام . فكلانا لم يخلق ليصبح غنيا ، في أي يوم من الأيام ، ولست أعتبر هذا من مساوئ حظنا ، إطلاقا!



وطبع "العقد الاجتماعي" دون ما كثير إرجاء ، فكان على النقيض من "إميل" الذي كنت مضطرا إلى انتظار نشره ، قبل أن أنفذ مشروع اعتكافي . وكان "دوشين" يبعث إلي -من وقت إلى آخر- بنماذج من الحروف لاختار منها . . وكلما اخترت ، أرسل لي نماذج أخرى غيرها ، بدلا من أن يشرع في الطبع ، فلما استقر رأينا في النهاية على الشكل وحجم الحروف ، وبعد أن أرسل لي عدة صفحات مطبوعة ، أدخلت عليها بعض تعديلات طفيفة ، أعاد الطبع من جديد . . فوجدنا أننا -بعد ستة أشهر- أقل تقدما مما كنا في أول يوم . وبينما كانت هذه التجارب تجري ، اكتشفت أن الكتاب كان يطبع في "فرنسا" ، كما كان يطبع في "هولندا" ، طبعين مستقلتين! . . فما الذي كنت أملك أن أفعله؟ . . إنني لم أعد مالك مخطوط كتابي . وكنت بعيدا كل البعد عن أن تكون لي أمة يد في الطبعة الفرنسية ، بل إنني كنت دائما أعارض في إصدارها ، ولكن . . لما كان طبعها جاريا على قدم وساق ، بالرغم مني ، وما دام من الممكن استخدامها كمثال للطبعة الأخرى ، فإنني وجدت من المستحسن أن ألقى نظرة على التجارب "البروفات" ، حتى لا يحرف كتابي أو يشوه . ثم إن المؤلف كان يطبع بموافقة تامة من رقيب المطبوعات ، فهو الذي كان يوجه المشروع -بطريقة ما- وكثيرا ما كتب إلي ، بل إنه جاء لزيارتي بصدها في مناسبة معينة ، سأتكلم عنها حالا!

وبينما كان "دوشين" يتقدم بخطى سلحفائية ، كان "نيالوم" -الذي تعمد أن يعرفه- يتقدم بخطى أكثر بطئا ، إذ إن الصفحات لم تكن ترسل إليه بالانتظام الذي كانت تطبع به . وقد خامره الظن في أنه لاحظ سوء نية من جانب "دوشين" ، أعني "دي جاي" الذي كان يمثل . وإذا رأى أن الاتفاق لم يكن ينفذ ، كتب إلي خطابات إثر خطابات ، مليئة بالشكايات والتظلمات ، التي كنت أقل مقدرة

على علاجها مني على علاج المشكلات التي كانت تتعلق بمصلحتي . ولقد كان صديقه "جيمران" -الذي يكثر جدا من زيارتي في ذلك الحين- لا يفتأ يتحدث إلي عن هذا الكتاب، ولكن في كثير من التحفظ المسرف .. كان يعرف، ولا يعرف، أن الكتاب كان يطبع في "فرنسا" .. وكان يعرف، ولا يعرف، أن الرقيب كان مهتما به بنفسه .. وكان يشفق علي من الحرج الذي سببه لي هذا الكتاب، بينما كان -في الوقت ذاته- يتهمني بالخرق، دون أن ينبئني قط بما هناك من خرق .. وكان يراوغ ويداور ويماري دون انقطاع .. كان يبدو وكأنه يتكلم ليستدرجني إلى الكلام . وكانت طمانينتي -خلال تلك الفترة- مكتملة إلى درجة أنني كنت أضحك من اللهجة المتحفظة والغامضة التي كان ينتهجها في هذه المسألة، واعتبرها عادة نشأت عنده من الاتصال المستمر بالإدارات الوزارية والقضائية . وكنت متأكدا من أن كل الاعتبارات الخاصة بهذا الكتاب كانت كما ينبغي لها أن تكون، ومقتنعا كل الاقتناع بأن الكتاب لم يحز رضا ورعاية الرقيب فحسب، وإنما كان يستحق رضا الوزير نفسه، وقد ظفربه، ومن ثم فقد رحت أهني نفسي على حسن تصرفي، وأضحك من ضعف قلوب أصدقائي، الذين كانوا يبدون القلق من اجلي . ولقد كان "ديكلو" من هؤلاء القلقين، واعترف أن ثقتي باستقامته وحصافته كانت خليقة بأن تذرني بالخطر، لو أنني كنت أقل اطمئنانا إلى فائدة مؤلفي، وإلى شرف من كانوا يرعونه . وقد زارني، موفدا من السيد "بأي"، أثناء طبع "إميل"، فحدثني عنه . وقرأت عليه إعلان أسقف "سافرا" لإيمانه، فأنصت في إعجاب بالغ، وفي اغتباط عظيم، على ملاح لي . فلما فرغت من القراءة، قال لي: "عجبا، أيها المواطن .. أفهذا جزء من كتاب يطبع في "باريس"؟" . فقلت له: "أجل .. وقد تقرر طبعه في "اللوافر" بأمر من الملك" . فقال لي: "إنني مقتنع بذلك، ولكن .. هل لك في أن ترضيني بالأ تذكرك لاي امرئ أنك قرأت علي هذا الجزء؟" .. وكان هذا الأسلوب الشاذ في التعبير عما بنفسه، خليقا بأن يدهشني، ولكنه لم يرهني . فقد كنت اعرف أن "ديكلو" كان كثير الالتقاء بالسيد "دي ماليزيروب"، ومن ثم فقد شق علي أن ادرك كيف كان رأيه يختلف كثيرا عن رأي ذاك السيد، في موضوع واحد .



ولقد أقسمت في "مونمورنسي" فوق أربع سنوات، دون أن استمتع بصحة طيبة ليوم واحد . فبالرغم من أن الهواء كان بديعا، إلا أن المياه كانت رديئة، ومن المحتمل كل الاحتمال أن يكون هذا من الأسباب التي ساهمت في استفحال عللي المعهودة . وفي أواخر خريف سنة ١٧٦١، سقطت مريضا، وقضيت الشتاء كله في أوجاع لم تكن تهين تقريبا . وكان سقمي البدني يزداد وطأة بالف هم وقلق، مما يضاعف إحساسي به وتوجعي له . فلقد ظللت تراودني -فترة من الزمن- وساوس خفية، كشيبة، لم أكن أدري لها مأتى . وكنت أتلقى رسائل جد عجيبة، خالية مما ينم عن مرسلها .. بل ورسائل كانت تحمل توقيعات كاتبها، ولا تقل عنها غرابة . وكانت منها رسالة من مستشار البرلمان، في "باريس"، لم يكن راضيا عن الوضع الراهن، ولا مطمئنا إلى نتائجه، فشاء أن يستشيرني في أن اختار ملاذا في "جنيف" أو في "سويسرا" يستطيع أن يأوي إليه مع أسرته .. ورسالة أخرى من السيد دي "..."، رئيس الدورة النيابية في برلمان "..." الذي سألني أن أوجه مذكرة استنهض بها أعضاء هذا البرلمان، الذي كان -في ذلك الوقت- على غير وئام مع البلاط الملكي وعرض -في الوقت ذاته- أن يمدني بكل الوثائق والمواد التي احتاج إليها في هذا الصدد .

وعندما أكون معذبا بالألم، أغدو فريسة سهلة للانفعال. وهذا ما حدث عندما تسلمت هذه الخطابات، وقد أظهرت حالي في إجاباتي، إذ رفضت فيها رفضا باتا أن أفعل ما سئلته، وبقينا أنني لا ألوم نفسي على هذا الرفض، إذ كان من المحتمل أن هذه الخطابات فحاح أعضاها أعدائي (١)، وقد كان ما سئلته مخالفا للمبادئ التي كنت مازال أقل ميلا إلى التحول عنها، مني في أي وقت آخر. ولكنني رفضت بفظاظة، في حين أنني كنت أملك أن أرفض في أدب. وقد كنت في هذا مخطئا.

ولسوف توجد الرسائلان اللتان ذكرتهما، بين أوراقتي. ولم يدهشني خطاب المستشار البتة، لأنني كنت أرى -مثله ومثل كثيرين غيره- أن تداعي الدستور كان يندّر "فرنسا" بخراب قريب. كانت الخسائر التي خلفتها حرب منكودة، ترتبت بأسرها على خطأ من الحكومة (٢). .. وكان الارتباك المالي الذي يجلب على التصور.. والخلافات المستمرة في الهيئة التنفيذية التي كانت موزعة -حتى ذلك الحين- بين وزيرين أو ثلاثة، كل منهم في حرب مكشوفة مع الآخر، وثلاثتهم يسمعون إلى توريط المملكة في مآزق، ليكبد كل منهم للآخر (٣). .. والتدمير العام الذي ساد الشعب وكافة طبقات الدولة.. وتشتت أسرة عنيدة، درجت دائما على أن تضحي بمواهبها الذهبية -إذا كانت قد أوتيت مواهب ما- في سبيل ميولها ونزواتها، وكانت دائما ما تقصي القادرين عن مناصب الدولة، لكي تملأها بالمقربين إليها.. كانت كل هذه العوامل، تساهم في تبرير مخاوف المستشار، والجمهور، وأنا!

ولقد حملتني هذه الوسواس مرارا على أن أتساءل، عما إذا كان من الجدير بي أن أبحث أنا الآخر عن ملجأ لي خارج المملكة، قبل قيام الاضطرابات التي كان يبدو أنها تتهددها، ولكنني كنت -اطمئنانا إلى تفاهة شائتي، وإلى مسلكي الوادع- اعتقد أن شيئا من العاصفة ما كان ليقوى على أن يصل إلي، في العزلة التي اعتزمت أن أعيش فيها. ولم يكن يحزنني سوى أن السيد "دي لو كسمبورج"، انصرف -في هذه الظروف- إلى الاضطلاع بمهام كانت خليقة بالآلة تجعله موضع رضا من حكومته ذاتها. وكنت أود لو أنه أعد لنفسه -في مثل هذه الحال- مخرجاً، وتاهب لكل الطوارئ، إذا ما قدر للجهاز الضخم أن يتهدم.. الأمر الذي كان ثمة ما يبرر الخوف من حدوثه، تحت الظروف القائمة، وما يزال يبدو لي -في الوقت الحاضر- أنه لا مجال للشك في أنه لو لم تقع جميع أزمة الحكم -في النهاية- في يد واحدة (٤)، لكانت الملكية الفرنسية الآن في النزاع الأخير!

وبينما كانت حالي تزداد سوءاً، أخذ طبع "إميل" يزداد بطناً، ثم أوقف تماماً، في النهاية، دون أن أتمكن من معرفة السبب، ودون أن يتنازل "دي جاي" فيكتب لي، أو يرد على رسائلي. ولم أستطع أن أحصل على أنباء من أحد، ولا عرفت شيئاً عما كان يجري، إذ إن السيد "دي ماليزيبر" كان في الريف، في تلك الآونة. وما قدر لأية محنة -مهما تكن- أن تزعجني أو أن تتركني ما دمت أعرف كنهها ومبناها، ولكنني فطرت على التخوف من الظلمات، فأنا أكره وأرهب مظهرها الأسود.. إن الغموض يقلقني دائماً، فهو شديد التناقض مع طبيعتي، التي تنسم بصراحة تكاد تبلغ التهور ومجافاة الحكمة. إن مرأى أظلم الهوام لا يفرعني إلا قليلاً -فيما أحسب- ولكنني أذعر إذا ما لمحت في الليل شبحاً تحت كساء أبيض.. ومن ثم فقد شغل خيالي -إذ أذكاه هذا الصمت الطويل -برسم أشباح مرعبة لي. وكنت كلما تحمست لنشر آخر مؤلفاتي وأفضلها، وأمعنت في إضناء نفسي بحثاً عما قد يكون السبب في تأخره. ولما كنت أؤمن في التطرف -في كل شيء- فقد خيل إلي أنني المح

(١) أضاف "روسو" إلى هذا: "كنت أعرف -على سبيل المثال- أن رئيس برلمان"، كان وثيق الصلة بجامعة دائرة المعارف، وبجمعية دولباخ.

(٢) حرب السنوات السبع: (٣) كان وزير المالية ووزير البحرية في صراع مستمر، على نسق الصراع الذي كان دافراً بين البرلمان ورجال الدين..

وكان البلاط الملكي ذاته منقسماً إلى فريقين، أحدهما يتزعمه دوق "دجبون"، ويلتف حول ولي العهد، والآخر يتزعمه الكونت "دي ستانفي"

الذي أصبح دوق "شوازيل" -ويلتف حول محظية الملك، مدام "دي بومبادور" (٤) الدوق دي شوازيل.

وراء إيقاف طبع الكتاب، بوادر مصادرتة

على أنني لمعجز عن تصور السبب أو الطريقة، لهذه المصادرة، ظللت في أقصى ألوان الشك في الدنيا. ورحلت أكتب الخطابات إثر الخطابات، إلى "جاي"، وإلى السيد "دي مالبيرب"، وإلى السيدة "دي لوكسمبورج" دون أن تصلني الإجابات قط، أو أنها لم تكن تفد في الأوقات التي كنت أتوقعها، فاشتد اضطرابي، حتى لقد رحت أهذي. وسمعت -لسوء الحظ- في تلك الآونة، أن الأب "جريفيه" -وكان من الجزويت- قد تحدث عن "إميل"، بل وسرد فقرات منه، فإذا خيالي يفض -كالبريق الخاطف- هذا الغموض المحير بأسره. ورأيت بجلاء تام تطورات الأمور، كما لو أنها كانت قد كشفت لي.. فتمثلت أن "الجزويت" قد هاجتهم لهجة الأزدراء، التي تحدثت بها عن مدارسهم، فاستولوا على مؤلفي، وأنهم هم الذين كانوا يعطلون نشره.. وأنهم قد علموا من صديقهم "جيران" بحالي الراهنة، فتوقعوا قرب موتي -الامر الذي لم أكن، أنا نفسي، أرتاب فيه- ومن ثم فقد كانت غايتهم هي تعطيل الطبع إلى أن تحدث الوفاة، معتزمين أن يشوهوا ويحرفوا الكتاب لكي يخدم أغراضهم هم، بأن يعزوا إلي آراء تخالف آرائي تماما!

وما كان أعجب تلك الوقائع والظروف التي توافدت على عقلي، والتفتت حول هذه الفكرة الحمقاء فاكسيتها مظهر الحقيقة.. بل راحت تثبت صدقها! وكنت أعرف أن "جيران" كان على ولاء تام للجزويت، فعزوت إليهم كل المحاولات الودية التي عرضها علي من قبل، واقتنعت نفسي بأنه ما ألح علي بالاتفاق مع "نياولم" إلا بوازع منهم، وبأنهم ما توصلوا إلى الصفحات الأولى من مؤلفي، إلا عن طريق هذا الناشر، وأنهم لم يلبثوا أن اهتموا إلى طريقة لحمل "دوشين" على أن يوقف الطباعة، ولعلمهم استطاعوا أيضا أن يستولوا على الأصل الخطي للكتاب، كي يعملوا على مهل في تحريفه، حتى يطلق موتي الحرية لهم في أن ينشروا هذا الزيف وفق هواهم. ولقد كنت أشعر دائما -وبالرغم من ملق الأب "بيرتييه" - أن "الجزويت" لم يكنوا لي شيئا من الحب، على الإطلاق، لا لاشتراك في جماعة الموسوعة أو "القاموس المحيط" فحسب، وإنما لأن آرائي -أيضا- كانت أشد عدا لِمبادئهم ونفوذهم من كفر زملائي، إذ إن من الممكن للتطرف الزندي والتطرف الديني أن يتقاربا بفضل تعصبهما المشترك، بل إن من الممكن أن يتحدوا، كما فعلا في الصين، وكما بفعلا الآن في عدائهما لي. أما العقيدة القائمة على العقل والمبادئ الخلقية، والتي تلغي كل سلطان إنساني على الضمائر، فإنها لا تدع موردا يستغله أولئك الذين يزعمون لأنفسهم هذا السلطان!

ولقد كنت أعرف -كذلك- أن السيد المستشار (١) كان صديقا حميما لـ "جيسزويت"، فخشيت أن يكون الابن قد وجد نفسه مضطرا إلى أن يسلمهم المخطوط الذي تكفل بحمايته، تحت الشعور بالخرج أمام أبيه.. بل لقد زين لي الوهم أن أرى أثر هذا التخلي منه عن المخطوط، في تلك التحرشات التي بدئ في توجيهها إلي، بصدد الجزئين الأولين من الكتاب، اللذين احتجزا، دون تجليد لبعض أمور تافهة.. في حين أن الجزئين الباقيين، كانا -كما هو غير مجهول- مغممين بآراء عنيفة، مما كان يستدعي إعادة صوغهما بأكملهما، إذا كان الرقيب قد انتقدهما، كما فعل بسابقيهما. ثم إنني كنت أعرف -فوق هذا، كما أنباني به السيد "دي مالبيرب" نفسه- أن الراهب "دي جراف"، الذي وكل إليه أمر مراجعة هذه الطبعة، كان هو الآخر من أتباع "الجزويت". وهكذا لم أكن أرى سوى "الجزويت" في كل مكان، دون أن أفكر في أنهم كانوا على اعتاب إبائهم، وأنهم كانوا جد منهمكين في الدفاع عن أنفسهم، فكان لديهم ما يشغلهم عن التأمر ضد طبع كتاب لم يكن لهم به

(١) المستشار "دي مالبيرب"، والد رقيب الطبعات.

أي شأن.

بل إنني لأخطئ إذ أقول: "دون أن أفكر"، فالواقع أنني فكرت جيدا، وكان هذا بالذات من الاعتراضات التي عني السيد "دي ماليزيرب" بأن بيديها لي، بمجرد أن فطن إلى الفكرة الواهمة التي تملكنتني.

ولكنني بنزوة من تلك النزوات التي تملكك رجلا يحاول -من أعماق محزله- أن يجلو أسرار جسام الأمور، وهو لا يعرف عنها شيئا، لم أشأ قط أن أصدق أن "الجليزويت" كانوا في خطر، بل اعتبرت مثل هذه الشائعات بمثابة حيلة منهم، لتخدير أعصاب خصومهم.

وكانت انتصاراتهم الماضية -التي لا سبيل إلى إنكارها- توحى إلي بفكرة رهيبة عن نفوذهم، حتى إنني رحمت أنعمي على البرلمان هوانه إزاءهم. وكنت أعرف أن السيد "دي شوازيل" قد درس على أيدي "الجليزويت"، وأن السيدة "دي بومبادور" لم تكن على علاقات سيئة معهم، وأن تحالفهم مع ذوي الحظوة والوزراء، كان يعتبر دائما ذنبا نفع كبير لكل من الطرفين ضد عدوهم المشترك. وكان البلاط الملكي يبدو متباعدة عن الزج بنفسه في هذه الأمور. ولما كنت مقتنعا بأن المجتمع إذا تعرض يوما لآفة هزة عنيفة، فلن يكون البرلمان من القوة بحيث يحدث هذه الهزة، فقد اتخذت من هذا الإعراض عن العمل من جانب البلاط، أساسا لثقة "الجليزويت" واطمئنتانهم إلى الفوز.

وقصارى القول: إنني لم أكن أرى في كل شائعات تلك الفترة، سوى تعمية وشباك من جانب "الجليزويت"، ولما كنت مؤمنا بأنهم -في موقفهم الأمين- قد أوتوا الوقت الكافي لكي يعدوا عدتهم لكل شيء، فإنني لم أكن أرتاب قط في أنهم لن يلبثوا أن يسحقوا "الهانسين"، والبرلمان. وأصحاب الموسوعة، وكل من لم ينصاعوا لريقتهم... وإنهم إذا أتاحوا لكتابي أن يظهر -في النهاية- فلن يكون ذلك إلا بعد أن يحولوه إلى سلاح، وأن يستغلوا اسمي في التفرير بقرائتي.

ولقد كنت أشعر بأنني موشك على الموت، ومن ثم فإنني لا أكاد أدري، كيف أن هذا التهوس لم يقض علي. فشد ما جزعنت لفكرة أن ذكري قد تشوه بعد موتي، في أفضل كسبي وأجدرها بالمجد... أبدا ما شعرت بمثل ذلك الخوف من الموت الذي تولاني إذ ذاك، واعتقد أنه لو كان مقدرا لي أن أموت إذ ذاك، لقضيت نحبي وأنا في يأس قاتل. بل إنني اليوم، وأنا أرى أسود وأبشع مؤامرة دبرت ضد ذكري امرئ، تسير قدما نحو غايتها، أشعر بأنني سأموت أكثر طمأنينة، إذ أترك خلفي -في كتاباتي- شاهدا لمن يلبث أن ينتصر -إن عاجلا أو آجلا- على مؤامرات البشر!

سنة ١٧٦٢

وكان السيد "دي ماليزيرب" هو شاهد انفعالي، ومستودع سري بشأنه، فبذل في سبيل التسرية عني جهودا نمت عن طيبة قلب لا ينضب لها معين. ولقد ساهمت السيدة دي "لو كسمبورج" في هذا العمل الطيب، وزارت "دوشسين" عدة مرات، لكي تبين مدى تقدم سير الطبعة. وأخيرا، استؤنفت الطباعة، وراحت تتقدم أسرع من ذي قبل، وما قدر لي قط أن أعرف سر توقفها من قبل. ولقد تجشم السيد "دي ماليزيرب" عناء الحضور إلى "مونورنسي" كي يهدي من هواجسي، ووفق في ذلك، إذ إن ثقتي التامة باستقامته، تغلبت على تخطيط فكري، فجعلت كل مجهود منه -ليعيد إلى ذهني اتزانه- مجهودا مشمرا. وكان من الطبيخي أن يجدني جد جدير بالثناء، بعد كل

الذي شهده من شجوني والآمي . ولقد عاودته فكرة التعتن الفلسفي التي كانت تحيط به، وتردد على سماعه باستمرار . فلقد قيل للملا، عندما ذهبت للإقامة في "ليرميلاج" - كما ذكرت من قبل - إنني لن أطيق البقاء طويلا، فلما رأى المتقولون أنني بقيت هناك، زعموا أن بقائي إنما كان بدافع من عنادي، وكبريائي، واستحيائي من أن أترجع... . وإنني كنت في الحقيقة أعاني ضيقا قاتلا، وشقاء بالغا . ولقد صدق السيد "ماليزيرب" ذلك، وكتب إلي . فكان شعوري مضاعفا لصدور هذا الخطأ عن رجل كنت أكن له كثيرا من التقدير، ومن ثم كتبت له أربع رسائل تباعا، شرحت له فيها الدوافع الحقيقية لمسلكي، ووصفت له بإخلاص ميولي، ونزعاتي، وشخصيتي، وكل ما يخالف فؤادي... . هذه الرسائل الأربع، التي كتبت دون تحضير ولا مسودات، وإنما بسرعة، وبجرعة قلم، ودون ما مراجعة، قد تكون المؤلفات الوحيدة - في حياتي - التي كتبتها بسهولة... . والأعجب من هذا أنني كتبتها وسط الآمي والتداعي المفرط الذي كنت أعانيه . وإذا كنت أشعر بأن قواي كانت في اضمحلال، فقد تنهدت حسرة إذ فكرت في أنني سأخلف ورائي - في أذهان الرجال الأشراف - مثل ذاك الرأي الظالم عن نفسي، ومن ثم فقد حاولت بالصورة السريعة التي رسمتها في الرسائل الأربع، أن أسد الفراغ الذي كان يجب أن تملأه المذكرات التي اعتزمت من قبل أن أكتبها... . إن هذه الرسائل التي أعجب بها السيد "دي ماليزيرب"، والتي اطلع عليها أهل "باريس"، تعتبر - إلى حد ما - ملخصا لهذا الذي أعرضه هنا بالتفصيل، ومن ثم فهي جديرة بأن تصان . ولسوف توجد منها - بين أوراق - نسخة نقلها برجاء مني، وأرسلها إلي بعد ذلك بسنوات .

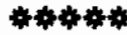
وأصبح الشيء الوحيد الذي يكرهني - منذ ذلك الحين - كلما فكرت، أنني كنت موشكا على الموت، هو أنني كنت محروما من أي أديب أركن إليه، وأستطيع أن أضع بين يديه أوراق، لكي يراجعها ويفرزها بعد وفاتي... . وكنت منذ رحلتي إلى "جنيف"، قد اتصلت بـ "مولشو" برباط من المودة، فقد شغفت بهذا الشاب، وكنت أتمنى لو أنه جاء ليغض عيني عندما أموت . ولقد أطلعته على هذه الرغبة، واعتقد أنه كان على استعداد لأن يؤدي هذا الواجب الإنساني، وهو راض، لو أن شؤونه وأسرته سمحت له بذلك . أما وقد حرمت من هذا العزاء، فقد رغبت في أن أهبه دليلا على ثقتي به - على الأقل - بأن أرسلت إليه "إعلان أسقف سافوا لإيمانه"، قبل النشر . ولقد سر بها، ولكنني لم أستم في لهجة رده ما ينم عن أنه كان يشاطرنني الاطمئنان إلى الثقة التي أردت بعملني أن أشعره بها . فقد رغب في الحصول على بضع قطع أدبية لم يقدر لسواه أن يحرزها . ومن ثم أرسلت إليه : "رثاء الدوق دورليان عند وفاته"، وكنت قد كتبت هذا الرثاء للراهب "دارقي"، بيد أنه لم يقدر له أن يلقيه، إذ عهد بمهمة رثاء الفقيد إلى سواه، على غير ما كان يتوقع !

وما إن استؤنف طبع "إميل"، حتى مضت العملية قدما وانتهت في هدوء، وقد لاحظت في هذه المرة ظاهرة عجيبة، فبعد الصفحات التي حذفت في قسوة من الجزئين الأولين، أجزى الجزآن التاليان دون ما اعتراض، ودون أن يتخذ من محتوياتهما ما يعرقل النشر . وكنت ما أزال أحتفظ ببعض التوجس الذي ينبغي ألا أغفله هنا . فبعد أن كنت في خوف من "الجميزويت"، إذا بي في خوف من "اليانسين" ومن الفلاسفة . إذ إنني كعدو لكل ما يسمى تحزبا، أو تعصبا، أو تعنتا، لم أكن أتوقع قط أي خير من أولئك الذين أتوا شيئا من ذلك .

وكان "الشراران" قد خلفا - قبل ذلك بزمان - مقرهما القديم، واستقر بهما المقام جد قريب مني، حتى لقد كان من الممكن أن يسمع في غرفتهما كل ما يقال في غرفتي أو شرفتي، كما كان من

السهل جدا تسلق السياج القصير الذي كان يفصل حديقتيهما عن شرفتي المغلقة الجوانب، وكنت قد اتخذتها حجرة مكتب، فاقمت فيها منضدة تكدست عليها "بروفات" وصفحات "إميل" و"العقد الاجتماعي". ولقد اعتدت أن أخطط هذه الأوراق بعضها إلى بعض، عندما ترسل إلي، وبهذا كنت أحصل على نسخ من كتبي قبل ظهورها بوقت طويل. وكان غيائي وإهمالي وثقتي بالسيد "مسي" (١) وأطمئناني إلى الحديقة التي كانت تحيط بمسكني.. كل هذه كثيرا ما كانت تجعلني أنسى إغلاق الشرفة في الليل، فكنت أجدها في الصباح مفتوحة.. وما كان هذا ليسبب لي آتفه شاغل، لولا أن خيل إلي أنني لاحظت أن أوراقتي لم تكن كما رتبته. وإذا لاحظت هذا عدة مرات، أصبحت أكثر عناية بإغلاق شرفتي. وكان القفل رديئا، لا يكاد المفتاح يدور فيه سوى نصف دورة. وإذا ازدادت انتباهها، وجدت أن العيب بأوراقتي أصبح أكثر مما كان عندما كنت أترك الباب مفتوحا.

وأخيرا، اختفى أحد كتبي يوما وليلتين، وعجزت تماما عن أن أتبين ما جرى له، إلى أن كان صباح اليوم الثالث، إذ وجدته ثانية على المنضدة!.. ولم أشعر إذ ذاك -ولا شعرت يوما- بأي ارتياح في السيد "مسي"، ولا في ابن أخيه السيد "دومولان"، إذ كنت أعرف أن كلا منهما كان يحبني، ومن ثم فقد كنت أوليها كل ثقة. وبدأت أشعر باطمئناني إلى "الشرثارين" يتضاءل. وكنت أعرف أن لهما علاقة بـ"المجير" -برغم أنهما كانا من "اليانسين" - كما أنهما كانا يقيمان معه في مسكن واحد في "باريس". وقد سبب لي هذا شيئا من عدم الارتياح، وجعلني أكثر حذرا. فنقلت أوراقتي إلى مخدعي، وانصرفت نهائيا عن زيارة هذين الشخصين، لا سيما وأنني سمعت كذلك أنهما عرضا -في عدة بيوت- الجزء الأول من "إميل"، الذي كنت من عدم الحكمة بحيث إنني اعترتهما إياه. ومع أنهما ظلا يجاوراني في السكنى إلى أن غادرت المكان، إلا أنني لم أتصل بهما قط منذ ذلك الحين!



وسبق "العقد الاجتماعي" كتاب "إميل" إلى الظهور، بشهر أو شهرين. وكان "ريسي" -الذي اعتدت دائما أن أحرم عليه تحريما باتا إدخال أي كتاب من كتبي إلى "فرنسا" - قد أرسل إلى المستشار يرجو الحصول على إذن بأن يدخل "العقد الاجتماعي" إلى "فرنسا"، عن طريق "روان"، حيث كان قد أرسله بحرا. ولم يتلق "ريسي" ردا، فظلت طروده في "روان" عدة أشهر، ثم ردت إليه، بعد أن بذلت محاولة لمصادرتها ولكنه أحدث ضجة اضطرت أصحاب المحاولة إلى ردها له. على أن الفضول دفع البعض إلى الحصول على نسخ من "امستردام"، تدولت في غير ضجة تذكر. ولقد حدثني "موليون" -الذي كان قد سمع، بل ورأى بعض هذه النسخ- عن الأمر، في شيء من الغموض الذي أدهشني، وكان خليقا بأن يثير قلقي -كذلك- لولا أنني في تأكيد من أنني اتبعت القانون في كافة الاعتبارات، ولم آت ما أؤاخذ نفسي عليه، رحت أطمئن نفسي مستندا إلى مبدئي العظيم. ولم يخالجنني شك في أن السيد دي "شوازيل" -الذي كان قد أبدى ميلا طيبا نحوي، ورضاء عن المديح الذي دفعني تقديري إياه إلى أن أورده في هذا الكتاب- لن يتردد عن مؤازرتي، في هذه المناسبة، ضد النوايا السيئة التي تصدر عن السيدة "دي يومبادور"!

وكان من المؤكد أن بوسعي إذ ذاك أن أركن إلى أفضال السيد دي "لوكسمبورج"، أكثر من ذي قبل، وأن أطمئن إلى تعزيده لي عند الضرورة. إذ إنه لم يبد لي يوما ما يفوق ما كان يبد لي إذ ذاك من دلائل الود والصداقة. ومع أن حالتي الصحية المحزنة لم تكن تتيح لي أن أسمى إلى القصر

(١) صاحب "مون لوي"، الدار التي سكنها "روسو" في "مونفورنسي" بعد أن غادر "كيرميتاج".

—عندما قدم في رحلة عيد الفصح— إلا أنه لم يكن يدع يوما يمر دون أن يزورني . وإذا رأى أن آلامي لا تنقطع، أقنعني —في النهاية— بأن أعرض نفسي على الأخ "كوم" (١) . وأرسل ببحث عنه، ثم أحضره بنفسه، وأوتي الجلد على أن يبقى معي أثناء العملية التي كانت مؤلمة وطويلة، وهو أمر نادر —وجدير بالتقدير— لدى نبيل عظيم الجاه مثله . على أن العملية لم تكن تتجاوز استخدام المسابر والمجسات بيد أنني لم أكن يوما قادرا على تحملها، حتى على يدي "موران" الذي حاولها عدة مرات، ولكنه باء بالفشل باستمرار . على أن الأخ "كوم" —الذي أوتي مهارة وخفة بد لاتضارعان— وفق في النهاية، إلى إنفاذ مسير جد صغير، بعد أن سبب لي ألما عظيما لأكثر من ساعتين، كنت خلالهما أبذل قصارى جهدي لأكتم صرخاتي، حتى لا أفسد الفؤاد الحساس الذي أوتيته المارشال الطيبا . . . وخيل إلى الأخ "كوم" —بعد الفحص الأول— أنه قد اهتمدى إلى "حصوة كبيرة"، وأنباني بذلك . بيد أنه لم يستطع العثور عليها في الفحص الثاني . وبعد أن أجرى فحصا ثانيا، وثالثا، في عناية ودقة جعلتاني أشعر بالوقت يستطيل كل الطول، أعلن أن لا "حصوة" هناك ألبتة، ولكن "البروستاتا" كانت متحجرة، ومتضخمة إلى درجة غير عادية . ووجد أن المثانة كبيرة وفي حال جيدة، وانتهى بان أبدى لي أنني سأعاني كثيرا، ولكنني سأعيش طويلا . وإذا كان قد قدر للنبوءة الثانية أن تكتمل، كما اكتملت الأولى، فإن آلامي لم تقترب بعد من نهايتها!

وهكذا انتهى بي الأمر، بعد أن عولجت طيلة هذه السنين المتتالية من علل لم تكن بي، إلى أن أعرف أن دائي لم يكن منه شفاء، وإن لم يكن مميتا، وأنه خليك بأن يظل ما ظللت أنا على قيد الحياة . ولم يعد خيالي —بعد أن كبحت هذه المعرفة— يصور لي وفاة اليمه قاسية، تتم وسط الأوجاع الناشئة عن "الحصوة" . ومن ثم فقد كففت عن الخوف من أن تكون نهاية مسير كسرت —منذ أمد طويل— في القناة البولية، قد غدت نواة تكونت حولها "حصوة" . وإذا تحررت من شرور الوهم —التي كانت أقسى من أوجاع الحقيقة— رحت أتحمّل هذه الحقيقة في جلد وصبر . وليس من شك في أنني منذ ذلك الحين، أصبحت أقل توجعا من مرضي، من ذي قبل . وما تذكرت مرة أنني كنت مدينا بهذه الراحة إلى السيد دي "لو كسمبورج"، دون أن تهتز مشاعري من جديد، تأثرا لذكره!

وإذا عدت —بهذا— إلى الحياة، كما ينبغي أن يقال، أصبحت أكثر من ذي قبل انشغالا بإنجاز ما تبقى من مشروعي (٢) . ولم أكن أنتظر —لهذا الإنجاز— سوى ظهور "إميل" . وفكرت في "تورين" التي كنت قد زرتها من قبل، والتي راقبت لي، نظرا للطف جوها وأهلها .

"فالأرض العنون، الخصبة، البهيجة"

وأهلها يشبهونها في كل شيء" (٣)!

وكنيت قد تحدثت عن مشروعي إلى السيد دي "لو كسمبورج"، فحاول أن يشينني عنه . وعدت إلى أن أكلمه بصده كأمير استقر الرأي عليه . وإذا ذاك اقترح عليّ قصر "ميرلو" —الذي كان يقع على بعد خمسة عشر فرسخا من "باريس" — كملجأ قد يناسبني، وأعرب عن اغتباطه وزوجته بأن يرياني

(١) الأخ "كوم"، هو "جان باسيلاك"، الذي عاش بين سنتي ١٧٠٣ و١٧٨١، وكان حجة في "الحصوة" وعمل المثانة والكلى . وكان راهبا .

(٢) مشروع اعتزال الأدب والناس . (٣) بيت من الشعر اللاتيني للشاعر "ناسو" .

استقر فيه . ولقد صادف الاقتراح هوى من نفسي، فلم أر فيه ما يضير . وكان لابد من رؤية المكان، قبل كل شيء، فاتفقنا على أن يرسل وصيفه الخاص مع عربة، لتقلني إلى هناك في يوم محدد . ولكنني شعرت -في ذلك اليوم- بوعكة شديدة، ومن ثم أرجأت الرحلة . ثم تكاثفت عدة عوائق بعد ذلك، على أن تحول بيني وبين القيام بها . وإذ قدر لي -فيما بعد- أن أسمع أن ضيعة "ميرلو" لم تكن من أملاك السيد دي "لوكسمبورج"، وإنما كانت من أملاك زوجته، فإنني لم أجد كثير عناء في أن أعزي نفسي لعدم ذهابي إلى هناك !



وظهر "إميل" أخيراً، دون أن أسمع أي نبأ جديد عن حذف شيء آخر، أو عن أية عقبات . وكان السيد دي "لوكسمبورج" قد طلب إلي، قبل ظهور الكتاب، كل رسائل السيد "دي ماليزيرب" التي تتعلق بهذا المؤلف . ولقد حالت ثقتي بكل منهما، وشعوري بالطمأنينة التامة، دون أن أرى في هذا الطلب أية غرابة أو شبهة . ومن ثم فإنني أعدت الخطابات، عدا واحد أو اثنين، تخلفا عفواً بين صفحات بعض الكتب . وكان السيد "دي ماليزيرب" قد أشار -قبل ذلك بفترة من الزمن- إلى أنه قد يسحب الرسائل التي كتبها إلى "دوشين"، عندما كنت في جزع بشأن "الحميرويت" . ومن الواجب أن اعترف بأن هذه الرسائل لم تكن مما يشرف عقلي وتفكيري . ولكنني أنبأته بأنني لم أكن تواقاً إلى أن أظهر بمظهر بفضل حقيقتي بأية حال، وأن من الخلق به أن يدع الرسائل لـ "دوشين" . . . ولست أدري ما إذا كان قد فعل .

ولم يقابل ظهور هذا الكتاب بالضجة والإعجاب اللذين اعتادا أن يحفا بظهور كل مؤلفاتي . بل إن كتابا سواه لم يقابل بمثل ما قوبل به هو من إطراء من الخاصة، ومن استحسان واهن من العامة . فإن كل ما كتبه وقاله لي أقدر الناس على الحكم، عزز رأيي في أنه أفضل مؤلفاتي وأهمها قيمة . ولكن كل الذي قيل لي قيل في أغرب مظاهر التحوط والحذر، وكأنما كان من المهم تكتم الاستحسان، واعتباره سرا . . . فالسيدة "دي بوفليير"، التي ذكرت لي أن مؤلف مثل هذا الكتاب جدير بأن تقام له تماثيل، وأن يتلقى آيات التكريم من البشر قاطبة، رجعتني في نهاية رسالتها -في غير مواراة- بأن أرد إليها الرسالة . . . أما "المبسر" -الذي كتب لي ما معناه أن الكتاب قد أقر نفوقي وسمو شائي، وأنه خليف بأن يجعلني على رأس كافة الأدباء- فقد أغفل توقيع الرسالة، مع أنه اعتاد توقيع كل الرسائل التي أرسلها إلي قبل ذلك . ولقد كان "ديكلو" صديقا جديرا بكل ثقة، وكان رجلا صادقا، ولكنه كان حذرا حريصا . ومع أنه قدر هذا الكتاب تقديرا عاليا، إلا أنه تجنب إبداء أي رأي فيه كتابة . . . ولقد حمل "لاكروندين" على "إعلان الإيمان"، وراح يتخبط في أقواله . وكذلك اقتصر "كليرو" على عين هذا الجزء من الكتاب -في رسالته- ولكنه لم يخش أن يجاهر بمدى تأثره بقراءته، فاطلعتني بعبارات صريحة على أن هذه القراءة قد بعثت الدفء في نفسه العجوز . وكان -دون جميع من أرسلت إليهم كتابي- الوحيد الذي أعلن على الملا جهورا وبصوت مدو، مدى إعباره هذا الكتاب .

أما "متي" -الذي كنت قد أعطيته إحدى النسخ الأولى، قبل أن يعرض الكتاب للبيع- فقد أعار السيد "دي بليير" المستشار البرلماني، ووالد ممثل الحكومة في "ستراسبورج"، هذه النسخة . . . إذ كان للسيد "دي بليير" بيت ريفي في "سان جراسيان" وقد اعتاد "متي" -الذي كان من معارفه القدامى-

أن يزوره من آن إلى آخر، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن ثم فقد مكنته من أن يقرأ "إميل" قبل صدوره، فلما رد السيد "دي بليس" إليه الكتاب، أفضى بهذه الملاحظة، التي رددت على سمعي في اليوم ذاته: "هذا كتاب جديد بديع يا سيد "متي"، ولكنه لن يلبث أن يثير أحاديث تتجاوز ما قد يوده المؤلف". ولقد اكتفيت، حين ردد لي هذا القول، بأن أضحك، ولم أر في هذه الملاحظة أكثر من مجرد مظهر من أساليب المستشارين، الذين يحبون أن يصفوا جوا من الغموض على كل شيء. وهكذا لم تترك كل التعليقات المشحونة بالقلق، والتي نغمت إلي، سوى أثر ضئيل في نفسي. فقد كنت أبعد من أن أبصر الكارثة التي كانت موشكة أن تحيق بي، مقتنعا بجمال مؤلفي ونفحة، وانقا بانه في حدود القانون من كل ناحية، مرتكنا - كما خيل إلي - إلى كل ما للسيدة "دي لوكسمبورج" من نفوذ، بل وإلى رضاء الوزراء كذلك. فرحت أحبذا لنفسي القرار الذي اتخذته باعتزال الأدب وأنا في غمرة انتصاراتي، وبعد أن سحقت كل الحاسدين لي.

ولم يزعجني من نشر هذا الكتاب سوى شيء واحد، ولم يكن إزعاجه صادرا عن مراعاة لسلامتي، بقدر ما كان منبعثا عن رغبة في أن أطمئن ضميري. ذلك أنني كنت قد شهدت عن كثب، وباستنكار - أثناء وجودي في "ليرميلاج" و "مونغورنسي" - المنغصات التي كان تنافس الأمراء على اللهو يفرضها على الفلاحين البائسين، فيضطروهم إلى تحمل الحسائر، التي كانت تصيب حقولهم من جراء الصيد والقتص، دون أن يجسروا على الذود عن هذه الحقول إلا بإحداث الضجة، ويضطروهم إلى أن يقضوا الليالي بين فولهم وبازلاتهم، وهم يدقون على الأواني والطبول والاجراس، لينفروا الوعول البرية. ولقد شهدت الوحشية القاسية التي كان السيد "الكونت دي شالروا" يعامل بها هؤلاء المساكين، فحملت - عندما أوشكت على نهاية "إميل" - حملة شعواء على هذا التصرف القاسي. وكان هذا العمل مني، خرقا آخر لمبادئ، ولم يقدر له أن يمضي دون ما عقاب. فقد سمعت أن رجال السيد الأمير "دي كونتي"، لم يخففوا من قسوتهم على فلاحيه أراضيه. ورحت أرتجف خشية أن يكون هذا الأمير - الذي كنت أكن له أعمق مشاعر الاحترام والعرفان - قد حمل على محمل الإساءة إليه، ما دفعني الشمم الإنساني إلى أن أوجهه إلى عمه "الكونت دي شارلروا"، على أنني رحت أطمئن نفسي، فقد كان ضميري يبرر كل التبرير حملتي هذه، وقد كنت مصيبا في ذلك. إذ إنني لم أسمع قط أن هذا الأمير العظيم قد أبدى أنفه اهتمام لهذه الفقرة التي كتبتها قبل أن أحظى بشرف التعرف إليه، بوقت طويل.



ولقد ظهر قبل نشر كتابي بأيام قلائل، أو بعده - إذ إنني لا أذكر الوقت تماما - كتاب آخر في الموضوع ذاته، نقل بنصه عن الجزء الأول من مؤلفي - كلمة بكلمة - فيما عدا بعض تعديلات نشرت خلاله. وكان هذا الكتاب يحمل اسم شخص من "جنيف" كان يدعى "باليكسير"، قيل - على ما جاء في عنوانه - أنه كان قد فاز بجائزة مجمع "هارليم". وأدركت دون عناء أن هذا المحفل، وهذه الجائزة ابتدعا حديثا، لتعمية الرأي العام عن السرقة. بيد أنني رأيت - كذلك - أن في هذا مؤامرة داخلية، لم أستطع أن أدري أكانت تتمثل في نقل مخطوطي إلى الناشر - الأمر الذي لم يكن من سبيل إلى السرقة بدون - أم في إنشاء قصة الجائزة المزعومة، التي كانت تستدعي ضرورة إنشاء الهيئة التي منحها... ولم أستطع أن أبدد هذا الغموض إلا بعد سنوات عديدة، وبناء على كلمة أفلتت من

"ديفيرنوا" فمكنتني من أن أتبين خلال الأحداث أولئك الذين رسموا دور السيد "باليسكيو" ١ وبدأت الغمضة المكتومة التي تسبق العاصفة، تتناهى إلى السمع، ورأى كل من أوتي بصيرة ثابتة، أن ثمة مكيدة كانت تتفاعل، لتحقيق بكتابي وبني، وأنها لن تلبث أن تنفجر. أما أنا، فإن اطمئنانني وغبائي كانا من الضخامة بحيث إنني لم أبصر محنتي.. بل إنني لم أحس شيئا عن سببها، بالرغم من أنني بدأت أشعر بأثرها. فقد تمثلت بدايتها في دهاء بارع، اتجه إلى الترويج لفكرة مؤداها أن المعاملة القاسية التي كان "الجميزيوي" يلقونها، ما كان ينبغي أن توحى بأي سبيل إلى إبداء العطف نحو الكتب والمؤلفين الذين يهاجمون الدين. ولقد وجه إلي اللوم لأنني وضعت اسمي على "إميل"، وكأنني لم أكن قد وضعته على كتاباتي الأخرى دون أن يقال لي شيء عن ذلك، وبدا كأنما كان ثمة خوف من أن يضطر القوم إلى اتخاذ خطوات قد يأسفون لها، ولكن الظروف كانت تجعلها ضرورية، وكانت رعونتي قد مهدت السبيل إليها!

ولقد بلغتني هذه الأقاويل، ولكنها لم تسبب لي أقل قلق بل إنه لم يخطر لي إطلاقا أن في المسألة كلها ما يمسنني شخصا.. أنا الذي كنت أشعر بأنني فوق كل لوم، وأنتي مؤيد أشد تأييد، وأنتي بخير من كافة النواحي، وأنه لم يكن لي أن أخشى أن تتركني السيدة دي "لوكسمبورج" وسط المأزق، من أجل ذنب إذا كان قد ارتكب حقا، فقد كانت هي منشاء الأوحاد.. على أنني لما كنت قد عرفت من تطورات الأمور عادة -في مثل هذه القضايا- أن السخط كان ينصب على الناشرين، دون المؤلفين، فقد داخلني القلق من أجل "دوشين" المسكين، لو أن السيد "دي هاليزيرب" تخلى عنه!

وظللت ساكنا.. وتضاعفت الشائعات، وسرعان ما تغيرت لهجتها، وبدا أن الرأي العام، والبرلمان بوجه خاص، قد أهاجمها صمتي. وبعد أيام قلائل، أصبح الأنفعال فظيحا، وتبدل هدف التهديدات وأصبحت موجهة إلي -أنا بالذات- مباشرة، وسمعت أعضاء البرلمان يقولون بكل صراحة أن لا نفع يرجى من إحراق الكتب، وإنما يجب إحراق المؤلفين، أما الناشرون، فلم تذكر كلمة واحدة عنهم.. وفي المرة الأولى التي رددت فيها أمامي هذه الآراء -التي كانت أجدر بأن تصدر عن محقق مغرض، وليس عن عضو في الشيوخ- لم يداخلني أي شك في أنها كانت ابتكارا من عصبة "دولباخ"، أريد به إثارة ذعري، ودفعي إلى الفرار. وضحكت لهذه الحيلة الصيبانية، وقلت لنفسني وأنا أسخر منهم، إنه لو أتيت لهم أن يعرفوا حقيقة الأمور، لبخشوا عن وسيلة أخرى لإرهابي، بيد أن الشائعة لم تلبث أن بلغت من الوضوح ما أوحى بأنها جدية. وكان السيد والسيدة دي "لوكسمبورج" قد بكرا في زيارتهما الثانية لـ "مونفورنسي"، بحيث إنهما كانا هناك في بداية شهر حزيران (يونيو). ولم أسمع في دارهما حديثا يذكر عن كتابي الجديدين، برغم الضجة التي أحدثاها في "باريس"، كما أن ربي الدار لم يحدثاني إطلاقا في هذا الصدد.

ومع ذلك، فقد تصادف أن كنت على انفراد مع السيد دي "لوكسمبورج" -ذات صباح- فسألني: "هل تحدثت بسوء عن السيد "دي شوازيل" في كتاب: "العقد الاجتماعي"؟". فاجفلت دهشة، وقلت: "أنا؟.. يقينا لا! أقسم لك. على أنني قدمت له عكس هذا.. فيقول لم يكن يوما متملقا، كتبت فيه أبداع إطرء حظي به وزير، في أي يوم من الأيام!". وأردفت بأن تلوت عليه الفقرة كلها فعاد يتساءل: "وفي "إميل"؟". فاجبت: "ولا كلمة.. ليست به كلمة واحدة تتعلق بالسيد". فهتف في حرارة لم تكن من عادته: "آه!.. كان خليقا بك أن تفعل الشيء ذاته في الكتاب الآخر، أو

أن تكون أكثر وضوحا فيما كتبت^١. فاجبت: "لقد خلت أنني فعلت.. ولقد قدرته تقديرا كافيا". وكان علي وشك أن يرد إلي القول، ولخت أنه كان يتأهب لأن يصارحني بما كان يخفي، ولكنه كبح نفسه، ولاذ بالصمت. فما أنعم سياسة عضو حاشية الملك، إذ إنها تطفى على الصداقة ذاتها، في أحسن القلوب^١

ولقد أثار هذا الحديث -على قصره- بصيرتي، بشأن موقفني -أو بشأن ناحية معينة، على الأقل- وجعلني أدرك أنني كنت هدف المهاجمين. ورحت أنعمي هذا النحس -الذي لا نظير له- والذي قلب إلى غير صالحه كل طيب قلته أو فعلته. ومع ذلك، فقد ظلت أشعر بأنه كان لي أن اعتمد في هذه المسألة على السيدة "دي لوكسمبورج"، والسيد "ماليزيرب"، فلم أر كيف كان في الوسع إزاحتهما للوصول إلي. إذ إنني -منذ تلك اللحظة- شعرت بجلاء أن المسألة لم تعد مسألة إنصاف أو عدالة، وأنه لن يكون ثمة أكثرات بنين ما إذا كنت مخطئا حقا، أو لم أكن. على أن هدير العاصفة أخذ يزداد شيئا فشيئا. بل إن "نياولم" نفسه، لم يلبث أن أطلعني خلال ثرثرته المسهبة، على أسفه لأنه أقحم نفسه في هذا المؤلف، وعلى يقينه من سوء الطالع الذي كان يتهدد الكتاب وكتابه. ومع ذلك، فقد بقي أمر واحد ظل يطمئنني دائما: فلقد كنت أرى السيدة "دي لوكسمبورج" جد هادئة النفس، مطمئنة، بل وضاحكة، مما أوحى بأنها كانت واثقة بنفسها، إذ إنها لم تبد أي قلق من ناحيتي، ولم تنبس بكلمة إشفاق أو اعتذار، وأنها كانت ترمق تطور هذه المسألة في هدوء، وكأنما لم تكن لها يد فيها، أو كأنها لم تكن تشعر بأنفه اهتمام بأمرى... ولم يكن يدهشني سوى أنها لم تقل لي شيئا البتة، إذ لاح لي أنه كان خليقا بها أن تقول لي شيئا ما. أما السيدة "دي بوفليير"، فقد تراءت أقل طمانينة، وكانت تروح وتغدو، والاضطراب يلازمها، وتسرف في الحركة، وتؤكد لي أن السيد الأمير "دي كونسي" كان يبذل الكثير لصد الضربة التي كانت تعد لي، والتي كانت تعزوها دائما إلى الأحوال الراهنة، التي كان على البرلمان فيها ألا يتيح للـ "جيزويت" فرصة اتهامه بالتهاون إزاء الدين. على أنها كانت تبدو قليلة الثقة في نجاح خطوات الأمير وخطواتها. وكانت أحاديثها أدعى إلى الجزع، منها إلى التسرية، فقد مالت دائما إلى حملي على مغادرة البلاد. وكانت لا تني تنصحيني بالنزوح إلى "إنجلترا"، حيث كان بوسعها أن تتيح لي كثيرا من الأصدقاء بينهم "هيوم" الشهير، الذي كان صديقا لها منذ أمد طويل. وإذ رأيتني سادرا في سكينتي، اتخذت نهجا آخر كان أقدر على زحزحتي من جمودي. فقد أوحى إلي بأنني قد اضطر -إذا قبض علي، واستجوبت- إلى أن أذكر اسم السيدة "دي لوكسمبورج"، وبأن صداقتها لي كانت تستحق ما هو أفضل من أن أعرض نفسي للاضطراب لإخراجها... ولقد أجبته بأن بوسعها أن تطمئن إلى أنني لن أقحمها في مثل هذه الحال. فردت بأن هذا العزم أيسر قولاً منه تنفيذاً، وقد كانت على صواب في ذلك، لا سيما معي أنا بالذات، إذ كنت مصرا كل الإصرار على ألا أحلف كذبا، أو أقول زورا أمام القضاء، مهما يكن الخطر الذي قد يترتب على قول الحق!

وإذ رأت أن هذه الفكرة قد أثرت في نفسي، وإن لم يكن بوسعي بعد أن أحمل نفسي على الفرار، راحت تتحدث إلي عن "الباستيل" -بضعة أسابيع- كوسيلة للتهرب من سلطة البرلمان التشريعية، إذ لم يكن للبرلمان أي شأن بمسجوني الحكومة. ولم أبدأ اعتراضا على هذا الكرم العجيب، على شريطة ألا يلتبس باسمي. ولما لم تعد إلى الحديث عن هذا الاقتراح مرة أخرى، أدركت أنها إنما أبدته لتبلوني، وأن حيلة كهذه -تضع نهاية لكل شيء- لم تكن مرغوبة!

بعد ذلك بأيام قلائل، تلقى السيد "المارشال" من أسقف "دويمى" -صديق "جورج" والسيدة "ديبيناي" - رسالة ضمنها نبأ قال: إنه من مصدر موثوق به، عن اعتزام البرلمان أن يتخذ إجراءات غاية في القسوة ضدي، وأن مرسومًا بإلقاء القبض علي سيصدر في يوم حدده. ورايت أن هذا النبأ فرية من عصابة "دولباخ"، فقد كنت أعرف أن البرلمان كان شديد الحرص على الشكليات، وأنه من الانتهاك لجميع هذه الشكليات أن يبدأ -في هذه المناسبة- بمرسوم بالاعتقال، قبل أن يتثبت بالطرق المشروعة مما إذا كنت أعترف بالكتاب وبأنني كنت مؤلفه حقًا. وقلت للسيدة "دي بوفليير": "إن أمر الاعتقال -المبني على مجرد البلاغ العادي- لا يصدر إلا في حالة تلك الجرائم التي تمس الأمن العام، وذلك خشية تمكن المجرمين من الفرار أما إذا أريد عقاب ذنب كذني، لا يستحق سوى التكريم والمكافأة، فإن العرف يقضي باتخاذ الإجراءات القضائية ضد الكتاب، مع تفادي المساس بالمؤلف قدر الإمكان". وعند ذلك نبهتني إلى فارق دقيق، كنت قد نسيت، لتبين لي أنه كان من التكريم لي أن يصدر قرار بالقبض علي، بدلا من استدعائي لسماع أقوالي!

وتلقت في اليوم التالي رسالة من "جساي" الذي أنبأني بأنه كان -في عين اليوم الذي كتب فيه الرسالة- في زيارة للسيد المدعي العام، فلمح على مكتبه مسودة "دعوى" ضد كتاب "إمميل" ومؤلفه. ولاحظوا أن "جساي" كان شريكاً لـ "دوشين" الذي طبع الكتاب، وأنه كان مطمئنا إلى حسابه الخاص، فتطوع لإزجاء هذا النبأ إلى المؤلف من قبيل الإحسان... وكان من البسيط، بل من الطبيعي، أن يتاح لتاجر كتب قدر له أن يزور السيد المدعي العام، أن يقرأ -في هدوء- المخطوطات والمسودات المتناثرة على مكتبه!!... ولقد أكدت لي السيدة "دي بوفليير" وغيرها أن الأمر كان صحيحا. ومن جراء السخافات التي كانت تلقى في أذني دون انقطاع، أصبحت ميالا إلى الاعتقاد بأن الناس جميعا قد اختبلوا!

وشعرت بيقين بأن ثمة سرا وراء كل هذا، سرا كان يحجب عني، فرحت أرقب في هدوء مجرى الأحداث، وأنا وطيء الثقة باستقامة مسلكي، وبراءتي في المسألة بأسرها. بل إنني كنت جد سعيد بأن أساق إلى شرف المعانة في سبيل الحقيقة، مهما يكن الجور الذي يرتقبني. وبدلا من أن أخاف وأستتر، واطبعت على زيارة القصر يوميا، وعلى التريض على قدمي -كعادتي- في أصيل كل يوم. وفي اليوم الثامن من شهر حزيران (يونيو) -وهو اليوم السابق لإصدار المرسوم- قمت برياضتي في صحبة أستاذين من الوعاظ، هما الأب "الماني" والأب "هافندار". وحملنا معنا بعض القوت، إلى "شامبو"، حيث استمتعنا بوجبة شهية. وكنا قد نسينا أن نحمل معنا أكوابا، فاستعضنا عنها بأعواد من القش، رحنا نمتص خلالها الشراب من الزجاجات، متلهفين على اختيار أسماك الأعواد، لكي نرى أيها أكثر قدرة على الامتنصاص. وما كنت يوما أكثر مني طربا في ذلك اليوم!

ولقد ذكرت كيف أنني كنت أعاني الأرق في صباي. ولقد تعودت من ذلك الحين أن أقرأ في السرير -في كل ليلة- حتى أشعر بعيني تغفوان، فأطفئ الشمعة، وأحاول أن أنام لبضع دقائق، لم تكن تدوم طويلا. وكانت مطالعاتي الليلية المعتادة هي "التوراة"، واستطعت بهذه الطريقة أن أقرأها خمس مرات أو سنا، على الأقل. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، وجدت نفسي أكثر يقظة من المعتاد، فواصلت القراءة فترة أطول، حتى أتيت على السفر الذي ينتهي بقصة "اللاويين" و"أقرايم"، وهو "سفر القضاة" إذا لم تخني الذاكرة، إذ إنني لم أنظر إليه قط منذ ذلك الحين. ولقد تأثرت كل التأثر بهذه القصة. وكنت مستغرقا في التفكير فيها، بين النوم واليقظة، عندما انتبهت فجأة إلى ضجة

وضوء. وكانت "تيريز" هي التي حملت الضوء، وتقدمت تقود السيد "لاروش"، الذي قال: إذ رأيته أجفل مذعورا: "لا تنزعج!.. لقد أقبلت من لدن السيدة "المارشالة"، التي كتبت لك، كما أرسلت إليك خطابا من السيد الأمير "دي كونتي". وفعلنا وجدت داخل رسالة السيدة "دي لوكسمبورج"، رسالة من الأمير حملها إليها أحد رسله، وقد ضمنها أنه قد تقرر -برغم كل جهوده- اتخاذ أقسى الإجراءات ضدي. ومما ذكره: "إن الانفعال بالغ الشدة، ولا سبيل إلى منع هذه الضربة، فالبلاط يطالب بها، والبرلمان راغب فيها. وفي الساعة السابعة صباحا، سيصدر المرسوم بإلقاء القبض، وسيجري تنفيذه في الحال. وقد توصلت إلى أنه لن يطارد إذا بادر إلى الابتعاد، أما إذا أصر على رغبته في أن يسلمهم نفسه، فسيلقى القبض عليه". وراح "لاروش" يستحلفني -باسم السيدة "المارشالة"- أن أبادر فأذهب للتشاور معها. وكانت الساعة الثانية صباحا، وقد أوتت إلى مخدعها، ولكنه أضاف: "إنها في انتظارك، ولن تنام حتى تراك". فبادرت إلى ارتداء ثيابي، وأسعرت إليها!

وبدت لي مضطربة، لأول مرة. ومس قلقها مشاعري. وما كنت بمنجى من الانفعال -أنا الآخر- في هذه اللحظة المفاجئة -في جوف الليل- ولكنني نسيت نفسي حين رأيته، فلم أعد أفكر إلا فيها، وفي الدور المحزن الذي كان عليها أن تؤديه، إذا أسلمت نفسي. ذلك لأنني في شعوري بأنني أوتيت الشجاعة على ألا أقول سوى الحق -ولو أدى ذلك إلى الإضرار بي وإلى إهلاكى- لم أتوقع أن يكون لدي من حضور الذهن، أو الدهاء، بل ولا أن يكون لدي الجلد الكافي على أن أتحاشى إقحامها، إذا ما اشتد الضغط علي. ودفعتني هذا إلى أن أقرر أن أضحي بسمعتي في سبيل راحة بالها، وأن أفعل من أجلها -في هذه المناسبة- ما لم يكن في وسع أية قوة أن تغريني على أن أفعله من أجل نفسي. وما إن استقر رأبي، حتى أعلنته لها، غير راغب في أن أحط من قيمة تضحيتي بأن أمكنها من أن تشتريها! وإنني لوائق بأنها ما كانت لتخطئ فهم الخافز الذي دفعني إلى ذلك. بيد أنها لم تفه لي بكلمة توحى بأنها قدرت هذا الخافز. ولقد بهت لهذا التغافل، حتى لقد وجدتني أوازن بين المضي والتراجع. ولكن السيد "المارشال" أقبل، كما وصلت السيدة "دي بوفلير" من "باريس" بعد لحظات، ففعلنا ما كان خليقا بالسيدة "دي لوكسمبورج" أن تفعله. واستسلمت لإطراءاتهما، فقد استحييت من أن أتراجع، ولم تعد ثمة مسألة سوى اختيار المكان الذي ألوذ به، وموعد رحيلي. وعرض السيد "دي لوكسمبورج" أن أبقى أياما مستخفيا في داره، لأن هذا يتيح لي وقتا للتدبير وأبث في بحبوحة من الوقت. ولم أقبل هذا إطلاقا، ولا قبلت اقتراح الانتقال سرا إلى قلعة الأسرة، بل أصررت على رغبتي في الرحيل في اليوم ذاته، مفضلا هذا على البقاء مستخفيا في أي مكان!



ولما كنت قد شعرت بأن لي أعداء مستترين وأقوياء في المملكة، فقد رأيت أن لا بد لي من أن أغادر "فرنسا" -برغم حبي إياها- لأضمن راحة بالي. وكانت رغبتي الأولى هي أن أُلجأ إلى "جنيف"، ولكن لحظة تفكير واحدة، كانت كافية لأن تحولني عن ارتكاب هذه الحماقة. فقد كنت أعرف أن الحكومة الفرنسية -التي كان لها في "جنيف" نفوذ يفوق مالها في "باريس"- لن تدعني في سلام في أي من هاتين المدينتين، إذا كانت قد عقدت عزمها على اضطهادي. وكنت أعرف أن كتابي: "حديث في عدم المساواة" قد أثار ضدي -في المجلس- كراهية كان يزيد من خطورتها أن هذه الهيئة لم تكن تجسر على أن تكشفها علانية. ثم إنني كنت أعرف أن المجلس كان شديد

التحسس لتحريم تداول كتابي "هيلويز الجديدة"، عند ظهوره -بناء على تحريض الدكتور "تروشان"- ولكنه حين تبين أن أية هيئة أخرى لم تحذره -ولا في "باريس" ذاتها- خجل من خسته، ورجع عن التحريم. لذلك لم يخالجنى شك في أن المجلس إذا ما وجد الفرصة الراهنة سانحة، لن يدخر وسعا في استغلالها. وكنت أدرك أن ثمة غيرة خفية توغر صدور كل أهل "جنيف" ضدي -برغم كل المظاهر الجميلة- وأن هذه الغيرة لم تكن ترجو سوى مناسبة سانحة لتشيع نهمها. ومع ذلك فإن الشعور الوطني كان يدعوني إلى العودة إلى وطني، ولو أنني استطعت أن أقنع نفسي بأنه كان في وسعي أن أعيش في سلام هناك، لما ترددت لحظة. أما وقد كانت الكرامة والعقل لا يقران أن ألوذ بوطني كلاجئ، فقد عزمت، على أن أقيم على مقربة منه فحسب، فأمكث في "سويسرا" في انتظار ما قد يجري في "جنيف" بشأني. ولسوف يتجلى أن هذا التردد لم يدم طويلا!

وعارضت السيدة "دي بوفليير" هذا القرار طويلا، وعادت تبذل جهودا جديدة لحملني على أن أنتقل إلى "إنجلترا". ولكنها لم تزعزع عزمي، فما أحببت قط "إنجلترا" ولا الإنجليز. وبدلا من أن تتغلب لباقة السيدة "دي بوفليير" على نفوري، بدا أنها راحت تضاعفه، دون أن أدري السر في ذلك.

وإذ اعتزمت الرحيل في اليوم ذاته، فقد شرعت في ذلك منذ الصباح، واعتبرتني مسافرا بالنسبة للجميع، ومن ثم فإن "لاروش" -الذي كنت قد أرسلته ليحضر إلي أوراقي- لم يشأ أن يقول لـ "تيريز" نفسها ما إذا كنت قد رحلت أو لم أرحل. وكنت منذ اعتزمت يوما أن أكتب ذكريات حياتي، فقد جمعت عددا من الرسائل والأوراق، ومن ثم فقد اضطر إلى أن يذهب إلى داري عدة مرات لنقلها. وكانت هذه الأوراق -التي فحصتها من قبل- قد جمعت على حدة، لذلك قضيت بقية الصباح في فحص الأوراق الأخرى، معتزما ألا آخذ معي إلا ما يكون ذا نفع لي، وأن أحرق الباقي. ولقد رغب السيد "دي لوكسمبورج" في أن يساعدني في هذا العمل، الذي استغرق وقتا طويلا، حتى إننا لم نستطع أن نفرغ منه في فترة الصباح، ولم أجد متسعا من الوقت كي أحرق شيئا. فعرض السيد "المارشال" أن يتكفل بفحص الأوراق المتبقية، وأن يحرق بنفسه الفضلات -دون أن يدع هذه المهمة لأحد سواه- وأن يرسل إلي كل ما يستبقيه. ولقد قبلت هذا العرض وأنا جد مغتبط بأن أحرر من هذا الشاغل، حتى أتمكن من أن أقضي الساعات القلائل التي مازالت باقية لدي، مع أولئك الذين كانوا جد أعزاء علي، والذين كنت مزمعا فراقهم إلى الأبد... وأخذ السيد "المارشال" مفتاح الحجرة التي تركت فيها هذه الأوراق، وأرسل -تحت إلحاحي الدائب- في استدعاء "عمتي" المسكينة، التي كانت تكتوي بالحيرة القاتلة إزاء ما قد جرى لي، وما هو موشك أن يجري. والتي كانت ترتقب الجنود -في كل لحظة- دون أن تدري كيف تعاملهم، ولا ما ينبغي أن نجيبهم به!

وأحضرها "لاروش" إلى القصر، دون أن يذكر لها شيئا. وكانت تظنني قد أصبحت على بعد شاسع. فما إن رأته، حتى أطلقت صرخاتها الحبيسة، وارتمت بين ذراعي. فيا للمودة، ويا لتجاوب القلوب، ويا للمعاشرة، ويا للالفة!... لقد تجمعت في تلك اللحظة -العذبة والقاسية- كل الأيام الهنيئة، الناعمة، الواعدة، التي قضيناها معا، لتزيدني شعورا بوطاة أول فراق لنا، بعد أن كان كل منا لا يكاد يغيب عن بصر الآخر يوما واحدا، خلال فترة تقرب من سبعة عشر عاما!... ولم يقو "المارشال" -الذي كان يشهد هذا العناق- على كبح دموعه، فتركنا!... ولم تشأ "تيريز" أن تفارقني، فأوضحت لها ما في مرافقتها إياي -في تلك الظروف- من صعاب، وضرورة بقائها لكي

تسوي شؤوني، وتحصل أموالني . ولقد كان من المعتاد -عند إصدار مرسوم بالقبض على امرئ- أن يستولى على أوراقه، أو أن توضع الاختام على مقتنياته، أو أن يوقع الحجز عليها ويعين وصي لحراستها . ومن ثم فقد كان من اللازم أن تبقى هي ؛ لكي تراقب ما يجري . وتبذل قصارى وسعها . ووعدتها بأنها لن تلبث أن تلحق بي في القريب . وقد عزز السيد "المارشال" وعدي، ولكنني لم أشأ قط أن أنبئها بالمكان الذي كنت اعترم الذهاب إليه، حتى إذا سألتها أولئك القادمون للقبض علي، كان بوسعها أن تعرب عن جهلها بذلك صادقة . وعندما احتضنتها في لحظة الفراق، شعرت بانفعال عاطفي غير عادي . فقلت لها في حرارة، وكأنما كنت -والأسفاه- أنبأ بما يضمنه المستقبل : "عليك أن تشذري بالشجاعة يا بنيتي !.. لقد قاسمتني نعيم الأيام الحلوة، وبقي عليك -مادامت هذه رغبتك- أن تشاطريني محني . فلا تتوقعي سوى الإهانات والنكبات إذا تبعته . إذ إن الحظ الذي يبدأ معي اليوم، سيتعقبني إلى آخر ساعة في حياتي" .

ولم يبق لي ما أفعله سوى أن أدبر أمر رحيلي .. كان من المتوقع أن يكون رجال الأمن قد وصلوا في الساعة العاشرة، ولكن الساعة كانت الرابعة -بعد الظهر- عندما انطلقت، دون أن يكونوا قد وصلوا بعد . وكان الرأي قد استقر على أن أسافر بعربة البريد، ولكنني لم أجد محفة تقلني إلى هناك، فأهداني السيد "المارشال" عربة خفيفة ذات عجلتين، وأعارني جوادين وحوديا، ريثما أبلغ المحط التالي، حيث لم أجد عناء في الحصول على جياد، بفضل التدبيرات التي كان قد اتخذها .

ولم أكن قد تناولت غدائي على المائدة، ولا أظهرت نفسي في القصر، فجاءت السيدات لوداعي، في الطابق القائم بين الطابقين الأرضي والاول "الأنترسول"، حيث قضيت اليوم كله . وعانقتني السيدة "المارشال" عدة مرات في حزن باد، ولكنني لم ألمس في عناقها الحرارة التي كانت قد غمرتني بها قبل سنتين أو ثلاث . كذلك عانقتني السيدة "دي بوفليير" ووجهت إلي أعذب القول . وكان ثمة عناق فوجئت به دون توقع .. ذلك هو عناق السيدة "دي ميربوا"، التي كانت هناك، هي الأخرى ! فإن السيدة حرم "المارشال" "دي ميربوا"، سيدة فاترة العواطف إلى أبعد مدى، شديدة التكلف والتحفظ، ولا تخلو -كما يبدو لي- من الكبرياء والترفع اللذين يفسد عليهما أبناء أسرة "لورين" . ولم تكن قد أعارتني -من قبل- أي انتباه . وسواء كنت إذ ذاك ميالا إلى أن أضاعف من قيمة هذا الشرف غير المرتقب -وقد استخفني أن أحظى به- أو أنها مزجت حقا عناقها بقليل من العطف المألوف لدى القلوب الرحيمة، فإنني لمست في حركاتها ونظراتها قدرا من الصدق، مما أحدث في نفسي أبلغ الأثر . وكثيرا ما خيل إلي -عندما كنت أفكر في ذلك، فيما بعد- أنها كانت على دراية بالخط الذي قدر لي، فلم تقو على مقاومة إشفاق عابر، إزاء المصير الذي كان يرتقيني .

أما السيد "المارشال"، فلم ينبس ببنت شفة .. وكان في شحوب الموتى . ورغب -في إصرار- في أن يرافقني حتى المركبة التي كانت تنتظرنني عند حوض المياه . فقطعنا الحديقة بأسرها معا، دون أن نتبادل كلمة واحدة . وكان لدي مفتاح للمستنزه، استخدمته في فتح الباب، وبدلا من أن أضعه في جيبي بعد ذلك، رددته إلى السيد "المارشال"، دون أن أتفوه بشيء . فتناوله في لهفة مدهشة، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن التفكير فيها كثيرا، منذ ذلك الحين . ونادرا ما عانيت في حياتي لحظة أمر من لحظة هذا الفراق . وكان عناقنا طويلا، صامتا .. فقد كان كل منا يشعر بأنه الوداع الأخير !

وصادفت في الطريق بين "لايسار" و"مونمورنسي"، عربة مستاجرة، كانت تقل أربعة رجال في ثياب سوداء، حيوني مبتسمين . ومما أنبأتني به "تيريز" -فيما بعد- عن مظهر الضباط، وساعة

وصولهم، ومسلكتهم، لم يداخلني أي شك في أنهم كانوا نفس ركاب العربة، لا سيما أنني علمت —بعد ذلك— أن مرسوم إلقاء القبض علي، لم يصدر في الساعة السابعة صباحاً، كما قيل لي من قبل، وإنما أصدر في منتصف النهار. وكان لابد لي من أن أمر خلال "باريس" بأسرها، ولم تكن ثمة وسيلة للاستتار في مركبة صغيرة مكشوفة. ورأيت في الطرقات أشخاصاً كثيرين، حيواني شأن من كانوا يعرفونني، وإن كنت لم أعترف على واحد منهم!.. وفي مساء اليوم ذاته، انحرفت عن طريقي في دورة، لأعرج على "فيلروي". ذلك لأنه كان على المسافرين الذين ينتفعون بجياد المحطات، أن يسعوا إلى "حكمدار" المدينة، في "ليون". وكان هذا أمراً محرجاً بالنسبة لمسافر كان غير راغب في أن يكذب، ولا في أن يغير اسمه، ومن ثم فإنني ذهبت بخطاب من السيدة "دي لوكسمبورج" لأرجو السيد "دي فيلروي" أن يعمل على إعفائي من هذا الالتزام. فأعطاني السيد "فيلروي" رسالة لم أقد منها؛ لأنني لم أصر بمدينة "ليون". ولا يزال هذا الخطاب —بأختامه— بين أوراق. ولقد ألح السيد الدوق كثيراً، كي أنام ليلتي في "فيلروي"، ولكنني استحسنيت أن أواصل السفر، وبذلك قطعت مرحلتين آخرين، في اليوم ذاته.

وكانت مركبتي خشنة، كما أنني لم أحظ بقدر من الراحة يمكنني من المضي في الرحيل أبانما بطولها. وإلى جانب ذلك، لم يكن لي من فخامة المظهر ما يمكنني من أن أحظى بالخدمات. ومن المعروف في فرنسا أن خيل البريد لا تشعر بالسوط إلا عبر كسفي الخوذي، ومن ثم فقد خيل إلي أنني كنت أستطيع أن أستهين بالسخاء في عطاء الأدلاء والمرشدين، عن كلمات وإرشادات الوعيد. ولكن هذا زاد الأمر سوءاً، فقد ظنوا أنني أفاق، موفد في مهمة، وأنني لم أعتد سوى السير على القدمين، وإنني كنت أسافر مستخدماً خيل البريد، للمرة الأولى في حياتي. ومن ذلك الحين لم أعد أحصل إلا على ضعاف الخيل، كما أصبحت العوبة الخوذية. وانتهى بي الأمر إلى ما كان يجب أن أتبعه من البداية، فأثرت الصبر والصمت، وتركهم يتصرفون وفق هواهم!

وكان لدي ما يصونني من السأم خلال الرحلة، إذ أسلمت نفسي إلى المخاطر التي راحت تصور كل ما جرى لي. غير أن هذه لم تكن محور فكري، ولا ملتبس في فؤادي. فإن السهولة التي أنسى بها كل سوء انقضى —مهما يكن حديث العهد— تدعو إلى العجب!.. وبقدر ما يزعجني ترقب الحن التي أتمثلها في المستقبل، فإنها لا تعاود ذهني —بمجرد وقوعها— إلا في وهن، ثم تتلاشى دون عناء!.. ذلك لأن خيالي القاسي، الذي يضني نفسه —بلا انقطاع— في ارتقاب النوائب قبل أن تحين، لا يلبث أن يشتت ذاكرتي، ويحول دون أن أسترجع ذكرى ما انقضى من هذه النوائب. فلا حيلة هناك إلا أن ماو لي، ومن ثم فلا جدوى من الانشغال به. والواقع أنني استنفدت محني مقدماً، بطريقة ما، فكلما اشتد عنائي في ارتقابها، سهل عليّ نسيانها!.. في حين أنني —على العكس من ذلك— لا أنفك أشغل بالتفكير في ماضي هنائي، فأذكركه وأجتره —كما ينبغي أن يقال— إلى درجة أنني أستطيع أن أستمع به من جديد عندما يحل لي!.. وأعتقد أنني مدين لهذا الطبع السعيد بأنني لم أعرف قط ذلك المزاج الناقم الذي يتخمر في قلب حقود —من جراء التفكير المستمر في الإساءة التي حاقت— والذي يعذب نفسه بكل ما يخطر له من شر يريد أن يوقعه بعده!.. وإذ كنت بطبيعتي حاد المزاج، فإنني أشعر بالغضب، بل وبالهياج، في عنفوان اللحظة، ولكن الرغبة في الانتقام لم تغفل قط في فؤادي. فما أقل ما أفكر في الإهانة، وما أكثر ما أفكر في صاحبها، ولست أفكر في الضرر الذي تلقيته منه، إلا تقديرًا لما قد أتلقاه من ضرر جديد منه، فإذا ما وثقت بأنه لن يلحق بي مزيداً من الضرر، فإن

الضرر الذي ألحقه بي من قبل، لا يلبث أن يروح في أدراج النسيان... إننا كثيرا ما نوعظ بالصفح عن الإساءات، وهي فضيلة جد بدیعة ولا ريب، بيد أنها لا تصلح لي. فانا أجهل ما إذا كان قلبي قادرا على إيواء البغضاء، لأنه لم يحس بشيء منها قط... كما أنني أقل تفكيرا في إعفائي من أن أكتسب فضيلة الصفح عنهم!.. ولن أقول إلى أي مدى يعذب أعدائي أنفسهم لكي يعذبوني. فانا تحت رحمتهم، ولديهم كل السلطان، وإنهم ليستخدمونه!.. على أن ثمة شيئا واحدا فرق سلطانهم، وإنني لاتحداهم أن يفعلوه.. ذلك هو أنهم لا يملكون -مهما يعذبوا أنفسهم بسبي- أن يضطروني إلى أن أعذب نفسي من أجلهم!

ومن ثم فإنني -في غداة رحيلي- نسبت كل ما جرى، والبرلمان، والسيدة "دي بومبادور"، و السيد "دي شوازيل"، و"جرم"، و"المبير"، والمتأمرين معهم والمتآمرات، حتى إنني ما كنت لأفكر ثانية فيهم، لولا الاحتياطات التي كنت مضطرا إلى أن اتخذها.. وواتني -بدلا من كل هذا- ذكرى أخرى هي مطالعاتي في عشية اليوم السابق على رحيلي. كذلك تذكرت قصائد الرعاة للشاعر "جيسنر" التي ترجمها "هوبير" وأرسل إلي نسخة منها منذ زمن. ولقد راحت هاتان الذكريان تترددان على فكري، وتمتزجان بشئى الاشكال في عقلي، حتى اعتزمت أن أحاول الجمع بينهما، بأن أعالج موضوع قصة "اللاويين وأفرام"، على طريقة "جيسنر". على أن أسلوب قصائد الرعاة بدأ -في بساتنه- قليل الملاءمة لموضوع رهيب كموضوع قصة التوراة، كما أن من العسير تصور أن حالي الراهنة كانت كفيلة بأن تمدني بإفكار جديدة تخفف من قتامة الموضوع. ومع ذلك فقد أقدمت على التجربة، لمجرد التسلية في مركبتي، ودون ما أمل في التوفيق. فما إن بدأت، حتى ذهلت لسلسلة افكاري، والسهولة التي أخذت أعبر بها عنها. وفي ثلاثة أيام، نظمت الأناشيد الثلاثة الأولى في هذه القصيدة التي لم البت أن أتمتها في "موتير". واعتقد أنني لم أولف في حياتي شيئا يفوقها فيما سادها من رقة مؤثرة، ومن نضارة اللون، وطرافة التصوير وبساطته، ودقة الرصف، والسذاجة العريقة التي شاعت في كل شيء.. كل هذا بالرغم من طبيعة الموضوع المخيفة، التي كانت في جوهرها منفرة. ومن ثم فقد كان لي الفضل في التغلب على هذه العقبة، إلى جانب الصفات الأخرى. وإذا لم يكن ديوان "لاويو أفرام" هو أفضل مؤلفاتي، فإنه سيظل دائما أحبها إلي!.. فما قراتها ثانية، ولن يقدر لي أن أقرأها مرة أخرى، دون أن المس فيها إشرافة قلب خال من السخط، لا يوغره النحس، بل إنه يجد العزاء في نفسه، ويستمد العوض والجزاء من دخیلته، ولو أن جميع أولئك الفلاسفة الذين يتعالمون على الشدائد ولما يعرفوها، حشدوا ووضعوا في موقف كموقفي، وقدم إليهم -في أولى فورات الكرامة والشرف الجريح- مهمة مشابهة لهذه التي أنجزتها، وسئلوا أن يعكفوا عليها، لتبدى كيف أنهم سيبادرون إلى التهرب!



وكنيت -عند مغادرتي "مونمورنسي" إلى "سويسرا" -قد عزمت على أن أذهب للإقامة في "أيفردون"، مع صديقي القديم الطيب، السيد "روجان"، الذي كان قد اعتكف هناك منذ بضع سنوات، والذي كان قد دعاني إلى زيارته. وسمعت في طريقي أن "ليون" ستكون بمنأى عن خط سيرى، الأمر الذي حال دون أن أمر خلالها. ولكنني من ناحية أخرى -اضطرت إلى أن أمر

"بيزانسون"، وهي بلدة محصنة، ومن ثم فإنها عرضتني لعين المضايقة التي كنت أخشاها في "ليون". لذلك قررت أن انحرف إلى اليسار، وأن أواصل سفري عن طريق "سالان"، بحجة زيارة السيد "دي ميران" -ابن أخ السيد "دوبان" - الذي كان يعمل في مصانع الملح، والذي كثيرا ما تلقيت منه دعوات ملحة لأن أزوره. ووفقت حيلتي، إذ إنني لم أجد السيد "دي ميران"، فاغتنبت لأن هذا جنيني التأخر، فاستأنفت رحلتي دون أن يقول لي أي امرئ كلمة واحدة. وإذا اجتزت حدود "بيرون" استوقفت، فهبطت من المركبة، وارتحمت على الأرض، ورحت احتضنها وأقبلها. وهتفت في فرحتي: "أحمدك أنتها السماء، يا حامية الفضيلة.. إنني لأطأ الآن موثلا للحرية!". وهكذا اعتدت -في ثقتي العمياء بأمانتي- أن أتحمس لما قد يجلب لي الشقاء. ولقد ظن الحوذي المشدود أنني -جننت!.. وعدت أستقل المركبة، فإن هي إلا سويحات قليلة، حتى كنت أحظى بالغيطة النقية العارمة، التي غمرتني إذ وجدت نفسي في أحضان "روجان" الوفي. آه!.. لتتنفس الصعداء ليطضع لحظات، لدى مضيفي الكريم. فلا بد لي أن أسترده شجاعتي وقوتي، إذ إنني لن ألبث أن احتاج إليهما معا!

وما أسهبت -دون داع- في ذكر تفصيلات كل الظروف التي قدر لي أن أتذكرها، في رواية الأحداث السالفة. ومع أن هذه الظروف قد لا تبدو جد براقية، إلا أنها قد تلقي ضوءا على مجرى الأحداث، إذا ما أمسك المرء مرة بخيط المؤامرة. مثال ذلك، أنها وإن لم تبين الفكرة الأولى التي نشأت عنها المشكلة التي سأعرضها، إلا أنها تساعد كثيرا على حلها!

فلو أننا افترضنا، أن إقصائي كان ضرورة لا غنى عنها لتنفيذ المؤامرة التي كانت مدبرة لي، لكان كل شيء مسوقا إلى أن يحدث بنفس الشكل الذي حدث به -تقريبا- لكي يتسنى للمؤامرة أن تتم.. أما لو أنني كنت قد واصلت صمودي -كما فعلت في بادئ الأمر- بدلا من أن أسمح للذعر بأن يستولي علي، من جراء الرسالة الليلية التي بعثت بها السيدة "دي لوكسمبورج"، وبدلا من أن أضطرب لأضطرابها.. ولو أنني -بدلا من البقاء في القصر- عدت إلى سريري، واستغرقت في النوم حتى الصباح.. فهل كان سيقدر لأمر القبض أن يصدر بالطريقة التي صدر بها؟.. إنه سؤال عظيم، يتوقف عليه حل أسئلة أخرى كثيرة.. ولن يكون من غير المجدي -في دراسته وبحثه- أن نلاحظ الساعة التي أُنذرت بأن مرسوم القبض علي سيصدر فيها، والساعة التي صدر فيها فعلا. هذا مثال غير مصقول -ولكنه معقول- لأهمية اتفه التفصيلات في عرض الوقائع التي نبحث خلالها عن الأسباب الدفينة، حتى يتسنى لنا أن نكتشف هذه الأسباب بالاستقراء والاستنتاج!

الكرامة الثانية مشرة

هنا يبدأ عمل الدياجير، التي أتخبط فيها منذ ثماني سنوات، دون أن يتسنى لي -مهما تكن حيلتي وجهدي- أن أنفذ خلال الظلام الرهيب.. إنني لأحس -في غيابها- التماسات التي اكتشفتني - بإيذاء الصفعات التي توجه إلي، وإنني لألمح الأداة المباشرة التي توجهها، ولكنني لا أقوى على أن أرى اليد التي تصدرها، ولا الوسائل التي تحركها وتستخدمها، إن العار والحزن لتتوهم علي، وكأنها تتساقط من تلقاء نفسها، دون أن يفطن إليها أحد. وعندما يفلت قلبي الممزق شيئا من الأنين، أبدو في مظهر الرجل الذي يشكو دون ما مبرر لشكوى، فإن مبتدعي دماري، وفقوا إلى الفن الذي يفوق كل إدراك.. الفن الذي استطاعوا به أن يحولوا الرأي العام إلى شريك في مؤامرتهم، دون أن يحدس الرأي العام ذلك، أو يفطن إلى نتائجه.. ومن ثم فإنني إذ أروي الأحداث المتعلقة بي، واللوان المعاملة التي عانيت بها، وكل ما جرى لي، أراني في حال لا تمكنني من أن أكشف عن اليد المحركة، ولا من أن أعين الأسباب وأنا أذكر الأفعال.. فإن هذه الأسباب الأولية تلمس جميعا في الكرامات الثلاث السابقة، حيث تكشف كل الالتفاتات التي وجهت نحوي، والميول المتعلقة بي، وكل البواعث المستترة. أما أن أذكر كيف تجمعت هذه الأسباب المتباينة، لتخلق الأحداث العجيبة في حياتي، فهذا ما لا سبيل لي إلى شرحه وتعليله، ولو بالحدس والتكهن.. وإذا كان بين قرائي من أوتوا من كرم النفس، ما يحفزهم على الرغبة في الغوص إلى أعماق هذه المعصيات للكشف عن الحقيقة، فليعودوا إلى مطالعة الكرامات الثلاث السابقة بعناية، وليفقدوا من كل واقعة يقرءونها، ومن المعرفة التي يستخلصونها منها، في متابعة الوقائع التي تليها.. وليرجعوا القهقري من مكيدة إلى مكيدة، ومن عميل إلى عميل، حتى يصلوا إلى المحركين الأوائل لكل شيء.. وإنني لأعرف موقنا ما سوف تنتهي إليه أبحاثهم، ولكنني تائه أتخبط في الطرق المظلمة المتعرجة الضاربة في أعماق الأرض، حيث قادوني!



تعرفت -خلال إقامتي في "أيفردون"- على جميع أفراد أسرة السيد "روجان"، ومنهم ابنة أخيه السيدة "بوي ديلاطور"، وبناتها الثلاثي تعرفت أباهن في "ليون"، كما أحسبني قد ذكرت من قبل. وكانت السيدة قد جاءت إلى "أيفردون" لتزور عمها وشقيقاتها. ولقد أطربتني ابنتها الكبرى -التي كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها- بمداركةا الواسعة وشخصيتها الرائعة. وسرعان ما ارتبطت بالأم والأبنة، بأرق روابط الود. وكان السيد "روجان" قد اعتزم أن يزوج الأخيرة من ابن أخت له "كولونيل"، كان قد تجاوز السن المعقولة، وكان يوليني -هو الآخر- أعظم الود. ولكن.. بالرغم من تحمس العم لهذا الزواج، ومن أن ابن الأخ كان راغبا فيه، ومن إنني اهتممت -في حرارة- بأن أرضي كلا منهما، إلا أن الفارق الكبير في السن، والنفور المسف من ناحية الفتاة، حملاني على أن أعاون الأم في عرقلة هذا الزواج، فلم يقدر له أن يتم. وما لبث "الكولونيل" أن تزوج من الأنسة "ديلان"، وهي من قريباته، وكانت سيدة ذات جمال وخلق يروقان لفؤادي، وقد جعلته أسعد الأزواج والآباء. ومع ذلك فإن السيد "روجان" لم ينس لي قط أنني عارضت رغبته، في هذه

المناسبة . ويعزيني في ذلك يقيني من أنني أدت -سواء نحوه أو نحو أسرته- أقدس واجبات الصداقة، وهو ما لا يتطلب من المرء أن يجعل نفسه مرغوبا على الدوام، ولكنه يتطلب منه أن يكون ناصحا فلا يشير دائما إلا بما فيه الخير!

ولم يطل بي الشك فيما قد ينتظرنني من استقبال في "جنيف"، إذا أنا ملت إلى العودة إليها، إذ إن كتابي أحرق هناك، كما أصدر مرسوم بالقبض علي في ١٨ حزيران (يونيو)، أي بعد تسعة أيام من ذاك الذي أصدر في "باريس". ولقد حشدت في المرسوم الجنيفي كثير من السخافات التي لا يصدقها العقل، كما أن المراسيم الكنسية انتهكت فيه بشكل واضح، حتى إنني لم أشأ أن أصدق الأنباء الأولى، التي تناهت لي عنه، فلما أهدت فعلا، رحت أرتجف فرقا من أن يؤدي مثل هذا الانتهاك المكشوف الصارخ لكل القوانين، إلى إثارة الرأي العام، وإلى قلب "جنيف" رأسا على عقب!.. وما كان لي أن أنزعج، فإن كل شيء ظل هادئا!.. وإذا كانت بعض الاضطرابات قد سرت بين الناس، فإنها كانت موجهة ضدي.. فقد عوملت -في جميع الشائعات والتقولات التي انتشرت بين الرأي العام في المدينة- كما يعامل التلميذ الذي يندر بالضرب بالسياط، لأنه لم يحسن تلاوة درسه الديني!

ولقد كان هذان المرسومان، إيذانا بانطلاق صرخة اللعنة التي تعالت ضدي في "أوروبا" بأسرها، مصحوبة بهياج لم يسبقه مثيل. فإذا جميع النشرات الرسمية، والصحف، والكتيبات تردد أظفَع إشارات التنبيه إلى الخطر. وإذا الفرنسيون بوجه خاص، ذلك الشعب اللطيف، المؤدب، الكريم، الذي يفخر بقوة ميله إلى الخير، ورعايته للمنكوبين.. إذا بهذا الشعب ينسى فجأة فضائله المحبة إليه، ويمتاز على ما عدها بعدد وقذاعة الإهانات التي تبارى في قذفي بها!.. فرميت بأنني كافر، زنديق، معنوه، متهموس، وحش كاسر، ذئب.. وشن المعلق في "جورنال دي تريفو" -صحيفة "المجذوبين"- على سعاري الوحشي المزعوم حملة إضافية لم تشن إلا بسماحه هو. وفي وسعك -بإيجاز- أن تقول: إن كل كاتب في باريس، أصبح يخشى أن يصطدم بالبوليس -عندما ينشر شيئا في أي موضوع- إذا هو أغفل أن يحشوه ببعض الإهانات ضدي!.. وأوشكت -في بحثي عينا عن سبب هذا العداء الشامل- أن أعتقد أن العالم بأسره قد اختبل. يا للعجب!.. أيث منقح "السلام الدائم" الفرقة والشقاق؟.. أيكون مؤلف "أسقف من سافوا" كافرا؟.. أيكون كاتب "هيلويز الجديدة"، ذئبا، وكاتب "إميل" ملثما؟.. أو اه يا إلهي!.. فماذا كنت أصبح إذن، لو أنني نشرت كتاب "العقل" الذي وضعه "مونتسكيو"، ودعا فيه إلى الإيمان بالعقل وحده" أو أي مؤلف آخر على شاكلته؟.. ومع ذلك، ففي عنفوان العاصفة التي انفجرت على رأس مؤلف هذا الكتاب، لم يضم الرأي العام صوته إلى صوت ظالميه، وإنما انتقم للمؤلف بما أهاله عليه من مديح!.. فمن لي بمن يقارن بين كتابه وكتابي، والاستقباليين المختلفين اللذين استقبلا بهما، والمعاملتين اللتين عومل بهما المؤلفان في مختلف دول أوروبا، ثم يعثر خلال هذه الاختلافات على أسباب لها تقنع أي امرئ سليم الإدراك؟! هذا جل ما أطلب، ولن أزيد!



ووجدت من الراحة في "أيفردون" ما جعلني أقرر المقام هناك، مستجيبا للإلحاح الحار، الذي أنهال علي من السيد "روجان" وأسرته. كذلك شجعني السيد "دي مواردي دي جانمان" -القائم على الأمن والعدالة في هذه المدينة- على أن أبقي في ظلال سلطانه، بما أبداه لي من أفضال. وأصر

"الكولونيل" كل الإصرار على أن أسكن مبنى صغيرا مستقلا، بين فناء داره وحديقته. وما إن قبلت، حتى انصرف إلى تأثيثه وتجهيزه بكل ما كان ضروريا لحاجاتي المتواضعة. وكان "روجسان" -صاحب الراية(١) - شديدا الحرص على ملازمتي، حتى إنه لم يكن يفارقني طيلة النهار. ولقد كنت أقدر مكرماته كل التقدير، ولكنني كنت أضيق بها أحيانا!

وكان موعد استقراري في المسكن الجديد قد حدد، وكتبت إلى "تيريز" كي تلحق بي، عندما نمتي إلي أن زوبعة قامت في "بيرون" ضدي، وعزيت إلى غلاة المتدينين، ولم يقدر لي قط أن أكتشف منشأها. فلقد هب مجلس الشيوخ -دون أن يعرف من الذي استنهضه- وبدا أنه غير راغب في أن يدعني في سلام، في عزلتي. وما إن سمع حاكم المدينة بهذا الهياج، حتى كتب في صالحي إلى عدد من أعضاء الحكومة، ولامهم على تعصبهم الأعمى، وعاب عليهم الرغبة في أن يابوا على رجل قدبر، مظلوم، الماوى الذي يجده كثير من الأشرار في ولاياتهم!.. ولقد حدس ذوو العقول الحصيفة، أن تكون حرارة لومه قد أهاجت الأفكار، بدلا من أن تهدئها. ومهما يكن الأمر، فإن مكانته وبلاغته لم تستطعا دفع الصدمة. وما إن تناهت إليه بادرة عن الأمر الذي كان عليه أن يعاملني بمقتضاه، حتى أوعز إلي به مقدما، ففكرت ألا أنتظر هذا الأمر، وأن أرحل في اليوم التالي. وكانت الصعوبة تتمثل في معرفة المكان الذي أذهب إليه. فقد كانت "جنيف" و"فرنسا" مغلفتين في وجهي، وقد رأيت -مقدما- أن كل حكومة تقلد جارتها، في مثل هذه المسألة!

واقترحت السيدة "بوي ديلا تور" أن أقيم في بيت خال، ولكنه مكتمل الأثاث، كان ابنها يمتلكه في قرية "موتير"، في "فال دي ترافير" بمقاطعة "نيوشاتيل". ولم يكن علي سوى أن أجتاز أحد الجبال، كي أصل إلى هناك. ولقد كان الاقتراح جذا مناسب؛ إذ إنني خليق بأن أجد ملجأ من الاضطهاد -بطبيعة الحال- في أراضي ملك "بروسيا"، حيث لا يمكن اتخاذ الدين ذريعة لذلك. بيد أن عقبة خفية -لم يكن من اللائق بي أن أذكرها- حملتني على التردد. ذلك أن حب العدالة، الذي يتغلغل في قلبي ويعمره دائما، اتحد مع حبي الخفي لـ"فرنسا"، وأوحى إلي بنفور من ملك "بروسيا"، الذي لاح لي أنه -من حيث المبادئ والسلوك- كان يدوس كل اعتبار للقانون الطبيعي، والالتزامات الإنسانية، وقد كان بين اللوحات ذات الإطارات، التي كانت تزين جدران شرفتي في "موغورنسي"، صورة لهذا الأمير، كتبت تحتها بيتين من الشعر، هذا ختامها:

"إنه يفكر بعقل فيلسوف، ويتصرف كملك!"

هذه الشطرة التي كانت خليقة بأن تكون مديحا بديعا -إذا كتبها أي قلم آخر- كانت من قلبي توحى بمعنى غير مبهم ولا غامض، لا يتضح إلا بالشطرة التي كانت تسبقها(٢). وكان "الشيغالبييه دي لورنزي" قد نقل هذا البيت الشعري وكتبه لـ"دالمبير". وما كان لدي أي شك في أن "دالمبير" قد عني بأن يستغله، وبأن يرسله قلبي إلى هذا الأمير!.. ولقد ضاعفت من هذا الذنب بفقرة في "إميل" تبدي بجلاء شخصية الملك الذي كنت أتمثله تحت اسم "أهراسي"، ملك "داوينيان". ولم تفت هذه التورية النقاد، إذ رددتها السيدة "دي بوفليسر" أمامي مرارا. ومن ثم فقد كنت واثقا بأن اسمي قد سجل بمداد أحمر في سجلات ملك "بروسيا"، وإذ كنت أرى -إلى جانب ذلك- أن هذا الأمير قد أوتي ما جرؤت على أن أعزوه إليه من مبادئ، لذلك لم يكن من سبيل لكتاباتي، ولا لصاحبها، بأن ينالها منه رضا.. فمن المعروف أن أهل الخبث والطغاة اعتادوا أن يكتبوا لي دائما أشد

(١) لُقِبَ كان بطلق على أي انقطاعي أوتي عددا معيناً من رقيق الأرض يسمح له أن يرفع على قصره علما خاصا. (٢) تلك هي: "الشهرة والمنفعة.. هذان هما ربه وفاتوته". ولم يكن "روسو" قد كتب هذه الشطرة فوق أختها -تحت الصورة- وإنما كتبها خلفها!

الكراهية القائلة، بمجرد اطلاعهم على مؤلفاتي، ولو لم يعرفوني معرفة شخصية! ومع ذلك فإنني لم ألبث أن أقدمت على وضع نفسي تحت رحمته، وقد خيل إلي أنني لن أتعرض لكبير خطر، فقد كنت أعرف أن المشاعر الخسيسة لا تتملك سوى ضعاف الرجال، ولكنها لا تظهر بسلطان يذكر على النفوس ذات الطابع القوي، كذلك التي طالما لمستها في شخصية هذا الأمير. وقد ردت أن من سياسته في الحكم، أن يظهر نفسه - في مناسبة كهذه - بمظهر الشهم العالي النفس.. وحكمت - لنفسي - بأن الانتقام الخسيس السهل، لا يمكن أن يعدل في نفسه - ولو للحظة واحدة - حب المجد والشهرة. ووضعت نفسي في مكانه، فلم أر من المستحيل عليه أن ينتهز الظرف، لكي ينقل بكرمه كاهل رجل جرؤ على أن يسيء الظن به. ومن ثم فقد سميت إلى الإقامة في "موتيسير"، وأنا مليء النفس بشقة خيل إلي أنه قمين بأن يدرك قيمتها. ورحت أقول لنفسي: "إذا رفع جهان حماك" نفسه إلى مرتبة "كوربولانوس"، فهل يرضى "فرديريك" لنفسه بأن يكون أدنى من قائد الفولك؟ (١).

ولقد رغب الكولونيل "روجان" - في إصرار - في أن يجتاز الجبل معي، ويطمئن إلى استقراره في "موتيسير". ولم تتهج لوصولي أخت الزوج السيدة "بوي دي لاتور" - وتدعى السيدة "جيراردية" - إذ كانت تجد البيت، الذي كنت موشكا أن أشغله، أكثر ملاءمة لها هي. ومع ذلك فإنها تركتني أستولي عليه في أدب وتلطف، وأصبحت أتناول وجباتي لديها، إلى أن وصلت "تيريز" وانتظمت في سكناي الصغيرة وحياتي.



وكنيت - منذ رحيلي عن "مونغورنسي" - قد أحسست بيقين أنني سأغدو، من ذلك الحين، جواب آفاق، هائما في الأرض. ومن ثم فإنني كنت مترددا في السماح لـ "تيريز" بأن تلحق بي، وأن تشاركني حياة التجوال التي رايت أنه قد قضي علي بها!.. وشعرت بأن الروابط بيننا خليقة بأن تتبدل من جراء هذه الكارثة، وأن ما كان كرما وفضلا - من ناحيتي - من قبل، يجب أن يصبح كرما وفضلا من ناحيتها، بعد اليوم. وإذا كان ولاؤها قد ظل في حصانة ضد محني وتعاساتي، فإنها ولا بد كانت شديدة الأسى بسبب هذه المحن والتعاسات. وما كان أساها ليزيدني إلا هموما. أما إذا كانت مصائبها قد خففت من عواطفها نحوي، فلا بد أنها مسوقة إلى أن ترى في بقائها على ولاء مستمر لي، تضحية من ناحيتها. وبدلا من أن تشعر بالمتعة التي كنت أحس بها إذ أشركها معي آخر كسرة من الخبز لدي، فإنها كانت خليقة بأن تزداد شعورا بقيمة تضحياتها إذا قدر لها أن تتبعني إلى حيثما كان القدر يسوقني!

ومن الواجب أن أقول: إنني لم أستر قط على أخطاء "ماما" ولا على أخطائي. ومن ثم فلا يجدر بي أن أبدي كثير محاباة لـ "تيريز" بدورها. ويقدر ما يسرنني أن أكرم شخصا مثلها، جد عزيز على نفسي، فإنني ما كنت لأبغي التستر على عيوبها، إذا اعتبر تحول عواطف القلب - التحول غير الإرادي - عيبا. ذلك أنني كنت قد لاحظت من أمد طويل، أن ودها لي قد فتر. وشعرت بأنها لم تعد لي كما كانت في أيامنا الهنيسة. وقد زادني إحساسا بذلك، أنني ظللت دائما على حالتي نحوها.

(١) كان "كوربولانوس" قائدا رومانيا أدى لوطه أجل الخدمات في القرن الخامس، ولكن مزاحميه أوغروا صدور الشعب صده، ففر لاثذا بقبائل "الفولك"، المعادية للرومان، والتي كان قد هزمها من قبل. وقاد جيشا منها فحاصر "روما" وكاد يهدمها لولا ضراعات الشعب التي حملتها إليه أمه وزوجته.

وفطنت -مرة أخرى- إلى شعور بالاستياء، كذلك الذي سبق أن فطنت إليه عندما كنت مع "هاما"، وكان له عين النتائج. وليس لنا أن نبحث عن الكمال الذي لا وجود له في الطبيعة، فإن هذا هو عين الشعور الذي كان من المحتمل أن يراود أية امرأة أخرى، مهما تكن.

وما قدر للتصرف الذي اتخذته نحو أولادي -بهما يكن قد لاح لي متمشيا مع العقل والمنطق- أن يدع قلبي في سلام. فبينما كنت أفكر في كتابي: "رسالة في التربية"، شعرت بأنني قد أهملت واجبات لا حجة لي في إهمالها ولا عذر. ومالبث ندمي أن اشتد، حتى إنه انتزع مني -تقريبا- اعترافا علنيا بذنبي، في بداية كتاب "إميل". وقد ظل هذا الندم ملحوظا بعد ذلك، حتى ليغدو من المدهش حقا، أن ينحى أحد باللائمة علي، بعد مثل تلك الفقرة. على أن مركزي ظل -في ذلك الوقت- على حاله.. بل إنه تقافم بسبب بغضاء أعدائي، الذين لم يكونوا يرجون سوى أن يعشروا لي على ذنب. ومن ثم فإنني خشيت أن أكرر الذنب.. ولكي لا أتعرض لارتكابه، آثرت أن أقضي على نفسي بانتهاج زهد شديد، حتى لا أعرض "تيريز" إلى أن تجد نفسها -مرة أخرى- في نفس الوضع (١).

والى جانب هذا، كنت قد لاحظت أن معاشرتنا النساء كانت تؤثر على صحتي تأثيرا محسوسا.. ولقد أدت كل هذه الأسباب إلى أن عقدت عزمي على أمور لم أكن أوأظب على اتباعها في بعض الأحيان، إلا أنني ازددت اطرادا في الدأب عليها منذ سنوات ثلاث أو أربع. وفي هذه الفترة بالذات، شعرت بالبرود يدب في عواطف "تيريز" ولقد ظلت على وفاء لي، عن واجب وليس عن حب. وكان لابد من أن يلقي هذا ظلا على بهجة تعاشرنا، فخیل إلي أنها في وثوقها بأنني سأواصل رعايتها أينما كانت، تؤثر أن تظل في "باريس"، على أن تهيم معي في أرجاء الدنيا..! ومع ذلك، فإنها أبدت كثيرا من الألم عند فراقنا، وانتزعت مني وعودا مغلفة بأن نصل شملنا من جديد، وقد عبرت عن هذه الرغبة -منذ رحيلي- للسيد الأمير "دي كوفتي"، وللسيد "دي لوكميسبورج"، بحرارة لم تجعل من العسير علي أن أجد الجرأة على أن أحدثها عن الانفصال فحسب، بل إنني لم أكد أقوى على أن أفكر في ذلك. ومن ثم فما إن شعرت في قرارة فؤادي بمدى استحالة استغنائني عنها، حتى أصبحت لا أفكر إلا في أن أدعوها، دون ما إرجاء. ولهذا فقد كتبت إليها كي تأتي!

وجاءت.. ولم يكن قد انقضى شهران على فراقني إياها، ولكنه كان الفراق الأول بعد سنوات طويلة، فشعر كل منا بقسوته مضاعفة. وكم اهتز قلبانا عندما تعانقنا.. وبا لعذوبة دموع الفرح والحنان..! لكم ارتوى منها فؤادي.. فلماذا لم يتح لي أن أدرف منها بحورا؟!!



وكننت -عند وصولي إلى "مونتير"- قد كتبت إلى اللورد "كيسيت" مارشال "أيقوسيا" (اسكتلندا)، وحاكم "نيوشاتيل"، أنبئه بأنني قد لذت لاجئا بالأرض التي تخضع لسلطانه، وأسأله أن ييسط علي حمايته. وقد أجاب بالكرم المعروف عنه، والذي كنت أتوقعه منه. ودعاني إلى أن أزوره. فذهبت في صحبة السيد "مارتينيه" -سيد ضيعة "فال-دي ترافير"- الذي كان يحظى بمكانة رفيعة لدى سعادته. وكان لوقار مظهر هذا السيد "الأيقوسيا" الجليل الصالح، ومهافته، أثر في قلبي، حتى لقد كانت تلك اللحظة بالذات، بداية ود حار بيننا، ظل دائما على قوته -بالنسبة لي- وكان جديرا بأن يظل كذلك، بالنسبة له، لولا أن الغادرين الذين حرموني كل عزاء في

(١) أي أنه لم يعد معاشر "تيريز" معاشره الأزواج، حتى لا تحمل ثمرة تضعه في موضع الذنب مرة أخرى!

الحياة، استغلوا غيابي وكهولته، فشوهوا من أمري لديه!
وكان "جورج كيث" -مارشال "ايكوسيا" بالوراثة، وشقيق الجنرال "كيث الشهير"، الذي مات ميتة مشرفة، في أعقاب حياة مجيدة -قد هجر بلاده في شبابه، إذ قضى عليه، دون محاكمة، لولائه لآل "ستوراث"، الذين لم يلبث أن عافهم لما ألفاه لديهم من روح ظالمة طاغية، كانت دائما طابع حكمهم. ولقد أقام زمنا طويلا في "إسبانيا"، ولكن جوها لم يطب له، وانتهى الأمر إلى ما انتهى بأخيه من قبل، فارتبط بملك "بروسيا"، الذي كان خبيرا بالرجال، والذي كان يتلقاهم بما هم به جديرون. ولقد تلقى الجزاء وأفيا على هذا الاستقبال، بما أداه له المارشال "كيسيت" من خدمات جليلة، وبما هو أثنى من هذا.. وأعني بذلك ود السيد "اللورد المارشال". فما كان هذا الرجل الجليل، المفعم بالحرية والكرامة، والذي أوتي نفسا كبيرة، لينحني إلا لريقة الصداقة والود. على أنه في انحنائه للصداقة كان يسف، إلى درجة أنه لم يعد يتطلع إلى غير "فرديك"، مذ تعلق به. ولقد عهد إليه الملك بشؤون مهمة، وأوفده إلى "باريس" وإلى "إسبانيا"، حتى إذا رآه -في النهاية- قد طعن في السن، وأصبح في حاجة إلى الراحة، أنعم عليه بحكم "نيوشاتيل"، حيث راح يقضي ما تبقى له من عمر في عزلة، وقد وجد في إسعاد أهل هذه الولاية مهمة مستعذبة! أما أهالي "نيوشاتيل" -الذين لم يكونوا يفرمون بغير المظاهر والسفاسف، والذين لم يؤثروا القدرة على أن يحكموا على حقائق الأشياء والرجال، والذين كانوا يولعون بالإطالة في الحديث- فإنهم حين رأوا الرجل هادئ النفس، بعيدا عن التظاهر، أخذوا بساطته على أنها ترفع، وصراحته على أنها غلظة، وإيجازه في الكلام على أنه غباء، وثاروا على تدابير وجهوده الرامية إلى الخير، لأنه -في رغبته في أن يكون نافعا، دونما تشدق أو من- لم يعرف كيف يتملق القوم الذين لم يقدره حق قدره. ففي قضية القس- "بيتجير" -الذي اضطهده زملاؤه من رجال الدين، لأنه أبى أن يؤمن أنهم ملعونون إلى الأبد، وقف اللورد في وجه ما كان القساوسة يمارسونه من استغلال، فإذا بهم يؤلبون عليه كل البلاد التي كان يعمل من أجلها. ولم يكن هذا الهياج الآخر قد سكن تماما، في آونة وصولي إلى هناك. إذ كان اللورد معتبرا كرجل متشبه برأيه، ومعتد به -على الأقل- وكانت هذه أدنى الاتهامات التي كان يرمي بها إلى الظلم!

ولقد كان أول شعور خالطني -إذ أبصرت هذا الشيخ الوقور- هو الإشفاق على هذا الجسد النحيل، الذي أنهكته الشيخوخة. ولكنني لم أكد أرفع عيني إلى تلك الأسارير القوية، الصريحة، النبيلة، حتى شعرت باحترام ممتزج بالثقة يستولي علي، ويغطي على كل إحساس آخر. ولقد رد علي التحية الموجزة التي رفعتها إليه -حين قدمت نفسي- بأن تحدث عن أمر آخر، وكانني كنت معه منذ أيام ثمانية. بل إنه لم يأمرنا بالجلوس، فظل سيد الضيعة -ذو الشياطين المنشأة- واقفا. أما أنا، فقد رايت في نظرة اللورد الحادة، واللطيفة -في آن واحد- عطفًا لم أدر كنهه، أشعري بارتياح وطمأنينة، فإذا بي أشاطره أريكته -في غير ما كلفه- فأجلس إلى جانبه. وأدركت من اللهجة الاليفة -التي التزمها فورًا- أن هذا التحرر مني، صادف قبولًا لديه، وأنه قال لنفسه: "هذا ليس على شاكلة أبناء "نيوشاتيل"!".

فيا له من أثر فذ انبعث عن شخصية كبيرة فذة!.. وفي السن التي يفقد فيها القلب حرارته الطبيعية، شعرت بقلب هذا الشيخ الطيب يشيع نحوي دفئا، بدرجة أدهشت كل امرئ. ولقد جاء لزيارتي في "موتير"، بحجة صيد السماني فقضى يومين، دون أن يمس بندقية!

وتوطدت بين الأمير وبينني صداقة -فهذه الكلمة الصحيحة- حتى لم يعد بوسع أحدنا أن يستغني عن الآخر. وكان قصر "كولومبييه" -الذي اعتاد أن يقيم فيه، في الصيف- على ستة فراسخ من "موتير"، فكنت أذهب في كل خمسة عشر يوما -على الأكثر- لأقضي هناك أربعاً وعشرين ساعة، ثم أعود بقلب مليء بالأمير دائماً، وكانني كنت في حج. ومن المحقق أن الأحاسيس التي كنت أعدها في طريقي من "ليرميتاج" إلى "أوبون" -من قبل- كانت تختلف عن هذه التي كنت استشرها في عودتي من "كولومبييه" إلى "موتير"، بيد أنها لم تكن تفوق هذه لطفاً وعذوبة. فكم من دموع كنت كثيراً ما أنفقها -في طريقي- حناناً، إذ أفكر في المكرمات الأبوية، والفضائل الحبيبة، والفلسفة الرقيقة التي أوتيها هذا الشيخ الجليل!.. واعتدت أن أدعوه أبي، فكان بدعوني ابنه. وإن هذين النداءين المستعذبين ليوحيان -إلى حد ما- بفكرة عن المودة التي وجدت بيننا، ولكنهما لا يصوران مدى حاجة كل منا إلى الآخر، والرغبة في أن يظل قريباً مستمراً. وراح يصير على الرغبة في أن أقيم بقصر "كولومبييه"، وأخذ يستحشي طويلاً على أن اتخذ الجناح الذي كنت أنزل به مسكناً لي، ولكنني -في النهاية- أنبأته بأنني كنت أنعم بمزيد من الحرية في مسكني الخاص، وأنني كنت أؤثر أن أنفق عمري في السعي لزيارته. فارتاح إلى صراحتي، ولم يعد إلى إثارة الموضوع. أواه! يا مولاي الطيب!.. أواه، يا أبي الكريم!.. لكم يهتز قلبي -حتى اليوم- كلما تذكرتك!.. آه، يا للقساة الغلاظ!.. أية ضربة أنزلوها بي إذ فرقوا بيننا! ولكن، كلا، ثم كلا، أيها العظيم!.. إنك اليوم -وستظل دائماً - كما كنت من نفسي! وإذا كانوا قد غرروا بك، إلا أنهم لم يحولوك قط (١)!

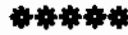
ولم يكن اللورد "المارشال" مبرءاً من العيوب، فهو إنسان، وإن كان حكيماً!.. ومع أنه أوتي أشد العقول قدرة على الغوص في أعماق الأمور، وأرق أسلوب يؤثّر به، وأعمق معارف الإنسان، إلا أنه كان يستسلم لتغريز الغير به، ولم يكن خداعه ليستعصي عليهم!.. كان ذا مزاج فذ، فقد كان يشوب سير عقله شيء من الغرابة والطرفة. كان يبدو عليه أنه ينسى أولئك الذين كان يصبره يقع عليهم في جميع الأيام، ثم يذكّركم في اللحظات التي لا يكاد يفكر فيهم خلالها. وكانت التفاتاته تبدو في غير مواضعها، وهداياه تمنح جزافاً، دونما مراعاة لمناسبتها. فهو يبعث أو يمنح ما يخطر له عفو اللحظة، غير حافل بعظم قدر الهدية، أو ببخس قيمتها. ولقد قدم إليه يوماً شاب من "جنيف"، كان راغباً في العمل في خدمة ملك "بروسيا"، فبدلاً من أن يزوده اللورد بخطاب، دفع إليه بكيس صغير مليء بالبازلاء، وعهد إليه بأن يسلمه إلى الملك الذي لم يكذب يتسلم هذه التروية العجيبة، حتى أنعم على حاملها بمنصب!.. إن لهؤلاء العباقرة الاجلاء لغة خاصة، لن يقدر للعقول العادية أن تفهمها!

وما كانت هذه التصرفات الطريفة، التي تشبه نزوات الحسناء، لتزيد "اللورد المارشال" إلا مكانة، ولقد كنت متأكداً -ووجدت فيما بعد الأدلة الكافية- على أن هذه التصرفات لم تكن لتؤثر أي تأثير على أحاسيسه، أو على الاهتمام الذي تفرضه عليه الصداقة في جلائل الأمور. ولكن من الصحيح أنه في تفضله، كان يكشف عن نفس هذه الغرابة التي تخالط مسلكه. ولن أذكر سوى مثال واحد للدلالة على مسألة تأفة القيمة كهذه: ذلك أنه لما كانت الرحلة من "موتير" إلى "كولومبييه" أشق من أن أقطعها في يوم، فأنني اعتدت أن أقسمها إلى شطرين. فكنت أشرع فيها بعد الغداء، وأقضي الليل في "برو"، القائمة في منتصف الطريق. وكانت لصاحب المنزل -ويدعى "ساندوز" - حاجة في برلين، يعلق عليها أهمية كبرى. فرجاني أن أسأل صاحب السعادة أن يطلبها له باسمه. ووافقت عن

(١) من الصحيح أن اللورد "المارشال" كان وثيق الصلة بـ"هيوم"، ومن ثم فإنه نادر للاخطاء التي ارتكبتها "روسو" نحو الأخير. ولكنه ظل صادق الود لـ"روسو" رغم ذلك. حتى إنه أهدها قبيل موته -سوقد توفي في "مايو" سنة ١٧٧٨. سابقاً "روسو" بستة أسابيع ساعة لم يكن يفارقتها.

طبيب خاطر، فاصطحبته، وتركته في الحجرة الخارجية، ثم ذكرت مسألته للورد، الذي لم يرد بشيء.. وانقضى الصباح. وفيما كنت أقطع البهو، في طريقي إلى الغداء، رايت "ساندووز" المسكين، وقد انهكه الانتظار. وخطر لي أن اللورد قد نسي أمره، فعدت إلى الحديث عنه قبل أن يجلس إلى المائدة. ولكنه لم ينيس بكلمة، كما فعل من قبل.. واشتمت من مسلكه أنه كان يوحى بانني قد تجاوزت حدي في مضايقته، فلذت بالصمت، وأنا أرثي لـ "ساندووز" المسكين في سريري!.. وشد ما كانت دهشتي حين قابلني في عودتي -في اليوم التالي- بشكر دافق لما اتاحه له صاحب السعادة من كرم الوفادة، وشهي الطعام، فضلا عن تكفله بأوراقه. وبعد ثلاثة أسابيع، أرسل إليه اللورد الوثيقة الرسمية التي كان يسعى وراءها، وقد أعدها الوزير ووقعها الملك.. كل هذا دون أن يبدي أقل رغبة في الحديث إلي، ودون أن يرد علي أو عليه بكلمة واحدة بصدد هذا الأمر الذي خيل إلي أنه كان غير راغب في أن يتكفل به!

وبودي إلا أكف عن الكلام عن "جورج كيث"، فمته تواتني آخر ذكرياتي السعيدة، أما بقية عمري فلم يكن سوى هموم وشجون تعتصر القلب. ولشد ما تبعث ذكراها الأسي في نفسي، فهي تواتني مضطربة مهوشة، حتى ليعز علي أن احتفظ بانتظام سياق قصتي، ومن ثم فساظطر -منذ الآن- إلى أن أسوقها عفوا، وحسب ما تخطر لي، لا حسب ما وقعت!



لم يطل بي أمد القلق بشأن المكان الذي لجأت إليه، بفضل رد الملك على اللورد "المارشال" الذي وجدت فيه -كما يسهل الحدس- محاميا بارعا. فإن جلالة الملك لم يقر ما جرى فحسب، بل إنه كلفه -كما ينبغي أن يقال- بأن يمنحني اثني عشر "لوي". وإذ شعر اللورد الطبيب بالخرج من مهمة كهذه، ولم يدر كيف ينفذها بنفسه في تلطف، سعى إلى تخفيف ما في تنفيذها من جرح لشعوري، بأن حول النقود إلى حاجيات مادية، فأشار إلي، أنه تلقى أمرا بأن يزودني بالخشب والفحم اللازمين لي في بداية استقرار في المسكن الصغير. بل إنه أضاف إلى هذا -وربما صدر في ذلك عن إيعاز من نفسه- بأن الملك سيسر بأن يعمل على بناء منزل صغير لي، وفق هواي، إذا أنا اخترت الموقع. ولقد أثر هذا العرض الأخير في نفسي أبلغ تأثير، وأنساني رذالات الآخرين. وبدون أن أقبل أيًا من الهبتين، رحلت أتطلع إلى "فردريك" كراع لي وحام. فملت إليه بولاء صادق، حتى إنني اهتممت بسمعته، فوجدت -منذ ذلك الحين- كثيرا من الظلم يشوب انتصاراته. وعندما عقد الصلح -بعد ذلك بقليل- أعلنت اغتياطي بزينات مفرطة الجمال، تمثلت في حبل من زهور الغار زينت به الدار التي كنت أقيم فيها، وأنفقت عليه -بدافع من الانتقام لكرامتي، في الواقع- مبلغا يوازي ذاك الذي أراد أن يمنحني.

وخيل إلي، وقد استتب السلام، وأصبح صيت الملك الحربي والسياسي في أوجه، أنه لن يلبث أن يسعى إلى الحصول لنفسه على صيت من نوع آخر، وذلك بإنعاش ولاياته، فيمكن للتجارة والزراعة من أن تتسعا، ويستصلح الأراضي ويعمرها بخلق جديد، ويحافظ على السلم مع جيرانه، ويغدو داعية الوثام في "أوروبا"، بعد أن كان مصدر الذعر. كان بوسعه أن يغمد السيف دون أن يتعرض لخطر، وهو مطمئن إلى أنه لن يضطر إلى أن يشهره من جديد. فلما رأيت أنه لم يخفض من تسلحه، خشيت أن يسيء استغلال مميزاته، وألا يمضي في طريق العظمة إلا إلى منتصفه. فجزوت على أن

اكتب إليه بهذا الصدد، متخذاً أسلوب الألفة -وهو خير ما ينتهج لإرضاء الرجال الذين من نوعه- حتى يبلغ مسمعه صوت الحق المقدس، الذي لا يطيق سماعه سوى قلة من الملوك!.. وما استبحت هذا لنفسه إلا في الخفاء، وفيما بيننا فقط، فلم أشرك أحداً، ولا سيدي المارشال، الذي أرسلت إليه الخطاب الموجه إلى الملك مغلقاً، فأرسله بدوره إلى هذا، دون أن يطلع على ما حواه، ولم يجب الملك بشيء. وبعد ذلك بوقت قصير، ذهب سيدي المارشال إلى "برلين" فاكشفني بأن قال له: إنني عنفت في ثانيه!.. وأدركت من ذلك أن خطابي لم يلق استحساناً، وأن تحمسي الصريح أخذ على محمل التطفل الخشن، وقد يكون الأمر كذلك، في جوهره. ولعلني لم أقل ما كان ينبغي أن يقال، ولا اتخذت اللهجة التي كان ينبغي أن اتخذها. ولكني لا أحاسب نفسي إلا عن الشعور الذي دفع بالقلم إلى يدي!

وبعد استقرار في "موتير-ترافير" بوقت قصير، واطمئناني إلى كل الضمانات التي تكفل لي العيش في سكون، اتخذت الزي الأرمني. ولم تكن الفكرة بالجديدة علي، فقد خطرت لي مراراً في سياق حياتي، ثم عاودتني كثيراً في "مونمورنسي"، حيث كان استخدامي المستمر للمجسات "لعلاج احتباس البول"، يضطرنني إلى أن ألزم مخدعي في كثير من الأحيان، مما جعلني أكثر شعوراً بفوائد الشوب الطويل. ولقد ساءت المصادفة حائكا أرمنياً، كان يكثر من التردد على قريب له في "مونمورنسي"، فأغراني ذلك بأن أنتهز الفرصة لاتخذ الزي الجديد، برغم ما قد يتقوله الناس، فما كنت شديد الشغل بتقولاتهم. على أنني شئت -قبل أن أرتدي هذه الحلة الجديدة- أن أتعرف رأي السيدة "دي لوكسمبورج"، فحبذت كل التحجيز رأبي. ومن ثم فإنني أعددت "طاقماً" صغيراً من الملابس الأرمنية، بيد أن الضجة التي أثارت ضدي، جعلتني أرجئ استخدامه إلى وقت يكون أكثر هدوءاً. ولم يتسن ذلك إلا بعد بضعة أشهر، عندما اضطرت إلى العودة إلى استخدام المجسات، مدفوعاً بنوبات جديدة لعلني.. فخيّل إلي أن بوسعي أن اتخذ هذا الزي في "موتير"، دون أن أتعرض لشيء، لا سيما بعد أن استشرت راعي كنيسة المنطقة، فأباني بأن بوسعي ارتدائه -حتى في الكنيسة- دون ما استحياء أو إنكار. ومن ثم أقبلت على ارتداء السترة والقفطان، والقلنسوة المصنوعة من الفرو، والحزام. وبعد أن اشتركت في أداء الفروض الدينية بهذا الزي، لم أر أي ضرر في أن أرتديه في زيارتي لسيدي "المارشال". وما إن رأني سعادته في هذا اللباس، حتى قال، على سبيل الملاطفة: "السلام عليكم"، فكان في هذا حسم الأمر، ولم أعد بعد ذلك أرتدي زياً آخر!



ولما كنت قد هجرت الأدب تماماً، فإنني لم أعد أفكر إلا في ممارسة حياة هادئة، وادعة، في نطاق إمكاني. فما عرفت يوماً -حين أخلو إلى نفسي- معنى الملل، حتى عندما أكون متعطلاً تماماً.. إذ إن خيالي كفيف بأن يملأ كل فراغ، وهو وحده خليق بأن يشغلني عما سواه. ولكن الذي أعجز عن احتماله دائماً، هو الشرثرة الحاملة، بين جذران أربعة، حين يجلس الناس بعضهم إلى بعض، دون أن يحركوا شيئاً سوى ألسنتهم!.. كذلك المشي والترريض من الأمور التي أحتملها، إذ إنها يمكن أن القدمين والعينين من أن تعمل، على الأقل!.. أما الجلوس بذراعين معقودتين، والحديث عن الجو، والذباب يحلق في المكان، أو تبادل المجاملات -وهو أسوأ مما سبق- فهذا عبء لا يطاق بالنسبة لي.

ولقد راق لي حتى لا أعيش في عزلة وحشية— أن اشغل نفسي بالتطريز "اللاسيه"، فكننت أحمل وسادة الشغل في زيارتي، أو أنهمك في التطريز لدى بابي، وأنا أجادب المارة الحديث، كما تفعل النساء!

ولقد ساعدني هذا على احتمال اللغو الفارغ، وعلى قضاء الوقت—دونما ضجر— في دور الجيران، الذين كان بينهم عدد لا يعوزهم اللطف، ولا ينقصهم الذكاء. وقد كانت من هؤلاء امرأة تدعى "إيزابيل دانفرنوا"، ابنة المدعي العام في "نيوشاتيل"، وقد لاح لي أنها جديرة بأن أربط معها برباط خاص من الود، لم نجد فيه ما يضرها، بفضل النصائح النافعة التي كنت أزوجها إليها، وبفضل الخدمات التي كنت أؤديها لها في المناسبات الماسة.. فأصبحت اليوم أما محترمة، وربة أسرة فاضلة.. ولعلها مدينة لي بحكمتها، وزوجها، وحياتها، وسعادتها!.. أما أنا، فأدين إليها بكثير من التسرية الرقيقة، لا سيما خلال الشتاء الكثيب، عندما كانت عللي وأوجاعي ترفي إلى ذروتها. فكانت تأتي لتقضي مع "تيريز" وإيبي السهرات الطويلة، التي تحذف تقصيرها بروحها المرح، وبالثقة التي كانت متبادلة بيننا. وقد اعتادت أن تدعوني "بابا" وأناديها بـ"ابنتي". ولا نزال نستخدم هذين اللقبين، وإني لآمل أن أظل عزيزا عليها—دون انقطاع— كما هي عزيزة علي!

ولكي أجعل لاشغال "اللاسيه" نفعا، اعتدت أن أهديها إلى صديقاتي الشابات عند زواجهن، على شريطة أن يغذين أطفالهن بلبائهن. وعلى هذا، حصلت الأخت الكبرى لـ"إيزابيل" على مفرش من "اللاسيه"، وكانت جديرة به حقاً.. ولكنها لم تسعد بحمل الأطفال، ولم يقدر لها أن تكون أما. ولقد حرصت—عند إرسال "اللاسيه" إلى "إيزابيل" وأختها—على أن أكتب لكل منهما رسالة. وقد طافت أولى هاتين الرسالتين أرجاء العالم. أما الثانية، فلم يقدر لها هذا الحظ من الشهرة.. فإن الصداقة لا تستقيم مع الصخب والضجيج!



ومن الصلات التي عقدتها في الجيرة—والتي لن أخوض في تفصيلاتها—علاقتي بالكولونيل "بوري"، الذي كان يمتلك داراً فوق الجبل، اعتاد أن يقضي فيها فصل الصيف. ولم أكن مشوقاً إلى معرفته، إذ كنت قد عرفت أنه على علاقات سيئة مع البلاط الملكي، ومع السيد المارشال، الذي لم يزره قط. ومع ذلك، فقد اضطررت إلى أن أزوره، إذ زارني وأبدى لي كثيراً من التكرم والحفاوة. وقد استمر تزاورنا، وكنا نتناول الطعام أحياناً، على مائدته أو مائدتي. ولقد تعرفت في داره بالسيد "دوبييرو"، الذي لم يلبث أن غدا صديقاً حميماً، حتى إنني لا أستطيع أن أنحاشي الحديث عنه. كان السيد "دوبييرو" أمريكياً، ابن قائد "سورينام" الذي تزوجت أرملته من خليفته السيد "لوشامبريه" من أبناء "نيوشاتيل"—حتى إذا ترملت مرة أخرى، وفدت مع ابنها ليقميا في بلاد زوجها الثاني. وكان "دوبييرو" ابناً لا مثيل له، واسع الثراء، مشغولاً بحب أمه، وقد نشأ في رعاية وعناية، وأفاد من تربيته، إذ كان قد حصل قدراً كبيراً من المعرفة العامة، وكان على ميل إلى الفن، كما كان يفخر بأنه أنمي بنفسه مداركه وعقله، وكان مسلكه فاتراً، فيلسوفياً، على نسق الهولنديين.. وكانت بشرته السمراء، وخلقه الصامت المتحفظ تؤيد هذه الفكرة كل التأييد. وكان أصم، ومصاباً بالنقرس، بالرغم من أنه كان شاباً. وقد جعل هذا حركاته جد متزنة، ومفرطة في التناقل. ومع أنه كان يحب النقاش—ويطيله في بعض الأحيان—إلا أنه كان قليل الكلام، بوجه عام، لأنه لم يكن يسمع!

ولقد غرني كل هذا المظهر، فقلت لنفسي: "ها هو ذا رجل مفكر، عاقل، من الصنف الذي يسعد المرء بصداقته". وما زادني اغترارا فيه، أنه كان كثيرا ما يوجه إلي الحديث، دون أي إطرار. وكان قليل الحديث عني وعن كتبي، وأقل من ذلك عن نفسه. ولم يكن خلوا من الآراء، بل كان كل ما يقوله منها صحيحا إلى درجة كبيرة. وقد اجتذبتني إليه هذه الدقة، وهذا الصواب. ولم يؤت عقله شيئا من السمو ولا من الإرهاب اللذين أوتيتهما السيد "المارشال"، ولكنه أوتي البساطة.. فكانت تتمثل دائما في كل شيء.

ولم أشغف به، ولكنني انجذبت إليه بشعور من التقدير، وقد أفضى هذا التقدير -تدریجا- إلى الصداقة. ولقد نسيت تماما -في صداقتي معه- الاعتراض الذي كنت أبديته إزاء صداقتي مع البارون "دولساخ"، وذلك أنه كان واسع الشراء.. واعتقد أنني كنت في ذلك على خطأ. فلقد تعلمت أن أرتاب في أن أي رجل أوتي ثروة طائلة، يستطيع أن يحب مبادئه بإخلاص، وأن يحب صاحبها! ولقد ظلت فترة طويلة، لم أكن أرى "دوبييرو" فيها إلا المما، إذ إنني نادرا ما كنت أذهب إلى "نيوشاتيل"، كما أنه لم يكن يزور الكولونيل "بوري" -في بيته الجبلي- إلا مرة في العام. فلماذا لم أكن أذهب إلى "نيوشاتيل"؟.. لسبب صياني، لا أرى أن أغفله.

ذلك أنني وإن كنت -في حماية ملك "بروسيا" والسيد "اللورد" -قد نجوت، في البداية، من الاضطهاد في البلد الذي لذت به، إلا أنني لم أُنج قط من تحتمات الجمهور، ومستشاري البلدية، والقساوسة. وبعد المثل الذي ضربته "فرنسا"، لم يكن من المستحسن ألا توجه إلي بعض الإهانات، على الأقل. فلقد خشي القوم أن يظهروا بمظهر غير المحبذين لمضطهدي، إذا هم لم يقلدوهم. وكانت الطبقة الممتازة في "نيوشاتيل" -وأعني جماعة القساوسة في تلك المدينة- هي البادئة، إذ حاولت أن تؤلب مجلس الدولة ضدي. فلما لم يقدر لهذه المحاولة النجاح، اتجه القساوسة إلى أعضاء المجلس البلدي، الذين بادروا بتحريم كتبي، وراحوا في كل مناسبة يعاملونني في أزوار، ليحووا إلي -بالقول وليس بالإشارة فحسب- بأنني إذا كنت أبغي الاستقرار في مدينتهم، فإنهم لن يطبقوا مقامي. وملأوا أعمدة صحيفتهم "ميركور" بالسفاسف المضحكة، والانتقادات السطحية، التي أضحكت ذوي الإدراك، ولكنها لم تخف في إثارة الجمهور وتحفيزه ضدي. وما كان سماعي بكل هذا ليمنعني من أن أكون جد شاكر لهم فضلهم البالغ، إذ سمحوا لي بأن أقيم في "موتير"، حيث لم يكن لهم أي سلطان.. فقد كانوا خليقين بأن يقيسوا الهواء بالشير، ليتقاضوا مني -في مقابلة- ثمنا باهظا! فلقد كانوا تواقين إلى أن يشعروني بأنني أسير فضل كبير لهم، من جراء الحماية التي أضفاها الملك علي بالرغم منهم، والتي كانوا دائبين على العمل لحرمانني منها، وإذ تبينوا -أخيرا- أنهم لن يوفقوا في ذلك، وبعد أن ألحقوا بي كل ما كان بوسعهم من إيذاء، وأساءوا إلي بكل ما في طاقتهم، فقد جعلوا من قحتهم فضيلة، بأن راحوا يمنون علي بفضلهم إذ تحملوا بقائي في بلادهم. وكان الجواب الوحيد الذي يخلق بي أن أوجهه إليهم هو: أن أضحك منهم ساخرا. لكنني -بدلا من ذلك- كنت من الغضب بدرجة أنني غضبت، وكنت من الحساسة بدرجة أن عقدت العزم على ألا أذهب إلى "نيوشاتيل".. وهو عزم تشبثت به عامين تقريبا، وكانني لم أكن أبدي لمثل هؤلاء المخلوقات كثيرا من الإكبار، بما كنت أبديه من احتفال بمسلكهم الذي ما كانوا ليعتبروا مسؤولين عنه -سواء كان طيبا أو خبيثا- لأنهم ما كانوا ليتصرفوا قط، دون تحريض! وإلى جانب ذلك، فإن العقول الحالية من الشقافة والنور، لا تعرف هدفا تقدره سوى الصيت، والنفوذ، والمال.. وهي بعيدة كل البعد عن أن تحس أن

المواهب جدية بشيء من الاحترام، وأن في إهانتها عارا يحط من أقدارهم! ولقد قال مرة أحد عمداء القرى - وكان قد أوقف عن عمله لسوء تصرفاته - لرئيس بولي "فال-دي-ترافير"، الذي كان زوجا لصديقتي "إيزابيل": "يقال: إن هذا الـ"روسو" رجل واسع العقل، فهاته لي، كي أتبين مدى صدق هذا". ومن المؤكد أن عدم رضا رجل يتحدث بهذه اللهجة، لا يستحق أن يضايق أولئك الذين يريد أن يفحصهم ويختبرهم!



وعلى ضوء الطريقة التي عوملت بها في "باريس"، و"جنيف"، و"بيرون"، و"نيوشاتيل" ذاتها، لم أتوقع كثيرا من الاعتبار، من الراعي الديني للمنطقة. ومع ذلك فإن السيدة "بوي ديلاطور" كانت قد أوصته بي خيرا، وكان قد استقبلني في حفاوة بالغة. ولكن المحاملات لم تكن تعني شيئا، في هذا البلد الذي كان النفاق يسوده. على أنني بعد عودتي الصادقة إلى الكنيسة البروتستانتية، وإقامتي في بلاد بروتستانتية، لم أعد أملك إهمال إبداء إعجابي للملا بالدين الذي عدت إليه، وإلا كنت ناكشا بمعهودي، مغفلا واجباتي كمواطن. ولهذا أخذت أحضر الطقوس الدينية. ولكنني من ناحية أخرى، كنت أخشى أن يؤدي حضوري المادة الربانية، إلى أن أتعرض للإهانة بأن يرفض القس السماح لي بتناول القربان. فما كان من المحتمل إطلاقا - بعد الضجة التي أقامها المجلس ضدي في "جنيف"، وتلك التي أثارها رجال الدين في "نيوشاتيل" - أن يقوم القس بطقوس المناولة لي، في هدوء، في كنيسة. ولما كان موعد المناولة يقترب، فقد قررت أن أكتب إلى السيد "دي مونغولان" - وهذا اسم القس - معربا عن حسن نواياي، ومعلنا له أنني كنت مرتبطا بقلبي بالكنيسة البروتستانتية دائما. وقلت له في الوقت ذاته - فتدابها لكل خلاف على نصوص العقيدة - : إنني لم أكن راغبا في أي شرح خاص لأسس العقيدة .. وإذ أوضحت موقفني - بهذا الشكل - لزمته الهدوء، والشك لا يخامرني في أن السيد "دي مونغولان" لن يأبى أن يعفني من المناقشات الأولية - التي تسبق المناولة عادة، والتي كنت مصرا على ألا أخوضها إطلاقا - وأن المسألة ستسوى على هذا الوضع، دونما لوم ينصب علي.

ولكن شيئا من هذا لم يحدث! ففي اللحظة التي لم أكن أتوقع فيها هذه المفاجأة، إذا بالسيد "دي مونغولان" يقبل .. لا لينبئني بأنه كان راضيا عن مناولتي القربان - بالشرط الذي ذكرته - فحسب، وإنما ليخبرني فوق هذا، بأنه وشيوخ الكنيسة يرون أن في وجودي عضوا بين رعاياهم شرفا لهم! .. أبدا لم أفاجأ في حياتي كما فوجئت بذلك، وأبدا لم أجد في شيء ما وجدت في هذا النبا من عزاء.

كان اضطراري إلى العيش في عزلة على الدوام، يبدو لي مصيرا جد كئيب، لا سيما في أوقات الغنة. ففي وسط كل هذه الأحكام التي كنت أدمغ بها - دونما إنصاف - وكل هذه الاضطهادات، كنت أجد ترفيها بالغا في أن أستطيع أن أقول لنفسني: "هأنذا بين أخوة، على الأقل!". ومن ثم فقد ذهبت للتناول بقلب يفيض بالانفعالات، وبدموع منبعثة من عواطف رقيقة، لعلها كانت خير عدة يقبلها الله، ويستطيع امرؤ أن يحملها إلى المائدة الربانية!

وأرسل لي السيد "اللورد" - بعد ذلك بزمان - رسالة من السيدة "دي بوفليير"، جاءت - كما خيل إلي - عن طريق "المبسر" الذي كان يعرف السيد "المارشال". وكانت هذه هي الرسالة الأولى التي

كتبتها إلي هذه السيدة، منذ رحيلي عن "مونتورنسي"، وقد لامتني فيها -أشد اللوم- على أنني كتبت إلى السيد "دي مونتولان"، وعلى أنني تناولت القربان، بوجه خاص. ولم أكد أفهم داعياً للومها هذا، إذ إنني -منذ رحلتي الأولى إلى "جنيف"- كنت أعلن جهاراً أنني بروتستانتية، وقد ترددت علانية على كاتدرائية "هولندا"، فلم ير أحد في هذا أي سوء. وبدأ لي من المضحك أن ترغب السيدة الكونتيسة "دي بوفليير" في أن تقم نفسها في توجيه ضميري، من الناحية الدينية. على أنني كنت لا أرتاب في أن نواياها -لا سيما هذه التي لم أستطع أن أفهمها- هي خير النوايا، ومن ثم فإنني لم أستا من هذا العتاب العجيب، بل أجبت في غير غضب، وأوضحت لها الأسباب. وفي تلك الاثناء، كانت الإساءات المطبوعة مستمرة، كشأنها من قبل، وكان مؤلفوها "الكرام" يؤنبون السلطات لأنها تعاملني في لين فوق ما ينبغي. ولقد كان هذا النباح -الذي ظل قادته يعملون في الخفاء- نذير شؤم وفزع. على أنني -من ناحيتي- تركتهم يقولون ما شاءوا، دون أن أتاثر. ولقد أكد لي البعض أن ثمة قراراً بلومياً على كتيبي، قد صدر عن "السوربون"، فابيت أن أصدق ذلك (١).

إذ كيف للسوربون أن يتدخل في هذه المسألة؟ فهل أريد بذلك تأكيد أنني لم أكن كاثوليكية؟ لقد كان كل امرئ يعرف هذا بالفعل!.. أم أريد به إثبات أنني لم أكن من أتباع "كالفن" الصالحين (٢)؟ فأي شأن للسوربون في هذا؟.. كان معنى هذا أن "السوربون" أخذ على عاتقه مهمة نافذة، وأتاب نفسه عن قساوستنا. وأيقنت -قبل أن أرى الوثيقة- أنها كانت تروج باسم "السوربون"، للسخرية منه، وقد ازدادت اقتناعاً بذلك عندما قرأتها. وعندما عجزت عن أن أشك في صحة صدورها عن "السوربون" -في النهاية- لم يبق لي ما أفكر فيه سوى أنه كان من الواجب تحويل "السوربون" إلى مصحة للأمراض العقلية!

سنة ١٧٩٢

وهناك وثيقة أخرى أثرت في نفسي فوق تأثير هذه، لأنها صدرت عن رجل كنت أقدره -على الدوام- وكنت أعجب بجلده وأنا أرثي لضياح بصره. وأقصد بهذا القول الرسالة الأسقفية التي كتبها كبير أساقفة باريس ضدي. ولقد خيل إلي أن ليس ثمة داع لأن أرد عليها. وكان بوسعي أن أفعل، دون أن أنزل من قدر نفسي. فقد كانت مسألة قريبة الشبه من مسألة ملك "بولندا". وما كنت يوماً مولعاً بالمشاحنات الوحشية، "على طريقة فولتير"!.. فلست أجيد سوى النزال الذي يحفظ للمرء كرامته، ولا بد -قبل أن أتنازل بالدفاع عن نفسي- من أن أستوثق بأن الذي يهاجمني لن يشوه ضرباتي!

ولم يداخلني شك في أن هذه الرسالة الأسقفية كانت من عمل "الجميزويت"، ومع أنهم كانوا إذ ذاك منكوبين، إلا أنني رأيت في هذا العمل مصداقاً لبدئهم القديم.. "مبدأ سحق المنكوبين" ومن ثم فقد كان بوسعي أن أتبع -أنا الآخر- مبدئي القديم، مبدأ تكريم المؤلف وسحق الكتاب. وهذا ما اعتقد أنني وفقت في أدائه.

(١) كان "السوربون" معهداً للعلوم اللاهوت، في ذلك الحين. (٢) "جون كالفن" مصلح ديني سويسري، قام ببشر بإصلاح الكنيسة منذ سنة ١٥٣٢، ويسمى المذهب الذي قام على تعاليمه بالمذهب البروتستانتي. وهو قريب من المذهب البروتستانتي.

ولقد وجدت إقامتي في "موتير" جد مستحبة، فلم يكن يعوزني سوى الحاجة إلى مورد ثابت للعيش، كي أقرر قضاء آخر أيام عمري هناك. بيد أن الحياة كانت باهظة التكاليف، وكانت كل مشروعاتي القديمة قد انقلبت رأسا على عقب، بسبب نزوحني عن مكان إقامتي القديم، والعمل على إنشاء مقر جديد لي، وبسبب بيع امتعتي أو تبديدها، وبسبب النفقات التي كنت مضطرا إلى تكيدها منذ رحيلي عن "مونغورنسي". ورحت أرى رأس مالي الصغير يتضاءل يوما بعد يوم، حتى بات في وسع عامين آخرين أو ثلاثة، أن تأتي على ما تبقى منه، دون أن أرى موردا آخر لتعويضه، اللهم إلا إذا شرعت في تأليف الكتب من جديد.. وممارسة المهنة المشؤومة التي كنت قد نبذتها!



وإذ كنت مؤمنا بأن الأمور لن تلبث أن تتطور عما قريب، وأن الرأي العام لن يلبث أن يشوب من تهوسه، وأن يحمل السلطات على أن تخجل من تصرفها، فكان همي الوحيد، هو أن أجعل مواردني تستمر حتى يحدث هذا الانقلاب السعيد، الذي سيتيح لي وضعاء، أكون أكثر مقدرة فيه على أن أختار موردا من الموارد التي تعرض لي. وفي سبيل ذلك، عدت إلى استئناف موسوعي الموسيقية التي كنت سبعد جهد استغرق عشر سنوات - قد قطعت شوطا بعيدا فيها، فلم يعد ينقصها سوى المراجعة الأخيرة، وأن تنسخ نسخا نظيفا. ولقد وفرت لي كتيبي - التي كانت قد أرسلت إلي منذ وقت قصير - وسائل إتمام هذا المؤلف.. كما أن أوراقني - التي أرسلت إلي في الوقت ذاته - مكنتني من البدء في مشروع مذكراتي، التي اعتزمت أن أجعلها شاغلي الوحيد، من ذلك الحين. وقد شرعت في نسخ الرسائل في مجموعة تهدي ذاكرتي إلى نظام الوقائع والتواريخ. وكنت قد اخترت تلك الرسائل التي رأيت أن أعدها لهذا الغرض، وقد نسقت في تنابع لم ينقطع زهاء عشر سنوات تقريبا. غير أنني تبينت - وأنا أراجعها لأنسخها - ثغرة خلالها أدهشنتني. وكانت هذه الثغرة تشمل ستة أشهر، من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٧٥٦ إلى آذار (مارس) التالي!

وكننت أذكر تمام التذكر أنني ضمنت مجموعتي عددا من الرسائل التي تلقيتها من "ديدرو"، و"دي ديليسير"، والسيدة "ديبينا"، والسيدة "دي شينونسو" وغيرهم، والتي كانت تملأ هذه الثغرة، ولم يعد لها وجود. فما الذي جرى لها؟.. هل عبثت يد بأوراقي أثناء بضعة الأشهر التي مكثتها في قصر "لو كسمبورج"؟.. كان هذا الأمر بعيدا عن المعقول، إذ إنني رأيت السيد "المارشال" يأخذ بنفسه مفتاح الغرفة التي أودعت فيها هذه الأوراق. ولما كان كثير من رسائل السيدات، وكل رسائل "ديدرو"، لا تحمل تاريخا، وكنت قد اضطررت إلى ترتيب تواريخها اعتمادا على الذاكرة، وكنت كمن يتلمس طريقه في الظلام لتنسيق ترتيبها، فقد ظننت - في بادئ الأمر - أنني ربما كنت قد أخطأت حدس التواريخ.. ورحت أراجع كل الخطابات التي لم تكن تحمل تواريخ، أو التي كنت قد سجلت عليها التواريخ بنفسني، لاتبين ما إذا لم يكن بوسعي العثور على تلك التي كانت لازمة للثغرة.

ولم تغلح هذه المحاولة، فتبينت أن الفراغ كان قائما حقا، وأن الخطابات كانت قد رفعت من مكانها يقينا. فمن الذي رفعها، ولماذا؟ هذا ما لم أستطع إدراكه..! كانت هذه الرسائل سابقة على مشاحناتي الكبرى، وتمت إلى فترة نشوتي الأولى بـ"جولي". ومن ثم فإنها لم تكن ذات أهمية

لاحد . كانت تضم -في الغالب- بعض مشاكسات من "ديدرو"، وبعض سخریات من "ديليير"، وبعض تأكيدات للود من السيدة "دي شينونسو"، بل ومن السيدة "ديناي" التي كنت معها إذ ذاك على خير وثام . فمن الذي تهمة هذه الخطابات ؟ .. وماذا يراد بها .. ولكنني لم أحس الغرض البشع من هذه السرقة إلا بعد سبع سنوات !

وحملني تأكدي من هذا النقص، على أن أفحص مسوداتي لأتبين ما إذا كان ثمة نقص آخر، فوجدت عددا منها مفقودا، ونظرا لقصور ذاكرتي، جعلني هذا افترض ضياع أوراق أخرى من أكداش أوراقني . وكانت المسودات التي لاحظت غيابها، هي تلك المتعلقة بكتاب "المبادئ الخلقية الحمسية"، والفقرات المستخلصة من "مغامرات اللورد إدوار" . وأعترف أن غياب هذه الأخيرة، أوحى إلي بالشك في السيدة "دي لوكسمبورج" . فلقد كان وصيفها الخاص "لاروش"، هو الذي نقل أوراقني، وما كنت لأتصور سواها -دون الناس أجمعين- من يهتم بمثل هذه القطعة . ولكن، أي اهتمام كان يدفعها إلى أخذ الثانية، وإلى أخذ الرسائل الغائبة، التي ما كان بوسع امرئ أن يفيد منها في مضايقتي -مهما تكن نياته خبيثة- اللهم إلا إذا زيفها ؟ .. أما السيد "المارشال"، الذي عهدت فيه استقامة لا تتذبذب، وصدقا في وده لي، فإنني لم أملك أن أرتاب فيه لحظة واحدة . بل إنني لم أملك أن أثبت هذا الشك على السيدة "المارشالة" !

وكان أكثر الافتراضات التي خطرت لي، تمشيا مع المعقول -بعد أن أضيت نفسي وقتا طويلا في البحث عن مرتكب هذه السرقة- هو أن ألقى بالوزر على "دالمير"، الذي كان قد وفق إلى اكتساب مكانة لدى السيدة "دي لوكسمبورج"، فكان من المحتمل أن يكون قد وفق إلى وسيلة للنبش في أوراقني، والاستيلاء على ما استطاع الاستيلاء عليه، سواء من المخطوطات، أو من الرسائل، وسواء جريا منه وراء إثارة بعض الفتن، أو لكي ينسب إلى نفسه ما قد يراه نافعا منها . وافترضت أن يكون قد أساء فهم عنوان "المبادئ الخلقية الحمسية"، فخليل إليه أنه قد عثر على مشروع رسالة حقيقية عن "المادية"، يستطيع أن يستغلها ضدي بالقدر الذي صور له خياله . وإذا كنت واثقا بأنه لن يلبث أن يتبين الحقيقة عندما يفحص المسودة، كما كنت قد عقدت العزم على أن أهجر الأدب نهائيا، فإنني لم أهتم كثيرا بهذه السرقات، التي لم تكن أول ما ارتكبته تلك اليد ذاتها، والتي احتملتها دون ما شكوى . فلقد وجدت في كتاب "دالمير": "مبادئ الموسيقى" كثيرا من الأشياء لماخوذة عما كنت قد كتبت في هذا الفن لدائرة المعارف، والتي كانت قد أرسلت إليه قبل طبع كتابه بسنوات عديدة . وإنني لأجهل ما قد يكون له من نصيب في كتاب بعنوان "موسوعة الفنون الجميلة"، ولكنني وجدت فيه مقالات منقولة بالكلمة من مقالتي .. قبل أن تنشر هذه في دائرة المعارف !

وسرعان ما كففت عن التفكير في هذه الخيانة، وكأنما لم يرتكب ضدي قط عمل كهذا، وشرعت أنسق المواد التي تبقت لي، لكي أتوفر على "اعترافاتي" .



وكنت قد ظلمت طويلا أعتقد أن جماعة القساوسة في "جنيف"، أو أن المدنيين وسكان المدن -على الأقل- لن يلبثوا أن يحتجوا على انتهاك القانون، في المرسوم الذي كان قد أصدر ضدي، بيد أن كل شيء ظل ساكنا .. في الظاهر على الأقل، إذ إنه كان ثمة تذكر عام، لم يكن ينتظر سوى مناسبة يعلن فيها عن وجوده . وكان أصدقائي -أو من يسمون أنفسهم كذلك- قد كتبوا لي الرسائل

تلو الرسائل، يستحثونني على أن أذهب فاضع نفسي على رأسهم، مؤكدين لي أن المجلس لن يلبث أن يصدر اعتذارا علنيا، إذ ذاك. على أن الخوف من القلاقل والاضطرابات، التي قد يشيرها وجودي، تمنعني من قبول إلحاحهم.

وفي وفائي للعهد الذي كنت قد أخذته على نفسي في الماضي، بالا أقحم نفسي في أي شقاق أهلي في بلادي؛ ولذلك آثرت أن يبقى انتهاك العدالة قائما على حاله، وأن أحرم وطني على نفسي إلى الأبد، على أن أجه بوسائل عنيفة وخطرة. ومن الصحيح أنني كنت أرتقب من أبناء المدن مظاهرات سلمية وقانونية ضد المخالفة التي كانت تهمهم إلى أقصى حد، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث. فإن أولئك الذين كانوا يقدرونهم، لم يكونوا يسعون إلى علاج الأخطاء والمساوئ، بقدر ما كانوا ينشدون فرصة ليجعلوا من أنفسهم قادة لا غنى عنهم. وكانوا يسعون بالتحريض، ولكنهم لزموا الصمت، وأطلقوا الزمام للشائعات والأكاذيب التي كان المجلس يروجها ليشوه من سمعتي أمام الاهالي، وليعزو إساءاته إلى الحماس الديني!

وبعد أن انتظرت -دون جدوى- أكثر من عام، على أمل أن يحتج أحد على الإجراء غير القانوني، استقر رأيي -في النهاية- على قراره. وإذا وجدت نفسي مهجورا من مواطني، صممت على أن أنبذ وطني الجاحد، الذي لم أقم فيه قط، والذي لم ألق منه خيرا ولا عونا، والذي جازاني على الشرف الذي سميت لإضافته عليه، بأن وافق بالإجماع على معاملة مهينة. وإذا لم ينسب بكلمة أولئك الذين كان ينبغي عليهم أن يتكلموا، كتبت إلى "السنديك الأول" (١) لذلك العام -وكان السيد "فافر"، على ما أظن -رسالة نزلت فيها بشم عن حقي في أن أكون مواطنا، وراعت فيها -إلى جانب ذلك- الأدب والاعتدال اللذين كنت أحرص عليهما في التصرفات المتعلقة بكرامتي، والتي كثيرا ما كانت قسوة أعدائي تدفعني إليها في أوقات محنتي.

وفتحت هذه الخطوة أعين المواطنين، فأحسوا بأنهم قد أذنبوا إزاء مصلحتهم الحقيقية إذ تخلوا عن الدفاع عني، فهبوا لذلك بعد فوات الأوان. وكانت لهم مظالم أخرى ضموها إلى هذه، وجعلوا منها مادة لشكايات عديدة، جد معقولة، راحوا يوسعون نطاقها ويعززونها، نتيجة للرفض الجاف المشبط الذي أخذ المجلس يقابلها به، وهو مستند إلى تأييد الوزير الفرنسي، مما جعل المواطنين يزدادون شعورا بالخطة التي كانت موضوعة لاستبعادهم. ولقد دعت هذه الخلافات إلى إصدار منشورات عديدة، لم تبت بشيء، إلى أن ظهر فجأة "رسائل كتبت من الريف". وهو مؤلف وضع لتأييد المجلس بدهاء لا حد له، وقد أفحم الفريق المتذمر وهزمه فترة من الزمن. وهذا الكتاب أثر بآق على ما أوتي مؤلفه من مواهب نادرة، وهو من إنتاج المدعي العام "ترونتشان" (٢)، وقد كان رجلا ذكيا، متورا، متبحرا في القوانين وفي نظم الحكم الجمهوري.

سنة ١٧٦٤

ووافق المتذمرون من هزيمتهم الأولى، فتولوا الرد، وخرجوا من مأزقهم على خير حال. ولكن الجميع راحوا يوجهون أنظارهم نحوي، وكأنني الوحيد الذي كان يقوى على مقارعة خصم كهذا يأمل التغلب عليه. وأعترف أنني كنت أرى الرأي ذاته، فلما أخذ مواطني القدامى يستحثونني

(١) رئيس المجلس الذي كان يتولى إدارة شؤون جمهورية "جنيف". (٢) جان روبرت ترونتشان، وهو غير "شور دور ترونتشان: الطبيب المشهور الذي ورد ذكره في الكراسين الثامنة والعاشرة. وكانا أهني عمومة.

ويبينون أن من واجبي أن أساعدهم بقلمي في مازق كنت أنا سببه. فعكفت على دحض "رسائل من الريف"، وقلبت العنوان إلى "رسائل من الجبل"، وهو الذي اتخذته لردّي. وقد فكرت في هذا المشروع ونفذته في تكتّم شديد، حتى إنني - في اجتماع مع رؤساء المتذمرين في "قانون"، لنتشاور في أمورهم، وليطلعوني على مشروع ردهم - لم أشر بكلمة إلى ردي الذي كان قد اكتمل، خشية ألا يتغلبوا على بعض العقبات في سبيل طباعته، لو أن أعضاء المجلس أو أعدائي الشخصيين سمعوا أتفه همسة عنه. ومع ذلك فإنني لم استطع أن أحول دون أن يذاع أمر هذا المؤلف في "فرنسا" قبل نشره، على أنه رأي تركه يظهر، بدلا من إطلاعي بجلاء على الوسيلة التي اكتشف بها سري. ولسوف أبين - فيما بعد - ما علمته، وإن لم يكن بالكثير، ولن أذكر شيئا عن هواجسي وتخميناتي.

كان الزائرون يتوافدون على دارّي في "موتيسير"، بعين كثرتهم في "ليرميதாக" و"مونغورنسي" تقريبا. ولكنهم كانوا - في الغالب - من نوع آخر. فقد كان الساعون إلى لقائي - قبل ذلك الحين - من أولئك الذين تربطهم بي روابط المواهب، والميول، والمبادئ. فكانت هذه مبررات لزياراتهم. وكانوا يطلعونني على موضوعات استطيع أن أناقشها معهم، قبل نشرها. ولكن هذه لم تكن الحال في "موتيسير"، لا سيما في الجانب الفرنسي. فقد كان زائري من الضباط، أو الموظفين، أو سواهم ممن لم يؤثروا أي ميل للأدب، ومن لم يقرأ معظمهم مؤلفاتي.. ومع ذلك، فإنهم كانوا - على قولهم - يقطعون ثلاثين، أو أربعين، أو مائة فرسخ ليزوروني، وليرضوا إعجابهم برجل لامع، شهير، شهير جدا، بل الرجل العظيم... إلخ ذلك لأن الناس لم يكونوا قد كفوا - إذ ذاك - عن أن يقدفوني في وجهي بأغلظ الفاظ الملق وأوقحها، فلم يكن يحميني منها - منذ ذلك الحين - سوى تقدير أولئك الذين كانوا يقدفون لزيارتي. ولم أكن أدري فيم أتحدث إلى هؤلاء؟ إذ كان أغلبهم لا يفضلون بذكر أسمائهم، ولا يطلعونني على مراكزهم. وكانت معرفتهم ومعرفتي لا تتسقان حول محور مشترك.. وكنت أصمت مرتقبا أن يفتحوا هم الحديث، إذ كان عليهم أن يذكروا لي سبب زيارتهم، لأنهم كانوا أدري به مني. ومن السهل إدراك أن هذا المسلك لم يكن يؤدي إلى حديث مشوق لي بوجه خاص، وإن كان من المحتمل أنه مشوق لهم، تبعا لما جاءوا ينشدون معرفته. إذ إنني لبعدي عن أن أرتاب في شيء، كنت أسهب في الحديث - دون تحفظ - في كل ما كانوا يرون من اللائق طرحه علي من موضوعات. وكانوا يخرجون من هذا - في العادة - وهم لا يقلون عني إلما بما بكل تفصيلات موقفي.

ومن أمثلة هذا الصنف، السيد "دي فيان"، حامل سلاح الملكة، وقائد الفرسان في لواء الملكة، الذي دأب على أن يقضي عدة أيام في "موتيسير" وكان يرافقتني في زهاتي على القدمين، حتى "لافيرير"، وهو يقود فرسه ممسكا بعنانه، دون أن يكون ثمة ما يجمعنا، اللهم إلا أن كلينا كان يعرف الآنسة "فيل" (١)، وكنا نتبادل لعبة الكرة والكوب. ولقد حظيت - قبل السيد "دي فيان" وبعده - بزيارة أخرى، أكثر غرابة. إذ وصل رجلان يسيران على أقدامهما، وقد راح كل منهما يقود بغلا محملا بمناعه القليل، فهبطا في نزل البلدة، وبعد أن نظفا بغليهما بنفسهما، طلبا زيارتي. وكان مظهر راكبي البغلين، يوحي بأنهما من مهربي السلع عبر الحدود، فسرعا ما ذاع النبا بأن المهربين يقدفون لزيارتي. بيد أن الطريقة التي خاطباني بها، أشمرتني بأنهما من صنف آخر. على أنهما إذا لم يكونا مهربين، فقد كان من المحتمل أن يكونا من طلاب المغامرة، مما جعلني على حذر منهما فترة. ولم يطل بي القلق، فإذا أحدهما السيد "مسونتويان"، الذي كان يعرف بالكونت

(١) الآنسة "فيل" كانت ممثلة في "الأوبرا" الفرنسية، ورد ذكرها في مواقع متفرقة من الأجزاء السابقة.

"ديلاتور-دو-بان"، الذي كان من سادة "دوفينييه". أما الآخر، فكان السيد "داستييه"، وهو جندي قديم من "كارينترا"، دس وسام "صليب القديس لوي" في جيبه، عزوفا عن المظهر. ولقد كان هذان السيدان اللطيفان، رقيقين، واسعي العقل، فكان حديثهما ممتعا ومشوقا. وقد جعلتني طريقتهما في الاسفار - وكانت تروقي لي كثيرا، وإن لم تتناسب مع طرق السادة الفرنسيين - أشعر بميل نحوهما، ما كانت الخلطة لتزيده إلا توثقا. ولم ينته تعارفنا عند هذا الحد، بل إنه لا يزال قائما، وقد زارني مرارا منذ ذلك الحين - ولكنهما لم يعودا يأتيان على الاقدام؛ فقد كانت هذه الطريقة صالحة لزيارة التعارف الأولى فحسب. على أنني كلما ازدادت تلاقيا بهما، قل ما ألقاه من تجاوب بين ميولهما وميولي، وقل شعوري بأن مبادئهما هي مبادئتي وبأنهما على دراية بمؤلفاتي وبأن كلا منا يكن للآخر ميلا حقيقيا! فماذا كانا يبغيان مني، إذن؟ ولماذا جاءا لزيارتي بهذا الشكل والمظهر؟ ولماذا بقيا عدة أيام؟ ولماذا تكررت زيارتهما عدة مرات؟ ولماذا كانا شديدي الرغبة في أن أستضيفهما؟.. لم يخطر ببالي إذ ذاك، أن أوجه هذه الأسئلة إلى نفسي، ولكنني وجهتها بضع مرات، منذ ذاك الحين!

وإزاء تقربهما ومجالسهما الودية، مال قلبي - دون روية - إليهما، لاسيما إلى السيد "داستييه"، الذي سرنني منه أن كانت أخلاقه صريحة، وواضحة.. حتى لقد واصلت تبادل الرسائل معه، وعندما اردت أن أنشر كتابي "رسائل من الجبل"، فكرت في أن أرسل المخطوط باسمه، لأموه على أولئك الذين كانوا يترصدون للكتاب وهو في طريقه إلى "هولندا". وكان قد حدثني كثيرا - وربما عن قصد - عن حرية النشر في "أفنيون"، وعرض علي خدماته إذا شئت أن أطبع شيئا هناك. فتقبلت هذا العرض، وأرسلت إليه الأوراق الأولى تباعا بالبريد. وبعد أن استبقاها فترة ليست بالقصيرة، ردها ثانية، وأنبأني - في الوقت ذاته - بأن أحدا من الناشرين لم يجد من نفسه جرأة على أن يتكفل بطبعه.. واضطرت إلى أن أعود إلى "ريمي"، متخذة الحذر، بحيث إنني كنت أرسل أوراقني واحدة بعد أخرى، على ألا أرسل واحدة، حتى أتسلم ما ينبغي بوصول سابقتها.

وقبل أن يطبع الكتاب، علمت أنه روجع في دوائر القساوسة، وحدثني "ديشيسرني" - من "نيوشاتيل" - عن كتاب اسمه "رجل من الجبل"، قال له "دولباخ": إنني كاتبه. فأكدت له أنني لم أكتب قط كتابا بهذا العنوان، وكنت في ذلك صادقا. لذلك فإنه احتاج عندما ظهرت الرسائل، واتهمني بالغش، بالرغم من أنني أنبأته بمجرد الحقيقة.

وهكذا اقتنعت بأن المخطوط كان معروفا. ولما كنت موقنا من أمانة "ريمي" فقد اضطرت إلى أن أنقل شكوكي إلى اتجاه آخر، وكان أقرب التخمين إلى المنطق، بل كان الحدس الذي فضلت على سواه، هو أن رسائلتي كانت تفتح أثناء ذهابها بالبريد!



ومن تعرفت بهم - حوالي هذه الفترة بالذات، ولكن تعارفنا اقتصر في البداية على تبادل الرسائل - السيد "لالاود"، من أبناء "نيم". فقد كتب إلي من "باريس" يسألني أن أرسل إليه صورة جانبية لوجهي لأنه - كما قال - كان بحاجة إليها في نحت تمثال نصفي من المرمري، كان قد عهد إلى "لوموران" بعمله، رغبة منه في أن يقيمه في مكتبته الخاصة. وإذا كانت هذه حيلة ابتكرت لاستمالي، فالحق أنها أفلحت تماما. فلقد خلت أن رجلا يرغب في إقامة تمثال لي في مكتبته، لابد أن يكون مليء الرأس بمؤلفاتي، وبالتالي بمبادئتي، وأنه لابد يحبني، لأن روحه كانت على شاكلة

روحي . وكانت هذه الفكرة خليقة بأن تستهويني . ولقد رأيت السيد "لالياد" بعد ذلك، فوجدته تواقا إلى أن يؤدي إلي بعض الخدمات الطفيفة، لكي يوغل في التدخل في شؤوني البسيطة . . . وفيما عدا ذلك، أظن كتابا واحدا من مؤلفاتي كان بين الكتب القليلة التي قرأها في حياته . وإنني لأجهل، إذا كانت لديه مكتبة، وما إذا كانت هذه المكتبة مجرد أثاث يحلو له أن يستخدمه . . . أما التمثال النصفي، فقد اقتصر على شكل مشوه من الطين، صنعه "لوموان"، وحفر عليه قسما بشعة، حملت برغم ذلك اسمي، وكأنما فيها شيء من الشبه بي!

وكان الفرنسي الوحيد، الذي بدا أنه جاء يزورني عن ميل إلى مشاعري وكتاباتي، ضابطا شابا من كتبة "ليمزان" يدعى "سيجوييه دي سان-بريسون"، كان -ومايزال- من المتوقع أن يتالق نجمه في "باريس" والعالم، بفضل ما أوتي من مواهب مستحبة، وما كان يبدية من جمال الفكر . وكان قد وفد على "مونتورنسي" لزيارتي، في الشتاء الذي سبق كارثتي . ثم كتب لي بعد ذلك، في "موتيسر" . . . وسواء كان راغبا في تملقي، أو أن شخصية "إميل" كانت قد استهوته حقا، فإنه أنبأني باعتزازه ترك الخدمة، ليعيش حرا . . . وأنه لذلك أخذ يتعلم حرفة التجارة . ولقد كان له أخ يكبره - "كابتن" في الكتبية ذاتها- كان أثيرا بحب أمه، التي كانت متطرفة في التقوى، وكانت -في خضوعها لسلطان راهب دجال- تسيء معاملة ابنها الأصغر، وتنهمه بالمروق على الدين، بل وبالعب الذي لا يغتفر . . . وهو توثق العلاقة بينه وبينني . وكانت هذه هي المظالم التي أراد من أجلها أن يقطع وشائجه مع أمه، وأن ينتهج الرأي الذي ذكرته من قبل . . . أن يكون "إميل" الصغير، في كل شيء! وجزعت لهذا الطيش، فبادرت إلى الكتابة إليه، محاولا أن أثنيه عن عزمه، مزجيا إليه أقوى المواعظ تأثيرا . ولقد أخذ بنصحي، وعاد إلى واجبه كابن، كما سحب من يدي قائده الاستقالة التي كان قدمها، والتي كانت حكمة القائد قد أبت عليه أن يقبلها، ليوسع له الوقت كي يعيد التفكير في الأمر . وما إن شفي "سان بريسون" من هذه الحماقات، حتى أقدم على حماقة جديدة، لم تكن مثيرة للسخف كذلك، ولكنها لم تصادف هوى من نفسي . . . إذ جعل من نفسه مؤلفا . فأصدر كتيبين أو ثلاثة، تباعا، كشف فيها عن قدر من الاستعداد . . . ولكني لا أحمل زور إطرائها بما كان كفيلا بأن يشجعه على المضى في هذه الحرفة!

ولقد جاء لزيارتي -بعد ذلك بزمان- وقمنا بنزهة معا إلى جزيرة "سان بيسر" . ووجدته خلال هذه الرحلة، على غير ما رأيته في "مونتورنسي" . كان ثمة تغير قد ألم به، لم يصدمني في البداية، ولكنه كثيرا ما تمثل لحاظري، منذ ذلك الحين . ولقد زارني مرة أخرى، في فندق "سان سيمون"، أثناء مروري بـ "باريس"، في طريقي إلى "إنجلترا" . وإذ ذاك سمعت مالم يقله لي هو، من أنه أصبح يرتاد المجتمعات الراقية، وأنه كثير التردد على السيدة "دي لوكسمبورج" . ولم يبد -أثناء وجودي في قلعة "تيسر"- ما ينم عن وجوده على قيد الحياة، ولا أبلغني شيئا عن الأنسة "سيجوييه"، قريبته التي كانت جارة لي . وقصاري القول، إن شغف السيد "دي سان-بريسون" انتهى فجأة، كما انتهت علاقة السيد "دي فيان"، ولكن إذا لم يكن الأخير مدينا لي بشيء، فإن الأول كان مدينا لي ببعض الشيء، مالم تكن النزوات الطائشة التي صددته عن ارتكابها، مجرد حيلة من جانبه، وهو أمر جد محتمل!



وتردد علي كذلك، مثل هذا العدد -أو أكثر- من الزائرين الوافدين من "جنيف". فاختارني "ديلووك" وابنه -على التعاقب- مرضاً أسهر عليهما. فقد مرض الأب أثناء الطريق، وكان ابنه قد مرض -هو الآخر- مذ غادر "جنيف"، فحلا لثلاثين المقام في داري. وتوافد من "جنيف" ومن "سويسرا" الزائرون، من قساوسة، إلى أقارب، إلى مرآئين، إلى نكرات، لا لإبداء إعجابهم بي، أو للسخرية مني -كما كان يفعل القادمون من "فرنسا" - وإنما ليؤنّبوني، ويعظوني!.. وكان الوحيد الذي يروق لي منهم، هو "مولتو" الذي أقبل لقضاء ثلاثة أو أربعة أيام معي، والذي كنت أرجو أن استضيفه فترة أطول. على أن أكثرهم مثابرة، وأشدهم صلابة، كان رجلاً يدعى السيد "دانفيرنوا"، استطاع أن يقهرني بمضايقاته. وكان تاجراً من "جنيف"، من المهاجرين الفرنسيين، كما كان قريباً للمدعي العام في "نيوشاتيل". وكان هذا السيد "دانفيرنوا" الجنيفي، يرب "موتير" مرتين في العام، وكله شوق إلى أن يزورني، ويمكث في داري من الصباح إلى المساء، لعدة أيام بعد ذلك، فيفرض صحبته علي في نزّهاتي، ويجلب إلي ألف نوع من الهدايا الصغيرة، ويقحم نفسه علي أسراري بالرغم مني، ويتدخل في جميع شؤوني.. دون أن يجمع أحداً بالآخر أي تشابه في الآراء، أو الميول، أو الاحساس، أو المبادئ. وإني لأشك في أنه قرأ كتاباً واحداً في حياته، من أوله إلى آخره، وفي أنه كان يعرف ما تناولته كتيبي بالذات. وعندما شرعت في هواية النباتات، أخذ يرافقني في جولاتي لتفقد أنواع النبات، ودعماً ميل إلى هذه الهواية، ودون أن يملك ما يقوله لي، كما أنني لم أكن أملك ما أقوله له. بل لقد أوتي الجلد على أن يقضي معي ثلاثة أيام كاملة، وحيداً لا ثالث لنا، في مكان عام في "جوموان"، كنت أرجو أن أتخلص منه عنده، بفضل العمل على إملاله، وإشغاره بمدى ما كان يسببه لي من ملل. بيد أنني لم أقو قط على أن أثبط دأبه الذي لا يصدفه عقل، ولا على اكتشاف الباعث إليه!

وبين كل هذه العلاقات، التي لم أصلها ولم أرعها إلا غصبا، أرى من الواجب ألا أغفل العلاقة الوحيدة التي كانت تروق لي، والتي أثارت اهتماماً حقيقياً في فؤادي.. تلك هي صلاتي بشاب مجري، جاء ليقم في "نيوشاتيل"، ثم في "موتير" -بعد ذلك- عقب استقراره هناك ببضعة أشهر، وقد عرف في المنطقة باسم "البارون دي موتير"، وهو الاسم الذي ورد في التوصيات التي حملها من "زيورخ". وكان شاباً طويلاً عريضاً، متناسق القوام، مليح القسما، رقيق الطباع دمها. ولقد أنبا الجميع -وأوقع في روعي أنا الآخر- بأنه لم يأت إلى "نيوشاتيل" إلا ليراني، وليروض شبابه على الفضيلة بالاتصال بي. وكانت أساريه، ومسلكه، وأخلاقه، تبدو لي مصداقة لكلماته. فكنت خليقاً بأن ألوم نفسي على تخليها عن واجب من أهم الواجبات، لو أنني أبيت أن أقابل شاباً لم أر فيه إلا كل مستحب، وكان الباعث الذي حفزه على السعي للتعرف إلي، جديراً بكل اعتبار، ولا يحذر قلبي الاستسلام الناقص، ومن ثم فسرعان ما استولى الشاب على صداقتي الكاملة، وثقتي الشاملة، وأصبحنا لا نفترق.. فكان يرافقتني في كل نزّهاتي على الأقدام، ويستمتع بها كل الاستمتاع. ولقد صحبته إلى السيد اللورد "المارشال"، الذي أبدى له ألف مجاملة!

وإذ لم يكن قد أجاد بعد الحديث بالفرنسية، فقد كان يخاطبني ويكتب إلي باللاتينية، وكنت أجيبه بالفرنسية بيد أن هذا الخلط بين اللغتين، لم يقلل من تدفق محادثاتنا، ولا من حيويتها، بأي حال!

ولقد حدثني عن أسرته، وشؤونه، ومغامراته، والبلاط الملكي في "فيينا"، الذي بدا علي إلمام تام

بدقائق الحياة فيه . وموجز القول : إنني لم أجد فيه - خلال السنتين اللتين قضيناهما في أشد الود - سوى لطف الشخصية في كل الأحوال، وسوى أخلاق لم تكن كريمة فحسب، وإنما كانت مهذبة .. وسوى نظافة تامة في شخصه، وعفة مفرطة في قوله .. كانت له - بإيجاز - كل صفات الرجل الطيب المنبت، مما جعلني - بغض النظر عن إعزازي إياه - أجله اسمي إجلالاً!



وفي عنفوان علاقتي به كتب لي "دانفيرنوا" الجني في بان أحذر شاباً مجرباً وقد للإقامة على مقربة مني، فقد قيل له - في تأكيد - إنه جاسوس من الوزير الفرنسي، ليكون عينا علي .. ولقد دبرت هذه النصيحة لكي تسبب لي مزيداً من القلق، ففي تلك البلاد، كان كل الناس ينصحونني بأن أكون على حذر، لأنني مراقب . وكان الهدف من ذلك استدراجي إلى الأراضي الفرنسية، ثم الانقضاء علي!

ولكي أخرس كل هؤلاء الناصحين نهائياً، اقترحت على "سوتيرن" أن يصحبني إلى نزهة على الأقدام، إلى "بونتارلييه" - دون أن أتبعه بشيء - فقبل . عندما وصلنا إلى "بونتارلييه"، أعطيته خطاب "دانفيرنوا" ليقرأه، ثم عانقته في حرارة، وقلت: "ليس "سوتيرن" بحاجة إلى أن أبرهن له على ثقتي، ولكن الجمهور بحاجة إلى دليل يبين من هو جدير بها" .. وكان هذا العناق عذبا جداً .. كان من تلك المتع الروحية التي لا يعرف الظالمون مذاقها، والتي لا يستطيعون أن يحرموا منها المظلومين!

ولن أصدق قط أن "سوتيرن" كان جاسوساً، أو أنه خائني، بيد أنه غرر بي . فعندما فتحت له قلبي في غير تحفظ، إذا به يؤتى الجلد على أن يغلط قلبه، ويخدعني بالكاذب . فقد ابتكر لي قصة لا أدري مآتها، جعلني أجد أن وجوده في بلاده كان أمراً ضرورياً، فحضضته على الرحيل إليها دون إرجاء، وقد فعل، وعندما خيل إلي أنه قد وصل إلى "المجر" سمعت أنه كان في "ستراسبورج" . ولم تكن هذه أول مرة يوجد فيها هناك . فلقد أوقع الفقرة في أسرة بالمدينة، فكتب لي الزوج إذ عرف أنني اعتدت أن أقالبه . ولم أدر وسعاً في رد الزوجة إلى طريق الفضيلة، ورد "سوتيرن" إلى نطاق الواجب . وما إن ظننت أنهما قد افترقا تماماً، حتى عادا إلى اتصالهما، وأوتي الزوج من اللين واللفظ ما جعله يؤوي الشاب في داره . ولم يبق لي بعد ذلك مجال لقول .

على أنني تبين أن البارون المزعوم، قد تقرب إلي بطائفة من الأكاذيب ولم يكن اسمه "سوتيرن" - على الإطلاق - وإنما "سوتير شام" . أما لقب "بارون" - الذي أطلق عليه في "سويسرا" - فليست أملك أن ألومه عليه، لأنه لم يستحله لنفسه قط .. على أنني لا أرتاب في أنه كان سيداً مهذباً، راقياً حقاً، وقد اعتاد اللورد "المارشال" - الذي كان خبيراً بالرجال، والذي عرف بلاده من قبل - أن ينظر إليه وأن يعامله كسيداً وما إن رحل "سوتيرن"، حتى أعلنت خادم الفندق الذي اعتاد تناول الوجبات فيه - في "موتير" - أنها حامل عن طريقه . وكانت عاهرة قذرة، في حين أن "سوتيرن" كان محترماً لدى الجميع، وكان معروفاً في كل مكان بمسلكه وخلقه الكريمين، وبأنه كان جد فخور بنظافته وعفته . ومن ثم أذهلت هذه الوقاحة جميع الناس . وهاج سخط أبداع حسان البلد، اللائي كن يؤثره بمفاتنهن دون جدوى . كذلك ثرت أنا استنكاراً، ورحت أبذل كل جهد في

سبيل الزج بهذه الفاجرة في السجن، عارضا أن أتكفل بجميع النفقات، وأن أكون ضامنا لـ "سوتير شام". وكتبت إليه وأنا أشد ما أكون اقتناعا، لا بأن هذا الحمل لم يكن ذنبه فحسب، وإنما بأنه حمل مزعوم، وأن كل هذه الضجة لم تكن سوى مكيدة دبرها أعداؤه وأعدائي. ورجبت إليه في أن يعود إلى البلد، ليخزي هذه المحرمة، وأولئك الذين كانوا يحرضونها. وكم بهت لميوعة رده. فقد كتب إلي راعي الأبرشية التي كانت الفاجرة تتبعها، وحاول أن يخمد المسألة. ومن ثم فقد كففت عن التدخل في الأمر، وأنا في أشد الدهشة من أن يستطيع رجل انحط إلى هذا الدرك، أن يسيطر على نفسه بالشكل الذي يمكنه من أن يخدعني بتحفظه طيلة الفترة التي كنا فيها على أوثق ائتلاف!

ومن "ستراسبورج" انتقل "سوتير شام" إلى "باريس" سعيا وراء الحظ، فلم يفلح إلا بالشقاء. لقد كتب إلي معترفا بذنوبه، فهتف عواطفني لذكرى صداقتنا القديمة، وأرسلت إليه بعض المال. وعندما مررت بـ "باريس"، في العام التالي، رأيته -مرة أخرى- في عين الحال تقريبا، ولكنه كان قد أصبح صديقا حميما للسيد "الياهو". ولم يقدر لي إطلاقا أن أعرف كيف تعرف إليه، وما إذا كان هذا التعارف حديث عهد أو قديما. ومالبت "سوتير شام" أن عاد إلى "ستراسبورج"، بعد عامين، وكتب إلي من هذا المكان.. وفيه مات!

هذه -بإيجاز- قصة علاقتي به، ومغامراته. ولكنني -في الوقت الذي أنعي فيه حظ هذا النعس- ساقط أؤمن بأنه كان طيب المنبت، وأن كل ما تبدى في سلوكه من اضطراب، لم يكن سوى نتيجة المواقف التي تردى فيها!



وهكذا كانت المكاسب التي فزت بها من "موتير" في مجال العلاقات والصداقات. وما أكثر ما كنت بحاجة إليه من هذه العلاقات، لأعوض الخسائر القاسية التي منيت بها في تلك الفترة ذاتها.. فلقد منيت أولا بفقد السيد "دي لوكسمبورج"، الذي تعذب طويلا على أيدي الأطباء، ثم راح -في النهاية- ضحية لهؤلاء الذين كانوا يعالجون النقرس على أنه مرض يسهل عليهم إبرأؤه، دون أن يعترفوا بحقيقته..! ولو أننا أخذنا بالرواية التي كتبها لي "لاروش" -موضوع ثقة السيدة "دي لوكسمبورج" - بهذا الصدد، لوجدنا في قصته مثالا قاسيا وأليم الذكري، لدى مصائب العظيمة!

ولقد كان لفقد هذا السيد العظيم الطيب، وقع شديد على نفسي، إذ إنه كان الصديق الوحيد الذي بقي لي في "فرنسا".. ولقد كانت رقة شخصيته بالغة، حتى إنها أنستني مكانته ومرتبته، فارتبطت به وكأنني ند له. ولم تنته وشائجنا برحيلي عن البلاد، بل إنه واصل الكتابة إلي، كما كان شأنه من قبل. ومع ذلك، فإنتني خلت أن غيابي أو نحس طالعي قد أخفى عواطفه نحوي. فمن المسير على عضو في حاشية الملك، أن يحتفظ بنفس العلاقة مع شخص كان يدرك أن السلطات غاضبة عليه. كذلك انتهى بي التفكير إلى أن التأثير الكبير الذي كان للسيدة "دي لوكسمبورج" عليه، لم يكن موافيا لي في شيء، وأنها قد انتهزت فرصة غيابي لكي تسيء إلي في نظره. بل إنها -بالرغم من مظاهر الود الحارة، التي أخذت في التضائل- لم تعد تجثم نفسها عناء إخفاء تحول عواطفها عني. ولقد كتبت لي أربع مرات أو خمسا، على فترات متباعدة -وأنا في "سويسرا" - ثم كفت عن الكتابة نهائيا. وكان لأبد لي من كل الشكهنات، وكل الثقة، وكل الغباء الاعمى -الذي كنت أنخط فيه مرة أخرى- حتى لا أبصر البرود الذي شاب عواطفها إزائي!

ولقد كتب لي الناشر "جاي" - شريك "دوشين"، الذي أصبح كثير التردد على قصر "لو كسمبورج" بعد رحيلي - يبنيني بأن اسمي ورد في وصية السيد "المارشال". ولم يكن في هذا ما يدعو إلى العجب، أو ما يجعل على التصور، ومن ثم فإنني لم أرتب فيه. وقد حملني هذا على أن أتدبر - بيني وبين نفسي - ما ينبغي أن يكون عليه موقفني من الوصية. وبعد روية وتفكير، عزمت على قبولها، مهما تكن، وأن أعبر بهذا عن تكريمي لرجل أمين، حمل لي ودا صادقا، بالرغم من انتمائه إلى طبقة لا تنفذ الصداقة إلى مشاعر أبنائها قط. على أنني أعفيت من هذا الواجب، إذ إنني لم أسمع إطلاقا عن الوصية مرة أخرى، سواء كانت القصة صحيحة أو كاذبة. ولقد كان من الشاق على نفسي - في الحقيقة - أن أهدر مبدأ من مبادئ الخلقية الكبرى، إذ أفيد من موت امرئ كان جد عزيز لدي. ولقد حدث أثناء المرض الأخير لصديقنا "موسار"، أن عرض "لينيبيس" على أن نستغل امتنانه لودنا، وعرفانه لعنايتنا به، فنقترح عليه أن يترك لنا في وصيته شيئا. فما كان مني إلا أن قلت له: "آه، يا عزيزي "لينيبيس" .. ما ينبغي أن ندنس بأفكار عن المصلحة الذاتية - الواجبات المحزنة، ولكنها مقدسة - التي يجب علينا أن نؤديها لصديقنا المحتضر".

وإنني لأمل ألا أذكر قط في وصية أي امرئ، لا سيما إذا كان صديقا. ولقد تحدث إلي سيدي "المارشال" - حوالي هذه الفترة - عن وصيته، وما كان يعتزم أن يفعله من أجلي، فأبدت في هذه المناسبة الرد الذي ذكرته في الجزء الأول من اعترافاتي.



وكانت الحسارة الثانية التي حاقت بي، أكثر إيلاما وأعز من أن تعوض.. تلك هي فقدان خير النساء والأمهات، التي كانت السنون قد أثقلت كاهلها، ثم أعيأها حمل العليل والمحن، فهجرت هذه الحياة - وادي الدموع - لتنتقل إلى ملاذ الطبيين والصالحين، حيث تكون ذكرى الخير الذي أسديناه في هذه الدنيا، هو خير جزاء نكافأ به عنه. فأذهبي أينما الروح الوادعة المحسنة، إلى جوار "فينولون"، و"برنيكس"، و"كاتينا"، وكل أولئك الذين حذوا حذوهم، ففتحوا قلوبهم للخير والإحسان الحقيقيين، برغم تواضع ظروفهم.. أذهبي فتذوقي ثمرة إحسانك، ومهدي لتلميذك المكان الذي يأمل أن يشغله يوما، إلى جوارك!.. وما أسعدك وسط كل مصائبك، فإن السماء - حين وضعت لها نهاية - قد جنبتك قسوة مرأى مصائبي.. ذلك لأنني لم أكتب إليها إطلاقا، عقب وصولي إلى "سويسرا"، خشية أن أدخل الأسى على فؤادها بذكر مصائبي الأولى. بيد أنني كتبت إلى السيد "دي كونزييه"، أنشد أنباءها. ومنه علمت أنها قد كفت عن أن تواسي آلام الغير، وأن آلامها هي قد انقضت!.. ولسوف أكف أنا الآخر عن التالم، عما قريب. ولو لم أكن أو من يأنس ساراها ثانية، في العالم الآخر، لأبى خيالي الواهن على نفسه أن يفكر في الهناء الكامل الذي أتطلع إليه هناك!

أما المصاب الثالث والأخير - إذ لم يعد لي بعده أصدقاء أمني فيهم - فهو فقدان سيدي اللورد "المارشال". وما فقدته بالموت، ولكنه حين سئم خدمة سادة جاحدين، هجر "نيوشاتيل"، فلم يقدر لي أن أراه بعد ذلك. وهو ما يزال على قيد الحياة، وآمل أن يعيش بعدي.. إنه ما يزال على قيد الحياة، ومن ثم فإن الروابط التي تربطني بالأرض، لم تنقطع عن آخرها، بفضل.. فما يزال باقيا على الأرض رجل جدير بصداقتي.. الصداقة التي تتمثل قيمتها الحقيقية في الود الذي يحس به المرء، أكثر منها في الود الذي يوحيه للغير. غير أنني فقدت البهجة التي كانت صداقتي تملأ بها نفسي، ولم أعد اليوم

أملك أكثر من أن أعده بين أولئك الذين ما زال على حبيهم، وإن كانوا لم يعودوا على اتصال بي . فلقد ذهب إلى "إنجلترا" ليتلقى العفو من الملك، وليسترد ثروته التي كانت قد صودرت . ولم نفتق دون أن ندبر للقاء جديد، بدا أن توقعه كان يوحى إليه بقدر ما كان يوحى إلي من سرور .

وكان قد اعتزم الإقامة في قصر "كيب هول" - على مقربة من "أبردين" - فتم الاتفاق على أن أزوره هناك . ولكن هذا الاحتمال كان أكثر بهجة من أن أطمع في تحقيقه يوما . ولم يطل مكث السيد "مارشال" في "اسكتلندا"، فإن الإلحاح الرقيق الذي لاحقه به ملك "بروسيا"، لم يلبث أن رده إلى "برلين" . وسيتبدى - فيما يلي - كيف حيل بيني وبين أن أنضم إليه .

فعندما رأى - قبيل رحيله - أن العاصفة كانت توشك أن تهب علي مرة أخرى، أرسل إلي - من تلقاء نفسه - وثائق إثبات تجنسي بالجنسية البروسية . وقد بدا هذا احتياطا جديدا ، حتى يصبح من المستحيل طردني من البلاد . ولقد حذا اتحاد مدينة "كوفيه" - في "فال دي ترافير" - حذو الحاكم، وكفل لي حقوق المواطن، دونما مقابل، كما حدث إزاء الوثائق الأولى . وإذا أصبحت مواطنا كاملا - من جميع الاعتبارات - غدت في حامي من أي إقصاء قانوني عن البلاد، ولو صدر هذا الإقصاء عن العامل ذاته . ولكن أعدائي لم يتبعوا يوما الوسائل المشروعة في اضطهاد رجل كان دائما يفوق سواء احتراماً للقوانين!

ولست أرى من الواجب أن أحصي بين الخسائر التي منيت بها - في تلك الفترة بالذات - وفاة الراهب "دي مابلي" . فإن إقامتي في دار أخيه، مكنتني من أن أكون على تعارف بسيط معه، ولكنه لم يرق قط إلى مرتبة الألفة والصداقة . ولدي من الأسباب ما يحملني على أن أعتقد أن مشاعره نحوي قد تبدلت مذ ظفرت بصيت ذائع، يفوق صيته . على أنني لم أظن إلى أولى بوادر سوء نيته، إلا بعد نشر "رسائل من الجبل" . فلقد روج في "جنيف" خطابا إلى السيدة "سالادان"، عزى إليه أنه كاتبه، وقد وصف فيه مؤلفي بأنه ضجيج، مضلل، صادر عن تعصب شعبي جامح . ولم يمكنني الاحترام - الذي كنت أكنه للراهب "دي مابلي"، وما كان لدي من رأي في تنوره وسعة ذهنه - من أن أصدق لحظة أنه كاتب ذلك الخطاب المتحامل .

ورأيت أن أتصرف وفق ما أملت علي صراحتي، فأرسلت إليه نسخة من الخطاب، وأنبأته بأنه كان معزوا إليه . ولكنه لم يجب . وقد أذهلني هذا الصمت منه، ولكن في الوسع تصور دهشتي عندما أنبأني السيدة "دي شينونسو" بأنه هو الذي كتب الخطاب حقا، وأن رسالتي قد أحرجه أشد الإحراج . ذلك لأنه إذا كان على صواب، فكيف كان يستطيع أن يبرر خطوة رنانة علنية، صدرت عن طبيب خاطر وطواعية، دونما غصب أو إلزام، ودونما ضرورة، ودون أن يكون لها أية غاية، سوى الإساءة إلى رجل في أشد محنة . رجل لم يبد له قط سوى كل نية حسنة، ولم يقصر يوما في تقديره؟

ولقد ظهرت - بعد ذلك بقليل - "محاورات فوسيون" (١)، التي لم أر فيها سوى مجموعة منتخبات من كتاباتي، أعدت في جرة، ودون استحياء . وشعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب، بأن المؤلف كان قد بت في أمري، وأنني لم يعد لي من هو الد منه عدا، منذ ذلك الحين . واعتقد أنه ما كان ليملك أن يغفر لي يوما أن كتبت "العقد الاجتماعي" - الذي كان فوق طاقة مواهبه - ولا "السلام الدائم" . . وأنه لم يكن يرجو - على ما بدا لي - سوى أن أعد مختارات من مؤلفات الراهب "سان بيير"، لأنه ظن أنني لن أوفق فيها (٢) .

(١) كان "فوسيون" قائدا وخطيبا أنيبا في القرن الرابع قبل الميلاد . وكان داعية للسلام، بقدر ما كان جنديا بأسلا . وقد عرف بإنكار الذات ولباقة الحوار، والمقدرة على الإنعام . (٢) كان الراهب "دي مابلي" قد عرض على "روسو" مراجعة مؤلفات الأب "دي سان بيير" . واختيار أصلها للنشر . ولكن "روسو" عمد إلى جانب الاختيار - إلى تسجيل تعليقات وآراء ودراسات بعدد كتابات الأب "دي سان بيير"، ضمنها كتابه "العقد الاجتماعي" و"السلام الدائم" .

كلما أوغلت في قصتي، قلت قدرتي على تنسيقها، وترتيب سياقها، فإن الاضطراب الذي ساد بقية حياتي، لم يدع للأحداث وقتاً لتنظم ذاتها في رأسي. إذ إنها كانت من الكثرة، ومن الامتزاج، ومن الإزعاج بحيث لا يتسنى روايتها دون خلط أو اضطراب. ولقد كان الطابع القوي الوحيد الذي خلفته هذه الأحداث في ذهني، هو ذلك الغموض الرهيب الذي أحاط بسببها، والحال الداعية للرثاء، التي هوت بي إليها!.. ولا سبيل إلى استطراد القصة إلا وفقاً للمصادفة ولتوارد الأفكار على ذاكرتي. وأذكر أنني -في الفترة التي أتحدث عنها، وأثناء استغراقي في "الاعترافات" -كنت من الحكمة بحيث أتحدث عنها إلى كل امرئ، دون أن أتصور مرة واحدة أن لا أحد له مصلحة، أو رغبة، أو قدرة على أن يلقي العراقيل في طريق هذا المشروع.. وحتى لو أن هذا خطر لي لما كان بوسعي أن أبدي مزيداً من التكتّم، إذ إن طبيعتي تجعل من المستحيل تماماً علي أن أخفي شيئاً من أفكاري ومشاعري. ولقد كان تكشف أمر هذا المشروع -بقدر ما بوسعي أن أحكم- هو السبب الحقيقي للمعاصرة التي أثّرت لإقصائي عن "سويسرا"، وللإلقاء بي بين الأيدي التي كانت خليقة بأن تمنعني من تنفيذه!

وكان لدي مشروع آخر، لم يكن يحظى -من أولئك الذين كانوا يخشون المشروع الأول-، بمزيد من الرضا. وذلك هو إصدار طبعة عامة من مؤلفاتي. فقد تراءى لي أن مثل هذه الطبعة ضرورية لتعزيز ما كان يمت إلي حقاً من تلك الكتب التي كانت تحمل اسمي، ولجعل الجمهور في وضع يمكنهم من أن يميزوها، ويفرقوا بينها وبين المؤلفات التي كانت تحمل أسماء مستعارة، وكان أعدائي يعزونها إلي، لكي يشوهوا سمعتي ويحطوا من قدري. وفضلاً عن ذلك، فإن هذه الطبعة كانت كفيلة بأن تصبح وسيلة سهلة وشريفة لتأمين مورد للعيش. بل إنها -في الواقع- كانت الطريقة الوحيدة، إذ إنني كنت قد هجرت تأليف الكتب، وما كان في الوسع نشر مذكراتي أثناء حياتي، ولم أكن أكسب "سو" واحداً بأية طريقة أخرى، في حين أنني كنت أنفق باستمرار.. ومن ثم فقد أيقنت من انتهاء مواردني بمجرد استنفاد إيراد مؤلفاتي الأخيرة. ولقد حملني هذا السبب على أن أتعجل ظهور كتابي: "الموسوعة الموسيقية"، وإن لم يكن قد اكتمل. وقد در علي مائة "لوي" نقداً، ومائة "إيكو" سنوياً ما حييت. ومع ذلك، فقد ظل من الواجب توقع نفاد المائة "لوي" سريعاً، لا سيما وقد كانت النفقات تزيد على الستين سنوياً.. كما أن المائة "إيكو" كانت بمثابة لا شيء، لرجل كان النكرات والمتسولون يحومون حوله -دون انقطاع- كالعصافير!

وعرضت شركة من تجار "نيوشاتيل" أن تتعهد مشروع مجموعة المؤلفات، واستطاع صاحب مطبعة -أو تاجر كتب- من "ليون"، يدعى "ريجيا" أن يندس بينهم، بطريقة لا أدريها، ليتولى توجيههم، وعقدت اتفاقية وفقاً لشروط معقولة ومرضية، لتحقيق بغيتي خير تحقيق. وكانت مؤلفاتي المطبوعة، وتلك التي ظلت بخط اليد، تكفي لأن تملا ستة مجلدات من حجم "ربع القطع" أو "الكوارتو". وقد تعهدت -فوق ذلك- بأن أشرف على الطبعة، في مقابل أن يؤدوا لي معاشاً لمدى حياتي -قدره ألف وستمائة ليرة فرنسية- ومبلغاً يدفع نقداً، لمرة واحدة، قدره ألف "إيكو".

سنة ١٧٦٥

كانت الاتفاقية قد عقدت، ولكنها لم تكن قد وقعت، عندما ظهر كتاب "رسائل كتبت من الجبل"، فإذا السخط الفظيع -الذي انصب على هذا الكتاب الجهنمي وعلى مؤلفه المقيت- يفزع

الشركة، ومن ثم انفض المشروع. وبوسعي أن أشبه أثر هذا المؤلف الأخير، بأثر "رسالة عن الموسيقى الفرنسية"، لولا أن هذه الرسالة وإن جلبت علي السخط وعرضتني للخطر، إلا أنها تركت لي الاعتبار والاحترام، على الأقل. أما بعد هذا المؤلف الأخير، فقد تبدت الدهشة في "جنيف" وفي "فرساي"، من ترك وحش مثلي، يتنفس ويعيش. وإذا المجلس الصغير -بتحريض من الوزير الفرنسي المقيم، ويتوجيه من المدعي العام -يصدر بيانا عن الكتاب، أعلن فيه، بعد وصفه بأقذع النعوت، أنه غير جدير بأن يحرق بيدي منفذ الأحكام.. وأضاف إلى هذا -في دهاء، يكاد يثير الضحك- أن لا سبيل لأمري إلى الرد على هذا الكتاب، بل إلى مجرد ذكره، دون أن يشين نفسه!

ولكم أتمنى لو استطعت أن أنقل هنا هذا البيان العجيب، ولكني -لسوء الحظ- لا أملك نسخة، ولا أذكر كلمة واحدة منه. وشد ما أرجو أن يتفضل أحد من قرائي -بدافع من الغيرة على الحقيقة والعدالة- على إعادة قراءة "رسائل من الجبل" بأكمله. وأستطيع أن أقول إنه سيلبس الاعتدال الشديد الذي ساد هذا الكتاب، بعد الإهانات العنيفة القاسية، التي تبارى الناس في صبها على المؤلف. ولكن أعدائي -إذ عجزوا عن الرد على السباب؛ لأن الكتاب لم يحو شيئا منه.. ولا على الحجج، لأنها كانت مفحمة -عمدوا إلى التظاهر بأنهم أكثر ترفعا من أن يجيبوا.. ومن الصحيح حقا، أنهم إذا حملوا الحجج المفحمة على أنها إهانات، لحق عليهم أن يشعروا بأنهم أودوا أشد الإيذاء!

أما فريق المتذمرين، فإنهم بدلا من أن يثيروا أية شكوى من هذا البيان البشع، سلكوا الطريق التي رسمها لهم.. وبدلا من أن يمجّدوا "رسائل من الجبل" كغنيمة ظفروا بها، إذا بهم يستترون خلفها كدرع.. فكانوا من الجبن بحيث إنهم لم يؤدوا أي تكريم ولا إنصاف إلى هذا المؤلف الذي وضع للدفاع عنهم وعن مطالبهم.. بل إنهم لم يذكروه، ولا نقلوا عنه، وإن كانوا قد اقتبسوا عنه -في الخفاء- كل حججه.. وكانت الدقة التي اتبعوا بها النصيحة التي اختتم بها هذا المؤلف، هي السبب الوحيد في خلاصهم وانتصارهم.. لقد فرضوا علي هذا الواجب، وقد أدبته.. ولقد خدمت الوطن وقضيتهم إلى النهاية. ولقد توسلت إليهم أن يتخلوا عن قضيتي ولا يفكروا إلا في أنفسهم، وفي مشاغلهم. وقد أخذوني بكلمتي، فلم أ تدخل في شؤونهم بأكثر من أن رحت أستحثهم على السلام، دون انقطاع. وما من ريب لدي في أنهم لو كانوا قد مضوا في عنادهم لأنفسهم، لسحقتهم "فرنسا". وهذا ما لم يحدث.. وإني لأدرك السبب، ولكن هذا ليس مجال الإنشاء به!

ولقد كان الأثر الذي أحدثه كتاب "رسائل من الجبل" في "نيوشاتيل"، يتسم بالهدوء في البداية. ولقد أرسلت نسخة منه إلى السيد "دي مونولان"، فسر أنه حصل عليها، وقرأها دون أن يجد فيها مأخذا. وكان مريضا -مثلي- فلما استرد صحته، قام بزيارة ودية لي، ولم يقل شيئا عن الكتاب. ومع ذلك، فإن الهياج كان قد دب، وأحرق الكتاب حيث لا أدري (١). ومن "جنيف"، ومن "بيرن"، وربما من "فرساي"، لم يلبث مركز الفوران أن انتقل إلى "نيوشاتيل"، وإلى "فال دي ترافيسير" -بوجه خاص- حيث بدئ، حتى قبل أن تبدر عن طبقة رجال الدين أول بادرة، في تحريض الجمهور بالأساليب المستخفية. ومن حقي أن أقول: إنني كنت خليقا بأن أكون محبوبا من أهل هذه البلاد، كما كنت من جميع أولئك الذين عشت بينهم. وكنت أغدق الصدقات بسخاء، ولا أزع محتاجا ممن يحيطون بي دون معونة، ولا أرفض أن أؤدي أية خدمة في نطاق مقدراتي، مادامت تتمشى مع العدالة.. بل لعلمي كنت أسرف في التآلف مع كل الناس، أكثر مما ينبغي.. كما أنني

اعتدت -بقدر ما وسعني- أن أرفض كل تمييز في المعاملة، قد يثير الغيرة... ومع ذلك، فإن كل هذا لم يحل دون استنهاض السكان سرا، دون أن أدري محرضهم، ومن أن يوغروا تدريجيا ضدي، حتى بلغوا درجة الهياج، فراحوا يسبونني علنا في راحة النهار، لا في الريف، أو في الطرق الخلوية فحسب، بل وفي الشوارع الرئيسية..

وكان أشدهم تحرشا بي، هم أولئك الذين أسديت إليهم أكبر قسط من الخير.. بل إن من الناس -الذين واصلت إساءة المعروف إليهم- من لم يجروا على التحرش علنا، فراحوا يثيرون الباقيين، وكانوا كانوا بهذه الطريقة يثارون لأنفسهم من هوان أن يكونوا مدينين بالفضل لي!

ولم يبد على "مونولان" أنه رأى شيئا مما كان يجري، لا ولم يعد يزورني. على أنه لم يلبث أن زارني -إذ اقتربت إحدى مناسبات الاحتفال بالقربان- لينصحتني بأن اتفادى حضورها، مؤكدا لي أنه لن يعارضني في غير ذلك، وأنه سيدعني في سكيتي. وألفت هذه الهجمة منه غريبة في نوعها. وذكرني بخطاب السيدة "دي بوفليير"، فلم أستطع أن أفقه أن من الممكن أن يكون لأي أحد شأن بما إذا كنت أتناول القربان أو لا أتناوله. وإذا وجدت أن قبول اقتراحه يعد جينا من ناحيتي، فضلا عن أنني لم أكن راغبا في أن أتيح للناس هذه الحجة الجديدة كي يصيحوا في وجهي: "ها هو ذا الكافرا"، فإنني رفضت رجاء القس رفضا باتا، وإذا به يستاء ويوحى إلي بأنني لن ألبث أن أندم. على أنه لم يكن يملك أن يمنعني من تناول الأمر منه وحده، بل كان لابد من قرار من المجمع الديني الذي سمح له بالانضواء تحت لواء الكنيسة. وما دام المجمع لم يقل شيئا، فقد كان من حقي أن أتقدم في جراءة، دون أن أخشى رفضا. ومن ثم فقد عمد "مونولان" إلى الحصول من القساوسة على تخويل بدعوتي للمثول أمام المجمع، لأقدم حسابا عن إيماني، على أن أجازي بالحرمان، إذا أنا أبيت أن ألبى الدعوة.

على أن الحرمان بدوره لم يكن ميسورا مالم يصدر عن المجمع وبإجماع الآراء. ولكن الفلاحين الذين ألفوا هذه الهيئة -تحت اسم الشيوخ الحكماء- كانوا تحت رئاسة القس، وبالتالي تحت نفوذه، كما هو مفهوم. فلم يكن لهم -بطبيعة الأمر- رأي سوى رأيه، لا سيما في المسائل اللاهوتية، التي كانوا أقل إدراكا لها منه. ومن ثم فقد قررت أن ألبى الدعوة، عندما أعلنت بها!



أي ظرف سعيد، وأي نصر لي، لو أنني عرفت كيف أتكلم -في هذه المناسبة- عن نفسي، وأن أضع قلبي في فمي، كما ينبغي أن يقال... بأي تفوق جاثج، وبأي يسر كان في وسعي أن أهزم القس البائس، وسط فلاحيه الستة، أعضاء المجمع... كان الطمع في السلطان قد أنسى رجال الدين البروتستانت مبادئ الإصلاح الديني، وكان كل ما يعوزني لتذكيره بهذا، ولإفحامه، هو أن أشرح "الرسائل الجميلية الأولى"، التي كانوا من الغباء بحيث راحوا يعيونها علي. وهكذا كان موضوعي معدا، ولم يكن ينقصني سوى المثول أمام المجمع، فإذا بغريمي يفحم!.. وما كنت من الغباء بحيث أقتصر على الدفاع بل كان الجو ممهدا لأن أنقلب مهاجما، دون أن يفتن هو، ودون أن يفوى على صد الهجوم؛ ذلك لأن الحمقى التافهين من رجال الدين، كانوا عاطلي العقول بقدر ما كانوا جهلة، وقد وضعوا أنفسهم بالنظام الذي ابتدعوه -في أنسب وضع كنت أشتهيه، لكي أدهمهم كما يحلو لي! ولكن مهلا!.. كان لابد لي من أن أتكلم، ومن أن أتكلم في الموضوع، ومن أن أعثر على الأفكار،

وإن ألقبها على كل جانب، وإن أجد الكلمات في لحظة الحاجة إليها، وإن احتفظ دائما بحضور بديهي، وإن أكون هادئ الأعصاب باستمرار، فلا اضطرب لحظة واحدة.. فما الذي كنت أملك أن أرجوه من نفسي، وأنا الذي كنت المس تماما عجزني عن أن أعبر عن نفسي للفقور؟.. لقد اضطرت إلى أن ألزم أزرى حالات الصمت، في "جنيف"، أمام لجنة كانت محابية لي كل المحاباة، وكانت قد عقدت العزم مقدما على أن تحيد كل ما أقول. أما هنا، فقد كان الأمر على النقيض.. كان علي أن أنزل شخصا مشاكسا، وضع الذهاء في موضع المعرفة، وفي وسعه أن ينصب لي مائة شرك، قبل أن ألمح واحدا منها، وقد عقد عزمه على أن يظهرني مخطئا، مهما يكبده هذا من ثمن!.. وكنت كلما فحصت موقعي هذا، ازدادت شعورا بخطرته. فلما اقتنعت بأن من المستحيل أن أنتزع نفسي من هذا الموقف بنجاح، فكرت في حيلة أخرى. ورحت أفكر في خطاب اعتزمت أن ألقيه أمام المجمع، لكي أظعن في اختصاصه، فأحل نفسي من ضرورة الإجابة. وكان الأمر غاية في السهولة، فكشيت الخطاب، وشرعت استذكره عن ظهر قلب في خمس لا مثيل له. وإذا سمعني "تيريز" وأنا أتمتم لنفسي -بلا انقطاع- مكررا نفس العبارات، محاولا أن أحشرها في رأسي، راحت تضحك مني. وكنت أمل أن أستوعب الخطاب في النهاية.

فقد كنت أعرف أن حاكم المقاطعة -كمندوب من العاهل- سيحضر جلسة المجمع، وأن معظم الشيوخ كانوا -بالرغم من مناورات "مونولان" وزجاجات الخمر التي وزعها- طيبي الشعور نحوي. وكان يناصرني المنطق، والحق، والعدالة، وحماية الملك، وسلطان مجلس الدولة، ودعوات كل المواطنين الصالحين الذين تأثروا بتقرير هذا التحقيق.. كان كل شيء يساهم في تشجيعي، في الواقع! وما إن حان اليوم السابق على الموعد المحدد، حتى كنت قد حفظت خطابي عن ظهر قلب، ورحت أردده دونما خطأ. ورحت أسترجمه ثانية، في ذهني، طيلة الليل. ولكنني في الصباح.. نسيت! ورحت أتردد عند كل كلمة.. وتمثلت نفسي أمام المجلس الموقر، فإذا بي أرتبك، وأتلعثم. وإذا بفكري يتشتت!.. وأخيرا، خذلتني شجاعتني تماما، في لحظة الانطلاق، فبقيت في البيت، وعزمت على أن أكتب إلى المجمع ساردا -في عجلة- أسبابي، ناسيا عدم ذهابي إلى توعك صحي التي كانت -في حالتي تلك- تجعل من المستحيل علي حقا، أن أمكث طيلة الجلسة!

وأخرج خطابي الوزير، فأرجا القضية إلى جلسة أخرى. وفي تلك الأثناء، راح يبذل -هو وأذنابه- ألف حيلة وجهد، لإغراء أولئك الذين لم يتبعوا سوى إيعازات ضمايرهم دون إيعازاته، من الشيوخ الذين لم يروا ما كان يراه هو ورجال الدين. وبالرغم مما كان للحجج -المستمدة من قبر الخمور في داره- من تأثير على أناس من هذا القبيل، إلا أنه لم يستطع أن يكسب أحدا سوى الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا أوفياء له من قبل، والذين عرفوا باسم "شياطينة اللعينة"!! واستطاع مندوب الملك والكونونيل "دي بوري" -الذي أبدى كثيرا من الهمة في هذه المسألة- أن يحمل بقية الأعضاء على أن يلزموا نطاق الواجب. فلما أراد "مونولان" أن يدفع قرار حرمانني من الكنيسة قدما، رفض اقتراحه رفضا باتا بأغلبية الأصوات. ولم يبق أمامه سوى إثارة الناس -كحيلة أخيرة- فشرع يعمل جهارا، بمساعدة زملائه وغيرهم، واستطاع أن يوفق إلى درجة أنني اضطرت في النهاية -بالرغم من التعليمات العديدة الشديدة اللهجة من الملك، وبالرغم من جميع أوامر مجلس الدولة- إلى مغادرة البلاد، حتى لا أعرض مندوب الملك إلى الاغتيال بسبب جهوده للدفاع عني.

ولست احتفظ لهذه القضية كلها، بغير ذكرى مهوشة إلى درجة يستحيل علي معها أن أثبت أي

ترتيب أو روابط بين الأفكار التي تعاودني عنها، ولست أملك سوى أن أعرضها متفرقة، متباعدة، كما تتوارد على ذهني. وإني لأذكر أن شيئا من المفاوضات دار مع رجال الدين، وكان "مونغولان" وسيطا في ذلك؛ ذلك لأنه كان قد تظاهر بالخشية من أن تؤدي كتاباتي إلى قلقلة هدوء البلاد، الأمر الذي كان يعتبر نفسه مسؤولا عنه إذا ظل يبيع لي حرية الكتابة!.. ومن ثم فقد عمد إلى الإيعاز إلي بأن من الممكن التجاوز عن الماضي، إذا أنا القيت القلم من يدي. وكنت قد انتهيت إلى هذا -فيما بيني وبين نفسي- من قبل، فلم أتردد على أن أنتهي إليه مع فريق رجال الدين، ولكن بشرط، وفيما يتعلق بالمسائل الدينية فحسب. وتعهد "مونغولان" أن يعد صيغتين من الاتفاق، بسبب تعديلات أدخلها على الصيغة الأولى. وحدث أن قبول الشرط بالرفض من حزب رجال الدين، فطلبت رد الاتفاق المكتوب، وإذا "مونغولان" يرد إلي إحدى النسختين ويحتفظ بالأخرى، زاعما أنه أتلّفها! وعمد الجمهور -بعد ذلك، وبتحريض من رجال الدين- إلى السخرية من تعليمات الملك، ومن أوامر مجلس الدولة، ولم يعودوا يقفون عند حد في جموحهم. وكانت الهجمات تشن علي من خلال المواعظ، من فوق المنابر، فلقيت بـ "عدو المسيح"، وطوردت في الريف كما لو كنت ذئبا مسعورا. وكانت ثيابي الأرمية سمة كافية كي يعرفني الناس بها. فاحسست أقسى الإحساس بعدم ملاءمتها، ولكن نيتها -في مثل هذه الظروف- كان في رأيي، بمثابة الجين. فلم أستطع أن أحل هذه المشكلة، وظللت أتمشى في كل مكان بهدوء، وأنا في القفطان، وقد ارتديت القلنسوة الفرو، تبغني سخريات الغرغاء وصياحهم.. وقطع الحصى التي كانوا يقذفوني بها أحيانا!.. وكم من مرة سمعت -وأنا أمر بالنازل- أصوات ساكنيها وهم يصيحون: "ناولوني بندقيتي، حتى أرديه في مكانه!". ولم أكن أوسع الخطي، فكان هذا يضاعف من حنقهم، ولكنهم اقتصروا دائما على التهديد والوعيد.. فيما يتعلق بالأسلحة النارية، على الأقل!



على أنني -خلال هذا الهياج كله- لم أعدم مناسبتين كانتا مبعث سرور عظيم استمراته كل الاستمرار. وكانت أولاهما التي استطعت أن أعرب عن عرفاني بالصنيع، بفضل سيدي اللورد "المارشال". ذلك أن جميع ذوي المكانة من أهالي "نيوشاتيل"، استنكروا المعاملة التي كنت ألقاها، والمكائد التي كنت ضحية لها، مما أوغر صدورهم كثيرا على فريق رجال الدين، إذ فطنوا إلى أنه كان منصاعا لنفوذ أجنبي، وأنه لم يكن سوى أداة للغير، ممن كانوا يتوارون في المؤخرة وهم يستحثونه على التصرف. ومن ثم فقد بدءوا يخشون ألا تؤدي حالي -إلا إلى إنشاء محكمة للتفتيش حقار (١)!. وبذل رجال الحكومة -لا سيما السيد "مورون" الذي خلف السيد "دانفيرنوا" في منصب المدعي العام- كل ما في وسعهم لحمايتي. ومع أن الكولونيل "يسوري" لم يكن سوى فرد عادي، إلا أنه فاقهم جهدا. وكان أكثر منهم توفيقا. فهو الذي ابتكر الوسيلة لخدلان "مونغولان" في الجمع، بإلزام الشيوخ حدود الواجب. وإذا كان واسع السمعة، فقد استخدم مكانته في القضاء على الفتنة. ولكنه لم يكن يملك سوى سلطان القانون، والعدالة، والمنطق، في مواجهة نفوذ المال والشراب!.. وهكذا لم يكن الفريقان متعادلين، فأحرز "مونغولان" نصرا عليه، في هذه الناحية. ومع ذلك فإنني كنت مقدرًا جهوده وتحمسه من أجلي، وكنت تواقًا إلى أن أقدم له جميلا، في مقابل

(١) كانت محاكم التفتيش هيئات كنسية لقمع الزندقة، أنشئت لأول مرة في "تولوز" في سنة ١٢٢٩، ثم انتشرت في القرون الوسطى في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا بسوجه خاص - واستفعل نفوذها فكثرت جورها، وغدت أداة سياسية أكثر منها دينية. وكانت محاكماتها تجرى سرية، وتستخدم فيها أبشع طرق التعذيب لحمل السجن على أن يقر بالذنب الذي يتهم به!

جميله، ما استطعت .. وأن ارد له الفضل بطريقة ما . وكنت اعرف أنه كان يصبر إلى أن يصبح مستشارا في مجلس الدولة، ولكنه إذ أساء إلى البلاط الملكي -فني قضية القس "بيتهيبير" - بآء بعدم رضا المعامل والمحاكم . فخرجت على أن أكتب في صالحه -بالرغم من ذلك- إلى السيد "المارشال" .. بل وتجاشرت على أن اذكر المنصب الذي كان يشتميه، وكنت موفقا كل التوفيق -بالرغم مما توقعه كل الناس- حتى إن المنصب خلع عليه فوراً بأمر الملك .

وهكذا ظل القدر -الذي اعتاد دائما أن يرفعني عاليا، وأن يخفضني إلى الخضم، في آن واحد- يتقاذفني بين هذين النقيضين . وفي الوقت الذي كان الناس يطمخونني فيه بالوحل، استطعت أن أعين مستشارا للدولة!

وكانت ثانية المناسبات التي حظيت فيها بأعظم سرور، هي زيارة تلقيتها من السيدة "دي فيرديلان" وابنتها، التي كانت تصطحبها إلى حمامات "بوربون"، التي أقبلنا منها، فقضيتا يومين أو ثلاثة معي . ولقد استطاعت بمجاملاتها المستمرة، وما تجشمت من أجلي، أن تغلب على نفوري الطويل منها، فإذا قلبي -وقد غزته مجاملاتها المستمرة- يبادلها كل الود الذي ظلت طويلا توليني إياه . ولقد تأثرت بهذه الزيارة، لا سيما في الظروف التي كنت أعانيها، وعندما كنت في أشد الحاجة إلى مواساة الصداقة، كي أحتفظ بشجاعتي . ولقد خشيت أن تتأثر أبلغ التأثير بالإهانات التي كنت أعانيها من الاهالي، وكمدت أن أجنبها المنظر، حتى لا يملأ فؤادها أسى . ولكن هذا لم يكن في طريقي، ومع أن وجودها كبح قليلا البذاءات -أثناء زيارتنا- إلا أنها رأت ما يكفي لأن تحس ما كان يجري في الأوقات الأخرى .

والواقع أنني بدأت أتعرض لأول مرة لحملات ليلية، في عقر داري، أثناء وجودها . ففي صباح أحد الأيام، وجدت وصيفتها نافذتي محجوبة بأحجار قذفت عليها في المساء . وكان ثمة مقعد عريض، ثقيل، مثبت تشبها قويا في الطريق، إلى جوار بابي . فإذا به قد نزع من مكانه، ونقل، وأقيم على أحد أطرافه مستندا إلى الباب، بحيث كان من المقصود -لولا أن اكتشف- أن يهوي على رأس أول شخص يفتح الباب ليخرج . ولقد المت السيدة "دي فيرديلان" إلماها تاما بكل ما كان يجري . فإلى جانب ما كان بوسعها أن تراه بنفسها، أخذ خادمها الخاص يتعرف على أهل القرية، ويستدرجهم إلى الحديث . بل إنه رؤي وهو يجاذب "موثولان" الحديث . ومع ذلك، فإنها لم تبد أنها انتبهت إلى شيء مما كان يجري لي، ولم تحدثني عن "موثولان"، ولا عن أي شخص، ولم تجب بغير كلمات موجزة على ما كنت -أحيانا- أرويه لها عن نفسي . على أنها لا تحت مقتنعة بأن إقامتي في "إنجلترا"، أكثر ملاءمة لي من أية إقامة أخرى . وأسهمت في الحديث إلي عن السيد "هيوم" -الذي كان، إذ ذاك، في "باريس" - وعن وده لي، ورغبته في أن يكون ذا نفع لي في بلاده . وقد آن لي أن أذكر شيئا عن السيد "هيوم" .

كان هذا السيد قد اكتسب في "فرنسا" صيتا ذائعا، لا سيما بين جماعة دائرة المعارف، بفضل الرسائل التي ألفها في الشؤون التجارية والسياسية، ثم -أخيرا- بفضل كتابه في: "تاريخ آل ستيورات"، وهو الوحيد من مؤلفاته، الذي اطلعت على قسط منه، مترجما بقلم الراهب "بريفو" . ومع أنني لم أكن قد قرأت مؤلفاته الأخرى، إلا أنني اقتنعت -على ضوء ما قبل لي عنه- بأن السيد "هيوم" كان يجمع بين نزعة جمهورية قوية، تميل -بفضل الاهواء الإنجليزية- إلى تحييد الترف . وعلى ضوء هذا الرأي، اعتبرت كل المعاذير التي ساقها لتبرير تصرفات "تشارلس الأول" -عجوبة في

الرأي المحايد، ومن ثم فإنني أكبرت فيه صدقه ونزاهته، أكثر مما أكبرت عبقريته. وكثيرا ما ضاعفت الرغبة في التعرف إلى هذا الرجل النادر واكتساب وده، من المغريات التي أثارها في نفسي بإلحاح السيدة "دي بوفليو" -صديقه الحميمة- والتي كانت تدفعني إلى الانتقال إلى "إنجلترا".

ولقد تلقت منه -عن طريقها- عند وصولي إلى "سويسرا"، خطابا مطيبا للخاطر إلى أقصى حد. وبعد أن قدم أعظم آيات الإطراء لعبقريتي -في هذا الخطاب- وجه دعوة ملحة كي انتقل إلى "إنجلترا"، وتطوع بكل ماله من مكانة، وبكل أصدقائه لجعل إقامتي هناك مستحبة ومريحة. وقد سمعت لفوري إلى استشارة السيد "المارشال" -الذي كان مواطنا وصديقا للسيد "هيوم" -فاكد لي حسن ظني بهذا السيد. وروى لي نادرة أدبية عنه، أدهشتني بقدر ما أدهشته. تلك هي أن "ولاس" -الذي وضع كتابا يعارض فيه آراء "هيوم" بشأن سكان العالم القديم- كان متغيبا عندما طبع كتابه، فتطوع "هيوم" بمراجعة "البروفات"، وبالإشراف على إصدار الكتاب. وكان هذا المسلك مما يصادف هوى من نفسي، إذ إنني كنت -بنفس الروح- قد توليت بيع نسخ من أغنية كانت قد نظمت ضدي، في مقابل ستة "سو" للنسخة!... ومن ثم فقد كنت محقا في أن أكون لنفسي كل فكرة طيبة عن "هيوم"، قبل أن تأتي السيدة "دي فيرديلان"، وتحدثني في حرارة عن الود الذي قال: إنه يمكنه نحوي، وعن تشوقه إلى أن يؤدي لي كل تكريم في "إنجلترا". .. فهذا عين ما ذكرته لي!

ولقد ألحت كثيرا لحملي على الإفادة من هذه الشهامة، وعلى الكتابة إلى "هيوم". ولما لم أكن بطبعي ميالا إلى "إنجلترا"، ولم أكن راغبا في اتخاذ هذا القرار -اللهم إلا عند الضرورة القصوى- فقد رفضت أن أكتب، أو أن أعد بالكتابة، بيد أنني تركت لها حرية اتخاذ التصرف الذي تراه صالحا، لاستبقاء ميل "هيوم" نحوي. وعندما غادرت "موتيسير"، خلفتني وأنا مقتنع تماما -بكل ما قالته لي عن هذا الرجل الجليل- بأنه كان في عداد أصدقائي، وبأنها كانت من أقرب أصدقائه إليه!



ولقد مضى "مونغولان" قدما في مكائده -بعد رحيلها- وأصبح القوم لا يقفون عند حد في جموحهم، ومع ذلك فقد واصلت نزهاتي على القدمين في هدوء وسط صخبهم. وأضفت هواية النباتات -التي كنت قد شرعت في ممارستها بفضل الدكتور "دانفيرنوا" -طرافة جديدة على رياضتي، وحملتني على أن أهتم في الريف، أجمع النباتات، دون أن أأثر بصيحات الفوغاء، الذين لم يكن هدوء أعصابي ليزيدهم إلا هياجاً! ولقد كان من الأشياء التي حزت في نفسي، أن رأيت أسرات أصدقائي (١)، أو من كانوا يسمون أنفسهم كذلك، ينضمون جهارا إلى صفوف مضطهدي.. كآل "دانفيرنوا"... ولم يشذ عنهم حتى والد وأخ صديقتي "إيزابيل".. و"بوي ديلاطور" قريب الصديقة التي أقيمت في دارها، والسيدة "جيواردييه" زوجة أخيها. ولقد كان هذا الـ "بيسر بوي" شديد الغباء، وبلبل الذهن، وكان عنيقا في طباعه، حتى إنني أبحث لنفسي أن أضحكه، لكي أتفادى هياجه. ووضعت -بالأسلوب الذي انتهجته في "النبي الصغير" -كتيبا من

(١) عقب "روسو" على هذا بقوله: "بدأت هذه الظاهرة للشوومة، منذ إقامتي في "ألفردون"، إذ إن السيد الإقطاعي "روجان" توفي بعد رحيلي عن هذه المدينة بعام أو اثنين، فإذا أبوه الشيخ بعد من الأمانة ما يحمله على أن يخبرني -وهو آسف- أنه قد ثبت من أوراق ابنه أنه قد اشترك في مؤامرة إقصائي عن "ألفردون" وولاية "بيرن". وقد دل هذا بجلاء. على أن المؤامرة لم تكن فرية -كما رغب الناس في أن يصدقوا- وإنما كانت مجرد مظاهرة كاذبة. إذ إن الإقطاعي "روجان"، لم يكن بعيدا عن التقوى فحسب، وإنما كان يمين في مبادئه وكفره إلى درجة التعمص والنهوس. وإلى جانب ذلك. لم يكن في "ألفردون" من استولى على ودي، وغمرني بالهجمات المفرطة، وبالملك والرياء، كما فعل الإقطاعي "روجان" المذكور. فكان وفيما في اتباع الخطة الهببة لدى مضطهدي".

بضع صفحات، أسميته "رؤيا بيبير الجبلي، الملقب بالبصير" ..! ولقد وجدت في هذا الكتاب فرصة لشن هجوم ساخر على المعجزات، اتخذ في ذلك الحين - حجة رئيسية لاضطهادي. ولقد عمد "دوببيرو" إلى طبع هذا الكتيب في "جنيف"، فلم يظفر -في تلك البلاد- بأكثر من نجاح متوسط، إذ إن أهالي "فيوشاتيل" لا يميلون كثيرا إلى تقدير السخرية اللاذعة أو الدعايات الضاحكة، برغم ما أوتوا من المعية!

ولقد بذلت قدرا أكبر من الجهد، في كتاب آخر، في عين تلك الفترة. وقد عثرت على مخطوطه بين أوراقى، فجدد بي أن أذكر شيئا بصدده:

فعندما كانت حمى المراسيم والاضطهادات في عنفوانها، بز أهل "جنيف" سواهم، بأن راحوا يطلقون صيحاتهم بأعلى ما في طاقتهم من صوت. واختار صديقي "فيرن" تلك الفترة بالذات -في كرم جدير برجال الدين حقا!- لينشر بعض رسائل ضدي، حاول فيها أن يبرهن زورا على أنني لم أكن مسيحيا.. على أن هذه الرسائل -التي صيغت في أسلوب مقنع- لم تجد نفعا، بالرغم مما قيل من أن الطبيعى "المؤمن بالطبيعة دون الله" "بوليه"، قد ساهم فيها. ذلك لأن "بوليه" هذا، كان ماديا، ولكنه لم يكن ليتوانى عن أن ينقلب إلى متعصب ديني متعنت، إذا ما كان الأمر يتعلق بي. ومن المحقق أنني لم أشعر بميل إلى أن أرد على هذا الكتيب، ولكن الفرصة عرضت لأقول كلمة فيه، في "رسائل من الجبل"، فأوردت في سياقه إشارة مترفعة، أهاجت حنق "فيرن"، فراح يملأ "جنيف" بصيحات غيظه، وقال لي "دانفيسونوا": إنه فقد حججه. وبعد فترة، ظهرت ورقة لا تحمل اسم كاتبها، وكأنها كتبت بمياه "فليجيشون" -أحد أنهار الجحيم- لا بمداد. واتهمت في هذه الورقة بانني القيت بانبائي إلى عرض الطريق، وأنني كنت أجرو رائتي إحدى مومسات جنود الحرس، وأن الإفراط في الملاذ قد أنهك قواي، وأنني موبوء بالزهري.. وما إلى ذلك من أوصاف "مهذبة"!

ولم يشق علي أن أعرف كاتب هذا المنشور. وكان أول ما خطر لي، عند قراءة هذا التشهير، هو أن أقدر بمقياسه كل ما يسمى بين الناس بالسمة والشهرة، فقد رأيت رجلا يتهم بأنه ربيب العواهر وهو الذي لم يرتد يوما دار فسق، وكان أعظم عيوبه دائما، هو أنه في حياء العذراء وخجلها.. رأيته أوصف بأن "الزهري" كان يفري كياني، وأنا الذي لم أصب يوما بآفة الأمراض التناسلية، بل إن أهل الاختصاص أنفسهم أكدوا أنني أوتيت حصانة فطرية ضد هذه الأمراض!

وبعد أن قلبت الرأي، انتهيت إلى أن خير طريقة لدحض هذا الافتراء، هي أن أنشرها في المدينة التي أقمت فيها أكثر من سواها. لذلك أرسلت المنشور إلى "دوشين" ليقوم بطبعه بنصه، مع مقدمة أوردت فيها اسم السيد "فيرن"، وبعض سطور موجزة لإيضاح الواقع. على أنني لم أقتع بنشر هذا المنشور، فأرسلته بنفسى إلى عدة أشخاص، بينهم الأمير لويس "دي فير تبيج"، الذي كان قد أظهر لي مجاملات غاية في الكرم، والذي كنت أبادله الرسائل، في ذلك الحين.. ولاح أن الأمير، "دوببيرو"، وغيرهما، كانوا في شك من أن "دي فييرن" هو مؤلف هذا التشهير، وعتبوا علي أن ذكرت اسمه دون تحر كاف. وبناء على ملاحظاتهم، ندمت على ما فعلت، وكتبت إلى "دوشين" كي يوقف نشر هذه الورقة، فكتب إلي "جاي" بأنها أوقفت. ولست أدري ما إذا كان هذا حقا، فقد عهدت "جاي" كثير الكذب، في مناسبات كثيرة، حتى إن صدور أكذوبة جديدة منه، ليس بالأمر المستغرب!.. ولقد كنت -إذ ذاك- محوطا بهذه الظلمات الدامسة، التي كان من المستحيل علي أن أنفذ خلالها إلى أي شيء من الحقيقة!

ولقد احتل السيد "ديفرون" هذا الاتهام في رزانة كانت أكثر من مستغربة بعد السخط المهتاج الذي أبداه من قبل، لا سيما إذا صح أنه لم يكن يستحق هذا الاتهام... ولقد كتب لي رسالتين أو ثلاثا، في أسلوب جد حذر، بدا لي أنه كان يرمي بها إلى محاولة الوصول -خلال ردودي- إلى مدى ما كنت أعرفه، وما إذا كان لدي دليل ضده. على أنني أجبت بخطابين قصيرين جافين، خشني المعنى دون نبو في العبارة، فلم يغضب منهما إطلاقا. ولكنني لم أجب عن خطابه الثالث قط، إذ تبين أنه كان يستدرجني إلى مراسلته.. وقد أرسل "دانفيرنوا" ليحدثني بهذا الصدد. وكتبت السيدة "كرايميه" إلى "دوبييرو" أنها كانت واثقة بأن التشهير لم يصدر عن "فيرن". ولم يزعجني هذا كله عن اقتناعي. على أنه لما كان من المحتمل أن أكون مخطئا -فاكون مدينا لـ "فيرن" باعتذار علني، في هذه الحال- فقد قلت له، عن طريق "دانفيرنوا": "إنني على استعداد لأن أقدم له اعتذارا برضيه، إذا هو استطاع أن يبين لي الكاتب الحقيقي لهذا التشهير، أو أن يبرهن لي -على الأقل- على أنه لم يكن هذا الكاتب. بل إنني ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ شعرت بأنه -على أية حال- ليس من حقي أن أطالبه بأن يثبت لي أي شيء، إذا لم يكن مذنباً. فعزمت على أن أكتب -في مذكرة مسهبة- الأسباب التي حملتني على اعتقادي، وأن أعهد بها إلى حكم فيصل لا يستطيع "فيرن" أن يعطى في ذمته. وما كان أحد ليحدث هذا الفصل الذي اخترته، فقد وقع اختياري على: مجلس "جنيف"!

ولقد أعلنت في نهاية المذكرة، أنه إذا قضى المجلس -بعد فحصها وإجراء التحريات التي يراها لازمة، والتي كان من السهل إجراؤها بنجاح- أن السيد "فيرن" لم يكن كاتب التشهير، فإنني على استعداد لأن أكف صادقا، منذ تلك اللحظة، عن اعتقادي بأنه الكاتب، ولأن أذهب فأرتقي على قدميه، وأظل أناشده الصفع، حتى أظفر به... وبوسعي أن أقول إن تاجع غيرتي من أجل العدالة، واستقامتي وكرم نفسي، وثقتي بهذا الحب -الدفين في قلبي- نحو العدالة.. استطيع أن أقول: إن هذه لم يقدر لها يوما أن تتكشف أكثر وضوحا وكمالا مما تكشفت في هذه المذكرة.. ولا أكثر حكمة ونفاذا إلى القلوب مما تمثل في أنني لم أتردد في قبول الأدعائي ليفصلوا بيني وبين من ذمني!.. ولقد قرأت هذه المذكرة على "دوبييرو" فنصحتني بأن أعدمها، وقد فعلت. وأشار علي بأن ارتقب ما قد يظهره "فيرن" من أدلة. فانتظرت، ولا أزال أنتظرا.. كذلك نصحتني بأن ألزم الصمت أثناء الانتظار، فلزمت الصمت، وسأظل صامتا بقية عمري، ملوما على أنني وجهت إلى "فيرن" اتهاماً خطيرا، زائفا لم يقم عليه دليل.. وإن كنت ماأزال موقنا، ومقتنعا -في دخليتي- بأنه كاتب ذلك الهجاء، يقيني واقتناعي بوجودي!.. إن مذكرتي في حوزة السيد "دوبييرو"، فإذا قدر لها يوما أن ترى النور، فستبدى فيها حججي وأسبابي.. وأمل أن تجد روح "جان جاك" -التي أبى معاصري أن يفهموها-، من يفهمها إذ ذاك!

لقد حان الوقت لننتقل إلى الكارثة الأخيرة في "موتير"، ورحيلي عن "فال-دي ترافير"، بعد إقامة دامت سنتين ونصف السنة.. وبعد ثمانية أشهر من جلد لم يهن، في احتمال أزرى المعاملات!.. إن من المستحيل أن أذكر بجلاء دقائق هذه الفترة غير البهيجة، من حياتي. ولكنها ستوجد في السيرة التي نشرها "دوبييرو"، والتي سأتكلم عنها فيما بعد.

اشتد الهياج عنفا، منذ رحيل السيدة "دي فيرديلان". وبالرغم من الإنذارات المتكررة - من الملك - وبالرغم من الأوامر المتتابعة من مجلس الدولة، وبالرغم من الجهود التي بذلها سيد المقاطعة، ورجال الحكومة في المنطقة، فقد ظل الناس يعتبرونني - في جد واعتقاد حازم - عدوا للمسيح... وإذا رأوا أن كل صخبهم لم يؤد إلى جدوى، بدأ أنهم تهيئوا أخيرا للإقدام على تصرفات عنيفة... فبدأت الأحجار تنطير خلفي في الطرق، وهي تلقى من بعد لم يكن يمكن يحتملها من أن تصيبني.

وأخيرا... وفي ليلة سوق "موتير"، التي تقام في بداية شهر أيلول (سبتمبر)، هوجمت في عقر داري، التي كنت أقيم فيها، بطريقة عرضت حياة ساكني الدار للخطر!

ففي منتصف الليل، سمعت جلبة في البهو الذي كان يمتد بطول الجزء الخلفي للدار. وإنهال سيل من الأحجار - التي صوبت إلى النافذة والباب المفضي إلى البهو - فراحت تهوي في ضجيج قوي، حتى إن كليي، الذي اعتاد النوم في البهو، بدأ يعوي، ثم أخرسه الذعر، وهرع إلى أحد الأركان، وراح ينش الأرض الخشبية ويقرضها، بحثا عن مفر... واستيقظت على الضجة، وفيما كنت أهم بمغادرة مخدعي؛ لانتقل إلى المطبخ، إذا بحجر - طوحت به يد قوية - يهشم نافذة المطبخ، ويطير في جوه ثم يصدم باب غرفتي فيفتحه، ويقع عند مؤخر فراشي. ولو أنني تعجلت الخروج لحظة، لكان قد أصاب بطني... وحسنت أن هذه الضجة كانت تهدف إلى استدراجي، وأن الحجر ألقي لكي يستقبلني وأنا أغادر غرفتي.

واندفعت إلى المطبخ، فوجدت "تيريز"، التي كانت قد استيقظت - هي الأخرى - التي جرت إلي، وهي ترجف ووقفنا ملتصقين بالمجدار، بعيدين عن مستوى النافذة، لنتجنب الإصابة بالطوب، ولنتدبر ما في وسعنا أن نفعله... فقد كان الخروج لطلب النجدة هو الوسيلة للقضاء علينا. ولحسن الحظ، استيقظ على الجلبة خادم شيخ جليل كان يقطن أسفل طابقنا، فجرى ليطلب النجدة من حاكم المنطقة، الذي كان بابه مجاورا لبابنا. فقفز من فراشه، وألقى عباة "الروب دي شامبر" على كفيه في عجلة، وأقبل لفوره مع الحرس الذين كانوا ساهرين - في تلك الليلة - بسبب السوق، ومن ثم فقد كانوا على استعداد. وكان جزع حاكم المنطقة بالغاً، حين رأى الخسائر، حتى إن وجهه شحب... وعند مرأى الحصص الذي امتلأ به البهو، صاح: "يا إلهي... كأتني في محجرا". وإذا هبطنا إلى الطابق الأسفل، وجدنا أن باب فناء صغير قد اقتحم، وأن محاولة بذلت للنفاذ إلى داخل البيت، عن طريق البهو. وعند التحري عن سبب عدم انتباه الحراس إلى هذا الشغب، وعدم حيولتهم دون حدوثه، فظهر أن حراس "موتير" ألحوا في القيام بهذه النوبة من نوبات الحراسة، برغم أنها لم تكن نوبتهم، إذ كان الدور على حراس من قرية أخرى!

وفي اليوم التالي، أرسل حاكم المنطقة تقريراً إلى مجلس الدولة، الذي انتدبه - بعد يومين - للقيام بتحقيق في الأمر، وبأن يعد بمكافأة، وبكتمان سر أولئك الذين يشون بالجناة، وكان عليه في الوقت ذاته، أن يقيم حارساً - على نفقة الحكومة - ليحرس داري وداره، التي كانت ملاصقة لها. وفي اليوم التالي، أقبل لزيارتي الكولونيل "دي بوري"، و"مورون" المدعي العام، و"مارتينيه" حاكم المنطقة، و"جوينيه" محصل الضرائب، و"دانفيرنوا" أمين خزنة المنطقة، وأبوه... وقصارى القول: إن كل ذوي المكانة في المنطقة، جاءوا لزيارتي، واجتمعوا على الإلحاح علي لإغرائني على أن أنحني للعاصفة، وأن أرحل - ولو إلى فترة من الزمن - عن أبرشية لم يعد بوسعي أن أعيش فيها آمناً أو مكرماً. بل إنني لاحظت أن حاكم الإقليم - في ذعره من فورة الأهالي الساخطين، وفي جزعه من أن تمتد إليه - كان

على استعداد لأن يبدي اغتباطه إذا رأيته أرحل فوراً حتى يتخفف من مسؤولية حمايتي، وحتى يستطيع أن يبرح المنطقة هو الآخر.. وهذا ما حدث فعلاً، بعد رحيلي.
ورضخت لهم.. بل إنني انصمت دون عناء تقريباً، لأن منظر حقد الجمهور مزق قلبي بدرجة لم أعد أقوى معها على احتمال الألم!

وكان ثمة عدة أماكن أتخير منها ملاذي. فلقد ذكرت لي السيدة "ديفيد ديلاي"، في عدة خطابات -منذ عودتها إلى "باريس" - سيداً يدعى "ولبول"، كانت تلقبه باللورد، وكان شديد الاهتمام بأمري، فعرض علي مقاما في إحدى ضياعه، التي صورتها لي السيدة أيدع تصوير، وتناولت التفاصيل الخاصة بإقامتي، وسكنائي.. مما أوحى لي بمدى اهتمام اللورد "ولبول" معها بهذا المشروع. ولقد كان "اللورد مارشال" يوصيني باستمرار بأن الجأ إلى "إنجلترا" أو "إيقوسيا"، حيث عرض علي -هو الآخر- أن أقيم في إحدى ضياعه. ولكنه عرض علي كذلك ملجأ آخر في "بوتستدام"، كان أكثر إغراء لي، لأنه كان مجاوراً لمقره. وكان قد أطلعني -من عهد قريب- على اقتراح أبداه الملك له بشائي، كان بمثابة دعوة موجهة إلي، وقد أبدت السيدة دوقة "ساكس-جوتا" ارتياحها البالغ إلى هذا، حتى إنها كتبت إلي ملححة في أن أزورها، في طريقي، وأن أقيم أياماً معها. ولكنني أحسست بميل شديد إلى "سويسرا"، حتى إنني لم أكن أقوى على أن أحزم أمري على مغادرتها، طالما كان من الممكن أن أعيش فيها. ومن ثم فقد انتهزت هذه الفرصة لتحقيق خطة كانت تشغل بالي منذ عدة أشهر، ولم أستطع -قبل الآن- أن أتحدث عنها، حتى لا أقطع استطراد القصة.
كانت هذه الخطة هي أن أذهب فأقيم في جزيرة "سان بيير"، وهي من أملاك مستشفى "بيرون". وكنت قد زرت مع "دوبييرو" هذه الجزيرة، أثناء إحدى جولتنا، ففتنت بها حتى إنني -من ذلك الحين- لم أكف عن التفكير في وسيلة للإقامة بها. وكانت أعظم عقبة هي أن الجزيرة كانت ملكاً لأهل "بيرون" الذين طردوني من أراضيهم -قبل ثلاث سنوات- في ظلم مهين. فضلاً عن أن كرامتي كانت خليقة بأن تتأذى من العودة إلى الإقامة بين قوم أساءوا وفادتي، فقد كان لدي ما يثير الخوف من أنهم لن يدعوني أعيش في هذه الجزيرة، في هدوء يفوق ذلك الذي كنت فيه في "إيفرودون". ولقد استشرت السيد "المارشال" في هذا الأمر، فرأى -كما رأيت- أن أهل "بيرون" خليقون بأن يشيروا بنفسي إلى هذه الجزيرة، وبأن يستبقوني رهينة إزاء أية مؤلفات جديدة قد أصبوا إلى وضعها، فقد اشتتم منهم هذه الرغبة، عن طريق سيد يدعى "ستيرلر"، كان جاراً قديماً له في "كولومبيه".
ولقد خاطب السيد "ستيرلر" في هذا الشأن -كبار رجال الدولة، وأكد للسيد "المارشال" -استناداً إلى الإجابة التي تلقاها- أن أهل "بيرون" لم يكونوا يرجون، في خجلهم من مسلكتهم السابق، أفضل من أن أوي إلى جزيرة "سان بيير"، وأن يدعوني أعيش هناك في سلام. وإمعاناً في الحيلة، سميت -قبل أن أجروا على الذهاب للإقامة هناك- إلى الحصول على مزيد من المعلومات، بواسطة الكولونيل "شاييه"، الذي أكد لي هذه الأمور بالذات. وإذا ظفر محصل الضرائب في الجزيرة، بإذن من رؤسائه بأن يستضيفني في داره، فقد خيل إلي أن لا مخاطرة في الذهاب إلى هناك، بعد هذا القبول الضمني من الحكام والملك "الشعب"، فما كنت لأطمح أن يعترف سادة "بيرون" جهاراً بالظلم الذي أوقعوه علي، فيخرجوا على أشد المبادئ مناعة لدى كل أصحاب السلطان.

وتقع جزيرة "سان بيبير" -وتسمى في "نيوشاتيل" بجزيرة "لاموت" - وسط بحيرة "بيين". ويبلغ محيطها حوالي نصف فرسخ، ولكن هذه المساحة الضئيلة تنتج كل المحصولات الرئيسية اللازمة للحياة. ففيها حقول، ومروج، ومراع، وبساتين، وغابات، وكروم. وهذه جميعا موزعة -بفضل الأرض المتباينة والجبلية- بشكل مستحب جدا إذ إن مناظرها المختلفة، لا تتكشف جميعا في وقت واحد، وإنما تتعاقب في توال متبادل، فتوحى بأن الجزيرة أكبر مما هي في الواقع. ويتألف الجانب الغربي منها -المواجه لـ"جليريس وبونفيل" - من مرتفع شاهق، تكون الأشجار فيه طريقا طويلة، يتوسطها فراغ تسده النباتات من كل جانب، كانه قاعة، يجتمع فيه الوافدون من كل الشطآن المجاورة -في أيام الأحاد من موسم حصاد العنب- ليرقصوا ويلهوا. وليس في الجزيرة سوى دار واحدة، يقيم فيها محصل الضرائب. ولكنها كبيرة، رحبة، تقع في منخفض يحميها من الرياح.

وعلى خمسمائة أو ستمائة ياردة من "سان بيبير" -من الناحية الجنوبية- جزيرة أخرى، أصغر منها مساحة بكثير، غير مزروعة ولا مأهولة، وتبدو كما لو كانت قد انفصلت عن الجزيرة الكبرى -في زمن ما- بفعل العواصف العاتية... وهي لا تبت بين حصائنها سوى الصفصاف، بيد أنها تضم بقعة مرتفعة مكسوة بالحشائش، وذات حسن بديع. وبكاد شكل البحيرة أن يكون بيضاويا مكتمل التكوين. ومع أن شطآنها ليست خصبة كشواطئ بحيرتي "جنيف" و"نيوشاتيل"، إلا أنها ذات منظر زخرفي بديع للغاية، لا سيما في الجانب الغربي الكثير السكان، وعند سفح سلسلة من التلال لها حافة من الكروم كتلك التي تحف بـ"كوت-روتني" -في منطقة "الرون" - وإن لم تشبهها في جودة النبيذ الذي تدره. وتوجد في الطريق من الجنوب إلى الشمال، المناطق التابعة لقضاء "سان جان" و"بونفيل" و"بيين" و"نيداو" عند طرف البحيرة، وقد تناثر فيها عدد من القرى البهيجة المناظر.

هكذا كان الملجأ الذي دبرته لنفسه، والذي قررت أن أستقر فيه إذ أبارح "فال-دي-ترافير". ولعله ليس من اللغو غير المجدي، أن أذكر أنني خلفت هناك عدوا للدم، تمثل في السيد "دوتيسرو" -عمدة "فيرير" - الذي لم يكن يحظى بكثير احترام في المنطقة، ولكنه أوتي شقيقا قبيلا إنه رجل أمين، كريم، كان يعمل في مكتب السيد "دي سان فلورنتان". ولقد زاره العمدة قبل الحادث الذي جرى لي بوقت قصير.. مثل هذه الملاحظات البسيطة -التي لا قيمة لها في حد ذاتها- قد تساعد فيما بعد، في الكشف عن كثير من الحوادث المستترة.

ولقد كان اختياري هذا الملجأ متمشيا تماما مع أهوائي وطباعي الميالة إلى العزلة والخمول، حتى إنني أعدته بين الأحلام العذبة التي كنت مشغولاً بها كل الشغف. ولاح لي أنني سأغدو -في هذه الجزيرة- أكثر بعدا عن مجتمع البشر، وفي مزيد من الأمان من إهاناتهم، وأشد ما أكون بعدا عن ذاكرتهم.. وقصارى القول: إنني ساكون أكثر تحررا في الاستسلام لمباهج البطالة وحياة التأمل. ولقد كنت أتمنى أن أعزل تماما -في هذه الجزيرة- فلا يعود لي أي اتصال بأي إنسان حي. ولقد اتخذت -بلا شك- كل التدابير الممكنة تصورها، لأعفي نفسي من ضرورة الإبقاء على هذه الحال.



على أنه لم يكن ثمة بد من القوت، وقد كان العيش على هذه الجزيرة باهظ النفقات جدا، من

جراء ارتفاع أسعار المؤن، وصعوبة المواصلات. فضلا عن أن المرء كان تحت رحمة محصل الضرائب. ولقد أزيلت هذه الصعوبة بتدبير تكرم السيد "دوبييرو" بإجرائه معي، حل بمقتضاه محل الشركة التي كانت قد تعهدت بإنتاج طبعة شاملة لمؤلفاتي، ثم تخلت عن المشروع. فوضعت بين يديه كل المواد اللازمة، وتعهدت بتنسيقها وتوزيعها. كذلك ارتبطت بأن أسلمه ذكريات حياتي، وجعلته الوصي العام على كل أوراقي، مع اشتراط خاص بالا يستغلها إلا بعد وفاتي، إذ كنت قد آليت على نفسي أن أختتم حياتي العملية في سكينه، دون أن أذكر الرأي العام بوجودي على قيد الحياة. وكان المعاش السنوي -الذي تعهد بدفعه في مقابل ذلك - كافيا لحاجاتي. كذلك عرض علي السيد "المارشال" - الذي كان قد استرد كل ثروته - معاشا سنويا قدره ألف ومائتا فرنك، لم أنقبل سوى نصفه. ولقد رغب في أن يرسل إلي مجموع المبلغ دفعة واحدة، فرفضت، إذ حرت في أمر استثماره؛ ومن ثم فإنه أرسله إلى "دوبييرو"، فظل بين يديه، وقد تعهد أن يسلمني الفائدة السنوية، على أساس الفقة المتفق عليها. ومن ثم فبضم اتفاقي مع "دوبييرو"، إلى المعاش الذي وهبني السيد "المارشال" - على أن يؤول ثلثاه إلى "تيريز" عقب وفاتي - إلى الثلاثمائة فرنك التي كنت أنسلمها سنويا من "دوشين"، أصبح في وسعي أن أرتكن إلى دخل محترم لنفسي، ولـ "تيريز" بعد مماتي. إذ تركت لها سبعمائة فرنك سنويا، من معاش "ريمي" ومن معاش السيد "المارشال". وهكذا لم يعد خوف لدي من أن تفتقد "تيريز" خبزها يوما، أو من أن أشعر أنا الآخر بحاجة... بيد أنه كان قد كتب لي أن اضطر إلى أن أنبذ كل الموارد التي ساقها إلى يدي الحظ أو جهدي، وأن أموت - كما عشت - فقيرا... وسيكون في الوسع تبين ما إذا كان في وسعي - دون أن أتردى في أدنى مهاوي الهوان - أن أتشبث بتدابير حرص الغير دائما على أن يجعلوها مذلة لي، إذ عمدوا - في عناية - إلى تجريدي من أية موارد أخرى، لكي يقسروني على أن أرضى بالهوان. فكيف خالجهم الشك في القرار الذي كنت خليقا بأن اتخذه، إذا ما خبرت بين الفقر، وبين الرخاء مع الهوان؟.. لقد كانوا دائما يحكمون على قلبي، بالقياس إلى قلوبهم.



وإذ ارتاح بالي إلى موارد عيشي، لم يعد لدي أي شاغل آخر. ومع أنني كنت قد تركت الميدان -في الدنيا- خاليا لأعدائي، إلا أنني خلفت -في الحماس النبيل الذي أملى علي مؤلفاتي، وفي استمرار صمود مبادئ وتمامسكها- شاهدا على روحي التي كانت مسؤولة عن كل النهج الذي اتخذته شخصيتي في مسلكتها. ولم أكن في حاجة إلى دفاع فوق هذا، ضد من سعوا إلى مذمتي وتشويه سمعتي. إنهم قد يصورون - تحت اسمي - رجلا آخر يختلف عني تماما، ولكنهم لا يملكون أن يخذعوا سوى أولئك الذين قد يرغبون في أن يكونوا مجدوعين!.. لقد كان بوسعي أن أترك لهم حياتي لينتقدوها، من أولها إلى آخرها. فلقد كنت مطمئنا إلى أنهم خليقون دائما بأن يجدوا - وراء كل أغلاطي ومواطن ضعفي، وعدم طاقتي على احتمال أي نير - رجلا كان عدلا، وصالحا، وخلوا من الحقد والكراهية والغيرة، على استعداد دوما لأن يعترف بأغلاطه الظالمه، وأكثر استعدادا لأن ينسى مظالم الآخرين.. رجلا كان ينشد كل سعادته في عواطف الحب واللطف، وكان يكشف في كل شيء عن إخلاص بلغ مبلغ التهور وأبعد حدود التجرد من الذاتية!

وعلى هذا، فإنني -بشكل ما- ودعت القرن الذي كنت أعيش فيه، وودعت معاصري، وودعت

مجتمع البشر، وأريت إلى هذه الجزيرة لأقضي ما تبقى لي من أيام.. فهكذا كان عزمي، وهناك كنت أعول على أن أنفذ -أخيرا- مشروعي الكبير.. مشروع الحياة الخاملة، التي كرس لها عيشا -حتى ذلك الحين- كل الطاقة المتراصة التي أودعتها السماء في. لقد كانت هذه الجزيرة جديدة بأن تغدو لي كجزيرة "بابيمانتي" (١)، تلك البلاد السعيدة، التي ينام فيها المرء:

"فهناك عمل جديد.. إتيان لا شيء البتة" (٢)!

هذا "العمل الجديد" كان هو كل شيء لدي، لأنني لم أتخسر كثيرا على النوم، بل كانت البطالة تكفيني. فإذا ما قدر لي ألا أعمل شيئا، فإنني أوتر أحلام اليقظة على النعاس. وإذا كانت سن المشروعات القصصية الخيالية قد ولت، وبخور المجد الباطل قد أغشى نفسي أكثر مما استهوى غروري، فلم يبق لي -كامل أخير- سوى حياة طلقه من كل قيد، تقضى في فراغ دائم. فهذه هي حياة المريض عنهم في العالم الآخر.. ومنذ ذلك الحين، قصرت سعادتي في عالمي الراهن، على هذا اللون من الحياة! إن الذين يلومونني على كثرة متناقضاتي، لن يغفلوا أن يعتبوا علي -هنا- تناقضا جديدا. فلقد قلت -من قبل- إن البطالة في المجتمعات، كانت عيبا لا أطيقه. ومع ذلك، فهانذا أنشد الوحدة هنا لغرض واحد، هو أن أسلم نفسي للبطالة. ومع ذلك، فهكذا هي طبيعتي. وإذا كان ثمة تناقض في هذا، فهو من عمل الطبيعة، وليس من صنعي. ولكن هنا فارق جد صغير.. وبهذا الفارق الصغير تمتاز شخصيتي الحقيقية. إن بطالة المجتمعات ممضة، لأنها مفروضة بحكم الضرورة، أما بطالة الوحدة، فبهيجة لأنها طليقة، وصادرة عن رضا ورغبة.. إن التعطل عن عمل شيء -إذا كنت بين الناس- مهمة شاقة، لأنني أكون في ذلك مضطرا. فانا مضطري أن أبقى بينهم. مسمرا إلى مقعدي، أو واقفا منتصب القامة كالعسكري في الحراسة، دون أن أحرك يدا أو قدما.. لا أجرؤ على أن أجري أو أن أقفز، أو أن أغني، أو أن أصرح، أو أن أشير، إذا ما خطر لي أن أفعل.. بل إنني لا أجرؤ على أن أحلم!.. فأشعر لفوري بالسأم من البطالة وبكل عذاب الضيق وضبط النفس؛ ذلك لأنني مضطري إلى أن أصيخ السمع لكل السخافات التي تقال، وكل المحاملات التي تنبادل، وأن أعتصر قريحتي باستمرار، حتى لا أخفق في أن أقدم -بدوري- سخاوتي أو أكذوبي. وهذا ما يسمى بالتبطل. إنه عمل المحكوم عليهم بالسجن المؤبد!

أما البطالة التي أحبها، فليست بطالة المتعطل الذي يبقى مكتوف الذراعين في حالة توقف تام عن النشاط، فلا تفكير ولا حركة.. البطالة التي أحبها خليط يجمع بين بطالة الطفل الذي لا يكف عن الحراك دون ما عمل، وبطالة المخرف الذي يهيم من موضوع إلى آخر، وذراعاه ساكنتان!.. إنني أحب أن أشغل نفسي بالتوافه، وأن أشرع في مائة شيء، ولا أتم شيئا، وأن أجري وأروح كما يحملني هوائي، وأن أبدل خططي في كل دقيقة، وأن أنتبع ذبابة في كل حركاتها، وأن أحاول أن أفلقل صخرة لا تبين ما تحتها، وأن أضطلع في خمس بعمل قد يستغرق عشر سنوات، ثم أهجره -دون ما ندم- بعد عشر دقائق.. وقصارى القول، إنني أحب أن أقضي نهاري كله على غير نظام، ودونما تبعة، والاتباع -في كل شيء- سوى هوى لحظته، ونزوة دقيقتها!

لقد كان علم النبات -كما عهدته دائما، وكما وجدته إذ بدأ يتملكني الشغف به- هو الدراسة الملائمة حقا للبطالة، والصالحة للماء فراغ أوقاتي، دون أن تدع مجالا لشطحات الخيال، أو لسأمة التعطل الكامل.. فالضرب في الغابات والريف على غير مقصد، والإقبال الآلي على اقتطاف زهرة من هنا، أو فرع من هناك، والتهام الطعام دون موعد تقريبا. وتأمل الأشياء ألف وألف مرة -وهي هي لم

(١) اسم ابتكره رابليه للارض التي أوت إليها حاشية البابا. (٢) من شعر "لافونتين". ويقصد بالعمل الجديد.. عدم العمل.

تتغير- بنفس الاهتمام، لأنني كنت أنساها جميعا أولا بأول.. كل هذه تؤلف الطريقة لإنفاق الزمن السرمدي، دون لحظة واحدة من السأم. إن تركيب النباتات -مهما يكن دقيقا، ومهما يكن بديعا، ومهما يكن متباينا- قل أن يسترعي العين الجاهلة إلى الدرجة التي تحملها على الاهتمام به.. إن التجانس الشامل المستطرد، مع -وفي ذات الوقت- التباين الواسع النطاق، الذي يميز أعضاء النباتات، لا يبهجان سوى أولئك الذين أوتوا فعلا فكرة ما عن نظام مملكة النبات. أما غير هؤلاء، فإنهم لا يشعرون -حين يرون كل هذه الكنوز الطبيعية- بغير إعجاب جامد، متواتر على نسق واحد.. إنهم لا يرون شيئا -بتفصيله أو دقائقه- لأنهم لا يكادون يعرفون أين يجب أن تتجه نظرتهم.. ثم إنهم لا يرونه في مجموعه كذلك- لأنهم لم يؤتوا فكرة عن تسلسل الروابط والصلات التي تحير بطرافتها وغرابتها ذهن المتأمل. ولقد كنت -وكانت ذاكرتي الكلية خليقة بأن تستبقيني دائما- في تلك الحال المريحة، الحال التي لم أكن أعرف فيها عن الشيء سوى القدر الضئيل الذي لا يبدو في عيني جديدا.. ولكن هذا القدر كان كافيا لأن يحملني على التفكير!.. وكان تباين أنواع التربة الموزعة في أرجاء الجزيرة، بالرغم من صغر مساحتها، يتيح لي تباينا في نباتاتها، كافيا للدراسة والتأمل بقية عمري.. فعزمت على ألا أدع عرقا واحدا من عشب، دون أن أفحصه. وبدأت -بالفعل- اتخاذ التدابير لاكتب عن مملكة النبات، موردا مجموعة هائلة من المشاهدات الطريفة والغريبة!



وأرسلت في طلب "تيريز"، وكتبي، وأمتعتي، فأقمنا في دار محصل الضرائب. وكانت شقيقات زوجته -اللاثي كن يقمن في "فيداو" - يقدن لزيارتها، كل بدورها، فكان في هذا إيناس لـ "تيريز". وهناك أحسست بحياة ناعمة كنت أتمنى لو تدوم إلى ما بعد انتهاء حياتي، ولكن الشغل الذي تولاني بها، لم يؤد إلا إلى زيادة إحساسي بمرارة تلك الحياة التي كانت موشكة على أن تعقبها. لقد اعتدت دائما أن أحب الماء حب المشغوف، حتى إن مرآة يلقى بي إلى أحلام عذبة، برغم أنها كثيرا ما تفتقد الغاية المحددة. فلم أغفل يوما عند يقظتي، أن أهرع إلى الشرفة -عندما يكون الطقس معتدلا- لأعب من هواء الصباح الصحي العليل؛ ولأطلق نظراتي إلى أفق البحيرة الجميلة، التي كانت الجبال تحيط شطآنها، فتؤلف منظرا فائنا. ولم أكن أجد تحية جذيرة بالذات الإلهية أكثر من الإعجاب الصامت، الذي ينبع من تأمل خلقها، والذي يعجز عن أن يعبر عن ذاته بتصرفات ظاهرة. إن بوسعي أن أدرك السر في أن سكان المدن -الذين لا يرون سوى الجدران، والطرق، والجرائم- لا يؤتون سوى القليل من الإيمان. ولكني لا أستطيع أن أفهم السر في أن أولئك الذين يعيشون في الريف -لاسيما في الأماكن المنعزلة- يستطيعون أن يضلوا الطريق إلى الإيمان!.. كيف يتسنى لأرواحهم ألا تسو في غيبوبة نشوانة، مائة مرة في اليوم، نحو مبدع العجائب التي تذهلهم؟.. أما أنا، فقد اعتدت من أمد طويل أن أنساق عقب البقطة بوجه خاص -وأنا بعد كليل الجسم لحرمانني من النوم طيلة ليلي- إلى تلك النوبات التي يسمر فيها قلبي محلقا، والتي لا تفرض علي عناء التفكير. على أنه لابد -لحدوث ذلك- من أن يضاف عيني سحر منظر الطبيعة!.. أما في حجرتي، فإن صلواتي لا تنبعث بمثل هذه الكثرة أو الحرارة، ولكني أشعر -إذا ما رايت منظرا طبيعيا جميلا- بتأثير عاطفي لا أدري مآته. وأذكر أنني قرأت عن أسقف حكيم، صادف أثناء زيارته لأبرشيته، عجوزا لم تكن تملك في صلاتها أن تقول أكثر من: "أواه". فقال لها الأسقف: "وأصلي صلاتك

على هذا النحو، أيتها الأم الصالحة، فإن صلاتك هذه خير من صلواتنا .. وهذه الصلاة - التي هي خير من سواها - هي صلاتي أنا الآخر!

و كنت أسرع - بعد الفطور - إلى كتابة بعض الرسائل المقتضبة، وأنا متجههم، ضيق الصدر، متلهف إلى اللحظة السعيدة التي لا أعود فيها بحاجة إلى الكتابة. و كنت أقلب كتيبي وأوراقى لبضع لحظات، رغبة في فرزها وترتيبها، أكثر مني في قراءتها. وكانت هذه المهمة تتيح لي متعة التأمل الفكري للحظات قلل، أمل بعدها العمل، فأقضي الساعات الثلاث أو الأربع المتبقية من فترة الصباح، في دراسة علم النبات، لاسيما منهج "ليناوس"، الذي تملكني الشغف به، حتى إنني لم أقو على التحول عنه تماما، حتى بعد أن تبين عيوبه فإن هذا المدقق العظيم، هو في رأيي، الوحيد بعد "لودفيسج" - حتى يومنا هذا - الذي نظر إلى علم النبات من ناحية رجل الطبيعة والفيلسوف. ولكنه أفرط - أكثر مما ينبغي - في الاعتماد في دراسته على مجموعات الأعشاب المخففة وعلى الحدائق، فلم يأخذ عن الطبيعة إلا القليل. أما أنا، فقد كانت الجزيرة بأسرها حديقة لي، وما إن احتاج إلى أن أتأمل أو أنمى شيا، حتى أهرع إلى الغابات أو المروج، متأبطا كتابا .. وهناك، كنت أنظر على الأرض بجانب النبات الذي أقصده، فأفحصه في مكانه، على مهل. ولقد أعانني هذه الطريقة أكبر العون، على أن أحصل معرفة بالنباتات وهي في وضعها الطبيعي، قبل أن تستتبها يد الإنسان، وتناى بها عن طبيعتها! .. ويقال: إن "فاجون" - الطبيب الأول للملك "لويس الرابع عشر" - كان ملما بأسماء جميع نباتات الحديقة الملكية، وعلى معرفة تامة بها. ولكنه بقدر علمه هذا، كان جاهلا بنفس النباتات، في الريف، حتى إنه كان يعجز عن معرفة شيء منها. وهذا على النقيض مني تماما، فإني أعرف شيئا عن نتاج الطبيعة، ولكن لا أعرف البتة عن نتاج البستاني!

أما الأوقات التي كانت تعقب الغداء، فقد اعتدت أن أستسلم فيها تماما لميلي للبطالة وعدم الاكتراث بشيء، و كنت أتبع وحي لحظتي، دونما قاعدة أو نظام. وفي كثير من الأحيان كنت أبادر فور مغادرتي المائدة - عندما يكون الهواء ساكنا - إلى القفز وحيدا إلى قارب صغير، علمني محصل الضرائب كيف أسطر عليه بمجداف واحد، فكنت أجدف إلى منتصف البحيرة. وكانت لحظة انطلاقي تبعث في نفسي فرحة يختلج لها قلبي. ومن المستحيل علي أن أصف هذا الشعور، أو أن أعلله .. اللهم إلا أن يكون اعتباطا مستترا بانني - في هذه الحال - بمنأى عن الأشرار!

و كنت أجدف في البحيرة وحيدا، أقترب من الشاطئ أحيانا، ولكنني لم أكن أرسو عليه قط. وكثيرا ما تركت قاربي لرحمة الماء والهواء، وأسلمت نفسي لخواطر شاردة، قد تكون منطوية على غباء، ولكن هذا لم يكن يضعف من عذوبتها. و كنت أهتف أحيانا، في انفعال: "أواه، أيتها الطبيعة .. أواه، يا أمي! هانذا في حمايتك وحدك! .. ما من إنسان لثيم خبيث هنا، ليحول بيني وبينك!". وعلى هذا النحو كنت أبتعد عن البر بنصف فرسخ، وأنا أتمنى لو أن هذه البحيرة كانت محيطة .. على أنني - رغبة في إرضاء كلبى المسكين، الذي لم يكن شديد الحب مثلي لهذه النزوات المائية الطويلة - اعتدت أن أجعل لنزهتي غاية. تلك هي أن أرسو عند الجزيرة الصغيرة، فأتمشى على أرضها ساعة أو ساعتين، أو أستلقي على الحشائش، على قمة البقعة المرتفعة فيها؛ لأستمرى لذة الإعجاب بهذه البحيرة وبما يحيط بها؛ ولا عكف على فحص وتشريح كل النباتات التي تقع عليها يدي، ولأبني لنفسى مسكنا خياليا، على هذه الجزيرة الصغيرة، وكأني "روبنسن كروزو" جديدا .. ولقد تعلق قلبي بهذه البقعة المرتفعة! وعندما كنت أصحب "تيريز" وزوجة محصل الضرائب

وشقيقاتها للنزعة، كان الزهو يستخفني بأن أكون دليلهن ومرشدهن!.. ولقد نقلنا -في مركب بهيج- بعض الأرناب لنعمر بها هذه البقعة، فكان هذا عيداً من أعياد "جان جهاك"!. ولقد أضفى هؤلاء السكان على الجزيرة الصغيرة مزيداً من الرواء والقيمة، في نظري. فاصبحت أكثر من التردد عليها في مزيد من السرور؛ لاتفقد مظاهر تقدم السكان الجدد!



ولقد أضفت إلي هذه الملاحية، ملهة أخرى ذكرتني بالحياة البهيجة في "ليه شارميت"، وحفزني إليها، ذلك الفصل من السنة. تلك هي ممارسة أعمال الحياة الريفية بجمع الفاكهة والخضر، التي كنت و"تيريز" نسر أن نتقاسمها مع محصل الضرائب واسرته. وأذكر أن شخصاً من أبناء "بيرون" -يدعى السيد "كيسو شيبورجو" - جاء يوماً لزيارتي، فوجدني محشوراً فوق فروع شجرة عالية، وقد ربطت إلى خاصرتي كيساً امتلأ بالتفاح إلى درجة تعذرت علي معها الحركة!.. ولم أستا لهذا اللقاء، ولا للقاءات أخرى على شاكلته، بل إنني رجوت أن يكف أهل "بيرون" عن أن يعكروا صفو فراغي -بعد أن رأوا كيف كنت أستغله- وأن يدعوني في عزلتي آمناً. ولقد كنت أؤثر أن أكون حبيس هذه الجزيرة بإرادتهم، وليس بإرادتي. لأنني كنت خليقاً بأن أكون -في هذه الحال- أكثر اطمئناناً إلى عدم تعكير صفو راحتي!

إن في هذا اعترافاً من تلك الاعترافات، التي أشعر -مقدماً- بأنها لن تلقى تصديقاً من أولئك القراء الذين يصرون دائماً على أن يحكموا علي بالقياس إلى أنفسهم، بالرغم من أنهم قد رأوا مرغمين -في سياق حياتي بأسرها- ألف إحساس داخلي لا يشبه ألبنة أحاسيسهم في شيء!.. وأغرب ما في الأمر، أنهم في الوقت الذي ينكرون علي فيه كل شعور طيب أو مبرأ لم يؤتوه هم، إذا بهم على أتم الاستعداد لأن يخلعوا علي من خبيث المشاعر ما لا قبل لهم بأن يبشوه -لو شاءوا- في أي قلب بشري!.. فهم يجدون من البساطة أن يصوروني على نقبض الطبيعة، وأن يرسموني كوحش هائل لا يمكن أن يكون له وجود. ذلك لأنهم يرون أن ليس ثمة سخافة تجل على التصديق، ما دامت موجهة إلى تشويه سمعتي.. وليس من شيء خارق يبدو لهم محتماً، طالما كان فيه تمجيد لي.

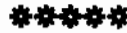
ولكنني سامضي بنفس الإخلاص الصادق -بالرغم مما قد يقولون أو يعتقدون- في عرض ما كان عليه "جان جهاك وروسو"، وما كان يفعله، وما كان يطوف بخاطره، دونما إيضاح أو تبرير لغرابه مشاعره وآرائه، ودون أن اتحرى عما إذا كان سواء قد فكر على نسقه. ولقد استهوتني جزيرة "سان بيير"، وكنت جد مرتاح إليها، حتى إنني لفرط تركيز رغباتي على هذه الجزيرة، عزمت على ألا أبرحها إطلاقاً. فلقد ضقت -بينني وبين نفسي- بالزيارات التي كنت مضطراً إلى أدائها في المناطق المحيطة، والرحلات التي كنت مجبراً على القيام بها إلي "فيوشاتيل" و"بيسين"، و"أيفسردون"، "فيسداو".. كان اليوم الذي أقضيه خارج الجزيرة، يبدو لي بمثابة انتقاص من سعادتي. كما أن تجاوز نطاق البحيرة، غدا بالنسبة لي بمثابة تحول عن طبيعتي الفطرية. وفضلاً عن ذلك، فإن تجاربي الماضية جعلتني هيباً فما إن كنت أصادف شيئاً يرتاح إليه قلبي، حتى أتوقع أن أفقده، وغدت رغبتني الحارة في أن اختتم عمري في هذه الجزيرة، مرتبطة -ارتباطاً لا انفصام له- بالخوف من أن أقسر على مغادرتها!

واعتمدت أن أذهب كل مساء، فأجلس على الشاطئ، لا سيما حين تكون البحيرة متلاطمة

الأمواج .. كنت أحس بلذة فذة إذ أرى الأمواج تتكسر عند قدمي، فقد كانت تمثل لي اصطخاب الدنيا، وسكينة معقلي. وكانت هذه الفكرة تهفو بعواطفي أحيانا، حتى أشعر بالدموع تتساقط من عيني! .. ولم يكن يعكر هذه السكينة -التي اعتدت أن أستمتع بها بكل عواطفني- سوى توجس فقدانها، على أن هذا التوجس بالذات، كان يفسد سحرها علي!

كنت أشعر بوضعي متارجحا إلى درجة لا تمكنني من أن أجرؤ على أن أعول عليه، أو أطمئن إليه. وكنت أقول لنفسني: "آه! .. كم أتمنى راضيا أن أستبدل حريتي في مغادرة الجزيرة -الامر الذي لا أحفل به إطلاقا- بضممان تمكنني من البقاء فيها دائما! .. لماذا لا أستبقى هنا قسرا، بدلا من أن أبقي تفضلا? .. إن أولئك الذين يدعونني هنا -من قبيل التفضل- يستطيعون أن يطردوني في أية لحظة، فكيف لي أن أجرؤ على الأمل في أن يدعني مضطهدي أو أصل هناءني -التي يروني عليها- هنا? .. آه! إن السماح لي بالعيش هنا، أقل مما أصبو إليه. إنما أتمنى أن يقضى علي بالبقاء، وأن أقسر على البقاء في هذه الجزيرة، حتى لا أغضب على مبارحتها! .. وكنت أرمق بحسد ذلك السعيد "ميكيلي دوكريه"، الذي كان يعيش آمنا في قلعة "داربيرج"، دون أن ينقصه -لكي يكون سعيدا- سوى أن يرغب في السعادة!!

وأخيرا، انتهيت -لحفر استسلامي لهذه الخواطر، وللخواجس المزعجة التي كانت تجعلني دائما في خوف من انقضاء عواصف جديدة على رأسي- إلى أن أتمنى، في لهفة تفوق كل تصور، أن يعدل ظالمي عن مجرد التساهل معي إزاء مقامي في الجزيرة، وأن يجعلوها سجنا يقسرونني على ملازمته طيلة حياتي .. وبوسعي أن أقسم إنني لو كنت أملك السلطة على أن أحصل على حكم بهذا الصدد، لفعلت بأقصى اغتباط إذ كنت أوثر -الف مرة- أن أضطر اضطرارا إلى قضاء بقية عمري هناك، على أن أتعرض لخطر الطرد منها!



ولم تبق هواجسي طويلا، دون تحقيق .. فقد تلقيت -وأننا أقل ما أكون توقعا لذلك- خطابا من حاكم "نيداو"، الذي كانت جزيرة "سان بيير" في نطاق سلطانه .. وفي هذا الخطاب، أبلغني -بنياية عن حكومته- الأمر بمغادرة الجزيرة والأراضي التابعة لهذه الحكومة!

وخيل إلي، عندما قرأت الخطاب، أنني كنت أحلم، فما كان ثمة ما هو أبعد عن الطبيعي، ولا ما هو أبعد عن المنطق، ولا ما هو أبعد عن التوقع، من مثل هذا الأمر؛ ذلك لأنني كنت قد نظرت إلى هواجسي على أنها قلق رجل أزعجته مصائبه، أكثر منها توقعات تستند إلى آتفه أساس. وكانت الخطرات التي اتخذتها لأطمئن نفسي إلى القبول الضمني الذي صدر من السلطات، وإلى الأسلوب الوداع الذي أبيع لي بمقتضاه أن استقر في الجزيرة، وإلى الزيارات التي تلقيتها من عديد من أهل "بيرون" ومن الحاكم نفسه -الذي أذهلني بما أبداه نحوي من ود ورعاية- وإلى قسوة الطقس، التي كانت تجعل من العنف الوحشي طرد رجل معلول من مأواه .. كل هذه الاعتبارات، جعلتني -وجعلت كثيرين غيري- يؤمنون بأن ثمة شبهات تحوم حول هذا الأمر، وأن ذوي النوايا السيئة نحوي، قد تعمدوا اختيار وقت جني العنب، وتغيب أعضاء مجلس الشيوخ، كي يوقعوا بي هذه الضربة فجأة، وبوحدة!

ولو أنني أصغيت لأول إيعاز من كرامتي، لكنت قد بادرت إلى الرحيل فورا. ولكن، إلى أين

كنت اذهب؟ .. وماذا يجري والشتاء قد أقبل، وليس لي من مقصد، ولا اتخذت عدة، وليس ثمة مرشد، ولا عربات للنقل؟ .. وما لم أترك ورائي كل شيء -أوراق، وأمتعتي، وكل شؤوني- فقد كنت بحاجة إلى وقت كي أعدةا للنقل .. ثم إن الأمر لم يذكر ما إذا كان يسمح لي بأخذها أو لا يسمح!

وبدأت ملاحقة المصائب توهم جلدي .. ولأول مرة في حياتي، شعرت بكبريائي الفطرية تنحني تحت وطأة الضرورة. وبالرغم من تدمر قلبي، لم يكن ثمة بد من أن أنتزل فأطلب إمهالا. وإلى السيد "دي جراففريسيه" -الذي أرسل إلي الأمر- وجهت مساعي. وكان في خطابه قد عبر عن استهجانته الشديد لهذا الأمر، وأنه ما أبلغني إياه إلا في أسف بالغ. فلاح لي مما ملا الخطاب من مظاهر الألم والتقدير، أن هذا الخطاب لم يكن سوى دعوى مترفة، متلطفة، إلى أن أفتحه بما في صدري .. وهذا ما فعلته. ولم أشك في أن خطابي خليق بأن يفتح عيون هؤلاء الجائرين على تصرفهم المجرد من الإنسانية، وأنهم -ولو لم يلفوا مثل هذا الأمر القاسي- سيمنحونني مهلة معقولة، قد تشمل الشتاء كله، لكي استعد للرحيل، ولكي أختار مكانا ألجا إليه.

وأخذت في انتظار جوابه -أفكر في موقف، وأتدبر القرار الذي كان علي أن أتخذه. ورأيت كثيرا من الصعاب في كل ناحية. وكان الحزن قد أثر علي أشد تأثير، كما كانت صحتي سفي تلك الآونة في أسوأ حال، فأسلمت نفسي للتداعي، وإذا ثبوت همتي بجردي مما تبقى لي من قوى عقلية متواضعة، كان من الممكن أن تساعدني على أن أثبت في موقف الحزن .. كان من الواضح أنني لم أكن أملك أن أنفادى -في أي مكان قد ألوذ به- أن أتعرض للأسلوبين اللذين استخدمتهما، حتى ذلك الحين، في طردي، وأولهما: إثارة الناس ضدي، بالدسائس المتوارية .. في حين أن الثاني، هو: نفسي بالقوة الصريحة، دون إبداء أي سبب أو مبرر لذلك!

ومن ثم فإنني لم أكن أملك أن أعول على أي ملجأ، وأطمعن إلى أنه مأمون اللهم إلا إذا ذهبت إلى أبعد مما كانت قواي، وموسم الشتاء، تسمح به، على ما تراءى لي! .. ولقد عادت بي كل هذه الاعتبارات، إلى عين الأفكار التي كانت تشغل بالي منذ البداية. ورحت أشتهي لو أنني سجت طيلة العصر، بدلا من أن أساق إلى أن أضرب في الأرض، بلا انقطاع! وإن اطرد من كل مكان ألوذ به، على التعاقب.

وبعد رسالتي الأولى بيومين، كتبت رسالة ثانية إلى السيد "دي جراففريسيه"، أسأله أن يعرض الاقتراح على المجلس .. وجاء الرد على هاتين الرسالتين من "بيرون". وكان أمرا صيغ في أخشن عبارات رسمية، بأن أغادر الجزيرة، وكل الأراضي التي تتبع الجمهورية -مباشرة أو غير مباشرة- في أربع وعشرين ساعة، وألا أعود إلى دخولها قط، وإلا تعرضت لأقسى صنوف العقاب!



وكانت تلك اللحظة رهيبة، ووجدت نفسي بعدها في أقسى الهموم، وليس في أعظم حيرة! .. على أن أشد ما ألني هو أن اضطر إلى التخلي عن المشروع الذي كان يجعلني أشتفي قضاء الشتاء في الجزيرة. وقد حان الوقت كي أروي القصة الاليمة التي توجت مصائبي، والتي استدرجت -إلى القضاء علي- شعبا تمسا، كانت فضائله المتزايدة تبشر بأنه سيعادل يوما شعبي "اسبرطة" و"روما".

فلقد تحدثت في "العقد الاجتماعي" عن الكورسيكيين كشعب جديد، كان هو الشعب الوحيد في "أوروبا" - الذي لم يستغله التشريع أو يفسده. وقد أوضحت أن ثمة آمالا كبارا قد ترتجى من مثل هؤلاء القوم، لو أنهم وجدوا مرشدا حكيما!

ولقد اطلع على كتابي بعض "الكورسيكيين"، الذين قدروا الأسلوب الكريم الذي تحدثت به عن شعبهم، وإذا ألغوا أنفسهم مضطرين إلى أن يكرسوا كل همهم إلى إنشاء جمهوريتهم، فقد رأى بعض زعمائهم أن يستشيروني في هذا العمل الجليل. وكتب إلي بهذا الصدد - سيد يدعى "بوتافوكو"، كان ينتمي إلى إحدى الأسرات الكبرى في الجزيرة، وكان "كسابتن" في اللواء الملكي الإيطالي بـ"فرنسا"، وقد أمدني بعدد من الوثائق التي كنت قد طلبتها منه؛ لكي أزداد تعرفا على تاريخ الأمة، وعلى أحوال البلد. كذلك كتب لي السيد "باولي" عدة مرات، ومع أنني شعرت بأن مثل هذه المهمة فوق ما تتحمل قواي، إلا أنني رأيت ألا سبيل إلى أن أضن بمعونتي في مثل هذه المهمة الجليلة السامية، بعد أن حصلت على كل البيانات التي طلبتها. وبهذا المعنى كتبت إلى كل من السيدين، وقد استمر تبادل الرسائل إلى أن غادرت "سان بيير".

وفي تلك الفترة بالذات، سمعت أن "فرنسا" كانت ترفد جنودها إلى "كورسيكا"، وأنها عقدت معاهدة مع أهل "جنوا". ولقد أثارت هذه المعاهدة، وإيفاد الجنود، قلقي. ودون أن أتصور أن تكون لي أية علاقة بذلك، قدرت أن من المستحيل بل ومن الميث - أن أكرس اهتمامي لعمل يتطلب هدوءا وسكينة كاملين.. وأعني به تنظيم شعب، في اللحظة التي كان يحتمل أن يكون فيها على شفا إخضاعه لنير الطغيان.

ولم أخف قلقي عن السيد "بوتافوكو"، الذي طمأنني بأن أكد لي أنه - كمواطن صالح - ما كان ليبقى في خدمة "فرنسا" كما كان فعلا؛ لو أن هذه المعاهدة اشتملت على ما يمس حرية بلاده. والواقع أن تحمسه للتبريرات التشريعية لـ "كورسيكا"، وعلاقته الوثيقة بالسيد "باولي"، حالما دون أن يخالجنني أي شك من ناحيته. وعندما سمعت أنه كان يكثر من التردد على "فرساي" و"فونتينيلو"، وأنه كان يقابل السيد "دي شوازيل"، لم أملك سوى أن أستنتج أنه حصل على ضمانات بشأن النوايا الحقيقية للبلاد الفرنسي. وهو الأمر الذي تركني أحده، ولكنه لم يبد رغبة في أن يشرح ما لديه بشأنه بجلاء، في خطاب!

ولقد طمأنني كل هذا، إلى حد ما. على أنني لم أقو على أن أفهم معنى إيفاد الجنود الفرنسيين، ولم أستطع أن أرى أي إغراء يوحى بتصديق أنهم كانوا لحماية حرية الكورسيكيين، فقد كان هؤلاء جد قادرين على أن يذودوا عن حريتهم بأنفسهم ضد أهل "جنوا".. كذلك لم أكن أملك أن أشعر بارتياح تام، إلى أن أوقف اهتمامي في إخلاص صادق لوضع الدستور المقترح، مالم يكن لدي الدليل المقنع بأنه لم يكن مجرد دعاية للضحك مني!.. ولكم كنت أرجو أن أتحدث إلى السيد "بوتافوكو"،

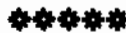
فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي أحصل منه على الإيضاحات التي كنت أنشدها. ولقد أبدى أمله في أن يتاح لنا لقاء، فرحت أنتظر هذا اللقاء بصبر جد نافذ. ولست أدري ما إذا كان قد اعتزم حقا أن يتيح لي لقاء، ولكن لو أن هذه كانت نيته حقا، لكأنت محني خليفة بأن تمنعني من أن أفيد من هذا اللقاء!

وكننت كلما اطلت التفكير في المشروع المقترح، وكلما امعنت في فحص الوثائق التي كانت بين يدي، ازدادت شعورا بالحاجة الملحة إلى أن أدرس -عن كتيب- البلاد، والشعب الذي كان التشريع يعد له، والأرض التي يقيم عليها، وكافة الوجوه التي كان عليه أن يطبق هذا التشريع فيها. وكننت ازداد إدراكا -يوما بعد يوم- بأنه من المستحيل أن اضطر -وأنا بعيد- بكافة الأضواء اللازمة لإرشادي. ولقد كتبت عن هذه الأمور إلى "بوتافوكو"، فإذا به كان يشعر بها. وإذا كننت لم أستقر تماما على قرار الانتقال إلى "كورسيكا"، إلا أنني شغلت كل الشغل بوسائل أداء هذه الرحلة. فنكلمت إلى السيد "داسيسيه" الذي كان خليفا بأن يلم بها، إذ كان قد عمل حيناً -فيما مضى- تحت رئاسة السيد "دي هاييوا". ولكنه لم يدخر وسعا، في سبيل إثباتي عن نيتي، واعترف أن الصورة البشعة التي رسمها للكورسيكيين وبلادهم، أخبت كثيرا من جذوة رغبتني في الذهاب إليهم والإقامة بينهم! على أن هذه الرغبة عادت إلى التآجج -عندما أدى الاضطهاد الذي تعرضت له في "موتير" إلى أن أفكر في مغادرة "سويسرا" -بفضل الأمل في أن أجد بين هؤلاء الجزائريين الهدوء الذي حرمت منه في كل مكان آخر. ولم يكن يزعجني -بصدد هذه الرحلة- سوى أمر واحد.. عدم قدرتي الصحية عليها، والنفور الذي طالما تملكني نحو الحياة النشيطة التي قد اضطر إلى ممارستها. ذلك لأن الطبيعة هباتني لكي أتأمل وأفكر في الوحدة، وحسب هواي، ومن ثم فإنني لم أكن مهيا البتة للكلام والعمل، وتوجيه الشؤون والمسائل وسط الناس.

إن الطبيعة حين منحنتني الموهبة للحالة الأولى، أثبت علي الموهبة للثانية!.. ومع ذلك فقد شعرت أنني خليق بأن اضطر بمجرد وصولي إلى "كورسيكا"، بأن ألقى بنفسي في غمار تلهف الشعب، وأن أعقد عدة مؤتمرات مع الشخصيات التي تتولى الزعامة في الجزيرة، ولو لم أساهم بدور مباشر في المسائل العامة.

وكانت غاية رحلتي ذاتها، تفرض علي السعي -وسط هذه الامة- إلى العثور على المعلومات التي كنت أتشدها، بدلا من السعي إلى الراحة والعزلة.. كان من الواضح أنني لن أستطيع أن اضطر بحريني واستقلالي، إذ إنني سادف -على الرغم مني- إلى دوامة من النشاط، لم أكن بفطرتي مهيبا لها، وأني سامارس حياة تتعارض تماما مع أهوائي، ولا توحني بنفع لي.

وتكهنت بأنني لن أحقق بوجودي، الفكرة التي ربما كانت قد تكونت عن مقدرتي خلال كسبي.. وكان معنى ذلك، أن أفقد مكانتي لدى "الكورسيكيين"، بعد الثقة التي أضفوها علي، والتي ما كنت لأملك بدونها أن أحقق العمل الذي كانوا يتوقعونه مني. ولقد شعرت بيقين من أنني إذ أخرج -بهذا- من الجو الذي خلقت به، لن أجد ذا نفع لهم، وإنما سأعمل على إشقاء نفسي!



وكننت مكروبا، معذبا، حطمتني العواصف من كل نوع، واضننتني التنقلات والاضطهادات خلال السنوات العديدة، وأصبحت أشعر شعورا طاغيا بالحاجة إلى الراحة التي اتخذ أعدائي -الغلاظ القلوب- ملهاة من حرمانني منها!.. ورحت أتهد حصرة -كما لم أتهد من قبل- على ذلك الفراغ المحبب إلى نفسي، وعلى تلك الدعة الناعمة التي تشمل عقلي وجسمي، والتي طالما صبرت إليها واقتصررت عليها السعادة العظيمة لقلبي الذي شفي من أهوام الحب والصداقة! لذلك تطلعت في جزع إلى المهمة التي كنت أوشك أن أقدم عليها، إلى الحياة الصاخبة التي كنت

أوشك أن أنغمس فيها .

وإذا كان جلال الهدف وجماله ونفعه قد أذكت عزيمتي ، فإن استحالة إرضاء نفسي بالنجاح ، وتمويضها عما كانت فيه ، ثبط تلك العزيمة تماما ! .. إن عشرين عاما من التفكير العميق والتأمل - في وحدة - كانت أقل عناء في نظري من ستة أشهر أقضيها في حياة حافلة بالنشاط ، وسط أناس ومسائل عامة كنت موقنا من الفشل فيها !

وفكرت في حيلة لاحت لي جد مناسبة لتسوية كل شيء .. ذلك لأنني - وقد كانت تتعقبني في كل مكان ، المؤامرات الخفية التي كان يبذلها ظالمي المستترون - لم أر سوى "كورسيكا" مكانا أستطيع أن أتطلع إليه في شيخوختي ، للحصول على الراحة التي أبوها علي في كل مكان ، فقررت أن أذهب إلى هناك ، وفقا لتعليمات "بوتافوكو" ، بمجرد أن يتسنى لي ذلك .

ولكنني عقدت عزمي - لكي أعيش في هدوء هناك - على أن أطرح عني مهمة التشريع ، ولو في الظاهر ، على الأقل . ولكي أرد إلى مضيفي كرمهم ، بطريقة ما ، قررت أن أعكف على كتابة تاريخهم ، في مسرحه .

على أن أجمع في هدوء - المعلومات اللازمة التي تجعلني ذا نفع كبير لهم ، إذا ما لاح لي أي أمل في النجاح . وداخلني الأمل بأن أستطيع - إذا لم أقيد نفسي بشيء ، على هذا النسق - أن أفكر فيما بيني وبين نفسي ، وأنا مطلق الحرية ، في مشروع مناسب ، دون أن أنبذ آمالي المشتتة في العزلة ، ودون أن انتهج أي أسلوب للحياة لا أقوى على احتماله ، ولا أنا مهيا له !

غير أن هذه الرحلة لم تكن سهلة التحقق ، في وضعي الراهن . فعلى ما أنبأني به السيد "داستييه" عن "كورسيكا" ، لم أتوقع أن أجد هناك أبسط أسباب الراحة في الحياة ، ما لم أصحب هذه الأسباب معي : من أقمشة ، إلى ملابس ، إلى أطباق وصحاف ، إلى آنية المطبخ ، إلى الورق والكتب . كان لابد للمرء من أن يحمل كل هذه معه . ولكي أنتقل إلى هناك مع "تيريز" ، كان من الضروري اجتياز جبال الألب ، وأن أخرج خلفي متاعبي مائتي فرسخ .. وكان لابد من اجتياز أراضي عدة حكومات ، وعلى ضوء المعاملة التي لقيتها من "أوروبا" كلها ، كان من الجدير أن أستعد - بطبيعة الوضع ، وبعد المحن والنكبات - لأن أصادف عقبات في كل مكان ، ولأن أجد كل امرئ فخورا بأن يعذبني بمحنة جديدة ، وبأن يمتنن - في شخصي - كل حقوق الشعوب والإنسانية . ولقد اضطررتي فداحة نفقات رحلة كهذه ، ومتاعبها ، وأخطارها ، إلى أن أتدبر مقدما كل صعابها ، وأن أزنها وأقدرها في عناية .

وفيما كنت مترددا - بهذا الشكل - حدثت اضطهادات "موتبيير" التي اضطررتني إلى الانسحاب . ولم أكن مستعدا لرحلة طويلة ، لا سيما إلى "كورسيكا" ، فقد كنت أرتقب ردا من "بوتافوكو" ، ومن ثم فقد لذت بجزيرة "سان بيير" ، التي طردت منها في بداية الشتاء ، على ما ذكرت من قبل . وكان الجليد الذي اكتست به "الألب" يجعل من المستحيل علي أن أبرح البلاد - عن ذلك الطريق - لا سيما بعد إنذار قصير الأمد . والواقع أن تطرف أمر كهذا ، جعل الصدوع به مستحيلا فلقد كان من العسير أن أطيعه وأنا في مقامي المنعزل المحوط بالماء ، وليس أمامي سوى أربع وعشرين ساعة - هذات منذ إخطاري بالامر - لأقوم باستعداداتي للرحيل ؛ ولأستأجر القوارب ووسائل النقل التي أغادر بها الجزيرة والمنطقة .. كان من العسير أن أنفذ الامر ، ولو أوتيت أجنحة !

ولقد أنابت حاكم "نيداو" بذلك في ردي على خطابه ، ثم رحلت أتعجل ما استطعت ، فراق هذه البلاد ، التي لم ألق بها سوى الاضطرابات .. وهكذا اضطررت إلى العدول عن مشروعي الغالي ..

وهكذا أيضا قررت -إذ عجزت، في قنوطي وثبوت عزمي، عن أن أحمل أعدائي على أن يترفقوا بي -أن أرحل إلى "بولين"، بدعوة من السيد "المارشال"، تاركا "تيريز" لتقضي الشتاء في جزيرة "سان-بيير" مع متاعي وكتبي، بعد أن أودعت أوراقتي بين يدي "دوميسرو". ولقد بذلت كل تعجل، حتى إنني غادرت الجزيرة في الصباح التالي لوصول الأمر، فبلغت "بيين" قبيل الظهر. وقد كادت رحلتي تنتهي هناك تقريبا، بحادث يجب عدم إغفال ذكره.

فما إن تردد أنني تلقيت أمرا بمغادرة مقر، حتى تدفق علي الزائرون من المناطق المجاورة، لا سيما من أبناء "بيرون" الذين جاءوا ليرأوني ويطيّبوا خاطري، في أبشع آيات النفاق، وليؤكدوا لي أن فرصة العطلات وغياب كثير من أعضاء مجلس الشيوخ، قد استغلت لإصدار هذا الأمر -الذي استنكره كل "المائتين"، على ما قالوا- وإنذاري به. وكان بين هذا الحشد من المواسين، بضعة أشخاص من مدينة "بيين"، وهي ولاية صغيرة حرة، تحيط بها أراضي جمهورية "بيرون".

وكان بين هؤلاء شاب يدعى "فيلدرميه"، كانت أسرته تحتل الصدرة، وتستمتع بأرفع سمعة في هذه المدينة الصغيرة. ولقد ألح علي "فيلدرميه" في حرارة -باسم مواطينه- كي اتخذ ملجئي بينهم، مؤكدا لي أنهم كانوا تواقين ومتحمسين لاستقبالي... وأنهم يعتبرون مساعدتي على أن أنسى المظالم التي عانيت، شرفا وواجبا، وأنني لن أجد ما أخشاه من نفوذ أهل "بيرون" بينهم، فإن "بيين" كانت مدينة حرة، لا تخضع لسلطان أحد، وقد أجمع مواطنها -عن بكرة أبيهم- على ألا يصغوا إلى أي طلب يسيء إلي.

وعندما رأى "فيلدرميه" أن ليس بوسعه أن يزعزع إصراري، أهاب بعدة أشخاص آخرين من "بيين" والمناطق المجاورة -بل ومن "بيرون" ذاتها- أن ينضموا إليه ويؤيدوه، وكان بين هؤلاء "كيرشبيرجر" -الذي سبق لي أن تحدثت عنه- الذي زارني مع "فيلدرميه"، وراح يستحثني في إلحاف على أن يجتذب اهتمامي إليه بفضل مواهبه ومبادئه. ولقد كانت أبعد الرجاءات عن توقعي، وأشدّها إلحاحا، هي تلك التي راح يبذلها السيد "بارثيه" -سكرتير السفارة الفرنسية- الذي زارني مع "فيلدرميه"، وراح يستحثني في إلحاف على أن أقبل دعوته.

وقد أدهشني بما أبداه لي من اهتمام كريم وحرار. ولم أكن أعرف السيد "بارثيه" إطلاقا، ولكني سمع ذلك -لمست في كلماته حرارة وحمية الصداقة، ورأيت أنه كان تواقا حقا إلى إقناعي بالإقامة في "بيين". ولقد امتدح -في أسلوب رفيع طلق- تلك المدينة وأهلها، الذين بدا أنه كان على وئام بالغ معهم، حتى إنه كان يدعوهم -في كثير من المناسبات في حضوري- رعاته وأهله!

ولقد قوضت هذه الخطوة -من "بارثيه" - كل تكهناتي. فلقد اعتدت دائما أن أرتاب في أن السيد "دي شسوازيل"، كان المصدر السري لكل الاضطهادات والمظالم التي تعرضت لها في "سويسرا"، ولم يؤد تصرف الوزير الفرنسي المقيم في "جنيف"، والسفير الفرنسي في "ملور"، إلا إلى تعزيز هذه الشكوك بقوة. كنت أرى النفوذ الخفي لـ "فرنسا" في كل ما حدث لي في "بيرون" و"جنيف" و"نيوشاتيل"، وقد خيل إلي أن عدوي القوي الوحيد في "فرنسا": هو الدوق "دي شسوازيل". فكيف كان خليقا بي أن أرى زيارة "بارثيه" والاهتمام الكريم الذي بدا منه نحو مصيري؟

لم تكن مصائبي قد قوضت ما كان يعمر قلبي من ثقة فطرية وسذاجة طبيعية، ولم تكن التجربة قد علمتني كيف أتبين في كل مظهر للود والعطف فخا للإيقاع بي... وأخذت أبحث في دهشة عن

سبب هذا الكرم من "بارثيه"، فما كنت من الغفلة بحيث أصدق أنه اتخذ هذه الخطوة من تلقاء نفسه.

ولمحت في مسلكه دعاية، بل وتظاهرا، ينمان عن مقصد مستتر، وكنت بعيد البال عن أن أبصر في كل هذه العناصر الثانوية البسيطة، تلك الشهامة الكريمة التي كانت كفيلة بأن تجعل قلبي يغلي غليانا، لو أنني كنت في مركز مشابه لمركز محدثي!

وكننت قد تعرفت -في الماضي- بـ"الشفالييه دي بوتفيل"، معرفة بسيطة، في قصر "لوكسمبورج"، حيث أبدى لي بعض الكرم. ولقد حرص -منذ تعيينه سفيراً- على أن يظهر أنه لم ينسني، حتى لقد دعاني إلى أن أزوره في "سلور". ومع أنني لم ألب الدعوى، إلا أنني تأثرت بها، إذ إنني لم أعتد أن أعامل بمثل هذا الكرم، من أصحاب هذه المراكز الرفيعة. ومن ثم فقد حدثت - من مسلك "بارثيه" - أن السيد "دي بوتفيل"، وإن كان مضطرا إلى إطاعة التعليمات فيما يتعلق بشؤون "جنيف". إلا أنه أشفق علي في محنتي، وأعد لي -بما له من نفوذ شخصي- هذا الملجأ في "بيين"، حتى أستطيع أن أعيش هناك في سلام، تحت رعايته.

ولقد شعرت بامتنان لهذه اللفتة، وإن لم أر أن أفيد منها. ولما كنت قد عقدت العزم على الرحيل إلى "برلين"، فإنني رحلت أتطلع في لهفة إلى اللحظة التي أنضم فيها إلى السيد "المارشال"، وأنا موقن من أنني لن أحظى بالراحة الحقيقية، والسعادة الباقية، إلا معه.



ورافقني "كيرشبيرجر" -عند رحيلي عن الجزيرة- حتى "بيين"، حيث ألفت "فيلدرميه"، وبعض البيينيين الآخرين، في انتظاري. وتناولنا الغداء معا في فندق البلدة، وكان أول ما فعلته -عند الوصول- هو البحث عن محفة، إذ كنت معتمدا الرحيل في الصباح التالي. ولقد عاد أولئك السادة -أثناء الغداء- إلى تجديد إلحاحهم علي بالبقاء بينهم، في حرارة، وفي تأكيدات مؤثرة، حتى إن عواطفني لانت لهم بالرغم من كل إصراري، ومن قلبي. وما إن راوا أنني بدأت أتزعزع، حتى ضاعفوا جهودهم، ووقفوا في ذلك، حتى إنني ارتضيت في النهاية - أن أغلب على أمري، ووافقت على البقاء في "بيين" .. حتى الربيع المقبل، على الأقل.

وبادر "فيلدرميه" -لفوره- إلى البحث لي عن مسكن، وراح يطري لي في خمس غرفة صغيرة نمسة، في مؤخرة طابق ثالث من مبنى، تطل على فناء أستطيع أن أمتع بصري فيه، على مرأى الجلود ذات الرائحة النتنة، في مديعة للجلود. وكان صاحب المسكن رجلا ضئيل الجسم، وغدا وضيعا، لا ضرر منه. وقد سمعت عنه -في اليوم التالي- أنه كان سكيراً، مقامراً، سيئ السمعة جدا في المنطقة. ولم تكن له زوجة ولا أطفال ولا خدم. وإذا احتبست نفسي -في غرفتي المنعزلة- في وحدة كميبة، شعرت أنني -في أبهى بلد في العالم- قد انسقت في سكتاني، لأفضل خطة مدبرة للقضاء على رجل بالموت اكتساباً وغما، في بضعة أيام قلائل. وكان أشد ما أحزنني أنني -بالرغم من كل ما قيل لي عن تلهف الأهالي على أن أقيم بينهم -لم أكن ألاحظ، عندما أسير في الطرقات، أي كرم في السلوك، أو أي ود في النظرات! .. ومع ذلك فإنني كنت قد عقدت عزمي تماما على أن أمكث هناك، عندما علمت -في اليوم التالي بالذات- ورأيت، ولاحظت بنفسي، أن المدينة كانت في اضطراب فظيع من أجلي. وبلغ الكرم بعدد من الناس، أن أسرعوا إلى إنباتي بأنني سأخطر -في اليوم التالي، وباخشن

الأساليب- بأن أغادر لفوري البلاد، أعني البلدة!

ولم أجد من أستطيع أن أعتمد عليه، فقد تشتت كل أولئك الذين كانوا قد الحوا علي في البقاء.. فاخفتني "فيليدرميه"، ولم أعد أسمع شيئا عن "بارثيه"، ولم يلح لي ما ينم عن أن توصياته قد أكسبتني رضا "رعاته وأهله"، الذين كان يفخر بهم. على أن سيدا من أبناء "بيسون"، يدعى السيد "دي-فو-ترافير"، كان يمتلك بيتا بديعا بالقرب من المدينة، فعرض علي أن يأويني، أملا في أن أنجو- كما قال- من الرجم بالطوب. ولم يبد هذا العرض كافيا لإغرائي على أن أطيل مقامي بين هؤلاء القوم المضيفين.

وإذ كنت قد بددت بهذا التأخير ثلاثة أيام، فإنني كنت قد تجاوزت الأربع والعشرين الساعة-التي أمهلتنها سلطات "بيرون" لأغادر أراضيها- بأمد كبير. ولما كنت أعرف غلظة القوم، فإنني لم أخل من قلق بشأن الطريقة التي قد يعاملونني بها في مروري بأراضيهم. وأعفاني من هذه الحيرة حاكم "نيداو"، بتصرف كان أبعد ما يخطر بالبال. فقد أعرب جهرا عن عدم رضائه عن الأساليب العنيفة التي انتهجها أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر- بكرامة نفس- أنه يرى أن واجبه يقتضيه أن يشهد الملا على أنه لم يكن ذا علاقة بالامر. ولم يتورع عن أن يغادر منطقته؛ ليفد لزيارتي في "بيين"!

ووصل في اليوم السابق على رحيلي، غير مستخف، بل في كثير من المظاهر، فقد جاء في زيه الرسمي وعريته، مصطحبا مكرتيره. وحمل إلي جواز سفر صادر منه، يمكنني من عبور أراضي حكومة "بيرون"، دونما خوف من اعتداء.. ولقد أثرت الزيارة في نفسي، أكثر مما أثر جواز السفر. وما كان شعوري بهذا التأثير ليقبل، لو أن هذه الزيارة كانت لشخص آخر غيري، فلست أعرف شيئا أعظم نفوذا على القلب من الشهامة التي تؤدي في لحظتها المناسبة، من أجل شخص مستضعف، اضطهد ظلما!

واستطعت- أخيرا- أن أستاذج محفة، بعد عناء، فانطلقت في الصباح التالي، مغادرا هذه الأرض القتالة، قبل وصول الوفد الذي أريد به تكريمي.. بل قبل أن أتمكن من رؤية "تيريز" مرة أخرى. إذ إنني- حين ظننت أنني سامكت في "بيين"- كنت قد كتبت إليها لتلحق بي، بل إنني كدت لا أجد وقتا كافيا لأكتب لها بضعة سطور، أنبئها فيها بسوء طالعي الجديد، ولسوف يتبدى في الجزء الثالث من "اعترافاتي"- إذا قدر لي أن أوتى القوة كي أكتبه- كيف أنني كنت في الواقع منطلقا إلى "إنجلترا"، وأنا أظنني منطلقا إلى "برلين".. وكيف أن السيدتين اللتين كانتا نواقتين إلى أن تحكما في حركاتي- بعد أن طاردتاني بمؤامراتهما من "سويسرا"، حيث كنت في قبضة نفوذهما تماما- أفلحتا، في النهاية، في أن تسوقاني إلى أيدي أصدقائهما!



ولقد أضفت ما يلي، عند قراءتي هذه "الاعترافات" على السيد والسيدة "كونت ديجمون"، والسيد الأمير "بيجناتيللي"، والسيدة المركيزة "دي ميم"، والسيد المركيز "دي جينييه":

"إنما قلت الحق، فإن عرف أحد أشياء تناقض ما عرضت، فإنما يعرف أكاذيب وانتراعات، ولو قام عليها ألف دليل.. وإذا هو أبى أن يتحرى صحتها، وأن يحصنها معي، وأنا بعد على قيد الحياة.. فهو لا يحب العدالة ولا الحقيقة، أما أنا، فإنني أعلن بصوت عال، ودونما خوف: أن أي امرئ، يستطيع

-ولو لم يقرأ مؤلفاتي- أن يصدق بعد أن يتبين بعينه طباعي، وخلقي، ومسلكي، وميولي، ومسراتي وعاداتي، أنني رجل عديم الشرف والامتقاة .. فإنما هو رجل جدير بأن يخنق"! بهذا اختتمت قراءة "اعترافاتي"، والجميع سكوت .. وكانت السيدة "ديجمون" هي الوحيدة التي بدا عليها التأثير، فراحت ترتجف بوضوح، ولكنها سرعان ما تماكنت نفسها، ولاذت بالصمت، كبقية الجماعة.

وهكذا كانت النتيجة التي خرجت بها من هذه القراءة ومن بياني.

تَمَّتْ بِعَوْنِ اللَّهِ

هذه فرصتك الآن...

أرسل طلبك اليوم !!

الروايات الكاملة... والمحرّبة لشوامخ الكتاب العالميين.

كتب لا تموت ولن تموت... من روائع الأدب العالمي...
وباللغة العربية.

أخي القارئ العربي :

تحية طيبة وبعد،

هذه فرصتك الآن لقراءة أشهر القصص والروايات العالمية المعرّبة
لشوامخ الكتاب العالميين وباللغة العربية.
لقد قمنا بترجمة هذه الروائع ترجمة أمينة وصحيحة ومنقّحة بلغة
عربيّة صحيحة وسليسة يفهمها الكبار والصغار. فلا غنى لك أو
لأحد أفراد عائلتك من البدء في شراء هذه الكتب التي تُثري
مكتبتك.

هذه فرصتك اليوم.. وليس غداً.

إنّ دار البشّير تتيح لك هذه الفرصة النادرة للإطلاع على
حضارات وروائع أشهر كتّاب العالم.
وقد قامت بترجمة هذه الروائع من لغات مختلفة ووضعت بين يديك
دائماً قصص وروايات عالمية قد تفيدك في دراسة الآداب العالمية.
فما عليك سوى الكتابة إلينا لنُرسل لك مجاناً لائحة مفصّلة بآخر
إصدارتنا من هذه السلسلة العالمية.
قصص وروائع جديدة تصدر كل شهر...

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرسل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهمل رسالتك. تُرسل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "دار البشير" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط) تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 5329-13 بيروت - لبنان.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد. ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوقاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة المذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطنة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١٤	عاشقات في الخريف	ستيفان زفايج
١٥	ديكاميرون	جيوفايني بوكاشيو
١٦	إعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو
١٧	صافو	ألفونس دوديه
١٨	دم... وخمر	ليو تولستوي
١٩	الآلهة عطشى	أناطول فرانس
٢٠	مياه الربيع	إيفان ترجنيف
٢١	أنا كارنينا	ليو تولستوي
٢٢	رسول القيصر	جول فيرن
٢٣	حذار من الشفقة	ستيفان زفايج
٢٤	ضحكة في الظلام	فلاديمير نابوكوف
٢٥	مرتفعات ويزرنج	إميلي برونتي
٢٦	الخطيئة الأولى	ألبرت مورافيا
٢٧	جين إير	شارلوت برونتي
٢٨	الدكتور جيفاجو	بوريس باسترناك
٢٩	المسبحة	فلورنس باركلي
٣٠	رجال ونساء	مكسيمو جوركي
٣١	حياة	جي دي موباسان
٣٢	ليالي بلزاك	أونوري دي بلزاك



"جان جاك روسو"

١٧١٢-١٧٧٨

ولد "جان جاك روسو" في سنة ١٧١٢ وهو نجل ساعاتي من "جنيف" كان في طفولته وشبابه مثالا للنشاط والتوثب، ولم يكد يبلغ السابعة والثلاثين من عمره حتى نشر كتابه "خطب في العلوم والفنون".

وأشهر مؤلفاته هي "رسالة في عدم المساواة"، و"العقد الاجتماعي"، و"هيلواز الجديدة"، و"الاعترافات".

وكان في نقده شديد القسوة على معاصريه، وكان من رسل الطبيعة الداعين إلى البساطة لأنه يرى أن الناس جديرون أن يحبوا- إذا تركوا التصنع - حياة وادعة سعيدة.

وقد كان "روسو" من أكبر الكتاب الثائرين الذين تفخر بهم

"فرنسا"، وقد وهبه الله خيالا رائعا وقلبا جياشا بأسمى الأحاسيس. وقد أبدع في وصف الطبيعة وروائعها أيضا إبداع فاعاد بذلك عهد "برناردن دي سان بيير" و"شاتو بريان" و"جورج ساند". وقد مات في سنة ١٧٧٨ عن عمر يناهز ٦٦ سنة.

الاعترافات:

وهي مجموعة قصص للسيرة الذاتية كتبت في الأعوام بين (١٧٦٤-١٧٧٠) ويحكي فيها الكاتب أحداث حياته ولم يكن "روسو" ينوي إضافة صفتي الكمال والحياة المثالية على هذه المجموعة من الكتب، وإنما كان يحكي جميع أحداث حياته ويعترف بكل أخطائه ومنها اتهامه الكاذب بالسرقة وهو طفل. وتحولت هذه المجموعة القصصية إلى مسرحية وكان الراوي هو الحاكم وكانت تنقسم إلى جزئين كل جزء يتضمن ١٠ كتب.

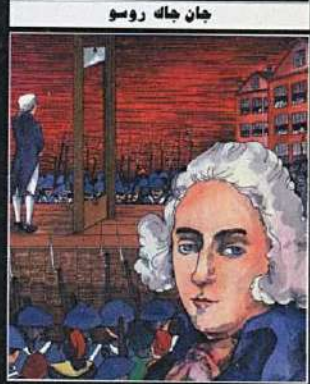
وكانت الاعترافات تحكي حياة الكاتب وروحه الحساسة وقال "روسو" عن كتابه الشهير "الاعترافات": لكي يعرفني قرائي جيدا يجب أن يعرفوا طفولتي وشبابي و"الاعترافات" مليئة بالانفعالات والأفكار المتتابعة التي تجعل القارئ يحكم جيدا على الكاتب ويعطيه الأسباب والأعذار ويشعر بتسلسل الأحداث.

وكتب "روسو" "الاعترافات" بطريقة تجعل القارئ يشعر بنبض الكاتب ومدى معاناته الصادقة في ميلاده وطفولته البائسة وحياته بجانب مدام "ورنش" والسنوات الباريسية ونجاحاته وصداقاته وتنقسم حياة "روسو" إلى فترتين: الفترة الأولى سعيدة وبريئة، والفترة الثانية حزينة وسوداء.

روائع الأدب العالمي

إعترافات جان جاك روسو

جان جاك روسو



ISBN 9953-443-29-7



9 789953 443294